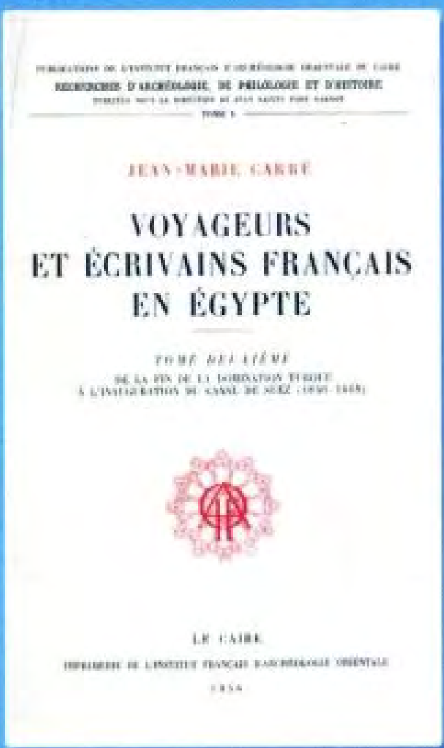
مختارات من كتاب
«رحالة وأدباء فرنسيون في مصر»


RECHERCHES D'ARCHÉOLOGIE, DE PHILOLOGIE ET D'HISTOIRE

JEAN-MARIE CARRÉ

VOYAGEURS
ET ÉCRIVAINS FRANÇAIS
EN ÉGYPTE

TOME DEUXIÈME

LE CAIRE

د. جون ماري كاريه

ترجمة

د. سونيا نجا

د. رشا صالح

من إصدارات دورة

«شوقي ولامارتين»

(باريس - أكتوبر ٢٠٠٦)

مختارات من كتاب

«رحالة وأدباء فرنسيون في مصر»

جون ماري كاريه

ترجمة

د. سونيا نجا

د. رشا صالح

تقديم

د. أحمد درويش

الكويت

2006

راجع هذا الكتاب ودققه وأشرف على طباعته

عبدالعزيز محمد جمعة

الصف والتنفيذ

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

تصميم الغلاف والإخراج الداخلي

محمد العلي

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

910.92 كاريه، جون ماري.

رحالة وأدباء فرنسيون في مصر: الجزء الأول، من بداية الهيمنة التركية وحتى نهايتها/ تأليف جون ماري كاريه ؛ ترجمة سونيا نجا ، الجزء الثاني: منذ نهاية الهيمنة التركية حتى افتتاح قناة السويس (1840 - 1869) ترجمة رشا صالح .- ط1. - الكويت: مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2006م.

800 ص؛ 17×24سم.

1. الرحالة - مصر 2. مصر - تاريخ - العصر الحديث. 3. الأدباء الفرنسيون

أ. العنوان ب. سونيا نجا/ رشا صالح (مترجم)

رقم الإيداع : **Depository Number: 2006 / 472**

ردمك: **ISBN : 99906 -72 - 42 - 3**

العنوان الأصلي للكتاب

Voyageurs Et Ecrivains Français En Egypte

منشورات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة

أبحاث في الآثار وفقه اللغة والتاريخ نشرت تحت إشراف چان سانت فارجارنو

القاهرة - مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية - ١٩٥٦

مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

هاتف: 2430514 **فاكس:** 2455039 (00965)

E-mail : kw@albabtainprize.org

التصديـــر...

إذا كان كتاب «رحالة وكتاب مصريون في فرنسا في القرن التاسع عشر» لمؤلفه أنور لوقا شاهدًا على فترة من فترات تلاقح الشرق والغرب، من خلال زيارة الشرق للغرب، فإنَّ كتاب «رحالة وأدباء فرنسيون في مصر» لمؤلفه جون ماري كاريه يحقق الغاية نفسها ولكن من خلال زيارة الغرب للشرق، فالكتابان وجهان لفكرة واحدة هي تكريس مفهوم الحوار الحضاري والثقافي بين الشرق والغرب. ولقد حظي هذا الكتاب الذي أقدّمه لقراء العربيّة بإعجاب الكثيرين، ونال جائزة الأكاديمية الفرنسية «جائزة جوبار الكبرى» تقديرًا لقيمته العلميّة وثرائه المعرفي. والكتاب يغطي الفترة الزمنية الممتدة بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، وقدّم صورة، بل رسم صورة حية لحياة المصريين من خلال رصد تلك الفترة بعيون رحالة وأدباء ومهندسين وخبراء زراعة ومعادن وسدود وإنشاءات وآثار وغير ذلك.

وقد جمع مؤلف الكتاب بين الأدب والتاريخ فجاء كتابه متوازنًا بالجمع بين إيقاعي الأدب والتاريخ لسبر أغوار الزمان عبر الأدب الفرنسي، ويحلق في فضاء المكان عبر تاريخ مصر بلغة ظلت تنبض بالحياة. وقد اقتفى المؤلف أثر هؤلاء الرحّالة وما دوّنوه بالقدر نفسه الذي جاب فيه مصر طولاً وعرضًا من «الدّلتا وسيناء حتى الشّلال الثاني» مرة بالسيارة، وأخرى على ظهور «البهائم»، وثالثة بالمراكب أو على الأقدام، وكان جمعه بين «النص المكتوب» الذي وفرته له المكتبات والجمعيات الأدبية المصرية و«النص المشاهد» من خلال الأسفار أو المتاحف معينًا ثرًّاً على بث الحياة في كتابه.

ويسعدني أن أتقدّم بجزيل الشكر لمترجمة الجزء الأول من هذا العمل الجاد الدكتورة سونيا نجا، ومترجمة الجزء الثاني الدكتورة رشا صالح، والشكر موصول للدكتور أحمد درويش الذي كتب المقدمة الضافية لهذا الكتاب، وأنوه بجهود الباحثين في الأمانة العامة لمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين الذين تولوا أعباء المراجعة والتدقيق والتصويب، فلهم جميعًا الشكر كفاء ما قدّموا.

والله من وراء القصد،،،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت

السادس من رمضان ١٤٢٧هـ

الموافق ٢٨ من سبتمبر ٢٠٠٦م

****

بين يدي الكتاب

مصر في عيون الرحالة والكتاب الفرنسيين

الحوار الذي يديره جون ماري كاريه بين الشرق والغرب في كتابه الرحالة والكتاب الفرنسيون في مصر، بجزئيه الكبيرين، يمثل في مادته، ومنهجه، وتنوع أطرافه، وتعدد وسائله، وامتداد فترته الزمنية، نموذجًا راقيًا لما يمكن أن يكون عليه «لتأليف» والتنسيق الفني لمادة ثرية، يشترك في إعدادها العلماء والمنقبون، والفلاسفة، والشعراء، والرحالة، ومؤلفو الروايات، وكاتبو المقالات من أبناء الغرب الذين يلتقون على أرض الشرق متعاصرين أو متعاقبين يطرحون الفروض، ويجربون المناهج، ويواجهون المشاكل، ويقطفون الثمرات، وتنطلق أحلام بعضهم إلي ذروة السماء، وتصطدم أحلام بعضهم الآخر بقسوة الواقع واختلاف التقاليد، ولكنهم في كل الحالات يجسدون نماذج بشرية حيَّة لتوليد الأفكار، ومحاولة اجتياز الصعوبات التي تعترضها، وطول النفس، وتراكم العمل الجماعي، جيلاً بعد جيل، والقدرة على التقاط الدقائق والمفارقات التي ترصدها عين الزائر الغريب، وقد تحجبها عن ابن الأرض المقيم ألفة التعدد ورتابة الحياة.

إنها ملحمة علمية دقيقة وأدبية جماعية، تمتد في مرحلتها الزمنية نحو ثلاثة قرون ونصف، تبدأ من دخول الأتراك العثمانيين إلى مصر سنة ١٥١٧م، وتمتد إلى مرحلة افتتاح قناة السويس سنة١٨٧٠م.

ولكنها تأخذ فقط من هذه المرحلة نقطة ارتكاز لتمتد منها إلى عمق الزمن؛ لتصل إلى أبعد ما يمكن الوصول إليه، ولتطمح القرون الثلاثة إلى تشرب القرون الثلاثين السابقة عليها، وهي بذلك تستجيب منهجياً إلى جانب من طبيعة المادة العلمية المدروسة، ما دامت آثار مصر القديمة تشكل جانبًا رئيسًا من ولع هؤلاء الغرباء العلماء والأدباء والفنانين والرحالة.

وهذا الامتداد السحيق إلى الوراء، كان بشكل من بعض جوانبه، محاولة لإنقاذ عالم ما بعد عصر النهضة من أجراس «لحداثة» التي كاد صخب صوتها يغطي على صوت التاريخ الهادئ العميق، الذي حاول أبناء عصر النهضة أن يستعيدوا سماع بعض نغماته على أرض مصر الهادئة.

لكن هذا الامتداد التاريخي الطويل إلى الوراء، لا يمنع نقطة الارتكاز التي اختارها المؤلف (١٥١٧ - ١٨٧٠) أن ترسل بإشعاعاتها إلى الأمام، وأن تصل هذه الإشعاعات إلى القرن الحادي والعشرين، وأن تكون مؤهلة لمواكبة حركة التاريخ المتسارعة الخطى فيه، والتي تتغير في بعض مراحلها، نظرة الغرب - أو جانب من صناع الرأي والقرار فيه - إلى الشرق منبع الحكمة وصاحب التجربة البشرية الطويلة، فيكون مجرد الإصغاء إلى مستوى لغة الحوار بين الشرق والغرب التي يعكسها هذا الكتاب دافعًا لرؤية جوانب أخرى من صورة يريد البعض أن يظهرها شديدة القتامة، وأن يقنعنا بحتمية أن تكون كذلك؛ لأنها كانت دائمًا على هذا النحو.

إن هذا التنوع الزماني الشاسع في الفترة التي ينطلق منها الكتاب، أو يعود إلى جذورها، أو يلقي بإشعاعاته نحوها، يوازيها تنوع في الموضوعات المثارة، لا يكاد المرء في البداية يتصور إمكانية تحققه وتصالح جزئياته على أرض واحدة، وبين دفتي كتاب واحد إلا من خلال براعة مؤلف في قامة جون ماري كاريه، فأفكار فلاسفة سان سيمون عن الإنسان المثال التي يبحثون عن تحقيقها على أرض مصر، وتحولات فلوبير بين الرومانسية والواقعية، وآراء رينان عن دور الحضارة المصرية في منظومة نظريته عن الشرق والغرب، وتأملات جيرار دي نرفال على حدود الرومانسية والصوفية والبحث عن تحقيقها على أرض مصر، ونظرية شامبليون عن فك شفرات اللغة الهيروغليفية تلتقي جميعها مع اهتمامات صفوة الرحالة والأدباء بمظاهر اجتماعية أخرى قد تبدو شديدة البعد عن هذه الاهتمامات مثل مصير الراقصة «كوتشوك هانم» التي نفاها الخديوي إلى إسنا وطرد معها «العوالم» من القاهرة، فأصبحت «إسنا» جزءًا من خريطة الرحلات الأجنبية، أو استعراضات عالم المخنثين، الذين ازدحمت بهم منتديات القاهرة ليسدوا فراغ رحيل

العوالم المنفيات، جنبًا إلى جنب مع فرق الدراويش وأصحاب الكرامات الذين يبهرون القادمين بعفويتهم حينًا وباحترافهم حينًا آخر، وبمشاركاتهم، إلى جانب آلاف الطوائف والفرق في زفة «كسوة» الكعبة الشريفة، عندما تنتجها مصانع مصر، وترسلها على ظهور الجمال إلى الأرض المقدسة يشيعها الأفراد ورؤساء الجند، وممثلو الطوائف بشاراتهم وراياتهم في مواكب مهيبة، لم تشهدها أوروبا منذ عصر الاحتشاد للحملات الصليبية في فترات ازدهارها الكبرى.

تجمعت هذه الخيوط كلها في يد الرحالة الباحث الجامعي، جون ماري كاريه، الذي انتدب للعمل في جامعة القاهرة سنة ١٩٢٩م، وكان في الثانية والأربعين من عمره يتميز بثقافته الواسعة، ورحلاته المتعددة، كان قد تأهل في دراساته الجامعية في حقول الفلسفة والأدب واهتم بالشاعر الفرنسي رامبو، فأصدر كتابًا عنه سنة ١٩٢٦م بعنوان «الحياة المغامرة لرامبو» ظل من أفضل ما كتب عنه، وتخصص في الأدب الألماني وأصدر كتابًا عن الشاعر الألماني «جوته في انجلترا» وآخر عن «الكتاب الفرنسي والسراب الألماني» ولم تدفعه فترات الصراع العنيف بين فرنسا وألمانيا إلى التوقف عن اهتماماته بالأدب الألماني وإعجابه به.

وعندما انتدب للتدريس في قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب - جامعة القاهرة، كان قادمًا لتوّه من كاليفورنيا في الولايات المتحدة، وعلى حد تعبيره، كان قادمًا من أحدث بلاد العالم إلى أقدمها، قد بدأ بالانشغال بقراءة ما كتبه الرحالة والأدباء الفرنسيون عن مصر ليزداد معرفة بها، لكنه وجدها فرصة يشغل بها طلاب اللغة الفرنسية من المصريين بما ينشغل به.

ورأى أن يكون موضوع محاضراته كما يقول: «أن يُحدِّث المصريين عن أنفسهم من خلال الكتاب الفرنسيين الذين رصدوا حياتهم ولاحظوها، ودرسوها وأفاضوا في وصفهم» واستمر في هذه التجربة الممتعة أربع سنوات قضاها في القاهرة، كان حصادها هذا الكتاب الذي ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٣٣م؛ ليحصل في نفس العام على جائزة الأكاديمية الفرنسية التي تحمل اسم جائزة جوبير الكبرى Le grand prix gobert

وجوبير هو البارون الفرنسي عاشق مصر الذي مات في القاهرة سنة ١٨٣٣، وخلدت الأكاديمية ذكراه.

ثم ليعيد المعهد الفرنسي للآثار الشرقية طبع الكتاب مرة ثانية سنة ١٩٥٦م، ومؤلفه على مشارف السبعين تسعده هذه اللفتة، لإعادة صدور كتابه بعد ثلاثة وثلاثين عامًا من صدور الطبعة الأولى ويكتب مقدمة ممتنة متواضعة لهذه الطبعة الثانية.

✡✡✡✡

يحاول المؤلف خلال معالجته للمادة المطروحة أمامه، التوفيق بين إيقاع عنصر الزمان، وإيقاع عنصر المكان، فجزء من مادته ينبع من التاريخ، وجزء آخر ينتمي إلى الجغرافيا، وخلال محاولة التقاء العنصرين تتشابك اللغات، فالذين يكتبون فرنسيون، والذين يكتب عنهم مصريون، مروا بدورهم بمراحل عديدة من طرائق التعبير، ظلت بعض شفراتها حبيسة، حتى حاول فك طلاسمها بعض عشاقها من الفرنسيين.

وهذا التشابك في ذاته يمثل أرضًا خصبة لدراسات الأدب المقارن عند المدرسة الفرنسية التي ظلت سيدة ميدان هذا الفرع من الدراسات حتى منتصف القرن العشرين.

لكن المؤلف لم يكتف بتوظيف فرع واحد من فروع المعرفة الإنسانية، وإنما أظهر براعة فائقة في مجال النقد الأدبي ومقاربة النصوص، دون أن يشرع أسلحته الواضحة، ولا أن يرهق القارئ المثقف العام بمصطلحات فنية متخصصة، ومن خلال هذا تجلى لديه فن عرض نصوص سابقيه، ومدى ما تقدمه من جدة على مستوى المحتوى أو الشكل، دون أن يعلن عن ذلك بوضوح.

ولا شك أن الذي ساعد المؤلف على ذلك، تمتعه بقدرات إبداعية إلى جانب قدراته العلمية، فموهبة الراوية الحكّاء عنده تخفف كثيرًا من خشونة العرض العلمي الجاف، وتسمح في الوقت ذاته بتمرير معلوماته الثرية في الجوانب التاريخية والنفسية والنقدية والأدبية.

ولقد اختلف إيقاع خطى المؤلف تبعًا لطبيعة المادة العلمية في الفترة التي يعالجها، ويتضح هذا جليّاً من توزيعه المادة على جزئين كبيرين شبه متساويين في الحجم، ولكنهما

شديدا التفاوت في الفترة الزمنية التي يعالجها كل منهما، فقد عالج الجزء الأول أكثر من ثلاثة قرون (١٥١٧ - ١٨٤٠) على حين اكتفى الجزء الثاني بنحو ثلاثة عقود (١٨٤٠ - ١٨٧٠).

ولم يكن مصادفة أن تكون فترة القرون الثلاثة مملوءة بالعلماء، وأن تكون فترة العقود الثلاثة مملوءة بالأدباء، وذلك كفيل بأن يقترب بنا من سر التفاوت في كم المعالجة هنا أو هناك على الإجمال، وإن كان لا يضع حدودًا فاصلة بين الطائفتين، فقد كان ديلسيبس كبير علماء قناة السويس من أكثر الناس بلاغة وسحر بيان.

أما لماذا يركز الإطار الزمني في هذه القرون الثلاثة من العلماء، وتلك العقود الثلاثة من الأدباء؟ فلأن سهولة الحركة المكثفة وإغراء الانتقال بين الشرق والغرب قد فتحت على مصاريعها بعد أن دخلت تركيا، وهي الدولة الأوروبية الآسيوية جغرافيّاً إلى مصر سنة ١٥١٧م، مما قرب المسافات وأزال الحواجز وزاد من المخاوف والتطلعات، وإذا كانت هذه مبررات لحظة البداية عند جون ماري كاريه فإنه يرى أن لحظة النهاية يحددها ازدياد وتيرة الرحلات الجماعية، بحيث يمكن القول أنه بعد سنة ١٨٧٠م لم يعد هنالك «رحالة» وإنما أصبح هنالك «رحلات» .

تتدرج المعلومات الواردة في الأبواب التمهيدية للكتاب منطلقة من الجهل المطلق بالشرق، والذي صنعته الروح الدينية للعصور الوسطى، وامتدت ظلاله حتى القرن السادس عشر ومطالع القرن السابع عشر.

ويعترف المؤلف في شجاعة بأن ذلك الجهل بالشرق ينطبق حتى على كتابات الأسماء التي عرفت طريقها إلى الشهرة مثل: ديكارت وباسكال حيث كانت صورة الشرق في كتاباتهم تتسم بالأحكام العامة القادمة من العصور الوسطى.

وكان على الأقلام الأوروبية أن تنتظر حتى منتصف القرن السابع عشر؛ حتى تتشكل صورة جديدة نسبياً عن الشرق وتتشكل من التماس المباشر أو شبه المباشر معه، وهي الصورة التي بدأت في التشكل في أعمال لدى كتاب أمثال موليير وفولتير، تتجسد

فيها صورة الشرق التركي أو الفارسي أو العربي على نحو مختلف، وهي نفس الفترة التي تنطلق فيها جهود رحالة على الأرض من أمثال جون دي تيفونو ودي ميليه وغيرهما. متحركة إلى مصر وبلاد الشام مرورًا بتركيا، يسجلون ملاحظاتهم على الواقع ويحاولون اكتشاف الماضي ويزودون ذاكرة الكتاب والأدباء برصيد من المعلومات تتلاشى أمامها شيئًا فشيئًا صورة الشرق في العصور الوسطى، وفي إطار تصحيح مخزون الذاكرة الغربية عن صورة الشرق سوف تبرز طائفة جديدة تستجيب لحاجة العصر في الاقتناع بالصورة البصرية التي تقربه من الواقع وتبتعد به عن تهويمات الخيال.

وتتمثل هذه الطائفة في «الرسامين» الذين ظهروا قبل اكتشاف التقاط الصورة الثابتة، ومن بعدها الصورة المتحركة عبر العقود والقرون التالية، وهذه الفئة قدمت نموذجًا إنسانيًا رفيعًا في صبر الإنسان الفنان ودقته خلال حرصه على أن ينقل ما يراه في الأرض البعيدة لجمهوره الذي ينتظره فيما وراء البحار، ويسجل كتاب جون ماري كاريه صفحات رائعة عن طريقة عمل هؤلاء الفنانين وهم يقفون في وهج الشمس الحارقة أمام معلم أو تمثال أو مشهد لليل أو للشمس في أطوارها المختلفة أو للصحراء في كائناتها المتعددة لكي يسجلوه في دقة تجعل الغائب يرى، والبعيد يقترب.

ولعل كتاب «وصف مصر» الذي سطره علماء ورسامون بالدرجة الأولى يبين مدى عظمة الجهد المبذول في هذا الميدان كما يتبدى في فترة لاحقة، وهناك رحالة يجمعون بين موهبة الرسم والكتابة من أمثال: فرومنتان وتيوفيل جوتييه، ولقد استطاع فرومنتان أن يستحوذ على إعجاب الناقد الكبير «سانت بيف» وأن يشاع عنه أنه رسم كل شيء على النيل وظلت لوحات «ماريلا» تجعل أعمدة مساجد القاهرة تنطق بالبهاء وقوافل الرحالة المجهدة تفيض بالإعياء.

ستظل الحملة الفرنسية لنابليون على مصر نقطة مهمة على طريق بروز دور المعرفة المنظمة كعامل أساسي في التمهيد للقوة ومؤازرتها من ناحية، وفي إطالة عمر الزمان والمكان من ناحية ثانية.

ويأتي دور رواد سابقين من العلماء من أمثال فولتيه وسافاري، ودور مدارس ومؤسسات استشراقية يبرز فيها الدور الريادي للبارون سلفستر دي ساس، وصوت مستكشفين يفكون الشفرات الصامتة وأشهرهم شامبليون، وصوت مؤسسات مخططة ومساعدة مثل لجنة الفنون والعلوم الخاصة بجيش الشرق، ومعهد مصر، ودور فريق العمل الجماعي من العلماء الذين كلفوا بمرافقة الحملة الفرنسية، وفي بعض الأحايين كان يتعثر جنود الحملة المهرولون في أدواتهم العلمية وأوراقهم وكتبهم التي يصر بونابرت على أن يحملوها معهم في غبار المعارك، ويضيق بهم الجنود أحيانًا، ويجهرون بأنه لا يبطئ من حركتهم إلا العلماء والحمير!

ومع ذلك فإن جهودهم في مجملها سمحت للكتل الحجرية الصماء أن تنطق فتحكي تاريخ عشرين قرنًا مضت وكأنما هم الذين أنقذوها من الصمت والعدم؛ فشاركوا في إحيائها واعتبروا أنفسهم مشاركين في صناعتها، وظل هذا الاعتقاد يغمر جزئيّاً الروح الفرنسية حتى الآن في ما يتصل بالتراث الفرعوني خاصة، ومن اللافت للنظر أن تتزامن بداية خطوات يقظة مصر الحديثة مع فتح نافذة في جدار الصمت للتاريخ العريق.

ومن خلال هذا التزاوج سوف ينشأ في بدايات القرن التاسع عشر جيل من الرحالة والباحثين الفرنسيين ممن يوزعون اهتماماتهم بين الماضي والحاضر عَيْنٌ هنا وعينٌ هناك، ولا يصبح الفصل حاداً بين عالم أثريات ومهتم بالحياة الحديثة، ويأتي على رأس هؤلاء شاتوبريان والكونت دي فوربان وتايلور وبريس دافين وجوزيف ميشو وغيرهم ممن صنعوا جسرًا واصلاً بين اهتمامات التراث العريق والحاضر المستيقظ من سباته العميق.

✲✲✲✲

كثير من عمالقة الأدباء والمفكرين الفرنسيين في القرن التاسع عشر تأثروا بمصر كما يعكس الكتاب كذلك، سواء من خلال استلهامها أو زيارتها أو الكتابة عنها، أو محاورة من كتب عنها، بل إن بعض النقاط الفاصلة في التحولات الأدبية الكبرى في ذلك العصر ولدت في مصر أو تحققت تجلياتها فيها.

ها هو شاتوبريان يزور مصر في عهد محمد علي، ويكتب عن طبيعتها الساحرة: «كان النيل يبدو كبحر صغير، وكانت رمال الصحراء متداخلة مع الخضرة اليانعة، أشجار النخيل والجميز، القباب والمساجد، ومآذن القاهرة، أهرامات سقارة البعيدة التي يبدو النيل وكأنه ينبع من خزاناتها الهائلة. كان كل هذا يشكل لوحة ليس لها مثيل على الأرض» وهو يتحمس في شدة للدفاع ضد الرأي الذي يقول إن جهود بناء الأهرامات والمقابر كانت جهودًا عقيمة لتخليد الذات وهي تنتهي عادة بالعثور على قبر فارغ يشكل أكبر دليل على العدم، هكذا كان يرى واحد مثل بوسويه، فيرد عليه شاتوبريان، بأن فكرة هزيمة الزمن بقبر وإجبار الأجيال والعادات والقوانين والعصور على الانهيار على حافة تابوت لا يمكن أن تصدر عن روح سوقية متدنية، وهو اعتداد بالنفس، وإذا كان هذا غرورًا فهو غرور عظيم.

وشاتوبريان هو الذي يرسم لنا لوحات أدبية وممتعة عن الشخصيات الفرنسية، التي استقرت في مصر ولبست ملابس شرقية، وحملت أسماء عربية وانغمست في تقاليد البلاد، ومن هؤلاء عبد الله التولوزي، الذي كان اسمه ديرو، وسليم الذي كان يسمى كومب، وإسماعيل رشوان واسمه الحقيقي بيير جاري، وسليمان باشا الفرنساوي، وغيرهم من كبار رجال الدولة في عهد محمد علي.

لقد كان شاتوبريان شديد الإعجاب بالطبيعة المصرية وقد رسم لها لوحات متعددة لعل من أكثرها تعبيرًا عن شدة إعجابه تلك اللوحة التي ضمها كتابه «الرحلة من باريس إلى القدس» عندما زار جزيرة الروضة في الجيزة، وكتب يقول: «كنا بهذه الطريقة قد اقتربنا جداً من الأهرامات من هذه المسافة كانت تبدو على ارتفاع هائل من خلال حقول الأرز الخضراء، ومجرى النهر، وقمم أشجار النخيل والجميز، كان ضوء الشمس الرقيق يلون سلسلة مرتفعات المقطم والرمال وأفق سقارة، وسهل القبور ، كانت هناك نسمة منعشة تطارد قطع السحاب، وتدفعها في اتجاه النوبة مجعدة في طريقها صفحة النيل، بدت لي مصر أجمل بلاد الأرض، أحببت حتى الصحارى التي تحدها، والتي تفتح للخيال آفاقًا لا نهائية».

إن جون ماري كاريه يقدم كثيرًا من الإرشادات إلى عمق تأثير مصر في معظم كتابات شاتوبريان مما يصلح في ذاته؛ لأن يكون درسًا مفصلاً في الأدب المقارن.

ولم تلهم الطبيعة المصرية الجميلة هذه اللوحات الأوربية الرائعة أقلام كبار أدباء القرن التاسع عشر في فرنسا من أمثال شاتوبريان فقط، بل إنها ألهمت أيضًا الرحالة المثقفين من خارج مجال احتراف الأدب الذين يلفت النظر رفعة تكوين مستواهم الثقافي، بالقياس إلى ما نعهده اليوم لدى «المثقف العام» في الشرق على الأقل، فها هو الدبلوماسي الشاب مارسيلوس يزور مصر سنة ١٨٢٠ م، ويكتب عنها في كتابه «ذكريات من الشرق».

وفي واحدة من لوحاته يصور روعة الإبحار ليلاً على شاطئ النيل في مركب شراعي، جاء فيها: «كانت الشمس قد غربت تاركة بعض اللمسات الليلية على قمم أشجار النخيل، بدأت رحلتي فوق صفحة مياه النيل مع الغسق، كان الليل رائعًا، رأيته حتى نهايته من فوق متن القارب، كنت أحيانًا أميل رأسي إلى الخلف، باحثًا في السماء عن تلك النجوم التي أعرفها، وتبحث عنها عيناي؛ منذ كنت طفلاً فوق سطح بيت أبي، وأحيانًا أخرى تشدني إلى الأرض رقرقة المياه التي تشقها مقدمة القارب، أو تطيح بها فوق الحصى، كنت أعب عباً من أنفاس الشط العبقة.

كانت النسمة اللطيفة التي أعقبت النهار قد توقفت عند منتصف الليل، واضطررنا إلى طي الشراع والتقدم بالمجاديف، ونما إلى سمعي غناء، صدح به اثنان من العرب المرافقين لي : ثلاث نغمات، تلاعب صوتهما عليها صعودًا وهبوطًا، وغناء حزين على إيقاع حركتهما في التجديف، كان غناء متناغمًا ومتناسقًا له طابع يلائم الإبحار أكثر من كل ما يشدو به بحارتنا، كان صوتاهما يهتزان فوق الموجات الصامتة ولكنهما لا يترددان بعيدًا، فهذه الشواطئ الرملية المنبسطة لا أصداء فيها».

✡✡✡✡

ولا تقل الصفحات المكتوبة هنا عن شامبليون دلالة على كثير من القيم الثقافية والأخلاقية والاجتماعية بدرجاتها المختلفة للقرن التاسع عشر وفتوة وطموح المعرفة فيه، وموقع العلماء من خريطة الحياة السياسية والاجتماعية، وأهمية الشرق في منظور كتاب ومفكري وعلماء الغرب.

لقد تفتقت عبقرية شامبليون الجامحة في وقت مبكر، جعلت عالم الرياضيات فوربيه يصفه بأنه «مهرجامح نهم يطلب من الزاد ثلاثة أضعاف ما يقدم لنظرائه» .

كانت فكرته العلمية التي غيرت تاريخ مصر الفرعونية كاملاً قد بدأت خطواتها الأولى وهو في السابعة عشرة من عمره حين كتب دراسة عن الجغرافيا القبطية في مصر، وبلغت كمال نضجها وهو في الثانية والثلاثين في خطاب أرسله إلى البروفيسور داسيه يعلن فيه توصله إلى فك كامل لشفرة اللغة الهيروغليفية، وكان العصر عصر اهتمام بلغ ذروته بآثار مصر وتاريخها، حتى إن المكتشف بلزوني يقيم نماذج بالحجم الطبيعي لبعض آثار الكرنك في أكبر شوارع باريس، ويكلفه ذلك سبعة وعشرين شهرًا كاملة لبناء هذه النماذج، ويتزامن ذلك مع نضج نظرية شامبليون الذي لم يكن قد زار مصر، وكأن الآثار أتت إليه لكي تؤازره.

وفي الوقت الذي ينبهر فيه الفرنسيون بمعرض بلزوني، ويرفعون قبعاتهم تحية لعبقرية شامبليون، يثور كبار العلماء الذين ارتبطت شهرتهم بعلاقتهم بمصر الحديثة أو القديمة، في وجه ذلك الشاب الطموح ويجمعهم الحسد ضده؛ لكي يسفهوا من أفكاره، وعلى رأسهم جومار الذي كان مستشار محمد علي، والمشرف على البعثة المصرية الأولى التي كانت تضم بين أعضائها رفاعة الطهطاوي، ونجح حسد العلماء في الحيلولة دون قبول شامبليون عضوًا بالأكاديمية، التي فضلت عليه مرشحًا مغمورًا.

وعندما طمح شامبليون إلى أن يطلق على نفسه لقبًا فخريًا هو «شامبليون المصري» سارع جومار فأطلق على نفسه لقب «جومار المصري بجدارة» .l,Egyptien par excellence

ولنتأمل كيف كان لقب الانتماء إلى الشرق فخرًا يتنافس للحصول عليه كبار العلماء، دون أن نقارن ذلك بالضرورة بما آل إليه الحال في عصرنا؛ حين أصبح مجرد التعاطف معنا تهمة يداريها الأصدقاء، وعلى كل حال فلم يصح في النهاية إلا الصحيح، واكتسب شامبليون مكانته الكبرى بعد أن ترسخت فكرته.

وقد جاء ليراجعها على الطبيعة ومر بكل آثار مصر، وكتب إلى أستاذه في تواضع وثقة: «أنا فخور الآن بأن أخبرك أنني بعد أن قطعت النيل من مصبه إلى الشلال الثاني، لا

أجد ما أعدله في خطابنا عن الحروف الهيروغليفية، أبجديتنا صحيحة، وتطبق بنجاح أولاً على الآثار المصرية في الحقبة الرومانية، وحقبة البطالمة، وثانيًا وهو الأهم على نقوش كل المعابد والقصور والقبور في كل العصور الفرعونية، كنت إذن محقاً في تشجيعك لأعمالي في مجال الهيروغليفية في وقت لم يكن فيه لدى أحد استعداد للتحمس لها» .

إن مذكرات شامبليون التي ترد فقرات كثيرة منها في هذا الكتاب القيم، تبين إلى أي حد يتحلى كبار الباحثين والمكتشفين بكثير من فضائل الصبر والتحمل ودقة التخطيط، واتساع الأفق، واكتمال الثقافة، وذلك وحده درس هام في تاريخ علاقة الشرق بالغرب، من خلال ما يقدمه لنا جون ماري كاريه.

ولا تقل عنها أهمية ودلالة، وإن اختلفت الزوايا، محاولات أتباع سان سيمون لإصلاح روح العالم من خلال أرض مصر، كان سان سيمون نفسه قد بشر بأفكاره التي شكلت رد فعل على شدة نزوع العالم إلى المادية في أوج التطور الصناعي في القرن التاسع عشر، وكانت فلسفته تبحث عن قوانين تفسر الكون بشكل متناغم، وقد مات سنة ١٨٢٥ م شبه معدم ومحبط، ولكن أتباعه من صفوة المثقفين تبنوا مقوله نابليون: «عن طريق مصر يمكن لشعوب وسط إفريقيا أن تلقى النور والسعادة، وشكلوا فريقًا منهم ذهبوا إلى مصر سنة ١٨٣٣ م، وقد تبنوا فكرة حفر قناة السويس باعتبارها معبرًا يصل الشرق والغرب بعيدًا عن أطماع التجاريين، ومخططات السياسيين وكانوا يعبرون عن هذا في قصائدهم.

سنضع إذًا قدمًا على النيل والأخرى على القدس

ستمتد يدنا اليمنى إلى مكة وتغطي ذارعنا اليسرى روما

وترتكز على باريس

السويس هي مركز ومحور عملنا

هناك سنفعل ما ينتظره العالم لنعترف أننا ذكور»

وقد شاعت فكرتهم في كتابات كبار أدباء العصر مثل: ألفريد دي فيني، وسانت بيف، ولامارتين، والكونت دي ليل، ومكسيم دي كوم، وغيرهم من الأدباء، وجاؤوا إلى

مصر بأزيائهم الغريبة وأناشيدهم المميزة ودعوتهم التي تكاد تشكل طقوسًا واعتقادات يدعون لها الناس، ولكنهم فوجئوا بعدم تحمس محمد علي لأفكارهم حول قناة السويس، وتفضيله للبدء بإقامة سد في الدلتا؛ فقرروا المساهمة معه في بنائه في انتظار الفرصة المناسبة للمشروع الأصلي، الذي كان المهندس الشاب ديلسبس يفكر فيه بأناة، وحاولوا نشر أفكارهم الروحية بين الناس، ولكن فريقًا من قادتهم انتهى إلى اعتناق الإسلام، مثل: أوربان وماشورروه مما دعا محمد علي إلى القول: «غريب هذا الأمر حضر السان سيمونيون لصرف المسلمين عن دينهم، وها هم يعتنقون الإسلام» .

وقد أصبح ماشورروه يدعى محمد أفندي، وتزوج من سيدة عربية أنجب منها: هانم وزهرة وحميدة وأسماء، وكان هذا في ذاته رمزًا على امتزاج الشرق والغرب في نهاية المطاف.

وقد أورد جون ماري كاريه قائمة بأسماء خمس وخمسين شخصية من صفوة المثقفين السان سيمونيين الفرنسيين الذين استقروا في مصر، وساهموا فيما ساهموا على نشر التعليم الفني واللغة الفرنسية في المدارس المصرية.

✡✡✡✡

إذا كانت القرون الثلاثة التي غطتها صفحات الجزء الأول من كتاب جون ماري كاريه قد تميزت بامتزاج علماء الآثار والمصريات والمؤرخين والفلاسفة والأدباء والدبلوماسيين، والرحالة العاديين فإن فترة القرون الثلاثة التي تكفل الجزء الثاني بتغطيتها اتسمت بطابع أدبي واضح، كانت الحركة الرومانتيكية قد ازدهرت في فرنسا في النصف الأول من القرن العشرين، وكان الاغتراب الزماني والمكاني واحدًا من ملامحها المميزة وكان الحنين إلى الشرق والارتحال إليه بالخيال أو بالواقع مظهرًا من مظاهر هذا الاغتراب، وكانت مصر مجالاً ملائمًا يتجلى فيه هذان اللونان من الاغتراب، ومن هنا احتلت مصر مكانها في الأدب الرومانسي الفرنسي ووفد إليها كبار المبدعين في القرن التاسع عشر، وشهد العقد الخامس من ذلك القرن ما بين عامي (١٨٤٠-١٨٥٠) رحلات لكبار المبدعين إلى مصر من أمثال جيرار دي نرڤال، مارميه، وفلوبير، ومكسيم دي كوم،

وجان جاك أمبير، وأضيفت كتابتهم إلى كتابات فكتور هيجو، لكي ترسم صورة مصر وتأثيرها في الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر.

كان جيرار دي نرڤال (١٨٠٨-١٨٥٥) بعمره القصير الذي مر كالشهاب، وموهبته المتألقة، واضطرابه الذي يصل إلى حد الجنون كان علامة بارزة من علامات انبهار الغرب الفرنسي بالشرق المصري في القرن التاسع عشر.

كان قد بدأ تألقه في فترة مبكرة عندما ترجم جوته وهو في العشرين من عمره، وكان شخصية غريبة متقلبة، يهيم على وجهه أحيانًا في شوارع باريس، وهو يثبت عينيه على نجمة في السماء يتبع خطاها، ويصطدم بالمارة، ويثير دهشة رجال الشرطة، ويعيش حياة الفقراء على مورد ضئيل عندما أضيف إليه ميراث كان يمكن أن ينقله إلى حياة أكثر سهولة ويسرًا أنفقه على باعة الكتب القديمة التي كان يعشقها، وعلى باعة الورود والهدايا يقدمها لحسناوات عصره من الممثلات، وقد أعجب بالكثيرات منهن متزامنات أو متتابعات دون أن يخرج بطائل من وراء هداياه.

وأخيرًا وصل تشرده وهذيانه به في الثلاثين من عمره إلى مرحلة الجنون، وأودع مصحة نفسية مدة عام، وخرج وقد تعافى لكنه ظل يعتقد بأن «الحلم عباءة تنسجها ربات السحر، وهي تشيع برائحة لذيذة» وتركز حلمه في بعض مراحله على قاهرة ألف ليلة وليلة، وكتب يقول: «إن قاهرتي القديمة التي كنت أراها في أحلامي تشبهني وتشبهك أيضًا، هنالك كنت أعيش، ولا أدري في أي زمان، أفي زمان السلطان بيبرس أم في زمان الخليفة الحاكم بأمر الله؟» .

وقرر نرڤال أن يتخذ من الارتحال وسيلة لمزج الحلم بالواقع وللاستشفاء والبعد عما يذكره بأزمة الداء، وسافر إلى النمسا وإيطاليا وتركيا ولبنان ومصر، وكتب كتابه «الرحلة إلى الشرق»، الذي وضعه في مصاف كبار كتاب النثر في القرن التاسع عشر.

وصل إلى القاهرة في يناير سنة ١٨٤٣ م وكان يقصر اهتمامه على مصر الحديثة، وقضى بالقاهرة ثلاثة أشهر، كتب خلالها عن الفسطاط، وعين شمس، والجيزة، وشبرا،

والأهرامات، واحتفالات عيد الفصح، والمولد النبوي، وعودة الحجاج، وأسواق الرقيق، وعالم الحريم، وتجمعات الفرنسيين في مصر، والراقصات العوالم، والمخنثين، والحواة، والمتصوفة، والمشعوذين، وأصحاب الألعاب، والحيل الشعبية.

وكان شديد الاختلاط بالعامة في القاهرة، يعتبرونه، في مشيته المضطربة وهيئته الرثة، أحد المجذوبين، ويتلمس فيه العامة أحيانًا جانبًا من البركات عندما يرونه يأكل مع أهل الطريق، وينام في الخانات العامة والمساجد، وفي خلال ذلك كله يرسم مشاهداته في صفحات نثرية رائعة، يمتزج فيها الخيال بالواقع، وينغمس خلالها في صفوف العامة أكثر من انغماسه في حفلات الدبلوماسيين، كما كان يصنع كل رحالة عصره الكبار.

وكان مولعًا بسهرات المقاهي في القاهرة على امتداد شاطئ فم الخليج عندما يعم الظلام القاهرة، ولا يخرج أحد إلا ومعه مصباح يومض ضوؤه المتراقص في حلقات الأشباح الليلية، وفجأة يبدد هذا كله بموكب عرس صاخب تغمره الأضواء والموسيقى والضجيج، ثم لا يلبث أن يختفي في الظلام الذي يحيط به على حين تسجله ريشة الكاتب والشاعر والصحفي جيرار دي نرڤال.

يرى نرڤال قاهرته التي شكلها في الحلم تتجسد في الواقع ويمتد لديه هذان العنصران المتباعدان اللذان كانت صعوبة الجمع بين أطرافهما في باريس قد قادته إلى حافة الجنون ويحس أنه من خلال هذا الاتحاد يعرف طريقه إلى الشفاء الحقيقي، ويتحول الجنون إلى القمة التي تلامسه، ولا تفترق عنه إلا أصابع قليلة وهي «العبقرية» ، ويستمر في الغوص في الحلم الواقع إلى مداه.

وبعد أيام قليلة قضاها في فندق دومرج الفرنسي على مقربة من شارع الموسكي، فضل أن يعيش حياة أهل المدينة، لا حياة السائحين؛ فاستأجر بيتًا في الحي القبطي على مشارف شبرا هو وأحد أصدقائه، ولكنه لم يكد يستقر ويسعد بالحياة داخل منزل مصري عادي، حتى طرق عليه الباب صاحب البيت معلنًا أن التقاليد لا تسمح بحياة الأعزب وسط الأسر المتزوجة، وأن عليه أن يظهر حسن نيته في أن يتزوج أو يذهب إلى سوق الرقيق لشراء جارية، وفضل الطريق الأول، وجاءه السماسرة بفتيات صغيرات من أسر قبطية كانت مدربة على حل هذه المشاكل التي يتعرض لها الأجانب.

وعندما جاء الحديث عن «المهر» وارتفاعه رحب دي نرڤال ظنًا منه أن العريس هو الذي سيأخذ المهر على الطريقة الفرنسية، ولكنه عندما علم أنه هو الذي سيدفع تردد خاصة أمام عدم اقتناعه بالنماذج المعروضة عليه.

وبدأ يشق الطريق الثاني، قاده السماسرة إلى سوق الجواري، وقد وصف لنا بدقة على صفحات الكتاب طريقة عرض النخاسين للإماء على الزبائن، وكشف الأسنان، والمطالبة بدوران الجسد، وجس الأعضاء اللينة، وقد مر بدرجات الجواري بألوانهن المختلفة، وشدته في النهاية ملامح جارية أندونيسية من «جاوة» اسمها زينب، اشتراها واصطحبها إلى البيت، وأحبها وعلمها الفرنسية، وتعلم من أجلها العربية، وكاد ينقطع لها شهورًا عدة أصبحت فيها بطلة كتاباته وحياته لفترة من الزمن.

وخلال حياته في القاهرة يتعمق في كل شيء ويصف كل شيء، ويتميز على الرحالة والأدباء الآخرين بشدة اختلاطه بالعامة، كما يصفه مكسيم دي كوم: «كانت مشيته غير المتماسكة قد خلعت عليه لونًا من البركة عند العامة، الذين كانوا يحملون قدرًا كبيرًا من الاحترام للمعتوهين والمجاذيب، وقد استغل هو هذه المكانة؛ لكي يختلط بهم إلى أبعد مدى يستطيع الوصول إليه، فكان ينام في خانات العامة مقابل بضعة دراهم تسمح له بقضاء الليل، وكان يأكل في الأسواق العامة؛ حيث يشتري من الباعة المتجولين البطيخ والقثاء وأقراص حلوى السمسم» .

وكان في الوقت نفسه موضع ترحيب من القناصلة الفرنسيين وكبار الشخصيات الفرنسية في مصر، ولكنه كان يفضل عليهم غالبًا تجار العطور المتجولين وأصحاب محلات الشواء.

ومن خلال حياة القاهرة التي انغمس فيها نرڤال، جاءت لوحاته النثرية الشهيرة في الأدب الرومانسي؛ ومنها لوحة «رقصة العوالم» التي وصف فيها طقوس حلقة الرقص من الدخان المتصاعد، والصاجات الرنانة، وألوان القلنسوات البراقة، واهتزازات الأذرع، وحركة الأوراك المخملية، وكحل العيون، وتوهج الوجنات للراقصات الثلاث وجمالهن الأخاذ.

لكن نرفال ما يلبث أن يفاجئنا بأن حركة الرقص عندما هدأت في نهاية الحفل بعد أن بلغت ذروتها وأهاجت المشاهدين لها لم يلبث هو أن لاحظ بعض الملامح «الرجولية» على إحدى الراقصات، وعندما دقق النظر اكتشف أنهن جميعًا «من الذكور» .

لكن نرفال كان شديد التأثر بالمشاهد الإسلامية والتعاطف معها، وكان دائم التنبيه إلى ضرورة التفريق بين فظاظة الأتراك وسماحة الإسلام، وكان كثير الدفاع عن التهم التي توجه للإسلام في الغرب، ومن أمتع المشاهد التي وصفها نرفال في كتاباته مشهد «عودة قوافل الحجيج» واستقبالها على مشارف القاهرة بالدفوف والنايات والرايات للجنود وطوائف المتصوفة وجموع الشعب.

وعندما يشاهد نرفال الموكب خارج باب الفتوح يكتب في وصفه: «كان الموكب أمة تمشي وتذوب في شعب هائل، يزينه من اليمين نتوءات جبل المقطم، ومن اليسار آلاف الشواهد والقباب في مدينة الموتى، وكانت قمم أسوار وأبراج قلعة صلاح الدين تزدان بالأعلام الصفراء والحمراء، وتعج بالمشاهدين، وبدا لي أن الزمن يزحف إلى الوراء، وأنني أعيش مشهدًا في عصر الحروب الصليبية، وجماعات من حرس الوالي تشق طريقها بين الجموع بدروعها اللامعة وخوذات فرسانها تكمل في مخيلتي الصورة التي تراءت لي، وأبعد قليلاً من موقعنا نستطيع أن نرى آلاف الخيام المزينة التي أعدت ليتوقف فيها الحجيج للراحة، ولا ينقص مشهد الاحتفال جموع الراقصين والمغنين» .... إلخ.

هذه اللوحة التي ينقل جون ماري كاريه تفاصيلها خلال حديثه عن نرفال.

ولم يكن وصفه أقل جمالاً لروعة صوت المغني الشعبي المصري، وهو يردد «الموال» في ليل القاهرة الجميل: «حل علينا المساء، وقرص الشمس يتوارى شيئًا فشيئًا وراء الخط الهادئ للجبال، وفجأة تتحول الطبيعة من الظلال التي يغلفها الشفق إلى الظلمة الداكنة لليل.

وصوت الناي والربابة، يصاحبه ذلك الموال المصري الشهير «يا ليل» وصوت آخر للإجابة على الصوت الأول «يا ليل الفرح» .

إنهم يتغنون بسعادة الأصدقاء الذين يجتمعون، ويتغنون بالحب والمتعة، والمشاعل الإلهية التي تنبعث متآلفة من النور الخالص الذي لا يوجد إلا في السماء، ويتغنون بأحمد المصطفى سيد المرسلين، وبأصوات طفولية، تردد الجماعة لوازم الموال ، التي تعكس الحنين للمشاعر العذبة التي تذكر بصلوات الرهبان الليلية لله» .

✡✡✡✡

في تاريخ الرحالة والكتاب والأدباء والعلماء الفرنسيين إلى مصر، يظل جان جاك أمبير (١٨٠٠-١٨٤٦م) هو عالم الأدباء وأديب العلماء، كما كان يطلق عليه بعض معاصريه كان أكاديميّاً متألقًا في الكوليج دي فرانس، يتمتع بقدر كبير من الحيوية والذكاء، ونهم إلي تعلم اللغات التي أتقن منها الصينية والعربية والهيروغليفية، وكان يتمتع بموهبة تبسيط المعرفة ونقلها إلى أوسع دائرة من المثقفين والقراء، بدلاً من إبقائها قضايا متداولة بين المتخصصين وحدهم، ومن هذا المنطلق قام بمتابعة ومراجعة وتثبيت نظرية شامبليون حول الحروف الهيروغليفية، واكتسبت النظرية بسبب جهوده شهرة واسعة وانتقلت المعرفة بها إلى مختلف الأوساط المعرفية.

كان تكوين جان جاك أمبير الثقافي يتسم بالموسوعية والشمول، فمع أنه مهتم بالدرجة الأولى، بما يمكن أن يسمى بقاهرة شامبليون الفرعونية، فإنه كان يملك من اتساع النظرة ما يساعده على وضع هدفه المحدد في الإطار المعرفي العام، وكان يقول: «إن مصر التي أنقذت كل ذكريات الماضي العظيمة ما زال حاضرها ومستقبلها يثير الاهتمام... هل هناك بلد آخر في العالم يمتزج بأجزاء من تواريخ البلاد الأخرى، ويختلط بها أكثر من مصر؟

فالتوراة وهوميروس والفلسفة والعلوم واليونان وروما والمسيحية والإسلام والحروب الصليبية والثورة الفرنسية كلها تقريبًا، وما وقع في العالم من أحداث جسام تلتقي في الطريق الذي يعبر هذا القطر التاريخي» .

وهذه النظرة الشاملة هي التي كانت تشد أمبير إلى ملاحقة كل جوانب النهضة على اتساعها، يحاول أن يرصدها وأن يصفها ويفك شفراتها ويحللها ويطلب من الرسامين

المرافقين له قبل عصر التصوير أن يرسموا له صورة دقيقة لكل معلم يمر به، ويدون في دفاتره كل نص هيروغليفي يراجعه على نظرية شامبليون؛ ليتثبت ويُثَبت، وكان في هذا يرسم الوجه المقابل لنظيره جيرار دي نرڤال الباحث عن الأحلام.

كان أمبير يحاول التغلغل وراء الظواهر الحية من خلال طرح الأسئلة وإثارة المناقشات، وقد حدث له موقف طريف خلال زيارته لمدرسة الترجمة التي كان يرأسها الشيخ رفاعة الطهطاوي، ويتعلم فيها التلاميذ المصريون اللغات الأجنبية؛ فقد طلب من تلميذ أسمر من أبناء الأقصر أن يقرأ فقرة من كتاب أمامه لجان جاك روسو حول: «نهم الإنسان الشره للتنقيب في أحشاء الأرض؛ بحثًا عن الثروة، بينما توجد كل الخيرات فوق سطح الأرض».

وقد حاول أمبير أن يناقش التلميذ في رأيه حول هذه الفكرة، التي تنتمي إلى مفهوم المحافظة على الطبيعة عند روسو، وارتبك التلميذ واعترته الدهشة، وحاول أمبير أن يخفف عنه وأن يساعده قائلاً: «هل تعتقد أنه من الجرم أن نطلب من أحشاء الأرض أن تخبرنا عن محتوياتها؟».

وران الصمت طويلاً ثم نطق التلميذ بكلمة واحدة في الإجابة هي: «استعارة مكنية» كاشفًا عن فجوة عميقة لدى التلاميذ الشرقيين، بين ما يقرؤونه وبين طريقة التفكير فيه، لكن هذا العالم الباحث المدقق عندما يخلو إلى نفسه بالقرب من النيل تتدفق منه الشاعرية ويكتب: «عندما يتوارى النجم في الغرب تتخضب السماء بلون زعفراني كلون الفجر في ملحمة هوميروس، ويكاد الضوء ينبلج من الشمال ومن الجنوب معًا، وتتشرب قبة السماء الزرقاء بخضرة زنبقيات الشرق، ولا يغلب سواد الليل على أية بقعة، وعندما اقتربنا من النيل، تبادر منه إلى أسماعنا ما يشبه صخب البحر أو هدير شلال بعيد، واختلطت مع اهتزازات سعف النخيل، تدفعها الرياح، سحب من الطيور المائية، تحلق فوق النيل، تتماوج وتتلاحم وتتنافر، رائحات غاديات كأنهن أمواج في دوامة كبرى في النهر، يحاكي بياضها بياض الزبد على صفحة الماء وكأنها صخور متحركة تنكسر عليها الأمواج» .

ولكن شدة حماس ذلك العالم الشاعر استنفدت حياته سريعًا؛ فقد أجهد نفسه في رحلات مصر العليا، وغامر في مقابر تل العمارنه وبني حسن رغم إصابته بالدوسنتاريا، حتى إنه كان يصر على أن يكمل زياراته وتأملاته محمولاً على ظهر حمار، ومحاطًا بالأربطة الطبية.

وانتهى به المطاف إلى أن يغادر مصر محمولاً على محفة طبية، وأن ينزل إلى الشاطئ الفرنسي شبه محتضر، وأن يغادر الحياة وهو في السادسة والأربعين بعد أن جسد جانبًا كبيرًا من هذا الولع والشوق والمعرفة والعلم والبحث عن المزيد من الاتصال بين الغرب والشرق.

*****

لم يتوقف الإعجاب والانبهار الفرنسي بمصر عند معالم الطبيعة وآثار الماضي، وإنما تعداه إلى الإعجاب بكائنات طبيعية قد تمر عليها أعيننا محملة بالتجاهل أو بالازدراء، ومن بين هذه الكائنات حيوان توقف أمامه كثير من الرحالة بالإعجاب، ورأوا فيه مظهرًا من مظاهر جمال الشرق واختلافه.

على حين أن أبناء هذا الشرق يرون في هذا الحيوان ذاته رمزًا من رموز الغباء والمذلة، أعني به حيوان «الحمار» الذي تغزل في جماله كثير من الرحالة الفرنسيين، ومن بينهم الرحالة زافيه مارميه (١٨٠٩-١٨٩٢) الذي كان أمينًا لواحدة من أعرق المكتبات في العاصمة الفرنسية، وهي مكتبة سان جنفياف.

وقد زار مصر في نفس الفترة التي زارها فيها جان جاك أمبير، وكتب مقارنًا بين «الحمار» المهمل الذليل في الغرب، و«الحمار» الجميل المهيب في مصر، قائلاً: «إننا لا نتصور عندما تطالعنا كلمة حمار هذا البائس المسكين من ذوات الأربع في أوربا تهينه التهكمات والسخريات، يستعبد في القيام بالأعمال الخشنة، ملطخ بغبار الطحين، يضربه الطحان، ويشد وثاقه بغلظة، إلى محراث فلاح أو عربة بستاني.

وفي هذا الجو الحزين، فإنه لا يتوقع حتى الرحمة، ولا يجد على طريقه إلا سخرية الأطفال ثمنًا لصبره، ومن لم يرَ منا حمار الشرق، لم يعرف واحدًا من أجمل الحيوانات وأفضلها خلقًا.

ففي الشرق نجد الحمار يتمتع بالحيوية وبالخفة، رشيقًا ومدللاً، يحرص على رفع رأسه عاليًا، وأن تكون أذنه مستقيمة مثل كائن ذكي لديه إحساس بقيمته، يعالج بعناية فائقة، حليق الشعر ممشطًا يشبه قطعة من القطيفة.

تلمع سنابكه السوداء مثل الأبنوس، يكتسي بسرج مزين بالودع وحاشية من الحرير، وبردعة مطاطية رخوة، تماثل مقعدًا وثيرا مغطى بالجوخ، أو بجلد الماعز، وأحيانًا مشغولاً بتطريز مذهب» .

وهذه اللوحة الجميلة فوق أنها تصلح منطلقًا لدراسة صورة الحمار في الأدبين العربي والفرنسي، وهي صورة تمتد من أقدم العصور، وتصل إلى «حمار الحكيم» وما بعده، فإنها تشف عن هذه القدرة التصورية الفائقة في النثر، والتي تعرف بفن رسم «البورتريه» والتي كان مارميه أحد فرسانها البارزين ويستغلها في وصف صورة لمحمد علي أثناء لقائه به:

«كان متدثرًا في قفطان واسع من الفرو، يجلس في نصف استرخاء، في ركن من أريكته، ويمسك في يده غليونه التركي، وفق سلوكه التقليدي، بينما كان خادم يروّح للوالي بسعف النخيل» .

✡✡✡✡

لا شك أن اسم فلوبير سيظل من بين أكثر الأسماء تألقًا في تاريخ الرحالة والكتاب الفرنسيين في مصر، بل وستظل المرحلة الهامة التي رادها في تاريخ الأدب الفرنسي والعالمي، بالانتقال من الرومانسية إلى الواقعية مدينة لوجوده في مصر ولرحلته إليها وتجربته فيها.

كان فلوبير قد بدأ حياته سنة ١٨٢١م في ظل الهيمنة الأدبية لعمالقة الرومانتيكية وعلى رأسهم فيكتور هيجو على خيال العصر وإبداعاته وتشكيل نزعته في الهروب من الواقع إلى الماضي البعيد زمانًا أو إلى الشرق البعيد مكانًا، ولعل هذا قد أثر عليه وهو تلميذ في مقعد الدرس ظل في المستوى دون المتوسط، لا يكاد يعشق من مواد الدراسة سوى التاريخ الذي يعطيه فرصة الهروب إلى الماضي.

ولعل هذا الانفصام أيضًا من الواقع الذي يعيشه والأحلام التي يهرب إليها، قد أثر عليه صحيًا، فأخذت رغبته في العزلة تزداد يومًا بعد يوم، وموجات الصرع تنتابه حتى أجبرته على ترك دراسته للحقوق سنة ١٨٤٣م، وعلى التوقف في التفكير في نمط الحياة ومكانة الخيال والواقع فيها، وزاد من ذلك ظهور كوارث في محيطه العائلي، حين مات والده الطبيب وأخته العروس في عام واحد سنة ١٨٤٦م، وعلى النحو الذي اختطه من قبل جيرار دي نرڤال رأى فلوبير أن الرحلة إلى الشرق شفاء واستمتاع، فكانت رحلته التي دربته على كثرة التأمل، وتشكيل ملامح الأنماط، وكان ذلك نقطة انطلاق منهجه الذي اتبعه في روايته مدام بوفاري، ولم يكتب فلوبير كتابًا كاملاً عن رحلته، وإنما دون ملاحظاته في دفتره الصغير، وسجل انطباعاته في رسائله إلى أهله وأصدقائه، ومن خلال هذا وذاك شكل جان ماري كاريه صورة مصر في كتابات فلوبير.

كانت ظروف رحلة فلوبير إلى مصر مثيرة للانتباه، فلم يكن وحده، وإنما قدر له أن يأتي مع صديق له هو مكسيم دي كوم؛ حصلا معًا على منحة من الحكومة الفرنسية لكتابه تقارير عن الشرق لوازارات التعليم والزراعة والاقتصاد.

وكان الصديقان على النقيض في الطباع؛ فلوبير هادئ إلى درجة الخمول ومكسيم نشيط إلى درجة التهور، ووصلا إلى الإسكندرية سنة ١٨٤٩م يحملان معهما خطابًا من وزارة الخارجية بتسهيل مهمتهما، وعندما وصلا للقاهرة كتب فلوبير لأمه: «إن القاهرة هي بوابة الشرق» ، ويرى الغرابة والإثارة في كل شيء «هذا الجمل الحيوان الغريب الذي يحجل مثل ديك رومي، ويهز عنقه مثل بجع، ويواصل إطلاق الصياح متعبًا منهكًا» وفي القاهرة ترسم ريشته كل شيء، وينجذب إلى الواقع انجذابًا يشفيه من رومانسيته.

ويكتب كثيرًا من الملاحظات حول المشاهد التي يراها، ويحرص على صعود قمة هرم خوفو مع صديقه مكسيم دي كوم قبل شروق الشمس؛ ليرصد مشهد الشروق من أعلى قمة الهرم ويكتب: «كانت الشمس تشرق قبالتي، ويسبح وادي النيل، كأنه بحر أبيض هائج في لجة من الضباب، وتتبدى الصحارى بتلالها الرملية محيطًا بنفسجيًا داكنًا متحجرة أمواجه، وخلفها تواصل الشمس صعودها إلى السماء، ويتمزق الضباب إلى رقع كبيرة

من نسيج شفيف، وتتهادى المروج التي تشقها قنوات المياه بساطًا أخضر مزدانًا بالشرائط. ثلاثة ألوان تغمر هذا الوجود: خضرة الأرض الرحبة، وحمرة ذهبية في السماء، ولون قرمزي شاحب في الخلف، وعن اليمين تمتد من خلاله في نتوءات صهباء خلابة منارة القاهرة، وزوارق عابرة بعيدًا وباقات من النخيل» .

وحاول فلوبير ومكسيم تعلم العربية من خلال دروس «خليل أفندي» الخصوصية، لكن فلوبير كان أكثر اهتمامًا برسم اللوحات الواقعية ومنها لوحات العوالم والراقصين، وأصحاب حلقات السحر والشعوذة والموالد وما يدور فيها من الألعاب الخارقة مثل: أكل النار، والسير بالحصان فوق أجساد ملقاة على الزجاج المهشم، فيما كان يسمى بالدهسة التي تعد من الكرامات.

ويقوم الرفيقان على اختلاف طباعهما برحلة في النيل حتى الشلالات ويسجل مكسيم فيها بنهم كل شيء ويصور بآلته التي كانت في بداية عهد التصوير الفوتوغرافي، ويزور المعابد والمقابر والآثار، وفلوبير يميل عادة إلى التأمل واختزان الملاحظات.

ويصلان إلى «إسنا» لزيارة كوتشوك هانم، أشهر راقصات العصر وكانت محظية للخديوي عباس فغضب عليها، ونفاها، ونفى معها كل العوالم إلى الصعيد، مما أحدث «فراغا» كبيرًا في هذه الصناعة في القاهرة ملأه المخنثون الذين كانوا يرتدون ملابس العوالم النسائية، كما وصفهم دي نرفال من قبل، ويكتب عنها كل من مكسيم دي كوم، وفلوبير لوحات تفصيلية مطولة، ويصعدان إلى الأقصر وأسوان والنوبة، ويكتبان عن المسلات التي تحمل ذكرياتها من زمن الأمجاد العظيمة، ويدافعان معًا كل بطريقته عما ينسب للفراعنة من قسوة وعبودية وعدم إنسانية تتمثل في تسخيرهم للبشر لبناء مقابر وأهرامات لهم.

وهذه الملاحظات هي التي فصلها تيوفيل جوتييه، حين كتب عن الفراعنة، في رواية المومياء: «كان طول الرجال الساكنين في هذه القصور يبلغ مائة ذراع وكانوا يمشون ببطء وسط صفوف الأعمدة يجرون ذيول ثيابهم البيضاء والواسعة على البلاط المرسوم، وجباههم المغطاة بالذهب لا تنظر أبدًا إلى الأرض وكانوا صامتين لا يتحدثون إلا بالإشارات.

وعلى موائدهم الرخامية كانوا يأكلون طيورًا غير معروفة، ووحوشًا تم اصطيادها لهم من أعماق المحيط الهندي، وكانوا يخرجون وأمامهم أسود مستأنسة، وأثناء الحرب كانوا يركبون حيوانات أسطورية، وكانوا يعيشون ألف عام، ولا يضحكون أبدًا».

ومع أن فلوبير لم يكتب كتابًا كامًلا عن رحلته إلى مصر فإنه ظل يجتر مخزونه من هذه الرحلة في كل أعماله التي كتبها على امتداد عمره، على النحو الذي حاول جان ماريه كاريه أن يقدم إشارات حوله تصلح في ذاتها لأن تعبد الطريق لدرس مفصل في الأدب المقارن حول أثر مصر في كتابات فلوبير.

☆☆☆☆

كان تيوفيل جوتييه أحد أبرز الأدباء والفنانين الذين انطبعت مصر في أعمالهم القصصية والروائية والشعرية بالرغم من أنه لم يتمكن من زيارة مصر إلا عندما دعي إلى حفل افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م، وهو على مشارف الستين بعد أن كان كل أبناء جيله وأصدقائه قد زاروها وكتبوا له رسائل منها، وبعد أن كان هو نفسه قد كتب مجموعة من الأعمال الشهيرة المستمدة من مصر، مثل رواية كليوباترا ١٨٣٨م، وقدم المومياء ١٨٤٠م، وحنين المسلات إلى الوطن ١٨٥١م، ورواية «المومياء» ١٨٥٧م.

لم يكن البعد المكاني لجوتييه عن مصر يمنعه من أن يعد نفسه منتميًا إليها، فقد كان لديه مفهوم طريف عن مفهوم المواطنة، فقد كتب إلى صديقه نرفال ١٨٤٣م وهو في مصر يقول له: «إننا لا ننتمي دائمًا إلى البلد الذي ولدنا فيه، ولذلك فنحن نبحث في كل مكان عن وطننا الحقيقي، إن لامرتين يعتبر إنجليزياً، وهوجو يعتبر اسبانياً، وماكسيم دي كوم يعتبر تركيًا، ودي لاكروا مغربياً، وأنت ألماني، وأنا مصري، وعندما أرتدي القفطان والطربوش خلال المهرجان، أشعر أنى أرتدي ملابسي الحقيقية، كنت دائمًا أندهش من أنني لا أتحدث العربية بطلاقة، من المؤكد أنني نسيتها، وعندما كنت في اسبانيا كنت أهتم بكل ما يخص بقايا المسلمين، اهتمامًا كبيرًا، كما لو كنت من أبناء المسلمين، وكنت أنحاز لجانبهم ضد المسيحيين».

وكان جوتييه يجمع بين موهبتي الرسم والأدب، وينغمس في تيارات متعددة كالرومانسية، والفن للفن والبرناسية، وقد ساعده ذلك على أن يرصد جوانب من صفحات التاريخ الواقعي لمصر القديمة، ويستعين على إنعاش صورتها وإعادتها للحياة بلوحات

الرسامين الذين سبقوه أو عاصروه وخاصة صديقه أرنست فيدو، ثم يتكئ على مخيلته الشعرية الكبيرة، وحرفته الروائية البارعة، يرسم صورة قصصية لمظاهر الحياة في مصر الفرعونية لعلها أول صورة حية شاملة في الأعمال الأدبية الحديثة قبل منتصف القرن التاسع عشر، وقبل أن ترسم نفس الصورة في الأدب العربي بقرن من الزمان، على يد نجيب محفوظ في رواياته الفرعونية الثلاث، ويظل باب المقارنة مفتوحًا ومفيدًا، ولم تقتصر صورة جوتييه على رسم الحياة داخل مصر الفرعونية. بل امتدت إلي تصنيف أجناس العالم على درجات الرقي من منظور الفراعنة حيث يقسم الأجناس إلى أربعة مراتب أعلاها الرونتروم، وهم الفراعنة يليهم الناهو وهم الأفارقة ثم النهاسي وهم الآسيويون وأخيرا التامهو وهم الأوربيون.

انطلقت رواية» قدم المومياء» التي كتبها جوتييه سنة ١٨٤٠، مما نشره ڤيڤان دونان في كتابه «رحلة إلى مصر العليا والسفلى» عن اكتشافه لقدم مومياء صغيرة في قاع أحد المقابر بوادي الملوك، وقد اعتنى المكتشف بهذه القدم فاصطحبها معه إلى فرنسا، ورسم لها صورًا عديدة نشرها في كتابه.

وكتب عنها أوصافًا دقيقة مفصلة وكأنه وقع في هواها، يقول: «إن الإبهام المرفوع والإصبع الأولى الممتدة والإصبع الصغيرة المتجهة إلى أعلى، والانحناءة الأنيقة لعنق القدم، وأسلوب حفظها، واستقامة أظافرها، كل ذلك يدل على أن من كانت لها هذه القدم، هي إنسانة راقية، لم ترهق قدمها أبدًا بالسير لمسافات طويلة ولم تهنها داخل أي حذاء» .

وتعلق جوتييه بهذه القدم وجعلها قدما لأميرة سماها «هيرمونيتس» وظل يحلم بالعثور على قدمها الأخرى، حتى أن صديقه مكسيم دي كوم كتب له من مصر يقول: إنه بصدد القيام برحلة إلى وادي الملوك وسيبحث له هناك عن القدم المفقودة.

وفي سنة ١٨٥١ أصدر جوتييه ديوان حنين المسلات إلى الوطن، منطلقًا من المسلة المصرية التي تقف في ميدان الكونكورد بباريس في جو غريب عليها وتحن إلى وطنها:

في وسط هذا الميدان اشعر بالملل
مسلة غير متجانسة مع المكان
الثلج ونقيطات ماء الضباب المتجمد، والرذاذ والمطر

تثلج جبيني المصاب بالصدأ
وهي حين تنظر إلى مواطئ قدميها، تحس بالفارق الكبير
بين النهر الذي كانت تقف عليه والآخر الذي آلت إليه
«السين» الذي تصب فيه بالوعات الشوارع
هذا النهر القذر، المكون من عدة جداول
يلوث قدمي التي كان نهر النيل
أبو الأنهار يقبلها أثناء فيضانه

وفي سنة ١٨٥٧ م صدرت لجوتييه رواية المومياء، وهي رواية حاول أن يجعلها فرعونية توراتية تربط مغامرة سفر الخروج في الكتاب المقدس بالبلاط الملكي في قصور الفراعنة، ولكنه لم يستطع في النهاية كما يقول جان ماري كاريه أن يقاوم الإغراء الفني لمعطيات الحياة الفرعونية، فجاء الصوت التوراتي خافتًا ومتكلفًا من الناحية الفنية.

وعندما نقف على خطوات التعاون التي تمت أثناء إعداد رواية المومياء، ندرك إلى أي حد تصل أهمية الروح الجماعية في الإبداع والتأليف، وهو ما يتبدى أحيانًا في الثقافة الفرنسية على مستوى الأفراد والمؤسسات.

كان أرنست فيدو أحد الفنانين متعددي المواهب في عصر جوتييه، وكان يصغره بعشرة أعوام، وقد صدرت له رواية اسمها « فاني» في نفس فترة ظهور مدام بوفاري لفلوبير، وأزهار الشر لبودلير، ولقيت نجاحًا عظيمًا حتى إنها طبعت ثلاثين طبعة متتالية.

وصدر له أيضًا كتاب عن العادات المأتمية والجنائزية عند الشعوب القديمة؛ المصريين والآشوريين والهندوس، وقد امتلأ بالرسومات الهامة التي وضعها بريس دافين، أحد عشاق مصر الذي كان يلقب بالشيخ إدريس.

وإرنست فيدو هو الذي أهدى إليه جوتييه روايته المومياء، معترفًا بفضله العظيم على كل صفحاتها: «أهدي إليك هذا الكتاب الذي هو حق لك، لقد تنزهت داخل المعابد والقصور والمقابر ومدن الأحياء والأموات متبعًا خطاك، القصة ملك لك، والرواية لي، لم أحتج سوى أسلوبي في تجميع الأحجار الكريمة، التي أحضرتها لي، كما يتم ذلك بالنسبة لعناصر الفسيفاء» .

وحتى الطفلة الصغيرة جوديت ابنة جوتييه، كتبت مذكراتها عن المعونة التي قدمتها لأبيها خلال العمل، من خلال التزامها بالهدوء في البيت أثناء عمله من ناحية، وتسليمه اللوحات التي يريدها من أرجاء البيت أثناء الكتابة ثم إعادتها إلى مكانها من ناحية أخري وتعلمت أثناء ملازمة أبيها فن التحنيط، واكتشفت أمها أن الطفلة «حنطت» كل عرائسها بعد أن حولتها إلى مومياوات ودفنتها في أرجاء متفرقة من الحديقة، بعد أن اتبعت الطريقة الفرعونية الدقيقة في التحنيط، وعلى حين غضبت أمها، كافأها أبوها، فأعطاها مسودة الرواية لمراجعتها.

وإذا كان الحديث يجري عن تألق الأعمال الإبداعية في ظل استفادة المبدع من كل الروافد المتاحة له، مع حسن تمثلها والإفادة منها والإشارة إليها، فإن مما يكمل هذا التألق، دور النقد والتحليل في مناقشة هذه الأعمال بعد صدورها.

والتحليل الذي قدمه جون ماري كاريه، حول رواية المومياء وروافدها ومصادرها وجذورها، يقدم نموذجًا رائعًا دالاً على سعة ثقافة الناقد الأدبية والفنية، وعلى جدوى هذا النمط من الدراسات النقدية المقارنة، وهو يقدم دليلاً إضافيّاً، على أهمية المنهج النقدي التاريخي الذي يقف في المقابل تماماً لما عرف فيما بعد بنزعة «موت المؤلف» وهى النزعة التي تبعد النص من كل سياق يتصل بثقافة كاتبه.

وربما ينبغي الإشارة إلى أعمال أخرى لتيوفيل جوتييه، كتبها متأثرًا بالروح المصرية والعربية، ومنها الأوبريت الغنائي «الليلة الثانية بعد الألف» والذي استقبل في مفتتحه زائرتين له هما شهرزاد ودنيازاد، رجتاه تزويدهما بفكرة إضافية لحكاية جديدة، نظرًا لنفاد مخزونهما، وتخوفهما من انتقام شهريار، وقد قادهما إلى مغامرة جديدة في ردهات القصور التركية والشرقية.

وتتاح لتيوفيل جوتييه، بعد عشرات السنين من الحلم بمصر والقراءة عنها والمراسلات حولها، وتعدد مؤلفاته المستلهمة منها، تتاح له بعد هذا كله فرصة زيارتها للمرة الأولى عندما تلقى دعوة لتغطية احتفالات افتتاح قناة السويس باعتباره صحفيّاً ممثلاً للجريدة الرسمية.

وتمتلئ نفسه بالأحلام في المشاهدة والمعايشة والمراجعة لأرض يكاد يحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب، ولكن القدر الساخر يدخر له مفاجأة وهو في طريقه لركوب الباخرة في مرسيليا، كان قد شاهد قبل قليل من وصوله للميناء جنازة يتقدمها التائبون عن الخطايا بزيهم الأبيض، فجفلت نفسه واعتراها بعض التشاؤم، وما إن وضع قدمه على سلم الباخرة ليرى حجرته، حتى زلت قدمه على أولى درجات السلم ووقع وانخلعت كتفه من موضعها ولفه دوار رهيب.

ومع أن جوتييه أظهر شجاعة فائقة في مواجهة الصدمة، وقرر الاستمرار في الرحلة فإنه كتب عليه أن يصف ما يتاح له أن يراه من غرفة فندقه، ومع ذلك فقد قدم لوحات رائعة لما شاهده على رصيف ميناء الإسكندرية من تزاحم الحمالين والمسافرين ورجال الجمارك والشرطة، ولما رآه أيضًا من صورة الريف المصري في الدلتا عبر نافذة القطار.

وكان بذلك أول من يصف هذا المشهد بعد أن كان القطار قد عرف في مصر على مشارف هذه الفترة يقول جوتييه في وصف المشهد: «هناك علاقة حميمة بين الفلاح والأرض، فهو يخرج من تلك الأرض التي يطؤها، فهو معجون بداخلها، وبالكاد يظهر على سطحها، وعند رؤيته يذهب ويجيء على هذه الأرض المبللة، تشعر أنه في بيته فهو يشرف على ري الأرض بالماء بزيه الأزرق الذي يشبه زي الأحبار، يجمع العنصرين اللذين تخرج منهما الحياة عند تدفئتها بالشمس، وليس هناك أي مكان يكون فيه الاتفاق بين الإنسان والأرض أوضح من ذلك، وليس هناك مكان تكون للأرض فيه أهمية أكثر من ذلك» .

وكثيرة هي لوحات جوتييه عن مشاهد الحياة في القاهرة والريف، بدءًا من الإعجاب بالحمار الذي يشارك فيه كثيرا من الرحالة والكتاب الفرنسيين، إلى وصف ملابس الفلاحات والبدويات، وحلقات الذكر، والحواة ومروّضي القرود وسائسي الخيول وخليط الأجناس والأزياء من كل بقاع الأرض وبولاق وميناء القاهرة النهري من المشاهد التي استطاع جوتييه رغم حركته البطيئة المقيدة في القاهرة أن يبث فيها الروح والحيوية من خلال لوحات من روائع النثر الأدبي في القرن التاسع عشر.

✫✫✫✫

لم يكن العالم الشهير إرنست دي رينان بالتأكيد واحدًا من علماء الآثار والمصريات

ولا من المشتغلين بالتاريخ المصري القديم أو الحديث، ولا كبار الرحالة المتجولين بل ولا حتى من عشاق الحضارة المصرية القديمة المتعاطفين معها، شأن الكثيرين من كبار أدباء عصره ومفكريه من الفرنسيين.

ولكنه مع ذلك ترك بصمات واضحة خلال زيارته القصيرة لمصر، وتقريره الموجز عن هذه الزيارة والذي لم يتجاوز الصفحات الأربعين، والذي تضمن بعض الملاحظات السلبية التي أثارت كثيراً من المناقشات والردود وبعض التوصيات الإيجابية التي كان لها أثر في تقوية روابط العلاقات الثقافية بين فرنسا والشرق.

عندما زار رينان مصر سنة ١٨٦٤م، كانت قد سبقته شهرته كعالم في مقارنات الأجناس والأديان، ينطلق من نظرة عنصرية ليست في صف المنطقة التي يزورها، وكان كتابه عن «حياة يسوع» قد حقق شهرة واسعة، إذ بيع منه ٦٠ ألف نسخة في صيف واحد فضلاً عن ترجمته إلى أكثر من عشر لغات أوربية.

وكانت مصر محطة في طريقه إلى الشام لاستكمال رؤية الأماكن المسيحية التي كان يعد للكتابة عنها في إطار كتابه عن «القديس بولس» ، لكن استقبال الخديوي إسماعيل له وترحيبه به أغراه بالقيام برحلة سريعة للآثار المصرية.

ولم يتخل رينان كلية عن فكرته بعلو الآثار الإغريقية درجة في سلم الفن بالقياس للآثار المصرية، وكان يرى أن الآثار المصرية تم بناؤها في مناخ القهر والاستعباد، وآثار اليونان شيدت في مناخ الحرية مما أعطاها أبعاداً إنسانية تخرجها عن أن تكون في خدمة الحكام فقط، وكان يرى من وجهة نظره أننا يمكن أن نتلمس آثار الوعي الفني لدى الجمهور اليوناني أكثر مما يمكن أن نجده عند نظيره المصري، مما يشكل ساحات لمناقشة الفن وتطوره.

وهو في النهاية عندما يبحث حتى عن أصول التوحيد في الديانة المصرية القديمة، يحاول أن يرد الفضل فيها إلى أصول التوحيد اليهودي، متجاهلاً كما يقول كاريه: ثورة كبرى كالتي قادها إخناتون لكي يحطم الآلهة ويعبد الإله الواحد في رمز الشمس، وغافلاً عن القيمة الكبرى في أن يكون الملك هو الثائر والمنفذ للقرار في وقت واحد.

وكانت من ملاحظات رينان على مسيرة الحضارة المصرية، مقارنة بالإغريقية، ما يتصل بعدم التعاون في تسجيل دور الأفراد في بناء الحضارة وتراكماتها، وكان يرى أن هذا قد يتحقق على نحو أوضح في الحضارة اليونانية، فسقراط يسعى إلى زينوفون لكي يستمع إليه وإلى أفلاطون ليجعله مثله الأعلى وإلى أرسطوفان ليسخر منه.

في اليونان كما يقول رينان: «يصنع كل من الشاعر والمؤرخ الرجل العظيم، ولكن الرجل العظيم من جانبه يصنع الشاعر والمؤرخ أيضًا، إلا أن الحال ليس كذلك في مصر، ففي أنحاء هذا الوادي الحزين.. يظل الإنسان لآلاف السنين يزرع حقله، ويحسن تأدية مهام وظيفته، ويحمل الأحجار فوق ظهره، ويطول به عمره، دون الوصول إلى المجد» .

لكن رينان خلص في خاتمة تقريره إلى التوصية بأهمية رعاية الثقافة في مصر إلى أبعد مدى، وطالب بإنشاء معهد الآثار الفرنسي في القاهرة، وقد أنشئ بالفعل بناء على تقريره، كتب يقول: «مدرسة القاهرة تفيد التقدم العلمي، وتفيد البلد، وستفيد أيضًا الحضارة وتقدم الأخلاق في الشرق» .

ثم ختم التقرير بعبارة ما زالت ذات مغزى، وما زلنا في حاجة إلى تأملها بعد مرور نحو قرن ونصف على كتابتها، كتب يقول: «في بلد يتم فيه تقدير الأشياء بمدى الاستفادة منها، وتقدير الرجال بحجم ثرواتهم، علينا التوقف أمام فكرة الثقافة التي لا يبالي بها أحد» .

✡✡✡✡

الرواية التي كتبها الصحفي والأديب الدبلوماسي «إدموند أبو» سنة ١٨٦٧ م بعنوان: «الفلاح» حول «أحمد بن إبراهيم فلاح البعثة المصرية» احتفت بنشرها على حلقات أوسع المجلات الفرنسية انتشارًا في ذلك العصر، وهي «مجلة العالمين» ، وتحمس لنشرها الخديوي إسماعيل ووزيره نوبار، ودفعا مكافأة النشر لمؤلفها «إدموند أبو» قبل أن ينشر الحلقة الأولى منها.

وتمثل الرواية مع تواضع مستواها الفني قيمة اجتماعية وأدبية مزدوجة، فهي ترسم صورة للمجتمع المصري في الربع الثالث من القرن التاسع عشر، قبل افتتاح قناة السويس بطبقاته المختلفة من الأجانب والمصريين، ورعايا الدولة العثمانية وأصحاب

الامتيازات الأجنبية، ولمشاكله الرئيسية في الزراعة ومستوى المعيشة والحقوق القانونية والسياسية والتطلع للمستقبل.

وفي هذا الإطار نلتقي من شخصياتها بعرام بك سكرتير الخديوي، وراغب باشا، وراتب باشا القائد العام، وفوازان بك مدير الأشغال في قناة السويس، ومجموعة من المهندسين الفرنسيين أمثال: روش وبوريل ولافالي، إضافة إلى نوبار باشا وابن أخته أراكل بك وغيرهم من المنتمين إلى هذه الطبقات، فضلاً عن بعض عمال التراحيل الذين يمثلون طبقة الفلاحين.

لكنها من ناحية ثانية تمثل أول رواية تتخذ من المجتمع المصري الحديث مسرحًا لأحداثها، كما كانت روايات تيوفيل جوتييه قد انطلقت من المجتمع المصري الفرعوني في اختيار شخصياتها وفصولها.

يروي «آبو» أنه ذات شتاء وخلال رحلة صيد في يرونوي في قصر أحد أصدقائه، لمح في الحديقة شابًا يكسر قطعة من الثلج ليتوضأ بمياهها، وعندما تعرف عليه قدم له بطاقة ورقية غريبة كتب عليها: «أحمد بن إبراهيم، فلاح البعثة المصرية» .

وخلال العشاء روى لهم حكايته وطفولته على شاطئ النيل والحياة البسيطة التي عاناها أهل قريته، وانتهى اللقاء. وبعد مدة طويلة قرأ الكاتب أن صديقه المصري، كان في مرسيليا، ودخل في نقاش مع فرنسي كان يسب الخديوي سعيد؛ فطلب المصري مبارزته بالسيف، ووقع جريحًا في هذه المبارزة دفاعًا عن والي مصر.

وبعد سبع سنوات على الحادث جاء «آبو» إلى مصر، لكي يلتقي مصادفة بصديقه القديم، وليعلم أن الوالي سعيد امتن لما فعله، بعد أن عاد إلى مصر وعولج، وخلع عليه الإقطاعيات والهدايا، وأصبح من كبار الملاك لكنه اكتشف أن والده الفلاح، كان قد مات خلال سفره من شدة العمل في قوافل «السخرة» لحفر قناة السويس.

ولازم أحمد صديقه «آبو» ودعاه ومن معه – وفيهم حسناء إنجليزية هي مس جريس – إلى مزرعته في ريف المنصورة، وبالغ في إكرامهم، لأنه وقع في هوى الحسناء، التي قبلت كرمه، وتحفظت في قبول مشاعره، وعاود الكرة فدعاهم إلى رحلة نيلية للأقصر على ظهر

يخته، وتكررت المحاولات، وهى تتأبى، ثم لان قلبها برهة، فلم تسعه الدنيا، لكنها فجأة، قررت الرحيل وعندما علم بأنها استقلت مركبًا في النيل للمغادرة، سارع فألقى بنفسه في النيل أمام المركب؛ ليموت غرقًا أو يفوز بقلبها، وقد نجح فاستجابت له.

وتأتي القيمة الأدبية لهذه الرواية من أنها تفتح الباب لهذا النمط من الروايات الذي يتخذ من حوار الشرق والغرب موضوعًا له، وقد كتبت في أعقابها مباشرة رواية «علم الدين» المشهورة لعلي مبارك، وهي تقوم على حوار عالم أزهري ومستشرق إنجليزي، حول مزايا الشرق والغرب على نفس نمط محاولات أحمد وأبو مع ميل للسياسة هناك وللحضارة هنا.

وكتبت بعدها في القرن العشرين أعمال تنتمي إلى هذا النوع على يد أحمد ضيف، وتوفيق الحكيم، وطه حسين، وغيرهم ممن شكلوا امتدادًا وتعميقًا وتطويرًا للفكرة البسيطة التي طرحها «إدموند آبو» في روايته عن الفلاح المصري عندما دخل في اتصال وحوار مع الحضارة الغربية وخاصة الفرنسية في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

✡✡✡✡

إن مواقف الرحالة والكتاب الفرنسيين في مصر والتي رصدها في استيعاب ووعي ومقارنة وتحليل كاتب بحجم جون ماري كاريه هي مواقف شديدة التنوع والثراء في عالم التاريخ والآثار والفنون والآداب، وليس هذا الاستعراض والحوار مع المؤلف إلا محاولة لفتح شهية القارئ للإقبال على الكتاب بعد أن ترجم إلى العربية، في هذه الترجمة الجيدة التي يستحق القائمون على إنجازها كل الشكر بدءًا من مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري التي رعت ترجمة هذا العمل الأدبي العلمي الجليل في إطار الإعداد لدورة «شوقي ولامارتين» في باريس خريف عام ٢٠٠٦ م.

فقدمت بذلك خدمة جليلة لقضية الحوار بين الشرق والغرب في عصور المد الحضاري، عبر الفنانين والعلماء والأدباء؛ بحثًا عن نقاط الالتقاء في جوهر الحضارة الإنسانية، وهو حوار ينبغي أن يحل شيئًا فشيئًا، محل الحوار عبر تجار الأسلحة وصناع خطط التوسع وإضمار العداء والكراهية للآخرين.

ولا بد من شكر العلماء الذين قاموا بترجمة هذا العمل على صعوبته ودقته، وقصر المسافة الزمنية المتاحة أمامهم، مع تداخل المصطلحات وصعوبة ترجمة الأسماء من خلال تفاوت نطقها في اللغتين العربية والفرنسية، والمصطلحات من خلال اختلاف دلالاتها عبر القرون الخمسة التي تفصل بين فترة بداية الدراسة وصدور الترجمة.

وفي هذا المجال يدين إعداد ترجمة هذا العمل لجهود الدكتورة سونيا نجا والدكتورة رشا صالح، اللتين تحملتا عبء القيام بترجمة الجزأين، كما ينبغي توجيه الشكر لكل من الدكتورة كاميليا البنا و الدكتورة هويدا إسماعيل لمساعدتهما في سرعة إنجاز العمل في مرحلته الأخيرة.

ويبقى العمل بعد هذا كله فاتحًا لأبواب كثيرة للمناقشة، سواء حول جوهر القضايا التي أثارها وعرضها وحللها، أو حول الشكل الذي اتخذته النسخة الفرنسية، وهي تقدم نفسها للقارئ العربي للمرة الأولى.

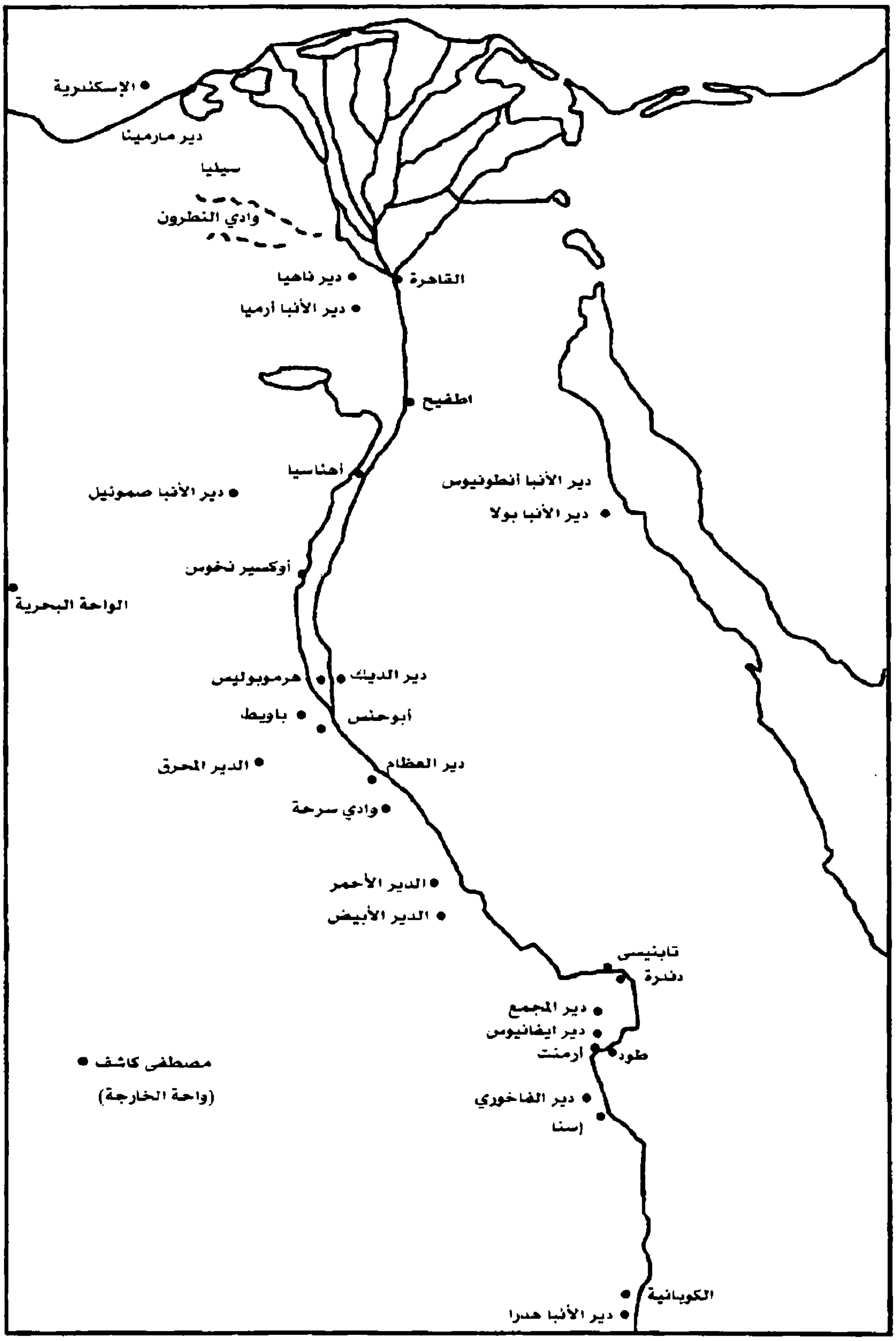
ولكنه في كل الحالات يسجل خطوة إنجاز رائعة على طريق تقريب المسافات، وحوار الآداب والحضارات وتعاون العلماء والأدباء على اختلاف الأزمنة والأمكنة في بناء حضارة الإنسان، ودور حضارة الشرق الذي ننتمي إليه في إرساء أسس هذه الحضارة في الزمن القديم ورعايتها والمحافظة عليها في الزمن الوسيط، والتطلع إلى المساهمة في انطلاقها وتوجيه خطواتها في الزمن الحديث.

والله ولي التوفيق.

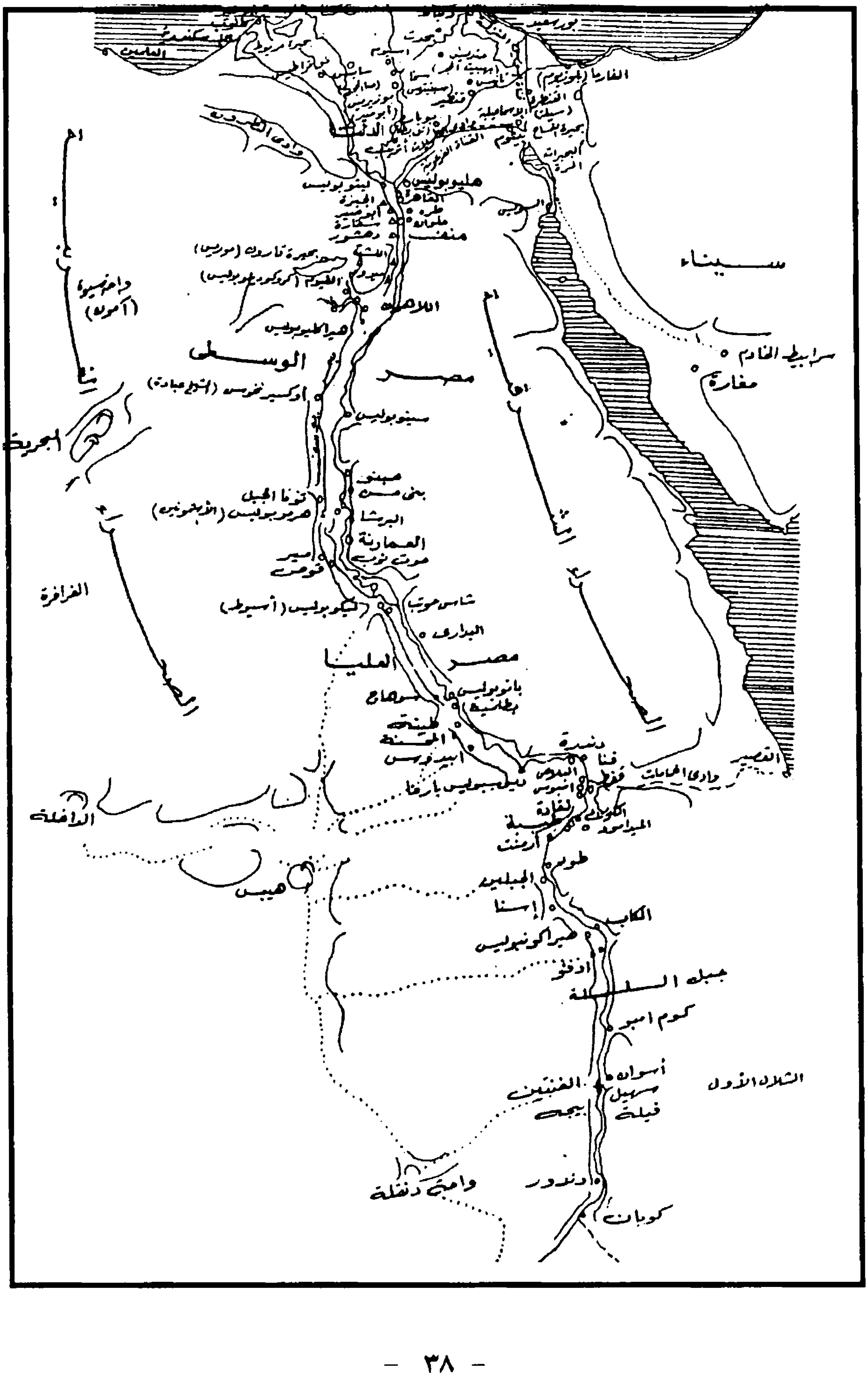
أ. د. أحمد درويش

وكيل كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
مقرر لجنة الدراسات الأدبية واللغوية
بالمجلس الأعلى للثقافة

****



لوحة رقم (١) «مصر»



سيناء
هليوبوليس
القاهرة
منف
اللاهون
الوسطى
مصر
سراببط الخادم
مغارة
الفرافرة
تونا الجبل
بني حسن
البرشا
العمارنة
البداري
مصر
العليا
سوهاج
أبيدوس
دندرة
قنا
قفط
وادي الحمامات
القصير
الداخلة
هيبس
أرمنت
طود
الجبلين
إسنا
الكاب
هيراكونبوليس
إدفو
جبل السلسلة
كوم امبو
أسوان
الفنتين
سهيل
فيلة
بيجه
الشلال الأول
دندور
كوبان
واحة دنقلة

الجزء الأول

من بداية الهيمنة التركية
وحتى نهايتها

ترجمة

د. سونيا نجا

البــاب الأول

الفصل الأول

اكتشاف مصر والرحالة الفرنسيون
من القرن السادس عشر حتى الثورة

تعطي العودة إلى الحروب الصليبية دومًا انطباعًا بالرجوع إلى أزمنة سحيقة، والحق أنه ليس في نيتي اقتفاء أثر الحجاج الذين توافدوا بدءًا من القرن الثاني عشر وحتى القرن السادس عشر على الأماكن المقدسة بمصر. هؤلاء المسافرون هم من يمكن تسميتهم بالصليبيين المتأخرين. فبعد الصلاة في بيت لحم والناصرة وكنيسة القيامة والأماكن المقدسة التي شهدت ميلاد المسيح ورسالته وآلامه، غالبًا ما يرغبون في تسلق جبل موسى والولوج في مملكة الفراعنة، أرض الأسر وسفر الخروج، ويتوقون لزيارة قبر القديسة كاترين في سيناء وكرسي القديس مارك الرسولي بالإسكندرية ولا بأس بعد ذلك من أن يعرجوا على شجرة الجميز التي استظلت بها العذراء مريم بمنطقة المطرية ويدخلوا قبو الكنيسة المعلقة بمصر القديمة والكهف الذي أوت إليه العائلة المقدسة.

من الذين قاموا بالحج إلى سيناء على هذا النحو، نذكر:

فيليب دالزاس Philippe d'Alsace كونت منطقة فلاندر ورينو دي شاتيون Renaud de chatillon نبيل كيراك عام ١١٧٧ . أما طبيب منطقة لييج جون دي ماندفيل Jean de Mandeville فقد أدى الحج متبعًا ذات المسار عام ١٣٣٦ ولحق به عام ١٣٤٧ فيليب دي ميزيير .Philippe de Mezieres وسار على ذات النهج رجل الدين هوج Hugues القادم من فردان عام١٣٦٠ والكونت فيليب دارتوا Philippe d'Artois عام ١٣٨٩.

البـعض دوّن يومـيـات رحلتـه مـثل جـون دي مـاندڤـيل Jean de Mandeville والبـارون دانجلور d'Angelure[1] الذي طاف بـالأمـاكن المقدسـة عـام ١٣٩٥ واعـتـقـد أن الأهرامـات هي مـخـازن غـلال الفـراعنة. وقـد تبـعـه في عـامي ١٤٢٢[2] و١٤٨٥[3] كل من الفارس جلبرت دي لانوي Ghillebert de Lannoy سفير دوق بورجوني Bourgogne وعمدة «مونس» جورج لينجيراند georges Lengherand.

مما يؤسف له أن مثل هذه النصـوص نادرة. فلم يكن شـيء ليعـادل أهمـيـة أن يكون لدينا وصـفًا فـرنسـيّاً لمصـر في القرنين الرابـع عشـر والـخـامـس عشـر بقـصـورها المنيـفـة ومسـاجدهـا بالغة الفخـامـة. غيـر أن الظروف لم تكن مـواتية للأسـفار، فـقد انتشـرت الفتن عقب وفـاة «توران شـاه» قـاهر القديس لويس. وسـاهمت حملات السـلاطين بيبـرس وقلاوون ومحمد الناصـر ضـد جـاليات الفرنجـة في سـورية واضطهاد محمد الناصـر للمسيـحيين في ابتعاد حجاج فلسطين عن مصر.

في القـرن السـادس عشـر ظهرت أول مـذكرات باللغة الفرنسـية[4] يمكن الاعـتـداد بهـا. وقـد نشـرهـا مـؤلفوهـا وانتقلت من قصـر إلى قصـر ومن دير إلى دير. أربـع منهـا جـديرة بالاهتمام منها يوميات الراهب الفرنسيسكاني جيهان تينو Jehan Thenaud والفارس جريفان أفاجار greffin Affagart والطبيب بيير بولون Pierre Belon والراهب أندريه تيڤيه Andre Thevet.

في عام ١٥١٢ انضم القس جيـهـان تينو Jehan Thenaud حـارس دير الرهبـان الفـرنسـيـسكان بمنطقة أنجـــــولام Angouleme نزولاً على رغبـة راعـيتـه لويز دي سـاڤوا Louise de Savoie إلى بعثة أندريه لوروا Andre Roy سـفيـر لويس الثـاني عشـر لدى قنصـوه الغـوري أحد آخـر السـلاطين الشـراكسـة فـي مصـر، والذي شـيـد أحـد أجمل المساجد في منطقة الموسكي بالقاهرة.

كان ذلك فـي الفتـرة التـي أرسـلت فيـهـا جمـهـورية البندقـيـة، المنافس الـقـوي لملك فـرنسـا في بحـار الـشـرق، المفوض العـام تريـفـيزان Trevisan الذي سـجل الرسـام جنتـيل بللـيني

(Gentile Bellini) في لوحاته، الاستقبال الحافل الذي أعد عند تشريفه. بعد ذلك بنحو خمس سنوات، غزت تركيا مصر، وأقامت بها نظام قهر واستبداد دام حتى مجيء محمد علي.

كان جيهان تينو Jehan Thenaud شاعرًا مثقفًا ألّف حوليات ووقائع ملوك فرنسا ووضع لها عنوان: مارجريت «فرنسا» (١٥٠٨) وقد حاول بعد ذلك لحساب الكونت دنجولام Le comte d'Angouleme وضع شجرة نسب ساتيرن Saturne طبّق فيها ما كان في نسابة آلهة بوكاس .Boccace كما قرض أبياتًا موجهة إلى من يعتبرهم أولياء النعم من وجهة نظره. وما كتبه على درجة عالية من الطرافة والحسية. لنترك جانبًا الفصل الأول الذي يحكي عن عبوره، لنصل إلى الفصول الثلاثة الأخيرة التي كرسها لسيناء والأراضي المقدسة وعودته منهما. يتبقى لنا فصل مثير عن الحياة في مصر يصف لنا فيه جيهان تينو البيت الذي وضعته السفارة الفرنسية تحت إمرته على ضفاف النيل بقاعاته المكسوة بالمرمر والرخام السماقي والمرمر المرقط. حوائط هذا المنزل مرصعة بذات الأحجار ومطلية بالذهب وثرية بألوانها. أبواب هذه القاعات من العاج والأبنوس وغيرها من المواد النادرة. أما نوافيره فتفيض بالمياه الساخنة والباردة التي تصل إليها عبر أنابيب خفية، له حدائق عامرة بكل الفواكه خاصة التفاح الذي خالف بسببه آدم أمر ربه.(٥)

ويتطرق جيهان تينو Jehan Thenaud إلى لقاء السلطان قنصوه الغوري والوزراء وآلاف «Mammelouz» الذين يرتدون ثيابًا بيضاء وقلنسوات مستديرة خضراء وسوداء في نهاية ساحة القصر. وعلى قطعة من الحجر دثرت ونجدت بأفخر الأقمشة، جلس السلطان جلسة الحائك المستغرق في عمله يظلله صيوان، وأمام ناظريه، امتدت الأبسطة، كان مرتديًا حُلة من النسيج اللامع الأصفر ويعتمر مقرنة مرتفعة من قماش هندي فاخر ذات ست زوايا.

ويبدو أن المؤلف قد راعته مساحة القاهرة التي تصل إلى ثلاثة أضعاف مساحة باريس، فقد راح يتلاعب بالأرقام: بالقاهرة عشرون ألف مسجد. في كل منها ثلاثمائة

مصباح لامع ومائة ألف رجل يحملون على أعتاقهم جلود ماعز مملوءة بالماء إلى المنازل والشوارع . وفوق المدينة تحلق مائة ألف حدأة تنظفها من قاذوراتها.[٦]

ونجد مثل هذه المبالغات لدى الرحالة التالي جريفان أفاجار Greffin Affagart سيد كورتلي Courteilles[٧] فهذا البورجوازي الثري القادم من مدينة مان Maine ليؤدي فريضة الحج إلى الأراضي المقدسة عام١٥٣٤، كان بصحبة راهب فرنسيسكاني عالم من منطقة برني «Bernay» يقوم بإمداده أثناء الرحلة بكافة المعلومات عن التاريخ والتوراة. وهو في سطوره ينصب نفسه دليلاً إلى الأماكن المقدسة. وقد منح الجزء الأخير من مذكراته عنوان: «الرحلة السابعة سيناء مصر» وهو من أفضل ما كتب. هذا الرحالة لم تكن له طموحات أدبية وأسلوبه يثقله التكرار. ووفق ما قاله ناشر معاصر لأعماله فإن استعماله للمهجور من الكلمات، يعطي انطباعًا بأنه من كتّاب نهاية القرن الخامس عشر وليس من معاصري عصر النهضة. هذا لا ينفي أن ملاحظاته صائبة لها نكهة خاصة وطابع مميز. وقد جذبتنا سذاجة وتلقائية وصفه، وطرافة شروحه التاريخية.

فعند زيارته لكنيسة سان سابل Saint-Sable بالإسكندرية، والتي ما زال بها الكرسي الرسولي الذي خطب من فوقه القديس بطرس والقديس جهان الإنجيلي والقديس جهان المرشد والقديسان أنستاز وأوريجان[٨] أشار إلى وجود مسلة أكبر وأضخم من تلك الموجودة بروما والتي يطلق عليها L'esquille de Virgile. كما توقف أمام عمودين من الحجر يطلق على أحدهما اسم «عمود بومبي» نظرًا لكون يوليوس قيصر قد أوثق إليه قائد بومبيي الذي أمر حاكم مصر بإطاحة رأسه.

أما العمود الثاني، فقد ربط إليه القارب الذهبي الذي حمل على متنه جثمان الإسكندر الأكبر.

والوصف الملفت بالفعل في كتاباته، هو وصف مدينة القاهرة المتفردة في طابعها والتي تقدر مساحتها بنحو ثلاثة أضعاف مساحة باريس.. القاهرة ذات الأربعة عشر ديرًا ومسجدًا.. والشوارع الضيقة، القصيرة والملتوية التي تغطيها عقود درءًا لحرارة الصيف.

ومنازل القاهرة كما وردت في سطوره، مشيدة بالأحجار والرخام ومصفوفة بفن خاص مأخوذ عن الطراز البندقي. وقد التفت الكاتب إلى كثرة عدد المطابخ التي تصل إلى العشرين ألفًا، ومحال الشواء التي يصفّ بائعوها كريات اللحم المفري التي تشبه القبرات، في أسياخ. وقد استوقف الكاتب حاملو الماء للسقاية بقربهم المصنوعة من جلد الماعز وحوانيت القاهرة التي تحيل السكر إلى حلوى أشبه بالثلج، وسماؤها التي يحلق فيها عدد لا حصر له من الصقور والحدأت آكلة الجيف.

وقد بقيت كتابات جريفان أفاجار greffin Affagart عن رحلته في نسختها الخطية فترة طويلة، وبالتالي لم تساهم في إيضاح صورة مصر لدى الفرنسيين في القرن السادس عشر مثلما فعلت مؤلفات بيير بولون Pierre Belon واندريه تيڤيه Ander Thevet عن «أساكل الشرق» ظهرت هذه المؤلفات فيما بين ١٥٥٣و١٥٥٦، وكاتباها كلاهما من الغرب: بولون طبيب نشأ في منطقة مانز Mans وعاش فيها مثله مثل أفاجار Affagart . أما تيڤيه Thevet فهو من أنجولام Angouleme وكان راهبا مثل جيهان تينو Jehan Thenaud .

وملاحظات الطبيب بيير بولون[٩] Pierre Belon على الأسفار التي قام بها فيما بين ١٥٤٦و١٥٤٩إلى اليونان وآسيا والخليل ومصر والجزيرة العربية والبلدان الأجنبية الأخرى غير مدوّنة بشكل منظم ولا قيمة أدبية لها تذكر. غير أنها ثرية بالتفاصيل وتشكل المجلد الأكثر أهمية والأكثر استنادًا إلى المراجع باللغة الفرنسية في عصره عن الشرق الأدنى. وسوف نتوقف هنيهة أمام المجلد الثاني الذي خصصه المؤلف للحديث عن مصر. ففيه وصف لمدينة الإسكندرية وأحاديث مألوفة عن المسلات والتماثيل الضخمة عند المصريين.[١٠] كما خصص الكاتب فصلاً للأشياء الغريبة التي وجدها بين مدينتي الإسكندرية ورشيد[١١]. ويتساوى لديه فيه النياشين القديمة وقصب السكر ونبات الريحان الذي يهدى إلى ڤينوس وشجرة المن والحرباء.

فصل آخر، افرده الكاتب لسمات مصر والمصريين [١٢] ومنها وضع البيض في أفران من طوب اللبن لتيسير فقسه وهو أمر ذكره أرسطو في الفصل السادس من كتابه «De Animalibus» وقد أسهب الكاتب في ذات الفصل في وصف مدينة القاهرة وطريقة العيش فيها بعد ثلاثين عامًا من الاحتلال التركي[١٣] ويذكر بولون Belon أنه لدخول مصر، يجب التنكر أو ارتداء ثوب رهبان الفرنسيسكان كما فعل جريفان أفاجار greffin Affagart فالمصريون أكثر تسامحًا مع الرهبان منهم مع التجار والرحالة الباحثين عن الكنوز . كما يمكن ارتداء الملابس الشرقية.

وفد بولون Belon إلى القاهرة على متن قارب عن طريق فرع رشيد ونزل أولاً في بولاق. أكمل بعد ذلك مساره إلى القاهرة ممتطيًا حمارًا عبر طريق تحف به الأشجار.[١٤] واستطاع بهذه الطريقة زيارة الكثير من المعالم المصرية مثل مقياس النيل الموجود حتى اليوم جنوب جزيرة الروضة[١٥] والقلعة والقصر الذي تعد رسوماته ومرصعاته شاهدًا على عظمه الشراكسة[١٦] وقد توقف مليّاً أمام القناطر الواقعة بين أطلال بابليون ومدينة القاهرة والتي توصل المياه إلى أعلى القصر[١٧] ومسلة المطرية[١٨] وأخيرًا الأهرامات[١٩]

دخل بولون Belon الهرم الأكبر الذي بناه خوفو، ودلف إلى الغرفة الجنائزية.[٢٠] غير أن الذي استوقفه بالفعل هو أبو الهول المنحوت أمام الأهرامات والذي أسماه هيرودوت Herodote أندروسفنكس «Androsphinx» وأطلق عليه بلين اسم Pline «اسفانج» «Sphinge» وقد لاحظ أنه لا يمت بصلة شبه للرسم الذي نراه على بعض النياشين التي ابتاعها فرنسوا الأول. ويُعد بولون Belon أول من حاول إيجاد تفسير لهذا الكائن الغامض. فبالنسبة له، يقوم النيل بري الأراضي المصرية حين يلحق برج العذراء ببرج الأسد.

وقد أراد المصريون التعبير عن حالة الرخاء التي تعم مصر في هذه الآونة، فنحتوا كائنًا له مقدمة عذراء ومؤخرة أسد.

من السطور التي كتبها بيير بولون Pierre Belon نلاحظ أنه يتمتع بذهن يقظ متأمل ويتسم بالفضول العلمي. كتاباته تستند إلى المراجع وتشي بالأمانة والمصداقية.[٢١] ومما يزيد الاهتمام بملاحظاته، الصور المصاحبة لها وإن كانت أحيانًا يجانبها التوفيق. رسم بانوراما الإسكندرية[٢٢]وزي المسلمات بحجابهن وما يعتمرنه على رؤوسهن والمكون من عدة أدوار [٢٣]. وباعتباره عالم طبيعيات فقد أبدى اهتمامًا خاصًا بالضبع والنمس الذي أطلق عليه اسم «جرذ الفراعنة» والتمساح الذي أسماه «سمك النيل» بالإضافة إلى الجاموس وحيوان الزراف حبيس حديقة الباشا. كما أسهب في وصف شجرة البلسم بالمطرية وشجرة السنط الوارفة عند عيون موسى وفي الجزيرة العربية إلى جانب النباتات التي تنمو طوال الطريق إلى سيناء. وقد استوقفه كل ذلك لأنه حج إلى الجبل المقدس مرورًا بالسويس والطور، ووصف ما رآه وصفًا تفصيليًا.[٢٤] غير أنه لم يزر الأديرة القبطية في صحراء الأنبا مقار في ما يعرف حاليًا بوادي النطرون والذي يقع على مسافة قال عنها أنها: تُقطع في خمسة أيام في اتجاه أفريقيا. وقد أورد أنه سمع فقط بهذه الصوامع والأديرة التي يختلط فيها العرب باليونانيين، وببعض السادة من البندقية لدى عودتهم منها محملين بأغصان طرفة المن و«حجر النسر» الذي يستخدم للكشف عن اللصوص.[٢٥]

أما كتاب كوزموغرافية الشرق Cosmographie du Levant aL للراهب الفرنسيسكاني أندريه تيفيه [٢٦] (Andre Thevet) مرشد كاترين دي مديتشي (١٥٠٢-١٥٩٠) فما كتب فيه عن مصر، لا يجاوز المائة صفحة. ورغم ما يتسم به الكتاب من شكل علمي إلا أنه يعج بأخطاء مثيرة للضحك وبتفسيرات لا سند لها. وقد تضمن فصولاً غريبة عن قوانين المصريين[٢٧] وعن الأقزام على سبيل المثال.[٢٨] ويحكم تيفيه Thevetعلى العادات والتقاليد المصرية بتفاؤل يندر وجوده لدى الرحالة القدامى وينصح بالنظام الذي وجد المصريين يتبعونه: طريقة الحياة هي تلك التي يتبعها سكان البلاد التي تزخر بـ «frutages» يتناولون كل شهر شربة لمدة ثلاثة أيام متتالية ويحتفظون بصحتهم مع

«clisteres» والقيء. وهم بذلك أصح البشر. لهذا السبب تروي الحكايات أن المصريين يعيشون ألف عام[٢٩] ويدللون على ذلك بطول العمر في الحياة الرهبانية في زمن نساك الأنبا بولس والأنبا انطونيوس وآباء الصحراء.

وقد حالفه الحظ في تشبيهه مصر وما تزخر به من ثروات «بمخزن غلال العالم» وسطور الكاتب تشيد بخصوبة الأرض والنساء في مصر[٣٠] غير أنه أسف أن تكون بقعة بمثل هذا الثراء مملكة للخيانة. ففي وصفه للقاهرة ـ التي أخطأ بتصورها تحتل مكان مدينة ممفيس القديمة - لاحظ في دهشة ممزوجة بالفزع والحزن أن «عدد القرى التي يديرها كهنة الشيطان يصل إلى ألف واثنتين» وعلق قائلاً: «طالما أن إبليس قد أزاد بيعه، فمن السهل استنتاج مدى اتساع المدينة وكثرة سكانها».[٣١]

والمقنع في الأمر رؤية الرسم الذي ألحقه بهذا الوصف. فهو يمثل مسجدًا مفتوحًا للصلاة، يقف المؤذن فوق مئذنته واضعًا كفيه على أذنيه يدعو للصلاة بينما المصلون في الفناء منشغلون بالوضوء.

وقد وصل أندريه تيفيه Andre Thevet إلى الأهرامات وصورها في شكل مشيق بقمم مرتفعة، منتهية بزوايا حادة وبالغ في إطراء عظمتها مصورًا قممها مصنوعة من الماس[٣٢] ولكنه يرفض قبول فكرة أن هذه الأهرامات كانت «مخزن غلال الفراعنة» وهو ما سبق وذهب إليه بيير بولون .Pierre Belon، أكد تيفيه Thevet فكرة هيرودوت «Herodote» قائلاً: «هي مقابر الملوك، فقد رأيت في إحداها حجرًا كبيرًا من المرمر المصقول على هيئة قبر».

وقد أشار في سطوره إلى رأس تمثال عملاق قامت إيزيس معشوقة جوبيتر بطلب نحته[٣٣]ولم يعقد بينها وبين أبي الهول أي صلة. وشكل هذه الرأس الضخمة ذات الشعر المجعد، رومانية السمت، الموضوعة بين الأعشاب والزهور في حقل يانع الخضرة به الكثير من الغرابة.

انتقل أندريه تيڤيه Andre Thevet بصحبة طبيبين من البندقية إلى أهرامات سقارة لينقب في القبور ويبحث عن المومياوات، ضالة المشتغلين بالكيمياء والعطارة والصيدلة في عصر النهضة. فقد كان هؤلاء يصنعون مسحوقًا رائعًا ذا قدرات خارقة على الحماية، يبيعونه كإكسير لطول العمر. ويقال إن فرنسوا الأول لم يكن ينتقل بدون مسحوق المومياوات الثمين.[٣٤]

وفي نهاية القرن السادس عشر، كان الارتحال إلى سقارة قد أصبح أمرًا تقليدياً مألوفًا. يبدأ الحاج رحلته إلى القدس وينتهي بانتهاك حرمة القبور الوثنية في مصر. ممن سلكوا هذا الطريق، نذكر السيد دي ڤيلامون Sieur de Villamont الذي نشير إليه في عجالة. وصف دي ڤيلامون في سطوره (١٥٩٨) إيطاليا واليونان وتركيا والأراضي المقدسة. وخصص في كتابه الثالث فصلين «للقاهرة الكبرى» و«الأهرام والمومياوات». مر بالقاهرة في مارس ١٥٩٠، وأعجب أيما إعجاب بالقصر ذي الجدران المكسوة بالمرمر والأبواب والنوافذ المرصعة بالأصداف والأبنوس والبلّور والفسيفساء التي جمّل بها فنانو العصر ما تبقى.

ووصف دي ڤيلامون Villamont للأهرامات وأبي الهول الذي يرتفع فوق عمود مرمري من قطعة واحدة ليس مثالاً الدقة. ومن الصعب قبول ما ساقه من إمكانية رؤية دير الأنبا مقار من ضفاف النيل وتأكيده بأن منطقة الدير مليئة بأحجار النسر التي تستخدمها النساء في تيسير الولادة[٣٥] من هنا وجب التحفظ بعض الشيء في الأخذ بما كتب.

بيد أن ما ذكره عن منطقة سقارة يستحق الاهتمام لأنه الأول، بل والرحالة الوحيد في القرنين السادس عشر والسابع عشر الذي استطاع بدقة تحديد موقع ممفيس[٣٦] والوصول إلى أطلال وبقايا بها هيئة مدينة[٣٧] ففي العصور التالية، نلاحظ أن الأمر قد نسي برمته وأن النقاش قد احتدم من جديد حول تحديد موقع هذه العاصمة الشهيرة[٣٨].

عجل الغزو التركي عام ١٥١٧ من تدهور مصر السياسي إلا أنه وللغرابة كان في مصلحة فرنسا حليفة الحاكم وفي مصلحة توسعاتها في الشرق. ففي القرن الخامس

عشر كان حال التجارة قد ساء نتيجة تنافس فرنسا الشديد مع تجار البندقية. إلا أنه بفضل الامتيازات التي تم التوقيع عليها عام ١٥٣٥ بين سليمان وفرنسوا الأول، استعادت العلاقات التجارية مكانتها في أساكل الشرق. وقد سارع التجار القادمون من مارسيليا ومونبلييه إلى تثبيت أقدامهم في الإسكندرية ورشيد بمجرد علمهم أنهم بمنأى عن قضاء السلطات التركية في مصر وأن تبعيتهم لن تكون إلا لقناصلهم. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر، استطاع هؤلاء التجار الاستفادة من أفول نجم البندقية وصراعها مع الباب العالي، وحلّوا محل منافسيهم القدامى.

وقد نظم الفرنسيون أنفسهم في مصر في شكل «أمة» تحت حماية باشا القاهرة الذي ينوب عن الوالي الكبير وأصبح لهم قناصل ووكلاء قناصل في مصر

وقد استقبل هؤلاء السيد دارامون M.d'Aramont عام ١٥٤٩ بالإسكندرية(٣٩) والسيد بوڤو Beauveau عام ١٥٠٥ بالقاهرة(٤٠)استقبالاً رسمياً.

من هنا نرى أنه بعد رهبان وفرسان العصور الوسطى جاء التجار ومعهم القناصل ومبعوثو الملوك المكلفون بحمايتهم. وبالتالي ظهرت نوعية جديدة من الرحالة: التاجر المكتشف كان من يرتحلون إلى القاهرة قبل ذلك حجاج فلسطين الذين يجذبهم في المقام الأول القدس والكرسي الرسولي. ولم تكن مصر في خط سير ذهاب وعودة النبلاء والفرسان والرهبان الفرنسيسكان. لم يكن مرورهم بها إلا استكمالاً لرحلتهم إلى الأماكن المقدسة. وكان جبل سيناء حينئذٍ هو هدفهم فيها وليس شجرة العذراء أو كهف أبي سرجة.

****

BIBLIOGRAPHIE

- Jehan Thenaud, de Voyage L'Outremer (Egypte, mont Sinaï, Palestine) suivi de la relation de l'ambassade de Domenico Trevisan auprés du soudan d'Egypte en 1512, publié et annoté par Ch. Schefer, Paris, Ernest Leroux, 1884[1].

- Greffin Affagart, Relation de Terre Sainte (1533-1534) publiée pour la premiére fois par J. Chavanon, Paris, Lecoffre, 1902.

- Pierre Belon, Les obsérvations de plusievrs singularitez et choses mémorables trouvées en Gréce, Asie, Judée, Egypte, Arabie et autres pays estranges, rédigées en 3 livres par Pierre Belon, du Mans, petit in 4°, Paris, 1553 et in 8°, Paris, 1554 et 1555.

- André Thevet d' Ascoui.éme, Cosmographie du Levanl, Lyon, Jean de Tournes et Guil. Gazeau, 1556.

- Le voyage de M.d'Aramon, ambassadeur pour le Roy en Levant (1549) escript par noble homme Jean Chesnau, l'un des secrétaires dudict Seigneur Ambassadeur, publié et annoté par Ch. Schefer, Paris, Ernest Leroux, 1887.

- S' de Villamost, Les voyages du sieur de Villamont, divisez en troix livres,... etc. Et au troisiéme est la description de Syrie, de Damas, Phénicie, Egypte, Damiette, du grand Caire, de Babylone, des anciennes Pyramides et Mommies,... éd. par Gilles Baudhuin, 1595-1598. - Derniére édition revue et augmentée, Arras. Guillaume de la Riviére, 1606.

- Palerme, (Jean), Pérégrination ou il est traicté de plusieurs singularitéz et antiquités remarquées es provinces d'Egypte, Arabie déserte et pierreuse..., etc, Lyon, 1606.

مخطوطات بعض الرحالة الفرنسيين إلى مصر من القرن الرابع عشر وحتى القرن السابع عشر.

****

(1) D'aprés la bibliographie donnée par Xavier Marmier (qui fut conservateur de la Bibliothéque de Sainte-Geneviéve) en téte de son ouvrage: Du Rhin au Nil, il y eut une éditio rarissime du Voyage de Jean Thenaud vers 1513: "Le Voyage et L'Irinéraire de Oultremer faict par pére Jehan Thenaud, maistre és arts, etc., d'Angoulême, et premiérement dudit lieu d'Angoulesme jusqu'au Caire, Paris, in 8° gothique".

MANUSCRITS DE QUELQUES VOYAGEURS FRANÇAIS EN EGYPTE DU XIV° AU XVII° SIECLE

De Mandeville (Jean), Relation de voyage [pélerinage en 1336] B.N.: n. a. 4515.
Chesneau (Jean), Voyage de Paris en Constantinople, celuy de Perse avec le camp du Grand Turc. de Judée, d'Egipte et de la Gréce par Jehan Chesneau (1547-1552) B. N.: ms. fr. 20152.

De Pavie, seigneur de Froquevauls (François), Relation d'un° voyage fait l'an 1585 aux terres du Turc. B. N.: n. a. 6277.

Savary de Brève (François), Discours de M. François Savary de Bréve (Voyage en 1605) B.N.: ins. fr. 24215.

Recueil de lettres du sieur Du Ryer, consul de France en Egypte (1623-1625) B.N.: ms. fr. 16161

Lambert (Cœsar), Relation du sieur Cœsar Lamberl de Marseille, de ce qu'il a vu de plus remarquable au Caire, Alexandrie et autres villes d'Aegypte (1627-1631). B.N.: ins. Coll. Dupuy 669.

Description de la situation de l'Egypte, écriture du XVII siècle, 358 pages, ms. n° 289. à la Bibliothéque de Lille. Voir la table des matiéres et une lettre extraite du manuscrit dans Le Glay: Bibliothéque de Lille, manuscrits, Lille 1848, P. 239.

****

الهوامش

١ – يوميات رحلة إلى القدس وأماكن عبادة أخرى في مصر والأراضي المقدسة بقلم النبيل سيمون دي سار بروش فارس وبارون انجلور إلى أسقفية Troyes ١٣٩٥،

Simon de Sarebruche, Journal, Troyes, No 1 Moreau, 1621 (in-12)

صدرت في طبعات لاحقة: ١٨٥٨ الناشر «L'abb Domenech»

MM. Bonnardot et A. Longnon Société des anciens textes français.

– للمزيد من المعلومات عن جون دي ماندڤيل Jean de Mandeville يمكن مراجعة السيرة القومية لبلجيكا».

– الجزء الثالث عشر H. Pirenne, Biographie nationale de Belgique

– بالنسبة لهؤلاء الحجاج، كانت الأهرامات التي يطلق عليها أيضًا مخازن غلال يوسف نوعًا من المخازن العملاقة، جمع فيها البطريرك يوسف(*)، وزير فرعون آنذاك، مخزونًا من القمح تحسبًا للمجاعة الكبرى في مصر. وتحمل قبة كنيسة سان مارك في مدينة البندقية في زخارفها تصويرًا لهذه الأسطورة.

٢ – رحلة جلبرت دي لانوي Ghillebert de Lannoy نشرت استنادًا إلى مخطوط مكتبة La Bodieian.

R. John Webb, Archoelogia. t.xxi, 1827

– راجع أعمال Ghillebert الرحالة والدبلوماسي والكاتب الأخلاقي المنشورة عام ١٨٧٨ في Louvain بواسطة M. Potvin ص ص ٦٦–١٧٨.

٣ – رحلة جورج لينجيراند georges Lengherand إلى البندقية وروما والقدس وجبل سيناء والقاهرة (١٤٨٥ – ١٤٨٦) نشرها المركيز Mons, Codefroy ١٨٦١ .

٤ – راجع مقدمة كتاب Ch. Schefer عن رحلة جيهان تينو وراء البحار

Voyage d'Outre-mer de Jehan Thenaud - Paris, Leroux, 1884

٥ – اللوحات معروضة في متحف اللوفر تحت رقم ١١٥٧ .

٦ – الناشر Schefer ص ص ٤٦–٤٧.

---

* المقصود هو النبي يوسف عليه السلام.

٧ – Sarthe.

٨ – الناشر: Chavanan ١٩٠٢ ص ٥٢.

٩ – نشر بيير بولون Pierre Belon الطبيب الحاصل على الدكتوراه من جامعة باريس [١٥١٨–١٥٦٤] غير كتابه عن الرحلات الذي نشر عام ١٥٥٥، كتابًا عن تاريخ الأسماك وآخر عن تاريخ الطيور. وكان يعد لمؤلفات جديدة عندما اغتاله أحد أعدائه بالقرب من باريس عام ١٥٦٤. وكان هنري الثاني قد شجعه وكذا شارل التاسع. جمعته صداقة بكاردينال تورنون Tournon الذي تولى إمداده بالمال وغطى جميع نفقات رحلاته.

١٠ – طبعة ١٥٥٥ الفصل ٢١.

١١ – ذات الطبعة الفصل ٢٥.

١٢ – ذات الطبعة الفصل ٣١.

١٣ – ذات الطبعة الفصل ٣٥ و٣٨.

١٤ – ذات الطبعة الفصل ٣٥.

١٥ – ذات الطبعة الفصل ٣٦.

١٦ – ذات الطبعة الفصل ٣٧.

١٧ – ذات الطبعة الفصل ٣٨.

١٨ – ذات الطبعة الفصل ٤٠.

١٩ – ذات الطبعة الفصل ٤٢ و٤٥.

٢٠ – تم رفع أول نقوش من الهرم الأكبر عام ١٥٠٤.

٢١ – اتهم بولون في عصره بسرقة النسخة الخطية للعالم بيير جيل Pierre Gilles ونشرها باسمه. وبيير جيل هو مؤلف كتاب عن حياة وطبيعة الحيوان De vi et natura animalium 1533 وكان فرنسوا الأول قد ابتعثه إلى الشرق. وبعد وفاة هذا الأخير عام ١٥٤٧بقي الكاتب بدون مورد مما اضطره لتدبير معيشته بالانضمام إلى قوات سليمان الثاني. وقد وقع أسيرًا لدى قراصنة واقتيد إلى الجزائر. وقد أطلق سراحه بجهود الكاردينال دارميناك d'Armagnac القائم بأعمال فرنسا في روما ومات إلى جواره عام ١٥٥٥.

٢٢ – ذات المرجع ص ٩٢.

٢٣ – ذات المرجع ص ١٠٦.

٢٤ – ذات المرجع الفصلين ٥٣ – ٧٠.

٢٥ – ذات المرجع الفصل ٢٣.

٢٦ – كان أندريه تيڤيه Andre Thevet كاتبًا متواضعًا إلا أنه لدى عودته إلى فرنسا عام ١٥٥٦، أصبح بفضل كاترين دي مديتشي مؤرخًا وكوزموغرافي الملك. وندين له بالإضافة إلى كتابه كوزموغرافية الشرق بمؤلف تاريخ المشاهير Histoire des Hommes Illustres وهو زخم من الأساطير والحماقات. ويقال إنه أول من أدخل التبغ إلى فرنسا.

٢٧ – طبعة ١٥٥٦ الفصل ٣٥.

٢٨ – ذات المرجع الفصل ٤٠.

٢٩ – ذات المرجع الفصل ٣٥ ص ١٢٠.

٣٠ – ذات المرجع الفصل ٢٣.

٣١ – ذات المرجع الفصل ٣٩ ص ٤٢.

٣٢ – لا شك أن الأمر اختلط عليه فحسب أن قمم الأهرامات تماثل نهايات المسلات الهرمية الشكل والمكسوة بالذهب.

٣٣ – ذات المرجع الفصل ٤١ ص ١٥٢.

٣٤ – چوزيف ميشو «مراسلات الشرق»، المجلد الخامس ص.ص ٣١٥ – ٣١٦.

Joseph Michaud, Correspondance d'Orient, Vol. V, p 315-316

٣٥ – طبعة ١٥٩٨ الباب الثالث، الفصل ١٢ ص ٥٦٨ نفس الملاحظات في رحلة أ. دارامون M.d'Aramon سفير هنري الثاني إلى سلطان تركيا والذي وصل إلى القاهرة في أغسطس ١٥٤٩ – طبعة Schefer ص ١٢٩ ولن يتأتى لنا دراسة هذا الكتاب هنا لأنه يفضي بالقارئ إلى تركيا وسوريا وبلاد فارس ولا يتناول مصر إلا في عشر صفحات ص. ص ١٢٨ – ١٣٨.

٣٦ – طبعة ١٥٩٨، الباب الثالث، الفصل ١٣ ص ٥٨٧.

٣٧ – وجد مكانًا به جثث آلاف من سكان مدينة ممفيس.

٣٨ – انظر ص ٥٨٤ من المرجع السابق الإشارة إليه.

٣٩ – رحلة السيد دارامون – دار نشر Schefer ص ١٣٤.

Voyage de M.d'Aramon ed. Schefer p 134.

٤٠ – ينتمي هنري بارون دي بوڤو إلى عائلة شهيرة ينحدر منها أمراء دي بوڤو Beauveau. وقد عمل في بدء الأمر مع الدوق دي باڤيير duc de Bavière ثم أصبح سفيرًا للدوق دي لورين duc de Lorraine في روما. وقد حارب الأتراك ضمن قوات الإمبراطور رودلف Rodolphe وفي عام ١٦٠٥ صاحب البارون دي ساليناك Salignac إلى القسطنطينية حيث تولى مهام السفارة خلفًا لساڤاري دي براڤ Savary de Brves. راجع لاحقًا ص ٢١ الحاشية ٣.

****

الفصل الثاني

الرحالة الفرنسيون في القرن السابع عشر

اتجهت فرنسا خلال فترة حكم لويس الرابع عشر إلى الشرق. فقد جدد الملك الامتيازات التي كان فرنسوا الأول قد وقعها واستقبل أعضاء سفارات تركيا ١٦٦٩ وسيام ١٦٨٤ و١٦٨٦ وفارس ١٧١٥. كان فكر كولبير Colbert في هذه الفترة قد تجاوز أساكل الشرق إلى الهند والصين وأثيوبيا. وتصدرت تركيا قائمة ما يشغل فرنسا سياسياً. ووفد إلى القسطنطينية العديد من المبعوثين فوق العادة والسفراء، يحملون جميعهم أسماءً ذائعة الشهرة:

الكونت دي سيزي Le Comte de Cézy، المركيز دي نوانتل[1] Le marquis de Nointel، الكونت دي جيوراج Le comte de Guillerages، البارون دارجنتال Le baron d'Argental ، الكونت دي ڤرچين Le comte de Vergennes، الكونت دي سان بريست Le comte de Saint-Priest إلخ. وكان ما يبعثون به من رسائل يثير فضول القصر، وكثيرًا ما كانت تطرح عليهم الأسئلة لدى عودتهم من مهامهم.

ألم يستلهم راسين وهو يكتب «باچازيه» Bajazet ١٦٧٢ الكثير مما كتبه الكونت دي سيزي؟ وكان هذا النص تحديدًا قد استعين به من قبل في قصة قصيرة ألفها سيجريه Segrais. ألم يستعن برأي السيد دولا هي M.de la Haye وكان عائدًا لتوه من القسطنطينية؟ وموليير Moliere ألم يلجأ وهو بصدد إعداد مسرحيته «البورجوازي النبيل» Le Bourgeois gentilhomme» ١٦٧٠ إلى الفارس لوران

دارڤـي Laurent d'Arvieux مـسـاعـد وشـريك المركـيـز دي نوانتل Le marquis de Nointel قنصل حلب وطرابلس الشام السابق ليعينه في رسم وتصميم ملابس المشهد الخاص باللهو والتسلية على الطريقة الشرقية؟

في كـتــابه «Discours sur l'Histoire Universelle» «حــديث حـول التــاريخ الكوني» وصف بوسويه Bossuet أطلال الكرنك استنادًا إلى ما جاء في سطور راهبين كبوشيين فرنسيين. وكان ڤولتير Voltaire قد لامه لإهماله الشرق.

وضحت معالم الشرق في القرن السابع عشر بفضل العلاقات التجارية والسياسية والبعثات الدينية والدراسات التاريخية والجغرافية واللغوية التي سوف تشكل لاحقًا أساس ما عرف بالاستشراق. مما لا شك فيه أن الشق الأكبر من التقصي والبحث العلمي تم في بلدان غير فرنسا خاصة هولندا وإنجلترا. ولكن هذا لم يحل دون ظهور مجموعة متلاحقة من المستشرقين الفرنسيين النشيطين مثل دي راير Du Ryer قنصل مصر الســابــق الــذي كــان أول مــن تــرجـم معاني سور القــرآن ١٦٤٧ وملشيسدك تيڤونو Melchisèdech Thévenot أمين مكتبة الملك وڤاتييه Vattier أستاذ اللغة العربية في «الكوليج دي فرانس» وأخيرًا هيربولو Herbelot الذي كتب موسوعة عرفت باسم المكتبة الشرقية ١٦٩٧.

وقد ساند كولبير كل هؤلاء العلماء وشجع ليس فقط الرحالة والتجار وإنما فقهاء اللغة أيضًا. وكانت له جهود ملموسة في إدخال تخصصات في «الكوليج دي فرانس» وإيجاد كراسي أستاذية فيها. كما كون فريقًا من المترجمين الفوريين إلى اللغات الشرقية في خدمة الملك. من هذا الفريق برز المترجم جالان Galland ومجموعة «بتي دي لاكروا» «أبناء الصليب». وخرجت في هذه الفترة من فرنسا بعثات أثرية توجهت طبقًا لأوامر كولبير إلى مصر وآسيا الصغرى. وقد رصد هذا الأخير مبالغ كبيرة لشراء الأيقونات الأثرية وقطع الرق. من هنا علا رصيد القصر من المخطوطات العربية القيمة. وساهمت هيئتان بكل ثقلهما في إذكاء هذا الفضول وهما «الكوليج دي فرانس» بكراسي الأستاذية التي خصصت فيه للغات العربية والتركية والفارسية «وأكاديمية النقوش والآداب» التي

أعيد تنظيمها في نهاية القرن السابع عشر. وكان علماء هذه الفترة بصفة عامة يتبعون الاثنتين يدرسون في واحدة ويتشاورون في الأخرى مع زملائهم في ما وصلوا إليه من نتائج. ويصفهم ب. مارتينو P.Martino في الصالونات بقوله: «علمهم يزدان بالمخرمات».

كانت أعمالهم محور الأحاديث، سلبًا أو إيجابًا... لم يعر أحد هذا الأمر اهتمامًا كانوا يتحدثون عنها فحسب.

من هنا فلم يكتف الرحالة بالاتجار. سعوا إلى أن يتم تكليفهم من قبل كولبير Colbert وبونشارتران Ponchartrain بمهام وطلبوا دعم الأكاديميات وخزانة الأوسمة ومكتبة الملك. وانطلقوا يكتبون جاعلين من أنفسهم كتّاب وقائع وحوليات. ونظرًا لمساندة لويس الرابع عشر ووزرائه وسفرائه وقناصله لهم، رأوا ألا يهملوا ما كتبوه من يوميات وملاحظات أثناء رحلاتهم. ولإضفاء مصداقية على سطورهم، اتخذوا من العلماء و«الرجل الفاضل» والبلاط ورجالات الأدب شهودًا على مغامراتهم العجيبة والمحفوفة بالأخطار.

كان هذا ما شغلهم وهو ما ندين له بكتابات التاجر تاڤرنييه Tavernier والفارس شاردان Chardin والطبيب بارنييه Bernier عن أسفارهم إلى بلاد فارس والهند وبسطور «رحلات إلى الشرق» Les voyages au levant لجون دي تيڤونو Jean de Thevenot الذي كان أول من أدخل البن والقهوة إلى فرنسا عام ١٦٥٦.[٢]

إلى قائمة التجار المنشغلين بالآثار والاكتشافات معًا والباحثين عن المنقوشات والتماثيل والمخطوطات القبطية والعربية، تجدر إضافة المبشرين من رهبان الكبوشية والجزويت الذين حضروا إلى مصر للتبشير وتنصير غير المسيحيين. هؤلاء أيضًا كانوا يكتبون ويبعثون بتقارير طويلة عن أنشطتهم إلى رؤسائهم في فرنسا. كلا النوعين من الكتابات جدير بالاهتمام غير أنه يجب التعامل معهما بشيء من الحيطة.

واهتمام هؤلاء بالكتابة عابر. فالكثير منهم، خاصة العلمانيين لم يكتبوا هذه المذكرات بأنفسهم وإنما استعانوا بآخرين. وهم لا يترددون في سرقة بعضهم البعض ونسب اكتشافات ومغامرات السابقين عليهم إلى أنفسهم. وبالتالي وجب الحد من الثقة التي

نوليها لسطورهم. وهم بصفة عامة يكررون أنفسهم، ومن ثم يضاعفون أخطاءهم، ودراساتهم مضجرة ومثيرة للسأم.

لست أنوي فحصها كلها، غير أنه من الضروري الوقوف أمام أبرزها لأن إليها سوف يرجع كبار الكتّاب أمثال ڤولنيه Volney وشاتوبريان Chateaubriand عندما يستشعرون لدى عودتهم الحاجة إلى التأكد من دقة ذكرياتهم.

منهم نستقي معلومات عن هذه الحقبة في مصر مما يساعد في تحديد صورة مكانية وزمانية للفترة التي شد الكتّاب المحترفون فيها الرحال إلى مصر. أعدت قراءة كتاب شاتوبريان Chateaubriand «رحلة من باريس إلى القدس» «Jtinéraire de Paris à Jérusalem» بهدف البحث عن انطباعاته الشخصية. وأقر هنا أنني لم أندهش لهذا التصريح منه: «لن يتوقع أحد مطلقًا أن أصف مصر: سبق لي الحديث بإفاضة عن أطلال أثينا لإنها لم تكن معروفة إلا لدى هواة الفن. وتركت قلمي لأدق التفاصيل عن القدس لأن هذه المدينة كانت مقصدي. ولكن ما الذي في جعبتي عن مصر؟ من لم يرها حتى وقتنا هذا؟

كانت رحلة السيد ڤولنيه Volney عملاً أدبيًا رفيعًا في كل ما نأى عن البحث والتنقيب. وهي أمور استنفدها سيكار Sicard ونوردن Norden وبوكوك Pococke وشو Shaw ونيبور Niebuhr وآخرون .. حملت رسومات السيد دونان Denon ولوحات معهد مصر إلى أنظارنا آثار طيبة وممفيس.

مثل هذا القول يفتح أمامنا آفاقًا ذات دلالة حول أدب الرحلات في القرنين السابع عشر والثامن عشر. بالبحث في طياته، سنتمكن من تحديد كيفية تطور معارفنا ونرصد تفسيراتنا له قبل مقدم أمراء التيار الرومانتيكي.

لنقتفي إذًا خطوات رحالة القرن السابع عشر في مصر ونرى كيف يدخلونها وكيف يعيشون في جنباتها؟ في أي الأجواء يكونون حين تطأ أقدامهم أرضها؟ وما هو حال الجالية الفرنسية التي تستقبلهم؟

لم تكن الإسكندرية في ذلك الوقت إلا حقلاً واسعًا من الركام. بين الأطلال الرومانية اليونانية وبقايا العصور الوسطى، كانت تقيم فيها مجموعات سكانية لا تتجاوز بضعة آلاف نسمة متواضعة الحال تقوم بالتجارة مع تجار إقليم بروڤانس الفرنسي والبندقية.[٣]

ليس هناك تعبير أدق ولا أكثر إيحاءً من الوصف المزري الذي قدمه مدرب الجياد دي كاستل Du Castel في كتابه: «رحلات السيد دي براف Les voyages de M. de Brèves سفير فرنسا في تركيا. كان الفرنسيون الذين يقيمون بها تجارًا بالعمولة من القاهرة مكلفين بمراقبة شحن وتفريغ البضائع. كانوا يقطنون في باحة سوق مربعة الشكل أشبه بالنزل المغربي، وضعت تحت تصرفهم بأمر من الوالي الكبير، وهي مساحة فسيحة تحيط بها حوائط عالية يتخللها بابان للعربات ويتوسطها مكان مبيت أشبه بالدير.

وكانت مدينة رشيد هي ميناء تخزين بين الإسكندرية والقاهرة، مدينة جديدة تعج بالخيرات. وكانت، إذا وثقنا في وصف دي كاستل Du Castel أكبر مدن مصر بعد القاهرة وأفضلها معمارًا. كان الموظفون التجاريون الفرنسيون المستقرون في هاتين المدينتين البحريتين يعيشون في ظل قانون نائب القنصل. فالقنصل كان يقيم بالقاهرة مع العدد الأكبر من أفراد الجالية.

طبقًا لكتابات الأب ج. كوبان J. Coppin الذي وصل إلى هناك عام ١٦٣٨ كان هناك نبلاء من مارسيليا ومنهم القنصل السيد دي برمون M. de Bermond وتجار من منطقة اللانجودوك وتاجر من ليون يدعى برتييه Berthier وهو من هواة جمع الآثار والأحجار الكريمة. إلى جانب هؤلاء كان هناك راهب من رهبان القديس فرانسيس وراهبان كبوشيان وبعض صغار الحرفيين. وأغلب هؤلاء من وسط فرنسا. سكن كل هؤلاء في حي الفرنجة، الموسكي حاليًا، والذي تغلق أبوابه ليلاً بالقرب من الخليج الذي يتم عبوره بواسطة جسر تحف به البيوت من الجانبين. وكانوا يلتقون في القداس المقام بالقنصلية والحفلات التي تقام احتفالاً بميلاد ولي العهد أو انتصارات ملك فرنسا.

ورغم عداء أبناء البلد والذي تتم بالكاد مواراته، ورغم الإهانات وأساليب التحرش المتكررة[٤] فإن هؤلاء الفرنسيين، حين لا يجبرهم الطاعون على ملازمة ديارهم، ينطلقون بهمة إلى أعمالهم على ظهور دوابهم بصحبة أحد جنود الإنكشارية.

ألم يكن الأمر يتطلب أن يزيغوا أبصار المماليك بأبدع المنسوجات الحريرية التي جلبوها من ليون وأقمشة منطقة اللانجودوك الفاخرة والسعي إلى الحي العربي لشراء الصمغ والبخور والجلود والعاج التي أتت بها القوافل؟.

كان بعضهم لا يتردد في التنكر ومشاركة المصريين احتفالاتهم ومناسباتهم الشعبية بل ويخاطرون بالذهاب حتى فم الخليج لحضور الاحتفال السنوي بفيضان النيل وإلى مصر القديمة لزيارة الكهف الذي آوت إليه العائلة المقدسة في رحلتها. وقد يغامرون بمصاحبة رحالة مولعين بالمومياوات إلى منطقة سقارة.

من الفرنسيين الذين أتوا إلى مصر في النصف الأول من القرن السابع عشر نذكر راهب بوردو الفرنسيسكاني هنري كاستلا Henri Castela ١٦٠٠ وسفير براف Breves ورفيقه السيد بوڤو Beauvau ١٦٠٤ والسيد فرمانل Fermanel المستشار ببرلمان نورماندیا ١٦٣١ والأب ج. كوبان J.Coppin ١٦٣٨ والسيد بلتازار دي مونكوني Balthazar Monconys الملازم الإشرافي في محكمة المشرفين الملكيين بليون ١٦٤٤ وفارس مارسيليا لوران دارڤيو Laurent d'Arvieux ١٦٥٨الذي ساعد موليير في تنفيذ الفواصل الترفيهية في مسرحية «البورجوازي النبيل» Le Bourgeois Gentilhomme.

وقد تساعدنا كتابات الأب كوبان والفارس دارڤيو في رسم لوحة للحياة في القاهرة في بداية حكم لويس الرابع عشر. ولكن هذا ليس مبتغانا لذا فلن نتعرض لهما هنا بالتحليل. فدراستنا تنصب على الرحالة الذين أضافوا جديدًا لمعاصريهم وساهموا كلٌ في أوانه وحينه في اكتشاف القارئ الفرنسي تدريجياً لمصر.

ما نسعى لتثبيته هو ما جلبته الأجيال المتعاقبة من معلومات والأشكال المختلفة التي اتخذتها الإغرابية المصرية في المخيلة الفرنسية على مر القرون. بعبارة أخرى نسعى إلى كشف ملامح مصر الفرعونية فور إماطة الرحالة التدريجية للفائف الكتان من حولها. ما كتبه الأب كوبان عن رحلته التي قام بها عام ١٦٣٨، لم ينشر إلا عام ١٦٨٦ أي بعد نشر مذكرات جون دي تيڤونو Jean de Thevenot والأب ڤانسلب Pere Vansleb مما يعني أن أي معلومة قد أضافها إلى القراء، كان قد مر عليها نحو نصف قرن.

كان الكاتب قنصلاً سابقًا لفرنسا في دمياط وعضوًا بالمجلس البلدي في الأراضي المقدسة. وقد انتظر فترة الراحة والاعتكاف بالدير ليكتب مذكراته التي كان لوڤوا Lou-vois قد تحمس لنسختها الخطية عام ١٦٦٥.

في السبعين من عمره، أجرى بها بعض التعديلات وضمنها مجلدًا كبيرًا مثيرًا للجدل بعنوان: «درع أوروبا أو الحرب المقدسة». لم يكن مجمل هذا العمل إلا نداءً إلى مسيحيي العالم ضد غير المؤمنين بالمسيحية، وتحريضًا لكل ملوك العالم الكاثوليك يحضهم على شن حرب صليبية جديدة ضد الأتراك. ويعرض الأب كوبان Le Pere Coppin خدماته لتحديد نقاط الضعف لدى الأتراك وكشف وهن قواهم. ورغم أن ما كتبه له قيمته وأسانيده إلا أن هذه النبرة العدوانية أفقدته الكثير. ولم تظهر الطبعة الثانية من سطوره إلا عام ١٧٢٠.

وقد لقيت كتابات الفارس دارڤيو d'Ar vieux (١٦٣٥ - ١٧٠٢)[٥] ذات المصير. قرأها الملك وأفاد موليير من محتواها. غير أن عامة المثقفين في عصر لويس الرابع عشر لم يتسنَ لهم الإفادة من تجاربه. فمذكراته عن أسفاره إلى الشرق من ١٦٥٣ إلى ١٦٨٣ والتي لا تضم إلا جزءًا بسيطًا عن رحلته إلى مصر [٦] ١٦٥٨ نظمها ونشرها الأب ج. لابات J. Labat عام ١٧٣٥ بعد نحو قرن من كتابتها. وبالتالي رأت هذه المذكرات النور في عصر كان على دراية بكل الأمور مما نشره معاصروه والكتّاب اللاحقون له.

ويمكن اعتبار هذه المذكرات منتمية إلى كتابات القرن الثامن عشر وقياسًا على تاريخ نشرها فإن ما بها لا يحوي جديدًا وتنحصر أهميته في إلقاء ضوء بأثر رجعي على ما كان. وأضيف هنا أن من قام بجمعها قد تأثر تأثرًا كبيرًا بكتابات جون دي تيڤونو Jean de Thevenot التي نشرت عام ١٦٦٤ والتي سأتناولها فيما بعد وقت الحديث عن أدب الرحلات في النصف الثاني من القرن السابع عشر.

بعض ما جاء في وصفه لأطلال وكنائس الإسكندرية [٧] وسحر رشيد[٨] وأنواع التعذيب الذي يلقاه المجرمون[٩] وفحش الأولياء[١٠] مأخوذ كله من كتابات الرحالة الكبير.

يتبقى لدينا من أدب الرحلات في النصف الأول من القرن السابع عشر كتابات السفير دي براف de Brèves والمستشار فرمانل Fermanel والملازم أول بلتازار دي مونكوني Balthazar de Monconys. وهي لا تمدنا بمعلومات إلا عن القاهرة والإسكندرية وبالتالي يبقى صعيد مصر مجهولاً.

الحق أن رحلة صاحب الفخامة فرنسوا ساڤاري François-Savary سيد منطقة براف Brèves الذي درب الملكة على ركوب الجياد وكان مسؤولاً عن غرفة الملك (١٥٦٠ - ١٦٢٨) لم تصل إلينا من خلاله وإنما عن طريق مدرب جياده السيد دي كاستل Du Castel بعد وفاة ساڤاري، جمع دي كاستل عام ١٦٢٨ ما كتبه عن رحلاته إلى اليونان والأراضي المقدسة ومصر وممالك تونس والجزائر، وضم إليها المعاهدة المبرمة عام ١٦٠٤ بين الملك هنري الأكبر وإمبراطور الأتراك السلطان حشمت الأول Achmet بالإضافة إلى ثلاث خطب كان قد ألقاها ساڤاري.

رأى دي كاستل Du Castel أن سيده شخصية هامة جديرة بإبراز قدرها العلمي ومكانتها الدبلوماسية. فقد مثل طيلة اثنين وعشرين عامًا جلالته دينياً في القسطنطينية ودافع هناك عن مصالح الملكة وقاوم النفوذ الإنجليزي وحظي بامتيازات استثنائية باعتراف العلماء والباحثين. حين عين سفيرًا في روما عام ١٦١١ قام بمساعدة اثنين من المارونيين على طبع ex typographia savariana مجموعتين من النصوص والقواعد النحوية العربية على نفقته الخاصة. وقد كافأته ماري دي مديتشي على نشاطه بتكليفه بتعليم ابنها الثاني جاستون دورليانز Gaston d'Oreans، لمدة ثلاث ـزات كما قام الملك لويس الثالث عشر بعد وفاته، بشراء الحروف العربية الخاصة به وضمها إلى المطبعة الملكية. تم له إذًا التكريم وعرفان القدر من قبل فرنسا والشرق.

لسوء الحظ لم يزر ساڤاري أرض مصر إلا مرة واحدة (سبتمبر - نوڤمبر ١٦٠٥) لزيارة أساكل الشرق Les Echelles du Levant et la Barbarie لإطلاق سراح مساجين مسيحيين لدى المسلمين. هذه الرحلة، لم يجاوز حديث دي كاستل عنها في ما كتبه الخمسين صفحة. وقد رأى فيها ساڤاري الإسكندرية ورشيد والقاهرة والأهرامات.

لدى وصوله، استقبله وابل من المطر[11]، وأذاقه البعوض بعض المعاناة في رشيد[12]. وأدهشته في رحلته على صفحة مياه النيل رؤية التماسيح[13] وأفراس النهر[14] وبساتين النخيل والقرى المتنقلة التي يطلق عليها اسم «الدوار» ويسكنها البدو الرحل وهي مصنوعة من أقمشة منسوجة من الصوف وشعر الماعز[15]. ويصف دي كاستل Du Castel بلطف وكياسة ثياب النساء ووشمهن وما يتحلين به من أفيكات مصنوعة من الفضة ومعدن الشبهان[16] يعلقنها في شعورهن. وقد شد انتباهه في القاهرة، التباين الواضح بين الأثرياء والعامة فمنازل الأثرياء جميلة، ذات صحون ونوافير[17] وسقوف مذهبة لازوردية وهو ما يشي برغد حياة المماليك القدامى والشراكسة. أما العامة ذوو المظهر المزري فيملأون الشوارع وهم «أناس يكادون يكونون عراة، يعانون إما كف البصر أو العور أو الإرهاق ويتسمون بالقذارة»[18]

باعتباره مبعوثًا فوق العادة للملك المسيحي المتشدد دينيًا، فقد استقبله لدى وصوله إلى بولاق، قنصل البندقية وبالتالي لم يتعرض للتخوف العدائي من قبل السكان. وقد صاحبه إلى القصر موكب من رجال السلاح وجنود الانكشارية ليزور الباشا ونظرًا لكونه مفوضًا ومعتمدًا لدى الوالي الكبير، فمن الطبيعي أن يكون في استقباله مندوب عنه يلقاه بالحفاوة اللائقة بمركزه.

بعد الزيارة التقليدية لعين المطرية وكهف مريم العذراء في مصر القديمة وهو حي يسكنه مسيحيون أقباط فقراء ولهم فيه عدة كنائس أثرية.[19] زار ساقاري الأهرامات وسقارة. وقد اشترى خلال هذه الرحلة مومياءً لحسابه الخاص. ولدهشته وجد بداخلها «حيوانًا من الحجر على هيئة خنفساء»[20] وقد سارع من جاؤوا بعده في البحث داخل التوابيت عن هذه الجعارين الثمينة وبيعها إلى ديوان الملك بأسعار غالية[21].

ويمثل كتاب «رحلة إيطاليا والشرق» Le Voyage d' Italie et du Levant الذي اشترك في تأليفه السادة فرمانل Fermanel مستشار برلمان إقليم النورماندي وفوڤل Fauvel المسئول عن المالية في ذات الإقليم والسيد دودو ڤيل Doudeauville وبودوان ديلونيه Bau douin delaunay ودي ستو شوف Stochove والنبيل الفلمنكي السيد

دي سانت كاترين Sieur de Sainte Catherine، مزيجًا من مذكراتهم جميعًا. قام هذا الجمع المتميز بزيارة مصر في سبتمبر - أكتوبر ١٦٣١، غير أنهم لم يفردوا لها في مؤلفهم المنشور عام ١٦٧٠ غير ما يقارب الخمسين صفحة.

ولا تحتوي هذه الصفحات على سرد مفصل ومرتب زمنيًا عمّا لقوه يومًا بيوم في رحلتهم، وإنما وصف عام سيق في صورة مقالة في «وصف مصر» وفي «وصف النيل» و«وصف مدينة القاهرة» و«الأهرامات» و«الموميـاوات» وأماكن أخرى. استعار فيها فرمانل Fermanel من دي كاستل Du Castel ورحالة القرن السادس عشر الأرقام المبالغ فيها التي ذكرت ابتغاء إبراز عظمة مصر مثل عدد المساجد الذي يصل إلى اثنين وعشرين ألف مسجد[٢٢]، وعدد الشوارع الذي يماثله. هذه الأرقام سيتداولها كثير من الرحالة بعد ذلك.

في هذا المؤلف، توقف الرحالة أمام ذات النقاط التي أوردها بيير بولون Pierre Belon ودي كاستل Du Castel كأفران فقس البيض والموميـاوات والأولياء مع شيء من الاختلاف. فالأولياء على سبيل المثال ليسوا جالسي القرفصاء عرايا شعث الرؤوس تحيط بهم الهوام وتغزو أجسادهم على أطراف الصحراء. فقد ورد وصف لواحد منهم رفع نفسه على عكازين طويلين معتمرًا قلنسوة مدببة الطرف، يحيط بجذعه نطاق من جلد الثعبان لا يستر لا عورته ولا حلقة الحديد التي تخترق جسمه.[٢٣]

ويشجب الرحالة انعدام القيم الأخلاقية لدى المصريين والذي زادت حدته في القرن السابع عشر لدى احتكاكهم ببعض أنماط السلوك والعادات التي جاءتهم من تركيا. فقد «انتشرت بين سكان هذا البلد أنماط إشباع الشهوة مع الذات أو الأمثال والأشباه لدرجة أدت إلى نفور الرجال من النساء»[٢٤]

في هذا المؤلف ثورة من المضايقات التي يتعرض لها الفرنسيون رغم نظام الامتيازات الأجنبية. فالنزول عن ظهر المطية إجباري، إذا ما لقي الفرنسيُّ «بك» أو أحد

ضباط الباشا. ولا يوجد ما يعصمه في الشارع لدى مروره، من بصقة في الوجه أو ضربة عصا. والمدهش أن المواطنين هم الذين يجأرون بالشكوى بعد ذلك وعلى الأوروبي تحمل التبعات.

أثناء إقامة فرمانل Fermanel بالقاهرة. تم تهديد التجار بعقوبات بزعم رؤيتهم بصحبة مسلمات. ولم يخلصهم من هذا المصير إلا دفع غرامة. مجموعة أخرى من التجار سيقوا تحت وابل من ضربات العصي إلى السجن وتم احتجازهم لخروجهم ليلاً من منطقة الفرنجة. وقد اضطر القنصل إلى دفع مبلغ لإطلاق سراحهم.

وتأتي رحلة السيد بلتازار دي مونكوني Balthazar de Monconys الملازم أول في مقر محكمة المشرفين الملكيين بـ «ليون» بعد ذلك بنحو خمسة عشر عامًا أي عام ١٦٤٦ – ١٦٤٧. درس الفلسفة والرياضيات عام ١٦١٨ في جامعة سالامنك Salamanque. واتجه بعد ذلك إلى الشرق بأمل البحث في العلوم العربية وفلسفة Zoroastre «زرادشت». كانت لهذا العالم صلات بـ سوربيار Sorbiere وكاسندي Gassendi وروبرفال Roberval .وقد تبادل الرسائل مع هوبز Hobbes. وقد ضمّن يومياته التي نشرها عام ١٦٦٥ وصفات غريبة وتذاكر طبية غير مألوفة. وكثيرًا ما كان يخرج عن سياق ما يرويه مضيفًا معلومات فلسفية أو علمية.

أثناء رحلته إلى الإسكندرية في ديسمبر ١٦٤٦، وبعد سماع القداس ومناقشة حاخام يهودي، كتب بحثين أحدهما عن «خلق العالم» والثاني عن «فيضان النيل»(٢٥) وقد حرص على تلقي دروس في اللغة العربية، وحضور القداسات القبطية وزيارة العرافين والعرافات. كان بين مناقشة حول جاليليو ورسالة عن المومياوات، يقتطع بعض الوقت لشراء الجعارين وتأمل حركة الدراويش في الذكر. وبين هذا وذاك وبنفس الدرجة من الدقة، يتناول موضوعات متباينة كطريقة إنضاج التين أو ختان الأطفال. كتابه تشيع فيه الفوضى، إلا أنه يتضمن معلومات مفيدة حول الحياة في القاهرة وانقسامات الفرنسيين على أنفسهم والفوضى التي تعيش فيها الأمة الفرنسية الصغيرة والشعور العدائي بين القنصل السابق السيد برمون Bermond واللاحقين له.

مزقت الخلافات والمؤتمرات الجالية الفرنسية لفترة قاربت العشر سنوات. كان الحكم فيها لمزاران Mazarin وفروند Fronde. ولم يهدأ الأمر إلا بمجيء كولبير Col-bert ووضعه للوائح منظمة لها في أساكل الشرق. ونضيف هنا أنه في ذات الفترة اندلعت الحرب الأهلية في المدينة العربية. وقد حضر السيد دي مونكوني de Monconys لدى عودته من سيناء تنفيذ حكم الإعدام في اثنين من البكوات المماليك.

من هنا نرى أن شوارع القاهرة الضيقة لم تكن أكثر أمنًا من دروب سيناء. كأنه لم يكن كافيًا بالنسبة للرحالة ما يلقاه من قرصنة وحوادث غرق في عرض البحر المتوسط أو احتمالات الاختطاف كما حدث لجون تيڤونو Jean Thevenot وإنما كان عليه أيضًا حين تطأ قدماه أرض مصر أن يتحسب للطاعون والحميات ومضايقات وحروب الشوارع.

يجب عدم الخلط بين الرحالة الباريسي جون دي تيڤونو Jean Thevenot وعمه ملشيسدك تيڤونو Melchisedech Thevenot أمين مكتبة الملك وناشر مجموعة أسفار (١٦٢٠ - ١٦٩٢) فهذا الأخير قام بعدة مهام في الخارج خاصة في جنوة وروما، غير أنه لم يجاوز حدود أوروبا. كان لغويًا متميزًا وبحّاثة نهمًا، هاويًا للكتب والمخطوطات. وكان بغير جدال ذا تأثير على جون وعلى تربيته. علّمه العربية وزوده قبل كل رحلة من رحلاته بما يلزمه من معلومات. وقد توفي عن عمر يناهز السبعين في غرفته في حين مات ابن أخيه شابًا في إحدى رحلاته إلى بلاد فارس.

مع جون دي تيڤونو Jean Thevenot يبدأ عهد الارتحال والسفر، ويظهر نموذج الرحالة المحترف الذي نطلق عليه اليوم كلمة: المكتشف[٢٦]. عنوان كتابه «رحلات السيد تيڤونو إلى الشرق» levant Voyages de M.de Thevenot au وفيه وصف لمصر ولمدنها الرئيسية بكل ما فيها من غرائب (١٦٦٤).

غير أن مصر لم تكن محور اكتشافاته، فقد سافر إلى معظم بلدان أوروبا وتركيا الآسيوية وسورية وفارس ووصل إلى الهند. زار مصر زيارة عابرة عام ١٦٥٢ وبالتالي فليس غريبًا ألا يعرف منها إلا أكثر المناطق يسرًا في الوصول كالدلتا والمناطق المتاخمة للقاهرة.

ما كتبه في هذا الصدد، يجانبه الجمال في الأسلوب والتنسيق، إلا أنه يبقى مشوقًا لصدق المشاعر والانطباعات وصراحة الكلمات. وهو لوحة جمالية لمصر بعد قرن ونصف من الاحتلال التركي. ويتضح من سطور الكاتب عدم اكتراثه بالتدليل والبرهنة أو ربط الملاحظات بعضها بالبعض الآخر. هو يروي فقط لا غير.. يروي ما رأى وما لم ير وينقل حرفياً ما يقال له مثلاً عن شعائر الحج في مكة[٢٧] وعن أثيوبيا[٢٨] أو عن الأديرة القبطية في صحراء الأنبا مقار[٢٩]. وهذا يفسر وجود الكثير مما لا سند له في الواقع. وهو ليس بالعالم الأثري إلا أنه كثير الاهتمام بما خلفه الماضي.

لدى حضوره إلى الإسكندرية التي أظهر الدمار والبؤس والأنقاض لها وجهًا دميمًا مغايرًا تمامًا لما عليه مدينة رشيد من جمال، مضى يبحث في طبوغرافية المدينة اليونانية الرومانية. وقد ورد عنه، أن جزيرة الفنار يصلها إلى أرض الإسكندرية جسر من الأحجار على شكل عقد تتدفق المياه تحته[٣٠]. ومما لا شك فيه أن هذا الجسر من بقايا الرصيف القديم الرباعي الشكل بين الميناءين وصورة مسبقة لبرزخ رأس التين الحالي.

وقد أعجب تيڤونو Thevenot مثل السابقين عليه بعمود بومبيي ومسلات كليوباترا التي لم تكن قد أرسلت بعد، الأولى إلى لندن والأخريات إلى نيويورك. ولم ينس زيارة الكنائس القبطية ورؤية الحجر الذي أطيح برأس القديسة كاترين عليه والكرسي الرسولي للقديس مرقص ورسم القديس لوقا لوجه القديس ميخائيل. لم ترق له القاهرة كثيرًا واتفق في ذلك مع من سبقوه إليها. فقد وجد أن موقعها قد أسيء اختياره فجبل المقطم يحول دون وصول هواء الشرق إليها، كما أنها بعيدة جداً عن النيل وتفصلها عنه برك آسنة.

أي المعالم توقفنا سطوره عندها؟

في مصر القديمة كنيسة القديس سرجيوس بمصلاها الذي قيل إن مريم العذراء قد بقيت فيه طويلاً مع ابنها المسيح.[٣١] ودير ماري جرجس الذي تسكنه راهبات قبطيات حتى يومنا هذا. وقد علق تيڤونو على حال الدير قائلاً: «تملؤه البراغيث لدرجة أنك ما إن تطأه بقدمك حتى تغطيها كلها. ولفرط ضآلة حجمها، سرعان ما تتسلق الساق إلى أعلى».[٣٢]

في القصر؟ أي في القلعة؟ بالطبع فهناك بئر يوسف وقاعته المتهالكة التي تضم ثلاثين عمودًا من أحجار طيبة وتعرق أرضها باللونين الذهبي والأزرق.[٣٣]

قطع تيڤونو Thévenot المدينة جيئة وذهابًا، ولا يخفي حيرته لتشابك شوارعها الضيقة واكتظاظها «بالسوقة».[٣٤] وقد زار خان الخليلي حيث كان يوجد سوق العبيد كما زار المورستان «مستشفى المجانين» الذين تثقل أقدامهم سلاسل غليظة من الحديد[٣٥] غير أنه تجنب الاقتراب من المساجد التي قدر عددها بنحو ثلاثة وعشرين ألف مسجد. ولا يتعاطف تيڤونو ألبتة مع مصريي عصره. فهو يشدد على قذارتهم وفوضاهم وعيوبهم[٣٦] ويقول في وصفهم «سكان هذا البلد عمومًا مسلمون ومسيحيون خمريو البشرة وهم خبثاء جبناء كسالى ومنافقون، شواذ، لصوص وخونة، شرهون للمال، بهم كل العيوب ويتسمون بأقصى درجات الجبن»[٣٧].

أفاض تيڤونو Théveot في وصف طرق التعذيب القاسية التي تمارس في مصر وصور في سطوره للقارئ المحكوم عليهم بالسلخ أو الموت بالخوازيق وقد أضرمت فيهم النيران فوق ظهور الجمال وغرست في سواعدهم قطع خشب مشتعلة[٣٨].

جنبًا إلى جنب مع هذه المشاهد الوحشية، تزخر سطور تيڤونو بمظاهر احتفالات وأعياد المصريين كموكب الخزنة حاملي الأموال المرسلة سنوياً إلى الباب العالي في القسطنطينية من الباشا والي مصر، وكرنڤال الأتراك في مطلع رمضان وموكب الحجاج إلى مكة، واحتفالية فتح الخليج حين تكون مياه الفيضان كافية لكافة عمليات الري.

جاء هذا الوصف مصحوبًا برسومات وصور لفرسان بمعاطف طويلة وأغطية ورؤوس مزدانة بالريش، وجنود انكشارية مسلحين بالرماح والمقاذيف، على ظهورهم كناناتهم وعلى جنوبهم السيوف التركية في أعمدتها. إلى جانب صور لضاربي الطبول على إبل مزينة ومزركشة، وأخرى لبكوات ذوي وقار يعتمرون خوذات ويشقون صفوف الجماهير الجذلة. أما الرحالة الفرنسي فقد صوره مرتديًا باروكة وياقة يتأمل من خلال ما يحدث في نهر الطريق. ديكور شرقي يتزامن مع إبداعات الفنانين الذين زخرفوا المسجد

الأزرق بالقاهرة. هذا المسجد عثماني الطراز أكثر منه مصري، به ذات المشاهد التركية الموجودة في مسرحية «البورجوازي النبيل» وشكل المغناة الهزلية، الأمر الذي يتناقض مع رؤية تيڤونو الشخصية.

ولكن ماذا لنا أن نقول في الصورة التي تمثل مقياس الروضة؟ مقياس النيل ذو التاج الكورنثي الذي يعلوه صندوق من طراز لويس الرابع عشر والذي تم بناءه أمام الرواق الذي صممه مانسار Mansard؟.

كم هو عسير على الفنان أن يغترب. ورغم التعليمات التي أملاها تيڤونو Thévenot على مصوره، إلا أن مصر ١٦٦٠ بقيت متأثرة بالأجواء الفرنسية وظهرت وبها سمات فرساي ورامبرانت. ولكن أين مصر الفرعونية في هذا الديكور البربري التقليدي؟.

زار تيڤونو الجيزة (الأمر الذي لم يكن يخلو من المخاطر) ذهب إلى هناك بصحبة جندي انكشاري من جنود القنصل وبعض المغاربة وقس كابوتشي اسكتلندي وبعض الدواب. كان شغله الشاغل هو تحديد قياسات الهرم الأكبر واهتماماته في هذا الأمر مساحية أكثر منها أثرية. قاس الهرم ووصف ممراته الداخلية ونسب التابوت الفارغ بداخله إلى «الفرعون الذي غرق بأمر الله في البحر الأحمر.» أما رحلته إلى سقارة «قرية المومياوات» فقد كانت أمتع. وتمكن خلالها من تأكيد ما سبقه إليه فيلامون Villamont بأنه في موقع أدنى ما يكون من المدينة القديمة الرائعة ممفيس[٣٩]. وهو تفصيل دقيق لن يلتفت إليه اللاحقون عليه.

والصورة التي وصلت إلينا ترينا تيڤونو راكعًا وسط مقبرة مرتديًا باروكة ورداء ذا ياقة وأكمام منتفخة وقد انحنى فوق مومياء يحاول فك شرائط الكتان التي تحيط بها. بجواره يقف رفيقه الاسكتلندي متأملاً على ضوء كشاف يحمله تابع، ساقًا ملفوفة لمومياء أخرى.

يتضح من ذلك أن تيڤونو Thévenot، على غرار كل تجار البندقية الذين جاءوا إلى مصر نجح في الإيعاز إلى القائمين على مصاطب سقارة بفتح مصطبة له. بل إنه كان يفاخر ليس بامتلاك مسحوق المومياوات فقط وإنما بحيازة تابوت من الورق المقوى الملون، عليه رسومات للمعبودات وحروف هيروغليفية تصور مشاهد جنائزية، لأحد هذه المشاهد تفسير يثير الإعجاب:

«هناك طاولة طويلة محفورة على شكل أسد يحمل على ظهره الجسم المطلوب تحنيطه. وعلى مقربة منه رجل يمسك بسكين في يده يفتح به الجثمان، وجهه يكسوه قناع له منقار صقر. (عادة ما يكون للجراح الجنائزي قناع أنوبيس وهو على شكل ابن آوى) فقد كانت هذه عادة القائمين على التحنيط حتى يتجنبوا الرائحة المنبعثة من الأجسام الميتة»(٤٠).

كانت هذه رحلة تيڤونو إلى مصر. لن نقتفي أثره وسط هذا الكم اللانهائي من المخاطر في جبل سيناء حيث وجد دير سانت كاترين منعزلاً. فالأمر عند ذاك يخرج عن إطار ما نبغيه، فقد كان هدفه حينئذٍ ووجهته إلى الأرض المقدسة للحج.

رأى هذا الرحالة مصر في عجالة واستوحى في كتاباته المعلومات من السابقين عليه. كانت عيناه دومًا ترنوان إلى آفاق غامضة بعيدة، إلى فارس والصين والهند وآسيا التي لم يكن أحد قد سبر غورها بعد والتي لم يعد منها. استوقفتنا كتاباته عن رحلته رغم ما شابها، من فرط صدقها. وقد أعيد طبعها أكثر من مرة.

وقد استخدم الفارس دارڤيو d'Arvieux كتابات تيڤونو Thevenot وكان قد التقى به في Smyrne وهي مدينة أزمير حاليًا، أمام القديس St Jean d' Acre وتم التعارف بينهما عن طريق الرحالة بول لوقا Paul Lucas كما عرف الرحالة الهولندي كورنيلوس بران (كورنيل لوبران) Corneille Le Brun لهذه الكتابات قدرها واقتدى بها. واستمر إقبال القراء على قراءتها لمدة قرن كامل بعد كتابتها حتى عهد لويس الخامس عشر واعتبرت مقدمة لكتابات الرحالة الرسميين والمتخصصين المكلفين بمهام تجارية وأثرية من قبل ملك فرنسا.

كلف الأب ڤانسلب Vansleb [١٦٣٥ - ١٦٧٩] بمهمة من هذه المهام، وكان ألماني الجنسية يعمل في خدمة فرنسا. والده قس لوثري من إرفورت Erfurt وأستاذه المستشرق الكبير لودولف Ludolf. كلف أول الأمر من قبل الدوق إيرنست دي ساكس جوته En-est de Saxe - Gotha بعمل حملة سياسية ودينية في أثيوبيا. غير أنه لم يتمكن من دخولها، ولم يستطع تجاوز الأراضي المصرية التي بقي فيها عامًا كاملاً في ١٦٦٤. وبدلاً من العودة إلى إقليم ساكس، ذهب إلى روما حيث أصبح راهبًا دومينيكيًا عام ١٦٦٦. وهناك التقى بأسقف مونبلييه العالم بوسكيه Bosquet الذي اهتم به واصطحبه إلى باريس حيث قدمه إلى كولبير Colbert عام ١٦٧٠.

وقد ساهمت أمور كثيرة في جعل حكومة الملك تكلفه برحلة أخرى إلى الشرق منها: كتاباته التي ترجمت إلى الإيطالية، وما أبداه من اقتراحات للتواصل مع أثيوبيا ومجموعة المخطوطات الشرقية التي جلبها للمكتبة الملكية. وقد عهد إليه كولبير Colbert أول الأمر بمهمة علمية محددة وفقًا لتعليمات مكتوبة بالغة الدقة، كما أوصاه بشراء أكبر كمية ممكنة من المخطوطات القيمة والنياشين القديمة.

كما سلمه قبل سفره دفاتر بيان ودراسات تيسر له مهمته في كل أساكل الشرق [٤١].

في الرابع عشر من أبريل ١٦٧٢، وصل الأب ڤانسلب Vansleb للمرة الثانية إلى القاهرة، وكان ذلك بعد عشرين عامًا من رحلة تيڤونو Thevenot إليها وبقي فيها حتى أكتوبر ١٦٧٣. وقد قطع المدينة طولاً وعرضًا لشراء المخطوطات والمقتنيات معرضًا سلامته لأخطار شتى. أكد السيد هنري أومون Henri Omont أنه لم يتجاوز بني سويف[٤٢] قط. غير أن الأب ڤانسلب Vansleb قد وصل برحلته النيلية حتى جرجا[٤٣] وزحف إلى الجنوب أبعد من أي مدى وصل إليه رحالة قبله. لم يلق كل ذلك رضا كولبير Colbert. فلدى عودة الأب ڤانسلب إلى القسطنطينية لنيل شيء من الراحة، تم استدعاؤه بواسطة سفير فرنسا المركيز دي نوانتل de Nointel ووجه إليه لومًا شديدًا لعدم استطاعته دخول أثيوبيا وخلافاته مع قناصل بلدان الشرق وإضاعته الوقت في كتابة «تاريخ كنيسة الإسكندرية». وتجاوز اللوم حد التقريع واتهم الأب ڤانسلب بالاختلاس وخيانة مهام

وظيفته والمغالاة والفسق. خلاصة القول، أنه لدى عودته إلى فرنسا ١٦٧٦ فقد حظوته وأعفي من مهامه بل ورفض كولبير تغطية باقي نفقات الرحلة. مات الأب ڤانسلب فقيرًا محبطًا في مستوصف صغير قريبًا من فونتانبلو Fontainebleau عام ١٦٧٩ .

لن نكون في قسوة كولبير على الأب ڤانسلب، فقد ترك لنا يوميات زاخرة بالمعلومات. وقد أعاد كاتب سيرة ذاتية تقي له اعتباره[٤٤] فتمت طباعة كتاباته عن رحلته عام ١٦٧٧ مع إهداء لا إلى كولبير [أكان هذا انتقامه؟] ولكن إلى نيافة الكاردينال ديستريه d'Estrées مطران لاوون Laon وأحد أعيان فرنسا. والعنوان الذي ظهرت به هذه الكتابات هو «يوميات الأب ڤانسلب رجل الدين الدومينيكي إلى القاهرة عام ١٦٧٢ - ١٦٧٣».

والأب ڤانسلب Vansleb مثله مثل تيڤونو Thévenot لا يعد أديبًا. كانت الألمانية هي لغته الأم والإيطالية لغته المكتسبة، غير أنه كان يفضل الأخيرة في مراسلاته. وكل ما يمكننا قوله عن لغته الفرنسية أنها بشكل عام صحيحة وواضحة. تصدرت كتابه فصول تتحدث عن مصر بشكل عام، عن سكانها وعاداتهم ونباتاتها وحيواناتها. وقد اختلف في ذلك عن تيڤونو الذي أرجأ التناول العام إلى الفصول الأخيرة. وتجدر ملاحظة أن ڤانسلب قد استعان بكتابات من سبقوه.

استغرقت منه هذه الديباجة العامة مائة صفحة، بدأ بعدها حديثه عن رحلاته المختلفة. وعلينا ألا نتوقع منه انطباعات مغايرة لما هو مألوف، فله ذات ردود أفعال تيڤونو وذات مواطن الدهشة مع مزيد من التسامح الديني، لنقل مع شيء من المحبة المسيحية. ونستشعر من التعليقات التي ساقها عن المعالم الأثرية، أنه أكثر علمًا وأغزر معلومات[٤٥]. وقد وصف مثل تيڤونو Thévenot«ريف الدلتا وأبراج الحمام التي تم بناؤها باللبن بشكلها المخروطي المتعارف عليه وقد غرست فيها أصص فخارية يتخذها الحمام أعشاشًا له»[٤٦].

كما وصف قمائن الطوب الأحمر التي يستعين بها الفلاح دومًا لفقس البيض. ولم ينس الأب ڤانسلب الإشارة إلى الاحتفالات الشعبية بالقاهرة كالمحمل الذي يشهد نقل كسوة الكعبة إلى مكة والاحتفالات التي نظمها الأتراك لأن الوالي الكبير قد أخذ Gaminiez «جامينييز» من البولنديين(٤٧) (أشار تيڤونو إلى احتفال كبير أقامه الأتراك بمناسبة استيلائهم عل قصرين في المجر)(٤٨).

وقد أسهب الأب ڤانسلب مثل تيڤونو في الحديث عن عمود بومبيي والمقابر القديمة بالإسكندرية والأهرامات وأبي الهول و«آبار المومياوات» في سقارة ومصر القديمة بكنائسها ودير الراهبات بها الذي يطلق عليه اسم «دير البنات». وهو مكان وصفه بقوله: «على درجة من القذارة حالت دون مكوثي فيه لحظة واحدة» (٤٩). ولكن في حين اكتفى تيڤونو بالإشارة إلى مسجد واحد من الثلاثة والعشرين ألف مسجد التي حصرها وهو مسجد السلطان حسن الذي أشاد في وصفه بحسن بنائه وعلو مآذنه علوًا كبيرًا(٥٠). وقد أمدنا الأب ڤانسلب Vansleb، وهو أقل إطنابًا بصفة عامة، بمعلومات دقيقة عن الأزهر: «بالقاهرة عدد لامتناه من المساجد، يعد جامع الأزهر أكبرها وأثراها، بناه القائد جوهر الذي أسس مدينة القاهرة وقد أقام به الشيوخ الأربعة القائمون على الإفتاء بما سنه محمد. وكان ملاذًا للمجرمين وملتقى علم للمسلمين»(٥١). وهذه معلومة لن تغيب عن ذهن الذين يرغبون في شراء المخطوطات العربية، وستجعلنا نجد حول هذه الجامعة الشهيرة عددًا كبيرًا من رحالة الحقبة التالية.

مما يضفي طابع التفرد على ما كتبه الأب ڤانسلب ويجعله مختلفًا عن مؤلف تيفونو من ناحية، اتساع وتنوع مسالكه وخطوط سيره، ومن ناحية أخرى وصف الجمعيات والأبراشيات المسيحية والأديرة القبطية. هاتان الصفتان بينهما في الواقع رابط، فقد أطال الأب ڤانسلب مدة رحلاته إلى صعيد مصر بحثًا عن الصوامع والأديرة القبطية لشراء المخطوطات وتشجيع الناس على اعتناق المسيحية. وهو أمر كانت تحف به الأخطار. ويلفت نظرنا في كل صفحة من صفحاته إلى الخطر المحدق باكتشافاته وافتقاده للأمان بالصحراء.

وقد استمات الأب ڤانسلب في التنكر، فلبس ملابس الأتراك وأتقن الحديث بالعربية. وقد فطن سكان البلاد إلى حقيقة أنه من الفرنجة الأثرياء الذين يتذرعون بحجة الرغبة في لقاء الرهبان الفقراء المعتكفين في الصحراء الليبية أو العربية، بينما هدفهم الحقيقي هو سبر غور المقابر والأطلال واكتشاف ما بها من كنوز.

أكثر من مرة، كاد الأب ڤانسلب أن يفقد نقوده وحتى حياته. وبعد أن شد الرحال إلى الأديرة الأربعة في صحراء الأنبا مقار وإلى «بحيرة النتريك» التي تعرف اليوم بوادي النطرون، دير أبو مقار والدير السورياني ودير باراموس ودير الأنبا بيشوي، عاد الأب ڤانسلب القهقرى إلى الجيزة[٥٢]. غير أنه نجح بصعوبة جمة في قطع الفيوم.

أثناء تجواله هناك، لاحظ اختفاء «أرسينوي» تمامًا. وغامر بالذهاب إلى الجانب الآخر من النيل عبر الصحراء العربية حتى ساحل البحر الأحمر وإلى دير الأنبا أنطونيوس الشهير الذي يقع في جبال القلزم. وبينما كان يتناقش في علم اللاهوت مع رجال الدين الأقباط ويستعرض خزائن مخطوطاتهم المقدسة، هاجم البدو رجال قافلته الذين بقوا خارج الدير. جرح عدد كبير منهم وثار الآخرون مطالبين بتعويضات وقد عانى الأمرين حتى عاد إلى القاهرة.

بعد رحلاته الاستكشافية هذه إلى شرق وادي النيل وغربه، والتي كانت إلى حد ما موفقة، قرر الاتجاه إلى الجنوب وزيارة الطوائف القبطية في صعيد مصر. كان مقصده الحقيقي هو «دير الشهداء» الذي أسسته كما يقال الإمبراطورة هيلينا على مشارف إسنا. ركب الأب ڤانسلب Vansleb قاربًا في الرابع والعشرين من شهر فبراير ١٦٧٣ بأمل الوصول إليه عن طريق الملاحة النهرية. في بدء الأمر، لم يعكر صفو وقفاته شيء[٥٣]. استقبله المطارنة الأقباط في أبرشيات النيل واستطاع زيارة الخورنية والأديرة المتشابهة المشهورة بالقرب من سوهاج كالديرين الأبيض والأحمر الموجودين حتى يومنا هذا.

في السادس والعشرين من مارس، عاد إلى منفلوط بهدف ركوب النهر إلى جرجا والمضي قدمًا. كتب يقول: «وصلت إلى هذه المدينة ظهرًا. وبمجرد دخولي إلى أول مسكن لي هناك، جاء أحد معارفي يحذرني بأن مسيحيي المنطقة قد وشوا بي لدى الكاشف[٥٤]

قائلين أنني ثري من الفرنجة يقطع مصر طولاً وعرضًا لاكتشاف الأماكن المخبأة بها كنوز وينقل خبرها إلى ملك فرنسا ليستولي على بلادهم. وقد أردف مبلغي قائلاً إن الكاشف قد أصدر أمرًا بالقبض عليّ أينما كنت(٥٥). وما أن تلقى الأب ڤانسلب هذا الخبر حتى أفل عائدًا إلى القاهرة(٥٦).

غير أنه في طريقه إليها، توقف هنا وهناك خاصة في ما يعرف بالإقليم الطيبي وهي منطقة المنيا وملوي. وقد انتهز الفرصة لزيارة كهوف النساك ودير أبي حنيس على الضفة اليمنى للنيل. كما زار أطلال «أنتينوبوليس» المدينة الرومانية التي بناها الإمبراطور أدريان في ذكرى محبوبه الفتى الجميل أنطونيوس Antinous لذي ألقى بنفسه وفق الأسطورة في هذا المكان من النهر.

ومن التفاصيل المثيرة، والتي تشير إلى عدم ثبات علم الجغرافيا لدى فراعنة ذلك الزمان: كان الأب ڤانسلب Vansleb لا يعرف موقع مدينة طيبة القديمة. وقد بقي حائرًا أمام مدينة Jnsin القديمة التي أطلقت القواميس القبطية عليها حينًا اسم Antino وحينًا آخر اسم طيبة Thèbes(٥٧).

ويشير الأب ڤانسلب إلى وجود عمود رائع أطلق عليه اسم عمود الإمبراطور مارك أوريل Marc-Aurèle وقوس نصر كبير في حالة جيدة. وقد أعجب به علماء الحملة الفرنسية بعد هذا التاريخ بنحو قرن ونصف. وقد استخدم هذا القوس عام ١٨٣٠ في بناء معامل تكرير السكر في الروضة على ضفة النيل المقابلة. لم ير الأب ڤانسلب آثارًا أخرى. وقد أسف لعدم استطاعته المضي قدمًا إلى إسنا. ولتعويض قارئه، ألحق بكتابه صفحات عن رحلة أخرى إلى صعيد مصر، تنسب إلى الأب بروتيه Protais وهو راهب كبوشي من القاهرة. وكان قد حملها إلى الأب ڤانسلب أحد رفقائه في رحلته ويدعى الأب فرنسوا François . ورغم أن ملشيسدك تيڤونو Melchisèdech Thèvenot كان قد استعان بذات الصفحات وأضافها إلى مجموعة أسفاره، إلا أن ذلك لم يمنع ڤانسلب من نقلها بدوره «نظرًا لما بها من ميزات متفردة إضافية»(٥٨). وجدير بالذكر أن الأب فرنسوا نفسه كان قد رفع تقريرًا عن هذه الرحلة التي تمت عام ١٦٦٨، في حوزتنا مقاطع أساسية

منه حواها خطاب رسمي كتبه داڤيد ماجي David Magy قنصل فرنسا في القاهرة [٥٩] إلى باريس عام ١٦٨٧.

لم يكن للرهبان الكابوشيين على ما يبدو باع طويل في الجغرافيا، مثلهم في ذلك مثل الأب ڤانسلب. فقد اختلط عليهم الأمر وظنوا إسنا وهي أقصى مكان وصلوا إليه أسوان التي كان يطلق عليها قديمًا اسم «سيان» Syene وربما ساهم التشابه في الأسماء في هذا الخلط. وتوقفنا أمام هذه المجموعة من الرهبان يرجع إلى كونهم أول فرنسيين يطأون أرض «طيبة» المقدسة. ويبدو أنهم لم يدركوا ذلك.

جعلتهم جرأتهم في اكتشاف صعيد مصر في صدارة الرواد الذين اقتحموا الجنوب. وقد ورد ذكرهم مرة أو مرتين في مجموعة رحلات تيڤونو Thevenot وأسفار كل من الأب ڤانسلب Vansleb وبول لوقا Paul Lucas، غير أنهم لم ينالوا حقهم ولم يعطوا حق قدرهم. ومن العدل أن نخرجهم من دائرة الظل التي قبعوا فيها منذ أكثر من ثلاثة قرون.

ونلفت النظر هنا أنهم نالوا في وقتهم شرف لفت نظر بوسويه Bossuet إليهم. فقد قرأ كتاباتهم بكل اهتمام، بل واستوحى منها وصفه لأطلال الكرنك و«طريق الكباش» والبوابات العملاقة و«بهو الأعمدة» الذي يضم نحو مائة وعشرين عمودًا في كتابه «حديث حول التاريخ الكوني» «Discours sur L'Histoire Universelle » (١٦٨١).

وكان بوسويه Bossuet قد وقع على كتاباتهم في مجموعة أسفار تيڤونو Thèvenot ونظرًا لكونهم لم يتبينوا جيدًا الموقع الذي وصفوه ولم يعقدوا صلة بين أطلال الكرنك والأقصر وبين بقايا مدينة طيبة. فقد ركز بوسويه Bossuet على وصفهم، أملاً أن يتم في القريب العاجل اكتشاف المدينة الملكية.

وقد تمكن راهب يسوعي من القاهرة يدعى الأب سيكار Sicard من التعرف على ملامح الأمكنة بصورة أدق في مطلع القرن الثامن عشر، محددًا موقع عاصمة الإمبراطورية الجديدة[٦٠].

BIBLIOGRAPHIE

- FR HYRNE CASTELA, Le saint Voyage de Jerusalem et du Mont Sinay, Bordeaux, in-8° 1601 !

- JEAN PALERNE , Pérégrinations òu il est TRAITÉ de plusieurs singularités et antiquités remarquées des provinces d'Egypte, Arabie déserte et pierreuse, etc., Lyon ,1606.

- HENRY DE BEAUVAU , Relation Journalière du voyage du Levant, fait et descrit par haut et puissant seigneur Henry de Beauvau, baron du dict lieu, etc., Toulouse 1608 et Nancy,1615,in-8°.

- SAVARY DE BNÉVES , Relation des voyages de Monsieur de Brèves, tant en Grèce, Terre Sainte et Egypte, qu'aux royaumes de Tunis et Alger. Ensemble un TRAITÉ fait l'an 1604 entre le Roi Henry le Grand, et l'Empereur des Turcs, et trois discours du dit Sieur, le tout recueilli par le S(ieur) D(u) C(astel), Paris 1628. Autre édition Paris 1630, in 4°.

- CASAR LAMBER T,J.LAMBER T, c1 .Trois relations d'Egypte et autres mémoires curieux des singularite's du dit pays.

- I. Relation Monsieur césar Lambert, de Marseille, de ce qu'il veutde plus remarquable au Caire, Alexandrie et autres villes d'Egypte années 1627, 1628, 1629 et 1630. - p. 3-51.

- II. Etat de l'Egypte et des gouvememens qui en dépendent, descrit par le Jacques Albert, 1634. - p. 52-82.

- in. Etât des revenus de l'Egypte par le M Santo Seguezzi, 1635. - p. 83-100. Paris, 1651, 1 vol. avec annexe, in-8°.

- B. DE MONCONYS, Journal des Voyages de M de Monconys, LIEUTNANT criminel au siège Presidentiel de Lyon,où les savants trouveront un nombre infini de nouveautés en ma-chines de mathématiques, expériences physiques, raisonnemens de la belle philosophie, curiosités de Chimie et conversations des illustres de ce siècle..., etc., Lyon, Boissat, 1665.

- FERMANEL, etc., Observations curieuses sur le voyage du Levant fait en 1630, par MM. Fermanel, Fauvel, Baudouin, sieur de Launay..... Rouen, 1668, in-4°, vi + 882 pages.

- FERMANEL, Le voyage d'italie et du Levant de MM. Fennanel, conseiller du Parlement de Normandie, Fauvel, maitre des Comptés en la dite Province, sieur d' Oudeauville, Baudouin de Launay et de stochove, M de Sainte Catherine, gentilhomne flamen, contenant la description des royaumes, provinces, gouvememens, villes... tant des Italiens, que des Turcs, Juifs, Crées, Arabes, Arméniens, Mores, Nègres et autres nations qui habitent dans l'Italie, Turquie, Terre Sainte, Egypte et autres lieux de tout le pays du Levant, Rouen, 1670, in-12.

- MELCHISÉDECH THÉVENOT, Relations de divers ouvrages curieux qui n 'ont pas été publiés ou qui ont été traduits d'ilakiuyt, de Purchas, et d'autres voyageurs Anglais, Hollandais, Portugais, Alemands, Espagnols, et de quelques Persans, Arabes et autres auteurs orientaux... Paris: 4 vol. in-folio, chez Sébastien Mabre Cramoisy, 1666-1696.

- "Recueil de divers voyages curieux" été., 2 vol. in-folio (1696).

- JEAN DE THÉVENOT, Relation d'un coyagefait au Levant, contenant diverses particularités de l'archipel, Conslantinople, Terre Sainte, Egypte, des Pyramides, mumies, des déserts d'Arabie, de la Mecque, etc. Paris, 1665, in-4°.

- Suite du Voyage au Levant, Paris, 1674, in-4o -Réunis en 5 vol. in-12 en 1689, par le M de Luisandre et François Petit.

- Réimpression dans: Voyages tant en Europe qu'enAsie et Afrique, divisez en troix parties, contenant cinq taures, première partie contenant le voyage du Levant, Amsterdam, 1727, 2 vol. in-8))extrait de Thévenot, in-4°.

- P. P. Portrait et CHARLES FRANÇOIS [d'ORLÉANS], Relation du royage du Sayd ou de la Thébaydefait en 1668 (s.i.n.d.) in-4°, 4 pages.

- GABRIELLE BRÉMOND, Viaggifatti nell ' Egitto superiore e inferiore nel Monts Sinay e luoghipiû cospicui di quella regione, in Gerusalemme, Giudea, Sommaria, Palestia, Fenicia, Monte Libano e altre provin-cie di Siria: quello délia Mecca e del sepolcro di Mahometto, Roma, 1673, in in 4°, 2° éd. 1679, in-8° (relation italienne d'un voyageur français). Descrizione esatte dell'Egitto superiore ed inferiore, con osservazioni di costumi e notizie di successi cosi antichi, corne modemi di. Tradotta dal Francese dal Sig. Angelo Riccardo Ceri, Roma, 1680, in-8°.

- PERE J. M. VANSLED, Relazione dello stato présente (1663) dell'Egitto..... etc., Parigi, 1671, in-12.

- Nouvelle relation en forme de journal d'un (second) voyage fait en Egypte en 1672 et 1673, Paris, 1677, in-12.

- Sur le Père Vansleb, cf. ABBÉ A. POCCEOIS, Vansleb, savant orientaliste et voyageur, sa vie et ses Œuvres, Paris, Didier, 1869.

- LAURENT D'ARVIEUX, Mémoires du Chevalier Laurent d'Arvieux contenant ses voyages de 1653 à 1683 à Constantinople, dans l'Asie, la Syrie, la Palestine, l'Egypte et la Barbarie, la description de ces pays, les religions, les mœurs, etc.. Recueillis et mis en ordre avec des réflexions par le Rev. Père J.-Bapt.

- Labat, Paris, 1735, 6 vol. in-8°.

****

الهوامش

١ - لم يذهب المركيز دي نوانتل إلى مصر. فبمجرد وصوله إلى غزة، قرر العودة إلى القسطنطينية، راجع المجلد الثاني من كتاب:

Ambassade de M. de Nointel la porte Ottomane depuis l'année 1670 jusque et compris l'année 1679 P 297-268

سفارة السيد دي نوانتل إلى الباب العثماني منذ عام ١٦٧٠ وحتى نهاية عام ١٦٧٩ ص ص ٢٩٧ - ٢٩٨ بمكتبة ميونيخ.

٢- طبقًا لما ذكره ب. مارتينو P.Martino فإن مشروب القهوة الذي لقي قبولاً واستحسانًا عام ١٦٦٠ كان قد أدخله إلى فرنسا، سفير الباب العالي بباريس سليمان متى فراكه الذي كان يقدمه عام ١٦٦٩ تحية لضيوفه.

راجع المرجع السابق ص. ٣٤٧.

٣- كان التعرف على الجنسيات المختلفة يتم من خلال ما يعتمرونه على رؤوسهم والذي لم يتغير منذ القرن السادس عشر. كان الأتراك يرتدون العمامة البيضاء. أما اليهود فكانوا يضعون قلنسوات صفراء. وارتدى النصارى أغطية رأس تختلف ألوانها باختلاف أصولهم ما عدا اللون الأخضر الذي خصص لأتباع الرسول. واعتبر استعماله من جانب غير المسلمين عملاً استفزازياً.

٤- طبقًا لوجهة النظر هذه، فإن تعصب المصريين يتباين بطريقة لافتة، مع إنسانية وتسامح وكرم ضيافة الفرس والصينيين. وهي سمات أجمع عليها رحالة القرنين السابع عشر والثامن عشر أمثال شاردان Chardin وتافرنييه Tavernier وغيرهما. وقد شاعت صورة الآسيوي المتسامح والصيني الفيلسوف في عصر ڤولتير Voltaire ومونتسكيو Montesquieu.

٥- كلف دارڤيو d'Arvieux من قبل كولبير بالتفاوض بشأن تحرير عبيد فرنسيين في تونس عام ١٦٦٨. ثم أرسل كمبعوث فوق العادة من الملك إلى الباب العالي في عام ١٦٧٩ عين قنصلاً للجزائر وحلب وطرابلس. وقد استطاع في كل مكان حل فيه، أن يرفع اسم فرنسا وينشر الدين الكاثوليكي. وقد عرض البابا إينوسنت Innocent الحادي عشر عليه أبراشية إلا أنه رفضها.

راجع ص ص ٢٢٨ - ٢٣٠ بشأن ما قدمه من مساعدة لموليير لدى كتابته مسرحية «البورجوازي النبيل».

٦- طبعة ١٧٣٥ المجلد الأول، الفصلين الخامس والثامن.

٧- ذات المرجع ص ص ١٨٩ - ٢٠٠.

٨- ذات المرجع ص ٢١٥ .

٩- ذات المرجع ص ٢٢٠.

١٠- ذات المرجع ص ٢١١ .

١١- طبعة ١٦٢٨ ص ٢٣٩ .

١٢- ذات المرجع ص ٢٤٢.

١٣- ذات المرجع ص ٢٤٩ .

١٤- ذات المرجع ص ٢٥٠ .

١٥- طبعة عام ١٦٢٨ ص ٢٥٧ .

١٦ - ذات المرجع ص ٢٥٨.

١٧- نجد ذات الملحوظة في كتابات السيد دي بوڤو de Beauvau الذي زار مصر في توقيت مجيء السفير دي براف وأمضى ثمانية أيام في القاهرة من ١٨ إلى ٢٦ سبتمبر ١٦٠٥ بينما كان دي براف في رشيد. وقد استقبله نائب القنصل الفرنسي استقبالاً رسميّاً. وقد زار السيد دي بوڤو منطقة سقارة واستوقفته أطلال مدينة ممفيس: «هناك أبراج مربعة الشكل متعددة تكسوها جدران مرتفعة» طبعة ١٦١٥ ص ١٦٥. في صفحاته نجد وصفًا عامّاً غريبًا لمدينة القاهرة ص ١٦١ .

١٨- راجع ص ص ٢٦٣ و ٢٦٤.

١٩- ذات المرجع ص ٢٧٢ .

٢٠- ذات المرجع ص ٢٨٠ .

٢١ - أول تابوتين مصريين وصلا إلى فرنسا تم ضمهما إلى مجموعة «مراقب النظار» فوكيه ويقال إنه كان بداخلهما رفات خوفو وخفرع. وقد احتفى بهما الشاعر لافونتين في رسالة شعرية وجهها إلى فوكيه. وأظهر سرورًا جمّاً بتأملهما.

٢٢- ذكر دي كاستل أن القاهرة بها أربعة وعشرون الف شارع. وطبقًا لما تم حصره حاليًا فإن عدد المساجد الجديرة بالذكر يصل إلى ثلاثمائة مسجد.

٢٣- فرمانل ص ٤١٨ .

٢٤- ذات المرجع ص ٤٣٩ بدءًا من هذه الحقبة، تظهر صورة الشرق المقترنة بالشهوات الحسية والتي ستسود في القرن الثامن عشر وتمد الأدب الفرنسي بموضوعات يغلب عليها المجون. راجع مارتينو Martino ص ص ٦٦ - ٧٣ .

٢٥- لمزيد من المعلومات عن فيضان النيل يراجع كتاب م. ديلا شمبر M. de la Chambre وعنوانه: «أفكار جديدة حول أسباب الضوء وفيضان النيل ...» باريس ١٥٣٤ و ١٥٦٢ .

Nouvelles pensées sur les causes de la lumiére, du débordemeni de Nil et de l'amour d'inclinaison, Paris, 1534 et 1562

٢٦- كتب جون تيڤونو واصفًا نفسه: «كان الفضول والرغبة العارمة في التعلم دافعيه للسفر. بينما كانت التجارة والأعمال مبتغى الآخرين حتى أنهم لانشغالهم بها، فاتهم البحث في عدة أشياء» Voyages,éd. Paris, 1684, Préface .«أسفار، دار النشر باريس، ١٦٨٤، المقدمة».

٢٧- تيڤونو الطبعة الثالثة أمستردام ١٧٢٧ الفصلان الثامن عشر والحادي والعشرين.

٢٨ - ذات المرجع الفصل ٦٩ .

٢٩ - ذات المرجع الفصل ٧١.

٣٠ - ذات المرجع الجزء الثاني ص ٢٨٣ [وجدت الملحوظة ذاتها في كتابات الفارس دارڤيو D'arvieux]

٣١- تيڤونو Thevenot ص ٤٣٨.

٣٢- ذات المرجع الطبعة الثالثة، أمستردام، ١٧٢٧، الجزء الثاني ص ٤٣٩.

٣٣- ذات المرجع ص ٤٤٧. كان دي كاستل Du Castel قد أحصى خمسة وثلاثين عمودًا. هذه القاعة أو ديوان يوسف كانت قصرًا قديمًا لصلاح الدين تم هدمه تمامًا في عهد محمد علي، لإقامة المسجد المرمري.

٣٤- ذات المرجع ص ٤٠٣.

٣٥- دامت هذه العادة الهمجية حتى منتصف القرن التاسع عشر. وقد أبدى هوراس ڤرنيه Horace Vernet سخطًا واشمئزازًا من وجودها عام ١٨٣٩ راجع ما ذكر لاحقًا عن كتاب أ. دوراند A. Durande «جوزيف، كارل وهوراس ڤرنيه». Joseph, Carle et Horace Vernet ١٨٣٦ ص ص ١٢٩ - ١٣٠.

٣٦- يوجد طبقًا لتيڤونو إذا صدقنا القول ما هو أكثر استفزازًا من الفجور البذيء الذي يمارسه الأولياء مع النساء راجع ذات المرجع ص ٨٠١ . وقد أشار ألكسندر ديماس في كتابه: «خمسة عشر يومًا في سيناء » Quinze jours au Sinaï ص ٣٢ إلى ذات التفاصيل. وفي كتابات الرحالة المعاصرين أمثال السيد چيسكيه Gisquet «مصر والأتراك والعرب» L' Egypte, Les Turcs, les Arabes وحتى في رواية «نوتي النيل» Le Batelier للكاتب المعاصر E. J. Finbert أشارت إلى ذات السلوك.

٣٧- تيڤونو Thévenot ص ٧٩٢.

٣٨- تيڤونو Thévenot ص ٨٣١.

٣٩- راجع تيڤونو Thévenot ص ٤٢٩. لم تلفت هذه الملحوظة التي أكد عليها الهولندي كورنليوس بران نظر الرحالة في القرن الثامن عشر. فلم يتفق شو Shaw وبوكوك Pococke ومايبه Maillet ونوردن Norden على تحديد موقع ممفيس.

٤٠- ذات المرجع ص ٤٣٣ نجد هذا الخطأ في كتاب يفترض فيه الدقة والاستناد إلى المراجع وهو «رواية المومياء». Le Roman de La Momie وجوتييه يخلط فيه مثل تيڤونو الإله أنوبيس مع مسخ مقنع. «كان رومفيوس بمقصه ومطرقته المستخدمين في شق تابوت الورق المقوى، أشبه بالجان الجنائزية المرتدية أقنعة حيوانات والتي نراها في رسومات المدافن حول الموتى للقيام ببعض الطقوس الغامضة والمخيفة.

٤١- وردت هذه المعلومة في كتاب القس بوجوا: ڤانسلب ١٨٦٩ ص ص ٢٠ – ٢٨.

L'abbé Pougeois: Vansleb, 1869 p 20-28

٤٢- هنري أومون «مهام أثرية فرنسية في الشرق في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مجلدان، ١٩٠٢.

H.Omont, "Missions arché ologiques françaises en Orient au XVIe et XVII Siécles , Paris 1902 1 p 65

٤٣- ڤانسلب «يوميات رحلة جديدة إلى مصر، باريس ١٦٧٧ ص ٣٨٠.

Vansleb, "Nouvelle relation en forme de journal d'un voyage fait en Egypte, Paris 1677, P 381

٤٤- القس بوجوا الذي حرر خطاب التبرنة المرسل إلى كولبير راجع ص ص ٣٧٦ – ٣٨١.

٤٥- ذكر المؤرخون القدامى والعرب أمثال المقريزي وأبي الفدا.

٤٦- الرحلة الجديدة، طبعة ١٦٧٧ ص ١١٣ Nouvelle relation, d 1677, Pli 3

٤٧- ذات المرجع ص ٣٣٥.

٤٨- تيڤونو، الطبعة الثالثة ١٧٢٧ ص ٧٦٩.

٤٩- الرحلة الجديدة ص٢٤١.

٥٠- تيڤونو ص ٤٤٤ (وصف تيڤونو آثار القصف التركي ١٥١٧ الذي يصر كل ترجمان حتى اليوم على نسبه إلى قذائف نابليون بونابرت).

٥١- الرحلة الجديدة ص ٢٤

٥٢- بعد هذا التاريخ بنحو قرن أي في ١٧٧٧ هاجم البدو في صحراء الأنبا مقار الرحالة الفرنسي سونيني Sonnini واستولوا على ما معه على بعد بضعة مئات من الأمتار من أحد الأديرة القبطية.

راجع س. سونيني رحلة إلى شمال وجنوب مصر ١٧٩٩ المجلد الثاني ص ١٦٧ وما يليها.

C.S. Sonnini, "Voyage dans La Haute et Basse Egypte, 1799, Vol .II P 167 et suiv.

٥٣- المنيا، ملوي، منفلوط، أسيوط وطهطا.

٥٤- عمدة أو محافظ يطلق عليه اليوم مدير.

٥٥- الرحلة الجديدة ص ٣٨١ .

٥٦- مما لا شك فيه أن هذا النكوص هو الذي تسبب في إفقاده كل حظوة لاحقًا.

٥٧- الرحلة الجديدة ص ٣٨٦ . من هذه المنطقة التي أطلق عليها في الماضي أنتينوبوليس، لم يتبق إلا تلالاً ممتدة من الأنقاض مليئة بقطع الفخار المكسور على الضفة اليمنى للنيل.

٥٨- ذات المرجع ص ٤٠٥ وما يليها. ذكره فانسلب باسم «بورتيه» وليس «بروتيه» راجع قائمة المراجع الخاصة بالفصل الثاني.

٥٩- راجع في ذات الموضع الجزء الخاص بـ C.H.Omont أومون.

٦٠- لم يتوصل إليها كتاب الحوليات العرب ولا الأقباط. وكما ذكر المستشرق يوزاب دي سال Eusèbe de Salles، فإن كثيرين ممن وصفوا مصر، لم يشيروا إلى طيبة بكلمة واحدة. «فعبد اللطيف» لم يزرها، و«ابن الوردي» المعاصر له في بداية القرن الثاني عشر و«البكوي» الذي لحق به بعد مائتي عام لم يذكروها قط. وقد مدح أبو الفدا في مؤلفه الذي أنهاه عام ١٣٢١ آثار مناطق أشمونين وإسنا وممفيس وأشاد بفخاريات الأقصر. وابن بطوطة الذي ركب النيل عام ١٣٢٥ ذكر الأقصر كإحدى محطات رحلته ولم يشر إلى الأطلال.

مما لا شك فيه أن ليون الأفريقي L'Africain قد مر في رحلته النيلية حتى أسوان بمدينة «طيبة». ولكن يبدو أن هذا حدث ليلاً، وأنه لم يسمع قط بالأقصر والكرنك.

أما ديربولو D'Herbelot فيتساءل في «مكتبته الشرقية» إذا ما كانت قوص [كو الكبير بلا أدنى شك ليست طيبة القديمة. والأب بروتيه Protais المبعوث الكابوشي يصف عام ١٦٦٨ منطقتي الكرنك والأقصر بدون أن يساوره أدنى شك أنه في مدينة طيبة.

«جولات في الشرق» E. De Salles, "Pérégrinations en Orient' Paris, 1840, Vol H P143.

ean - Marie Carr , La premiére description de kamak dans la littératurefrançaise Chrorique d'Egypte n" 13-14 janvier 1932 P44-49.

«الوصف الأول للكرنك في الأدب الفرنسي»

****

الفصل الثالث

الرحالة الفرنسيون في القرن الثامن عشر

الحق أنه لا يوجد فاصل بين القرنين السابع عشر والثامن عشر. وبالتالي فإفراد فصل لكل منهما ليس إلا ابتغاءً لمزيد من الوضوح في العرض. كان ب. مارتينو[1] Martine قد أوضح أن الفضول لمعرفة الشرق والولع بالأسفار البعيدة لهما اتجاهان، بدت معالمهما في الظهور عام ١٦٦٠وتأكدا بشكل مستمر ومتدرج حتى منتصف القرن الثامن عشر.

ويعد التوسع الاستعماري بالإضافة إلى السفارات والبعثات الكاثوليكية ومؤلفات المستشرقين الأولى، من العناصر التي ساهمت إيجابيّاً في ازدياد معلوماتنا عن الشرق. حققت الترجمات الأولى لكتاب «ألف ليلة وليلة» التي تولاها جالان Galland عام ١٧٠٤ نجاحًا كبيرًا. وقد أعيدت ترجمة معاني سور القرآن الذي كان دي ريير Du Ryer قد قدمه إلينا في القرن الماضي عامي ١٦٩٨و١٧٨٣. كما ظهرت مؤلفات عن حياة «محمد» في الأعوام ١٧٣٠، ١٧٣٢، ١٧٧٣، ١٧٨٣ بشكل متوال.

في عام ١٧٣١ نشر كتاب «تاريخ العرب» L'Histoire des Arabes الذي كتبه الكونت بولان ڤيليه Boulainvilliers أما كتاب «تاريخ ديانة الأتراك مع قصة ميلاد وحياة ووفاة رسولهم محمد L'Histoire générale de la religion des Turcs avec la naissance, la vie et la mort de leur prophéte Mahomet الذي نشر عام ١٦٢٥ فقد أعيدت عام ١٧٤١ وأصبح هناك المزيد من الألفة مع الإسلام والشرق.

أما في مجال الأدب فقد ظهرت «الرسائل الفارسية» Les Lettres Persannes عام ١٧٢١ وعرضت مسرحية زيير Zaire عام ١٧٣٢. ولم يبد الفلاسفة غضبًا إزاء

المقارنة بين الدينين المسيحي والإسلامي. في إحدى ملاحظاته حول L'Essai sur les Moeurs مقال عن العادات، جعل ڤولتير Voltaire من النبي «محمد» بطلاً حقيقيّاً بالمفهوم الذي انتهجه كارليل في السابق، وقال في وصفه: «محمد» فاتح، مشرع، ملك، حبر اضطلع بأهم دور يمكن لعبه على الأرض»(٢). والجدير بالذكر أن ڤولتير كان قد أساء إلى النبي محمد بشكل فج في مسرحيته التي عرضت عام ١٧٤٢.

أما ديدرو Diderot فقد كتب عام ١٧٥٩ إلى صوفي فولان Sophie Volland يقول: إنه حقق تقدمًا في معرفته بالقرآن، ويرى في «محمد» مشرعًا ماهرًا ورجلاً فاضلاً. (٣) أما لوساج Lesage فقد قام بتنقيح ترجمة بتي ديلا كروا Petis de la Croix لكتاب Mille et un jours ألف يوم ويوم. كما قام فاڤار Favart بعرض ملهاة تحمل عنوان: «ثلاث سلطانات» Les Trois Sultanes وذلك عام ١٧٦١.

تلت هذا التاريخ، مرحلة شهدت فيها خشبات المسارح غزوًا لبطلات يرتدين لباسًا شرقيّاً، ويحملن أسماء لا تمت للغرب بصلة مثل: «زيير» Zaire و«روكسلان» Roxelane و«زليخة» Zulicha ونشر كل من كريبيون Crébillon وڤوازونون Voisenon في هذه الفترة حكايات لاتخلو من الفجور والانفلات والزندقة جعلا الشرق مسرحًا لأحداثها. وحملت هذه الحكايات عناوين جاذبة مثل: «اتلزاييد» Atalzaïde (١٧٣٦) و«لو صوفا» Le Sopha (١٧٤١) و«زولميس وزلمايد» Zulmis et Zelmaïde ١٧٤٥ كما ظهرت عام ١٧٥٦ لوحة تمثل الوالي يتناول القهوة بريشة الرسام كوبل Coypel إلى جانب تصميمات للوحات الجوبلان رسم فيها الفنان ڤان لو Van Loo «السلطانة وجواريها» والسلطانة وهي تتخذ زينتها وذلك عام ١٧٧٥ .

وقد ساهم انتعاش التجارة مع الشرق وبلاد فارس والهند في إذكاء ميل الناس إلى اقتناء الأبسطة والزرابي الفاخرة والتحف المشغولة بالزخارف والآنية الخزفية والمنتجات العاجية حتى أنه في إقليم اللورين بدأت صناعة تحف صينية مقلدة. وشاعت في مجتمعات الصفوة الحفلات التنكرية ذات الطابع التركي والفارسي، وقدمت فيها المشروبات الجديدة التي تم جلبها من الصين والجزيرة العربية كالشاي والقهوة. واقتنت الأسر السواتر

اليابانية بل وذهب البعض مثل جان جاك Jean-Jacques إلى حد الظهور بالقفطان مع قلنسوة من فراء الإستراكان تأسيًا بالأرمن. وفي اللوحات التي كان الوجهاء يطلبون من ڤان مور Van Mour رسام الملك في الشرق رسمها لهم، ظهر الرجال في ثياب الحجاب الأتراك والنساء في زي الجواري(٤).

وجدير بالذكر هنا أن الشرق المشار إليه آنفًا، لا تظهر مصر فيه بشكل واضح. فالدول واضحة البصمات على الأدب والمسرح والفن الجاذبة للصفوة والعامة هي على التوالي: تركيا والصين والهند(٥). ولم يتجاوز الأمر ورود ذكرها هنا وهناك على الطريقة التي انتهجها لوساج Lesage في الملاهي الشرقية في ملهاة تحمل عنوان «حجاج مكة» Les Pélerins de la Mecque (١٧٢٦) تدور أحداث أحد مشاهدها في القاهرة. كما ظهر اسمها على قائمة أعمال الأوبرا الكوميدية كعنوان لباليه يقدم كتسرية للنظارة «قافلة القاهرة» ١٧٨٤.

وفي حين شحذت «الرسائل الفارسية» الهمم ودفعت الكثيرين لتقليدها لتظهر رسائل تنتمي إلى موسكو وبيرو وألينوي ورومانيا، نجد أنها لم تستثر أحدًا ليكتب رسائل مصرية. ذلك أنه حتى ذلك الحين، لم تكن الأضواء قد ألقيت على مصر بقدر كاف يميزها عن تركيا والعالم العثماني بصفة عامة. كان الرحالة واليسوعيون قد سافروا إلى الصين والهند وخبروهما جيدًا ومن هنا، أصبحتا محل دراسة علمية وبهما بدأ الاستشراق.

في عام ١٧٧٦ بدأ ظهور موسوعة ضخمة بعنوان «مذكرات في تاريخ وعلوم وفنون وعادات وتقاليد الصينيين – Memoires concernant l'histoire, les sciences, les arts, les moeurs et les usages des Chinois». بقلم مبعوثي بكين. من ناحية أخرى، ظهر في ذات الآونة اهتمام بالهند من خلال كتاب «زندافستا» Zend-Avesta الذي ترجمه أنكاتيل دوبيرون عام ١٧٧١ Anquetil-Du-perron. ولم يواكب ذلك أي شيء مشابه يتعلق بمصر. ففيما عدا ڤانسلب واثنين من الكابوشيين، أي رحالة فرنسي من القرن السابع عشر تجاوز القاهرة؟ كان صعيد مصر مجهولاً ومجرى النيل يحيط به الغموض. وكانت مصر علمياً على ذات تأخرها جغرافياً. وإذا كانت سرقات قبور

سقارة قد تفشت، فهي بهدف الحصول على المومياوات وبيعها للسحرة والعطارين. ولا يظهر أدنى ميل للبحث في أسرار الهيروغليفية. وجدير بالذكر أن ورق البردي لم يكن قد ظهر بعد في هذه الفترة.

اتجهت بعثاتنا الأثرية إلى اليونان وآسيا الصغرى، ولمست بالكاد ما يخص مصر التي مروا بها مرورًا عابرًا إبان رحلتهم عبر البحر المتوسط.

وقد التفت القس بينيون Bignon أمين مكتبة الملك إلى هذا النقص وكلف القناصل والمبعوثين بشراء المخطوطات القبطية والعربية. ويكمل القرن الثامن عشر كل هذا النقص في المعلومات. فقد شجعت حكومة الوصي ولويس الخامس عشر أبحاث الرحالة أمثال بول لوقا Paul Lucas والأب سيكار Sicard والقنصل بنوا دو ماييه Benoît de Maillet وعلماء الآثار والعلماء أمثال القساوسة دورڤال d'Orvalle وفورمون Fourmont عرف القرن السابع عشر مصر بالكاد وعمق القرن الثامن عشر معرفته بها. وسيكلل هذا الجهد ويزدهر بالبحث المستفيض الذي سيقوم به علماء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٩. إلى ذلك الحين سنجد أن الأكاديميات والأوساط العلمية تتلقى بفيض من الفضول والاهتمام المتزايدين تقارير الرحالة.

في مطلع القرن الثامن عشر اكتشافان نعزوهما إلى بونسيه Poncet ولونوار دي رول Le Noir du Roule لم يجاوزهما في جرأتهما أي اكتشاف آخر لفترة غير قصيرة.

كان شارل بونسيه طبيبًا بالقاهرة منذ عشر سنوات حين قرر عام ١٦٩٨ بناء على طلب قنصل فرنسا بنوا دو ماييه Benoît de Maillet الذي سيرد ذكره فيما بعد، الذهاب إلى الحبشة عن طريق وادي النيل. ولقناعته بفكرة كولبير Colbert القديمة، كان الكونت بونشارتران Pontchartrain وزير الخارجية يبحث إحياء العلاقات التجارية مع الحبشة. وقد طلب ممثل الملك من الطبيب بونسيه Poncet ما لم يرغب الأب ڤانسلب في عمله وما لم يكن في مقدوره القيام به.

انطلق الطبيب إلى الجنوب بشجاعة وجسارة غير مسبوقتين، يصحبه الراهب اليسوعي بريدوڤان Bredevent، واتجها من فورهما إلى واحة الخارجة، ومنها إلى النيل بعد الشلال الثاني. ثم أبحرا فيه قاطعين الصحراء حتى وصلا إلى رافد عطبرة. تابع الاثنان الرافد إلى حدود الحبشة قرب جوندار، مقر «ياسوس الأول» yassous 1er ملك أثيوبيا. كان الملك عليلاً، فعالجه بونسيه ونجح في إبرائه من علته. ثم أقنعه بإرسال وفد سفارة إلى فرنسا وتم له ذلك بالفعل عام ١٧٠٣. ولكن بما أن خطابات قنصل فرنسا شككت في هذه السفارة، فقد تركها لويس الرابع عشر تعود أدراجها بعد أن استقبل الطبيب بونسيه والأرمني مورات Murât ياسوس الأول، ولم يمنحهما أي مكافأة.

وقد تكرر هذا الأمر لاحقًا، وشكك القنصل لومير Le Maire في صدق الخطابات الواردة من الحبشة(٦). ولكن أياً ما كانت النتائج على الصعيد الدبلوماسي، فإن رحلة بونسيه Poncet تبقى شاهدًا رائعًا على الجرأة الفرنسية. وقد تذكرتها الحبشة لفترة طويلة. وقد أشار بونسيه بنفسه إلى هذا الأمر في كتاباته الملخصة عن رحلاته إلى أثيوبيا في الأعوام ١٦٩٨ و١٦٩٩و ١٧٠٠.

أما محاولة لونوار دي رول Le Noir du Roule فقد كانت أقل توفيقًا وأكثر إثارة للشفقة، كان لونوار دي رول نائبًا للقنصل في دمياط. وقد كلفه الملك بالإبقاء على العلاقات القائمة مع أثيوبيا. وعزم هذا الرحالة الجسور على الوصول إليها عبر النوبة وأعالي النيل، وبالفعل غادر القاهرة لتنفيذ ذلك يوم التاسع عشر من يوليو عام ١٧٠٤ بصحبة طبيب وعالم نباتات يدعى السيد ليبي M. Lippi. وقد لاقى متاعب جمة حتى وصلت قافلته المكونة من ستين من الإبل إلى أسيوط في الخامس من سبتمبر. وقد ابتعد عن وادي النيل في الثالث من أكتوبر وولج في الصحراء الليبية وصولاً إلى واحة الخارجة. وعاد عبر الكثبان الرملية إلى النيل مرة أخرى واتجه صعودًا إلى الشلال الثاني جنوبي وادي حلفا ثم إلى دنقلة فالشلال الثالث.

واصل لونوار طريقه إلى مدينه كورتي Korti ومنها أرسل آخر ما تم تلقيه من أخبار عن القافلة. ويقال إنه قطع النيل قبل الشلال الرابع ثم عاد إلى سلوك طريق مواز له

عند «مروي» Méroé وفي نهاية مايو ١٧٠٥ كان قد دخل سنار Sennar غير أن ملك البلاد قد أجهز عليه في شهر أغسطس التالي في ذات الوقت الذي كان قد أعد فيه إبله وأطلقها صوب هضاب الحبشة(٧).

رحلة غريبة وبطولية قام بها لونوار Le Noir على الطريقة الفرنسية. اتسمت بالقليل من الحذر ولم يبق الزمن منها للأسف غير ذكرى محزنة. فقد ذهبت كل هذه المعاناة وهذه المتاعب سدى وتحطمت آمال عريضة على يد مستبد جاهل. رحلات بونسيه Poncet ولونوار Le Noir هذه، بها من الإقدام والجسارة ما لم يتكرر إلا بعد قرن. وبعد اكتشاف سنار وأعالي النيل على يد الإنجليزي بروس Bruce الذي تبعه الفرنسيون: فريدريك كايو Frédéric Cailliaud (١٨٢٠) وتيبو ڤيسيير Thibaut Vaissière (١٨٣٥) وأرنو بيه وساباتييه Arnaud-Bey et Sabatier (١٨٤٠).

هذا لا يعني أن رحالة القرن الثامن عشر كان ينقصهم الحماس، فما حققوه من أهداف يدفع إنجازات أسلافهم من رواد القرن السابع عشر قدمًا. فـ «بول لوقا» Paul Lucas واليسوعي سيكار Sicard وصلا في النيل إلى مسافة أبعد مما كان الأب ڤانسلب Vansleb قد وصل. أما جرانجيه Granger فقد عبر الصحراء العربية من الصعيد إلى البحر الأحمر. غير أن رجالاً مثل القنصل بنوا دو مايـيه Benoît de Maillet والراهب كلود لويس فورمون Fourmont قد أثروا الآثار والتاريخ أكثر مما أضافوا إلى الجغرافيا. في نهاية عهد لويس الرابع عشر كان الرحالة الأكثر شهرة بائعًا وعالمًا في الطبيعة وطبيبًا وتاجر عاديات من إقليم النورماندي بفرنسا يدعى بول لوقا Paul Lucas (١٦٦٤ - ١٧٣٧). كان والده يعمل صائغًا بمدينة روان Rouen سافر لوقا إلى الشرق لغرض واحد هو الاتجار في الأحجار الكريمة. عمل أول الأمر لدى بعض رجال البندقية، وقد جلب عام ١٦٦٩ من الشرق ميداليات اقتناها ديوان الملك.

عام ١٦٩٩ بدأ لوقا رحلته الكبرى التي سجلها في كتابه «رحلة السيد بول لوقا إلى المشرق» الذي نشره في باريس ١٧٠٤ وأهداه إلى الملكة مع سطور نوه فيها إلى أن القراء سيجدون في المؤلف: وصفًا للصعيد مع اتباع مجرى النيل من القاهرة إلى الشلالات مع

خريطة دقيقة للنيل لم يسبقه إلى رسمها أحد. لدى عودته إلى باريس عام ١٧٠٣ وبعد أن سرقت منه بعض الميداليات التي كانت في حوزته، استطاع بول لوقا الإفادة من المساندة التي كان يحظى بها من دوقة بورجوني Duchesse de Bourgogne وحصل على مهمة رسمية من الملك إلى الشرق.

عين تاجر عاديات للملك لويس الرابع عشر وكلفه بونشارتران بالبحث في الشرق عن النباتات التي ليس لها مثيل في فرنسا وجلب الميداليات والغريب من التحف الشرقية(٨) . وقد تلقى من الراهب Binon تعليمات بشراء الميداليات اليونانية والرومانية والبطلمية إلى جانب المخطوطات واللوحات الحجرية. من هنا حملت أسفار بول اعتبارًا من هذا التاريخ عبارة «أسفار تمت بأمر الملك». إحدى هذه السفرات تمت عام ١٧٠٤ وكانت وجهته فيها اليونان وآسيا الصغرى ومقدونيا وأفريقيا. أما الرحلة الأخرى فكانت إلى تركيا وآسيا والشام وفلسطين وشمالي مصر وجنوبيها (روان ١٧١٩).

ولعنوان هذه الرحلة حاشية أضاف فيها الكاتب عبارة: «حيث نجد ملحوظات غريبة مقارنة بما قاله القدماء سابقًا عن متاهة مصر وعدد كبير من المواقع الأثرية القديمة التي اكتشفها».

واقع الأمر أن بول لوقا هو أقل رحالة القرنين السابع عشر والثامن عشر ثقافة وعلمًا. لم يكن دارسًا ولكنه اعتاد منذ بدايات نضوجه على جوب العالم طولاً وعرضًا وملك حسًّا جعله يكتشف المخطوطات الثمينة ويعرف قدر الآثار وقيمتها، كان عارفًا بالنياشين وقيمتها ولكنه لم يكن قادرًا على فهم مدلول ما نقش عليها. قال عنه ديبوز de Boze في ثناء له على أكاديمية النقوش والحفر عام ١٧٤٢: «لدى عودته كان يبحث عن عالم لا يمانع في تصنيف وترتيب وتسجيل ما جلبه، أي يقوم عنه بما يعنّ ويصعب عليه من أمور».

قام بنشر أولى رحلاته السيد بودولو Baudelot وتولى السيد فورمون الأكبر n Fourmont l'aîné أمر الثانية. أما الرحلة الثالثة فقد نشرها الراهب بانييه L'abbé Banier وثلاثتهم ينتمون إلى هذه الأكاديمية(٩). إلى هؤلاء الأكاديميين إذًا يمكننا

أن ننسب الاستشهادات والتشبيهات مع هيرودوت وسترابون التي تجمل رحلات بول لوقا Paul Lucas بل وبعض سطور الوصف التي تذكرنا بما ورد في كتابات تيڤونو -Théve notوالأب ڤانسلب لفرط التشابه بينها.

ما جاء في سطوره عن عمود بومبي ومسلات كليوباترا والحجر الذي فصل عليه بالإسكندرية رأس القديسة كاترين عن جسمها، والأهرامات وبئر يوسف صاحبته ملاحظات لا تخلو من الطرافة هي نتاج قريحته أحيانًا، وأحيانًا أخرى مستقاة من أعمال معاصريه أو السابقين عليه.

وتظهر حقيقة بول لوقا جلية في المواضع التي يبالغ فيها: حين يدعي على سبيل المثال أنه قد رأى على الحجر بقايا دم القديسة كاترين متجمدًا. كما تشي بما يدور في ذهنه تعليقاته التي تتجاوز حدود اللياقة عن العادات المصرية في ذلك الحين. أسهب في ما لم يستوقف غيره مثل بائعات الهوى في طهطا اللائي يستملن الرائح والغادي[١٠]. تزخر كتابات لوقا Lucas بالوصف الطريف لذا فالقارئ لا يمل من متابعته إلى سوق الذهب وسوق العبيد واحتفالات وفاء النيل والمولد النبوي وحفل عرس ابن آغا القاهرة. نستثني من الطرافة المواضع التي يصف فيه تعذيب المجرمين وسلخ جلودهم أحياء والتي تثير الغثيان.

خاصة تلك التي يتوقف فيها أمام أحدهم جارًا قدميه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وقد تدلى جلده متساقطًا عن جسمه. ولنا في مواضع أخرى أن نبتسم مما يسوقه من حكايات وأقاويل مثل تلك الخاصة بالشيطان Asmodée «أسموديه» الذي ظهر في الصعيد أو حكاية ثعبان «أخميم» السحري الذي قطعه إربًا أكثر من مرة وعاودت الأجزاء المتفرقة الالتحام لفورها[١١]، أو روايته عن أسماك النيل النهمة التي تلتهم لحم البشر وتتعرض للسابحين في النيل بالقرب من «قنا» عاقرة منهم أعضاء الذكورة. وكثيرًا ما يبدو لنا هذا المغامر ساذجًا وغير رصين.

لست هنا بصدد تحليل أعمال بول لوقا Paul Lucas فلن نصل إلا لتكرارات مضجرة. ففي معرض حديثنا عن اكتشافات الفرنسيين المتوالية في مصر، يجدر بنا تحديد المراحل مع تبين المستجدات ومدى تطور المعارف. ويبرز هنا سؤال: هل وصل بول

لوقا Paul Lucas إلى الأقصر مرتين كما يدعي؟ لا أعتقد ذلك، فالوصف الذي يسوقه إلينا عن أطلال الكرنك في كتابه «رحلة إلى الشرق» ١٧٠٤ Voyage au Levant ليس إلا صيغة مسهبة لما سبق وكتبه الأب بروتيه Protais ونشره الأب ڤانسلب Vansleb كل ما أضافه هو بعض الأعمدة والمزيد من تماثيل أبي الهول. نضيف إلى ذلك أنه في الخريطة الملحقة بمؤلفه، وضع الأقصر على الضفة اليسرى للنيل. لم يتريث للحظة ليحسن تخمين الموضع الصحيح لمدينة «طيبة».

الشيء المثير للغرابة، أنه ما من أحد من الرحالة الفرنسيين الذين تناولناهم حتى الآن قد تبين مكان عاصمة الإمبراطورية الحديثة. هل ضاعت هذه الذكرى في غياهب العصور الوسطى؟ سؤال نطرحه رغم أنه وجدت خريطة لأورتليوس Ortelius حددت بوضوح عام ١٥٨٤ موضع طيبة، غير أن تيڤونو Thévenot والأب ڤانسلب Vansleb وبول لوقا Paul Lucas لم يعلموا شيئًا عنها. ونشير هنا إلى أن لوقا قد وضع La Diospolis Magna[١٢] على الخريطة في الموقع الذي تحتله قلعة Noasse التركية بالقرب من أسوان.

في رحلته الثالثة أتي لوقا بجديد فقد أورد للمرة الأولى شيئًا عن معبدي «أرمنت» Hermonthis و«دندرة» Tentyra وكان في سفرته الثانية إلى صعيد مصر قد توقف على مشارف «إسنا» نتيجة للحرارة الشديدة ولمرض الأب فرنسوا الكابوشي الذي كان بصحبته.

غير أن ذلك لم يحل دون انطلاقه في وصف شلالات أسوان Syène قائلاً: «تسقط مياهها من عدة جهات من جبل يجاوز ارتفاعه المائتي قدم»[١٣]. ويورد لوقا وصفًا تفصيلياً ورسمًا لمعبد أرمنت الذي تم هدمه لبناء معمل تكرير السكر. وقد خصص لوقا نحو خمس عشرة صفحة مع رسم معبر لبوابة دندرة الضخمة[١٤].

لم يكن الآباء ڤانسلب Vansleb وبروتيه Protais وفرنسوا François في رحلاتهم النيلية قد رأوا من الضفتين إلا ظلالاً بعيدة لمعبد حتحور تشككوا في كونها قصرًا أو معبد سيرابيس Serapis، وقد أصر لوقا على وصف ورسم هذا الأثر الرائع

مع نقل النقوش اليونانية المحفورة على واجهته. ورغم أن المعبد كان مدفونًا في الرمال لا يبدو على سطح الأرض إلا ربعه وتيجان أعمدته، ورغم أن قرية كاملة كانت تحجب سطحه إلا أنه قد أثار إعجاب لوقا ونشط خياله إلى حد جعله يكمل التكوين المعماري من ذهنه.

وطبقًا لما أورده بنفسه فقد استشعر أنه أمام «إحدى عجائب الدنيا»(١٥) واستبعد أن يكون «في باقي أرجاء الكون ما يماثله عظمة» (١٦). وحماس لوقا هذا، قد يبدو لعلماء المصريات وعلماء الآثار في يومنا هذا، مبالغًا فيه. ولكن مبعثه هو الحالة المتميزة التي كان عليها المعبد، وهو رأي شاركه فيه فيما بعد البارون ڤيڤان دونان Vivant Denon وعلماء الحملة الفرنسية.

نخلص من كل ذلك إلى كون لوقا مرشدًا من الصعب الوثوق به غير أنه أول من جعل المعرفة بمصر في متناول الجميع. لاقى مؤلفه نجاحًا كبيرًا وتم نشره على نطاق واسع.

ننتقل بعد ذلك إلى رحلات الأب كلود سيكار Claune Sicard (١٦٧٧ - ١٧٢٦) وهو رئيس بعثة اليسوعيين بالقاهرة وما كتب عنها أكثر تواضعًا وأقل انتشارًا وهو أمر يدعو للأسف، لأنه كان من الممكن أن تصبح هذه الكتابات مرجعًا موثوقًا به ذا ضوابط ومنهج أكثر علمية مع فضول ناقد تدعمه خبرة أكثر عمقًا بمصر. شغل الأب سيكار Sicard وظيفة أستاذ للإنسانيات في مقاطعة «ليون» ثم مبشرًا في سوريا. وقد استقر في القاهرة عام ١٧٠٧ لمدة عشرين عامًا وتوفي فيها عام ١٧٢٦ متأثرًا بمرض الطاعون. كان لغوياً متقنًا للغة العربية.

لم يكن مبعوثًا رسمياً من قبل الملك مثل الأب ڤانسلب Vansleb وإنما إنجيليٌّ على شاكلة الأب فرنسوا François. عندما بدأ رحلاته إلى مصر في عامي ١٧٠٨و١٧١٢ كان هدفه الأساسي هو إقامة علاقات مع الكنائس القبطية والدعوة إلى اعتناق المسيحية(١٧). وليس بمستغرب أن يكون إذًا أول ما يبحث عنه في مصر هو أطلال المسيحية وكهوف

نساك الإقليم الطيبي وأديرة وادي النطرون وسواحل البحر الأحمر، وشيئًا فشيئًا، تزايد اهتمامه بالآثار، وأثرت كتاباته ملاحظات قيمة.

تلقى الأب سيكار من الوصي على العرش فيليب دورليانز Philippe D'orléans أمرًا بدراسة الآثار القديمة التي سيجدها في مصر دراسة جادة مع عمل رسومات لها وتحديد مواقعها ومعاملها. ومما يؤسف له أن النسخة الخطية لكتابه عن مصر لم تنشر في حياته ولم يتم العثور عليها بعد وفاته. ما خلفه لنا، هو مجموعة تقارير ظهرت إما في مذكرات البعثات والإرساليات Nouveaux Mémoires des Missions أو في الرسائل الخاصة بجمعية اليسوع Lettres Edifiantes et Curieuses de la Société de Jésus وهي:

الخطاب الموجه عام ١٧١٦ إلى كونت تولوز بعد رحلته عامي ١٧١٢ - ١٧١٤[١٨].

فهرست الكتاب الكبير الذي كان قد شرع في تأليفه [١٩].

كتابات عن رحلته إلى الشلالات والدلتا عام ١٧٢١[٢٠].

رسالته إلى الأب فلوريو Fleuriau عن رحلته إلى سيناء [٢١].

خطبته عن مصر[٢٢].

بالإضافة إلى هذه المستندات المختلفة تجدر إضافة الخريطة الخطية لمصر القديمة التي رسمها في القاهرة عام ١٧٢٢ والموجودة حالياً بالمكتبة القومية[٢٣]. وتعد دقتها نادرة قياسًا على ما كان متاحًا آنذاك. وقد استخدمها الجغرافي دانفيل d'Anville لرسم خريطته عن مصر عام ١٧٦٦.

ويتسم الأب سيكار Sicard بلين الجانب. وهو يحكي ببساطة ما حدث له في أسفاره عامي ١٧١٢ و١٧٢١ولا يرى ضرورة لسرد تاريخ كل مدينة أو قبول كل قصة خرافية أو الاستشهاد بكل كاتب قديم. وتمضي روايته بدون تثاقل أو استعراض للمعرفة

أو ملل من قبل القارئ. لن نسير على هداه ولكننا حريصون على إبراز ما رآه أكثر من سابقيه وتقديم مساهماته في معارف عصره.

نشير في البداية إلى أنه كان أكثر حظًا من الأب ڤانسلب Vansleb، فقد استطاع الوصول إلى صحراء وادي النطرون، وهو يعطينا تقريرًا مفصلاً عن إقامته في أربعة أديرة قبطية للأنبا مقار. هذه الأديرة الأربعة عبارة عن أراضٍ مربعة الشكل مسورة ومتماثلة فيما بينها، طولها نحو مائة قدم وعرضها أقل من ذلك بقليل. تحيط بها أسوار سميكة وعالية مع متراس مرتفع بقدر يتيح الارتكاز عليه. لكل دير منها برج أعلى من الجدران بما يماثل نصف ارتفاعها. في كل برج مصلّى وهب للقديس ميخائيل Saint-Michel وعدة غرف زاخرة بالمؤن ومكتبة عبارة عن ثلاث أو أربع خزائن مليئة بالمخطوطات العربية القديمة أو القبطية الغارقة في الغبار إلى جانب بئر مياه عذبة وطاحونة وفرن وجسر متحرك(٢٤).

وطبقًا لأقواله فما رآه هو كل ما تبقى من مائة دير كانت في صحراء Scété (٢٥)وقد لاحظ الأب سيكار Sicard وجود أطلال نحو خمسين ديرًا. غير أنه من خمسة آلاف رجل دين كانوا يسكنون هذه الأماكن المنعزلة في زمن رحلة الأنبا بولس والأنبا ميلاني لم يتبق إلا ثلاثة أو أربعة رهبان في كل مبنى يقسمون ساعات يومهم بين التراتيل والعمل اليدوي. أمضى راهبنا نحو خمسة عشر يومًا مع الأقباط الصالحين الذين كان يكره بدعهم ويناقشهم ويقرأ كتبهم العربية وقصص قديسيهم وأساطيرهم محاولاً إقناعهم بآراء أكثر رشادًا واستقامة. الأمر الذي وفق فيه أحيانًا وأخفق أحيانًا أخرى.

قادته مثابرته على التبشير والدعوة إلى الدين، إلى الجانب الآخر من النيل وحتى أعماق الصحارى العربية لزيارة أديرة الأنبا بولس والأنبا أنطونيوس. ونتذكر هنا الصعوبات التي لقيها الأب ڤانسلب Vansleb أثناء جولة مماثلة لم يصل في نهايتها إلا إلى دير الأنبا أنطونيوس وعاد منه بصعوبة بالغة. أما الأب سيكار Sicard فقد وصل إلى دير الأنبا بولس الذي يقع على بعد اثني عشر كيلو مترًا تقريبًا في قلب جبل القلزم

أي نحو ثلاثة فراسخ من البحر الأحمر. ويذكر في وصفه أن الدير محاط بمجاري سيل عميقة وتلال صغيرة جدباء سطحها أسود اللون(٢٦).

هذا المكان لا يرجى منه خير خاصة أنه كان مسكونًا ببدوٍ يتسمون بالعدائية، أفلت مسافرنا لحسن حظه من أيديهم. أما عن المحصلة الروحانية التي توصل إليها فقد كانت هزيلة. كان الرهبان شديدي المراس ومولعين بالبدع والهرطقة ومكتبتهم خاوية. فطبقًا لما ساقه في سطوره: «سرقت منهم المخطوطات والكتب القيمة» (٢٧).

عند ذهابه إلى أقباط الصعيد، زار الأب سيكار Sicard مثل الأب ڤانسلب، كهوف ومغارات النساك في مصر الوسطى أو الإقليم الطيبي وأطلال أنتينوبوليس. وهناك وصف بإفاضة قوس النصر الذي سبق وأشار إليه الأب ڤانسلب. وقد فاق الأب سيكار Sicard هذا الأخير في قدراته على فك رموز النقوش المحفورة على العمود الذي ينسب إلى Marc-Aurèle مارك أوريل وأعادها إلى حاكم روماني يتبع Alexandre Sévère(٢٨).

جدير بالذكر أن الأب سيكار هو أول رحالة فرنسي عرف ووصف رواق «هرموبوليس» [الأشمونين] على الضفة اليسرى للنيل بالقرب من «ملوي». لهذا الرواق اثنا عشر عمودًا كانت مثار إعجاب الرحالة الإنجليزي بوكوك Pococke بعد رحلة الأب سيكار بنحو عشرين عامًا، كما نالت استحسان ڤيڤان دونان Vivant Denon وعلماء الحملة الفرنسية عام ١٧٩٩. وقد تم هدم هذا الرواق في عهد محمد علي. وكان الأب سيكار قد أوضح أن النقوش البارزة في كافة أنحائه واضحة وحافظة لرونقها. وكانت الأفاريز غير ملونه غير أن كل ما هو دون العارضة المرتكزة على الأعمدة، كان ذا لون ذهبي لامع يزيغ الأبصار. ولإضفاء المزيد من الجمال على هذا الرسم، تم تصميم السقف على شكل سماء حفرت فيها النجوم بأبهى شكل لها. وبدا اللون الأزرق زاهيًا. وما يتوجب ذكره في فضل الأب سيكار، هو اكتشافه لموقع مدينة «طيبة»(٢٩).

فلم يتردد مثل السابقين عليه، واستطاع التعرف على عاصمة الإمبراطورية الحديثة مع الأقصر والكرنك. ويرجع ذلك إلى معرفته الجيدة بتاريخها فقد قرأ سترابون Strabon وديودور Diodore. قدر لهذه المدينة الرائعة ذات مصير الإسكندرية وممفيس أن لا نعرفها إلا بأطلالها. ولكن ما يميزها عنهما، أنها رغم ما تعرضت له من مآسٍ ورغم الجهد المضني الذي بذله سكان قرطاجنة والملك قمبيز والرومان في عهد كورنيليوس جالوس Cornelius Gallus لتدميرها بالكامل بعد سرقتها ونهبها، لا يوجد على أرض مصر مكان بقي فيه كل هذا الكم من الآثار الجميلة أو أشياء جديرة بالمشاهدة والتأمل. ليس لأسفنا على ضياع النسخة الخطية لكتاب الأب سيكار حدود. فقد وجدنا سواء في الفهرست المنشور[٣٠] منها، أو في الفصل السابع من مؤلفه «خطبة عن مصر» Discours sur L'Egypte[٣١] وصفًا دقيقًا في إيجازه لأطلال طيبة في بداية القرن الثامن عشر: قصر الملوك [الكرنك]، قاعة الاستقبال وهي عبارة عن بهو يحيط به مائة واثنا عشر عمودًا ومسلة. وعلى الضفة الغربية معبد ممنون وثلاثة تماثيل عملاقة اثنان لممنون وثالث لرمسيس انهار في الرمسيوم، إلى جانب مقابر وادي الملوك.

من هذه المقابر التي كان عددها طبقًا لما جاء به ديودور دي سيسيل[٣٢] Diodore de Sicile سبعًا وأربعين، لم يكتشف الأب سيكار سوى عشر: خمس منها كاملة وخمس أخرى نصف مهدمة. غير أنه قدم للمرة الأولى باللغة الفرنسية نبذة عن موقعها وزخارفها.

مقابر طيبة محفورة في الصخر على عمق مذهل. ندلف إليها من فتحة أعلى وأوسع من أكبر بوابة للعربات. بها نفق تحت الأرض اتساعه يتراوح بين عشرة واثني عشر قدمًا، يقود إلى مجموعة غرف في إحداها قبر من الجرانيت مقام على ارتفاع أربعة أقدام. تعلو هذا القبر طبقة تغطيه وتمنح إطارًا من العظمة والفخامة لكل الزخارف المحيطة به. وتكسو جدران الغرف والقاعات رسومات ملونة من أعلى إلى أسفل، ألوانها احتفظت برونق يومها الأول. وهي لفرط تنوعها تترك أثرًا جميلاً في نفوس متأمليها.

مد الأب سيكار Sicard رحلته الاستكشافية إلى الجنوب[٣٣] إلى أبعد من «طيبة» وبذلك سبق الإنجليزي بوكوك Pococke وكان أسبق من كل الفرنسيين في ذلك. وصل

في شتاء ١٧٢١ إلى أسوان رغم التهديدات التي لقيها هو وجمعه من النوبيين الذين تقدموا نحوه شاهرين رماحهم القصيرة. إلا أنه قام بتهدئتهم وقدم لهم التبغ. وقد أتاح ذلك له الوصول إلى ضفاف الشلالات ومحاجر الجرانيت ونقل النقوش المحفورة على مسلة فيلة ومعبد كوم أمبو[٣٤] وجزيرة الفانتين. وهي جرأة وشجاعة تحسب له قياسًا إلى إخفاق دسكس Desaix والمعارك العاتية التي سيخوضها لاحقًا لمجرد الدخول في جزيرة فيلة.

غير أن ما يبرز بالفعل قدر معارف الأب سيكار عن الرحالة الفرنسيين السابقين عليه هما الفصلان الثامن والتاسع من كتابه: Discours sur L'Egypte «حديث عن مصر» اللذان صمم فيهما جدولاً للآثار القديمة الفرعونية والمسيحية[٣٥] التي لاحظ وجودها. بعض ما يشير إليه في هذا الصدد، يبدو مرتكزًا على تفسير نصوص قديمة أو شهادات غير مباشرة. مثال ذلك إشارته إلى معابد «تانيس» Tanis و Thmuis «تمويس» في مصر العليا ومعبد أفروديتوبوليس المعروفة حاليًا بأطفيح وأنتوبوليس المسماة في وقتنا هذا «قاو Qau» في مصر الوسطى ومعبد كوبتوس في صعيد مصر. فمن الصعب منطقيًا قبول فكرة استطاعته رؤية معابد كاملة أو مهدمة جزئيًا في هذه الأماكن المختلفة بينما في بداية القرن التاسع عشر لم يكن هناك إلا أنقاض عديمة الدلالة كشفت عن هويتها أعمال تنقيب حديثة.

مما لا شك فيه أن هناك معلومات ترتكز على خبرته الشخصية. وقد يكون بالفعل قد تفقد بنفسه كهف «أرتميدوس» بالقرب من بني حسن ومعبدي دندرة وهرمونتس (أرمنت حاليًا) ولاتوبوليس بإسنا وإليثيا سبوليس المعروف حاليًا بالكعب [EL-kab] إلى جانب إدفو وكوم أمبو ... إلخ.. على كل حال أظن علماء الآثار المصرية سيولون اهتمامًا بما استطاع الأب سيكار Sicard مشاهدته في مطلع القرن الثامن عشر. فقد رأى أربعة وعشرين معبدًا كاملاً وخمسين مغارة مرسومة ومحفورة مخصصة للموتى خاصة في فتونيتس Phtontis[٣٦] وفي جبل بني حسن ونحو ثماني عشرة مسلة وعشرين هرمًا كبيرًا على مجمل القطر المصري.

أما معالم الآثار المسيحية فقد ارتفع عددها في هذه الحقبة إلى ثمانين ديرًا كاملاً «حصل طبقًا لما قاله على تصميمها واسمها ووصف مواقعها».

وما استهله الأب سيكار Sicard من اكتشافات في صعيد مصر، تابعه بهمة رحالة آخر جسور هو الطبيب ن. جرانجيه N. Granger الذي نشأ في إقليم «ديجون» بفرنسا. كان عند ميلاده يحمل اسم تورتشو Tourtechot إلا أنه غيّره بعد ذلك. جذبه إلى مصر صديقه السيد بينيون Pignon قنصل فرنسا في القاهرة، فسافر إليها مرتين ومنها إلى سوريا، وقد توفي في بلاد فارس بالقرب من البصرة عام ١٧٣٣. امتدت سفراته إلى الصعيد من ١٧٣٠ إلى ١٧٣٢.

من كتابات هذا الرحالة، تنبعث رنة صدق يستشعرها القارئ. واهتمامات هذا الطبيب غير أدبية. فهو يميل إلى التاريخ الطبيعي غير أنه لا يزدري التاريخ. في طبعه جسارة وإقدام مع قدر كبير من التواضع ولن يجده القارئ أبدًا مزهوًا بما لم يأت به مثلما فعل بول لوقا Paul Lucas.

استطاع هذا الطبيب أن ينقل بأمانة عددًا من النقوش اليونانية بدون أن يفهم ما تعنيه. وقد وصف المعالم التي زارها بتمكن واقتدار، الفرعوني منها والقبطي. ويعد وصفه، وإن جاء عقب المدونة التصنيفية للأب سيكار، مصدرًا لمعلومات مفيدة لنا.

لدى وصوله إلى القاهرة في أغسطس ١٧٣٠، مضى إلى الصعيد في التاسع والعشرين من يناير ١٧٣١، يرافقه مبعوث إيطالي من جمعية Propaganda Fide التي كان ديرها في «أخميم». وصحبهما أربعة من جنود الانكشارية وبعض الأقباط. في الثالث والعشرين من فبراير وصل إلى Baskier et Madfoune أي إلى «العربة المدفونة». ومن إشارته إلى معبد بيربيه «Birbé» الموجود بهذه المنطقة، نستشعر ثقته أنه قد اكتشف للمرة الأولى محراب أبيدوس الشهير(٢٧).

كان هذا المعبد على شيء من البعد بالنسبة للنيل ومواقف القوافل. ومن هنا فلم يحظ لفترة طويلة بالمزيد من الزيارات. زار جرانجيه Granger هو الآخر معبد الكرنك ووصفه قائلاً: «قصر على بعد ميل من «الأقصر»، نصل إليه عن طريق ممر على جانبيه تماثيل أبي الهول. وبشكل أكثر تحديدًا، قصر لم يبق منه إلا بهو به ستة صفوف من

ثمانية وعشرين عمودًا [بهو الأعمدة] وثلاث مسلات من الجرانيت الأحمر، اثنتان منها قائمتان والثالثة على الأرض»[٣٨] . غير أنه لم يعبر النيل ولم ير إلا من بعيد أطلال معالم الضفة اليسرى ولم يتوغل في وادي الملوك.

لدى وصوله إلى إسنا، نقل خمسة نقوش يونانية من دير الشهداء، وكان هذا هو الهدف القديم لحج الأب ڤانسلب Vansleb ثم توقف في «إدفو» حيث رأى بقايا معبد صعب دخوله لكثرة الأحجار وبقايا الجدران التي تملأ المكان.[٣٩] كان هذا آخر ما وصل إليه في الجنوب. أخفق مثل الأب سيكار في الوصول إلى أسوان وعلل ذلك بقوله: «تألمت لعدم استطاعتي الوصول إلى هناك، فالعرب الذين يتقاتلون هناك بصفة مستمرة تقريبًا، جعلوني أعدل عن الذهاب».

في نهاية شهر مارس ١٧٣١ وأثناء عودته، توقف لفترة وجيزة عند الدير الأبيض وهو دير الأنبا شنودة. وطبقًا لوصفه يعد «أقل أديرة الصعيد قبحًا».[٤٠] أما في شهر أبريل فقد سافر من «أخميم» بغية الحج إلى أديرة الأنبا أنطونيوس والأنبا بولس عبر الصحراء. وهي رحلة، طبقًا لمقاييس ذلك العصر، تتسم بالغرابة. كان كل من الأب ڤانسلب Vansleb والأب سيكار Sicard قد وصلا إلى هذين الديرين بالانحراف عن مجرى النيل عند «بني سويف». أما جرانجيه Granger فقد حاد عن هذا الطريق وسلك دربًا متعرجًا. وقد أضاف هذا إلى رحلته عشرين يومًا من السير المضني على الأقدام في فيافي قاحلة لا زرع فيها ولا قرى ولا ماء. هل كوفئ على هذا المجهود الشاق؟ لا أملك الجزم بذلك، فقد استشعر عدم رضا لدى تركه جبال البحر الأحمر. ففي دير الأنبا أنطونيوس الذي انتقد قذارته كان قد التقى بخمسة وعشرين راهبًا يتسمون بالجهل ويؤمنون بالخرافات، يقتلهم السأم والملل. وكانوا يقطعون الوقت بالبحث عن «حجر الفلاسفة» وكتابة تمائم للشفاء من الأمراض[٤١] يبيعونها للبدو أو لزائريهم المعدودين وقد راوده ذات الإحساس في دير الأنبا بولس المجاور مما جعله يقول: «استأذنت من هؤلاء الرهبان وأنا غير راض عما رأيته عندهم. فلم يكن بحوزتهم شيء يرضي فضولي فما بالكم بناسك».[٤٢]

لدى عودته إلى أخميم في العشرين من شهر أبريل قاطعًا ذات الطريق، هبط وادي النيل تدريجيًا وتوقف في منطقة الشيخ عبادة. هناك، التقط بعض نقوش «أنتينوبولس» مشيرًا إلى وجود قوس النصر الذي درسه الأب سيكار Sicard هناك. عقب ذلك، زار مدافن بني حسن وثمانين كهفًا مزينة بوجوه لقديسين أو بنقوش هيروغليفية بدا على بعضها أن وثنيين سكنوها وبدا على بعضها الآخر أن مسيحيين اقاموا بها.

ورغم أن الطاعون كان متفشيًا بالقاهرة وقت عودته إلا أنه بقي بها أكثر من شهرين وقطعها طولاً وعرضًا محصيًا مساجدها [٧٢٠ مسجدًا له مئذنة وإمام و٤٣٠ بدون الاثنين. إلى جانب ٧٠ حمامًا عامًا وأديرة فرنسية لرهبان فرنسيسكان ورهبان متأملين من طائفة القديس فرنسيس ورهبان كبوشيين ويسوعيين].

في السابع والعشرين من شهر يوليو، سافر جرانجيه Granger إلى الفيوم حيث وجد اسم بول لوقا Paul Lucas محفورًا على عمود في قصر قارون[٤٣] على ضفاف بحيرة قارون وكتب معلقًا: «هذا القصر ليس كما قيل عنه «المتاهة القديمة».[٤٤] وفي هذا القول حدس لافت للنظر. فقد وجدت أطلال بناء امنمحعت الضخم عند سفح هرم هوارة على بعد عدة كيلو مترات من مدينة الفيوم. غير أن ذكرياته عن الأساطير اليونانية تداخلت هنا مع أفكاره فالتبس عليه الأمر وخلط بين المتاهة المصرية الخاصة بالأسرة الثانية عشرة والمتاهة الموجودة بجزيرة كريت. قال عنها: «لم أجد نفسي مضطرًا لمراعاة نفس المحاذير واتخاذ ذات الاحتياطيات التي نصحت أريان تيزيه[٤٥] باتخاذها، لدى خروجي منها».

وقد أنهى اكتشافه لمصر برحلة إلى الأديرة القبطية بوادي النطرون. غير أنه لم يبق هناك طويلاً. رفض رهبان دير الأنبا مقار السماح له بدخول مكتبتهم التي تلفت المخطوطات فيها . وقد سبب له الإهمال والقذارة حالة من الإحباط جعلته يعود إلى الإسكندرية والقاهرة لتمضية الشتاء بهما.

خلاصة القول أن بونسيه Poncet ولينوار دي رول Le Noir du Roule وبول لوقا Paul Lucas والأب سيكار Sicard وجرانجيه Granger كانوا من كبار الرحالة.

وسواء دفعت هؤلاء الرواد من أبناء القرن الثامن عشر، إلى مصر، رغبتهم في سبر غور الصحراء أو اكتشاف أراضٍ مجهولة تقربًا لملك فرنسا أو دفعتهم رغبتهم في التبشير وفي تحويل الأقباط إلى الكاثوليكية، فقد استطاعوا نتيجة جسارتهم إحداث تقدم في المعارف الجغرافية والعلوم الخاصة بالأجناس. فلم يكن القرن السابع عشر قد عرف إلا مصر الوسطى ومنطقة الدلتا. أما صعيد مصر فلم يكتشفه إلا القرن الثامن عشر.

علينا الآن الالتفات إلى فئة من الرحالة ذات طابع مختلف. اهتمامهم بالدرجة الأولى بالتاريخ والآثار وليس بالجغرافيا. استقروا بالقاهرة لعدة سنوات وعملوا بها على سجيتهم لتقدم العلم. وهم مبعوثون رسميون: منهم القناصل الذين استفادوا من مناصبهم لجمع المستندات والوثائق والآثار مثل بنوا دو مايبه de Maillet ولومير Maire وليرونكور Lironcourt ومنهم الرهبان العباقرة مثل كلود لويس فورمون Claude-Louis Fourmont الذين كلفوا بمهام أثرية. وأكثر هؤلاء القناصل شهرة عن جدارة وبإجماع الآراء وأكثرهم مساهمة في توسيع المعارف عن مصر في القرن الثامن عشر هو بنوا دو مايبه مؤلف كتاب «وصف مصر»(٤٦).

وبنوا دو مايبه Benoît de Maillet نبيل من إقليم اللورين [١٦٥٦ - ١٧٣٨] ولد في سان ميال Saint-Mihiel وأوفد إلى القاهرة عام ١٦٩٢ حيث أمضى ستة عشر عامًا من حياته العملية. وقد عين عام ١٧١٥ زائرًا عامًا «لأساكل الشرق» Les Echelles du Levant وعرف عنه اهتمامه الدائم بمسائل الشرق الأدنى. وقد تقاعد في مارسيليا في نهاية حياته ومضى يكتب مذكراته التي اشتراها ناشر في حياته. وكان الراهب لومسكرييه Mascrier قد أعاد تنظيمها ووضع لها عنوان «وصف مصر». ولما اتسم به دي مايبه من ذكاء لماح واستقامة ذهن متفتح فقد قام بتأليف عمل آخر يحمل عنوان: «فكرة عن حكومة مصر القديمة والحديثة»

Idée du gouvernement ancien et moderne de L'Egypte

ظهر بعد وفاته عام ١٧٤٣ غير أن العمل الذي ألفه وعرف به هو «تليامد»(٤٧) Telliamed أو حوارات فيلسوف هندي مع مبشر فرنسي ١٧٥٥ وقد نشر بعد وفاته. في هذا الكتاب

الذي وضع له لومسكرييه Mascrier أيضًا اللمسات الأخيرة، تناول أصل الأنواع وتكون العالم وهي نظريات تجعل منه رائدًا لمذهب التحول Le Transformisme[٤٨].

قام بنوا دو ماييه عقب وصوله مباشرة إلى مصر بدراسة عميقة للغة العربية وأبدى شغفًا بالآثار. وقد حاول استثارة اهتمام الكونت دي بونشارتران Pontchartrain للاكتشافات الأثرية والمومياوات والتماثيل والأيقونات وأرسل إلى باريس مثله في ذلك مثل الأب ڤانسلب Vansleb في زمن كولبير Colbert مخطوطات قبطية وعربية. وقد واتته فكرة وصلت إلى حد الهوس المتسلط عليه لمدة أربعين عامًا أخذت شكل مشروع كتب عنه تقريرًا تلو تقرير. وتنصب هذه الفكرة على نقل عمود بومبي إلى باريس. وقد سبق بها دسكس Desaix الذي أوعز بخطابه إلى نابليون بإمكانية نقل إحدى مسلات الأقصر إلى باريس[٤٩]. ويعد مؤلفه الضخم أول عمل مكتمل وشامل عن مصر قبل كتاب ڤولنيه Vol-ney وهو ليس كالمؤلفات التي سبق لنا تناولها حتى الآن وصفًا لرحلة وإنما عرض عام ودراسة إرشادية تطمح إلى إيجاز كل المعلومات عن الموضوع في شكل حصيلة. ولنقل إن هذا على الأقل ما طمح إليه الراهب مسكرييه من تجميعه للمذكرات.

وسرعان ما اختفى دي ماييه عن الأنظار. ارتدى القنصل الفرنسي الملابس الشرقية واعتمر عمامة وانتعل بابوجًا. ومضى يتنقل من مكان إلى آخر على ظهر حمار، يتبعه جنود حراسته من الإنكشارية. وبذا لم يعد ذلك النبيل الوقور ذا الصدرة والمخرمات والمعطف الثمين الذي يبدو في صدارة كتابه. ولعنوان الكتاب «وصف مصر» دلالة فهو يحوي ملحوظات غريبة عن جغرافية هذا البلد القديمة والحديثة وعن معالمها القديمة وعاداتها وأزيائها ودين سكانها وحكومتها وتجارتها وأنعامها وأشجارها ونباتاتها... إلخ.

وقد حرص دو ماييه Du Maillet في مقدمة الكتاب على إبراز الفارق بينه وبين غيره من رحالة عصره الذين حرصوا طبقًا لقوله على نيل الإعجاب أكثر منهم على التعليم. والذين أعطوا قراءهم نسيجًا غير متجانس من الحكايات المثيرة للسخرية أو المغامرات الشخصية التي لا تصلح لتنوير الأذهان. ومما لا شك فيه أن بول لوقا كان حينذاك في ذهنه. ولا يعني ذلك أن كتابه يخلو من الطرائف ومن الوصف الجمالي أو المشجي

أو الأساطير والأقاويل. فلإراحة قرائه من الصفحات الجادة، يحكي قصة الأمير العربي مولاي حسين[٥٠] وحفلات ختان إبراهيم بك نجل إسماعيل الوزير Ismael Vizir[٥١] ووردة الأب كليمان Clement كاهن فرنسا بالقاهرة[٥٢] واستشهاده ومغامرة حسن وفطيم.[٥٣]

ولا يمكنني الجزم بأن الفصل الذي تناول فيه الأسماك وأفراس النهر، يمكن لعالم طبيعة التصديق على كل ما ورد به دون تحفظات. وكذلك الفصل الخاص بدين الفراعنة الذي لا أظنه يحظى بتأييد كامل من عالم مصريات. فطبقًا لما جاء به يتم صيد سمكة من السواحل المصرية لها وجه إمرأة ولها كذلك ذراعان ويدان. تدق بهما صدرها حين يتم صيدها مصدرة صرخات بصوت بشري.[٥٤]

والمقاييس التي جاء بها فرس النهر في صفحاته مغالى فيها لقوله: «يمكن لرجل الوقوف في بطن فرس النهر دون أن تصل يده إلى ظهره».[٥٥]

ولكن أي تعليق يمكننا به تذييل وصفه لمعابد فينوس عند القدماء المصريين التي كانت ملتقى من تعوزهم القدرة من شيوخ وأزواج وعشاق. في هذه المعابد كان هناك الكثير من العري. وكان مرتادوها يمضون بها من تسعة إلى عشرة أيام يتغذون فيها بشكل يستعيدون به قواهم أو يزيدونها.

فيها لا يأكلون إلا خبزًا معجونًا بالعسل وبمسحوق الأفاعي ومعه بيض طازج وعصافير صغيرة ودجاج تمت تغذيته بلحم الأفاعي بالإضافة إلى أنواع من اليخنة أضيفت إليها منكهات وعنبر رمادي. وفي وقت جني الكروم كانوا يشربون عصير العنب الطازج. أما ملابسهم فكانت تعطر بعطر خاص. وعلى رؤوسهم كان يوضع وشاح غامض ويسمح لهم بعد ذلك بمواقعة عرايا المعبد ويحمل صورهن على الصدور.[٥٦]

وسأختصر هنا الوصايا الحسية التي يبدو أن القنصل قد أذهلته نتائجها. فقد ورد على لسانه: «إنه من الصعب بعد كل هذه العمليات ألا يحظوا بنتائج طيبة. ومن واقع سجلات المعبد، كان من الممكن حصر حالات الشفاء والتحسن التي يعزوها أصحابها إلى معجزات آلهة هذه المعابد»[٥٧].

ولنعد إلى الفصول الجادة وهي كثر في هذا العمل الذي اتخذ صورة دراسة في علم اللاهوت. ورغم ظهوره في شكل رسائل إلا أنه وكما أورد الراهب لومسكرييه Le Mascrier في مقدمته قد انتهج في تأليفه أسلوبًا هندسيًا. وهو في رأيه الأفضل لكونه يقود القراء من معلومات إلى أخرى متنقلاً من الأدنى إلى الأدنى.(٥٨) ويلقي الكاتب في البداية نظرة عامة على مصر ومناخها وسكانها ثم ينتقل إلى النيل فيتناول منابعه وانسيابه وجريانه. ويتوقف أمام المناطق الكبرى كالدلتا والسواحل والإسكندرية ورشيد ودمياط والقاهرة، تاريخها ومعالمها. وحول الأهرامات تتمحور رسالة كاملة مزودة برسم مقطعي وخريطة إيضاحية مع فيض من المعلومات وكذلك الأمر بالنسبة لسقارة موقع المومياوات ومدينة ممفيس الشهيرة. وتعد هذه الفصول أكثر مواضع الكتاب عمقًا وتوثيقًا.

وجدير بالتذكر أن دي ماييه Du Maillet أمضى ستة عشر عامًا بالقاهرة ويتيه فخرًا أنه استطاع من خلالها «دخول الهرم الأكبر أكثر من أربعين مرة»(٥٩) وقد أظهر دي ماييه شيئًا من القسوة والجور في اتهامه الأب سيكار Sicard بعدم دخول الهرم ولو مرة واحدة.(٦٠) والسؤال هنا كيف علم بذلك وقد ترك القاهرة في ١٧٠٨ أي في ذات وقت قدوم الأب سيكار Sicard إليها؟

أيًا ما كان الأمر فهو يباهي بمعلوماته الجغرافية. والواقع أننا لا ننكر عليه نجاحه في تحديد موقع «ممفيس»(٦١) بعد فيلامون Villamont وتيفونو Thévenot ولكن التفاصيل التي ساقها لم تكن مقنعة إما لأن أفكاره لم تكن قد تأكدت بعد وإما لأن ناشره الراهب لو مسكرييه Le Mascrier لم يستطع، لجهلة الشخصي بالجغرافيا، أن يفسرها. وقد أنصف دي ماييه Du Maillet فرضيات من سبقوه: «فممفيس لم تكن إلا في مصر القديمة لا فوق هضبة الجيزة. وقد حدد لها قرية «منف» موقعًا، في مدخل سهل الرمال الرحب الذي يطلق عليه اليوم سهل المومياوات والذي تقع الأهرامات في شماله»(٦٢) وهو الموقع الذي يقابل حاليًا منطقة سقارة البدرشين ميت رهينة ويطابق الواقع.

وما يؤخذ فقط على الحجج التي ساقها وتذرع بها لو مسكرييه Le Mascrier هو رغبته في إلحاق المتاهة بموقع «ممفيس» وتقريب العاصمة القديمة من بحيرة مورس

[بحيرة قارون حاليًا]. وفكرة دي مايبه Du Maillet عن صعيد مصر أيضًا يجانبها الوضوح.

فظاهر الأمر أنه لم يذهب قط إلى هذه المنطقة. وهذا القنصل يعرف جيدًا الحي الفرنسي وشوارع القاهرة الضيقة والأهرامات وسقارة، ولكنه لم يذهب بمحاذاة النيل إلى أبعد من الفيوم، هذا إذا كان قد وصل إليها. ويفصح التضارب الوارد في عنوان رسالته الثامنة عن تداخل المعلومات في ذهنه عن «صعيد مصر ومناخه ومدنه وثرواته وآثاره وصحارى الأنبا مقار والإقليم الطيبي ودير الأنبا أنطونيوس الشهير... إلخ».

وقد لاحظ الراهب لو مسكرييه Mascrier ذلك فبادر في المقدمة بالاعتذار قائلاً: «إذا كان السيد دي مايبه لم يسهب ويفصل في وصف صعيد مصر، فيرجع ذلك إلى عدم ثراء الموضوع. فمن الصعب إمتاع القارئ بالأطلال والصحارى والجبال». ياله من إيهام كاذب! فقبل هذا القول بعدة صفحات كان الراهب قد تفاخر قائلاً إنه ليس من أهدافه التسلية والإمتاع كغيره وأنه بصدد كتابة عمل يعلم ويثقف قبل أي شيء أخر. واقع الأمر أن هذا الفصل عن صعيد مصر قد تم تجميعه من نصوص قديمة وكتابات عن رحلات سابقة وبعض الأقوال الرائجة في عصره.

والأرجح أن بنوا دو مايبه du Maillet لم يجد في أرشيف القنصلية النسخة الأصلية من الخطاب الذي وجّهه القنصل السابق عليه داڤيد ماجي David Magy إلى باريس عن رحلة الأب فرنسوا Pere François ولم يعرف النص الذي كتبه الأب بروتيه Père Protais وضمنه الأب ڤانسلب في صفحات كتابه عن رحلاته.

ونظرًا لمغادرته مصر عام ١٧٠٨ فلم يتسنَ له الاستفادة من المعلومات القيمة التي قدمها بعده الأب سيكار Sicard.

ويبدو أن ناشره قد اعتمد بشكل أساسي على رحلات بول لوقا Paul Lucas أي على أكثر الرحلات مدعاة للارتياب والشك. لا مجال إذًا للدهشة أمام الأخطاء العديدة في المواقع والمعلومات الجغرافية(٦٣) التي يعج بها النص وتشي بعدم الدقة. فقد خلط مثله في

ذلك مثل سابقيه بين إسنا Syène [٦٤] ووصف بعبارات فضفاضة وموجزة أطلال طيبة التي لم يستطع تحديد موقعها بدقة[٦٥]. خلاصة القول أنه لم يأت بجديد عن الآثار الفرعونية الخاصة بالإمبراطورية الحديثة وعن أطلال أعالي النيل.

مقابل ذلك، نجد أنه على النقيض قد عوض هذا النقص في وصف مصر الإسلامية. ويعد أول كاتب فرنسي يهتم بالعمارة العربية في مصر[٦٦] ويتحدث عنها بصدق وذوق.

بعد خمسين عامًا من هذا التاريخ، تغيرت النظرة. فساڤاري Savary سيرى حافة مسجد السلطان حسن منحوته بطريقة تخلو من الجمال. ولن يتوقف قلم فرنسي واحد قبل القرن التاسع عشر للإشادة بالفن الفاطمي أو الأيوبي أو المملوكي.

وقد سبق دي مايبه Du Maillet ب. كوست P. Coste وبريس داڤين Prisse d'Avennes في زيارة مساجد السلطان حسن والأزهر وعمرو بن العاص ووصف تفاصيلها المعمارية ملاحظًا أن بعض الأعمدة بها ذات طراز فرعوني ويوناني. وقد توقف دي مايبه Du Maillet أمام الكتابات الكوفية في هذه المساجد وحاول اكتشاف السمات المشتركة بينها. كتب يقول: «إن الشيء اللافت والغريب في هذه المساجد في القباب والمآذن. حقيقي أنه يصعب إيفاء هذه القباب حقها من الإعجاب بجمالها وتناسب وتناسق مقاييسها، والمبتكر فيها، والطول اللافت لبعضها. والزخارف الداخلية التي تزينها ليست بأقل إبداعًا. بعضها أشبه في جماله بالمخرمات، والبعض الآخر اتخذ شكل خانات تحتجز زهورًا بالإضافة إلى أشكال أخرى مضلعة وهي أكثرها شيوعًا. وتعلو أغلب القباب نقوش عربية بارزة على المحيط الخارجي ويمكن بسهولة قراءتها من أسفل. وتبنى القباب عادة في أركان المساجد مكونة مصلى له ارتفاع مذهل. غير أنه أحيانًا تكون للمسجد قبة واحدة وأحيانًا أخرى اثنتان أو أكثر. حين تكون هناك قبتان، غالبًا ما تعلو واحدة جثمان الزوج والأخرى جثمان الزوجة. وهما غالبًا من حجم واحد وموضوعتان بشكل هندسي متناسق ومتوازن[٦٧]. فإذا ما ذكرنا هنا وصف ضريح السلطان برقوق في مقابر الخلفاء، نجد أن به ملمحًا جديدًا عما هو معهود ومألوف وسبق للرحالة نقله. وهو استشراف لما ستكون عليه الرسومات التوضيحية في كتاب «وصف مصر»[٦٨].

والمبشرون الفرنسيون سواء كانوا من اليسوعيين أو الكابوشيين لم يبدوا تأثرًا بجمال الفن الإسلامي. بل وانصرفوا بملء إرادتهم عنها. كانت أذواقهم أكثر ميلاً إلى طُرز قرن لويس الرابع عشر أو روما Rome du Bernin.

والفضول الملاحظ لدى دي مايية Dil Maillet والذي يبدو بشكل متواضع، سيزداد في نهاية القرن وتغذيه بعد الحملة الفرنسية تدريجيّاً منابع ومصادر الاستشراق الرومانتيكي.

والحقّ أن القنصل قد غمرته مشاعر متضاربة عندما ظهرت مذكراته عن مصر عام ١٧٣٥. فمن ناحية استشعر لذة النجاح خاصة وأن كتابه قد أعيد طبعه ثلاث مرات في عام واحد[٦٩]. غير أنه من ناحية أخرى أحس بحقد دفين تجاه الراهب لو مسكرييه Mascrier وقال معلقًا: «ظلمني الراهب بقوله إنه قد ألف الكتاب استنادًا إلى مذكراتي. ولمداواة هذا الظلم، كال لي المديح في المقدمة. وأعتقد أنه فعل ذلك لتعزيز إيقاع الكتاب وإبرازه أكثر منه لإصلاح ما ارتكبه في حقي. انصب كل مجهوده على وضع مذكراتي بترتيب معين مع إضافة كلمة هنا وحذف كلمتين هناك».[٧٠]

ويجدر بي هنا إفساح المكان لقناصل فرنسيين آخرين في الإسكندرية أو القاهرة أمثال السيد لومير Le Maire القنصل السابق في طرابلس الشام وهو من أكبر مشتري المخطوطات القبطية والسريانية[٧١] والسيد ليرونكور Lironcourt وهو من حائزي النياشين والتماثيل الصغيرة، ويتسم بذهن متقد. كتب في خطاب له إلى الكونت دي كايلوس De Caylus الإقطاعي الكبير كاتب الحكايات الشرقية والمولع بها، مقترحًا عليه في الخامس من مارس ١٧٤٩ إرسال بعثة أثرية إلى مصر. وقد رسم خطة للإنجازات التي حققتها فيما بعد حملة بونابرت.[٧٢]

لهذه الدراسة المبدئية عن رحالة العهد الملكي حدود لا يجب تجاوزها. وأرجو أن يتسنى لي إضافة اسمين لراهبين عالمين مبعوثين رسميين للكونت دارجونسون d'Argenson بقيا في القاهرة من عام ١٧٤٧ وحتى ١٧٥٠ أحدهما هو

الراهب دورڤال d'Orvalle الذي نجح في الحصول على نسخة من دفتر بيان ثمين من الأزهر والآخر هو منافسه الراهب كلود لويس فورمون Claude-Louis Fourmont الذي تفاوض لشراء عدة مخطوطات عربية وكتب دراسة عن هليوبوليس وممفيس[٧٣] وهي مما يجدر التوقف عنده لحظة.

هناك أسرة كاملة تحمل اسم فورمون Fourmont أولهم اتيان فورمون وشهرته Fourmont-L'aîné وهو أكبر الأبناء (١٦٨٣ - ١٧٤٥) وهو من كبار المستشرقين، مستعرب وعالم بالحضارة الصينية في آن واحد عضو في الجمعية الملكية Royal Society وفي أكاديمية برلين وأكاديمية النقوش. شغل كرسي اللغة العربية بعد جالان Galland في «الكوليج دي فرانس» ونشر كتاب «تأملات نقدية في تاريخ الشعوب القديمة» حتى عصر Cyrus سيروس (١٧٣٥). قيل عنه بمكر، إنه يتقن عدا الفرنسية اثنتي عشرة لغة.

أما الثاني فهو الراهب ميشيل فورمون (١٦٩٠ - ١٧٤٦) وعرف بالشاب فورمون Fourmont Le jeune وهو ليس بثقل أخيه الأكبر وقد اختلف الناس بشأنه. كان أستاذًا للسريانية في «الكوليج دي فرانس» وكلف بمهام في اليونان وتركيا في الفترة من ١٧٢٨ وحتى ١٧٣٠.

أما ثالثهم كلود لويس فورمون Claude Louis Fourmont المترجم بمكتبة الملك، فقد كان ابن شقيق الراهب ميشيل وقد رافقه في أسفاره وأخذ عنه ولعه بفقه اللغة والآثار. وقد استطاع الفوز برحلة إلى مصر عام ١٧٤٦ رافق فيها صديقه السيد دي ليرونكور Lironcourt الذي عين قنصلاً لفرنسا بالقاهرة. صبر بدون جدوى طيلة أربع سنوات ليتمكن من نيل مهمة رسمية إلى صعيد مصر ووضع نتائج أبحاثه في كتابه: «الوصف التاريخي والجغرافي لسهول هليوبوليس وممفيس» ١٧٥٤ الذي أهداه إلى الكونت دار جونسون Comte d'Argonson هذا الكتاب لا يحوي فقط علمًا ومعرفة فقد أفرد فيه الكاتب مساحة لحديث شائق عن مدينة القاهرة وسكانها ومساجدها خاصة مسجد الأزهر ومكتبتها والمورستان وهو مشفى الأمراض العقلية وفنادقها وحماماتها

العامة. وتستحق هذه الدراسة اهتمامًا خاصًا لسببين أولهما نستشفه من الخريطة الملحقة بالكتاب. فقد حدد فيها المؤلف بدقة شديدة موقع الهرم الرابع الذي كشفت عن وجوده لاحقًا، بعثة آثار الجامعة المصرية وأزالت عنه الرمال في هضبة الجيزة عام ١٩٣٢. وأفرد الكتاب له وصفًا دقيقًا شغل الصفحات الأخيرة. وبشيء من المبالغة، ذكر أنه لو كان مكتملاً لعادل جماله جمال الهرم الأكبر فهو مثله تشكل أحجاره مائة وثمانية وأربعين مدرجًا. غير أن مساحة القاعدة ليست واحدة في الهرمين. وقد أتى الصف غير المنتظم على أحجاره فتآكلت واستحالت رمالاً. ويرتفع هذا الهرم نحو ستمائة وثلاثة وأربعين قدمًا.[٧٤] وهو يحدد أبعاده ومدخله ويقيس ممراته وقاعاته وهو يدرس بالإضافة إلى ذلك مشكلة ممفيس ويدحض فرضيات أولئك الذين يرون وضع العاصمة القديمة في مصر القديمة أو الجيزة. وقد انكب على دراسة الحجج والأدلة التي ساقها القنصل دي ماييه Du Maillet ووصل بشكل قاطع إلى أن مكانها بين سقارة وقرية منف القديمة (منوف مانوف/ مايمف) القريبة من البدرشين والتي اختفت في نهاية القرن الثامن عشر.

ولنا الآن أن نحصر ما لدينا من معلومات عن مصر حتى ١٧٧٠ قبل قيام ڤولنيه Volney ودي ساڤاري Savary وسونيني Sonnini برحلاتهم.

ويجدر بنا بادئ ذي بدء تحديد مراحل الولوج فيها بعمق. ففي النصف الأول من القرن السابع عشر تبع الرحالة ذات طريق الصليبيين والحجاج. فلم يحظ باهتمامهم غير الأماكن المقدسة. واقتصرت حدودهم على الإسكندرية ورشيد والقاهرة وجبل سيناء. وجدير بالذكر أن دي براڤ de Brèves (١٦٠٥) وفرمانل Fermanel (١٦٣١) وكوبان Coppin (١٦٣٨) ودي مونكوني De Monconys (١٦٤٧) وتيڤونو Thèvenot (١٦٥٢) ودارڤيو D'Arvieux (١٦٥٨) لم يتجاوزوا القاهرة.

في عام ١٦٧٢ وصل الأب ڤانسلب Vansleb إلى مشارف الفيوم ووضع رحاله لفترة وجيزة أمام دير الأنبا مقار. ثم مضى قدمًا إلى دير الأنبا أنطونيوس بالقرب من البحر الأحمر. ثم وصل عن طريق النيل إلى جرجا. أعقب ذلك وصول راهبين كبوشيين هما الأب بروتيه Protais والأب فرنسوا François في جولة بابوية اتسمت بالكثير من الجسارة إلى الكرنك وإسنا (١٦٦٨).

أما بول لوقا Lucas فقام بعدة أسفار إلى الصعيد. وصل في ثانيها إلى أرمنت (١٧٠١). غير أن أول من استطاع من الفرنسيين الإبحار في النيل لمدى بعيد والوصول إلى أسوان بل والشلال الأول ١٧٢١ هو اليسوعي سيكار Sicard.

وأبقي لمجرد الذكرى بعثة سفارة بونسيه Poncet إلى الحبشة (١٦٩٨) والحملة البطولية والمشئومة في آن واحد التي قام بها لونوار دي رول Le Noir du Roule وحاول فيها الوصول إلى الحبشة عبر الصحراء عام ١٧٠٤. أما الطبيب جرانجيه Granger فقد وصل إلى إدفو عام ١٧٣١ وعبر الصحراء الغربية إلى البحر الأحمر. وتعد أسفار القنصل دي مايية Du Maillet والراهب كلود لويس فورمون Claude Louis Fourmont وما كتباه عنها من أمتع الرحلات، غير أنها لم تجاوز الجزء الشمالي من مصر والقاهرة بصفة خاصة.

على كل حال، علينا أن ندخل في الحسبان أن القرن الثامن عشر اتسم بالمواطنية العالمية أو الكوزموبوليتيزم. وهذا يضطرنا إلى إلقاء نظرة على رحلات وأسفار غير الفرنسيين. فلا شيء يروي ظمأنا لمعرفة ما يدور في أفريقيا غير كتابات كبار رحالة أوروبا المنشورة والتي ترجمت بعد وقت وجيز من ظهورها. وعدد هؤلاء الرحالة كبير وبعضهم ذو شهرة كبيرة. والقارئ الباريسي يعرفهم ويحبهم. نذكر من هؤلاء الرسام الهولندي كورناي لوبران Corneille Le Brun (كورنيليوس بروين) الذي عشق تيڤونو Thévenot وكتب «رحلة إلى الشرق». وقد ظهر هذا الكتاب المصور في باريس ١٧١٤ وأعيد طبعه في روان عام ١٧٢٥.

ونذكر أيضًا عالم اللاهوت الإنجليزي توماس شو T.Shaw الذي ترجمت ونشرت كتاباته عن أسفاره في بلاد الشرق والبربر في لاهاي عام ١٧٤٣ في مؤلف شمل خريطة بالإضافة إلى العديد من الرسوم التوضيحية. نضيف ثالثًا وهو فريدريك نوردن Frédéric Norden قبطان البحرية الملكية الدانماركية الذي ألف كتابًا رائعًا عن رحلته إلى مصر والنوبة ظهر باللغة الفرنسية في كوبنهاجن عامي ١٧٥١و١٧٥٥. أما

هاسلكويست Hasselquist فكان عالم طبيعة سويدياً يرعاه ويصادقه لينيه Linn وقد ألف كتاب «رحلات إلى الشرق» ١٧٤٩ - ١٧٥٢ الذي ترجم عن الألمانية عام ١٧٦٩.

إلى هذه القائمة نضم ريتشارد بوكوك Richard Pococke الذي ترجم كتابه «رحلة إلى الشرق ومصر والجزيرة العربية» ونشره في فرنسا عام ١٧٧٢ - ١٧٧٣، والدانماركي كارستن نيبور Carsten Niebuhr وهو والد المؤرخ الروسي الشهير. وقد ترجمت رحلته إلى الجزيرة العربية وبلاد أخرى مجاورة إلى اللغة الفرنسية في أمستردام عامي ١٧٧٦و ١٧٨٠.[٧٥]

ولنكتبها هنا صراحة أن ثلاثة من هؤلاء وهم بوكوك ونوردن وبروس قد فاقوا بكثير سابقيهم من الفرنسيين برحابة واتساع معارفهم، والجرأة التي اتسمت بها اكتشافاتهم وثراء رسوماتهم وملاحظاتهم. فالأول استطاع في ما بين عامي ١٧٣٧و١٧٤٢ الوصول إلى أسوان وزيارة الأديرة القبطية المطلة على البحر الأحمر وجبل سيناء.

أما الثاني فقد تمكن عام ١٧٣٧ من تجاوز معابد فيله والشلال الأول ووصل إلى بلدة در Derr محددًا أول معابد النوبة.

وقد كرر الثالث محاولة لينوار دي رول Le Noir du Roule الفاشلة. وفي ما بين عامي ١٧٦٨و١٧٧٣ نشر مؤلفه: «رحلة إلى النوبة والحبشة».[٧٦] وما نذكره هنا ليس تقليلاً للنتائج التي حققها الفرنسيون في القرن الثامن عشر فقد ذهب هؤلاء الأوروبيون إلى أبعد مما ذهب إليه شاتوبريان Chateaubriand وجيرار دي نرفال Gerard de Nerval وتيوفيل جوتييه Théophile Gautier وفرومنتان Fromentin ولوتي Loti وباريس Barrés فهم الرواد وذوو السبق الذين لا يمكننا إنكار جهودهم.. وعلينا انتظار ڤيڤان دونان Vivant Denon وأعضاء لجنة مصر ولاحقًا جان جاك أمبير J. J. Ampère وفلوبير Flaubert ومكسيم دي كوم Maxime Du Camp لنلقى كاتبًا فرنسيًا متميزًا على ضفاف جزيرة الفنتين أو بين أطلال فيله.

ما أود قــوله هنــا، أن اكتشاف صعيد مصر الذي بدأه الرحالة الفرنسيون في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر قد استأنفه بتميز وبراعة أجــانب مــثل بوكــوك Pococke ونوردن Norden وبروس Bruce قــبل حــملة بونابرت. وهو ما يفسر امتنان كتاب مثل ڤولنيه Volney وساڤاري Savary وشاتوبريان Chateaubriand لهم لاحقًا.

ولنسجل هنا في المقام الثاني مدى تطور معارفنا التاريخية والأثرية. كيف تكشفت للفرنسيين شيئًا فشيئًا مصر الرعامسة ومصر النساك ومصر الخلفاء. ما الذي نعرفه في نهاية القرن الثامن عشر عن هذه الحضارة الثلاثية: الفرعونية والمسيحية والعربية؟

قبل مقدم لجنة العلوم والفنون التابعة لجيش الشرق بفترة طويلة، كانت أهم معالم مصر القديمة قد تم التوصل إليها. لا أتحدث هنا بطبيعة الحال عن عمود بومبيي ولا عن مسلات كليوباترا بالإسكندرية وعن مسلة هليوبوليس بالمطرية التي يكرس لها كل الرحالة صفحات وصفحات من مؤلفاتهم منذ القرن السادس عشر. وإنما أتحدث عن الآثار البطلمية والرومانية التي كانت موجودة بمصر الوسطى وأشار إليها الأب ڤانسلب Vansleb والأب سيكار Sicard والتي اندثرت الآن مثل بوابة هيرموبوليس (أشمونين) وقوس نصر انتينوبوليس (الشيخ عبادة). أما صعيد مصر فقد تكشف في صورة مراحل متلاحقة: فمع بول لوقا Paul Lucas تم اكتشاف دندرة وأرمنت ومع الراهبين الكابوشيين بروتيه Protais وفرنسوا François واليسوعي سيكار Sicard فقد تم اكتشاف الكرنك ووادي الملوك. أما مناطق «إسنا» و«كوم أمبو» و«الفنتين» و«فيلة» فكان الكشف عنها على يد سيكار Sicard بوكوك ونوردن.(٧٧) نستثني من ذلك كله معابد «أبيدوس» و«إدفو» التي لم يزرها ولم يصفها أحد.

وكان جرانجيه Granger قد سبق له الإشارة إليها في إنجاز عام ١٧٣١. في ذاك الوقت كان معبد أبيدوس بعيدًا عن ضفاف النيل وغارقًا في الرمال. أما معبد إدفو فقد تحول إلى قلعة صغيرة تركية وجارت عليه القرية المجاورة. ولم يتمكن أحد من الوصول

إليه. ومن هنا فقد اقتصر الأمر على لمحه من بعيد. يبدو لنا إذًا أن هذين المعبدين لم يأخذهما أحد في الاعتبار قبل مجيء الحملة الفرنسية.(٧٨)

هذه هي إذًا الأماكن التي أمكن الوصول إليها والأطلال التي تم حصرها. والآن ماذا عما قيل بصددها من تفسيرات وتأويلات؟ لا شك أن كم الخطأ وعدم الدقة بهما عالٍ. والملاحظ أن الرحالة لم يجمعوا على تحديد أماكن المدن المندثرة. فبول لوقا Paul Lucas أخفق في تحديد موقع طيبة. أما الأب سيكار Sicard فقد كان أول من تعرف على المدينة ذات المائة باب. وكان تحديد مكان ممفيس بدقة هو أحد المحاور الدائمة في المناقشات. لم يتفق الرحالة الفرنسيون في هذا الشأن وكذلك نظراؤهم الإنجليز بوكوك Pococke وشو Shaw. فقد ذهب هذا الأخير إلى أن ممفيس هي «الجيزة» الحالية وقد أبدى بوكوك اعتراضات شديدة على ذلك.

وقد تبنى كل من بروس Bruce ونيبور Niebuhr وجهة نظر بوكوك Pococke، أما نوردن Norden فقد أيد شو Shaw. كان دي مايبه Du Maillet وكلود لويس فورمون Claude Louis Fourmont أبعد وأثقب نظرًا من كل هؤلاء. غير أن علينا الانتظار طويلاً حتى يأتي الفرنسي ساڤاري ويثبت لنا صحة حدسهما.

وقد تسبب الجهل بالكتابة الهيروغليفية في العديد من الأخطاء في تحديد المعابد وعصور بنائها. والأب سيكار Sicard واحد من الرحالة الذين لم يخطئوا كثيرًا في تقديراتهم. غير أنه لم يكن لدية للاستدلال على المعالم إلا النصوص اليونانية اللاتينية ونصوص المؤرخين العرب وتقاليد الدولة. وبالتالي فأي متخصص في علم المصريات يمكنه وضع يده على هنات في الفصل السابع من «حديثه عن مصر» في هذا الفصل يضع سيكار قائمة بما تبقى من مصر القديمة عابدة الأوثان.(٧٩)

ويشمل الجدول الذي وضعه ما يلي:

أربعة وعشرين معبدًا كاملاً أو محدود التلفيات منها معبد pan في تمويس(٨٠) Themuis ومعبد ڤينوس Vénus(٨١) بأفروديتوبوليس ومعبد إيزيس Isis مع نقش يوناني

في أسبيوس أرتميدوس[٨٢] ومعبد ماركور Mercure في هرموبوليس[٨٣] ومعبد الشمس في تانيس العليا[٨٤] ومعبد جوبيتر وهرقل والنصر في هيراكون مع نقش لاتيني[٨٥] ومعبد انتاي في أنتاوبوليس مع نقش يوناني[٨٦] ومعبد أوزيريس في أبيدوس[٨٧] ومعبد ڤينوس[٨٨] مع نقش يوناني في تاتنتيريس ومعبد إيزيس فى تنتريس[٨٩] ومعبد أبوللو في أبوللونوبوليس بارفا مع نقش يوناني[٩٠] ومعبد حورس في كوبتوس[٩١] ومعبدي سيرابيس[٩٢] وممنون[٩٣] في طيبة ومعبدي أبوللو وجوبيتر في هرمونتيس[٩٤] ومعبد بالاس في لاتوبوليس[٩٥] ومعبد السمكة لاتوس في لاتوبوليس[٩٦] معبد لوسين في لوسينا سيڤيتس[٩٧] ومعبد أبوللو في أبوللونوبوليس ماجنا[٩٨]، معبد أبوللو مع نقش يوناني في أومبوس[٩٩] معبد إيزيس مع نقش يوناني في فيله ومعبد الصقر في فيلة.[١٠٠]

ولا يجب أن تعترينا الدهشة لخلط الأب سيكار Sicard معبد أمون الكبير بالكرنك، بقصر الملوك في طيبة وعدم تمييزه بين بهو الأعمدة وقاعة الاستقبال الفسيحة في هذا القصر إلى جانب عدم إدراكه الفارق بين المحراب وقبر الملك Osymandias والذي أشار إليه ديودور Diodore. وقد قدم بوكوك Pococke لاحقًا ذات التفسير وحدد موقع قبر Osymandias أي المعبد الجنائزي لرمسيس الثاني والذي يطلق عليه اليوم الرامسيوم على الضفة اليمنى للنيل.

ويجدر بنا في نهاية الأمر الإشارة إلى أن أحكام الرحالة الفرنسيين في القرن الثامن عشر قد حادت بعض الشيء عن الصواب تأثرًا بالأجواء المحيطة بهم ونتيجة شغفهم بطرز لويس الرابع عشر والخطوط اليونانية الرومانية.

ويكفي للتأكد من ذلك أن نمعن النظر في الرسومات الإيضاحية التي أوردوها في مؤلفاتهم فبها أغرب التغييرات والتعديلات. فقد طالت التماثيل الفرعونية وتيجان الأعمدة التي على شكل زهرة اللوتس أو ورق البردي، وجذوع أعمدة طيبة شيدت على الطراز الهليني الجديد. من هنا نتفهم ميل لوقا Lucas وڤانسلب Vansleb وسيكار Sicard للمعابد البطلمية وتفضيلهم إياها على معابد الدولة الحديثة.

وتأثر الرحالة بالنمط الكلاسيكي جلي. ويكفي لتبين ذلك مضاهاة الصور التي أوردها الرحالة الإنجليز مع تلك التي ألحقها الفرنسيون بمؤلفاتهم. فكتاب بوكوك Pococke جعل خطوط نقيشات الكرنك والأقصر مائلة وملتوية تأثرًا بالنزعة اليونانية الرومانية وجعل التماثيل مكتنزة وذات خطوط لينة وهو ما يتناقض مع استقامة الطراز وجمود التقاطيع ونموذج الجمال البسيط والخالي من الزخرف لمنحوتات طيبة. تأثرت رؤيتهم بما تلقوه من تعليم وتقاليد أكاديمية وما عرفوه وتبقى لديهم من عصر النهضة. إلى جانب ما ألفوه من عادات أوروبا الغربية في ظل حكم لويس الرابع عشر أو الملكة آن. فالمهندس المعماري الذي يعجب بأعمال مانسارد Mansard وبيرو Perrault وسوفلو Soufflot من الصعب عليه تقبل أعمدة أخرى غير أعمدة اللوڤر. وبوابات أخرى غير بوابات القديس بولس (سان بول) بلندن والبانثيون والقديس بطرس بروما. وسيتطلب الأمر وقتًا ليتخلص الرحالة من أحكامهم المسبقة ويؤمنون بآثار قديمة أخرى غير ميدان روما والأكروبول ويتذوقون طرزًا أخرى غير الطراز الأيوني والطراز الكورنثي.

والغريب أن لجنة معهد مصر لم تر عام ١٦٩٩ إلا الفن اليوناني الروماني وأخضعت له الفن المصري دونًا عنها. هذه الذكريات الكلاسيكية كانت ذات تأثير على ڤيڤان دونان Vivant Denon وبريس داڤين Prisse d'Avennes رغم ما يتسما به من بصيرة، أما مصر المسيحية فقد تم اكتشافها في وقت سابق على مصر الفرعونية. ويرجع ذلك إلى طبيعة الرحالة فهم إما دومينكي مثل الأب ڤانسلب Vansleb أو كابوشي مثل الأب بروتيه Protais والأب فرنسوا أو يسوعي مثل الأب سيكار Sicard. وقد اجتذبت هؤلاء جميعًا الأديرة والخورنية القبطية إما بهدف التبشير أو اكتشاف ونقل وشراء المخطوطات المقدسة والوثائق الخاصة بالكنيسة المسيحية البدائية أو للهدفين معًا. وقد قاموا جميعهم بزيارة صحراء Scete والأديرة الكبرى في وادي النطرون وجبل القلزم وهما دير الأنبا أنطونيوس ودير الأنبا بولس. كما أولوا بعض الاهتمام للأديرة الأخرى الموجودة بطول

وادي النيل. وقد قام الأب سيكار بوضع قائمة بالأديرة القبطية التي وجدت في عصره في الفصل التاسع من كتابه «حديث عن مصر»[١٠١].

ورغم أن الزمن وحمية المسلمين قد دمرا معظم المدن الأسقفية وحوّلا عددًا منها إلى قرى بائسة، فإنه يمكننا في كل هذا الخضم اكتشاف اسم كل مقر وتحديد موقعه وتمييز كل مدينة أسقفية. والأمر لا يتطلب إلا القيام ببعض الأسفار إلى المواقع والاطلاع على مراسيم المجمع الديني ومؤلفات الكتّاب الكنسيين وقراءة قصص وجداول شهداء الكنيسة وطرح تساؤلات عن كل ما يخص الكنيسة. بكل هذه الأساليب المعاونة تصبح الأعراف أكثر وضوحًا. وبالوجود في المكان نفسه، يمكن الاسترشاد ووضع كل كرسي أسقفي في مدينته الأسقفية. وبواسطة الاسم العربي الحديث يمكن الاستدلال على الاسم اليوناني أو القبطي القديم، وبالتالي عمل خريطة مصرية كنسية فقط.

وقد حصر الأب سيكار ثمانين ديرًا كاملاً لدينا رسمٌ تخطيطيٌّ لها. وقد سمى أبرزها وهي: دير الأنبا أنطونيوس بالصحراء[١٠٢] وديره الواقع على النيل[١٠٣] ودير الأنبا بولا الناسك[١٠٤] ودير الأنبا مقار ودير السريان ودير اليونان[١٠٥] ودير الأنبا باخوم[١٠٦] ودير القديس أرسين[١٠٧] والقديس بابيز في صحراء Scete[١٠٨] وديره في الإقليم الطيبي[١٠٩] ودير القديس سينوديوس[١١٠] ودير الراهب هور[١١١] ودير الراهب بيتينون[١١٢] ودير الراهب أبوللو[١١٣] ودير بكرة النيل[١١٤] ودير النافذة في أنتينوي[١١٥] ودير الصليب[١١٦] ودير الشهداء[١١٧] ودير جارنوس أو دير النبوءة[١١٨] ودير القديس جون المصري[١١٩] ودير القديس بفنوس[١٢٠] ودير القديسة جميان[١٢١] ودير سيناء[١٢٢] ودير ريت[١٢٣]. وقد ألحقت بالقائمة معلومات إرشادية قيمة سيستغلها في العصور اللاحقة الرحالة والمتخصصون في شؤون الأقباط ومؤرخو الكنيسة المسيحية بمصر.

أما مصر الإسلامية فهي في القرن الثامن عشر غائبة عن الأنظار وقليلة الجاذبية. فمن ناحية، كانت في هذه الفترة تشهد انحدارًا فنياً وسياسياً كبيرًا وقد طمست كل معالم عظمتها السابقة بواسطة الاحتلال التركي. ومن ناحية أخرى، كان الفن العربي ما زال

غريبًا على الأذهان التي تشكلت على تقاليد أوروبا الغربية الكلاسيكية والمسيحية. والسؤال الذي يطرح نفسه هو أين كان يمكن اكتشاف هذا الفن إذا لم يكن في الأحياء المسلمة المنطوية على نفسها والمنغلقة أمام فضول الفرنجة؟ كيف يمكن دخول المساجد والجبانات والأماكن المقدسة، خاصة أن هذه الأماكن تعد بالنسبة لمبعوثينا معاقل الخيانة وقلاع الخطأ والضلال؟ من هنا يجب ألا نتوقع في كتابات الرحالة المسيحيين ورود معلومات عن العمارة العربية.

بعض العلماء مثل الراهب دورڤال d'Orvalle والراهب فورمون Fourmont قادتهم أقدامهم حول مسجد الأزهر للسؤال عن مخطوطات العصور الوسطى الإسلامية وشرائها بناء على تعليمات أمين مكتبة الملك. ولكن من بين كل هؤلاء، لم يبدِ اهتمامًا حقيقيًا بالفن العربي وبوصف عمارة المساجد الكبرى إلا قنصل فرنسا Benoît de Maillet وقد سبق في ذلك علماء الحملة الفرنسية. أما عن العادات والتقاليد والاحتفالات الإسلامية فقد وصفها بالتفصيل معظم الرحالة. ولم يخل وصفهم من الجاذبية والسخرية في آن واحد.

وقد انتقل إليهم من قدامى الحجاج، الأفكار المسبقة المسيحية وازدراء المسلمين. ويتسم هؤلاء الرحالة بالقسوة والشدة حيال القذارة والتسيب اللتين يعيش فيهما سكان القاهرة وحيال الطغيان التركي الذي يسحقهم، وإزاء عادات وطباع المصريين، وهنا أيضًا نجد أن بنوا دي مايية Benoît du Maillet يعد استثناءً. فهو، بداية، يتقن اللغة العربية وقد قرأ للمؤرخين العرب بلغتهم وبالتالي كان بإمكانه أن يفسر لنفسه الحاضر بالماضي. ثم إن وظيفته طبقًا لما كتبه الراهب لو مسكريه Le Mascrier قد هيأت له أساليب تعلم ما كانت لتتاح لرحالة بسيط في بلد بها ما يدعو أي أجنبي للقلق.[١٢٤] وقد زودته خبرته ببلدان الشرق بألفة في التعامل مع الشرقيين، فلم يعد يندهش من كل شيء بل استشعر تسامحًا حيال الأتراك الطغاة لا يقاسمه فيه أبناء جلدته. وقد أثار ذلك حفيظة الأب كوبان Coppin[١٢٥].

هذه هي حصيلة معارفنا عن مصر الفرعونية والمسيحية والإسلامية في نهاية القرن الثامن عشر. الأرض ممهدة والطرق مفتوحة: طريق الفراعنة وطريق النساك وطريق الخلفاء. ولا يتبقى إلا المضي قدمًا. غير أن ذلك لا يتأتى إلا بمعطيات جغرافية دقيقة ومكثفة وخرائط متقنة. وقد قام برسم خرائط مصر[١٢٦] الجغرافي الشهير ج. ب. بورجنيون دانفيل (١٦٩٧ - ١٧٨٢) مؤلف كتاب L'Orbis Romanus وأطلس الصين. وقد ظهر له في باريس عام ١٧٦٦ «مذكرات حول مصر القديمة والحديثة»:Memoires sur L'Egypte ancienne et modern وكان دانفيل عضوًا بالأكاديمية الملكية للآداب وعضوًا بأكاديمية سان بيترسبورج للعلوم وسكرتيرًا لصاحب الفخامة دوق أورليانز. وكتابه المشار إليه سابقًا عمل جغرافي بحت ارتكز على نقد الكتّاب القدامى والرحالة الجدد المنشغلين بتحديد المسافات بين المدن والكنوز الأثرية، وتحديد مقاييس الهرم وأبعاد المواقع بحيادية ودقة وبدون زخرف. وهو عمل جليل وعبقري لأن المؤلف لم تطأ أقدامه أرض مصر.

وقد اعتمد على مراجع عديدة وعلى ترجمة دقيقة للنصوص القديمة والحديثة. وقد استعان في دراسته بمجلدات ورسومات وخرائط بوكوك Pococke ونوردون Norden وبملاحظات الأب سيكار Sicard بوجه خاص والخريطة التي رسمها عام ١٧٢٢ وجدير بالذكر أنه في هذه الخريطة حدث تطور كبير وتقدم على أطلس جودڤيل Gueudeville التاريخي المنشور في أمستردام عام ١٧٢٠ - ١٧٢١. وقد جمع الجزء السادس من هذا العمل الكبير عن مصر تاريخها وجغرافيتها وأكثر الأخطاء سخفًا وحمقًا وأكثر التخمينات طرافة. وقد ألحق بعمله هذا جدولاً شاملاً يوضح تسلسل الملوك بدءًا من الرعاة «الهكسوس» وحتى كليوباترا طبقًا لما جاء في الكتابة المقدسة، وخريطة لوادي النيل هي نسخة مكررة من خريطة بول لوقا Lucas.

ويعد دانفيل d'Anville أول جغرافي يستفيد من توجيهات الأب سيكار Sicard وجرانجيه Granger والرحالة الأجانب الذين عاشوا في منتصف القرن الثامن عشر. وكان يعرف أين تقع كل من ممفيس وطيبة. وقد درس سترابون Strabon وتاسيت Tacite وبوزاياناس Pausanias وديودور دي سيسيل Diodore de Sicile وأميان مرسلان Ammien Marcellin في أعماله مزج وتناغم بين التاريخ والطبوغرافيا. معه لا يضيع القارئ في فرضيات وأضغاث أحلام وإنما يعرف بيسر أين هو وإلى أين هو ذاهب. وقد أفاد من خريطته كل من ڤولنيه Volney وبونابرت Bonaparte[١٢٧].

****

BIBLIOGRAPHIE

ouvrages généraux

- H. Omont, Missions archéologiques françaises en Orient aux XVII et XVIII siécles, Paris, Imprimerie nationale, 2 vol. 1902.

- P. Martion, L'Orient dans la littérature française aux dix-septiéme et dix-huitième siécles. Thése de doctorat, Paris, Hachette, 1906.

- H. Bordeaux, Voyageurs d'Orient, 2 vol. Plon, Paris, 1926.

- Prince Omar Toússoun, Etude sur le Ouadi Natroun, ses moines et ses couvents, Alexandrie, 1931.

- R. Laurent-Vibert, Routiers. pélerins et corsaires aux échelles du Levant, Paris, édition: Les œuvres représentatives, 1932.

- M.L. Dufrenoy, L'Orient romanesque en France, Montreal, Beauchemin, 1946.

voyageurs français

- Paul Lucas, (Premier) Voyage au Levant (depuis l'année 1699 jusqu'en 1703) - t. I, Contenant la description de la Haute-Egypte suivant le cours du Nil, depuis Le Caire jusqu'aux Cataractes, avec une carte exacte de ce fleuve, que personne n'avait donnée, Paris, 1704, in - 12. - A La Haye, 1705, in-8.

- Nouvelle édition, Paris, 1714, in - 12.

- (Second) Voyage, L'an 1704-1708, dans la Gréce, l'Asie Mineure, la Macédoine et l'Afrique. Paris, 1710, 2 vol. in-12. - Amsterdam, 1714, 3 vol. in-8.

- Troisiéme Voyage fait en 1714 jusqu'en 1717 par ordre de Louis XIV dans la Turquie, l'Asie, Sourie, Palestine, Haute et Basse-Egypte, etc. Paris, 1719, 2 vol. in-8 —— .Amsterdam, 1720, 2 vol. in-12. - Rouen, 1723, 2 vol. in-12. - Paris, 1724, 2 vol. in-12. - Rouen, 1724 et 1728 et 1728. 3 vol. in-12. - Amsterdam et Rouen, 1744, 3 vol. in-12.

- Pére Cl. Sicard, Lettre à M^r le Comte de Toulouse, contenant une relation de ses trois voyages dans la Haute et Basse-Egypte, écrite en 1716, avec une carte [de la Basse-Thébaïde], Paris, in-8 .Sur la carte manuscrite de la Basse-Thébaïde, ef. commandant Vivielle, Congrés intern. de Géogr. du Caire, avril 1925, p. 76-78.

- Relation d'un voyage aux Cataractes et dans le Delta. Publiée dans les Nouveaux Mémoires des Missions de la Compagnie de Jésus, Paris, 1717, in-12, t. II, p. 1-288.

- Relations et lettres diverses publiées dans les Lettres édifantes et curieuses écrites par des missionnaires de la Compagnie de Jésus (Mémoires du Levant). Paris, Gaume, 1830, t. VIII et IX. - La collection des Lettres édifantes commence en 1703 et va jusqu'en 1776, 34 volumes. En 1780, on en publia une réédition en 24 volumes. En 1830, on en tira les Mémoires du Levant.

- Tournefort, Relation d'un voyage dans le Levant, Paris, 1717.

- Tollot, Nouveau voyage fait au Levant LES années 1731 et 1732, in-12, Paris, 1742. (Escale à Alexandrie seulement).

- N. Granger, Relation d'un voyage fait en Egypte en l'année 1730, oú l'on voit ce qu'il y a de plus remarquable, particuliérement sur l'histoire naturelle, in-8, Paris 1745. Cf. aussi: Réflexions de M. l'abbé B*** (Banier?) sur la relation du Voyage d'Egypte par Granger, in-12, Paris, Vincent, 1745.

- Benoît de Maillet, Description de l'Egypte contenant plusieurs remarques curieuses sur la géographie ancienne et moderne de ce pays, sur les monuments anciens, sur les moeurs, les coutumes et la `religion des habitants, sur le gouvernement et le commerce, sur les animaux, les arbres, les plantes, etc. Composée sur les mémoires de M. de Maillet, ancien Consul de France au Caire, par M. l'abbé Le Mascrier. Paris, 1735, in-4 —— .La Haye, 1740. - 2 vol. in-12, Beauregard.

- Idée du gouvernement ancien et moderne de l'Egypte, acec la description d'une nouvelle pyramide et des nouvelles remarques sur les maeeurs et les usages des habitants de ce pays. Paris, 1743, 2 vol. in-12.

- (C. L. Fourmont), Description historique et géographique des plaines d'Héliopolis et de Memphis, Paris, 1754. Traduction allemande, Nuremberg, 1782.

- L'édition française parut sans nom d'auteur. Sa préface a été reproduite d'aprés le manuscrit par H. Omont, op. cit., vol. II, 144. L'édition allemande contient une nomenclature critique des voyageurs précédents.

- P. Gueudeville, Atlas historique ou nouvelle introduction à l'histoire. Amsterdam, 1720-1721, 7 vol, in-f .Egypte: t. VI.

- D'Origny, L'Egypte ancienne, ou mémoires historiques et critiques sur les objets les plus importants de l'histoire du grand empire des Egyptiens, Paris, 2 vol. 1762.

- J. B. Bourguignon D'Anville, Mémoires sur l'Egypte ancienne et moderne, avec cartes, 1 vol. in-4 Paris, 1766.

- traductions des voyageurs étrangers

- Pietro della Valle, Les fameux voyages de Pietro della valle, gentilhomme romain, surnommé l'illustre voyageur, avec un dénombrement trés EXECT des choses les plus curieuses et les plus remarquables qu'ils a vues dans la Turquie, l'Egypte, la Palestine, la Perse, les Indes Orientales, et que les auteurs qui en ECRIT, n'ont jamais observée aux funerailles de Silli Maani son épouse qu'il fit enterrer au Capitole. - Paris, 1663-1670, 4 vol. in-4, . portraits, 1 planche.

- Jean Greave (Professeur en astronomie à l'Université d'Oxford), Description des Pyramides d'Egypte, traduite de l'anglais par Melchisédech Thévenot. Collection des Voyages curieux...1re partie.

- xviiie siécle

- Corneille Le Brun, Voyage au Levant. Trad. du flamand. Paris, 1714 et Rouen, 1725, 5 vol. in-4.

- Thomas Shaw, Voyages dans plusieurs provinces de la Barbarie et du Levant, contenant des observations géographiques, physiques, philologiques et mêlées sur les royaumes d'Alger et de Tunis, sur la Syrie, l'Egypte et l'Arabie Pétrée, trad. de l'anglais, La Haye, 1743, 2 vol. in-4.

- Frédéric Louis Norden, Voyage d'Egypte et de Nubie (1738) Ouvrage enrichi des cartes et figures dessinées sur les lieux, trad. du danois en français par des Roches de Parthenais. Copenhague, 1751 et 1755.

- Nouvelle édition avec des notes et additions tirées des auteurs anciens et modernes et des géographes arabes, par L. Langlés. Didot, Paris, 1795, 3 tomes en 2 vol. in-4 et 1 vol. de cartes et figures.

- Frédéric Hasselquist, Voyage dans le Levant, dans les années 1749, 1750, 1751 et 1752, trad. de l'allemand, Paris, 1769.

- Richard Pococke, Voyage dans l'Egypte, l'Arabie, la Palestine, la Syrie, la Gréce, la Thrace, etc., contenant une description exacte de l'Orient et de plusieurs autres contrées..., etc., traduits de l'anglais sur la seconde édition [1771](1) par une société de gens de lettres (rédigés par P. de la Flotte). Paris, 1772 et 1773, 7 vol. in-12.

- Carsten Niebuhr, Voyage en Arabie et en d'autres pays circonvoisins (1761), trad. de l'allemand, Paris, 1776-1780, 2 vol. in-4——. Amsterdam, 1776-1780. - Berne, 1780.

- James Bruce, Voyage en Nubie et Abyssinie (1768-1773), trad. par J. Castera, Paris, 1790-1792, 5 vol. in-4.

- W. G. Browne, Nouveau voyage dans la Haute et Basse-Egypte, la Syrie, le Darfour, où aucun Européen n'avait pénétré, fait depuis les années 1792 jusqu'en 1798, par W. G. Browne, contenant des détails curieux sur diverses contrées de l'intérieur de l'Afrique, sur l'Anatolie, sur Constantinople et Paswan-Oglow, avec des notes critiques sur les ouvrages de Savary et de Volney, trad. de l'anglais sur la 2 édition, par J. Castera, Paris, an viii, 1800, 2 vol. in-8 et 1 atlas in-4.

- Henri Rooke, Voyage sur les côtes de l'Arabie Heureuse, sur la mer Rouge et en Egypte, contenant le récit d'un combat des Anglais avec M. de Suffrein et leur expédition contre le cap de Bonne-Espérance en 1781, Traduit de l'anglais d'aprés la seconde édition. Londres, 1788.

- Eyles Irwin, Voyage à la mer Rouge, sur les côtes de l'Arabie, en Egypte et dans les déserts de la Thébaïde en 1777, suivi d'un autre de Venise à Bassorah par Latiqué, Alep, Les déserts, etc., dans les années 1780 et 1781. Traduit sur la troisiéme édition anglaise par M. Parraud. Tomes I, II, Paris, 1792, 2 vol. avec 2 cartes géographiques.

****

الهوامش

١ - «الشرق في الأدب الفرنسي» L'Orient dans la litt rature française المقدمة ص ص ١٧ ١٨، الفصل الأول ص ص ٤٤ - ٤٥، الفصل السادس ص ١٧٣.

٢ - ملاحظات حول «مقال عن العادات» Remarques sur L'Essai sur les Moeurs, 1764

٣ - ٣٠ أكتوبر وأول نوفمبر ١٧٥٩.

٤ - راجع P. Martine المرجع السابق، المجلد الثاني، الفصل السادس ص٢٣٩. وما يليها.

٥ - ذات المرجع الفصل السادس ص ١٦٦ وما يليها

٦ - خطاب السابع عشر من نوفمبر ١٧١٦ راجع H. Omont البعثات الأثرية المجلد الأول ص ٣٦٣. لدى عودة بونسيه Poncet إلى باريس نشبت خلافات مدوية بينه وبين ممثل الحبشة مورڤال Moreval الذي اعترض على الطابع الرسمي للوفد.

٧ - راجع F .Cailliaud, Voyage à Mero p304 ف. كايو، «رحلة إلى مروي»، ١٨٢٦ الجزء الثاني ص ٣٠٤.

Vicomte de Caix, La France en Ethiopien (1634-1706) Paris, 1886 et 1892

ڤيكونت دوكيه، فرنسا في أثيوبيا (١٦٣٤ - ١٧٠٦) بارس، ١٨٨٦ و١٨٩٢.

Th. Lhuillier, Un voyageur officiel envoyé en Elhiopie sous Louis XIV

ث. لويليبه، «رحالة رسمي مبتعث إلى أثيوبيا في عهد لويس الرابع عشر»

أبحاث قرأت في جامعة السوربون نشرة جغرافية ١٨٩٠ كتب بول لوقا من ناحيته رسالة إلى الراهب بينيون Bignon وصف فيها مقتل لينوار دي رول (راجع H. Omont هـ. أومون المرجع السابق، المجلد الأول ص ٣٦١)

٨ - Omont, Missions Arché ologiques, I, p330 أومون، «بعثات أثرية» الجزء الأول ص ٣٣٠.

٩ - راجع كتاب H. Omont السابق ذكره. المجلد الأول ص ٢١٨.

اتيان فورمون أو فورمون الأكبر (١٧٨٣ - ١٧٤٥) كتب دراسة عن الشعوب القديمة قبل سيروس Cyrus (١٧٣٥) راجع:

قصة بطليموس

Baudelot de Dairval (1648-1722), Histoire de Ptolémé (1698) L'abbé Ant. Banier (1673-1741) Dissertation

عبادة الحيوانات في مصر القديمة

sur le culte des animaux dans l'ancienne Egypte (1723)

١٠ - «أثار دهشتي لدى دخولي المدينة رؤية اثنتي عشرة فتاة لا يرتدين سوى القمصان ولم يخجلن من رفع أطرافها كاشفات عن أجسامهن بابتذال». «رحلة إلى الشرق» ١٧٠٤ المجلد الأول ص ٩١ (١٧٠٤) Voyage au Levant.

١١ - تناول العديد من رحالة هذه الحقبة قصة ثعبان جبل هريدي المشار إليها.

١٢ - «رحلة إلى الشرق» ١٧٠٤ ص ١٥٢ .

١٣ - رحلة إلى تركيا وآسيا والشام وفلسطين وشمالي وجنوبي مصر ومنطقة «روان» بفرنسا، ١٧٤٤ المجلد الثالث، ص ١٢.

١٤ - ذات المرجع ص ص ٣٢-٤٨ .

١٥ - ذات المرجع ص ٣٧ .

١٦ - ذات المرجع ص ٤٥ تم العثور على الرسم الخاص بدندرة والذي خطه بول لوقا في مؤلف نوردن Norden بدون تنويه باسم صاحبه. طبعة ١٧٩٥ المجلد الثاني.

١٧ - وهو ذات اهتمام الأب برنا Bernat راجع «رسائل للعبرة» Lettres édifiantes «مذكرات من الشرق» Memoires du Levant طبعة ١٨٣٠ في تسعة مجلدات. الجزء السابع ص ١٧٦.

١٨ - «رسائل للعبرة» Lettres édifiantes الجزء الثامن ص ١٦ وما يليها.

١٩ - ذات المرجع ص ٢٢٥.

٢٠ – ذات المرجع، الجزء السابع ص ص ١٣١ – ١٤٧.

٢١ – ذات المرجع ص ١١٥.

٢٢ – ذات المرجع ص ص ١٧٠ – ٢٢٩.

٢٣ – لا يجدر الخلط بينها وبين خريطة الإقليم الطيبي ١٧١٦ المذكرات الجديدة ١٧١٧.

٢٤ – رسائل للعبرة Lettres édifiantes «مذكرات من الشرق» Memoires du Levant طبعة، ١٨٣٠ الجزء الثامن ص ٢٠.

٢٥ – صحراء Sceté لا تشبه صحراء Nitrie وهما متجاورتان.

الزائر التالي لوادي النطرون هو سونيني وذلك عام ١٧٧٧.

٢٦ – «رسائل للعبرة» ص ٢٠٦.

٢٧ – ذات المرجع ص ٢٠٨.

٢٨ – ذات المرجع ص ١٥٣.

٢٩ – ذات المرجع ص ١٣٠.

٣٠ – رسائل للعبرة Lettres édifiantes ومذكرات من الشرق Memoires du Levant الجزء الثامن ص ص ٢٣٩ – ٢٤٠.

٣١ – ذات المرجع الجزء التاسع ص ص ٢١٥ – ٢٢٠.

٣٢ – أشار سترابون Strabon في عهد أوجست Auguste في العام السابع والعشرين قبل الميلاد إلى وجود أربعين منها.

٣٣ – بعض السابقين عليه يتخيلون أو يحاولون إقناعنا أنهم قد وصلوا إلى أسوان. غير أنهم يخلطون بين Syène وإسنا.

٣٤ – رسائل للعبرة مذكرات من الشرق الجزء الثامن ص ص ١٣٢ – ١٣٥.

٣٥ – ذات المرجع ص ص ،٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٢٩.

٣٦ – بالقرب من جبال سلسلة Silsile.

٣٧ - طبعة ١٧٤٥ ص ص ٣٨ ، ٤٠.

من معابد أبيدوس ورمسيس الثاني ووالده سيتي الأول، تم استخراج أعمال نحتية على سطح موحد تعد مفخرة للنحت المصري القديم. وكان ساڤاري قد أشار إليها أيضًا غير أنها بقيت مدفونة في الرمال حتى أعمال تنقيب مارييت Mariette ١٨٥٩و١٨٦٤. أما الكونت دي جاسبران Gasparin عام ١٨٤٧ ومكسيم دي كوم Maxime Du Camp عام ١٨٤٩ فلم يستطيعا الدخول إلى هذه الأماكن إلا زحفًا وكان ذلك على مستوى تيجان الأعمدة المدفونة فقط.

٣٨ - طبعة ١٧٤٥ ص ص ٥٥ - ٦٠.

٣٩ - ذات المرجع ص ٧٧.

٤٠ - ذات المرجع ص ٩٣.

٤١ - ذات المرجع ص ص ١٠٧ - ١١٤.

٤٢ - طبعة ١٧٤٥ ص ١٢٠.

٤٣ - ذات المرجع ص ١٥٢، قصر قارون، معبد خنوم.

٤٤ - بول لوقا، راجع ص ٤٤ عنوان ما كتبه عن رحلته الثالثة ١٧١٩.

٤٥ - ذات المرجع ص ١٥٢.

٤٦ - وجد السيد جيمار Guémard توقيع بنوا دو مايبه في سجلات كنيسة الموسكي وقد ذيلت به بعض العقود والصكوك المدنية. [راجع مذكراته عن كنائس الأرض المقدسة بالقاهرة، باريس، أ. دوسيه O.Dousse ١٩٢٩].

٤٧ - يلاحظ أن هذا العنوان ما هو إلا اسم «مايبه» معكوسًا

٤٨ - كتب فولتير أبياتًا ساخرة يقول فيها:

«قنصلنا مايبه وليس قنصل روما

يعرف كيف كان بدء الخليقة»

٤٩ - خطاب بتاريخ ٢١ مارس ١٦٩٩ ذكره جورج لوجران georges Legrain في كتابه في بلاد نابليون. مصر ص ١١٧.

Aux pays de Napoléon. L'Egypte, Rey, 1913, p 117

٥٠ – «وصف مصر» طبعة ١٧٣٥، الجزء الأول ص ٣٠٧.

٥١ – ذات المرجع، الجزء الثاني ص ٧٢.

٥٢ – ذات المرجع الجزء الثاني ص ٩٣.

٥٣ – ذات المرجع الجزء الثاني ص ١١٧.

٥٤ – ذات المرجع الجزء الثاني ص ٢٦.

٥٥ – ذات المرجع الجزء الثاني ص ٣١ والرسم الذي يصحب الوصف مثير للسخرية.

٥٦ – «وصف مصر» الجزء الثاني ص ٥٨.

٥٧ – ذات المرجع طبعة ١٧٣٥ ص ٥٩.

٥٨ – ذات المرجع المقدمة ص ٩.

٥٩ – ذات المرجع المقدمة ص ١٣.

٦٠ – H.Omont المرجع السابق الإشارة إليه، المجلد الثاني ص ٧٧٦.

٦١ – «وصف مصر» الجزء الأول ص ص ٢٦٥ ٢٧٥. سبق لجيوم دي تير Guillaume de Tyr الإشارة إلى «ممفيس» وقت الحروب الصليبية وكذلك المؤرخ العربي عبد اللطيف الذي بكى في القرن الثاني عشر على أطلالها (راجع جوزيف ميشو «مراسلات الشرق» Corespondance d'Orient ، المجلد الخامس ص٣٤٧) ذكر عبد اللطيف في ذلك الوقت التمثال الضخم الذي وصفه هيرودوت (رمسيس الثاني) الذي نراه حتى يومنا هذا. كان فيلامون وتيفونو قد تعرفا على موقع «ممفيس» في القرنين السادس عشر والسابع عشر ولكن لم يكمل أحد بعدهما ما بدءاه. (راجع ما سبق ص ص١٠ – ٢٨).

٦٢ – وصف مصر» الجزء الأول ص ٢٦٥ لا يتعلق الأمر هنا بـ«منوف» التي توجد بالدلتا على مسافة كبيرة من الأهرامات وإنما بـ«منف» القرية القديمة التي ذكرها المؤلفون الأقباط المشيدة على أنقاض «ممفيس» وتتشابه معها في الاسم والتي اختفت في نهاية القرن الثامن عشر. وهذا ما يفسر خلط بوكوك بينها وبين «ممفيس» والتي أشار إلى أطلالها في «ميت رهينة» ويعطي معنى لإنكار براون لوجودهما (أسفار الملحق الثاني ص ٣٦٦) .

٦٣ - انظر تحديدًا الخريطة الملحقة بالصفحة الأولى التي تلتقي فيها قناة يوسف (بحر يوسف) بالنيل عند أسيوط. وتأخذ فيها بحيرة موريس مقاييس غير عادية. وتقع طبقًا لها أسوان في شمال إسنا ... إلخ.

٦٤ - «وصف مصر» الجزء الأول ص ٣٠٣.

٦٥ - ذات المرجع الجزء الأول ص ٣٠٠.

٦٦ - يعقب نوردن دي مايه ويكمل ما قدمه بإضافة صور، لا تخلو من التشويه، إلى النص.

٦٧ - «وصف مصر» طبعة ، ١٧٣٥ المجلد الأول ص ص ٢٠٠ - ٢٠١.

٦٨ - ذات المرجع طبعة ١٨٠٩ الجزء الثاني بقلم جومار Jomard.

1 - Missions archéologiques françaises en Orient aux XVIIe et XVIIIe siéclés", H.OMONT

بعثات أثرية فرنسية إلى الشرق في القرنين السابع عشر والثامن عشر، الجزء الثاني ص ٧٧٦.

٦٩ - ذات المرجع، الجزء الثاني ص ٧٧٦.

٧٠ - ذات المرجع الجزء الثاني ص ٥٥٠.

٧١ - ذات المرجع الجزء الثاني ص ٧٩٦.

٧٢ - ذات المرجع الجزء الثاني ص ص ٧٨١ - ٣٨٣.

٧٣ - ذات المرجع الجزء الثاني ص ص ٧٩٤ - ٨٠١ والعنوان الصحيح هو: وصف تاريخي وجغرافي لسهول هليوبوليس وممفيس، باريس، ١٧٥٤

Description historique et géographique des plaines Héliopolis de Memphis Paris, 1754

٧٤ - الوصف طبعة ١٧٤٥ ص ص ٢٦١ - ٢٦٤.

٧٥ - لمعرفة العناوين الصحيحة رجاء مراجعة قائمة المراجع في نهاية الفصل.

٧٦ - ترجم إلى الفرنسية فقط عامي ١٧٩٠و١٧٩٢.

٧٧ – سبق للأب سيكار الإشارة إلى مقابر بني حسن ومقابر فتونتيس، ومن المحتمل أيضًا جبل سلسلة التي رسمها لاحقًا نوردون. وهذا الأخير قد ساهم بما لا يقل عن ١٥٩ لوحة توضيحية في إثراء معارفنا قبل ڤيڤان دونان.

٧٨ – ذكر ساڤاري Savary مدينة «إدفو» في سطرين فقط من كتابه «رسائل عن مصر» Lettres édifiantes ١٧٨٦ المجلد الثاني ص ١٥٢ بينما أورد وصف أبيدوس في خمس صفحات. ذات المرجع ص ص ٩٠ – ٩٥.

٧٩ – «رسائل للعبرة»، المجلد التاسع ص ٢٢٠ Lettres édifiantes

٨٠ – تمويس، تمي الأمديد في شمال مصر: لم يبق منها شيء، وقد ذكرها الكونت دي فوربان كمكان تنقيب لآثار هامة عام ١٨١٧ «رحلة إلى الشرق» ص ٢٩٥.

٨١ – أطفيح على الضفة اليمنى للنيل في مواجهة هرم ميدوم. وقد قيل في صددها ذات الملحوظة السابقة.

٨٢ – بالقرب من بني حسن. معبد الآلهة نخت التي لها رأس لبؤة وقد حفرته الملكة حتشبسوت ١
– أشمونين لم يعد باقيًا منه شيء.

٨٣ – تانيس: شمال مصر معبد أمون رع

٨٤ – هيراكونبوليس (نخن) مصر العليا ويطلق عليها حاليًا كوم الأحمر وتقع أمام الكاب El-kab على الضفة اليسرى للنيل. مما لا شك فيه أنه كان في هذه المنطقة معبد لم يعد له أثر.

٨٥ – كاو (قاو قاو الكبير) على الضفة اليمنى للنيل في طهطا. لم يعد باقيًا منه إلا المقابر. لم ير فيه البارون دونان Denon عام ١٧٩٩ إلا بوابة مرتفعة ذات مظهر خشن، أما جومار Jomard فقد رأى فيها معبدًا جميلاً أعاد إليه رونقه واعتباره في «وصف مصر».

٨٦ – وهو أمر صحيح.

٨٧ – معبد حتحور الكبير في دندرة.

٨٨ – ماميسي في دندرة.

٨٩ – «قوص» حيث كان يوجد معبد حورس الذي اندثر. بول لوقا وجد هنا ناووس بطلمي رسمه ووجد عليه اسم كليوباترا. [المجلد الثالث ص٢].

٩٠ - اختفى حاليًا.

٩١ - معبد أمون.

٩٢ - الرامسيوم ممنونيوم.

٩٣ - معبد موت (حورس) في أرمنت، وقد تهدم في وقتنا الراهن.

٩٤ - لا شك أنه ماميزي المجاور.

٩٥ - إسنا: معبد خنوم الإله ذو رأس الكبش والإلهة «نت» التي خلط اليونانيون لاحقًا بينها وبين أثينا (معبد فيه نوع من أسماك النيل).

٩٦ - (El- Kab) (إليثيا سبوليس إليثيا كانت إلهة الولادة).

٩٧ - إدفو: معبد حورس.

٩٨ - كوم إمبو.

٩٩ - ماورد هنا صحيح.

١٠٠ - معبد هارونذوت (حورس).

١٠١ - رسائل للعبرة المجلد التاسع ص ٢٢٦.

١٠٢ - عند جبل القلزم بالقرب من السويس.

١٠٣ - وهو دير Pispir ويسمى اليوم دير الميمون وأهدي للأنبا أنطونيوس. أقام في هذا الدير الأنبا أنطونيوس قبل أن يذهب إلى الصحراء.

١٠٤ - على بعد عشرين كيلومترًا من دير الأنبا أنطونيوس في صحراء جبل القلزم.

١٠٥ - تقع ثلاثتها في وادي النطرون (وقد زار هذه الأديرة الأب برنا Bernât والأب سيكار Sicard وجرانچيه).

١٠٦ - يتحدث سيكار Sicard عن ديرين يحملان هذا الاسم. الأول يقع على بعد فرسخين شمالي مدينة أخميم وقد تهدم واندثر والثاني هو دير الأنبا باخوم ويقع بالقرب من الأقصر وهو قائم حتى يومنا هذا.

١٠٧ – يقع دير الأنبا أرسين بالقرب من طرة. لم تبق منه سوى أطلال متناثرة.

١٠٨ – دير الأنبا بيشوي بوادي النطرون.

١٠٩ – وهو دير الأنبا بيشوي المسمى بالدير الأحمر بالقرب من سوهاج.

١١٠ – الدير الأبيض أو دير الأنبا شنودة ويقع بالقرب من سوهاج.

١١١ – دير القديس هور، أو دير السوادة بالقرب من المنيا.

١١٢ – وهو بلا شك دير مارمينا أو القديس ميناس بالقرب من منفلوط . لا يمكننا الجزم بأن القديس «بيتيريون» Pithyrion الذي تحدث عنه روفان Rufin راجع كتاب أنديلي Andilly حياة قساوسة الصحراء الجزء الثاني

Vies de Saints - Pères des déserts, rome II, p .122

قد عاش في هذا الدير كما ظن الأب سيكار Sicard

١١٣ – يتعلق الأمر هنا بدير المحرق بالقرب من منفلوط وهو أهم الأديرة القبطية بمصر وقد خلط سيكار بينه وبين دير القديس أبوللو الذي كان قد تهدم منذ فترة طويلة والذي اكتشف جان كليدا Jean Cledat أطلاله في باويط.

١١٤ – في شمالي المنيا على الضفة الشرقية للنيل على جبل الطير.

١١٥ – في انتينوبوليس.

١١٦ – دير الصليب جنوبي قوص.

١١٧ – على بعد نصف فرسخ من المنيا.

١١٨ – دير الجارنوس بالقرب من مغاغة بمحافظة المنيا. ويروى أن العائلة المقدسة بقيت في هذا الدير أربعة أيام. وقد أطلق عليه دير النبوءة لوجود بئر به يعد من المعجزات، إذ ترتفع فيه المياه إلى المستوى الذي سيكون عليه فيضان النيل في ذات العام.

١١٩ – دير أبي حنس بالقرب من الشيخ عبادة أي مدينة أنتينوي القديمة.

١٢٠ – هو بلا شك دير صموئيل قلامون Samuel de Qalamoun جنوبي الفيوم. وقد حددت خريطة دانڤيل d'Anville موقعه حيث يوجد هذا الدير. وواقع الأمر أنه لا يوجد في هذه المنطقة دير يحمل اسم القديس بفنوس Saint Paphnuce.

١٢١ – محلة دميانة بالقرب من المنصورة.

١٢٢ – دير سانت كاترين الشهير بالإسكندرية.

١٢٣ – في غربي البحر الأحمر والشمال الغربي للطور.

١٢٤ – وصف مصر طبعة ١٧٣٥، المقدمة ص٩.

١٢٥ – ذات المرجع ص ص ١٥ – ١٧.

١٢٦ – خريطة حديثة لمصر أعيد طبعها بواسطة سونيني Sonnini عام ١٧٩٩ وخريطة قديمة لمصر:

Aegyptus antiqua mandato serinissimi Delphini publici juris facta, auctor d'Anville 1765

وقد ألحقت بالمذكرات المنشورة عام ١٧٦٦.

١٢٧ – لدى تعيينه محافظًا لمنطقة بيومون Piemont دعا الجنرال مينو Menou ضيوفًا لديه بعد تناول العشاء إلى عقد مقارنة بين خريطة دانڤيل d'Anville والخرائط التي قام برسمها على الطبيعة مهندسو الحملة الفرنسية. من هذه المقارنة اكتشف الجميع تطابق خريطته مع الخرائط الأخرى في كافة المواقع التي لم تنل منها مياه النيل بالتلف. وقد يقول البعض أنه ربما يكون قد سافر. والحق أنه لم يسافر على مدى سنوات حياته الأربع والثمانين سوى مرة واحدة من باريس إلى سواسون Soissons.

La Contemporaine en Egypte ,1831 Ed. Ladvocat vol IV p 374

****

البـــاب الثاني

الفصل الأول

الدراسة العلمية لمصر في نهاية القرن الثامن عشر

ڤولنيه Volney ورواد «معهد مصر»

لنمض قدمًا في معرفتنا بمصر. في نهاية القرن الثامن عشر، كان من الممكن تحديد ملامحها بشكل شامل فقد بدت صورتها أكثر وضوحًا للأذهان. لم تعد ذلك الإقليم الغامض غير محدد المعالم، المسكون بالهمجيين والشياطين والثعابين الأسطورية والأقزام والوحوش العملاقة والذي لا يعرف عن أرجائه الكثير. فقد أصبح لمصر خريطة ولم يعد باقيًا الا ملء فراغاتها وإكمالها وضخ الحياة فيها وتلوينها ... في عبارة واحدة: لم يعد باقيًا إلا الانكباب على دراستها علميًا. وقد تحقق هذا الأمر بغتة على مدى الخمس والعشرين سنة الأخيرة من القرن.

في وقت معاصر لهذه الحقبة، ظهرت كتابات عن رحلتين تستحقان منا كل الاهتمام. وقد استخدمهما علماء الحملة الفرنسية على مصر. ففي عام ١٧٨٥ - ١٧٨٦ ظهرت «رسائل عن مصر» Les Lettres sur L'Egypte لكلود إتيان سافاري Claude Etienne Savary. أما في عام ١٧٨٧ فقد نشر كتاب ڤولنيه Volney «رحلة إلى سورية ومصر» Le Voyage en Syrie et en Egypte وقد لقي الكتابان نجاحًا متعادلاً بين معاصريهما وظهرا في ثلاث طبعات فرنسية كما ترجما إلى اللغة الألمانية. وقد حظيت رسائل سافاري بترجمة إنجليزية طبعت ثلاث مرات.

ورغم ذلك فما زال الاهتمام قائمًا حتى اليوم برحلة ڤولنيه Volney بينما لم يعد أحد يذكر رسائل سافاري Savary أو يكترث بمعرفة شخصية كاتبها. حجبه منافسه عن الأنظار ببريق الوظائف التي شغلها. فقد كان عضوًا بالمجلس التشريعي والمعهد

وكونتًا بالإمبراطورية إلى جانب كونه من أعيان فرنسا. ومن جانبي أرى ذلك ظلمًا فرسائل ساڤاري Savary، لا تقل جاذبية عن كتابات ڤولنيه Volney بل إن ساڤاري نفسه يتميز بقلب رقيق وعقل مثقف ومتيقظ وذاكرة متقدة واعية. كما أن له من الخيال والمرح والتلقائية ما يتناقض تناقضًا واضحًا وصريحًا مع صرامة وجدية غريمه الشهير.

ولد كلود إتيان ساڤاري Savary في مدينة ڤيتريه Vitré بمقاطعة بريتاني عام ١٧٥٠. قد درس في كلية رين Rennes وسافر إلى مصر عام ١٧٧٦ حيث أمضى ثلاث سنوات وعاد منها عبر الأرخبيل عام ١٧٨٣وقد استقبله لدى عودته إلى فرنسا أحد أصدقائه ويدعى لومونييه Le Monnier ويعمل طبيبًا للملك وله عضوية بأكاديمية العلوم. وقد هيأ لساڤاري الظروف المناسبة لكتابة مذكراته. من هنا استطاع ساڤاري برعاية شقيق الملك نشر رسائله عن مصر. كان مثقفًا للغاية يتقن اللغة العربية. وقد أثرى معارفنا بترجمته لمعاني سور القرآن وكتاب عن حياة «محمد» عام ١٧٨٣ وكتاب عن أخلاق «محمد» ١٧٨٤ وكتاب آخر في النحو العربي ظهر بعد وفاته عام ١٨١٣[1]. لم يعش طويلاً وقد شغف بالأسفار والدراسة، غير أنه لم تتح له فرصة الازدهار. وافته منيته بغتة وهو يكتب رسائله عن اليونان عام ١٧٨٨ عن عمر يناهز الثامنة والثلاثين. وربما يرجع نسيان الناس السريع له إلى قصر السنوات التي عاشها.

عند قدومه إلى مصر عام ١٧٧٧، كان الحال العام للبلاد قد ساء بصورة ملموسة. كان النظام السياسي فيها، والذي كان السلطان التركي سليم الأول قد أرساه ١٥١٧ قد اتضحت عدم قدرته على حفظ النظام وضمان الازدهار. كانت مصر نظرياً محكومة بواسطة باشا يطلق عليه الوالي الكبير Le Grand Seigneur غير أن سلطاته التي خوله إياها الباب العالي كانت واهية.

كان البلد محكومًا بواسطة «بك» هو رئيس الانكشارية تسانده ميليشيا أكثر عنفًا من المماليك. بمساعدتهم كان يمارس سطوته الطاغية إلى أن ينقلب عليه بدوره أحد أعوانه. صعد أحدهم ويدعى «علي بك» صعودًا مدويًا كان محاربًا جسورًا استطاع غزو مكة

والمدينة وثار ضد تركيا. حاول، فيما يعد شكلاً مسبقًا لما فعله لاحقًا محمد علي، الخلاص من نير السلطة العثمانية انتصر في دمشق غير أنه هُزم وقتله غريمه محمد بالسم عام ١٧٧٣ في طريق عودته إلى مصر. ووقعت مصر بالتالي مرة أخرى في حالة من الفوضى. وقد كتب لويس بريبه Louis Brehier معلقًا على ذلك:

«لم يكن أحد جديرًا بمواصلة تحقيق ما كان «علي» يرتئيه. وقد ملأت المنافسات التي أشعلت مصر بحروب أهلية استمر بعضها حتى بداية الغزو الفرنسي. كانت هناك قلاقل تنفجر في كل لحظة في القاهرة. وكانت الأطراف المتنازعة تتحارب تقريبًا بالسيوف في الشوارع.[٢]

بعد موت «محمد» تطور الصراع بين عتقائه مراد وابراهيم من ناحية وعتقاء علي بك من ناحية أخرى. وقد تم استبعاد هؤلاء إلى أعالي النيل واستقروا في أسوان. عاد مراد حينذاك إلى القاهرة. ولكن كانت هناك اضطرابات أخرى في انتظاره، أثارها رفيقه في السلاح «ابراهيم». ويمكننا القول بأنه حتى عام ١٧٨٩ كانت هناك سلسلة لا تنقطع من المؤمرات والقلاقل[٣]. اختلف مراد وابراهيم وتصالحا أكثر من مرة. وانتهى بهما الأمر إلى الشقاق والفرقة مما جعلهما غير مستعدين للدفاع عن مصر حين باغتهم بونابرت فجأة على سواحل الإسكندرية وأجبرهما على مواجهته شمالي البلاد.

وكان من النتائج الحتمية لهذه الصراعات أن تضعف التجارة وتكسد. وقد أظهر الانحدار السياسي عامًا بعد الآخر ما بالاقتصاد من ضعف. ووصل بؤس الفلاح إلى حد يصعب وصفه. لم يكن بالإسكندرية إلا نحو ثمانية آلاف نسمة كان الأتراك يحتفظون لأنفسهم بالميناء القديم المحمي. أما الميناء الجديد المعرض للأخطار والذي تغمره الرمال فكانت ما زالت به بعض الأجنحة الفرنسية من مارسيليا Marseille وتولون Toulon.

غير أن حماس تجارنا كان يفتر شيئًا فشيئًا عن مواجهة الأخطار المتزايدة لحروب الشوارع. في ذات العام الذي رسا فيه سافاري Savary على شاطئ الإسكندرية، لم

يكن هناك في الفندق Fondique الأوروبي غير ثمانية عشر فرنسيّاً، وكان القنصل قد اغتيل في عيد فصح ١٧٧٧.

وطبقًا لما جاء في نص الراهب دي بينو de Binos كاهن كاتدرائية كومانج Comminges والذي وصل إلى مدينة القاهرة في نفس الفترة: لم يكن هناك إلا عشرون فرنسيّاً، ولم يكن هناك قنصل لعامين مضيا. لدى حضور ڤولنيه عام ١٧٨٥ لم يكن باقيًا من البيوت الخمسة عشر الموجودة عام ١٧٧٠ والتي كان يعمل بها ما لا يقل عن أربعين موظفًا وكاتبًا إلا ثلاثة. ويوضح ذلك مدى تدهور الأعمال وسرعته. كان عشرون فرنسيّاً عددًا قليلاً في هذه المدينة الضخمة التي لم يتم أبدًا حصر سكانها والتي كان زحامها يملأ الراهب دي بينو خوفًا وذعرًا. قال يسوعي سكنها لثلاثين عامًا خلت إنه يقطنها نحو ألف وثمانمائة نسمة ويشمل ذلك التعداد سكان الضواحي. وهو رقم مبالغ فيه ولكنه يبرز التفاوت الواضح بين حجم «الجالية الفرنسية الصغيرة» وسكان المدينة الأصليين.

في عام ١٧٩٣، أعادت فرنسا وضع قنصلية عامة بالإسكندرية وعينت قنصلاً تاجرًا من مارسيليا يدعى شارل ماجالون (١٧٤١- ١٨٢٠) Charles Magallon كان قد أقام بالقاهرة في فترة حكم «علي بك». كان مستشرقًا واعيًا وأول مجموعة ممثلي فرنسا الذين يتصفون بالجرأة والفضول والبصيرة ونذكر منهم:

دروڤتي Drovetti وميمو Mimaut وليسيبس Lesseps وبنيديتي Benedetti وقد اصطدمت نواياه الحسنة لسنوات طوال بعداء البعض وفوضوية البعض الآخر، حتى قرر الذهاب بنفسه إلى باريس عام ١٧٩٧. وهناك قدم تظلمًا إلى حكومة المديرين ودعم تقاريره محبذًا تدخل فرنسا العسكري في مصر(٤).

لم يكن الوضع إذًا مواتيًا لمشروعات وحب استطلاع رحالة مثل ساڤاري Savary. غير أنه كان شابًا في السابعة والعشرين يملأه الحماس والعناد. وفي حين اتسمت كتابات

ڤولنيه عن رحلته بالتشاؤم والإحباط، كانت رسائل ساڤاري تشع حياة وحيوية وتفاؤلاً. رأى ڤولنيه Volney مصر بنظرة سوداء أو لنقل رمادية. وهو وإن كان في مثل عمر ساڤاري Savary إلا أنه قد شاخ قبل الأوان، وكان يتسم بالذهن الناقد اللاذع. أما ساڤاري فكانت نظرته وردية بل أكثر وردية مما ينبغي كما سيقول عنه لاحقًا أكاديميو الحملة الفرنسية الصارمون.

غير أنني أرى أنه رحالة جاد، في جعبته الكثير. قرأ للقدامى والمحدثين. كتب يقول: «أضفت إلى اكتشافات القدامى مثل الأب سيكار Sicard وبوكوك Pococke ونيبور[٥] Niebuhr وديدانڤيل de Danville بعضًا من ملاحظاتي». وقد استشهد أكثر من مرة بهيرودوت Herodote وسترابون Strabon وديودور دي سيسيل Diodore de Sicile. وقد ذكر لنا بشكل مفصل حملة القديس لويس ومعركة المنصورة من وجهة نظر جوانڤيل Joinville والمؤرخين العرب.[٦] كما استطاع تمييز ممفيس عن منف بالقرب من سقارة، وضمّن كل الحجج التي سبق وساقها القنصل بنوا دي مايه Benoit de Maillet[٧] إلى وصفه للأهرام. من خلال وصفه لبوابة الأشمونين، ندرك أنه لم يقرأ فقط ما كتبه سيكار Sicard، وإنما انكبّ عليه انكبابًا فقد اقترب كثيرًا في وصفه مما كتبه الأب اليسوعي[٨].

قبل أن يشرع ساڤاري Savary في وصف أطلال الأقصر والكرنك نقل الفقرات التي كان كل من ديودور وسترابون قد كتباها عن طيبة. في ضيافة السيد لومونييه صديقه، توافرت له مكتبة ثرية وحظي بكل الوقت اللازم للقراءة، وربما أكثر مما ينبغي. فقد اطلع على مؤلفات كتاب يونانيين ورومان وعرب[٩] وهو ما ملأ به حواشي وهوامش كتابه. وقد شجعه نجاح مجلديه فأصدر ثالثًا.

ويعد هذا المجلد الثالث أقل نجاحًا من سابقيه وذا طابع تعليمي تلقيني. ونلاحظ أنه في عدد من الرسائل التكميلية عالج ساڤاري الأساطير المصرية وفق المعلومات التي توافرت للكتّاب القدامى. وساڤاري Savary ليس كما قيل عنه مرارًا كاتب يوميات أنيق ومرفه فهو يستشهد بالآخرين ويقارن ويناقش ويثبت أن لديه الحنكة والعلم اللازمين لما هو بصدده.

معلومات ساڤاري Savary غزيرة وطريقته في تناول الأشياء وفي جذب أنظار الشباب إلى هذا البلد الجديد ممتعة. كم هو لبق ومقنع وقادر على احتواء قارئه! أي حماس استطاع تأجيجه في نفوس ضباط الحملة الفرنسية الذين كانوا يلتهمون صفحاته أثناء رحلتهم البحرية ويتحرقون شوقًا لما يصفه في ريف الدلتا من خير ومدينة رشيد من متع. يقول في وصفه: «يشكل زخم الميناء وفرحة البحارة وموسيقاهم الصاخبة مشهدًا متحركًا يضج بالحياة. أما الدلتا فهي حديقة مترامية الأطراف لا تمل أرضها من منح خيراتها من الخضر والفاكهة والورود والحبوب على مدار العام. وهو تنوع يروي العين والقلب معًا. في شمالي المدينة حدائق تتناثر فيها بشكل عشوائي أشجار الليمون والبرتقال والجميز والنخيل.... هذا التناثر العفوي يخلو من الجمال لم يعرف هذا الشاب إلا حدائق لونوتر Lenôtre البالغة النظام والتنسيق إلا أن تنوع هذه الأشجار وظلالها الوارفة التي تحجب أشعة الشمس والزهور النامية كيفما كان في الغابات الصغيرة تزيد من جمال وسحر الظلال. حين ترتفع الحرارة ويسيل العرق من كل أطراف الأجسام ويطلق الإنسان الزفرات مثل المريض الذي غادرته الصحة، أي متعة سوف يشعر بها وهو ينهل من عبق هذه الأشجار على حافة الجدول الذي يرويها.

في مثل هذا المكان، يدخن التركي غليونه الطويل من الياسمين المطعم بالعنبر ويداخله شعور بأنه محمول إلى الجنة التي وعده بها رسوله «محمد»[١٠] يدخن في سكينة وهدوء، خالي الذهن ليوم كامل بدون سأم أو ملل. هذه الحدائق ترتادها فتيات جوجچيا اللاتي باعهن ذووهن كجوار ليضعن عنهن حجابهن ومعه ما يحفظ لهن الحشمة في العلن.

ولغياب كل الضوابط عليهن، تمضي هؤلاء الجواري في تقديم فنون الرقص والغناء الخليع أمام الأتراك ويروين روايات هي وصف ساذج لعاداتهن وما يمتعهن.

عند انتقالهن إلى القاهرة نجد أن الأجواء وعبق زهور البرتقال وعبير الأعشاب العطرية تغذي وتذكي النواحي الحسية لديهن مما يجعل رغباتهن شغلهن الشاغل وقد اتسمت هذه الرغبات بالحدة والعنف نظرًا لصعوبة إشباعها.[١١] كيف يمكن مقاومة كل هذه الإغراءات؟

أراهن طواعية أن كلود إتيان سافاري Savary لم يبد اعتراضًا أو دفاعًا وأنه أثناء وجوده في رشيد قد خاض على الأقل واحدة من هذه المغامرات.

ألا يروي لنا ما نستشف ذلك منه في قصة «جميلة» الزوجة الجورجية للتركي المسن «حسن» والتي وقعت في غرام شاب أوروبي(١٢)؟

في وصفه نجد الغابات الصغيرة التي تفسح مجالاً للعناق الرقيق. يقول فيها:

«كان القمر يلقي بأشعته الفضية على أوراق الأشجار، وكان العشب الأخضر مغطى بالورود وروائح ذكية تنبعث من النباتات..إلخ». تخيلوا معي القبطان الذي يقود السفينة إلى مصر وهو يتصفح هذه الصفحات المعبرة ويغمره فضول لهذا البلد المجهول! أي الكاتبين يصدق؟ هذا العبقري اللاذع ڤولنيه Volney الذي يسوق الأرقام والحجج والذي يبدو جليّاً أنه لم ينظر إلى امرأة قط؟ أم سافاري Savary الرقيق المشاعر الذي يصف برومانتيكية ضوء القمر على صفحة النيل؟(١٣) وينبغي لنا ألا ننسى أن تحت البزات العسكرية هناك قلوب تنبض. حتى نابليون حمل معه على متن السفينة كتابي: Ossian «أوسيان» و«Werther» «فرتر».

ولنر النيل مع سافاري Savary : «على ضفتيه غاب، الوادي يعج بالمحاصيل الأرز أينع محصوله والهواء يعبث به ويهز صفحة الحقل كموج البحر. أما المزارع فقد استغرقه توجيه مياه الري... يفتح ويغلق الجسور كيفما شاء. والجاموسة تدفع الساقية الصاخبة التي ترفع المياه. أي ريف هادئ. يا لها من بلاد نعيم!» بين قريتي «برنبال» و«محلة الأمير» يشير علينا الرحالة بجزيرة «تشتهر بثمار البطيخ(١٤) الذي لفرط حلاوته يصعب الاكتفاء والشبع منه. أبعد من هذه المنطقة بقليل تقع مدينة «فوة». ويشير سافاري Savary إلى حي معين يقع فيها، يصفه بالحي المضياف حيث بنات الهوى يلاحقن المارة»(١٥).

ويصف سافاري مشهدًا من مشاهد الحرية الريفية، يتسم بملاحة ساذجة ومثيرة في آن واحد تذكره بنوزيكايا Nausicaa والمتحممات في الأوديسة.

«تذهب القرويات لغسل ملابسهن وجلب المياه. كلهن يغتسلن واضعات جرارهن وملابسهن على الشاطئ، يفركن أجسامهن بطمي النيل ثم يندفعن إلى المياه ويتلاعبن بالأمواج. شعورهن المجدولة تطفو على أكتافهن جلودهن سمراء لوحتها الشمس ومعظمهن جميلات، ممشوقات القد»[١٦]. أما في القاهرة، فيفضل سافاري على المساجد المتداعية وقصور القلعة المتهاوية، حدائق الروضة حيث يتنزه في غابة أشجار التمر هندي والبرتقال والجميز. يقول في وصفها:

«كانت الأشعة الهاربة من الشمس تغرس في الظل خطاً مضيئًا يكسو الأوراق الخضراء بطبقة مذهبة. أما الزهور والنباتات فقد ضوعت وعطرت الأجواء. سرب من الحَمَام، كان ينتقل مرفرفًا من شجرة إلى أخرى غير مكترثة بمقدمنا».

مما لا شك فيه أنه أثناء تجواله العفوي على هذه الشاكلة، كان يعترضه فجأة حارس فظ،[١٧] أو يهاجمه قرصان على صفحة النيل[١٨]، أو يسرقه ليلاً بعض البحارة والنوتية.[١٩] كانت هذه مخاطر السفر المتوقعة، وكان سافاري يتقبلها بصدر رحب مع المغامرات الأخرى. بل إنه كان يجرؤ أحيانًا على الخروج من حي الفرنجة ويزور الحمامات التركية[٢٠] ويشهد رقصات العوالم. لنقرأ سطور له في وصف أحداهن:

«ثوب طويل من الحرير الأسود الخفيف ينسدل على كعبيها ويضمه عند الخصر برقة، حزام ثمين. على كتفيها ينسدل شعر أسود طويل مجدول ومعطر. أما الصدر فيكسوه قميص شفاف يغطيه بالكاد. ما إن يشرعن في التحرك حتى تخال كل جزء من أجسامهن يمضي لحاله. يسرع ويبطئ وقع أقدامهن صوت الناي والطبلة والصنج والصناجات. يبدون وقد أخذت بهن الخمر كل مأخذ»[٢١].

لا جدوى من تكرار التأكيد هنا، على أننا وللمرة الأولى أثناء بحثنا هذا نقع على رحالة له كل مواصفات الكاتب. وإذا كان يعتري أسلوبه أحيانًا تراكيب قد عفا عليها الزمن أو صيغ أكاديمية مثقلة بالكثير من المعلومات. هذا لا يمنع من وجود مواضع، الجملة فيها وجيزة والوصف فيها متقن والمشهد بها محبوك.

في كتابات ساڤاري Savary ملامح من التيار الرومانتيكي. فإحساسه بالطبيعة عالٍ، وهو ما يندر أن نجده لدى ڤولنيه Volney. وكثيرًا ما يتمكن من التعبير عنه بدون افتعال وفي تلقائية جذابة. وهو يتقن مزج الشروح التاريخية والأثرية أي الصفحات الجادة بالوصف الجذاب والفقرات التي تضج بالحيوية.

انظروا على سبيل المثال رسائله عن الأهرامات. قبل أن يشرع في الحديث عن ارتفاع هرم خوفو ومقارنة ما ساقه في هذا الصدد كل من هيرودوت Hérodote وسترابون Strabon وديودور Diodore وبلين Pline وتيڤونو Thévenot ونيبور Niebuhr[٢٢] إلخ. ينطلق في وصف ما يمكن أن يراه رحالة من قمته:

«كان الفجر ينبثق والشرق يكتسب ألوانه تدريجيًا. كنا ننعم بهواء نقي وانتعاش ممتع. وما هي إلا لحظات إلا وذهّبت الشمس قمة جبل المقطم وبدا قرصها المضيء على طرفه. تلقينا دفء أول أشعتها ورأينا في ضوئها لمعة قمم أهرامات سقارة التي كانت تفصلنا عنها ثلاثة فراسخ في وادي المومياوات. كان الضوء قد بدأ يغشى سريعًا كل ما حولنا. قمم المآذن وأعالي النخيل المحيط بقرى المرتفعات. كانت كل لحظة تكشف لنا المزيد من جوانب الجمال وكلما صعد قرص اللهب إلى أعلى كلما غرقت الجبال ووادي مصر في الضوء. كانت القطعان تهبط من الكفور، والقوارب تنشر أشرعتها ماخرة مياه النيل»[٢٣].
ويمضي الوصف ببراعة، يتسع شيئًا فشيئًا ليصل في النهاية إلى بضعة سطور تشع هدوءًا وتأملاً: «ليس هناك في الكون كله مشهد أكثر تنوعًا أو أروع أو أكثر مهابة فهو يسمو بالروح ويجبرها على التأمل».

هاكم إنسانًا قرأ روسو Rousseau وبرناردان دي سان بيير Bernardin de Saint Pierre ويقترب بعض ما أبدعه من وصف مما سنراه لاحقًا في أعمال شاتوبريان. ما الذي أضافه إلى معارفنا عن مصر القديمة؟ لنقل قبل أي شيء، إنه قد قرأ كل كتابات سابقيه واستفاد منها. لحبه الشديد للتاريخ والآثار فقد مدنا بما يكمل معلوماتنا عن معالم الصعيد الأثرية. هل ذهب إلى هناك بالفعل؟ يحرص ساڤاري Savary كل الحرص على إقناعنا بذلك بقوله أنه قد وصل إلى الأقصر نهريًا وأنه قد

اضطر إلى الانصراف عن فكرة مواصلة رحلته النيلية إلى أسوان. يأمل إقناعنا بصدقه، راغبًا بهذا الاعتراف التلقائي ضمان مصداقية رحلته.

«نظرًا لسفري بميزانية محدودة وبدون عون من الحكومة، لم أستطع الوصول إلى هذه المدينة التي كان الأمر يتطلب البقاء فيها على الأقل ثمانية أيام. فهذه الرحلات مكلفة للغاية. ولا يستطيع المرء خلالها أن يكون بمنأى عن اللصوص وقطاع الطرق إلا بتقديم الهدايا والعطايا للحاكمين ورشوة الانكشارية. من هنا فقد اضطررت بدلاً من ملاحظة الأمر بنفسي الاكتفاء بجمع وتنقيح ملاحظات الآخرين بصعوبة بالغة. حقيقي أنني حصلت على مذكرات خاصة ساعدتني كل المساعدة ولكن بلا شك كان من الأفضل لي أن أرى الأمر بأم عيني».[٢٤] وتجعلنا شواهد الأمر نعتقد أن هذا التصريح هو ضرب من المكر من قبل الكاتب. فلا ڤولنيه Volney، ولا سونيني Sonnini اللذان قد تبعاه عن قرب في القاهرة قد اعتقدا في صدق هذا الاعتراف.

فلم يطرح ساڤاري Savary أسوان من ذهنه إلا لكي يبقي على الأقصر ونرى أن ادعاءه حتى على هذا النحو غير مبرر. فهو لم يزر الصعيد[٢٥] وسونيني Sonnini قاطع في رأيه هذا وليس لدينا أي شيء يدعونا إلى التشكك في ما يسوقه. ساڤاري نفسه الذي نشر مجلدين عن صعيد مصر لم يطأ أرضه.

وتعد رنة الثقة التي يتحدث بها والتفاصيل التي يقدمها عن هذه الرحلة كما لو أنه قد قام بها بالفعل، وصمة في سمعة هذا الرحالة الأنيق. عرفت ساڤاري Savary جيدًا. رأيته في الإسكندرية في جزيرة كندي ومنذ ذلك الحين في فرنسا نال المجلد الأول من كتابه «رسائل عن مصر» Lettres sur L'Egypte نجاحًا مستحقاً فقد حوى معالم المدينة التي سافر إليها بالفعل. وقد أسكره هذا النجاح وود لو أضاف إلى الكتاب رحلة لم يقم بها مما اضطره إلى النقل والنهل مما كتبه هيرودوت Hérodote وسترابون Strabon وديودور Diodore[٢٦].

كما استغل ساڤاري معاصريه فقد ورد في سطوره وصف لمعبد أبيدوس الذي لم يكن قد أشار إليه في ذلك الوقت إلا جرانجيه Granger واحتاج حديثه إلى بقية، ما الذي فعله ساڤاري؟

استغل ضابطًا فرنسيًا كان قد التقى به في القاهرة يدعى شيڤاليه Chevalier كانت له مغامرة شائقة تستحق الاهتمام. كانت سفينة هذا الضابط قد غرقت بالقرب من القصير على شاطئ البحر الأحمر. وكان هذا الضابط قائدًا عامًا للمنشآت الفرنسية في البنغال وحاكمًا سابقًا لشندر ناجور Chandernagor. وقد استطاع الوصول إلى وادي النيل عن طريق الصحراء الغربية سالكًا طريق القوافل القديمة.

رحلة محفوفة بالمخاطر استوحى منها ساڤاري حكاية مثيرة. امتطى شيڤالييه ورفاقه الجمال وتسلحوا بالبنادق بل وبمدفعين صغيرين. وقد نجحوا في إخافة البدو الذين هاجموهم والوصول إلى قنا. وصلوا وقد جفت حلوقهم من الظمأ وتضوروا جوعًا وحرقتهم الشمس. ولكن أي حماس وأي نشاط سكناهم فقد وجدوهم بعد عدة أيام من وصولهم بين أطلال معبد أبيدوس المدفونة في الرمال. حيث اعتقدوا أنهم اكتشفوا على الأفاريز ذات النقوش البارزة التي ظهرت بين الأنقاض الإله فيشنو Vichnou وبعض معبودات[٢٧] الهند الأخرى. أما عن معبد إدفو الذي لم يكن أحد من الرحالة السابقين قد أتى بخبر عنه.

فلم يخصص له ساڤاري Savary لسبب في نفسه إلا سطرين أو ثلاثة: «معبد قديم تكسوه كتابة هيروغليفية تظهر بها رسومات لرجال لهم رؤوس صقور»[٢٨] وفي هذا أول إشارة لحورس بقلم فرنسي.

وعمل ساڤاري يجمع في آن واحد بين السرد الشائق والإيضاح. وهو وإن كان أكثر انشغالاً من ڤولنيه بمصر القديمة فهو لم يهمل التاريخ المعاصر[٢٩]. فهو يطوف بالمعالم الأثرية ويطرح التساؤلات ويناقش المشكلات. وهو لهذا الغرض لم يتردد في إضافة مجلد ثالث[٣٠] لمجلديه بأمل الانتهاء من مناقشة موضوعه وتثبيت كافة المعلومات التي تحددت في عصره.

في كل الفصول التي كتبها والتي تحمل الطابع التعليمي، يأخذ الكثير عن غيره حتى أنه بات من الصعب الفصل عنده بين الحدس والتفرد. ويمكن القول أنه في الفصل قبل الأخير من كتابه قد اتسم بشفافية وقدرة على التنبؤ. فقد استشعر كشفًا وشيكًا ورأى سلفا الدرب الذي سيسلكه شامبليون لحل رمز الكتابة الهيروغليفية «نعلم أن الرهبان قد ألفوا حروفًا أطلقوا عليها الحروف الكهنوتية أو الهيرية وبواسطتها قاموا بترجمة الحروف الهيروغليفية.

هذه اللهجة الخاصة كانت مرحلة وسيطة بين الهيروغليفية واللغة الدارجة في البلد والتي لحسن الحظ لم تندثر. فواقع الأمر أنها بقيت موجودة في كتب الأقباط مع ترجمات يونانية وعربية. وقد وجدناها في عدد كبير من المخطوطات المنتشرة في مصر وفي مكتبات أوروبا. وكان الأمر يتطلب لاستعمالها في فهم اللهجة الكهنوتية إما أبجدية أو أشياء مشتركة بين هاتين اللغتين»[٣١] هذه رؤية ثاقبة يُشرِّف أي عالم لسانيات أو فقيه في اللغة مثل ڤولنيه Volney أن تنسب إليه.

السيد ڤولنيه Volney شخص غريب وإذا ما أردنا فهم رحلته إلى مصر وسوريا يجب الاقتراب منه أكثر وفهمه. ولد في الثالث من شهر فبراير ١٧٥٧ في مدينة كرايون Craon وهي مدينة صغيرة في إقليم لامايين La Mayenne . كان يطلق عليه شاسبوف Chasseboeuf صائد أو طارد الجاموس . كان والده محاميًا يستغرقه عمله لفترات طويلة وقد ترمل بعد ميلاد ابنه وبقي بدون زوجة عامين. لم يدر بخلده قط تكريس حياته لرعاية ابنه ولكنه فكر أنه لكي يستطيع هذا الصغير أن يتدبر حاله في الحياة فليكن له على الأقل اسم مقبول. ومن ثم أطلق عليه اسم بواجيريه Boisgirais. هذا التغيير لم يبد كافيًا للصغير لاحقًا. ولما كان مولعًا بڤولتير Voltaire فقد اقتبس المقطع الأول من اسمه. وبما أن ڤولتير كان يعيش في «فيرنيه» Ferney فقد اختار المقطع الأخير من هذا الاسم لإكمال اسمه وبذلك أطلق على نفسه «ڤولنيه»Volney .

في صغره كان كثير التوعك. وقد اتسمت طفولته بالكآبة. كتب يقول عن نفسه أنه لم يكن قد بلغ السابعة من عمره حين أودعه أبوه مدرسة يرأسها قس من مقاطعة بريتاني

اشتهر عنه قدرته على حسن تعليم اللاتينية لطلابه. ولإحساسه بالضعف وافتقاده للسند والعناية في هذه المدرسة، فقد أصبح الطفل حزينًا وعدوانيًا. عوقب لمسلكه هذا، فأصبح أكثر ضراوة وعزف عن الدراسة فتأخر تحصيله وبات آخر طلاب صفه.

بقي ڤولنيه على هذا الحال نحو ستة أو ثمانية شهور إلى أن أشفق عليه أحد معلميه ودنا منه يواسيه ويربت على رأسه. حول هذا الرفق في المعاملة شهدت حياة ڤولنيه تحولاً كاملاً. فقد تفوق وبزّ أقرانه حتى بات مستحيلاً إقصاؤه عن المراكز الأولى في الصف.(٣٢) استذكر بجدية، ولكن ذلك لم يضع حدًا لمعاناته من تخلي والده عنه. كان طفلاً متأملاً يميل للشجن. لدى بلوغه الثانية عشرة، أتاح له أحد أعمامه الالتحاق بمدرسة «أنجيه» Angers، ليكون من ناحية قريبًا منه ومن ناحية أخرى لإحساسه أنه بحاجة إلى شيء من التغيير. في هذه المدرسة الجديدة، ظهر نبوغه على كل أقرانه. برع في العلوم الإنسانية وتخرج في المدرسة بعد خمس سنوات وهو متمكن من اللغات القديمة. هنا حرره والده من ولايته كقاصر وأعطاه ميراثه عن أمه. سافر ڤولنيه إلى باريس مالكًا لمقدراته، حاملاً معه مبلغًا قدره ألف ومائة جنيه.

لم يكن ڤولنيه Volney شابًا طائشًا أو مسرفًا أو مأخوذًا بالاجتماعيات. ومن هنا فلم تأخذه أعاصير العاصمة في طياتها. وفضّل أن يقضي أيامه في مكتباتها وأن يكرس جهده لدراسة التاريخ والفلسفة. وسرعان ما انتقل إلى دراسة الطب. واستغل هذا الشاب العشريني ما تبقى من وقته في كتابه «دراسة عن التسلسل الزمني لحياة هيرودوت» Mémoire sur la chronologie d'H rodote التي أرسلها فور انتهائها إلى الأكاديمية. وقد ناصبه العداء بسببها الأستاذ لارشيه Larcher مترجم أعمال المؤرخ اليوناني. وكانت هذه انطلاقته الحقيقية. فقد قدر له الموسوعيون تفكيره الإيجابي الدقيق. صادقه البارون هولباخ Holbach وعرفه بفرانكلين Frankiin الذي قدمه بدوره إلى السيدة هلڤيتيوس Helvetius. كانت هذه الأخيرة تقيم وقتئذٍ في «أوتوي» في منزل كبير وسط حديقة فسيحة بها أجنحة تستضيف فيها أصدقاءها كوندياك Condillac وديدرو Dideroe ودالمبير d'Alembert وتورجو Turgot والراهب مورّوليه Morellet.

كـانت منطقـة «أوتوي» Auteuil في ذلك الوقت مـعـزولة بعض الشيء عن باريس وكثيرًا ما أدى الطقس السيئ شتاءً إلى صعوبة عودة زوارها ليلاً إلى العاصمة. ولكم أن تتخيلوا هذا الجمع الثري من أصحاب الفكر وبينهم ربة المنزل بالقرب من المدفأة في مقعدها الوثير وقد دنا من مجلسها بمقعده الراهب موروليه محاولاً اتقاء تيارات الهواء. وتقطع الآنسة كوندورسيه Condorcet القاعة التي تعج بكل هؤلاء المشاهير جيئة وذهابًا بينما ڤولنيه مشدود الأذنين إلى دررهم نهمًا لعلومهم وتواقًا لمجد على شاكلتهم، شاب مثقف يحلم بأن يكون ذا شأن. كيف يتأتى له الوصول إلى مصاف هؤلاء المثقفين؟ كيف السبيل لكي يكون مسموعًا ومحاطًا بمريدين مثلهم؟

في عام ١٧٨١، كان من نصيب ڤولنيه إرثٌ لم يكن في الحسبان قرر أن يسخره لتنمية معارفه وضمان شهرته. كتب يقول في مقدمة كتابه: «من بين أصدقائي جمع أراد أن أستمتع بهذا المال، وجمع آخر نصحني باستثماره ليأتي لي بعائد. أمعنت التفكير ورأيت أنه مبلغ أقل من أن يضيف لي دخلاً أرتكن عليه وأكبر من أن أبدده في نثريات لا قيمة لها. كنت قد قرأت وتكررت طويلاً على مسامعي أن أفضل سبل استقاء الحكمة وإثراء الذهن هو السفر. ولكن إلى أي وجهة؟ كان علي الاختيار. كنت أريدها جديدة أو على الأقل ذات جاذبية. كانت بلادي والأقطار المحيطة بها معروفة لي وبإمكاني استكمال معرفتي بدروبها. جذبتني أمريكا وحياة البدائيين الذين يسكنون بها. وتقت إلى الارتحال إلى آسيا وتحديدًا إلى سوريا ومصر نظرًا لما كانتا عليه قديمًا وما هما عليه الآن. بدتا لي أرضًا صالحة لاختبار فرضيات سياسية وأخلاقية تهمني». من سطور ڤولنيه نستشف أن ما يبحث عنه هو فرصه لبناء قدراته على الحكم. سافر إلى مصر إذًا بشكل مغاير لما كان عليه ارتحال شاتوبريان. فهذا الأخير سافر إلى أمريكا بإحساس من ورائه مهمة غير محددة ورغبة غامضة في الخروج بخياله إلى غير المألوف وتهدئة قلبه الحائر. أما ڤولنيه فقد كان له هدف علمي محدد: دراسة الأقطار التي يرتحل إليها بمنظور مزدوج يقارن بين ما كانت عليه وما هي عليه الآن، أي العمل في آن واحد كمؤرخ وفيلسوف. لتحقيق ذلك

كان يتوجب عليه رؤية الأشياء عن قرب والاحتكاك بالحياة في هذه البلدان والاقتراب من سكانها ومراقبتهم وحصد المعلومات بشكل مباشر، وهو ما يطلق عليه في يومنا هذا عمل تحقيق وإثرائه بتجربة شخصية وتأكيده بأرقام حقيقية دقيقة.

رغب ڤولنيه Volney أن يحج إلى المعرفة «أن يذهب إلى حيث سيذهب شاتوبريان لاحقًا كفارس ونبيل وبيرون Byron كسيّد ولامارتين Lamartine كأمير .. أن يذهب بعصا بيضاء»[٣٣] على هذه الصورة وصفه سان بوف Sainte Beuve، في هذه الفترة كان ڤولنيه في الخامسة والعشرين، بنيته ضعيفة وصحته أقرب إلى الاعتلال يشكو قلة الخبرة وقلة المقاومة. ومع ذلك فهو ذو منهج ولا يترك شيئًا للمصادفة. ترك باريس لمدة عام استقر خلاله لدى عمه في أنجيه Angers ليعد في هدوء عدته لهذه الرحلة الكبيرة. ولنلق نظرة على ما كتبه عنه أول راوٍ لسيرته الذاتية. «كان يتدرب على السباق وعلى عمل أسفار لعدة أيام سيرًا على الأقدام. وحاول البقاء لعدة أيام بدون غذاء يذكر، والقفز فوق هوة سحيقة وتسلق حوائط مرتفعة. ووطن نفسه على قياس خطوته زمنيّاً ليتمكن لاحقًا من تحديد المساحة استنادًا على الزمن المستغرق في قطعها. كان أحيانًا ينام في الهواء الطلق وأحيانًا أخرى ينطلق على جواد يمتطيه بدون سرج أو زمام على طريقة العرب. وكثيرًا ما كان يقوم بتمارين عنيفة وخطرة لتدريب نفسه على تحمل التعب والإرهاق. والحق أنه لم يعرف أحد، إلى أي شيء يمكن أن نعزو هذا العنف وهذا المظهر الخشن. وكثيرًا ما وصف سلوكه الغريب بالشطط والهوس ، والحق بضروب[٣٤] الجنون ما كان عبقرية في طور جنيني. عندما استشعر نفسه مستعداً بدرجة مرضية، شدّ الرحال مودعًا مدينة «أنجيه» بسطوح القرميد التي تميزها والقصر القديم بها. لم يعبأ باعتراضات عمه ولم يسر إلى أبيه بعزمه على السفر. اتخذ طريقه إلى مارسيليا في نهاية عام ١٧٨٢، حمل حقيبته على ظهره وبندقيته على كتفه وتمنطق بحزام جلدي يحوي ستة آلاف فرنك من الذهب.

بدءًا من هذا التاريخ نضبت المعلومات عنه[٣٥]. فعلى نقيض سابقيه ولاحقيه لا يحدثنا ڤولنيه في كتابه عن نفسه فهو ليس بالرحالة الذي يصطحبنا معه وإنما هو فقيه في

اللغة، وجغرافيّ ومؤرخ يتحدث عن علم ومعرفة. وهو فيلسوف وكاتب يطرح مشكلة. يحمل مؤلفه بما لا يتفق وفحواه عنوان: «رحلة إلى سوريا ومصر» وقد نهج في تأليفه منهجًا هندسيًا. وهو ذات المنهج الذي سبق أن تباهى الراهب لو مسكرييه Le Mascrier بتطبيقه على مذكرات القنصل بنوا دي مابيه Benoit du Maillet وهو وصف منهجي لمصر ودراسة تعليمية. وفي طيات هذا الكتاب لا ننتقل من مكان إلى آخر ولا من مغامرة إلى أخرى وإنما فقط من قضية إلى قضية أخرى.

وجدير بنا ألا نأمل في اقتفاء خطواته أو الإلمام بجدول أعماله. فڤولنيه ليس بقاص، ولنقل أنه حتى وإن توافرت لديه القدرة على ذلك فهو غير راغب فيه. هذا الشاب يكتب كما لو كان عضوًا في معهد فرنسا، كما لو كان من إيديولوجيي القنصلية الذين سيكملون في بداية القرن التاسع عشر تقاليد الموسوعيين. وهو إن لم يمنحنا نسقًا، يقدم لنا محصلة معلوماته عن مصر بعد تجميع وترتيب نتائج مشاهداته.

يقول في مقدمة كتابه: «نحّيت جانبًا التفاصيل والمغامرات الشخصية لطولها، لم أعالج إلا المشاهدات العامة لأنها تحوي أحداثًا وأفكارًا أكثر. لكثرة عدد الكتب التي تصدر، يبدو لي مهمًا أن أوفر وقت القراء». من هنا يمكن القول أنه قد ألف كتابًا ضخمًا بمحض إرادته بدلاً من أن يروي ويقص.

وهذا الملمح يلحقه بالقرن الثامن عشر ويميزه عن رحالة ما قبل الرومانتيكية مثل ساڤاري Savary وقد علق سان بوڤ Sainte Beuve [٣٦]: «يكون الأمر بالنسبة للقارئ أمتع إذا ما حادثه الرحالة ببساطة مصطحبًا إياه في مشاهداته. وڤولنيه Volney لا يشبه مونتاني Montaigne البتة. فهو يخاف من كل ما هو جذاب. يبدو متهيبًا دومًا من إضافة أي شيء لما يراه أو تقديم الأشياء بطريقة جذابة». يقول شارحًا ذلك: «حرمت على نفسي أي انجراف للخيال رغم أنني مدرك تمامًا لمزايا الوهم بالنسبة للقراء وهذا لاقتناعي أن الرحلات تنتمي إلى التاريخ وليس إلى الروايات.[٣٧] وبالتالي لم أقدم البلاد بأجمل مما هي عليه ولا الأشخاص بما يزيدهم أو ينقصهم عما هم عليه»[٣٨].

ماذا رأى في مصر؟ كيف كانت تجربته هناك؟ فنقولها بدون تردد: نطاق مشاهداته أضيق من معظم من سبقوه مباشرة. فهو لم يزر مثله في ذلك مثل حجاج القرون الوسطى والقرن السادس عشر الإسكندرية ورشيد والقاهرة والأهرامات والسويس. فقد قال: «بعد سبعة أشهر من إقامتي بالقاهرة وإدراكي أن هناك عقبات كثيرة تعترض تنقلي في داخل البلد[٣٩] وأنه لا يوجد من يمد لي يد المساعدة لتعلم اللغة العربية، قررت الانتقال إلى سوريا. فالحال الهادئ في هذا الإقليم أكثر ملاءمة لأهدافي وغاياتي (يجب أن نتذكر أنه قدم إلى مصر وقت اشتداد النزاعات بين المماليك). بقيت ثمانية شهور مع الدروز في دير عربي ويسر ذلك عليّ تعلم العربية»[٤٠]. وقد يسر له ذلك التحرك في سوريا. وقد أمضى في ربوعها عامًا كاملاً يدرسها ويزور أطلال بعلبك وتدمر. وهذا الاعتراف يكفينا ونحن ندرك من هذه اللحظة:

١ - أنه لم يقم بالقاهرة أكثر من سبعة أشهر.

٢ - أنه لم يتعلم العربية بالفعل إلا بعد مغادرته مصر.

٣ - أنه لم يسر على غير هدى في وادي النيل.

٤ - أنه لم يجد عونًا كبيرًا من الفرنسيين المقيمين بمصر للتزود بالمعلومات.

فباستثناء القنصل وبعض المبعوثين، لم يكترث هؤلاء بمعرفة عادات سكان البلاد.

أما عن السياسة العامة للإمبراطورية التركية فقد اتسمت بترك هؤلاء التجار وشأنهم في حي الفرنجة. كانوا بطبعهم لا يلتفتون إلا إلى صفقاتهم وأعمالهم. يلوكون بألسنتهم كلمات عربية متدنية، ولا يستطيعون تقديم أي نوع من المساعدة لعالِم شاب مثل ڤولنيهVolney . وقد أدرك الرحالة أنه يبدد وقته في القاهرة ومن هنا فقد سافر إلى سورية. غير أنه عرج على مدينة السويس.[٤١] من هنا فلا يجب أن يثير دهشتنا ظهور إحباطاته في كتابه. لم يعبأ بعدم رؤية أطلال طيبة فقد عزته عنها آثار بعلبك وتدمر. كان قاسيًا في أحكامه على مصر: «وقد أصاب سانت بوڤ Sainte Beuve في تعليقه أنه لم يحبها بقدر كاف. ومن هنا فقد اكتفى بالظاهر منها بدون أن يلم بكنه عبقريتها ويدرك

عظمتها. لم يحب مادة كتابه ومن الواضح أنه كان على سجيته أكثر في تناول كل ما يتعلق بسورية».

كان دائم العبوس في مصر وحديثه مقتضب متجهم عنها. وينقسم كتابه إلى قسمين. يتناول الظواهر الطبيعية لمصر فيتحدث عن النيل والدلتا والرياح والطقس. أما الثاني فيدرس الوضع السياسي لمصر: الأجناس، الحكومة الحالية، المماليك، التجارة، الأمراض(٤٢)...إلخ. كل انطباع يتسم بالذاتية تم طرحه جانبًا من هذا العرض الصارم الجاف.

من حين لآخر فقط، وفي حاشية كتبت في عجالة في نهاية صفحة، نجد إشارة إلى تجربة عاشها أو حدثًا شهده بنفسه. لا وجه للمقارنة إذًا مع لوحات ساڤاري Savary الريفية. في مجمل هذا البحث العلمي نجد بالكاد موضعين أو ثلاثة بها وصف للإسكندرية وللقاهرة. ويصعب القول بكونه وصفًا مجملاً. فڤولنيه ينصح الرحالة الأوروبي ويحذره من مئات الأشياء بمجرد أن تطأ قدمه الإسكندرية. ففي رأيه أن اللغة التي يتكلمها السكان ذات صوتيات غريبة على الأذن، الحلقي منها خادش للسمع. وملابس السكان أشكالها غير مألوفة ووجوههم سماتها غريبة. وبالمقارنة بوجوه الأوروبيين الحليقة وشعورهم الغزيرة وأغطية رؤوسهم المثلثة وملابسهم الضيقة القصيرة، يجد غرابة في الوجوه التي لوحتها الشمس واللحى والشوارب الكثيفة والعمامة التي تتربع بطياتها على الرؤوس الحليقة. وفي رأي ڤولنيه أن الثياب التي تنسدل من الرقبة وحتى النعال، تخفي الجسم أكثر مما تستره. وتعتريه الدهشة من الأرجيلة والسبح التي لا تغادر الأيدي والإبل القميئة التي تحمل الماء في قرب من الجلد، والحمير التي يمتطيها الناس بالخفاف. وينتقل ڤولنيه بعينين ملؤهما الاستغراب إلى الأسواق الفقيرة التي لا يباع فيها سوى التمور وأرغفة الخبز الصغيرة المفلطحة والكلاب الضالة التي تذرع الطرق جيئة وذهابًا والأشباح التي تسير، تغطيها ملاءة من أم رأسها إلى أخمص قدميها ولا ترى منها سوى عيني امرأة.

ويستغرق ڤولنيه في تفكير عميق وهو يرى الشوارع الضيقة غير المرصوفة والبيوت الصغيرة التي تغطي فتحاتها عرش النباتات، وعامة الشعب الذين يميلون إلى النحافة والبشرة الداكنة ويذرعون الطرقات حفاة لا تغطي أجسامهم إلا قمصان زرقاء يزمها عند

الخصر قطعة من الجلد الرفيع أو منديل أحمر. هذا البؤس الذي يكتنف المدينة وهذا الغموض الذي يلف المنازل يجعلان ڤولنيه يتشكك في وجود عنف ضارٍ وعبودية تتسم بالارتياب والحذر[٤٣]. هذا واحد من مقاطع الوصف النادرة في الكتاب ويحمل أول انطباع لڤولنيه عن مصر. ولكن ماذا عن ريف مصر الغني النضر؟ لا يملك ڤولنيه Volney لوصفه حماس ساڤاري Savary. فهو بالنسبة له مجموعة من القرى الطينية مهدمة في معظمها إلى جانب سهل لا حدود له، تحوله الفصول الأربعة على التوالي من بحر مياه عذبة إلى بحيرة طينية إلى بساط أخضر أو حقل من التراب.

آفاق بعيدة وغير واضحة المعالم تحيط بهذا السهل ترهق العين وتغرق الناظر في الملل.[٤٤] كان هذا رأي ڤولنيه في الريف. فماذا تراه قائلاً في سخرية عن غريمه ساڤاري Savary الذي ظهر كتابه قبل عام من هذه السطور؟[٤٥].

لا يمكن بأي حال أن يذكِّره قَدٌّ ممشوق لمصرية، لوحته الشمس وكساه العرق بلوحة الـ Naiades. وهن يستحممن، إلا إذا كان يعاني من إحساس عال من الحرمان (!)

لستة أشهر من العام، تمتلئ مياه النهر بالطين ويستلزم الشرب منها تركها لساعات طوال ترسب فيها كل ما علق بها. قبل الفيضان بنحو ثلاثة شهور تكون المياه ضحلة وتسخن في مجراها مما يجعل لونها يميل للاخضرار ورائحتها كريهة تموج بالديدان.[٤٦] وقد استغل ڤولنيه كل فرصة لانتقاد ساڤاري، خاصة في ما ساقه عن ازدياد مساحة الدلتا[٤٧] وما رواه عن علي بك.[٤٨] وقد حرص ڤولنيه على التأكيد على كون ساڤاري لم يجاوز في رحلاته منطقة الجيزة. فقد أورد في كتابه هذا القول: «لم أسمع قط في القاهرة أن ساڤاري قد ذهب جنوبًا إلى أبعد من أهرامات الجيزة»[٤٩]. وهذا النقد وإن كان سبق قبوله من سونيني Sonnini فإنه يعد غريبًا من ڤولنيه الذي لم يغادر هو نفسه القاهرة بالمرة.

وفي نهاية الدراسة التي قدمها ڤولنيه Volney عاود الكرة وتساءل عما إذا كانت مصر بلدًا ممتعًا. وقد قام بهذا تحديدًا في الفصل الثامن عشر وعنوانه «لوحة موجزة لمصر»[٥٠] جمع فيه بدقة وتركيز كل ملاحظاته[٥١]. وقد انتقد مبالغات ساڤاري ولم يدع

فرصة اللمز في حقه. من أقواله عن منافسه المتفائل: «أرى غير مجد هذا الحديث الحماسي عن أشجار البرتقال والأترج التي تنمو في الهواء الطلق. فبه يغررون بأذهاننا التي اعتادت الربط بين الأشجار وفكرة الخير الوفير. في مصر، هي أشجار عادية تواري أكواخًا تشع بؤسًا ولا تستدعي إلى الذهن سوى فكرة الاجتثاث والفقر. أي جدوى من وصف التركي الممدد في كسل تحت ظلالها، سعيدًا بتدخين أرجيلة وذهنه خالٍ من تفكير.

لم أقو على حسد راحة العبيد ولا على إطلاق لفظ سعادة على تراخي وكسل هؤلاء الأتباع.(٥٢) في مقابل هذه اللوحات التي تشع هدوءًا والتي وأوردها الرحالة سافاري، وضع ڤولنيه لوحة للفلاح تشي بالبؤس والقسوة عقب اجتياح وباء الطاعون للبلاد عام ١٧٨٣ وانتشار المجاعة عام ١٧٨٤: «رأيت إلى جوار أسوار الإسكندرية القديمة بؤساء ينازعون الكلاب الضالة جثة جمل نافق».(٥٣) وبخطوط وجيزة يرسم فوضى وعفونة شوارع القاهرة «التي تعج بالبشر والجمال والحمير والكلاب» والضواحي المتاخمة للقبور والتي «تحجبها تلال القاذورات والحالة المزرية للشوارع والتي تصدم العيون وتزكم الأنوف».(٥٤)

ويعرض ڤولنيه الآثار المدمرة للأمراض كالعمى والحمى والطاعون والطفح الجلدي والجدري والزهري الذي يشكو منه نصف سكان القاهرة».(٥٥) خلاصة القول أن ڤولنيه لا يروقه شيء في مصر. لن نجد في سطوره وصفًا للاحتفالات الدينية والشعبية ولا لرقص العوالم ولا الحمامات التركية. كل ما أمكننا الوقوع عليه اعتراف بسيط في حاشية هامشية. «بدت له المياه الحارقة والعرق الذي يتفصد من الجسم نتيجة لتقلصات الرئة والحرارة البالغة الارتفاع متعًا غريبة. وقد قرر أنه من الآن فصاعدًا لن يحسد الأتراك على أفيونهم ولا حماماتهم الحارقة ولا المدلكين الذين يبالغون في حسن أداء عملهم».(٥٦)

لم تجتذبه مصر القديمة حتى يذهب لاكتشافها بنفسه. وقد اضطر تقريبًا إلى تخصيص فصل للأهرامات، فهو الموضوع الأكثر معالجة من حيث مرات التناول وغزارة المحتوى. من هنا فقد أخذ حذره. «لن أكرر ما وجد قبلي مكررًا في أعمال بول لوقا Lucas ومابيه Maillet وسيكار Sicard وبوكوك Pococke وجريفز Greaves

ونوردن Norden ونيبور Niebuhr وحديثًا في خطابات السيد ساڤاري Savary. سوف أكتفي بتعليقات عامة».[٥٧]

بذل جهده إذًا في تبيان ما اختلف بصدده الرحالة والعلماء الذين لا يجمعون لا على مقاييس وأبعاد الأهرامات ولا على أصل المواد المستخدمة في بنائها ولا على الهدف والغاية من إقامتها. ما الغرض من إنشائها.. جعلها مراصد فلكية أم مقابر للفراعنة؟ مال رأيه أكثر إلى فكرة القبور. أما بالنسبة لترك أطلال وبقايا الآثار القديمة فقد أفرد له فصلاً ألحق به تفصيلاً وتحليلاً وفرضية مشجعة نرى فيها نبتة علم المصريات وتلويحًا بمقدم حملة بونابرت.

«إذا ما راودنا الأمل في أن تكون مصر في أيدٍ أخرى غير التي تملك حاليًا مقاليدها، فمما لا شك فيه أنه لصالح شعبها أكثر منه لصالح معالمها. بهذا المنطق سوف يكون التغيير مطلوبًا. إذا ملكت مصر أمة عاشقة للفنون الجميلة، ستكون هناك موارد تسمح بمعرفة التاريخ. موارد تضن بها من الآن فصاعدًا علينا باقي أمم الأرض. وقد نجد بها كتبًا. فمنذ ثلاث سنوات مضت، استخرجوا من مكان بالقرب من دمياط[٥٨] أكثر من مائة مجلد مكتوبة بلغة غير معروفة. وقد تم إحراقها بناء على قرار من مشايخ القاهرة. الحق أنه لم يعد بالدلتا بقايا آثار تثير الاهتمام لأن السكان دمروا كل شيء إما تحت إلحاح الحاجة أو إيمانًا ببعض الخرافات. أما الصعيد ومشارف الصحراء فما زالت الآثار بها على حالها نظرًا لقلة سكانها. ونأمل أن يكون الحال كذلك في الواحات تلك الجزر التي يفصلها عن العالم بحار من الرمال لم يطأها أي رحالة منذ وصل إليها الإسكندر الأكبر. هذه الآثار المدفونة في الرمال ستبقى ذخرًا للأجيال القادمة. إلى هذه الحقبة الزمنية وهي أقرب كثيرًا مما نظن علينا أن نحيل أمانينا وآمالنا. وإليها أيضًا نرجئ إيجاد حل لرموز الهيروغليفية».[٥٩] وهو اقتراح وضعه علماء معهد مصر نصب أعينهم. لم يستشرف ڤولنيه حفر قناة السويس. وكان على ما يبدو أميل إلى قناة تصل البحر الأحمر بالنيل[٦٠] أم بالنسبة لحملة بونابرت فقد توقعها بل وتمناها.

لنعطي كل ذي حق حقه ويأخذ سافاري وڤولنيه كل ما يستحقه. لاشك أن كتاب ڤولنيه لم يأت لنا بجديد سواء عن مصر الفرعونية أو القبطية أو الإسلامية، غير أنه يعد أفضل دراسة شاملة عن مصر العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر.

في مكان ما من لوحته الملخصة للوضع في مصر يسر لنا الحكم على الحالة المدنية للسكان وأجناسهم وطوائفهم وأحوالهم. كما مكننا من تقييم طبيعة حكومة لا تقيم وزنًا لممتلكات الأفراد أو أمنهم وتستعمل سلطة لا محدودة توكل العمل بها لعسكر يتسمون بالفجور والفظاظة.(٦١) ويمكننا تقدير قوة هذه الحكومة بتلخيص وضعها العسكري ونوعية فرقها. مع ملاحظة أنه في كافة أنحاء مصر وعلى الحدود لا توجد حصون أو متاريس أو مدافع أو مهندسون. وبالنسبة للبحرية لا توجد سوى ثماني وعشرين سفينة وبارجة في السويس كل منها مسلحة بأربع قطع منجنيق صدئة وعلى ظهرها بحارة يجهلون ما هي البوصلة.(٦٢)

ولنقرب هذه الملحوظة العامة من نقطة خاصة أثارها ڤولنيه لدى هبوطه من متن السفينة. «إذا قيمنا الإسكندرية كبلد حرب فهي لا تساوي الكثير. فلا يوجد مبنى واحد للتحصين حتى الفنار بأبراجه العالية لا يصلح حصنًا. فليس به إلا أربعة مدافع في حالة جيدة، ولا قائم على مدفع قادر على التنشين. انخفض الخمسمائة من الانكشارية المكلفين بحمايته إلى النصف، ولم يكونوا إلا عمالاً لا يعرفون كيف يدخنون الغليون»(٦٣).

فلنضع أنفسنا في ذهن ضابط من النظام القديم ليلة الثورة. ولنقرأ معه هذه النصوص. ما الذي يراه؟ بلاد في فوضى تامة، منحدرة سياسيًا واجتماعيًا وعسكريًا، بلد لا يمكن أن ينقذه إلا تدخلٌ أوربيّ. يمكن لفرنسا أن تعيد إليها الحياة. ومع تفهم ماضيها، يمكنها شفاء أوجاع اليوم مع ضمان الغد.

وإذا كان هذا البلد يحكم الطريق إلى الهند؟

جدير بنا ألا ننسى أن «رحلة إلى سورية ومصر» كتاب نال نجاحًا كبيرًا وأن ڤولنيه قد استقر به الأمر في جزيرة كورسيكا بعد خمس سنوات من ظهوره عام ١٧٩٢ للعناية

بنباتاته ومحاولة أقلمتها على الأجواء هناك. وقد التقى خلال هذه الفترة بنقيب مدفعية يدعى بونابرت. بعد أن هدأت الأحوال تم إنقاذ ڤولنيه من الزنازين بواسطة ثوار التاسع من ترميدور (الشهر الحادي عشر من التقويم الجمهوري الفرنسي) وعين بواسطة «حكومة المديرين» أستاذًا للتاريخ في كلية التربية.

منذ ذلك الحين وڤولنيه ينهج بانتظام طريقه إلى أوتوي Auteuil وكان بونابرت يذهب هو الآخر إلى هناك. ولا شك أنه قد راقته صلابة ڤولنيه ووضوح فكره وسعة اطلاعه وجدية مراجع كتابه، فقد دعاه إلى مصاحبته في رحلة ثانية إلى مصر. غير أن السيدة هلڤيتيوس Helvetius راعية ڤولنيه(٦٤) خشيت عليه من متاعب الحملة العسكرية ونصحته بعدم قبول عرض القائد المغري. وبالتالي سافر بونابرت بصحبة مونج Monge وبرتوليه Berthollet حاملاً معه فقط كتاب ڤولنيه. إذا كانت رسائل ساڤاري قد راقت لضباط الحملة الشبان فقد كان كتاب ڤولنيه هو المفضل للعلماء والجنرالات. كانت تساورهم بعض الشكوك في اللوحات شديدة الجاذبية. كان وضوح ڤولنيه الموضوعي ورسمه المحايد بخطوطه الواثقة أكثر توافقًا مما يرمون إليه. بين مؤلفي ساڤاري Savary وڤولنيه Volney كان هناك ذات الفارق الموجود بين دراسة غير موثوقة المصدر تتأرجح بين صيغ الماضي والمستقبل وبين عمل كلاسيكي بحق. كان ڤولنيه بالنسبة لقادة الجيش نعم المرشد. وبالتالي كان كتابه سندًا قيمًا للجغرافيا السياسية والاقتصادية. لم يهمهم في كثير أو قليل ألا تكون رحلته قد اكتملت. فقد كانت كافية بالحال التي هي عليه لتحقيق الهدف الذي حددوه لأنفسهم وتجنيبهم خيبة الأمل لأنها لم تجمل الحقيقة وكما قال برتييه Berthier لم تخدعهم أبدًا.

غني عن القول أن ڤولنيه لم يكن في كتابه بالكاتب الحاذق ولا الرسام الموهوب ولكنه أجاد التصوير. أشار سانت بوڤ Sainte Beuve، الذي تجدر دومًا العودة إليه، إلى قدرة ڤولنيه هذه على التصوير. «تعبيره يتميز بالدقة والاختيار الصائب للمفردات وإن كان قليل الزخرف. عندما يتوقف أمام طبيعة أرض مصر وما يميزها عن صحارى أفريقيا واصفًا إياها بأنها «طمي أسود خصب وخفيف» تحمله مياه النيل وترسبه، وعندما يصف

رياح الصحراء وسخونتها الجافة مشبهًا إياها «بزفير ساخن من فوهة فرن نلتقط منه أرغفة الخبز»، وحين يوضح إنها إبان هبوبها لا تكون ضبابية وإنما رمادية محملة بأتربة تتخلل كل شيء ولا تحط رحالها وحين يذكر أن الشمس لا يبدو منها سوى قرص أميل إلى اللون البنفسجي.... في كل هذه الأوصاف نرى الشكل العام والتفاصيل الدقيقة. ويصل ڤولنيه إلى درجة عالية من الجمال (إذا جاز استعمال لفظ الجمال على ما في سطوره من دقة) هو جمال مادي طبي إذا شئنا يذكرنا بلمسات أبقراط في دراسته عن «الهواء والأماكن والمياه».

وعلينا ألا نغفل كما يردف سانت بوڤ Sainte Beuve عن توقيت صدور كتاب ڤولنيه فقد تزامن مع ظهور نتاج قريحة كل من الفيزيائي لابلاس Laplace والكيميائي لاڤوازييه Lavoisier وعالم الهندسة مونج Monge. وقد كان أميز الرحالة مكانة لدى هذه الكوكبة من علماء التجريب.

عندما ألف ڤولنيه لاحقًا كتابه «الأطلال» Les Ruines (١٧٩٠) حاول تغيير أسلوبه وزخرفته وصولاً إلى الخيال الذي لم يكن يتسم به. تبنى أسلوبًا خطابيّاً مفخمًا وبالتالي تحول من كلاسيكي شهير إلى رومانتيكي متواضع الحال. خرج من جلده ومن الدور المنوط به ولم يعد نتيجة لذلك ڤولنيه الحقيقي. وقد لبس كتابه ثوب مؤلفات كوندياك Condillac وكوندورسيه Condorcet مع إضافة عمامة وضوء من القمر. أي آثار لساڤاري إذا كان الله قد مدّ في عمره إلى هذه اللحظة؟

هاتان هما رحلتا ساڤاري وڤولنيه، مختلفتان كاختلاف مؤلفيهما. ساڤاري لم يكن إلا رحالة. أما ڤولنيه فقد أراد أن يكون فيلسوفًا. كان ساڤاري مشبعًا بالرومانتيكية وبروح روادها روسو Rousseau وبرناردان دي سانت بيير Bernardin de Saint Pierre ومعلنًا مبكرًا عن طراز شاتوبريان، Chateaubriand أما ڤولنيه فكان قلقًا حذرًا مترقبًا متشائمًا وأميل إلى الإحساس دومًا بخيبة الأمل.

كتب الأول بشكل مفصل واقعي وشخصي ملابسات ووقائع رحلته بأسلوب متنوع مزخرف. أما الثاني فكتب دراسة مجردة غير مزخرفة بأسلوب واثق شارح. رغب ساڤاري

Savary وأمل أن يكون كاملاً: وصف مصر الوسطى والدلتا واكتشاف كل الماضي. أما ڤولنيه فقد وضع لنفسه حدودًا زمانية ومكانية. لم يدرس إلا مصر الطبيعية ومصر الحديثة: مصر الفرعونية ومصر في أول عهدها بالمسيحية والأديرة القبطية.

أما مصر الخلفاء والمماليك فلم يتمكن من رصدها. من هنا فقد حظي ساڤاري بإعجاب الشعراء والمؤرخين. أما ڤولنيه فقد نال إعجاب العسكريين والفلاسفة والجغرافيين ولكن الصعوبة كل الصعوبة في التفريق بينهما. فتنوع المصادر وسعة التجربة لدى أحدهما يكملها التفكير العقلاني المنظم وجفاف أسلوب الثاني.

لم يكن لدى أيٍّ منا فكرة أو صورة عن مصر قبل الحملة الفرنسية، علينا إضافة الوان ساڤاري إلى تصوير ڤولنيه الصارم.[٦٥]

في زمن ساڤاري Savary وقبل مقدم ڤولنيه Volney بقليل، ظهر أربعة رحالة فرنسيين في مصر منهم رجل كنيسة وهو الكاهن دي بينو de Binos من مجلس كهنة كاتدرائية كونتيه كومانج Comte de Comminges في منطقة البيرينيه Pyrenees (١٧٧٧) والأرستقراطي الكونت دانتراج Comte d'Entraigues (١٧٧٨ - ١٧٧٩) وعالم الطبيعة سونيني دي مانونكور Sonnini de Manancour (١٧٧٧ - ١٧٨٠) وطبيب هو الدكتور أوليڤييه Dr. Olivier ١٧٩٦. ولن نتوقف أمامهم جميعًا بذات القدر. من أربعتهم، يستحق منا سونيني دراسة متأنية.

ظهر مؤلف الراهب دي بينو: «رحلة عن طريق إيطاليا إلى مصر وجبل لبنان وفلسطين أو الأرض المقدسة عام ١٧٨٧».

Voyage par L'Italie en Egypte, au mont Liban et en Palestine ou Terre Sainte.

ولكن نجاح عملي ساڤاري وڤولنيه طغيا عليه. ورغم أن مؤلفه قد أهداه إلى السيدة إليزابيث دي فرانس Elizabeth de France شقيقة الملك فلم يلتفت إليه أحد. فلم تكن موهبة الكاتب بالتي تجذب اهتمام الجماهير. فالكتاب باهت رديء من حيث التكوين ومليء بالتكرار المل.

وذكر الكاهن بسذاجة في المقدمة أن الكتاب كان سبيله لدخول عالم الأدب، وبالنسبة لنا، من اليسير إدراك سبب عدم استمراره في هذا المجال. فتجربته في مصر قصيرة ومحدودة، فلم يمكث بها إلا شهرًا ونصف لم يجاوز خلالها منطقة الدلتا، فقد اقتصرت زياراته على الإسكندرية ورشيد والقاهرة ودمياط. ولكن كل هذا لا يمنعنا من الاطلاع على الكتاب كشهادة مباشرة على اضطرابات القاهرة عام ١٧٧٧ وعلى تناصر وتنافس البكوات المماليك قبل دخول الفرنسيين إلى مصر سجّل الراهب دي بينو de Binos في يومياته بتاريخ السادس من أغسطس على سبيل المثال أن أحدهم ويدعى إسماعيل(٦٦) قد حظر التعامل مع أربعة مماليك آخرين منهم مراد عدو بونابرت لاحقًا. أما في الثامن عشر من أغسطس فقد كتب يقول إن حسن بك قد اغتال يوسف بك وأنه قد وجه إنذارًا ترتب عليه إغلاق حي الفرنجة لأبوابه. وعندما عاود الإبحار في النيل قبل لجوء تركيتين إلى مركبه وكانتا هاربتين من مذبحة لمجموعة من الحريم.

ولدى وصوله إلى دمياط في الثلاثين من أغسطس، أضاف إلى دفتر ملاحظاته عن الرحلة ما يلي: «تحمل الأخبار الواردة من القاهرة أنباءً عن أحداث مؤلمة. فلا حديث إلا عن إطاحة برؤوس وإلقائها في النيل.»(٦٧)

وللكونت دانتراج d'Entraigues منظور آخر أقل مأساوية. عن رحلته التي تحتفظ مكتبة ديجون Dijon بالنسخة الخطية ليومياتها، لم يعلق إلا السيد أوريان M.Auriant(٦٨) ابن شقيق السيد دوسان بريست M. de Saint - Priest سفير فرنسا إلى القسطنطينية وهو شاب ليست لديه أفكار مسبقة، شغوف بالتجربة وعاشق للملذات. كان عمه قد بعث به إلى مصر بحجة فحص نتائج مهمة السيد دي توت M.de Tott المفتش العام لأساكل الشرق.(٦٩)

وحقيقة الأمر أنه أرسله إلى مصر لإقصائه عن الليالي الماجنة. لم يكن كاتبًا ولم يبالِ يومًا بتحقيق أمجاد في مجال الأدب ولم يكن راغبًا إلا في الاستمتاع بحياته كل المتعة. وإذا كان قد كتب تفاصيل رحلته في صورة رسائل فذلك لرغبته في تسلية الأميرة غيقا Ghika عشيقته التي كانت تنتظر عودته في استانبول. لم يهدف إلى نشرها، فقد

رأى أنه من السخف أن يضفي زخرفًا أو زينة إلى اسمه على نفقة بعض المكتتبين وأن يظهر للناس في شكل كتاب مجلد بغلاف من جلد الحمل ذي حواف ذهبية. وقد كره هذا السلوك من الرحالة الذين سبقوه فيما عدا سبون Spon [٧٠] الذي وجده أحيانًا صادقًا. فقد كانوا بالنسبة له كلهم إما جهلاء أو نصابين أو معتوهين. كان يجيل النظر في كل ما حوله بكثير من الود والشك مع ابتسامة مرحة. ولا يمنع نفسه من بعض الحريات في تعامله مع الحقيقة.

بعد رحلة لطيفة بصحبة حريم باشا، وصل إلى الإسكندرية في الثاني من يناير ١٧٧٩ وذهب برفقة ترجمان يتقن الرسم واثنين من الإنكشارية واثني عشر عربيًا لزيارة أديرة قبطية في صحراء الأنبا مقار (نوع من التكفير والتوبة عن ذنوبه). وقد استقبله هناك نساك شديدو النحافة أنهكهم الصوم والتعبد. وقد ادعى بما يجافي الحقيقة ويتعارض مع أبحاث الأب سيكار Sicard أنه قد اكتشف وجود مخطوطات نادرة لم يستطع الحصول عليها من مالكيها لعنادهم وأسعارها المغالى فيها. هذه المخطوطات لديودور دي سيسيل Diodore de Sicile وهو كامل ومخطوط لبوليب Polybe يرجع إلى القرن الثالث ومخطوط «الأوصاف المؤثرة» Les Hypotyposes الذي فقد من القديس كليمان السكندري Saint Clément d'Alexandrie وهو ادعاء لرحالة شاب يجهل اليونانية باعترافه شخصيًا ومن ثم غير قادر على فك رموز مثل هذه المخطوطات، وطريقة غريبة من جانبه للتأثير على صاحبته.

في خطابه إلى E. Breccia دحض جياكومو لومبروز Giacomo Lombroso هذا الادعاء[٧١]. ويحسن بنا العودة مع دانتراج D'Entraigues إلى القاهرة تلك البقعة التي استضاف فيها مجالون Magallon. لم يكن هذا الأخير حتى ذلك الحين قد شغل منصب قنصل فرنسا وإنما لظرفه ومرونته كان قد نال رضا كل من إبراهيم بك ومراد بك. عرف دانتراج من مجالون طرفًا غريبة عن المماليك واستطاع من خلال زوجته الوصول إلى كثير من المعلومات عن الحياة الخاصة للحريم، سارع باختزانها لنقلها إلى الأميرة «غيقا» Ghika كان الدوق دي شولن de Chaulnes صديقًا له (١٧٤١ - ١٧٩٣). وكان هاويًا

للكيمياء عمل تحت إمرة لاڤوازييه Lavoisier وتباهى بقدرته على فك رموز الهيروغليفية وإن لم تسفر مجهوداته العلمية عن شيء يذكر. لإرضاء صديقه هذا، قام دانتراج مرة ثانية برحلة إلى وادي المومياوات للبحث عن مقبرة طيور «أبو منجل» المقدسة التي كان صديقه قبل عامين (٧٢) قد أشار إليها بعبارة «ثقب أو قبر العصافير». غير أنه نظرًا لما رآه من ارتياب في أعين الجنود الأتراك المصاحبين له فقد انصرف عن فكرة فحص جثثها. سافر دانتراج D'Entraigues بعد ذلك إلى السويس وتسلق جبل سيناء وعاد منها مرهقًا وغير راضٍ.

دامت رحلته بالكاد شهرين فقد عاد إلى الإسكندرية في السابع والعشرين من فبراير ١٧٧٩. ويمكننا القول أن ما كتبه يضج شبابًا وحيوية وانطلاقًا، ويُقرأ بمتعة عالية مقارنة بالبحث شديد الجدية والجفاف الذي قدمه ڤولنيه Volney .

لعالم الطبيعة سونيني (١٧٥١ - ١٨١٢) مكانة أكثر أهمية نظرًا لقيامه برحلة إلى شمالي مصر وجنوبيها فيما بين عامي ١٧٧٧ و١٧٨٠. وما ألفَه ينسب إلى عالم أكثر منه إلى أديب. والحق أنه لم يظهر إلى الوجود فور الانتهاء منه وإنما بدفعة من الأحداث الجارية وبمناسبة حملة بونابرت على مصر عام ١٧٩٩. غير أن كتابه ما لبث أن طواه النسيان بعد ظهور كتابات ڤيڤان دونان Vivant Denon الرائعة عن رحلته والتي نشرت بعد هذا التاريخ بثلاث سنوات. ومقارنة بما تركه لنا ڤولنيه Volney وساڤاري Savary نجد أن ما ألفه سونيني ذو فائدة حقيقية نظرًا لاتساع وتنوع ودقه معلوماته! ينتمي سونيني دي مانونكور Sonnini de Manoncour مثله في ذلك مثل بنوا دي ماييه Benoit de Maillet إلى إقليم اللورين Loraine فقد ولد في لونيڤيل Luneville وقبل كمحامٍ في منطقة نانسي Nancy ثم غير فجأة مهنته إلى ضابط ومهندس في البحرية. عندئذٍ زار أمريكا وافريقيا الغربية فيما بين أعوام ١٧٧٢ و١٧٧٥.

منذ ذلك التاريخ ونشاطه العملي مقتصر على الاكتشاف. كان مثل ڤولنيه Volney ذا ذهن متقد تجريبي مأخوذًا بالعلوم والطب والتاريخ الطبيعي. وقد أفاد بوفون Buffon باكتشافاته وملاحظاته. كتب يقول: «لدى عودتي من ثاني رحلاتي إلى أمريكا ذهبت إلى

مونبار Montbard حيث طلب بوفون Buffon رؤيتي. أمضيت هناك ما يقرب من ستة أشهر تقريبًا قريبًا من عمل هذا الرجل العظيم ومحيطه». ثم انتقل بعد ذلك عام ١٧٧٧ إلى تولون Toulon للحاق بالسيد دي توت M. de Tott الذي شغل بعد بنواه دي ماييه منصب مفتش «أساكل الشرق». وكان يستعد للسفر إلى الشرق الأدنى، غير أنه افترق عن صديقه في الإسكندرية وبدا أنه لم يلقه بعد ذلك إلا في القاهرة إبان مقابلة مع الباشا. عند عودته إلى فرنسا عام ١٧٨٠ فضل بدلاً من كتابه وسرد ما كان في رحلته، أن يكتب عدة مقالات في علم الطيور لكتاب بوفون Buffon في التاريخ الطبيعي. وقد أصبح شريكًا مساعدًا دائمًا للعالم الكبير.(٧٣)

ليس معنى ذلك أن بوفون Buffon قد دفعه للانصراف عن مشروعه. على العكس تمامًا، فقد قال له مشجعًا عام ١٨٧١: «لا أشك في أنك قد جمعت عددًا من الملاحظات السديدة التي سيشرفك ويعلي من قدرك نشرها».(٧٤) الحق أن الأمراض المتلاحقة والمصاعب المالية والخلافات والمؤامرات العائلية والمعوقات من كل نوع منعته لفترة طويلة من تنفيذ ما يرمي إليه. لدى عودته إلى فرنسا، وجد أن إرثه قد انتقص ولم تكافئه حكومة الملك على اكتشافاته ما اضطره إلى رفع دعاوى ضد غير الأمناء من أهله لاستعادة ما تبقى من ثروته. من هنا كانت المرارة والضغينة التي تشع من سطوره.

فسونيني Sonnini غاضب مغتاظ ويترك لنا شعورًا بأنه قد استقبل بصبر نافذ الثورة الفرنسية التي تعيد الأمور إلى نصابها والحق إلى أصحابه. نراه ثائرًا دومًا على غياب العدالة الاجتماعية ينتقد مساوئ الحاشية وعيوب النظام القديم. لم يَكنُ سونيني حيال الحكومة الملكية سوى مشاعر الغضب والازدراء لأنها لم تشجعه في مهامه المحفوفة بالخطر وساومته على النفقات الضرورية ولم تسدد له ما أنفقه من مصروفات شخصية.(٧٥)

وسونيني بالإضافة إلى ذلك كله، فيلسوف معجب بالموسوعية، محبذ لأعمال العقل والأخذ بالعلم وفلسفة الأنوار، يكره الإكليروس ويميل للنظام الجمهوري. لهذه الأسباب نجده لا يضيع فرصة يتناول فيها الأديرة القبطية أو البعثات الكاثوليكية المصرية إلا

ويهاجم الشعوذة والكسل أو الجهل بكل ما يتعلق بالرهبانية[٧٦] وهذا كله لا يحول دون هجومه على المصريين الذين تصدمه تقاليدهم البالية وانعدام أخلاقهم. تصدمه لتعارضها مع حبه للتقدم وصرامته وتشدده في تطبيق المذهب اليعقوبي الديمقراطي. وهو للحق شخصية تتسم بالغرابة. وتشي صورته بلباس الضابط وباروكة الشعر وياقة كالتي كان يرتديها لاڤاييت والشفاه المزمومة والنظرة القاسية بما يضج به كيانه من حيوية وصلابة رأس. ومؤلف سونيني Sonnini أكثر اكتمالاً من كتابي ڤولنيه Volneyوساڤاري Savary، يفرقه عن الأول أنه أكثر دقة وأقل حبكة. ويختلف عن الثاني في أنه أقل تأنقًا ووصفًا. يمكن قراءته كالرواية نظرًا لطبيعة مغامرات سونيني المشوقة.

وإن كانت سطوره تكتظ بالملاحظات الطبية والعملية. وسونيني شغوف بالطبيعة عالم بها تزخر صفحاته ولوحاته بكل ما يتعلق بعلوم النبات والتعدين والحيوان خاصة الطيور والأسماك. خصص فصلاً كاملاً لختان نساء العرب الذي سبق لتيڤونو Thévenotورحالة قدامى آخرين الإشارة إليه[٧٧]. ووصف بوعي مرض الجذام والأمراض التناسلية التي كثيرًا ما يصاب بها الفلاحون. وتستهوي سونيني أسماك النيل وطيور الصحارى أكثر من الآثار وأنقاضها. ظاهر الأمر أن كتابه قد أعجب[٧٨] بوفون Buffon أيما اعجاب. وواضح لقارئه أن حقل مشاهداته أرحب بكثير مما رآه وعلق عليه ڤولنيه Volneyوساڤاري Savary .

في تعليق له على كتابه قال سونيني: «يبدو أنني أسعد حظًا من ساڤاري وغيره فقد تجولت في الصعيد وهو الاسم الذي يطلقه العرب على مصر العليا من مصر القديمة وحتى أسوان. من هنا استشعر أن لكتابي ربما بعض الفائدة»[٧٩]. وهو غير محق تمامًا في هذه المقولة فقد حالت القلاقل والحروب الأهلية بين أتباع المماليك المتنافسين في الصعيد دون وصول رحالتنا إلى الأقصر والكرنك[٨٠]. هذا لا يمنع أنه قد حاول الوصول إلى الحبشة وأنه قد ولج في الصحراء الليبية وأعالي وادي النيل إلى أبعد مما وصل ساڤاري Savary.

وأكثر مقاطع كتابه ثراءً وأفضلها من حيث المعلومات، لم تتعلق بمصر القديمة فهو لم يتناولها إلا في نهاية كتابه الثاني وبحماس نادر. فحالة انعدام الأمن في البلاد لم تمكنه

إلا من إلقاء نظرة سريعة وقلقة[٨١] على أهرامات الجيزة وسقارة. وقد اكتشف بالقرب من الشيخ عبادة والتي كانت تعد وكرًا للصوص، أنقاض مدينة أنتينوبولس وقد زادها السكان هدمًا وتدميرًا «عاث الرجال الأشداء المقيمون حول مدينة أدريان فيها فسادًا ودمروا أجزاءً من المباني القائمة مشبعين بذلك نزعتهم البربرية للهدم. وقد أشار إلى أنه في زمن ڤانسلب Vansleb وبول لوقا Paul Lucas، كانت هناك قطع معمارية سليمة أكثر مما رأي هو في عصره».[٨٢] وقد اعتقد، مثله في ذلك مثل من سبقوه، أن مدينة «أنتينوبوليس» قد أقيمت مكان مدينة «أبيدوس» ولكنه في تعليقه على الكهوف المحفورة في جبال أسيوط، يبدو أكثر عمقًا وامتلاكًا لمادته. وهي في رأيه سراديب أموات «ليكوبوليس» وليست كما اعتقد ڤانسلب Vansleb وبول لوقا Paul Lucas كهوفًا سكنها الإنسان البدائي. وقد أعجب سونيني جدًا بمعبد دندرة وقد خصص له مجموعات من الرسومات لا ترقى في جودتها وإتقانها إلى رسوماته للأسماك والنباتات.

ووصفه للأقصر ليس شائقًا فقد كتب يقول: «كان يلزمني المزيد من الوقت والمزيد من الشعور بالأمن فقد كانت المنطقة تعج بالمجرمين وبأنقاض آثار نجت من صدامات الأجيال والهجمات البربرية».[٨٣]

ليزيد تأجج انبهاره وافتتانه بالآثار، كان سونيني Sonnini يعتكف ليلاً في أحد أكواخ القرية المصرية ليقرأ بحماس الفقرة التي يرسم فيها بوسويه Bossuet طبقًا لما جاء في كتابات تيڤونو Thévenotرسمًا كروكيًا لأطلال الكرنك. أما أنقاض الضفة اليسرى فلم يسعَ سونيني لزيارتها[٨٤].

ما إن رسا في مواجهة قرية «القرنة» حتى استشعر عداءً ضاريًا من سكان المنطقة. في هذه البقعة تحديدًا، سيقوم الجنرال بليار Belliard لاحقًا بعمل حصار للسبب ذاته. «رجال داكنو البشرة، عراة تقريبًا أو في ثياب رثة لا تحجب الكثير من أجسامهم نظراتهم الزائغة وبهم شراسة بينة. كان اللقاء بهم غير مريحٍ بل مخيفاً».[٨٥] فهم لا يمتهنون مهنة ولا يعرفون شيئًا عن الزراعة، وينتقلون كالحيوانات الشاردة بين الجبال القاحلة حيث يقيمون. ولا يبدو عليهم الاكتراث بشيء إلا بالسلب والنهب. من هنا عزف سونيني Sonnini عن

المضي في اكتشاف بقايا الرمسيوم أو مدينة هابو. كان يتأملهما من بعيد بدون المجازفة بالتوغل في وادي الملوك. وقد توجه بعد ذلك إلى الشمال عائدًا أدراجه.

حظيت مصر المسيحية من سونيني Sonnini باهتمام أقل من مصر الفرعونية. فلم تكن للأديرة القبطية في وادي النطرون ووادي النيل أي أصداء في نفس سونيني وذهب إلى حد كراهية وازدراء قاطنيها. وقد تعرضت قافلته وهي على الطريق المؤدي إلى أديرة صحراء الأنبا مقار الأربعة، إلى هجوم ونهب من قبل البدو. ورغم ذلك بدا أنه يفضل هؤلاء المجرمين الغلاظ على الرهبان المنافقين وغير المضيافين المقيمين في «دير براموس» «وكر لكسل والبلادة» و«مصرف الفسق».

استثارت فيه صلواتهم المزعجة المتداخلة ومكتبتهم المهجورة وكتبهم التي التهمتها القوارض والحشرات وغطاها التراب وخلافاتهم وتكاسلهم، روح التهكم والسخرية. وانتهى به الأمر إلى اتهامهم بتشجيع عصابات الصحراء عن طريق إمداد بدو ليبيا بالمساعدات[٨٦]. والحياة الرهبانية بالنسبة لسونيني نسيج من الخرافات والمبالغات. ولم يكن أكثر تسامحًا مع المتأملين الإيطاليين بأخميم[٨٧] في الصعيد الذين أساؤوا استقباله رغم توصية القنصل مجالون Magallon، مما ترك مرارة شديدة في نفسه.

هل يمكننا اعتبار مشاعره الإيجابية تجاه الإسلام رد فعل لهذه الكراهية؟ الإجابة بالنفي لأنه ما يلبث أن يتهمهم بدورهم بتدمير كل ما تركه اليونانيون والرومان من آثار. وصفهم قائلاً: «عبيد لتعصب عبثي، دمروا كل التماثيل لأنها في نظرهم من صنع الكلاب أي الأوروبيين وقوانينهم تحرم عليهم كل ما هو مصور ومجسم»[٨٨]. في فترة التوتر السياسي والحرب الأهلية، أحجم سونيني Sonnini عن زيارة معالم القاهرة[٨٩]

كانت المساجد ممنوعة عليه. ولم ير إلا القلعة وبئر يوسف وأنقاض الديوان الذي بناه الوزير يوسف بأمر من السلطان محمد بن قلاوون[٩٠]. ويعد سونيني Sonnini أول فرنسي يشكك في هذه الأسطورة فالحقيقة التاريخية مخالفة لهذا القول. فيوسف في هذه

السطور هو يوسف صلاح الدين أو صلاح الدين الكبير عدو الصليبيين ومشيد أسوار القاهرة. وعدم قول سونيني بأن يوسف صاحب القلعة ليس يوسف المذكور في التوارة ابن يعقوب الذي باعه إخوته هو في حد ذاته تقدم.

وقارئ سونيني يشعر أن الحياة العربية لم تستهوه. فهي بالنسبة له مملة فاسدة، مليئة بالخرافات. أحب في المنازل ذات الطراز الإسلامي أجواءها الرطبة المنعشة(٩١). ولكنه رأى أنها لا تتمتع بهندسة معمارية أو شكل خارجي جذاب.(٩٢)

وقد كال الاتهامات للمصريين وخاصة المماليك منهم، على غرار ما فعله ڤولنيه Volney والسابقون عليه:

«مثلت نساء Thrace بأورفيوس Orphee لوقوعه في حب يخالف الطبيعة هذا الداء المخالف للأعراف تسبب في خزي وعار اليونانيين والفرس في الماضي، وهو يشين المصريين».(٩٣) وهذا الداء اللعين يقترن لديهم بالميل للنساء. في هذه المناطق يشبع الرجل شهواته الشاذة ثم يمضي إلى حريمه ويطلق البخور احتفاءً بالطبيعة التي يخرق قوانينها.

ويتحدث سونيني Sonnini عن مجموعة أخرى من الرجال ألفوا إقامة العلاقات الشاذة مع الحيوانات. وبلغ الأمر من تبجحهم في هذا الأمر أنهم لا يستترون خزيًا وإنما يأتونه في وضح النهار في شوارع رشيد النائية.(٩٤) وفي موضع آخر يقول الرحالة: «علينا أن نقر أن هناك تفاوتًا بين رغبات النساء والرجال». ويسوق للدلالة على سبق النساء في ذلك قصة عربية.(٩٥)

ورغم الأوضاع المضطربة في المدينة والروح العدائية التي أظهرها ساكنوها تجاهه لدى مروره لزيارة الباشا(٩٦) فإن سونيني Sonnini قد استطاع التجول بعض الشيء عبر طرقات المدينة وبدون أخطار تذكر استطاع السفر إلى صعيد مصر، ويرجع ذلك إلى حماية مراد بك له. فقد زوده هذا الأخير بخطابات تعريف لبعض الشيوخ وقادة البلاد العسكريين بل واستقبله في معسكره.

«زرت معسكر مراد. كانت هناك خيام ضخمة نصبت له ولكبار ضباطه[٩٧]. كانت هذه الخيام مقسمة إلى عدة قاعات، تكسو أرضها أجمل الأبسطة وتبطنها من الداخل أقمشة موشاة بالذهب والفضة من أفضل ما تنتجه مصانع ليون. لا شيء يعدل روعة فرسانه. كان الذهب والفضة والمطرزات الثمينة على الجلود تلمع بشدة في ضوء الشمس الساطع. فوق ظهور الخيل، كانت هناك سروج حشيتها ذات حواف ذهبية عريضة مصنوعة من المخمل ومن أجود ما تخرج ورش ليون ومصانعها. حاول مراد استبقاء سونيني Sonnini في خدمته باعتباره من ناحية مهندسًا، ومن ناحية أخرى طبيبًا. غير أن سونيني خشي تقلب مزاجه ورفض هذا الشرف والأتعاب المغرية».

ولكن ذلك لم يمنعه من الإشادة بصفاته الحميدة وإقدامه وملاحته. قال في وصفه: «له قسمات محارب ولحية سوداء كثيفة تخفي ذقنه، وحاجبان عريضان كأنهما قوسان من الأبنوس يعلوان عينين متأججتين. على إحدى وجنتيه ندبة تضفي على وجهه مسحة من الشراسة[٩٨]. وهو إلى جسارته وإقدامه يجمع قوة وتمكنًا خارقين. شوهد من فوق جواده يطيح بضربة واحدة من سيفه العريض[٩٩] برأس فحل جاموس وهو محارب يخشى جانبه يتحمل أقصى الصعاب، فارس مغوار متمكن من المبارزة والقتال بالسيف بكافة فنونه، أعصابه قوية باردة، عنيف في المباغتة بشيء من التدريب والتعليم كان من الممكن أن يصبح مراد جنرالاً».[١٠٠]

تناول قصة مراد بك بمزيد من الدقة والتفاصيل رحالة آخر معاصر هو الدكتور ج. أ. أوليفييه Dr G.A. Olivier عضو المعهد القومي. قام هذا الطبيب برحلة دراسية امتثالاً لأمر «حكومة المديرين» إلى تركيا ومصر وفارس وذلك خلال الستة أشهر الأولى من الجمهورية «غير أنه لم ينشر عن رحلته شيئًا إلا في ظل حكومة القناصل والإمبراطورية. وطئت قدمه الإسكندرية عام ١٧٩٦ وضم كتابه الذي يغطي الأعوام من ١٨٠١ إلى ١٨٠٤ الحالة السياسية والمعنوية لمصر في هذه الفترة.[١٠١]

وتعد فصول هذا الكتاب التي تتناول «مكائد وإهانات مراد وابراهيم لتجار وممثلي فرنسا» والأسباب التي أدت إلى مجيء الحملة الفرنسية، بمثابة تبرير بأثر رجعي لحملة

بونابرت[١٠٢]. وهو يؤكد على ما جاء بالتقرير الذي كتبه مجالون Magallon لدى عودته إلى فرنسا عام ١٧٩٨[١٠٣]. وتقديره للأمور فيه تبصر ووضوح يخلوان من كل زخرف أدبي.

«انحطاط وتدنٍ، فقر وجوع، عبودية وقهر» هذه هي مصر[١٠٤].

ويذكر أن الدكتور أوليفييه كان من تلاميذ ڤولنيه Volneyوالمعجبين به.

لذا فقد تبنى وجهة نظره وطريقته وحظر على نفسه أي طرفة أو دعابة في ما يكتب. ونظرًا لكونه عضوًا في هيئات مثل:Société d'Agriculture de La Seine و« Société Linnéenne de Londres التي تُعنى بالزراعة. فقد أوحت له خصوبة أراضي وادي النيل أفكارًا ومهامًا متعلقة بالزراعة والطقس أكثر منها تعلقًا بالآداب والفنون. قال في هذا الصدد ساخرًا من وصف ساڤاري Savary لحدائق رشيد: «إن رؤية حدائق مزروعة بأشجار البرتقال والنخيل، لم يستطع أبدًا إثارة مخيلتي[١٠٥]». لذا فقد برع على النقيض منه في التناول العلمي للرياح والخماسين وفيضان النيل والحيوانات الأليف منها والمفترس.

أطنب وأفاض في وصف الأهرامات ورؤية مدى إمكانية تطبيق نظريات القنصل دي مايبه du Maillet وغيره من الرحالة عليها. بينما اكتفى بصفحة واحدة في كتابه لوصف مدينة القاهرة تاركًا هذه المهمة كما قال: «لغيره من الفرنسيين الذين أقاموا بها ثلاث أو أربع سنوات، تيسرت الحياة لهم خلالها ولم يكن فوق رؤوسهم سيف الطغيان مصلتًا»[١٠٦]

هذا الوضع غير الآمن كان على وشك التغير، فبعد عامين من هذا التاريخ وصل بونابرت إلى شواطئ الإسكندرية.

****

BIBLIOGRAPHIE

- François, baron de Torr, Mémoires sur les Turcs et les Tatars, Paris, 1784, 4 vol. in-8{.

- Abbé de Binos. Voyage par l'Italie, en Egypte, au mont Liban, et en Palestine et Terre Sainte (de 1776 à 1779), Paris, 1787, in-12.

- De Potocki. Voyage en Turquie et en Egypte fait en 1784, in-12, Paris, 1788.

- C. E. Savary. Lettres sur l'Egypte. --- Oú l'on offre le paralléle des mœurs anciennes et modernes de ses habitants, oú l'on décrit l'état, le commerce, l'agriculture, le gouvernement, l'ancienne religion du pays, et la descente de St. Louis à Damiette, tirée de Joinville et des auteurs arabes. Paris, 1785-1786, 3 vol. in-8{, 3 cartes et 1 plan.

- Amsterdam, 1787, 3 vol. in-8{, 2{ édition, Paris, 1799-1801, 3 vol. in-8{ --- OEuvres, Paris, 6 vol. in-8{, an VII (1799). --- Traduction anglaise, Londres, 1786, 2{ éd. 1787, 3{ éd. 1799. --- Traduction allemande, Leipzig, 1789, Berlin, 1786-1788.--- Trad. suédoise, Stockholm, 1790.

- Volney (C. F. Chassebouf, comte de). Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784 et 1785. Avec deux cartes géographiques et deux planches gravées. Paris, 1787, 2 vol. in-8{. --- 2{ édition (s.I.), 1792, 2 vol. in-8{.--- 3{ édition, revue et corrigée par l'auteur. Avec cartes et planches, Paris, an VII (1799), 2 vol. in-8{. --- 4{ édition, 1807. --- Traduction allemande, Jena, 1788-1800. --- Trad. hollandaise, Leyde, 1789.

- Michel Bréal, Volney orientalisle et historien. Journal des Savants, 1899, p.98-108 et 261-272.

- Sonnini de Manoncour. Voyage dans la Haute et Basse-Egypte fait par ordre de l'ancien gouvernement [de 1777 à 1780] et contenant des observations de tous genres. Paris, 3 vol. in-8{. Avec un atlas de 37 planches et une carte (celle de d'Anville). An VII (1799).

- Comte d' Entraigues. Lettres galantes et pittoresques sur l'Egypte. Cf. Auriant, Le voyage oriental de M. d'Entraigues, Revue Bleue, 17 mai 1930.

- Duc de Chaulnes (Marie-Joseph Louis d'Albert). Mémoire sur la véritable entrée du monument égyptien qui se trouve à quatre lieues du Caire, auprés de Saqqara et qui a élé consacré par la superstition à la sépulture des animaux adorés pendant leur vie. Paris, 1777 et 1783, in-4{.

- [G. A. Olivien]. Voyage dans l'Empire othoman, l'Egypte et la Perse fait par ordre du gouvernement pendant les six premiéres années de la République par G. A. Olivier, docteur en médecine, membre de l'Institut national, de la Société d'agriculture du département de la Seine, Paris, Agasse, 3 vol. I (an 9) II. Egypte et Syrie (an 12, 1804) III. Perse et Asie Mineure. 1807.

- H. Boucher. Louis-François Cassas, peintre et graveur, Gazette des Beaux-Arts, 1926, t. II.

- L. Reimer, Quelques détails publiés ou inconnus sur la vie et les publications de certains Européens venus en Egypte les derniers siécles, Bulletin de l'Institut d'Egypte, session 1948-1949, t. XXXI, p. 121-176.

- André Lenal, Voyages au Levant pendant les XVI, XVII et XVIII siècles. Essai de bibliographie, Budapest, Singer et Wolfner, 1897.

****

الهوامش

١ - هناك طبعة للأعمال الكاملة لساڤاري ١٧٨٥ - ١٧٨٨ تقع في ست مجلدات من القطع المتوسط. غير أنها لا تشمل كتابه في النحو العربي.

٢ - مصر من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٠ «Louis Bréhier, L'Egypte de 1798 1800, Paris, 1901»

انظر الرسم المعبر لثورة القصر ومقتل البكوات في مذكرات M. de Tott عن الأتراك والتتار Mémoires de M.Tott sur les Turcs et les TatarsI.

طبعة ١٨٧٤ ص ص ١١٣ - ١٧٦.

٣ - انظر إلى بورتريه مراد بريشة سونيني «رحلة إلى شمال وجنوب مصر» ١٧٩٩ المجلد الثاني ص ص ٣٢٢ - ٣٢٦ Voyage dans la Basse et Haute Egypte

٤ - نشر تقريره إلى «حكومة المديرين» عن مصر بواسطة كاياردو Caillardot في مجلة مصر «روڤو ديچيبت Revue d'Egypte عدد سبتمبر ١٨٩٦.

راجع ما كتبه ج. جيمار G. Guémard عن ماجالون Magallon في كتابه:

«Les Orientalistes de l'armée d'orient» «مستشرقو جيش الشرق»، مجلة «تاريخ المستعمرات» «Revue de L'histoire des Colonies» العدد الأول ١٩٢٨ ص ص ١٣٣ - ١٣٦.

وما كتبه Auriant في كتابه «رحلة السيد دانترج الشرقية» «Le Voyage oriental de M d'Entraigues» مجلة La Revue Bleue » ١٧ مايو ١٩٣٠.

عُين ماجالون مفوضًا عامًا لفرنسا في سالونيكا عام ١٨٠٢، وقد أحيل إلى التقاعد بعد ذلك بسنوات قليلة.

٥ - كتب شاتوبريان هذا الاسم هجائيًا بذات الطريقة.

٦ - رسائل عن مصر طبعة ١٨٧٦، المجلد الأول ص ٣٤٥.

٧ - ذات المرجع المجلد الأول ص ص ١٩٧ - ٢٣٧.

٨ – «رسـائل للعـبـرة» Lettres difiantes، المجلد التـاسـع ص ٩٢١ «ورسـائل عن مـصـر» المجلد الثاني ص ص ٧٠ – ٩٦.

٩ – أعتقد أنه أول رحالة فرنسي يذكر نصاً عربياً في لغته الأصلية ويستشهد به. مثال ذلك فقرة أبى الفدا، المجلد الأول ص ص ٢٣ – ٤٣ وص ٣١٣ [حاشية.]

١٠ – هناك وصف مشـابه ولكن أكـثـر لينًا ورد في كـتـابات الرحـالة سـونيني Sonnini الذي سنتوقف معه لاحقًا. وهو يزهو بكونه يسوق الحقيقة في مواجهة لمسات ساڤاري Savary التجميلية، حقيقة تتسم بالحيادية والموضوعية: «في هذا المكان يجلس التركي الذي لا يعمل طيلة اليوم، يحتسي قهوته ويدخن غليونه وكأنه يتأمل بعمق ذهنه الفارغ».

Voyage dans la Haute et Basse Egypte, 1799, vol. I, p 231 - 233

تناول الرسـام هـ . ج. رودوتيه Redout في يومـياته حدائق رشـيد بالإشـادة وقد نشـر أبل هرمان Abel Hermant هذه اليوميات جزئياً في مجلة «لاروڤوبلو» (La Revue Bleueعدد ديسمبر ١٨٩٤ وعدد مارس ١٨٩٥) المجموعة الرابعة، المجلد الثالث ص ٤٩ .

وقد تناول ساڤاري ورودوتيه أيضًا، كل من جانبه «العوالم».

١١ – «رسائل عن مصر» Lettres sur L'Egypte المجلد الأول ص ص ٤٨ – ٥٠.

١٢ – المرجع السابق، ص ص ١٧٣ – ١٨١.

١٣ – راجع الوصف الخاص بالليلة المصرية قرب المنصورة، المرجع السابق ص ص ٣٠٣ – ٣٠٤.

١٤ – «رسائل عن مصر» ص ٦٥ « Lettres sur L'Egypte»

١٥ – المرجع السـابق، المجلد الأول ص ٧٦ وقد وردت الملحوظة ذاتها في رحلة سونيني Sonnini أثناء مروره بدمنهور المجلد الثاني ص ١٤٢ .

١٦ – المرجع السابق ص ٦٩ .

١٧ – المرجع السابق ص ١١٦.

١٨ – المرجع السابق ص ٧١.

١٩ - المرجع السابق ص ٣٠٥.

٢٠ - المرجع السابق ص ص ١٢٤ - ١٣٣.

٢١ - رسائل عن مصر ١٧٨٦ Lettres sur L'Egypte المجلد الأول ص ١٥١ وصف سونيني بقسوة منظر الراقصات اللاتي شاهدهن في نوافذ مقر القنصلية بالقاهرة ورآهن في حركاتهن: «عرض شهواني وضيع لا يروق إلا لقوم يتسمون بالفظاظة وضعة الخلق». المجلد الثاني ص ص ٣٧٢ - ٣٨٣.

٢٢ - المرجع السابق ص ١٩٠.

٢٣ - رسائل عن مصر «Lettres sur L'Egypte» ص ١٨٧.

٢٤ - المرجع السابق، المجلد الثاني ص ١٥٨.

٢٥ - ويقاسمه الرأي بوشيه دي لا ريشار دوريه Boucher de la Richarderie في قائمة مراجعه عن الرحلات عام ١٨٠٨ الجزء الرابع ص ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

٢٦ - راجع المرجع السابق ذكره لسونيني، المجلد الأول ص ١٣.

٢٧ - «رسائل عن مصر» المجلد الثاني ص ص ٩٠ - ٩٥ كانت القافلة الإنجليزية التي قامت بهذه الرحلة بين السويس والقاهرة عام ١٧٧٩ أقل حظًا فقد أنهاها البدو عن أخرها ولم يبق منها حيًا إلا السيد دي سان جرمان [راجع ڤولنيه المجلد الأول ص٢٠٤] «M. de Saint Germain» استطاع الإنجليزي ايلز إيروين Eyles Irwin دخول مصر من الطريق ذاتها التي سلكها شيڤالييه عام ١٧٧٧ عندما سافر إلى القصير. ولكن لدى وصوله إلى قنا تم سجنه بواسطة سكان المدينة الذين لقي منهم الأمرين.

رحلة إلى البحر الأحمر، إلخ ١٧٩٢ المجلد الأول، من هذا الطريق وصلت عام ١٨٠٠ الكتيبة - الإنجليزية - الهندية من البرتغال.

٢٨ - رسائل عن مصر «Lettres sur L'Egypte» ص ٢٥١.

٢٩ - كل ما يرويه ساڤاري عن مغامرة علي بك قد نقله عن سوڤور لوزينان Sauveur Lusignan

A history of the revolt of Ali Bey against the Ottoman Porte together with a description of Grand Cairo and several celebrated places in Egypt, Palestine and Syria, London, 1783, 20 dition, 1784

٣٠ - ذات المرجع، المجلد الثالث رسائل عن ممفيس، وبيلوز والمتاهة والآلهة المصرية وعبادتهم وخرائط مفصلة للرحلات المزمع القيام بها لاستكمال المعلومات التي قد حصل عليها.. إلخ

٣١ - ذات المرجع، المجلد الثالث ص ٢٨٠ .

٣٢ - مذكرات لم تستكمل لوفاة ڤولنيه أوردها أد. بوسانج AD. Bossange في كتابه Notice sur lavie et les écrits de Volney «لمحة عن سيرة ڤولنيه وكتاباته «باريس ١٨٢١».

٣٣ - Causeries du Lundi أحاديث الإثنين الجزء التاسع ص ص ٣٩٣ وما يليها.

٣٤ - راجع A. Bossange ومقدمة الأعمال الكاملة لڤولنيه الناشر F.Didot ١٨٦٨ص ٢ .

٣٥ - التقت كاتبة «La Contemporaine en Egypte» لاكونتومبوران أونجيبت في الإسكندرية عام ١٨٢٨ بعالم فارسي متقدم في السن، عرف في شبابه ڤولنيه. طبعة ١٨٣١ المجلد الرابع ص ١٨٢

٣٦ - «أحاديث الإثنين» راجع ما سبق.

٣٧ - أود لفت نظر القارئ هنا إلى أن هذه الجملة الهامة قد وضعها ڤولنيه على صفحة عنوان كتابه وهي توضح بشكل جلي وجهة نظره.

٣٨ - مقدمة طبعة ١٧٨٧ ص ص ١٠ - ١١.

٣٩ - كان السبيل الوحيد أمامه إما أن يشكل قافلة بنفسه أو أن يلحق بقافلة على وشك الارتحال. والحل الثاني هو الذي تبناه جميع الرحالة الذين سبقت الإشارة إليهم.

٤٠ - ذات المرجع ص ص ٧ - ٨ تطلب تعلم اللغة العربية منه شجاعة كبيرة في وسط مجموعة رهبان اتسموا بالفظاظة والقذارة. لا أعرف أحدًا استطاع القيام بجهد مماثل سوى بلجراف Palgrave

٤١ - مقدمة طبعة ١٧٨٧ المجلد الأول ص ١٩٢.

٤٢ - هذا الجزء يستند إلى مراجع والأحكام فيه صائبة. ويعد ركيزة لمعارفنا عن مصر في نهاية القـرن الثـامـن عـشـر. فحـتى اكتشـافات لوكروا Lockroy في أرشـيف كيه دورسي quai d'Orsay لا تعلمنا الكثير عن مصر في عهد المماليك مثل فولنيه. راجع لوكروا، أحمد الجزار سورية ومصر في القرن الثامن عشر، باريس، ١٨٨٨ .

Lockroy, Ahmed le boucher, La Syrie et l'Egypte au XVIIIe si clé, Paris, 1888

تم تكليف فولنيه من قبل فيرجين Vergennes لمتابعة المشروع التفاؤلي لغزو مصر والذي قدمه توت Tott إلى الحكومة الفرنسية راجع جون جولنييه

Jean Gaulnier, L'Idéologue Volney, Beyrouth, 1951, p56

٤٣ - «رحلة إلى سورية ومصر» Voyage en Syrie et en Egypte الطبعة الثانية ١٧٨٧ المجلد الأول، ص ص ٢-٣.

٤٤ - رحلة إلى سورية ومصر، طبعة ١٧٨٧ المجلد الأول، ص ١٠.

٤٥ - أشار فولنيه إلى هذا الأمر في مقدمته. المرجع ذاته ص ٩

٤٦ - المرجع السابق المجلد الأول ص ١٨.

٤٧ - المرجع السابق المجلد الأول ص ١٩.

٤٨ - المرجع السابق المجلد الأول ص ص١٠٤ - ١٠٥.

٤٩ - المرجع السابق المجلد الأول ص ٣٠.

٥٠ - المرجع السابق المجلد الأول ص ٢٣٤.

٥١ - المرجع السابق فهرست المجلد الأول ص ١٥.

٥٢ - «رحلة إلى سورية ومصر» Voyage en Syrie et en Egypte المجلد الأول ص ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

٥٣ - المرجع السابق المجلد الأول ص ١٧٧.

٥٤ - المرجع السابق المجلد الأول ص ٢١٢ .

٥٥ - المرجع السابق المجلد الأول ص ٢٢٥.

٥٦ - المرجع السابق المجلد الأول ص ٢٢٧.

٥٧ - المرجع السابق المجلد الأول ٢٤٤.

٥٨ - دمياط

٥٩ - «رحلة إلى سورية ومصر» المجلد الأول ص ص ٢٥٧ - ٢٥٦.

٦٠ - طبقًا لتصميم القناة الفرعونية القديمة، المرجع السابق المجلد الأول، ص ١٩٢ وما يليها.

٦١ - برع المماليك في هذا النهج المخجل الذي كان من أكبر عيوب اليونانيين والتتار وهو ما تلقوه من دروس من سادتهم في السلاح. «رحلة إلى سورية ومصر» المجلد الأول ص ١٦٩ وذات الملحوظة نجدها في رحلات تيڤونو (١٦٦٤) وفرمانل (١٦٧٠) وسونيني (١٧٩٩) المجلد الأول ص ص ٢٧٧ - ٢٧٩ والكونت دي فوربان (١٨١٩) ص ٢٩١. ونذكر هنا بوجوب إقران ذلك بالملابسات التي أحاطت بظروف وفاة عباس باشا الغامضة عام ١٨٥٤ .

٦٢ - «رحلة إلى سورية ومصر» المجلد الأول ص ٢٣٥.

٦٣ - المرجع نفسه، المجلد الأول، ص ص ٧ - ٨.

٦٤ - ليس صحيحًا أن المكتبة القومية تمتلك نسخة من كتاب ڤولنيه تحمل ملاحظات بخط نابليون. ولكن من خلال أ. فيرمان ديدو A Finnin Didot «ملاحظات حول رحلة إلى الشرق» «Notes d'un voyage fait dans le Levant» عامي ١٨١٦ - ١٨١٧ أن نابليون قد اصطحب معه الكتاب إلى سانت هيلانة وأنه قد كتب بعض الملاحظات على صورة في الكتاب تمثل الأهرامات.

٦٥ - يجب اللجوء أيضًا إلى ألبومات الصور التي نشرها الرسام لويس فرنسوا كاساس L.F.Cassas عام ١٧٩٨- ١٧٩٩مع مقدمات بقلم ڤولنيه.

كان كاساس تحت رعاية وحماية الدوق شوازيل جوفييه Choiseul - Gouffier سفير فرنسا في القسطنطينية. وقد قام بناء على رغبة راعيه وبتغطية كاملة للنفقات برحلة مدتها أربعة عشر شهرًا إلى سوريا وفلسطين ومصر. من خلال عدة مغامرات تخللتها أخطار عدة، نجح

في تجميع العديد من الصور ومنها مناظر لبعلبك والبتراء أحبها قراء ڤولنيه. ورغم أنه لم يبق في مصر سوى شهرين (أكتوبر - ديسمبر ١٧٨٥) فقد عاد منها بأكثر من رسم جميل يمثل أطلال الإسكندرية والمساجد الكبرى وأسوار القاهرة والأهرامات.

كان يميل إلى المجموعات المعمارية ويتناولها بشكل زخرفي. لدى عودته إلى فرنسا، عرض في معرض خاص (شارع السين) أربعة وسبعين نموذجًا من الفلين أو الطين المحروق للمعالم التي زارها. من بين هذه المجسمات كانت هناك ثمانية خصصها للهندسة المعمارية عند قدماء المصريين وتمثل المعابد بالمسلات والأعمدة ذات التيجان على شكل زهرة اللوتس. وللأسف الشديد فإن نشر كتابه الكبير في صورة مستلات فاخرة الطبع لم يتم. فالاكتتاب الذي أعلن عنه في العشرين من مايو ١٧٩٨ لم تتم تغطيته. ومن هنا فلم يظهر إلى الوجود سوى الألبومين الأول والثاني. ولكن مكتبة الترسانة تمتلك نحو أربعين لوحة ملونة تم إنجازها في ورش الإخوان بيرانيزي Piranesi للنقل عام ١٨١٠ تمثل مناظر طبيعية من الشرق منها مناظر لعمود بومبيي ومسجد المنصورة وأطلال مسجد الإسكندرية الكبير وقصر وقلعة القاهرة منظورًا إليهما من جزيرة الروضة.

(راجع بشأن كاساس Cassas، هـ. بوشيه H. Boucher مجلة Gazette des Beaux-Arts الفنون الجميلة ١٩٢٦، الجزء الثاني ص ص ٢٦ - ٢١٠.

كثير من صور ألبوم كاساس Cassas تمثل مصطبه كبيرة في هضبة الجيزة التي كان يسكنها أنذاك وليّ، ويعطي رسمًا تخطيطيًا لها. وكان الدكتور أوليڤييه Dr. Olivier قد سبق له زيارة هذه المصطبة «رحلة إلى الإمبراطورية العثمانية ومصر وبلاد فارس ١٨٠١ - ١٨٠٤.
Voyage dans l'empire ottoman ,L'Egypte et la Perse 1801 - 1804

المجلد الثاني، الفصل السابع. بعض رسائل كاساس Cassa غير المنشورة والتي كانت مرسلة إلى راعية شوازيل جوفييه Choiseul - Gouffier محفوظة في المكتبة القومية M.S. français 7558

٦٦ - مات إسماعيل بك الكبير بالطاعون عام ١٧٩١ .

٦٧ - Voyage par L'Italie en Egypte, au mont Liban et en Palestine ou Terre Sainte

«رحلة عن طريق إيطاليا إلي مصر وجبل لبنان وفلسطين أو الأرض المقدسة» باريس ١٧٨٧، المجلد الثاني، خطاب رقم ٢٠.

٦٨ – مجلة La Revue Bleue «لاروڤو بلو» عدد ١٨ مايو ١٩٣٠.

٦٩ – مذكرات السيد دي توت M. de Tott ذلك المغامر المجري الذي عمل في خدمة فرنسا لم يتم الاطلاع عليها في هذه الدراسة لأن مصر لا تشغل فيها سوى حيز ضئيل ص ص ١١٣ – ١٧٦. والصفحات التي تخصها تتناول الأحداث الجارية والفوضى السائدة في عشر منها. أما الباقي فهو ملخص لكتاب هذه الفترة عن تاريخها وآثارها ووضعها بشكل عام.

٧٠ – جالك سبون Spon طبيب وتاجر آثار من مدينة ليون (١٦٤٧ – ١٦٨٥) سافر إلى إيطاليا واليونان والشرق وعاد إلى فرنسا محملاً بكنوز علمية عام ١٦٧٦ واضطر بعد إلغاء وثيقة نانت إلى مغادرة البلاد إلى سويسرا حيث مات بائسًا في مستشفى ڤيڤيه Vevey .

٧١ – نشرة الجمعية الأثرية بالإسكندرية ١٩٠٩ رقم ١١ ص ص ٢٥٧ – ٢٦١.

٧٢ – كان الدوق دي شولن de Chaulnes قد اختفى مع قرينته Marie d'Albert de luynes غداة زواجهما. وسافرا إلى مصر حيث بقي بعض الوقت عام ١٧٧٥ أي قبل مجيء دانتراج إليها بعاملين. عرف في عصره بأبحاثه عن ثاني أوكسيد الكربون والقلويات. وكان عضوًا في الجمعية الملكية بلندن.

٧٣ – ندين لسونيني Sonnini بالطبعة الحديثة لكتاب بوفون في التاريخ الطبيعي الذي نشر في ١٢٧ مجلدًا ظهرت المجموعة الأخيرة منها عام ١٨٠٨ ألحق بها هذا المجمع النشط ما يقرب من ثمانين مجلدًا من الحواشي والملاحق المتعلقة بالطيور والأسماك والحشرات وخاصة بالنباتات التي يجد بوفون Buffon الوقت الكافي للاهتمام بها.

٧٤ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر ١٧٧٩، المجلد الأول ص ٤.

Voyage dans La Haute et Basse Egypte 1799, vol .1, p4

٧٥ – المرجع السابق المجلد الثالث ص ص ٢ – ٣

٧٦ – المرجع السابق المجلد الثاني ص ص ١٨٨ – ١٩٠ – ١٩٥ – ١٩٩.

المجلد الثالث ص ص ١٣٦ – ١٣٧ – ٢٤٤ – ٢٤٩.

٧٧ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر» المجلد الثاني، الفصل الثالث والعشرون ص ص ٣٢ – ٤٣.

٧٨ – راجع وصفه الموجز للأهرامات الذي ألحق به وصفًا مطولاً ومناقشة حول الأسماك المجلد الثاني ص ٣٩٠.

٧٩ – المرجع السابق، المجلد الأول ص ١٣.

٨٠ – المرجع السابق، ١٧٩٩ المجلد الثالث ص ص ٢٧١ – ٢٧٣.

٨١ – المرجع السابق، المجلد الثاني ص ص ٣٩٠ – ٣٩١ يحيل سونيني Sonnini هنا القارئ إلى دي ماييه Du Maillet ويرفض النقل عنه مثل سافاري Savary .

٨٢ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر» ١٧٩٩، المجلد الثالث ص ٤٨.

٨٣ – المرجع السابق، المجلد الثالث ص ٢٦٨.

٨٤ – المرجع السابق، المجلد الثالث ص ٢٦٩ Discours sur l'Histoire Universelle الجزء الثالث.

٨٥ – المرجع السابق، المجلد الثالث ص ٢٧٤.

٨٦ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر» المجلد الثاني ص ص ١٨٦ – ١٨٩– ١٩٠– ١٩٢– ١٩٥.

عام ١٧٩٩ سوف يقدم الجنرال أندريوسي Andreossy وصفًا مزريًا لحياة رهبان وادي النطرون ولكنه لن يكون قاسيًا بنفس القدر. وفي وصفه شيء من الشفقة فأغلب هؤلاء الرهبان من العور أو المكفوفين. ويكتنفهم الحزن والقلق وهم لا يهتمون بثقافة العقل ولا بتعلم مهنة يدوية.

راجع «وصف مصر» الدولة الحديثة.

٨٧ – راجع ما سبق لنا ذكره ص ٥٣: الدير الذي سبق وشكا منه الرحالة الإنجليزي بروس Bruce، المجلد الثالث ص ص ١٣١– ١٣٥.

٨٨ – المرجع السابق، المجلد الثاني ص ٢٧٥.

٨٩ – المرجع السابق، ص ٣٦٧.

٩٠ – استنادًا إلى ما ساقه بوكوك Pococke «رحلة إلى الشرق» المجلد الأول ص ٩٤ .

٩١ - «رحلة إلى شمال وجنوب مصر» المجلد الثاني ص ٣٦٩.

٩٢ - المرجع السابق، المجلد الثاني ص ٣٦٨.

٩٣ - المرجع السابق «الحاشية نفسها»، وردت بقلم فوربان Forbin «رحلة إلى الشرق» ص ٢٩١.

٩٤ - ذات المرجع، المجلد الأول ص ص ٢٧٧ - ٢٧٩. موقف مشابه يصفه الكاتب المعاصر فينبر E.I.Finbert في روايته «نوتي النيل» ١٩٢٨ ص ص ٣٢ - ٣٤.

٩٥ - نقل أحد الأتراك إلى زوجته عظة إمام المسجد الذي يرتاده بشأن قدسية الواجبات الزوجية. فقد عظمّ ثواب الزوج عنها قائلاً إنها في أول الليل تعدل التضحية بخروف. وفي منتصفه تعدل التضحية بجمل. فإذا أتبع المرتين بثالثة عند شروق الشمس، حظي بثواب من يعتق عبدًا. لحرص الزوجة على نيل زوجها أعظم الثواب، دعته أول الليل قائلة: فلنضحي بخروف. ثم عاودت إيقاظه في منتصف الليل قائلة: لنضحي بجمل. وما أن بزغ النهار حتى نبهته إلى وقت عتق العبد. فالتفت إليها قائلاً: إليك عني أحس أني أنا عبدك.

«رحلة إلى شمال وجنوب مصر»، المجلد الأول ص ٢٧٥.

٩٦ - المرجع السابق، المجلد الثاني ص ٣٤٧.

٩٧ - المرجع السابق، المجلد الثالث ص.ص ٧ - ٨

٩٨ - راجع اللوحة الثالثة والعشرين من الألبوم.

٩٩ - عثمان البرديسي وإبراهيم باشا كانا يأتيان ذات الأفعال في فترة لاحقة.

١٠٠ - «رحلة إلى شمال وجنوب مصر» المجلد الثاني ص ص ٣٢٤ - ٣٢٦.

١٠١ - «رحلة في الإمبراطورية العثمانية ومصر وفارس إلخ»

الفصل التاسع.

Voyage dans L'Empire ottoman, L'Egypte et La Perse ..., etc Paris, 1801 et 1804, vol. II, chap. IX

١٠٢ - ذات المرجع، الفصل العاشر.

١٠٣ – بحث عن مصر بقلم ش. مجالون Magallon ٩ فبراير ١٧٩٨ منشور بمجلة مصر – السنة الثالثة – الجزء الثالث – سبتمبر ١٨٩٦ ص ص ٢٠٤ – ٢٢٤.

١٠٤ – «رحلة في الإمبراطورية العثمانية ومصر وبلاد فارس» المجلد الثاني ص ١٠١.

١٠٥ – «رحلة في الإمبراطورية العثمانية ومصر وبلاد فارس»

Voyage dans L'Empire ottoman, L'Egypte et la Perse

المقدمة، المجلد الأول

١٠٦ – المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٦٧

****

الفصل الثاني

ڤيڤان دونان وحملة بونابرت

لسنا هنا بصدد إعادة تأريخ للحملة الفرنسية على مصر خاصة وأن القائد ديلا جونكيار De La Jonquiere قد قام بذلك وباقتدار في كتابه. ما يهمنا هنا هو الملمح الثقافي للحملة. لذا نركز على جهود العلماء الذين صاحبوا بونابرت.

كان نابليون الحريص دومًا على إعلاء شأن العلم قد انتخب عضوًا بالمعهد القومي لفرع العلوم الطبيعية والرياضيات. ومن ثم فقد أصر على انضمام نخبة من الباحثين والفنانين والدارسين إلى مشروعه الضخم ليعهد إليهم بالأعمال والمشاريع التي من شأنها إعادة بعث مصر وإبراز قيمتها. وكلف نابليون برتوليه Berthollet أستاذه في علم الكيمياء قبل حملته على إيطاليا بانتقاء هذه العناصر المتميزة بمسابقات في المدرسة العليا للهندسة ومتحف العلوم الطبيعية و«كوليج دي فرانس» وأقسام المعهد. كانت حاجته تحديدًا إلى مهندسين وذلك لأنه في قرارة نفسه كان ينتوي حفر قناة السويس وفتح الطريق إلى الهند.[١] ولكن نظرًا لوجوب تجنب إثارة شكوك كل من إنجلترا وتركيا فضل برتوليه Berthollet عدم الحديث عن هذا المشروع إلا بعبارات فضفاضة مبهمة. وقد علق الجيولوجي دولوميو Dolomieu على ذلك قائلاً: «لم يكن بمقدوره الإفصاح عن وجهتنا فقد كان ذلك سرًا كبيرًا. سألته إذا كان في هذا البلد الذي يقصده جبال وأحجار فأجابني قائلاً: الكثير منها. ورددت ضاحكًا: في هذه الحالة سأصحبكم.

أما مونج Monge الذي سبق وصحب بونابرت إلى إيطاليا فقد بقي وفيًا له. كثيرون غيرهما استجابوا لمقترحات وعروض برتوليه[٢] Berthollet بثقة راسخة في أقدار القائد الأعلى وجرأة مغامرة تندر عادةً عند رجال المختبرات والعيادات. ما الذي كانوا يعرفونه عن هذه الغاية الكبرى والغامضة في آن واحد؟ لا شيء تقريبًا أكثر من أنهم

سيبحرون من «تولون» Toulon وأن نابليون سيسهر على راحتهم. كتب أراجو Arago لاحقًا أن عالم الرياضيات فورييه Fourier الذي كلف بكتابة المقدمة الرئيسية لكتاب «وصف مصر» - قد ترك وظيفة «أستاذ» بالمدرسة العليا للهندسة التي يتوق ويتطلع إليها الجميع، ليذهب إلى ... لم يكن يعرف إلى أين .. ليعمل.. لم يكن يعرف ماذا؟(٣)

إن لم يكن معظم أعضاء لجنة العلوم والآداب هذه من الشبان، فقد كانوا على الأقل أناسًا يملؤهم الشباب. وقد تم إخطارهم بأن هناك مخاطرَ في انتظارهم ومتاعب عليهم تحملها. كانوا يعلمون مسبقًا أنهم بصدد معركة بحرية قد تنتهي بهم إلى السفن الإنجليزية. وأنهم قد يقطعون مسافات طويلة ومرهقة تحت الشمس الحارقة. وقد يتعرضون لأنواع من حميات الشرق ولتقلبات الحروب.

كان بونابرت قد استطاع تجنيد أكثر من مائة منهم. وبدأ الهدف من الحملة في الذيوع حين تلقى طلبًا من رجل في الخمسينيات من العمر لم يكن قد فكر فيه. كان يتقن الرسم والحفر وله باع في الآداب. وقد أطلق عليه الكونت دي مارسيلوس Comte de Marcellus وعن حق «جوانفيل حملة مصر» Joinville de L'expédition de Egypte ذلك هو «ڤيڤان دونان» Vivant Denon كان ذا شخصية محببة أفرد له أناتول فرانس واحدة من أفضل دراساته في كتابه «الحياة الأدبية» La Vie Littéraire وضح فيها وفي عدة مواضع تأثره وتعاطفه الفكري معه. اشتهر عن ڤيڤان دونان أنه رجل سعيد، ميسور الحال ومستحق لما هو فيه من نعم. كان في عهد لويس الخامس عشر أحد نبلاء غرفة الملك وعمل ملحقًا دبلوماسيًا في عهد لويس السادس عشر. أما خلال حكم نابليون، فقد شغل منصب مدير الفنون الجميلة وحمل لقب بارون الإمبراطورية. ولد عام ١٧٤٧ في چيفرى Givry بالقرب من شالون - سير - صون Chalon-sur-Saone لأسرة تنتمي إلى صغار نبلاء بورجينيون Bourguignon

جاء إلى باريس في مقتبل عمره، وبفضل موهبته في الرسم ونشاطه ورجاحة عقله ودماثة خلقه، نجح فيها في مجالي الآداب والفنون وكذلك في كافة أمور حياته الظاهر منها والخفي.

كان جميل الطلعة، غزير الشعر، له عينان سوداوان مع أنف أحدب بعض الشيء، ميزه نهمه لكل جديد. رأى فيه أناتول فرانس Anatole France «إحدى شخصيات لوحات واتوه Watteau بهذا الوجه الجميل والنظرة الأخاذة، كيف لا تعجب به النساء وخاصة الفنانات اللاتي كتب لهن مسرحية «جولي أو الأب الطيب». Julie ou le bon pére سنحت له فرصة الانضمام إلى الحاشية وأصبح الحاكي المقرب لـ (لويس الخامس عشر) ونحات مدام بومبادور التي من أجلها كتب خصيصًا وبأسلوب يموج بالحياة فاق ما كتب به شهرزاد، قصة جريئة أسماها «لن يكون هناك يوم آخر» Point de lendemain بعد وفاة المركيزة، تم تعيينه سكرتيرًا لسفارة فرنسا في سان بطرسبورج ثم في ستوكهلم ونابولي. وقد انتخب عام ١٧٨٧ عضوًا بأكاديمية الفنون الجميلة باعتباره فنانًا متعدد المواهب.

وأكثر أعمال هذا الفنان كمالاً هي حياته ذاتها. فهي قصة نجاح رائعة فقد نال رضاء مدام بومبادور ولويس الخامس عشر وعاش بالقرب من كبار السادة والنبلاء وتعامل مع الفلاسفة مثل فريدريك Frederie الذي رآه في بوتسدام Potsdam وڤولتير Voltaire الذي توطدت صلته به في فرنيه Ferney وتألق في ڤرساي وبلاط كاترين الثانية. سلسلة من دلائل سعادة دونان Denon في حياته يضاف إليها زيارته لألمانيا وإيطاليا وسويسرا وأسبانيا بفضول الرسام واقترابه بدون سوء عاقبة من حكومة الطغاة وقبوله روبسبيير Robespierre ويمكننا أن نسوق المزيد من الأحداث السعيدة في حياة دونان Denon كتقديم جوزفين إياه إلى بونابرت واشتراكه رغم سنه في الحملة على مصر كجندي وكفنان مما أتاح له العديد من الصولات والجولات في أرض العجائب التي كانت أبوابها لفترة طويلة موصدة أمام أوروبا. إلى جانب نقله وحده كل معالم الصعيد رغم المخاطر العديدة التي كان يمكنه التعرض لها هناك. كل ذلك بالإضافة إلى وثوق نابليون فيه ثقة مطلقة حتى في الأمور البعيدة كل البعد عن الفن واصطحابه إياه في حملاته على ألمانيا وأسبانيا مما أتاح لهذا الأخير فرصة اكتشاف ثروات الفن لصالح

فرنسا وكل الشعوب المتحضرة. وقد أسهم كل ذلك بالإضافة إلى اشتراكه في عدة معارك ومواقع وخروجه منها بدون أقل خدش في استمرار إحساسه بالسعادة من لحظة ميلاده إلى لحظة وفاته.

تلك كانت بإيجاز شديد أقدار ڤيڤان دونان Vivant Denon.(٤)

إذا صدقنا أناتول فرانس Anatole France القول فقد التقى عام ١٧٩٧ في حفل مقام لدى تاليران Talleyrand بجنرال شاب طلب منه كأسًا من البرتقال، وتجاذب الحديث معه وهكذا توطدت صلته ببونابرت. والحقيقة ليست حالمة ورومانسية إلى هذه الدرجة. كان ڤيڤان دونان يرتاد صالون جوزفين دي بوهارينيه Jos phine de Beauharnais وقد عرف لدى هذه الجميلة القائد الأعلى ولم يفرض نفسه عليه باعتباره شخصًا لا غنى عنه. ومن هنا اضطر إلى اللجوء لوساطة الشاعر أرنو A .V. Arnaut زميله وعضو الأكاديمية الفرنسية ليتمكن من الانضمام إلى المجموعة الذاهبة إلى مصر. وما حدث في هذا الأمر، نقله أرنو نفسه في كتابه: «ذكريات رجل في الستين» Souvenirs d'un Sexagénaire «كنت على علاقة حميمة بسيدة تربطها صلة وطيدة بزوجة بونابرت. وكثيرًا ما كنت أرافقها في زياراتها إلى شارع «لاڤيكتوار». كنت ضيفًا محتفى به من قبل الزوجة. ولكن هذا لا يعني بالتبعية أن يجعل لي ذلك مكانة متميزة لدى الزوج.

كان واضحًا أن الجنرال لا يستسيغ وجود السيدة في بيته وبالتالي امتدت الكراهية إلى الفارس المصاحب لها. وعبثًا حاول هذا الأخير أن يكسر حاجز البرود الذي يلقاه به الجنرال. ولكن، لا الحديث الشائق لهذا الجليس الذي كان يعرف كل طُرَف البلاط منذ فترة حكم لويس الخامس عشر وحتى باراس Barras، ولا الحكايات المثيرة لهذا الرحالة الذي قطع أوروبا من أطراف روسيا وحتى حدود إيطاليا، ولا حوار هذا الهاوي الذي درس فنون إيطاليا القديمة والحديثة ومارسها، كانت بقادرة على اجتذاب اهتمام بونابرت لدونان. ولم يكن هذا الأخير بقادر على فرض نفسه. من هنا كانت دهشتي عندما انتحت بي جوزفين جانبًا قائلة:

مسكين دونان يتحرق شوقًا للسفر معكم إلى مصر. عليك بتدبر الأمر مع الجنرال.

أنا يا سيدتي ولم لا تكونين أنت؟

إذا ما تدخلت فلن يقضى الأمر. اقترح الفكرة كما لو كانت من وحيك، فأنت بوسعك اتخاذ هذه الخطوة فالجنرال يثق بك وسيقبل دونان Denon إذا طُرح اسمه من جانبك. بادر بالأمر وسوف أكون ممتنة لك.

تعجب الجنرال الذي لم يكن يعرف مدى تغلغل حب المغامرة في طباع دونان أن يفكر من هو في مثل عمره في التطوع في حملة متعبة وعلى مسافة كبيرة. غير أنني عندما أعلمته بقدر دونان ومدى مكسبه من ضمه إلى مجموعة الحملة قال: «ليذهب لمقابلة الجنرال دوفالجا Dufalga وبذلك قضي الأمر»(٥).

كان دونان في هذه الفترة قد جاوز بلا شك الخمسين من عمره. غير أن عمر الإنسان هو ما يرغب هو ذاته في أن يبدو عليه. وعلينا لنتبين ما كان عليه شكله في هذه الفترة، أن نرى رسم برودون Prudhon له. فقد رسمه بوجه دقيق الملامح أقرب إلى وجه ڤولتير Voltaire مع شيء من اللين في القسمات وشعر متناثر يتوج رأسه، تعلو شفتيه ابتسامة تشي بهيبة محببة وتذكر بابتسامات لوحات ديلاتور De Latour كان لدى ركوبه البحر من تولون Toulon في الرابع عشر من مايو ١٧٩٨ كله أمل وشجاعة وإقدام وتصميم. صعد على متن الفرقاطة «لا جونان» Le Junon التي كانت في طليعة الأسطول.

ما إن وطئت قدماه أرض مصر، أمام الإسكندرية، حتى بدأت بالنسبة له حياة جديدة وبالنسبة للجميع وجه وملمح جديد. كان يتقدم الصفوف على ظهر جواده، حقيبته مدلاة من كتفه ومنظاره معها، أقلامه في يده يحاول أن يسبق الجميع ليسنح له الوقت ويتسنى له الرسم إلى أن يلحقه الجمع. كان يرسم رسومات أولية تحت لظى نيران العدو بأعصاب هادئة كما لو كان جالسًا في سكينة إلى طاولته في غرفة مكتبه(٦).

وأي رسومات! تلقائية، خفيفة، قاطعة، موحية أكثر من لوحات أخرى عديدة. لا مجال لمقارنتها بلوحات كتاب «وصف مصر» المتقنة والمليئة بالتفاصيل. وخطوطه هذه، تشي بعدم

الاكتـراث والالتـزام بالتكوينات الأثرية. ليست في أعمـاله قـواعـد من المعـمـول بـهـا، أو استـعـراض لإمكانيـات شـخـصـيـة وإنما اهـتمـام عـابر بإبراز بعض العناصـر أو التكوين التنسـيقي للمنظر الطبيـعي. عند عـودته من رحلته إلى صـعـيد مـصـر، ألقى بأوراقـه على طـاولة المعـهـد قائـلاً لزملائه المندهشين: «هذه الرسـومات أنجزتهـا في عجـالة على ركبتي أو فـوق ظهـر الجـواد. لم أستطع إكمـال أي منهـا كمـا أريد لأنني طوال عـام كـامل لم أجد أمامي ولـو لمرة واحدة طاولة مستوية أعمل عليها».[٧] وعلينا ألا نغفل عن حقيقة أن دونان لم يكن رسـامًا فقط وإنما كـان كاتبًا أيضـًا. لم يكتف بالشـروح والتـفـاسـير المصـاحبة لكل واحدة من لوحاته. وإنما نشـر بنفسـه وصـفًا مفصـلاً لجولاته ومغامراته في كتاب أسـماه: «رحلة إلى شمالي مصر وجنوبيها أثناء حملة الجنرال بونابرت».

Voyage dans la Basse et la Haute - Egypte pendant les campagnes du general Bonaparte

وقد ألحق به أطلسًا رائعًا من الرسـومـات التـوضـيـحـية عام ١٨٠٢ . وهـو مـرجـع ثمين لمن يبـحـث مثلنا عن تـحـديد لمراحل تقدم المعـارف والمعلومـات عن مصـر والتفـاسـيـر المنطقيـة لهـا. فـرحلة دونان Denon متـزامنة مع رحلة العلمـاء المصـاحبين لبونابرت في حـملتـه وقد استطاعت قبل كتاب «وصـف مـصـر» إعطاء صـورة عن مصـر في نـهـاية القرن الثامن عشر. لم يقم دونـان في مـصـر سـوى ثلاثة عـشـر شـهـرًا ولكنه كمـا قـال هنري جـوتييـه Henri Gautier في الدراسـة التي خـصـصـهـا له[٨]: «نجح رغم قـصـر المدة وبفـضـل نشـاطه الواضـح في وصـف البلد بشكل رائـع وكامل. ونظرًا لأن عودته إلى فرنسـا كانت سـابقة على عودتهم فقد استطاع ضمان الأسبقية لكتابه. فكتـاب «وصف مصر» لم يظهر المجلد الأول منه إلا عام ١٨٠٩ بينما ظهر الأخير عام ١٨٢٦.[٩] وقد فاقت رحلة دونان كل ما سبقها من أعمال منشورة سواء فرنسية أو أجنبية. مع مؤلف دونان، تخطو معارفنا عن مـصـر خطوة فـاصـلة. فـصـوره تفـوق في جـودتهـا كل الرسـومـات التـوضـيـحـيـة لـ «بوكوك Pococke» و«نوردن Norden» التي طالما تمت الإشـادة بـهـا في نهـاية القـرن الثـامن عشـر. واللوحـة

التي يقدمها عن مصر أكثر تكاملاً من تلك التي قدمها ڤولنيه Volney وأكثر حيادية وموضوعية مما رسمه بقلمه ساڤاري Savary فهو يجمع إلى جدية الأول سحر وجاذبية الثاني وله بكل المقاييس السبق. وهو مدرك تمامًا لذلك. وربما كان هذا الإحساس تحديدًا دافعه إلى نشر يومياته. والسبب الذي ساقه لذلك هو طبقًا لقوله كما يلي:

«حين غادرت الإسكندرية، كان أعضاء المعهد ما زالوا بالقاهرة. لدى وصولي إلى فرنسا، لم أكن أعرف إذا ما كانوا قد قاموا بالرحلة التي أمرهم بها بونابرت قبل سفره أم لا. كان من الممكن أن تكون ظروف الحرب قد حالت دون سفرهم أو دون إيصالهم لنتائج قيمة إلى فرنسا: من هنا كنت الوحيد المتاح أمامه فرصة الكتابة عن هذا البلد، والذي بحوزته كل هذا العدد من الرسومات التي لا أعطي بها فقط فكرة عن البلد ولكن في أغلب الأحيان عن أحوال وأحداث أهم حملات هذه الحرب: لم أكن إذًا بقادر على الحؤول دون ظلم أبناء جلدتي بحجب ثمرة أبحاثي وأعمالي. وعقدت العزم على نشرها». (١٠)

لهذه الأسباب، قرر ڤيڤان دونان Vivant Denon أن يسبق زملاءه في لجنة الفنون والعلوم بجيش الشرق وينشر حصيلة ما اكتسبه من تجارب لاعبًا بضمير مستريح درر الرائد. كان مقارنة بأي من هؤلاء الزملاء يتميز بكونه كاتبًا وفنانًا في أن واحد، أما هم فكانوا إما مهندسين أو فيزيائيين أو كيميائيين أو طبوغرافيين أو متخصصين في الرياضيات وعلم الحيوان. وقد أدركنا الحكمة من هذه التخصصات. وعلينا أن نقر أنه في مواجهة علماء مثل مونج Monge ودولوميوه Dolomieu وبرتوليه Berthollet وچيوفروا سانت إيلار Geoffroy Saint - Hilaire وفورييه Fourier ومالوس Malus. كان أدباء وفنانو اللجنة ذوي مكانة محدودة.(١١) قد يكن من السهل الاعتراف بوجود شيء من الموهبة لرسامين مثل دوترتر Dutertre ورودوتيه لوچون Redout le Jeune. ولكن من المستحيل الاقتناع بأن كاتبًا مثل لوروج Lerouge أو شاعرًا مثل برسوڤال جرانميزون Parseval Grandmaison الذي كتب ملحمة رديئة عن فيليب أغسطس Philippe Auguste لديهما أي موهبة. ورغم أن الأكاديمية قد قبلته عضوًا بها

إلا أن أبياته السطحية المقفاة التي نشرها في السنة الثامنة في «العقد المصري» La Decade Egyptienne ليست بالتي يمكن أن تخلده.

وڤيڤان دونان Vivant Denon الرسام والأثري لم يكن بمنأى عن النقد. لا شك أن رسوماته لم تتمتع بالدقة المرجعية التي يطالب بها علماء المصريات؛ اضطر دونان دومًا للعمل في عجالة بين طلقتي رصاص. ومن هنا فلم يتسنَّ له التدقيق ونقل المعالم والتفاصيل المميزة لكل قطعة أثرية. لا مجال إذًا للمقارنة بين رسوماته والدقة الموضوعية التي اتسمت بها اللوحات التوضيحية التي تضمنها كتاب «وصف مصر» والتي تم إنجازها ارتكازًا على خطوط چولواه Jollois وڤيلييه Villiers ولجنة فورييه Fourier ولجنة كوستاز Costaz. وعلينا ألا نطلب من دونان Denon إلا ما يستطيع تقديمه. رسوماته تتسم بالبساطة والموهبة والرقة وقدرتها على الإيحاء واستثارة الخيال وهو ما لا نجده غالبًا في الخرائط والتصاميم والمقاطع. وإذا لم يكن بها الكثير لعلم المصريات اليوم فيكفي النظر إلى الأطلس الذي كان بالنسبة لعصره سابقة أثارت فضول الكثيرين.(١٢) وأذكر هنا أنه تضمن الكثير عن مصر القبطية والإسلامية والحديثة إلى جانب مصر الفرعونية. فيه رؤية شاملة كاملة يبسطها أمامنا لكل ما عرض لعينيه: أديرة ضفاف النيل، الرمال النوبية، قبور الخلفاء والمماليك، المساجد، مشاهد الحياة اليومية في شوارع القاهرة، طقوس الدفن، الحفلات والاجتماعات وولائم الشيوخ، المعارك والدواوين العسكرية، المجلات، اللوحات الريفية والرعوية بفلاحيها وجمالها، القوارب الشراعية وهي تمخر عباب النيل، أنواع من الدمى العارية(١٣) وعوالم في كامل زينتهن، وجوه لمماليك في ملابس عسكرية أو بزات رسمية، بذلات وتسريحات، حيوانات الصحراء ورسومات أولية لرؤوس رهبان يونانيين وقساوسة أقباط وتجار يهود...إلخ.

ويعد هذا الأطلس أوسع مجموعة أيقونات وأجمل مجموعات صور عن مصر عرفتها أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر.

هل كان العلم على مستوى الفن؟ هل توازت المعارف الأثرية والتاريخية مع موهبة الرسام؟ لا يجب علينا الحكم عليه من خلال نص كتابي فقط. واقع الأمر أن دونان Denon

قد اتخذ احتياطاته في هذا الصدد. وقد أدلى باعتراف في نهاية كتابه علينا أن نأخذه في الحسبان. «اعتقدت في بداية الأمر أن عليّ إضافة بعض الآراء النقدية في الآثار وأن أرفق بالوصف مناقشات من سبقوني من الرحالة.

استشرت بعضًا من ذوي الخبرة لإضافة نبذات علمية لصور الأشياء غير المألوفة للقارئ، ولكنني عدلت عن ذلك فور سماعي أن معهد القاهرة قد قام برحلة إلى هناك تمت في أمن وسلام. لم يحجم نشاط وحماس أفراد هذه الرحلة أي شيء ولم يحد من منافستهم لبعضهم البعض إلا النظام الذي فرضه عليهم قائد الفرقة. علمت أنهم قد عادوا بجنيهم وأن الحكومة إلى جانب حمايتها للرحلة، قد غطت بسخاء عملية إصدار مجموعة الصور الثمينة التي أتوا بها. هنا أدركت أن لا جدوى من المضي في خطة غيري أقدر على تنفيذها».(١٤) وتعليقنا أنه لا يمكن أن يكون الإنسان أكثر صراحة وصدقًا.

شرع دونان Denon في نشر وقائع رحلته في وقت كان نجاح الأبحاث التي يقوم بها «معهد مصر» غير واضح المعالم بعد. ولكنه ما إن نما إلى علمه أن مهام زملائه مثمرة وكللت بالنجاح فقد أبى الوقوف أمامهم حجر عثرة وقلص دراسته إلى مجرد يوميات أو وقائع رحلة ينشرها انتظارًا للنشر الرسمي لجهود الحملة، وإذا كان قد خفف من الملاحظات النظرية فذلك حتى لا يستبق ما سوف ينشره زملاؤه مفسحًا بذلك المجال لكلمة العلماء النابهين. قال في هذا الصدد:

«جردت يومياتي من الجهود البحثية التي كنت قد قمت بها واستعدت مهامي كجندي كشاف، ووظيفتي كطلائعي محتفظًا لنفسي بمكانة من وضع بعض الإشارات على الطريق لتحذير القادمين بعدي، علهم يفيدون على الأقل من عثراتي في إنجاز عملهم الرائع»(١٥).

لا أنوي هنا كتابة تحليل منهجي لرحلة ڤيڤان دونان Vivant Denon بل الاكتفاء باقتفاء أثر هذا الجندي الكشاف وإبراز ما يكتشفه من جديد، كان انطباعه الأول عن الإسكندرية في غير صالحها وهو يعيد إلى الأذهان تقييم ڤولنيه Volney القاسي لها. فعمود بومبي في نظره لا يرقى إلى مستوى ما يقال عنه. ورغم ذلك فقد رسم في كنيسة

القديس أثاناز Saint - Athanase التي تحولت إلى مسجد، تابوتا جميلاً سبق وأشار إليه الراهب بينو Binos وسونيني Sonnini. وقد نقل هذا التابوت إلى المتحف البريطاني بعد استسلام الجنرال مينو Menou عام ١٨٠١(١٦) وفي حين صاحب الجيش نابليون إلى جنوبي الوادي، بقي دونان في منطقة الدلتا مع مينو الذي كان مكلفًا بتهدئة الأوضاع هناك. وقد شهد من الشاطئ كارثة أبي قير البحرية وشارك في حملات الشرطة ضد القرى المتمردة. وقد منحه ذلك فرصة رسم مناظر ريفية ونماذج من البشر العاديين.

لم تسفر الجولة الإدارية والعسكرية في منطقة الدلتا عن نتائج مرضية لا للجنود ولا للعلماء. وقد اكتشف دونان بعض أنقاض «كانوب» Canope وسايس Sais التي سيعكف شامبليون على دراستها بعد هذا التاريخ بثلاثين سنة. غير أن مينو Menou قد أرجأ كل العمليات(١٧) بعد وفاة زميله الرسام چولي Joly الذي قتل في إحدى المهام.

كان بونابرت خلال تلك الفترة قد هزم مراد بك ومماليكه عند الأهرامات ودخل القاهرة وأسس فيها في العشرين من أغسطس ١٧٩٨ «معهد مصر». في هذا المعهد، وجدت صفوة لجنة العلوم والفنون مكانها. وكان لزامًا على دونان Denon الذي عين بها عضوًا تسلم عمله. وصل إلى القاهرة في الثاني والعشرين من شهر سبتمبر، في توقيت يسمح له بحضور الاحتفال بالسنة الجمهورية الجديدة. وعلم بعد وصوله أن بونابرت قد أمر بإرسال فرقة في اليوم التالي إلى الأهرامات لحماية العلماء الشغوفين بزيارتها. كان مرهقًا محمومًا ولكن ما كان هذا ليضيع منه مثل هذه الفرصة. لذا فقد انضم إلى الحملة الصغيرة وبقي نصف ساعة في داخل هرم خوفو. عاد دونان من هذه الزيارة منهكًا جسمانيًا ومعنويًا ولكن بفضول متأجج أكثر من ذي قبل. خاطر بالتجوال في شوارع القاهرة الضيقة ورسم الأزبكية التي يقيم بها الجنرال، وهي منطقة تمتاز بالجو المنعش وبنزهات القوارب ليلاً.(١٨) كان في سبيله إلى رسم مقابر المماليك حين اندلعت في الثاني والعشرين من أكتوبر ثورة القاهرة الكبرى.

انعزل «معهد مصر» لفترة وجيزة ولكن «لان» Lannes(١٩) استطاع لحسن الحظ إنهاء الأمر. وأتاح ذلك للعلماء فرصة استئناف أعمالهم فيه. وحتى لا تستبد بنا الأوهام،

علينا أن نعي أن لدونان دورًا ثانويًا في المعهد. فمن الصعب عليه الانصياع لحضور الجلسات والاشتراك في أعمال هذا الجمع من العلماء وهو الفنان بكل ما تعنيه هذه الكلمة. ونفسه تميل إلى تسجيل موقف في شارع أو ملمح جانبي لواحد من البدو أو طلة لمملوك يحمل سلاحه أو أطلال معبد أكثر بكثير من حضور مداخلة تقنية عن الهيدروليكا أو الزراعة. هذا لا يعني أنه لم يساهم في أبحاث المعهد. فقد قدم تقريرًا عن بعض الأعمدة الموجودة بالقرب من أول خزان لقناة المياه الرئيسية.[٢٠] ولكن واقع الأمر أنها كانت فرصة له لرسم مصر القديمة[٢١] بالقرب من البرج السداسي الشكل الذي يحمل اسم السلطان الغوري.

تسلطت عليه فكرة واحدة وهي السفر إلى الجنوب. كتب واصفًا حاله: «كنت على خير ما يرام في القاهرة، ولكن خروجي من باريس لم يكن لوضع كهذا»[٢٢]. وجاءت الفرصة المرتقبة. كانت فرقة الجنرال ديساكس Desaix في طريقها لغزو الصعيد. وسمح بونابرت لدونان بالانضمام إلى ركب مؤن كان في طريقة إلى هناك. كان عليه أن يلتحق بالكتيبة رقم ٢١[٢٣] تحت قيادة الجنرال بليار .Belliard وذكر دونان أنه قد وجد فيها اتزانًا في الطباع وصداقة وعناية وتعاطفًا وتسامحًا من قبل الجنود بالإضافة إلى دماثة خلق من جانب الضباط.

في بداية الأمر، لم يلق تدليلاً فالعلماء لم يكونوا من المتمتعين بسمعة طيبة في الجيش. فقد كان مجلس القيادة يغبطهم بعض الشيء على حالهم. فقد كانوا يحظون بحماية القائد الأعلى عضو المعهد القومي وبرواتب بالغة الارتفاع. والحق أنهم كانوا ضحايا التضاد الأبدي بين ما هو مدني وما هو عسكري. ولم يكن Lannes لان وبرتييه Berthier يستسيغان وجودهم.

كان الجنود البسطاء لا يتفهمون سبب وجود هؤلاء بمصر. ماذا يفعل هؤلاء المساحون وسط المخيمات بالقبعات العالية والبزات الخضراء الطويلة هم ليسوا إلا أناسًا يزحمون المكان ويكلفون الحملة ماديًا. في وقت المجاعة وتسلل السأم إلى النفوس كان الجنود يحملونهم مسؤولية الحملة بل وفكرة القيام بها. ولإغاظتهم كانوا يطلقون على حمير البلد

البيضاء لفظ «علماء» وجدير هنا بالتذكر الأمر الشهير الذي أطلقه بطبيعية شديدة قائد إحدى الفرق في الحملة بعد وضعها في شكل مربع: «الحمير والعلماء في الوسط».

بعد معركة سدمنت Sedment بالقرب من بني سويف والتي انتصر فيها ديساكس Desaix على مراد بك، أصيب دونان في حادث كاد أن يودي بحياته. إثر حركة غير محسوبة، طعنه جندي بحربة فأسقطه من صهوة جواده. ولظنه أنه قد فارق الحياة قال الجندي متداركًا خطأه:

«نقص العلماء واحد. ياله من تأبين»!

ولكن لما اتسمت به شخصية دونان Denon من بساطة وبشاشة وبسالة فقد سقطت الحواجز بينه وبين الكتيبة وأصبحت العلاقات بينهم ممتازة. وسرعان ما هنأ دونان نفسه بمشاعر زملاء السلاح الفياضة.

في تلك الفترة تحديدًا، بدأت من ناحية ملاحقة مراد بك إلى الجنوب ومن ناحية أخرى حملة الجنرال ديساكس Desaix على الصعيد. طاول حماس دونان حماس الجيش ولكن طبقًا لقوله، لأسباب مختلفة:

«كانت الشجاعة تجري في عروقنا والأمل يحدونا. كنت، ربما الوحيد في هذا الجمع الذي لا ينتظره مجد أو ترقية إلى رتبة أعلى. ولكني لم أكن بمستطيع منع نفسي من الزهو بطاقتي ومصاحبتي لجيش منتصر، بوظيفتي في طليعة الحملة وبكوني أول من خرج من «تولون» Toulon. أملت أن أكون أول من يصل إلى «سيان» Syéne وأن تتحقق مشروعاتي وأهدافي من هذه الرحلة. واقع الأمر أنه من هنا بدأت أهم مرحلة من حملتي الخاصة كنت سأكتشف أرضًا جديدة وأكون أول من رأى بدون أفكار أو أحكام مسبقة. كنت سألج في أرض غلفها الغموض لألفي سنة وأوصدت أبوابها أمام أي أوروبي. منذ هيرودوت Hérodote وحتى عصرنا هذا، سارت كل مجموعة رحالة في أثر من سبقوها.

كانوا يجرون إلى الجنوب في عجالة وأعينهم عالقة بقواربهم، لا يبتعدون عنها إلا سويعات قليلة يتفقدون فيها على مسافات محدودة أكثر المعالم قربًا. أما ما هو أبعد من الضفتين فقد كانوا يستقون المعلومات عنه من الكتابات والنصوص الشرقية.

شجعني احتفاء القائد الأعلى بي، وعاونني كل الضباط الذين كانوا يقاسمونني عشق الفنون. لم أكن أخشى إلا افتقاد الوقت أو الأقلام والأوراق أو الموهبة. كنت معتادًا الحياة في المخيمات وآلف لما يقدم فيها من مؤونة.»[٢٤] تحرك الرتل في السادس عشر من ديسمبر ١٧٩٨ واتجه إلى ملوي مرورًا بألمنيا في نطاق هذه الضيعة، كان هناك معلمان يثيران فضول أي عالم آثار: على الضفة اليمنى أنتينوبوليس Antinoupolis وعلى الضفة اليسرى هرموبوليس. اختار دونان البدء بالثاني وقال معللاً ذلك:

«لم أكن تواقًا لزيارة انتينوي Antinoe فقد سبق لي رؤية آثار من عصر Adrien أدريان[٢٥]. وما شيده في مصر، لم يكن بجديد أو مثير لي. ولكنني كنت أتحرق شوقًا للذهاب إلى هرموبوليس، فهناك كان رواق ضخم شهير. من هنا كانت سعادتي الغامرة حين بادرني ديساكس Desaix قائلاً: «سوف نأخذ معنا ثلاثمائة من الفرسان ننطلق بهم إلى أشمونين بينما يتجه المشاة إلى ملوي»[٢٦].

عندما لمح دونان الرواق الذي تهدم حالياً، أعجب به أيما إعجاب مما أوحى له بأغنية كلها مدح وتقريظ. وقال: «كنت في قمة سعادتي فقد كانت هذه أولى ثمرات أعمالي. فباستثناء الأهرامات، كان الرواق هو أول معلم له سمات المعمار الفرعوني وأول الأحجار التي لم يطرأ عليها تغيير. انتظرتني أربعة آلاف عام لتعطيني فكرة واسعة عن الفنون وكمالها في هذه المنطقة».[٢٧] ويعد هذا اعترافًا له دلالة بقلم فنان نشأ وتعلم في إطار القرن الثامن عشر بتقاليده الأكاديمية وترعرع على الانبهار بالتيار الكلاسيكي والمنهج اليوناني الروماني.

«ما لم أتشكك فيه منذ النظرة الأولى لهذا الصرح هو أن اليونانيين لم يخترعوا أو يفعلوا شيئًا أعظم»[٢٨]. بقلمه الرصاص، وضع دونان الخطوط الأولى لرسم الرواق ولكنه لم يرض عن هذه المحاولة السريعة. اكتشف طابع الهندسة المعمارية الفرعونية غير المألوفة بالنسبة له. من هنا كان تعليقه التالي على رسمه: «تبدو التيجان ثقيلة والقواعد الرفيعة التي تأخذ شكلاً غريبًا في الرسم، ذات كتلة غير مريحة للعين توقف النقد وتجمده. فهنا لا يمكن لا القبول ولا الرفض.

ولكن ما هو جدير بالإعجاب فعلاً هو جمال الخطوط الرئيسية وكمال ترتيب الأحجار والزخارف التي تضفي ثراءً بدون النيل من طابع البساطة الذي يجعل هذا الصرح شيئًا عظيمًا. وتخلو الحروف الهيروغليفية الكبيرة العدد التي تكسو كل أجزاء هذا الصرح من أي بروز كما أنها لا تقطع أي خط. وهي تختفي عند ارتفاع معين تاركة للمعمار كل هيبته».[٢٩] هذا ما كان عند أول لقاء للفنان عند فن مصر القديمة.

بعد لحظة تردد وهو شيء طبيعي لدى رجل من هذا العصر حاول دونان ونجح في دخول هذا العالم الجديد وأقلمة ذهنه وعينيه المتعبتين من التراب والشمس الحارقة. في الليلة ذاتها عاد دونان مع ديساكس Desaix إلى ملوي. ما الذي دعاه إلى سرعة العودة؟ لمَ لم يبق يومًا آخر ليرى عن قرب هذا المعلم الموحي بأشياء كثيرة؟

أجاب دونان عن كل هذه التساؤلات مقدمًا بقوله: «نوايا الجنرال حسنة ولكن فضوله سرعان ما أشبع» لذا فقد قال للرسام: «مضت عشر ساعات وثلاثمائة رجل فوق ظهور جيادهم. يجب أن يتم تسكينهم وأن يصنعوا حساءً يتناولونه قبل أن يخلدوا إلى النوم». تفهم الرسام ذلك لأنه كان جائعًا بدوره وكان مثلهم ينام يوميًا في الخيام ويمتطي جواده من اثنتي عشرة إلى ست عشرة ساعة يوميًا، ولأن الصحراء قد مزقت جفونه ولأن عينيه حمراوان وتؤلمانه حتى أنه لا يرى إلا من خلال غلالة من الدم.[٣٠]

كان على الفرقة إذًا أن تتقدم وتسرع الخطى للحاق بالعدو الذي فر إلى الجنوب. مرت بمنفلوط وأسيوط وسوهاج حيث كان دونان يرسم الديرين الشهيرين اللذين سبق لنا الحديث عنهما وهما: الدير الأحمر والدير الأبيض. وقد وصلت إلى جرجا وهي أقصى نقطة سبق الوصول إليها على النيل دون التمكن من التحرش بمراد بك والمماليك وهذه النقطة هي التي تمكن الأب ڤانسلب Vansleb من الوصول إليها. كانت البلدة تشع عدائية والأماكن النائية فيها غير آمنة. وقد اعتذر دونان لهذا السبب عن عدم تمكنه من دراسة المزيد من المعالم.

قد يبادر القارئ القاسي الرحالة المنهك القوي، الذي يتضور جوعًا ويعاني ويلات الحرب مشيرًا إلى الخريطة: «يلزمني شيء عن أفروديتوبوليس[٣١] وكروكوديبوليس[٣٢]

وابتوليمايبس[٣٣] ماذا فعلت بهذه المدن؟ لم يكن لديك جواد يحملك وجيش يحميك ومترجم يتولى عنك طرح الأسئلة؟ ولكن مهلاً أيها القارئ، فكر ملياً، فقد كنا محاطين بالعرب والمماليك وكان من الممكن أن يختطفوني وأن يسرقوني وأن يقتلوني لو لم أكن قد احتطت وذهبت على بعد مائة خطوة من العمود، أبحث لك عن بقايا أفروديتوبوليس».[٣٤]

«تطلب الأمر في جرجا البقاء لثلاثة أسابيع انتظارًا لمجموعة القوارب التي تحمل المؤن والكعك وبالذات الأحذية. نمرق سريعًا من مناطق جديرة بالاهتمام ونتمهل حيث لا شيء يستحق الرؤية. مرّ واحد وعشرون يومًا لم يضجرنا ويتعبنا فيها إلا الإحساس بقلة الحيلة. كنت أعلم أنني بالقرب من أبيدوس حيث كان Ossimandue أوسيماندو قد بنى معبدًا أقام به ممنون. ألححت على ديساكس Desaix في إرسال استطلاع إلى «العربا» التي قيل لي أن بها بقايا أنقاض. وكان رد دوساكس عليّ دومًا: «أريد أن أذهب بك إلى هناك بنفسي. مراد بك على بعد يومين وسوف يصل بعد غد وستكون هناك معركة تُفتِّتُ فيها شمل جيشه. حينذاك يخلو ذهننا للآثار. وسوف أساعدك بنفسي في قياسها».[٣٥]

ولكن الفرقة اضطرت للتحرك بدون أن ترى مراد بك. واضطر دونان إلى اتباعها بدون أن يزور «أبيدوس». وكان كلما لقي ديساكس Desaix يقول له: «أرتعد من الآن لأنني إذا مت غدًا فسوف يتبعك ظلي ويردد بدون توقف على مسامعك «العربا»، «العربا»...[٣٦]

وسرعان ما عوضه الله عن ذلك. فبعد أن خاض الجيش معركة وصل إلى دندرة وأوحى إليه معبد حتحور اثنتي عشرة صفحة ملؤها الحماس» بين أطلال تنتيرة Tintyra «بدا لي المصريون عمالقة»[٣٧] ألف دونان الفن المصري وبدأ في تحليل حروفه. وأوضح كيف أن الرسم والنحت على صلة وثيقة بالهندسة المعمارية. وإذا كان لنا أن نلومه فليس لأنه حصر نفسه في هذا الفن الجديد وبقي أسير الأفكار اليونانية والرومانية المسبقة، وإنما لانسياقه إلى درجة من الإعجاب اللامحدود والمبالغ فيه قال في هذا الشأن:

«كنت أريد أن أمرر في نفوس قرائي ما استشعرته. كنت أسير دهشة تمنعني من الحكم بشكل صائب. كل ما كنت قد رأيته من الهندسة المعمارية لم يكن يساعدني في التحكم بدرجة الإعجاب. هذا المعلم بدا لي حاملاً لطابع بدائي أقرب ما يكون إلى بناء المعبد». كان دونان بالطبع مخطئًا هنا فمعبد «حتحور» لم يكن بالمعلم البدائي فقد تم تشييده في العصر البطلمي وهو أحد الصروح التي بنيت في أواخر عصور مصر القديمة. ولكن من يجرؤ أن يؤاخذه؟ لم يكن علماء المصريات قد فكوا بعد شفرة النقوش وحددوا عصر تشييده. وإذا كانت بعض منحوتاته بها لين في الخطوط فوحدات أيقوناته الشبيهة بأيقونات الإمبراطورية الحديثة لم تكن لتدل الرحالة على تسلسلها الزمني.

خصص دونان ثلاث لوحات من أطلسه لدندرة[٣٨] وقد شاركه حماسه كل زملائه في الجيش. قال له أحدهم وهو برتبة ضابط: «منذ أن وطئت قدماي مصر وأنا أستشعر الخديعة في كل ما يحيط بي.. يسري في أوصالي الكدر والمرض إلى أن رأيت Tentyra تنتيرة.. فشفيت. ما شاهدته فيها كان خير جزاء لكل ما عانيت».[٣٩] أما الجنرال بليار Belliard قائد نصف الكتيبة الحادية والعشرين فقد حرص على مصاحبة دونان في جولة عند الغروب «سارا فيها على سطح المعبد يتأملان نقيشة فلك البروج الشهيرة والمحفوظة حاليًا في قاعة المصريات الكبرى بمتحف اللوفر».

بعد تلك الواقعة ببضعة أيام، وصلت الفرقة عن طريق الضفة اليسرى للنيل أمام طيبة. «هذه المدينة المعزولة التي يستعيدها الخيال بالكاد من غياهب الزمن. كانت شبحًا عملاقًا، أكبر من أي تصور لدى أفراد الجيش، حتى أنهم ما إن رأوا بقاياها مبعثرة حتى توقفوا من تلقاء أنفسهم وصفقوا تلقائيًا وكأنما احتلال أطلال هذه المدينة كان الهدف من كل أعمالهم المجيدة ومكملاً لغزو مصر. قمت برسم هذا الانطباع الأول كما لو كنت في نفسي أخشى أن تولي طيبة الفرار. في حماس الجنود وركبهم التي كانوا يسمحون لي بالارتكاز عليها، وأجسامهم التي كانوا يظللوني بها، والشمس ذات الأشعة الحارقة، ملامح أود أن أنقلها لقرائي ليستشعروا معي هذا الإحساس الذي غمرني من جراء

تداخل عظمة ما أرى، وحماس جيش أسعدتني رهافة حس جنوده وجعلتني مزهوًا برفقتهم وفخورًا بكوني فرنسيًا.(٤٠)

ولكن ديساكس Desaix لم يكن لديه المزيد من الوقت للتوقف، لذا فقد سارعت القوات بتجاوز أطلال الضفة اليسرى للوصول إلى أرمنت.

ومضى الزحف إلى الجنوب بدون توقف. أثارت إسنا إعجابه فقد رأى فيها «أكثر آثار المعمار القديم كمالاً». وقد رسم تيجان أعمدتها الأنيقة والتي استخدم مشيدوها في تصميمها ما تنتجه البلد من ثمار كزهور اللوتس والنخيل والأعناب والأسل... إلخ

وتوقف في هيراكونبولس (أمام الكاب Elkab) رسم نفسه واقفًا أمام الباب الوحيد المتهدم بصحبه تابعه وإبله وجواده وحماره. وقد انتهى من رسم خطوطه الأولى واقفًا بالقرب من مقعد مطوي ببزة أعملت فيها الحرب عملها وقبعة ممزقة وحذاء مهترئ...إلخ(٤١)

أما إدفو فقد قطعها سريعًا على ظهر جواده قبل مغيب الشمس. وقد تركت في نفسه أثرًا يعادل في عظمته وكبره عظم ما قد رآه فيها. وبدأت بعد إدفو مسيرته المضنية على الأقدام حتى مشارف أسوان.

كانت أحجار وحصى الأرض الحادة كخبث المعادن تمزق الأحذية، فيربط الجنود أقدامهم بما تبقى لديهم من أسمال. ولفرط القيظ والعطش، كانوا يرتمون من حين إلى آخر على الرمال الحارقة وقد خارت قواهم. وعند دنوه من أسوان، قام دونان Denon بزيارة دير الأنبا لوران Saint Laurent الذي قد يكون في واقع الأمر دير الأنبا Simeon ومن أعلى «برج الرياح» وهو مطل على أغرب منظر، اكتشف ورسم مجموعة الشلالات ومنظرًا طبيعيًا فوضويًا للنوبة.

عبر الجيش النيل في قوارب. كان المماليك قد تركوها بينما اختبأ مراد بك وراء المنحدرات. وقد أقام دونان Denon مع الجنرال بليار Belliard في منزل الكاشف «Kiachef» وقد سمحت له هذه الإقامة بعد أسابيع من العيش في مخيمات بتغيير ملابسه وبالنوم في سرير. خلال هذه الفترة، أصبحت جزيرة الفانتين المزهرة بمثابة منتجعه

ومكانه المفضل للبحث والتأمل والاستمتاع «اعتقدت أنني قد قلبت بين أصابعي كل الأحجار وساءلت الصخور التي تتكون منها». وقد صعب عليه الوصول إلى جزيرة فيلة التي فضلها لاحقًا بيير لوتي Pierre Loti والرحالة المحدثون. كان سكانها يحمون أطرافها بالسهام والرماح والبنادق. وقد تطلب الأمر استعمال مدافع رشاشة حين حوصرت لمدة خمسة أيام وذلك لإقصاء سكانها.

كتب دونان عن فترة إقامته في جزيرة الفانتين يقول: «كان اليوم التالي من أجمل أيام رحلتي، كنت أحظى بسبعة أو ثمانية من المعالم الأثرية في نطاق لا يزيد عن ثلاثمائة قامة. وأكثر من ذلك لم يكن بجواري أشخاص ممن يجمعون إلى الفضول صفة عدم الصبر. فهم يعتقدون دومًا أنهم قد رأوا بما فيه الكفاية ويتعجلونك لرؤية شيء آخر: كنت بمنأى عن الطبول التي تقرع لجمع أو صرف الجنود وليس حولي أعراب أو فلاحون. كنت وحدي أستمتع بمفردي. ومضيت أرسم خريطة للجزيرة ورسمًا للمباني التي تقع فيها»[٤٢]

بعد توقف دام ثلاثة أسابيع في أسوان، انطلق الجيش في الواحد والعشرين من فبراير ١٧٩٩ في طريق العودة بعد أن تخلص من مراد بك والمماليك الذين فروا جنوبي الشلالات.

لرغبته في الارتياح بعض الشيء، غادر دونان الفرقة، وصعد على متن قارب من قوارب المجموعة النهرية. وبدون أن يغادر المركب، خط محاولة رسم أولي لمعبد كوم أمبو. وعندما انغرس قاربه في الرمل بالقرب من جبل سلسلة، استغل هذه الوقفة لزيارة مقابر الضفة التي خصص لها لوحات عديدة في الأطلس مع تعليقات مفصلة.

بدءًا من هذه اللحظة شارك في عمليات مختلفة يقودها ديساكس Desaix وبليار Belliard وجنرالات آخرون في منطقة طيبة. قهرته الكرنك وطحنته: «أي رتابة وأي حكمة حزينة! أستشعر إعجابًا ممزوجًا بالرهبة وأنا أفكر في النظام الذي كانت عليه مثل هذه الحكومة، فالآثار التي تركتها تبهرني وتملؤني رعبًا»[٤٣] غير أن الإنجليز بدأ ظهورهم على سواحل البحر الأحمر وتلقى الجنرال دونزيلو Donzelot أمرًا ببناء حصن في القصير.

في السادس والعشرين من مايو، غادر رتل منطقة قنا متجهًا إلى هدفه عبر الصحراء الغربية. وهي جولة محفوفة بالخطر لمجموعة معزولة رأينا سابقًا كيف قام بها محافظ البنغال شيڤالييه Chevalier وسردها علينا ساڤاري Savary. أما هذه المرة فقد قامت بها كتيبة من نحو ألف رجل وقافلة من الجمال بذات العدد ولم تقابلهم أي صعوبة. ولكنهم التقطوا بالكاد أنفاسهم في «القصير». فبعد يومين من وصولهم لسواحل البحر الأحمر، ولكي لا تتضور الحامية التي سيتركونها هناك جوعًا، عادت الفرقة ومعها دونان إلى «قنا». غير أن دونان Denon هذه المرة عاد أسرع مما كان في ذهابه إليها ولكن منهك القوى وقد جف جسمه من الظمأ.(٤٤)

لم يستطع إطفاء ظمئه إلا بأكل البطيخ والسباحة في النيل. بعد ثمانية أيام في صمت الفيافي، تيقظت الأحاسيس وتنبهت. يقول واصفًا ذلك: «لا أستطيع وصف ما كنت أشعر به عند سماعي.. مع قدوم الليل وأنا نائم على شاطئ النيل، لحفيف أوراق الأشجار وتخلل الهواء لسعف النخيل. كان كل شيء يستيقظ وينتعش... كانت الأجواء تشع حياة والطبيعة تبدو لي تنهل منها نهلاً»(٤٥). في ذلك الوقت لقي المهندس بيير سيمون جيرار Pierre Simon Girard عضو «معهد مصر» ومعه ثمانية أعضاء من لجنة الفنون وكانوا قد أبحروا في النهر متجهين إلى جنوب الوادي ومعهم تكليف بقياس كافة ارتفاعاته. وكانت هذه الفرصة لدونان Denon لعمل مجموعة جديدة من الأبحاث في منطقتي «الكرنك» و«الأقصر» بالإضافة إلى «إسنا» و«إدفو». أي متاعب تطلب الأمر احتمالها وسط الاشتباكات المستمرة وأي جلد كان على دونان إبداءه في العودة بين الفينة والفينة للتأكد من بقاء لوحاته ونقيشاته وخرائطه على حالها؟ حدث ذات يوم أن اضطر في «إدفو» إلى الزحف بمشقة بالغة بين الأكواخ المتداعية المقامة على المعبد. كانت المنحوتات التي بدت بين أكوام القمامة في إحدى الغرف الداخلية متقنة للغاية وذات ذوق رفيع.(٤٦) وفي اليوم التالي، بعد مسافة سير مضنية أثناء الليل وصل إلى إسنا وقد غطت جسمة البثور والثآليل ويشكو من حكة لا يخفف منها سوى غمر الجسم في ماء النيل، رغم وجود التماسيح التي تعلم دونان كيفية التصدي لها. بعد ذلك بفترة، وصل وقد جف حلقه واحترق جلده إلى «أرمنت» حيث كان زملاؤه قد أنهكهم القيظ.

نجح دونان في نهاية المطاف في رؤية وادي الملوك أثناء عودته، ولم يكن قد التفت إليه من قبل. «كانت الكتيبة متعبة. وكانت المناقشات دائرة حول نقل المقابر من عدمه. كنت صامتًا، أتميز من الغيظ. وأعتقد أنني بهذا الصمت قد حصلت على أكثر مما كان من الممكن إدراكه لو أظهرت رفضي، فقد انتقلوا إلى موضوع مناقشة آخر. تعرضوا جميعًا لطلقات بنادق سكان «القرنة»، ولم يسمح لدونان Denon بالبقاء طويلاً بين القبور الملكية. ولم يمنعه هذا من رؤية قبر رمسيس الثاني. قال في هذا الصدد: «سمعت النداء لدى اكتشاف حجرات صغيرة على جدرانها رسومات تمثل كل أنواع الأسلحة كالدروع وجلد النمر والأقواس والسهام والرماح والسيوف والخوذات وأنواع من السياط. وفي غرفة أخرى، وجدنا مجموعة من الأواني المنزلية المستعملة آنذاك إلى جانب صندوق بأدراج وخزانة صغيرة ومقعد وثير وكرسي ومنضدة خفيضة مع سرير يطوى ذي شكل جميل...» «وفي مكان آخر، رسم لامرأة ترتدي ثيابًا بيضاء تعزف بأصابعها على قيثار ذي أحد عشر وترًا».[٤٧] كيف كان له أن يترك كل هذه الأشياء الجميلة دون أن يرسمها.

«صرخت فيهم طالبًا إمهالي ربع ساعة، فوافقوا على منحي عشرين دقيقة لا تزيد واحدة. كان هناك دليل يسير أمامي بينما أمسك شخص آخر شمعة يجيلها أمام كل شيء أشير إليه.[٤٨] كان يتلمس الطريق ويأخذ كل ما تقع يداه عليه في المقبرة: مشاجب، تماثيل جنائزية صغيرة، أشياء ضئيلة الحجم، وقدم مومياء أغلب الظن لامرأة، لأميرة لكائن جميل لم يشوه أي حذاء شكله الذي كان أقرب ما يكون إلى الكمال».[٤٩]

أججت هذه القدم شاعرية دونان Denon وحفزته لرسمها. وقد أوحت للكاتب تيوفيل جوتييه Theophile Gautier فيما بعد، قصة قصيرة بعنوان «قدم المومياء» Le Pied de Momie، «على الرغم من كل ذلك فقد تركت «طيبة» لي أزمة أعملت في داخلي شيئًا من نفاد الصبر والحماس والحدة والتعب».[٥٠] واقع الأمر أن حالة عدم الاستقرار بدأت في إقلاقه وإثارة أعصابه. فهذه الجولات السريعة في أهم مناطق صعيد مصر لم تكن لتلائم عملاً مثل عمله، يستدعي البحث عن التفاصيل ونقلها. كان في حاجة إلى حالة من الهدوء المستمر. كم كان يود لو أمضى ثلاثة أسابيع متتالية في أسوان

لضمان رؤية أصوب وأدق. (ويمكننا أن نضيف دون أن نخشى الوقوع في الخطأ) أن ذلك كان سيتيح له الحكم والتقييم والفهم بشكل أفضل لبعض مظاهر المعمار في «طيبة». غير أن رتل الجنرال بليار Belliard كان عليه الرحيل إلى «قنا» مع احتمال العودة بعد ذلك بفترة قصيرة لمعاقبة متمردي «القرنة» وأخذ شيوخهم كرهائن.

لم تنجح هذه العملية إلا بشكل محدود فقد ذاع أمرها واستطاع جزء من سكانها الهرب إلى الصحراء. أما بالنسبة للباقين، فقد تم إشعال النيران أمام الكهوف لخنقهم بالدخان واستعملت الألغام وضرب حصار حولهم. غير أنه لم يسفر في نهاية الأمر إلا عن أسر بعض النساء وبعض الأطفال والاستيلاء على ثلاثمائة من الماشية.

واستغل دونان فرصة بدء المفاوضات لفك أسر الشيوخ واستعادتهم حتى يتفحص على مهل خلال فترة وقف إطلاق النار المقبرة المحفورة في التل، كانت بمثابة أعجوبة؛ ممرات تعبر كثبانًا من الصلصال الجيري ذي الحبيبات الدقيقة مما جعل التفاصيل الهيروغليفية على درجة عالية من الدقة لا يسمح بها الرخام في أي مكان كانت الخطوط المحيطة بالوجوه لينة واضحة لدرجة ما كنت أظن أنّ النحت المصري قادر على الوصول إليها. وقد خط دونان بقلمه حكمًا سديدًا يشهد بعمق تفكيره. «سرعان ما تيقنت من عظمة الرسومات والمنحوتات ونوعية الموضوعات التي تتناولها، إنني في مقابر الكبار أو الأبطال. فقد كانت المنحوتات على درجة من الدقة أعلى من كل ما رأيته في المعابد. كان نوعًا من الترصيع».(٥١) وقد لاحظ دونان من السمات الأساسية في فن مقابر الأشراف وعلية القوم في منطقة الشيخ عبد «القرنة»، فالمشاهد المنقولة عن الطبيعة بها شخوص على غير صفة الثبات والجمود المألوفة. فحركاتها لينة وطبيعية. ودرجة البروز في النقيشات دقيقة للغاية. ما كنت أظن ذلك ممكنًا في غير المعادن. (٥٢)

لا شيء يستلفت انتباهه إلا هذه النقوش الحائطية التي نعجب بها اليوم. وقد نقل منها أشكال الاستمتاع والترفيه الشعبية كالألعاب المختلفة والراقصات والموسيقيين

والقافزين بالحبال والحمير العلماء (وهذه المرة، لا يوجد تلاعب بالألفاظ).[٥٣] ودونان Denon من أوائل الناس، بل هو أول من استشعر الفارق بين الأسلوب الكهنوتي والتقليدي لمقابر الملوك والأسلوب الحر والممتع لمقابر الأرستقراطية في منطقة الشيخ عبد القرنة.

عهد إلى دونان بالمفاوضات الخاصة بتسليم الشيوخ. وقد استطاع بما لديه من خبرات كدبلوماسي سابق ورجل محنك القيام بالمهمة. قال في وصفها: «لم أعجل بالأمر. كنت أهدئ وأسوّف رافضًا سرعة الانتهاء من المفاوضات أو قطع العمليات التي أقوم بها»[٥٤] وهنا نلاحظ أن دبلوماسيته تخدم فضوله وشغفه بعالم الآثار. يتعلل بأخذ فسحة من الوقت ويطيل المفاوضات حتى يتسنى له رؤية مجموعة «مدينة هابو» عن قرب وبروّية. غض النظر عن أنقاض الكنيسة المسيحية التي كانت في هذه الآونة تملأ الفناء الداخلي لمعبد رمسيس الثاني الكبير، ومضى يصف النقيشات الرائعة في الساحة التي تمثل انتصارات الفرعون وخاصة موكب النصر الذي قاده إلى الإله «من Min» لشد ما كانت دهشة دونان Denon لدى ملاحظته على إفريز شكل كاهن يكتب مسجلاً زهو الملك والأبهة التي كان عليها مخلدًا بذلك هذه الذكرى (قد يكون كاتبًا يقوم بحصر الأسرى والغنائم). علق دونان على ذلك قائلاً: «كانت المرة الأولى التي أرى فيها مسجلاً على الجدران شخوصًا تكتب. كان لدى المصريين إذًا كتب. كان توت Toth الشهير إذًا كتابًا وليس مجموعة لوحات منحوته على الجدران.. لم أكن أستطيع منع نفسي من الزهو لإحساسي بأنني أول من اكتشف اكتشافًا بهذه الأهمية. وازددت فخرًا حينما حصلت بعد عدة ساعات من هذا الاكتشاف على دليل ملموس على صحته في صورة مخطوط كان في قبضة مومياء أتوا إلي بها... أحسست بهروب الدم من أوردتي ولم أنطق ببنت شفة. لم أكن أعرف ماذا أفعل بكنزي هذا وأخشى أن أتلفه. لم أكن أجرؤ على لمسه، فقد كان أقدم كتاب عرف حتى هذا اليوم. لم أكن لأئتمن أحدًا عليه أو لأضعه في أي مكان: كل قطن الغطاء الذي استخدمه كحشية لم يبدُ لي كافيًا لتغليفه برفق...»[٥٥]

لا شك أننا نتفهم هذه الحالة الانفعالية. كان الرحالة الفرنسيون حتى وقتنا هذا يحملون إلى المكتبة الملكية مخطوطات قبطية وسريانية وعربية. ولكن هذه المرة كانت الأولى منذ الحقبة المسيحية أو بداية العصور الوسطى التي تكتشف فيها بردية. كم تساؤل ثار في ذهن ڤيڤان دونان Vivant Denon ترى ماذا كانت تحوي؟ قصة حياة المومياء ذاتها؟ شيئًا عن العصر الذي عاشته أو طريقة الحكم خلاله؟ لاشيء يمكن الجزم به. وهذا بالضبط ما نقله إلينا تيوفيل جوتييه Théophile Gautier في افتتاحية روايته عن المومياء. كان من حق دونان أن يشعر آنذاك بالرضا عن نفسه. صالحه اكتشافه مع مدينة «طيبة». حين تم تسليم رهائن «القرنة» أبحر دونان إلى القاهرة. كان موعد عودته قد حان، لذا «ودع بحزن بالغ في «قنا» الجنرال بليار Belliard ونصف المفرزة الحادية والعشرين. انتابه أسى شديد وهو يرى هذه المنطقة التي ما عرف مكانًا في الكون قدر معرفته بها... تغيب تدريجياً من أمام ناظريه».(٥٦)

هذا لا يعني أنه قد غادرها سئمًا ضجرًا مثبط الهمة، بالغًا حد التشبع من كل الأحاسيس. ففضوله كان ما زال متأججًا. أثناء إبحاره إلى شمالي الوادي لاحظ وجود مرفأ بتوليمايس (المنشية) وأنقاض بانوبوليس بالقرب من أخميم ودير الرافعة القبطي المقام على جرف شديد الانحدار والذي يقذف رهبانه بأنفسهم إلى النيل لدى رؤيتهم لأي قارب قادم استجداءً للعطايا والصدقات. كان مروره أمام هذه الأشياء يتم على ما يبدو في عجالة فقد كتب يقول:

«كنا ننزلق انزلاقًا أمام هذه المعالم التي طالما اجتذبتنا». ولم تمكنه هذه العودة الحزينة من الاستئذان من الجنرال ديساكس Desaix الذي كان دونان يأمل في الالتقاء به في «المنيا» وفي إطلاعه على أعماله ليستمتع بها. غير أن هذا الأخير كان قد غادرها إلى وجهة أخرى في أعقاب مراد بك.

كانت هذه هي رحلة دونان إلى صعيد مصر في الفترة من ديسمبر ١٧٩٨ إلى يوليو ١٧٩٩. لدى عوته إلى القاهرة، أمطره زملاؤه في المعهد بوابل من الأسئلة. وقد أراهم فيفان رسوماته. غير أنه لم تتح له فرصة التحدث إليهم عن نتائج حملته في لقاء عام. عند

عودة نابليون من فلسطين بعد معركة جبل تابور Thabor، أصدر إلى دونان أمرًا باللحاق به في شمالي الوادي، وطلب منه رسم موقعة النصر الجديد في أبي قير. عند رؤيته للخطوط الأولى قرر أن مهمته قد انتهت وعرض عليه العودة معه إلى فرنسا. وقد أتت رحلة دونان بسرعة ثمارها. فقد قرر القائد العام بدون تأخير تكليف لجنتين خاصتين من العلماء والفنانين بقياس ورسم كل معالم الصعيد رسمًا علميًا موضوعيًا دقيقًا. كان على رأس إحداهما السكرتير الدائم للمعهد عالم الرياضيات فورييه Fourier والأخرى قادها عالم الهندسة كوستاز Costaz وقد غادرت اللجنتان القاهرة في العشرين من أغسطس ١٧٩٩ قبل سفر بونابرت إلى فرنسا بثلاثة أيام. اصطحب نابليون معه مونج Monge وبرتوليه Berthollet ودونان Denon غادر مع ثلاثتهم الإسكندرية سرًا في الثالث والعشرين من شهر أغسطس مما أحبط جميع العلماء. كان الطريق إلى الجنوب مفتوحًا. وقد تم استكمال وتصحيح الرسومات والشروح التي قدمها دونان بواسطة أبحاث العلماء الذين كانوا أقل حظًا منه وعليهم البقاء في مصر عامين. نخلص من كل ذلك إلى أن رحلة دونان إلى الصعيد هي سبب وجود أعمال العلماء والفنانين الرائعة التي تم إنجازها. وتعد نتائجها التذكار الدائم لحملة بونابرت على بلاد الفراعنة. ويتفق هنري جوتييه Henri Gautier معنا في هذا الرأي.

****

BIBLIOGRAPHIE

- Vivant Denon. Voyage dans la Basse et la Haute-Egypte, pendant les campagnes du général Bonaparte. Paris, an X, 1802, 2 vol. grand in-folio avec un atlas de 141 planches, chez P. Didot aîné.

- 2° édition, en 1 vol. in-4° avec atlas in-folio, Paris, 1802.

- 3° édition, en 2 vol. in-4° avec atlas Londres, 1802.

- 4° édition, en 3 vol. in-12, sans atlas, Paris. 1803

- Traduction anglaise par E.A.Kendal (2 vol. in-8° London, 1802) et par F. Blagden (2 vol. in-8° London, 1803). --- Trad. allemande par Tiedemann (Bertin-Mayenee, 1803 et 1804).

- Voyages dans la Basse et la Haute-Egypte, pendant les campagnes de Bonaparte, en 1798 et 1799, par Vivant Denon et les savants attachés à l'expédition des Français. Edition ornée de 109 planches (2 vol. in-4° et 1 atlas) et contenant 16 appendices sur divers sujets traités par des collégues de Denon. Londres, 1807.

- Autre édition, 2 vol. in-folio et 144 cuivres, Florence. 1808.

- Autre édition, 2 vol. in-4°, Londres, 1809.

- Nouvelle édition augmentée d'une notice sur Vivant Denon par P. F. Tissot. 2 vol. in-8o et atlas, Paris, 1829.

- Adaptation allemande. Reisc nach. Egypten für die Jugend bearbeitet, par J. F. A. Matthäi, Hanovre, 1810, in-8°.

- A. V. Arnault, Souvenirs d'un sexagénaire, 4 vol. Paris, Dufey, 1834.

- Anatole France. La vie littéraire. Colmann Levy, vol. III, P. 166-180.

- Henri Gauthier, Vivant Denon en Egypte, Bulletin de l'Jnstilut d'Egypte, 1923-1923, p. 163.

- Auriant. Lettres inédites de V. Denon au général Menou, La pensée française, 21 septembre 1925, p. 12-14.

- P. Leliévre, Vivant Denon, directeur des Beaux-Arts de Napoléon. Essai sur la politique artistique du Premier Empire, Anger, éditions de l'Ouest, 1942.

- J-E. Goby. Les quarante éditions, traductions et adaptations du Voyage dans la Basse et Haute-Egypte de Vivant Denon, Cahiers d[Histoire égyptienne, série IV. déc. 1952, Le Caire, Al Maarif.

****

الهوامش

١ – انظر إلى ج هانوتو G. Hanotaux «المشكلة المصرية» Le probi me egyptien مجلة باريس Revue de Paris عدد الأول من يوليو ـ٩٣ـ ص ٩١ وحاشية ص ٢٥ .

استشف معاونوه نواياه. كتب جولوا Jollois إلى والده يقول: «يدعي الساسة أن الأمر يتعلق بقطع برزخ السويس.»

راجع اليوميات Journal الناشر Leroux باريس ١٩٠٤ ص ٣

٢ – طبقًا لأقوال أرنو Arnault فقد رفض كثيرون دعوة بونابرت لهم مثل الشاعر دوسي Ducis والموسيقي ميهول Mehul والمستشرق لانجلس Langles.

٣ – راجع كتاب ديهيرين H. Deherain «اكتشاف صعيد مصر بواسطة لجنة جيش الشرق للعلوم والفنون» عام ١٧٩٩.

L'exploration de la Haute - Egypte par la Commission des Sciences et Art de l'armée d'Orient

«Revue Historique» روڤوايستوريك المجلة التاريخية عدد مارس – أبريل ١٩٣١ ص ص ٢٥٨ – ٢٥٩.

وهي دراسة أعيد النظر فيها وأضيف إليها في La Revue Bleue لاروڤو بلو عام ١٩٣٢.

٤ – ب. ف تيسو «نبذة عن ڤيڤان دونان على رأس الرحلة إلى شمال مصر وجنوبها»

(P.F. Tissot, Notice sur Vivant Denon, en téte du Voyage dans la Basse et la Haute - Egypte, ed. 1829, p.I)

٥ – أ. ف. أرنو «ذكريات رجل في الستين» Souvenirs d'un sexag énaire Paris, Dufey , 1834

نصح أرنو Arnault نابليون باصطحاب الشاعر برسڤال جرانميزون- Parseval Grandmaison أيضًا بعد رفض لومارسييه .Lemercier وقد وقع أرنو نفسه فريسة للمرض ولم يجاوز مالطة وعاد إلى فرنسا.

٦ – أ. فرانس «الحياة الأدبية» Aantole France "la Vié Litteraire" vol. III p172.

٧ – خطاب تمت صياغته كمقدمة لكتاب: «رحلة إلى شمال مصر وجنوبها» طبعة ١٨٢٩ ص١١

٨ – هنري جوتييه، «ڤيڤان دونان في مصر «يوليو ١٧٩٨ أغسطس ١٧٩٩»

Henri Gautier, Vivant Denon en Egypte "juillet 1798 - a ut 1799"

نشرة معهد مصر ١٩٢٢ – ١٩٢٣ – ص ١٦٣).

٩ – چان دي ميتز وچورج لوجران «في بلاد نابليون مصر»

Jean de Metz et Georges Legrain, "Aux pays de Napoléon, L'Egypte Grenoble, 1913 pp 148 - 150

١٠ – رحلة إلى شمال وجنوب مصر Voyage dans La Basse et La Haute Egypte طبعة ١٨٢٩، المجلد الثاني ص ص ١٨ ٢٨

١١ – لا يوجد من ناحية المحتوى الأدبي أفقر من مجلة المعهد «لاديكاد إيچيبسيان» «العقد المصرى» (السنتان السابعة والثامنة) جريدة أدبية وسياسية اقتصادية لا تحتوي إلا على ترجمتين أو ثلاث للشعر العربي بقلم ج. ج. ماريسل J.J.Marcel وفقرتين من تاس (القدس المحررة) نظمت في شكل أبيات فرنسية بواسطة برسوڤال Parseval

١٢ – يمكننا الحكم على ذلك من عدد الطبعات والترجمات. انظر قائمة المراجع.

١٣ – لوحات أطلس الرحلة: رقم ٣٠ راجع ما قبل ص ٢٦ الحاشية رقم ٦

١٤ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر «طبعة ١٨٢٩، المجلد الثاني ص ٨٢.

١٥ – ذات المرجع، المجلد الثاني، ص ٨٢.

١٦ – تابوت الملك نكتانيبو Nectanebo من الأسرة الثلاثين. راجع سونيني Sonnini المجلد الأول ص ٧٠٢ وكتاب «وصف مصر» الآثار المجلد الخامس اللوحة الحادية والأربعون.

١٧ – نجد وصفًا حيًا لأولى العمليات في يوميات الرسام ه . ج. رودوتيه Redouté الذي نشر جزءًا منها بواسطة أ. هرمان A.Hermant «لاروڤوبلو» ١٨٩٥،

Revue Bleue, 1895 p 48 - 173

١٨ – دونان Denon، المرجع السابق، اللوحة رقم ٨٨.

١٩ – راجع يوميات رودوتيه «Journal de Redouté» ص ١٧٦.

٢٠ – راجع العدد الرابع من «العقد المصري» لاديكاد ايچيسيان La Décade Egyptienne ص ص ٩٧ – ٩٩، و«مذكرات عن مصر» Memoires sur L'Egypte المجلد الأول ص ص ١٢٩ – ١٣٢.

٢١ – دونان، المرجع السابق، اللوحتان رقم ٢١ و٢٢.

٢٢ – المرجع السابق، المجلد الأول ص ١٤٣.

٢٣ – المرجع السابق، المقدمة ص ص ٣٨ – ٣٩.

٢٤ – رحلة إلى شمال وجنوب مصر، طبعة ١٨٢٩، المجلد الأول ص ١٧١.

٢٥ – في روما.

٢٦ – المرجع السابق، المجلد الأول ص ١٨١ .

٢٧ – المرجع السابق، المجلد الأول ص ١٨٢ .

٢٨ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر» المجلد الأول ص ١٨٢

٢٩ – الأطلس اللوحة رقم ٣٣ .

بقايا الأعمدة اليونانية لساحة هيرموبوليس اختفت. والرواق المشار إليه كان يتبع معبدًا فرعونيًا للأسرة التاسعة عشرة تم بناؤه وهدمه في عهد Menephta.

٣٠ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر» طبعة ١٨٢٩ المجلد الأول ص ١٨٣،

٣١ – يطلق عليها اليوم إطفيح بالقرب من هرم ميدوم على الضفة اليمنى للنيل.

٣٢ – تقع اليوم بالقرب من مدينة الفيوم.

٣٣ – هي اليوم مدينة المنشأة وتقع بين أخميم وجرجا.

٣٤ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر»، المجلد الأول ص ١٩٩.

٣٥ – المرجع السابق، المجلد الأول ص ٢١٣. في حين حاول دونان رؤية أبيدوس، حدد سونيني Sonnini لها موقعًا في المكان نفسه الذي كانت تقع فيه قديمًا مدينة انتينوبوليس [الشيخ عبادة] المجلد الثالث ص ص ٤٦ – ٤٧.

٣٦ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر»، المجلد الأول ص ٢١٤.

بعد هذا التاريخ بخمسة أشهر، منحه ديساكس رتلاً ليقوده إلى هناك وكما ذكرت سابقًا ص ٥٣، كان المعبد الذي حدد جرانجيه Granger موقعه كان مدفونًا في الرمال ولم يتمكن أحد قبل ماربيت Mariette من إخراجه إلى النور.

٣٧ – المرجع السابق، المجلد الأول ص ٢٢٢ .

٣٨ – الأطلس، اللوحات ٣٨، ٣٩، ٤٠ وكلها تمثل دندرة ولكن بطابع هلليني.

٣٩ – رحلة إلى شمال وجنوب مصر، المجلد الأول ص ٢٢٨.

٤٠ – المرجع السابق، المجلد الأول ص ٢٣٠.

٤١ – الأطلس اللوحة ٤٥ بشأن «الكاب» ارجع إلى ص ٦٩ حاشية ٦ .

٤٢ – لوحة رقم ٧٠ في الأطلس.

٤٣ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر» طبعة ١٨٢٩، المجلد الأول، ص ٢٣٣ .

٤٤ – قام بهذه الرحلة إلى «القصير» عام ١٩٥٠ كل من فلوبير Flaubert ومكسيم دي كوم Maxime du Camp في ظروف مرهقة للغاية. راجع الجزء الثاني.

٤٥ – ذات المرجع، المجلد الثاني، ص ١١ .

٤٦ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر»، طبعة ١٨٢٩، المجلد الثاني ص ٢٥ .

٤٧ – لوحة رقم ١٣٥. راجع أيضًا كتاب «وصف مصر» الجزء الخاص بالآثار، المجلد الثالث. قبر رمسيس الثالث أو عازفة القيثار الذي اكتشفه بروس Bruce عام ١٧٦٩.

٤٨ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر»، طبعة ١٨٢٩، المجلد الثاني ص ٣٦.

٤٩ – المرجع السابق، ص ٣٧، راجع الجزء الثاني.

٥٠ – المرجع السابق، ص ٣٨.

٥١ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر» طبعة ، ١٨٢٩ المجلد الثاني، ص ٤٤ .

٥٢ – المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ٤٤ .

٥٣ – اللوحة رقم ١٢٤ .

٥٤ – المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ص ٤٩ – ٥٠.

٥٥ – «رحلة إلى شمال وجنوب مصر»، المجلد الثاني ص ٥٣ .

٥٦ – هـ. جوتييه الصفحة نفسها.

****

الفصل الثالث

لجنة جيش الشرق للعلوم والفنون

١٧٩٨ - ١٨٠١

كتب جيوفروا سانت إيلار Geoffroy Saint - Hilaire إلى كوڤيه Cuvier في الثاني عشر من أغسطس ١٧٩٨: «لا شيء مما رأيته وعانيت منه أدهشني. كنت أتوقع كل ذلك قبل أن أغادر باريس. خاب ظن كل من اعتقد أنه سيجد هنا متعًا كتلك المتوافرة في عاصمة فرنسا! وما زالوا ناقمين على ساڤاري Savary لأنه وصف مصر كالجنة الواعدة. وهم يعتقدون أن ڤولنيه كان محقاً في كل شيء وأعتقد أنهم على صواب».[١]

ويكشف هذا الخطاب عن حالة الإحباط التي اعترت أعضاء لجنة العلوم والفنون بعد الشهور الأولى من الحملة. كانت الأسابيع التي تلت عملية الإنزال من السفينة عصيبة. فلم يتسع الوقت أمام الجنود للاهتمام بالعلماء الذين أكلوا وسكنوا كيفما كان. وكثيرًا ما اضطروا إلى المبيت في الهواء الطلق. كان عددهم مائة وخمسة وستين[٢] فقد غادرهم أرنو Arnault ورينيو دي سان جون دانجيلي Regnault de St Jean d'Angély في مالطة. وقد تركوا تقريبًا لحالهم. وكان الجنود يتعاملون معهم كأنهم مؤن معوقة يتعثرون فيها. من هنا فليس بمستغرب أن يندموا أكثر من مرة على حياتهم المنتظمة في المتحف وكلية الهندسة ومعاملهم ومكتباتهم[٣]. من المؤكد أنه كان بينهم رجال نشيطون أطباء مثل ديجينت Desgenettes وجراحون مثل لاري Larrey وفنيون في الميكانيكا وقائدو منطاد مثل كونتيه Conté ومهندسو طرق وكباري وطباعون. وكان هناك عدد مماثل ممن يعملون في حقل العلوم البحتة علماء في الهندسة والفلك وعلم الحيوان وعلم النبات والتعدين هذا غير الفنانين والمصورين والرسامين والنحاتين والموسيقيين ورجال الأدب والصحفيين ورجال الآثار والاقتصاد وأناس معنيين بالأدب، أغلبهم، حيرتهم الحملة وبلبلت أفكارهم.

يضاف إلى كل ذلك الصعوبات التي لقوها للاستقرار في هذه المدينة الكبيرة التي تضج جنباتها بالعداء والحرارة المنهكة للقوى ورطوبة شهور الصيف والاغتراب الناتج عن غرس أناس في بيئة يجهلون لغتها وعاداتها ودينها. يتبين لنا من كل ذلك سبب نقمتهم على ساڤاري Savary .

بعد دخول بونابرت إلى القاهرة، حلت حياة المعسكرات المريحة نسبياً محل حياة المخيمات والمعارك والسير الإجباري الشاق. ومن هنا فقد هدأت النفوس قليلاً. وتم تأسيس «معهد مصر» على شاكلة «المعهد القومي بباريس» لم يضم هذا المعهد بين أعضائه العلماء المشكلين للجنة العلوم والفنون، غير أنه تصدرت أقسامه الأربعة صفوة منتقاة من المتخصصين في فروع العلم المختلفة ففي قسم الرياضيات كان هناك مونج Monge وجيرار Girard وفورييه Fourier وكوستاز Costaz وهي أسماء ستلمع لاحقًا في أكاديمية العلوم. أما في قسم الفيزياء فكان هناك برتوليه Berthollet وكونتيه Cont وديجنيت Desgenettes وجيوفروا سانت إيلار .geoffroy Saint - Hilaire وضم قسم الآداب والفنون كلاً من ڤيڤان دونان Vivant Denon والرسامين دوترتر A. Dutertre وريدوتيه H.J. Redouté[٤] والشاعر برسوڤال Parseval والمستشرق ڤنتور Venture أما قسم الاقتصاد السياسي فكان به الجنرال عالم الاجتماع كڤاريللي Cafarelli والحاكم السابق تاليان Tallien والدبلوماسي بوسيالج ...Poussielgue إلخ، كان مونج Monge نائب الرئيس بونابرت رئيسًا للمعهد. حفز إبداع هذه الكوكبة العالمة اللجنة كلها. وأصبح مقرها مركز أنشطة لكل الباحثين والمعنيين بالأدب والفنانين القادمين إلى الشرق. كان للمعهد موقع ممتاز فقد اكتشف كل من مونج Monge وبرتوليه Berthollet والجنرال كڤاريللي Cafarelli بالقرب من مسجد السيدة زينب مجموعة من القصور مملوكة لأمراء من المماليك هربوا بعد معركة الأهرامات مع مراد بك. كانت منازل حسن بك كاشف وقاسم بك وإبراهيم بك السناري محاطة بحدائق ظليلة.

وهذا المنزل الأخير باق حتى الآن(٥). وقد أقام الدكتور ش. جليياردو Gaillardot به متحفه عن بونابرت. قال عنه الرسام رودوتيه Redouté: «به أثاث بسيط مكون من حشية وبساط تم استكماله ببعض الأرائك الموازية للحوائط وبعض الأسلحة القديمة وأواني الزهور اليابانية وخزانات مملوءة بالغلايين التركية المرصعة وساعة حائط لبرتهود Berthoud كان هذا كله كافيًا ليخلق جوًا مريحًا مضيافًا»(٦).

كان هذا أفضل بالطبع من أنقاض الإسكندرية ومعسكرات الصحراء. تم إنشاء معامل الكيمياء والفيزياء في منزل حسن باشا كاشف إلى جانب قاعات الاجتماعات والمكتبة، ولاحقًا أول متحف للمصريات يضم توابيت وحجر رشيد الشهير الذي اكتشفه النقيب بوشار.

كانت اجتماعات الأقسام تنعقد بصفة منتظمة. وكان نابليون من حين إلى آخر يحضر العام منها. خلاصة القول أن الجميع شرعوا في العمل وكانت حياة العلماء فيه مستقرة إذا ما استثنينا فترة ثورة القاهرة وانعزال المعهد. ونسجل في هذا الصدد إحساسًا بالراحة ونبرة رضا وسعادة في رسالة أخرى بعث بها جيوفروا سانت إيلار Geoffroy Saint-Hilaire إلى كوڤييه Cuvier في الرابع من أكتوبر ١٧٩٨: «يمكنني القول إنه على الأقل، تعادل جلسات المعهد هنا في متعتها وأهميتها جلسات المعهد في باريس... أجد هنا حديقة فسيحة، حيوانات متوحشة، قاعات للفيزياء والتاريخ الطبيعي.. إخال نفسي في باريس وأجد نفسي مرة أخرى بين أناس لا يفكرون إلا في العلم.(٧) ويمكنني هنا أن أضيف أنهم أصبحوا أقل نقمة على ساڤاري Savary كبش فداء كل الغاضبين في جيش الشرق».

لا يسمح المجال هنا بدراسة كل أوامر وأذونات التشغيل الخاصة بلجنة العلوم والفنون(٨) نلاحظ أن الأبحاث في مجالات الجغرافيا وعلم التعدين وعلم النبات والزراعة وعلم المياه وعلم الأجناس ليست في نطاق اختصاصه».(٩)

سوف يقتصر دورنا على دراسة الدور الذي لعبه العلماء في البحث والتقصي المنهجي لمصر الإسلامية ومصر الفرعونية.

كانت مهمة مستشرقي اللجنة الأساسية تنحصر في الربط بين أفراد الشعب والسلطات الفرنسية وترجمة تصريحات مجلس القيادة العامة. كانوا إذًا وقبل كل شيء مترجمين فوريين وهو أمر واضح وجلي. ولكن لم ينأ بهم ذلك عن الطابع العلمي لمهمتهم.

متخصصون في علم الحيوان:

Duchanoy (1781-1850), Geoffroy Saint-Hilaire, de l'Institut (1772 - 1844), Al. Gérard, H.J.Redouté, peintre du Muséum (1766-?) 1, de Savigny, I.E., de l'Institut (1777-1851).

متخصصون في علم النبات:

(Alire), Raffeneau-Delile, L E. (1778-1850), Coquebert de Montbret (1801).

متخصصون في علم التعدين:

Cordier, de l'Institut (1777-1861), Dolomieu. L E. (1750-1801), Victor Dupuy, de Roziére.

جراحون وأطباء:

Desgenettes, I. E. médecin chef des armées (1762-1837), Ant. Dubois (1756-1837), chirurgien de Napoléon, Larrey, I.E., chirurgien en chef des armées (1766-1842), Pouqueville, historien, de l'Institut (1770-1838).

صيادلة:

Boudel, P.C. Rouyer (ne pas confondre avec Claude Royer, pharmacien chef de l'armée, mort au Caire en 1818).

فنانون وملحنون:

Denon, de l'Institut (1747-1825), Dutertre, professeur de dessin des Pages (1753-1842), Joly (1798), Rigel, musicien et littérateur (1772-1839), Rigo, peintre (1814), Villoteau (1772-1852)0

اقتصاديون ومعنيون بالأدب:

Bourrienne, secrétaire de Napoléon, I.E. (1769-1834), Céneral Cafarelli-Dufalga, I.E. (1756-1799), Desaix, I.E. (1768-1800), Lerouge (1801), Parseval-Grandmaison, I.E. de l'Académie Francaise (1759-1834), Poussielgue, Ripault, plus tard bibliothécaire des Palais impériaux (1775-1823), Tallien (1766-1820), Sulkowsky, gendre de Venture, adjudant général (1774-1799), mort au Caire.

طباعون:

Imprimeurs: J.J. Marcel (1776-1847), A. Calland, auteur du Tableau de l'Egypte

مستشرقون:

Orientalistes: Jaubert (1776-1847), Magallon (1741-1820), Venture (1738-1799), Delaporte, Belletêre, Santi L'homaca, Don Raphaël.

ألم يجلبوا معهم من فرنسا أكثر المؤلفات والكتب العربية أهمية، تلك التي أمكن حيازة النسخة المطبوعة منها؟ كان العالم الأثري ريبو Ripault قد رصها بعناية في رفوف المعهد. وقد سمح لبعض المصريين بالاطلاع عليها. ونجد أصداء لإعجابهم بها في وقائع الجبرتي. وقد استغل مستشرقونا فرصة وجودهم في القاهرة لتحسين معارفهم اللغوية. لم تكن المعارف رديئة. فأغلب هؤلاء المستشرقين كانوا إما قناصل محنكين مثل شارل مجالون Charles Magallon أو تراجمة جاؤوا من دواوين قنصليات الشرق أو طلابًا في مدرسة اللغات الشرقية بباريس. وكانت قد أقيمت بدلاً من «مجموعة شباب اللغات» التي كان كولبير Colbert قد أسسها وقام بالتدريس فيها إلى جانب الشهير

سلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy ورجال مثل لانجلس Langles وڤنتور Venture . كان هذا الأخير تحديدًا أكبرهم سنًا في «معهد مصر» لذا فقد تولى وهو في الستين من عمره قيادة مجموعة المترجمين الفوريين في الجيش. عمل ترجمانًا في تركيا في الشرق وفي أفريقيا. كان اسمه كاملاً ميشيل ڤنتور دي بارادي Michel Venture de paradis (١٧٣٨ - ١٧٩٩). شغل قبل الثورة وظيفة سكرتير مترجم للملك ومكلفًا من قبله بإعادة تنظيم القنصليات في البلدان غير المسيحية. وقد أصبح بعد ذلك أستاذًا للغة التركية في مدرسة اللغات الشرقية. بعد أن اتم الإشراف على تحرير ونشر أوامر وتصريحات بونابرت الموجهة إلى المصريين لم يستطع الصمود أمام متاعب الحملة على سورية ومات من الإرهاق عام ١٧٩٩ أمام سان چون داكر Saint Jean d'Acre. وقد حل محله نائبه الفارس الشاب أميديه جوبير Amedee Joubert (١٧٧٩ - ١٨٤٧) المترجم اللاحق للجغرافي العربي الإدريسي. كان جوبير Joubert تلميذًا لسلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy وقد كتب في كتاب «وصف مصر» دراسة عن بدو الحدود الفلسطينية. وقد أسدى خدمات جليلة للجنرال ديساكس Desaix ورافق فرقته مع ڤيڤان دونان Vivant Denon إلى «طيبة» ولا شك أنه قد احتفظ من حياته المجيدة بذكرى رائعة عن مدة إقامته على ضفاف النيل فقد كان من أكبر المشجعين بعد ذلك لمكسيم دي كوم Maxime Du camp لعمل رحلة إلى مصر والنوبة.

ولنذكر من بين المستشرقين الآخرين ج. د. ديلابورت J.D.Delaporte (١٧٧٧ - ١٧٦١) الذي عمل لاحقًا موثقًا للعقود ومترجمًا في طرابلس الغرب وطنجة. وقد زود القائمين بعمل خريطة مصر الكبرى بمدونة تصنيفية للقرى العربية كاتبًا أسماءها بالحروف اللاتينية وفق تعليمات ڤولنيه Volney(١٠) وكتب بعد ذلك لكتاب «وصف مصر» مختصرًا عن تاريخ المماليك. ولكن الذي ساهم بحق في نشر معرفة أفضل وأدق، وتقييم أصدق عن مصر العربية في فرنسا كان بلا جدال تلميذًا آخر لسلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy هو جون جوزيف مارسيل Jean-Joseph Marcel (١٧٧٦-١٨٥٤) لما كان قد بدأ حياته في مجال الصحافة فقد عهد إليه نابليون بإدارة مطبعة القاهرة القومية. وقد تم طلب بعض حروف الطباعة العربية وكذلك بعض الطبوغرافيين

الحاذقين من باريس. لدى مروره بروما استطاع مونج Monge جلب باقي المستلزمات والعاملين اللازمين. وضعت المطابع في قاعات المعهد. وسرعان ما بدأت في الدوران وقد قام ج.ج. مارسيل J. J. Marcel عدا تصريحات القائد الأعلى وأوامرالقيادة العليا والتنبيهات للمصريين، بطبع مائة وستة عشر عددًا من «بريد مصر» Courrier de L'Egypte وثلاثة مجلدات من «العقد المصري» La Decade Egyptienne وحوليات السنتين الثامنة والتاسعة إلى جانب تمارين في اللغة العربية الفصحى. بالإضافة إلى كتاب في نحو اللغة العربية الدارجة في مصر وسورية وكتاب باللغة العربية في تاريخ الاستيلاء على القسطنطينية وترجمة لتعاليم لقمان. وقد قام كذلك إثباتًا لقدراته كمترجم بترجمة L'Ode dithyrambique التي كتبها إلى بونابرت الشاعر السوري نقولا التركي كما ترجم حكايات الشيخ المهدي الموثق الشرعي بالقاهرة.(١١)

لم يكن يعادل حبه للعلم إلا شجاعته الأسطورية. فأثناء ثورة القاهرة في أكتوبر ١٧٩٨. وبينما كانت مدافع دومارتان Dommartin تدك الأزهر مركز القلاقل ألقى بنفسه في النيران لإنقاذ المخطوطات القرآنية وقد عين بعد الحملة عام ١٨٠٢ مديرًا لمطبعة باريس القومية. وبصفته هذه أشرف على نشر كتاب «وصف مصر» الذي ساهم في إعداده بدراسات عن مقياس النيل بجزيرة الروضة ومسجد بن طولون و«الكتابات الكوفية بمصر». وندين له كذلك ب «دروس في اللغة الأثيوبية» ألقاها لاحقًا في «الكوليج دي فرانس» وبملاحظات وحواشي لمجلدات بروتون دي لا مارتينيير Breton de La Martiniere «مصر وسورية». وقد وضع معرفته بالعالم الإسلامي وخبرته التي اكتسبها في مصر، في عملين كبيرين طواهما النسيان عن «التاريخ العلمي والعسكري للحملة الفرنسية على مصر» (١٨٣٠ - ١٨٣٦) كان قد كتبهما مع كاتب من مارسيليا يدعى لويس ريبو Louis Reybaud مؤلف كتابي: «چيروم باتورو» Jerome Paturot و«تاريخ مصر» قام بنشره مع بريس داڤان Prisse d'Avennes وأ. ريم A.Ryme في مجموعة الكون المصور. في هذا الكتاب تناول تاريخ السيطرة العربية ١٨٤٨ (١٢).

لم يكن بالإمكان تحديد تاريخ مصر القديمة قبل تدخل شامبليون وحله لرموز الكتابة الهيروغليفية (١٨٢٢). ولكن بعد ڤيڤان دونان Vivant Denon يدين القرن التاسع عشر في بداياته إلى مهندسي لجنة العلوم والآداب تحديدًا بمعرفته بالفن الفرعوني. وقد بينت لوحات كتاب «وصف مصر» بشكل رائع الهندسة المعمارية والنحت والفنون الصغرى الخاصة بالإمبراطورية الحديثة والعصر البطلمي. هذه اللوحات لم تكن لتوجد بدون رسومات البعثات العلمية وما استطاعت نقله من أشياء من صعيد مصر عام ١٧٩٩.

نتذكر معًا أن ڤيڤان دونان Vivant Denon كان قد التقى في «قنا» في يونيو ١٧٩٩ بأول حملة من هؤلاء العلماء وتحديدًا تلك التي كان يقودها المهندس وعالم الرياضيات بيير سيمون جيرار .Pierre Simon Girard وكانت هذه الحملة قد استضافت النحات كاستكس Casteix علمًا بأنها مكونة من أربعة مهندسين متخصصين في الطرق والكباري هم ديبوا إيميه Dubois - Aymé ودو شانوا Du chanoy ودو ڤيلييه دوتيراج de Villiers du Terrage وجولوا Jollois إلى جانب ثلاثة مهندسين متخصصين في المناجم هم: روزيير Roziere وديكوتيل Descotils ودوبوي Dupuis كان على هذه اللجنة دراسة أحوال النيل لم يكن جيرار Girard وهو يحصي قد التفت إلى فضول معاونيه الشبان جولوا Jollois [١٣] وڤيلييه دي تيراج De Villiers du Terrage اللذين كان اهتمامهما بالآثار يفوق انشغالهما بالري وفيضان النيل. وهما أول من رسما بدقة فلك بروج دندرة واكتشفا مقبرة امنمنحعات الثالث [أمينوفيس الثالث.]

ما إن وصل ثلاثتهم بالقارب إلى أسيوط حتى هرعوا إلى الجبل وقبوره. بينما كان قائدهم يبتعد عن الوادي مرافقًا حملة دانزالو Donzelot إلى البحر الأحمر ذهب ديبوا إيميه Dubois - Aym وجولوا Jollois وڤيلييه Villiers ليتأملوا معبد دندرة الذي ألهمهم كل الحماس. تركوا جانبًا عملية المسح والقياس. أي أهمية أمام هذه الروعة لقياس مستوى مياه النيل! عاد جيرار Girard أدراجه وغضب من إهمال معاونيه فأبعد ديبوا إيميه Aymé إلى القصير وأشبع الآخرين تعنيفًا.[١٤] فلم يكن إرسالهم إلى صعيد مصر ليلعبوا دور الهواة فلن يكونوا في أحسن الأحوال إلا علماء آثار لا قيمة لهم.

اتخذت البعثة طريقها إلى الكرنك ووصلت إلى هناك في الثامن والعشرين من شهر يونيو. أذهلت عظمة الأثر جولوا ودو ڤيلييه مما جعلهما يمضيان قرابة الأربع ساعات في التأمل والرسم وسط الأنقاض. بعد ذلك بيومين قاما بزيارة معبد إسنا. وقد تأكد لهما من معماره تفوق الفن الفرعوني. ولاستيضاح جوانب هذا التفوق يجدر بنا الاطلاع على يوميات دو ڤيلييه De Villiers الذي كان متأثرًا مثله مثل چولوا Jollois وكل أعضاء الحملة بذوق العصر والتقاليد الأكاديمية والكلاسيكية الجديدة المميزة للثورة وحكومة المديرين Le Directoire وبالتالي فقبل مجيئهم إلى مصر، كان الشكل الفني الأمثل بالنسبة لهما هو اليوناني الروماني. لدى رؤية چولوا ودو ڤيلييه لـ «دندرة» والكرنك، تشككا بعض الشيء في معتقداتهما ولكن رؤيتهما لمعبد إسنا حسمت الأمر وجعلتهما يسلمان بدون أي تحفظ بقوة هذا الفن وغموضه. ولكن جيرار Girard لم يشاركهما هذا الإحساس. ففي الرابع من يوليو، تم لفت نظر دو ڤيلييه De Villiers إلى ضرورة الالتفات إلى عمله. لحسن الحظ سافر الصديقان إلى أسوان بعد ذلك ببضعة أيام بصحبة النحات كاستكس Casteix (١٥) وقد استطاعا الرسم في هدوء لخمسة عشر يومًا بين أنقاض فيلة. اتسمت أذهانهما بالدقة والصواب مثلها في ذلك مثل أذهان كل علماء الرياضيات. وكان إعجابهما صادقًا أمينًا. من هنا لم يجدا أدنى صعوبة في تنفيذ رسومات واضحة دقيقة لا يشوبها أي ملمح للذاتية، وذلك رغم جهلهما بالكتابة الهيروغليفية. لديهما، لا نجد تلقائية ڤيڤان دونان Vivant Denon بالمرة ونفتقد العنصر الزخرفي فهو آخر ما يعنيهما.

كانا يرفعان بفادن مطمار ومزولة كل الرسومات التخطيطية للمعابد ثم يأخذان ببوصلة ولوحة ماسحة الرسم بحرص بالغ، وبالفرجار والمثلث ينقلان آليًا النقيشات والحروف الهيروغليفية والأكثر وضوحًا على الورق بدون أن يفقها شيئًا عن مدلولها.

بهذه الطريقة كان المهندسون يبدعون ويفتحون سبل الوصف والتعليق الموضوعيين التي كانت قبل ظهور التصوير الفوتوغرافي، الطريقة الوحيدة لنشر الآثار المصرية.

بعد بضعة شهور من مغادرتهما القاهرة، سافرت لجنتان علميتان أخريان بدورهما إلى الصعيد. الأولى برئاسة عالم الهندسة كوستاز Costaz وكانت مكونة من اثني عشر عضوًا وهم: كوكبير Coquebert وكورابوف Coraboeuf وكوتال Coutelle ولونوار Lenoir ولا باتو Labattu وميشان Mechain ونوويه Nouet وڤيار Viard وسان جيني Saint-Genis وعالم الحيوان ساڤيني Savigny والمهندس المعماري بلزاك Balzac وعالم الآثار ريبو Ripault.

أما اللجنة الثانية فقد رأسها عالم الرياضيات فورييه Fourier وضمت أحد عشر عالمًا، أسماؤهم كالتالي: جيوفروا سانت إيلار Geoffroy Saint-Hilaire وجومار Jomard وأرنوليه Amollet وڤيلوتو Villoteau ورافونو دليل Raffeneau-Delile ولانكريه Lancret وشابرول Chabrol وڤنسان Vincent. وروييه Rouyer والرسامين سيسيل Cécile ورودوتيه Redoute. كانت هاتان اللجنتان أوفر حظًا من ڤيڤان دونان Vivant Denon الذي اضطر في كل مراحل اكتشافاته إما إلى السير على قدميه أو إلى ركوب الجياد مع رتل الجنرال بليار Belliard. فقد كانت بصحبتهم على صفحة النيل قوارب تحمل المؤن والخيام ومستلزمات التخييم.

هبت رياح شمالية استغلها العلماء في الإسراع إلى أسوان حتى أنهم لم يتوقفوا أثناء رحلتهم إلا مرتين في أنتينوبوليس وأسيوط.

في رحلتهم النيلية هذه، وتحديدًا بين إدفو وجبل سلسلة، التقى أعضاء اللجنتين بزميليهما الشابين جولوا Jollois وڤيلييه Villiers اللذين عرضا أمامهم ما نقلاه من تصميمات وقياسات وجاهدا في إقناعهم بتطبيق نهجهما. وما إن التقت الأفكار حتى بدأ العمل. في أسوان درس العلماء الشلال وأرخبيله الصخري ومحاجر الجرانيت التي سبق ووفرت للفراعنة مسلاتهم وأعمدتهم. غير أنهم لم ينسوا في الوقت ذاته أن يقيموا حوامل

اللوحات في جزيرة فيلة وفي منطقة الفانتين الخضراء. طوى العلماء بعد ذلك أشرعتهم ومضوا يجدفون على سطح النيل على إيقاع غناء طاقمها.

مرت اللجنتان بذات المراحل التي توقف عندها ڤيڤان دونان Vivant Denon وقد كانت عملية تفقد معبد إدفو المطمور تحت أكواخ الفلاحين وأكوام الأنقاض عملية بالغة الصعوبة بالنسبة لهم. قام جومار Jomard بهذه المهمة ونظرات جموع الفلاحين القلقة والعدائية ترقبه في توجس. كانت صرخات النساء والأطفال في أذنيه وهو يهبط إلى ظلمات المبنى المدفون بحبل معلق. واستطاع في ضوء شمعة التجوال بين أفنية المعبد دراسة زخارفه.

في العشرين من سبتمبر ١٧٩٩ دخل كوستاز Costaz إلى مقابر «الكاب» «Elkab» الذي يعد Eleithias اليسياس العصور القديمة. وقد عُدّ هذا بالنسبة لأعضاء اللجنة اكتشافًا ذا دلالة. نالتهم ذات الدهشة التي اعترت ڤيڤان دونان وهو يزور مدافن شيخ «القرنة». حتى تلك اللحظة لم يكونوا قد رأوا إلا مناظر دينية أو حربية محفورة على جدران المعابد. وكانت أمامهم غائرة في حوائط الكهوف ومصورة كل الحياة الزراعية لقدامى الفلاحين صيدهم الأسماك والحيوانات حرثهم للأرض، بذرهم البذور وجنيهم للمحاصيل. هذه اللمسة الواقعية كانت مختلفة كل الاختلاف عن الرهبة الكهنوتية والأشكال الجامدة للوحات الطقوس الدينية والحربية. وقد أدهشهم هذا الاختلاف وأسعدهم في آن واحد.

لدى نزولهم في الكرنك في الثالث والعشرين من سبتمبر، كانت الأعلام الفرنسية ترفرف على الأعمدة. كان أول يوم في السنة الجمهورية. وكانت هذه بالنسبة للجيش المرة الثانية التي يحتفل فيها أفراده بهذه المناسبة في مصر[١٦]. زين الجنرال بليار Belliard بألوان الثورة الوليدة آثار أقدم استبداد وطغيان على وجه الأرض. وبدأت دراسة المعابد الواحد تلو الآخر.

على الضفة اليمنى، تمت دراسة معابد الأقصر والكرنك وميداموت وهو معبد منعزل ومهمل حتى يومنا هذا. أما على الضفة اليسرى فقد قاموا بدراسة معبد الرامسيوم ومعبدي مدينة هابو والقرنة. وشرع العلماء بعد ذلك في الكشف المنهجي عن وادي الملوك الذي لم يزر فيه دونان Denon في عجالة إلا مقبرة رمسيس الثالث وهي المقبرة التي يطلق عليها مقبرة عازف القيثار.

بعد ثمانية عشر قرنًا من الإهمال، نزلوا في أعماق المقابر الملكية الإحدى عشرة، التي كان المدخل إليها غير متاح وغير يسير. وقد وجدوا قبرًا إضافياً قيل إنه لأمينوفيس الثالث (امنمنحعات الثالث).[١٧] وقد كاد جومار Jomard وأحد مرافقيه أن يفقدا حياتهما في واحدة من هذه الحملات. كانا قد انغرسا ومعهما الشموع في تيه واحد من هذه القبور الفسيحة المحفورة في قلب الجبل. حين طار بغتة أحد الخفافيش عبر الممر الضيق وأطفأت رفرفة أجنحته الشموع. ما العمل؟ كانا أسيري الظلام الحالك، ولم يبق أمامهما إلا أن يموتا. ولحسن حظهما تعثرا في فتحة وهما يتلمسان طريقهما متشابكي الأيدي. وتذكرا حينئذٍ أنهما قد مرّا أثناء قدومهما ببئر. فهبطا فيه ببطء ثم عاودا الصعود فإذا ببصيص نور أمامهما.. كان شعاع الشمس الغاربة على مدخل القبر.

عند وصول العلماء إلى «جرجا» حدثهم قائد الحامية عن مجموعة كبيرة من الأنقاض على بعد أربعة فراسخ غربي النيل. فذهبوا إلى هناك من فورهم ولم يجدوا صعوبة في التعرف على معبد أبيدوس الذي سبق لسترابون Strabon وبلين Pline وبطليموس وصفه. وفي ما سبق كان الأب سيكار Sicard والطبيب جرانجيه Granger والمحافظ شيڤالييه Chevalier[١٨] استدلوا عليه. وكان ڤيڤان دونان قد حدد لهم مكانه. درسوا ووصفوا في إيجاز معبد «سيتي الأول» الذي كانوا قد أطلقوا عليه اسم «القصر»[١٩] والذي كان مدفونًا بالكامل تحت الرمال إلا أن علينا انتظار أعمال تنقيب مارييت Mariette وتقاريره قبل تكوين فكرة واضحة عن أبيدوس ومنحوتاته. وقد انتهت رحلة اللجنتين برئاسة فورييه Fourier وكوستاز Costaz في أكتوبر ونوڤمبر ١٧٩٩[٢٠]

عاد العلماء إلى القاهرة بحافظات أوراق مكدسة بالرسومات والملاحظات. كانوا قد صالوا وجالوا في صعيد مصر في أغسطس وسبتمبر أي خلال طقس قاس. كانت أرديتهم غير مريحة والسيوف المدلاة في جنباتهم تنغرز في سيقانهم. وقد عانوا الكثير بسبب سراويلهم اللاصقة وستراتهم الثقيلة وقبعاتهم العريضة السوداء في هذا القيظ. ولكنهم نسوا كل هذه المتاعب والحميات وجيوش الناموس التي تضبب كأعمدة الدخان فوق الحقول الغارقة في مياه الفيضان. امّحت من ذاكرتهم الصعوبات التي لقوها مع الأعراب والعسكريين، والمخاطر التي واجهوها وهم بمفردهم في غياهب الصحراء الليبية.

أي أهمية لكل ذلك ما داموا يحصلون على المادة اللازمة للكتاب الكبير «وصف مصر» الذي وضح الهدف منه؟ «كنا نستشعر الثمن الذي علينا دفعه مقابل الفرصة الثمينة الممنوحة لنا» قالها كوستاز Costaz ثم أردف: «كنا نرى أنفسنا محاسبين من قبل أوروبا المدركة لما يمكننا الإتيان به. وكنا نعد من واجباتنا أن نحسن توزيع مهامنا بحيث نستفيد من كل لحظة من أوقاتنا». لم ينقصهم الوقت. فرغم مطالباتهم واعتراضاتهم لم يتم إرجاعهم إلى أوطانهم إلا بعد عامين أي عام ١٨٠١[٢١] بعد استسلام مينو Menou.

كان عليهم استخدام كل دهاء الدبلوماسية حتى يتمكنوا من نقل مجموعات الأعشاب والمعادن والحيوانات وصناديق الخرائط والرسومات التخطيطية وبعض من الآثار التي وجدوها إلى فرنسا معهم، رغم حظر إنجلترا لذلك.[٢٢] نحن نعلم أن العدو قد قام بمصادرة حجر رشيد وتابوت نكتانابو مع أشياء أخرى ونقلها إلى المتحف البريطاني. بمجرد عودتهم إلى باريس، وبدفع شخصي من بونابرت بدأت ملامح العمل في الظهور عام ١٨٠٢.

في عام ١٨٠٢ صدر أمر للقناصل بمقتضاه يتم نشر «وصف مصر» على نفقة ميزانية الدولة ويتم صرف عائد ثابت لكل المتعاونين فيه. جمع المهندسون كل المستندات التي انتزعها الكولونيل جاكوتان Jacotin من أيدي الإنجليز والتي ستسهم في عمل خريطة مصر. وحضر ڤولنيه Volney لفحص أعمالهم وشرح نهجه في كتابة المصطلحات العربية بالحروف اللاتينية مع متابعة لتطبيقاته.

في عام ١٨٠٣ ألقى نابليون بنفسه نظرة على المقدمة التاريخية التي كتبها فورييه Fourier وعين جومار Jomard سكرتيرًا عامًا للتحرير. واستمر هذا الأخير في منصبه لمدة عشرين عامًا. يوزع العمل بين كافة المتعاونين في إنجاز هذا المؤلف. أما ج. ج. مارسيل J.J.Marcel فقد راقب عملية سحب الطبعات في المطبعة القومية. بذا ظهرت إلى الوجود فصول لوبير Lepere ودو جولوا de Jollois عن مصر الحديثة والإسكندرية ورشيد والقاهرة[٢٣]، وفصول أخرى نذكر منها:

فصول ديبواه إيميه Dubois-Aym عن الدلتا وما كتبه شابرول دي ڤولڤيك Chabrol de Volvic عن «عادات السكان من غير التقليديين في مصر»[٢٤] وفصول جومار Jomard وجولوا Jollois ودو ڤيلييه Du Villiers وسان جيني Saint-Genis عن «بقايا المدن المندثرة»[٢٥] إلى جانب فصول المستشرقين وعلماء النبات وغيرهم. وبدأت علاقات التعاون تتوطد أكثر فأكثر مع ازدياد المقارنة بين مصر القديمة ومصر الحديثة. فقد قام جومار Jomard بعقد مقارنة بين سكان العصور القديمة وسكان عصره.[٢٦] ودرس كوستاز Costaz طرق الزراعة لدى المجموعتين واختلاف العادات بينهما. أما ب. س. روييه P.C. Rouyer فقد رصد اختلافات الممارسات الجنائزية وأعمال التحنيط...إلخ.

بهذه الطريقة أمكن إخراج الجزء الأول من كتاب «وصف مصر» إلى الوجود عام ١٨٠٩ والذي نشر بناءً على أوامر صاحب الجلالة نابليون الكبير»[٢٧] لا أنوي القيام بتحليل هذه الموسوعة الهائلة. فبها شق كبير تابع لمجال العلوم أكثر منه انتماءً إلى تاريخ الأدب. فلم يكن من أهداف علماء الرياضيات جومار Jomard وجولوا Jollois ودو ڤيلييه Du Villiers وكوستاز Costaz أن يصبحوا أدباء. ولكن محصلة تعاونهم الطويل والدقيق هو أكبر مؤلف كتب في أي لغة وخصص لشعب. فهو يضم تسعة مجلدات من القطع الكبير للنصوص واثني عشر مجلدًا من القطع الكبير للرسوم التوضيحية. وقد تطلب نشره خمسة وعشرين عامًا من الجهود المشتركة. تطلب الأمر خلال هذه المدة

لإخراج لوحاته الستمائة وأغلبها باللونين الأبيض والأسود مع بعض منها بالألوان تشغيل صفوة الرسامين والمصورين والميكانيكيين والطباعين مع ما يقرب من أربعمائة عامل حفر.(٢٨)

بدأ العمل في كتاب «وصف مصر» عام ١٨٠٣ ولم ينته إلا عام ١٨٢٨. توقف خلالها خمس مرات نتيجة لاضطرابات سياسية ومالية. وإذا كان المجلد الأول من النسخة الأصلية قد أهدي إلى نابليون عام ١٨٠٨ فقد تصدرت أول مجلد من الطبعة الثانية المسماة بطبعة بانكوك Pan ckoucke صورة نصفية لـ «لويس الثامن عشر». وقد تم تقديم المجموعة الأخيرة من الرسومات التوضيحية إلى شارل العاشر عام ١٨٢٧ ويعد هذا الكتاب إنجازًا مشهودًا للعالم الفرنسي، فقبل ظهوره بنحو قرن، كانت مصر مدفونة، غارقة في ظلمات آلاف السنين. كانت بلاد فارس والهند والصين معروفة أكثر منها. لم يكن هناك من الرحالة إلا نحو اثني عشر واحدًا خاطروا بركوب النيل وكتبوا كتابات غير مكتملة عن رحلاتهم معظمها تقريبية، الآن تغير كل شيء. في عام واحد أضاءت العبقرية الفرنسية أعماق التاريخ وأخرجت لأوروبا بقايا تاريخ تليد وغامض. أصبحت مصر بفضلها محور دراسة علمية وبذلك فتحت أمام الباحثين في المستقبل آفاقًا واسعة.

ليس هذا كل شيء. فعلم المصريات لم يبدأ إلا باكتشاف حجر رشيد الذي أدرك جومار Jomard أهميته وحاول قبل شامبليون أن يفسره تفسيرًا موجزًا، وجعله محورًا ومادة أساسية لرسومات ومستنسخات ورسم ووصف ونقلها عنه الكثير من العلماء.(٢٩)

أخرجت لجنة العلوم والآداب التابعة لجيش الشرق إلى الوجود سلالة رائعة من المهتمين بمصر والذين كشفوا النقاب عن وجهها وأخرجوها من الظل أمثال شامبليون Champollion وبريس دافان Prisse d'Avennes وماربيت Mariette وماسبيرو Maspéro ومن تبعهم.

ويمكننا القول أخيرًا إن الفن الفرنسي مدين للحملة الفرنسية بواحد من أخصب مصادر وحيه. لا شك أن الوحدات الزخرفية الفرعونية التي كانت أشهر الصرعات في عهد الإمبراطورية لا ترجع فقط إلى الحملة كما أوضح لويس هوتكور Hautecoeur(٣٠)

فقد سبق لـ «كرشر» Kircher وكازاليوس Casalius وبينيوريوس Pignorius أن نشروا في القرن السابع عشر مجلدات عن الآثار المصرية القديمة. وقد ساهمت صور مؤلفات تيڤونو Thevenot وبول لوقا Paul Lucas وبنوا دو مايية Beno t du Maillet رغم القصور الواضح بها وألبومات بوكوك Pococke ونوردن Norden وسونيني Sonnini إلى جانب أعمال تنقيب تيڤولي Tivoli التي نفذت في موقع ڤيللا أدريان Adrien والتي أخرجت من تحت الأرض كل التماثيل المجلوبة من مصر بالإضافة إلى رسومات بومبي واحتفالات الآلهة إيزيس وتصميمات كاساس Cassas وكاراف Caraffe في نشر صورة مصر والذوق الفرعوني. وقد ورد أنه «منذ عصر لويس السادس عشر استخدم شكل أبي الهول في أذرع المقاعد وحوامل قطع الرخام في الأثاث وصبت من البرونز تماثيل لإيزيس زين بها مرمر المدفأة. أما المسلات فظهرت في الحدائق بجانب أكشاك الموسيقى ونماذج المعابد الصينية. في سوازي سوزيتيول Soisy sous-Etioles شيد ديبوا Dubois قاعة على الطريقة المصرية».(٣١) أهم ما في الأمر أن كتاب «وصف مصر» قد أحل المرجعية الدقيقة والصحيحة محل الرؤى غير الثابتة والتشويهات المزاجية. وقد استوحى منها المهندسون المعماريون الكثير. فقد شيد برال Bralle عام ١٨٠٦ في شارع سيڤر Sevrés نافورة هائلة تمثل نسرًا بجناحين مبسوطين مثل جناحي حورس يظللان شابّاً له ملامح Antinous وجسم بطلمي يصب جرار الماء، ذراعاه ملتصقتان بجسمه في جمود كهنوتي. في شارع «القاهرة» الذي افتتح عام ١٧٩٩ تزين واجهات المنازل وحدات زخرفية مصرية. أما في شارع «ليل» Lille وعلى واجهة فندق الأمير «أوجين» Eugéne تحديدًا فقد ألصق المهندس المعماري باتاي Bataille عمودًا فرعونيًا.

في مجال الرسم وفي حركة مناهضة للأسلوب الأكاديمي والجمال المجرد العام والكلاسيكية الزائفة الخاصة بمدرسة داڤيد David، ظهر ميل متواضع للإغرابية exotisme والبحث عن الملمح الدقيق المتفرد والطابع المحلي. في لوحات البارون جرو Gros العسكرية [معركة أبو قير ١٨٠٦] و [معركة الأهرامات ١٨١٠] وفي اللوحات التاريخية للرسامين الكلاسيكيين مثل جيروديه [Girodet ثورة القاهرة] أو جيران

Guerin [نابليون يعفو عن ثوار القاهرة ١٨٠٨] تختلط البزات العسكرية الخاصة بقاذفي القنابل والسيوف المتشابكة المقوسة منها والمعقوفة والسروج العربية ويجمع الزحام العمامات والجلاليب بوجوه جنود فرنسا والرؤوس المميزة للمماليك والفلاحين والنوبيين.

وتشكل رسومات دوتارتر Dutertre[٣٢] والبورتريهات الخاصة بدوسكس Desaix أمام جبل أسيوط [صالون ١٨٠٤] ومراد بك وباشا أبو قير [صالون ١٨١٢] ببحثها عن الصدق الشخصي والمزخرف، نقلة بين هوى وخيال مستشرقي القرن الثامن عشر ورومانتيكية ديلا كروا Delacroix ودي كوم Du Camp وماريلا Marilhat وشاسيريو Chasseriau. حل محل الشرق المزخرف الممتع شرقًا حسيًا، في كلمة واحدة، «شرق الرومانتيكيين».[٣٣]

أما بالنسبة للأدب فقد كان مقارنة بالباقي متأخرًا. فلا مصر الفرعونية ولا مصر العربية نجحت في إلهامه وإمداده بالوحي. شجعت الحملة بلا شك حركة الدراسات الاستشراقية ولكن هذه الحركة لم يكن لها انعكاسات أدبية فورية.

نذكر بالكاد بعض الاختيارات من المقطوعات الشعرية الشرقية المترجمة إلى شعر ونثر مثل ديوان فرانسيسك ميشيل (١٨٢٩) .Francisque Michel إذا ما نحينا جانبًا الأناشيد الكلاسيكية التي ألّفها برسڤال جرانميزون Parseval - Grandmaison بمناسبة أعياد أول سبتمبر بالتقويم الجمهوري في القاهرة، لا نسجل عملاً واحدًا حفزت الحملة على كتابته. في أوائل عام ١٨٣٠ ظهرت ملحمة تقريظية: «نابليون في مصر» Napoléon en Egypte لبرتيليمي وميري Barthelemy et Mery وهي بالتأكيد ليست أفضل أعمالها.

ويُظهر شعر ڤيكتور هوجو Victor Hugo الغنائي والمسرحي في مطلع شبابه رسوخ ذكرياته عن مدريد وتأثير أسبانيا والفن المغربي عليه وترجع المسرحيات التركية (أو بالأحرى المناهضة للتركية) المنشورة في «الشرقيات» Les Orientales إلى أعمال بيرون

Byron المتـرجـمـة ولوحـات ديلاكـروا Delacroix خـاصـة «مـذابح شـيـو» «Les Massacres de Chio» التي عـرضت في صـالون ١٨٢٤، وإلى حـركـة الأفكار التي أوجدتها حرب الاستقلال الهيلينية. وارت اليونان مصر وحجبتها. وكان على مصر للولوج إلى الأدب الفرنسي انتظار مقدم جيرار دي نرڤال Gérard de Nerval وتيوفيل جوتييه Théophile Gautier

سوف يذكر التاريخ لأبناء إخوتنا اسمك،
مونج، فورييه، ديبوي، جيوفروا، كونتيه، دونا
في المعهد الفرنسي أنتم الجالية المؤثرة
أنتم يا من تساندون وتعضدون عبقرية القائد الشاب
جامعين الفنون الجميلة في حزم ضوئية
معيدين العلم إلى مهده الأول (ص ٨٤)

****

BIBLIOGRAPHIE

I

- Gabriel Guémard. Essai de bibliographie critique de l'Institut d'Egypte et de la commission des Sciences et Arts (Bulletin de l'Institut d'Egypte), 1924, t. VI, p. 135-157[1].

- Gabriel Guémard. Essai d'histoire de l'Institut d'Egypte, Bulletin de l'Institut d'Egypte, 1924, t. VI, p. 43-84.

- Nouvelle contribution à l'histoire de l'Institut d'Egypte (Lettres écrites par les ingénieurs des Ponts et chaussées employés a l'armée du Caire) Bulletin de l'Institut d'Egypte, 1925, t. VII, p. 71-93.

- Supplément à la bibliographie critique de l'Institut d'Egypte, Bulletin de l'Institut d'Egypte, 1926, t. VIII, p. 220-249.

- Les orientalistes de l'armée d'Orient, Revue de l'Histoire des Colonies Françaises, 1928,. n{ 1.

- Les inscriptions françaises de l'enceinte du Caire, Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Paris, 1929.

- Bibliographie critique de la Commission des Sciences et Arts et de l'Institut d'Egypte. (Thése) Le Caire, Impr. Paul Barbey, 1936.

- C.de la JonQuiére, L'Expédition d'Egypte, Paris, Lavauzelle, 5 vol. in-8{, s. d. (inachevé).

- Rigault, Abdallah-Menou et la derniére phase de l'expédition d'Egypte (1799-1801), Paris, Plon, 1911 (complément de l'ouvrage de la Jonquiére).

- Jeas de Metz et G. Legrain, Aux pays de Napoléon, l'Egypte, Grenoble, Rey, 1913. Auriant, Deux hommes d'affaires et l'expédition d'Egypte, Le Monde Nouveau, 15 octobre et 15 novembre 1926.

- Le pharmacien Royer, L'Opinion, 20 mars 1926.

---

(1) Ces 10 volumes de textes se répartissent ainsi: 2 sur l'Histoire dEgypte des origines à l'expédition par J. J. Marcel, 6 sur l'expédition elle-même par L. Reybaud, 2 sur le régne de Méhémet-Ali jusqu'en 1833, par A. de Vaulabelle.

- Les origines de l'Institut Egyptien, Journal des Savants, mai 1926.

- II. Dehérain, L'exploration de la Haute-Egypte par la commission des Sciences et Arts de l'armée d'Orient en 1799, Revue Historique, mars-avril 1931.

- François Charles-Roux, Le but colonial de l'expédition française en Egypte. Revue des études napoléoniennes, 18e année, t. I, p. 122-139. Débuts de savants français sur la terre d'Egypte, Revue française de Prague, 15 juin 1932.

R.G Canivet, L'imprimerie de l'expédition d'Egypte et les procés-verbaux de l'Institut, Bulletin de l'Institut Egyptien, 1909, 5e séric, t. III, p. 1-22.

- La Bibliothéque de l'expédition, Revue Internationale d'Egypte, 1906.

- Georges Legrain, Inscriptions françaises de Haute-Egypte (Thébes, Esneh, Edfou, Assouan, Philé). Compte-rendu de l'Académie des Sciences morales et politiques, 1911, 2e semestre, p. 608-630.

- Albert Geiss, Histoire de l'Imprimerie en Egypte, Bull. de l'Institut égyptien, 5e série; 1907, p. 133-158; 1908, p. 195-321.

- Jean-Edouard Goby, La composition du premier Institut d'Egypte, Bull. de l'Institut d'Egypte, session 1946-1947, p. 345-368 et session 1947-1948, p. 81-100.

- Henri Munier, Tables de la Description de l'Egypte, suivies d'une bibliographie sur l'expédition française de Bonaparte, Le Caire, Société royale de Géographie d'Egypte, 1943.

- De Regney, Mémoire sur l'ancien Institut d'Egypte, Bull. de l'Institut égyptien, 1867, p. 66-70.

- W. Abbate, Bonaparte et l'Institut d'Egypte, Bull. de l'Institut égyptien, 1889, 2e série, p. 3-29.

- Pierre Vierge, Les lectures de Bonaparte en Egypte, Mercure de France, 15 février, 1907, p. 633-640.

II

- Gonsulter en outre les notices biographiques et monographies consacrées aux savants de l'Institut d'Egypte mentionnés dans le chapitre III.
- De la Roquette, Notice sur Jomard, Bulletin de la Société de Géographie, 1861-1862. Schwob, Jomard, Bulletin de l'Institut Egyptien, 1862.
- Comte J. Boselli, Edme-François Jomard, Revue d'Egypte, 4e année, t. IV, janvier avril 1897.
- Du Bus, Jomard, Communication faite au Congrés international de géographie, Paris, 1931.
- Du Villiers du Terrage, Notice sur Jollois, 1842.
- Mary, De Villiers du Terrage, Annales des Ponts et Chaussées, 1855, t. IX.
- Alfred Maury, De Villiers du Terrage, Bulletin de la Société des Antiquaires de France, 1857.
- Isidore Geoffroy, Vie, travaux et doctrine d'Etienne Geofroy Saint-Hilaire, Paris, 1847.
- Champollion-Figeac, Fourier et Napoléone, l'Egypte et les cent jours, Paris, Didot 1844.
- G. Legrain, Guillaume-André Villoteau (musicographe de l'expédition), Bulletin de l'Institut d'Egypte, 1917, 5e série, t. XI, p. 1-30.
- G. Daressy, L'ingénieur Girard et l'Institut d'Egypte, Bulletin de l'Institut d'Egypte, 1909.
- P. Pallary, M.J.C. Savigny. Sa vie et son oeuvre, Mém. Institut d'Egypte, t. XVII, 1931.
- P. V. Aubry, Monge, le savant ami de Napoléon Bonaparte, Paris, Gauthier Villars, 1954.

- De Pongerville, Gaspard Monge et l'Expédition d'Egypte, Rev. Orientale et Américaine août 1860, p. 348-366.

- Jomard, Souvenirs sur Gaspard Monge et ses rapports avec Napoléon. Paris, E. Thunot et Ce, 1853.

- Notice biographique sur Venture de Paradis, Recueil de voyages et de mémoires, publié par la société géographique (Paris), t. VII, p. vII-xvII.

- Notices biographiques sur M.J.G. Conté, ATHEN.UM, ou Galerie des productions de tous les arts, 1807, n. 2, p. 1-13.

- Notice sur la vie et les ouvrages de Cl.-L. Berthollet. Anneci, A. Burdet, 1844.

- J. E. Goby, Antoine-François- Ernest Coquebert de Montbret, bibliothécaire du premier Institut d'Egypte, Bull. de l'Institut d'Egypte, session 1948-1949, t. XXXI, p. 76-88.

- Edouard Driault et Emile Houth, Alyre Raffeneau-Delille, Bull. de l'Institut d'Egypte. session 1933-1934, t. XVI, p. 85-92.

- François Charles-Roux, Une académie coloniale au Caire sous Bonaparte, Revue de Paris, janvier 1933; Emotions et travaux de l'Institut d'Egypte, Revue de Paris, 1934; Bonaparte et l'indigéne d'Egypte, Rev. historique, 1933; Bonaparte gouverneur d'Egypte, Paris, Plon, 1936.

- Geiss, Histoire de l'imprimerie en Egypte, Bulletin de l'Institut d'Egypte, 1907.

- Wassef (Amin), L'information et la presse officielle jusqu' à la fin de l'occupation française, thése de doctorat d'Université, Paris, dactyl., 1952.

- Abbate (W.), Bonaparte et l'Institut d'Egypte, Bulletin de l'Institut Egyptien, 1881.

- Goby (Jean-Edouard), la composition du premier Institut d'Egypte, Bulletin de l'Institut d'Egypte, t. XXIX, 1947-1948.

- Pallary (Paul), Le corps des ingénieurs géographes de l'Armée d'Orient, La géographie, t. 66, 1936, p. 285-296.

- Houth (E.), Jomard l'Egyptien, Bulletin de l'Institut d'Egypte, t. XV, 1932-1933, p. 259-266.

- Munier, Tables de la Description de l'Egypte, suivies d'une bibliographie sur l'Expédition de Bonaparte, Le Caire, 1943.

- Turc (Nicolas), Chronique d'Egypte (1798-1804), publ. par Gaston Wiet, Le Caire, 1950.

- Ellul (Jean) Index des communications et mémoires publié par l'Institut d'Egypte (1859-1952), Le Caire, 1952.

III

- Consulter aussi les périodiques publiés en Egypte pendant l'occupation:

- Le Courrier de l'Egypte (du 12 Fructidor an VI an 20 Prairial an IX - 116 numéros).

- La Décade égyptienne, Journal littéraire et d'économie politique, 3 vol. in-4{, an VII, an VIII et an IX. (Traductions de J. J. Marcel, poémes de Parseval.)

- Les articles de la Décade ont été réimprimés dans deux recueils officiels, les Mémoires Didot et les Mémoires Baudouin: Mémoires sur l'Egypte publiés pendant les campagnes du général Bonaparte dans les années VI et VII de la République: 4 vol. in-8e an VIII-an XI, Didot. Autre édition, 1 vol. in-8e, Baudouin, fructidor an IX.

IV

- Consulter enfin et surtout les textes originaux et les souvenirs des témoins de l'expédition:

- La Description de l'Egypte, édition Imprimerie Nationale, 9 vol. texte in-folio et 11 vol. planches grand in-folio, Paris, 1809-1828.

- Edition Panckoucke, 24 vol. in-octavo, et 12 vol. planches in-folio, Paris 1821-1829.

- Napoléon, Correspondance, éd. Plon. 1860, t. IV, p. 250 et t. V, p. 71 en particulier.

- Mémoires pour servir à l'histoire de France sous le régne de Napoléon, écrits Sainte-Hélène par les généraux qui ont partagé sa captivité, 2 vol. Paris, Didot, 1823, t. II, chapitre sur l'Egypte, sa géographie, sa religion, ses usages, etc. (rédigés par Gourgaud).

- Guerre d'Orient campagnes d'Egypte et de Syrie, publiées par le général Bertrand, Paris, Imprimeries réunies, 1847 et dans les Commentaires de Napoléon, Imprimerie impériale, 1867.

- Louis Rayband (X.B.Saintine et J.J.Marcel), Histoire scientifque et militaire de l'expédition française d'Egypte (d'aprés les mémoires, matériaux, documents inédits fournis par le général comte Belliard, Boucher, le marquis de Chateau-Giron, le baron Desgenettes, Poussielgue, Redouté, etc.) 10 vol. in-8e, ornés de 158 portraits par Dutertre, et 2 vol. atlas in-4e oblong de gravures et cartes, comprenant ensemble 310 planches(1), Paris, 1830-1836.

- E.P. H (erbin de Halle), Conquêtes des Français en Egypte, ouvrage dans lequel on joint à la description géographique l'histoire des révolutions, le tableau des moeurs el coutumes des peuples anciens et modernes qui ont habité ce pays... Paris, in-8{, An VIII.

- Etienne Geoffroy Saint-Hilaire, Lettres écrites d'Egypte, publiées par le D' E. T. Hamy, Paris, Hachette, 1901.

- E. F. Jomard, Relation de l'expédition scientifique des Français en Egypte, Encyclopédie des Gens du Monde, t. XIV, 2e partie, p. 749.

- P. Jollois, Journal d'un ingénieur attaché à l'expédition d'Egypte (1798-1802), publié par P. Lefévre-Portalis, Paris. Leroux 1904. - Cet ouvrage est suivi d'extraits de notes par Fourier, Ad. Delile, Balzac, Descostils, Jomard, Saint-Genis. coraboeuf et J. D. (Bubois-Aymé?).

- E. de Villiers du Terrage, Journal et souvenirs sur l'expédition d'Egypte (1798-1801), mis en ordre et publiés par le baron Mare de Villiers, Paris, Plon, 1910. [Henri Jean Redouté], L'Egypte en 1798. D'aprés le journal inédit d'un membre de l'Institut, par Aei. Hermant, Revue Bleue, décembre 1894 à mars 1895, 4e série, vol. III, p. 48, 173, 235, 304.

- A. Galland, Tableau de l'Egypte pendant le séjour de l'armée française, avec un coup d'oeil sur l'économie politique de ce pays, 2 vol. Paris, 1803.

- De Bourrienne, Mémoires sur Napoléon, le Directoire, le Consulat, l'Empire, et la Restauration, 10 vol. Paris, Ladvocat, 1829.

- Desgenettes, Histoire médicale de l'armée d'egypte, 2 vol. Paris, Pougens, 1802.

- Souvenirs d'un médecin de l'expédition d'Egypte- Paris, Calmann-Lévy, 1892.

- Ch. Norry, Relation de l'expédition d'Egypte, suivie de la description de plusieurs monuments de cette contrée, Paris, Pougens, an VII.

- E. L. Malus, Journal manuscrit de son séjour en Egypte (3 ventásc An VI-2 thermidor An IX. Bibliothéque de l'Institut de France (MS. 1693).

- Manuscrits de la Bibliothéque Nationale relatifs à l'expédition et à la Description de l'Egypte: lettres adressées à Jacotin par Jomard, Andréossy, Dubois-Aymé, Dutertre, etc. (MS. fr. II, 11275), papiers de Venture de Paradis (MS. fr. nouv. acq. 9134-9138), correspondance relative à la publication de l'ouvrage (MS. fr. nouv. acq. 21934-21992).

****

الهوامش

١ - جـيـوفـروا سـانـت إيـلار Geoffroy Saint - Hilaire «رسـائل مـصـر» Lettres d'Egypte Hachette ١٩٠١ ص ٦٥.

٢ - كانت القائمة التي تم عملها في تولون Toulon تضم ١٦٧ [انظر الجدول المدرج ص ١٤٨ في الحاشية رقم ١].

٣ - أحاسيس الندم والصبر والسأم ظهرت مرة أخرى لاحقًا عند سفر بونابرت خاصة في السنة الأخيرة لهم في مصر انظر يوميات ردوتيه Revue Bleue Journal de Redouté ١٨٩٥ المجلد الثالث ص ٢٣٦.

٤ - كان أندريه دوترتر Dutertre ١٧٥٣ - ١٨٤٢ متمسكًا جدًا بمجموعة رسوماته. ويحكى أنه عند عودة ديجنيت Desgenettes من سورية سأله:

- ما أخبار فلان؟ مات

- خسارة ليس عندي، وفلان؟ مات أيضًا.

- لا يعنيني الأمر كثيرًا فهو لدي.

- راجع ما كتب في يوميات دو ڤيلييه journal de Villiers de Terrage طبعة ١٨٩٩ ص ٣٥٥

٥ - «يوميات رودوتيه» Journal de Redoute «لا روفو بلو» La Revue Bleue ١٨٩٥ المجلد الثالث ص ١٧٥.

٦ - ج. لوجران G. Legrain «بيت إبراهيم السناري» «La Maison d'Ibrahim El Sennary» مذكرات المعهد المصري ١٩١٥ الجزء الثامن ص ص ١٧١ - ١٨٣.

٧ - «رسائل من مصر» Hachette Lettres écrites d'Egypte، ١٩٠١ ص ٩٣.

٨ - راجع جبرييل جيمار، «مقال في تاريخ معهد مصر» نشرة معهد مصر ١٩٢٣ - ١٩٢٤.

Cf. Gabriel Gué mard, Essai d'histoire de L'Institut d'Egypte, Bulletin de L'Institut d'Egypte, 1923 - 1924, t VI, p42-84

٩ - قائمة بأسماء أعضاء لجنة العلوم والفنون الرئيسية علمًا بأن أكمل القوائم ظهرت في نهاية يوميات دو ڤيلييه دي تيراج E.de Villiers du Terrage الناشر Plon ١٨٩٩.(*)

١٠ - كان ڤولنيه اعتبارًا من ١٧٩٥ قد بدأ في نشر دراسته الغريبة بعنوان: «طريقة تعلم اللغات العربية والفارسية والتركية بالحروف الأوروبية». وقد نشر عام ١٨١١ أبجديته الأوروبية مطبقة على اللغات الآسيوية.

١١ - «الليالي العشر الحزينة» و«حكايات عبد الرحمن» مترجمة إلى العربية طبقًا لمخطوط الشيخ المهدي، ثلاثه مجلدات، باريس ١٨٢٩، حكايات الشيخ المهدي باريس ١٨٣٦.

١٢ - لا أتناول هنا بالحديث المستشرقين الآخرين باللجنة. فقد كان كلاهما من الأجانب. الترجمان اليوناني ج. ب. لوماسا J. B. Santi L'Homaca وهو قريب لأندريه شينيه Andre chenier والراهب السوري دون روفائيل دوموناشي Don Raphaël de Monachis عضو «معهد مصر» وأستاذ اللغة العربية بباريس لاحقًا. انظر جيمار Guemard في المرجع السابق ذكره وش. بيشاتلي Cuémard نشرة معهد مصر الجزء الثالث عشر ١٩٣٠ - ١٩٣١ ص ص٢٨ - ٣٥.

١٣ - راجع يوميات ديبوا إيميه Dubois - Aymé ووصف جولوا Jollois وڤيلييه Villiers الذي أشار إليه دي ميتز De Metez ولوجران Legrain في كتابهما «في بلاد نابليون، مصر» Aux pays de Napoléon, L'Egypte، ١٩١٣ ص ص ١٢٢ - ١٢٣. بعد عودته إلى فرنسا أصبح جولوا كبير مهندسي الطرق والكباري في منطقة Vosges واستمر في الاهتمام بالتاريخ والآثار. ونحن ندين له بقصة «جان دارك المصورة» التي نشرها عام ١٨٢١.

١٤ - فيما يتعلق برعونة جيرار وانعدام المهارة لديه، راجع يوميات جولوا Journal de Jollois باريس ١٩٠٤ - ص ص ١٠ - ١١.

---

* - هناك قوائم أخرى ناقصة في كتاب «تاريخ الحملة الفرنسية على مصر» لـ مارتان ١٨١٥ Histoire de L'Exp dilion، française en Egypte de Martin» وكتاب «تاريخ الحملة» ل ج. ج. مارسيل وسانتين وريبوه ١٨٣٠.

L'Histoire de L'Expé dition" de J.J. Marcel X.B. Saintine et L .Reybaud

وفي القاموس الموسوعي بقلم (لوبا) Le Bas باريس ١٨٤٣ الجزء الثاني عشر ص ص ٦٠٧ - ٦١١ وفي «يوميات بوريين» Mémoires de Bourrienne دار نشر Savine الجزء الثاني ص ٩٢٢، ذكر مارسيل J.J. MarcelJ أنها تضم ٢٤١ عضوًا أما ڤيلييه فقد أحصاهم ٥٧١ عضوًا ضامًا بعض الضباط الذين ساعدوا اللجنة بدون أن تكون لهم عضوية رسمية بها.

قام الرسام دوتارتر Dutertre برسم ٧٦١ وجه بورتريه.

كان عضوًا في معهد مصر.

- يجدر هنا عدم الخلط بينه وبين أخيه ب. ج. رودوتيه P.J.Redouté (١٧٥٩ - ١٧٤٠) الذي يطلق عليه اسم «رافائيل الزهور» Raphaël des fleurs.

١٥ – كاستكس Casteix هو الذي قام بحفر نقوش تخلد انتصارات ديساكس Desaix على عمود في معبد فيلة الكبير.

١٦ – راجع ما قبل ص ١٢٨.

١٧ – حدد بلزوني Beizoni عام ١٨١٧ مكان ست مقابر أخرى. وفي عام ١٨٣٥ حصر ويلكنسن Wilkinson القبور ووجدها ٢٥ قبرًا. أما تيودور دي سيسيل Diodore de Sicile فقد ذكر أنها ٧٤ قبرًا. راجع ما قبل ص ٥١.

١٨ – استخدمه سافاري Savary راجع ما سبق المجلد الثاني. حاشية ص ٣٥.

١٩ – احتفظ بهو الأعمدة في الكرنك والرامسيوم وكل معابد طيبة بهذا المسمى في رسائل شامبليون ١٨٢٨ – ١٨٢٩.

٢٠ – عاد رودوتيه Redouté إلى القاهرة في الرابع من نوفمبر ١٧٩٩ بعد واحد وسبعين يومًا من الغياب.

٢١ – تمتلئ يوميات رودوتيه Redouté بشهادات واعترافات ذات دلالة عن حالة الملل ونفاد الصبر والحنين للوطن التي أحسوا بها. كانت ترددات «مينو» تثير غضبهم وقال جيوفروا سانت إيلار geoffroy Saint - Hilaire في هذا الصدد: «إلى متى نبقى لعبًا في أيدي الجنرالات يتصرفون في أمورنا وكأننا أطفال».

رودوتيه Redouté لاروڤو بلو La Revue Bleue، ١٨٩٥ المجموعة الرابعة، المجلد الثالث ص ص٢٣٩ – ٢٤١.

٢٢ – المرجع السابق، ص ٣٠٠ وما يليها.

٢٣ – «وصف مصر» دراسات حديثة، الجزء الثاني ص ص ،٢٦٩، ٣٣٣، ٥٧٩.

٢٤ – ذات المرجع، الجزء الثالث ص ٣٦١.

٢٥ – ذات المرجع، الجزء الأول، ص ص٦٠٧، ٨٤٧. أصدر دو ڤيلييه Du Villiers وجولوا Jollois معًا وصفًا لطيبة وإسنا وإدفو وكوبتوس ودندرة. وكتب دو ڤيلييه وحدة الفصل الخاص بآثار برزخ السويس

٢٦ – الآثار القديمة، الجزء الثاني ص ٨٨.

٢٧ – يجدر بنا هنا أن نذكر أن كليبر كان قد كوّن عام ١٧٩٩ لجنة للنشر وأن أول مشروع لهذا الكتاب كان قد تم عام ١٧٩٩ على يد المواطن هاملان Hamelin زوج Muscadine الشهيرة حين كان مسئولاً عن مؤن الجيش وصحب لجنة فورييه Fourier إلى الصعيد. ولكن العقد الذي وقعه فورييه وهاملان لم يقم نابليون بالتصديق عليه.

راجع أوريون Aimant «رجلا أعمال وحملة مصر» Deux hommes d'affaires et d'Egypte مجلة العالم الجديد «لوموند نوڤو» Le Monde Nouveau عدد ١٥ أكتوبر ١٥ نوڤمبر ١٩٢٦ ص ص ٩١١ – ١٠٤٤.

٢٨ – حفر أندريه ديتارتر بنفسه عددًا كبيرًا من المناظر الطبيعية ورسوم البورتريه.

٢٩ – يمكننا الاستدلال على عودة الاهتمام بهذه الأشياء الخاصة بمصر من خلال إعادة الطبع التي تمت لدراسة أنطوان كريسوستوم كاترمير دي كوينسي Antoine-Chrysostome quatremre de quincy عن الهندسة المعمارية المصرية منظورًا إلى نشأتها ومبادئها وذوقها ومقارنة من خلال ذات المحاور بالهندسة المعمارية اليونانية. هذه الدراسة كانت قد حصلت عام ١٧٨٥ على جائزة أكاديمية النقوش والآداب (مما يثبت أنه كان هناك اهتمام بالأمر أثناء حكم لويس السادس عشر) قرأها باهتمام عام ١٨٥٥ بارتيليمي سانت إيلار Barthlemy Saint - Hilaire راجع الجزء الثاني.

٣٠ – راجع لويس هوتكور Louis Hautecoeur «روما ونهضة الآثار القديمة في نهاية القرن الثامن عشر».

Rome et la Renaissance de l'antiquité la fin du XVIIIe siécle, Paris, 1912

٣١ – لويس هوتكور Louis Houtecoeur «الحملة على مصر والفن الفرنسي في مجلة الدراسات النابولونية» يناير فبراير ٩٢٥ – ص ص ٨١ – ٨٧.

L'Expédition d'Egypte et l'art français. Revue des éhides napoléoniennes

٣٢ – فرانكاستل A.Francastel رسومات دوتارتر في متحف ڤرساي ص ص٨٨ – ٩٦.

٣٣ – L. Hautecoeur المرجع السابق ص ٨٧.

– مع وجود هذه القائمة الدقيقة للمراجع يبدو لي غير مجدٍ ذكر عناوين كل الوثائق المعروفة والخاصة بمعهد مصر. لذا فلن أشير إلا إلى الأعمال التي اطلعت عليها تاركًا كل ما نشر عن التاريخ العسكري والسياسي والاقتصادي للحملة.

****

البـاب الثالث

الفصل الأول

مصر الجديدة وضيوف محمد علي

ظهر الألباني الكبير «محمد علي» على مسرح الأحداث فور رحيل الفرنسيين. كان واليًا على القاهرة (باشا). وجه ضربات مقاومته إلى ثلاث جبهات في آن واحد: أولها تركيا وثانيها إنجلترا ليضمن استقلال مصر، وثالثها إلى منافسيه من المماليك ليرسي دعائم سلطته. بقبضة نشطة رج جنبات البلد وأعاد تشكيلها. لم يعد ممكنًا مرافقة الرحالة الفرنسيين في جولاتهم بمصر إلا بعد اصطحابهم إلى قصر القلعة للاستئذان.. القلعة التي كانت دماء مذبحة المماليك (١٨١١) ما زالت تلطخ جدرانها. وهناك ملحوظة تفرض نفسها علينا ونحن نتهيأ لمتابعة زائري مصر الجديدة عبر أسواق القاهرة وعلى ضفاف النيل.

شهدنا حتى هذه اللحظة اكتشاف مصر القديمة بمراحله المختلفة تحررت مومياء الفرعون المهيب شيئًا فشيئًا من شرائط كفنها وطرحت عن وجهها قناعها الذهبي وقعدت تاركة لنا حدس صورتها في غياهب القبر أضحت مصر أخرى، فتية واثقة الخطى. رداؤها تركي ولكنها ترنو بإعجاب للباسنا الغربي وعاداتنا الأوروبية. اختارت بجسارة الالتفات إلى فرنسا تحديدًا طالبة منها العون في تأثيث بيتها وحرث أرضها وتعليم جنودها.

وهذا يعني أن المكان كان ينبغي أن يهيأ ليضم إلى جانب الرحالة العابرين وسفراء السياسة والعلم والأدب الفرنسيين بعضًا من بني جلدتنا جاؤوا تلبية لنداء محمد علي ليأخذوا مكانهم بالقرب منه. لم يتسن له رسم شكل ومعالم هذا الحضور للفنيين الذين كان في حاجة إليهم لتنظيم بلاده إلا بعد هزيمته لمنافسيه وانتصاره على الفوضى الداخلية وتعزيز مكانته وقدرته. كان في مطلع القرن قد نجح بدون شك في فرض نفسه

على الباب العالي كوالي (باشا) لمصر ولكن الصراع بينه وبين المماليك كان مستمرًا. اثنان منهما تحديدًا كانا شديدي المراس وهما: البرديسي والألفي بك.

حين حطت السفينة بـ «شاتوبريان» على أرض الإسكندرية في العشرين من أكتوبر ١٨٠٦ كانت الحرب الأهلية دائرة في منطقة الدلتا.

لم يكن السيد شاتوبريان حديث العهد بالسفر والارتحال. كان قد بلغ الثامنة والثلاثين وقطع شوطًا ليس بالهين في حياته العملية في بداية الثورة، كان قد شد الرحال إلى أمريكا. ولكنه عاد إلى فرنسا بعد أقل من عام ليضع سيفه في خدمة الملك. بعد عودته بنحو ثلاثة شهور، تزوج في عجالة من فتاة كانت لا تعبأ به كثيرًا. وغداة اقترانه بها، تطوع في جيش الأمراء. عقب إصابته في حصار تيونفيل Thionville أمضى بضعة سنوات في إنجلترا عانى فيها من العزلة والكآبة والبؤس.

كان خلال هذه الفترة، يتكسب قوته من دروس اللغة الفرنسية وشهدت هذه السنوات كتابة مؤلفه المثير والمشوش: «مقال عن الثورات» Essai sur les Révolutions (١٧٩٧). ثم عاد مرة أخرى إلى فرنسا وأمضى فترة هادئة تزامنت مع المعاهدة البابوية وإصلاح المذهب الكاثوليكي Concordat de la restauration du culte catholique كتب فيها «عبقرية المسيحية» Le Génie du Christianisme (١٨٠٢). أعاد نابليون فتح الكنائس وأعاد هو الناس إليها. كانت النساء تحب شعره الغزير وعينيه الحزينتين واعتداده بنفسه. كن يتنسمن عبق «أتالا» Atala، هذه الزهرة الحزينة البرية التي جلبها لهن «رينيه» « Ren من صحارى العالم الجديد. كثيرات وقعن أسيرات حبه. فاضت روح مدام دي بومون Madame de Beaumont بين ذراعيه، وهامت به المركيزة دي كوستي La marquise de Custine والدوقة دو دورا Duchesse de Duras وكان نابليون يرقب من بعيد سطوة شاتوبريان هذه، ويفكر في استقطابها.

لذا فقد عيّنه عام ١٨٠٣ سكرتيرًا لسفارة فرنسا في روما. وفي عام ١٨٠٤ كلفه بالعمل وزيرًا مفوضًا في منطقة الـڤاليه Le Valais. لدى تسلمه العمل، علم بأنه قد حكم

على الدوق دانجيان Duc d'Enghien بالإعدام ونفذ فيه الحكم في ڤنسان Vincennes انتابه إحساس بالسخط فقدم استقالته إلى القنصل ومن هنا حدثت القطيعة. لم تكن بالطبع قطيعة نهائية لا رجعة فيها. فحتى بما وصل إليه من شهرة ومكانة، لم يكن شاتوبريان Chateaubriard يستطيع تحدي نابليون «إمبراطور الفرنسيين». كان الحل إذًا في أمر من ثلاثة: إما الاختفاء عن الأنظار وإما المقاطعة وإما السفر. مالت نفسه إلى الحل الأخير. ومن هنا فقد قام برحلته إلى الشرق في الفترة من يوليو ١٨٠٦ وحتى يونيو ١٨٠٧.

لنلاحظ أن الأمير تاليران Talleyrand وزير الخارجية قد أوصى عليه سرًا كل أعضاء السلك الدبلوماسي وأوصى بالاحتفاء به وحسن استقباله في كل دول الشرق. وقد تم له ذلك في أثينا لدى ڤوڤل Fauvel وفي القسطنطينية لدى سيباستياني وفي الإسكندرية لدى دروڤيتي Drovetti. أول ثمار هذه الرحلة كان نشر عملين: أولهما «الشهداء» Des Martyrs (١٨٠٩) وثانيهما «الرحلة من باريس إلى القدس» «L'Itinéraire de Paris J rusalem» في مقدمة الأخير حدد المؤلف واحدًا على الأقل من أسباب قيامه بهذه الرحلة. مثلما ذهب من قبل إلى أمريكا بحثًا عن وحي وفكر جديد يثري الإطار الطموح لـ Natchez، ذهب هذه المرة إلى الشرق ليضيف روحًا حقيقية إلى ملحمته عن المسيحية. قال معلقًا على رحلته: «لم أقم بهذه الرحلة لأكتبها وإنما سافرت بحثًا عن صور». أما مقدمة كتابه عن «الشهداء» فهي واضحة وصريحة. «ذهبت لأرى المواقع التي كنت أرغب في وصفها وتصويرها. كان الغرض فقط أن أرى الأماكن التي أرغب في جعلها مسرحًا لأحداث «الشهداء» ليكن... ولكن ما لم يقله هو أنه كان في حاجة إلى بعض التغيير في هذه الفترة. إلى الانطلاق.. فهو بطبعه غير مستقر.. وإلى التحلل من قيود يستشعرها ثقيلة. كان في حاجة إلى صلات وعلاقات جديدة أكثر هدوءًا. كانت شهرته قد ذاعت كمؤلف «لأتالا» Atala ما الذي يخسره إذا سافر؟ سيجني مزيدًا من الإعجاب وربما يجلب من هناك معه مزيدًا من الأعمال والمجد.. المجد؟؟ هو في حاجة

دائمة إلى المزيد والمزيد. ليس فقط لأنه يعشقه ولكن لأنه سبيله المضمون لكي يحبه الآخرون. ترى من سينتظره بذراعين مفتوحتين لدى عودته من أسبانيا؟ ناتالي دي نواي Nathalie de Noailles وستكون أول من يتوج هذا الرأس المغرور.

اعتبارًا من هذه اللحظة، أصبح خط السير بالنسبة له ليس من باريس إلى القدس، ولكن من باريس إلى مدريد مرورًا بالقدس. ليس حاجًاً بسيطًا وتقيّاً مثل النبيل دانجلور d'Anglure أو النبيل جريفان أفاجار Greffin Affagart اللذين يذهبان إلى الأماكن المقدسة وسبحتاهما معلقتان في جنبيهما ليعتكفا طويلاً. هو عاشق تملأ الرغبة قلبه، يقوم بجولة، يحيد فيها قليلاً عما يشغف به ليحرك بعض القيود ويعود خالي الوفاض ليلقى وجهًا جديدًا. في جزء من مذكراته التي احتفظ لنا بها سانت بوف Sainte Beuve أدلى باعتراف ذي دلالة: «أكنت أذهب إلى قبر المسيح وأنا مهيأ للتوبة؟ تساؤل هامس أردف بعده قائلاً: فكرة واحدة كانت تستغرقني. كنت أعد اللحظات بصبر نافد. من على متن سفينتي كنت أتبتل إلى نجم المساء طالبًا رياحًا لكي نسرع بالوصول ومجدًا لكي أحظى بالحب. كنت أتوق إلى العثور عليه في أسبرطة، في سيون Sion، في ممفيس، في قرطاجنة لأحمله إلى الحمرا».(١)

تأهب غريب لرحلة تقوى واستزادة أدبية حول البحر الأبيض المتوسط. ما إن يشرع في الرحيل حتى تسيطر عليه الرغبة في العودة. من هنا كان هذا القول لأحد المعلقين عليه(٢): «في سفرته إلى الشرق استشعر كل ضيوفه على اختلافهم بدهشة تعجله واضطرابه. حين يمر بأطلال يكتفي بنظرة عابرة ويبتعد، الأمر الذي هال أڤراميوتي(٣) Avramiotti في أرجوس Argos وأحزن Fauvel في أثينا. أما في أسبانيا فقد كان يعدو حتى مدريد وكأنه في سباق.

كم رأى وعايش على مدى العام هناك رغم تهديدات الأتراك وجهل الربابنة اليونانيين ورغم الحميات التي تعد هاجسه الأول. بالنسبة لإيقاع عصره، كانت سرعة شاتوبريان الزمنية مخيفة، فهو ينهب المسافات نهبًا. فقد أبحر من تريست Trieste في الثاني من أغسطس ١٨٠٦ وكان في كورفو Corfou في السادس من ذات الشهر، وفي أسبرطة في

التاسع عشر وفي أرجوس في العشرين، وفي أثينا في الثالث والعشرين وفي شيو في الحادي والثلاثين من أغسطس. ثم ينتقل إلى آسيا الصغرى وأزمير وبرجام ليحل في الثاني عشر من سبتمبر في القسطنطينية وفي الخامس والعشرين في رودس وفي التاسع والعشرين من ذات الشهر في قبرص. وقد هبط أرض يافا في الأول من أكتوبر ثم انتقل إلى القدس في الرابع من أكتوبر حيث بقي ثلاثة أيام ومر مرورًا خاطفًا ببيت لحم.

ثم هبط مسرعًا إلى البحر الميت. عاود الإبحار في السادس عشر من أكتوبر ثم رسا في الإسكندرية في العشرين من ذات الشهر. أما في الثالث والعشرين فقد مضى قدمًا إلى رشيد ومنها انتقل إلى القاهرة في السادس والعشرين من أكتوبر ووصلها في نهايته. أمضى في العاصمة المصرية ثمانية أيام ثم عاد إلى رشيد في الحادي عشر من نوفمبر وانتقل إلى الإسكندرية بعد ذلك بيومين.

لدى رصوله إلى أسبانيا أحس بالسكينة مما جعله يمضي هناك قرابة الشهر مع ناتالي دي نواي Nathalie de Noailles فلم يعد هنا ما يستوجب الإسراع في العودة.

إذا ما نظرنا مليًا إلى المدتين: «ثلاثة أيام في القدس وشهر في مصر لأدركنا أن القسمة في الزمن إلى حد ما صائبة. ولكن كيف يتأتى له اختزان هذا القدر من الانطباعات بهذه السرعة؟ وكتاب شاتوبريان «الرحلة من باريس إلى القدس» كتاب ضخم يقع في ثلاثة مجلدات في طبعته الأصلية. ليس هناك ما يقلق فهو حاذق ويعرف كيف يدبر أمره. لنتذكر كيف دبر حاله في كتابه «رحلة إلى أمريكا» وصف كندا ولويزيانا وفلوريدا وضفاف المسيسبي. وقد أثبت السيد بيدييه Bédier مستندًا إلى روزنامة أنه لم يسنح له الوقت الفعلي لزيارة كل هذه الأقاليم. إذًا هو يستغل بفن مبعوثي ورحالة القرن الثامن عشر. وبالتالي سواء تعلق الأمر بأمريكا أم بمصر فمصادره واحدة ومنهجه متشابه. وقد طبقه في الشرق، إذا جاز لنا القول على نطاق أكبر ما دام قد نجح في كتابة ثلاثمائة صفحة عن القدس.

على أنه يجب أن نعترف أنه إذا كان العلم الحديث قد استطاع اكتشاف المصادر الرئيسية لكتابيه «رحلة إلى أمريكا» و «الرحلة من باريس إلى القدس» فالأمر اختلف

بالنسبة لمصر. من هنا فهذا الجزء من الرحلة أقل قابلية للنقد. فمن ناحية نجد أن شاتوبريان قد اختصر فيه وأوجز. فكل ما كتبه لا يتجاوز الأربعين صفحة من ألف هي الحجم الكلي للكتاب. ومن ناحية أخرى فقد كان دقيقًا بدرجة كبيرة وأعطانا قائمة مراجعه. وأخيرًا فهو يرى أنه من العبث إعادة ما سبق للآخرين قوله أو تقديمه. ننقل عنه:

«لا ينتظر أحد مني وصف مصر... في القدس تركت لنفسي العنان في وصف التفاصيل لأن القدس كانت محور رحلتي (كم هو جميل أن يقول ذلك بنفسه) ولكن ماذا أقول عن مصر؟ من لم يرها اليوم؟ إن رسومات السيد دونان ولوحات «معهد مصر» الكبيرة قد نقلت إلينا آثار طيبة وممفيس. وأعتقد أنني قلت في غير هذا الموضع كل ما لدي عن مصر.

إن الجزء من كتاب «الشهداء» الذي تحدثت فيه عن هذه الأرض القديمة هو أكمل في تناوله للآثار من أجزاء الكتاب الأخرى».[٤] لنقف قليلاً أمام هذا التصريح: فعلى الأقل نجده هذه المرة يتفق والحقيقة. فهو يدعونا إلى فحص الجزء الحادي عشر من كتاب «الشهداء» وهو ما سنفعله لاحقًا وهو يشرح في عبارات متواضعة سبب إيجاز الفصل الخاص بمصر في «الرحلة من باريس إلى القدس».

يتبقى لنا تحديد ما رأى وتقييم الكيفية التي رآه بها وتتبع خطاه. لمضاهاة الأقوال ومقارنتها ببعضها كنت أنوي الاعتماد على يوميات جوليان Le Journal de Julien ونحن نعرف من هو جوليان: خادم خاص وبعبارة أدق شقيق طاهية السيد شاتوبريان التي رافقته في رحلته الطويلة. كان هذا هو العصر الجميل الذي كان فيه الجميع يكتبون مذكراتهم.

وجوبار Joubert هو من قدم لنا بنفسه جوليان في خطاب كان قد وجهه إلى مدام ڤانتيميل Mme Vintimille في الثالث عشر من يوليو ١٨٠٦، يوم غادر شاتوبريان باريس مع زوجته التي تركها في البندقية. يقول في سطوره: «طلب أن يجلبوا له أسلحة.. أعني أسلحة ليشتريها .. مسدسات، بنادق، اسبنغولات.. وابتاع منها الكثير. وسارت

العربة تحمله وزوجته وخادمة خاصة مكتنزة على المقعد الأمامي. وعلى مقعد آخر جلس شقيق الطاهية وكان سيوصله إلى القسطنطينية. من باب الحذر ألبس شاتوبريان هذا الأخير زي ضابط سلطاني».[٥] وهي هيئة غريبة أضحكت شاتوبريان طوال الطريق. جدير بالذكر أن هذا الشخص كان في السادسة والأربعين من العمر ولون بشرته داكن كاللحم المقدد. وضع شاتوبريان على رأسه عمامة زرقاء مزدانه بشريط ذهبي وجعله يرتدي بزة وسروالاً من نفس اللون ولكنه نسي أن يزوده بشارب ليخيف. ولما كان وجهه يشي بالطيبة، وقسمات وجهه تعكس جانبًا من لين طباعه كنجار مستقيم، فقد ظل مثارًا لضحكات الجميع طوال الرحلة، خاصة سيده.[٦]

أما في ما يتعلق بمصر، فهذه النظرة الأمينة كان من الممكن أن تكون ذات عون حقيقي.

أعلم جيدًا أن شاتوبريان وجوليان لا يتفقان في أمور كثيرة ولا يتناولان الأمر ذات التناول. فكثيرًا ما يكتفي الأخير بالإشارة إلى المكان الذي كانوا فيه وما أكلوه وما أنفقوه. ولكن يعنينا لديه التتابع الزمني للأحداث. وجدير بالذكر أن شاتوبريان نفسه لجأ إلى هذه اليوميات عام ١٨٣٩ أثناء كتابته لمؤلفه: «ذكريات ما وراء القبر» «Memoires d'Outre - Tombe» لينعش ذاكرته عن الشرق. وقد ذهب في تواضعه وتنازله إلى حد وضع مقتطفات من يوميات جوليان جنبًا إلى جنب مع ما يرويه في سطوره عن ذات الأحداث بهدف «تبيان وقع الحدث الواحد على الأذهان المتفاوتة اجتماعيًا وإدراكيًا».

ولكن للأسف الشديد غرر بنا جوليان. فالتابع الأمين الذي رافق سيده كظله من البندقية إلى الإسكندرية، وقع فريسة للمرض لدى وصوله أرض مصر. في لغة ركيكة يذكر جوليان في مذكراته أنهم قد وصلوا أرض مصر يوم الإثنين الموافق ٢٠ أكتوبر ونزلوا في ضيافة السيد دورفيتي القنصل الفرنسي. في الثالث والعشرين من ذات الشهر، سافر شاتوبريان إلى القاهرة بصحبة اثنين من معارف القنصل. ولم يصطحب من أتباعه إلا المترجم[٧] نظرًا لإصابة جوليان بالحمى والإرهاق. ولم يعد شاتوبريان إلى الإسكندرية إلا بعد ثلاثة أسابيع كان جوليان خلالها قد استرد صحته، وبقي بها نحو عشرة أيام. ويذكر

جوليان أنه خلال فترة الأربعة والثلاثين يومًا هذه، تجول في المدينة وخارجها. راق الأمر إذًا لجوليان ولكنه لم يرق لنا فقد خسرنا بمرضه شهادة كان من الممكن أن تكون بالنسبة لنا ثمينة عن الكيفية التي استعمل بها شاتوبريان وقته في القاهرة وجدول بها إقامته هناك.

يقول في كتابه: «سوف ألتزم باتباع تسلسل التواريخ في يومياتي»(٨) والحق أن الأمر لم يكن كذلك بالضبط. فرغم أنه تجنب في ما رواه عن رحلته إلى مصر استعراض علمه مثلما فعل سابقًا بشأن رحلته إلى القدس إلا أنه لم يستطع كبح جماح متعته في الزج بتأملات فلسفية في متن النص أو تذييله باستشهادات كلاسيكية

ففي سطوره يتعاقب هيرودوت Herodote وديودور Diodore مع فانلون Fénelon وبوسويه Bossuet ولكن كتاباته ليست مثقلة بالتفسيرات والشروح. كما أنه لا يتطرق إلى أحداث تاريخية جانبية. طريقته في السرد لا يعوقها شيء مما يجعلنا نتابعه دون ملل.

استقبله القنصل بحفاوة يوم مغادرته الإسكندرية في العشرين من أكتوبر١٨٠٦. في ذاك الوقت كان برناردان دروفيتي(٩) Bernardin Drovetti هو قنصل فرنسا في الإسكندرية. وهو من أصل إيطالي. كان ضابطًا ثم قاضيًا في الجيش. جاء إلى مصر عام ١٨٠٣ كنائب للقنصل مع مفوض الجمهورية ماثيو دي ليسبسMathieu de Lesseps والد فرديناند Ferdinand كان ذا ذهن يقظ وثاب، مثقف بارع في المضاربة وهاو للآثار وجامع خبير لها. كانت قد اشتعلت بينه وبين زميله الإنجليزي الميجور ميست Missett منافسة سياسية قوية اكتملت حلقاتها مع خلفه هنري سولت Henry Salt وفي خط مواز لهذه المنافسة السياسية، كان قد نشأ بينهما تطاحن في مجال الآثار(١٠)، كل يحاول الفوز بأعمال التنقيب المثمرة. كان لكل منهما باحثوه في صعيد مصر. كان الفرنسي يدعم ج.ج. ريفوه J.J.Rifaud الفرنسي القادم من مارسيليا والإنجليزي يساند بلزوني Belzoni الإيطالي. ويجب الاعتراف هنا أن مجموعة دروفيتي Drovetti التي لم تعرها فرنسا اهتمامًا قد بيعت في بييمون Piemont بنحو أربعمائة ألف فرنك عام ١٨٢٤ ويحتفظ بها

الآن متحف توران Turin وهي مجموعة عالية القيمة، بالغة الروعة. هذا في سطور، الرجل الذي استقبل بحفاوة بالغة وواضحة السيد شاتوبريان عند وصوله إلى مصر.

أمضى شاتوبريان مع دروفيتي ثلاثة أيام في منزل على ساحل البحر كان يسكنه كليبر Kleber، وفي الثالث والعشرين من أكتوبر سافر إلى رشيد حيث استقبله قنصل آخر لفرنسا هو السيد دوسان مارسيل M.de Saint-Marcel.

أول انطباعات لديه عن الساحل والدلتا تخلو من الدهشة. استشعر زهوًا غير عادي مما يوضح إلى أي مدى يمكن أن تتملكه أفكاره ومقترحاته. هذه المناظر الطبيعية أعادت إلى ذاكرته مناظر أمريكا التي لم يرها بالفعل وإنما ادعى رؤيتها أو تخيل أنه رآها. «هذه الشواطئ تشبه بحيرات فلوريدا» [١١] «ورغم أنني قد فتنت بالبحيرة الكبيرة والخضرة اليانعة إلا أن دهشتي لم تكن كبيرة فقد كانت صورة مطابقة لأنهار لويزيانا ومساحات السڤانا الأمريكية التي في ذاكرتي».[١٢] رغم كل ذلك، بدت له رشيد جميلة وإن كان في رأيه أن ساڤاري Savary كان قد بالغ في جمالها. تعرف في هذه البلدة على السيد كاف M.Caffe وهو تاجر فرنسي من أكثر الرجال دماثة[١٣] وذوقًا كان في السابق عضوًا في ديوان نابليون الكبير.

دبر السيد كاف M.Caffe لشاتوبريان مركبًا يبحر به إلى الجنوب بل ورافقه حتى القاهرة. «كانت الرحلة النيلية صعبة ومملة عاكستها الرياح والتيارات المائية.. كانت سبعة أيام قاتلة».[١٤] شعر شاتوبريان بالسأم أثناء الرحلة وبالرتابة وداخله قلق من الوضع السياسي فقد كانت منطقة الدلتا في حالة غليان. كان محمد علي مسيطرًا تمامًا على القاهرة ولكن الأمر لم يكن كذلك في الريف. كان عدوه «ألفي بك» مؤيدًا من قبل الإنجليز ويناصب الميليشيات الألبانية العداء منظمًا في كل مكان تقريبًا فرقًا من البدو تغير على ضفاف النيل.

كانت اللقاءات تتزايد مما يفسر ما جاء في هذه الصفحة من كتابه «الرحلة من باريس إلى القدس» من جماليات: «كان بحارتنا يجذبوننا أحيانًا بالحبال وأحيانًا أخرى

يكتفون بدفع نسيم الشمال الذي كان يهب لفترة وجيزة. كنا كثيرًا ما نتوقف ليركب ألبان. وجاءنا أربعة منهم بعد يومين من الإبحار استولوا على غرفتنا وتطلب الأمر تحمل عنفهم وهمجيتهم».

«كانوا لأقل ضوضاء يسمعونها، يشهرون بنادقهم فوق الجسر وكفاقدي العقل تبدو عليهم الرغبة في شن الحرب على أعداء غير موجودين. رأيتهم يطرحون أرضًا أطفالاً على الضفة يتسولون. في هذه الأثناء، كان التجار الأتراك يهبطون من المراكب ويجلسون في سكينة على كعوبهم ثم يتوجهون بوجوههم إلى مكة. وفي وسط الحقول، كانوا ينكبّون على وجوههم لأسباب دينية. أما الألبان فكان نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من المسيحيين. وكانوا يصرخون «محمد» و «العذراء مريم» ويخرجون من جيوبهم مسابحهم. على ألسنتهم كانت تجري كلمات بذيئة. نهلوا جرارًا من الخمر وأطلقوا الأعيرة النارية في الهواء ومضوا يدوسون بأقدامهم بطون المسلمين والمسيحيين».[١٥]

المشهد لا يحتمل بالطبع أي إضافة ويحمل من الملامح ما هو غير صحيح. فشراب هؤلاء المحاربين لا يمت للإسلام بصلة، والمسابح ليست ملمحًا كاثوليكيًا وإنما هي ملمح إسلاميٌّ وهي نوع من العقود يسبح كل من يدين بدين «محمد» بحباتها. وأعتقد أنه لا يمكن استخلاص أفكار عن المسيحية من هؤلاء الألبان. ما أرى فيه دلالة في هذه اللوحة هو «همجية العسكر» السائدة في كل مكان خلال هذه الفترة. يتحرش هؤلاء المرتزقة بالفلاح الآمن. واحتكاكاتهم بالفرق المتمردة التابعة لألفي بك تجعل أمن الرحلات في مهب الريح. لا أريد أن أتشكك في شجاعة السيد دو شاتوبريان. فهو نبيل عريق الأصل وضابط يتعامل بلياقة. غير أن وقت المهارات العسكرية قد ولّى. كاتب Atala «أتالا» اللامع، وعشيق الكونتيسة ناتالي دي نواوي Nathalie de Noailles كان حريصًا على الاستمتاع بما تبقى له من عمر. لم يغامر بهذه الحياة وهذا المجد وهذه السعادة الآتية؟ إذا لم يكن السيد دو شاتوبريان قد رأى فيما عدا القاهرة، الشيء الكثير من مصر، فذلك لأنه جاءها والحرب الأهلية متأججة بين جنباتها. ولم يكن براغب في خوض أي مغامرات.

هاهي الأهرامات تلوح في الأفق: «كان النيل يبدو كبحر صغير. وكانت رمال الصحراء متداخلة مع الخضرة اليانعة، أشجار النخيل والجميز، القباب والمساجد، ومآذن القاهرة، أهرامات سقارة البعيدة التي يبدو النيل وكأنه ينبع من خزاناتها الهائلة، كان كل هذا يشكل لوحة.ليس لها مثيل على الأرض».(١٦)

دعا هذا المشهد شاتوبريان إلى التأمل والإمعان في التفكير في عظمة الفراعنة وسمو فكرهم. ناقض بوسويه Bossuet الذي كان قد سخر من الجهود العقيمة لتخليد الذات والنشاط الذي ينتهي بقبر وربما قبر فارغ وهو أكبر دليل على العدم. «إن فكرة هزيمة الزمن بقبر وإجبار الأجيال والعادات والقوانين والعصور على الانهيار على حافة تابوت، لا يمكن أن تصدر عن روح سوقية متدنية. وإذا كان هذا غرورًا فهو كما قال رينيه René المعتد بنفسه غرور كبير».(١٧) من هنا ندرك أنه يتفهم مثل هذا الشعور ويتقاسمه معهم.

هذا لا يمنع أن يعارضه لاحقًا بعض الرحالة المسيحيين. فسوف يكتب زافيه مارميه Xavier Marmier فيما بعد: «كتب السيد دو شاتوبريان صفحة جميلة في كتابه «الرحلة من باريس إلى القدس» ليثبت أن الذي أوتي فكرة إقامة مثل هذا الأثر شهم متسامح. فليحفظ الله الطبيعة من مثل هذه الشهامة». في الحادي والثلاثين من أكتوبر(١٨) رسا في بولاق وعبر مدينة منهارة، بين طيور العقاب التي تلتهم فرائسها. وذهب بصحبة السيد كاف M.Caffe إلى حي الفرنجة «وهو عبارة عن طريق مسدود يغلق مدخله كل ليلة». «لقيه مواطن فرنسي مثله لا يذكر اسمه ولكنه أشاد بمناقبه بأثر رجعي. كان تاجرًا عهد إليه السيد دروڤيتي Drovetti بأعمال الفرنسيين في القاهرة. قدم هذا الرجل المضياف لنا نفسه لأن ضيفه نسي سهوًا أن يقوم بتقديمه : هو فيليكس منجان Felix Mengin زوج ابنة السيد «كاف»، ممثل قنصل الإسكندرية في القاهرة ومؤلف كتاب: «تاريخ مصر في عهد حكومة محمد علي» Histoire de L'Egypte sous le gouvernement de Mohamed-Aly (١٩) في استعراض لأحداث شهر نوفمبر ١٨٠٦ كتب يقول: «في هذه الفترة، كان السيد دو شاتوبريان قد عاد من رحلته إلى فلسطين، ووصل إلى القاهرة.

سعدت بقبوله ضيافتي وصحبتي إلى المسلة وأنقاض المطرية وبئر يوسف وكل الأماكن التي يمكن أن تثير فضول الرحالة».[٢٠] احتفظ مونجان Mengin إذًا بذكرى طيبة عن شاتوبريان ولم يضمر له غلاً لأنه نسي اسمه. وسوف يتدبر الأمر لاحقًا لتذكيره بلطف بهذه الواقعة وذلك بإهدائه كتابه. إلى أن يتم له ذلك، وضع مونجان نفسه تحت تصرف شاتوبريان ودبر له خمسة مماليك من الفرنسيين يحميهم دروفيتي Drovetti ليضمنوا سلامته.

كان هؤلاء الفارون من جيش مينو Menou قد بقوا في مصر بعد رحيل آخر مركبة. فضلوا النفي على المغامرات العسكرية الجديدة وأصبحوا معلمين لكتائب الوالي. خلال فترة الفوضى التي أعقبت رحيل «مينو» خدم بعض منهم «ألفي بك». ولكن انتهى بهم الأمر إلى الانضمام نهائيًا إلى محمد علي. كان مع هؤلاء نحو مائة من قدامى زملاء السلاح، بقوا من حملة بونابرت واختلفوا في ما بينهم على القيادة. وقد علق شاتوبريان على هذا الأمر قائلاً:

«لو أن هؤلاء الفارين، بدلاً من الانقسام على أنفسهم، قد تضامنوا وولوا عليهم «بك» فرنسي لأصبحوا سادة البلد». أيًا ما كان، فقد وضع هؤلاء أنفسهم تحت إمرة الرحالة. كان رئيسهم ابنًا لإسكافي من «تولوز» .Toulouse أما نائب هذا الرئيس فكان مترجمًا لزملائه لإتقانه التركية والعربية وإن كانت فرنسيته ركيكة. من أسمائهم يمكننا الاستدلال على ثلاثة: رئيسهم عبدالله كان يدعى في الأصل Dereau أما سليم فكان اسمه كومب Combe وهو من أفينيون Avignon والثالث كان إسماعيل رشوان واسمه الحقيقي بيير جاري Pierre Gary من منطقة اللو و جارون Lot et Garonne[٢١] فروا من الجيش، نعم ولكن الشجاعة والجسارة كانت صفات بارزة فيهم. كانوا ما زالوا على حبهم لبلادهم واعتزازهم بكبريائهم. كتب شاتوبريان واصفًا إياهم: «خمسة جنود من الصفوف الأخيرة لجيشنا كانوا عام ١٨٠٦ سادة القاهرة تقريبًا. لم يكن هناك ما يضاهي متعة رؤية عبدالله التولوزي المولد، يعقد رباط قفطانه ويعنف العرب والألبان الذين يضجرونه مفسحًا لنا الطريق في أكثر الشوارع ازدحامًا. كانوا على غرار الإسكندر قد تبنوا عادات الشعوب التي غزوها. تراهم يرتدون ثيابًا حريرية طويلة وعمامات جميلة بيضاء ويحملون أسلحة

رائعة. كان لديهم الحريم والعبيد والجياد الأصيلة وهو ما لم يمتلكه آباؤهم في مساقط رؤوسهم. ولكن وسط الحمير والأبسطة والأرائك التي رأيتها في منازلهم لمحت سلخ الوطن: بزة عسكرية مزقتها طعنات السيوف مطروحة على فراش تم ترتيبه على الطريقة الفرنسية. قد يكون عبدالله محتفظًا بهذه البقايا من الأمجاد لنهاية الحلم مثل الراعي الذي أصبح وزيرًا «كان الصندوق مفتوحًا وظهرت فيه القصاصات ثوب راعي القطعان قبعة صغيرة، جونلة، جراب وعصا، وأعتقد أيضًا مزماره».[٢٢]

غداة وصوله إلى القاهرة في الأول من نوفمبر ١٨٠٦ أعد شاتوبريان نفسه لطلب مقابلة محمد علي وذهب إلى قصر القلعة. غير أن الوالي كان غير موجود مما أفقدنا وصفًا كان بلا شك سيكون قيمًا[٢٣]. استقبل الضيف أحد أبناء محمد علي، طفل لا يتجاوز الخامسة عشر من العمر، لا يتذكر شاتوبريان اسمه (هو الشاب إبراهيم)[٢٤] يقتضي منا الصدق الاعتراف بأن انطباعه عن المقابلة لم يكن رائعًا. فأمام هذا الشاب الصغير الجالس على البساط في غرفة متهالكة محاطًا باثني عشر شخصًا غريبي الشأن، شعر شاتوبريان بالضيق والحرج. فقد كان المنظر مهينًا ومقززًا والنفاق مكشوفًا. غير أنه عند خروجه من القصر، وقف منبهرًا أمام المنظر الجميل الذي امتد تحت قدميه. المدينة الذهبية الوحشية والنيل والريف الزاهي الخضرة وبعيدًا في الأفق الأهرامات منتصبة في الصحراء.

كانت شامخة في مواجهته، رائعة رغم المسافة، واضحة كما لو كانت على بعد بضعة أمتار «بالعين المجردة كنت أرى مدماك الأحجار ورأس أبي الهول مشرئبة من الرمال».[٢٥]

أعتقد أن الحماس قد استبد به حتى هيأ له هذه الفكرة، فمن هضبة المقطم أو سطح القلعة، أكثر الأبصار حدّة ما كان ليميز هذه التفاصيل. فأبو الهول كما نعرف رابض في واد صغير ورؤية أحجار هرم خوفو تستدعي الوجود على الأقل على طرف هضبة الجيزة.

في اليوم التالي وصل شاتوبريان إلى جزيرة الروضة التي كان ساڤاري Savary قد وصف حدائقها الغناء. «كنا بهذه الطريقة قد دنونا جداً من الأهرامات. من هذه

المسافة، كانت تبدو على ارتفاع هائل من خلال حقول الأرز الخضراء ومجرى النهر وقمم أشجار النخيل والجميز.. كان ضوء الشمس الرقيق يلون سلسلة مرتفعات المقطم والرمال وأفق سقارة وسهل القبور. كانت هناك نسمة منعشة تطارد قطع السحاب وتدفعها في اتجاه النوبة مجعدة في طريقها صفحة النيل. بدت لي مصر أجمل بلاد الأرض. أحببت حتى الصحارى التي تحدها والتي تفتح للخيال آفاقًا لا نهائية».[٢٦] غير أنه لم يذهب إلى أبعد من ذلك. ولنحيي هنا صدقه. فهو لم يتسلق منحدرات الجيزة ولم يزر الأهرامات وجرؤ على الاعتراف بذلك. فحالة الفيضان لم تسمح بالتجوال. فلم تكن مياه النيل قد انحسرت لدرجة تسمح للجياد بالسير ولا قد زادت لدرجة تسمح باستخدام القوارب. ربما لم يستطع في وقت القلاقل التحرك بدون جمع كاف من الحراس. وربما لم يجرؤ على التوغل في الصحارى بدون حماية.

وقد نال ما طاب له من هذه الأماكن. فبيسر شديد هيئ له أنه من سطح القلعة قد رأى الأهرامات بدقة فائقة أغنته عن تمني الاقتراب منها. وقد كلف السيد الفاضل «كاف» M. Caffe بالذهاب نيابة عنه إلى الأهرامات وكتابة اسمه على هذه المقابر العملاقة كما هي العادة، عندما تسنح له الفرصة».[٢٧] كانت عودة الرحالة إلى رشيد أسرع من رحلة ذهابهم إليها. استقلوا المركب في الثامن من نوفمبر ليلاً. وقد ساعدهم تيار النهر وكانت الرياح تدفعهم دفعًا مما أوصلهم إلى البحر في أقل من ثلاثة أيام. وكانت الرحلة النهرية أفضل لأن الضفاف كانت غير آمنة فبها إما معسكر للعرب والبدو التابعين لألفي بك أو معسكر الباب ثائرين ضد محمد علي الذي لم يكن لديه من المال ما يكفي لدفع رواتبهم. كان الرسو على ضفة منهما هو الوقوع في براثن أحد المعسكرين. «في صباح اليوم العاشر وأثناء خروجنا من القناة لنلج في فرع رشيد لمحنا الضفة الغربية من النهر يحتلها معسكر العرب. كان التيار يدفعنا إلى هناك ويجبرنا على محاذاة الشاطئ. صاح جندي مختبئ خلف حائط قديم طالبًا منا الرسو. وأجابه قائدنا أنه في عجلة من أمره وعليه الوصول إلى مقصده وأنه ليس بعدو. كنا إبان هذه المحادثة قد دنونا من الشاطئ. وكان تدفق المياه يساعدنا في هذا الاتجاه. لاحظ الجندي أننا نتابع سيرنا ومن ثم فقد أطلق علينا النار. ورد القائد بطلقة بندقية مما جعل المعسكر يقف متراصًا على الشاطئ مصوبًا

كله السلاح نحونا. كنا قد أبطأنا سيرنا لأن الرياح كانت في غير اتجاهنا. غاصت بنا المركب لحظة. كنا بدون سلاح وكان الجميع قد رأوا أنني قد أعطيت بندقيتي لعبدالله. كنت أريد أن أجعل السيد «كاف» يحتمي بالغرفة لأنه في سبيل مجاملتي عرّض نفسه لهذه المغامرة الكريهة. ورغم كونه مسؤولاً عن أسرة ومتقدمًا في السن أصر على البقاء على ظهر السفينة. لاحظت الخفة المميزة لعربي كان يطلق العيار الناري من بندقيته ويعيد شحنها وهو يجري، ثم يعاود إطلاق النار ضابطًا إيقاع قدميه مع معدل سرعة المركب. دفعنا التيار أخيرًا إلى الضفة المقابلة ولكن لنقع في معسكر لألبان ثائرين أكثر خطورة علينا من العرب لأنهم كان بحوزتهم مدفع. دانة واحدة كانت كفيلة بإيصالنا إلى قاع النهر. لمحنا حركة على الأرض ولحسن الحظ كان الليل يرخي سدوله. لم نشعل أي نيران والتزمنا الصمت. حفظتنا العناية الإلهية بدون أي أحداث أخرى بين فريقي الأعداء حتى رشيد».

كل هذه الأحداث أثبتت صدقها النشرة التاريخية التي كان يرسلها القنصل دروفيتي Drovetli بانتظام إلى وزارة الخارجية.[٢٨] فقد ورد في سطورها بتاريخ الثاني عشر من نوفمبر ١٨٠٦: «رفضت القوات المعسكرة في رشيد[٢٩] الذهاب إلى الرحمانية كما صدرت لهم الأوامر إلا بعد تقاضي رواتبهم» لا نسمع في جيش الوالي إلا كلمة «النقود..النقود». وكان الألفي يستعد في ذات الوقت لاستعادة موقع دمنهور. هذه البلدة ستدمر عن آخرها إذا لم نهب لنجدتها. وينوي ألفي بك بعد انحسار المياه، تنفيذ خطته باجتياح الدلتا وكل الأقاليم الواقعة في شمال الوادي. وقد بدأ البدو التابعون لجيشه[٣٠] بالفعل في تعطيل الملاحة في النيل وقد تعرض السيد شاتوبريان الرحالة الفرنسي لدى عودته إلى القاهرة لوابل من النيران». وصل شاتوبريان إلى رشيد في الحادي عشر من نوفمبر وإلى الإسكندرية في الثالث عشر من ذات الشهر. كان الطقس سيئًا. ومضت الرياح تصفر بطول الشاطئ طيلة عشرة أيام. وبالتالي لم يكن الانطباع طيبًا بالمرة. يظهر ذلك في عباراته: «إذا كنت قد سعدت بوجودي في مصر فقد بدت لي الإسكندرية أكثر الأماكن كآبة على وجه الأرض». جال رحالتنا على الشاطئ الثائر وامتطى الجياد مع دروفيتي Drovetli وتأمل من أعلى منزل القنصل «البحر الداكن الصاخب». وكان القنصل أعلى منزله قد أقام مطيرة ذاخرة بطيور السمان والحجل. وقف شاتوبريان يتأمل البحر شارد الذهن. سبقته أفكاره إلى أسبانيا وحدائقها حيث تنتظره ناتالي دي نواي.

وقد أوحت له هذه الحدائق لاحقًا بمسرح أحداث كتابه Dernier des Abencérages ماذا كان يفعل على هذه الشواطئ الموصدة ذراعيها؟ أي مشاهد تركتها في مخيلته؟ «كانت الإسكندرية الجديدة تجمع بين أنقاضها وأطلال المدينة القديمة، عربي على ظهر حماره بين الردم، كلاب ضامرة تلتهم ما تبقى من جمال نافقة ملقاة على الساحل الرملي. أعلى منازل القناصل كانت أعلامهم ترفرف شاهرة بين القبور ألوان الأعداء».(٣١)

لم يكن في كل ذلك مادة خصبة للوحات التي ينوي وضع خطوطها أو مادة موحية لأحد نصوصه الأدبية الشهيرة مثل Les ruines dans la campagne romaine «أطلال الريف الروماني» أو «Le lever de soleil sur l'Acropole » «شروق الشمس فوق الأكروبول». ومن هنا فقد أحال قراءه ببساطة إلى «رحلة ڤولنيه» «Voyage de Uolney» قائلاً في مبالغة ملحوظة «أنه قد رسم للإسكندرية أكمل اللوحات وأكثرها صدقًا». وقد يكون هو ذاته غير مقتنع بما يقول ولكنها الذريعة التي يقدمها ليتخلص من الأمر. وهو سلوك إما إنسان داخله السأم أو إنسان في عجلة من أمره. «أما آثار الإسكندرية فقد تفحصها وحصرها وقاسها بوكوك Pococke ونوردن Norden وشو Shaw وتيڤونو Thévenot وبول لوقا Paul Lucas وتوت(٣٢) Tott ونيبور Niebuhr وسونيني Sonnini ومئات غيرهم. وسوف أكتفي هنا بنقل ما نقش على عمود بومبي وأعتقد أنني أول رحالة ينقله إلى فرنسا».(٣٣)

من الممتع رؤية هذا الهلليني الرديء الذي لجأ فور عودته إلى العالم Boissonade بواسوناد ليمده بالمعلومات، يطنب في ذكر مزايا الدرس الذي يقترح تقديمه. ويمكننا كذلك اعتبار وصفه لزيارة قام بها لثري تركي بالإسكندرية دعابة بريئة. كان دروڤيتي Drovetti قد قدم له هذا الثري. ولدى سماع هذا الأخير اسم شاتوبريان Chateaubriand ادعى أنه قد قرأ كل مؤلفاته. وما إن رآه حتى اندفع تجاهه قائلاً: آه ياعزيزي أتالا! ياعزيزتي رينيه! أما لجهله بجنس أسماء الأعلام في اللغة الفرنسية أو لعدم معرفته بجنس أبطال روايات شاتوبريان.

وقد اعترف شاتوبريان أنه قد استعذب هذا القول رغم ما به من خطأ، فقد أرضى غروره. لم يكن هذا بالنسبة له شيئًا رديئًا. في حاشية بالطبعة الثالثة من كتابه «الرحلة من باريس إلى القدس» عقد شاتوبريان النية على الاعتراف بأن دروفيتي Drovetti قد خدعه. فهذا الثري التركي كان علي بك العباس. وهو مغامر أسباني يقال إنه قد اعتنق الإسلام. وهو عميل سري للسيد تاليران M. de Talleyrand أولاً ثم للويس الثامن عشر. وقد ألف كتاب Voyages au Maroc, Tripoli, Chypre, en Egypte et en Arabie «رحلات إلى المغرب وطرابلس وقبرص ومصر والجزيرة العربية». الذي ظهر عام ١٨١٤[٣٤] بعد بضعة أيام من هذه الواقعة، غادر شاتوبريان الإسكندرية متجهًا إلى تونس.

هكذا كانت إقامته في مصر. ولنقلها صراحة: هذا الجزء من خط سيره لم يكن أفضله. فتواضعه وإيجازه في السرد يشيان بإرهاق ما. مجمل الأمر أنه لم ير الكثير وليس راغبًا في إدراك الكثير أدبيًا مما حصل عليه وراه. يشعر القارئ أنه في نهاية مجلده الثالث وأنه يبغي الانتهاء من هذا الكتاب. ففي مواضع عدة، نجده لا يصر، يتجاوز الأمر ويحيل قارئه إلى غيره أو إلى عمل من أعماله، إلى الكتاب الحادي عشر من «الشهداء». كان قادرًا على ملء ثلاث صفحات كاملة تعليقًا على مقولة أو استشهاد لديودور Diodore. لذا فمن المؤكد أن القريحة لديه لم تَجُد بشيء ما دام قد أنهى حديثه عن مصر بأربعين بيتًا كتبها إسمينار Esmenard في قصيدة عن الملاحة.

«أم الفنون والوصايا الإلهية منذ القدم
أنت يا من تجلسين وسط الأطلال
مجدك يدهش العبقرية ويربك غرورنا
مصر المهيبة التي من قاع التابوت
تهيل عظمتك أحلامنا
شعبك هو من عرف أن يجد لهذه القوارب الخفيفة
التي لا يوجه مسارها الجريء أحد
مرشدين أمناء في قبة السماوات»...إلخ..

لكي يصف وداعه لمصر بهذه الكنايات أيكون السيد شاتوبريان قد غادره وحي الشعر؟ الحق أن هذا العاشق للمناظر الطبيعية لم يكن على عهدنا به في هذا الاختيار لا شك أننا وجدنا هنا وهناك بعض الملاحظات الجميلة. ها هي مياه النيل في بوغاز رشيد في أكتوبر بقلمه. «كانت مياه النهر في هذا الموضع ذات لون أحمر مائل للبنفسجي أشبه بلون عشبة الخلنج في الخريف». ومشهد الأهرامات منظورًا إليها من جزيرة الروضة في ضوء هادئ خلاب: «حيث النسمة المنعشة تطارد السحب البيضاء الصغيرة» و«ريف الدلتا بسهول الأرز الخضراء التي تتخللها أشجار النخيل المنعزلة وكأنها أعمدة وأروقة عملاقة».

ولكن أين لهذه الانطباعات الموجزة من صفحاته الخالدة عن الأكروبول ومعسكر البدو في صحراء سورية؟ لسنا مدللين. بدلاً من اللجوء إلى السيد دو شوازول M .de Choiseul[٣٥] لم لا يصف لنا شاتوبريان بنفسه هؤلاء الألبان ذوي السراويل الواسعة والتنورات القصيرة والصديريات المزدانة بالسلاسل وكريات الفضة والمعاطف البيضاء المحلاة بالشرائط والقلنسوات الحمراء، وكل ما فيهم يمكن أن يزوده بلوحة جمالية حية؟ يتضح للعيان أنه لا يعير هذه الفرصة أي أهمية مثل الآخرين. إذا ما استشعر أن القارئ يطلب صورًا وألوانًا أحاله إلى ڤولنيه أو إلى إحدى صفحات كتابه Les Martyrs «الشهداء».

يقع وصف مصر في «الشهداء» (١٨٠٩)[٣٦] في نهاية قصة «أودور» Eudore فعندما قتل ڤيليدا Velléda نفسه على جثة أبيه تكفيرًا عن الحب الذي اعتبره دنسًا، أدرك «أودور» مدى خطئه واعتبر نفسه مسؤولاً عن موت الاثنين. من هنا فقد قرر تغيير حياته ومعاقبة نفسه، فترك وظيفته العسكرية البراقة في الجيش الروماني.

كانت غايته أن يطلب من الإمبراطور Dioclétien إحالته إلى المعاش. وقد ذهب لقائده في مصر وسيان Syène حيث كانت جحافله تدحر النوبيين. هكذا بدأ «وصف مصر» في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد.

يبدأ أودور Eudore بوصف لحظة وصوله إلى الإسكندرية. «كان الفجر يضفي جمالاً على السماء حين رأينا في الأفق شاطئًا منخفضًا. وراء سهل الرمال جذب أنظارنا عمود طويل قال عنه البحار أنه عمود بومبي الذي أهداه بوليون Polion والي مصر إلى Diocletien «قدروا حنكة شاتوبريان في إظهار قدر التفسير الحديث للنقوش بدون طرح ما قيل من قبل جانبًا».

قبل أن يلحق بالإمبراطور في صعيد مصر، توقف أودور Eudore بضعة أيام في الإسكندرية وتأمل المكتبة وقابل فيها الحاصلين على الدكتوراه من الكنيسة البدائية: أتاناز Athanase وأوزاب Eusebe وبامفيل Pamhpile وزار بالطبع قبر الإسكندر. اقترب من التابوت الزجاجي وقال واصفًا تفاصيله: «كان البللور الشفاف يمكنني من رؤية ملك مات في مقتبل عمره يحيط بجبهته تاج من الذهب في قاع التابوت. كل شيء حوله يشي بالسطوة والسلطان»[٣٧] لم يستشر شاتوبريان بالطبع لا سترابون Strabon ولا ديودور Diodore ولا المؤلفين الذين ذكرهم في المقدمة (وهو ما يحدث له كثيرًا). وإنما أخذ كل ما يخص التابوت الزجاجي والتاج الذهبي من معلق معاصر يدعى سانت كروا Sainte - Croix[٣٨] كان قد أصدر عام ١٨٠٤ دراسة نقدية لمؤرخي الإسكندر الأكبر القدامى. أما بطله فيرى الفنار والتيمونيوم ومضمار الخيل وقصر البطالمة ومسلات كليوباترا. هذه المعالم وغيرها من الآثار المذكورة في طبوغرافية الإسكندرية القديمة وردت كلها في كتابات سانت كروا وقام بونامي Bonamy بحصرها. وقد أبحر شاتوبريان بعد ذلك إلى ممفيس.

«وجدنا أنفسنا في وسط البحر في مياه النيل ذات اللون المائل للحمرة. ولاحت لنا تدريجيّاً قمم مباني كانوب كانت مصر لامعة من دفقة جديدة من مياه الفيضان. وبدت لأعيننا كالجاموسة الولود التي خرجت لتوها من مياه النيل. أوغلنا بالمراكب في النهر. وحياة البحارة بصيحاتهم حاملين إلى أفواههم بعضًا من مياهه المقدسة. على جانبي النهر مناظر خلابة. هذه البحيرة الخصبة تظللها بالكاد أشجار الجميز والنخيل الذي يبدو كأعواد الغاب. أحيانًا تتوغل الصحراء في السهول الخضراء وتدفع برمالها بأشكال

ثعبانية ذهبية تتخلل الخصوبة بتعرجات عقيمة جدباء».[٣٩]

ظهرت الأهرامات التي أفرد لها شاتوبريان وصفًا سينتفع به في «الارتحال من باريس إلى القدس»، بدون مقدمات أمام المركب كأبواب مصر الجنائزية[٤٠]. ووصل أودور Eudore إلى ممفيس. ورغم تأكيدات شاتوبريان في مقدمة «الشهداء»[٤١] على زيارته لها إلا أنه لم يطأ موقعها بل لم يصل إلى سقارة. وبالتالي فليست لديه أدنى فكرة عن شكل المكان هناك. وقد نعزو إيجاز وعدم دقة وصفه إلى هذا السبب. كتب يقول: «ممفيس قيد خطوات من هنا.. في ظلال مساكن العدم، تحيط بها التوابيت وتغمرها بحيرة Acherus حيث كان قارون Caron يلقي بموتاه. لقربها من سهل القبور تبدو وكأنها لا يفصلها عن جهنم هي وأجيالها.. إلا خطوة واحدة». هذه البحيرة التي يلقي فيها قارون موتاه أليست ذات البحيرة التي تحد واحة الفيوم؟ من هنا كيف يتأتى لها أن تغرق أو تروي أو تغمر ممفيس ومنطقة سقارة؟ من الواضح هنا أن هناك عدم دقة وتشويش جغرافي كما أشرنا من قبل في كتابات رحالة القرنين السابع عشر والثامن عشر قبل برهنة وإثبات دومابيه Du Maillet وس.ل. فورمون C.L. Fourmont .

أبحر أودور بعد ذلك في النيل إلى الجنوب وها هي الطريقة الموجزة والمرحة التي يتحدث بها عن رحلته إلى صعيد مصر. «كنت أزور طيبة ذات المائة باب و«تنتريس»[٤٢] ذات الأطلال الرائعة وبعضًا من الأربعين ألف مدينة التي يرويها النيل أثناء جريانه».

لم ذكر طيبة قبل سنتريس؟ عندما ننتقل من «ممفيس» أي من الشمال نمر بدندرة قبل الوصول إلى أطلال طيبة. كان يكفي إلقاء نظرة عابرة على خريطة معهد مصر للتأكد من ذلك. وأين وجد شاتوبريان الأربعين ألف مدينة؟ وقد اضطر إلى تخفيض هذا العدد في حاشية بالطبعة الثالثة من كتابه «الشهداء».[٤٣]

عندما حصل أودور Eudore من امبراطور في سيان Syéne على إجازته قرر أن يعود إلى اليونان. وانطلق في طريقه عبر صحراء الجزيرة العربية نحو سواحل البحر الأحمر لرغبته في الوصول إلى آسيا الصغرى عن طريق شبه جزيرة سيناء. ولكن في وسط الصحراء فاجأته رياح الخماسين وكاد يفنى من العطش والإرهاق لولا ظهور أسد

قرر أن يتبعه أملاً في الوصول إلى مصدر مياه. وقد قاده الأسد إلى صومعة الأنبا بولس الناسك المعمر معلم القديس أنطوان وصاحب مذهب الرهبنة في الإقليم الطيبي . استقبل الشيخ الصياد التائب بأبوة وتنبأ له قبل أن يموت بكل ما ينتظر مصر المسيحية. وفاضت روحه بين ذراعي تلميذه أنطوان. عاد أودور إلى وطنه مملوءًا بهذه الرؤى الدينية. وبعودته انتهت الرواية.

هذا الوصف للصحراء ولأوائل المرشدين مستعار. جزء منه يرجع إلى «حياة الرهبان في الصحراء» Vies des Péres du désert الذي ترجمه أرنو دانديلي Amault d'Andilly[٤٤] والجزء الآخر يرجع إلى روايات مبشري القرن السابع عشر خاصة الأب سيكار Sicard[٤٥] ويقتصر الأمر أحيانًا على ملمح رسمي محدد مثل «بقايا الغابات المطمورة المتناثرة في الصحراء وأكوام الحجارة الموضوعة من مسافة إلى أخرى لإرشاد خطوات النساك وظلال بعض قطعان الغزلان».

الجمل الذي تبدو عليه علامات القلق ويغرس منخريه في الرمل ويزفر بشدة عند اقتراب موعد رياح الخماسين وبئر المياه الباردة، ظلال النخيل.. صخور الدرج السوداء التي ترقى بك إلى دير الأنبا بولس. أحيانًا يصف منظرًا بانوراميًا عامًا مثل الذي نشهده من قمة جبل القلزم: «أفق رحيب يمد دائرة حولنا. كنا نكشف في الشرق قمم Oreb وسيناء بالإضافة إلى صحراء Sur والبحر الأحمر. وكنا في الوسط نرى سلاسل جبال الإقليم الطيبي. أما في الشمال فكانت تترامى السهول الجدباء التي طارد فيها فرعون اليهود. وفي الغرب، وراء الرمال التي ضللت الطريق عددها كان وادي مصر الخصب»[٤٦].

بريشة هذا الفنان القدير تلون المشهد ودبت الحياة فيه وإن كان غير حقيقيّ. «يلبي الضوء أوامره ويظهر». شق شعاع الفجر سماء الجزيرة العربية وأضاء هذه اللوحة. انطلقت حمر الوحش والغزال والنعام كلها مسرعة في الصحراء بينما مرت إبل القافلة ببطء يقودها في المقدمة الحمار الذكي. كنا نرى في البحر الأحمر سفنًا تمرق حاملة العطور والحرير أو ناقلة بعض الحكماء إلى الشواطئ الهندية. وأشرقت الشمس أخيرًا متوجه هذه الحدود بين العالمين. بدت الشمس ساطعة على قمة سيناء. صورة لامعة لله

الذي طلب موسى رؤيته فوق الجبل المقدس!»

لا شك أننا إذا ما أردنا رؤية هذه السفن المحملة بالعطور والحرير ومعرفة وجهتها الفلسفية علينا أن نحظى بعين وذهن مدربين تدريبًا متميزًا. ولكن على أية حال هناك تناسق لوني ومجموعة ألوان جميلة ما كان شاتوبريان في حاجة للمجيء إلى مصر للعثور عليها، مهما برر ذلك. يكفي أن يكون تحت ناظريه كتابات عن رحلة قام بها غيره ينسج عليها رؤية براقة وسيل من الجمل البليغة. ألم يساعده الأب شارلوڤوا Charlevoix في صياغة صورة رائعة لغابات وشلالات أمريكا؟ زوده الأب سيكار Sicard ورحالة آخرون بالخطوط الأولى التي استنبط منها لوحته، هو يعرف كيف ينظر وهذا حقيقي. وهو ينظر سريعًا بل وسريعًا جدًا كيفما يتراءى لمن يصطحبونه ولكنه يعرف أيضًا كيف ينظر من خلال نص! هو ساحر يمكنه بنصين أو ثلاثة نصوص كتبها مبشرون أن يوجد بعصاه السحرية رؤية مختلفة وأن يبدع منظرًا طبيعيًا ويبث الحياة في كون كامل.

أيعني ذلك أنه لم يجلب معه شيئًا من مصر، أنه لم يستفد شيئًا من تجربته الشخصية؟ كتب يقول: «كنت أريد إعطاء رسم الأماكن الخالدة طابعًا ولونًا محليًا» وهي المرة الأولى كما لاحظ البعض، التي يظهر فيها هذا المصطلح في الأدب الفرنسي. ولكن هذا اللون المحلي أو الصبغة أو الطابع المحلي ليس موزعًا بلمسات واضحة وغير متساوية. فمجموعة الوانه ليست كبيرة. في لوحاته لا توجد طبقات لونية كثيفة ولا بقع. إغرابيته ليست كإغرابيتنا الحديثة لامعة، براقة ذات وجوه متعددة وانعكاسات متباينة. في تكويناته لا يوجد شيء جامد أو مفتعل أو عديم التناسق. استشراقه ليس فنًا للمنمنمات أو الفسيفساء. لا تذهب التفصيلات بلبه مهما كانت قوتها الإيحائية. رؤيته سريعة وواسعة. هدفه ليس الواقعية التصويرية البراقة وإنما الحقيقة العامة والمركبة. من هنا كان اتجاهه إلى إعادة صياغة رؤيته الأولية والسريعة للبلد. تلك التي يلتقطها بعينيه أو من خلال القراءة. من هذه الزاوية وبسبب بعض الظواهر في أسلوبه، يمكن القول بأن شاتوبريان كلاسيكي(٤٧). وهذا ما سوف يفصله ويميزه عن الجيل التالي جيل نرڤال Nerval وفلوبير Flaubert ومكسيم دي كوم Maxime Du Camp وجوتييه Gautier

وفرومنتان Fromentin وآخر الرومانتيكيين الذين سنتبعهم في مصر.

****

BIBLIOGRAPHIE

- Chateaubriand, Compte rendu du "Voyage pittoresque et historique de l'Espagne, par M. de Laborde." Mercure de France, juillet 1807, t. XXIX, p. 7.

- Les Martyrs ou le triomphe de la religion chrétienne, Paris, Le Normant, 1809, vol. 1 Livre XI, p. 349-387, édition Garnier, p. 169-187, avec Préface de la 1re édition et Remarques ajoutées à la 3e édition, 1810 cf. p. 455-465.

- Les Martyrs de Dioclétien, version primitive et inédite des Martyrs. Edition critique avec une introduction par B. d'Andlau, Paris, Belin, 1951.

- Itinéraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris, en allant par la Grèce, et revenant par l'Egypte, la Barbarie et l'Espagne, Paris, Le Normant, 1811.

- Edition E. Malakis, Baltimore, The Johns Hopkins press, printed by J.-H. Furet, 1946, 2 vol.

- Mémoires d'Outre-Tombe, nouvelle édition par E. Buré, Paris, Garnier (1898-1901) 6 vol. in-12. Cf. vol. II, p. 507 et suiv., p. 537 et 546.

- Nouvelle édition revue et annotée par P. Moreau, Garnier, 1946, 6 vol.

- Edition intégrale et critique en partie inédite, établie par M. Levaillant. 2e édition revue et corrigée, Paris, Flammarion, 1949. 4 tomes en 2 vol.

- Lettres à Mme Récamier, recueillies pour la première fois et présentées d'aprés les originaux par M. Levaillant, avec le concours d'E. de Loménie, Paris, Flammarion, 1951.

- Itinéraire de Paris à Jérusatem, par Julien, domestique de M. de Chateaubriand, éd. par Ed. Champion, 1904, 2e éd., p. 37.

- G. Deschamps, L' "Itinéraire" de Julien, Le Temps, 8 sept. 1907.

- A. de Groselande, Notes sur l'Itinéraire de Paris à Jérusalem de Chateaubriand et sur l'Itinéraire de Julien, Imprimerie Nationale, Suisse, 1908.

- A. Oltrey, L' "Itinéraire de Paris a Jérusalem" et la censure, Revuce des Deux Mondes, 15 juillet, 1943.

- J. M. Galtier, Le Vocabulaire de Chateaubriand: la Couleur locale dans les "Martyrs" et l'"Itinéraire", Le français moderne, janv. 1950, p. 33-43.

- Albert Dollinger, Les études historiques de Chateaubriand, Thése, Strasbourg, publ. de la Faculté des Lettres, 1932.

- Comtesse Beatrix d'Andlau, Chateaubriand et "les Martyrs", naissance d'une épopée, Paris, José Corti, 1952.

- Breton et J. J. Marcel, L'Egypte et la Syrie, Paris, 1814, 6 vol. in-32.

- F. Mengin, Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed-Aly, ou récit des événements politiques et militaires qui ont eu lieu depuis le départ des Français jusqu'en 1823. Avec notes de MM. Langlés et Jomard, Paris, 1823.

- A. de Vaulabelle, Histoire de l'Egypte moderne, 1801-1833 (vol. IX et X de l'Histoire de l'expédition française, 1836).

- Georges Douin, Mohamed-Aly, pacha du Caire (1805-1807), Correspondance des consuls de France en Egypte, Le Caire, Editions de la Soci élé de Géographie, 1926.

- Auriant, Aly-bey el-abbassi, ou Un projet espagnol de conqute du Maroc en 1803, Revue Bleue, 2 août 1924, p. 519-522.

- Abdallah. de Toulouse et Sélim, d'Avignon, Revue Bleue, 2 février 1929.

- Autour d'une stéle, Correspondant, 10 mars 1924, p. 808-832.

- Chateaubriand et Méhémet-Ali, Mercure de France, 15 décembre 1924 (écho).

- G. Guemard, Aventuriers mameluks d'Egypte, Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie, 1929.

- Sainte-Beuve, Chateaubriand et son groupe littéraire, vol. II, 20e leçon, p. 69-98.

- P. Garabed der-Sahaghian, Chateaubriand en Orient, Thése de doctorat présentée à la Faculté des Lettres de Fribourg. Venise, Imprimerie arménienne, 1914.

- P. Maurice Masson, œuvres et maîtres, Perrin, 1923 (Réimpression de l'article: Chateaubriand en Orient, paru dans la Revue des Deux Mondes, le 1er novembre 1914).

- P. Moreau, Chateaubriand, Paris, Garnier, 1927.

- Auriant, Aventuriers et originaux, Paris, Gallimard, 1934.

- Eléments autobiographiques du récit d'Eudore, dans Mélanges de Philologie et d'Histoire littéraire offerts à Edmond Huguet, Paris, Boivin, 1940, p. 446-459.

- II. Gillot, Chateaubriand, ses idées, son action, son œuvre, Paris, Les Belles-Lettres, 1934.

- J. Charpentier, Napoléon et les hommes de lettres de son temps, Paris, Mercure de France, 1935.

- M. Duchemin, Chateaubriand, essais de critique et d'histoire littéraire, Paris, Vrin, 1938.

- M. Levaillant, Splendeurs, miséres et chimères de Monsieur de Chateaubriand, Paris, A. Michel, 1948.

- Le livre du Centenaire de Chateaubriand, Paris, Flammarion, 1949.

- Martial Piechaud, Ainsi vécut Chateaubriand, Paris, Hachette, 1951.

****

الهوامش

١- أضاف سانت بوف قائلاً ص ٧٢ هو رسام وحاج وعاشق ويمكننا القول أنه كان عاشقًا أكثر منه حاجّاً.

٢- ب. مورو P. Moreau شاتوبريان Chateaubriand، Garnier ١٩٢٧، ص ١١٥.

٣- الطبيب الذي كان بالنسبة له مضيفًا ومرشدًا في اليونان وهو أول من انتقد طريقته السريعة والسطحية في السفر، في كتيب إيطالي نشر عام ١٨١٦.

٤- مقدمة Itinéraire de a Paris Jérusalem «الرحلة من باريس إلى القدس» طبعة ١٨١١.

٥- صبي يقف خلف السلطان أو ضابط تابع في خدمة القصر.

٦- «الرحلة من باريس إلى القدس» بقلم جوليان خادم السيد شاتوبريان، الناشر Champion ١٩٠٤ الطبعة الثانية ص ٣٧.

٧- المقصود هنا هو «جون» الذي يدعي شاتوبريان أنه قد رافقه في القسطنطينية في الثالث من أكتوبر («الرحلة من باريس إلى القدس» المجلد الثالث، طبعة ١٨١١ ص ٧١).

٨- ذات المرجع ص ٧٠.

٩- مراجع إيطالية

-Giovanni Marro, Documenti inediti sulla cessione al Piemonte deffa collezione egiziana Drovetti, Turin, 1934.

- Ibid Il corpo epistolare di Bernardino Drovetti, Rome, 1940

- Ibid La personalita di Bernardino Drovetti situata nel suo archivio inedito, Turin, 1951

جاستون وايت Gaston Wiet «قناصل فرنسا في مصر في عهد محمد علي»
Les Consuls de France en Egypte sous le régne de Mohammed Ali

روڤو دوكار، مجلة القاهرة La Revue du Caire، أعداد :أكتوبر ونوفمبر وديسمبر ١٩٤٣.

١٠- راجع الدراسة التي تناولت سولت Salt ودورڤيتي Drovetti والتي نشرها م. أوريون M.Auriant بعنوان Autour d'une stele في مجلة المراسل Le Correspondant «لوكورسبوندون» عدد العاشر من مارس ١٩٢٤..

راجع أيضًا الوثائق المنشورة بواسطة ج. دوين G.Douin عن: محمد علي باشا القاهرة Mohamed-Aly, pacha du Caire (١٨٠٥ - ١٨٠٧) وحياة دروڤيتي Drovetti بقلم فارينا Farina، الناشر Turin (باللغة الإيطالية).

اشترى متحف اللوڤر مجموعة سولت Salt تحت إلحاح شامبليون عام ١٨٢٦.

١١- «الرحلة من باريس إلى القدس» L'Itinéraire de Paris Jérusalem طبعة ١٨١١ المجلد الثالث، ص ٦٦ .

١٢- ذات المرجع ص ٧٣.

١٣- بقيت العلاقات بين السيد كاف M.Caffe وشاتوبريان قائمة وقد نشر رسالتين تلقاهما منه: الأولى في «الرحلة من باريس إلى القدس» ص ١٠٧ والثانية في «مذكرات ما وراء القبر» Mémoires d'outre-Tombe, éd. Bire , vol II, p537

١٤- الحق أنها لم تكن سوى ستة أيام، فقد غادر رشيد في السادس والعشرين من أكتوبر وهذا يوصله إلى القاهرة، لا في نهاية أكتوبر وإنما أول نوڤمبر. المعروف عن شاتوبريان أنه لا يكترث كثيرًا بالتسلسل الزمني.

١٥- «الرحلة من باريس إلى القدس» طبعة ١٨١١ ص ص ٧٦ - ٧٧.

١٦- «الرحلة من باريس إلى القدس» ص ص ٨١ - ٨٢ وملاحظات «الشهداء» الطبعة الثالثة (١٨١٠) Les Martyrs، الناشر Gamier ص ٤٥٨.

١٧- «الارتحال من باريس إلى القدس» س ٨٥.

١٨- إذا لم تكن الملاحة قد دامت سبعة أيام قاتلة بخلاف الأول من نوڤمبر ١٨٠٦ «الارتحال من باريس إلى القدس» ص ٨٧.

١٩- Felix Mengin «تاريخ مصر في عهد حكومة محمد علي»

الأحـــــداث Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed Aly السـيـاسـيـة والعـسكرية التي وقـعت منذ رحـيل الفـرنسـيين وحـتى ١٨٢٣ مع حـواشي MM.langles و Jomard باريس ١٨٢٣.

وهو مـؤلف كـتـاب «التـاريخ الموجـز لمصـر» من ١٨٢٣ إلى ١٨٣٨ Histoire sommaire de L'Egypte» كما ساهم بلوحة مصر Tableau de L'Egypte في مذكرات الجنرال بليار التي نشـرها فـينيـه Mémoires du Général Belliard, Vinet وقـد تزوج ابنة السـيـد «كـاف» راجـع في هذا الأمـر Jehan d'Jvray, L'Aventure saint Simonienne et les femmes 1928

٢٠- لم يصف شاتوبريان بئر يوسف ولا مسلة المطرية ولا شجرة العذراء التي بجوارها.

٢١- كل الرحالة تقريبًا يتناولون هذه المجموعة من المماليك الفرنسيين، قام الكونت دي فوربان C.de Forbin الذي زار الأهرامات عام ١٨١٧ مع رشوان بإعطاء صورة غير مشجعة عنهم قائلاً: «لم يكونوا إلا ثمانين وكانوا يشكون من الإهمال وقلة الرواتب» [رحلة ص ٢١١] وذكر الكونت مـارسلوس Marcellus ثلاثة وثلاثين آخرين عـام ١٨٢٠ منهم رشـوان الأسطوري. أما في عام ١٨٣٠ فلم يكن باق منهم إلا سبعة عشر [ذكريات ص ٣٨٤] كان أحدهم يدعى يوسف كاشف ويشرف على أعمال التنقيب الخاصة بدروفيتي Drovetti ويبدو أن آخرهم هو السيد جون، تاجر الخمور في الأرخبيل الذي أشار إليه جيرار دي نرفال Gérard de Nerval عام ١٨٤٣.

راجع قائمة المراجع دراسات أوريون وجيمار Etudes d'Auriant et Guémard

٢٢- «الرحلة من باريس إلى القدس» ص ص ٨٩ - ٩٠.

٢٣- يزعم السيد دريول Driault أن شاتوبريان التقى بمحمد علي (Campagne de Créte et de Moree) ص ٩.

٢٤- أكد ذلك الكونت ج. دستورمل «يوميات رحلة إلى الشرق» Journal d'un Voyage en Orient باريس، ١٨٤٤، المجلد الثاني ص ٢٦٥.

٢٥- «الرحلة من باريس إلى القدس» ص ٩١.

٢٦- ذات المرجع ص ٩٣.

٢٧- «الرحلة من باريس إلى القدس» ص ٩٤.

كان اللورد ڤالنتيا Lord Valentia بصحبة القنصل الإنجليزي سولت Salt قد قام قبل هذا التاريخ بستة أشهر برحلة إلى الأهرامات ومعهما مجموعة المماليك الفرنسيين.

راجع ج. ڤالنتيا «الرحلات والأسفار إلى الهند، سيلان والبحر الأحمر وأثيوبيا ومصر في الأعوام من ١٨٠٢ إلى ١٨٠٦»

Voyages and travels to India, Ceylon, thé Red Sea, Abyssinia and Egypt in thé years 1802 - 1806, London, 1809

الترجمة الفرنسية، باريس، ١٨١٣، ٤ مجلدات.

٢٨- راجع G. Douin ج. دوين «محمد علي والي القاهرة» Mohamed-Aly pacha du Caire (١٨٠٥ - ١٨٠٧) ومراسلات قناصل فرنسا التي نشرتها عام ١٩٢٦ الجمعية الملكية للجغرافيا ص ١٤٢.

٢٩- قوات الوالي بما فيها الألبان الثائرون.

٣٠- هو معسكر العرب على الضفة المقابلة والتابع لألفي بك. اهتم شاتوبريان بأحداث الصراع بين البدو التابعين لألفي بك وقوات محمد علي. وطرح على السيد كاف Caffe عدة أسئلة في هذا الشأن. وقد كتب إليه كاف من رشيد في الرابع عشر من نوفمبر [وليس فبراير كما ذكر] يقول: «القرية التي هزم فيها المماليك الألبان تسمى «نكلة» أما التي هاجمنا فيها العرب فتحمل اسم «صافي». «الرحلة من باريس إلى القدس» ص ١٠٧.

٣١- Les Martyrs «الشهداء» الطبعة الثالثة ١٨١٠ .

٣٢- F. de Tott ف. دي توت المفتش العام لأساكل الشرق ومؤلف «مذكرات حول الأتراك والتتار» Mémoires sur les Turcs et les Tartares راجع الباب الثاني ص ١٠٥.

٣٣- «الرحلة من باريس إلى القدس» ص ص ٩٩ - ١٠٠.

كان قد سبق له نشر هذه النقوش في دورية «مركور دي فرانس» Mercure de France عدد يوليو ١٨٠٧.

٣٤- رحلات إلى أفريقيا وآسيا خلال السنوات (١٨٠٣ - ١٨٠٧)
Voyages en Afrique et en Asie pendant les années 1803 - 1807

ثلاثة مجلدات ١٨١٤

راجع الكونت دي كاستريس Comte de Castreis «السنوات الأخيرة لعلي بك العباسي». Les derniéres années d'Ali Bey el - Abassi في مجلة «دوموند» Deux - Mondes ١٩٠٩.

ومقال هيريروس Herreros «أربعة رحالة أسبان في الإسكندرية» ١٩٢٥
quatre voyageurs espagnols Alexandrie

ومقال أوريون Auriant «علي بك العباس» Ali Bey el - Abbassi مجلة لا روفو بلو La Revue Bleue ، عدد ٢ أغسطس ١٩٢٤ ، ص ص ٥١٩ - ٥٢٢.

٣٥- «الرحلة من باريس إلى القدس» ص ٧٤ السيد شوازول جوفييه Choiseul - Gouffier سفير فرنسا في القسطنطينية ومؤلف كتاب «رحلة إلى اليونان» Voyage dans la Gréce وهو راعي الفنان كاساس .Cassas راجع ص ١٠٤ الحاشية.

٣٦- وصف مصر المدرج في «الشهداء» Les Martyrs (١٨٠٩) سابق على الوصف الوارد في «الرحلة من باريس إلى القدس» Itinéraire de Paris Jérusalem (١٨١١)

وقد رجع شاتوبريان إليه حين كتب يوميات رحلته. وقد استعان بهذه اليوميات التي كتبها ١٨٠٦ في «الرحلة من باريس إلى القدس» عندما وصف الإسكندرية على سبيل المثال. أما عن الأهرامات فقد قال في الحاشية:

«يجب أن نلتزم الصمت بعد بوسويه Bossuet بشأن هذه القبور الهائلة. وقد استخدم في نص الملحمة نفسه مقطع يوميات الرحلة التي سنراها لاحقًا في «الرحلة من باريس إلى القدس». من هنا نرى أن الملحوظة المدونة في عجالة قد استغلت مرتين. حسبت أنه من الضروري أن أدرس هنا «الرحلة من باريس إلى القدس» قبل «الشهداء» لترتيب الأحداث ومعرفة خط سير الرحلة الحقيقية قبل تأمل نتائجها الأدبية.

٣٧- راجع «الشهداء» Les Martyrs، الطبعة الأولى Garnier ص ١٧٣.

الفصل الثاني

النبلاء والفنانون والمثقفون

كان عام ١٨١١ الذي شهد صدور كتاب «الارتحال من باريس إلى القدس» عامًا مليئًا بالآمال بالنسبة لكل من نابليون ومحمد علي. فقد ضمن لكليهما المستقبل بصفة نهائية. بالنسبة للأول بميلاد طال انتظاره وبالنسبة للثاني بجريمة أعدت إعدادًا جيدًا. ففي القاهرة قام محمد علي بجذب المماليك إلى فخ القلعة. وتم هناك الإجهاز عليهم في مذبحة على عتبة القصر. أما في باريس فقد ظهر الإمبراطور في شرفة حدائق التويلري Tuileries وسط دقات الأجراس وصوت النفير «لم تستطع الشعوب إلا البقاء صامتة لأن ذراعيه المرفوعتين كانت تقدمان للأرض مولودًا جديدًا».

ولكن هذا لم يصرف انتباهه عن أمور وشئون مصر. ففي نهاية مايو ١٨١١، وصل إلى الإسكندرية أحد رسله الغامضين الكولونيل بوتان Boutin ليعلن على فرنسيي مصر «ولادة جلالة الإمبراطورة وميلاد ملك روما».

كان بوتان نقيب مهندسين سابق، أُرسل إلى القسطنطينية عام ١٨٠٧ وعينه سباستياني Sebastiani عام ١٨٠٨ في جيش الصدر الأعظم في Silistrie قبل ذهابه إلى هناك، عرج على الجزائر ليدرس إمكانية إنزال قوات فرنسية هناك، ثم ذهب فجأة إلى مصر. وهناك استقبله القنصل النشط دروڤيتي Drovetti وصحبه إلى الصعيد مما أثار شكوك قنصل إنجلترا الميجور ميسيت Missett الذي سرعان ما أصبح كولونيلاً، كتب هذا الأخير إلى لندن يقول: يبدو مثيرًا للدهشة أن السيد دروڤيتي Drovetti الذي تصل سنيُّ خدمته في مصر إلى تسع سنوات لم يفكر يومًا في زيارة الصعيد وأن يختار لذلك توقيت زيارة مبعوث الحكومة الفرنسية له. هؤلاء السادة لديهم في رأيي شيء آخر غير تفقد الأطلال. أما بالنسبة لدروڤيتي، فهذه الرحلة التي قام بها عام ١٨١١، كانت كشفًا أثريًا.

كان قد طلب من محمد علي الإذن للقيام بأعمال تنقيب. وبفضل الفرمان الذي منحه إياه الوالي استطاع البدء في سبر أغوار وادي الملوك ومقابر الشيخ عبد القرنة. لم يكن يفكر بالمرة في هذه الثروات الراقدة تحت الأرض منذ قرون طويلة. وقد شوهد لدى عودته إلى القاهرة في يناير ١٨١٢ سعيدًا بما جلبه معه من لفائف المخطوطات والآثار.

بعد ما أعفي دروڤيتي Droveth من منصبه القنصلي بسبب سقوط نابليون وعودة البوربون، لم يبرح مسرح أبحاثه. وكانت البعثات التي يرسلها إلى طيبة كل عام تعود إليه في غرفته بالإسكندرية محملة بالنياشين وأوراق البردي والبرونز والعقيق والتماثيل الجنائزية الصغيرة.(١)

أما مهمة الكولونيل بوتان Boutin فكانت مريبة. أبحر في النيل حتى أسوان وعبر صحراء الإقليم الطيبي حتى البحر ثم عاود الإبحار من القصير في اتجاه ينبع ميناء الحجاز، ثم عاد إلى السويس وزار دير سيناء. وقد مد حدود مغامرته إلى واحة سيوة قبل أن يقضي نحبه عام ١٨١٥ في جبال سورية على يد مجموعة من اللصوص. بغية إثارة غضب محمد علي على بوتان Boutin ادعى القنصل الإنجليزي ميسيت Missett أنه كان يحاول تحريض آخر أتباع المماليك الذين تم الإجهاز عليهم في القلعة. وكانوا قد هربوا عند المذبحة إلى الصعيد. غير أنه من المحتمل أن تكون لديه مهمة موجهة ضد إنجلترا هدفها البحر ومنافذ عدن.

مع مقدم حكومة الإصلاح، لم يتراجع فضول الفرنسيين للشرق الأدنى بل تنامى بشكل تدريجي ومستمر. علينا الآن الالتفات إلى بعض النبلاء الفنانين والمثقفين الذين لهم بالدبلوماسية صلة إما دائمة أو وقتية والذين تركوا لنا ذكريات شائقة عن مصر مثل الكونت دي فوربان Forbin والكونت دي مارسيلوس Marcellus والبارون تايلور Taylor والبارون رينوار دي بوسيار Renouard de Bussieres، عشر سنوات بعد الفيكونت دي شاتوبريان Chateaubriand أي في عامي ١٨١٧و١٨١٨ بدأ الكونت دي فوربان Forbin رحلته إلى الشرق.

كان قد سبقه إلى مصر بنحو عام الشاب أمبرواز فيرمان ديدو Ambroise Firmin - Didot مؤسس دار النشر الشهيرة. كان الدوق دي ريشيليو Richelieu قد ألحقه بالسفارة الفرنسية بالقسطنطينية مما جعله يستغل الفرصة لزيارة أساكل البحر المتوسط. كان مثقفًا، عالمًا باللغة والأدب اليونانيين ومولعًا بصداقة اليونانيين. وقد ترك لنا نصاً ممتعًا ومحبوكًا، به هنا وهناك استشهادات يونانية ولاتينية. ولكن خبرته بكل ما هو مصري ما كانت لتعادل لا في المدة ولا في الاتساع خبرة الكونت دي فوربان Forbin.

وتخلل إبحاره في النيل من رشيد إلى الإسكندرية مثله في ذلك مثل شاتوبريان، إطلاق نيران من جنود محمد علي وتحرشات من الألبان.[٢] وكان قد رأى على شاطئ رشيد – وهذه تفصيلات كئيبة ومؤسفة ولكنها تبرهن على عدم الاستقرار المأساوي للنظام – جثة لمملوك بها آثار تعذيب قذف بها الوالي إلى البحر. «كانت يداه مثبتتين بمسامير بين لوحين من الخشب وقد التهمت الأسماك أحد فخذيه».[٣] ويبدو أنه على نقيض شاتوبريان لم يلتق بـ «دروفيتي» وإنما تناول عشاءً عند منافسه القنصل الإنجليزي سولت Salt[٤] فقد كان معجبًا بعلمه وقد ربطت بينهما صداقة. كاد أن يسافر إلى صعيد مصر، ولكنه على ما يبدو كان أقل تصميمًا على ذلك من الكونت دي فوربان Forbin فقد تراجع عن هذه الخطوة خوفًا من أنواع الرمد هناك وحتى لا يبقى طويلاً بدون أخبار من أسرته[٥]. غير أنه قد واتته فرصة زيارة أنقاض معبد أثري قديم من عصر متأخر في طريقه من بولاق إلى دمياط وتحديدًا في «بهبيت الحجارة»[٦]. وقد عزى نفسه عما فاته بالحديث الشائق الذي جمعه بالثري السوري باسل فخر Basile Fackr في منزل هذا الأخير الفخم بدمياط. كان هذا التاجر يتسم بالفضول العلمي. وقد أسس أكاديمية صغيرة قامت بترجمة «أطلال» ڤولنيه Volney إلى العربية.

وكان هذا التاجر تحت حماية ماتيو ديلسبس Mathieu de Lesseps. وقد قام باستقبال الكونت دي فوربان Forbin بحفاوة بالغة.[٧] وهذا الأخير لم يكن يمتهن التأليف والكتابة، فهو رسام له علاقات اجتماعية واسعة. ما كتبه بسيط وواضح وخال من الزخرف تكمل رونقه وتعلي من قيمته رسومات إيضاحية جميلة. الطبعة الأولى التي خرجت من

المطبعة القومية لم تكن لتقل في جودة طباعتها وتقنيتها عن رحلات ڤيڤان دونان Vivant Denon أو «وصف مصر». لا يمثل النص فيها إلا مدخلاً ومقدمة لثمانين لوحة تخص أفضل فناني عصره وفوربان Forbin واحد منهم. وقد قال معلقًا: «هو كتاب خطوط أولية لرحالة لا يجب النظر فيه إلى النص إلا باعتباره شارحًا للرسومات». وهو تواضع مبالغ فيه. «فرحلة إلى الشرق Voyage dans le Levant» عمل ممتاز بدون زخرف زائد. وهو يمثل نوعية جيدة من الكتب الكلاسيكية التي تخلو من الطموح المبالغ فيه والتهاون. أسلوب الكاتب فيه يتفادى المغالاة والحذلقة ولكنه لا يتردد في استخدام صيغ لافتة للنظر عندما يستدعي الأمر ذلك.

والكونت دي فوربان (١٧٧٧ - ١٨٤٢) Forbin يذكرنا من عدة وجوه بالبارون دونان Denon. فهو رسام مثله(٨) وقد اقتنى متحف اللوڤر بعضًا من لوحاته. كما أنه عاش مثله في إيطاليا. وكان في بدء حياته صديقًا لدافيد وتلميذًا للكلاسيكيين. الاثنان تبعا حملات الامبراطورية ولكن الفارق بينهما هنا أن دي فوربان قام بذلك بوصفه عسكرياً. شغل الاثنان ولكن بالتتابع وظيفة نبيل غرفة الملك «ومدير عام المتاحف». ويرجع إلى «فوربان Forbin فضل توسعة متحف «اللوڤر» وتأسيس متحف «لوكسمبرج». وهو ذو شخصية جذابة، لطيف المعشر، عالي المكانة، يتميز بالذكاء والخيال الخصب تلتقطه العين بسهولة في محافل وصالونات حكومة الإصلاحيين، فهو طويل القامة خفيف الحركة على درجة عالية من الدماثة والنبل وجمال الطلعة(٩) سنحت له أكثر من مرة فرصة لقاء الفيكونت دي شاتوبريان عند صهره الكونت دي مارسيلوس Marcellus الذي كان سبقه في المجيء إلى الشرق. وكان شاتوبريان قد قال فيه عبارات تقريظ ومديح وأشاد بلوحاته التي تجمع الأناقة إلى الصدق.(١٠)

كان كتابه رحلة إلى الشرق Voyage dans le Levant في ذات اتجاه كتاب «الارتحال من باريس إلى القدس». فقد سافر فوربان Forbin في أول الأمر إلى اليونان ثم إلى آسيا الصغرى وفلسطين. ومر بمصر بعد ذلك في نهاية ديسمبر ١٨١٧.

غير أنه بدلاً من أن يقوم بهذا الجزء الأخير من رحلته بحرًا، فضل السير على الساحل وقد لقي أكبر الصعوبات في رحلته من غزة إلى دمياط عابرًا صحراء العريش ومستنقعات بحيرة المنزلة. كان يقول: «عند قدومي إلى الشرق، كنت أحقق حلم الصبا». ويبدو أن رحلته هذه كانت بالفعل بوازع شخصي. غير أنه إلى جانب ذلك كان مكلفًا من قبل متحف اللوفر بشراء قطع أثرية. وقد سمح له لويس الثامن عشر الذي أهداه فوربان Forbin كتابه بالسفر على فرقاطة من أسطول الشرق. وبالتالي كانت كما نرى مهمة شبه رسمية، خففت قليلاً من نفقات رحلته الباهظة. صحبه في الرحلة قريبه الراهب دي فوربان جانسون Forbin - Janson الذي أصبح فيما بعد أسقف منطقة نانسي Nancy(١١) والسيد بريڤوه Prevost الرسام المعروف برسومات البانوراما الجميلة وطالب شاب في البحرية كان قد ترك الفرقاطة كليوباترا ليبقى بالقرب من السيد بريڤوه Prevost ويدعى لينان دي بلفون Linant de Bellefonds وسوف نلتقي به لاحقًا.

على نقيض شاتوبريان وأغلب الرحالة الذين أتوا إلى مصر عن طريق فرع رشيد، جاءها فوربان عن طريق فرع دمياط. كان أكثر تصميمًا وربما أكثر توفيقًا من شاتوبريان. فقد استطاع لارتدائه زي المسلمين اكتشاف القاهرة ودخول مساجدها وزيارة حماماتها التركية. وعلى غرار نرڤال Nerval، استطاع التجول حتى في سوق العبيد وكاد أن يقتني شركسية جميلة ترتدي قلنسوة حمراء مطرزة بالخيوط الذهبية وسروالاً منفوخًا لقاء ستة آلاف قرش. وقد ذهب إلى الأهرام: «الصامتة مثل الموت الذي شيدت من أجله (رغم محاولات الإيطالي بلزوني Belzoni لفتح الهرم الثاني عام ١٨١٧) وصحبه إلى هناك الوفي «رشوان» الوحيد الباقي على قيد الحياة من الخمسة المماليك الفرنسيين الذين جندهم شاتوبريان.

بعد إقامة بالقاهرة دامت أسبوعين، استأجر الكونت دي فوربان Forbin قاربًا كما سيفعل لاحقًا فلوبير Flaubert وأبحر به في الثالث عشر من يناير ١٨١٨ إلى الصعيد. عند المنيا ظهر له واضحًا جليًا الصدام الكبير بين مصر القديمة ومصر الحديثة. في هرموبوليس وجد المعبد كائنًا وبالقرب منه معمل التكرير الذي سيتسبب في تدميره. كان

من الممكن أن يكرر الرحالة حينذاك قول كلود فرولو Claude Frollo الذي رفع ذات يوم الكتاب مشيرًا إلى الكاتدرائية: «سيقتل هذا ذاك».

كانت هذه الفترة هي تلك التي أرسلت فيها فرنسا إلى ضفاف النيل لا علماء آثار فقط وإنما فنيين ومهندسين وكيميائيين. وكان الفرنسيون خلالها يشيدون معامل تكرير السكر لحساب الوالي. من سخرية القدر أنه في الوقت الذي بدأ فيه العلم يدرس آثار مصر القديمة، كان العلم التطبيقي والصناعة حليفته يدمران هذه الآثار ويستغلانها كمحاجر، وتجتاحها الزراعة للبحث فيها عن ملح البارود. لدى إحساسه برتابة المشاهد الثرية على الضفتين طلب فوربان Forbin مغادرة المركب لإكمال جزء من الطريق بريًا. في ما سرده نجد أن الذكريات تنقصها هنا وهناك الدقة. فقد وضع منفلوط جنوب طهطا. في هذه المدينة الأخيرة أقام عند رهبان إيطاليين تابعين لـ «لابروباجند» La Propagande كانوا قد أساؤوا استقبال سونيني Sonnini وقد بدا له بؤسهم وفاقتهم مؤسفين.

وقد أعرض عن المرور بأبيدوس مكرسًا كل وقته للأقصر. وتفقد كل مزاراتها وفي يده القلم والأوراق بما في ذلك معبد ميداموت Medamout الصغير الذي لفتت حملة بونابرت إليه الأنظار، وكان الرحالة السابقون قد أهملوا زيارته. في «طيبة» التقى دي فوربان Forbin بفريدريك كايوه F. Cailliaud المتخصص في علم المعادن والذي كان عائدًا من رحلة استكشافية إلى شواطئ البحر الأحمر حيث أرسله محمد علي للبحث عن منجم للزمرد.(١٢)

كان هذا العالم يقضي أيامه في أعمال تنقيب لم تسفر عن شيء يذكر، يعاونه فيها ج. ج. ريفوه Rifaud مساعد دروڤيتي Drovetti . كان مجال البحث مسرحًا حقيقيًا للمعارك: من ناحية كان هناك مؤيدو دروڤيتي ومن ناحية أخرى أتباع الإنجليزي سولت Salt(١٣) كان العداء بين رؤساء الموقع ينتقل إلى العرب. وكان الأمر يتطور أحيانًا إلى التشابك «حول مسلة» وتثور حمية ريفوه Rifaud وتصعد الدماء إلى رأسه فيرمي بنفسه بين المعسكرين ويحاول بفيض من الكلام المنمق تهدئتهما. وينتهي الأمر بضربات مبرحة من عصاه لإصرارهما على عدم فهم لكنته.

صرف فوربان Forbin النظر عن الذهاب إلى أسوان ربما ضجرًا وربما بسبب الحمى والخوف من الحر الشديد. والحق أنه كان أقل جسارة من ابن جلدته دي مونتوليه de Montulé قبل لوتي Loti كان يصرح بأنه قد ضج من الإنجليز في الأسفار وجموع اللوردات الذاهبين إلى الصعيد على متن القوارب الفاخرة التي تحمل الأعلام البريطانية ومعهم حمولة كاملة من القساوسة والأطباء والطهاة والمربيات والدواجن. قال معبرًا عن ضيقه منهم: «غادرت الأقصر أسرع مما توقعت لأنني كنت أينما تجولت بين آثارها المهيبة أجدني وجهًا لوجه أمام عاملة غرف إنجليزية بسترة وردية ومظلة».(١٤)

كانت العودة بالقارب بطيئة فقد كانت الرياح معاكسة. وقد دنا مني النوتي وأنا متكئ على الصاري أقرأ وهمس في أذني: «الرياح ضعيفة لأنها بدلاً من القيام بعملها ودفع الأشرعة تقرأ وتتسلى معك». «بدا لي مقتنعًا بأنني سبب هذا البطء ومن ثم فقد فضلت التوقف من فوري عن القراءة».(١٥) لدى مروره أمام جبل الطير رأى فوربان Forbin مثله في ذلك مثل كل من سبقوه عرض المتسول الغاطس وهو إما راهب قبطي أو بدوي تجذبه القوارب ومن يبدو عليه الثراء من الأجانب فيها.

عاد فوربان إلى القاهرة وقد نفد صبره فلقيه هناك بترحاب فرنسيون، منهم نائب القنصل أسلان دي شرڤيل Asselin de Chereville صديق التاجر السوري باسل فخر Basile Fackr، وكان يجيد اللغات الشرقية والسيدة بارتيليمي Mme Barthelémy ابنة شقيق مؤلف كتاب «رحلات الشاب أنا كرسيس» Voyages du Jeune Anacharsis التي تتحدث بعرفان وتقدير عن أفضال ڤولتير عليها»(١٦) كانت الرحلة قد انتهت ولم يكن باقيًا أمام فوربان Forbin إلا ركوب البحر والاستئذان من الوالي. غادر فوربان مصر ولكن هذه المرة عن طريق فرع رشيد. وقبل الإبحار من الإسكندرية، التقى بالوالي. محمد علي. صحبه دروڤيتي Drovetti في هذا اللقاء. ورغم أنه لم يكن ذا صفة رسمية إلا أنه كان يحظى في القصر بمكانة ونفوذ. وقد تكررت مقابلاته بالوالي بل وحظي بشرف رسم بورتريه له سيقوم هوراس ڤرنيه(١٧) Horace Vernet لاحقًا بطباعته باستخدام الطباعة الحجرية. علق فوربان Forbin على هذا اللقاء قائلاً: «استقبلني محمد علي بلطف شديد

وأبدى لي أسفه لعدم وجوده بالقاهرة أثناء فترة إقامتي بها. كان وجهه يضج بالحياة ونظراته معبرة. كان يدخن أرجيلته الحمراء المرصعة بالأحجار الكريمة.. تخلل حديثه لي نوع من الفواق التشنجي[18] قيل لي إنه نتيجة دخول سم زعاف إلى جسمه وأنه قد تمت استشارة أكثر الأطباء كفاءة في أوروبا بدون جدوى. «كان يحدثني عن فرنسا كرجل مثقف على بينة من موقف بلاده ومواردها حين استأذن في الدخول بعض البدو العرب من قبيلة أولاد علي. كانوا يحملون إليه فهدًا صغيرًا وغزالة بيضاء ونعامة صغيرة. كان محمد علي يبتسم وهم راكعون يحاولون تقبيل أطراف ثوبه. وقد بقوا على هذا الوضع حتى جرّوهم خارج الديوان جرّاً».[19]

لوحة ذات دلالة عميقة لازدواجية مصر أمام عيني الرسام: مصر المهتمة بأوروبا وبالتقدم الفكري والتقني ومصر الباقية على تقاليدها الإسلامية والتي يحرص الطغيان الشرقي على تجميدها على هذا الوضع. كان محمد علي يرمز إلى الاتجاهين معًا. فسوف يحسن لاحقًا استقبال شامبليون Champollion ويعين في خدمته الكولونيل ڤيسيار Vaissiere والكولونيل ساف Seve (سليمان باشا) والمهندس لينان دي بلفون Linant de Bellefonds والطبيب كلوت بك .Clot-Bey ولكنه منذ سبع سنوات خلت، كان هو ذاته من أجهز على أربعمائة مملوك على درج قصره. وسوف يقدم لنا الكونت دي فوربان Forbin وصفًا مفصلاً لهذه المذبحة.

وقد استوحى هوراس ڤرنيه Horace Vernet قبل مجيئه إلى مصر من هذا النص تحديدًا لوحته الشهيرة التي عرضها عام ١٨٢١ والمحفوظة حالياً بمتحف Amiens أميان. في هذه اللوحة يبدو محمد علي في جلسته المألوفة، تلك التي استقبل بها الكونت دي فوربان Forbin مستندًا إلى وسائده. غير أن الرسام قد جعله ينظر بعيدًا نظرة جامدة، ووضع إلى جواره لا غزالة بيضاء وإنما ليثًا مستأنسًا. وبجوار قبضة يده وضع هوراس ڤرنيه خنجرًا في الحزام. وهي تفاصيل تشي بما لا يفصح عنه بل ويخبئه. وجهه وهيئته. أما في خلفية اللوحة فقد رسم مماليك يتساقطون من فوق جيادهم تحت وابل نيران الإنكشارية.[20]

في سطور الكونت دي فوربان تأخذ مصر الحديثة مكانها في المقدمة. ونستشعر هنا «فضوله لمعرفة مجريات الأمور. فقد كان الرحالة بطريقة ما صحفيي العالم».[٢١] ومن هنا فهو يرغب في تقديم الوقائع. يحكي الأحداث كما وقعت ولا يحاول عمل مقدمات لها. «أكرر ما قلته سابقًا: أنا أكتب ما أرى وما يلفت نظري. قد تكون هذه الملحوظات غير كافية بالنسبة للآخرين ولكنها في النهاية مرآة لانطباعاتي».[٢٢] وملاحظته هنا دقيقة. أما أسلوبه فيخلو من التصنع والتكلف ولكنه يحوي بعض الصيغ المتفردة. فإذا ما أراد مثلاً وصف نظام الإرهاب والضغط الضريبي الذي يمارسه محمد علي، فهو يضع جل وصفه في ثلاث كلمات: «الجميع يرتعد، الجميع يدفع، الجميع يتعذب»[٢٣]. أما عن المغامرين الإيطاليين الذين يدّعون أنهم أطباء للإقامة في صعيد مصر بغية التنقيب عن الآثار في الخفاء فيقول: «هم يدفنون الآغوات ويخرجون التماثيل من باطن الأرض، ويستشعرون راحة في هذا التبديل للمواقع»[٢٤] نشعر أنه رسام فهو يعرف كيف يرى وكيف يُري. «كنت لا ألقى في طريقي عادة إلا قطعان الجاموس التي تأتي للنزول في مياه النيل. وكنت أرى طيور أبي منجل ذات البياض الناصع تنشر أجنحتها الفضية وتحط على ظهور الحيوانات الضخمة بأوزانها الثقيلة»[٢٥]. ويتسع أحيانًا مدى رؤيته بتأمل عميق: «تقهرك العظمة في كل مكان ويدهشك الإتقان أينما ذهبت.. بيوت من لبن وقش ملتصقة بقواعد الأعمدة الخالدة، والبقرة والجواد موثقان عند أقدام أبي الهول... إلام آلت السفن الذهبية والأشرعة الحمراء والحبال المجدولة بالفضة. أي صمت مخيف لحق بأصوات المجاديف الرتيب وتصفيق الجموع وأناشيد الكهنة وهذا التناغم الموسيقي ذو المسامع القوية التي لا تهدئ الكراهية المشبوبة لدى الشعوب»[٢٦] «رحلة إلى الشرق» إذًا كتاب متميز، دقيق، واضح، زخرفه معتدل ومتحفظ، ملؤه الحكمة والظرف. لا يشغل الجزء المصري فيه إلا النصف وربما أقل. ولكن هذا لا يمنع كونه شهادة ذات قيمة عالية عن مصر ومحمد علي.

لا شيء في النهاية يوضح طريقة سفر الكونت دي فوربان Forbin إلا المقارنة التي يعقدها إسماعيل رشوان الملوك الفرنسي بينه وبين شاتوبريان فقد عمل مرشدًا للاثنين. كتب يقول:

«كان شاتوبريان يتنزه صامتًا تحت عقود قصر صلاح الدين. كان يمر بين أعمدة مساجد مصر القديمة بدون أن يطرح عليّ سؤالاً واحدًا. وكنت ألحظ بسهولة أنني ليس لدي ما أضيفه إلى معارفه. كان يفكر دومًا في أشياء لا أفهمها. وحين كنت أراه يطيل النظر في مجرى النيل وقد فاض، لم أكن أجرؤ على قطع تأملاته. كان الكونت دي فوربان ينظر إلى كل شيء ويسأل عن كل شيء. يتوقف كل بضع خطوات ثم يفتح دفترًا كبيرًا عرضه أكبر من طوله، ويخط فيه جالسًا أو واقفًا أحيانًا، شوارع المدينة أو مئذنة أو قبرًا وأحيانًا أخرى أشجار النخيل التي يفضلها على كل الأشجار. وأحيانًا ثالثة نساء الفلاحين اللاتي يملأن الجرار من مياه النهر.. جرار مرطبة يتم صنعها في قنا. وكثيرًا ما كانت تستهويه القوارب الخفيفة التي تنزلق فوق مياه النيل. وحين كان لا يجد ما يرسمه، كان يجعلني موضوعه فينقل زي المملوك الذي أرتديه. ولكم ضحكت أنا نفسي وأنا أرى وجهي وسماتي الشرقية منقولة بأمانة»(٢٧) هذه التصريحات قد عُدلت بلا شك لمتطلبات الأسلوب وقد قدمها مرشد الاثنين السابق إلى الكونت مارسيلوس .Marcellus فلنطرح جانبًا الشكل الخارجي المنمق ليبقى المعنى: شاتوبريان يحلم وفوربان ينظر.

كان هناك جيل كامل يفصل بين الكونت دي فوربان Forbin والكونت دي مارسيلوس Marcellus(٢٨) تتابعا في المجيء إلى مصر بفارق ثلاث سنوات لدى مجيئه إلى مصر كان الأول في الأربعين من عمره بينما كان الثاني في الخامسة والعشرين. كان الكونت دي فوربان من كبار موظفي الفنون الجميلة ومديرًا عامًا للمتاحف. حضر إلى مصر في إجازة أو مهمة غير رسمية. مارسيلوس Marcellus لم يكن إلا سكرتيرًا شابًا في سفارة القسطنطينية نهمًا للنجاح والشهرة. كان تفكير فوربان Forbin قريبًا ممن عاشوا في القرن الثامن عشر، وكلاسيكيته لم يكن ڤيڤان دونان Vivant Denon ليستهجنها، فبينهما كثير من أوجه الشبه. أما مارسيلوس Marcellus فكان أقرب إلى نمط شاتوبريان Chateaubriand الذي سيصبح بعد عدة سنوات في سفارة لندن مساعدًا وصديقًا له. كان ينتظره مستقبل براق في المجال الدبلوماسي. وقد أصبح سكرتيرًا مساعدًا للدولة في وزارة الخارجية في عهد الوزير بولينياك Polignac. وعلينا

ألا نأسف كثيرًا لتركه هذا المجال الوظيفي بعد ثورة ١٩٣٠، فنحن ندين لتقاعده بأعماله الأدبية القيمة: «ذكريات من الشرق» Souvenirs de L'orient (١٨٣٩)

«أناشيد الشعب في اليونان» Chants du peuple en Grece (١٨٥١)

«شاتوبريان وعصره» Chateaubriand et son temps (١٨٥٩)

والتعليق الورع الذي أرفقه برسومات والد زوجته التي نشرت بعنوان: «حافظة أوراق الكونت دي فوربان Le Portefeuille du comte de Forbin (١٨٤٣).

حين جاء هذا الشاب إلى مصر عام ١٨٢٠، كان قد قام بإنجاز عمل يرى أنه «يعطيه الحق في عرفان أبناء جلدته»[٢٩] فقد استطاع بصعوبة جمة وتحايل أن ينجح بإصرار وعبقرية في شراء تمثال «ڤينوس دي ميلو» بثمن بخس وشحنه إلى فرنسا في الخامس والعشرين من مايو ١٨٢٠، بعد هذا التاريخ بشهرين أي في يوليو ١٨٢٠، رسا على شاطئ الإسكندرية.

في كتابه «ذكريات من الشرق» لا نجده يتحدث طويلاً عن انطباعاته عن مصر فلم يكرس لها سوى ستين صفحة منه. ونظرًا لكونه كتبه بعد عشرين عامًا من الرحلة، فقد افتقد عفوية وحيوية ما كتبه ڤيڤان دونان Vivant Denon والكونت دي فوربان عن رحلتيهما. فنص مارسيلوس مرتب ومليء بالاستشهادات اليونانية واللاتينية، يعج بالأساليب البلاغية وبلمسات كلاسيكية. وهو كتاب يماثل صاحبه في الأناقة. يرقب فيه المؤلف قلمه حتى لا يخالف ما في أسلوبه من تكلف ولا يستبيح لنفسه أي بذاءة. وحتى تتراءى للقارئ ابتسامة في سطوره، لا بد له من دعابة طريفة كالتي أمدوه بها في الإسكندرية عن زواج فارس قنصل إنجلترا هنري سولت Henry Salt منافس دروڤيتي Drovetti اللدود، فقد استطاع هذا الفارس اختطاف خطيبة قنصل إيطاليا عند المرسى فور وصولها من تريستا والزواج بها. كان مارسيلوس خبيرًا في الاختطاف [ولم يسرق إلا تمثالاً من قبل؟] وهو يروي بسعادة ورقة هذه المغامرة التي تشبه حكايات القرن الثامن عشر. تشي سطوره بترفع وهو يعشق البلاغة والتبحر في العلم. وصفه مدروس بعناية وتتخلله ملاحظات عامة علمية. وليس بمستغرب في سطوره أن تجد راسين

Racine وهيـرودوت Hérodote وثيـوكـريت Théocrite[٣٠] وهومـيـروس Homère وسناك Sénéque[٣١] في صـفـحـة واحدة. هو عـالم مثقف نبيل ودمث الخلق. انضـبـاطه الأرستقراطي يصـاحبه احتشـام وهو احتشـام ليس نابعًا من طابعه وإنما من مقتضيات الحال في الصالونات وقدرته على التحكم وهو احتشام المدافع عن العرش والمذبح.

ومارسـيلوس Marcellus دبلومـاسي، وهو حـريص على إعلامنا بذلك وهو ينشـر ذكرياته عن الشرق ذاكرًا أنه قـد مـارس مـهـامـه بكل اللبـاقة والتحفظ التي تتطلبـهـا هذه التكليفات. مهمته في مصر لن يحدثنا هو عنها [وهذا مما يؤسف له] ولو ملمحًا عما جاء به إلى مـحـمد علي. ربما كانت هذه المهمة أقل قيمة مما يريد أن يوحي لنا به. وربما مال هذا الأربعيني إلى المبالغة بعض الشيء في مهامه السابقة كسكرتير شاب للمفوضية. سلك من الإسكندرية إلى القـاهرة طريقًا جديدًا في بعض أجزائه ووصل إلى النيل لا عن طريق رشيد ولكن عن طريق قناة المحمودية الشـهيرة التي كان مـحمد علي قد انتهى لتوه من حفرها وزهقت فيـهـا أرواح الكثيرين.[٣٢] ما إن بدا قـاربه الشـراعي في الإبحـار في النيل حتى أوحى له المشـهد وصفًا مـهيبًا يرجعنا إلى صفحات شاتوبريان قال فيه: «كانت الشمس قد غربت تاركة بعض اللمسات الليلكية على قمم أشجار النخيل. بدأت رحلتي فوق صفحة مياه النيل مع الغسق وقرق دجاجيات الأرض بين الأسل والعشب. كان الليل رائعًا. رأيته حتى نهايته من فوق متن القارب. كنت أحيانًا أميل الرأس إلى الخلف باحثًا في السمـاء عن تلك النجمات التي أعرفها وتبحث عنها عيناي منذ كنت طفلاً فوق سطح بيت أبي... [هنا استشـهاد للويس راسين][٣٣] وأحيانًا أخرى تشدني إلى الأرض رقرقة المياه التي تشقها مقدمة القارب أو تطيح بها فوق الحصى. كنت أعبُّ عبّاً من أنفاس الشط العبقة. كانت النسمة اللطيفة التي أعقبت لظى النهـار قد توقفت عند منتصف الليل. واضطررنا إلى طي الشراع والتقدم بالمجاديف. ونما إلى سمعي غناء صدح به اثنان من العرب المرافقين لي... ثلاث نغمات تلاعب صوتاهما عليها صعودًا وهبوطًا.. غناء حزين على إيقاع حركتهما في التجديف.. كان غناءً متناغمًا متسقًا له طابع يتلاءم والإبحار أكثر من كل ما يشدو به بحارتنا. كـان صـوتاهمـا يهـتزان فوق الموجات الصـامتة ولكنهما لا يترددان بعيدًا. فـهذه الشـواطئ الرملية المنبسطة لا أصداء فيها».[٣٤] في القاهرة تعرف

مـارسـيلوس مـثل فـوربان على كل من نائب القنصل أسـلان دي شـرفـيل Asselin de Cherville والقنصل السـابق دروفيتي .Drovetti ولكن الشـخصـية التي جذبته من كل الفـرنسـيين هناك، كـانت للكولونيل جـوزيف سـاف Seve[٣٥] الذي يدعـوه خـروجًـا على التقاليد [سلف] والذي سيصبح لاحقًا سليمان باشا. كان المهندس كوست قد قدمه إلى محمد علي فور مباشرته لمهام منصبه كمعلم للقوات المصرية. معه قام مارسيلوس بزيارة معظم أرجاء المدينة وضواحيها. قال عن ذلك: «كان السـيد سلف معي في نزهاتي وكان يلفت نظري في المتاهة الكبرى التي يسمونها القاهرة الكبرى إلى كل ما كان يراه جديرًا بالاهتمام.. أديرة الدراويش، الأحياء اليهودية مقاهي الأفيون»[٣٦] استطاع بسهولة ويسر الوصول إلى قلب مارسيلوس Marcellus بحميميته وصدقه العسكري ومرحه الذي كان لا يفارقه قط. كان قد اعتمر عمامة واكتسب عادات كثيرة من الحياة الإسلامية جمعها إلى بعض التقاليد والذكريات الأوروبية. «هذه أول شهادة فرنسية نسجلها عن قائد المستقبل للجيش المصري. ولن يكذب هذه الشهادة أي من الرحالة اللاحقين[٣٧] تغيرت الأسماء بين چون بلانا Jules Planât وهوراس ڤـرنيـه Horace Vernet ومـارمـون Marmont وچيـسكيـه Gisquet وج. ج. أمـبـيـر J.J.Ampére ولوڤـرن Lauvergne وبارديو Pardieu وفلوبير Flaubert ومكسيم دي كوم Maxime Du Camp، ولكنهم جميعًا أجمعوا على سعادتهم بتفاؤله وبشاشته ولطفه ونكاته وأغانيه.

قـاد المملوك رشـوان مـارسـيلوس ومـعـه حـراسه إلى سقارة وأهرامات الجيزة مثلما فعل قبلاً مع فوربان Forbin. تسلق الدبلوماسي الشاب هرم خوفو ليشـهد من فـوق قمته شروق الشمس [وقد أعطانا وصفًا رائعًا له]. وقرأ كما يقول على أحجار القاعدة اسمي بونابرت وشاتوبريان متلاصقين كعبقريتي الحرب والأدب محفورين بأيدي المصاحبين له. [هل قام السيد كاف Caffe بمهمته؟] وقد ترك لنا رسمًا أوليًا جميلاً لأبي الهول مظهرًا إياه ساهرًا كالكلب الأمين على مساكن الموتى الثلاثة، وواضعًا على رأسه إوزة برية تبدو على صفحة السماء كحرف من حروف الهيروغليفية وقد دبت فيه الحياة.[٣٨]

بعد جولة دامت أربع عشرة ساعة على ظهر الحمار بدون راحة، وليلة ممتعة في ضوء القمر وظلال نخيل ممفيس[٣٩] دخلت القافلة الصغيرة إلى القاهرة. «كانت المدينة تحتفل وتصدح في جنباتها الموسيقى. كانوا يحتفون بختان حفيد الوالي. وكان أربعة آلاف صغير مسلم قد تمّ ختانهم بهذه المناسبة. دامت الاحتفالات سبعة أيام وتعدت النفقات مليونًا من الجنيهات. الميادين العامة مزدانة بقناديل تشع بآلاف الألوان والحوانيت مضاءة والبدو قد تحلقوا في مجموعات حول راوٍ عربي. أما العثمانيون ذوو المظهر الجاد فكانوا يتناولون وجبة عشائهم على أصوات الطبول والناي.. موسيقى مؤثرة؛ أكوام من البطيخ والشمام انقضوا عليها في نهم.. بزات الجنود والبحارة اختلطت بالعمائم الملونة ذات الأشكال المختلفة.. خليط من عادات الصحراء والريف والمدن... كل ذلك معًا يجعل من أي احتفال اسلامي وخاصة في مصر.. مشهدًا لا يقارن.»[٤٠] أضف إلى ذلك كله رقص العوالم الذي يصفه مارسيلوس Marcellus محيطًا إياه بضوابط وتحفظات تبقيه في حدود اللائق.[٤١] يقول في وصفه:

«بدأت هؤلاء الراقصات المصفوفات على الديوان بغناء بضعة أبيات عربية على أنغام بطيئة رتيبة. شيئًا فشيئًا بدأت الحياة تدب في الموسيقى وإن فقدت بعض التناغم. عند إشارة معينة، بدأت الجوقة في العزف مدعومة بالناي والطبلة والصاجات وبقي أفرادها فقط جالسين. وقفت أصغر العوالم وتقدمن إلى وسط الغرفة ومضين أمامي يستعرضن كل فنون الحركات الصامتة كن في البداية يرقصن، وعلى وجوههن غلالات ما لبثت أن وقعت منهن ووراءها الأثواب الحريرية والأحزمة. بقين يرقصن ونسيج شفاف يلقى عليهن بظلال أشبه بثوب «أوليس»، ذلك الثوب الذي شبهه هوميروس Homére بأول أغشية البصلة المجففة. أظهرت العوالم في بداية رقصهن شجنًا ولوعة لم يخلُ من الجاذبية. ثم بدت على وجوههن ابتسامات سعادة وكأن حواسهن استيقظت فازددن ترنحًا في فجاجة ظاهرة واختلط في حركاتهن الوجد والهذيان. وسرعان ما وصل الهوس والمجون إلى حد جعلني أشيح بوجهي عنهن. أتذكر اليوم هذه المشاهد الإباحية بشيء من الاشمئزاز.»[٤٢]

بعد أن بحث في «المطرية» عن مسلة هليوبوليس وجميزة العذراء وزار في المقطم الغابة المطمورة، وفي شبرا الحدائق الجميلة المحيطة بمنزل محمد على الريفي، ودع مارسيلوس Marcellus القاهرة. غلبته عاطفته وهو يودع قارع الطبول في جيش الشرق رشوان الفرنسي الذي كان قد شاخ ونسي لهجة مقاطعته الفرنسية. ووعده وهو يقبل وجهه الملوح المقدد بأن يحدث الفرنسيين عنه.(٤٣) أما الكولونيل ساڤ Seve، فقد ترك له كذكرى، خريطة لمصر كانت تبدو ذات قيمة بالنسبة له، أملاً أن تذكره بهذا الرحاله الذي شمله بعطفه وطيبته.(٤٤)

لم يكن باقيًا أمامه إلا طلب مقابلة أخيرة من محمد علي بالإسكندرية. لدى وداعه كان الوالي مثلما كان وقت حضوره في جناح الميناء الذي بناه الفرنسي باسكال كوست Pascal Coste كان يطيب لمحمد علي مراقبة البحر منه. حدثه عن واحة سيوة التي حث دروڤيتي Drovetti على غزوها لعلمه بوجود آثار قيمة بها. وأفصح عن مكنون نفسه بسؤاله عن استعدادات سورية الدفاعية وعن التحصينات الموجودة في منطقة Saint-Jean d'Acre بدون إعمال شديد للفكر، كان من السهل التنبؤ بصدام قريب بين تركيا ومصر. ولم تكن نتائجه محل شك. فالإمبراطورية الوليدة مفعمة بالقوة ولم تكن لتخضع طويلاً لسيادة ضعيفة متهالكة.(٤٥)

قبل أن يفترقا، تبادل محمد علي ومارسيلوس الهدايا. نزع الوالي سيفه الذهبي الذي كان يعلقه في كتفه على طريقة المماليك وقلده للرحالة بنفسه وعبر مارسيلوس عن امتنانه لذلك بتقديم علبة سعوط من الذهب المرصع بالماس. وقد دامت المراسلات بينهما بعد عودة مارسيلوس إلى فرنسا لعدة سنوات.(٤٦)

بعد مرور ثماني سنوات على رحلة الكونت دي مارسيلوس Marcellus، وصل إلى الإسكندرية البارون تايلور (١٧٨٩ - ١٨٧٩) Taylor وهو مؤلف وعالم آثار سيقوم لاحقًا بتأسيس «هيئة رجال الأدب» Société des gens de Lettres ويطلق عليه لقب «أبي الفنانين». شغل في عصر الرومانتيكيين منصب مفتش الفنون الجميلة والمفوض الملكي في فرقة «الكوميدي فرانسيز» المسرحية، كان نشطًا، دائم الحركة، طيب القلب، واسع الأفق.

سخر ملكاته لحماية شباب الفنانين ودافع عن كل ما هو جديد. وجدير بنا أن نتذكر أنه قد قبل النسخة الخطية لمسرحية «هرناني» Hernani ويحكي ألكسندر دوماس Alexandre Dumas في مقدمة مجموعته المسرحية، كيف أنه اقتحم عليه غرفته مرغمًا إياه على قراءة مسرحية هنري الثالث وحاشيته (١٨٢٩) Henri III et sa Cour وماء حمامه لم يجف عليه.

أرسله شارل العاشر إلى مصر على متن قلعية تدعى «الرماح» للقيام بمهمة رسمية فحواها الحصول من محمد علي على تنازل عن مسلات الأقصر التي طلب شامبليون Champollion نقلها إلى فرنسا، كانت حكومة الإصلاحيين قد أدركت حجم الخدمات التي أسداها إليها دروڤيتي Drovetti وعدلّت مهامه مانحة إياه لقب «قنصل عام». وكان دروڤيتي قد بدأ هذه المفاوضات قبل مجيء تايلور Taylor في عام ١٨٢٩. خلف ميمو Mimaut دروڤيتي في منصبه، وقد استقبل هذا الأخير تايلور عند قدومه إلى الإسكندرية عام ١٨٣٠، في هذه الفترة، قدّم لينان دي بلفون Linant de Bellefonds الذي بقي في خدمة الوالي بعد رحيل الكونت دي فوربان Forbin، أول مشروع لنقل هذه المسلات. حمل تايلور إلى الوالي كثيرًا من الهدايا القيمة منها الأسلحة والخوذات والدروع والتحف البللورية والخزفية التي تشتهر بها مدينة «سيڤر» Sèvres الفرنسية بالإضافة إلى نسخة من كتاب «وصف مصر». وقد نجحت مهمته ووافق الوالي لا على منح فرنسا مسلتي الأقصر فقط وإنما مسلتي كليوباترا أيضًا، وكانتا قد أهديتا من قبل للويس الثامن عشر. وقد احتفظ لإنجلترا بإحدى مسلات الكرنك لتجنب حساسيتها. وبينما كان البارون تايلور يتأهب للذهاب إلى صعيد مصر، اندلعت ثورة يوليو. فعاد إلى فرنسا قبل أن ينجز مهامه. لحسن الحظ استأنف لويس - فيليب مشروعات شارل العاشر وأعدت من جديد الشحنة لإرسالها تحت رعاية شامبليون.

بفضل مساعي قنصل فرنسا الجديد «ميمو» Mimaut واستجابة لأوامر ڤيرنيناك دي سان مور Veminac de Saint - Maur قائد السفينة الذي سيرقى لاحقًا إلى رتبة

أميرال، تم الاكتفاء بنقل المسلة الغربية بالأقصر وقد وفقوا في نقلها إلى باريس في ديسمبر ١٨٣٣ بفضل جهود المهندس لوباس التقنية.

إذا كان قد صدقنا ألكسندر دوماس Alexandre Dumas القول في ما جاء به في صدر مجلده: «خمسة عشر يومًا في سيناء» quinze Jours au Sinai من أنه كان في صحبة تايلور خلال هذه السفرة، هل يلزم هنا القول بأنه لا شيء أكثر طرافة من هذا الزعم. فالبارون كان برفقته رسامان هما ماير Mayer ودوزاه Dauzats. وقد سبق لألكسندر دوماس وصف الجزيرة العربية والقوقاز بدون أن يزورهما. ونجزم هنا أنه ما وطئ أرض النيل بقدميه وأنه قد استخدم لكتابة مؤلفه يوميات الرسام دوزاه كان هذا الأخير بعد كاساس Cassas ودوتارتر Dutertre وريدوتيه Redouté وڤيڤان دونان Vivant Denon وفوربان Forbin، وقبل ماريلا استسلم Marcellus وهوراس ڤرنيه Horace Vernet لإغراء السفر إلى مصر.

كان أدريان دوزاه Adrien Dauzts (١٨٠٤ – ١٨٦٨) قد شارك عام ١٨٢٨ في نشر الرحلات المثيرة والرومانتكية في فرنسا القديمة Voyages Pittoresques et romantiques dans L'ancienne France» تحت إشراف البارون تايلور.

ومن ثم أصر البارون على اصطحابه هو وصديقه ماير Mayer الذي سيتخصص لاحقًا في رسم القطع البحرية ومناظر من التاريخ البحري ويشتهر بذلك. كان دوزاه من أوائل الرسامين الذين رسموا الشرق. سبق إليه ديكون Decampe وماريلا Marilhat. ذهب إلى أفريقيا قبل ديلاكروا Delacroix الذي أصبح صديقًا له. قال عنه تيوفيل جوتييه Théophile Gautier«لم يكن التعب ليعوقه عن العمل، وما كان الخوف ليحول بينه وبين المخاطر كان مغرمًا بالمناظر الوحشية والقاسية، محبًا لزرقة البحر الشديدة وذروة الضوء ظهرًا، عاشقًا للآثار والمعابد والقصور والقلاع والبوابات والمدن والأطلال التي تحمل بصمة الماضي. كان هذا الرسام يحمل في جوفه رسامًا معماريًا ومنسقًا للمناظر. كان قادرًا على التحكم في خطوطه يطوع أفقيتها لرسم المعبد المصري والمسجد ويقود استدارتها لرسم القبة وسعف النخيل مائل عليها».(٤٧) من المؤكد أن

أسلوبه لم يكن ليصل للتفرد والمقدرة اللتين عرفتا عن ماريللا Marilhat[٤٨] فماريللا يتناول كل شيء من «زاويته البارزة» ويضع كل لمسة «في مكانها ومن الضربة الأولى للفرشاة»[٤٩]

خسارتنا كبيرة أن هذا الرسام لم يكتب شيئًا. فموهبته في الكتابة كانت تؤهله بيسر للكتابة النثرية جنبًا إلى جنب مع ديلاكروا Delacroix وفرومنتان Fromentin قد لا يصل دوزاه Dauzats إلى إيجاز ماريللا Marilhat، المرحي ولا إلى صلابته ولا إلى تميزه كما يتضح من الخطابات التي تركها لنا هذا الأخير. وهي الوحيدة التي في حوزتنا. إلا أنه يعرف كيف يقص ويروي. ولم يكن ألكسندر دوماس Alexandre Dumas ليهمل موهبة بهذا الحجم. لدى عودته إلى فرنسا، حدثه البارون تايلور Taylor الذي كانت تربطه به صلات وثيقة عن يوميات دوزاه Dauzats. استعار دوماس هذه اليوميات وألقى عليها نظرة، وقدر حجم الفائدة الممكنة من هذه السطور. لذا فقد عرض على الفنان نشرها بالتعاون معه.

كتب بصفاقة في مقدمة كتابه Les Compagnons de Jéhu هناك شيء لا أستطيع القيام به وهو كتابة رواية أو مسرحية عن مناطق لم أرها. فلكتابة رواية Christine «كريستين» اضطررت للذهاب إلى «فونتنبلو Fontainebleau ولكتابة «هنري الثالث» Henri III ترددت على بلوا Blois ولتأليف Les Mousquetaires «الفرسان» ذهبت إلى بيتون Béthune وبولونيا Boulogne. ولتأليف «مونت كريستو» عدت إلى Catalans وإلى قصر إيف «If» ... إلخ.

وقد أمضيت في دراسة القدس وكورينثيا عن بُعد أضعاف الوقت الذي كان من الممكن أن أقضيه في زيارتها». تباهٍ وتفاخر بالذات! وكثيرًا ما كان دوماس يكتفي بإدارة أموره من علٍ. كان أشبه بالمقاول في مجال الأدب. وقد استغل نصوص دوزاه. كتب عنه عدوه اللدود أوچين دي ميركور Eugéne de Mirecourt «كان يجند أذكياء ومترجمين بأجر يعملون كالعبيد بالسوط». ولو صدقنا أعداؤه القول لما بقي شيء من تأليفه. فكتابه «شارل السابع» لجيرار دي نرڤال وتيوفيل جوتييه و«برج نسل La Tour de Nesle

لجيارديه Gaillardet أما رواياته فكانت لماكيه Maquet وموريس Maurice وبول لاكروا Paul Lacroix خلاصة القول أنه: «استأجر عشرين عاملاً وناسخًا صفيقًا وكلفهم بأن يُحيوا من الأحداث كل عتيق»(٥٠) مثلما يرجع كتابه «الجزيرة العربية السعيدة» Arabie Heureuse إلى المغامر دي كوريه De Couret يدين بكتابه: «خمسة عشر يومًا في سيناء» Quinze Jours au Sinai إلى دوزاه Dauzats.

وقد حان إعطاء كل ذي حق حقه:(٥١) كل صفحة من صفحات هذا الكتاب تشي باسم مؤلفها الحقيقي: الرسام، فلكي تصف برقشة الإسكندرية(٥٢) وتدرك قيمتها، يجب أن تكون فنانًا. نقرأ فيه عن القاهرة(٥٣): «أرسلنا السيد تايلور Taylor ماير Mayer وأنا لرسم مساجد مدينة الألف ليلة وليلة»(٥٤) «بعد أن رسمت منظرًا عامًا لها، قمت بعمل رسم كروكي لاثنين أو ثلاثة من مساجدها».(٥٥) «رسمنا واحدًا بعد الآخر أشهر مساجد القاهرة».

في كل صفحاته، يصف لنا دوزاه Dauzats ما يفعله. نصه إذًا تعليق على رسوماته التي ستزين مؤلف تايلور Taylor وريبو Reybaud الضخم عن مصر (١٨٩٣) أو لوحاته التي نعرفها مثل: «السارق المعلق من أذنيه» Le voleur cloué par L'oreille و«مساجد الأزهر» Les mosquées d'El Azhar»(٥٦) و«دير سانت كاترين في سيناء» Le Couvent de Sainte - Catherine au Sinaï»(٥٧) نقل ألكسندر دوماس Alexandre Dumas النص على حاله: «أمضيت هذه الأيام الأربعة في سيناء في تفقد الدير من الداخل وما يحيط به ورسمه وسماع الأساطير التي تحاك حوله والتي إما دخلت في خطوطي أو في الملاحظات التي دونتها في دفتر أسفاري».

وكثيرًا ما نجد في سطور دوزاه Dauzats عبارات مثل «ماير وأنا» أو «ذهبنا بصحبة السيد تايلور إلى...» لذا نستشعر رنة صدق في كل ما يذكره فيها من طرائف. الرحلة حقيقية إذًا غير أن ألكسندر دوماس لم يقم بها وإنما كانت هناك رحلة بالفعل والنص يرتكز على تجربة حقيقية واقعية، ليست هناك إذًا مدعاة للتشكك في نص رسام عرف عنه الإتقان والأمانة في تنفيذ أعماله واحترامه والتزامه بالطابع المحلي. فلنصحبه أو

نصحب المستغل الشهير لنصه إلى الحمامات التركية والحلاق وسوق العبيد ولنجلس معه إلى المائدة في ضيافة الكولونيل ساڤ Séve ولنطلب معه مقابلة إبراهيم باشا الجالس على جلد الأسد ولنزر بصحبته الطبيب كلوت بك Clot-bey في مشفى أبي زعبل ولننضم مع لينان دي بلفون Linant de BellefondsL إليه في القافلة الذاهبة إلى دير سانت كاترين... أينما ذهبنا معه، لن يصيبنا الملل للحظة، وهذا حق نقر له به.

أما نصيب ألكسندر دوماس في ذلك فمن اليسير تحديده... هو ما تبقى بعد الوصف، بمعنى آخر هو الأسلوب التاريخي أو الفلسفي أو البلاغي. ولكن أي تاريخ أو أي فلسفة وأي أدب؟ لا شيء أكثر سخفًا من هذيانه عن تطور الهندسة المعمارية المصرية[٥٨] ولا شيء أكثر سأمًا من استطراده المضجر عن معركة الأهرامات وحملة بونابرت ومقتل كليبر. ولأي غرض زج بنصوص لا نهاية لها من الحملة الصليبية السابعة والاستيلاء على دمياط وهزيمة المنصورة. وقد نسج كل ذلك من وقائع جوانڤيل Joinville وتاريخ الحروب الصليبية لميشوه Michaud ومقاطع من المؤرخين العرب أبو الفدا والمقريزي، كان ميشوه Michaud قد ألحقها بكتابه أو ترجمها كاترمير quatremére في كتابه، وتحدى بها في فصل «دمياط في الأثر»[٥٩] Damiette dans le Monument وعدم دقة التفاصيل مثلها مثل الإطناب والإطالة ذات دلالة. فكل أسماء الفرنسيين الذين كانوا يقيمون في مصر خلال هذه الفترة قد تم تحريفها. كما أن هناك تلاعبًا في طبوغرافية المكان. فلدى ذكره الملاحة بين أبي مندور والقاهرة كتب يقول: «إلى يسارنا(!) التلال الأولى من السلاسل الليبية تجعل النيل وعرًا في جوانبه الجرانيتية».[٦٠]

وماذا نقول عن لوحة «معركة الأهرام» حيث يسحق مارمون Marmont المماليك من «مرتفعات إمبابة»[٦١] (مرتين متتاليتين) . من المؤكد أن دوزاه Dauzats ما كان له أن يتكلم عن الوعورة الجرانيتية[٦٢] للمقطم، هذا الرعن الجيري من السلسلة العربية الذي يشرف على القاهرة لم يكن دوزاه Dauzats بقادر على حصر أكثر من «ألف جذع شجرة» في الغابة المطمورة أو كتابة هذه العبارة بدون مواربة أو حياء: «مدق قولتا، هذا المنجم الموجود في أحشاء الأرض..». كانت معرفة ألكسندر دوماس بالمعادن وعلمها بنفس

مستوى معرفته بالآثار. ولكن جهله لم يقلقه أبدًا، بل كان يتباهى بخداعه للآخرين. فكان يرد، على سبيل المثال، على من يتهمونه بعدم الذهاب إلى سيناء قائلاً: «سيناء! في الواقع أنني بالفعل لم أذهب إليها قط. ولكن والي مصر أثنى على كتابي. بدوني، كان هذا البلد سيبقى مجهولاً لمعاصريّ».

كان يكذب في قوله هذا، أو ربما يتراءى له الأمر على هذا النحو، على كلٍّ، كان ينبغي له هذا القدر من البراءة ليجرؤ على وصف بلد لم يره على الإطلاق. ولكن لنكن أقل قسوة تجاهه. لقد عرّفنا بدوزاه Dauzats ونصه أميل إلى النقش والتصوير، وهو أمر ندرك أسبابه من نصوصه الأخرى كما أنه أكثر إتقانًا وسلاسة في الأسلوب من كتاباته عن رحلاته الحقيقية.

ولنعزي أنفسنا قائلين: «أنه لو كان جاء بالفعل إلى مصر لكان وصف ما رأى بكلماته، وهذا يعني جودة أقل. ولكان كما عودنا أكثر من الكلام عن نفسه وغالى في تقييم حاله، الأمر الذي يجعله غير محتمل».

ظهر كتاب «خمسة عشر يومًا في سيناء» عام ١٨٣٩. وفي ذات العام نشر البارون تايلور Taylorعمله الثري عن سورية ومصر. للأسف الشديد وكما أسلفنا القول بالنسبة لكتاب مارسيلوس Marcellus «ذكريات من الشرق» فإن الفارق الزمني بين الحدث وتسجيله تحريرياً يضر بالانطباعات الأولى ويفقدها حيويتها. عندما شرع تايلور Taylor في الكتابة، كانت قد مرت عشر سنوات على رحلته، وكان قد أصبح عضوًا في أكاديمية الفنون الجميلة. وقد راودته فكرة لا أن يستعيد تجربته ولكن أن يطرحها في شكل يمنح عمله قيمة الدراسة المنهجية.

والعنوان الذي اختاره لهذا العمل مقلق بعض الشيء بسبب طوله: «سورية ومصر وفلسطين والخليل منظورًا إليها من الزاوية التاريخية والأثرية والوصفية والتصويرية» بقلم البارون Taylorولويس ريبوه Louis Reybaud ويقع العمل في مجلدين من القطع الكبير. ويقول تايلور في مقدمته:

«إذا كانت الصدفة قد جمعت هنا اثنين من الرحالة من محبي الفنون. فقد انتهى التعاون بينهما إلى تقليل وإضعاف كل نبرة مباشرة وفردية. ومما لا شك فيه أن الاثنين يسوقان هذا الحديث دفاعًا عن نفسيهما لإطلاقهما العنان للعموميات. «هاكم نظرة خاطفة على سورية ومصر. يقدم هذا الكتاب كل وجهات النظر العلمية» ويدب بالتفاصيل الحياة في أوصالها.

«هي رحلة بدون رحالة يتحرك» وهو بالضبط النقد الموجه للكتاب. فالرحالة كان مطلوبًا وجوده بمميزاته ومغامراته، بحماسه وإحباطاته. كم ينقصنا هنا البارون تايلور Taylorبشحمه ولحمه وهو خارج لتوه من مغطس حمامه يتبعه دوماس Dumas ومخطوطه، تايلور الذي يفاوض محمد علي للتنازل عن مسلات الأقصر، وتايلور الذي يصحب دروڤيتي Drovetti إلى الأسواق لشراء الآثار. الكتاب ضخم فخيم(٦٣) بطبوغرافيته الممتدة وصوره التي يصل عددها إلى نحو المائتين. ولكن كم ستكون رحلة جيرار دي نرڤال Gérard de Nerval إلى الشرق بالنسبة لنا قيمة بعد بضع سنوات بما فيها من أكاذيب ممتعة ووجهات نظر مباشرة وعميقة وواقعية فائقة.

حين وصل تايلور Taylor إلى مصر، كان البارون ت. رينوار دي بوسيار Th. Renouard de Bussieres الذي كان يشغل وظيفة سكرتير سفارة مثل مارسيلوس Marcellus يكتب هو أيضًا «خطاباته عن الشرق» Lettres sur l'Orient حررت هذه الرسائل في عامي ١٨٢٧ و١٨٢٨ غير أنها لم تنشر إلا عام ١٨٢٩ مصحوبة بنحو اثنتين وثلاثين لوحة من القطع الكبير. والكتاب، من حيث القيمة الأدبية ليس عملاً رائعًا ولكنه شهادة هامة على امتداد مسارات وخطوط سير الفرنسيين إلى الجنوب. بعد دروڤيتي Drovetti وفريديريك كييوه Frédérie Cailliaud الجغرافي وعالم المعادن الذي التقينا به من قبل في الأقصر مع فوربان بعدة سنوات، وقبل شامبليون بنحو عام، اكتشف البارون رينوار Renouard معابد النوبة في ما بين الشلالين الأول والثاني. وكان الإيطالي بلزوني(٦٤) Beizoni قد نجح من قبل في فتح «المعبد الكهف» «ابسمبول» (الذي نطلق عليه اليوم معبد أبي سمبل الأرضي). وتظهر لنا إحدى الصور الملحقة بهذه

الخطابات عن الشرق، الزائر وقد وقف عاريًا تمامًا في حمام تعريق تحت الأرض، مدفونًا إلى منتصفه في الرمال.

ظهر بلزوني Belzoni في الصورة رافعًا كشافه إلى تماثيل رمسيس الثاني العملاقة التي تحمل على رؤوسها الشامخة سقف المعبد المحفور في الصخور. تبع تأمل هذا السائح النادر والجريء[٦٥]، دراسة دقيقة لمبدع علم المصريات في ظروف بالغة القسوة. كان شامبليون قد اكتشف سر الهيروغليفية، وفي الثامن عشر من شهر أغسطس ١٨٢٨، وصل إلى الإسكندرية ليقارن منهجه بما هو موجود في الواقع ويقرأ في مواقعها نقوش معابد صعيد مصر والنوبة.[٦٦]

****

BIBLIOGRAPHIE

- F. de Montulé, Voyage en Amérique, en Italie, en Sicile et en Egypte pendant les années 1816, 1817, 1818 et 1819, Paris, Delaunay, 1821.

- [Ambroise Firmin-Didot], Notes d'un voyage fait dans le Levant en 1816 et 1817, Paris, Didot, 1827-1828.

- Comte de Forbin, Voyage dans le Levant, en 1817-1818, Paris, 1819, 1re édition in-folio, 2éme édition in-8°.

- Comte de Marcellus, Le portefeuille du comte de Forbin, Paris, Challamel, 1843.

- Souvenirs de l'Orient, Paris, Debucourt, 1839.

- Alex. Dumas et A. Dauzats, Quinze jours au Sinaï, Paris, gosselin 1839, 1841, Albert et Michel Lévy: 1868.

- Baron Taylor et Louis Reybaud, La Syrie, l'Egypte, la Palestine et la Judée, considérées sous leur aspect historique, archéologique, descriptif et pittoresque, 2 vol. in-4°, et 200 gravures, 1839.

- [Baron Taylor] sous le pseudonyme du R.P. Laorty-Hads, L'Egypte, Paris, 1856.

- Augustin Bernard, Les obélisques de Louqsor et la mission Taylor, Paris, Société d'éditions géographiques,1927.

- Baron Tii. Renouard de Bussiéres, Lettres sur l'Orient écrites pendant les années 1827-1828, Paris, F. G. Levrault, 1829.

- Léon de Laborde et Linant, Voyage de l'Arabie Pétrée, grand in-folio, Paris, Giard, 1830.

- Comte Joseph d' Estourmel, Journal d'un voyage en Orient (en 1833), 2 vol., Paris, 1844.

- R. P. Marie-Joseph de Céramb, Pélerinage à Jérusalem et au mont Sinaï en 1831, 1832 et 1833, Paris, Le Clére, 3 vol. - 5' éd. 1840. (Sur l'Egypte lettres 54, 55 et 56).

- [Ida de Sainte-Elme], La Contemporaine en Egypte, pour faire suite aux Souvenirs d'une femme... etc., 6 vol., Paris, Ladvocat, 1831.

- Th. Gautier, Portraits contemporains (sur Marilhat, Vernet, Dauzats), Paris, Charpentier, 1874 et 1898.

- Auriant, Les Voyages politiques du Colonel Boutin en Orient, Revue Bleue, 3 septembre 1924.

- Sur la piste du mystérieux Boutin, Mercure de France, 1er janvier 1925.

- Histoire de Basile Fakr, marchand de Damiette, L'Opinion, 9 et 19 avril 1927.

- Cf. aussi Prisse d'Avennes, Excursion dans la partie orientale de la Basse-Egypte, Miscellanea Aegyptiaca, Alexandrie, 1842, p. 36-37.

- Autour d'une stéle, Correspondant, 10 mars 1924.

****

الهوامش

١- راجع أوريان Auriant «حول مسلة» دورية كوريسبوندون Correspondant العدد العاشر من مارس ١٩٤٢.

و«الرحلات السياسية للكولونيل بوتان» في مجلة لا روفوبلو Revue Bleue العدد الثالث من سبتمبر ١٩٢٤.

٢- مدونات رحلة إلى الشرق عامي ١٨١٦، ١٨١٧ باريس، Didot، Notes d'un voyage fait dans le Levant en 1816 et 1817pp 172 -173 المؤلف على ما يبدو لطيف وعديم الخبرة. وقع في بعض الأخطاء في الترجمة وهو يجهل على سبيل المثال معنى كلة «الوشم» وهذا يتضح من قوله: «العادة الشائعة في مصر رسم دائرة زرقاء مائلة للاخضرار على الذقن بحجم قطعة النقود المعدنية ذات الخمسة فرنكات» ص ٢٠٣.

٣- ذات المرجع ص ١٥٤.

٤- ذات المرجع ص ١٨٨.،

٥- ذات المرجع ص ١٩٧.

٦- معبد إيزيس الذي شيده نكتنابو الثاني (الأسرة الثلاثون) ذات المرجع ص ٢٠٢.

٧- كان باسل فخر Basile Fackr مضيافًا كما ذكر كثير من الرحالة خاصة البارونة دي مينو تولي de Minutoli لم يجد ميشو Michaudo عام ١٨٣١ في دمياط سوى زوجة هذا التاجر وقد ضاعت منها كل الثروة.

٨- «ثورة بركان فيزوف أو موت بلين» L'Eruption de Vé suve au lamort de Pline إيناس دي كاسترو (١٨١٩) Ines de Castro في داخل صومعة» A l'intérieur d'un cloitre (١٨٢٤) وكنيسة في كوليزيوم روما (١٨٣٥) Chapelle dans le Colis c Rome هي أكثر لوحات الكونت دي فوربان شهرة.

٩- قام بولان جيران Paul Gu rin برسم بورتريه له كان في الحافظة «لوبرتفوي» Portefeuille وقد نشره الكونت دي مارسيلوس Marcellus عام ١٨٤٣.

١٠- خليط أدبي، الفصل الحادي والعشرون ص ١٢٧.

١١- كان الراهب دي فوربان Forbin يستعد لإقامة القداس فوق قمة الهرم الأكبر حين هطل المطر مرغمًا إياه على الرجوع عن هذا الاحتفال الرمزي. راجع باسكال كوست Pascal Coste «ملحوظات وذكريات الأسفار» Notes et souvenirs de voyages ١٨١٧ (١٨٧٧) مارسيليا، ١٨٧٨ ص ١٤.

١٢- كان في حقيقة الأمر حجر الزبرجد. راجع ص ٢٢٥.

١٣- وردت نفس الملاحظة في كتاب «مدونات عن رحلة الشرق»
Notes d'un voyage fait dans le Levant en 1816 el 1817

١٤- «رحلة إلى الشرق» ص ٢٧٣.

١٥- ذات المرجع ص ٢٧٧.

١٦- ذات المرجع ص ٢٨٩.

١٧- أعادت الآنسة هارتلبن Mlle Hartelben طباعة هذا البورتريه في طبعتها لخطابات ويوميات شامبليون Lettres et Journaux de Champollion مكتبة علم المصريات المجلد الحادي والثلاثون ١٩٠٩ ص ٣٥.

١٨- وردت ذات الملحوظة في كتابات جوزيف ميشو J .Michaud وفسكيه Fesquet

١٩- «رحلة إلى الشرق» Voyage dans le Levant ص ص٢٠١ - ٢٠٢.

٢٠- تتضمن الطبعة الأولى من رحلة فوربان صورة تمثل هذا المشهد استنادًا لتصور أولي للوحة ڤرنيه ١٨١٨ وهو يختلف بعض الشيء عن اللوحة في شكلها النهائي في كتابه «مصر الحديثة» L'Egypte Moderne «الفصل الأول ص ٧». وقد قام بريس داڤان بتصحيح هذا التصور. فطبقًا لرأيه كان محمد علي وقت إطلاق النار مضطربًا متقطع الأنفاس. وقد حبس نفسه في ديوانه طالبًا كوبًا من الماء. وفي عام ١٨٦٧ قام بيدا Bida برسم لوحة لهذا المشهد أطلق عليها اسم «مذبحة المماليك» كانت أكثر واقعية وطبيعية.

٢١- «رحلة إلى الشرق» ص ٢٤٨.

٢٢- ذات المرجع ص ٢٤٨.

٢٣- ذات المرجع ص ٢٤٣ وقد استعاد هذه الفكرة لاحقًا .. «فرض الرعب صمتًا على الهمهمات ولكنه كان صمت الموت» ص ٢٥٠.

٢٤- «رحلة إلى الشرق» Voyage dans le Levant ص ٢٤٤. هناك ملحوظة مماثلة جاءت في سطور البارونة دي مينو تولي La baronne de Minutoli

٢٥- ذات المرجع ص ٢٦٦.

٢٦- ذات المرجع ص ص ٢٥٦ - ٢٥٨.

٢٧- كونت دي مارسيلوس «حافظة أوراق الكونت دي فوربان» ١٨٤٣ ص ١٨.
Comte De Marcellus, le Portefeuille du Comte de Forbin, d. Challamel, Paris

ضم هذا المؤلف لوحاته ورسوماته وخطوطه الأولى الأكثر تميزًا. وهو يحوي مع نص مارسيلوس ومدح بول دولاروش Paul Delaroche الصور المستوحاة من مصر رقصة عالمة بني سويف (ص٣) لوحة لدروڤيتي Drovetti مستندًا بمرفقه على أبي الهول (ص١٦) وعلى ضفاف النيل مع المملوك رشوان (ص ١٧) سيدة من الإسكندرية (ص ٣٢) مسلات الأقصر (ص٥٣) يوجد بورتريه لرشوان أيضًا في الطبعة الأولى من ذكريات مارسيلوس (١٨٣٩).

٢٨- بين هاتين الرحلتين تأخذ سفرة دي مونتوليه Ed .de Montulé زمنيًا مكانها. ومونتوليه كان فارسًا حاصلاً على وسام جوقة الشرف (١٨١٨ - ١٨١٩) نشر نصه عام ١٨٢١ وهو يكمل ويؤكد ما جاء في كتاب فوربان Forbin.

أبحر مونتوليه في النيل حتى أسوان وهو الفرنسي الوحيد الذي دخل مع بلزوني Belzoni في قبر سيتي الأول بعد اكتشافه مباشرة. وكتابه يضع لنفسه هدفًا بسيطًا هو إعطاء فكرة عن البلد لأولئك الذين لا يستطيعون قراءة الطبعة الضخمة ل «وصف مصر». وهو يعيد تقديم مسار حملة ديساكس Desaix استنادًا إلى هيرودوت Herodote ونوردن Norden ودونان Denon.

٢٩- مارسيلوس، «ذكريات من الشرق» Souvenirs de l'Orient الطبعة الثالثة ١٨٦١ ص ١٣٨.

٣٠- مارسيلوس، ذكريات من الشرق، الطبعة الثالثة، ١٨٦١ ص ٣٧٨.

٣١- ذات المرجع ص ٤١٧.

٣٢- بدأ التفكير في قناة المحمودية على يد مهندسين أتراك. وأنهى العمل فيها مهندس فرنسي يدعى بسكال كوست Pascal Coste. يقدر مارسيلوس عدد الفلاحين الذين أنهكتهم الحميات والإرهاق في الأشغال الشاقة في المستنقعات الملوثة بـ (٧٠٠٠) فلاح. بعض الرحالة الآخرين ذكروا أعدادًا أعلى بكثير منهم جوزيف ميشو J. Michaud (١٢٠٠٠) وشولشر Schoelcher (١٨٠٠٠) وأمبير Ampère (٣٠٠٠٠).

راجع «رحلة إلى مصر والنوبة» Voyage en Egypte et Nubie ، Calmann Lévy ١٨٨١، ص ١٢٠.

٣٣- مقطع مأخوذ من «الدين» La Religion.

٣٤- «ذكريات من الشرق» ص ٣٧٧.

٣٥- كتب الاسم بأكثر من طريقة وأصوبها Sève

راجع ڤانترينييه Vingtrinier «Soliman Pacha, colonel Sève»

«سليمان باشا، الكولونيل ساڤ، Didot، ١٨٨٦.

وعنه كتب أيضًا چول بلانا

Jules Planât Histoire de la regénération de L'Egypte

«قصة إعادة بعث مصر» ١٨٣٠ ص ص ٢٦ - ٢٩ و ٥٦ - ٦٢. وقد صاغ شارل إدمون في روايته:«زفيران كازافان في مصر» شخصية مستوحاة منه (١٨٨٠) راجع الجزء الثاني الباب الثالث الفصل الثاني.

٣٦- «ذكريات من الشرق» ص ٣٨٧.

٣٧- ذات المرجع ص ٣٨٤. نستثني جوزيف ميشو من هذه المجموعة فهو لم يلتق بسليمان باشا.

٣٨- «ذكريات من الشرق» ص ص ٤٠١ - ٢-٤.

٣٩- ذات المرجع ص ٤٠٤.

٤٠- «ذكريات من الشرق» ص ٤٠٩.

٤١- في عصر «حكومة الإصلاحيين» و«ملكية يوليو»، كان الرحالة الأرستقراطيون والكاثوليك عمومًا يصفون العوالم بشيء من القسوة، فهن يفتقدن في نظرهم إلى الجمال في أغلب الأحيان ورقصهن يخلو من الحشمة.

وصف الكونت ج. دستورمل J.d'Estourmel الذي جاء إلى مصر بعد مارسيلوس Marcellus عوالم الأقصر قائلاً: «نساء بدينات قبيحات قذرات يجعلنك تعزف عن المجون». أما عوالم القاهرة فقد قال عنهن: أربع حوريات بدينات يرقصن كالباليات.

راجع دستورمل «يوميات رحلة إلى الشرق» ١٨٤٤.

J. D'Estourmel, Journal d'un Voyage en Orient, 1844

٤٢- «ذكريات من الشرق» ص ٤٠٤.

٤٣- كان الاثنان من قرية واحدة تدعى لو - ايه - جارون Lot - et - Garonne ص ص ٣٨٤ و ٤١٤.

٤٤- ذات المرجع ص ٤١٤ .

٤٥- ذات المرجع ص ٤٢١.

٤٦- قد يكون من المشوق معرفة ما آلت إليه هذه المراسلات.

٤٧- تيوفيل جوتييه Thèophile Gautier، Charpentier Portraits Contempo rains «بورتريهات معاصرة» ص ٣٥٣ ، راجع أيضًا الكسندر دوماس Alexandre Dumas صالون ١٨٥٩ ص ص ١٤٦ - ١٤٩.

٤٨- ذات المرجع عن ماريللا ص ٢٦٠.

٤٩- كان ماريللا يوقع خطاباته على هذا النحو: «المصري بروسبير ماريللا (١٨١١ - ١٨٤٧) وكان زملاؤه في المرسم يطلقون عليه «الدقيق». كان في العشرين من عمره حين عينه البارون الألماني ش . أ . دي هوجل Ch.A.de Hügel عالم الطبيعة في وظيفة رسام. لدى سفر البارون في مهمة علمية إلى الشرق، طلب من ماريللا مصاحبته مؤكدًا على ضرورة الالتزام بالدقة. رحلا معًا في فبراير ١٨٣١ . ولكن بينما أكمل البارون رحلته إلى الهند، نزل ماريللا مصر وأقام بها عامين. وقد عاد إلى فرنسا في الأول من مايو ١٨٣٣ على متن السفينة «سفنكس» Sphinx المصاحبة المسلة المصرية. ليس لدينا الكثير من المعلومات عن حياته على ضفاف النيل، فلم نصل إلا إلى رسالة واحدة مرسلة من القاهرة عام ١٨٣١وقد ذكرها تيوفيل جوتييه Théophile Gautier كنموذج للوضوح والرقة. قام برسم وجهي محمد علي وبريس داڤان Prisse d'Avennes عام ١٨٣٢ وقام مرتين بعمل ديكورات لمسرح بالإسكندرية. وقد حمل معه إلى فرنسا مجموعة من اللوحات والخطوط الأولى التي تعد من روائع التصوير الاستشراقي:

«ميدان الأزبكية» [صالون ١٨٣٤] La place de l'Ezbekieh

«وادي القبور في طيبة» [صالون ١٨٣٥] La Vallée des tombeauxá Thébes

«حملة رشيد» [صالون ١٨٣٥] Campagne de Rosette

«الدلتا» [صالون ١٨٣٩] Le Delta

«قبور المماليك» [صالون ١٨٤٠] Les tombeaux des Mamlouks

«أطلال مسجد الخليفة حاكم» [صالون ١٨٤٠]
La ruine de la mosqué e du khalife Hakem

«قرية بالقرب من رشيد» [صالون ١٨٤٤] Village prés de Rosette

«ذكريات ضفاف النيل» [صالون ١٨٤٤] Souvenirs des bords du Nil

رصدنا نحو ٢٥ لوحة ممهورة بتوقيعه و١٦ رسمًا مستوحى من مصر [قاموس مبيعات الفنون الخاص بالدكتور ميرور Mireur، ڤنسنتي Vicenti الجزء الخامس ص ٩٨ Dictionnaire des Ventes d'Art du Dr. H. Mireur وتمتلك أسرته لوحات غير مكتملة له يعود تاريخها إلى فترة إقامته بمصر (مجلة ليدوموند Les Deux Mondes عدد الأول من يوليو ١٨٤٨ وبورتريهات معاصرة Portraits Contemporains ص ص ٢٣٤ - ٢٦٤.

يحتفظ متحف اللوڤر بواحد من رسوماته: Route de Choubra «طريق شبرا» وواحدة من أجمل لوحاته: «أطلال مسجد الخليفة حاكم» La Ruines de la mosquée du khalife Hakem» تظهر فيها كل موهبته نحن نعلم أنه لم تتح له فرصة إظهار كل قدراته فقد أودى المرض بحياته في سن السادسة والثلاثين في الوقت الذي كان يزمع فيه معاودة السفر إلى مصر. (راجع H. Gomot . جومو، Clermont - Ferrand Marilhat ، ١٨٨٤)

فلم يتردد تيوفيل جوتييه Théophile Gautier بعد حصوله على ثلاثة خطابات بين يديه في التصريح بأن ماريلا كان بوسعه أن يكون كاتبًا بنفس شهرته كرسام.

قدم هوراس ڤرنيه Horace Vernet (١٧٨٩ - ١٨٦٣) إلى مصر عام ١٨٣٩، بصحبة تلميذه جوبيل فسكيه Goupil Fesquet. شهرته لوحاته:
Valmy ڤالمي، Jemmapes «چيماب» و Prise de la Smala «مذبحة المماليك ومحمد علي» التي استوحاها من بورتريه الكونت دي فوربان عام ١٨٢١ - غادر مارسيليا في الواحد والعشرين من أكتوبر ١٨٣٩ ووصل إلى الإسكندرية في الأول من نوفمبر وإلى القاهرة في الخامس والعشرين من ذات الشهر. وقد تركها متجهًا إلى سورية في شهر ديسمبر بحثًا عن عناصر لوحته «معركة نزيب» La Bataille de Nezib التقى هناك بسليمان باشا ورسم له بورتريهًا جميلاً في يناير ١٨٨٠. وقد عثرنا على بعض من خطاباته التي أرسلها من مصر منشورة في مؤلفات لسانت بوڤ Sainte Beuve

- Un des Lundis (Constitutionnel, 1er juin 1864)
- L'Illustration 5 et 12 auril 1856
- Amedee Durande. Joseph, Carie et Horace Vernet, Correspondance et biographies, Hetzel, 1863 - 1864

وقد وصلت إلينا انطباعاته وجدول أعماله من خلال كتابات زميله جوبيل فسكيه Goupil Fesquet «رحلة هوراس ڤرنيه إلى الشرق» ١٨٤٣ Voyage d'Horace Vemet Orient من بين الرسامين الفرنسيين الذين استقروا في مصر والذين قابلهم أثناء رحلته يذكر: بوردون Bourdon في الإسكندرية وبيرون Pierron وماشوروه Machereau في القاهرة ويضم المجلد بورتريها لهوراس ڤرنيه Horace Vernet، في زي شرقي وآخر لأبناء سليمان باشا رسمهما فسكيه Fesquet غير أننا لا نجد رسمًا لڤرنيه نفسه. كان طبقًا لأقوال صديقه يتمتع بذاكرة قوية لا تجعله يكتب ملاحظات أو مدونات ولا يرسم خطوطًا أوليه [ذات المرجع، الفصل الثالث عشر ص ص ١١٥ - ١١٧].

٥٠- راجع ج. لوقاد دوبروتون J.Lucas - Dubreton «حياة ألكسندر دوماس الأب»

Vied'Alexandre Dumas pére, N.R.F, p 1391

٥١- سيعترف ألكسندر دوماس لاحقًا بأن دوزاه :Dauzats «صديق آخر من أصدقائنا القدامى. كان يقوم برسم أهرامات ممفيس وأطلال دمياط بينما كنا نعرض مسرحية «هنري الثالث» [الفن والفنانون المعاصرون في صالون ١٨٥٩] ص ١٤٦

٥٢- «خمسة عشر يومًا في سيناء» طبعة ١٨٤١ ص ٢

٥٣- ذات المرجع طبعة ١٨٦٨ ص ٢٢.

٥٤- ذات المرجع طبعة ١٨٤١ ص ٣٥.

٥٥- ذات المرجع ص ١١٢.

٥٦- قصر بوربون.

٥٧- متحف اللوڤر وقد سمي بالخطأ: دير جبل «أتوس» Athos.

٥٨- «خمسة عشر يومًا في سيناء» طبعة ١٨٦٨ ص ٤٧.

٥٩- راجع ميشو Michaud المرجع السابق ١٨٢٢. المجلدان السادس والسابع.

٦٠- «خمسة عشر يومًا في سيناء» طبعة ١٨٦٨ ص ٣٦.

٦١- ذات المرجع ص ص ٧٢ - ٧٧.

٦٢- ذات المرجع ص ١١٢.

٦٣- سيعيد البارون تايلور Taylor النظر في نصه ويكمله في مجلد صغير شامل عنوانه «مصر» وينشره عام ١٨٥٦ باسم مستعار هو معكوس اسم تايلور. علمًا بأن تايلور كان أحيانًا يتسمى باسم إبراهيم بك.

٦٤- جاء بلزوني Belzoni (١٧٧٨ - ١٨٢٣) عام ١٨١٥ وقد توفي في جاتو Gato عام ١٨٢٣ بعدما حاول جاهدًا ولكن دون جدوى عرض مشاريع آلات هيدروليكية على محمد علي. جعله الفشل في هذا العرض يصب جل اهتمامه على الآثار التي استغلها لصالح إنجلترا بمساندة القنصل سولت Salt وقد زار أنقاض بيرينيس Berenice الواقعة على البحر الأحمر وواحة سيوة [راجع ص ٢٢٣].

٦٥- ينضم الكونت جوزيف ديستورمل J. d'Estourmel قريب السيد ديبوالو كونت M.de Bois Le Comte [السفير فوق العادة لفرنسا في القسطنطينية] إلى سلسلة النبلاء الفنانين والمثقفين. وقد جاء إلى مصر عام ١٨٣٣ بصحبة ابن أخيه السيد دي كونتو M. de Contaut والتقى في القاهرة بالقسيس ماري - جوزيف Pere Marie - Joseph الذي كان في ما مضى البارون دوجيرون bron de Geramb راهب لا تراب .La Trappe وقد ذهب في صحبته إلى أسوان. كان يبحر إلي جواره السيد دولا بولاي M. de la Boullaye الذي ندين له بقصيدة شعرية عن الكرنك في ضوء القمر.

أثرى الكونت ديستورمل الطبعة الأولى من كتابه «يوميات رحلة إلى الشرق» (١٨٤٤) برسومات أولية جميلة لا يلام عليها إلا كونها اختزالية: فأهراماته وأعمدة مساجده وتماثيله العملاقة وعمود بومبي الذي رسمه طويلاً بشكل مبالغ فيه. وهو رسام حاذق ورجل ذواقة. أسلوبه بسيط سلس وملحوظاته ممتعة عن أسد ونمر الدفتردار ص ٢٤٠ وعن الكولونيل ڤاران Varin ص ٢٥١ وسفر كسوة الكعبة ص ٢٨٥ والعوالم ص ٤٥٤ .

٦٦- لا يبدو أن شامبليون قد التقى في مصر بالبارون تايلور رغم أن الرحالة كاتبة مؤلف La Contemporaine قد التقت بكل منهما على حدة. نعرف هذه الأديبة غير الموهوبة ذات الأصول الهولندية التي تبعت جيوش الإمبراطورية وارتبطت بشرطة نابليون السرية كان اسمها الحقيقي أ. ڤان أيلدجونج E.van Aylde Jongue وتطلق على نفسها اسم ايدادي سانت إلم Ida de Sainte - Elme كتابها الأول عنوانه: «ذكريات امرأة حول أبرز شخصيات الجمهورية وحكومة القناصل والإمبراطورية وحكومة الإصلاحيين».
Souvenirs d'une femme sur les principaux personnages de la République, du Consulat, de L'Empire et de La Restauration»

وهو نسيج من الخرافات والثرثرة. وقد أحدث الكتاب منذ ظهوره فضيحة في المجتمع الباريسي وصلت الكاتبة إلى مصر عام ١٨٢٨ في وقت وصول بعثتين فرنسيتين إليها، إحداهما بعثة شامبليون والأخرى بعثه صديقه الدكتور إتيان باريزيهEtienne Pariset السكرتير الدائم لأكاديمية الطب في باريس. وكان هذا الأخير قد جاء لدراسة سمات مرض الطاعون. ويبدو أنه لم يرق للرحالة فقد أمطرته بوابل من الانتقادات في كتابها «المعاصرة في مصر» La Contemporaine en Egypte (باريس – Ed. Ladvocat). هذه الستة مجلدات التي يتعلق أربعة منها بمصر تزخر بالأقوال الخبيثة والنميمة ولا تنتمي بأي حال للأدب. وبالتالي ليس لها مكانًا في عملنا هذا.

غير أننا نجد حول هذه المغامرة التي استطاعت الحصول على رضا محمد علي وإبراهيم مجموعة من الوجوه المألوفة لنا: دروڤيتي Drovetti الذي تكرهه والذي كان على وشك العودة إلى فرنسا وخلفه ميمو Mimaut الذي كان محل قبولها بل ودفعته إلى عنان السماء. والدكتور كلوت بك Dr .Clót bey الذي وصل إلى مصر عام ١٨٢٥ والذي استقبلها في مستشفى أبي زعبل [المجلد الأول ص ٣٠٣] والبارون تايلور baron Taylor الذي تناول معها العشاء على مائدة سليمان باشا [المجلد الرابع ص ٠٥] ولينان دي بلفون Linant de Bellefonds إلخ.

وقد ذهبت إلى سيناء وصعيد مصر حيث وجدت آثار شامبليون التي تحدثت عنه بدون دماثة عالية [المجلد الثالث ص ٢٣٤]. أما سليمان باشا الذي كانت في ضيافته في مصر القديمة وفي خيمته بمعسكر طرة، فقد أكثرت الثناء عليه وعلى كرم ضيافته وعلى دعوات العشاء على مائدته التي كان يردد خلالها ناسيًا قول وشريعة الرسول ورافعًا كأسه «في صحة رب الطيبين» [المجلد الثالث ص ص ٢٩– ٣٧].

راجع أيضًا ألكسندر دوماس Dumas ودوزاه Dauzats «خمسة عشر يومًا في سيناء» طبعة ١٧٦٨ ص ٩٠.

****

الفصل الثالث

جان فرنسوا شامبليون

Jean - Francois Champollion

«مُهر جامح نهم يطلب ثلاثة أضعاف زاده». هكذا وصف عالم الرياضيات الشهير فورييه Fourier جان فرنسوا شامبليون. كان ذا طبيعة متقدة نهمة ومولعًا بالعمل لا يستشعر تعبًا ولا كللاً. كان في السابعة عشرة من عمره حين قدّم عام ١٨٠٧ إلى جمعية الفنون والعلوم في جرينوبل Grenoble دراسته عن الجغرافيا القبطية لمصر. وفي الحادية والعشرين حين نشر وهو محاضر في كلية الآداب بذات المدينة، كتابًا بعنوان: «مصر في عهد الفراعنة» L'Egypte sous les Pharaons وكان في الثانية والثلاثين من العمر حين فك رموز حجر رشيد.

للمصادفة الغريبة في اللحظة التي كان يقرأ فيها تحت قبة المعهد في السابع والعشرين من سبتمبر ١٨٢٢ خطابه الشهير إلى السيد داسيه M.Dacier عن الهيروغليفية كانت تمر متثاقلة أمام واجهة قصر مازارين Mazarin عدة صنادل استأجرها المكتشف بلزوني Belzoni لتحمل إلى باريس نسخًا مقلدة من قبر سيتي الأول الذي اكتشفه عام ١٨١٧. هذا المغامر المثير للدهشة كان راهبًا، ممثلاً ومهندسًا وتاجر آثار. وكان قد نجح في الدخول إلى المعبد الذي يقع تحت أرض أبي سمبل وهرم خفرع. وسرعان ما أصبح وجهًا مألوفًا للشعب في العاصمة. كان ضخم البنية عملاقًا، ذا هيئة غير مألوفة وبذا لفت نظر الجمهور. كما جذب الانتباه إلى شخصه بمعرضه الرائع عن مصر الذي أقامه في شارع باريسي شهير Boulevard des Italiens بالقرب من الحمامات الصينية. ظل فنانان يعملان طيلة سبعة وعشرين شهرًا في نماذج بالحجم الطبيعي لقاعات المدفن الموجود تحت الأرض «بطيبة». وسرعان ما تحدثت عنه لندن

وباريس وتسارع الناس لرؤية المنظر الغريب. انبهر شامبليون نفسه بهذه القبور التي ضاعفت تأثيرها الساحر الإضاءة الموفقة. ولم يشذ عن نغمة الإعجاب والانبهار إلا جومار Jomard الذي دفعه الحسد إلى التشكيك في حقيقة الرفات رغم أن لجنة العلوم والفنون التابعة لجيش بونابرت لم تستشعر أي زيف. كان يردد في كل مكان وحتى في البلاط أن هذا هراء. كان العالم والمدينة قد بدأا في الاهتمام بعلم الآثار المصرية.

كانت رحلات بلزوني Belzoni إلى مصر والنوبة قد ترجمت إلى الإنجليزية. وتزامن مع هذا الكتاب ظهور ألبوم المهندس «كو» Cau «آثار النوبة» Les antiquités de La Nubie مزودًا بإيضاحات مستقاة من نيبور Niebuhr وليترون Letronne . وسرعان ما تبعهما معرض قبر سيتي الأول وحل شفرة الكتابة الهيروغليفية بواسطة شامبليون. كل ذلك جعل بلد الفراعنة من أبرز الصرعات.

هذه الأحداث المثيرة كانت موضوع أحاديث أم مع أطفالها في سلسلة كتب خصصت لفتيات حكومة الإصلاحيين. حظي سيتي الاول بشهرة لم يدانه فيها إلا توت عنخ آمون لاحقًا. وذاع صيت بلزوني Belzoni مثلما حدث في أيامنا هذه مع لورد كارنافون Lord Carnavon وهوارد كارتر Howard Carter أضيفوا إلى ذلك الضجة التي أثارها اكتشاف شامبليون. ادعى الفيزيائي الإنجليزي الشهير توماس يانج Thomas Young أنه قد سبقه إلى هذا الاكتشاف وقد سار على منواله سبون Spon وسيفارس Seyffarth وكلابروث Klaproth مما دعا الأخ الأكبر لجون فرنسوا شامبليون ويدعى فيجاك Figeac إلى رفع الأمر إلى القضاء للدفاع عن حقوقه. وقد انضم إليه سلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy وف. كوزان V. Cousin ولوترون Letronne وأراجو Arago والدوق دوبلاكا duc de Blacas وألكسندر دي هامبلوت Alexandre de Humboldt ولكن في باريس هاجم ايتان كاترمير Etienne quatremère وجومار Jomard وراؤول روشات[1] Raoul Rochette ومعهم عدد كبير من أعضاء المعهد العالم العبقري الشاب وأزعجهم في منامهم ما حظي به من شهرة وتكريم. واحتدمت المناقشات. ولأكثر من مرة رفضت أكاديمية «النقوش والآداب الرفيعة

استقبال شامبليون في قاعاتها رغم تأثير السيد داسييه المبجل M. Dacier سكرتيرها الدائم، وفضلت عليه يومًا شخصًا يدعى باردوسوه M. Pardessus[٢] طواه النسيان تمامًا اليوم. مما جعل شامبليون يقول في إحدى رسائله، وحروفه تقطر سخرية حزينة: «وضعوني أدنى من السيد باردوسوه» الذي يعني اسمه بالفرنسية عدة معان منها «فوق». شيئًا فشيئًا خرجت هذه المعارك إلى الصحافة وإلى الملأ، وأثقلتها ضغائن سياسية جعلت كل عداءات الماضي تظهر إلى حيز الوجود.

بينما نجد أن حاكم مقاطعة ايزار Isère فورييه Fourier عضو معهد مصر والذي كان سابقًا في حماية الإمبراطور قد رفض لدى عودته من جزيرة إلبا أن يفتح له أبواب جرينوبل Grenoble، نرى أن شقيقي شامبليون يرتميان في أحضان بونابرت. ألم يكونا مبعدين عام ١٨١٦ بسبب دعايتهما المخربة؟ ألم يعزلا وينفيا على أرضهما في فيجاك Figeac كانا من رجال «المائة يوم». وكانت هناك محاولات متعددة للإضرار بهما والإيقاع بينهما وبين الملك لويس الثامن عشر. كان جومار Jomard متحاملا جدًا عليهما وكانت الخلافات الأكاديمية مادة جذابة لأحاديث الصالون.

كان شامبليون قد تسمى بفخر «المصري» مما جعل جومار Jomard يطلق على نفسه «المصري المتميز» L'Egyptien par excllence وتوماس يونج Thomas young «المصري بالتجاور» L'Egyptien par Juxtaposition.

لم يعر شامبليون كل ذلك التفاتًا وترك لشقيقه الأكبر مهمة الدفاع عنه. مضى قدمًا لا يلوي على شيء بحثًا عن تجارب جديدة تؤكد نظريته عن الكتابة الهيروغليفية. بعد شهرين أو ثلاثة من نشر خطابه إلى السيد داسييه M.Dacier وجد عونًا صادقًا من رحالة نشأ في مدينة «نانت» إشرفشس يدعى فريدريك كاييوه (١٧٨٧ - ١٨١٩) Frederic Cailliaud كان هذا الرحالة بين كشفين أفريقيين يتسمان بالجرأة العالية قد عاد إلى باريس، حاملاً معه إلى جانب نقوش تم رفعها من معابد النوبة، مومياء بطلمية مغطاة بالحروف الهيروغليفية وترجمتها الهيراطيقية والديموطيقية مما سمح لشامبليون باستكمال وتأكيد نسقه[٣]. ورغم أن كاييوه Cailliaud كان عالمًا في مجالي الجغرافيا

والعراقة أي أصل الشعوب. ورغم أن بعثاته إلى واحات الصحراء الليبية وسنار وأعالي النيل تجعله إجمالاً خارج إطار دراستنا إلا أنه يستحق منا وقفة اهتمام على الأقل لمساعدته الذكية لعالم الآثار المصرية العظيم.

كان كايبوه جيولوجيًا متخصصًا في المحاجر. وقد كلفه محمد علي عام ١٨١٥ باكتشاف محاجر الزبرجد الشهيرة في جبل زابارا Zabarah بالصحراء الغربية.

كانت هذه المناجم قد تم استغلالها في زمن الفراعنة وورد ذكرها في مؤلفات الكتاب العرب. رحل من إدفو في اتجاه البحر الأحمر ووجدهما بالفعل على الحال الذي تركهما عليه البطالمة. كانا قد استغلا إلى حد لا يبرر أي محاولات جديدة ومكلفة لاستغلالهما. استمر كايبوه Cailliaud في رحلة كشفه ودخل إلى واحة الخارجة حيث لاحظ مع دهشة القنصل هنري سولت Henry Salt معابد لم يذكرها لا بونسيه Poncet ولا براون Browne[٤] وقد أبحر في النيل حتى وادي حلفا وحاول بغير جدوى مع دروفيتي Drovetti فتح معبد «أبسمبول» الموجود تحت الأرض (١٨١٦).[٥] وقد قام إلى جانب الملاحظات الجيولوجية والأثنوجرافية بتجميع رسومات ونسخ من النقوش. لدى عودته إلى فرنسا عام ١٨١٩ زكاه سولت Salt بشدة لدى شامبليون فيجاك الذي عرّف الناس برسوماته. واقتنت وزارة التعليم العام مجموعات وثائقه وكلفت جومار Jomard عليها لاستخلاص الممكن منها.

وهو ما أدى إلى نشر: «رحلة واحة طيبة وإلى الصحاري الواقعة شرق وغرب الإقليم الطيبي

Voyage á l'oasis deThébes et dans les déserts situés á l'orient et L'occident de la Thébaide»

التي قام بها السيد كايبوه Cailliaud خلال الأعوام من ١٨١٥ إلى ١٨١٨ وكتبها ونشرها السيد جومار Jomard في عامي ١٨٢٢و١٨٢٤.

ما إن وصل كايبوه إلى باريس في فبراير ١٨١٩ حتى كلف بمهمة علمية جديدة أعادته إلى مصر في نهاية العام نفسه. عندئذ صاحب بعثة محمد علي إلى واحة «سيوه»

الكبرى الموجودة في الغرب وواحة «جوبيتر آمون» وفور عودته في مارس ١٨٢٠ علم بسفر الجيش المصري إلى السودان وطلب الانضمام إليه. وقد مكنه ذلك من الولوج مع القوات المنتصرة حتى دنقلة عاصمة النوبة القديمة التي لم يزرها أوروبي منذ بونسيه Poncet ولونوار دي رول Le Noir du Roule (١٦٩٨ - ١٧٠٤). وقد تقدم كايبوه في رحلته إلى ما بعد «ميرويه» عند الشلال السادس ومضى مبحرًا في النيل الأزرق حتى جنوبي «سنار» وقد سجل نتائج وملاحظات سفرته الثانية في كتاب بعنوان: «رحلة إلى ميرويه والنهر الأبيض وما بعد «فازوقل» في وسط مملكة «سنار»

Voyage a Méroé, au fleuve blanc et au delàde Fazoql, dans le midi du royaume de Sennaar

وقد نشر هذه المرة بالتعاون مع جومار Jomard (١٨٢٣ - ١٨٢٧) والطابع الغالب على هذا النص الهام وصفي وجغرافي. وهو يقع في دائرة اهتمامنا لسببين: أولهما أنه مليء بالتفاصيل والمشاهد الموحية عن مصر المعاصرة. تصوير كايبوه Cailliaud لمقابلة محمد علي له في طيبة ومقابلته للكولونيل ساف في أسوان. وهو يخصنا بانطباعاته عن حملة أعالي النوبة. وثانيهما وجود فرصة لسفرات متعددة ومثمرة في المنطقة الغنية بالآثار بين رحلتي الاستكشاف الأساسيتين إلى منابع النيل.

في وقت معاصر لـ لينان دي بلفون Linant de Bellefonds الذي لم تكن يومياته قد نشرت بعد، كان كايبوه Cailliaud يرسم ويصف بدقة المعابد الرئيسية في النوبة لافتًا بذلك نظر شامبليون إليها. ونشير هنا بالإضافة إلى تقاريره عن أعمال التنقيب في النوبة إلى واحد من رسوماته عن أبيدوس، فهو الذي عرّف شامبليون بوجود «قائمة الملوك».[٦] قال معلقًا على ذلك:

«لدى عودتي إلى باريس، وضعت تحت أنظار شامبليون الصورة التي كنت قد نسختها لهذه الخراطيش. وقد تعرف من خلالها على أنفس قطعة تم اقتناؤها حتى يومنا هذا. وهي عبارة عن جدول مرتب زمنيًا لقدامى الفراعنة مسجلة عليه أسماؤهم الملكية.[٧] نتخيل معًا القيمة التي مثلتها هذه النقوش والكتابات في فترة كان شامبليون قد فرغ فيها

لتوه من إعادة ترتيب الأبجدية الهيروغليفية. ولن يمكننا إيفاء كاييوه حقه عن الخدمات التي قدمها لعلم المصريات الوليد بتقديمه نصوصًا منقولة حرفيًا، نصوصًا يونانية من معابد النوبة أعيد ترتيبها وترجمها لوترون Letronne إلى جانب نصوص هيروغليفية ورسومات من أفاريز طيبة ترجمها شامبليون وفسرها.

والحق أننا لسوء الحظ لا يمكننا امتداح النسخ التي جلبها رحالة فرنسي أخر من مارسيليا يدعى ج. ج. ريفو Rifaud بذات القدر. وريفو هو الشخص الذي تولى لفترة طويلة إدارة أعمال تنقيب دروڤيتي Drovetti والذي أشار إليه في طيبة الكونت دي فوربان Forbin.

كان ريفو Rifaud يتسم بالحيوية وبحسن وسرعة التصرف. أمضى في مصر أربعة عشر عامًا وأطلق عليه محمد علي اسم «الخواجة الفرنساوي أبو أنتيك». خلال فترة وجوده في مصر، قام بمسح شامل لمنطقة «طيبة» أظهر خلالها إلى الوجود معابد صغيرة ملحقة بمعبد الكرنك، كانت تحت الأنقاض أثناء وجود الحملة الفرنسية. كما استخرج مئات التماثيل ونقل العديد من النصوص ورسم أكثر من أربعة آلاف رسم لمصر الحديثة والقديمة على السواء. ويؤخذ عليه أنه قليل الالتزام والثقافة والتمييز ومفتقد للمرجعية العلمية فقد علم نفسه بنفسه.

رأى شامبليون أن دفتر بيانه ضرب من العبث.(٨) ولاحظ السيد داسييه Dacier في التقرير الذي رفعه إلى «أكاديمية النقوش والآداب الرفيعة» أن جزءًا كبيرًا من النقوش التي رفعها سبق للجنة العلوم والآداب التابعة لجيش بونابرت الإشارة إليها. أما الرسومات فمعظمها لا يرقى إلى المستوى المطلوب من حيث الأسلوب والدقة ولا يمكن نشرها إلا بعد الكثير من التدقيق في الاختيار. والحق يقال أن الألبوم المصاحب لمجلدات ريفو تزيد قيمته من ناحية علمي العراقة والحيوان عنها من ناحية الآثار. ورسوماته لا تتسم بالإتقان والتفاصيل الدقيقة مثل رسومات كاييوه. ويفوق المجموعتين معًا ما قدمته البعثة المصاحبة لشامبليون. وتعد الرسائل التي حررها شامبليون من مصر والنوبة عامي ١٨٢٨و١٨٢٩ أقرب إلى الآثار وعلم المصريات منها إلى الآداب. ولن نقوم هنا بتقييمها من

حيث التخصص وإنما من حيث القيمة العامة والإنسانية. وسوف نقوم بتقييم رحلة شامبليون لا من ناحية علم المصريات وإنما من الجانبين النفسي والتاريخي مع وقفة أمام التفاصيل البطولية مبرزين الخطوة العملاقة التي جعلنا نقوم بها إرضاءً لفضولنا ومعرفة بمصر.

كتب جان جاك أمبير J.JAmpere أمام أطلال الكرنك، يقول: «منذ ثلاثين عامًا ولت، كانت هذه الكتل خرساء. الآن نسمع لها صوتًا وهي تروي أحداث عشرين قرنًا من تاريخ مصر».(٩) هذا هو الحدث الرئيسي. كل شيء سيتضح ما دمنا نملك مفتاح الكتابة الهيروغليفية. ولّى عهد الفرضيات والتكهنات والتخمينات العفوية. لن يأتي رحالة يسيء التقدير ويرجع «فك البروج» أو «معبد دندرة» إلى العصور السحيقة. في السادس عشر من نوفمبر ١٨٢٨ وعقب وصوله بساعتين، استطاع شامبليون على ضوء القمر وفي وهج مصباح، فك طلاسم الكتابات الجدارية الموجودة في المعبد وميز فيها أسماء الأباطرة الرومان تيبار Tibère وكلود Claude ونيرون Néron بفضل «القراطيس الملكية لقوائم أبيدوس» و«غرفة الملوك بالكرنك» سيصبح في الإمكان، بدون خوف من الوقوع في أخطاء جسيمة، وضع ترتيب تاريخي وزمني للآثار وإخراج تاريخ حجبته الظلال طويلاً إلى النور.

كان العمل الكبير الذي أنجزته لجنة العلوم والآداب التابعة لجيش بونابرت وصفياً وأثرياً. وقد أدرك شامبليون Champollion الذي شجع أبحاثه كل من سونيني Sonnini ودون رافائيل(١٠) Don Raphaël وڤيڤان دونان Vivant Denon وحاكم المقاطعة فورييه Fourier أعضاء معهد مصر القدامى، مقدار ما هو مدين به إلى كوكبة العلماء، وما يتبقى عليه إنجازه. في المذكرة التي قدمها راعيه نيابة عنه إلى الملك شارل العاشر عام ١٨٢٧ طالبًا فيها من الحكومة الفرنسية بعثة تصحبه، أظهر شامبليون تواضعًا وعمقًا وتحكمًا في مقاليد الأمور وتقييمًا صائبًا للمهام التي عليه إنجازها وننقل منها:

«إن أعضاء لجنة مصر ومعظم الرحالة الذين نهجوا نهجهم لم يلقوا بالاً إلى أهمية نقل النقوش الطويلة المكتوبة بالحروف المقدسة التي تصحب عادة الوجوه والأشكال المرسومة في الأفاريز. وقد يكون ذلك ظنّاً منهم أن هناك استحالة في

الوصول يومًا إلى مدلولها. أهملوها دومًا بل اكتفوا أحيانًا وهم ينقلوها من الأفاريز بتحديد مكانها وتركها فارغة.

في وقتنا هذا، تزيل الرسومات التي تؤخذ من المشاهد التاريخية الكبرى غموض بعضها البعض. وينطبق هذا الأمر بصفة خاصة على النقوش الهيروغليفية التي تمت مضاهاتها بأعداد كبيرة. وأصبحت لا تقدر بثمن وتحقق، إن لم يكن في مجملها فعلى الأقل في جزء كبير منها الآمال التي تعقدها عليها العلوم التاريخية. من هنا كان اضطرار شامبليون لتحديد خطة عمله ومبررات سفره في تقريره المرفوع إلى الملك. «يتطلب الأمر بصفة سريعة وقطعية استكمال معلوماتنا عن الهندسة المعمارية والدين والفنون والصناعة في مصر القديمة وتمكين علماء أوروبا قبل أن يضيع منا الوقت من الحصول على الوثائق المهددة بالضياع من قبل هادمي المعابد والباحثين عن ملح البارود ومشيدي معامل السكر وسارقي القبور. هذا إذا نحينا جانبًا الفيضان السنوي وجهل الفلاحين».

وضع عالم المصريات الكبير الخطة المفصلة للأعمال المزمع القيام بها بدقة ووضوح رؤية شديدين وتشمل: الرسم والنقل ورسم خطط الطريق والنقوش إلى جانب أعمال التنقيب.

ورغم تدخلات أعداء شامبليون قبل الملك للإيقاع بينهما فقد أبدى شارل العاشر استعداده لمعاونته. ذهب شامبليون إلى مدينة «تورين» Turin لدراسة مجموعة دروڤيتي Drovetti التي لم تولها فرنسا قدرها وحازها عام ١٨٢٤ ملك ساردينيا. ولدى عودته استطاع شراء مجموعة سولت Salt والعودة بها إلى باريس. معركة أخرى كانت بانتظاره، فقد أوعز أعداؤه للكونت دي فوربان Forbin بأن شامبليون سيصبح أمينًا عامًا للآثار بمتحف اللوڤر مما أوغر صدره. ومضى جومار Jomard يصرخ في كل محفل بأن هذا ظلم بيّن. قبل شامبليون خوض الحرب المعلنة عليه، فذهب بنفسه إلى اللوڤر ليعرض مجموعة سولت Salt ووضع لها دفتر بيان وافتتح في الخامس عشر من شهر ديسمبر ١٨٢٧ رسمياً القاعة المصرية بمتحف شارل العاشر. وعين شامبليون أمينًا على القاعات الجديدة. وكان طبيعياً أن يرى مؤسس علم المصريات بعد سنوات من الدراسة القاسية والعزلة حلم شبابه، يرى مصر التي أعادها إلى النور وإلى الحياة.

تفاهم الدوق دوبلاكا Le duc de B laças مع الوزراء القلقين من النفقات وحسم ترددهم. وفي شهر يونيو ١٨٢٨ تم تأمين المبالغ اللازمة والكافية وتدبير أمر سفن الدولة التي ستقل بعثة شامبليون. وعين شامبليون رئيسًا لها.

اصطحب شامبليون معه رسامًا من قسم الجمارك سيصبح لاحقًا متخصصًا في علم المصريات يدعى نستور لوت Nestor L'Hote والمهندس المعماري بيبنت Bibent ومفتش الفنون الجميلة الشاب شارل لونورمان (١٨٠٢ - ١٨٥٩) Charles Lenor- mant صديق جان جاك أمبير Jean - Jacques Ampére ونجل شقيقة مدام ريكامييه[١١] Mme Recamier بالإضافة إلى الرسامين دوشان Duchesne وبرتان الابن Bertin fils ولوهو Le Houx تلامذة البارون جرو Le baron Gros واستجابة لطلب دوق توسكانيا تمت الموافقة على أن تنضم إليهم لجنة إيطالية برئاسة المستشرق روسيلليني Rosellini ووصل فريقا العلماء إلى الإسكندرية في الثامن عشر من شهر يوليو ١٨٢٨.

كان دروڤيتي Drovetti قد كثف جل جهده لكي تفشل هذه البعثة. أما وقد مات عدوه ومنافسه في مجال الآثار القنصل الإنجليزي سولت Salt، فقد كان يبغي البقاء وحده سيدًا للموقف ينقب ويهرب ما طاب له. كانت هذه البعثة ستطلب رؤية ومراقبة كل شيء. ولم يكن يدري ما يمكنه عمله على ضفاف النيل بسادة باريس وتورين Turin الذين كانوا «سيفسدون المهمة»[١٢]. لذا فقد أرسل لهم الخطاب تلو الخطاب ليثنيهم عن عزمهم. قال لهم إن الوضع السياسي هش وإن الوالي لم ينس تدخل فرنسا إلى جانب اليونان وإن معركة «نڤارين» قد أحبطته مما يجعل الوقت غير مناسب للمطالب الأوروبية. ولكن شامبليون لم يكن بالرجل الذي ينكص على عقبيه. كان مثل قيصر قد حضر ورأى وانتصر. استطاع دروڤيتي كتمان مشاعره العدائية وأوصل شامبليون بنفسه إلى محمد علي. غير أنه قد حاول خداع الوالي. في البداية تم رفض إصدار الفرمانات الخاصة بالتنقيب[١٣]. غضب شامبليون وأسمع من حوله أنه بصدد الشكوى إلى وزراء الملك. وفي النهاية وافق محمد علي وفي مقابلة ثانية أكد للرحالة أنه سيجد أينما ذهب تكريمًا

وحمـاية.[١٤] وقـد طلب منه ترجـمـة لنقـوش «مـسـلات الإسكندرية» ومن هنا فـقـد ذهب شامبليون إلى القاهرة ملؤه الثقة والراحة والشجاعة.

لنطرح جـانبًا أبحـاثه الأثرية الأولى وعملية إعادة تشـيـيد أنقـاض «سـاييس» Sais بالقرب من «فوة» والتي تستحق كل تقدير، وزياراته المتكررة للأهرامات وسقارة واكتشـافه لمقبرة Eimai بالجيـزة. إذا كان مـأخـوذًا بالآثار فـهـذا لا يعني أنه منصـرف عن الحـيـاة المعاصـرة. دليل ذلك الخطابات التي كان يوجـهـهـا إلى أخيـه والتي كـانت في بادئ الأمـر تنشر فور وصولها في «المونيتور»[١٥] والتي كـان يرصـد فيهـا مشـاهـد من الحـيـاة العربيـة. فقد وصف مثلاً بدقة شديدة الاحتفال بالمولد النبوي بالقاهرة قائلاً:

«كان ميدان الأزبكية الهام والفسـيح في القاهرة يعج بالناس، تتوسطه مياه راكدة من مياه الفيضان. تلتف الجموع فيه حول المهرجين والراقصات والمغنيات. كانت هناك خيام جميلة منصوبة تمارس فيها طقوس عبادة. مسلمون كثيرون جالسون يقرأون سورًا من القرآن بإيقاع معين ومسلمون آخرون يصل عددهم إلى نحو ثلاثمائة شخص مصفوفين في خطوط متوازية، يميلون نصف قدهم الأعلى إلى الأمام وإلى الخلف كعرائس ذات مفصلات قائلين في صوت واحد: لا إله إلا الله. وفي مكان بعيد قليلاً عن هؤلاء الذاكرين يصطف خمسمائة ممسوس في دائرة يقفزون إلى أعلى صارخين من أعماقهم كلمة «الله» ومرددين إياها نحو ألف مرة بصوت مدوٍ، لم أسمع قط في حياتي جوقة تردد بأعلى منه. صخب رهيب وكأنه منبعث من أعماق الجحيم. إلى جانب هذه المظاهر الدينية كان هناك موسيقيون وبائعات هوى يتجولون. كانت هناك أيضًا ألعاب تشهد رواجًا عاليًا. هذا الخليط من الممارسات الدينية والألعاب مع غرابة الوجوه وتنوع الملابس شكلت معًا مشهدًا غريبًا لن أستطيع يومًا نسيانه».[١٦] ولكن ليس لهذا الغرض قدمت البعثة إلى مصر.

حـان وقت الإبحـار إلى الصـعـيـد والنوبة على مـتن «إيزيس» و«الأثيـر» وهـما زورقـان كبيران. كانت المرحلة الأولى في بني حسن. عندما رسا زورق شامبليون هناك، لم يكن في نيتـه البـقـاء هناك أكثـر من أربع وعـشـرين سـاعـة إلا أنه في واقع الأمـر، أمـضـى هناك أسبوعين. قال معلقًا على امتداد إقامته هناك في خطابه إلى أخيه: «الخطأ خطأ جومار

Jomard فقد أعطى فكرة عابرة عن مدافن هذه المنطقة. كانت رسوماته لها غير دقيقة والعبارات المصاحبة لها مبهمة وغير واضحة. استنادًا لهذا كله، ظننت أنّ في مقدوري الانتهاء من كهوفها في يوم واحد. غير أنها التهمت خمسة عشر يومًا بدون أن ألقي عليها أدنى لائمة».(١٧)

درس شامبليون باستمتاع شديد الصور الشهيرة التي تمثل مشاهد من الحياة المدنية والريفية. وهو أول من أبرز أهمية «بني حسن» بالنسبة لتاريخ الهندسة المعمارية. في هذه المنطقة نبتت في ذهنه أمام الأروقة التي أطلق عليها اسم Protodoriques نظريته عن الأصل المصري للعمود اليوناني البدائي. وهي النظرية التي وجد تأكيدًا لها لدى رؤيته لمعبد الدير البحري تحت أرض طيبة(١٨) [لنسجل هنا أننا ندين له بعبارات كثيرة أصبحت اليوم كلاسيكية وأدرجها علماء المصريات في كتاباتهم منها: Speos و«protodorique» و«dromas» و«mammisi» و«propylone»].

وهذه تفصيلات تمس شغاف القلب، وترينا خلف واجهة العالم وجه الرجل المحب لوطنه. لم تجعله الحروف الهيروغليفية العديدة في «بني حسن» يحتقر العبارات المتواضعة لفارس فرنسي من حملة بونابرت، عبارات ركيكة تكاد تكون ممحوة ترجع إلى السنة السابعة للجمهورية، سيجدها علماء النصوص القديمة في المستقبل وقد أعاد شامبليون في تأنٍ كتابتها ووقّع بجانبها عام ١٨٢٨(١٩).

هذا العقل الكبير كائن يفيض حيوية وإنسانية. في رسائله رنة صدق مؤثرة وقناعة مشبوبة وحماس قابل للانتقال لكل المحيطين به.

لا تصنع ولا تكلف. التصريحات واضحة وأحيانًا قاسية، والنبرة بسيطة دومًا وطبيعية. الجملة فيها كالمرآة تعكس ما يدور في النفس. انظروا إليه وقد وصل ليلاً إلى «دندرة» يهرول إلى المعبد الذي سبق وحدثه عنه طويلاً ڤيڤان دونان .Vivant Denon قال واصفًا هذه الليلة: «تناولنا عشاءنا وانطلقنا في عجالة وحدنا وبدون مرشدين، ولكن مسلحين إلى أقصى درجة. اخترقنا الحقول، وسرنا نغني مقاطع من أحدث عروض

الأوبرا طيلة ساعة ونصف بدون أن نجد شيئًا»[٢٠] وأخيرًا بدت المعابد في ظلمة الليل. بقي فيها منتشيًا وفانوسه في يده. سحقته الكتلة المعمارية بثقلها، وهزته بتناسقها وتناغم أجزائها. في اليوم التالي كشفت شدة ضوء الشمس عن فقر أفاريزها وضعف خطوطها. كتب في وصفها:

«كانت تحت ناظري تحفة معمارية تغطيها منحوتات دقيقة رديئة التنفيذ». العبارة بليغة في إيجازها. تقول كل ما ينبغي أن يقال وما لم ينتبه إليه بعد.. تقوله دون مجاملة. قال في خطاب له: «مهما كان رأي لجنة مصر فإن أفاريز دندرة كريهة ولا يمكن أن تكون غير ذلك. ويبدو أنها أنجزت في فترة انحدار».[٢١] وهنا نجد التفسير قد لحق بالتعريف وأوضحه. حل شامبليون شفرة القراطيس واستطاع في لحظة تحديد الفترة الزمنية التي بني فيها المعبد.

كلما توغل في الجنوب زاد رضاه عن فرصة الحصول على النتائج. لو تأخر به الحال بضعة أعوام أخرى لانتهى كل شيء. فقد لاحظ ما جنته أيدي البشر وسببه النهر من خسائر في «الأشمونين» و«كاو» الكبير وإسنا والكاب والفانتين.

«هل أخطأت في تعجل المجيء إلى مصر»[٢٢] تساؤل كثيرًا ما طرحه على نفسه وهو يروي ما آلت إليه بعض المواقع الأثرية. في الأول من يناير ١٨٢٩ ولدى وصوله إلى وادي حلفا، نظر خلفه إلى الطريق الذي قطعه والمهام التي أنجزها

وعلى اكتشافه الذي تتضح معالمه يومًا بعد يوم. اتجه فكره إلى العالم الذي ساند جهوده والذي كان قد أرسل إليه منذ سبع سنوات ولّت، خطابه عن الهيروغليفية من أعماق النوبة. كتب إلى السيد داسييه M.Dacier مرة ثانية قائلاً: «أنا فخور الآن بأن أسوق إليك خبرًا وهو أنني الآن وبعد أن قطعت النيل من مصبه إلى الشلال الثاني لا أجد ما أعدله في خطابنا عن الحروف الهيروغليفية: أبجديتنا صحيحة وتطبق بنجاح أولاً على الآثار المصرية في الحقبة الرومانية وحقبة البطالمة، وثانيًا وهو الأهم على نقوش كل المعابد والقصور والقبور في كل العصور الفرعونية. كنت إذًا محقًا في تشجيعك لأعمالي في مجال الهيروغليفية في وقت لم يكن فيه لدى أحد استعداد للتحمس لها».[٢٣]

«خطابنا... أبجديتنا» كم يبدو واضحًا هنا تواضعه وبساطته الرقيقة إلى جانب اعتزازه الخفي بما أنجزه «أنا فخور.. كنت محقاً في تشجيعك» إلخ..

ومع انحسار ماء النيل وقدوم فترة التحاريق، بدأت مرحلة الكشوف الأثرية رغم النوبات التي كانت تصيب رأسه وآلام مرض النقرس القاسية التي كانت تجبره على التنقل محمولاً، ورغم الحرمان والجوع والحمى. بدأت الكشوف بالمعبد الموجود تحت الأرض «أبسمبول» وكان قد دخله في رحلة الذهاب بصعوبة بالغة وقال حينذاك في وصفه:

«خلعت ملابسي وأبقيت منها فقط قميصًا عربياً وسروالاً. وولجت زاحفًا على بطني من فتحة باب قد يبلغ خمسة وعشرين قدمًا، إذا ما أزيلت عنه الرمال. ظننت نفسي أمام فوهة فرن ولدى دخولي بالكامل إلى المعبد، ألفيت الجو ساخنًا إلى ما يقرب من إحدى وخمسين درجة».(٢٤)

ورغم هذه المعاناة فقد عاود دخوله مع زملائه في رحلة العودة. وبقوا جميعهم فيه خمسة عشر يومًا للتمكن من رسم كل الأفاريز التي تزين القاعة الكبرى بمقياس كبير وبالألوان».(٢٥) لنتخيلهم وهم يتسلقون واحدًا بعد الآخر أكوام الرمال التي أهالتها رياح الصحراء الليبية على هذا الباب الغامض فكسته بطبقة ذهبية متحركة.

لنتخيل ولوجهم على مستوى أكتاف التماثيل الأربعة المحفورة في الصخور الوردية والبنفسجية وهبوطهم إلى الكهف المظلم الخانق الذي قد تسد الرمال دائمة الحركة فتحته بين لحظة وأخرى. قال واصفًا جهد معاونيه في إحدى رسائله: «حين ندرك أنه كان يجب الدخول إلى هذا المكان بدون ملابس تقريبًا وأن الجسم في هذه السخونة الخانقة يتساقط منه العرق على العينين والأوراق المبللة أصلاً من الرطوبة العالية والحرارة اللتين جعلتا المكان أشبه بجهاز التعقيم، سوف نبهر ونقدر شجاعة هؤلاء الشباب وجلدهم في هذا الجو الخانق لأربع أو خمس ساعات يوميًا. فقد كانوا لا يغادرون المكان إلا إذا استنفدت قواهم ولم تقو أقدامهم على حملهم».(٢٦)

الواقع أن شامبليون قد قسم معاونيه إلى فرق تتوالى بالتبادل. وقد أدوا مهمتهم على أكمل وجه رغم نفاد المؤن والجوع والعطش. وقد اضطر شارل لونورمان Charles Lenormant إلــى تركه في وادي حلفا للعودة إلى فرنسا مباشرة أما نستور لوت Nestor L'Hóte أكثرهم عصبية واستفزازًا وحماسة، وشيروبيني Chrubini ابن الملحن الشهير أكثرهم هدوءًا ورقة والرسامان الشابان دوشان Duchesne وبرتان Bertin ابن لوهو Lehoux، أي من بقوا معه فقد كانوا مصرّين على إرضاء من أطلقوا عليه لقب «الجنرال». وكانت البعثة تدخر لهم ما يرضيهم فنياً. لم يكن هناك إلا قراطيس عليهم نسخها بحروفها الهيروغليفية. كانت تماثيل معبد أبي سمبل جميلة بل إن بعضها كان بورتريهات حقيقية. وجوه رمسيس التي يرتكز عليها سقف المعبد تحت الأرض Speos كانت جميلة ومتفردة بدرجة لافتة في ذهن تورين Turin أما التماثيل العملاقة الواقعة في مدخل الـ Speos الصغير والتي تمثل الفرعون وزوجته وأبناءه فقد كانت من أجمل المنحوتات. وقد ثار شامبليون على «كو» Cau الذي استبدل قامتهم الفارعة والرشيقة المتناسقة بأجسام ثقيلة مكتنزة.(٢٧) كانت الرسومات تتراكم مما جعل شامبليون يكتب إلى السيد داسييه M. Dacier قائلاً:

«حافظة أوراقي امتلأت عن آخرها. أشعر مقدمًا بسعادة أن تمثل مصر القديمة بدياناتها وتاريخها وفنونها وحرفها وتقاليدها أمام ناظريك. جزء كبير من رسوماتي ملون ولا أخشى أن أقولها عالية أنها لا تشبه في أي شيء رسومات صديقنا جومار Jomard لأنها تطابق الأصل في الأسلوب بأمانة شديدة»(٢٨).

لن نتمكن من البقاء طويلاً مع شامبليون في كل معابد النوبة والصعيد. في كل مكان يتوقف فيه ينشر النور ويصوب آراء سابقيه ويحدد المعطيات الزمنية ويصحح الأحكام ويُقوّم الذوق.. في عبارة واحدة، يضع الأمور في نصابها. من هنا كان نقده اللاذع للمنحوتات التي سبق للآخرين الإشادة بها في المعابد اليونانية الرومانية في إدفو وإسنا وأرمنت. وقد استطاع في الأقصر، رغم وجود المعبد تحت الرمال وتكدس محرابه أن يرسم رسمًا كاملاً للمعبد محددًا الجزء الذي يعود بناؤه إلى أمنمحتب الثالث والجزء الذي

يرجع تشييده إلى رمسيس الثاني. كما استطاع العثور على الجدران والأعمدة، على المشاهد الكبرى للحرب ضد الحيثيين وهي ذاتها التي كان قد رسمها في «أبسمبول» والتي وجد قصتها لدى عودته إلى أوراق البردي الخاصة بساليه Sallier في منطقة أكس أن بروفانس Aix - en - Provence حينئذٍ تبنى فكرة نقل إحدى المسلتين إلى[٢٩] فرنسا وكافة الأساليب التي استخدمت لاحقًا. وقد طلب إرسال مهندسين وبنائين إلى مصر بدلاً من العلماء.[٢] قال شارحًا وجهة نظره: «يمكننا تحميل واحدة من مسلات الأقصر على طوف يتناسب مع حجمها. سوف تحملها مياه الفيضان الغزيرة إلى البحر حيث تقلها سفينة إلى أوروبا. هذا هو الشيء المتاح. إذا رغبنا في ذلك فسنتمكن من تنفيذه. وسيكون شيئًا طيبًا أن نضع تحت أنظار أمتنا أثرًا على هذه الشاكلة حتى ننفرهم من الأشياء التافهة عديمة القيمة التي نطلق عليها بزهو تعبير آثار تذكارية عامة وهي زخارف صالون صغير تتناسب تمامًا وحجم رجالنا العظام وتصورات جديرة بمهندسينا المقلدين المحنكين لكل الأشياء الهزيلة في هذه المرحلة المتأخرة من الإمبراطورية.[٣٠]

أثناء إقامته بالضفة اليسرى للنيل، كان سكن شامبليون تارة في قرية «قرنة» في مبنى أسماه قصره وهو في واقع الأمر بيت متهدم[٣١].

من الطين أثار انتقاد وسخرية المعاصرة La Contemporaine لاكونتمبوران فكتبت تقول: «أي ولع أهوج تتطلبه الأبحاث الهيروغليفية حتى يرتضي الإنسان أن يضع نفسه في جحر سكنه فلاحون بؤساء».[٣٢] وسكن تارة أخرى في قبر رمسيس الرابع الفارغ في مدخل مدينة الموتى بوادي الملوك. وكان في كل الأحوال راضيًا عن قدره. ما إن يجد مأوى «لقافلته من العلماء والحمير» حتى ينصرف إلى التفكير في عمله فقط. لا شك أنه كان عليه حينذاك التحسب لفقدان نستور لوت Nestor L'Hóte لأعصابه ولمزاجه المتقلب[٣٣] ولمؤامرات دروڤيتي Drovetti الذي يلاحقه بعدائه بلا هوادة مؤلبًا عليه معاونيه[٣٤] ومانعًا عنه ما يصله من رسائل بالإسكندرية وحاثًا لجومار Jomard وفوربان Forbin في باريس لكي يحولا دون تزويد الملك له بالعشرة آلاف فرنك اللازمة لأعمال التنقيب التي يقوم بها.[٣٥]

من المؤكد أن بقاءه في وادي الملوك طيلة الفترة من ٢٣ مارس وحتى الثامن من يونيو قد استنزف قواه. فقد وجده رفاقه أكثر من مرة غائبًا عن الوعي في قاعات المعبد تحت الأرض حيث كان يصر على البقاء وحده مما كان يحزن معاونه العطوف رقيق المشاعر شيروبينيChérubini كان يقول مبررًا تفضيله لهذه العزلة: «يلزمني سكون مطبق لكي أسمع صوت الأجداد».[٣٦] ولكن رغم همومه وآلام الكبد والنقرس التي كانت تعاوده والحميات وخوار القوى الذي يصاب به، كان شامبليون يعطي مثالاً للشجاعة والحماس والهمة التي لا تفتر والبشاشة الدائمة. حين كان يعود إلى «مسكن الأمراء» الذي كان يقيم فيه، كان يسري عن نفسه بالنظر إلى مجموعات الفراشات والحشرات التي يقتنيها عالم الطبيعة الإيطالي رادي Raddi. كان هذا العالم يتحمل أذى البعثة كلها. كان ساذجًا وغريبًا بعض الشيء في إصراره على التحرك دومًا بعدسة مكبرة في يده ونظارتين. كان وجهه قد دبغته الشمس المحرقة ولحيته شعثاء كحديقة مهملة في الخريف جعل لوت L'Hóte منه مثارًا دائمًا للسخرية اللاذعة[٣٧]. لجهلة باللغة العربية، كان إذا أراد ابتياع حيوان أو حشرة من البدو قلد صوتها مما كان يثير ضحك زملائه الشبان، بفضله أصبح قبر رمسيس الرابع حديقة للحيوانات. كانت به غزالة تدعى «بيير Pierre» وقطة من كردفان وفهود صغيرة لم تتوان عن تجربة أنيابها الصغيرة في أقدام النائمين. ولكن لا شيء من هذا كله كان يصرف شامبليون عن عمله ليلاً. فبعد أن يربت على الغزالة، كان يعيد قراءة ملاحظاته ويتفقد رسوماته مكملاً ما أنجزه نهارًا. كان الليل في وادي الملوك غير حالك السواد، مما كان يبرز ظلال ما فيه. في خيمة القواسين الذين كانوا ينامون في مدخل المقبرة كان يخيم السكون. ولم يكن يسمع في الخارج سوى أصوات ابن آوى والضباع التي التهمت حمار الـ barbarin في نهاية ممر الناووس[٣٨]، الغارق بطوله في الظل والذي اصطفت على جانبيه عشر حشيات يرتفع منها زفير رتيب، كان هناك مصباح يتصاعد منه الدخان، على ضوئه يعد الجنرال برنامج اليوم التالي. كان الجنرال ليسري من وقت لآخر عن معاونيه، يقيم حفلات ويصطحب معاونيه لزيارة شيوخ البدو ويستقدم العوالم والمنجمين النوبيين. وتنقل لنا يومياته أغنية كان هؤلاء يرددونها[٣٩]. في الثاني من شهر أبريل والذي كان يوافق ميلاد ابنته، أقام الجنرال عشاءً فاخرًا في مقبرة سيتي الأول التي

مازالت جنباتها تحمل ذكرى «جبار بادوه» Titan de Padoue كتب يصفه لأبيه: «طبق يجب أن يزيد الطين بلة عبارة عن قطعة من لحم تمساح صغير بصلصة حارقة. شاء الحظ أن يحضروا لي تمساحًا ذبح صباح أمس. اعتمدت كثيرًا على هذا الطبق للإبهار. غير أنه ما لبث أن أضاف في نهاية الخطاب الحاشية التالية: فسد طبق التمساح أثناء الليل وأصبح لون لحمه أخضر وله رائحة كريهة.. ياسوء الحظ[٤٠]. وقد واسى نفسه بانتزاع افريز ملون لأحد الأعمدة بالمدفن يمثل الملك أمام الآلهة حتحور. وهو موجود اليوم وسط قاعة هنري الرابع بمتحف اللوفر.

لا نملك هنا تقييم نتائج بعثته من منظور علم المصريات ما إن عاد إلى فرنسا حتى أثنى شارل لونورمان Charles Lenormant على سرعة اتخاذه للقرار وعلى حدسه وأشاد بطهارته في البحث عن الحقيقة وعلى النبل في بساطة اعترافه بالخطأ بمجرد الانتباه إلى وجوده».[٤١] صحيح أنه قد أخطأ في عدة نقاط غير أنه لم يكن يملك شيئًا حيال ذلك في عصر كانت أعمال التنقيب مازالت في بداياتها والمراجع والوثائق فيه غير كاملة. من هنا فلم يتمكن تحت الإضافات التي قام تحتمس الثالث بها أن يميز مثلاً شخصية الملكة حتشبسوت على أفاريز الدير البحري كما لم ير الطابع الجنائزي والديني لمباني الضفة اليسرى. بالنسبة له ولمن سبقوه من الرحالة يعتبر دير المدينة والرمسيوم والدير البحري والقرنة قصورًا وأبنية مدنية لا معابد. غير أنه أعاد إلى ما كانت «لجنة مصر» قد أسمته قبر أوسيما ندياس Osymandias اسمه الحقيقي: «الرمسيوم». كما وصف وصفًا مفصلاً أفاريزه التاريخية التي شبهها بلوحات هوميروس. اتسم ببصيرة رائعة جعلته يميز كل المدافن التي تضم رفات ملوك الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين. ومثلما فعل سابقًا بالكرنك[٤٢] استطاع حل تشابك الهياكل المدفونة في رمال مدينة «هابو» التي تعد لوحة مصغرة لمصر العظيمة[٤٣]. وقد أتاح له الفحص المتأني لهذه الهندسة المعمارية فرصة التمييز وهو ما يحدث لأول مرة بين شخصيتي رمسيس الثالث والثاني. وهما شخصيتان مختلفتان خلط بينهما المؤرخون اليونانيون تحت اسم ملك واحد يدعى «سيزوستريس». من هنا وأيًا ما كانت الصفة التي يظهر فيها، فهو يحمل مفتاح ألغاز الماضي يزيل به الغموض والظلال.

استطاع شامبليون أن يظهر من ظلمات آلاف السنين وجوهًا جديدة، فراعنة منتصبين وقوفًا على عربات حربية، ووراءهم أسرى يهود وسوريين ونوبيين مقيدين بالأغلال، وكهنة تغطي أجسامهم جلود الفهود يحملون المراكب المقدسة. كما أظهر إلى الوجود المواكب واحتفالات مصر القديمة في حالتي السلم والحرب. دبت الحياة في النصوص والجدران في المعابد وعلى حوائط الأنفاق الطويلة المحفورة في قلب الجبل فأمكن تبين قصيدة تذكارية للحرب ضد الحيثيين ومعركة قادش وأغنية لدرس الحبوب ونقوش طقسية وكتاب للموتى.

كانت العودة إلى القاهرة سريعة. لم تتمكن البعثة من الرسو في أبيدوس[٤٤] لنفاد صبر المعاونين الشبان وصعوبات الملاحة والرسوّ أثناء فيضان النيل وتوعك شامبليون. غادر القاربان الكرنك في الرابع من سبتمبر ١٨٢٩ ووصلا إلى القاهرة في الخامس عشر من ذات الشهر. استطاع شامبليون أن يشتري في القاهرة من محمود بك الكحيا وزير الحرب تابوتًا من البازلت الأخضر لزهر Zeher يزين حاليًا رواق اللوفر[٤٥]. وقد استغل فرصة وجوده بالقاهرة لرؤية أصدقائه لينان Linant والدكتور كلوت بك وكان هذا الأخير زميلاً له في المدرسة بجرينوبل Grenoble وكان في حالة يرثى لها. فقد تراءى للباشا هدم مدرسة الطب المثالية التي كان كلوت بك قد أسسها في أبي زعبل بعد عامين فقط من إنشائها. واتت محمد علي فكرة تحويلها إلى مصنع للحرير مثالي هو الآخر. نزولاً على طلب الجراح تدخل شامبليون لدى إبراهيم وتم بذلك إنقاذ مدرسة الطب. وقد قابل محمد علي شامبليون بالإسكندرية بلطف وقدم له هذا الأخير نشرة موجزه عن تاريخ مصر مرفقًا بها مذكرة بشأن الحفاظ على آثار البلاد أورد بها قائمة الآثار الباقية في عامي ١٨٢٩ - ١٨٣٠ إذا ما قارنا هذه القائمة بتلك التي حصرها الأب سيكار Sicard عام ١٧٢٠ وما ورد في كتاب وصف مصر يمكننا ملاحظة شيئين: أولهما أن شامبليون قد ضم إلى علم المصريات الوليد إقليمًا جديدًا هو النوبة وكان أول من درس باقتدار المعابد المشيدة على ضفتي النيل بين الشلالين الأول والثاني. ومن هنا فقد مد الرحالة الذين جاؤوا بعده مثل جان جاك أمبير J. J. Ampère وفلوبير Flaubert ومكسيم دي كوم Maxime du Camp مسار رحلاتهم حتى «أبوسمبل» ووادي حلفا. والملاحظة الثانية هي أن هذا الامتداد

للمجال الأثري إلى الجنوب ليس إلا تعويضًا متواضعًا لعمليات الهدم التي تمت بمصر إبان السنوات المنصرمة. يداهمنا أسى شديد لدى قراءة المذكرة المقدمة من شامبليون إلى محمد علي بسبب السرعة الشديدة التي اختفت بها مجمعات معمارية مثل أنتينوبولس (الشيخ عبادة) هرموبولس (أشمونين) أنتيابولس (كو الكبير) كونترالا بولس (بالقرب من إسنا) في بداية عهد محمد علي. وبلاغ شامبليون عن التدمير لا يشمل الفلاح والمهندس والمضارب ومهرب المومياوات والتماثيل فحسب وإنما يشمل المنقبين من غير ذوي الكفاءة والجشعين أيضًا. وهو يطالب بتنظيم أعمال التنقيب، الأمر الذي أصبح عام ١٨٥٨ مع مارييت Mariette هيئة خدمة الآثار.

اضطر الطراد الذي كان سيقله من الإسكندرية إلى الذهاب إلى سورية مما جعله يبقى في مصر ستة أسابيع بعد موعده الأصلي. كان قد تم استدعاء دروڤيتي Drovetti إلى باريس.[٤٦] وحاول القنصل الجديد بكل الطرق أن يطيل صبره، قال شامبليون معقبًا على ذلك: «كان السيد ميمو Mimant بالنسبة لي يقوم بكل ما كان ينبغي للسيد دروڤيتي القيام به. ولكنه يزيد على ذلك بكونه صديقًا بل وقريبًا».[٤٧] بعد رحيل شامبليون، بقي لوت Nestor L'Hete ولوهو Lehoux وبرتان Bertin لعمل بورتريهات لمحمد علي بالإضافة إلى بانوراما للقاهرة.

في الأول من يناير ١٨٣٠ كتب شامبليون من مرسى تولون Toulon إلى السيد داسييه D. Dacier «سمح لي أمون رع العظيم بوداع أرضه المقدسة. وقد يسرت لي الآلهة حتحور السفر من الإسكندرية إلى سواحل بروڤانس Provence كانت مصر الحديثة تغيب شيئًا فشيئًا عن ناظريه. وكانت ذكراها في نفسه يداخلها شيء من الشفقة. كانت مشاعره النبيلة قد استفزها بؤس الفلاح وقهر النظام الحاكم.

لعلمه أن القدماء كانوا يشبهون هذه المنطقة بالبقرة قام محمد علي بحلبها واستنفاد قواها من الصباح إلى المساء». هذا ما جلبته من خير نصائح دروڤيتي Drovetti القيمة وجومار Jomard الكبير وغيرهم من رعاة الشعوب éjusdem farinoe.

«مصر تثير الشفقة والتقزز أقولها صراحة رغم السيف الجميل المصنوع من الذهب الذي أهداه إليّ محمد علي امتنانًا وتعبيرًا عن رضائه».(٤٨) وعلى الرغم من ذلك فلدى عودته إلى باريس، لم يفارق مصر القديمة، فقد انتخب أخيرًا عضوًا في أكاديمية النقوش في مارس ١٨٣٠ . ورغم مكائد أعدائه كلف بالعمل أستاذًا للتاريخ والآثار المصرية في «الكوليج دي فرانس» وبدأ يعد لنشر مؤلفه الكبير: «آثار مصر والنوبة». ولكن فكره كان قد استنفد جسمه. لم تقو صحته على تحمل هذا الكم من السهر والهموم والمجادلة والإرهاق والتهور. نهش حماسه كيانه وأبلاه. لم تتحمل رئتاه شتاء باريس القارس بعد صيف طيبة القائظ فلم يهنأ طويلاً بنصره. أصابه مرض غامض لم يمهله طويلاً أعقبته سكتة دماغية أودت بحياته في الرابع من مارس ١٨٣٢ عن عما يناهز الثانية والأربعين. غير أن فريقًا من طلابه ومريديه أتموا نشر كتابه «آثار مصر والنوبة». عاد رسامه نستور لوت L'Hôte ١٨٠٤ – ١٨٤٢) مرتين إلى مصر لاستكمال معلوماته وعندما مات فجأه بدوره، خلفه ابن شقيقته مارييت Mariette مكملاً المسار. أما كتاب شامبليون في النحو فقد ظهر بعد وفاته بثلاث سنوات أي عام ١٨٣٥ . وقد وقع بالمصادفة بالمكتبة القومية بين يدي إيمانويل دوروجيه Emmanuel de Rougé فأيقظ موهبة أخرى. ظهر إذًا إلى الوجود عالم الآثار وفقيه اللغة اللذان سيكملان مسيرته وعمله.

****

BIBLIOGRAPHIE BIBLIOGRAPHIE

- F. C. Gau, Les Antiquités de la Nubie (avec texte de Niebuhr et Letronne), Paris, 1821-1823.

- Belzoni, Voyages en Egypte et Nubie, suivis d'un voyage sur la côte de la mer Rouge et à l'Oasis de Jupiter Ammon, trad. de l'anglais par G. B. Depping, Paris, 1821, 2 vol. in-8°.

- Entretiens d'une mére avec ses enfanls sur les voyages de Belzoni en Egypte et Nubie, ouvrage traduit de l'anglais par Victor Houzé, Avesnes, 1838. (Cet, ouvrage semble être un démarquage de L'Egypte et la Nubie et curiosités de ce pays, tirées des Voyages de Belzoni, trad. de l'anglais par M... orné de 28 jolies gravures, Paris, chez Alexis Eymery, 1823.)

- Dr F. Bonola Bey, Sommaire historique des travaux géographiques exécutés en Egypte sous la dynastie de Mohamed-Aly, Soc. Khédiv. de Géographie., Le Caire; 1889. Frédéric Cailliaud, Voyage à l'Oasis de Thébes et dans les déserts situés à l'orient et à l'occident de la Thébaïde, fait pendant les années 1815, 1816, 1817 et 1818, rédigé et publié par M. Jomard. Contenant: 1. Le voyage à l'oasis du Dakel par le chevalier Drovetti, consul général de France en Egypte; 2. le journal du premier voyage de M. Cailliaud en Nubie, des recherches sur les oasis, sur les mines d'émeraudes et sur l'ancienne route du commerce entre le Nil et la mer Rouge; avec un recueil d'inscriptions, Paris, 1822-1824, 2 vol. in-fol. dont un de 50 planches.

- Voyage à Méroé, au fleuve blanc, au delà de Fàzoql, dans le midi du royaume de Sennâr, à Syouah et dans cinq autres oasis, fait dans les années 1819, 1820, 1821 et 1822. (Ouvrage publié par l'auteur, rédigé par le même et par M. Jomard). Atlas de 150 planches in-fol. Paris, 1823. - Texte, Paris, 1823-1827, 4 vols. in-8°, ornés de 12 planches avec magnifiques cartes.

- Lettres à M.. Jomard, Bull. Soc. Géographie, Paris, I, 1822, p. 111-141.

- Recherches sur les arts et métiers, les usages de la vie civile et domestique des anciens peuples d'Egypte, de la Nubie et de l'Ethiopie, suivies de détails sur les mœurs et coutumes des peuples modernes des mêmes contrées, Paris, 1837, in-4°.

- J. J. Rifaud, Voyages en Nubie et les lieux circonvoisins, depuis 1805 jusqu'en 1827, Paris, 1830, 5 vols. in-8° avec atlas in-fol.

- Tableau de l'Egypte, de la Nubie et des lieux circonvoisins ou itinéraire á l'usage des voyageurs, avec 1 carte, Paris, 1830, in-8°.

- Rapports faits par les diverses Académies et sociétés savantes de France, sur les ouvrages et collections rapportés de l'Egypte et de la Nubie, par M. Rifaud, Paris, 1829.

- Mœurs de l'Egypte et observations sur les Tantals. Revue des Deux Mondes, 1830.

- Mœurs égyptiennes, Album des Salons. 3e vol., 1830.

- Aimé Champollios-Ficeac, Les deux Champollion, leur rie et leurs ɔuvres, Crenoble, Drevet, 1887.

- H. Hartleben, Champollion, sein Leben und sein Werk, 2 vol. Berlin, Weidmannsche Buchhandlung, 1906.

- Lettres et journaux de Champollion le jeune, publiés dans la Bibliothéque égyptologiques de Maspéro, t. XXX et XXXI, Paris, Leroux, 1909.

- Alexandre Moret, Le 4{ Centenaire du Collége de France, Champollion, Revue des Deux Mondes, 15 août 1931.

- J. F. Champollion, L'Egypte sous les pharaons, ou Recherches sur la géographie, la religion, la langue, les écritures et l'histoire de l'Egypte avant l'invasion de Cambyse, 1re éd. incompléte 1811, 2° édition, 2 vol. in-8°, Paris, de Bure, 1814.

- Lettre à M. Dacier, relatire à l'alphabet des hiéroglyphes phonétiques, Paris, Didot, 1822.

- Précis du systéme hiéroglyphique augmenté de la lettre à M. Dacier, Paris, Teüttel et Würtz, 1824, 2{ éd. 1828.

- Lettre à M. le duc de Blacas relatives au Musée Royal de Turin, Paris, 1824-1826.

- J.F. Champollion, Lettres écrites d'Egypte et de Nubie en 1828 et 1829, d'abord dans le Moniteur (1829), puis en 1 vol. Paris, Didot, in-8°, 1833. - Nouv. éd. Paris, 1868.

- Les Monuments de l'Egypte et de la Nubie, d'aprés les dessins inédits exécutés par l'auteur sur les lieux, 4 vol. Paris, Didot, 1835-1845 (publiés par de Sacy, Letronne, Biot et Champollion-Figeac).

- Notices descriptives conformes aux manuscrits autographes rédigés sur les lieux par l'auteur. Paris, Didot. 2 vol. 1844-1855 et 1855-1872 (publiés par Champollion-Figeac, de Rougé, Maspéro, etc.).

Nestor L'Hôte. Notice historique sur les obélisques égyptiens. Paris, 1836.

- Lettres écrites d'Egypte en 1838 et 1839 contenant des observations sur divers monuments égyptiens nouvellement explorés et dessinés, avec des remarques de Letronne, Paris, 1840.

- Lettres sur l'Egypte en 1841 (Revue des Deux Mondes, 1er juillet 1841).

- Manuscrits à la Bibliothéque Nationale. (Ms français. nouv. acquis.).

- De Verninac de Saint-Maur, Voyage du Louxor en Egypte, entrepris par ordre du Roi pour transporter de Thébes à Paris l'un des obélisques de Sésostris. Paris, Arthus Bertrand. 1835.

- Charles Lenormant, Beaux-Arts et Voyages. Paris. 1861.

- C. W. Ceram, Des dieux, des tombeaux, des savants, Paris, Plon. 1949.

****

الهوامش

١- ر. روشات R. Rochette (١٧٨٩ - ١٨٥٤) عالم آثار ومؤلف كتاب «تاريخ المستعمرات اليونانية» Histoire des colonies grecques عضو أكاديمية النقوش وأكاديمية الفنون الجميلة. نشر المذكرات التي كتبتها باللغة الفرنسية البارونة دي مينو تولي زوجة زميله عالم الآثار الألماني الذي كان قد قاد بعثه علمية إلى صعيد مصر وواحة سيوة. وحملت عنوان «ذكرياتي عن مصر» Mes Souvenirs d'Egypte باريس، مجلدان ١٨٢٦.

٢- «خطابات ويوميات شامبليون» Lettres et Journaux de Champollion «Hartleben» ١٩٠٩ ص ٤٠٦.

٣- راجع الخطاب الموجه إلى السيد لوترون Letronne حول التعبير الصوتي لاسمي Pétémenon و Cléopâtre في هيروغليفية المومياء التي جلبها السيد كاييوه - باريس Ed. Bobée ١٨٢٤.

٤- خطاب من سولت Salt إلى شامبليون فيجاك بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٨١٨ [اثنان يدعوان شامبليون] «Les deux Champollion» Grenoble ١٨٨٧ ص ١٦٤.

٥- عام قبل أن يستطيع بلزوني Belzoni دخوله.

٦- هذه القائمة قام و. بنكس W. Bankes بنقلها عام ١٨١٨ ولم يستطع يونج young عالم الآثار المصرية صديقه، أن يفسر مدلولها، وهي عبارة عن جدول بأسماء الملوك تم اكتشافه في معبد رمسيس الثاني في «أبيدوس»، وهي اليوم موجودة بالمتحف البريطاني ومختلفة عن تلك الموجودة في معبد سيتي الأول.

٧- «رحلة إلى ميرويه...إلخ» المجلد الثالث ص ٣٠٦ اشتراها قنصل فرنسا ميمو Mimaut وقد بيعت للإنجليز عام ١٨٣٧. عن بيع قائمة أبيدوس للمتحف البريطاني، راجع لاحقًا رأي بريس دافان Prisse d'Avennes.

٨- «خطابات ويوميات» Lettres et Journaux طبعة ١٩٠٩، Ed. Hartleben الجزء الثاني ص ٤٦٦.

٩- رحلة إلى مصر والنوبة، طبعة ١٨٨١ ص ٣٧٨.

١٠- لمعرفة المزيد عن دون رافائيل دوموناكيس Dom Raphaël de Monachis

راجع كتاب ش. باجاتلي Ch. Baghatly «عضو شرفي في معهد مصر، دون رافائيل» Un membre oriental de l'Institut d'Egypte, Dom Raphaël نشرة معهد مصر ١٩٣٤ - ١٩٣٥ الجزء السابع عشر ص ص ٢٣٧ - ٢٦٠.

ج. س. كولان Colin G.S «مائة وخمسون عامًا على إنشاء مدرسة اللغات الشرقية Cent Cinquantenaire de L'Ecole des Langues Orientales» باريس المطبعة القومية ١٩٤٨.

١١- عُين ش. لونورمان Ch. Lenormant لدى عودته أمينًا لمكتبة الترسانة (١٨٣٠) وأصبح بعد ذلك أستاذًا للآثار المصرية في «الكوليج دي فرانس» ١٨٤٨ وعضوًا في المعهد ومديرًا للكورسبوندان Correspondant نشرت يوميات رحلته بعد وفاته في مجلد بعنوان: الفنون الجميلة والرحلات ١٨٦١ ص ص ٦٠ إلى ٢٠٩.

يدعى ابنه فرنسوا لو نورمان (١٨٣٧ - ١٨٨٣) وكان عالم آثار مشهورًا وعضوًا في البعثة الفرنسية التي أرسلت لافتتاح قناة السويس (راجع الجزء الثاني)

١٢- هـ. هرتلبن H. Hartleben Champollion, sein leben und sein werk» ١٩٠٦ المجلد الثاني ص ١٧١ وما يليها.

١٣- «رسائل ويوميات شامبليون» جمعها هـ. هرتلبن ١٩٠٩ المجلد الثاني ص ص ٤٤ - ٤٥.

[رسالة سرية إلى شامبليون فيجاك ١٠ سبتمبر ١٨٢٨] راجع هـ. هرتلبن المرجع السابق ص ص ١٩٠ - ١٩١.

١٤- «رسائل مصر والنوبة» طبعة ١٨٣٣ ص ص ٤٢ - ٤٣ - ٤٨.

١٥- «الرسائل المكتوبة من مصر والنوبة» والتي نشرها شامبليون فيجاك يمكن أن تقارن مع نسخ الخطابات الأصلية وتستكمل بإفاضة من يوميات الرحلة في النسخة التي قام بنشرها هرتلبن عام ١٩٠٩ Lettres et journaux de Champollion

١٦- راجع يوميات الرحلة السابق الإشارة إليها ص ص ٥٧، ٧٧ «رسائل من مصر والنوبة» Lettres écrites d'Egypte et de Nubie ص ص ٧٥ - ٧٧

١٧- «رسائل ويوميات» Lettres et Journaux، Hartleben ص ١٢٠ تدهور حال رسومات ونقوش «بني حسن» منذ قرن

١٨- «رسائل» ص ٣٠٢.

١٩- ذات المرجع ص ٢٥٩ [حاشية] «رسائل ويوميات» ص ٣٠٧

راجع أيضًا G. Legrain ج. لوجران مخطوط أصلي لشامبليون في «بني حسن»، حوليات قسم الآثار المصرية، ١٨٩٩ الجزء الأول ص ١٥.

٢٠- «رسائل» Lettres ص ص ٨٩ - ٩٠ و«رسائل ويوميات» Lettres et Journaux ص ٢٥١.

٢١- «رسائل ويوميات» ص ١٥٣. في الرسائل المنشورة، تم تعديل العبارة إلى: «مهما كان رأي أي شخص».

٢٢- «الرسائل» ص ١٠٩ قائمة المعابد التي اندثرت حديثًا موجودة في ملاحظاته التي سلمها إلى نائب الملك عن الحفاظ على آثار مصر. ذات المرجع ص ٤٥٦.

كتب ش. لونورمان Ch. Lenormant من جانبه في يومياته: «حرق محمد علي أروقة ومعابد وأعمال فنية على مذبح الصناعة الأشمونين والفانتين و Antino أنتينوي و Antaeopolis أنتاوبوليس كلها تعرضت لهذا التدمير في مدة لا تزيد عن خمس سنوات» [الفنون الجميلة والرحلات ص ١٣٥].

٢٣- «رسائل» Lettres ص ١٢٦ ورسائل ويوميات Lettres et Journaux ص ١٨١

٢٤- رسائل ص ١٢٠.

٢٥- ذات المصدر ص ١٣٢.

٢٦- «رسائل» ص ١٣٢ و«رسائل ويوميات» ص ١٩٣ . راجع أيضًا ش. لونورمان «الفنون الجميلة والرحلات» ص ٢٠٧ «Ch. Lenormant, Beaux Arts et Voyages»

٢٧- «رسائل ويوميات شامبليون» ص ١٧٦ ذات التصريحات طالت جميع الرسومات السابقة: «يجب أن يُجلد «لجنة مصر» و«كو» Cau والإنجليز في ميدان عام لأنهم واتتهم الجرأة لنشر هذه الرسومات المشوهة عن التكوينات الجميلة والعظيمة.

٢٨- «رسائل ويوميات» Lettres et Journaux ص ١٨٢

٢٩- ذات المرجع ص ص ٤٧١ - ٤٧٢

٣٠- ذات المرجع ص ص ٣٨٧ - ٤٧١

٣١- «رسائل ويوميات» ص ٣٨٥

٣٢- «لاكونتومبوران» La Contemporaine المجلد الثالث ص ٢٣٤.

٣٣- «رسائل ويوميات» ص ٤٠٠.

٣٤- ذات المرجع ص ٤٠٠.

٣٥- ذات المرجع ص ٨٨.

٣٦- ذات المرجع ص ٣٩٨.

٣٧- هـ. هارتلبن Champollion, sein Leben und sein Werk H. Hartleben المجلد الثاني ص ٣٣٩.

٣٨- «رسائل ويوميات» ص ٢٤٦.

٣٩- في المقطع الأخير منها عبارات للترجمان أمين خزينة البعثة تنتهي على هذا النحو: أيها الترجمان العظيم يا حامل مفتاح القائد افتح الحقيبة الكبيرة نستحلفك برأس وحياة قائدك أجزل لنا العطاء. «رسائل ويوميات» ص ١٩٦.

٤٠- «رسائل ويوميات» ص ٢٧٦.

٤١- هـ. هارتلبن H.Hartleben، المرجع السابق، المجلد الثاني، ص ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

في يومياته كتب ش. لونورمون : Ch. Lenormant «شامبليون ممتاز دومًا سخي في كنوزه العلمية طيب رغم عبقريته ورفيق مثالي. أشعر بالامتنان له لدرجة لا أستطيع معها منع نفسي من الاعتراف له بارتباطي به مدى الحياة». «الفنون الجميلة والرحلات» ص ١٥٧.

٤٢ - لا توجد يوميات أو رسائل مفصلة عن الكرنك فيما عدا بعض المدونات العلمية الموجودة في كتاب «آثار مصر والنوبة» غير خطاب إلى شامبليون فيجاك بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٨٢٨ «رسائل ويوميات» ص ص ١٦٠ - ١٦٢ يصف فيه الرهبة والإعجاب اللذين تملكاه أمام هؤلاء المهندسين المعماريين الذين كانوا يصممون رجالاً ارتفاع قامتهم يصل إلى مائة قدم ويصف كذلك سعادته بالعثور على بورتريهات الفراعنة العظام.

٤٣ - «رسائل من مصر والنوبة» ص ٣٢٣.

٤٤ - كان لونورمان Lenormant قد توقف لحسن الحظ عندها وعمل بها لحساب شامبليون في يناير ١٨٢٩.

٤٥ - كتب ل ج. ج. ديبوا J. J. Dubois يقول: ليس تابوتًا للملك وإنما ملك التوابيت (رسائل Lettres ص ٤٥٧).

٤٦ - بناء على طلب شامبليون، أوعز دروڤيتي Drovetti قبل رحيله إلى محمد علي أن يقدم للملك شارل العاشر مسلة عليها نقوش بثلاث لغات تماثل حجر رشيد. وكانت موجودة في أحد مساجد القاهرة.

راجع أوريون Autour d'une stéle Aurian حول مسلة ١٠ مارس ١٩٢٤

٤٧ - «رسائل ويوميات» Lettres et Journaux ص ٤٥٠.

٤٨ - «رسائل ويوميات» Lettres et Journaux ص ٤٦٥.

****

الفصل الرابع

المؤرخ جوزيف ميشو

Joseph Michaud

ربما أهمل أكثر رحالتنا المحدثين علمًا، أن يحدثونا عن مصر كما هي في أيامنا هذه. عندما نقرأ سطورهم نميل إلى الاعتقاد بأن البلد قد خلا من ساكنيه. لم تستلفت الإنسانية أنظارهم إلا بقدر ارتباطها بالأحجار. لكي يجذبهم الإنسان عليه أن يكون عمره يربو على الثلاثة آلاف سنة وأن يكون قد تحول إلى مومياء.

بالنسبة لي، ألف جيل مضى لا يحولون دون تفكيري في الجيل الحالي الذي يجب أن يجد له موضعًا في التاريخ. إذا ما أتيح لي الوقت فلن أذهب إلى طيبة أو إلى حيث تكثر الأطلال وإنما سأبقى بضعة أشهر في قرية بالدلتا[١]. من يتكلم على هذا النحو رجل أنفق جل عمره في الالتفات إلى الماضي وأصر على اكتشاف «قرون الإيمان» وإعادتها إلى الأذهان.. من يتكلم هنا هو جوزيف ميشو Joseph Michaud مؤرخ الحملات الصليبية [١٧٦٧ - ١٨٣٩].

وصل إلى مصر بعد عامين من رحيل شامبليون وكانت له وجهة نظر مخالفة تمامًا لكل من سبقوه من علماء الآثار. ما أثار اهتمامه قبل أي شيء آخر هو «مصر الحديثة» ويستوجب الأمر أن نقول هنا إنه قد أثبت مدى عمق تفكيره بتحليله لطباع وسياسة محمد علي. ولم يمنعه ذلك من إظهار ميوله وتفضيلاته كمؤرخ بين الحين والآخر ونرى ذلك جليّاً في الخمسين صفحة التي أفردها لحملة القديس لويس وهزيمة المنصورة وهو يستشهد ويعلق على مخطوط عربي عن الحملة السابعة.[٢]

ويمكننا القول إنه بصفة عامة قد بذل جهدًا مشكورًا لتحجيم تدفق ذكرياته ومنع مد الماضي من اجتياح رؤيته للحاضر كان جوزيف ميشو من مقاطعة السافواه Savoie ومن

هنا فقد جذب انتباه السيد هنري بوردو Herry Bordeaux المنتمي إلى ذات المكان[٣] كان حماسه شديدًا للملكية وقد حكم عليه بالإعدام غيابيّاً عام ١٧٩٥ ونُفي من قبل حكومة القناصل إلى منطقة الجورا Le Jura ومضى يكسر عزلته بكتابة أبيات على شاكلة ما كان يؤلفه صديقه الراهب دوليل Delille مثل: «ربيع منفى» Printemps d'un Proscrit.

كان رجل فكر، وقد ترك في صالونات الإمبراطورية وحكومة الإصلاح عددًا لا بأس به من الأقوال المأثورة. في عام ١٨١٣ تقدم لاقتراع الأكاديمية ضد الشاعر كمبونون Campenon وكان هذا الأخير يتظاهر بعدم الاعتداد بمنافسته. ويمضي بين الناس زاعمًا أنه لكي يدخل تحت القبة لا بد له من أكثر من «صديق متحمس». وهو ما كان يرد عليه المؤرخ بسؤال ماكر يطرحه على الجمهور يقول فيه:

«لمقعد دوليل Delille نحمل كمبونون Campenon هل يملك قدرًا كافيًا من الفكر ليبقى عليه؟».

كان الناس يكملون له البيت مما يدخل الرضا على نفسه. عاتبته يومًا السيدة دوستايل Mme de Stuël لإساءته معاملتها يومًا، فرد مبتسمًا بمكر وخبث: «في الجموع تختلط الأمور ببعضها البعض ويبدو أنني مثل ديوميد Dioméde قد جرحت في الظلمة آلهة...»[٤]

ولم يكن ميشو منافسًا لريفارول Rivarol وخلفًا له وإنما كان أيضًا سابقًا لأوجستان تييري Augustin Thierry وميشليه Michelet في طليعة هذه الزمرة البراقة من المؤرخين التي تمثل حكومتي «الإصلاح» و«ملكية يوليو»، كان أول من أعطى العصور الوسطى حقها ورد لها اعتبارها. كانت السيدة كوتان Mme Cottin مؤلفة رواية «ملفينا» Malvina كريمة في تعاملها معه. وكانت قد ألفت رواية ذات ملامح شرقية تحمل عنوان «الملك العادل» .Malek-Adel وقد طلبت منه أن يكتب لها مقدمة تاريخية تمنح قراءها فكرة عن عصر الحروب الصليبية. وبما أنه لم يكن أبدًا يأخذ الأمور على أعنتها

فقد انكب على الدراسة لعمل سلسلة من الأبحاث قادته من مرحلة إلى مرحلة حتى انتهى به الأمر إلى عمل مؤلفه الكبير.

«تاريخ الحملات الصليبية L'Histoire des Croisades» الذي يقع في سبعة مجلدات نشره له شقيقه لويس جبرائيل ميشوه ناشر «البيوجرافيه الكونية» والمعروف باسم ميشو الشاب. مما لا شك فيه أنه لم يكن كتابًا وثائقياً كما أن مناهجه لم تكن بالنسج الذي تتسم به اليوم. كان كاتبًا محنكًا وأسلوبه لم يكن ليدانى أسلوب أوجستان تييري Augustin Thierry ولا تميز وحيوية ميشليه .Michelet ولكن جملته كانت بسيطة وسلسة تزخر أحيانًا بتراكيب موفقة(٥). كانت قراءاته على ما يبدو ثرية وأبحاثه تتسم بالأمانة والدقة. فاق في كتاباته هنا المستوى الذي كان عليه في الماضي. وقد قال عنه هنري بوردو Henri Bordeaux «لقد فتح باب العصور الوسطى. كان المفتاح صدئًا ولكنه كان يفتح».

وقد وفق سانت بوف Sainte - Beuve في الحكم عليه(٦) في قوله: «كان ممن أسموهم في الماضي «الطيبين». ماكر جريء بعض الشيء ورغم ذلك فصحبته ممتعة. كان يبدو بطبيعته وبدون تكلف أنيقًا. ومهما غطى التبغ ملابسه أو غفل عن بقع الحبر في أصابعه فما كان ذلك لينتقص شيئًا من وجاهته وتميزه»(٧). كان محدثًا ساحرًا، مثابرًا في عمله، يجد نفسه على قدم سواء في الصالونات وفي عزلته أمام أوراقه. كان قارئًا للملك شارل العاشر ولكن ذلك لم يمنعه من ضم اسمه إلى توقيعات زملائه في الأكاديمية الفرنسية عندما نشرت هذه المجموعة العالمة عريضة لصالح حرية الصحافة.. تم خلعه ومنذ ذلك الحين أعفي من كل التزام مهني لذا قرر القيام برحلة دراسية في الشرق. ويردف سان بوف Sainte - Beuve معلقًا على هذا القرار: «ربما توقع كارثة من الكوارث وبالتالي لم يغضب من فكرة أن يستبعد». سافر إذًا في مايو ١٨٣٠، شهران قبل ثورة يوليو، تاركًا منزله في باسي Passy وكتبه وأصدقاءه وزوجته، وكانت امرأة جميلة ولطيفة تشع دفئًا في جنبات بيتها وتمتع ناظريه دون الطموح إلى أكثر من ذلك. كان الجميع مندهشين من رؤيته في سنه المتقدمة ثلاثة وستين عامًا وبنيته الضئيلة وصحته

المتوعكة وقامته الطويلة الهزيلة التي تكفي زفرة لإحنائها، يعقد العزم على القيام بمثل هذه الرحلة. خاصة وأنه متزوج كما كانوا يقولون. وكان يرد عليهم ساخرًا: الأمر ليس كذلك بالضبط.

وقد اصطحب ميشو معه سكرتيره الشاب جان جاك بوجولا Jean - Jacques Poujoulat (١٨٠٨ - ١٨٨٠) ليعينه في أموره الحياتية ويساعده في تنقلاته وكان آنذاك في العشرين من عمره[٨]. زارا معًا على التوالي اليونان والأرخبيل والقسطنطينية والقدس حيث افترقا. ذهب بوجولا لاكتشاف سورية، بينما سافر ميشو إلى مصر منجذبًا إلى ذكرى القديس لويس Saint Louis والحملة الصليبية السابعة. استمرًا في المراسلة لتبادل الانطباعات. وشكلت هذه الرسائل الشطر الأعظم[٩] في مؤلفه: «مراسلات الشرق» Correspondance d'orient الذي نشرت أجزاؤه السبعة تباعًا من عام ١٨٣٣ وحتى ١٨٣٥[١٠].

قيم سانت بوف Beuve هذه المراسلات قائلاً إنها ذات فائدة متنوعة وإن كانت تنقصها الطبيعية والألفة. فالرسائل كثيرًا ما تتحول إلى خطب. ولكم وددت أن تكون الكنايات أقل. ففي عبارة مثل: «لدى مرورنا أمام «مسين» Messine، كانت الشمس في منتصف مسارها» ألم يكن من الأجدى استخدام كلمة «ظهرًا»؟ ولكن هذا لا يمنع أن تكون الخطابات في مجملها عذبة وتضج بالحياة.

يمكن عمل أكثر من تحفظ على التكوين العام للعمل. فوضع مشاهدات ميشو Michaud في مصر بالتبادل مع مشاهدات بوجولا Poujoulat في فلسطين يكسر الوحدة الظاهرة لكل مجلد. فالحكي يتوقف وتقضم الأحداث على غير توقع مما يضطر القارئ إلى القفز من القاهرة إلى القدس أو دمشق. ولكن كيف لمن لا ألفة بينه وبين تاريخ المشرق أن يشكو؟ فهذا التبادل الذي يضلل للوهلة الأولى ينمي شيئًا فشيئًا قوة الإيحاء في العمل، ويبرز بطريقة مباشرة ورمزية في آن واحد مدى تشابك الروابط التي تجمع بين مصر وفلسطين وسورية.

على مدار الأزمان، شكل الشرق دومًا كتلة واحدة. هذا الانطباع كان في عهد محمد علي أقوى منه في أي حقبة أخرى. ألم تثر «مسألة الشرق» بكل قوتها وكافة عناصرها في هذه الآونة؟ ألم يحدث عام ١٨٣٢ أن اعتقد محمد علي أن تركيا منهكة القوى بسبب صراعها مع روسيا وأنه حان الوقت بالنسبة له لاقتناص استقلاله وطرح سيادة وتسلط الباب العالي إلى الأبد؟.

من شرفته بالإسكندرية، كان ميشو Michaud ينظر دومًا ناحية البحر وفكره الثائر يصول على طول سواحل سورية محاولاً تقييم دفاعات قلعة Saint Jean d'Acre الحصينة التي تكسرت على جدرانها جهود نابليون. وقد عكس بهذه الصورة تكوين مراسلات الشرق وأبرز تشابك مشكلات الشرق.

في بادئ الأمر نندهش بعض الشيء للذهاب والجيئة بين المتراسلين ولكن ينتهي بنا الأمر إلى ملاحظة أنه بتتبع خط الأفكار الحربية نجده ينسج مع اللحُمة المصرية تاريخًا جديدًا. كل خطاب منها مكتوب طبقًا لصيغة وسيطة بين الارتحال والعرض التعليقي. كلاهما يسمحان لنا واحدًا بعد الآخر بتتبع مراحل ميشو وهما يلخصان معًا المشكلة مستعرضين جوانبها ومحددين بؤرة الخلاف فيها. والخطابات منسقة، منهجية وليس بها قدر كبير من التصنع والتكلف، مليئة بالمعلومات بدون استعراض وتحوي الكثير من التوجيهات بدون أن تكون مملة.

حمل المؤلف معه عددًا من الكتب أفاد من قراءتها على متن القارب الذي أقله في النيل إلى صعيد مصر وحتى على متن «لاترينيتيه» السفينة التي أوصلته من يافا إلى الإسكندرية في فبراير ١٨٣١. أسماء الرحالة الذين سبقوه مألوفة له يقول عنهم: «نسألهم عن التاريخ والعادات وآثار البلد. لا ننسى مذكرات لجنة مصر المليئة بالإيجابيات. أحيانًا نعيد قراءة ساڤاري Savary رغم مبالغاته ولا نقلل من قدر ڤولنيه Volney رغم فلسفته الاستعراضية. ولكنني أعترف أنني أرجع أكثر إلى كتابات القنصل دومايه Du Maillet لطيبة قلبه ولمزجه الوصف بالحكايات التي تسري عني»(١١).

ما يأخذه هذا الملكي على ڤولنيه Volney هو إيديولوچيته وفكره الجمهوري. لماذا التلويح في كل لحظة بشبح الطغيان؟ صديق الموسوعيين لا يعجب إلا بالأهرامات التي يطلق عليها «نتاج الاستبداد» وهي كلمات يرى ميشو أنها مبالغ فيها لنقل فكره، إنها كما كتب: «لم يتم بناؤها في ظل حكومة نيابية وأن ميزانيتها لم يتم التصويت عليها بالمجالس».(١٢) ويردف قائلاً: «ولكن الحكومات النيابية لا تبني شيئًا أبدًا».

ورغم ثورة ١٨٣٠ التي عرف بخبر اندلاعها بعد عدة أسابيع من رحيله يبقى قارئ شارل العاشر وفيّاً للنظام البائد. ويعلن مع بونالد Bonald وجوزيف دومتر Joseph de Maistre في كل مناسبة دفاعه عن المذهب الملكي. وتزخر مراسلاته بعدة أمثلة لذلك.

هل يعني هذا أنه يقبل كل أساليب حكومة محمد علي؟ كلا. يعرف بالتأكيد قدر ذكاء وحيوية الوالي ولكن كيف له أن يؤيد استغلال الفلاح دون رحمة ونظام القهر الضريبي وأسلوب التخويف بالشرطة الذي يرزح تحت نيره البلد؟ كان محمد علي متعجلاً جداً. وكان نفاد صبره يضيع كل شيء. ما أن يبذر الحبوب حتى يرغب في الحصاد والحصاد الوفير. بما أنه كان يريد إن يثري من ناحية ومن ناحية أخرى أن يطور الزراعة والتجارة والصناعة. فقد جعل من نفسه المالك الوحيد للأرض والصانع الوحيد والتاجر الوحيد ولكن باحتكار إنتاج وتجارة مصر على هذا النحو قلص الرفاهية بدلاً من أن يزيدها وأوجد القلق والبلبلة والفقر وأنضب التبادلات التجارية بدلاً من أن ينميها. وكما يقول ميشو: «استولى على كل ما هو منتج» نعرف جيدًا أنه احتفظ لنفسه بحق احتكار القمح والأرز والبلح وروث الحيوانات الذي يستخدم في بلد يفتقر إلى الخشب كوقود(١٣) وقد تطلب الأمر لتفادي مخالفات القوانين وضع نظام رقابة وتجسس محكم «يبدو أن نصف الرعايا قد استخدموا في رقابة وإقلاق النصف الآخر». كانت مصر تطيع وتسير وتحفر القنوات وتجهز أحواض السفن في الموانئ وتبني الأرصفة والسفن ولكن بالغرامات والعصا. لم يستطع ميشو منع نفسه من الإعجاب بترسانة الإسكندرية التي بناها المهندس الفرنسي دو سيريزي de Cerisy.

غير أنه يضيف ساخرًا: «ألفان أو ثلاثة آلاف عامل يعملون فيها لقاء قرشين يومياً. أما المساجين فيعملون مجانًا ولذا يحكم على الكثيرين بالسجن في مصر»(١٤) ولا يخلف

مثل هذا النظام إلا العذاب والبؤس لشعبه. أي غرابة أن يزيد عدد اللصوص المرتفع بطبيعته يومًا بعد يوم (حتى أنه أصبحت لهم في القاهرة رابطة) إذا كان عدد المتسولين والشحاذين لا نهائيّاً؟ وقد أفسد ذلك الرحلة. من زيارته لجوف الهرم لم يستشعر ميشوه Michaud سوى متعة متواضعة فقد انطفأت المشاعل وأصبح الجو خانقًا أي ذكرى! يقول عنها: «كنت قد بقيت وحدي مع مرشديَّ اللذين لم يكفا عن طلب نفحة مالية ويطلبانها كما تطلب الحياة».[١٥] على كل حال ينبغي هنا القول بأنه لم يكن يتذوق جيدًا فن مصر الفرعونية. فبالنسبة له يفتقد كل من الهندسة والنحت لمسة التأنق فهما يبحثان عن كبر الحجم على حساب الجمال. بالنسبة له يبقى الفن الإغريقي والكلاسيكي الأقرب إلى المثالية.

وتجتذب الحياة المعاصرة هذا المؤرخ المتخصص في العصور الوسطى أكثر من الحضارة القديمة. كانت إحدى أوائل زياراته للقنصل السيد ميمو Mimaut خَلَف دروڤيتي Drovetti وكان قد قدم إلى مصر قبلها بعامين ويستشعر بحنين لباريس. كان مثقفًا ذا كياسة ولياقة في التعامل طيب القلب وأقل عنفًا وعصبية وميلاً للتآمر وربما أقل جرأة من دروڤيتي .Drovetti كان هذا الأخير في ما مضى عسكريّاً وهو أمر يسهل إدراكه. أما السيد ميمو Mimaut فكانت له بعض المحاولات الأدبية. وحين استقبل في ذات الفترة تقريبًا السيد إميل لوبير Emile Lubbert المدير السابق لأوبرا باريس والذي كان قد قدم إلى مصر باحثًا عن عمل بعد اتهامه بتجاوزات إدارية ومالية بباريس أسر إليه بميوله الفنية وولعه بربة الكوميديا.

وكان لميمو Mimaut محاولات أدبية منها مسرحية مكتوبة من فصل واحد بعنوان «طالبو الزواج» وأخرى عرضت على مسرح فرنسا عام ١٨٢٥ باسم مستعار هو السيد دوسان ريمي M. de Saint - Rémy وهي من ثلاثة فصول وتحمل عنوان «مؤلف رغم أنفه» L'Auteur malgré lui الواقع أنه كان قنصلاً رغم أنفه. وفي القاعة الكبرى بوكالة الإسكندرية التي كان قد أقام فيها قبله كليبر Kléber وشامبليونChampollion، وزينها هو نفسه بلوحات مشتراه من إيطاليا، كان يطيب له حين يستقبل أصدقاءه على الأرائك التركية الطراز أن يحدثهم عن ذكرياته في روما.[١٦] أما جوزيف ميشو

Joseph Michaud فكان على النقيض منه، يمثل الباريسي المسن الذي يهتم اهتمامًا كبيـرًا بهذا الشـرق المفعم بالحياة والحركة والألوان. قد لا يكون له ذات فضول ميمو Mimaut أو شامبليون Champollion بالنسبة للماضي ولكنه لا يظهر ازدراءً مطلقًا له مثل لاكونتنبوران La Contemporaine التي لم تكلف نفسها لدى وصولها إلى الأقصر بزيارة وادي الملوك ناظرة بشفقة بالغة كما يروي لنا كادلفان Cadalvéne إلى الحجارة القديمة ومعترفة بأنها لا تمثل شيئًا لا لذهنها ولا لقلبها. ما يهم ميشو هو الإسلام وأعياد الفطر والأضحى ورقص العوالم وسوق طنطا والمقاهي والبازارات وخاصة المدارس[١٧]. وهو ينتشي في جامعة الأزهر لرؤية قيمة شهادة إتمام الدراسة الأزهرية التي تمنح العلماء الحاملين لها جدارة القطف من زهور المساجد وهي «زهور يستحي منها الورد والنرجس». وهو قادر على طرح أسئلة في الشعر العربي على المثقفين. وقد استطاع التقاط موشح غنائي كان منتشرًا حديثًا في الخيال الشعبي والذي يتحدث عن «حسن القليوبي»، الجندي المصري في جيش محمد علي بالحجاز وخطيبته «فاطمة» ذات العيون الواسعة كالفنجان (أي كفنجان القهوة التركي)[١٨] وفي سطور ميشو Michaud فصل عن مكتبات القاهرة وإصدارات مطبعة بولاق.

سارع ميشو في قبول عرض محمد علي عليه بإجراء اختبار في اللغة الفرنسية لطلاب مدرسة الطب التي كان كلوت بك[١٩] قد أسسها في أبي زعبل.

هل كانت آمال ميشو عريضة بشأن كفاءة وتعدد المدارس العليا العسكرية والهندسية والبيطرية التي أنشأها محمد علي؟ على كل الأحوال، ستتبخر هذه الآمال بمجرد وصول رسالة باتستان بوجولا Baptistin - Poujoulat (١٨٠٩ – ١٨١٤) شقيق سكرتيره حول هذا الموضوع بعد عدة سنوات. تقول سطورها:

«اهتم محمد علي بنشر التعليم العام. لماذا؟ للحصول على ضباط وإداريين وأطباء وليس لتنوير الشعب المصري وإحلال مزايا التعليم محل الجهل المؤدي إلى البؤس. يمكننا القول إنه لا شيء في مصر أقل عمومية من هذا التعليم الذي يطلق عليه تعليمًا عامًا[٢٠].

وهذا واقع. فالتعليم الفني المتخصص كان عليه تزويد الباشا بالجنود والأطباء والموظفين وهو ما يعني في ذهنه، تزويده بتابعين له قد تم إعدادهم ورؤساء ومديرين من ذوي الكفاءة. شتان إذًا بين هذا التعليم وذلك الذي كان يؤيده ميشليه Michelet.

كيف كان يبدو لنا إذًا من خلال «مراسلات الشرق» هذا الرجل مهاب الجانب الذي اختلفت حوله الآراء والذي «يقود مصر كجواد بدوي بضربات مهمازه إلى مصيرها الجديد؟ كان ميشو Michaud أقل قسوة حياله من صديقه الشاب باتستان بوجولا Baptistin - Poujoulat(٢١) في التأملات التي يختتم بها نص رحلته يتعجب هذا الأخير من العثور على كتب يبدو فيها الباشا وكأنه مبعوث الحضارة أو الأمير الرائع الذي لم يفصل يومًا بين مصالحه ومصالح مصر، كالحاكم المشغول دومًا برفاهية رعاياه وتحسين معيشتهم».(٢٢) كتاب ميشو ليس من هذه النوعية، غير أنه أقل تشاؤمًا بالنسبة لمستقبل هذه الحضارة التي يتنبأ لها مراسله بالزوال بعد محمد علي «كالخيمة التي ما نصبت إلا ليوم واحد»(٢٣)

ما يلفت نظرنا في صفحاته هو وجود نقد نافذ البصيرة، لا يفضي فيه الوضوح إلى فقدان الأمل. رأي مثالب النظام، ورغم أن محمد علي قد استقبله مرتين بترحاب كبير فهو لا يتردد في إبراز عيوبه. لم يكن هناك شيء أقسى على نفسه من الانتقادات اللاذعة لإدارته. ولكنها كانت في صالحه وصالح مصر Magis amica veritas. أما عن شخصيته فقد رسمها ميشو على ذات الحالة التي وصفه بها مارسيلوس Marcellus وفوربان Forbin وشامبليون Champollion. لاحظ ميشو ضحكته المتفردة التي بها بعض التوحش(٢٤) ونظرته الثاقبة غير الثابتة والمتسائلة ويده الرقيقة. ولكن ربما لفت نظره أكثر من أسلافه تجهم وجهه. ذلك أن مشاغله كانت تتراءى من خلال عدم المبالاة الشرقية(٢٥) البادية على سماته. ومثلما طرح محمد علي على مارسيلوس استفساراته عن تحصينات قلعة Saint - Jean d'Acre سأل ميشو عن دفاعات القسطنطينية.(٢٦) وعندما ذهب ميشو لوداعه في أبريل ١٣٨١ دار الحوار بينهما حول سورية. ويقول ميشو

معلقًا على هذه الزيارة: «أدركت من سكونه ونظرته العنيدة المتجهمة أنه مهتم بوالي عكا أكثر مني. ولكنه كان يجاهد نفسه لمداراة أهدافه وكبح جماح نفسه»[٢٧] ولكن لم يرق جهده إلى حد إخفاء ازدرائه لسلطان تركيا وعدائه لسياسة الباب العالي. كما فشل في أن يواري عن زائره الكاثوليكي رغبته العارمة في أن تكون له قدرات القوى المسيحية»[٢٨]

ومما يؤسف له أن جوزيف ميشو Michaud. ل بكل موهبته هذه في الملاحظة، لم يستطع الالتقاء بالكولونيل ساڤ Séve فمثل هذا اللقاء كان سيمكنه من إعادة تقييم هذا «الجحود والنكران». لنعد إلى قول صلاح الدين المأثور: «لا يمكننا بمسيحي شرير إيجاد مسلم خير» وهو ينتقد بشدة الردة والجحود اللذين يرجعهما إلى الطموح والكراهية اللامحدودة لمحبي اليونان في لندن وباريس».[٢٩] ولا شك أنه هنا يكرر ما يتردد من أقاويل حول سليمان باشا في محيط الفرنسيين بالقاهرة. فهو لم يحقق فائدة من التغيير الجذري الذي طرأ عليه. كان الجنرال آنذاك فاقدًا مؤقتًا لحظوته ويعيش منعزلاً في مصر القديمة محاولاً نسيان همه ببناء بيت له هناك والإنفاق بأكثر مما تسمح به إمكانياته.

كان رفاق السلاح القدامى قد تركوه مما جعله يستقدم شقيقته للعيش معه. غير أن حياة الحريم لم تَرُق لها. وقد جعلها هذا تهرب إلى حي الفرنجة تشكو وتندب حظها لكل من يقابلها فيه.[٣٠] نستشعر في هذا الحكم عدم تعاطف من جانبه ربما باعثه لقاء شخصي. وهو يشكل نغمة شاذة ونادرة في وصلات المديح التي أجمع عليها كل الرحالة.

قبل أن يغادر مصر توقف ميشو بضعة أيام في دمياط وكان قد سبق له زيارة رشيد عند قدومه. كان باسل فخر Basile Fackr نائب القنصل الذي كان قد أحسن استقبال الكونت دوفوربان Forbin قد توفي من نحو عام تاركًا وراءه الكثير من الديون. وقد استقبلت أرملته وكانت إمرأة نزقة ميشو في قصره الفخم الواقع تحت الرهن ومعها زوجة ابنها وكانت سيدة محزونة[٣١]. عاد ميشو إلى الإسكندرية في مايو ١٨٣١ وقد ألهمته هذه المدينة .

وقد أمدته هذه الزيارة بالكثير من التفاصيل(٣٢). وقد زار ميناءها بصحبة المهندس دي سوريزي De Cerisy. كان أسطول محمد عليّ الحربي في رسوه مهيبًا. في الميناء، كانوا قد فرغوا لتوهم من تدشين بارجة تحمل مائة وسبعة وثلاثين مدفعًا. تحت إمرة محمد علي كانت هناك في هذه الآونة ست بوارج وسبع أو ثماني فرقاطات على أهبة الاستعداد للانقضاض عند أول إشارة. وهو عدد يزيد قليلاً عمّا يتطلبه الذهاب في نزهة إلى جزيرة كاندي Candie(٣٣).

كانت هناك أيضًا سفينة سلمية قد رست لتوها تحت قيادة النقيب بحري فيرنيناك دوسنان مور Veminac de Saint-Maur صديق شامبليون وواحد من بني جلدته. وكان يتأهب لإنجاز مهمة أكثر هدوءًا وحساسية. كانت سفينة الأقصر Le Louxor المكلفة من قبل لويس فيليب Louis-Philippe بشحن المسلة التي دارت حولها مفاوضات البارون تايلور baron Taylor وهكذا بين ضجيج الترسانات وعمليات بناء السفن، وإلى جانب الإنجازات الطموحة لمصر الحديثة، تظهر دومًا مصر القديمة.

وبينما توقف فضول جوزيف ميشو إرادياً عند الدلتا، مانعًا نفسه من تخطي حدود القاهرة، جاء صعيد مصر يذكر الحاج إلى الشمال بالجاذبية الشديدة لتاريخه وفنه وشمسه.

****

BIBLIOGRAPHIE

- J. Michaud, Histoire des Croisades, 7 vol. Paris, Michaud jeune (1812-1825)[1]

- et J. J. Poujoulat, Correspondance d'Orient, 7 vol. Id., 1833-1835.

- Lettre du 23 mars 1831, La Contemporaine en Egypte, 1831, vol. IV, p. 375.

- J. J. Poujoulat, La Bédouine, 1835; Histoire de Jérusalem, 1840; Etudes africaines, 1846.

- Baptistin Poujoulat, Voyage dans l'Asie Mineure, en Mésopotamie, à Palmyre, en Syrie, en Palestine et en Egypte, faisant suite à la Correspondance d'Orient, Paris, 1840- 1841.

- J. J. Poujoulat, notice sur J. Michaud dans la nouvelle Biographie Cénérale, Paris, Didot, vol. XXXV et préface à l'édition corrigée de l'Historic des Croisades.

- Sainte-Beuve, J. Michaud, Causeries du Lundi, vol. VII. p. 20-40.

- Henry Bordeaux,Voyageurs d'Orient, vol. II, p. 135-195.

- Auriant, Histoire de Basile Fakr, marchand de Damiette, l'Opinion, 9 et 16 avril 1927.

****

(1) L'Histoire des Croisades de Michaud comprend en réalité cinq volumes d'exposition et deux volumes de bibliographie. C'est au volume IV que l'on trouve l'histoire de la 7{ Croisade et de l'expédition de Saint Louis; c'est au volume VII que l'on trouve l'analyse et les extraits des chroniqueurs arabes utilisés par l'auteur, soit dans les traductions latines des Bénédictins de Sain-Maur (manuscrits de D. Berthereau), soit dans les traductions francaises de l'abbé Reinaud (Aboulfeda, Makrizi, etc.) Alexandre Dumas a exploilé l'Histoire des Croisades el la bibliographie annexée par Michaud, pour fabriquer la derniére partie de Quinze jours au Sinaï

الهوامش

١- «مراسلات الشرق» الخطاب الرابع عشر بعد المائة المجلد الخامس ص ص ٨٤ - ٨٥ هذا ما فعله ويفخر بفعله باتستان بوجولا Baptistin PouJoulat راجع لاحقًا «رحلة إلى آسيا الصغرى» ص ٥٥٤.

٢- ذات المرجع ص ص ٣١٦، ٣٥٣، ٣٦٦، ٣٨٤.

٣- «رحالة الشرق» Voyageurs d'orient المجلد الثاني ص ص ١٣٥ - ١٩٥.

٤- يستشهد السيد هنري بوردو Henri Bordeaux بملامح أخرى طريفة: بادر سيدةٌ تجلس بجواره إلى مائدة، سحقت قدمها قدمه رغمًا عنها قائلاً: «سيدتي هل تحبينني؟ فردت في دهشة: أنا يا سيدي؟.. يالها من فكرة فقال: إذًا فتفضلي لطفًا بسحب قدمك من فوق قدمي.

٥- راجع مجلدي قائمة المراجع الملحقة بكتابه والتي يُضمّنها تحاليل ومقاطع من كافة وقائع الغرب والشرق التي اطّلع عليها.

٦- سانت بوف Les Causeries du Lundi I Sainte Beuve المجلد السابع ص ص ٢٠ - ٤٠.

٧- ذات المرجع ص ٤٠.

٨- مؤلف رواية «البدوية» La B douine (١٨٣٥) و«تاريخ القدس» «Histoire de Ierusalem (١٨٤٠) و Etudes Africaines «دراسات أفريقية» ١٨٤٦.

٩- نجد فيه أيضًا بعض الرسائل الموجهة من جوزيف ميشو Joseph Michaud إلى علماء زملاء له في التخصص بقوا في باريس مثل فويان Feuillant ورولان Raulin.

١٠- أجرى ميشو تعديلات على كتابه «تاريخ الحروب الصليبية» بعد رحلته.

١١- «مراسلات الشرق» Corespondance d'orient المجلد الخامس ص ٣٠٠ وما بعدها.

١٢- «مراسلات الشرق» المجلد الخامس ص ص ١٠٢ - ١٠٣.

١٣- «مراسلات الشرق» Corespondance d'orient المجلد الخامس

١٤- ذات المرجع ص ٢٨١.

١٥- الف ميمو Mimaut كتابًا عن صقلية القديمة والحديثة راجع A. Dumas و Dauzats «خمسة عشر يومًا في سيناء» quinze Jours au Sina طبعة ١٨٦٨ ص ٦.

عن لوبريك راجع كتاب «Auriant» Lubbert -Bey ودورية لوبينيون L'opinion عدد ٢٥ يونيو و٩ يوليو ١٩٢٧ و«يوميات فلوبير» Le Journal de Flaubert (١٨٤٩ - ١٨٥٠) وكتاب مكسيم دي كوم Maxime Du Camp «Les Souvenirs Litt raires et le Nil» «النيل والذكريات الأدبية». راجع أيضًا كتابي ج. فسكيه :

«Le Voyage d'Horace Vernet en Ori» G. Fesquet ent

«رحلة هوراس ڤرنيه إلى الشرق» الفصل الثاني عشر ص ١٠٧ L'Egypte, les Turcs et les Arabes «مصر والأتراك والعرب» (١٨٤٨) الجزء الأول ص ١٨٩.

١٦- استغل ميمو Mimaut كسلفه دروڤيتي Drovetti مصر أثريًا. وقد بيعت مجموعته من الآثار المصرية بعد وفاته في فرنسا عام ١٨٣٧. وكانت تتضمن تابوتًا جميلاً جدًا وأحد جدولي أبيدوس اللذين رسمهما كايوه Cailliaud وأخبر شامبليون عنهما. وقد ترك متحف اللوڤر هذه المجموعة تطير إلى إنجلترا واقتناها أمناء المتحف البريطاني لقاء أربعة عشر ألفًا من الفرنكات.

في نبذة عن الآثار المصرية في المتحف البريطاني. منشورة في المجلة الأثرية La Revue Arch ologique عدد الخامس عشر من فبراير ١٨٧٤، أشار بريس داڤان Prisse d'Avennes إلى أن حجر رشيد قد كتب عليه: «عثر عليه الجيش البريطاني عام ١٨٠١». وأضاف قائلاً أنه كان يود لو استطاع أن يكتب بطاقة تعلق على «جدول أبيدوس» بها عبارة: «عثر عليها في فرنسا بنقود بريطانية عام ١٨٣٧» راجع الفصل السابع من هذا العمل ومرجع ج. ديستورمل J. D'Estourmel السابق الإشارة إليه المجلد الثاني ص ص ٤١٨ و ٤١٩.

١٧- راجع بصفة خاصة الرسائل التي تحمل أرقام: ١١٤و ١٢٣و ١٢٤.

١٨- «مراسلات الشرق» Corespondance d'orient المجلد السادس، أبريل ١٨٣١ ص ٢٩٥.

١٩- ذات المرجع ص ص ٨٦ - ٨٨ راجع الفصل السادس.

٢٠- باتستان بوجولا Baptistin Poujoulat رحلة إلى آسيا الصغرى وبلاد الرافدين وتدمر وسورية وفلسطين ومصر ١٨٤٠ الخطاب رقم ٣٥ إلى ميشو في الثاني من أبريل ١٨٣٨ ص٥١١ .
Voyage dans l'Asie Mineure, en M sopotamie, Paimyre, en Syrie, en Palestine et en Egypte

٢١- ذات المرجع ص ٥٥٤ «بوضع مصر تحت الاحتكار الثلاثي الزراعي والصناعي والتجاري أهلك محمد علي شعبه الذي يغرق في البؤس على ضفتي النيل».

٢٢- ب. بوجولا «رحلة إلى آسيا الصغرى وبلاد الرافدين وسورية وفلسطين ومصر»، ١٨٤٠، الخطاب الخامس والثلاثون إلى ميشوه بتاريخ الثاني من أبريل ، ١٨٣٨، ٥٥٤.

٢٣- ذات المرجع.

٢٤- في رحلة هوراس ڤرنيه Horace Vemet إلى الشرق (١٨٣٤) يروي ج. فسكيه G.Fesquet قصة غريبة عن استقبال تم عند محمد علي قدم له فيها رسام «داكيريه» daguerréotype وهي آلة تصوير كان يراها لأول مرة. ولفرط دهشته يروي الكاتب ما اعتراه من إعجاب وفضول وقلق واصفًا نوبة السعال الخاص التي لفتت من قبل أنظار غيره من الرحالة (ذات المرجع ص ص ٣٣ - ٣٤).

راجع أيضًا أ. دوراند A.Durande، خطاب هوراس ڤرنيه في السادس من نوفمبر ١٨٣٩ ص١٢٧. في كتابه «مصر الحديثة» L'Egypte Moderne ٨٤٨١ يشير بريس داڤان Prisse d'Avennes إلى هذا الفواق التشنجي .

٢٥- «مراسلات الشرق» المجلد الخامس ص ص ٢٧٢ - ٢٧٣ والمجلد السادس ص ص ٣١١ - ٣١٤.

٢٦- ذات المرجع، المجلد الخامس ص ٢٧٥.

٢٧- «مراسلات الشرق»، المجلد السادس ص ٣١١.

٢٨- ذات المرجع، المجلد السادس ص ٣١٢

٢٩- ذات المرجع، المجلد السادس ص ٣٠٧

٣٠- ذات المرجع، المجلد السادس ص ٣٠٨

٣١- ذات المرجع، المجلد السادس ص ص ٣٥٤ - ٣٥٦ راجع ما سبق ص ١٩٨ ودراسة Auriant في جريدة الرأي لوبينيون L'opinion عددي التاسع والسادس عشر من أبريل ١٩٢٧ قصة باسل فخر تاجر دمياط.

٣٢- مراسلات الشرق Corespondance d'Orient المجلد السابع، ص ص ٢٣٠ - ٢٧٢

٣٣ - ذات المرجع، المجلد السابع، ص ٤١٦. كان هذا الأسطول بقيادة بسون بك Besson الضابط السابق في البحرية الفرنسية الذي عرض خدماته على نابليون وروشفور Rochefort عام ١٨١٥ وعرض عليه أن يقلّه إلى أمريكا.

****

الفصل الخامس

السان سيمونيون (١٨٣٣ - ١٨٣٦)

في الوقت الذي فتح فيه اكتشاف البخار للصناعة آفاق توسع غير عادية والذي بشرت فيه الآلة بثورة اقتصادية هي أروع ما عرف الإنسان، كانت الفلسفة الفرنسية تبحث عن قوانين تفسير الكون بشكل متناغم، لم يكن غريبًا أن يفكر السان سيمونيون في مصر، كانت تبهرهم بحكايات ماضيها المثيرة وما يعدهم به مستقبلها، كانوا يبحثون عن التعاون الأخوي بين كل الأمم وكل الطبقات الاجتماعية وعن تداخل والتحام كل الأجناس.

بعد نابليون الذي أدركوا عبقريته أكثر من أي أحد آخر، كانت لهم سياسة إسلامية بل وفلسفة إسلامية. كانوا يحلمون بلغتهم الجريئة أن يزاوجوا بين الجنس الأسود والجنس الأبيض. وكان بوسعهم تبني مقولة نابليون: «عن طريق مصر يمكن لشعوب وسط أفريقيا تلقي النور والسعادة».(١) ولكن كما يضيف إدوار دريوه Edouard Driault لم يكن لدى هؤلاء المثاليين سياسة وفلسفة إسلامية فقط وإنما أيضًا سياسة وفلسفة بحر متوسطية. بالنسبة لهم كان حفر برزخ السويس ضرورة دينية تقريبًا. وضع الخط الأزرق الرفيع للقناة على الخريطة بالنسبة لهم هو رسم علامة سلام وتآلف ووفاق على الخريطة بين القارات وإيجاد خط موصل بين البشر. بهذا المعنى، كانوا يستحقون أن يكونوا حاملي ومكملي رسالة «معهد مصر». أعادوا بعث فكرة نابليون بشأن القناة ليس لرفعها كمشاعل الحرب وتحدي الإنجليز وإنما لرفعها كمشعل بسيط يضيء الطريق للإنسانية.

استطاع أبناء فلاسفة القرن الثامن عشر وعلماء جيش بونابرت خلف واجهة بوهيمية غريبة وشاذة، أن يخلفوا بعدهم الحملة الفكرية الثانية لفرنسا.

كان الكونت دوسان سيمون Le comte de Saint - Simon قد بدد ثروته وحياته إنفاقًا على حلمه بإصلاح اجتماعي ومات معدمًا عام ١٨٢٥. ولكنه ترك أفكارًا ومريدين. من بين الأفكار التي كان يعتز بها ولم يستطع تحقيقها فكرة قناة السويس. كان من بين مريديه أذهان متقدة من البارزين الذين سرعان ما لعبوا دورًا هامّاً في مجالات النشاط القومي المختلفة مثل أوجستان تييري Augustin Thierry وأرمان كاريل Ar- mand Carrel وأوجست كونت Auguste Comte ولوبلي Le Play وجوستاف ديشتال Gustave d'Eichthal وسرعان ما أصبح أحدهم زعيمًا لهم وهو بروسبير انفونتان Prosper Enfantin وهو ليس بالاقتصادي ولا بالفيلسوف المتخصص ولكنه ملم بالعلمين إلى جانب كونه ميتافيزيقيّاً متصوفًا تصرفاته غير مألوفة. وقد حول ما لم يكن إلا مدرسة إلى كنيسة حقيقية. وقد انتهى به الأمر بتغيير الطقوس والملابس والغرائب الثلاث التي فرضها إلى إحاطة التجمع الأول بالريبة والسخرية.

في الوقت الذي كانت فيه السان سيمونية تتدهور والكنائس الباريسية تعد نفسها للتفكك ويشرع حواريوها في الانسلاخ، قرر الأب انفونتان الذهاب بنفسه إلى مصر مع أكثر أتباعه وفاءً والتزامًا لتحقيق غاية سان سيمون وهي حفر قناة السويس. كان المشروع قد قتل بحثًا في الأوساط السان سيمونية وعرض في صحفهم: «لوبرودوكتور» Le Producteur ١٨٢٥ و«لورجانيزاتور» L'organisateur . وكان الأب قد واتته فرصة التفكير بعمق[٢] في المشروع طيلة شهور سجنه الستة في سانت بيلاجي Sainte - Pélagie عام ١٨٣٢. وما إن أفرج عنه حتى التف حوله مريدوه متسائلين عما سيفعلونه. من هنا فقد ردّ عليهم قائلاً: «سنحسم أمر برزخ السويس. وقد لخص أفضل مهندسي المجموعة هنري فورنل Henri Fournel هذه المهمة في خطاب وجهه إلى السان سيموني أرليس دوفور Arles - Dufour المقيم في ليون.

قال فيه: «مهمتنا قطع الصحراء التي تفصل بين البحرين واستكمال الدراسات التي بدأتها الحملة على مصر وإرشاد العالم إلى أفضل طريقة يمكن تبنيها للوصل بين

السويس والبحر الأبيض المتوسط. وبذا يمكن للهند التواصل مع أوروبا. هذا هو موجز البرنامج الذي وضعته بعثتنا لنفسها».

للتعبير عن آرائه ووجهات نظره، وجد الأب صيغًا أكثر شاعرية. ضم إلى تصوفه الاقتصادي والصناعي تصوفًا عاطفيًا.

علينا نحن شق إحدى طرق أوروبا الجديدة
بين مصر التاريخية وبيت لحم القديمة
وصولاً إلى الهند والصين
سنضع إذًا قدمًا على النيل والأخرى على القدس
ستمتد يدنا اليمنى إلى مكة وتغطي ذراعنا اليسرى روما
وترتكز على باريس
السويس هي مركز ومحور عملنا
هناك سنفعل ما ينتظره العالم لنعترف أننا ذكور»(٣)

وأردف قائلاً: «أحتاج عند وصولي هناك إلى المشروع الذي سبق تصميمه. كانت المهارات كلها بدون شك متوافرة. فقد كان من بين طليعة السان سيمونيين عدد من الصحفيين والأدباء. وقد ترك المذهب أثرًا على الإنتاج الشعري في ذاك العصر. ارتبط عدد كبير بهذه الحركة الفكرية وظهرت آثارها في أعمالهم مثل: ڤيني Vigny في «زجاجة في البحر» «Bouteille la mer» سان بوڤ Sainte - Beuve «السلوى» Les Consolations لامارتين Lamartine «جوسلين» Jocelyn لوكونت دوليل Leconte de Lisie «الجحفل» La Phalange لوبيرونجيه Le Béranger «الأغاني» Les Chansons مكسيم دي كوم Maxime du Camp في الأناشيد الحديثة Chants modernes وغيرهم من الأدباء الأقل شهرة.

ولكن المريدين الأكثر التزامًا بالمذهب كان يتم اصطفاؤهم من بين صفوف البوليتكنيكيين والأكثرية بينهم رياضيون ومهندسون. وكوّن عدد كبير منهم أغلبية الفريق المقدام الذي استقل السفينة من مارسيليا في الثالث والعشرين من سبتمبر ١٨٣٣.

ارتحلوا وراء حلمهم بمزاج مذهبيين ومهارات فنيين وحيوية رجال نشطاء سافروا متقدي الذهن، يقظين وواضعين عليهم الزي الذي ألزمهم به الأب والمكون من سروال أبيض بلون الحب وصديرية حمراء بلون العمل وقميص ذي ياقة مرتفعة من اللون الأزرق المائل للبنفسجي لون الإيمان. رؤوسهم مرفوعة وشعورهم في مهب الريح وأكمام دثارهم المخصر منتفخة.

توجهوا إلى السفينة رافعين عقيرتهم بنشيد السان سيمونية مما أثار حفيظة الجموع الواقفة التي سخرت منهم وكادت تطرحهم أرضًا في الميناء. ركبوا البحر بحماس الصليبيين الجدد نافضين التراب الذي علق بأحذيتهم على أرصفة المدينة الجاهلة. تركوا الغرب لمصيره الحزين متجهين إلى الشرق يحدوهم أمل لا حدود له. من أقوالهم:

«في مصر قبور ومهاد، بقايا وبذور. اهتمامنا هناك بالمهاد والبذور. حملة صليبية جديدة افتتحتها فرنسا الجمهورية عام ١٧٩٩ ورأت استكمالها عام ١٨٣٣ وهي واعية لهدفها. فلم يعد التنازع على بعض الأماكن في القبور المقدسة وإنما زيارة ومباركة المهاد. يذهب المجوس الجدد لتقديم الهدايا تقودهم نجمة الغطاس التي تغير شكلها إلى الأبد. ستكون مصر الحديقة والمعبر بين العالمين القديمين. لينفذ هذا القدر. لا بد من سد للنيل وقناة بحرية للسويس، صلة وصل، معبر من السويس إلى الإسكندرية.

كان إلى جوار السيد ميمو Mimaut القنصل العام لفرنسا في مصر في هذه الفترة نائب قنصل شاب يدعى فرديناند ديلسبس.[٤] حين وصل الأب انفنتان Enfantin إلى الإسكندرية في الثالث والعشرين من أكتوبر مستقلاً السفينة «الأمير الوريث». استقبلته على الرصيف طليعته ومدرس فرنسي من مصر سنلقاه لاحقًا يدعى بريس دافان Prisse d'Avennes سيصبح فيما بعد عالمًا في الآثار. وبدون أن يضيع الوقت ذهب انفنتان إلى القاهرة مع أفضل مهندسيه شارل لومبير Charles Lambert وهنري فورنيل Henri Fournel . قدم ميموه Mimaut هذا الأخير إلى محمد علي وبدا المستقبل مضمونًا. قال الأب: «لمس نابليون مصر بسيف الحضارة».

أكمل محمد علي عمل المحارب ولكن بعد إعطائه طابعًا صناعياً. أعطى شعبه أسلحة وآلات، نظم معسكرات وأسس مصانع. أدرك أن الآلة العسكرية لا يمكن الاستغناء عنها لحماية وإنشاء الآلة الصناعية. ودفع في يومنا هذا إلى الأمام بالقدرتين معًا. في أوروبا تتصارع السلطتان الصناعية والسياسية أما في مصر فقد وضعت وحدة هاتين السلطتين وتشابههما المجتمع بمعزل عن الاضطرابات الثورية. وضع القائد التجارة والزراعة والورش والعلوم والفنون في يديه إلى جانب القوة العسكرية وبذا استطاع في آن واحد تطوير كل العناصر المنتجة وتحجيم كل الأهواء المؤدية للتقهقر. «كلمة واحدة من الحاكم تكفي ليبدأ مئات الآلاف من البشر في التعامل مع الأرض». حفرت قناة المحمودية في أقل من عام» عبارة كثيرًا ما رددها انفنتان لنفسه بدون أن يعرف أو ربما رفض الاعتراف لنفسه بالمقابل من حياة البشر لقاء هذا الحفر. كيف له ألا يتحمس في ضوء ذلك كله لحفر قناة السويس؟

بدأ العمل بمناقشات نظرية وفحص لطبيعة التربة وعمل للرسومات والمقايسات والتصميمات. كل شيء كان يمضي قدمًا. ذهب الأب في بداية يناير ١٨٣٤ لزيارة دمياط ومنطقة البحيرات المرة[٥] والسويس. أما فورنل Fournel فكان يدبر أموره في القاهرة: كان كل ما يريده هو إقناع محمد علي بإعطاء أولوية لشق قناة السويس على سد الدلتا وكل المشاريع الكبرى الأخرى. غير أن محمد علي رفض الاقتناع بذلك وأمر ببناء سد الدلتا وتأجيل مشروع القناة مما أصاب فورنل Fournel بخيبة الأمل. وتأثرت بذلك علاقاته بانفونتان. وتبع ذلك مزيد من الخلافات بينهما.[٦] وعاد فورنل إلى فرنسا ملؤه المرارة والإحباط. بسفره غاب عن مصر أحد أفضل فنيي الكنيسة السان سيمونية. لحسن الحظ بقي شارل لومبير Charles Lambert وهو مهندس ممتاز ذو ذهن متفتح يحترم الصداقة ويتفانى في سبيلها. كتب مكسيم دي كوم Maxime Du Camp الذي كان قليلاً ما يتسامح أو يتجاوز: «لم أقابل عقلاً بهذا التفتح ولا ذكاء بهذا الاتقاد ولا قدرة أكبر على تفهم مشاعر الآخرين ولا قدرة على التعليم ولا تطلع للخير أعلى مما وجدته فيه».

شبه مكسيم دي كوم شارل لومبير بعينيه الهادئتين وابتسامته الروحانية المتفانية وجسمه القصير الممتلئ الذي يضج بالحيوية وولعه الشديد بالفلسفة بسادة حاشية شارلمان دارسي اللاهوت.(٧) كان عليه مؤقتًا أن ينحي الفلسفة جانبًا وأن يعمل ويعيش. وما دام حلم سان سيمون غير قابل للتحقيق فقد كان يمكنه المشاركة في مشروع السد الذي أمر الباشا بتنفيذه والانتقال إلى النقطة الثانية من البرنامج. عرض إذًا انفونتان Enfantin ولومبير Lambert خدماتهما على محمد علي ومدير الأشغال العامة. لم يغضب لينان دي بلفون Linant de Bellefonds من أن ينضم إليه معاون بهذا القدر من الوعي، فقد كان ترتيبه الأول على كلية الهندسة. استقدم انفونتان Enfantin من فرنسا مهندسين آخرين مثل هورت Hoart وبرونو Bruneau. وبدأ العمل في سد النيل في مكان يطلق عليه «بطن البقرة» أي منطقة تقاطع فرعي النهر، في الثامن عشر من مايو ١٨٣٤.

عسكر السان سيمونيون في خيمة بالموقع نفسه وأجروا تعديلاً على زيهم ليصبح أقرب ما يكون إلى اللباس الشرقي(٨). باشر انفونتان عمله في كل الأركان محددًا لكل فرد موقعه. وبدأت آثار خيبة الأمل في التلاشي. لتقريب مهندسي المستقبل من الواقع المحيط بهم وبمساعدة من سليمان باشا، أقام «الأب» في موقع السد نفسه مدرسة للهندسة المدنية. وسرعان ما وضع أول حجر فيها.

استغرقتهم جميعًا المشاريع والأحلام الجديدة بالمستقبل. وفي الخامس عشر من أغسطس، أقام السان سيمونيون حفلاً كبيرًا في الموقع نفسه احتفالاً بذكرى نابليون وصعود العذراء. كان من المدعوين إلى هذا الحفل سليمان باشا وفرديناند ديليسبس ولينان دي بلفون وتسعة عشر ضيفًا أججتهم حماسة وأغنيات الكولونيل السابق مما جعلهم يعبون من خمور فرنسا عباً. شربوا قبوًا بأكمله، ست عشرة زجاجة من الشمبانيا وخمس عشرة زجاجة من البورجوني إلى جانب عشر زجاجات من نبيذ بروفانس وعشر زجاجات أخرى من أنواع عادية من الأنبذة. وانضم إلى المقاولين والمساحين فنانون. فإلى النحات الريك Alric الذي قام بنحت تمثال نصفي لمحمد علي، انضم الموسيقيان روجيه

Roger وفلسيان داڤيد Felicien David والرسام ماشورّوه Machereau ليكونوا تحت إمرة الأب انفونتان Enfantin. وافت الريك Alric منيته في القاهرة[٩] وعاد فلسيان داڤيد أدراجه إلى فرنسا أما فيليب جوزيف ماشورّوه فقد مات على أرض مصر، وهو شخص جدير بأن نتوقف أمامه.[١٠] كان لدى وصوله إلى الإسكندرية في الثانية والثلاثين من عمره، يفيض حيوية وحماسًا وذكاءً وبشاشة. يعيش حياة بوهيمية كثيف الشعر وقذر الهندام. ولكنه كان موسيقيًا بارعًا ورسامًا محنكًا وممثلاً ورسامًا للكاريكاتير لا يبارى. استمع ذات يوم لخطبة دينية من الأب انفونتان Enfantin في مينيلمونتان Menilmontant وبما أنه كان كريمًا ومثاليًا فقد تحمس لمذهبه ولبى نداءه بدون تردد. عمل في السابق سكرتيرًا غير متفرغ لڤيڤان دونان Vivant Denon. ويروي لنا الفونس كار Alphonse Karr في هذا الصدد مزحة تشهد بعبقريته وذهنه المتقد:

«كلفه السيد دونان يومًا بتفريغ وترتيب بعض الصناديق القادمة من مصر ونسخ لفائف كتابة هيروغليفية كان على شامبليون ترجمتها والتعليق عليها. أثناء إنجازه لمهمته، انسكبت قنينة الحبر على ورقة البردي. جفف ماشورّوه الحبر، وحاول بشتى الطرق المعروفة أو غير المعروفة مداواة الأمر. ولكن بقيت البقعة كغلالة تحجب أسرار الشعب المندثر. فكر ماشورّوه أن هذه الأمر سيزيد الأمر بلة في الصباح لأن السيد دونان كان في هذه الفترة متعكر المزاج، فقرر أن يؤجل ثورة غضبه. فما كان منه إلا أن رسم سطرًا من الجرار وطيور أبي منجل والبوم، على الرق. وفي المساء حضر السيد دونان وبرفقته شامبليون في انتظار العشاء. سارع دونان إلى عرض ما ورد إليه من ثروات الصحراء على صديقه. فمضى شامبليون بدون أن يتردد لحظة واحدة في ترجمة المكتوب أمامه، ووجد في ما خطه ماشورّوه من ذهنه معاني جميلة للغاية.[١١]

مما لا شك فيه أن نهاية القصة مشكوك في أمرها وأنها من تأليف الفونس كار Alphonse Karr ولكن ماشورّوه Machereau لم تكن تنقصه الحيلة كما أن لطفه وحميته تغفر له كل شيء. وسرعان ما أصبح النديم والطفل المدلل للجالية الفرنسية بالقاهرة.

كان يمثل على خشبة مسرح الموسكي «تياترو دل كايرو» الذي سيسهب شارل ديدييه Charles Didier في وصفه والذي كانت تبادله الحوار فيه السيدة بونوم Mme Bonhomme الشقراء بائعة الخردوات التي كتب عنها جيرار دي نرڤال Gérard de Nerval ونظرًا لإتقانه فن التمثيل الصامت، فقد قدم مع زميله هوسون Husson عروض التقليد الساخر المثقل بالمسكوت عنه. وقد سعد سليمان باشا بالتعامل معه وكلفه ببعض الأعمال، منها الرسم على جدران قاعة البلياردو لمشاهد تمثل مناظر طبيعية من «طيبة» نفذت طبقًا للصور الموجودة في كتاب «وصف مصر». وقد استوحى منه شارل إدمون Charles - Edmond شخصية الرسام جندل Gendel في روايته «زفيران كازاڤان في مصر» Zephyrin Cazavan en Egypte.

كان ماشورو Machereau بين جلسات الرسم يمزج أغنيات العمل بأغنيات الثكنات. وكانت جدران المنزل المطل على النيل تضج من الضحكات. لم تداخل الأب انفونتان Enfantin أي مخاوف من كل ذلك. بل إنه أقام هو نفسه في هذا المنزل في الشتاء. كان المنزل بلا شك أكثر راحة من الخيمة المنصوبة عند السد. وقد التقى فيه بالماريشال مارمون Marechal Marmont الذي وصف سهرة سان سيمونية أقيمت فيه وأسعدته على غير توقع منه.(١٢)

ولكن شيئًا فشيئًا لاحظ المريدون فتور حماس من يقومون بحمايتهم رسميًا كمحمد علي والقنصل الفرنسي. كانت حياتهم في موقع السد مثارًا للأقاويل والفضائح، فقد جلبوا معهم بين الراهبات السان سيمونيات فتاة ليل من ليون تدعى أجاريت كوسيدار Agarithe Caussidére كانت تجوب الخيام واحدة بعد الأخرى ويتبادلها الرجال. وقد انتقد أكثر أعضاء الجالية الفرنسية احترامًا، عيشتهم على هذا النحو، كما لم ينظروا بعين الرضا إلى طريقة ملبسهم ولا إلى تردد كلوراند روجيه Clorinde Rogé على سليمان باشا. في ظل الانتقادات ونظرات الاستنكار التي تحيط بالسان سيمونيين هل كان بوسعهم إتمام مهمتهم؟ كان الجادون منهم يتشككون في ذلك.

ولسوء الحظ انتشر الطاعون في القاهرة في يناير ١٨٣٥ . وقد طال بشدة من كانوا يعملون بالسد. وقد اضطر الأب إلى إقالة معاونيه مما اضطرهم لقبول أعمال بسيطة في الإدارة المصرية. لم يفقد ماشورره Machereau رغم ذلك مرحه، وبقي على هيئته المزرية وحياته البوهيمية (حتى أنه بالقاهرة كان يقال قذر مثل ماشورره). وقد عمل مع النحات الريك Alric كمدرس للرسم لقاء سبعمائة قرش في الشهر.[١٣] وقام أوربان Urbain بتدريس اللغة الفرنسية في «مدرسة أركان الحرب» بالخانكة حيث كان يعمل بريس دافان Prisse d'Avennes توزع المريدون في القاهرة، ورغم ذلك فقد طالهم الطاعون مما جعل عام ١٨٣٥هـ عام أحزان. فقد توفى فيه المهندس الزراعي بوسكو دو دومباسل Busco Dombasle والمعماري لامي Lamy والكيميائي جوندريه Gondrct والنحات الريك Alric والأطباء فوركاد Fourcade وديلون Delon والأديب ماريشال Maréchal والمهندس هورات Hoart واحدًا بعد الآخر.

وفي الخامس والعشرين من فبراير أبحر انفونتان Enfantin إلى صعيد مصر هربًا من العدوى وبحثًا عن هدوء الأعصاب. وصحبه في هذه الرحلة المهندس شارل لومبير Charles Lambert طال غيابه هناك لأكثر من ستة أشهر استطاع خلالها رؤية شيء مختلف. نسي خلال سفرته هذه فكرة الجنس البشري. ومضى يتوقف بكل مدينة تقع على النهر مأخوذًا بصخب وألوان الحياة فيها. وقد استمتع خلال هذه الرحلة بحياة طيبة واجتذبته ذوات البشرة الداكنة. لولعه بالصيد، كان يطيب له أحيانًا اقتناص التماسيح وطيور أبي منجل المختبئة بين بوص النيل وأحيانًا أخرى زيارة المواقع الأثرية مثل «أبيدوس» و«دندرة». وقد وجد في «الأقصر» صفوة المجتمع القاهري التي هربت من الطاعون وهناك عاود الاتصال بالقنصل ميموه Mimaut وربطت بينهما صداقة وطيدة. وشرع انفونتان Enfantin في دراسة اللغة العربية انتظارًا للوحي الإلهي الذي لم يهبط عليه قط.

كان يصله من حين لآخر خطاب من القاهرة ينبئه بنهاية حزينة لأحد مريديه[١٤] أو بوفاة أبيه الذي بقي في فرنسا مما كان يغرقه في الحزن. طابت له الحياة في «طيبة» حيث

اكتسب شعبية بين الفلاحين حتى أنهم أطلقوا عليه اسم «أبوالدنيا».[١٥] كان بلا شك يتمنى لو طالت إقامته ورحلات صيده هناك لولا قلة موارده، فقد كان غارقًا في أزمات مالية طاحنة. وسرعان ما أصبح خالي الوفاض تمامًا. كيف السبيل إلى العيش؟ لم يكن الأمر هناك يسيرًا مثلما كان في القاهرة حيث استضافه أصدقاؤه سليمان باشا ولينان دي بلفون Linant de Bellefonds ولومبير Lambert، وكان المبيت والطعام فيها متاحين له. لذا فقد قرر في السادس عشر من سبتمبر العودة بينما انطلق لومبير وحده في طريقه إلى الجنوب.

لدى عودته إلى القاهرة، أحسنت السلطات استقباله ورجته المشاركة في امتحانات مدرسة الطب الجديدة بأبي زعبل تلك التي كان كلوت بك Clôt - Bey قد أنشأها. ورغم مظاهر الاحتفاء به إلا أن إحساسه الداخلي بعدم المبالاة وفقدان الود كان يتنامى. وكانت كراهية الأجنبي تتزايد في بعض الأوساط المصرية. وفي هذه الفترة، فترة حماسة الباشا له وأصبحت مزاجية. وغادر سوريزي Cerisy المهندس الذي أنشأ ترسانة الإسكندرية مصر إلى فرنسا. وكرر كلوت بك Clôt - Bey في لحظات يأس أمامه رغبته في الرحيل مثله[١٦] وكان سليمان باشا، من ناحية أخرى قد تمّ استدعاؤه إلى مسرح العمليات بسورية حيث كانت الحرب ضد الأتراك. من هنا فقد اضطر الأب بدلاً من الإقامة في قصره المنيف على النيل، الاكتفاء ببيت الموسيقى فلسيان داڤيد Felicien David الصغير الواقع في مصر القديمة. لم يكن مستغربًا إذًا أن يفتر حماسه وتتأرجح آماله. وقد ألقى كل مسؤولية إخفاقه على مصر ووجد في سطوره آنذاك حكمًا قاسيًا على محمد علي يتناقض مع تقديره المتحمس له لدى وصوله.[١٧] في حركات ردة غريبة، انفصل عن كنيسته أصدقاء كانوا من أوائل مؤيديه: فقد اعتنق أوربان Urbain وماشوروه Machereau الإسلام والتزما بتعاليمه وارتديا زيه مما دعا محمد علي إلى القول «غريب هذا الأمر، حضر السان سيمونيون لصرف المسلمين عن دينهم، وهاهم يعتنقون [١٨] الإسلام». أصبح ماشوروه Machereau «محمد أفندي». وبعد عدة مغامرات عاطفية فاشلة، تزوج من سيدة عربية أنجب منها أربع بنات أسماهن: هانم وزهرة وحميدة وأسماء. وقد وجدنا

تفاصيل غريبة عن اعتناقه الإسلام وزواجه في كتاب سوزان ڤوالكان Suzanne Voilquin «ذكريات فتاة من الشعب» Souvenirs d'une fille du peuple وكانت مؤلفته ممرضة سان سيمونية عملت كقابلة بمستشفى أبي زعبل في قسم الدكتور كلوت بك Clôt - Bey[١٩] كان ماشورووه Machereau المشغول دومًا والجائع أحيانًا يقبل دعوات الأب انفونتان Enfantin أو لومبير Lambert ولكن ما إن يوضع أمامه لحم خنزير أو خمر حتى يشعر ضميره باضطراب عميق باعتباره مسلمًا حديثًا.

تحكي سوزان ڤوالكان أنه تصادف وجوده يومًا مع باشا تركي على مائدة الأب انفونتان Enfantin لم يكن يدري قدر سماحة هذا الباشا. وكان أمامهما خنزيران صغيران أحسن طهوهما. حسب ماشورووه أنه أمام من سبقه إلى الإسلام، يحسن به الامتناع عن لحم الخنزير والخمر. وكان يرمقهما خفية مطرقًا رأسه في تحفظ حذر. ولكن الباشا بادره في لطف قائلاً: «سيدي محمد في اللغة الفرنسية قاعدة تقول :» إذا اجتمع نفيان فإنهما يصبحان إثباتًا. لنحكم على الواقعة التي أمامنا من هذا المنطلق. لا شك أن أكل لحم الخنزير إثم وشرب عصير العنب المخمر خفية ذنب كبير أيضًا. ولكن الجمع بين الذنبين في قرارة نفسك هو تطبيق للقاعدة الفرنسية بإلغائهما معًا. في ضيافة الأب انفونتان نحن في فرنسا. وأعتقد أنه من حقي شرب نخب مضيفي صاحب البيت. ورفع كأسًا من الشمبانيا قائلاً: «قلدني إذًا ياصديقي الشاب وقل مثلي: «في صحة الأب انفونتان» [٢٠]

كانت مثل هذه الدعوات آخر ما تبقى للداعية من موارد. وكان لإعادة الحماس لمريديه ينظم ولائم سان سيمونية أغلبها على نفقة شارل لومبير. في الثامن من فبراير ١٨٣٦ اجتمع اثنان وعشرون من مريديه للاحتفال بعيد ميلاد الأب. وأمضوا الليل في الرقص وتبادل الأحاديث والأنخاب في صحة الأصدقاء والأهل الذين بقوا في فرنسا.[٢١] ولكن كان الوقت قد تأخر جدًا وتم تأجيل مشروع قناة السويس بما لا يدعو مجالاً للأمل.

تُرك العمل في السد أو على الأقل توقف. وفشل «الأب» في العثور على «الأم» أو المرأة المثالية التي كان من الممكن أن توحي إليه وتعينه في رؤياه. وبدلاً من الانتصارات

المتوقعة، جاءت الأحزان والأمراض والفاقة. لم يعد ممكنًا أن يأمل أحد في شيء. وسادت أذهان الجميع أحاسيس الحزن لإخفاق المهمة. وتفرق آخر المريدين: كلوراند روجيه Clorinde Rogé وزوجها، أوربان Urbain وسونورا Sonnerat غادروا مصر. أوليڤيه Olivier لفظ أنفاسه في الإسكندرية في الثامن من مايو. أدرك «الأب» أنه من غير المجدي أن يستمر في المقاومة. وكان بعض من أصدقائه قد تركوه بعد انتقادهم لمسلكه مع النساء وللحريات الزائدة مما دعاه للاستجابة لطلب صديقة له دعته للسفر إلى فرنسا للراحة. وقد غادر القاهرة إلى مارسيليا في الثلاثين من أكتوبر ١٨٣٦ بصحبة دوجيه Duguet.

انتهت السان سيمونيه المصرية ولكن تأثير السان سيمونيين لم يتلاش. بعد ذلك بعدة سنوات، أي عام ١٨٤٤، كان جان جاك أمبير Jean - Iacques Ampére متجهًا إلى جنوب الوادي بصحبة أدم بك وزير المعارف العمومية والفنون الجميلة وتعجب لوجود أثر للسان سيمونية في حوارات محدثه. قال معلقًا: «الأفكار السان سيمونية التي نادى بها فورييه Fourier تبدو مألوفة له. شعرت بأنه يفضلها ويحبذها مما دعاني إلى الاستماع إليه بفضول. وماذا في ذلك؟ إنه أحد وزراء قاتل المماليك. شخصية ترتدي نظارات خضراء وتجيد الفرنسية، وتتكلم بإفاضة عن مزايا الجمع بين الثروات الصغيرة والكيانات الصغيرة بطيبة. أظنها صادقة!

الشرق الذي فشلت الملكية الخاصة في أن توجد لنفسها جذورًا عميقة به هو البلد الذي لم تجهد النظريات الاشتراكية نفسها في إرساء دعائمها فيه. في هذه البلاد هناك اعتياد أن يكون المواطن مستغلاً من قبل الحكومة وهو مبدأ ما دام موجودًا فيلزم فقط تقنينه وضخ بعض التسلط والطغيان به إذا أمكن. تركت أفكار السان سيمونية بذورًا في مصر».[٢٢] وفي خط مواز تزايد تأثير الأفكار الفرنسية.

بناء على طلب الكولونيل ساڤ Séve الذي كان قد أصبح عام ١٨٣٤ باشا ومفتشًا عامًا على المدارس المصرية[٢٣] قام الأب انفونتان بالاشتراك مع لومبير Lambert بوضع مشروع لإنشاء مجلس أعلى للمعارف العامة تبناه محمد علي ولجنة استشارية للعلوم

والفنون كانت همزة وصل بين معهد مصر القديم ١٧٩٩ والمعهد المصري الحديث الذي سيعود إلى الوجود لاحقًا ويرأسه شرفياً جومار Jomard.

إذا لم يكن التعليم الفني قد سجل نجاحات في المدارس الفنية كما توقع محمد علي فقد انتشرت على الأقل اللغة والثقافة الفرنسية بفضل السان سيمونيين وهو أمر في صالح مصر. ففي الوقت الذي كانت مصر ترسل فيه البعثات إلى فرنسا، كان على أرضها أساتذة يجمعون إلى دقة تعليمهم الخاص اهتمامًا بالأفكار العامة وحب التطور ويعدون نماذج مثالية لعدم وجود المصلحة الشخصية.

اتفق بعض السيمونيين الذين بقوا في القاهرة على تطوير ودعم مكانتهم في مختلف المجالات التي يمارسون فيها أنشطتهم. وقد بقي العلامة شارل لومبير Charles Lambert الذي أصبح «بك» ومديرًا لمدرسة الهندسة ببولاق في مصر لهذا الغرض حتى عام ١٨٥٠[٢٤] وقد أكمل مع لينان دي بلفون Linant de Bellefonds وموجل Mougel بناء سد الدلتا. وفي ذات الإطار أحيا لينان دي بلفون ولاحقًا فرديناند ديلسبس Ferdinand De Lesseps مشروع قناة السويس. كانت الفكرة تحفر طريقها. وإذا كانت قد وصلت بعد التعديلات التي نعرفها، إلى الإنجاز العظيم الذي رأيناه عام ١٨٦٩ فهذا بفضل تطبيق النظريات السان سيمونية. ألم ينجح ديلسبس في إنشاء جمعيته بفضل إيمان البورجوازية الفرنسية التي تغذت بأفكار هؤلاء الفلاسفة بجدواها ونفعها؟ وعندما وضعت مصر جنود جيشها النظامي تحت إمرة الشركة الجديدة لحفر القناة ألم تكن تطبق مذهب سان سيمون.

الذي حزن لبقاء الجنود بدون عمل في الثكنات ورأى استخدامهم في أعمال السلام الكبرى آملاً أن تنتهي يومًا كل الحروب؟

سان سيموني آخر نتوقف أمامه، وهو الدكتور بيرون Perron الذي أصبح مع الدكتور كلوت بك، وبعده، مديرًا لمدرسة الطب بالقاهرة. وقد تميز أيضًا كمستشرق وتخصص في اللغة الفارسية ودراسة الشعر والأساطير الجاهلية. والحق أننا كنا سنوفيه

حقه بصورة لائقة لو أنه كان قد وجد في فرنسا ناشر مؤمن بضرورة التعريف بأعماله ونشرها . فلم يتمكن في حياته إلا من نشر بضعة أجزاء فقط منها في «مراسلات ميشو وبوجولا» Correspondance de Michaud et Poujonlat .

و«اليوميات الآسيوية» Journal Asiatique ومجلة «لاروڤو انديبوندونت» La Revue Ind pendante». إليه يرجع الفضل في فتح أبواب مكتبة الجمعية المصرية أمام جيرار دي نرڤال G rard de Nerval وإمداد ڤيكتور شولشر Victor Schoelcher بالمراجع لكتابه «مصر عام ١٨٤٥ L'Egypte». وقد قام مكسيم دي كوم Maxime Du camp الذي قابله بالقاهرة بوصفه وصفًا لطيفًا ودقيقًا في الوقت ذاته وهو شيء نادرًا ما يفعله في سطوره[٢٥].

أما السان سيمونيون الذين عادوا إلى فرنسا فسرعان ما نسوا إحباطاتهم وإخفاقاتهم. ورغم كل معاناتهم الماضية فقد بقوا أوفياء لمصر بكتاب مثل «ألحان شرقية» Melodies Orientales تمت صياغته من وحي أغنيات شعبية تم التقاطها من ضفاف النيل ونشيد سيمفوني بعنوان «الصحراء» Le Desert بدد فلسيان داڤيد Felicien David ضباب باريس وأشعر رفاقه من السان سيمونيين بحنين إلى رحلة الحج الغريبة التي قاموا يومًا بها إلى بلاد الشمس.[٢٦]

****

قائمة السان - سيمونيين في مصر

قام بوضعها الأب انفونتان Enfantin عام ١٨٤٥

[راجع شارليتي Charl ty مقال عن تاريخ السان - سيمونية ص ٢٩٩]

هورت Hoart	توفي عند سد النيل	خريج كلية الهندسة
لومبير Lambert	مدير مدرسة الهندسة ببولاق	خريج كلية الهندسة
برونوه Bruneau	مدير مدرسة المدفعية بطُرّه	خريج كلية الهندسة
فورنل Fournel	مهندس أول مشرف على مناجم الجزائر	خريج كلية الهندسة
براكس Prax	ضابط بحري في هيئة الأبنية المدنية بالجزائر	خريج كلية الهندسة
تورنوه Tourneux	مهندس سكة حديد بوردو	خريج كلية الهندسة
ديشارم Descharmes	مهندس طرق وكباري في سابل	خريج كلية الهندسة
دورووه Drouot	مهندس مناجم في سابل	خريج كلية الهندسة
لينان Linant	ضابط بحري مهندس أول طرق وكباري بمصر	
لوفافر Lefévre	أخصائي تعدين في سنار	
كوندريه Condret	كيميائي توفي بالطاعون في الإسكندرية	
جافاري Javary	كيميائي عاد إلى فرنسا	
ايفون Yvon	أخصائي رياضيات عاد إلى فرنسا ملحق في مرصد باريس	
لامي Lamy	مهندس معماري توفي وهو ينفذ حريسة شبرا	
ماشوروه Machereau	رسام ومدرس رسم في مدرسة الفرسان بالجيزة	

ديمولار Dumolard	حداد توفي بالطاعون عند سد النيل
ألكسندر Alexandre	ميكانيكي توفي بالطاعون عند سد النيل
آشار Achard	رسام عاد إلى فرنسا
روجيه Rogé	موسيقي ملحق بالكنسية الإمبراطورية بروسيا
داڤيد David	موجود حاليًا بألمانيا لبث الاهتمام بمصر
مارتان Martin	تاجر عاد إلى فرنسا
برنار Bernard	تاجر عاد إلى فرنسا
بليشون Plichon	
جرانال Granal	
دافيزياز Davesiès	
فيروه Ferraud	
أوليڤييه Olivier	مات في مزرعة بالقرب من الإسكندرية
الريك Alric	نحات توفي بعد نحت أول تمثال نصفي لمحمد علي
بوسكو دود ومباسل	Busco de Dombasle توفي بالطاعون وهو ينشئ أول مزرعة نموذجية بشبرا
بيتي الكسيس Petit (Alexis)	مزارع في ڤوزيل بالقرب من شاتوروه
فوركاد Fourcade	طبيب كان أول من توفي بالطاعون بالقاهرة
لاشيز Lachéze	طبيب عاد إلى فرنسا

جالات Jallat	طبيب عاد إلى فرنسا
ريجوه Rigaud	طبيب كان عمدة (بون) في إقليم (شارونت)
شاربان Charpin	طبيب في كانيه (كاندي)
بيرون Perron	طبيب مدير مدرسة الطب بمصر
كونيا Cogniat	طبيب مات في فرنسا
ديلون Delon	طبيب توفي بالطاعون بالقاهرة
سانتور Santour	طبيب بيطري عاد إلى فرنسا
باروه Barrault	رئيس تحرير لوكوريبه فرانسيه
أوربان Urbain	مترجم فوري أساسي في الجزائر
دوجيه Duguet	أديب عمل بوزارة الأشغال العامة
جرانال Granal	أديب عاد إلى فرنسا
كولان Collin	(أوجست Augste) محرر لا ديموكراسي باسيفيك La Democratie كاتب كلمات «الصحراء».
نويل Noél	مستشرق
ماسول Massol	محرر جريدة فرنسية في لندن
ماريشال Maréchal	أديب توفي بالطاعون بالقاهرة
جانان Janin	أديب ممثل مسرحي عاد إلى فرنسا
كومب Combes	رحالة قنصل فرنسا في آسيا الصغرى
تاميزييه Tamisier	رحالة عاد إلى فرنسا

هولستين Holstein	أمين خزنة نقابة الصيارفة في ليون
ريبول Reboul	تاجر توفي أثناء رحلته الثانية إلى سنار
توشيه Toché	تاجر استقر به الحال في جزيرة بوربون
جونوفوا Genevoix	تاجر توفي في مصر
سونورا Sonnerat	تاجر استقر في فلورنسا أصبح كبير سكرتيري السكك الحديدية في ليون.

- تعاون باروه Barrault مع كادالفان Cadalvene ساعده في كتابة مؤلفاته عن مصر (راجع الفصل السادس) بشأن دافيزياز Davesies راجع المقدمة ص ٣٦.

- أ. كومب Combes قنصل فرنسا هو مؤلف كتاب «رحلة إلى مصر والنوبة في صحاري بيوضة والبشاري وسواحل البحر الأحمر عامي ١٨٣٣ - ١٨٣٥، (مجلدان).

****

BIBLIOGRAPHIE

- Œurres de Saint-Simon et Enfantin, Paris, Dentu, 1866-1872.

- S. Charléty, Essai sur l'Histoire du Saint-Simonisme, Thése. Paris, 1896.

- Jehan d' Ivray, L'aventure saint-simonienne et les femmes, Paris, Alcan, 1928.

- Henry d'Allemagne, Les Saint-Simoniens (1827-1837), Paris, Gründ, 1930.

- Fonds saint-simonien de la Bibliothéque de l'Arsenal, surtout dossiers 7680, 7716, 7726, 7751, 7753.

- Suzanne Voilquin, Souvenirs d'une fille du peuple ou la Saint-Simonienne en Egyte (1834 à 1836), Paris, Sauzet, 1866.

- Ayrout (Jeannette), Voyageuses et aventuriéres en Egypte au xlxe siécle, Revue du Caire. août 1944, p. 390-402 Maxime Du Camp, Souvenirs littéraires, 2 vol. Hachette, 1882 et 1883.

- Charles-Edmond, Zéphyrin Cazavan en Egypte, Paris Calmann, 1880, p. 113 et suiv.

- Charles Lambert, Lettres écrites du Soudan (1838-1839), publiées par Auriant, L'Acropole, août 1931.

- Gueroult, Charles Lambert, L'Opinion nationale, 15 février 1864.

- Auriant, Rothschild et Méhémet-Ali, Revue Bleue, 17 septembre 1927.

- Lubbert-Bey, L'Opinion, 25 juin et 9 juillet 1927.

- Un Pylade littéraire, Le Manuscrit autographe, 1928-1929, ner 18, 19 et 21.

- Mohammed-Effendi Le Manuscrit autographe, 1930, ne 25.

- Un médecin orientaliste, Le Docteur Perron, L'Acropole, ner 19-20, juillet-décembre 1930.

- R. Bonnefon, Maxime Du Camp et les Saint-simoniens, Revue d'Histoire littéraire de la France octobre 1910.

- G. Guémard, Mougel-Bey et le barrage du Nil, Bulletin trimestriel de la Société d'émulation des Vosges, juillet 1930.

****

الهوامش

١- أ. دريوه Edouard Driault La Renaissance de L'Egypte, Napoléon «إعادة بعث مصر، نابليون» «مجلة الدراسات النابولونية» عدد يناير
Revue des études napoléoniennes. Janvier 1925, P. 13

٢- تسلطت المرأة على فكر انفونتان Enfantin، وكان يأمل أن يجد في مصر «المختارة» L'elue التي أطلق عليها تعبير «الأم». كان يقول «ستنتهي عزلتي بقدوم «الأم» أنجب الغرب «الأب» وعلى الشرق كما كان يعتقد أن ينجب «الأم». لذا فبمجرد خروجه من السجن فقد أعطى الإشارة للخروج إلى مصر وفي ذهنه فكرة أكثر واقعية وهي حفر برزخ السويس.

٣- راجع Henry d'Allemagne «السان سيمونيون» باريس، Grund ١٩٣٠ ص ٣٥٧.

٤- كان والده ماثيو ديلسبس Mathieu de Lesseps راجع Napoléon iG. Douin مجلة الدراسات النابولونية يناير ١٩٢٥ ص ٤٨ - ٨٠ «Revue des Etudes Napoléoniennes مفوضًا عامًا للعلاقات التجارية في مصر تحت حكومة القناصل [راجع ما قبل ١٧٦] فرديناند ديلسيبس رشح للعمل قنصلاً عام ١٨٣٣ وعمل بالفعل كقنصل من عام ١٨٣٤ إلى عام ١٨٣٧ تارة في القاهرة وتارة أخرى في الإسكندرية وقد حل تيبل Tippel محله عام ١٨٣٨.

٥- راجع Henri d'Allemagne «السان سيمونيون» Les Saint - Simoniens الناشر Paris iCrerd ص ٤٠٠ وخطاب انفونتان Enfantin إلى سليمان باشا والمرسل من الزقازيق في السادس عشر من يناير ١٨٣٤ .

٦- ذات المرجع ص ٤٠٤ خطاب فورنل Fournel إلى انفونتان Enfantin.

٧- مكسيم دي كوم Maxime Du Camp Souvenirs Littéraires «ذكريات أدبية» طبعة ١٨٨٢ المجلد الأول ص ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

٨- «لحيتي وشعري أقل طولاً.. بالذات لحيتي.. قلنسوتي من الكشمير ورداني أحمر بأكمام مفتوحة.. السترة منفصلة عن التنورة، ويعلوها حزام قديم من الجلد فوق جوربين من اللون الأصفر وصديرية ذات أزرار صغيرة مثل الأتراك. هذا وصف مفصل لي» خطاب من الأب انفونتان Enfantin .

٩- عانى الريك Alric معاناة شديدة في الحصول على أتعابه من محمد علي (راجع خطاباته إلى صندوق السان سيمونية بمكتبة الترسانة «الأرسنال» Bibliothéque de l'Arsenal.

١٠- راجع وصف ماشوروه Machereau بقلم انفونتان Enfantin خطاب السابع من ديسمبر ١٨٣٤ إلى أجليه سانت إيلار Aglae Saint - Hilaire

Oeuvres de Saint - Simon et Enfantin, Paris, Denhi, 1872, v.xxx, p 341

«أعمال سان سيمون وانفونتان»، باريس، ١٨٧٢، المجلد الثلاثون ص ٣٤.

١١- راجع أوريان Mohammed- Effendi Auriant «محمد أفندي» المخطوط الأصلي رقم ٢٥ يناير فبراير ١٩٣٠ ص ص ٦٧ - ٧١.

١٢- «رحلة» Voyage المجلد الثالث ص ١٦٣ و Henry d'Allemagne المرجع السابق ص ٤١٣.

١٣- كان ماشوروه Machereau يقوم بالتدريس بمدرسة الفرسان بالجيزة. ولدى إعفائه من عمله، استقبله سليمان باشا وكلفه بتخليد ذكرى «نزيب» على جدرانه لقاء استضافته ومنحه خمسمائة قرش شهريًا.

١٤- في مؤلفها «ذكريات فتاة من الشعب» Souvenirs d'une fille du peuple قامت سوزان فوالكان Suzanne Voilquin بوصف هذه المجزرة ص ص ٢٩٥ - ٣٥٩. كان لانتشار الوباء آثار مدمرة. فقدت القاهرة في ستة أشهر نحو خمسة وثلاثين ألفًا من سكانها منهم ثلاثمائة أوروبي. أما الإسكندرية فقد فقدت أربع عشرة ألفًا وأربعمائة نسمة أي ما يعادل ثلث سكانها حينذاك.

١٥- «أبو دنيا» أبو العالم راجع مؤلفات سان سيمون وانفونتان، باريس ١٨٦٦ الجزء العاشر ص ٨٥.

١٦- كان كلوت بك وهامون مفتش القسم البيطري محل هجوم قاسي ذات المرجع ص ٤٢٨. انظر لاحقًا الفصل السادس

١٧- Henry d'Allemagne «السان سيمونيون» Les Saint - Simoniens ص ٨٢٤ .

١٨- ذات المرجع ص ٤٢٢.

١٩- «ذكريات فتاة من الشعب» ص ص ٢٧١ - ٤٠٩ - ٤١٩.

٢٠- ذات المرجع ص ٤٢٠.

٢١- ذات المرجع ص ٤١٩.

٢٢- ج. ج. أمبير J J.Ampère «رحلة إلى مصر والنوبة» الطبعة الجديدة Calmann - Levy ص ١٢٩ تشير سوزان ڤوالكان Suzanne Voilquin أيضًا إلى وجود شخص يدعى ايتام بك وهو جنرال تركي أقنعه لومبير Lambert بمذاهبنا غير أنه توفي عام ١٨٣٥ ص ٣٣٨. ويشير ش ديدييه Ch. Didier في «ليالي القاهرة» Les Nuits du Caire ص ٣٧٤ إلى شخص باسم أدهم باشا Ethem Pacha معروف بثقافته وبترجمته لأعمال متعددة إلى اللغة التركية في مجال الرياضيات ومنها أعمال ل لوجوندر Legendre وبوردون Bourdon .

٢٣- راجع خطاب انفونتان Enfantin بتاريخ ٣١ مايو ١٨٣٤ «أعمال سان سيمون وانفونتان» Oeuvres de Saint - Simon et Enfantin المجلد التاسع والعشرين ص ١٧٣ .

٢٤- راجع مكسيم دي كوم Souvenirs Littéraires Maxime Du Camp «ذكريات أدبية» المجلد الثاني، الفصل التاسع عشر، مراسلات مع شارل لومبير، الصندوق السان سيموني بالترسانة.

ب. بونفون Maxime Du Camp et les Saint - Simoniens P. Bonnefoy ماكسيم ديكون والسان سيمونيون مجلة تاريخ فرنسا الأدبي عدد أكتوبر ديسمبر ١٩١٠.
Revue d'Histoire Littéraire de la France

أوريان Auriant المخطوط الأصلي (١٩٢٨ - ١٨٢٩) رقم ١٨ و١٩و٢١.

٢٥- راجع أوريان Auriant طبيب مستشرق: الدكتور بيرون «الأكروبول» «L'Acropole » عدد ١ يوليو وديسمبر ١٩٣٠. كرم ڤيكتور شولشر Victor Schoelcher الدكتور بيرون Perronواعترف بفضله ملخصًا أعماله في «مصر عام ١٨٤٥» « L'Egypte en 1845 »، باريس ٦٤٨١ ص ص ٦٤٠٥ راجع الفصل السادس.

٢٦- قام الأب انفنتان Enfantin بنفسه بعمل قائمة بأسماء من عاونوه في كافة المجالات وهي لم تضم فقط أسماء السان سيمونيين ولكن إلى جانب أبنائه وضع من كانوا أصدقاءه والذين رحبوا بمذهبه والذين لم تدرج أسماؤهم في قوائم الأوفياء لكنيسته. وقد بعث بها إلى أرليس دوفور Arles - Dufour السان سيموني المقيم في ليون. وهي تعد مرجعًا هامًا لنا لأنها توضح لنا مصير المشاركين في المغامرة المصرية اثني عشر عامًا بعد القيام بها. ويمكننا أن نرى فيها عام ١٨٤٥ ما آل إليه حال مغامري عام ١٨٣٣.

****

الفصل السادس

محامو وأعداء محمد علي

في الثامن عشر من أكتوبر ١٨٣٤ أي ثلاث سنوات بعد جوزيف ميشو Joseph Michaud وعام واحد بعد السان سيمونيين، وصل الماريشال مارمون Le Maréchal Marmont (١٧٧٤ - ١٨٥٢)إلى الإسكندرية. كان بمصر يختم رحلته وقد اختار لسطوره عنوانًا يلخص لنا به خط سيره:

"Voyage du maréchal duc de Raguse en Hongrie, en Transylvanie, dans la Russie méridionale, en Crimée et sur les bords de la mer d'Azoff dans quelques parties de l'Asie mineure, en Syrie, en Palestine et en Egypte".

«رحلة الماريشال «دي راجوان» إلى المجر وترانسلفانيا وروسيا الجنوبية وكريميه وضفاف بحر الآزوف والقسطنطينية وبعض أنحاء أسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر».

من كل البلاد التي زارها كان الأخير هو الأثير لديه لما له من جاذبية عليه. فقد كانت مصر تذكره بشبابه كان قد زارها قبل ست وثلاثين سنة خلت وأينما ذهب كانت تنبعث الذكريات المجيدة والخالدة لحملة بونابرت. كان سيده قد وافته المنية ولم يكن هو نفسه قد انتظر وفاته ليخدم غيره. فقد تركه عام ١٨١٤[١] وانضم إلى «حكومة الإصلاحيين» وفي عام ١٨٣٠ تم تكليفه بقيادة القوات في باريس لحماية شارل العاشر من القلاقل المتزايدة. أصبح المنتصر في عدة معارك والمهزوم أيام ثورة ١٨٣٠ الثلاثة، في الستين من عمره، منبوذًا، فاقدًا لحظوته لدى «ملكية يوليو». كان يرى في الرحلات وفي الفلسفة اليسيرة، سلوى عن إخفاقاته السياسية. نستطيع تصور انفعالاته وهو يعاود رؤية الإسكندرية التي

كان قد تركها سراً وراء بونابرت للعودة إلى فرنسا التي كانت تتهددها الأخطار وإلى أوروبا المتأججة. كتب يقول: «كم مرت من أحداث في الاثنتين والثلاثين سنة المنصرمة».

حاول مارمون Marmont في الفترة ما بين رحيله من أرض الفراعنة بحثًا عن الحرب والثروة وعودته كرحالة بسيط، غريب عن محيطه أن يتفهم حركة العالم ويتنبأ قدر جهده بما يمكن أن تصل إليه هذه الحركة من نتائج. كان قد بدأ رحلته من ڤيينا، وقيل أنه كان يحمل توصيات من الأمير ميترنيخ Metternich وكان قد تبعه عن طريق روسيا. كما أشيع في ذلك الوقت أنه لدى وصوله إلى مصر تلقى رسائل خطية من القيصر نيقولاس شخصياً. ما يمكننا تأكيده هو سفره بجواز سفر نمساوي وتحت حماية الملكية المزدوجة.

ومن هنا فلن يدهشنا أن نعرف أن الجالية الفرنسية بالإسكندرية لم تتقبله في البداية بصدر رحب. ذهب القنصل العام ميموه Mimaut لاستقباله بشكل فيه الكثير من الكياسة وأعلن مقدمه لمحمد علي. ورغم أن صلتهما كانت وطيدة إلا أنه كان يفضل إبقاءها في نطاق ضيق ومن هنا فلم يحضر مأدبة العشاء التي أقامها قنصل روسيا على شرف الماريشال.

أما محمد علي، فقد بهرته الألقاب والرتب العسكرية وأمجاد السلاح والمعارك التي خاضها مارمون Marmont لذا فقد استقبله بحفاوة بالغة[٢] ويرجع ذلك إلى أحد أمرين: إما لأنه بالغ في تقدير أهمية الماريشال أو أنه قد اعتمد عليه وعلى ما له من تأثير ليكسب ود بلاط دول أوروبا. بادره بالزيارة غداة وصوله. وعندما أنهى مارمون مدة الحجر الصحي التي تم تقليصها لتكريمه، طلب الإذن بالزيارة التقليدية. أرسل إليه محمد علي عربتين مزينتين بالمرايا كان قد تم استيرادهما حديثًا من فيينا. واصطفت له العسكر طوال الطريق ترحيبًا وتشريفًا. ولدى وصوله إلى القصر، تلقاه بنفسه وقاده إلى الديوان مفسحًا له مكانًا اثيرًا إلى جواره. وامتد الحوار بينهما إلى ساعة متأخرة من الليل بدون أن يشهد لقاءهما غير الوزير بوغوص بك يوسف وابن أخيه نوبار المترجم الرسمي، اللذين بقيا طوال الوقت واقفين احترامًا للضيف. كان أحدهما لطيفًا والآخر صريحًا. توقع مارمون Marmont أنه سيلقى عملاقًا لذا اندهش بعض الشيء من قصر قامة مضيفه

وإن كان قد هالته قوة شخصيته. وصفه قائلاً: «رغم أنه يتمتع بتقاسيم جميلة وأن لحيته البيضاء تزيد قوة تعبيرها، فإن عزة النفس ليست الطابع الغالب فيه».

«ما يستلفت فيه أولاً النظر هو الرقة والحيوية، نظرته ثاقبة روحانية ومتفحصة أما وجهه فهو دائم الحركة».[٣] افترقا كصديقين على وعد بلقاء.

في السابع والعشرين من أكتوبر ١٨٣٤ وصل قارب الدوق دو راجوز إلى مشارف مصر القديمة ورسا بالقرب من المنزل الجديد الذي كان الكولونيل السابق ساڤ قد بناه لنفسه. كان هذا الأخير ينتظره على الشاطئ. كانت الموسيقى العسكرية تعزف «المارسييز» و«الباريزيان». واستقبل مارمون Marmont بفيض من المشاعر من قبل زميله في السلاح. أي أهمية لموقفه عامي ١٨١٤ و١٨٣٠؟ ألم يكن بطل ١٧٩٩ و١٨٠٦؟ والرجل الأثير الذي عاش لصيقًا بنابليون؟

لم يكن هناك أكثر إثارة من هذا اللقاء على أرض مصر بين اثنين من الناجين من الملحمة الإمبراطورية. كان مارمون Marmont فوق كل هذا قائدًا أصيلاً ومحاربًا ممتازًا أثنى سليمان باشا على قدره وقدراته. ومن ناحيته رأى الماريشال في مساعده السابق في معسكر جروشي Grouchy مخططًا من الدرجة الأولى. فكتب يقول عنه: «هو اليوم في الخامسة والخمسين من العمر وهو يفيض قوة وحيوية.. هو نموذج لرجل الحرب.. ونظرًا لكونه قد خدم وحارب في فرنسا في المراتب والدرجات المعاني فقد أدرك معنى الحرب الكبرى وعمل به في مصر. هو جنرال محنك سوف يتميز في كل مجالس القيادة».[٤] ويمكننا بسهولة تصور لقاءاتهما المتكررة والودية في هذا المنزل الكبير على ضفاف النيل (وهو بحق منزل باشا). كانت غرفة المكتب فيه تزين جدرانها صور الإمبراطور والأمير أوجين Eugéne وني Ney ومارمون Marmont نفسه. وكان الرسام السان سيموني ماشورو Machereau يجتهد في زخرفتها.

زار الماريشال القاهرة في صحبة سليمان باشا ووجد أنها قد تغيرت تمامًا عنها عام ١٧٩٩ وازدادت جمالاً بطريقة غير معقولة»، وتزودت بالمدارس العسكرية والمصانع المتنوعة

الواقعة كلها تحت إدارة فنيين فرنسيين. في السابع عشر من شهر نوفمبر واسترشادًا بمجلد خطابات شامبليون، سافر مارمون على ظهر قارب أعاره أياه مضيفة إلى الصعيد. والحق أننا لن نتبعه في مساره هذا فهو ذات المسار الذي سلكه كل رحالة هذه الحقبة والذي أصبح تقليدياً: الفيوم، الإقليم الطيبي مع الوقفات الإجبارية في الأقصر ووادي الملوك(٥) غير أنه قد أضاف منعطفين في اتجاه البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية أحدهما في اتجاه القصير والآخر في اتجاه السويس ودير الأنبا بولس. بعد غياب طال ستة أسابيع عاد مارمون Marmont إلى القاهرة في الثاني من يناير ١٨٣٥.

كان محمد علي هناك حينذاك وقد سعد برؤيته مرة أخرى. كان شهر رمضان قد حل. وفي كل ليلة من لياليه كان الماريشال يذهب إلى القلعة ليحل ضيفًا على الوالي يدخنان معًا الغليون الطويل المطعم بالماس أو يحتسيان مع أطراف الحديث أقداح القهوة التركي. كانا يتناقشان في التنظيمات الإدارية والعسكرية والبحرية المتعلقة بمصر مركزين على مشاريع إصلاح النظام التي كلف بها سليمان باشا. كانت آخر مقابلاتهما في السابع من يناير وفيها رجاه مضيفه قبول علبة طباق مرصعة بالماس وجواد عربي مطهم كذكرى. واصطف الجنود الذين سبق لساف Seve تدريبهم لتحيته بينما كان يمتطي جواده الرائع متخذًا في وقار طريقه إلى مصر القديمة حيث كانت الجالية الفرنسية مجتمعة في المنزل المطل على النيل لوداعه. وفي الحادي والعشرين من شهر يناير، غادر الإسكندرية على متن فرقاطة تابعة للوالي.

كان قد بقي في مصر نحو أربعة شهور من السابع عشر من أكتوبر ١٨٣٤ إلى الثاني والعشرين من يناير ١٨٣٥. وقد خصص في كتابه عن رحلته آخر مجلدين لهذه الفترة. يقول في سطوره: «رويت مشاهداتي بترتيب رؤيتي لها وقلت بصدق ما شعرت به وما اعتمل في رأسي حينذاك حيالها. كتبت عن الأشياء الرائعة التي قام محمد علي بإنجازها بدون أي تردد في النقد إذا استشعرته في موضعه».(٦) كان مارمون Marmont يجيد الكتابة. ومؤلفه عن مصر مثله مثل مذكراته يشهد على دقة ملاحظاته وحكمته

ومنهجيته. بعض فصول كتابه تعد تحقيقات نسقية منظمة عن مصر الحديثة. يتناول أولها الجيش والمدارس العسكرية وثانيها الصناعة وثالثها الشؤون المدنية والإدارية، ورابعها عن الزراعة..إلخ.[٧] وقراءة صفحات مارمون Marmont ليست شاقة أو مملة لأنه حريص على إدراج مشاهد جمالية في متن النص مثل وصفه لرقص العوالم في معسكر الخانكة[٨] أو وصفه لقصر شبرا بحدائقه وأكشاكه ونوافيره.[٩] وصفحاته تتناول في تناسق بديع تارة ذكريات حملة بونابرت وتارة أخرى تأملات بها الكثير من التقدير والإعجاب مبعثها التغييرات التي طرأت على المدن وزادتها جمالاً [١٠] وأحسنت استغلال الريف. ألم يسد النظام والأمن محل الفوضى والحرب الأهلية؟ ولكن بأي ثمن؟ لا يغض مارمون الطرف عن نقاط ضعف النظام غير أنه أقل قسوة من صديقه القديم مونج Monge لدى استقباله لفوريه Fourier بالأكاديمية الفرنسية.[١١] فهو يحاول التخفيف من وطأتها بعبارات دبلوماسية، ويستبيح لنفسه النقد بصراحة وصدق أكبر في مراسلاته الشخصية.

كتب لي أحد أصدقائه الفرنسيين: «لاشك في أن محمد علي شخص وهبته الطبيعة ملكات متميزة فله نظرة سريعة وشاملة مع حدس حقيقي للأشياء العظيمة. غير أن افتقاده للعلم يجعل اختياره لطرق التنفيذ عسيرًا. ومن هنا فهو لا يحسن الحكم عليها، وكثيرًا ما تتحكم فيه تربيته ونشأته في سنواته الأولى، فيطغى التركي النهم والعنيف حيث يتوقع منه الحكمة والبصيرة. هناك في ذهنه شيء من عدم الوضوح، تصاحبه رغبة غير محدودة في إرواء نزعته للطموح والشهرة مع نفاد صبر طفولي يجعله يبغي الحصول على النتائج التي لم يعمل لنيلها أو بذل جهدًا غير موفق تمامًا للحصول عليها.

وسمة نفاد الصبر، سبق ل ج. ميشو Michaud التوقف أمامها باعتبارها ملمحًا أساسيًا في طباعه. وقد أغفل مارمون هذا الرأي في الطبعة الرسمية لمؤلفه لتفضيله الاحتفاظ ببعض أفكاره لنفسه[١٢].

عندما تلقى محمد علي النسخة التي أرسلها إليه المؤلف تكريمًا وتشريفًا طلب من بوغوص بك يوسف أن يترجم بعض فقراتها.

وقد رأى أن الكتاب يخدم أغراضه في أوروبا. انشغل في الداخل بضمان عرش مصر لسلالته بل وحاول وإن كان ذلك بدون جدوى تذكر أن يجعل من الدوق دو راجوز Duc de Raguse بطل قضيته والمدافع عن طموحاته في بلاط أكثر من دولة أوروبية.(١٣) فقد كان محمد علي لا يعدم وسيلة يمكن أن تخدم أغراضه وتحقق ما يبغي. وقد مهر في استقبال زواره الفرنسيين واستقطابهم إلى صفه. وقد كثرت الأعمال الأدبية التي كتبت عن مصر وذخرت بالمديح والتقريظ عن «سيزوستريس الحديث» عرفانًا لشخصه. قلائل هم الرحالة الذين واتتهم الجراة مثل ج. ميشو Michaud وب. بوجولا B. Poujoulat والكونت دستورمل J. d'Estourmel على إدراج بعض الانتقادات والتحفظات على أعمال محمد علي. فقد كان عصر المؤرخين بعد مونجان(١٤) Mengin وموريان:(١٥) Mouriez وكلوت بك Clôt -Bey..

طرحت «مسألة الشرق» ووجد الباشا في فرنسا تأييدًا. وأضحى فرنسيو مصر محامين عنه ومدافعين عن سياساته. يضيق المكان هنا عن دراسة كل ما يخص فترة حكم محمد علي. فهي في غير نطاق دراستنا. غير أننا لا يمكن أن نغفل عن أعمال كفالدان Cavaldéne والدكتور كلوت بك Clôt -Bey.

كان أ. كفالدان رجل أعمال لا يعرف عنه الكثير. جاء إلى مصر عام ١٨٢٩ وقام برحلة إلى جنوبي الوادي في ذات الفترة التي كانت فيها «لاكونتوبنوران» المعاصرة La Contemporaine موجودة بها. وكان بصحبته صديقه ج. جو بروڤوري Breuvery ويبدو أنه أقام بالقاهرة عدة سنوات عمل فيها كمراسل للبنوك الفرنسية.

بعد حملة محمد علي على سوريا (١٨٣٢ - ١٨٣٣) هيئ لأوروبا أنه خال الوفاض وأن خزائنه فارغة. لذا فقد عرضت عليه بعض الجماعات المالية خدماتها وتقدم إليه كفالدان Cavaldéne بعرض باسم روتشيلد Rothschild لإقراضه مائة مليون. غير أن الباشا توجس مما أطال المباحثات. وبسبب البطء في البت في الأمر، سنحت أمام المفاوض فرصة عمل رحلة إلى صعيد مصر والتحقق من مدوناته عن أول رحلة قام بها.

كان شائعًا عام ١٨٣٦ استقطاب انتباه القراء بعناوين ذات صلة بمجريات الأمور وأحداث الساعة لهذا فقد جعل كفالدان Cavaldéne عنوان كتابه عن هذه الرحلة: «مصر وتركيا من ١٨٢٩ إلى ١٨٣٦ L'Egypte et la Turquie يغطي المجلدان الأول والثاني الرحلة إلى النوبة. وقد نشرهما على حدة عام ١٨٤١. وقد أضاف إليهما لتبرير صفحته الأولى مقدمة عن «مسألة الشرق» وهو يشيد في مؤلفه بمحمد علي وإن كان يلوم أوروباعلى تركها الإمبراطورية العثمانية تتفتت تاركين الفرصة لظهور بولندا أخرى إلى الوجود.

كان دوكفالدان Cavaldéne ودوبروڤوري Breuvery من الرحالة الأمناء المنشغلين بالمسائل الاجتماعية والسياسية. وكانا مؤرخين لعصرهما لا تنقصهما المعلومات(١٦). قام أولهما بالاشتراك مع السان سيموني بارو Barrault في كتابه مؤلف عن المراحل الأساسية في الصراع التركي المصري.

سنترك جانبًا هنا ما حكياه عن رحلتهما إلى صعيد مصر والنوبة. استرشدا بخطابات شامبليون. وليس في ما كتبا شيئًا أفضل مما قدمه لنا جان جاك أمبير J. J. Ampére. ومكسيم دي كوم Maxime Du Camp. غير أن وصفهما لمحمد علي فيه الكثير من الصدق والدقة والعمق.(١٧) التفتا مثلهما مثل ميشو Michaud ومارمون Marmont إلى نفاد صبر محمد علي انتظارًا لتحقيق رغباته وأوامره. فعندما زاراه مع القنصل ميموه Mimault كان قد تلقى حديثًا من باريس طبعة فاخرة من كتاب «حياة الإسكندر» وكان متلهفًا لمعرفة تاريخ هذا البطل المقدوني مثله. سأل أحد التراجمة في مجلسه كم من الوقت تستغرق منكما ترجمة هذا الكتاب؟ إنّ عشرة أشهر مدة طويلة جداً، قالها محمد علي بحيوية، ثم أمسك سيف أحد قواسيه وقسم به المجلد الفاخر إلى ثلاثة أقسام ناولها له قائلاً: بهذه الطريقة يمكن لثلاثة القيام بالعمل. تلزمني هذه الترجمة بعد شهرين(١٨).

الواقعة نموذجية ولن نجد ما يماثلها في مؤلف الدكتور كلوت بك Clot - Bey الضابط الذي أصبح لاحقًا قائدًا لجوقة الشرف وعضوًا بالأكاديمية الملكية للطب في باريس ومديرًا لمستشفى أبي زعبل ومؤسسًا لمدرسة الطب بالقاهرة وواضعًا لأساس الخدمة الصحية بمصر. مؤلفه يحمل عنوان: «نظرة عامة على مصر» Aperçu générai Sur L'Egypte وقد كتبه في بضعة أشهر ونشره عام ١٨٤٠ تلبية لمتطلبات ملحة يسوقها إلينا قائلاً:

«تناقش الصحافة والدبلوماسية وأوروبا كلها اليوم حاضر مصر ومستقبلها تمهيدًا لاتخاذ قرار نتائجه واسعة المدى. من هنا فقد رأيت وجوب الإسراع بتقديم الكم الأوفر المتاح من المعلومات اللازمة للقضية. هذا سبب العجالة التي كتبت فيها هذه الصفحات».

تم إهداء المجلد إلى محمد علي ونستشعر فيه دفاعًا عنه. يعد الكتاب من زاوية الوقائع عرضًا موضوعياً وملخصًا للوضع مستندًا إلى خبرة خمسة عشر عامًا. أما من ناحية الميل والنزعة، فهو كتاب يحوي رؤية عامة براقة مبالغ في تفاؤله، تركت فيه المثالب في الظل(١٩). لم يقل الطبيب العلامة ما يناقض الحقيقة ولكنه لم يقل كل شيء. استند إلى مراجع كثيرة وقيّمة وكان يطمح إلى استكمال ما قدمته كتابات مارمون Marmont وج. ميشو J. Michaud ومونجان Mengin وكدالفان Cadalvéne وبروفوري Breuvery وحتى وليم لين William Lane قنصل إنجلترا ذو الرؤية الثاقبة، صاحب الكتاب المتميز والذائع الانتشار عن عادات وتقاليد المصريين المحدثين(٢٠) والذي يستوحي لاحقًا جيرار دي نرفال بعضًا من أفكاره.

من خلال صفحات كلوت بك J Clót - Bey نحيط بالمشكلات، أحيانًا بإيقاع الزيارات الرسمية السريع ولكننا في كل الأحوال نضع يدنا على لب كل موضوع. تعرض فصوله لعصره بوضوح ودقة عالية فائدة علم الأجناس والعلوم الطبيعية والدين والقانون والتاريخ والعرف والحكومة والأشغال العامة والفنون والآثار. ذلك أنه قد ضمن عون ومساهمة مساعديه البارزين جومار Jomard ومونجين Mengin ولينان دي بلفون Linant de Bellefond وسوريزي Cerisy وكل الذين شاركوا في بعث مصر الحديثة.

ويعد الفصل الذي خصصه للفن الإسلامي جديدًا من نوعه. وقد استند فيه إلى المهندس المعماري باسكال كوست Pascal Coste الذي ولد في مارسيليا وسبق في هذا المجال بريس داڤان Prisse d'Avennes وتدين له الآثار الإسلامية بأول مؤلف عن الفن العربي.

كان محمد علي قد استدعاه عام ١٨١٧ لتشييد مصانع لملح البارود ومخازن للبارود. وقد صال وجال في كل أرجاء مصر طيلة عشر سنوات ملأ خلالها صناديق برسومات دقيقة للغاية لا تقارن في وضوحها. وكان قد نشر أفضلها قبل كتاب كلوت بك Clôt - Bey في مؤلف رائع بعنوان: «الهندسة المعمارية العربية أو معالم القاهرة»[٢١] Architecture arabe ou monuments du Caire (١٨٣٧ - ١٨٣٩). كنا قبله نعرف بلا شك الفن المغربي الأسباني وفن أفريقيا الشمالية. ولكن يمكننا القول بأنه قد أتانا في فترة ازدهار الاستشراق في اللوحات والكتابات الأدبية الفرنسية المرجع الأكثر كمالاً وجدية عن الهندسة المعمارية الإسلامية في مصر.

وهناك فصل آخر ذو دلالة وهو الذي كتبه كلوت بك بقلمه عن الجالية الفرنسية بالقاهرة. وهي تضم إلى جانب مئات التجار أطباء وصيادلة وعشرين معلمًا عسكرياً وخمسة وعشرين مدرسًا أغلبهم فرنسيون.

أجاد كلوت بك Clôt - Bey صياغة الفصل الخاص بالتعليم لاستمالة الأوروبيين. هل تتخيلون أن الباشا منذ تكوين البعثة المصرية عام ١٨٢٦ قد ابتعث مائة وأربعة عشر طالبًا مصرياً إلى باريس. من أعضاء هذه البعثات هناك أسماء بارزة منها عثمان بك نور الدين الذي أسس مدرسة أركان حرب الخانكة، ومختار بك وزير المعارف العامة وأرتيم بك أول مترجم فوري للأمير والشيخ رفاعة الطهطاوي كاتب العمل الممتع عن رحلته إلى باريس «تخليص الإبريز في وصف باريس» والمترجم ومدير «مدرسة الألسن». ما الذي يمكن قوله عن المدارس التي تم إنشاؤها على النمط الفرنسي، الإبتدائي منها والإعدادي والمتخصص والتي تضم تسعة آلاف طالب يعيشون على نفقة الدولة؟ أليس مشهدًا مثالياً؟

كتاب كلوت بك «نظرة عامة على مصر» «Aperçu général sur L'Egypte» عمل تبريري وتقريظي للدعاية ولكنه في النهاية يسمعنا النبرة التي كانت عليها المؤلفات الفرنسية عن مصر على مشارف عام ١٨٤٠. في باريس، قام جومار Jomard العضو السابق بمعهد مصر بالرد عليه وإسماعه صدى سطوره. كان قد أصبح شخصية بارزة وعضوًا بأكاديمية النقوش والفنون الرفيعة عام ١٨١٨ وأمينًا لقسم الخرائط بالمكتبة الملكية. اعتبر مصر مجالاً محمياً هو الوحيد القادر على سبر غوره.

نتذكر جيدًا الصعوبات والعراقيل التي وضعها أمام شامبليون الذي لم يطق نجاحه. كان قد بقي على صلة بحكومة محمد علي وكان هذا الأخير قد عهد إليه بالإشراف على الطلاب المصريين المبتعثين. كان جومار Jomard هو مدير البعثة المصرية[٢٢] وكان قد ضم إليه الأرمني جوزيف أجوب Joseph Agoub ليساعده. وجوزيف أستاذ للغة العربية في «كوليج لوي لوجران» كانت له ترجمات للأناشيد العربية ألهمت فلوبير Flaubert معارضته المتعة «نشيد محظية» Le Chant de la Courtisane[٢٣] من الممكن عدم الاتفاق مع كلوت بك Clót - Bey في حماسه بسبب نتائج أول بعثة مصرية. من بين المبتعثين كثيرون حاولوا التأقلم وإن كانوا لم يجدوا لدى عودتهم ما يتناسب وكفاءاتهم فقد كان محمد علي يعينهم كيفما اتفق الأمر.

وكثيرون منهم أيضًا فشلوا في التكيف. في قصيدة جد هزلية بعنوان La Bacriade نظمها الشاعران بارتيليمي Barthelemy وميري Mért ورد ذكر هؤلاء الطلاب الذي كان جومار Jomard يشرف عليهم. وكان هذان الشاعران قد نظما في السابق ملحمة من الأبيات الشعرية عن نابليون في مصر كما أشرفا على سفر الرحالة والأدباء أمثال جيرار دي نرڤال Gerard de Nerval وفلوبير Flaubert.

«يخرجون يتبعهم حشد من المترجمين
ويستقبلهم المعهد في محاضرات سرية
جيلبرت بيكسيريكور Guilbert Pixerecourt الذي ليس لديه جديد
دعاهم جميعًا لافتقاده إلى من يسمعه

لا شيء يمكنه تغيير قلقهم المبهم
أرواحهم في عزلة تامة
يبكون على ضفاف السين نفيهم
ويبحثون حولهم عن شلالات النيل»[٢٤]

في هذه الفترة كانت مصر وفرنسا متقاربتين: تبادل الأمراء الزيارات وتبادل لويس فيليب ومحمد علي الهدايا. في عام ١٨٤٥ وصل إلى الإسكندرية الدوق دو مونتبونسييه Montpensier ولغياب القنصل العام لاڤاليت Lavalette في هذه الآونة استقبله نائب عنه كان يتم إعداده وتدريبه ليصبح سفيرًا لفرنسا في برلين. زار الأمير الفرنسي القاهرة والسويس والصعيد.[٢٥] في السادس من نوڤمبر من ذات العام، حمل مبعوث فوق العادة من وزير الخارجية إلى محمد علي نوط جوقة الشرف. من هنا قرر نائب الملك إرسال إبراهيم وريث العرش إلى فرنسا في زيارة رسمية على أن يصحبه سليمان باشا الذي كان ابنه حينذاك يدرس في باريس[٢٦] ليس بمستعجب إذًا أن تزخر الصحف الفرنسية بمقالات تقريظية. مجلة لاروڤو دي دوموند Revue des Deux Mondes ولومونيتور أونيڤرسال Le Moniteur Universel كالتا التقريظ والمدح لباعث مصر إلى الحياة و«مُحضِّر الشرق».

ليس هناك مثال يحمل طابع هذا النوع من الأدب أفضل من الكتاب المجامل بإفراط ومبالغة والذي يحمل عنوان «مصر في القرن التاسع عشر» الذي نشره أ. جوين E. Gouin بمناسبة زيارة إبراهيم إلى باريس ١٨٤٦. لم تجد الصحف مشقة في إيجاد وصف تقريظي لمحمد علي وإدارته في مقالات جومار Jomard وكتابي مارمون Marmont وكلوت بك Clót -Bey ورغم التحفظات المفصلة التي أوردها كلوت بك في وصف محمد علي ألم يكتب: إنه يعكس عبقرية نابليون وشارل الثاني عشر وبيير لوجران Pierre Legrand لا شك أن بعض المفكرين بقوا متشككين وإن لم يصلوا في قسوتهم على النظام إلى ما كان عليه مونج Monge في السابق وهو يستقبل البارون فورييه Fourier في الأكاديمية الفرنسية. صرح شاتوبريان في شيخوخته بشكوكه وقلقه في

كتابه «ذكريات ما بعد القبر» Mémoires d'outre tombe «أنا لا أترك نفسي فريسة للانبهار بالسفن البخارية أو السكك الحديدية وبيع منتجات الورش وثروات بعض الجنود الفرنسيين والإنجليز والألمان والإيطاليين الذين يعملون في خدمة الباشا، فليست هذه هي الحضارة. غير أن محمد علي يمثل استثناءً. فقد استطاع بشخصيته القوية وانتصاراته والدعاية التي يحرص على إذكائها أن ينعم بتأييد رأي المجموعة الحاكمة في فرنسا، وبينما كانت تركيا تمثل الطغيان والروتين والماضي، كان هو في أعيننا رمزًا للحرية والتقدم والمستقبل».

إلا أن ذلك لم يمنع صحفيًا من تحذير الجمهور وخوض معركة ضارية دامت سنوات في الشرق ضد نائب ملك مصر. كان يحرر رسائل هجاء وقد طواه النسيان بعد علوّ صيته. اسمه بوسكيه ديشون Bousquet Deschamps حكمت عليه فرنسا بالسجن لهجومه الشرس على حكومة لويس الثامن عشر. وما إن غادر سجون حكومة الإصلاحيين حتى قرر المجيء إلى الإسكندرية، ووضع قلمه تحت إمرة «باعث الحياة في مصر». سمح له محمد علي، بناء على طلب دروڤيتي Drovetti بإصدار ورقة أسبوعية بعنوان: «أصداء الأهرامات» «L'écho des Pyramides». غير أنه ما لبث بعد شهر أن منعها بسبب إفشاء أسرار. هاجر بوسكيه ديشون إلى آسيا الصغرى حيث أصبح رئيسًا لتحرير جريدة «أزمير»، استخدمها في شن حملة هجومية على محمد علي ووزيره الأرمني بوغوص بك يوسف الذي كان مترجمًا فوريًا لمارمون Marmont وقد أظهر في هذه الحملة قدرات وموهبة عالية مع قدر كبير من الشراسة.

كان قادرًا على القدح، ذا قريحة ولباقة وأسلوب. ثابر على بث أحقاده وتهكماته واعتراضاته مما أفسح لها في الأفق مكانًا فذاعت وانتشرت. وقد طرح على محمد علي تساؤلاً عما آلت إليه مصر وأجاب بنفسه عليه قائلاً: إنها مزرعة يستغلها أجنبي. وألحق هذه الإجابة بسؤال عما يسميه حضارة ومكان وجودها، مستنكرًا إطلاق هذه الكلمة على ما يرى. «هي مأساة تختفي وراء مغناة هزلية. بعض السرايات التي يعاد طلاؤها وتوضع على واجهتها زيفًا كلمة مدارس. وحول الباشا ماذا يرى؟ أجانب يقومون بكل العمل: أرمن يشغلون الوظائف العامة وعبيد شراكسة في مناصب الوزراء ومارقون أصبحوا بكوات

وبشوات، وجنود ألمان أصبحوا ضباطًا، ونافخو مزامير سويسريون أضحوا معلمين يلعبون دور الجنود، وعرب متنكرون في صورة عساكر وحلاقون في هيئة أطباء، وطباخون في وظائف مدرسي لغة. هذا غير السان سيمونيين الذين أصبحوا موسوعيين، متعددي الفنون والعلوم والسان سيمونيات اللائي أصبحن جواري يعتنقن الإسلام أمام الدعاة تدعيمًا وتمجيدًا لهذا الدين الجديد ولحرية المرأة. هي مسخرة عامة. كل هؤلاء يتسارعون ويتكالبون على أرض الفراعنة الجميلة الفتية الخصبة الغنية بتراكم سنيهم وأعوامنا والتي تفتقر إلى الرجال والأشياء».(٢٧)

وقد أصابت الضربات أهدافها. فقد كان محمد علي هشًا أمام هذا الهجوم مما جعله يقول: «وددت لو كنت بالملايين منعت صدور هذه الصحيفة ولا ألوم غيري في وجودها لأن من أصدرها جاءني يطلب رضائي وصددته»(٢٨)

ويعد موقف بوسكيه ديشون Bousquet - Deschamps علامة فارقة ومنذرة بالتغيير الذي سيطرأ تدريجيًا. ففي السنوات الأخيرة من حكم محمد علي، ظهرت عدة كتب تشهد بتغير حاد عما كان مألوفًا. وتشير إلى ميلاد أقلام ناقدة أكثر هجومًا وتمردًا. لا أعني بكلماتي هذه نص جوبيل فسكيه Goupil Fesquet «رحلة هوراس ڤرنيه إلى الشرق» Voyage d'Horace Vernet en Orient وهو عمل تصويري جمالي ندين به لريشة رسام، ذكرت في متنه المقابلة التي تمت بين الفنانين والباشا بشكل معبر فيه الكثير من الحيوية. وإنما أقصد الوصف الذي ساقه هوراس ڤرنيه Horace Vernet بنفسه في خطاب كتبه من القاهرة بتاريخ السادس عشر من نوڤمبر ١٨٣٩ من مشفى السجن الذي يطلق عليها (مورستان قلاوون) حيث كان يحتجز من القرن السادس عشر كل معتوهي المدينة. وهو ما يمثل نقيض تصريحات الدكتور كلوت بك Clót -Bey المتفائلة: «حفرت في جدرانها كوات بها أسياخ حديدية ضخمة. أما في الداخل فقد كان هؤلاء المساكين الذين حرموا نعمة العقل بدون ملابس جالسين على الأحجار بغير حشايا ناهيك عن القاذورات والأتربة المتراكمة. حول رقابهم سلاسل ثقيلة مزدوجة أطرافها موصلة بحلقتين خارجيتين حفر احتكاكها بالأرض مجرى عمقه يبلغ قدمين أو أكثر. مشهد رهيب

ومهين يصعب تخيله في منتصف القرن التاسع عشر في بلد يدعي القيام بخطوات واسعة نحو الحضارة. تسلط هذا المشهد على هوراس ڤرنيه Horace Vernet طوال اليوم وكأنه من الجحيم وشق عليه استبعاده من ذهنه. وقد خلص في خطابه إلى أن الذين ينتظرون هنا تقدمًا باعتباره حضارة يخطئون. فما يجري ليس إلا نوعًا من النظام في ظل حكم استبدادي يحاول توزيع الثقل بحيث لا يفلت أمر ولا يمكن لأحد الخلاص منه».(٢٩)

و«النظام في ظل الحكم الاستبدادي» عبارة سوف يتوقف الرحالة الفرنسيون من الآن فصاعدًا أمام شقها الثاني. ونلاحظ أنه قبل صدور مجلد بريس داڤان Prisse d'Avennes «مصر الحديثة»(٣٠) الذي يرسم فيه مع أقرانه صورة أقل تعاطفًا مع النظام، لدى الناشر Didot عام ١٨٤٨، ظهرت أصوات تشذ عن كونشرتو المديح المألوف منها صوت المستشرق أوزاب دوسال Eusébe de Salles والبيطري ب. ن. هامون P. N. Hamont والنائب المناهض للعبودية ڤيكتور شولشر Victor Schoelcher وحاكم المقاطعة جسكيه Gisquet

كان أوزاب دوسال Eusébe de Salles المترجم السابق لجيش أفريقيا والمدرس في مدرسة اللغات الشرقية قد أعد نفسه لكتابة مؤلفه «جولات في الشرق» بحصيلة عشرين عامًا من العمل كفقيه لغوي ومؤرخ وعالم في الطبيعة. قام برحلته إلى مصر بعد الماريشال مارمون Marmont بنحو ثلاث سنوات (١٨٣٧ - ١٨٣٩) غير أنه لم ينشر مؤلفه عنها إلا عام ١٨٤٠ عندما انفجرت «مسألة الشرق» بأوسع مدى لها. باعتباره كاثوليكيًا متشددًا لم يبد أوزاب أي تعاطف مع الدين الإسلامي. وهو يقر بذلك بدون مواراة(٣١) ويبدو حكمه الذي لا يترك مجالاً للشك، قاسيًا بعض الشيء على مصر. كتابه زاخر بمعلومات سيقت بكثافة عالية. أما الجزء من يومياته الذي كتبه أثناء الرحلة إلى صعيد مصر. فهو ممتع ومفيد وثري بالتفاصيل الجمالية وبالتأملات العلمية. وصل في رحلته النيلية إلى الشلال الثاني ووصف معابد النوبة سعيًا لتأكيد واستكمال ملاحظات شامبليون.

وقد ندد أوزاب مثله في ذلك مثل شامبليون Champollion والكونت ديستورمل

C.d'Estourmel بهدم الآثار التي أشارت إليها لجان الحملة الفرنسية. وقال موجهًا حديثه إلى أعضائها: «إيك يا جولوا Jollois ويا دڤيلييه Devilliers يا من وصفا هذه الأماكن بحب. إيك يا جومار يا من صدق في إمكانية إعادة الحياة لمصر وآمن بعلم واليها.[٣٢] فهنا تكمن الفكرة التي تمحور حولها كتابه: شهرة محمد علي تجاوز قدره. لقد نجح في عمل سمعة طيبة له في فرنسا بعلاقات محسوبة. فما إن يزور مصر شخص ذو مكانة حتى يحيطه بالتكريم وتنظم له الرحلات المجانية مع نحو عشرين وجبة يومية. كما يزود بالقوارب والبغال والجمال والسياس والقواسين بعدد يصعب حصره، وتطلق المدافع وترصد له تشريفات الأمراء...»[٣٣]

والباشا حاذق تمامًا وخلف دماثة خلقه تتوارى دبلوماسية رفيعة. ويتساءل الكاتب ألم ينجح في إقناع المسلمين بأنه محافظ يحترم العقيدة والتقاليد الإسلامية وإقناع الأوروبيين بأنه إنسان متطور ومتحرر ومحب للبشر. هو ماهر في المقاصد الخفية.

بالغ البعض في اللوم وكال البعض الآخر المديح بدون حساب. وبقي الواقع غير واضح المعالم. «عرض صادق محايد يقودنا إلى الحقيقة».

على هذا النحو، قدم ب. ن. هامون P.N.Hamont لكتابه: «مصر في عهد محمد علي»[٣٤] «L'Egypte sous Mehemet Aly». وهامون هو المدير السابق للمدرسة البيطرية بالقاهرة.

والكتاب عمل ضخم لم يراع فيه الكاتب أدنى قدر من الفن أو التنسيق أو التبويب. وهو ثمرة فترة إحباط. فبعد توقيع معاهدة لندن، غضب محمد علي من الأوروبيين ومن فرنسا التي لم تسانده بقوة كما كان ينبغي. وثار على كل من ابنه «إبراهيم» وحفيده «عباس» اللذين لم يحسنا نصحه.

من هنا فقد طرح الإصلاحات وراء ظهره، وأغلق بعض المدارس، وفصل عددًا كبيرًا من المدرسين والفنيين. في هذه الفترة أعفى هامون Hamont من منصبه.[٣٥] أما منافسه وغريمه كلوت بك Clót - Bey فكان يبدو واثقًا من بقائه في إدارة مدرسة الطب. وكان قد

انتهى في هذه الفترة من نشر كتابه التقريظي «نظرة عامة على مصر» راودت هامون نفسه في دحض كل ما جاء بهذا الكتاب. من هنا فقد غمره حقد دفين يتراءى للقارئ وراء الموضوعية الوهمية للبحث: «كنت أعتقد أن محمد علي هو مبعوث العناية الإلهية، ولكني أخطأت التقدير. تم تدريس العلوم والفنون وتم تشغيل مصانع ومغازل. ورغم ذلك فقد تفاقم الضرر ولم يتم التحول المأمول. فالأمة لا وجود لها والبؤس ساد في كل أنحاء مصر. قلص المرضُ والتجنيد الإجباري والهجرة والحربُ عددَ السكان وأنضب الاحتكار ثروات البلد. ومضى الفساد كالصدأ يستشري في آليات الحكومة. علينا ألا نأمن للتصريحات الرسمية والإحصائيات المغرضة».

في كل لحظة، يعترض هامون Hamont على نبرة التفاؤل المفتعلة التي تسيطر على كتاب كلوت بك Clôt - Bey بل يذهب إلى حد اتهامه بسوء النية. إذا ما صدقناه القول فإن الزيارة التقليدية لمدرسة الطب بأبي زعبل ليست إلا ملهاة أحسن تأليفها. يتفق المدير بمهارة على إعداد زيارات التفتيش هذه وعلى تزييف نتائج الامتحانات. وعندما حضر الطبيب باريزيه Pariset سكرتير أكاديمية الطب بباريس ورئيس لجنة امتحانات المدرسة[٣٦] إلى القاهرة لدراسة الطاعون تم تضليله مثل كثيرين آخرين غيره. مصر الحديثة ليست إلا واجهة مصطنعة أقامها حاكم مستبد «وراءها شعب يرزح في البؤس».
ألهم كتاب ب. ن. هامون P.N.Hamont سياسيَّيْنِ فرنسيين جاءا إلى مصر في نفس الفترة أي عام ١٨٤٤ وهما ڤيكتور شولشر Victor Schoelcher المناهض للعبودية وحاكم المقاطعة جسكيه Gisquet. كان الاثنان نائبين لم يتبعا يومًا حزبًا واحدًا. هـ. چيسكيه (١٧٩٢ – ١٨٦٦) شغل في بداياته وظيفة مصرفي. وكان شريكًا لـ «كازيمير بيرييه Casimir - Perier» ثم أصبح عضوًا مؤثرًا في المعارضة تحت حكومة الإصلاحيين. وقد أبلى بلاءً حسنًا بعد أيام يوليو الثلاثة الخالدة. كانت حياته العملية ناجحة للغاية ولكن قصيرة زمنياً بعض الشيء. تولى عام ١٨٣١ منصب مدير في الشرطة وفقد في العام التالي شعبيته نتيجة بعض التعليمات التي أصدرها خلال انتفاضة ١٨٣٢ مع مجيء الوزير موليه Mol. عين جيسكيه بعد ذلك مستشارًا للدولة وكوماندورًا حاملاً لوسام جوقة الشرف. ثم فضل الالتفات إلى حياته الخاصة والانغماس في مجال الأعمال. هنا بدأ اهتمامه بالرحلات ومنها رحلته إلى مصر.

أما ڤيكتور شولشر (١٨٠٤ – ١٨٩٣) فقد عرف في محيطه خلال ملكية يوليو كصحفي متحرر ومدافع عن الأفكار الجديدة. كرس جل وقته للمطالبة بإلغاء العبودية. وبعد قيامه بتحقيقات في الولايات المتحدة وجزر الانتيل، سافر يومًا إلى الإسكندرية بهدف دراسة العبودية في الإسلام لمقارنتها بالعبودية المسيحية وتأمل «شعب أعاده حاكمه إلى الحياة». عين لاحقًا وزير دولة للمستعمرات وأصدر عام ١٨٣٨ مرسومه الشهير لإلغاء العبودية. وهذا موقف اجتماعي وسياسي يجعلنا نستشعر مقدمًا محصلة رؤياه عن مصر.

هذه المحصلة وضعها الكاتب في صدر مؤلفه: «مصر عام ١٨٤٥» L'Egypte en 1845 الذي تم تبويبه بشكل به بعض الغرابة. فالتجربة الشخصية لحقت بالعرض المنهجي بدلاً من أن تسبقه. وقد أرجأ النص الخاص بالرحلة من الإسكندرية إلى الأقصر إلى الجزء الثاني حيث يحيد كثيرًا عن وجهته بإضافات طويلة نسبياً عن القرآن والأجناس والأهرامات. يبدأ المجلد بالجزء السياسي وفي ذلك دلالة. فشولشر يمضي صوب هدفه مباشرة. من غير المجدي القول بأن مرارته كانت تعادل إحباطه. وقد عبر عنها بسخرية حادة لا تعرف الهوادة. يشيد بجهد كلوت بك Clót - Bey في التنظيم الطبي ولكنه يبدو قاسيًا حيال المديح الموجود في مؤلفه ويرى أنه يجعل كلوت بك متملقًا.

لدعم ملاحظاته يشير شولشر Schoelcher إلى أوزيب دي سال Eusébe de Salles وهامون Hamont والدكتور بيرون Perron الذين يعتبرون بالنسبة له شهودًا محايدين جديرين بالثقة. وإن كان لا يحظى بأسلوب بوسكيه ديشون الروحاني فقد شابهه في طلاقة لسانه وبلاغته الحادة مما جعل مرافعته زاخرة بتراكيب مفزعة. لا يوجد ما هو أشرس من فصوله المليئة بالأمثلة والوثائق عن الضرائب التي يتم تحصيلها بضربات العصا وعن التعذيب والسجون واستغلال البغايا وبؤس الفلاحين وتحويل الرجال إلى أغوات واقتناص الرجال في سنار وكردفان والتسرب التدريجي من المدارس. وقد علق على هذه الجزئية الأخيرة قائلاً: «لم تكن المدارس بالنسبة لمحمد علي سوى أدوات حرب. وهو ينصرف اليوم عنها لانتهاء دوره كمعتدٍ[٣٧]. أما الفلاح فيموت تضورًا بجانب مخازن

نائب الملك الملآنة عن آخرها بالغلال[٣٨] ويردف قائلاً: «علينا ألا نتكلم عن الجنسية المصرية فهي كذبة سياسية: «محمد علي تركي الأصل وقد بقي تركياً ولم يفكر يومًا في أن يصبح مصرياً. فهو يعتبر مصر بلدًا استطاع غزوه، شعبه منهزم وينبغي أن يبقى في وضع الشعب المهزوم». [٣٩]

أما جسكيه Gisquet فهو أقل حماسًا في كتابه «مصر والأتراك والعرب» L'Egypte, les Turcs et les Arabes وقار رسمي وميل لادعاء المعرفة مع كم من حب الإنسانية والتسامح تجعل كلها انطلاقه مستحيلاً. ومن ثم فالتلقائية مفتقدة في هذا الكتاب التجميعي. فقد ألف جسكيه كمدير للشرطة أن يقرأ ويستخدم التقارير. وهو يستدعي كل من سبقوه للتدليل على صدق روايته بأوراقهم منذ الحاج دانجولور d'Anglure وحتى شولشر Schoelcher وهامون Hamont مرورًا بڤانسلب Vansleeb ودومابيه D. Maillet وبول لوقا Paul Lucas وسيكار Sicard وبوكوك Pococke ونوردون Norden ونيبور Niebuhr وڤولنيه Volneyوساڤاري Savaryودونان Denon وبالتأكيد شامبليون Champollion.

في عرضه المعرفي تحتل مصر القديمة مكانة مماثلة لمصر الحديثة. وقد ذهب إلى أبعد من شولشر ووصل في رحلته إلى أسوان. نستنتج من كل ذلك أن الاستشهادات تتابعت بشكل مكثف وممل.

ويترك المؤلف نفسه على سجيتها في فلسفة الأمور بأفكار الآخرين. ولكنه كثيرًا ما يجد نفسه مضطرًا للعودة من إسهاباته التاريخية إلى ما يحيطه من أحداث معاصرة مقلقة. وهو وإن كان أكثر تحفظًا من شولشر Schoelcher إلا أنه يدعو إلى ذات رأيه في كون «محمد عليّ يستغل مصر كما تُستغل عزبة[٤٠]. وهو يعطي مثالاً للطغيان الجاهل[٤١]. وهو رجل قد يفوقهم ولكنه غير كامل[٤٢]».

ومن هنا فجسكيه Gisquet يدعو ويتوسل إلى القدرة الإلهية ألا تتخلى عن هذا البلد البائس متسائلاً: «ألن ينظر الله نظرة شفقة إلى بلد كان مهد الذكاء؟».[٤٣]

وحتى لا يترك شيئًا للصدفة، يدعو جسكيه Gisquet كمدير متبصر، الأمراء المسيحيين إلى التوحد ليفرضوا على مصر مجموعة من الإصلاحات المجدية يحدد هو نفسه خطة تنفيذها. «ليمنح هذا البلد وضعًا مدنيّاً ودستورًا وقانونًا وأسلوب جباية ضرائب وتجنيد كالموجود فى القوانين الفرنسية».

ظهر مجلدا «أعيدوا له حرية الملكية والتجارة» و«ها هي حرب صليبية مقدسة»(٤٤) الضخمان عام ١٨٤٨، أي ذات السنة التي ظهر فيها «مصر الحديثة» أول مؤلف في متناول الجميع ينشره ديدو Didot شارك فيه بتواضع واقتدار وخبرة لا مثيل لها رجل، آن الوقت لنلتفت إليه: بريس داڤان Prisse d'Avennes .

****

BIBLIOGRAPHIE

- P. Thédenat-Duvent, L'Egypte sous Méhémet-Ali ou aperçu rapide de l'administration civile et militaire de ce pacha, publié par F. Joly, Paris, 1822.

- J. Pharaon, Notice historique et biographique sur Mohamed-Ali, Pacha d'Egypte, Paris, 1829.

- F. Mengin, Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed-Ali ou récit des événements politiques et militaires qui ont eu lieu depuis le départ des Français jusqu'en 1823, ouvrage enrichi de notes par MM. Langlés et Jomard et précédé d'une

- introduction historique par M. Agoub, 2 vol. in-8° et un atlas in-folio, Paris, 1823. Cf. Silvestre de Sacy, Journal des Savants, 1824, p. 586.

- Histoire sommaire de l'Egypte sous le gourernement de Mohamed-Aly ou récit des principaux événements qui ont eu lieu de l'an 1823 à 1838, Paris, 1839.

- Henri Corneille, Souvenirs d'Orient (Constantinople, Gréce, Jérusalem, Egypte), Paris 1833, 2° éd., illustrée, Paris 1836.

- A. de Vaulabelle, Histoire de l'Egypte moderne (1801-1833). Paris, 1835-1836. [Maréchal Marmont, Duc de Raguse],Voyage du maréchal Marmont, duc de Raguse en Hongrie, en Transylvanie, dans la Russie méridionale, en Crimée et sur les bords de la mer d'Azoff, à Constantinople, dans quelques parties de l'Asie Mineure, en Syrie, en Palestine et en Egypte, Paris, Ladvocat, 4 vol. et un atlas 1837.

- Lerminier, Le maréchal Marmont en Egypte, Revue des Deux-Mondes, 15 septembre 1837.

- Auriant, Marmont, duc de Raguse et Méhémet-Ali, pacha d'Egypte, Revue de l'histoire des Colonies françaises, t. XX, 1927, p. 407-430.

- L. Davesiés de Pontés, Mohammed-Ali, vice-roi d'Egypte, Revue des Deux-Mondes, 15 février 1835. Etudes sur l'Orient et l'Egypte, Paris, 1864.

- Jomard, Coup d'oeil impartial sur l'étal présent de l'Egypte comparé à sa situation antérieure, Paris, 1836 (plaquette de 68 pages); ef. aussi son article dans le Journal Asiatique (1818).

- Ed. de Cadalvéne et J. de Breuvery, L'Egypte et la Turquie de 1829 à 1836, Paris, A. Bertrand, 4 vol. 1836.

- L'Egypte et la Nubie, 2 vol. Paris, 1841 (Réimpression des deux premiéres parties de l'ouvrage précédent).

- Ed. de Cadalvéne et Barrault, Deux années de l'histoire d'Orient (1839-1840), 2 vol., in-8°, Paris, 1840.

- Histoire de la guerre de Méhémet-Ali contre la Porte Ottomane en Syrie et Asie Mineure (1831-1833), 1 vol. in-8°, Paris, 1844.

- P. Coste, Architecture arabe ou monuments du Caire, Paris, Didot, 1837-1839. -- Mémoires d'un artiste. Notes et souvenirs de voyage (1817-877), Marseille, Cayer, 2 vol. 1878.

- L.Cortambert, Voyage au Sinaï en 1837, Bull. Soc. Géographie Paris, 1847, t. VII, p. 393-406.

- D' L. Labat, L'Egypte ancienne et moderne, Revue du xIx' siécle, 5 janvier 1840. Clot-Bey, Aperçu général sur l'Egypte, Paris, Fortin, 2 vol. 1840.

- Histoire de Méhémet-Ali, vice-roi d'Egypte, Marseille, 1861, 2° éd. 1862.

- D' H. Peretz, Clot-Bey et son œuvre en Egypte. conférence faite le 17 décembre 1928 au Congrés international de médecine du Caire.

- Eusébe de Salles, Pérégrinations en Orient ou voyage pittoresque, historique el politique en Egypte, Nubie, Syrie, Turquie, Gréce en 1837-1839, Paris, 2 vol. 1840.

- Auriant, Histoire du cheikh Refaah, Cahiers d'Occident, 2° série, n° 10, septembre 1930.

- Bousquet-Deschamps, Latinité, avril 1931.

- Scipion Mabin, Evénements el aventures en Egypte en 1839-1840. 2 vol.

- V. Schoelcher, L'Egypte en 1845. Paris, Pagnerre, 1846.

- Coupil Fesquet, Voyage d'Horace Vernet en Orient, Paris, Challamel, 1843, Bruxelles, 1844. (Publié d'abord dans la France littéraire, t XII et XIII). - Lettres d'Horace Vernet, ef. Amédée Durande, Joseph, Carle et Horace Vernet. Correspondance et biographies, Paris, Hetzel, 1863.

- P. N. Hamont, L'Egypte sous Méhémet-Ali (populations, gouvernement, institutions publiques, industrie, agriculture, etc.), 2 vol. Paris, 1843 (Même auteur que le collaborateur de Prisse d'Avennes désigné par H. sur la page de titre de l'Egypte moderne, éd. Didot, 1848).

- Fontanier, Voyage dans l'Inde par l'Egypte, Paris, 2 vol. 1844.

- E. Gouin, L'Egypte au xlx siécle. Histoire militaire, politique, anecdotique et pittoresque de Méhémet-Ali, Ibrahim-Pacha, Soliman-Pacha (Colonel Séve). Illustrée de gravures peintes à l'aquarelle d'aprés les originaux de M. J. A. Beaucé. Paris, 1846-1848.

- H. Gisquet, L'Egypte, les Turcs et les Arabes, 2 vol. Paris, Amyot, 1848.

- P. Mouriez, Histoire de Méhémet-Ali, vice-roi d'Egypte, 5 vol. (4 tomes et 1 suppl. renfermant les documents historiques), Paris, 1855-1858.

- Alexandre Dumas, Pélerinage au Hedjaz, Abdul-Hamid-Bey, Médine et La Mecque, 6 vol. Paris, Cadet, 1856. (Le 1er vol. porte en sous-titre: Le Caire, Journal de deux voyageurs par Arnaud et Vayssiére).

- Mémoires du Docteur Clot-Bey, Publ. par Jacques Tagher, Le Caire, 1949.

****

الهوامش

١- بعد استيلاء الحلفاء على باريس، كان مارمون Marmont قد انسحب مع الجيش إلى إيسون Essones بالقرب من كورباي Corbeil. وبدأ سرًا مفاوضات معهم. مما جعل تخلي الإمبراطور عن العرش أمرًا حتمياً.

٢- راجع أوريان Auriant «مارمون دوق دراجوز ومحمد علي باشا والي مصر»
Marmont due de Ragusc et M h met - Ali pacha d'Egypte, Revue de L'Histoire des Colonies françaises.

مجلة تاريخ المستعمرات الفرنسية، الجزء العشرون ١٩٢٧ ص ص ٤٠٧ - ٤٠٣..

٣- «رحلة الماريشال الدوق دو راجوز»...إلخ المجلد الثالث ص ١٢٨ والصفحات التالية .

٤- «رحلة...» المجلد الثالث ص ٢٥٦ كان مارمون محل تقدير السان سيمونيين أيضًا راجع مديح انفونتان Enfantin وحكمه عليه في الخطاب الموجه منه إلى Aglaé Saint Hilaire في الرابع من نوفمبر ١٨٣٤ Oeuvres de Saint Simon et Enfantin المجلد الثلاثين ١٨٧٢ ص ص ١٢ - ١٣.

٥- لم يصل مارمون إلى أسوان وقد ندم ندمًا شديدًا على عدم تقدمه في رحلته حتى معبد «أبسمبول» الذي كان شامبليون قد أشار إلى اتساعه وتفرده في خطاباته من مصر والنوبة. راجع لاحقًا ص ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

٦- رحلة... المجلد الرابع ص ٢٣٥.

٧- رحلة... المجلد الثالث ص ص ٣٠٠ - ٣٦٠.

٨- ذات المرجع.. المجلد الثالث ص ٣١٤.

٩- ذات المرجع.. المجلد الثالث ص ص ٣١٨ - ٣١٩. راجع أيضًا جيرار دي نرفال Gérard de Nerval «رحلة إلى الشرق» Voyage en Orient.

١٠- كانت الإسكندرية وكأنها قد بعثت من جديد ووصل عدد سكانها من ثمانية آلاف إلى أربعين الف نسمة.

١١- خطاب الاستقبال في السابع عشر من أبريل ١٨١٦.

ذكره أوريان Auriant «حكاية الشيخ رفاعة... كراسات الغرب
Les Cahiers d'occident, Histoire du scheikh Refaah»

المجموعة الثانية العدد ١٠، سبتمبر ١٩٣٠ ص ١٤٥.

١٢- رحلة... المجلد الثالث ص ص ١٢٧ - ١٣١ والمجلد الرابع ص ٢٣٥ والصفحات التالية لها.

١٣- خطابات نشرها أوريان Auriant.

١٤- «تاريخ مصر في عهد حكومة محمد علي»
Histoire de L'Egypte sous le gouvernement de Mohamed Aly. 1833.

أعيد طبعه وتصحيحه. راجع ما سبق ص ١٧٩.

١٥- تاريخ محمد علي (١٨٥٥ - ١٨٥٨).

١٦- L'Egypte et la Turquie de 1829-1836 «مصر وتركيا من ١٨٢٩ إلى ١٨٣٦» باريس ١٨٣٦ المقدمة. وهو ذات الاهتمام الذي أوحى لاحقًا لجسكيه Gisquet بعنوان كتابه: «مصر والأتراك والعرب» ١٨٤٨ L'Egypte, les Turcs et les Arabes.

١٧- من المتع مقارنته بوصف هوراس ڤرنيه Horace Vernet الذي قدمه في خطاب كتبه من مصر في السادس عشر من نوڤمبر ١٨٣٩ (راجع أميديه دوراند A. Durande جوزيف Jo-seph وكارل Carle وهوراس ڤرنيه Horace Vernet وهتزل ١٨٦٤ Hetzel ص ١٢٧ وج. فسكيه Fesquet راجع ما سبق ص ٢١٥.

١٨- «مصر وتركيا» ... إلخ ص ٢٠١.

١٩- «نظرة عامة على مصر»، باريس ١٨٤٠ المقدمة ص ٧ (سبق كلوت بك أحد أصدقائه ويدعى الدكتور لبات L. Labat الذي نشر في مجلة القرن التاسع عشر عدد الخامس من يناير ١٨٤٠ دراسة دفاعية عن محمد علي ارجع إلى قائمة مراجع الفصل السادس) هذا العمل تم تكريسه لتمجيد محمد علي غير أن ذلك لم يمنع كلوت بك من الإشارة إلى بشاعته. وقد ندم على كتابته وظهر ذلك في محادثاته مع الكونت دوسان فريول - Comte de Saint Ferriol انظر لاحقًا (الملحق الثاني) ومع (القاضي أوجين بواتو) Eugene Poitou راجع الجزء الثاني).

٢٠- Account of thé manners and custorns of thé modem Egyptians London 1836.

٢١- «تم رسم ووصف كل شيء في مصر عدا المعالم الأثرية الإسلامية» عبارة قالها وكان محقاً فيها الناشر ديدوه Didot وهو يقدم ألبومات كوست Coste عام ١٨٣٩.

وقد قال عنه فيوليه لودوك Viollet -Le -Duc إنه من رواد الآثار. كان رجلاً ضعيف البنية من الجنوب، أعرج، يدلف إلى كل مكان ويرسم كل شيء ويصل إلى كل شيء. عاش تسعين عامًا، قطع فيها كل أوروبا وجزءًا من آسيا ونفذ خلالها ما يقرب من أربعة آلاف رسم ونشر مؤلفًا ضخمًا عن المعالم الأثرية في بلاد فارس يماثل ما نشره عن مصر. يدين له الفرنسيون بمبنى بورصة التجارة بمارسيليا.

٢٢- راجع خطاب چومار Jomard إلى وزير خارجية مصر بشأن تكوين البعثة عام ١٨٤٤ والذي نشره جاستون ڤيات Gaston Wiet مجلة القاهرة أكتوبر ١٩٤٤.

٢٣- راجع الجزء الثاني ومقال أوريان Auriant «رائد سابق على الدكتور ماردروس J .C. Mardrus مجلة لوموند نوڤو Le Monde Nouveau عدد - ١٥ سبتمبر ١٩٢٣ والمخطوط الأصلي رقم ١٦، ١٩٢٨.

٢٤- راجع أوريان Auriant، «قصة الشيخ رفاعة» Histoire du cheikh Refaah كرامات الغرب Cahiers d'occident المجموعة الثانية، رقم ١٠، سبتمبر ١٩٣٠ ص ص ١٣٨ - ١٦٥. درس أنور لوقا البعثات المدرسية المصرية في أطروحة أعدها عن «الرحالة والكتاب المصريين إلى فرنسا في القرن التاسع عشر».

٢٥ - راجع أنطوان دولاتور

Antoine De Latour Voyage de S.A.R Monseigneur le duc de Montpensier á Tunis, en Egypte, en Turquie et en Gréce. Paris 1847

«رحلة صاحب السمو الملكي الدوق دي مونتبونسيه إلى تونس ومصر وتركيا واليونان» باريس ١٨٤٧.

٢٦ - جاستون ويت Gaston Wiet «رحلة إبراهيم باشا إلى فرنسا وإنجلترا

Le Voyage d'Ibrahim Pacha en France et en Angleterre»

كراسات التاريخ المصري Cahiers d'Histoire Egyptienne رقم (١) القاهرة ١٩٤٨.

٢٧ - راجع Auriant أوريان «بوسكيه ديشون» «اللتننة» Latinité أبريل ١٩٣١ ص ص ٥١٣ - ٥٢١.

٢٨ - «مصر الحديثة» L'Egypte Moderne ١٨٤٨ ص ٢٣.

٢٩ - أ. دوراند A. Durandeالمرجع السابق ص ص ١٢٩ - ١٤٥ - ١٤٨وحاشية ص ٢١١.

٣٠ - «مصر الحديثة» L'Egypte moderne ديدوه Didot ١٨٤٨ ص ٢٣.

٣١ - أوزيب دوسال Eus be De Salles «جولات في الشرق» P r grinations en Orient رحلة تصويرية تاريخية وسياسية إلى مصر والنوبة وسورية وتركيا واليونان عامي ١٨٣٧ ٩٣٨١ مجلدان، باريس ١٨٤٠.

٣٢ - أوزيب دوسال Eusébe De Salles، ذات المرجع، المقدمة «إيزيس وأوزيريس يفسحان مكانًا للإله كاليكو» Isis et osiris feront place au dieu Calicot ص٤٢٨ والمجلد الثاني ص ٥٥. راجع أيضًا المرجع السابق لـ «ديستورمل D'Estourmel»، المجلد الثاني ص ٣٢٨.

٣٣ - ذات المرجع المجلد الأول ص ص ٥٩ - ٦٠.

٣٤ - باريس لوتيه Leautey ولوكونت Lecomte، مجلدان، ١٨٤٣.

٣٥ - أشيع أنه اتهم ببعض الاختلاسات وربما كان الراوي التركي إبراهيم يفكر فيه في كتاب ليالي القاهرة Nuits du Caire لشارل ديدييه (Charles Didier. طبعة ١٨٦٠ ص ٥٢) وهو يصف الممارسات الخاصة لبيطري منزل محمد علي.

٣٦ - راجع ص ٢٢٠ حاشية ٢ .

٣٧ - «مصر عام ١٨٤٥» ص ٣٦.

٣٨ - ذات المرجع ملخص الفصل الثامن ص ٢٨

٣٩ - ذات المرجع ص ١٢٤ يعطي شولشر فكرة عن الذوق التركي الكريه. وهو يصف قصر الجوهرة بالقلعة حيث سيتم استقبال فلوبير ومكسيم دي كوم بأعمدته وساعات الحائط الوهمية على الجدران، المرجع السابق ص ص ١٧٤ - ١٧٥.

٤٠ - مصر والأتراك والعرب ١٨٤٨، المجلد الثاني، ص ٧٨.

٤١ - ذات المرجع ١٨٤٨، المجلد الثاني، ص ١٢٥.

٤٢ - ذات المرجع ص ٧٣.

٤٣ - ذات المرجع ص ٤٢٧.

٤٤ - ذات المرجع ص ٤٣٢.

****

الفصل السابع

بريس دافين Prisse d'Avennes

ذاك المجهول

إذا كانت القاهرة قد عرفت شخصيات كثيرة غريبة ومثيرة للضحك والسخرية، فقد عرفت أيضًا رجالاً يخشى جانبهم أرادوا سلب الثروات، فاستحالت عليهم مما جعلهم يضمرون لها غلاً. خالطتُ واحدًا من هؤلاء، وحاولت جهدي بدون فائدة أن أضمد جرح نفسه المكلومة وأن أهدئ عذابات غروره الشيطاني. لن أسميه رغم أنه قد مات، ظل طوال حياته ثائرًا ثورة يصعب كبحها. كان قد درس بفرنسا دراسات مهنية متخصصة تؤهله لوظيفة رئيس عمال في صناعة كبرى. ولكنه كره استخدام الأدوات. كانت حرب الاستقلال دائرة في اليونان. سافر إلى باتراس وتطوع في مجموعة محبي وأصدقاء اليونان. منح كمؤونة خبزًا غير مكتمل النضج وقطعة من جبن الماعز وبدت له البلد من قلة الزاد فقيرة. فانضم إلى المصريين الذين كان يقودهم إبراهيم باشا. كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة ويجيد الرسم. وقد عرف كيف يقدم خدماته.

حسب بذلك مستقبله مضمونًا وحاول تنحية كل العقبات جانبًا ليمضي قدمًا، فاعتنق الإسلام وتسمى باسم إدريس أفندي. وعندما أزيح تدخل العثمانيين من المورة، التحق إدريس أفندي بجيش إبراهيم وأرسل إلى أسيوط Syout لمهمة ما. وقد نشب هناك نزاع بينه وبين الباشا حاكم صعيد مصر الذي أراد إيداعه السجن. أراد إدريس الاستناد إلى وضعه كفرنسي غير أن الباشا نبهه قائلاً أنه باعتناقه الإسلام قد تخلّى عن جنسيته وحكم عليه بالضرب بالعصا. قاوم إدريس بضراوة، فطرح أرضًا وقيد، وانهالت عليه الضربات من كل صوب مما تسبب في كسر ذراعه وفكه. كانت هذه اللحظات فاصلة في حياته فقد هام بعدها على وجهه يعيش يومًا بيوم ينقب ويرسم المعابد ويساعد المهندسين ويقيم شهورًا بأكملها تحت خيام عرب العبابدة مصاحبًا الرحالة، ذائقًا من الحياة حلوها ومرها.

ظهر يومًا بالقاهرة وفي حوزته مبلغ كبير من المال وبعض المجوهرات التي قام ببيعها. وقيل حينذاك أنه قد تخلص من سائح إنجليزي بعد أن لاحقه في أطلال طيبة. كان إنسانًا فظًا ولا أتذكر أنني قد رأيته يومًا يبتسم.

ونتعرف هنا على ملامح وجه رسمه قلم مكسيم دي كوم Maxime Du Camp بحقد وضغينه وتفنن في إدراجه في «ذكرياته الأدبية» Souvenirs Littéraires[1] هذا الرجل الذي تنكر لصديقه فلوبير Flaubert وخانه وحاول السخرية من بودلير Baudelaire ونسج ما يشين الكثيرين من زملائه. لم يكن ليتردد أمام أي شيء يوصله إلى مبتغاه: مزحة أو كلمة تزيد لذعة بعض الذكريات في عرفه أمر لا يضير. من هنا ندرك إلى أي مدى يمكننا الوثوق في شهادته وإلى أي حد نصدق الشفقة الظاهرة التي يغلف بها أفظع الإيحاءات. والصفحة التي يصف فيها إدريس أفندي مثال صارخ على ذلك.

إدريس أفندي هو بريس داڤين Prisse d'Avennes وسوف أقوم بدون عناء بتصحيح تضمينات مكسيم دي كوم Maxime Du Camp المشينة. ولكن ما هو جدير بالذكر أن مكسيم دي كوم لم يلتق ببريس داڤين أبدًا بالقاهرة، فحضور الأول إلى القاهرة جاء بعد خمس سنوات من عودة الثاني إلى فرنسا. عاد مكسيم دي كوم إلى باريس عام ١٨٤٤ وبقي هناك حتى ١٨٥٨ تاريخ عودته إلى القاهرة في مهمة رسمية. أما داڤين فقد وصل إلى الإسكندرية مع فلوبير Flaubert في نوفمبر ١٨٤٩ وغادرها إلى فلسطين وسورية في يوليو ١٨٥٠ كيف يتأتى لهما إذًا أن يلتقيا؟ وكيف أفضى بريس داڤين لمكسيم دي كوم بسره الخطير الذي نقله إلينا عن طيب خاطر؟.[2]

إذا صدقنا ما يقول فقد كان بينهما حديث طويل بالأزبكية، شكا فيه إدريس أفندي من حاله في هذه الدنيا وأسر إليه بنيته في عمل هجوم مسلح على حقيبة الهند. من هارب من الحياة العسكرية إلى مارق ومرتد ولص قوافل توابل حارقة من شأنها إضافة نكهة ومذاق لاذع على ذكريات القاهرة. يهيل مكسيم دي كوم الوحل على الآخرين بدون أدنى تردد وبدون أي حساب.

لا يتفق مثل هذا البوح وطباع محدثه المزعوم. ولكن هناك سبب بسيط آخر يجعلنا نستبعد أن تكون هذا المجاذبات في الحديث قد تمت. فالترتيب الزمني للأحداث يتفق

والناحية النفسية. فبريس داڤين Prisse d'Avennes ومكسيم دي كوم شخصان يصعب تخيل لقائهما في القاهرة. إن كان هذا حدث، ففي باريس بعد عودة بريس داڤين إلى هناك. وقد وفر له كل المعلومات والرسومات اللازمة لإنجاز مجلده «النيل». ويكفي إلقاء نظرة سريعة على مخطوطات بريس داڤين في المكتبة القومية وعلى ملفات مكسيم دي كوم غير المنشورة والمحفوظة في مكتبة المعهد لنتيقن أن الثاني قد استعان بخبرة ومراجع الأول. وقد كافأه على طريقته على هذه المساعدة غير المغرضة.

ويمكننا أن نتساءل عن سبب إفساح هذا العمل جزءًا خاصًا منه لرجل هو في الأصل رسام وعالم آثار بينما لا تتضمن صفحاته غيره من الفنانين.

أولاً: لأن بريس داڤين Prisse d'Avennes كاتب ربما ليس أنيق العبارة ولكنه صحفي قادر على تبسيط وتعميم المعارف، صحفي لديه المعلومات والأسلوب. اقتسمت الرحلات وصالات التحرير مناصفة النصف الثاني من حياته. كتب العديد من المقالات ورأس تحرير عدة مجلات(٣). وربما كان من كل الفرنسيين الذين درسوا مصر أكثرهم إسهامًا في التعريف بها.

ثانيًا: حان الوقت لا لنعيد إليه اعتباره (لم تلق إساءات مكسيم دي كوم لحسن الحظ فرص النشر والنجاح التي كان يتوقعها لها) ولكن لتقديمه بصورة أفضل وتكريمه ورد حقه إليه لإلقاء الضوء عليه بعد ما تركه العلم الرسمي طويلاً في الظل. وليس المقصود هنا هو إعطاؤه حجمًا أكبر من منافسيه من مارييت Mariette على سبيل المثال الذي ما زالت أعماله أكثر تأثيرًا وأكثر تماسكًا ولكن المقصود هو تقديمه كما هو بأخطائه الكبيرة ولكن بحسناته وميزاته القيمة أيضًا.

والحق أن علينا أن نتساءل عما نعرفه عنه وعن حياته وعن أعماله؟ بالنسبة لكثير من القراء المثقفين هو مجرد اسم لا مكان له بين الأسماء الرنانة وبالنسبة للمتخصصين في الآثار هو رسام موهوب مؤلف ألبومات جميلة أضحت اليوم شديدة الندرة لنعترف بأنه ليس لدينا ما يكفي.

ليس فقط لأن بريس داڤين Prisse d'Avennes قد كشف عن روائع الفن والهندسة المعمارية الفرعونية ولكن لأن مجهوده امتد بشكل متوازٍ إلى الحضارة العربية.

تجربته فريدة فقد أمضى سبعة عشر عامًا من حياته في مصر. ويحسب له أن جرأته في المغامرة وجسارته في الكشوفات لا يضاهيها إلا عمق ملاحظاته واتساع وثقل معلوماته وحماسه المتقد للحقيقة.

كان مهندسًا ومكتشفًا ومستشرقًا وعالم مصريات ورسامًا مائيًا ومصورًا وصحفيًا وقد أعطى في كل مجال خاصة مئات الأدلة على ذكائه ونشاطه وغياب أي أغراض شخصية. ويدين له علم المصريات باكتشاف ورقة البردي الهيرية عام ١٨٤٣ التي تحمل اسمه. ويعرف له علم الآثار فضل الأعمال الضخمة المنشورة التي كرس لها سنوات من العمل وأنفق من أجلها ثروته وضحى في سبيلها بمستقبله العملي: وهي الآثار المصرية Les Monuments Egyptiens وهو مجلد من خمسين لوحة من القطع الكبير يكمل كتاب شامبليون: «آثار مصر والنوبة Monuments de L'Egypte et de la Nubie ١٨٤٧» و«تاريخ الفن المصري من خلال الآثار منذ أقدم العصور وحتى العصر الروماني»
L'Histoire de l'Art Egyptien, d'aprés les monuments, depuis les temps les plus reculés jusqu'á la domination romaine

وهو أطلس من مجلدين بهما مائة وستون لوحة من القطع الكبير بالطبع الحجري الملون والحفر (١٨٥٨ - ١٨٧٧) و«كتاب الفن العربي طبقًا لآثار القاهرة منذ القرن السابع وحتى نهاية القرن الثامن عشر (١٨٦٧ - ١٨٧٩)»
L'Art arabe, d'aprés les monuments du Caire depuis le VII siécle jusqu'á fin du XVIII siècle

وهو أطلس من ثلاثة مجلدات بها مائتا لوحة من القطع الكبير هي أيضًا بالطبع الحجري الملون والحفر. وكلها أعمال يصعب العثور عليها في يومنا هذا ولا يمكن للعالم أو الفنان الاستغناء عنها. أما فرنسا فتدين له بقاعة أحباء تحتمس الثالث والتي يطلق عليها غرفة الملوك بالكرنك. وهو أثر يعادل في أهميته ورقة بردي توران وجدولي أبيدوس.(٤) التي قام بحلها ونشرها ونقلها على نفقته الخاصة بدون أي سند أو عون رسمي متحملاً كافة المصاعب والأخطار وهي حالياً في متحف اللوفر. هذه الأعمال وهذه الدلائل على الشجاعة تشكل أسبابًا لا تنضب لعرفان العالم المتحضر له. فاسم بريس

داڤين يجب أن يخلد بجانب شامبليون Champollion وماريبت Mariette وماسبيرو Maspéro في أذهان البشر.

إلا أنه بقي إن لم يكن مجهولاً فعلى الأقل متجاهلاً على هامش العلوم الرسمية في صورة مغامر. خسر مستقبله العلمي ولم ينجح في فرض نفسه سواء في مصر أو في فرنسا. أوجدت له استقلاليته وصراحته العنيفة وطبعه العنيد أعداءً في كل مكان. كان التفكير يتجه إليه في كل مرة يتم فيها الاحتياج لشغل وظائف هامة كخلافة لوترون Le-tronne في «الكوليج دي فرانس» وإدارة قسم الآثار المصرية بمتحف اللوفر. وقد رشحته معرفته باللغة العربية واللغات الشرقية للعمل بسفارة فرنسا في القسطنطينية. ولكنه لم يصل أبدًا إلى الوظائف التي كانت قدراته المتميزة جديرة بأن توصله إليها سواء لرفضه التقدم لها مفضلاً عليها أبحاثه الشخصية، أو أنه أفسد على نفسه الأمر بتصريحات غير محسوبة تفتقد الكياسة والحذر، أو لأن أعداءه ومنافسيه أضروا به. وقد حصل على لقب فارس جوقة الشرف عام ١٨٤٥ لدى عودته من رحلته المثمرة إلى مصر.

رفض أداء اليمين أمام الملك لويس فيليب وعمل كصحفي في ظل الإمبراطورية الثانية وانتهت حياته بالفاقة والبؤس. ويدعي مكسيم دي كوم Maxime du Camp بأنه كانت هناك محاولات لإعادته إلى الطريق المستقيم. ويبدو أنه تم العدول عن هذه المحاولات. إذا صدقنا ما يقال فإن «قراءة عمل بلزاك الأدبي» «الثلاثة عشر» Les Treize قد أدارت رأسه. كان يمضي وقته في تخيل جماعات سرية غامضة يترأسها وتوصله إلى المراكز التي يحلم بها. مات مقهورًا مسنًا، يائسًا فاقد القابلية للإصلاح. وأردف قائلا: «مثل هذه النوعية من الرجال الذين يتمتعون بهذا النبل وهذه الحيوية نادرة». وتابع قوله موجزًا مبتغاه:

«كل الطموحات يجب أن تكون متاحة أمامهم.. جهودهم غالبًا ما تكون عقيمة لأنهم يحتقرون المثابرة والعمل والادخار والاستقامة ولا يؤمنون إلا بالمصادفة أو الحظ كما يقولون ولا يصلون إلى شيء إلا إلى فقدان الاعتبار والحظوة وأحيانًا إلى الجريمة»[٥] ها هو رثاء وقح.

وفقدان الاعتبار هو على النقيض تمامًا، النصيب العادل لأولئك الذين يتكالبون على الجثث. لا، لم يحتقر بريس داڤين Prisse d'Avennes المثابرة والعمل والادخار والاستقامة. كانت حياته عملاً شاقًا به الكثير من المثابرة. مات فقيرًا ولكن الفاقة ليست عيبًا.

لم يطعن أحد في شرفه. وقبل وفاته بنحو ثلاث سنوات، خصص له الوزير وادينجتون Waddington معاشين سنويين قدرهما ستمائة فرنك. باعت زوجته عام ١٨٧٩ جزءًا كبيرًا من مخطوطاته وأوراقه ورسوماته المائية ومكتبته القيمة النادرة في إنجلترا وهو طريح الفراش في نزعات الموت الأخيرة غير مدرك لما يحدث حوله. ما تبقى من أعماله وممتلكاته محفوظ بالمكتبة القومية[٦] وبجمعية الآثار في أفان سير هلب Avesne -Sur -Helpe.[٧]

وتفسر سلسلة الإحباطات التي لقيها في حياته أحقاده وتغفر له ما استشعره من مرارة. فهو ينحدر من عائلة إنجليزية قديمة هاجرت إلى إقليم فلاندر في عهد شارل الثاني وتحمل اسم أصولها من أرض الغال Priée of Aven and Camavon برايس أوف أڤن وكارناڤون. ويا له من تقارب غريب! هل يمكن أن يكون ذا صلة قرابة بعيدة بـ «لورد كارناڤون» الشهير الذي ندين له بأعمال التنقيب التي أفضت إلى العثور على قبر توت عنخ آمون؟

أيًا ما كان فقد كانت هناك مصادفة لا تقل غرابة عن تشابه الاسمين. فقد ولد عام ١٨٠٧ في مقاطعة فرعية من محافظة الشمال أفان سير هلب. كان والده مفتشًا على الغابات المملوكة للأمير تاليران Talleyrand وقد مات عام ١٨١٤ بعدوى التيفوس المنتشر بين الجنود. تولى كاهن من الضواحي تربيته. وفي مايو من عام ١٨٢٢ التحق بمدرسة الفنون والمهن في منطقة شالون سير مارن Châions - Sur - Marne وتدرج في مراحلها حتى غادرها عام ١٨٢٥ وهو في التاسعة عشرة من العمر حاملاً شهادة في الهندسة المعمارية. كان متقد الحماس مغامرًا، يحدوه طموح عالٍ ولا يميل إلى الاستقرار. اندلعت حرب الاستقلال اليونانية فتطوع عام ١٨٢٦ وذهب ليقاتل في سبيل الحرية.

ومن هناك انطلق إلى الهند حيث أصبح سكرتيرًا للحاكم العام. وبعد ذلك بمدة وجيزة نجده في فلسطين حيث استحقت الخدمات التي أسداها لقب وصليب فارس كنيسة القيامة Chevalier du Saint Sépulcre. في هذه الفترة وجه محمد علي نداءً ملحًا إلى فنيي أوروبا لينظموا على أسس أكثر حداثة التعليم والزراعة والري في دولته.

كان بريس دافين حينذاك شابًا في الثانية والعشرين على الأكثر يحدوه الأمل في مستقبل وظيفي سريع ومشرف ومجز. ها هو عام ١٨٢٩ يعمل مهندسًا مدنيًا ومهندسًا

مائياً بأجر من الباشا ثم معلمًا للطبوغرافيا في مدرسة أركان الحرب في معسكر الخانكة في طرف سهل مصر الجديدة.

كلف بتعليم أبناء إبراهيم وبذا استطاع أن يقدم للأمير دراسة عن أهم الأعمال المطلوب تنفيذها في الوجه البحري ومنها تخطيط لقناة الإسكندرية بالقاهرة ومشروع لجسر معلق فوق النيل بين جزيرة الروضة وحدائق إبراهيم. وبدا كما لو أن المستقبل يبتسم له فقد استطاع أن يفرض نفسه على الجميع بذكائه وطاقته وجَلَده وقدرته على التنفيذ. غير أنه في قيادة مدرسة أركان الحرب بالخانكة كان هناك شخص يدعى عبدالله بك ما لبث أن اختلف وتشاجر معه. وكان غروره وجمود مبادئه قد جعلا منه إنسانًا يصعب التفاهم معه، إنسانًا لا يمت للدبلوماسية بصلة وفريسة سهلة لنوبات غضب عنيفة.

ويحكي لنا ابنه أنه في «صباح الحادي والعشرين من شهر يوليو ١٨٢٩ بعث عبدالله بك مدير المعسكر في طلبه وأفهمه أنه نظرًا لعدم وجود أحد يستطيع طبع موسيقى الفيالق، ونظرًا لما يتمتع به من قدرات خاصة فهو يكلفه بهذه المهمة فرفض بريس أداءها متعللاً بأن هذه المهمة بعيدة كل البعد عن وظائفه.

سمع بريس أقذع السباب نتيجة رفضه وأُمر بحبسه حتى يمتثل للأمر. بقي بريس ثابتًا على موقفه، غير مبالٍ بالتهديدات مما استشاط له عبدالله بك غضبًا. فأصدر الأمر الوحشي بجلده بالكرباج. عاد بريس إلى منزله وأرسل استقالته إلى وزارة الحربية. ثم غرس في زناره خنجرًا ومسدسين وراح إلى البك ليقدم له بنفسه استقالته. لدى دخوله عليه ألقى بالاستقالة عند قدميه قائلاً إنه قد أرسل نسخة منها إلى القاهرة، وأنه بذلك قد استعاد حريته. وأصبح مرة أخرى مواطنًا فرنسيًا. وأنه إذا حاول البك النيل من شخصه فسوف يفجر رأسه قبل أن يدركه أحد من حراسه»(٨) بُهت البك.. وامتطى بريس داڤين Prisse d'Avennes جواده الذي كان قد تركه عند الباب وانطلق إلى وزير الحربية وحصل منه على ترضية. ولكن مثل هذه الحوادث لم تكن لتسهل له طريقه أو تتيح له التقدم. بدءًا من هذه الفترة وبدون أن نتبين الأسباب، أفل نجم بريس في مصر. لم يعد يحظى بحظوة لدى إبراهيم. وسوف نستشعر لاحقًا في أحكامه على الأمير ولي العهد شيئًا من الضغينة.

في نهاية عام ١٨٣٠ قام بريس بدراسة مشروع لنقل مسلة الأقصر. غير أن خططه لم يتم قبولها. أثناء عمله كمعلم للتحصينات في مدرسة الفرسان بدمياط، قام بريس بدراسة منطقة الدلتا. وبعث إلى الوالي بدراسة حول تجفيف وزراعة بحيرات الوجه البحري، ولم تنل هذه المبادرة النجاح.(٩) في هذه الفترة، كثر تردده على أماكن تجمع السان سيمونيين. لا نعرف الكثير عن حياته إلا أنه قد تطوع لتطبيب وعلاج المرضى أثناء وبائي الكوليرا والطاعون عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٤ وأنه قد أوشك هو نفسه على الموت بسبب الدوسنتاريا والإرهاق.

وتعد هذه السنوات من حياته سنوات تعلم واعتكاف. اتجه هذا المهندس إلى الاستشراق. وأصبح هذا المعماري ضليعًا في علم المصريات. ثابر على تعلم اللغة العربية بلهجاتها وعلى فك شفرة الهيروغليفية. وعندما استشعر نفسه مستعدًا بالقدر الكافي ترك وظيفته واستعاد حريته. وانطلق إلى رحابة الجنوب ومجاهل الصحراء وغموض الناووس. وقد استقال بريس دافين عام ١٨٣٦ من وظيفته كمدرس ومهندس متحملاً كافة التبعات وتحول إلى مكتشف.

ارتدى بريس ملابس المسلمين وعاش حياة الفلاحين تحت اسم إدريس أفندي. نلقاه هنا وهناك في مدن الدلتا وصعيد مصر والنوبة في عام ١٨٣٦. أتم رحلته الأثرية في الجزء الشرقي من الوجه البحري التي سينشر ما كتبه عنها بعد ذلك بست سنوات في العدد الأول من مجلد مجموعة مقالات عن مصر Miscellanea Aegyptiaca لسان حال الجمعية الأدبية التي أسسها بالاشتراك مع الدكتور أبوت Dr. Abbott. والنص الذي كتبه بريس دافين Prisse d'Avennes عن رحلته شديد الندرة. وهو يشي بما لدى هذا الرحالة الشاب ذي التسعة والعشرين عامًا من معلومات غزيرة وملاحظة دقيقة للعادات والتقاليد العربية وأسلوب تصويري ينبض بالحياة.

كتب في وصف حلقة ذكر في دمياط دون أن تحدوه غاية أو مصلحة لجريدة ثقافية صفحة مليئة بالحركة والألوان شديدة الواقعية ختمها بنغمة هادئة وشاعرية: «كان المكان مضاءً بالقناديل ونور القمر الساطع. كان الصمت والوجوه الهادئة الخاشعة في الجمع وتنوع الملابس والخطوات الرمزية الغامضة مع أطلال الأروقة والمئذنة الكبيرة المنتصبة

كمعبود يطلق البخور حوله، لوحة جديرة بريشة رامبرانت Rembrandt ذات طابع كئيب ومتفرد قلّما نقع على مثله في مكان آخر».[١٠]

في السنة التالية نجده في ذهول أمام رواق أبي سمبل العملاق.[١١] مما جعله يختار عام ١٨٣٨ الأقصر مرصدًا للملاحظة ونقطة سوف ينطلق منها لعدة سنوات في تحقيقاته وأبحاثه في كل منطقة طيبة. حياته معركة يومية ضد تسلط المديرين المتشكك وموظفي الباشا الصغار.. ضد إهمال الفلاحين وسلب ونهب اللصوص وقطاع الطرق. ولكنه يحب المعارك ولا يجد نفسه إلا في الجهد والضغوط. فهو آخر من يتهاون في حق فرنسا أو العلم. وهو لم يدافع فقط عن أحجار المعابد الكبرى أمام مشروع إقامة مستشفى الكرنك بل لم يمكنهم من إقامته حتى على الأرض التي دفن فيها ثمانية من البحارة الفرنسيين لقوا حتفهم أثناء نقل المسلة إلى فرنسا. في مارس ١٨٤١، كانت له مواجهة خطيرة مع ناظر الأقصر. فقد قبض ظلمًا على أحد رجال داقين وضربه بالعصا بدون وجه حق بل واحتجزه رافضًا إطلاق سراحه. مما دفع بريس إلى الثورة غضبًا والتطاول عليه بالأيدي. وزاد من هياجه انقضاض حرس الناظر عليه. ورغم كونه بمفرده في مواجهة هذا الجمع. فقد تملص من قبضتهم وواصل لكمهم في وجوههم. ولكن سرعان ما حوصر من جديد وهوجم من كل الاتجاهات.

كان وهو يتلقى أولى ضربات العصا مازال مترددًا في استخدام سلاحه ولكن مع تتابعها في وقع سريع ومتلاحق، تراجعت مخاوفه واندفع بخنجره نحو من كان قد ناوله لتوه ضربة فجرحه جرحًا عميقًا وأصاب اثنين آخرين بجروح طفيفة [١٢] هجم حينئذٍ الجمع عليه وشدوا وثاقه واقتيد إلى السجن بأمر الناظر. بينما كانوا يكبلونه بالحديد، جاء إلى نجدته فور إبلاغه كونت فرنسي يدعى دو ڤرجان De Vergennes كان يشاركه مسكنه بصفة مؤقتة. غير أنه حوصر بدوره وانهالت عليه اللكمات من كل صوب وتم جذبه من لحيته وهو يقطر دمًا إلى السجن مع ثلاثة من حراسه مقيدين إلى ذات وثاقه[١٣]. بقي بريس وصديقه وأتباعهما في زنزانة مزرية مظلمة، راقدين على الأرض وسط مخلفات عشرين فلاحًا سجنوا لعدم دفعهم الضرائب وحرموا الخبز والماء لأربعة أيام كاملة. ولم يخلصهم من سجنهم إلا تدخل الرسام وعالم الآثار نستور لوت Nestor L'Hóte مساعد شامبليون الذي كان يقوم بعمل رسم في ذات المنطقة[١٤]. هذه هي الواقعة المأساوية التي أسعدت غريمه مكسيم دي كوم Maxime Du Camp.

ليس صحيحًا أنه اعتبارًا من هذا التاريخ انقلب حال بريس دافين. لا أعرف على وجه التحديد إن كان قد خرج من هذه المحنة بذراع مكسورة وفك مهشم أم لا. ما أستطيع تأكيده أنه بقي مرفوع الرأس في الأقصر، يواصل بمنهجيته المعهودة أعمال التنقيب والكشف. ويعطينا فكرة عن ميله للمغالاة، ما فعله بعد الإفراج عنه. فقد شن هجومًا على الناظر مطالبًا بقصاص عادل لا يقل عن الإطاحة برأسه. لم يستجب لطلبه ولم ير سكرتير السفارة الفرنسية والمشرف على القنصلية بالإسكندرية وجوب التدخل قبل الوالي للمطالبة بمثل هذا التعويض. من نافلة القول الإشارة هنا إلى أن بريس لم يغفر له هذا التقاعس.

وتعد الفترة من ١٨٣٩ إلى١٨٤٣ أهم سنوات عمر عالم المصريات من حيث النتائج. كان ينقب في طيبة بصحبة شاب إنجليزي ورد ذكر اسمه أكثر من مرة في كتاباته يدعى جورج لويد George Lloyd من برنستين Brynestyn كان على ما يبدو يكن له كثيرًا من الود. مات هذا الصديق في الحادي والثلاثين من أكتوبر(١٥) في موقع العمل تاركًا له ماله وما يحمل مجوهرات مما حدا البعض لإطلاق شائعات مغرضة حرص مكسيم دي كوم Maxime Du Camp على نقلها عن أفراد الجالية الفرنسية بالقاهرة(١٦).

بقي بريس وحده ولم تفت الوحدة في عضده. استمر في أعماله وكوفئ على هذه المثابرة. وحان وقت الإشارة في إيجاز إلى أهم اكتشافاته. بدأت بناء على أمر من الباشا أعمال هدم الأعمدة التي كان يطلق عليها أعمدة حورس. وهي الأعمدة التي تقع في جنوب المعبد الكبير والتي يطلق عليها الآن أعمدة Haremhab «حور محب» لبناء مشفى الكرنك. أثناء عملية الهدم، لاحظ بريس دافين منذ عام ١٨٣٩ وجود أفاريز ترجع إلى إنشاءات تمت في عهد الملك إخناتون. فلفت نظر عالم المصريات الإنجليزي سير جاردنر ويلكنسن Sir Gardner Wilkinson والرسام الفرنسي نستورلوت L'Hote في يناير ١٨٤٠ كتب لويلكنسن Wilkinson عن بوابة الكرنك الثالثة: «الأحجار المستخدمة في هذا الجزء من البوابة ضخمة. ولتقصير مدة العمل كان يتم تقسيمها بواسطة البارود. لدى حضوري إلى الموقع، كانوا على وشك إشعال الفتيل. أوقفت العملية لبضع لحظات لأرسم على كتلة يبلغ طولها مترين تقريبًا أبا الهول غارقًا في أشعة آتون - رع Aten-Re ما إن انتهيت حتى انفجر الحجر ولحسن الحظ بقي رأس هذا الفرعون سليمًا. وإن كان قد اخترقه شق. ولكنه على حال يسمح بطبعه على ورق معجّن ويمكن على أثر ذلك إضافة ما أراه من رتوش إلى الرسم».(١٧)

وقد أخبر بريس داڤين نستور أيضًا عن هذه الأفاريز. وقد نقل هذا الأخير بدوره الخبر إلى الكونت لويس دي سانت فريول Louis de Saint - Ferriol الذي أشار إلى الأمر في يومياته. وبعد بضع سنوات ذكره في حديث له مع جان جاك أمبير Jean - Jacques Ampére في باريس مبرزًا أهمية الحدث وتفرده. من هنا نفهم سبب إسراع جان جاك أمبير بطلب رؤية صور هذا الملك الخائن لدى وصوله إلى الكرنك عام ١٨٤٥. وكان الجميع قد ظنوه امرأة لفرط غرابة تكوينه الجسماني.[١٨] وقد نقل بريس داڤين أحد هذه الأفاريز إلى باريس عام ١٨٤٤ وهي الموجودة حالياً في مجموعة المصريات بمتحف اللوڤر.[١٩]

وندين في المقام الثاني لبريس داڤين Prisse d'Avennes بعملية نزع الركام عن معبد Khons التي أظهرت إلى الوجود اثنتي عشرة غرفة[٢٠] منه وهو عمل يكفي وحده حتى يمتن له به علماء الآثار. ولكن ما يحسب له بشكل رئيسي هو فض أختام الملوك بالكرنك. كان الوالي قد أمر الشيخ رفاعة مترجمه الرسمي بكتابة أمر ينهى تمامًا عن نهب الآثار.

ولكن للتضارب الذي عرف عن أوامره، فرض على الفلاحين لمساعدته في بناء معامل السكر والمشافي أن يجلبوا له قنطارًا من الحجر عن كل فدان مزروع. ومن هنا فلم يتوان فلاحو منطقة «طيبة» عن هدم المعابد تحت سمع وبصر وأحيانًا بإشراف فعلي من صغار الموظفين المحليين. وهو ما يفسر مخاوف ويلكنسن Wilkinson الذي طلب عام ١٨٤٠ من بريس داڤين Prisse d'Avennes «معلومات عن أعمال الهدم التي تمت في الكرنك» ورجاه «أن ينقل إذا كان هناك متسع من الوقت تعليقات قدامى الفراعنة التي تغطي الأحجار القديمة المستخدمة في هذه الآثار». أمام أعمال الهدم المتسارعة، أحس بريس داڤين تهاوي مبادئه وتبدد مخاوفه.

ولما كان قد علم بمقدم البعثة البروسية الوشيك بقيادة لبسيوس Lepsius وكان يخشى بما لديه من دراية أعمالهم التخريبية[٢١]. فقد فكر أن غرفة الملوك ستنقل إن عاجلاً أو آجلاً. ومن ثم فقد فضل أن تكون وجهتها باريس لا برلين. ولكنها كانت عملية دقيقة ومتعبة في آن واحد. بمجرد فض أختامها كان يتوجب نشر كتلها إلى نصفين لأنه لم يرغب إلا في نقل المسطحات الداخلية المحفورة والملونة وشرحات الأحجار التي تجملها

الوجوه والخراطيش. وقد مضى في هذه المهمة الخارقة بمساعدة عشرين من الفلاحين من ذوي الهمة العالية. وحتى لا يلفت إليه الأنظار، كان يعمل ليلاً حين يغيب القمر أو ظهرًا حين يشتد القيظ ضمانًا لابتعاد الفضوليين.

لسوء الحظ واجه في بداية عمله مشكلة خطيرة. فقد أصيب اثنان من عماله بإصابات بالغة أثناء نقلهما للعوارض مما اضطره لنقلهما في خيمته ورعايتهما بنفسه حتى شفيا تمامًا مع دفع أجر مضاعف لذويهما بعد ثماني عشرة ليلة من العمل الدؤوب، كان في خيمته يغلف الأفاريز الثمينة حين وجد جنود المدير في مدخل معبد الكرنك لمصادرة صناديقه. وكان بعضهم قد وشى به إليه.

لنا أن نتخيل غضبه وثورته. هاج وماج واستند إلى نظام الامتيازات الأجنبية والقنصل وملك فرنسا وهدد باللجوء إلى حكومته وتحويل الأمر إلى مسألة دبلوماسية. أمام ذلك كله لم يجرؤ الجنود على الولوج في خيمته. ولكنهم مضوا في مراقبته وأوقعوا حظرًا على قاربه الشراعي الراسي على ضفاف النيل. بعد شهر من الانتظار والمراوغة، كانت هناك ضرورة الالتجاء إلى الأساليب القاطعة في الشرق. أجزل في نفح المال وحصل في المقابل على تصريح بنقل صناديق آثاره السبعة والعشرين ليلاً على متن قاربه.

بالإضافة إلى هذا الحدث المأساوي، يروي لنا ابنه واقعة أكثر بهجة «صحب بريس دافين Prisse d'Avennes صناديقه الثمينة على متن قاربه. وقد طالت رحلته إلى ستة عشر يومًا بسبب معاكسة الرياح للقارب.

لدى وصوله إلى مقابر بني حسن لقي في أنحائها اللجنة البروسية. وهو لقاء فسر على أكثر من محمل. صعد لبسيوس Lepsius الذي كان يترأسها على ظهر المركب. وبعد المراسم المتعارف عليها في مثل هذه الحالات. تناولا القهوة معًا وتجاذبا أطراف الحديث كما هي العادة في الشرق. وأسر الطبيب الألماني إلى بريس أنه قد جاء إلى مصر خصيصًا لنقل قاعة أجداد تحتمس الثالث إلى متحف برلين. تلقى بريس دافين الأمر بهدوء بالغ متحاشيًا أثناء انصراف الطبيب الاعتراف له بأن الصناديق التي جلسا سويًا عليها لاحتساء القهوة تحوي كل أفاريز غرفة الملوك أي محراب تحتمس الثالث هدف بعثته العلمية. أصررت على إيضاح الأمر وأؤكد لكم صدقه».[٢٢]

لدى وصوله إلى القاهرة، سارع بريس داڤين إلى لقاء نائب قنصل فرنسا لمساعدته في الحصول على إذن بحرية التجوال. وتم صرفه عن هذا اللقاء بأدب جم. استطاع بريس بشيء كبير من المكر والحذر الوصول بشحنته إلى الإسكندرية. وهناك رفض المدير القائم بأعمال القنصلية بنيديتي Benedetti الذي سيصبح لاحقًا سفير فرنسا في برلين أن يضع الصناديق في مبنى القنصلية. تعلل بريس داڤين بالتعقيدات الإدارية للحصول على التصريح اللازم لشحنها. واستطاع بذلك وضعها في «مخازن الحكومة المصرية»[٢٣]. مر عام كامل من الإجراءات والمحاولات مع الوالي حتى نجح بريس في شحنها على متن سفينة «لوسيريبير» في الخامس عشر من مايو ١٨٤٤ وعليها بطاقات مدون عليها العبارة التالية:

«أشياء خاصة بالتاريخ الطبيعي مرسلة إلى متحف باريس». وما إن رست السفينة على ساحل تولون Toulon حتى أبلغ الرحالة وزير المعارف العامة ڤيلمان Villemain بوصول غرفة الملوك التي يهديها إلى فرنسا.

بفضل تدخل ووساطة شامبليون فيجاك أعيد شحن الصناديق على طراد شحن أوصلها إلى الهاڤر Havre ومنها استطاع داڤين D'Avennes إيصالها إلى باريس. بناء على اقتراح من عالم المصريات لوترون Letronne الذي كان يكن له تقديرًا خاصًا، نال داڤين في العام التالي وسام جوقة الشرف وهو المكافأة الرسمية الوحيدة التي حصل عليها حتى وفاته.

حين عاد إلى مصر عام ١٨٥٨[٢٤] أي بعد ثلاثة عشر عامًا، كانت أشياء كثيرة قد تغيرت. كان ماريت Mariette بعد اكتشافه لمعبد السرابيوم عام ١٥٨١ قد أصبح أمينًا للمتحف الذي أنشأه سعيد باشا. وكانت أعمال التنقيب قد تم عمل ضوابط لها. واضطر بريس داڤين أن يقنع بالتقاط الصور وعمل الرشم. لم يأمن أحد جانبه ولم يصدر له فرمان بالسفر إلا بعد أن وعد وعدًا قاطعًا بعدم الاستيلاء على أي شيء. ويفسر هذا بدون شك الحقد والمرارة التي كان يكنها لماريت. كان يستكثر عليه منصب مدير المواقع الأثرية لقاء راتب قدره عشرون ألف فرنك مع سفينة بخارية ونحو ألف رجل تحت إمرته. وقد زخرت أوراقه غير المنشوره بنعوت وتقييمات قاسية وغير عادلة في حق عالم المصريات الكبير. ألم يذهب إلى حد الادعاء ولكن أين هي الحقيقة؟ إن تمثال الكاتب المصري الشهير[٢٥]

ليس مصدره أعمال التنقيب بمنطقة سقارة وأنه قد ابتيع من رجل يهودي بالقاهرة يدعى السيد فرناندز Fernandez كان قد وجده في رمال أبي صير.[٢٦] أياً كان الأمر، إذا كان بريس داڤين لم يحصل على الإذن بإعمال معوله خلال العامين اللذين قضاهما في مصر، فقد حقق عوضًا عن ذلك مكاسب كبيرة من الناحية الأثرية بقلمه. فخلال جولاته الكشفية في الجزيرة العربية والنوبة وصعيد مصر، جمع مادة علمية هائلة منها الخرائط والرسومات الأولية والمجسمة والملونة بعناية والصور والمقاطع والقوالب والمدونات إلى جانب العديد من أعمال الترسيم التي وصلت أطوالها إلى ثمانية أمتار وأكثر، وأعمال الرشم والحفر البارز التي جاوزت الأربعمائة متر تمثل الأفاريز التاريخية لمعبد مدينة «هابو».

خلاصة القول أنه أصبح في حوزته منجم من المعلومات الجغرافية والأثرية واللغوية والإثنوغرافية استغلها فور عودته في عملية «مصر القديمة» و«الفن العربي» لتغذية عمله الصحفي ومحاولاته تبسيط وتعميم ونشر مكتسباته العلمية.

لا يحق لي عمل تقييم أو إطلاق أحكام على مجمل أعمال بريس داڤين Prisse d'Avenne فهو أمر يخرج عن نطاق هذه الدراسة ويحتاج إلى متخصصين. ولكن ما ينبغي تكراره هنا أنه قد خدم الآثار القديمة والآثار الإسلامية. كتب تيوفيل جوتييه Théophile Gautier ما يؤكد هذا المعنى فقال: «لم يتم من قبل تفسير الفن المصري بمثل هذه الروعة».

وقد يأخذ علماء المصريات بعض الشيء على بريس داڤين عدم موضوعيته وترميمه واستكماله لبعض النقوش والمنحوتات التي أتلفها الزمن أو اللصوص بالذوق أكثر منه بالعلم، وبالفن أكثر منه بالفطنة. فما قام بتشكيله مثالي أكثر من اللازم، وما فسره هنا وهناك أكاديمي بعض الشيء وزخرفي، مستنسخاته متشابهه وألوانه تقريبية. وقد أشرت إلى أن مجهود بريس داڤين قد نال استحسان ماسبيرو إلا أنه قد أخذ عليه عدم إشعار من يشاهد رسوماته بالفارق الموجود بين إفريز يرجع إلى الأسرة الخامسة وآخر يرجع للأسرة الثامنة عشرة. ولكن هذه التحفظات تسري أكثر في حق ويلكنسن Wilkinson ولبسيوس Lepsius اللذين قاما بعمل رسومات مثقبة مملة. ولا يمكن الجزم بأن

الرسامين المعاصرين حتى أولئك الذين صحبوا شامبليون قد تصرفوا بشكل مغاير. كتب إرنست فيدو Emest Feydeau عام ١٨٥٦ أنه «على أوروبا الفنانة والعالمة أن تتوارى خجلاً من التنفيذ الرديء لمعالم مصر الموجودة في أكثر من مائة كتاب. والأمر يتطلب ذوقًا مدربًا وممارسة طويلة لاستيعاب نقاء الخطوط التاريخية التي غالبًا ما لا تتفق مع ضخامة منظور القاعدة الهيرية. وعلو قدر بريس دافين Prisse d'Avennes يرجع تحديدًا إلى دقة وذكاء ملاحظته لهذه الخطوط الخارجية المهيبة وغير الموفقة في آن واحد»(٢٧)

وذكاء الملاحظة غير قابل للنقاش أما دقتها فكانت محل اعتراض بعض علماء المصريات. ما لا جدال فيه هو أن بريس دافين قد بيّن ألوان المعابد والمدافن ومدى التناسق الغريب والرائع بينها. وتتسم رسومات شامبليون ومعاونيه بالنقاء والجمود.

قبل بريس دافين، كان الفن الفرعوني بالنسبة للجميع فنّاً هندسيّاً ومعماريّاً مؤلفًا من الخطوط والمقاييس والأحجام. بقدوم دافين، دبت الحياة في كل مكونات هذا الفن. وشحبت أكثر العلوم موضوعية بجانب إيحاءاته التي تتدفق حماسة ومحاولاته إعادة التكوين والتشكيل لما تلف وبلي والتي قام بها بشغف وولع. كانت علوم الآثار الفرعونية الفرنسي بعد «وصف مصر» والعالم شامبليون في انتظار فنان، ووجدته مع بريس دافين. وإذا لم يجانبني الصواب فهي لم تجد غيره منذ ذلك الحين.

أما ما يدين به له علم الآثار العربية فأكبر. وصل بريس دافين إلى مصر في وقت مغادرة بسكال كوست Pascal Coste وفي ذلك دلالة ورمز. كان المهندس المعماري الذي وفد من مارسيليا قد فتح أبواب المساجد. وكان من الضروري استكمال ذلك بالولوج فيها ودراسة توزيع الظلال بها والزجاج المعشق والخشب المطعم بالصدف والأبواب المصنوعة من خشب الأرز المزين بالأرابيسك وأشغال العاج والخزف والآيات القرآنية المزخرفة بالمنمنمات. أظهرت رسومات كوست Coste الخطية وتصويره الأنيق البارد الهندسة المعمارية الفاطمية والمملوكية وتلك الخاصة بحقبة الخلفاء في أجل صورها ولكن أيضًا في جمالها المجرد، وطابعها التوحيدي الفكري. كنا لا نلمس إلا جوهرها وكان هذا يبقينا بدون حماس. بمجيء بريس دافين بريشته التي تتدفق حيوية وألوانه الثرية دبت الحياة في حضارة كاملة، واستيقظ ماض من سباته عازفًا بكل الألوان، نفض البيت

المصري عن نفسه الغموض ورحب بنا لنرى بداخله الخشب المحفور والنوافير والخزفيات والمشغولات والمنمنمات والأثاث والنحاس. أظهر لنا كوست Coste كمال هندسة الفن العربي. أما بريس دافين فقد ضخ فيه حياة وأضفى عليه طابعًا إنسانيًا جاعلاً إياه في متناولنا. وبذا خدم من أسمى نفسه «إدريس أفندي الإسلام».

حقيقي أنه كان قاسيًا على مصر المعاصرة ولم يتغاض عن نقاط ضعفها في مجلده عن مصر المعاصرة وأنه قد كتب موقعًا بالأحرف الأولى وبالاشتراك مع كاتب آخر ناقم يدعى ب. ن. هامون P. N. Hamont عام ١٨٤٨[٢٨] كتابًا اعترض فيه على أسرة محمد علي وابنته زهرة وزوج ابنته الدفتردار وحفيده عباس. لم يخف أو يستر شيئًا من عيوبهم أو مفاسدهم[٢٩] وهاجمهم في يومياته غير المنشورة بعنف وهمجية لا تتوارى أمام أشد التعبيرات واقعية. غير أنه مع أبناء جلدته المقيمين في مصر، لم يكن أقل قسوة. «فقد وصف سليمان باشا ساخرًا من خيلائه ومن اللوحة التي أظهره رساموه فيها على هيئة نابليون ممسكًا في يده بمنظار صغير». كما نعت كلوت بك Clôt - Bey بالمخ الصغير المشحون بالغرور والجهل والتفاخر الغبي لتراجعه بعد فوات الأوان عن المديح والتقريظ الذي كاله لمحمد علي[٣٠] في الكتاب الذي يحمل اسمه. أما مارييت Mariette فقد اتهمه بالتدجيل والتزلف لمحمد علي.

وسبب كل ذلك مفهوم. فبريس دافين Prisse d'Avennes إنسان غاضب ناقم. ولكنه يعمل بدون كلل. وهو بطبعه نشيط وعالم لا غاية أو مصلحة شخصية له، مما جعله يحظى بتقدير رجال مثل شامبليون فيجاك Champollion - Figeac وإرنست فيدو Ernest Feydeau ولوترون Letronne وجان جاك أمبير J. J. Ampére وهو كفنان استطاع استقطاب إعجاب تيوفيل جوتييه Théophile Gautier وماريلا Marilhat وأشيل ديفيريا Achille Deveria[٣١] أما ككاتب وقائع وحوليات فقد استشهد به شامفلوري Champfleury وقد أخطأ مكسيم دي كوم Maxime Du Camp بمحاولة تشويه صورته.

ورغم شعوره العدائي وفظاظته، إلا أنه استحق عرفان فرنسا ومصر، لم نستطع إبان حياته أن نعطي وطنيته وتضحياته وهداياه ما تستحقه من تقدير. فقد بقيت قاعة

تحتمس الثالث في فناء المكتبة القومية لشهور طويلة معرضة للتقلبات الجوية حتى تقرر تغطيتها بطلاء من القار اخترعه الكيميائي دوماس Dumas الذي كان في ذلك الوقت يشغل منصب وزير المعارف العامة. وهنا الطامة الكبرى فقد أزال هذا الطلاء الألوان الواضحة التي كانت تبرز الرسومات ذات التجاويف.

وقد أعيد تركيبها بعد ذلك في ركن مظلم من بهو خزانة الأوسمة بعيدًا عن تقلبات الشتاء الباريسي ثم تم نسيان أمرها تمامًا. ولم يُلتفت إليها إلا بعد تلفها وفقدانها لألوانها، بعد الحرب حينذاك تم نقلها ومعها رسم بروج دندرة إلى متحف اللوفر حيث وجدت أخيرًا متحفًا يليق بها.[٣٢] أما مصر فقد وجدت في شخص «إدريس أفندي» متحدثًا رائعًا باسمها. ألم يعرف بأعماله العظيمة ماضيها المزدوج وفنيها الفرعوني والعربي. أغلب رسومات «مصر الحديثة» L'Egypte Moderne في مجموعة لونيفار L'Uni vers فصوله عن النباتات المصرية[٣٣] التي كتبها استنادًا إلى مدونات صديقه جورج لويد دو بريئستين qeorge Lioyd de Brynestyna والطبوغرافية الأثرية للبلد[٣٤] ترتكز على مراجع بشكل علمي رائع يجعلها تتمة قيّمة لدراسات علماء حملة بونابرت.

ألم يكن في القاهرة أحد الأوائل الذين ساهموا في خلق حركة أدبية وعلمية؟ ألم يرأس «جمعية العلوم الطبيعية بمصر؟ ألم يشترك مع الدكتور هـ. آبوت Dr. H. Abbott في تأسيس أول مكتبة بالمدينة وتشكيل «رابطة أدبية بمصر Association Litt raire d'Egypte» تلك الرابطة التي كان نائبًا لرئيسها والتي صحب الدكتور بيرون Dr. Perron إليها جيرار دي نرفال Gérard de Nerval لدى حضوره إلى مصر ليتزود بجزء كبير من المراجع التي احتاجها لمؤلفاته[٣٥].

****

BIBLIOGRAPHIE

- E. Prisse d'Avennes, Coup d'oeil sur la situation en Egypte, 1831. Tirage à part, Avesnes

- Excursion dans la partie orientale de la Basse-Egypte, Miscellanea Aegyptiaca, t. I, Alexandrie, 1842.

- Remarks on the ancient materials of the Propyla at Karnak (lettres à Sir G. Wilkinson, 15 janvier et 27 mars 1840) Transactions of the Royal Society of Literature, 2e série, vol. I, p. 76-92, Londres, 1843. Additions manuscrites dans le dossier d'Avesnes.

- Lettre sur l'archéologie égyptienne à M. Champollion-Figeac, 27 mai 1843, Revue Archéologique, 1844, vol. I, p. 723-734. Additions manuscrites dans le dossier d'Avesnes.

- Recherches sur les légendes royales et l'époque du régne de Schai ou Scherai, Revue archéologique, 1845, vol. II, p. 457-474.

- Notice sur la Chambre des Rois de Karnak, Revue archéologique et tirage à part, Paris, Leleux, 1845.

- Notice sur le Musée du Kaire et sur les collections Abbott, Clot-Bey et Harris, Revue archéologique, 15 mars 1846.

- Notice sur les antiquités égyptiennes du Musée Britannique, Revue archéologique, 15 février 1847, p. 3-33.

- Oriental Album. characters, costumes and modes of life in the Valley of the Nile illustrated from designs taken on the spot by E. Prisse, with descriptive letter-press by James Augustus St. John, London, J. Madden, 1848 et 1851. 32 planches lithographiées par Déveria, Mouilleron, etc.

- L'Egypte moderne (en collaboration avec J. J. Marcel, Ryme et Hamontdans[1] la collection: L'Univers, Paris, Didot, in-8°, 1848 et 1851.

- Miroir de l'Orient, ou tableau historique des croyances, mœurs, usages, sciences et arts de l'Orient Musulman et Chrétien, ouvrage rédigé et illustré d'aprés des documents inédits et authentiques par une société d'orientalistes, d'artistes, sous la direction de M. Prisse d'Avennes, in-4°, Paris, Didron, 1852 (publication inachevée).

(1) Je n'ai indiqué, dans la bibliographie ci-dessus, que les études relatives à l'Egypte. On trouvera, dans la Notice biographique dûe à Emile Prisse d'Avennes fils, un tableau plus complet des productions diverses de l'auteur qui fut un polygraphe infatigable.

- Les Iribus nomades de l'Egypte. Les Ababdeh. Revue Orientale, 1853, t. III, p. 337.

- Souvenirs d'Egypte. La grotte de Samoun. Revue contemporaine, 1854.

- Les Monuments Egyptiens. Bas-reliefs, peintures, inscriptions, etc., d'aprés les dessins exécutés sur les lieux par E. Prisse d'Avennes, pour faire suite aux Monuments de l'Egypte et de la Nubie de Champollion le Jeune. Ouvrage publié sous les auspices

- de M. le comte de Salvandy, Ministre de l'Instruction publique, grand in-folio, Paris, Didot, 1857.

- E. Prisse d'Avennes, Histoire de l'Art Egyptien, d'aprés les monuments, depuis les temps les plus reculés jusqu'à la domination romaine. Texte établi d'aprés les notes de Prisse d'Avennes par P. Marchandon de la Faye, 160 planches publiées en 42 livraisons de 1868 à 1878. 2 vol. d'atlas, grand in-folio, et 1 vol. texte in-4°, Paris, A. Bertrand, 1868-1879.

- L'art arabe, d'aprés les monuments du Caire depuis le viie siécle jusqu'à la fin du xviiie siécle. 1er partie: architecture et mobilier, 2e partie: arabesques et décoration. 200 planches en 2 vol. d'atlas, grand in- folio, et 1 vol. texte in-4°, Paris, Morel, 1869.

- Miscellanées. Société archéologique d'Avesnes-sur-Helpe. Recueil contenant des gravures, articles en épreuves ou en tirages à part, comptes rendus de presse, brochures et coupures diverses, correspondance relative aux publications de Prisse d'Avennes. A signaler en particulier les lettres à Wilkinson et à Champollion-Figeac, la correspondance relative aux explorations de 1843 (lettre de Jomard, instructions de la Société de Géographie de France), à l'enlévement de la ؛Chambre des Rois (lettre de Villemain et de Salvandy), à l'envoi de l'herbier de george Lloyd de Brynestyn au Jardin Botanique de Montpellier (lettres du botaniste Raffeneau-Delile), etc.

- Articles parus dans la Revue générale d'architecture (t. XIV, p. 370-1856); la Revue orientale et algérienne (a partir de 1852)(1).

- [Petits mémoires secrets de la Cour d'Egypte], extraits tirés des papiers et memoires inédits conservés à la Bibliothéque Nationale, édités par Auriant, Paris, La Centaine, 1931.

(1) Prisse d'Avennes et Hamony utilisent des articles qu'ils avaient auparavant publiés dans la Revue de l'Orient.

- Collaboration à l'illustration de l'ouvrage d'Ernest Feydeau: Histoire des usages funébres et des sépultures des peuples anciens, Paris, Gide et Baudry, 1856.

- Papiers et mémoires inédits classés au Département des Manuscrits de la Bibliothéque Nationale, Dossiers n{ 20. 416-20.449 des nouvelles acquisitions françaises.

 20.416. Géographie de l'Egypte.

 20.417. Histoire de l'Egypte.

 20.418. Archéologie égyptienne.

 20.419. Art égyptien.

 20.420. Antiquités et antiquaires.

 20.421. Erreurs sur l'Egypte ancienne (étude dédiée à la mémoire de son fils N. Prisse).

 20.422. politique et administration de l'Egypte moderne (notes et coupures de journaux contemporains).

 20.423-20.424. Moeurs et coutumes (idem).

 20.425 Nubie et Arabie (journal MS de la visite à Abousimbel en 1837).

 20.426-20.427 Art arabe.

 20.428 Histoire Naturelle.

- Les dossiers 20.428-20.448 contiennent surtout des dessins, des calques et des estampages. Le dossier 20.449 est un lexique égyptien.

- Emile Prisse d'Avennes fils, [e. M***] Notice biographique sur E. Prisse d'Avennes, voyageur français, archéologue, égyptologue et publiciste, Paris, 1894 et 1896 (additions manuscrites en 1919, Avesnes7).

- Prisse d'Avennes, explorateur français, égyptologue, archéologue et publiciste. Mémoires de la Société archéologique de l'arrondissement d'Avesnes, 1904, t. VI, p. 343-381.

- Deux papyrus égyptiens hiératique et figuratif. Mémoires de la Société archéologique de l'arrondissement d'Avesnes, 1912, t. X, p. 247-287.

- Le papyrus à l'époque pharaonique, Avesnes, Edition de l'Observateur, 1926 (avec un album de fac-similés).

****

الهوامش

١ - مكسيم دي كوم، ذكريات أدبية Souvenirs Littéraires طبعة ١٨٨٢ المجلد الأول ص ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

٢ - ذات المرجع ص ص ٤٦١ - ٤٦٤.

٣ - المجلة الشرقية والجزائرية ومجموعة مرآة الشرق
La Revue orientale et algérienne, et la collection: Miroir de l'orient

٤ - جدول سيتي الأول الذي استخرجه مارييت والذي ينبهر به الجميع في موقعه والذي نقله دوميشين D michen وجدول رمسيس الثاني الذي نقله كاييوه Cailliaud من أجل شامبليون والموجود حاليًا في المتحف البريطاني [دفتر بيان النحت ١٩٠٩ ص ١٦٣]

راجع ما سبق ص ٢٢٧.

٥ - ذكريات أدبية Souvenirs Littéraires المجلد الأول ص ٤٦٤.

٦ - مكتب المخطوطات، أحدث المقتنيات الفرنسية، أوراق ورسومات بريس دافين (رقم ٢٠٤١٦ - ٢٠٤٤٩) ملفات مرقمة تحوي مذكرات ومدونات بعضها غير منشور وبعضها استخدم في عمل مؤلفات كبيرة وفي كتاب «مصر الحديثة» L'Egypte Moderne وفي مقالات مجلة الآثار La Revue Archéologique المجلة الشرقية والجزائرية La Revue Orientale et Algérienne ومجلة مرآة الشرق Miroir de L'orient بدءًا من عام ١٨٥٢ - انظر إلى قائمة المراجع في نهاية الفصل.

٧ - دفتر بيان المبيعات في إنجلترا مراسلات، مجموعات مقالات، إهداءات إميل بريد دافين الابن صورة كبيرة لبريس دافين بريشة ماريللا في عام ١٨٣٢. استولى عليه الألمان في مارس ١٩١٨ ولم يتم العثور عليه عقب وفاة إميل بريس دافين الابن الذي مات فقيرًا عام ١٩٢٩. انتقلت آخر مقتنيات بريس دافين التي كانت بحوزة الابن إلى الجمعية الأثرية بأفان Avesnes.

٨ - نشر ابنه إميل نبذة من سيرته موقعه بالأحرف الأولى من اسمه باريس ١٨٩٤ و١٨٩٦ ص ص ٩ - ١١.

٩ - عاودت هذه المشاريع الظهور وأصبحت عامي ١٩٣١و١٩٣٢ محل دراسات متعمقة. هنا أيضًا يُعد بريس دافين من الرواد.

١٠ - Miscellan a Aegyptiaca مجموعة مقالات عن مصر ١٨٤٢ ص ص ٣٥٣٣.

١١ - النسخة الخطية من الصحيفة ٢١٢٨ أغسطس ١٨٣٧ المكتبة القومية رقم ٢٠٤٠٢٥ ص ٦٣.

١٢ - نبذة عن حياته نشرها ابنه ص ١٧.

١٣ - ذات المرجع ص ١٨.

١٤ - أوراق غير منشورة لنستور لوت Nestor L'Hóte وكان الوزير سلفاندي Salvandy قد أرسله إلى مصر عام ١٨٣٨ للمرة الثانية لاستكمال مجموعة الرسومات التي بدأتها بعثة شامبليون عام ١٨٢٨ تمهيدًا لعمل طبعة ثانية لكتابة «آثار مصر والنوبة» (راجع ما تقدم ص ص ٢٣٦ - ٢٤٣ وراجع كذلك الملحق الثاني ص ٣٥٧) .

١٥ - في التاسع والعشرين من أكتوبر الماضي كان في طريقه إلى مدينة «هابو» للرسم أو دراسة النباتات بها فسبه فلاح. أراد بريس داڤين ضربه بعقب البندقية التي كان يحملها فطاشت الضربة إلى صدره (مقتطفات من أوراق بريس داڤين).

١٦ - ابن الميجور سير وليم لويد من برنستين (أرض الغال) مؤلف كتاب «أسفار في جبال الهيمالايا» Travels in thé Himalaya mountains كان جورج لويد يهتم بالنباتات والآثار ويتقن الرسم. قام بريس داڤين بناء على طلب منه بتنفيذ مجموعة من الرسومات لتنضم إلى ألبوم عن النيل صدر في لندن بعنوان «الألبوم الشرقي» Oriental Album J. Madden ١٨٥١ . وتوضح نبذة في مقدمة الكتاب غموض موته في «القرنة» «لقي حتفه بطلقة طائشة صادرة من بندقيته. هذا الحدث المؤلم وقع في القرنة ويعد مثالاً فريدًا لشجاعته وحضور ذهنه. أثناء لفظه أنفاسه الأخيرة، كتب في كراسته بضعة سطور موجهة إلى أبيه يشرح فيها بإيجاز حادثة موته». وتزين مقدمة المجلد صورة له بريشة بريس داڤين.

وتملك جمعية أڤان سور هلب Avesnes - Sur - Helpe الأثرية ملفاً أهداها إياه ابن بريس داڤين يحوي خطابات خاصة بموت جورج لويد دو برينستين والشهادات الطبية والشهادة الدالة على الوفاة بالإنجليزية والفرنسية والشكر الموجه من والده إلى بريس داڤين وما قرره هذا الأخير بشأن الرسومات والنباتات والتي أهديت إلى حديقة النباتات بمدينة مونبلييه Montpellier وأرسلت إلى مديرها A .Raffeneau - Delile أ. رفونوه دليل العضو السابق بمعهد مصر.

١٧ - ملاحظات على المواد القديمة الخاصة بـ Propyla الكرنك في معاملات الجمعية الملكية للأدب Transactions of thé Royal Society of Literature المجموعة الثانية، الجزء الأول ص ص ٧٥ - ٩٢ لندن ١٨٤٣.

١٨ – ج. ج. أمبير J.J.Ampere «رحلة إلى مصر والنوبة» «Voyage en Egypte et en Nubie طبعة ١٨٨١ ص ص٢٧٣ – ٢٧٥ و ب. ن. هامون B. N. Hamont «مصر في عهد محمد علي» L'Egypte Sous Mehemet - Ali طبعة ٣٤٨١ المجلد الأول ص ٤٤٤ راجع في هذا الشأن اليوميات غير المنشورة للكونت دي سانت فريول الملحق الأول والحاشية ص ٣٢٧.

١٩ – راجع بريس داڤين Prisse d'Avennes Monuments Egyptiens «آثار مصرية» بريس داڤين في تل العمارنة وتونا الجبل، اللوحات الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة.

انتقد الكونت ج. ديستورمل J.d'Estourmel عام ١٨٣٣ إفريز تونا الجبل ورأى أن رسمه وترجمته غير متقنين، المرجع السابق المجلد الثاني ص ٤٣٨.

٢٠ – ج. ج. أمبير J.J.Ampere المرجع السابق ص ٣٧٥.

٢١ – اجتاح لبسيوس Lepsius قبر سيتي الأول في وادي الملوك واستولى على كل الأفاريز والرسومات التي أعجبته. راجع في هذا الشأن شهادة الكونتيسة دي جسباران Com-tesse de Gasparin رحلة إلى الشرق ١٨٤٨ Voyage au Levant المجلد الثاني ص ٥٧٢ ومكسيم دي كوم Le Nil i Maxime Du Camp النيل ١٨٥٣ ص ٢٥١.

٢٢ – بريس داڤين الابن «البردي في العصر الفرعوني» ١٩٢٦ ص ٥٨.
Prisse d'Avennes fils "Le Papyrus l'epoque phraonique", L'observateur Avesnes , 1926, p58

بحث السيد لبسيوس Lepsius بعض الوقت عن غرفة الكرنك بدون أن يفهم سبب عدم عثوره عليها. ويقال إنه كان ينوي أن يفعل بالضبط ما فعله بريس إذا لم يكن هذا الأخير قد سبقه. (ج. ج. أمبير J. J. Ampere رحلة إلى مصر والنوبة. طبعة ١٨٨١ ص ٣٧٠).

٢٣ – خلال هذه الفترة، كانت الحكومة الإنجليزية قد عرضت على بريس داڤين مائة ألف فرنك لقاء «غرفة الملوك» ولم توفق في هذا العرض. رد ڤيلمان منشور في النبذة السابق الإشارة إليها عن حياته ص ص ٣٢ – ٣٣.

٢٤ – كان بريس ينوي العودة قبل هذا التاريخ. في عام ١٨٤٤، كتب ج. ج. أمبير J J .Ampere «تركته في باريس منشغلاً بالتحضير لكشف جديد بمصر لا يستطيع أحد غيره القيام به». «رحلة» Voyage ص ١٣٧.

٢٥ – الكاتب الجالس القرفصاء المحفوظ باللوفر.

٢٦ – راجع المكتبة القومية رقم ٢٠٤٢٢ والمذكرات السرية للبلاط في مصر.
Petits m moires secrets de la cour d'Egypte

دار نشر أوريان Auriant ١٩٣١.

٢٧ – «تاريخ العادات الجنائزية» Histoire des usages funèbres ص ١٢٤ قام بريس بعمل الرسوم التوضيحية لمجلد فيدوه Feydauo وقد هنأه تيوفيل جوتييه Théophile Gautier على عمله. لوريون L'orient الجزء الثاني ص ص ٢٧٨و٢٧٩.

٢٨ – «مصر تحت حكم محمد علي» L'Egypte sous la domination de Mahemet Ali باريس، Didot، ١٨٤٨. راجع أيضًا ما سبق ص ٢٨٩

٢٩ – ذات المرجع ص ص ٣٦ – ٤٦ راجع في ما يخص الأميرة نازلي ش. ديدييه Les nuits du Caire Ch. Didier «ليالي القاهرة» طبعة ١٧٦٠ ص ٤٠١ وما يليها.

٣٠ – «المذكرات السرية لبلاط مصر» Petits memoires secrets de la Cour d'Egypte الناشر Auriant ١٨٣١ ص ص ٣٦ – ٣٧. وقد أكدت على هذه المعلومة اليوميات غير المنشورة للكونت لويس دي سان فريول Louis de Saint - Ferriol راجع الملحق الثاني ص ٣٢٥، ما نعرفه عن موقف كلوت بك بعد فقدانه للحظوة. لدى عودته إلى مصر استجابة لدعوة سعيد عام ١٨٥٧، لم يكن يتفق مع آراء أوروبا غير الصائبة عن إعادة بعث مصر. الأمر الذي نستدل من حواره مع بواتو E .Poitou على متن السفينة Le Cange «الكانج» (راجع أ. بواتو «شتاء في مصر» Un hiver en Egypte) الطبعة الثالثة ١٨٧٦ ص ص١٣ – ١٤.

٣١ – قام بريس دافين بعمل أغلب الرسوم التوضيحية مع كتابة بضعة صفحات من كتاب ارنست فيدوه Ernest Feydeau عن العادات الجنائزية عند الشعوب القديمة. قام آشيل ديڤيريا Achille Deveria بعمل بورتريه جميل لبريس دافين عام ١٨٤٣. وأثناء جلسات العمل استطاع بريس بحديثه عن ذكرياته في مصر، إيقاظ الاهتمام بالمصريات لدى تيودول ديڤيريا Th. Deveria, Memoires et Fragments Theodule Deveria «مذكرات ومقاطع» ١٨٩٦ – المقدمة.

٣٢ – عرض اللوڤر بجانب غرفة الملوك واحد من أفاريز إخناتون التي أشير إليها من قبل والنصب الجميل الخاص بالأميرة «بختان» Bakhtan التي جلبت عام ١٨٤٤ وكانت قد أهديت إلى المكتبة القومية. وقد صورهما بريس دافين عام ١٨٤٧ في اللوحتين الثانية عشرة والرابعة والعشرين في كتابه «آثار مصرية» Monuments Egyptiens.

٣٣ - طبعة ١٨٤٨ ص ٨٦.

٣٤ - الفصل السادس ص ١٦٦ إلى ص ٢٠٥.

٣٥ - طبقًا لمحضر جلسة الرابطة الأدبية والذي تُلي في جلسة الثاني من مايو ١٨٤٢، مجموعة مقالات عن مصر. عام ١٨٤٢ ويلكنسن الإسكندرية.
Miscellan ed Aegyptiaca, Anno MDCCCXL11, Wilkinson Alexandria

«اقتناعًا منهما بفائدة هيئة يمكنها أن تقدم لكافة التخصصات معلومات جديدة عن مصر والبلاد المجاورة وأن تصبح مركزًا لاجتماع الرحالة والمقيمين قرر كل من السيد بريس داڤين Prisse d'Avennes والسيد Abbott أن يؤسسا في القاهرة جمعية جديدة. «هذه الهيئة تم تأسيسها في الخامس عشر من فبراير ١٨٤٢ بعد تأسيسها بعام وتحديدًا في الخامس عشر من فبراير،١٨٤٣ كانت تضم أكثر من مائة عضو أغلبهم من الإنجليز. من أعضائها الشرفيين علماء مبرزون مثل شامبليون فيجاك Champollion - Figeac وف. كايبوه وف. مونجان F.Mengin وجومار Jomard و و. لان Lane وش. لونورمان Ch Lenormant. ولبسيوس Lepsius ولوترون Letronne وروسلليني Rosellini وسير جاردنر ويلكنسن .. Sir Gardner Wilkinson إلخ.. المجلد الأول والوحيد من مجموعة المقالات عن مصر Miscellan a Aegyptiaca والذي يصعب اليوم العثور عليه والذي نشرته الرابطة، كان يحوي مقالاً ل ويلكنسن وأربع إسهامات من بريس داڤين نذكر منها: «رحلة في الجزء الشرقي من الدلتا ومدونات من يوميات كتبت عام ١٨٣٦»

كان بوغوص يوسف بك وزير الخارجية رئيس الرابطة عام ١٨٤٢. وكان نوابه بريس داڤين والدكتور هـ. أبوت والدكتور ڤيردو Dr. Verdot أمين قاعة العلوم الطبيعية. والشيء الغريب أننا لا نجد بين الأعضاء أحدًا من مشاهير الجالية الفرنسية في تلك الفترة فيما عدا كلوت بك Clôt -Bey والدكتور كوني Dr.Cuny ولكننا نجد اسم جورج لويد دو برينستين صديق بريس داڤين.

لم تكن المكتبة في ذلك الحين ثرية إذ كانت تعتمد على الإهداءات وكان بها نحو مائتي مجلد مهداة من الإنجليز بالإضافة إلى ست أو سبع مؤلفات قام بتقديمها بريس داڤين منها: «رحلة إلى مصر وسورية لڤولنيه»

أفقد رحيل بريس داڤين إلى فرنسا عام ١٨٤٤ الرابطة نائب رئيسها وأكثر داعميها. وقد توقفت منشوراتها.

****

المحتوى

****

الجزء الثاني

منذ نهاية الهيمنة التركية
حتى افتتاح قناة السويس
(١٨٤٠ - ١٨٦٩)

ترجمة

د. رشا صالح

الباب الأول

الرحالة الأدباء بعد عصر الرومانسيـــة

الفصل الأول[١]

جيرار دي نرڤال

I

ينتمي جيرار دي نرڤال Gérard de Nerval (1808 - 1855) إلى عالم الأساطير إذ يصعب إعادة تشكيل ملامحه الحقيقية، وهو يعد أيضًا نموذجًا للأنماط المتعددة والطبائع المتناقضة، كما يعتبر أكثر الرومانسيين إفراطًا في رومانسيتهم، وليس هذا الانطباع دون مبرر، ألم يكن صديق جماعة جون فرنس (شباب فرنسا) Jeune - France[٢]، وواحدًا من الذين دعموا سنة ١٨٣٠، بقوتهم وحماسهم الجامح عرض مسرحية هرناني Hernani[٣]، كما كان واحدًا من الذين التفوا حول تيوفيل جوتييه Theophile gautier في صالون لو ديوايني Le Doyenné، ونظموا من أجله أكبر الحفلات البوهيمية الأدبية الصاخبة ؟ ألم يترجم وهو في سن العشرين فاوست Faust لجوته Goethe، ألم يتوغل في غابة

---

(١) هذا الفصل يدين بفضل عظيم إلى إم. جون سانت جارنو M.Jean Sainte Garnot الذي درس كتاب «رحلة إلى الشرق» Voyage en orienet لجيرار دي نرڤال Gérard de Nerval في بحثه المقدم إلى كلية آداب باريس La Faculté des letters de Paris للحصول على دبلوم الدراسات العليا سنة ١٩٣١.

(٢) جون فرنس Jeune — France هي جماعة من شباب الأدباء الرومانسيين، أطلقوا على انفسهم هذه الاسم ما بين عامي ١٨٣٠ و١٨٣٢، وقد تميزوا عن جماعة بوسينجا Bousingas التي كانت تضم ايضًا مجموعة من شباب الرومانسيين بمختلف طبقاتهم السياسية والاجتماعية، يبحثون - على غرار جماعة بوسينجا - عن كل السبل التي يمكنها أن تدهش الطبقة البرجوازية، وذلك من خلال الحياة البوهيمية، وارتداء اللباس غير المهندم، والإفراط في كل شيء، وقد روى تيوفيل جوتييه تاريخهم في كتابه: لي جون - فرنس، رواية هزلية Jeunes - France , romam goguinard عام ١٨٣٣، المترجم.

(٣) مسرحية هرناني، مسرحية شهيرة لفيكتور هوجو كتبها، وهو في سن السابعة والعشرين من عمره، وعرضت للمرة الأولى في باريس على مسرح الكوميدي فرانسيز في ٢٥ من فبراير سنة ١٨٣٠، استطاعت المسرحية كسر قوانين المسرح الكلاسيكي وخاصة الوحدات الثلاث للزمان والمكان والحدث، وهي تحكي قصة بائسة بين هرناني المحكوم عليه بالنفي وابنة الملك دوناسول Dona Sol.

Sturm und Drang المسكونة بالأرواح والمفعمة بالرعشات بعد صولاته وإبداعاته في أعمال إبداعية مثل ملك أولن Le Roi des Aulnes، ولينور دي برجر La lenore de BÜrger ألم يكتب قصصًا هوفمانية، غارقة في الغموض والروعة، ومستلهمة من وحي عجائبي أو مرعب مثل حلاق جوتنج Le Barber de Goetting، أو سونات الشيطان La Sonate du Diable ؟ ألم يكن مريدًا ورعًا بعلم الباطن[1]، شديد الولع بالموضوعات الصوفية والخارقة، وبمشكلات ازدواج الشخصية ونداء الأحلام، والتهيؤات والأمور الميتافيزيقية[2]. ولكنه من ناحية أخرى، كان كلاسيكيًا بنفس هذه الدرجة من الرومانسية.

ولد جيرار لابريني Gérard Labrunie في باريس، أما اسم نرفال Nerval فقد استعاره من اسم إقطاعية قديمة لأسرته في منطقة فالوا Valois التي تقع بالقرب من منطقتي شانتيي Chantilly وإرما نوفيل Ermenonville في قلب فرنسا: «هي منطقة غاية في العذوبة والإنسانية، تحف بها الغدران والغابات، وتكسوها الآفاق الضبابية الرحبة، كما تحيط بها مدينة سانلي Senlis الرائعة، وإقطاعية شانتيي الملكية، وأطلال أديرة شالي[3]، Chaalis ». إنها حقًا جنة حقيقية تثير في الأذهان جمال عصر لويس الثالث عشر Louis XIII، جنة وصفها نرفال في قصيدته «خيال» Fantaisie:

«قصر من القرميد، أركانه من الأحجار
زجاجه مشوب بالحمرة
يحيط به فناء كبير وجداول
تجري من تحته، وتنساب بين الورود».

---

(١) Occultisme: علم الباطن، وهو اتجاه ذهني يسلم بالأمور الخفية، ويقول بإمكان إدراكها، وقد لعبت هذه النزعة دورًا مهمًا في الآداب الأوربية في العصور الوسطى، وخاصة في المحاولات الأولى لكتابة تفسيرات الكون وبحوث السيمياء، وبلغ تأثير هذه النزعة إلى حد أن أي شخص كان يدعي الاطلاع على الغيب يعدم حرقًا خوفًا من الوقوع تحت سيطرته، (المترجم).

(٢) انظر: إم. دي كوم M. Du Camp في كتابه «ذكريات أدبية» Souveneirs littéraires عام ١٨٨٢، الجزء الأول، ص٤١٩ -٤٢٢ «كان نرفال المنشغل بتعاليم بعض الرموز الفلسفية الدينية اليهودية، وقراءة الطالع والنجوم، وفك طلاسمها».

(٣) هـ. كلوار " H. Coluard «المصير التراجيدي لجيرار دي نرفال» La Destinée tragique de Gérard de Nerval، ص ٢١.

وهذه هي نفس المشاهد الرقيقة الكلاسيكية التي أثارها قلمه الراسيني في روايته «سيلفي» Sylvie، وأنجيليك (1854) Angélique، والتي جعلت تيوفيل جوتييه يعد صاحبها أكثر شعراء عصره تعبيرًا عن الروح الفرنسية.

ويعد نرقال رومانسيّاً وكلاسيكيّاً في آن واحد، كما أن أسلوبه المتقن، وجمال تشكيله الشعري، يجعلني أزعم أنه يكاد يكون برناسيّاً، وخير مثال على ذلك من أعماله أودلت Odelettes وأوهام Chimères. ولكن داخل هذا الشكل الصافي المحكم، استطاع أن يعبر عن كل الحنين للأحلام التي لا تنفد، ومن خلال طاقة الخيال والملاحظة تسرب إليه الشفاء من الواقع عبر اجتياحه للمجهول، ومن ناحية أخرى، فإنه خلال جولته في بلاد جديدة كان يشاهد ويسجل ويصف بدقة فنان، لا يريد أن يدع شيئًا يفلت من عينيه من هذا العالم الغرائبي، إنه حالم ورسام، وهو في كلتا الحالتين على درجة رفيعة المستوى.

لقد أوضح هنري كلوار في كتابه «المصير التراجيدي لجيرار دي نرقال» أن مفتاح التناقضات الخصبة في شخصيته يكمن في جنونه، فمنذ عام ١٨٤١، عندما بلغ الثالثة والثلاثين من عمره كانت تنتابه نوبات من الجنون المتقطع في مرات متعددة، ففي أحد أيام يناير ١٨٥٥، عثر على نرقال معلقًا تحت أكوام الثلوج في زقاق قذر من أزقة باريس القديمة، زقاق لافيي لونترد La Vieille - Lanterne. إن هذا الرومانسي الذي فرض على نفسه شكلاً كلاسيكيّاً، وهدأت عذوبة المناظر الفرنسية الخلابة من آلامه الغريبة، وهذا المغرق في الخيال الذي حررت المغامرات والرحلات نفسه من القيود المؤلمة للحياة اليومية، هو إنسان مجنون يريد الشفاء أو الهروب من جنونه[١]. لم يكن جيرار دي نرقال مجرد ظل حالم، مهمل في السراب الشعري، منسل بخفة من خيالاته أو أوهامه. إنه إنسان يصارع مأساته الداخلية التي تمزقه، ويخفيها وراء ابتسامة.

---

(١) «كان مجنوناً، ونفاذ بصيرته لم يكن يخلو أبداً من التوهج والحماس». «كان يحب التنزه ليلاً، فكان يهيم على وجهه مثل كلب ضال، يدخل إلى أكشاك الجنود، وينام على المقاعد الخشبية حين تفاجئه الأمطار، كانت هيئته متواضعة، وضحكته رنانة مدوية». انظر: إم. دي كوم، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٠.

يقول كلوار «كان لدى نرڤال مذاق شديد الحيوية للنجاح، وللعالم، وللحفلات، ولكل مظاهر الزينة، وللطعام الفاخر، كما كان لديه شغف بتذوق كل أنواع النبيذ المختلفة... ألا يكفي كل هذا لكي نرى نرڤال فقيرًا، وحيدًا، ممزقًا جسدياً ومعنوياً في كل الأحوال، ألم يكن حادًا في مقاومته للأقدار ؟ ألا تتعجب من الموهبة الخيالية التي استمد منها قدرته البارعة على الإيهام، ألا تعتقد أنه لم يكن كائنًا جامحًا مفعمًا بالحنين، مجنونًا، ثملاً من كؤوس الصوفية، رقيقًا، وديعًا، بائسًا، غارقًا في غياهب الجنون».

كان نرڤال فقيرًا أو بعبارة أدق، لم يكن يستطيع أن يحتفظ بالنقود، فقد حرمه والده الطبيب بالجيش الفرنسي من أي معونة بعد أن سئم من إسرافه وتبذيره، وفي عام ١٨٣٤، حصل نرڤال على ميراث صغير، ولكنه أنفقه بأكمله لدى باعة الكتب القديمة، والتحف، والصور المطبوعة، كما أنفقه على شراء الورود والهدايا وتذاكر المسرح، حتى إن مكسيم دي كوم Maxime du Camp كان يسأل يومًا تيوفيل جوتييه «كيف دمر جيرار نفسه؟» لقد كان مسرفًا في مغامراته ولذاته. وفي الواقع، لقد كان نرڤال يعشق الممثلات، كان يهواهن عن بعد، يراقبهن من مكانه على مدى ليال وليال، حينما يتلألأن على مسرح الأوبرا. كن يتألقن فقط في خيالاته التي كان يصوغ من خلالها بسهولة إبداعات شاعرية رائعة. كان يستدبن من أجلهن، وإذا صح التعبير، يمكن القول إنه لم يكن يحصل على أي شيء في المقابل. وبالتأكيد فإن بعض النجمات مثل جيني كولون Jenny Colon كن فخورات بنجاحاته التي تحتفي بها الصحف والأوساط الأدبية، لكنه كان يحيرهن بمشاعره الأفلاطونية، ومثاليته المطلقة، وخجله الواضح، وعدم استقراره الذهني. كتب نرڤال إليها يومًا يقول: «ألا تأخذك الشفقة من هذا الحماس المضطرب الذي لا أستطيع أن أفهمه دائمًا؟» هذه هي إذن النقطة الكاشفة. ويمكن أن يقال إن جيرار كان يحس باقتراب شبح الجنون منه في بعض اللحظات. فقد كان لديه وعي في كل الحالات بشذوذ مزاجه وغرابة طباعه، كما يمكننا أن نحس دائمًا في رسائله العاطفية بالتوجس من المستقبل، وعدم الثقة في أعداء متوهمين؛ ولهذا كان يهرب من نفسه، يذهب بعيدًا عنها، ويحاول إلهاءها، يتجنب المعارك معها، ومع هواجسه. من هنا كانت سفراته المفاجئة ورحيله غير المتوقع.

رحل إلى إيطاليا وبلجيكا، وكانت رحلاته إلى ألمانيا في عدة مناسبات سنة ١٨٣٧، ١٨٣٨، ١٨٣٩ . وكانت رحلته إلى النمسا سنة ١٨٣٩ هي التي ألهمته قصائده الرائعة «غراميات في النمسا» «Amours de Vienne» كان يجد نفسه ويحس بذاته على طرق أوروبا، وفي مدنها الجديدة التي كان يجوبها متسكعًا. ومن خلال هذه الرحلات، تولدت لديه الثقة في نفسه والاعتقاد في جدوى الحياة «كان هذا الحالم يبدي ذوقًا مدهشًا نحو الحياة الواقعية في رحلاته، ولحظات اقتطافها ومعايشتها. كان يرسو تحت سماء غير عادية، وفجأة تنبعث عواصف سمائه الداخلية، كان يتمتع بالحياة بأعمق معاني المتعة»(1). كان ينسلخ من ذاته، ينظر، يكتب، وفي خلال عدة أشهر، يخرج لنا منه رجل آخر مشبع بالروحانية والإيقاع، ومليء بالمرح واللطف. كان يأخذ الحياة كما تأتي إليه بكل بساطة، وإذا كان قد أحس عند وصوله إلى ڤيينا أنه وقع في هوى العديد من النساء، فإنه لم يتألم لفراق أي منهن، ولكن ستظهر في حياته قريبًا عازفة البيانو الشهيرة ماري بلويل Marie Pleyel التي ستلهمه مشاعر جديدة متوهجة. واختل توازنه العاطفي، وأصبح مفلسًا ؛ لأن كل هذه الانتقالات كانت تكلفه غاليًا مهما كانت محاولات الاقتصاد في النفقات. أحاط به البؤس، وعاد إلى فرنسا، وقد بدأت ملامحه في التغير بدءًا من ربيع عام ١٨٤٠، وأصبح فريسة للأحلام والهواجس، وقد كتب يقول إن الحلم عباءة تنسجها ربات السحر وهي تشع برائحة لذيذة. كان نرڤال يعيد تشكيل مغامرة خيالية رائعة من الأحداث المؤسفة التي تمر به. فقد تحولت في فكره، وإبداعه، شخصيات مثل جيني كولون وماري بلويل إلى نموذج للملكة الخيرة الراقية التي سيطلق عليها فيما بعد أوريليا Aurélia، وهو الاسم نفسه الذي سيطلقه على كتابه. كان يتمتع بهذا الهروب، وذلك الغياب، والحوار غير الواقعي، فيخلق حياة ثانية خارج الأخرى، غير تلك التي لا تجلب له إلا الإحباطات العاطفية، وتقوده إلى الإفلاس. وفي إحدى أمسيات شهر يناير سنة ١٨٤١، عندما وجده أحد أصدقائه في حالة غريبة، وأراد أن يأخذه معه إلى منزله، قال له نرڤال «لن أعود، وعندما سأله صديقه إلى أين تذهب إذن، قال: إلى الشرق»(2). تتبع يومًا أثناء تجواله في

(1) H. Clouard , La destinée tragique de Gérard de Nerval . p. 21.

(2) Aurélia. éd. Divan , p. 13.

الطرقات نجمًا معينًا اختاره من النجوم الأخرى، «وكان يغني، ويخلع ملابسه التي تناثرت حوله، وفجأة توقف عن الحركة، وتصلبت أذرعه وهي على حالتها ممتدة إلى الأمام، وأحاطت به طائفة من حراس الليل، وحملوه إلى مصحة نفسية في شارع بيكبوس picpus». كان مجنونًا، مكث في مستشفى دكتور بلانش Dr. Blanche في حي مونمارتر، ولم يخرج منه إلا في شهر نوفمبر. لقد قضى عشرة أشهر في عزلة تامة، وفي السنة التالية، ومع إحساسه بالاضطراب الذي يتهدده، قرر أن يواجه المعركة، أو بالأحرى قرر أن ينقلها إلى أرض أكثر ملاءمة له حيث يستطيع إذا دارت المعركة، أن يهزم عدوه. وقد كان ذلك هو مبعث رحلته إلى الشرق، فالهواجس الخفية التي تفجرت أثناء أزمة ١٨٤١ ستظهر، وتعبر عن نفسها داخل عالم الواقع.

II

والواقع أن التفكير حول الشرق كان قد بلغ نضجه، وكانت بواكير هذا النضج قد تمثلت في الاهتمام بسحر غموض الطباعة العربية والتمتع بجمالياتها حتى دون فهمها: «كنت أدرس في وقت واحد الإيطالية، واليونانية، واللاتينية، والعربية، والفارسية.. وكنت أنقل بخط منمق أشهر المخطوطات الفارسية»[(١)]. ولم تكن هذه الدراسات في الواقع، إلا إرهاصات مبكرة لا واعية لاجتياح الروح الشرقية له. كان الشرق بالنسبة له هو شرق الرومانسيين، والرومانسية - كما كان يقول موسيه Musset في أول خطاب من ديبوي إلى كوتني Lettre de Dupuis à Cotonet - هي أحواض مياه تحت أشجار النخيل، وهي الصورة التي أضاف إليها الأدب الألماني مزيدًا من التلوين والتحديد. فأبحاث شليجل Schlegel المتبحرة في السنسكريتية، وديوان جوته الذي يحمل اسم الديوان الشرقي للمؤلف الغربي Le Divan Oriental - Occidental، وكتابات ريكورت، وأفلاطون مهدت جميعها خيال نرفال لهذه الشاعرية الساحرة للشرق»[(٢)]. ومنذ عام ١٨٣٥، وفي فترة

---

(١) بوهيمي ظريف Boheme Galante، طبعة مارسان، Marsan، ص ٢٠٧.

(٢) انظر: جوتييه: صور وذكريات ادبية Portraits et Souvenirs litteraire، ص٥٠، ٥١، وانظر ايضًا صور المعاصرة Portraits contemporains لماريلهات Marilhat، ص ٢٣٨، (كان ماريلات قد رسم على حوائط فندق ديوايني Doyenné ثلاث نخلات متفتحات اعلى قبة مسجد) انظر الجزء الأول ص ٢١٤

انعقاد اجتماعات صالون لو ديوايني Le Doyenné، كان سحر الشرق قد تمكن من نرڤال، فانبهر بصورته، كما كان ماريلات قد أطلعه على خرائطه الخاصة بمصر، وحدثه عن رحلته إليها. كان نرڤال يحلم بملكة سبأ ويفكر فيها، وكان يرى أن أسطورتها ملائمة لتأليف أوبرا تقدمها جيني كولون، ويمكننا أن نتخيل كم قرأ من كتب، ودون من ملاحظات، وحصل على معلومات لكي يكتب هذا العمل، وقد اقتضاه ذلك الإلمام بكل مفردات المكتبة الشرقية مثل الكتاب المقدس والتلمود[١].

ولا يدهشنا أنه رسم، عندما كان في مقتبل شبابه، تصورًا خاصًا لقاهرة «ألف ليلة وليلة» ففي أوقات همه وكربه، كان يتعجل رؤيتها لينعم بحيويتها وواقعيتها، ويجد فيها سلواه وعزاءه، «إن قاهرتي القديمة التي كنت أراها في أحلامي تشبهني، وتشبهك أيضًا، هنالك كنت أعيش، ولا أدري في أي زمان، أفي زمان السلطان بيبرس؟ أم في زمان الخليفة الحاكم بأمر الله؟»[٢]. وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن مشروع رحلته إلى الشرق تعود فكرته إلى فترة إقامته في النمسا من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٤٠، ففي صباح أحد الأيام في ڤيينا، رأي نرڤال فتاة حبشية تجلس بجانب الحوذي في عربة أحد الأمراء، وهي تتمايل على المقعد. و «ولا أدري إن كانت نظرتها الصاعقة لي لم تكن هي الأخرى واحدة من نمط النظرات المجتاحة للوريلي Lorely المخادعة، ومن ذلك اليوم لم أتوقف عن الحلم بالشرق»[٣].

وإذا كان هذا هو التفسير الأدبي الذي قدمه لقرائه لإماطة اللثام عن السبب الخاص والمحدد لرحلته من خلال إرجاعه فكرة السفر إلى الشرق إلى فترة إقامته في فيينا، فإنه كان يخفي الدور الحاسم الذي لعبته الأزمة التي تعرض لها سنة ١٨٤١ في الإعداد لمشروع رحلته التي تمت سنة ١٨٤٣، وهو أيضًا يتحفظ عن الحديث عن موقف والده

(١) المرجع السابق: ص ١٩.

(٢) خطاب مفتوح إلى تيوفيل جوتييه، نشر في جورنال قنسطنطينوبل Le Jonnal Constantinople في ٧ من اكتوبر سنة ١٨٤٣،إلى الخليفة الحاكم بأمر الله يرجع الفضل في إنشاء المسجد الكبير الذي رسمه ماريلات في لوحة من لوحات اللوفر، وكان نرڤال على دراية بنقوش الفنانين الفرنسيين التي تجسد مساجد القاهرة، انظر: «رحلة إلى الشرق، الجزء الأول، وانظر أيضًا الجزء الأول من هذا الكتاب.

(3) Lorely . éd. Divan . p.18-19.

وأصدقائه من الرحلة، ويمكن اكتشاف الدافع الحقيقي لرحلته من خلال مراسلاته. فهو يريد أن يثبت للذين يقدرونه ويحبونه أنه قد شفي، وأنه يريد أن ينزع من نفسه، ومن نفوس الآخرين الذكريات القاسية لأزمة الجنون الأولى التي ألمت به. «كان يجب الخروج من هنا من خلال إيجاد مشروع كبير يمحو ذكريات كل ذلك، ويمنحني صورة جديدة في عيون الناس، مشروع يثمر تحقيقه سعادة كبرى تحيط بي، وتضع خطواتي على طريق المستقبل»[١].

«هذه الرحلة سوف تساعدني دائمًا على أن أظهر للناس أنني لم أكن ضحية إلا لحادثة عابرة منذ عامين»[٢]. والواقع أن الضجيج الذي أثير حول مرضه كان قد انتشر في الفترة الفاصلة بين أزمته ورحلته ؛ ولهذا فقد انتهز الفرصة التي قدمها إليه تيوفيل جوتييه لتأكيد شفائه التام. «إن لطف تيوفيل ودقة إيقاع تفكيره قد ساعداني على عقد صلة طبيعية مع الناس أثناء رحلتي، وخاصة أن هذه الصلة كانت حساسة منذ مرضي الشهير، ولم تستعد وتيرتها إلا مع عودة صحتي، وإثبات صمودها على مستوى عام. ولم يكن هنالك دليل أفضل على إثباتها من القيام برحلة شاقة إلى بلاد حارة. ولم يكن هذا إلا واحدًا من الدوافع لقيامي بالرحلة»[٣]. لكن الدافع الرئيسي كان يكمن في ضرورة تأكيده لنفسه، أكثر من تأكيده للناس على استعادة توازنه واستقراره بثبات فوق قاعدة مستقرة، أو تجديد حياته وروحه، وتقويه نفسه معنوياً ومادياً.

لقد كانت الرحلة ضرورية لنقاهته الروحية ولإشباع رغبته القديمة والدفينة للهروب. في عشية يوم السفر، كتب نرڤال إلى والده متسائلا: «أيهما أفضل، أن يحتفظ المرء بابنه بجانبه أو بصديق مريض، أو حزين، أم أن يعرف أنه على الرغم من بعده في حال أفضل،

---

(١) خطاب إلى والده في ٢٥ من ديسمبر ١٨٤٢، Corresp..éd. Marsan, p.119.

(٢) خطاب إلى والده في ١٩ من اغسطس سنة ١٨٤٣، Corresp., p.139

(٣) خطاب في ٢٥ من اكتوبر سنة ١٨٤٣، انظر: A. Marie. Gérard de Nerval , Le Poète, L' homme ,Paris 1914, p 200
Gérard de Nerval . ا. ماري A. Marie، جيرار دي نرڤال، الشاعر، الإنسان، باريس، ١٩١٤، ص ٢٠٠، في خطاب مفتوح نشر في جريدة لابرس La Presse، في الخامس والعشرين من يوليو، اهدى تيوفيل جوتييه في رحلته إلى جيرار رائعته لابري La péri، وقد رد عليه جيرار من خلال الصحافة في جورنال كونستانتينول، في ٧ من اكتوبر عام ١٨٤٣، (اعيد طبع المقال مرة ثانية في جريدة سيلفيد Sylphid عام ١٨٤٣) انظر: الجزء الثاني، الفصل الثاني.

يكتسب القوى والمعرفة، ويرضي على الأقل رغبة كبيرة»[١]. والنجم الذي كان قد عرفه في ليالي جنونه، هو الذي كان دليله في نهاية المطاف، إنه سيصير من جديد رجلاً، يتمتع بفترة هدوء رائعة سوف يقدر لها أن تستمر عدة سنوات، ونحن مدينون لهذه الهدنة المعجزة بميلاد عمل من أجمل روائع النثر الفرنسي في القرن التاسع عشر، وهو كتاب كما يقول عنه جوتييه «جدير بالإعجاب مُتْرع بالحب واللازورد، والضياء».

لكن كيف أمكنه تدبير نفقات رحلة كهذه ؟ إن مسألة ما كان يملكه في ذلك الوقت ما زالت محوطة بالغموض، ونحن نعلم أنه لن تبدو عليه الحاجة إلى أي شيء، حتى وصوله إلى اسطنبول، وهي المرحلة قبل الأخيرة من رحلته، وكان معه ١٤٧٠ قرشًا، فمن أين جاءته هذه الأموال ؟ وتبعًا للبعض فقد جاءه هذا المال من ارتفاع غير متوقع في إيجار بعض الممتلكات التي كانت قد بقيت له من ميراث أمه، والتي كان قد نسيها لفترة طويلة، وتبعًا للبعض الآخر.. فإنه كان قد تعاقد مراسلاً لإحدى الصحف، ووقع عقدًا مع أحد الناشرين، ويبدو أن هذا قد حدث على أية حال في المرحلة الأخيرة من رحلته، إذ يقول: «سأعود إذًا بكل هدوء ترسلني المكتبات والجرائد من مدينة إلى أخرى، سأنتظر هنا (في القسطنطينية) إجابة من مكتبة، لي معها ترتيبات من أجل إصدار كتابي»[٢].

وأخيرًا فإنه لم يسافر وحده، وإنما تعلق بأهداب شاب مستشرق هاوٍ، وكان لا شك، أكثر ثراء منه، وقد تعهد بتحمل نصف نفقات رحلته وهو السيد جوزيف دي فونفريد M. Joseph de Fonfréd « كان من المستحيل أن أقوم وحدي برحلة كهذه ؛ لأن نفقة اثنين في رحلة، هي نفسها نفقة فرد واحد»[٣]. من كان هذا المرافق ؟ إن جيرار يسميه في بعض الأحيان «عالم المصريات»، ولكنه يظل مجهولاً تمامًا في عالم علماء المصريات، فهو لم ينشر له أي بحث حول مصر، ولا تتوافر عنه معلومات إلا ما دوّنه في «بطاقة الزيارة» التي

(١) خطاب إلى والده في ٢٥ ديسمبر ١٨٤٢، انظر: Corresp..éd. Marsan, p. 118، وقد كتب نرفال الملاحظة نفسها في خطاب بتاريخ ١٩ من اغسطس عام ١٨٤٣، «لقد نسيت مرضي في هذه الرحلة، وتعافيت وبنيت نفسي وتمتعت ايضًا، وقد احسنت صنعًا نظرًا لحالتي "، انظر: Corresp., p.139.

(٢) خطاب إلى والده في ١٩ اغسطس، انظر: Corresp., p.139.

(٣) خطاب إلى والده، في ١٨ من مارس سنة ١٨٤٣، انظر: . A. Marie. Op. cit., p.188

وجدت في القاهرة عند لينون دي بلفون Linant de Bellefonds[١]، وورقة قصيرة ليس بها معلومات مهمة، وبطاقة دعوة على العشاء، وجهها - بعد أن عاد إلى فرنسا - إلى جيرار دي نرفال، وحفظت في وثائق أحد الباحثين (سبولبرش دي لوفنجول) Spoelberch de Lovenjoul[٢] وربما يكون أحد شباب البرجوازيين الأغنياء الذين لديهم فضول بمعرفة الاشياء البعيدة، أثارت اهتمامه، اكتشافات شامبليون وجماليات الفن العربي، أكثر من كونه عالمًا متخصصًا في أي فرع كان من فروع الدراسات الشرقية، وكان يحمل معه معدات السفر الكاملة «الملاءات والمناشف والفضيات»[٣] والحقائب ومعدات الطعام التي كان يسخر منها جيرار، ولكنه وجدها فيما بعد شديدة الفائدة.

كان الشاعر كذلك يحمل معه أمتعته: سرير سفر، وآلة تصوير بسيطة تثبت بها صور الأشياء على لوح معدني، وسوف يستعين بها في أخذ الصور التي تزين كتابه، وقاموسًا عربيّاً، وكتابًا في قواعد اللغة العربية، وكتابًا صغيرًا عن جمل المحادثة، ومنظارًا للوقاية من الغبار...إلخ. وإذا لم يكن له هدف سوى أن يرى وأن يلاحظ الشرق في زمنه، وإذا كان يعتقد أنه ليس مضطرّاً أن يحمل معه - كما فعل لامارتين - مكتبة كاملة، فإنه قد قرر على الأقل، أن يفعل بكل جدية، ما يراه ضروريّاً لمهنته الصحفية، ومن هنا فإنه لم يكن في رحلته أحد المتسعكين، أو أحد الوجهاء الذي يذهبون بالمصادفة هنا أو هناك بحثًا عن الإلهام، أو أحد الهائمين الذين يتحركون في هدوء بحثًا عن المتعة تحت سماوات جديدة.

لقد كان كاتب تقرير حقيقيّاً، يقوم برحلة استكشاف، أو يجري تحقيقًا، رحل من مرسيليا في أول يناير سنة ١٨٤٣ «ميري شرفتنا في مرسيليا، ولم يكن ينقصنا شيء من المتطلبات أو التوصيات»[٤]، وكانت رحلته بسيطة كما يقول لنا، عبر تقريبًا مباشرة من

(١) حملت دعوة الزيارة اسم جوزيف دي فونفريد Joseph de Fonfride ثم اضيف بالقلم الرصاص اسم جيرار دي نرفال (مجموعة موريس لينون دي بلفون).

(٢) بدت العائلة في حالة فوضى. فقد وجد شخص يدعى هنري فونفريد Henri Fonfréde نفسه عام ١٨٣٧، مديرًا لجورنال دي باريس Journal de Paris، وكان قد جاء من بوردو لتولي مهام هذا المنصب، وكان صديقًا لبيرنجي Béranger.

(٣) خطاب كتبه في ١٨ من مارس ١٨٤٣، انظر: A. Marie. Op. cit., p.187

(٤) خطاب إلى والده كتبه في اول يناير ١٨٤٣، Corresp., p.120، تعود العلاقات التي كان يقيمها جيرار مع شاعر مارسيليا إلى زمن نشر فيها الشاعر قصيدة هجائية بعنوان: لا فيللياد La Villéliade . وقد كتب عنها جيرار في ١٢ اغسطس ١٨٢٦ في مجلة مركور القرن التاسع عشر Mercure de XIX مقالاً، ثم اعاد نشره تحت عنوان «رسالة شعرية إلى م. دي فيلال M. de Villéle خطها كاتب صانع رجل عظيم.

فرنسا إلى مصر، مع توقف في مالطة وتمهل في «الأرخبيل» ووصل إلى الإسكندرية في ١٥ يناير، ولنا أن نتشكك في خط الرحلة المدون في كتاب «رحلة إلى الشرق» وإذا نحن اختبرناه من قريب فسوف نتبين أنه لا يتفق تمامًا مع ترتيبنا لوقائع الرحلة، وفي هذا الاختلاف تكمن طبيعة تشكيل الكتاب ومراحله المتعاقبة، ومن هنا أيضًا يمكن أن نستخلص وسائل المؤلف في التنظيم الأدبي وتقنياته الفنية.

III

«الرحلة إلى الشرق» ليست مذكرات، وإنما هي «حكاية» أعدت بعناية فائقة، بعد عودة نرڤال إلى فرنسا، انطلاقًا من ملاحظات مدونة، ومن ذكريات، والمقدمة الطويلة التي استغرقت ثمانين صفحة، تقدم انطباعات عن النمسا واليونان، تعود إلى فترة سابقة، وترتبط دون كثير من المهارة بعالم الرحلات البحرية الشرقية، وفي الطبعات النهائية المنقحة صيغت الفصول، تبعًا لخطة دقيقة، وتسلسلت الفقرات، وفقًا لقانون التناسق الخلاب، وهناك تجارب كانت متفرقة ومتباعدة تبدو متقاربة مع بعضها البعض، وهناك مغامرات وحكايات وقعت متناثرة على مدى ستة أو سبعة أشهر، تقاربت، وتشكلت وفقًا للتسلسل الدرامي للحكاية، إن الحكاية تتحرك وفقًا لمنهج ونسق منطقي، وليس هنالك عودة للوراء أبدًا، وهنالك تردد أحيانًا، وقليل من الشك، وفي المقابل لا يوجد السرد الوقائعي المتسلسل الممل، وكل التواريخ تكاد تكون ملغاة.

إن الكتاب يلامس لحظات الإلهام، ونبض الروح، والشعر، لقد وضع جيرار فيه كل حياته الواقعية والمتخيلة، ولكنه بالتأكيد وجه تناغم الخيوط (وهو ينسج الحكاية) ووضع بعض الرتوش على مجريات أقداره، إنه ليس ناقلاً، وليس مصورًا، إنه رسام، بل أكاد أقول، إنه موسيقي، إن العلاقة ليست علاقة تسلسل الوقائع البارد، لدى حالم تقوده من يوم إلى يوم في خيط الساعات المتتالية، إنه إنتاج محكم، ونموذج للصحافة الأدبية.

إنه يعرف كيف يضع الأشياء في قيمها الجمالية، إنه تطبيق لفن الرسم المنظوري Prespective، فيبدو أحيانًا، وكأنما جذبته المغامرة، ولكن ينبغي ألا نترك أنفسنا لما يبدو

على السطح، فنحن هنا مع رجلين، رجل متسكع، وكاتب أدبي، رجل الفانتازيا والأديب المحترف، والثاني منهما هنا هو الذي يفرض رقابته القاسية والدقيقة على الأول، وليس هناك شيء على الإطلاق دون في الكتاب بالمصادفة، وليس هناك شيء على الإطلاق لم يدون، وليست ثمة أي تجربة لم تستغل، لقد اقتنص جزءًا وجانبًا من كل شيء، سواء عندما نشر في المجلات أو غيرها، أو في الكتاب في طبعاته المتتالية فيما بعد(1).

---

(١) في الواقع أن جيرار استفاد من ذكرياته في الشرق، ووظفها بموهبة ودقة في نتاجه الأدبي، وقد نشر كتابه عن الشرق في صورة فصول ومقالات منجمة على مدى ست سنوات:

أ- في المجلات

● اليونان

١- مجلة لارتيست L'Artiste ،١١ فبراير ١٨٤٤، قصة توقفه في سيرا Syra .

٢- مشروع كتابه عن رحلته إلى الشرق، (انظر: .(A.marie. op.cit..p.207).

٣- فقرات جديدة في مجلة لارتيست بعنوان: «لوحات الأتراك Peinture des Turcs، العدد الرابع، الجزء الأول، ص ٩٧، وما بعدها، أول يونيه ١٨٤٤.

٤- رحلة إلى سيتير Voyage á Cythére، مجلة ارتيست، ٣٠ يونيه، و ١١ اغسطس ١٨٤٤.

٥- ذكريات من ارخبيل Souveneirs de l'Archipel، مجلة لارتيست، اول يونيه ١٨٤٥،(أصبح هذا المقال فصول المقدمة،من الفصل الثاني عشر حتى الفصل التاسع عشر).

٦- مشهد من طاحونة سيرا Episode du molin Syra، ٢١ نوفمبر ١٨٤٧، (اصبح هذا المقال الفصل الحادي والعشرين من كتابه طبعة شارينتييه Charpentier).

● مصر

١- نساء القاهرة Les femmes du Caire ريفو دي دو موند Revue des deux Mondes، ١ مايو ١٨٤٦.

٢- عبيد القاهرة Les esclaves du Caire، ريفو دي دوموند،١ مايو، ١ يوليو ١٨٤٦.

٣- حريم القاهرة، Les Harems du Caire، ريفو دي دوموند،١ مايو، ١ سبتمبر ١٨٤٦.

٤- زواق القاهرة La conge du Caire ريفو دي دوموند، ريفو دي دوموند، ١ مايو، ١٥ ديسمبر ١٨٤٦.

٥- أهرامات القاهرة La Pyramides du Caire، لوناسيونال ٧، ٨، ٩، ١٠، مارس ١٨٤٨.

● الشرق

١- لا سانتا بربارا La Santa Barbara، ريفو دي دوموند، ١٥ فبراير ١٨٤٧.

٢- المارونيون، امير من لبنان Les maronites. Un Prince du Libnan، ريفو دي دوموند، ١٥ فبراير، ١٥ مايو ١٨٤٧.

٣- الدروز (بالإضافة إلى قصة الخليفة حاكم Les Druses (avec l'hist. de Califé Hakem) ريفو دي دو موند، ١٥ اغسطس ١٨٤٧.

٤- الأكاديون. المعارضون لفكرة لبنان Les Assalrs. L' Antiliban، ريفو دي دو موند، ١٥ اكتوبر ١٨٤٧.

ب - في كتب.

١- نساء القاهرة Les femmes du Caire، الناشر سارتريوس Sartorius، ناشر مجلة لارتيست، الجزء الأول = العدد الثامن، ١٨٤٨، (يشمل الجزء الخاص بجزيرة أرخبيل ومصر).

لكن إخراج عمل كهذا يتطلب اللجوء إلى كثير من الوسائل أو فلنقل والحيل التقنية وجيرار كان يدرك هذا، وكان يعرف ما ينبغي أن يفعله، ولم يكن في حاجة إلى التبرير أو الدفاع، فالفن دائمًا هو نوع من الاختيار.

ومن هنا، فإنه لكي يربط مقدمة الكتاب (من باريس إلى فيينا وإلى الأرخبيل) برحلته إلى الشرق بالمعنى الحقيقي، فإنه يصف جولاته الطويلة، وكأنها خطاب ارتجالي، تتداخل أجزاؤه في بعضها البعض دون توقف،(فإلى أين أذهب) إنني أذهب أمام الربيع، إنني أذهب أمام الشمس، وفي تفكيري أن أنهي الشتاء في فيينا، وأن لا أرحل إلا مع الربيع، وربما لا أرحل أبدًا، ولكن الآلهة قررت شيئًا آخر، ويجب أن أذهب وأضع نفسي على

٢- نساء لبنان Les femmes du Liban في: الناشر سوفران Souverain، الجزء الأول، العدد الثامن، ١٨٥٠ ويشمل بقية ما كتب في ريفو دي دو موند ١٨٤٧، فضلا عن ثلاثة ملاحق، (الحريم، رسالة امرو عن مصر، تعاليم الدروز المسيحية). Les Harems , la letter d' Amrou sur l'Egypte, la catéchisme des Druses، ومقدمة بعنوان الأهرامات، Les Pyramides.

٣- وقد دفع نجاح هذين الكتابين جيرار لإعادة طبعهما مرة ثانية، ولإضافة بعض الفصول المهمة، فطبعهما في مطبعة مجلة لاسلوت La Sillouette، (يناير سنة ١٨٤٩- يناير١٨٥٠).

● وهذه الإضافات هي:

ا- من باريس إلى تريست (De Paris à Trieste) اربعة مقالات نشرت في لابرس La Presse، ٢٦ مارس ١٨٤٠).

ب- غراميات فيينا Les amours de Vienne (ريفو دي باريس Revue de Paris، مارس ١٨٤١).

ج - فصل جديد بعنوان من تريست إلى سيرا De Triest à Syra، وقد ربط هذا الفصل ما سبقه بـ «رحلة في ارخبيل Voyage dans L'Archipel، ثم ورد فصل «نساء القاهرة »، الحق به اثني عشر فصلاً، وهو عبارة عن مادة عملية جمعها او ترجمها من كتاب وليم لين، وقد خلت طبعة شاربونيتيه من ثلاثة فصول منها، ثم أعيد طبعهما في طبعة ميشيل ليفي Michel Lévy عام ١٨٦١.

٤- في عام ١٨٥٠، صدرت الطبعة الثالثة بعنوان: ليالي رمضان . Les Nuits du Ramazan من مطبعة ناسيونال. National البداية بعنوان «الأهرامات» هو الجزء الخاص بمقدمة، (وقد خلت طبعة لاسلوت منه)، ثم تلاها الجزء الثالث من الرحلة، وهو جزء لم ينشر، وكان بعنوان: الرحلة إلى القسطنطينية Le Voyage à constantinople، والحق بجزء آخر بعنوان «قصة ملكة الصباح وسليمان ملك الجان» L'histoire de la Reine du matin et de Soliman . Prince de genies». طبعة نهائية من كتاب: «رحلة إلى الشرق». اعطت طبعة شاربونيتيه عام ١٨٥١ شكلا نهائيًا لهذه الفصول المبعثرة،فضمت ثلاثة مجلدات، وثلاثة أجزاء، كان يمكن فقط أن توضع الفصول حسب هذا الترتيب: مصر، لبنان، تركيا، (خطاب إلى دار شاربنتييه، المراسلات، طبعة مارسان، ص ١٥٨). وقد أعاد الناشر ميشيل ليفي Michel lévy توزيع المقدمة وفصول الرحلة، كما حذف من نهاية المجلد الثاني فصلاً بعنوان، من باريس إلى سيتر ١٨٦٧ De Paris a Cythére.

رحابة البحار، تتجاذبني نفسي والذكريات الناعمة الحزينة»[١]. وهكذا قدم وصفًا لهبوطه على طول شاطئ الأدرياتيك على ظهر السفينة فرانسيسكو، التي لم يستخدمها في الواقع إلا بعد عام من عودته وأثناء رجوعه من نابولي، في مناخ سيئ، وأشرعة مترنحة، مما سمح له أن يقدم وصفًا مرعبًا لرحلته. وعلى الإجمال، فإن رحلته إلى الشرق، في صيغتها النهائية، جمعت مرحلتين هما مرحلة نص المقالات التي نشرت في ريفو دي دوموند سنة ١٨٤٦ Revue de deux monds ونص طبعة «سلويت» سنة 1849 - 1850. وقد تم صياغة الكتاب بدقة، وتشكل كما يقول هو من ثلاثة أقسام، ويمكن أن تحمل على التوالي عناوين مصر، ولبنان وتركيا، وغني عن البيان القول بأننا سنهتم هنا بالقسم الأول فقط.

والآن وقد عرفنا الخطوط الرئيسية للكتاب، فإننا لن نحاول أن ننتزع منه أسرار تفاصيل وقائع الرحلة[٢]، فإن المراسلات هي التي يمكن أن نسألها عن تحديد التفاصيل الضرورية، ففي أول يناير سنة ١٨٤٣، وفوق السفينة «منتور» ستبدأ رحلته ليعبر مضيق «ميسين» في طقس عاصف، وفي ٧ يناير ستتوقف السفينة لمدة نصف يوم، وفي ٨ يناير، تتوقف الرحلة في مالطة لتغيير السفينة، وفي ٩ يناير سيستقل السفينة «مينوس» المتجهة إلى سوريا، وفي الأرخبيل، تتوقف السفينة في ١١ يناير، وتصل إلى الإسكندرية في ١٥ يناير، ثم تستأنفت الرحلة طريقها عبر نهر النيل، حتى تصل إلى مرسى «بولاق» في القاهرة في ٢٥ يناير، وبدءًا من هذا التاريخ يصعب تحديد تواريخ جدوله الزمني بدقة، فلقد قضى نحو ثلاثة أشهر في القاهرة، وقرر أن يذهب إلى صعيد مصر: «إنني أود أن أسافر جنوبًا حتى الشلالات، وأرى المناطق المحيطة بها، لكن الوقت كان متأخرًا جداً لإنجاز رحلة كهذه، عندما فكرنا في القيام بها، كانت المراكب موجودة، لكن الرحلة كانت تتطلب من شهرين إلى ثلاثة[٣]، وهي فترة طويلة جداً ومجهدة جداً، لكي يرى الإنسان

(١) رحلة إلى الشرق، الطبعة الخامسة، ١٨٦٠، المقدمة (نحو الشرق) Vers L'Orient، ص LVII، تشير المقدمة إلى المغامرة التي قام بها مع ماري بلويل Marie Pleyel، وهي المغامرة التي استعارها من الجزء الخاص بغراميات فيينا.

(٢) يبدو - دون أن نعرف السبب - أن جيرار دي نرفال مكث في القاهرة في الأصل ستة أشهر. «كنت قد توصلت إلى أن اثبت لنفسي انني ساقضي هناك الستة أشهر الأكثر مللاً في حياتي، وعلى الرغم من ذلك، فإن كل شيء قد انجز مسبقاً حتى انني لم أستطع أن انتقص يوماً واحداً من إقامتي «لماذا» ؟ Voyage en Orient, éd. 1860 , vol I, p.87

(٣) في الواقع كان الجو شديد الحرارة في نهاية شهر أبريل أو في بداية شهر مايو للمخاطرة بالذهاب إلى مصر العليا.

بقايا معابد بسيطة، كنت أقدرها تمامًا، من خلال الاطلاع على رسومها، إن فضولي يتجه إلى حوائط المدن الحية لرؤيتها أكثر مما يتجه إلى بقايا المدن الميتة»[١]. ماذا كان يفعل في القاهرة خلال هذه الأشهر الثلاثة: فبراير، ومارس، وأبريل ؟ لقد أوجز مجمل ما فعل في خطاب إلى والده: «لقد زار الفسطاط، وعين شمس، والجيزة، وشبرا، والأهرامات، وشهد احتفالات الأقباط واليونانيين بعيد الفصح، واحتفالات المسلمين بالمولد النبوي، أو الاحتفالات بعودة الحجاج من مكة، كما أنه استقبل بالترحاب، من طائفة كبار الموظفين الفرنسيين بالحكومة»، من أمثال لمبار بك، ولينون دي بلفون، والدكتور بيرون، وتارديلو «مدير المزرعة النموذجية للباشا، أما كلوت بك، ولوبير بك، فقد التقى بهما في حفل عشاء القنصل العام». هذا النمط من التحليلات[٢]، هو الذي يمكن أن يساعدنا عند قراءة «رحلة إلى الشرق» ومحاولة التمييز بين الحقيقي والشعري فيه، وكتاب جيرار دي نرڤال، يختلف عن معظم الكتب المعاصرة له من ناحيتين على الأقل، فهو لم يتناول بالوصف إلا القاهرة، وقد ذكر أشياء قليلة عن الإسكندرية والدلتا، ومصر السفلى، ولم يذكر شيئًا إطلاقًا عن مصر العليا وإضافة إلى ذلك فهو يقصر اهتمامه على مصر الحديثة، ولا يهتم بالآثار الفرعونية والمسيحية، ويقدم من هذه الناحية النقيض اللافت للنظر لحكايات شاتوبريان، وجون جاك أمبير ومكسيم دي كوم. وكان لجيرار - شأنه في ذلك شأن فلوبير - مذاق للماضي وللراحلين، ولكن اهتماماته كانت نتيجة قبل كل شيء «لطبائع المدن الحية».

ودون شك فقد كان في لحظة التأملات العميقة يغوص فجأة في الماضي السحيق، لكي يعود لنا ببعض الرموز الرائعة الغريبة، هكذا أشار في إحدى سونيتاته، وعنوانها «حورس» إلى أسطورة مصرية قديمة، وتبعًا لها فإن الإله ست، بعد أن قتل أخاه أوزيريس، يمكن أن يكون قد تزوج أرملته المقدسة إيزيس، وهي رمز الطبيعة، وقد ولدت منه بعد وفاته

(١) خطاب إلى والده في ٢ مايو ١٨٤٣. (Corresp. .éd. Marsanp.) كان مرض الطاعون الذي انتشر في سوريا قد أجبر جيرار على تأخير رحيله إلى ٢ مايو، فصعد النيل حتى وصل إلى دمياط في السابع من مايو، ومن هناك أبحر متجهًا إلى يافا على متن سفينة سانتا باربارا، ووصل إليها في الرابع عشر من مايو.

(٢) وفق المعلومات التي قدمها م. مارتينو M. Martino، فإن كراسة جيرار التي يدون فيها مصروفاته في القاهرة، توضح أنه في الفترة من ٧ فبراير ١٨٤٣ إلى أول أبريل ١٨٤٣، قد أنفق يوم ١٢ فبراير ستة قروش: قرش للقلعة، وخمسة قروش للقصر. ويدل ذلك على أن جيرار قد استأجر حمارًا للذهاب لرؤية محمد علي أو ابنه إبراهيم، وأنه قد دفع بقشيشًا.

ابنه حورس، وهو رمز الربيع، أما ست، وهو إله الأعاصير عند اليونان، فيمثل الشتاء، بزوابعه الهوجاء، وهي يأتي بعد خصوبة الصيف الهادئة، ويأتي حورس إله الشباب، والشمس والتجدد، فينتصر على طلاسم الليل، وعواصف الشمال:

الإله ست في غضبه هز العالم
وإيزيس الأم كانت قد نهضت من سريرها
وأبدت مظاهر الحقد لزوجها الفظ
ولمعت عيناها الخضراوان بالغضب القديم
قال لها هيا فلقد مات ذلك العجوز القوي
ولقد ابتلع فمه كل أمواج العالم
اربطي قدميه واطفئي عينيه
إنه إله البراكين، وملك الشتاء
لقد مر الصقر[١]، والروح الجديدة نادتني
ومن أجله لبست ثوب إيزيس[٢]
إنه الطفل المحبوب لهرمس وأوزيريس
هربت الإلهة فوق زورقها الذهبي
وأعاد لنا البحر صورتها المحببة
وتلألأت السماوات تحت وشاح إيزيس[٣].

لكن هذه السونيتا التي كتبها نرفال في طريق عودته من مصر فوق ظهر السفينة التي حملته إلى فرنسا، تعكس بوضوح عشقه لأحلام اليقظة، هذا الإحساس بمعنى الامتداد الصافي، هذا التمجيد للحنين إلى الزمن الذي مضى، والذي كان غالبًا ما يقصي لحظات الابتهاج، ويلقي بثقل لا مفر منه على الحياة اليومية، هذا هو إلحاح الحياة

(١) جسد المصريون «حورس» في صورة صقر.

(٢) سيبل « Cybéle هو الاسم اليوناني لإيزيس، إلهة الطبيعة المخصبة»، انظر كتاب نرفال، إيزيس Isis.

(٣) القوس الذي يظهر في السماء بعد انتهاء العاصفة هو وشاح إيزيس، وهو رسالة تبين الإرادة الطيبة للآلهة. وقد مزج جيرار هنا بين الاقتباسات التي استعان بها من الأساطير اليونانية والأساطير المصرية، كما مزج بين قصص الحضارة الهيلينية وقصص الحضارة الرومانية في بعض السونتات الأخرى في كتابه «أوهام» Chiméres.

الداخلية التي من أجل أن تهرب من ثقل الحاضر والواقع، تنزل فجأة إلى أعماق العصور السحيقة في طيات الأساطير البدائية، وتمارس من خلال ذلك نوعًا من التحرر من خلال الحلم، والتراجع الشعري، والانفصال من خلال أسطورة حول مصر، التي كانت أرضها، في لحظة كتابة السونيتا قد اختفت للتو وراء الأفق.

لكن رحالة ١٨٤٣ لم يكن لديه لا الوقت ولا الرغبة في الانفصال عن المثيرات المعاصرة، وكان قليل الاهتمام بزمن إيزيس وأوزيريس، لقد كان نرڤال رحالة مهتمّاً بالإسلام، وكانت المساجد تشده أكثر من قبور الفراعنة، وما كان يبحث عنه ليس التغرب داخل الزمان، ولكن التغرب داخل المكان، كشف الغموض عن مملكة مجهولة وبعيدة في زمانه، عن وطن جديد للخيالات وللسراب، وبدت القاهرة له هي الباب الكبير لذلك الشرق، مملوءة بالشمس وبالظل، وبالألوان الواضحة والرمادية ممتدة على كل أشعة السماء، وكل أنفاسها، لكنها مغلقة وغامضة أمام الإنسان، هي في وقت واحد مزهرة، ويصعب اختراقها، صاخبة، ولا تكشف أسرارها «إن الحلم هنا يتشكل في وضح النهار» إن الشوارع بألوانها غير المتناسقة، وبازدحامها، وحركتها المستمرة، مع الملابس العربية والتركية والغربية، المتعددة الألوان والأكسية، هذه الشوارع تشكل حفلاً تنكرياً أبديّاً؟.

وأي سر غامض وراء نقاب النساء اللائي لا ترى منهن إلا أقراط الأذن ونظرة خفية من عيون سوداء ؟ وفي المساء تظل المقاهي وحدها مضاءة على شاطئ الخليج (في القاهرة)، ولا يخرج أحد إلا ومعه مصباح يومض ضوؤه المتراقص في حلقات الأشباح الليلية، ثم بعد ذلك، يتألف فجأة موكب ضياء باهر لحفل عرس مصحوب بالموسيقى والضجيج، يمر ثم يختفي بعد قليل في الظلمة، ويحمل الموكب العروس المنقبة تحت إكليلها العالي المرصع بالجواهر، وهَوْدَجها المصنوع من الكشمير الأحمر، أي مشهد مثير للشاعر الذي يتابعها، وأي لوحة رائعة للصحفي الذي يرصدها ؟ لقد تبدل حال جيرار، أصبح يوجد في كل مكان يجري، يتحاور، محمولاً بالتمتع بهذه الحياة، هذا السرور الهادئ الذي يذكره ببعض لحظات فيينا الغربية، لقد خرج من ذاته، أو بمعنى أدق، أخرج حلمه إلى الحياة، لم يكن عليه إلا أن يفتح عينيه ليجده، لكنه يجده هذه المرة حقيقة ماثلة،

متجسدة خارج ذاته، وقد انتقل هذا الحلم إلى الأشياء لكي يتجسد فيها، إنه يجد عالم الأحلام، وقد تحول إلى عالم جوهري ملموس، ولم تعد هناك فروق بين ما يراه، وما يتخيله، والتجربة تلاقت مع السراب، والتهيؤات أصبحت حقيقة، ولم تعد هناك مشاعر الاختناق والقلق التي كان يجدها عندما كان ينتقل من مناخ عالم إلى مناخ عالم آخر، ومع شوق ونهم إلى المزيد بدأ يتنفس هذا المناخ الذي يبعث على النشوة، أكثر من مناخ الازدواجية (التى عاشها من قبل)، نشوة تبعث من أعماق الحنين في ذاته، ألم يعد هو نفسه جزءًا من المشهد المحيط به عندما ارتدى الملابس الشرقية: السروال القطني الواسع الأزرق، والصدار الأحمر المرصع بالفضة، والمعطف المصنوع من وبر الجمال والطاقية الصغيرة البيضاء، التي وضعها تحت الطربوش الأحمر، بعد أن حلق رأسه، وشذب لحيته؟.

IV

والآن فلنتابعه عبر كتابه، ونحاول إعادة تشكيل فترة إقامته، إن عرضه لحكايته، يتضمن من الشعر أكثر مما يتضمن من الوقائع، والحقائق، وخصائص تكوينه الطبيعي، وضرورات فنه هي التي دفعته إلى ذلك، وإذا كان يعيد صياغة الوقائع، فإنه لا يفعل ذلك، كما كان يصنع شاتوبريان، من أجل أن يبرزها. ولكن من أجل أن يجعلها تحيا أكثر كمالاً، وأن يعطيها المهابة والاستمرارية من خلال الإبداع الخالد للفن، وهكذا فإنه من خلال مزج العناصر في لوحته، لم يعد غبار الانطباعات اليومية يتساقط دائمًا، وإنما يتسامى في لوحة أرابيسكية دقيقة، وتختلط الرومانتكية بالواقعية، تاركة أغصانها تنساب، وهذا هو الذي يعطي لكتاب نرڤال سحره الذي يستعصي على التقليد.

في الليلة الأولى كاد يقتله الحزن وعدم التحمس، كانت القاهرة قد أحبطته وأخذ يردد «ماذا.. هل هذه هي الحديقة التي حدثوني عنها، هل هذه مدينة ألف ليلة وليلة، وعاصمة الخلفاء والفاطميين والسودان، وأخذت أغوص في الأزقة المعقدة للشوارع الضيقة المتربة عبر زحام المارة بملابسهم المتواضعة، وتكاثر الكلاب والجمال والحمير مع اقتراب المساء، الذي تهبط ظلاله سريعًا بفضل الغبار الذي ينعقد في السماء، وفي أعالي البيوت.

مـاذا يرجـو المرء من هذه المتـاهة الكبـيـرة الغـامضـة، التي يمكن أن تكون في حـجم باريس أو روما[1] بقصـورها ومـساجدها التي تعد بالآلاف؟ لقد كانت هذه معالم رائعة دون شكل، لكن ثلاثين جيلاً مرت عليها، والآن تتناثر الأحجار والحصى في كل مكان، إنه يبدو لي أنني أسـافر في الأحـلام، في مدينة من مدن الماضي مسكونة بالأشباح التي تملؤها، دون أن تبث فيـها الحياة، إن كل منطقة فيها يحوطها سـور عال، وتغلقها أبواب قوية، كما كان شـأن المدن في العـصور الوسطى، ومـا تزال تحتفظ دون شك بالطابع الذي كانت عليه في عصر صلاح الدين»[2].

كان لديه الشعور بالإهمال، والوحدة والسجن، وبأنه مقيد الخطى، لكن مرور موكب من مواكب الأفراح الصاخبة المضيئة أمامه، فتح له منظورًا آخر، أنعش وجمع في الصورة كثيرًا من القباب المتناثرة لديه، وقاده الترجمان عبد الله إلى الفندق الفرنسي، دومرج (لأن الفندق الإنجليزي في الأزبكية وفندق واجرن كان أغلى بكثير مما تستطيع ميزانية جيرار تحـمله) وهذا الفـندق الذي لم يعـد له وجـود اليـوم، «كـان يقـع في نهـاية زقـاق يصب في الشـارع الرئيسي بالحي الفـرنسي، أي بالقرب من الموقع الحـالي لكنيسـة القيـامة، قرب التقـاء الخليج بشـارع الموسكي، كان المبنى يحـيط بفناء داخلي مـربع، تزينه لوحة بـالجير لمشـهد، مـغطى بغطاء خفيف من الأخشاب المتشابكة يتخللها أغصـان شجـرة العنب، وهـي لرسام فـرنسي»[3]، وهي لوحة جميلة، مع أنها صـامتة إلى حد ما، مـوحية بالمواهب التي تتيح لصاحبها أن يقيم معرضه في صالة عرض فنية كبرى[4].

---

(١) منذ القـرن الخامس عشر، وكل الرحالة يبرزون الامتـداد الضخم للقـاهرة، ويقـارنونه ببـاريس من حيث المسـاحـة (انظر الجزء الأول، ص ٤، ٥، ٢٢،....).

(2)Voyage en Orient. 5éd. Paris. 1860 . vol I. p.88

ووفق مـا ذكر كورني لوبرن Cornéille la Brun، فإن القاهرة كانت تضم في القـرن السابع سبعة عشر ألف حي، (انظر: الجزء الأول، ص ١٧). وفي القرن التاسع عشر لم يكن يوجد أكثر من ٥٠٠ حي.

(٣) من ؟ فقد أقام الرسامان بيرون وبوردان Pierron et Bourdon في القاهرة في الفترة ما بين ١٨٣٩ - ١٨٤٠، وذلك وفق ما ذكره ج. فسكي G. Fesquet، (انظر: الجزء الأول، ص ٢٨٧). ولا يمكن أن يكون مـاشورو Machereau الذي عـاش على الطريقة الإسلامية هو موضع التساؤل ؟ فدون شك هو الرسام الذي ميز بين بعض قاعات قصر محمد علي.

(4)Voyage en Orient. 5éd. 1860 . vol I. p.98

وعلى مائدة الطعام بالفندق، كان يوجد كولونيل وأسقف ومجموعة من الرسامين وبعض الهنود، وفي الطابق الأرضي كانت توجد طاولة للعبة البلياردو، وفي الطابق الأول يوجد بيانو، ولكن رغم كل عناصر الجذب فيه، لم يكن زوارنا من الرحالة يمكثون أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام، ثم يبحثون عن منزل «إنني أفضل أن أجرب الحياة على الطريقة الشرقية الكاملة»[1] وقد اشترك جيرار مع أحد رفقائه، في تأجير قصر قديم، وبه فناء داخلي، مزين بالرخام، وله مفتاح خشبي كبير، ويوجد هذا القصر، تبعًا لإشارات جيرار «في شارع بالحي القبطي يقود إلى باب المدينة، المؤدي إلى شبرا» وهذا الشارع ربما يكون شارع باب البحر القريب من الفجالة، وهو الشارع الوحيد الذي كان يعبر في هذا العصر مباشرة الحي القبطي، ويؤدي إلى باب الحديد مباشرة إلى شارع شبرا[2].

لكن ينبغي أن نصدق حكايتنا، فالمسلمون في ذلك العصر، لم يكونوا يتسامحون في أن يسكن «أعزب» إلى جوارهم، وخاصة إذا كان أوربيًا، وهم يعتبرونه خطرًا دائمًا يهدد أمن زوجاتهم، ولم تكن هناك إلا وسيلة واحدة لتهدئة مخاوفهم وغيرتهم وهي الزواج، وفي ضوء ذلك، فإن المالك هدد جيرار بالطرد إلا إذا اتخذ في القريب العاجل زوجة أو أمة، وإلا فإنه سوف يطرد شاء أو أبى، وقد بدأ في جمع المعلومات للبحث عن زوجة،

وقادته وسيطة يهودية، إلى عائلة قبطية شريفة، حيث التقى بفتاة ترتدي ملابس تسمح بأن يرى خلسة جانب وجهها «وتلك الفتاة لم تكن قد تزوجت إلا مرة واحدة، هكذا قالوا له، ومع ذلك كان عمرها ستة عشر عامًا، كيف ؟ إنها الآن أرملة، وليست مطلقة - يا إلهي - لكن هذا جعل للمسألة وجهًا آخر[3]» والواقع أنه - في ما يبدو - كان عليه أن

---

(1) Id., p.99

كانت الإقامة مرتفعة الثمن في الفندق، وقد أخبر جيرار قنصل فرنسا انه انفق في البداية حوالي ستين قرشًا في اليوم، المرجع السابق، ص ١٤٨.

(2) Id., p.101

في دفتر مصروفاته، الذي فك رموزه مارتينو وفسره، سجل جيرار انه انفق يوم ١٠ مارس ٦٧,٥ فرنكًا فرنسيًا، للإيجار.

(3) Voyage en Orient. vol I. p.126

وانظر: Corresp., p.132 كانوا يريدون تزويجي في القاهرة من سورية في الثانية عشرة من عمرها، ولكني وجدتها صغيرة جدًا على الزواج «هذا الحدث البسيط جعل جيرار يؤلف فصلاً حول الزواج، وربما تذكر في هذا الصدد قصة زواج البيطري هامون Hamont، (انظر: الجزء الأول، ص ٢٩٣، ٢٩٤) بفتاة شابة قبطية ذات اربعة عشر عامًا، وهو الزواج الذي اشار إليه الكسندر دوماس، ودوزات Dauzats في بداية كتاب «خمسة عشر يومًا في سيناء». Quinze Jours au Sinai، (ص ٤٠).

يهبط إلى سن الثانية عشرة لكي يتأكد أن الفتاة لم يسبق لها الزواج، ومن ناحية أخرى فقد طرح عليه الترجمان عبد الله، ذات يوم سؤالاً آخر، وهو: هل أنت قلق من المهر؟.

- ليست لذلك أهمية كبيرة، فأنا أعلم أن ما يتم دفعه أشياء قليلة هنا.
- إنه في حدود عشرين ألف قرش.
- حسنًا وهو دائمًا هكذا.
- كيف يمكن تدبيره إذًا، أنت الذي سوف يدفع.
- هذا شيء مختلف، أنا إذًا ينبغي أن أدفع مهرًا، بدلاً من أن أتلقاه ؟
- بالطبع أنت تجهل أن هذه هي العادة هنا؟[١]

وكان جيرار بالفعل يجهل ذلك، وقد بدأ من هذه اللحظة، يدرك حرص العائلات على التزويج، وإعادة تزويج بناتهم الصغيرات للأوربيين دون توقف، واختار إذًا أن يذهب إلى سوق الإماء، وقرر أن يشتري واحدة، ولقد رأى وفحص بعض الإماء من السنارية «كان تجار الرقيق، يكشفون عن أجساد الإماء ويفتحون شفاههن لكي يطلعوا على أسنانهن، ويجعلوهن يتمشين ذهابًا وعودة ويختبرون سلامة أعضائهن، وخاصة ليونة الصدر»[٢]، ثم رأى الحبشيات الموسومات بضفائرهن المجعدة المشبعة بالدهون، والواحدة منهن، تنظر فجأة إلى قفازي الأسود وتصيح: «كيف يمكن أن يكون له يدان سوداوان، ووجه أبيض، وقد حاولت إزالة دهشتهن بأن خلعت قفاز إحدى يدي وهنا، صحن، يا حفيظ.. يا حفيظ هل هو أحد الأرواح ؟ أم هو من الشياطين»[٣]؟، ولكن اختيار جيرار في النهاية، وقع على واحدة من جزيرة جاوة (أندونيسية) «لا أدري أي مذاق للشيء الغريب غير المتوقع، جعل اختياري يتجه نحوها، كانت جميلة جداً، وإضافة إلى ذلك قوية البنية، والوميض البراق لعينيها، وبياض أسنانها، وتميز يديها، واسترسال شعرها، وطوله، لم تدع لي الخيار للاعتراض على إشادة عبد الكريم التاجر بمحاسنها، وهو يصيح: بونو.. بونو[٤] كانت تسمى «زينب»، وسوف تصير بطلة «رحلة إلى الشرق».

---

(1) Id., p.131

(2) Id., p.158

استلهم الرسام جيروم من هذا المشهد واحدة من أشهر لوحاته، سوق الإماء (١٨٧٦) Le marché aux exlaves

(3) Voyage en Orient, Id., p.159

(4) Id., p. 178

لقد أوقعت زينب جيرار في عبوديتها، فلم يعد يجرؤ على أن يغادر المنزل ويتركها وحدها، ولم يعد يرغب في أن يعمل، وكان يقضي أيامه في خدمتها ووفر لها طباخًا وحارسًا عجوزًا قبطيًا اسمه منصور[1]، ليهتم بها أثناء غيابه. وذات يوم أثناء عودته، وجدها ملتصقة بالمشربية، وتنظر إلى الشارع «وكان هناك منزلان بعيدان، وشابان في ملابس تركية رسمية، وكانا ضابطين دون شك، لبعض الشخصيات، وكانا يدخنان باستهتار أمام الباب،» وأدركت أن هناك خطرًا يأتي من هذه الناحية، وبحثت عن كلمة في رأسي لكي أفهمها بها أنه ليس من اللائق أن ترى العسكريين في الشوارع في مثل هذا المشهد، ولكني لم أجد إلا هذه الكلمة العامة «طيب» وهي كلمة متفائلة،وتدل على طبيعة الروح عند شعب هو أرق الشعوب على الأرض، ولكنها غير كافية تمامًا في مثل هذه الموقف، ومن الحق أن يقال إنني كنت قد فوجئت ببعض الكلمات والإشارات التي تصدر عن الناس الطبيعيين، فعندما لا يعجبهم شيء - وذلك نادر - يقولون لك «لا» وهم يرفعون اليد إلى مستوى الجبهة، ولكن كيف تقال «لا» مع صوت وإشارة معبرين؟ هذا هو ما صنعته لأنني لم أملك ما هو أفضل تعبيرًا منه، وبعد هذا اصطحبت الأمة إلى الديوان، وأشرت لها بأن من الأفضل أن تجلس هنا، لا بجوار النافذة»[2].

ولتسهيل الاتصال بينهما، قرر جيرار أن يتعلم العربية، وأن يعلمها الفرنسية، «لقد أعطيتها دروسًا في اللغة والكتابة، وأعددت الأوراق والأقلام مثل الأطفال، وعلمتها بعض الكلمات، وكنت أتسلى كثيرًا وأنا أجعلها تنطق جملاً كاملة، وهي لا تفهمها، مثل جمل «لست متوحشة صغيرة» التي كانت تنطقها بطريقة مضحكة، وإذا رأتني أضحك تظن أنني جعلتها تنطق شيئًا غير لائق، وتدعو منصور كي يترجم لها العبارة، وعندما تكتشف أنه لا توجد إساءة كبيرة، تقول لي بمزيج من العربية والفرنسية «أنا (بنيت سوفاج) متوحشة صغيرة، مافيش»! وكانت ابتسامتها ساحرة، لكنها كانت متقلبة الأطوار، عنيدة، ومستبدة،

(١) منصور، الجندي القديم في الجيش المصري، الذي تبعه حتى موطنه في أوربا، والذي كان يعرف اللغة الفرنسية، هو دون شك الشخص الذي تعرف عام ١٨١٧ إلى الكونت فوربان (كتاب رحلة إلى الشرق، ص ٢٣٧) الذي جعل من منصور سوريًا، ومن جيرار قبطيًا، ولكن الإشارة واحدة حول فوبان، انظر: الجزء الأول، ص ١٩٨، وما بعدها.

(2) Voyage en Orient, éd, 1860 , vol I, p.191.

وقد تحملها جيرار في مصر على قدر ما استطاع، لكنه عندما ذهب بها إلى سوريا، وتحت ضغط إرهاق قلة فهمها، وكسلها وإسرافها، وتعبه هو من القيام على خدمتها، تركها في بيروت، في مدرسة فرنسية متواضعة[١].

هذه هي الصياغة الأدبية للحكاية، ولكننا نتساءل: إلى أي مدى كان نرڤال - وهو يعد حكاية رحلته، ليكتب فيها رواية مغامرات - إلى أي مدى عاش الرواية قبل أن يكتبها ؟ إن مهمة الفصل بين الواقعي والمتخيل هنا، شديدة الصعوبة لكن هناك شيئًا واحدًا مؤكدًا، وهو أن زينب لم تكن - كما قال هو في رحلة إلى الشرق[٢] - من ممتلكاته كما كان يصفها في رسالة إلي تيوفيل جوتييه، والواقع أن رفيقه عالم المصريات الشاب هو الذي اشترى الفتاة الجاوية، ومع ذلك فإن جيرار لكي يرد له الجميل في سوريا، هو الذي وضعها بين يدي مدام كارليه وهي صاحبة بنسيون في بيروت، كيف يمكن أن نحل هذا التناقض؟ إن النصوص يمكن أن تساعدنا هنا «كتب جيرار إلى تيوفيل جوتييه أن دي فونفريد كان ملائمًا، ولقد اشترى جارية هندية... سنرحل اليوم إلى دمياط مع المرأة، ومع كل أمتعتنا»[٣]، ومع ذلك فإنه في إحدى مقدمات طبعة رحلة إلى الشرق، يؤكد لنا جوتييه ما يلي: «لقد كتب لنا حتى من بيروت، أنه في نعمة صافية، أنه أشبع أكثر رغباته تعقيدًا من الألوان المحلية»[٤]، وإذن فإنه ما دام قد أدعى ملكيته لها، ولو من باب المزاح، ألا يعني ذلك أنه كان اقتناها (بطريقة أو بأخرى) إن فونفريد ينبغي دون شك أن يكون قد تنازل له عنها في نهاية إقامته في مصر، عندما توجه إلى يافا، وجيرار تخلص منها بعد ذلك في بيروت[٥]، والواقع أن زينب ربما كانت على التوالي أو حتى على التزامن عشيقة لكلا

---

(1) Id., vol II, p. 36

(٢) وكان فيما بعد دائمًا في محادثاته في باريس: «في القاهرة، كان متزوجًا، وكان قد اشترى بسعر منخفض أمة من الحبشة، من هضبة جوندار، وتزوجها، وعندما كنت أقول له: «كيف حال زوجتك ؟ «كان يرد علي بصوته الهادئ: «كانت صغيرة جدا، وماذا كنت تصنع معها، لم نكن على وفاق، وكانت تضربني كثيرًا، وقد طلقتها، (م. دي كوم، ذكريات أدبية، ١٨٢٢، الجزء الأول، ص ٤٢٢ .(M.Du Camp.Souv.litt..1882.vol.I. p.422.

(٣) خطاب إلى تيوفيل جوتييه في ٢ مايو ١٨٤٣، انظر: أ.ماري، A.Marie, op.cit., p. 376-377

(٤) طبعة شاربنتييه، ١٨٧٥، ص ٢، انظر أيضًا L' Orient, vol. I , Syrie, p.174

(٥) وفق ما ذكره م. موريس تورنو M. Maurice Torneux، كانت قد تزوجت إيطاليًا في بيروت، وانجبت منه عدة أطفال، وفي خطاب إلى صديقه الرسام كاميل روجيه Camille Rogier الذي قابله في القسطنطينية، اعتقد جيرار أنها تزوجت من تركي.

الرحالتين، وقد مثلت بالنسبة لجيرار التجربة الحسية الأخيرة لرجل مثالي، وقد لعبت في حياته الشعورية - مع قدر أقل من النزعة الشهوانية - الدور الذي لعبته في حياة بودلير«فينوس الحمراء» ومن خلال المداعبات الرشيقة لهذه الفتاة الآسيوية الصغيرة، كان يبحث عن النسيان لذكريات «جوني كولون» الشقراء ذات الشعر الذهبي، التي ذكرته بجمال نساء البندقية الذي ضحى من أجله بثروته وراحته.

«لقد كتبت بفن راق، وبذوق رفيع»[١] هكذا توصف قصة زينب التي شكلت القالب الرومانتيكي، الذي تجمعت حوله خيوط الدوافع الرئيسية للرحلة، وخصائصها المميزة على طريقة نرڤال، لقد أرادها بعبقرية وحركها بمهارة رفيعة، واختفى وعاد إلى الظهور، فصل ونوع من أجل تحقيق أكبر متعة للقارئ؛ لقد سمحت للمؤلف أن يحول حكايته إلى دراما، وأن يدخل فيها الشخصيات المليئة بالسمات البارزة، والمذاق الخاص، مثل عبد الكريم تاجر الرقيق، وأن يشكل من بعض المشاهد، كوميديا صغيرة بين زينب ومنصور العجوز القبطي، والخدم المحليين. وباختصار، فقد بنى رواية حقيقية، تدور من خلالها مشاهد رسم العادات ولوحات الأجناس.

وهناك قصة أخرى جديرة بالإشارة إليها هي «مغامرة البستان»، ولا نملك إلا الإعجاب أمام ذلك القدر من التطور الدرامي وفعالية المفاجأة، وأمام تلك المهارة في الانتقال بين درجات الطيف، إن جيرار سوف ينقل لنا تجربة رائعة في شكل قصة قصيرة، وليس هناك أفضل من هذه الطريقة لكي نلتقط منها الوسائل والأساليب التي كان جيرار قد تآلف معها، ففي أحد الأيام، بعد وصوله إلى القاهرة، كما يقول لنا، التقى في شارع الموسكي بامرأتين منقبتين، وقد بدا له أنه يسهل مراودتهما، فتبعهما خلال السوق، وسار وراءهما من حارة إلى أخرى، حتى وصلتا إلى منزلهما، وفي هذه اللحظة «حدثت ضجة كبرى، وخرج سياس الخيول مندهشين من الإسطبلات، وظهرت رؤوس مغطاة بالطرابيش الحمراء في شرفة الدور الأول، وتقدم تركي في غاية المهابة من عمق الممر الرئيسي[٢]»

(1) Th. Gautier , Portraits et Souveners littéraives, p.50.

(2) Voyage en Orient, éd. 1860 , vol I, p.117-119

وجيرار مرتبكًا، معتذرًا كما يقول: «ألتقط كل ما أعرفه من كلمات إيطالية وإسبانية وبرفنسالية ويونانية وأحاول أن أكون منها مقالاً[١]، ولكن ياللشيطان، لقد تقدم التركي بوجه متورد، وغمزة عين ماكرة، ومد إليه يدًا مثقلة بالخواتم، قائلاً في فرنسية واضحة «سيدي العزيز، تكرم علينا بالدخول هنا، فسوف نستطيع أن نتبادل الحديث بسهولة أكثر» أية مفاجأة، لقد كان فرنسيًا، وجلسنا وأمر بإحضار الغليون، والقهوة، ثم جلسنا إلى المائدة، ورأى جيرار في غرفة الطعام، سيدتين على قدر كبير من الجمال، كانتا هما السيدتين المجهولتين اللتين رآهما في السوق، زوجة مضيفه وأخته، لكن هذه الأخت كانت تحتفظ له بمفاجأة أخرى، فبعد العشاء دعته أن يدخل إلى صالة أكثر فخامة، حيث الحوائط مكسوة بالبورسلين، والأخشاب الفخمة المزينة بالحفر، وتتوسط الصالة نافورة من المرمر، ويزينها زجاج من فينيسيا، وهناك سبع أو ثماني فتيات يرتدين ملابس شرقية بألوان متنوعة، ينهضن ويقبلن يد الضيف، وهؤلاء هن الفتيات اللاتي كن جاريات صاحب المنزل، قبل أن يتزوج من سيدة أوربية، كان مضيفي ينتمي إلى ذلك الجيل العسكري، الذي قضى عمره في خدمة نابليون، وكثير من هؤلاء الشجعان ذهبوا يقدمون خدماتهم إلى سيد الشرق، وبعضهم اعتنق الإسلام، وعادات البلاد التي اتخذوها مهجرًا لهم.

وتتوالى عظمة المشاهد التي تهز أكثر النفوس ارتيابًا، فصاحبنا كان قد حمل، وهو صبي صغير ما يزال، إلى وطن جديد، وحاز على رضا وإعجاب أحد البكوات خلال مواهبه وخدماته، وكان قصره مملوءًا بالجواري الجميلات من الجاويات والحبشيات وحتى العربيات؛ لأنه كان يشارك في تزويد المدن المقدسة بالإماء المسلمات، وفيما بعد، وعندما تقدم به العمر، عادت إليه الأفكار الأوربية، فتزوج من فتاة جميلة هي ابنة القنصل، وكما صنع سليمان الكبير عندما تزوج روكسلان Roxelane، فإنه أعتق كل الجواري، ولكن الأطفال بقوا عنده، وهؤلاء الفتيات كن بناته، أما الأولاد، فقد كانوا في المدارس العسكرية»[٢].

---

(١) انظر، Corresp.. p.132، «استطيع ان اتحدث بعض الكلمات الإيطالية، والعربية واليونانية؛لأتحدث اللغة التي يمكن ان يطلق عليها الإفرنجية، التي تتكون عشوائيًا من مزيج من هذه اللغات الثلاثة».

(2) Voyage en Orient, éd. 1860 , vol I, p.120

المقصود بالطوائف الإسلامية، هنا هم الوهابيون الذين انتصر عليهم إبراهيم باشا عام ١٨١٨.

هذه هي القصة الجميلة التي تحتل فصلين في كتاب «رحلة إلى الشرق» إنها تقدم لنا نموذجًا مثاليًا لوسائل التكثيف الأدبي المعتادة عند جيرار دي نرڤال، إن الجانب الحقيقي في القصة بسيط جدًا، وتمدنا به المراسلات، فجرار وفونفريد، ذهبا للعشاء عند لينون بلفوند، الرفيق القديم لكونت فوربان Forbin، والذي أصبح مديرًا للأشغال العامة في مصر، يقول جيرار في رسائله:

«والسيد لينون، كان الوحيد من بين كبار الموظفين الذي يملك منزلاً يكاد يكون شرقيًا تمامًا، وقد تملكتنا الدهشة عندما ذهبنا إليه ذات مساء من حرارة لقائه، ولقاء زوجته السورية، التي كانت ترتدي ثوبًا شديد الروعة، ولقد ظننا في البداية أنهم أدخلونا خطأ إلى قصر السيد الكبير، ولكننا عرفنا فيما بعد، أنه قصر بناته غير المتزوجات والمتزوجات، ويمكن أن يقال أنه كان يحتوى على كل الألوان»[1].

هذه هي الحقيقة: دعوة على العشاء عند مهندس فرنسي، ولم يكن عسكريًا على الإطلاق، (مع أنه كان يحمل لقب جنرال)[2] ولم يعتنق الإسلام على الإطلاق، لكن الرجل كان على علاقة روحية طيبة بكثير من العائلات، وهنا عمل خيال الزائر عمله، لقد جمع عناصر مختلفة ولقاء المرأتين المنقبتين في شارع الموسكي، ودخوله قصر لينون دي بلفوند، وتقديم بناته له، كل ذلك شكل مسرحية صغيرة من عدة فصول، ومتصلة بشدة بمضيفه الذي كان يلبس ملابس شرقية، واستعار بعض الملامح، من فرنسيين آخرين كانوا يعيشون في القاهرة، فخلعها على سليمان باشا، وعلى اثنين أو ثلاثة من أتباع سان سيمون، اعتنقوا الإسلام، وعاشوا في الشرق، وهكذا استطاع أن يخلق هذه الشخصية

---

(١) خطاب في ١٨ مارس ١٨٤٣ ا. ماري، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٧، انظر ج.ج. امبير، رحلة إلى مصر والنوبة Voyage en Egypte et en Nubie (1844) " مدام لينون Mme Linant تلبس رداء شرقيًا ابيض ناصع البياض، وتجلس على مقعد، مكسو بقماش ملون بمربعات ارجوانية، ترحب بالفرنسية بضيوف شرف صالونها العربي في رقة الشرقيين الهادئة «طبعة كالمن ليفي Levy – Clamann الجديدة، ١٨٨١، ص ١٩٣.

(٢) صهره الدكتور كيني Dr. Cuny، صديق فلوبير يطلق عليه في مراسلاته «جنرال لينون بك، ماركيز دي بلفون". وكان لينون قد أرسل قد بادئ الأمر في الفترة ما بين ١٧٩٩ 1883 ?في مهمات جغرافية إلى الجزيرة العربية والسودان. عين عام ١٨٥٩ وزيرًا للأشغال العامة، وإليه يرجع الفضل في إنشاء شبكة الري والقنوات في مصر، وسدود الدلتا، وأول مشروع قناة يربط بين البحرين، كان السانسيمنيون قد أوصوا بتخطيط ممر غير مباشر يربط السويس والبحيرات المرة ووادي توميلات والقاهرة والنيل. انظر: الجزء الأول، ص ١٩٩، ٢٦٦،...

اللطيفة للبك الفرنساوي، من خلال روح بساطة القلب، والتهكم الإنساني، الذي لم يكن يتجسد في لينون دي بلفوند وحده، والذي لم يكن يتجسد أيضًا في الكولونيل سيف، ولكنه ينبغي أن يكون شيئًا مكونًا من كليهما.

وجيرار الذي كان يتردد على الجالية الفرنسية في مصر، لم يكن إلا ذلك الغريب الشارد المعتوه الذي رسمه مكسيم دي كوم Maxime du Camp: «كانت هيئته غير المتماسكة - كما يقول مكسيم - قد خلعت عليه لونًا من البركة عند العامة، الذين كانوا يحملون قدرًا كبيرًا من الاحترام للمعتوهين (والمجاذيب) وقد استغل هو هذه المكانة لكي يختلط بهم إلى أبعد مدى يستطيع الوصول إليه، فكان ينام في الخانات العامة، مقابل بضعة دراهم تسمح له بقضاء الليل، وكان يأكل في الأسواق العامة حيث يشتري من الباعة المتجولين القثاء والبطيخ وأقراص حلوى السمسم» وليس هناك شك في أنه رأى جيدًا الحياة العربية، ودون شك فإنه كان في معظم الأوقات يتجول وحيدًا في مدينة الأسواق والمساجد، ومع أنه كان موضع ترحيب من القناصلة الفرنسيين والشخصيات الرسمية منهم، فإنه كان يفضل عليهم غالبًا مصاحبة تجار العطور المتجولين، وأصحاب محلات الشواء، ولكنه لم يكن من أجل هذا يقلل من شأن سلوك مواطنيه الفرنسيين في القاهرة، بل إنه ترك لوحة رائعة للحياة التي اختاروها هناك.

ولن نتحدث عن الملهى (الكباريه) الذي كان يديره إم جون M.Jean، وهو واحد من فلول المماليك المنقرضين، وآخر الباقين من فريق المماليك الذي كان يترأسه رشوان Rachouan[١] وقد نتحدث عن المكتبة الموجودة في مدخل الموسكي التي يديرها إم. نونوم M . Bonhomme، حيث يمكن لجيرار أن يشتري الجرائد التي يبيعها الزوج، وأن يتمتع بسحر الزوجة السيدة بونوم وجاذبيتها «هذه الشقراء الساحرة هي مبعوثة العناية الإلهية للرحالة»، وهي تشبه امرأة أحلامه[٢]، وكانت تدير محلاً لأدوات التجميل، والأدوات المنزلية، ملحقًا بالمكتبة، «كانت السيدة بونوم تنتمي لهذا النموذج من الجمال الأشقر

(1) Cf. t. I, p. 180.

(٢) بيوندا جراستونا Bionda grassota، فتاة البندقية التي خلدها جوزي في أعماله الفنية الذي فتن به، ووجده في شخصية جوني كولون.

الجنوبي الذي خلده جوزي، في أعماله الفنية المستلهمة من جمال نساء مدينة البندقية، والذي تغنى به بترارك Pétrarque على شرف نساء منطقتنا الجنوبية، ويبدو أن الحسن غير العادي مدين بالشعر الذهبي لمجاورة جبال الألب، أما العينان السوداوان فهما تستثيران عنفوان شواطئ البحر المتوسط، فالتجسيد الدقيق والجلي الذي يشبه الستان الرمادي الوردي، لمنطقة فلاموند، يتلون بتلون الأمكنة التي تلمسها الشمس بأمواجها المصبوغة بالعنبر والتى تذكر بتعريشات الأعناب في الخريف حيث يتوارى أنصاف عناقيد العنب الأبيض تحت الدوالي القرمزية: يا وجهي تيتيان Titien وجيورجيون Giorgione المحبين، هل تتركان لي على شواطئ النيل الذكرى والأسف؟ ومع ذلك فهنا بالقرب مني امرأة أخرى (زينب) بشعر أسود، يشبه الأبنوس، ووجه صارم كأنه مصنوع من الرخام، إنه جمال قاس وحاد، مثل الآلهة الآسيوية القديمة، إنها آلهته ذاتها التي يبدو فيها الخنوع والتوحش، في آن واحد، وهي تذكر إذا جاز أن نجمع هاتين الكلمتين، بالفرحة الخالصة والحيوان الأسير[١]» إبداع أدبي، إذا أردنا، ولكن الفضل فيه يعود إلى السيدة بونوم بائعة أدوات المطبخ وأدوات الحياكة واحتياجات الرحلات، التي ألهمت جيرار لوحة أدبية كهذه!

مكان آخر كان يلتقي فيه الفرنسيون، هو صيدلية جاستانول Gastagnol، وتقع بالقرب من مكتب البريد «في الزقاق الذي يؤدي إلى فندق دومرج Domergue[٢] وفي هذا المكان كان يلتقي الفرنسيون الذي يعملون في إدارة محمد علي، مثل العاملين مع كلوت بك، ولوبير بك، وموجل بك، لكي ينقلوا الرسائل وأخبار البلاد. ولم يكن غريبًا أن نرى مقاعد الصيدلية والأرائك الخارجية مشغولة بجموع ترتدي ملابس تزين صدورها نجوم لامعة، وتثرثر بالفرنسية، وتتصفح الجرائد، بينما السياس يقفون متأهبين بالقرب منهم، يأخذون بأعنة الخيول المتوثبة بسروج موشاة بالتطريزات مذهبة»[٣]. ومن المؤكد أن جيرار

(1) Voyage en Orient, éd. 1860 , vol I, p.245.

(2) Voyage en Orient, éd. 1860 , vol I, p.110

لم أجد أية معلومات حول صيدلية جاستانول. وليس هناك صلة بينها، ومن صيدلية جاستينال Gestinel، الذي أصبح فيما بعد مديرا لحديقة الحيوان.

(3) Voyage en Orient, éd. 1860 , vol I, p.110

لم يكن رجلاً يحب التلكؤ كثيرًا عند الصيدلي جاستانول، وكان يفضل وحدته الصارمة، «فبدءًا من اليوم الذي يتم التعرف فيه إليك، لا يعود في إمكانك أن ترى شيئًا جديدًا، فمن اللحظة التي ترى فيها أحدًا من هؤلاء الفرنسيين الظرفاء، تكون قد ضعت، ويجتاحك المجتمع بأكمله»[١]، ولكنه كان يعرف كيف ينظم نفسه للحصول على المعلومات التي يريدها دون أن يشعر بأية قيود توجه خطواته في البحث أو تصادر على حريته.

فقد قدمه المستشرق الدكتور بارون Dr. Perron الذي كان قد انتهى من إنشاء الرابطة الأدبية Association littéraire عام ١٨٤٢، بالاشتراك مع بريس دافن Prisse d'Avennes، وكان أحد الذي عملوا بمثابرة في تكوين المكتبة، في هذا المكان وربما كان قد التقى بالقنصل الإنجليزي وليام لان William Lane، الذي كان كتابه عن العادات المصرية أكبر عون لجيرار، كما قرأ في هذه المكتبة أيضًا كتاب «وصف مصر» La Description de l' Egypte لبنوا دي مايبي Benoit de Maillet[٢] أما في ما يتصل بالقنصل العام جوتييه دارك Gauthier d' Arc، فيبدو أن جيرار عقد معه أكثر صلاته حميمية. فقد وصف لنا زيارته لمنزله في الأزبكية، في فصل خاص من كتابه «رحلة إلى الشرق»، كما نقل في هذا الفصل اللقاء الذي دار حول دعوته إلى مائدة العشاء العامرة التي أقامها وحضرها كلوت بك، ولوبير بك[٣]، ولكنه لم يقدم لنا تفاصيل أخرى عن ذلك الدبلوماسي اللطيف الذي كان قد رافقه أيضًا في رحلاته إلى جزيرة الروضة وإلى

---

(1) Id., p.144-145.

(2) Id., p.144-145

انظر أيضًا خطابًا كتبه في أبريل ١٨٤٣، «إم بارون على التعرف على المجتمع المصري، حيث كنا نجد لديه كل المؤلفات المعنية بمصر مما أمدني من خلال الدراسة بقدر من المعلومات يسمح لي برؤية الأشياء» (. (Corresp., p126) حول هذه الرابطة الأدبية بمصر انظر: الجزء الأول).

(3) Id.. p.chap.v,p.144-150.

الأهرامات، قبل أن يذهب إلى إسبانيا ليعالج من مرض في الصدر، كان يعاني منه طويلاً، ومات بسببه[١].

ومع إحساسه بالمرح الفضولي، ترك رحالتنا شيئًا فشيئًا حاجز منطقة تجمع الإفرنجة التي تمتد من الموسكي والأزبكية لكي يذوب في الأعماق الغامضة للمدينة العربية. ولنلاحظ أنه كان يمكنه أن يطلب من أعلى السلطات تعيين دليل له. فقد التقى هو ودي فونفريد De Fonfréde بإبراهيم باشا نفسه[٢] الذي وعدهما أن يصطحبهما بنفسه لزيارة الجيزة والأهرامات. وكان من السهل عليهما أن يجدا في بلاط ولي العهد ضباطًا يقودونها عبر متاهات شوارع القاهرة القديمة أو في الأحياء القبطية، لكن جيرار فضل أن يترك نفسه للمغامرة.

إن ما كان يبحث عنه قبل كل شيء هو مهرجانات الشوارع، مشاهد المقاهي أو الحمامات التركية[٣]، أسواق العبيد[٤]، احتفالات الختان والزواج[٥]، مشاهد الجنازات، عروض الحواة[٦]، مروضي الثعابين، المصارعين، العرافين، حلقات ذكر الدراويش بأصواتهم الصاخبة[٧]، رقص العوالم[٨]، وأشباههن من المخنثين[٩]، «تظهر أمامنا العوالم

---

(١) خلف ميمو Mimaut الجنرال العام دروفيتي Drovetti حتى عام ١٨٣٦ ثم جاء كوشلي Cochelet قنصلاً عامًا من الفترة ١٨٣٩ إلى ١٨٤١، وعين جوتييه دارك في نفس المنصب عام ١٨٤٢، ثم دي لافليت De Lavalette عام ١٨٤٤، ثم قنصلاً في القاهرة عام ١٨٤٩، ثم حل لوموان Lemoine قنصلاً في نهاية عام ١٨٤٩ محله، واصبح هو قنصلاً عامًا. تعمد جيرار دي نرفال إغفال اسم جوتييه دارك في طبعة شارينتييه Charpentier ولكن دون ان يتحدث عما تشير إليه الرسائل، أشار إليه بصفته الرسمية في ملاحظة من ملاحظاته في طبعة ناسيونال National (٧، ٨، ٩، ١٠ مارس ١٨٤٨) حيث كان الفصل بعنوان «الأهرامات» Les Pyramides معلومات نقلها إليه إم. ي. مارتينو M.P.Martino حول واتييه دي بورفيل Wattier de Bowrirlle وجوتييه دارك، انظر: voir t.I, p.358-359 الجزءالأول).

(٢) خطاب إلى والده، ابريل ١٨٤٣، Corresp., p.126

(3) Voyage en Orient. éd. 1860 . vol I. p.185.

(4) Id., p.150-174.

(5) Id., p.89.

(6) Id., p.107.

(7) Id., p. 150.

(8) Id., p.91.

(٩) يبعث مشهد المخنثين المثيرين للاشمئزاز والفجور مشاعر الاستنكار في نفوس الكثير من الرحالة المعاصرين. انظر: (جيسكي M. Gisquet مرجع سبق ذكره) يستند وصف طريقتهم في الرقص إلى الملاحظة الشخصية، وقد أفرد وليام لين فصلاً في كتابه «صورة من عادات وتقاليد مصر الحديثة» An account of the manners and customs of modern Egyptian فصلاً عن هذه الطائفة، وترجم جيرار هذا الفصل ووضعه ملحقًا لكتابه ص ٣٥٨، ٣٦٢. انظر ايضًا مراسلات فلوبير، الجزء الأول، ص ٢٨٣.

من خلال سحب الدخان المتصاعدة، من الوهلة الأولى، يدهشنا ضياء قلنسواتهن المذهبة التي تعلو جدائل شعورهن، كعوبهن التي تضرب الأرض، بينما أذرعهن ترتفع في اهتزازات عنيفة، تدق بأجراس وخلاخيل أوراكهن تختلج في حركات مخملية، نحورهن تتبدى عارية تحت نسيج الحرير الموصلي، تتأود بين لباسهن والحزام المترامي الذي يسقط على بطونهن مثل فينوس، وبالكاد نستطيع أن نميز في دورانهن السريع، ملامح هذه الكائنات الجذابة التي ترتج أصابعها بصنج صغيرة وكبيرة تهتز بجرأة على نغمات الناي والطبول. كن شديدات الجمال، مزهوات بعيون عربية زادها الكحل تألقًا بوجنات ممتلئة تزينها مساحيق خفيفة، ومن بين الراقصات الثلاثة، كانت الثالثة تند عنها ملامح أقل ليونة، وتشف عن لحية نابتة في يومها الثامن بطريقة تدفعنا لأن نتأمل مليًا ملامح الراقصات، وعندما انتهى الرقص، أصبح ممكنًا لي أن أتبين بوضوح ملامح الراقصتين الأخريين، ولم ألبث أن تيقنت أننا أمام عوالم ذكور.

أي حياة شرقية مليئة بالمفاجآت... منذ سنوات قليلة، كانت الراقصات يجبن المدينة بحرية لإحياء المناسبات الشعبية وحفلات الكازينوهات والمقاهي، أما اليوم فلم يعد يستطعن أن يظهرن إلا داخل البيوت، وفي الحفلات الخاصة، ويجد المحافظون قناعة أكثر في قبول رقص الرجال المتشبهين بالإناث، ذوي الشعور الطويلة، الذين تحاكي أذرعهم ونحورهم وأعناقهم، بطريقة يرثى لها، سحر الراقصات، نصف الكاسيات»[١].

ولكن المشهد الأكثر إثارة الذي قدم لجيرار دي نرفال صورة الحياة العربية هو مشهد عودة قوافل الحجيج من مكة[٢]، ولا يفوتني أن أقتبس على الأقل جزءًا من وصفه الساحر لهذه العادة التي تصف أشهر العادات، وتعد مقطوعة موسيقية ملحمية وأسطورية، يخرج جيرار من القاهرة من باب الفتوح الذي يكون مزدحمًا بالمتطلعين

(1) Voyage en Orient, éd. 1860 , vol I, p.141

كان عباس باشا قد نفى العوالم إلى مصر العليا، إلى قنا وإسنا على وجه الخصوص، وهناك سيلتقي فلوبير بكوتشوك هانم Koutchouk - Hanem .

(٢) وفقًا «لمراسلاته «طبعة مارسان Marsan، ص ١٣٠، استطعنا أن نرى بالتناوب عيد الفصح القبطي واليوناني، واحتفال المسلمين بالمولد النبوي، والاحتفال بعودة الحجيج من مكة ».

لمشاهدة الموكب، ويرى الموكب المهيب قادمًا أفواجًا عبر الضواحي. «كان الموكب أمة تمشي، تذوب في شعب هائل، يزينه من اليمين نتوءات جبل المقطم، ومن اليسار آلاف الشواهد والقباب في مدينة الموتى، وكانت قمم أسوار وأبراج قلعة صلاح الدين المدببة تزدان بالشرائط الصفراء والحمراء، وتعج بالمشاهدين... وبدا لي أن الزمن يزحف بي إلى الوراء، وأنني أعيش مشهدًا في عصر الحروب الصليبية، وجماعات من حرس الوالي تشق طريقها بين الجموع، بدروعها اللامعة وخوذات فرسانها. تكمل في مخيلتي الصورة التي تراءت لي. وأبعد قليلاً من موقعنا، نستطيع أن نرى آلاف الخيام المزينة التي أعدت ليتوقف فيها الحجيج للراحة، ولا ينقص مشهد الاحتفال جموع الراقصين والمغنين. وكل عازفي الموسيقى في القاهرة يتبارون في العزف على الآتهم، وفي نقر الدفوف، أوركسترا هائلة تنبعث من فوق ظهور الجمال، ولا يمكن للمرء أن يرى ما هو أكثر إثارة في كثافة اللحى والشعور النافرة، والحركات الضيقة من جموع المجاذيب (المغرمين) الهائلة... كما يمكن أن نميز من بينهم الجماعات الغفيرة من الأولياء والدراويش التي تتلو أناشيد الحب وتصيح بها، مازجة في كلماتها اسم الله، فالأعلام بألف لون، والساريات مزدحمة بالشعارات، وهنا وهناك يتحرك الأمراء والشيوخ بملابسهم الفاخرة على خيول مزدانة مطهمة بالذهب والأحجار الكريمة، كل هذه العناصر تضيف لهذا الحشد الذي تشوبه الفوضى قليلاً، جميع ألوان البهاء التي يمكن أن نتصورها... وفي نحو ثلثي النهار تدوي مدافع القلعة، ويعلو الهتاف، وأصوات الأبواق، ليعلن أن المحمل، وهو نوع من الصناديق المقدسة يحوي بداخله كسوة الكعبة الشريفة[1]، قد وصل إلى المدينة.

ويلتف حول رمز الإسلام صفوة أفراد الموكب من الفرسان الأكثر تألقًا، والأولياء الأشد تحمسًا، وكبار شيوخ المتصوفة بعمائمهم الخضراء المتميزة. وانضم إلى الركب سبعة أو ثمانية جمال، رؤوسها متوجة ومزدانة، مغطاة بسروج وسجاجيد زاهية الألوان، ومتباينة الأشكال، وكانت تبدو مثل دواب السمندل، أو مثل التنين الذي تركبه الجنيات. كانت الجمال التي في المقدمة تحمل نقاري الطبول الشباب، وكانت أذرعهم العارية ترتفع ثم تترك العصي المذهبة لتسقط في وسط مجموعة الأعلام المرفرفة والمثبتة حول الرحل. ثم

(١) عبارة المؤلف في الأصل: يحوي بداخله عباءة محمد المذهبة La robe de drap dor de Mohomet، المترجم.

جاء شيخ في تمثيل رمزي له لحية بيضاء طويلة، مكلل الرأس بتاج من أوراق الأشجار، يجلس فوق هودج مذهب على ظهر جمل، وهو هودج المحمل. ويتكون من مقصورة في شكل خيمة مربعة، مغطاة بحروف مطرزة تصل إلى قمتها، وتتدلى من زواياها الأربعة كرات من الفضة. كان المحمل يتوقف من وقت لآخر، وتسجد الجموع الهائلة على التراب، دافنة الرؤوس بين الأيدي، كان الحرس يدفع بصعوبة الزنوج، وهم أكثر تعصبًا من المسلمين الآخرين، وكانوا يتمنون أن تدهسهم الجمال، فمنحتهم ضربات العصا الطائرة على الأقل نصيبًا من معنى الاستشهاد، أما بالنسبة للأولياء.. فكانت منهم مجموعة تخرق وجنتاتها بأطراف مدببة، وتمشي مغطاة بالدماء، ومجموعة أخرى تلتهم أفاعي حية، ومجموعة ثالثة تملأ أفواهها بفحم مشتعل، وكانت النساء تحتل جزءًا صغيرًا من هذه الممارسات، فكنا نلمح وسط الحشود الغفيرة من الحجاج جموعًا من العوالم تسير مع الموكب وتغني معهم، في توافق وانسجام، أناشيدهم الدينية، وكن يظهرن وجوههن دون نقاب ودون خوف، وكانت مزينة بالوشم الأزرق، كما كانت الحلقات الكبيرة تتدلى من أنوفهن»[1]. ويتوالى الوصف رائعًا ودقيقًا، يتنامى وينساب في فقرات ذات إيقاع فخم ومنتظم مثل الموكب الذي يتناثر حجاجه في المساجد ما بين باب الفتوح وباب زويلة لكي يعودوا إلى التجمع من جديد في النهاية في الدروب الضيقة الممتدة الصاعدة إلى القلعة.

وللأسف، فليس أعلى القلعة إلا واجهة لصحن مليء بالجص، والحصى، وكان قصر صلاح الدين العتيق كما رسمه رحالة القرن السابع عشر والثامن عشر يضم بهوًا كبيرًا مربعًا يحمله اثنان وثلاثون عمودًا مزدانة باللون الرمادي، منتزعة من معابد هليوبوليس أو ممفيس، «وأريكة يوسف الشهيرة»[2]، وقد تم هدم هذا القصر عام ١٨٣٠، لإفساح المكان لمسجد محمد علي الجديد. «وعندما التفت، لمحت أعلى رأسي الأعمدة الحمراء الأخيرة

---

(1) Voyage en Orient. éd. 1860 , vol I, p.170.

ورد وصف «الدهسة» في كتاب رحلة إلى الشرق، ص ١٧٩، كما ورد أيضًا في المراسلات ص ١٣٠، وسيذكره كل من فلوبير ومكسيم دي كوم في الدراسة الخاصة بهما بعد ذلك بمزيد من التفاصيل. وقد استعان جوتييه بهذا الوصف في رائعته لوسيلام Le Sélam انظر: كتاب (المسرح، أسرار ملهاة، مسرحيات راقصة) Théatre , mystères , comdies et ballets طبعة شاربنتييه Charpentier، ص ٢٤١ - ٢٤٣.

(٢) حول هذا الموضوع، انظر: الصور المعروضة الموجودة في كتاب «وصف مصر»، وانظر: أيضا الجزء الأول من هذا الكتاب، ص ١١٢.

لقصر صلاح الدين القديم. وعلى أنقاض هذا البناء الفخم الجميل الذي اختفى كما لو كان مشهدًا عابرًا من صنع الجان، شيد حديثًا بناء مربع من الرخام والمرمر، لا يتسم بأي أناقة أو طابع خاص، ويبدو كسوق للحبوب، ويفترض أن يكون مسجدًا»[١].

ويبدو أن المنارات الطويلة التي كان يجب أن تظهر ظلال المسجد المرمري لم يكن بناؤها قد اكتمل ؛ ولذلك نستطيع أن نخلص من وصف جيرار أنه كان موجودًا في مواجهة هذا الهيكل الضخم المتكتل الملقى على أطراف أسوار المدينة المصرية كأنه ميراث تركي ثقيل.

V

هذه هي الطريقة التي كان نرڤال من خلالها يعرف كيف يرسم بها الأشياء. ماذا يمكن الآن أن نقول عن طريقة رسمه للعادات والتقاليد ؟ «يقول فيكتور هوجو. لو لم يكن جيرار دي نرڤال قد ذهب إلى مصر، ولم يكن قد رسم العادات الحديثة بهذا القدر من السحر والعلم الكامن في نفسه، والذي كان يجهله، كنت قد ذهبت بالتأكيد إلى هناك لأقوم بهذه المهمة، ولكنه سبقني إليها، وإذن فلن أذهب أبدًا. وهذا هو أكبر إطراء يمكن أن أقدمه لكتابه»[٢]. وفي المقابل بدا مكسيم دي كوم كعادته محقرًا للأشياء وقاسيًا في مواجهتها بطريقة مبالغة: «لم يكن يبحث في رحلاته عن الملامح الكبرى للطبيعة التي لم يكن يهتم بها، ولا عن ذكريات التاريخ الذي لم يكن موضع عنايته، كان يريد أن يقوم بدراسة العادات في بلاد يجهل لغتها، ومن خلال هذا المسلك كان مضطرّاً لأن يتوقف عند القشرة الخارجية للأشياء... واستوت في المرور أمام عينيه آثار مصر القديمة وملامحها الحضارية، فلم يسترع انتباهه أي منهما»[٣].

---

(1) Voyage en Orient, vol I, p.172.

(٢) نقلا عن ا. اوساي A. Houssaye من «الكتاب» Le liver، ص ٩٠.

(3) Souvenirs littéraires , t. I, p. 421.

ليس من الصحيح أنه كان يهمل تمامًا التاريخ والطبيعة. أما فيما يتصل بالآثار، فقد كان اهتمامه بها بالتأكيد أقل من اهتمامه بالعالم المعاصر، ولكنه لم يخرجها من أساسيات تشكيل رؤيته، وعلى النقيض، فقد كان يؤجل زيارتها حتى يتمكن من الاطلاع على وثائق كثيرة حولها قبل رؤيتها لكي يفهمها بطريقة أوضح «كتب جيرار دي نرڤال في فترة كان يتمنى فيها زيارة الأقصر، يقول «نحن لم نصعد ثانية إلى مصر العليا إلا بعد أن استنفدنا ما يوجد في المكتبة المصرية عن آثارها، مما يسمح لنا برؤية الآثار رؤية مثمرة»(١).

ولنتأمل هذا التصريح، إنه يصدق أيضًا على الحياة المعاصرة. فإن جيرار، لم يكن خاليًا إلى هذه الدرجة من مصادر المعرفة، كما ادعى مكسيم دي كوم، فإذا لم يكن يقرأ العربية، فقد كان يتكلمها قليلاً، ويدبر أموره بها وحده. فشخصيات مثل: الشيخ المسن، والوكيل، أصحاب الحانات ومنصور، والخدم، وبائع العبيد، والترجمان عبد الله هم أنماط تبين أكثر جوانب الحقيقة روعة، وهم أفراد أوفياء.

ولكن جيرار يعد ملاحظاته، ويستكملها ويتحقق منها من خلال الدراسة، كتب يقول: «لم أرد رؤية كل الأمكنة إلا بعد أن أتزود بقدر كاف من الكتب والأبحاث»(٢). لقد شاهد بنفسه الأعياد وطقوس الاحتفالات الدينية للمسلمين، وعيد الفصح القبطي واليوناني، وعودة الحجيج من مكة، ولكن كل هذه المشاهدات لم تمنعه من اللجوء إلى كتاب وليام لين «مصر الحديثة» Modern Egyptians (1836) للحصول على بعض التفصيلات، وثمة سبب آخر قوي، وهو الحصول على وصف لبعض الأوساط الاجتماعية التي ظلت بالنسبة إليه مغلقة، وغير متاحة.

---

(١) خطاب كتبه في ١٨ مارس ١٨٤٣. انظر: أ. ماري، مرجع سبق ذكره،ص ١٨٨. ذكر جيرار في كتابه أو في مراسلاته أن المكتبة التي كان يطلع فيها على الكتب كان اسمها «الجمعية الأدبية» أو «الجمعية المصرية» أما اسمها الحقيقي فكان - كما رأينا من قبل - «الجمعية الأدبية المصرية» وهي أول جمعية عامة تنشأ في المجتمع - بعد عام من العمل - ونجد لها مقرًا، خلال فترة إقامة جيرار، في ١٥ من فبراير سنة ١٨٤٣، انظر الجزء الأول، ص ٣٢٠ .

(٢) خطاب كتبه في ١٨ مارس ١٨٤٣، انظر: أ. ماري، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٧.

ففصوله حول (الحريم) و (حريم الوالي)، و (أسوار الحريم)... لم تكن محصلة خبراته الشخصية، فقد ألفها بمساعدة قراءاته. كما أنه يمكن أن يكون قد استعان – بعد قراءته لكتاب وليم لين – بالكتاب الصغير الشائق لشقيقته السيدة بول Mrs Poole، وهو بعنوان: «امرأة إنجليزية في مصر English Woman in Egypt»، حيث نجد في عالم الحريم وفقًا لتعبير جان جاك أمبير Jean - Jacques Ampére (الزينة الرائعة، والمجوهرات الكثيرة، والوجبات الشهية، والإماء الجميلات)(١).

كان جيرار صريحًا في الإشارة إلى مصادره. وكان كتابه يستند غالبًا إلى خبرة موظف وكاتب بريطاني(٢). فقد اعترف بنفسه في «كتاب ليالي لندن Les nuits de Londres» أنه لا يجيد الإنجليزية، ومع ذلك فإن الفقرات التي ترجمها في ملحق كتابه من كتاب وليم لين تعد في مجملها أنيقة ودقيقة. هل ساعده أحد في هذه الترجمة ؟ ومن الذي ساعده ؟. هل يمكن أن يكون الدكتور هـ. أبو H. Abbott؟ أم أحد الأعضاء الإنجليز الكثيرين في الجمعية الأدبية ؟ فلم تسترع انتباهه في الكتاب الضخم للقنصل الإنجليزي الموضوعات المرتبطة بمشروعات التنمية في الدولة، والإدارة والعدالة، وبتفاصيل الصلاة، وبالممارسات الدينية، وبالمجالات الأدبية (وهو ما يبعث على الدهشة)، وبالعلوم وممارسات التطيّر العربية، وبالسحر، وبعلم الفلك والكيمياء، ولكن ما احتفظ به من الكتاب هو الملاحظات والتأملات التصويرية للاحتفالات، وعادات الزواج، ومشاهد الجنائز، وطقوس الختان، كما احتفظ ببعض المعلومات الفنية حول الملابس وتنسيق المنازل وتزيينها، وببعض الأفكار العامة حول عادات المسلمين التي التزم بالدفاع عنها بلطف يندر أن نجده لدى أوروبي في هذه الحقبة الزمنية(٣).

---

(1) J.J.Ampére.Voyage en Egypte et en Nubie , éd.1881 , p.185.

(٢) فضلاً عن ذلك، فقد أشار في ملاحظاته إلى ان «جزءًا كبيرًا من ملحق كتابه ترجمة أو محاكاة لكتاب وليم لين»: انظر:
Voyage en Orient, éd. 1860 , vol I. p.345

(٣) سنجد في ما يلي قائمة بالموضوعات التي استعارها جيرار دي نرفال وترجمها، أعدها م. سانت فير جارنو، M. Sainte Faire Garnot.

I - موضوعات استعارها من وليم لين واستخدمها في كتابه رحلة إلى النوبة طبعة شاربنتييه ١٨٦٠،

نساء القاهرة:

أ - القناع والحجاب (نرفال، الجزء الأول، ص ٨٦، ٨٧): تفاصيل الملابس (لين، الجزء الأول، ص ٦٧، ٦٨)

ب - زفة على المشاعل:

VI

كان نرفال شديد الإعجاب بجوته، وكان يكن مثله شعورًا فياضًا بالتسامح والتعاطف تجاه الدين الإسلامي، فقد كان في كل صفحة من كتابه، يحارب الحكم المسبق

= الشبح الأحمر (لين، الجزء الأول، ص ٢٣٢)

الرماح النارية، الموسيقى (لين، الجزء الأول، ص ٢٨٤)

مزج نرفال بين المعلومات المتناثرة حول موكب العروس، ومثال ذلك:

«تذهب العروس إلى المسجد، يسبقها الموسيقيون، بدفوفهم ومزاميرهم الكبيرة، ويصحبها عدد من الصديقات (لين، الجزء الأول، ص ٢٣٤).

«تغطي العروس عادة من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها بشال أحمر من الكشمير، أو بشال أبيض أو أصفر، ويكون ذلك نادرًا. وفي أعلى رأسها يثبت إكليل للرأس أو تاج. ويسدل الشال فوق هذا كله، ويغطي كل التفاصيل الثمينة لردائها (لين، الجزء الأول، ص ٢٢٥، ٢٢٦).

ج - حريم الوالي، أسرار عالم الحريم (نرفال، الجزء الأول، ص ٢٠٩ - ٢١٦).

حقوق الإماء الخليلات (لين الجزء الأول، ص ١٣٧، ٢٥٦)

الزوجة الرئيسية أو «الضرة» (لين،الجزء الأول، ص ٢٣٥، ٢٦٣).

الطلاق (لين، الجزء الأول، ص ٢٤٧، ١٣٩).

الميراث، (لين، الجزء الأول، ص ١٥٣).

د - أرتجة منازل القاهرة (نرفال،الجزء الأول، ص ١٠٠)، (لين، الجزء الأول، ص، ٨٢).

هـ - عيد عائلي: الختان، (نرفال، الجزء الأول، ص ٢٤٧، ٢٥٧)، تعد طقوس الختان في كتابات لين شرحًا مسهبًا، أمينًا إلى حد ما (لين، الجزء الأول، ص ٨٢، ٨٣).

II- فقرات مترجمة من كتاب وليم لين، ومقتبسة في الملحق (انظر، طبعة شاربنتييه عام ١٨٦٠). =

أ - الحياة الداخلية للقاهرة، عادات الحريم (نرفال، الجزء الأول، ص ٣٤١ - ٣٥٦).

ملخص من كتاب لين (الجزء الأول، ص ٢١٣، قفز من هذه الصفحات إلى الجزء الأول، ص ٢٤٠ (اختصر نرفال استطرادًا طويلاً). اقتبس نرفال وصف «المشمل» من لين، ص ٢٣٤.

ترجم نرفال الصفحات التالية لصفحة ٢٤٠ حتى صفحة ٢٦١، مختصرًا بعض الأجزاء، ومضيفًا بعضًا آخر. وصحح في صفحة ٣٤٥ من كتاب رحلة إلى الشرق، عبارة لين التي اقتبسها، فبدلاً من أن يكتب «يا ستي» كتب صحتها «وهم يقولون عدة مرات «دستور ! أو يا ساتر».

ب - أعياد خاصة (نرفال، الجزء الأول، ص ٣٥٦، ٣٥٨).

تغير ترتيب الموضوعات، أورد نرفال أولاً الصفات من ٢٨٣ حتى ٢٨٤، (لين، الجزء الأول، وألحقها ببعض الملخصات المنقحة التي تبدأ من ص ٢٧٤ حتى ص ٢٧٨.

ج- راقصات مصر (نرفال، الجزء الأول، ص٣٦٢ - ٣٨٥).

ترجمة لين ترجمة كاملة، الجزء الثاني، الفصل السادس، ص ٩٨ - ١٠٦.

د- السحرة: (نرفال، الجزء الأول، ص ٣٦٢- ٣٦٧).

تلخيص لين،الجزء الثاني، ص ١٠٦.

هـ - منازل القاهرة، (نرفال، الجزء الأول، ص ٣٦٧، ٣٧٤)

بدأ الجزء الخاص بالمنازل من كتاب لين، الجزء الأول، ص ٨ وانتهى صفحة ٣٠، ولكن هذا الجزء به فقرات عديدة مقتطعة، من بينها وصف كامل للمفاتيح، حذفه نرفال حتى لا يكرر ما سبق أن ذكره في متن كتابه، الجزء الأول، ص١٠٠. =

الذي انتشر في القرن الثامن عشر، والذي يصف الشرق بأنه فاسد الأخلاق، غارق في الملذات، فعالم الحريم لم يكن إلا مكانًا للفسق والفجور، تسود فيه نزوات الرجال الحسية، وإرادتهم الاستبدادية، كما أن شكل الزواج في مصر يتطور تدريجيًا نحو الاكتفاء بالزوجة الواحدة.

= و - مراسم الجنازات (نرفال، ص ٣٧٤ - ٣٨٠).

ترجمة من كتاب لين، الجزء الثاني، الفصل الخامس عشر.

الترجمة رشيقة، تصرف فيها نرفال بحرية، في بعض الأحيان، فترجم «يا عزيزي الوحيد، يا وحيدي» (لين، الجزء الثاني، ص ٢٨٦). إلى «أيا مجدي، أيا غايتي» كما انه قد أوجز بعض الجمل، ولخصها، وأغفل ذكر بعض آخر منها.

ز - شعب مصر، (نرفال، الجزء الأول، ص ٣٨٠)

ترجمة حرفية مع بعض الاختلافات في الأرقام، وبعض الفقرات المتقطعة من مقدمة لين، والتي لا دلالة لها (لين الجزء الأول، ص ٣١، ٣٢).

هذا العمل كان يمكن أن يستكمل ويتسع من خلال بعض الدراسات لرحلات أخرى وثائقية كانت موجودة في مكتبة الجمعية الأدبية بمصر عام ١٨٤٣. وبفضل قائمة من الكتب التي قدمها أعضاء مختلفون من الجمعية نشرت في مجلة «منوعات مصرية» Miscellanea Aegyptiaca عام (١٨٤٢)، وكان الأعضاء يمتلكون حوالي مائتي مجلد، منها:

خطابات من القاهرة والنوبة، شامبليون: Lettres d'Egypte et Nubie

لوحات من القاهرة والنوبة، ج. ج. ريفو Tableaux d' Egypte et Nubie

رحلة إلى جزيرة مورة، كايو Voyage a Méroé

نظرة على مصر «كلوت بك» . Aperçu sur l' Egypte

رحلة إلى الأقصر، فيرنيناك دي سان مور . Voyage du Luxor

رحلة في صعيد مصر ووجهها البحري، ف. دينون Voyage dans la Haute et Basse - Egypte

ترجمة حكايات الشيخ المهدي، ج. ج. مارسل La traduction des contes du cheikh el - Mohdy

اسفار بروس . Travels

مصر الحديثة، لين (٣ نسخ) . Modern Egyptians

مصر، رسل، l'Egypte

اسفار، ويستر ومادن Travels

عادات وتقاليد المصريين، انت . Manners and customs of Egyptians

مسار رحلة، شاتوبريان . Itineraire

رحلة إلى مصر وسوريا، فولني (قدم له بريس دافن) . Voyage en Egypte et Syrie

دراسات في علم المصريات لبسيوس ولونورمان Etudes égypto logiques

ووفق دفتر ملاحظات كتاب «رحلة إلى الشرق» الذي نشره م. مارتينو، فإن جيرار قد قرا في هذه الحقبة الزمنية كتاب هربولت Herblot **وكتاب التاريخ المحمدي** Histoire Mohométane **لفاتيه** (1657) Vattier**، وكتاب «رحلة» لنوردن** Norden**، وكتاب «خطابات عن مصر»** Lettres sur l' Egypte **لسافري** Savary**، وكتاب «احداث ومغامرات في مصر»** Evenements et aventures en Egypte **لسيبيون مارن** Scipion Marin**، كما دون بعض الملاحظات من كتاب ابحاث نقدية وتاريخية عن اللغة والأدب في مصر** Recherches critiques et historiques sur la langue et la litérature de l' Egypte **وكتاب مذكرات عن مصر** Mémoires sur l'Egypte **لكاترمير** (1808) Quartmere**، ولاريفو بريتانيك** La Revue Britannique **(عدد ديسمبر ١٨٤١).**

دافع جيرار عن كرامة المرأة العربية، وبرر قضية الإماء والعبيد وشرح دوافعها، التي لم تكن في عمقها سوى نوع من التبني الحامي، ينمو في نفس السيد المالك، لتتولد لديه مشاعر تجاه عبده تكاد تكون أبوية[1]. وقد كان يدرك التأثير الهدام الذي تمارسه الهيمنة التركية على العالم الإسلامي.

هذا النمط من الظلامية[2] الذي وقع الشرق بين براثنه منذ ثلاثة قرون لم يكن نتاج تعاليم الإسلام، ولكنه كان نتاج التأثير التركي: «إن العبقرية العربية التي ملأت العالم بالعجائب، اختفت تحت سطوة هؤلاء المهيمنين الأغبياء، وفقد ملائكة الإسلام أجنحتهم، وشهدت ليالي ألف ليلة وليلة طلاسم عبقريتها تتحطم، وعمت ألوان من التعصب والجمود المظلم طبقات الشعب. ووفق التأويل التركي، أصبح القرآن وسيلة للعدل تمامًا كما كان الكتاب المقدس بالنسبة للمتزمتين الإنجليز».

كان التأثير التركي في أوج مجده في القاهرة على وجه التحديد، في الفترة التي أقام فيها جيرار، في السنوات الأخيرة من عهد محمد علي. هل يجب أن نندهش إذا جاء التعبير عن بعض الإحباطات مختلطًا بتقدير الشاعر ومدحه. إننا ندرك أنه بعد عودته قد أدلى بتصريح مخيب للآمال في خطاب إلى جول جانن Jules Jainin إن الشرق في مجمله لم يقترب من هذا الحلم الذي كنت أتخيله، فقبل عامين كان الشرق بالنسبة لي أكثر بعدًا وأكثر علوًا وهنا يكمن سؤال يمكن أن يكون موضوعًا للأطروحة المضادة: هل لحق الإحباط بجيرار دي نرفال خلال فترة إقامته في مصر؟.

والإجابة بالتأكيد نعم، إذا عدنا إلى الخطاب المفتوح الذي وجهه إلى تيوفيل جوتييه في السابع من أكتوبر عام ١٨٤٣ ونشر في لوجورنال دي قسطنطينوبول[3]: «لا لن أفكر

(١) وردت الملاحظة نفسها في كتاب ج. ج. امبير الذي زار مصر في الفترة ما بين عام ١٨٤٤ - ١٨٤٥ (رحلة إلى مصر والنوبة): «نظام العبودية خال من القسوة في الشرق، يتسم من بعض النواحي بطباع أبوية تجعل العبد فردًا من العائلة»، طبعة كالمن ليفي عام ١٨٨١، ص ٤٩٦

(٢) مذهب الذين لا يحبذون انتشار المعرفة في جميع طبقات الشعب لما قد ينشأ عنها من تفتح عقلي يضر بالأوضاع السياسية المستقرة (المترجم).

(٣) أعيد نشره في «لا سيلفيد " La Sylphide عام ١٨٤٣، الجزء الثامن، ص ٢٨٤، وفي ملحق طبعة ميشيل ليفي من كتاب «رحلة إلى الشرق» عام ١٨٦٧، وكان هذا الخطاب ردًا على خطاب جوتييه في «لابرس» في ٢٥ يوليو ١٨٤٣.

مرة أخرى في القاهرة مدينة الف ليلة وليلة، دون أن أتذكر الإنجليز الذين وصفتهم لك، السيارات المعطلة في السويس، وطيور الصحراء القواقة، الأتراك وهم يرتدون الملابس الأوربية، والفرنجة وهم يرتدون الملابس الشرقية، القصور الجديدة لمحمد علي التي شيدت كأنها حصون مؤثثة على نظم قصور الأقاليم بكراسيها، وأرائكها الخشبية، بطاولات البليار، وبساعاتها البندولية، وبمصابيحها الزيتية، وبصور السادة أبناء الوالي بملابس ضباط المدفعية... كل كماليات البرجوازية الريفية... ويجري الحديث عن إصلاح الأهرامات لكي يتحول هذا إلى خبر تحمله أسلاك البرق... ألم تتحول جزيرة الروضة على يد إبراهيم إلى حديقة إنجليزية بأنهار صناعية، وأعشاب خضراء قصيرة وقناطر صينية. تصور أن منازل شبرا قد أضيئت بالغاز.. وأنت ما زلت تعتقد في طيور إبيس، في اللوتس الأرجواني، في النيل الأصفر، هل تعتقد في نخيل الزمرد، في صبار الهند، في الجمال ؟ ربما. للأسف، أما إبيس فهو طائر متوحش، ونبات اللوتس هو نوع من البصل الشعبي، والنيل عبارة عن مياه صهباء ذات انعكاسات رمادية، والنخيل يشبه منفضة ريش هزيلة، وصبار الهند، ليس إلا التين الشوكي، والجمال لا يوجد منها إلا الجمال وحيدة السنام، أما العوالم فهم ذكور، والنساء الحقيقيات يجدن سعادتهن في عدم الظهور».

ويتناقض مثل هذا الحديث مع الوصف المنبهر في كتاب «رحلة إلى الشرق»، وحتى مع الوصف الذي جاء في خطاب موجه إلى جوتييه نفسه في ٢ مايو ١٨٤٣، يصف جيرار فيه حدائق الروضة بأنها ممتعة[1]. وينبغي ألا ننسى أنه إذا كانت صحيفة «لوجورنال قسطنطينوبول» يجب أن تصل إلى تيوفيل جوتييه، فإنها تحرص في الوقت نفسه أن تكون تحت أعين الجمهور. وهنا تحرص الصحيفة على نوع من التنسيق والعر ... الأدبي، وثمة رغبة ماكرة وخبيثة في الإدهاش تدفع بالمؤلف للوي عنق انطباعاته وللمبالغة في تصوير إحباطاته لمزيد من اندهاش القارئ. وليس داخل هذه العرض الصغير ينبغي أن نبحث عن التعبير الدقيق لأحاسيس الرحالة. ألم يعترف هو نفسه في معرض آخر؟«لقد أظهرت لونًا من خيبة الأمل تجاه مصر، وهو تعبير لا ينبغي أن يؤخذ مأخذ الجد، حيث إن تصارع الأسئلة والإجابات يولد ضربًا من اللعب بالأفكار»[2].

(١) انظر: أ. ماري، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٦، وصف أعيد ذكره في كتاب «رحلة... طبعة ١٨٦٠، الجزء الأول، ص ٢٠٢، ٢١٢

(٢) خطاب في ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٤٣، انظر: ماري، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٠.

لا، إن جيرار لم يحبط من زيارته لمصر، وأفضل دليل على ذلك أنه كان يخطط لزيارتها مرة أخرى عام ١٨٥٥، بفضل منحة من وزارة التعليم العام، لو لم يتعرض لأزمة المرض التي قادته إلى الوفاة»[1]. لكنه في تقديراته للأشياء، كما كان في حياته نفسها، يقع دائمًا فريسة انطباعات متتالية وغالبًا ما تكون متناقضة، ويتشكل لون روحه بلون السماء التي تظله. فبسرعة ذات طابع مرضي ينتقل من شعور الإعجاب إلى شعور خيبة الأمل، من الإحساس بالحماس إلى الإحساس بالخوف بالحزن، وعلى غرار شخصية فاوست لجوته التي كان له ذهنها القلق المتوتر، لم يكن جيرار ليرضى أبدًا، ولم ينعم أبدًا بالسلام لحظة سعادة. إنها دوامة أبدية من أحاسيس الشعراء الحقيقيين يتقاسمها مع رامبو. كتب يقول: «في إفريقيا نحلم بالهند، وفي أوربا نحلم بإفريقيا، إن المكان المثالي دائمًا يقع وراء الأفق الذي نوجد فيه». وأضف إلى ذلك أنه كانت تتجاذبه حالات متباينة، تشرده غير المستقر، وحنينه إلى بلاد مجهولة، وذوقه الذي ينتمي إلى أذواق أهل المدن، ووضعه كأديب، وحبه للعواصم بمقاهيها وبمسارحها وبنواديها.

في باريس كان يحلم بالقاهرة، وفي حي الموسكي كان يفتقد شوارع باريس الواسعة: «إن القاهرة تضم أنماطًا مختلفة من الفرنسيين سماسرة، رجال صناعة، موظفين عند الباشا. ولقد التقيت ببعض منهم إما في قاعات الاطلاع، أو في المسرح، أو في محلات الأحياء الإفرنجية. وقد سألوني عما وجدته مصدرًا للمتعة والتسلية في القاهرة، ونحن في الواقع نحس هنا بالملل حتى الموت»[2]. وما بقي بالتأكيد - على الرغم من تعاقب المتعة والندم، الذي تشف عنه مراسلاته - أن جيرار استعاد في مصر صحة الروح والجسد. وطوال رحلته، لم يتعرض لأية أزمة صحية، وعاد منها ليكون قادرًا على تأليف كتاب يكفي لوضع اسمه في مصاف كبار كتاب النثر في القرن التاسع عشر. كتب إلى والده في ١٨ مارس ١٨٤٣، يقول: «إن الشمس أكثر إشراقًا في هذه البلاد عن بلادنا... إن الحياة هنا تكاد تمنح المرء عشر سنوات من الشباب». هذا هو ما حدث. وبفضل هذا الغزو المشجع، وهذه الغربة المحفزة الموحية، استعاد نشاطه الذهني، وروافد

(١) انظر: أ. ماري، مرجع سبق ذكره، وانظر: خطاب في ٢٣ سبتمبر ١٨٥٤، وانظر: Corresp.. p.247

(٢) فقرة لم تنشر، مجموعة سبولبرش دي لفنجول Splebberch de Lovenjoul، د. ٧٤١ D، عدد فوليو Folio رقم ٦٩.

إبداعه وآماله، وأبعد عن نفسه تهديد القدر، وطارد الأرواح الشريرة التي كانت تحوم حول فكره المعذب. وفي باريس التي استقبلته بجوها الغائم وسمائها الملبدة حاول فور عودته أن يعثر على هذه الشمس المصرية، وأن يعيد خلق سعادة لحظات الرحيل وألوان الرحلة، وأن يفرض على العالم تأكيد شقائه وعبقريته. هكذا ندرك لماذا يمثل مؤلفه «رحلة إلى الشرق» كتابًا لطيفًا وساحرًا تعبر فيه الصفات المتميزة لأسلوب جزل عن نفسها، بسعادة حقيقية.

VII

يختلف أسلوب جيرار عن أسلوب شاتوبريان، فتركيزه على الانطباعات العامة أقل من التفصيلات التصويرية المدوية والرمزية، فإذا توقف عن التحليق، إن جاز لنا القول، فإنه يسجل كل التفصيلات الوصفية للحياة المنسابة، التي تدور أحداثها تحت عينيه، في تتابعها وتواليها، وينجح في أن ينقل صورة للواقع تكاد تكون سينمائية، سواء من خلال مشاهد حلقات الرقص أو قافلة الحجيج العائدين من مكة، ويخلو أسلوبه من النبالة الأرستقراطية التي كان يتسم بها أسلوب شاتوبريان، ولكن ثمة حيوية وألوانًا وقدرًا من البريق والانعكاسات والتموجات والحقيقة تتناغم مع تتابع الأشياء المطرد. فأسلوبه تشكيلي، وحكاياته متموجة وسلسة، وينبغي الإعجاب بتنوع نغماته، واختلاف الإيقاعات التي تقدمها مشاهده(١).

وهنالك لون من الواقعية المحددة التصويرية، وكلمات أنيقة مرصعة تذكر كلها بكتاب تيوفيل جوتييه «رحلة إلى إسبانيا Voyage en Espagne»، ورحلة فلوبير إلى بريطانيا «عبر الحقول و السواحل»، وتضفي على مشاهد الطرقات والأسواق والمحلات إطارًا من الديكور البرناسي، فلننظر إلى موكب العروس تضيئه المشاعل، إلى الشبح الأحمر المتوج للعروس، تمسك بها سيدتان مهيبتان سوداوان، لننظر إلى مقاهي الخليل، وإلى المياه

(١) انظر: وصفه لحدائق الروضة، في طبعة ١٨٦٠، الجزء الأول، ص ٢٠٢، ووصف شبرا (الجزء الأول، ص ٢٢١)، ووصف النيل (الجزء الأول، ص ٢٦٤)، ما زال قصر شبرا موجودًا، ولكنه مهدد بالسقوط، ويمكن العثور على صور حديثة لبعض الأكشاك رسمها جيرار دي نرفال، وبعض صالونات استقبال قصر محمد علي في العدد المصور لمجلة الهلال المصرية، عدد ٣ سبتمبر ١٩٣٢، القاهرة.

الخضراء التي تعكس بشغف «ملابس المدخنين المتباينة الألوان، إلى مصابيح زيت الثريات يشتعل ضياؤها كأنه ضوء النهار، وإلى النراجيل الكريستالية التي تلقي بالوميض، وإلى العنبر المسكر يسبح في أقداح خفيفة يدور به الخدم السمر، مع الأحقية السلكية المذهبة الصغيرة»[١] ولنصعد معه إلى سلاسل جبال المقطم، ولنتوقف وسط مشهد صخري مؤثر للغابة المتحجرة بنباتاتها المتجمدة اليابسة الراقدة على سطح الأرض بهضابها الطويلة الخشنة الضاربة إلى اللون الرمادي، ونتوءاتها الصغيرة التي تقف وجهًا إلى وجه كأنها حلقات من الزواحف[٢].

وسوف نحس في بعض السطور، التي وصف بها هذا المشهد بكل منابع أسلوبه الصلبة المتوترة، لكن لنر كيف يتغير الإيقاع عندما يتغير المشهد الموصوف كما هو الشأن في عباراته المتموجة البراقة الغنائية التي تصف حديقة الوالي في الروضة فتتناثر «الأزهار البيضاء» في الممرات المبلطة بالموزاييك، أو تتجمع في مشاتل خضراء «حيث تتخذ أشجار الطقسوس الكبيرة[٣] أشكال قوائم الدرابزين أو القناطر» وتجعل الحمائم من نفسها أحيانًا «أرواحًا نائحة في هذه العزلة»[٤].

ويكتسي أحيانًا أسلوبه بنبرات مدهشة، وبصفاء موسيقي يكاد يكون بلوريًا، ويكون مع ذلك مشحونًا بالحنين والرقة: «حل علينا المساء، وقرص الشمس يتوارى شيئًا فشيئًا وراء الخط الهادئ للجبال، وفجأة تتحول الطبيعة من الظلال التي يغلفها الشفق إلى الظلمة الداكنة لليل، وصوت الناي والرباب يصاحبه ذلك الموال المصري الشهير «يا ليل»، وصوت آخر يشكل الإجابة على الصوت الأول «يا ليل الفرح» إنهم يتغنون بسعادة الأصدقاء الذين يجتمعون، ويتغنون بالحب وبالمتعة، بالمشاعل الإلهية التي تنبعث متألقة من النور الخالص الذي لا يوجد إلا في السماء، ويتغنون بأحمد المصطفى سيد المرسلين، وبأصوات طفولية، تردد الجماعة لوازم الموال، التي تعكس الحنين للمشاعر العذبة التي

(1) Voyage en Orient. éd. 1860 . vol I. p.113.

(2) Id., vol.I, p.263.

(٣) جنس أشجار حرجية (المترجم).

(4) Voyage en Orient. éd. 1860 . vol I. p.212.

تذكر بصلوات الرهبان الليلية لله»(١). وأسلوب جيرار دي نرفال هنا، ليس على الإطلاق أسلوبًا مفككًا ولا مهتزًا، إنه منساب ومتجاوب مع ذاته وكما تنعكس النجوم وارتعاشات النسيم على صفحة النهر، تنعكس الاعترافات الداخلية لقلب ظامئ إلى الرضا، وليس هناك شيء أدل على ذلك، من هذا الوصف الحزين لمشهد «شروق الشمس» في القاهرة، وصوت المؤذن الذي كان يصدح على المئذنة المجاورة. «أجراس الجمال التي تعبر الطريق متثاقلة الخطى، وأحيانًا رغاؤها العجيب، والضجيج والصفير المتشتت الذي يملأ الهواء، الخشب والحائط في الفجر المبكر يرسم على السقف ألف شريحة للضوء المتسرب من النوافذ، نسمة صباحية محملة بأريج نفاذ، ترفع الستائر من فوق شباكي وتجعلني ألمح في فناء البيت، رؤوس النخيل المتأرجحة، وكل ذلك يبعث في نفسي البهجة والسرور أو الحزن، تبعًا لطبيعة الأيام ؛ لأنني لا أريد أن أقول إن أي كائن لا يستطيع أن تمر أيامه كلها في سعادة.

إن شمس الحزن السوداء التي ترسل أشعة مظلمة على جبهة الملاك الحالم لألبير دوري Albert Durer، تطلع أحيانًا فوق صفحة النيل المضيئة، كما كانت تطلع على شاطئ الراين في الأصقاع الباردة لألمانيا، إن الفجر في مصر، ليست له هذه السحنة القرمزية التي تعجبنا فوق سواحل كندا، فالشمس هنا ترتفع فجأة على حافة السماء، يسبقها فقط شعاع أبيض باهت، وأحيانًا، تبدو وكأنها على وشك الشروق على أطراف ثوب رمادي باهت، شاحبة، قليلة الشعاع، كأنها قاذفة من نفق أوزيريس تحت الأرض»(٢).

ويعبر جيرار دي نرفال عن قلقه:

«الظلمة، الأرمل، التى لا يواسيها أحد
والأمير في البرج المهدم»

ويبدو هنا وقد اجتاحته مشاعر الحنين المشوب بالسأم.

«مات نجمي الوحيد - وقيثارتي المرصعة تحمل شمس الأوهام السوداء»

---

(1) Id., vol.I, p.249.

(2) Id., vol.I, p.132-133 .

ها نحن نرى هنا الإحساس بدلائل عدم شفائه التام، هذا الفنان الثاقب الذهن، الواثق من نفسه، هذا الموسيقي كان يعيش دائمًا على تخوم عالم الوهم.

وطوال مدة إقامته في مصر، كان يتعلق بشغف بكل مظاهر السحر والصوفية الشرقية، وكان خلال نومه تجتاحه أحلام هائجة، «أرى في أحلامي العمالقة ثائرين منذ عهد سليمان»[١] وفيما يخص التفسيرات الأثرية للأهرامات وتوضيحات المؤرخين وعلماء المصريات، كانت تستهويه الأساطير العربية وفرضياتها المتصلة بعلم الفلك[٢]. ويبدو لنا أنه يحب المغامرة في عمق الحقول الغامضة لعلم الباطن كما لو كان يبحث عن الوحدة العميقة لكل الأديان «التآخي الحتمي للآلهة». في القاهرة، في مكتبة الجمعية الأدبية بمصر، وفيما بعد في القسطنطينية، ألقى بنفسه في خضم الطرق الصوفية الشرقية، وفي أعمال هربلوت ولورسرو سلفستر دي ساسي «كنت مسلمًا في مصر، وحلوليًا عند

(١) Id., vol.I. p.102، وانظر أيضًا حول هذا الموضوع جوتييه، صور وذكريات أدبية، ص ٥١، وتاريخ الرومانسية Histoire du Romantisme، ص ١٤٩، ١٥٠ .

(٢) Id., vol.I. p.204 et Suiv.، وما بعدها، «عندما كنت أسأله عن الأهرامات، كان يرد علي «اعتقد انها تعد تاج سليمان بن داود، حينما كان يمر متفقداً جيش الجن الذي كان رئيسه، إلا إذا لم تكن السندان الذي دقوا عليه حلق المارد الذي أبطل كل أنواع السحر». (M.Du.Camp. Souv. Litt. Vol. I, p.422)

وربما يكون من المناسب هنا ان نذكر قصة دارت في هذه الفترة تتصل بجيرار والأهرامات، فبعد ظهور كتاب «رحلة إلى الشرق «لجيرار دي نرفال دارت شائعة حول أن البارون تايلور Taylor المفوض الملكي لشئون المسرح الفرنسي، يعد لرحلة ثالثة إلى مصر (انظر: الجزء الأول، ص ٢١٢، ٢١٣). وأشاع بعض المتسكعين أقاويل كثيرة حول الهدف الغامض لهذه الرحلة. وكانوا يترقبون بعض الاكتشافات المؤثرة، أو على الأقل الظفر بمسلة يمكن أن تحل محل مسلة الكونكورد التي كان تايلور يقوم بمفاوضات حول التنازل عنها.

مع أن المفوض الملكي لم يكن يفكر أن يستأنف رحلاته السابقة إلى الشرق، ومع ذلك، فإن الصحفي المرح أورلياك Ourliac، والكاتب الساخر، صديق بترس بوريل Petrus Borel، وبودلير، تناول قلمه، واخترع وفقًا لما رواه م. جاريل جيمار M. Galriel Guémard ما هو آت: «نما إلى علمنا أن البارون تايلور، المفوض المتميز لشئون المسرح الفرنسي (نرجو ألا يحدث خلط بينه وبين شخص آخر من هؤلاء الموظفين اللطفاء الذين يسهرون على أمن مواطنيهم مع الكياسة التي نعرفها) عاد للمرة الثالثة إلى بلاد الفراعنة، وهذا هو السبب: صديقنا جيرار، خلال رحلته بصحبة فونفرد Fonfréde كان قد مزح، فكتب بطرف سكينه، على قمة هرم خوفو، اسم البارون لتخليده في أعين الأجيال القادمة، ذكرى المهمات المجيدة التي كانت وراء إرسال المسلة الشهيرة من النيل إلى السين على يد م. دي فيرنيناك Vernina ولسوء الحظ، وبسبب طابع العبقرية الجنوني، فإن جيرار، الذي يعرف الإنجليزية مثل طفل ولد على شاطئ نهر التايمز، كتب اسم تايلور بحرف (i) (Tailor) بدلا من حرف (Y) (Taylor) وعلى إثر هذا الخبر المذهل لهذا الخطأ الذي لا توصف جسامته، قرر البارون فور سماعه للخبر أن ينتقل إلى الأهرامات ليجري بيده التصحيح الضروري».

الدروز، وورعًا على شاطئ البحر عند عباد النجوم الكلدانيين...». لقد تم شفاؤه بالتأكيد، فلقد عاد من رحلته إلى الشرق بصحة إنسان تخلص مما بداخله، وعقد صلة مع الحياة، وأكمل ببراعة مهمته كمراقب وكاتب، ولكنه إذا كان قد استطاع أن يؤجل قدره المحتوم، وإذا كان قد استطاع أن يحصل على هدنة مثمرة لعدة سنوات، فلم يكن ما ألم بأعماقه أقل أثرًا «وتبعًا لما قال كلوار Clouard، فقد كان مسكونًا بنفحة إلهية. والحقائق التي رآها جيدًا والتقطها بدت له من جديد تعبرها الأسرار المتشابكة.

وعلى طريق العودة ألف سونتاته الغريبة الرائعة «أوهام»: دلفيكا، ميرتو، دافني، حورس، ألفها - كما ذكر في كلمة إهدائه إلى ألكسندر دوما - «وهو في حالة حلم فوق العادي».

وهكذا يكشف لنا جميعًا كتاب، رحلة إلى الشرق، عن فحواه، من خلال ثنائيته المؤثرة، وشطحاته ذات المغزى الكبير، جانب نرڤال المغرم بتحديد الغوامض، وتجسيد المرئيات، وجانبه الآخر العاشق للرموز وللغيبيات، اتحدا معًا على الطريق الذي سوف يقوده إلى أسمى ما يرى، وإلى الاقتحام المأساوي لما لا يرى.

****

الفصل الثاني

جان جاك أمبير وزافيه مارميه

(1845 – 1844)

نحن في هذا الفصل بصدد كاتبين غفل عنهما عصرنا تقريبًا، ولكنهما تبوأا مكانة سامية في عصرهما، فهما عضوان في الأكاديمية الفرنسية، وفي جمعيات علمية متعددة، جمعهما حبهما للعلم والرحلات، وجعلهما يزوران مصر في نفس الفترة الزمنية بعد زيارة جيرار دي نرڤال بفترة قصيرة، إنهما جان جاك أمبير Jean- Jacques Ampére (1800 - 1846) وزافيه مارميه Xavier Marmier (1809 - 1892).

كان كلٌ منهما أديبًا متفردًا متوهجًا، فكان أمبير أستاذًا في السربون والكوليج دي فرانس، وكان مارميه أمين مكتبة سانت جنفياف، أحدهما ليبرالي، والآخر ينتمي إلى مدرسة أورليون. كان لكل منهما مكانة يحسد عليها، زاخرة بالأعمال والأمجاد، ولم يكن ثمة جوانب مشتركة بين حياتهما وبوهيمية جيرار دي نرڤال المتفجرة، والمثيرة للشفقة.

كانا يكتبان كثيرًا وحول كل الموضوعات، فلم يعيرا تصنيف إبداعهما اهتمامًا، فهما شاعران، روائيان، ناقدان، صحفيان، وقد كان ذلك من متطلبات المرحلة، وكما كان إحدى السمات المدهشة لهذا الجيل من رجالات الأدب. فكل هؤلاء القائمين على إصدار أكبر مجلات عام ١٨٤٠ من أمثال نوديه Nodier، ولرمنيه Lerminier و ج.ج.أمبير J.J.Ampére، وزافيه مارميه Xavier Marmier، لم يكونوا متخصصين، ولكنهم أصحاب مؤلفات في مواد مختلفة لا يكلون، ولا يبالون بالتعب.كان إنتاجهم منتظمًا ومتعددًا وضخمًا، يشكل المادة الأساسية لعدد لا يحصى من المجلدات ويضمن لها صيتًا ذائعًا.

كان أمبير ومارميه أيضا من كبار الأدباء البرجوازيين، ولكنهما بدأا حياتهما بدفع الجزية الأدبية للرومانسية، وبحثا على غرار جيرار عن نماذج واستلهامات فيما كان يسمى «بالمدرسة الألمانية»، فبينما كان جيرار يترجم فاوست Faust، قام ج.ج. أمبير من أجل أن يتأهب للتعرف على جوته باستكمال قراءته لويمر Weimar، وأنشأ زافيه مارميه أول مجلة تسمى «ريفو جيرمانيك» Revue Germanique في فرنسا عام ١٨٢٩، لقد أسهم الثلاثة في نشر معرفتنا بآداب الشمال، كما ظلوا مرتبطين بذيوع الفكر الألماني في الرومانسية الفرنسية. ولكنهم لم ينغلقوا داخل الشمال وحده، فإذا تأملنا التاريخ الأدبي سنرى أن الثلاثة توجهوا في نفس الوقت تقريبًا إلى الشرق: فجيرار ذهب إلى مصر من الفترة ١٨٤٣ حتى ١٨٤٤، وقضى ج.ج. أمبير فيها ما بين ١٨٤٤ إلى ١٨٤٥، وكان وجود زافيه مارميه في الفترة ما بين ١٨٤٥ إلى ١٨٤٦. وفور عودتهم إلى فرنسا، قاموا بنشر انطباعاتهم، ورحبت «لاريفو دي دوموند La Revue des Deux Mondes» بنشر «رحلة إلى مصر والنوبة» Le Voyage en Egypte et en Nubie لـ ج.ج.أمبير في نفس العام الذي نشر فيه نرفال «نساء من القاهرة» Femmes du Caire ومشاهد من الحياة المصرية Scénes de la vie égyptiennes.

I

حينما وصل جان جاك أمبير إلى مصر، طلب منه محمد علي، في إطار كثير من الأشياء التي طلبها، تفقد مدرسة العلوم التقنية، وكان محمد علي يدرك جيدًا كيف يجامل الأوربيين وينتفع منهم أيضًا، وكيف يبدي لهم الاحترام والإجلال ويستفيد من آرائهم.

واعترت الزائر رهبة من قبول الدعوة: «أجبت على الدعوة قائلا إن أبي كان قد حقق شرفًا لا أستطيع أن أصل إلى مستواه، وإنني طلبت من سموه الإذن بالسماح بإعفائي من المهمة التي لا تؤهلني دراستي للقيام بها، كنت مضطرًا - مع مراعاة الاحترام - أن أصر على موقفي في مقابل إصرار الباشا المبالغ في التقدير على مطلبه، وذلك لكي أتلافى

الوقوع في موقف سخيف عندما أناقش الطلاب وأساتذة المدرسة برناسة م. لمبار M.Lambert، في مواد لم أسمع بها من قبل»[١].

في الواقع أن جان جاك أمبير لم يرث من والده المشهور أي ميول لدراسة العلوم. فقد ولد في مطلع القرن التاسع عشر في ٢١ من أغسطس ١٨٠٠. عاش فترة شباب قلقة وغير مستقرة، كان متمردًا على الدراسة النظامية، عصبي المزاج، حساسًا للشعر، لديه طموحات خفية دون تحديد واضح، وإرادة مرتبطة بنزعة الكآبة المعاصرة. كان يحب قراءة لومبرمان L'Obermann لسينكور Sénancour، ورتر Werther لجوته، ومانفرد Manfred لبيرون، وكان يكتب بعض المسرحيات التراجيدية، كما كان مفتونًا وهو في العشرين من عمره بحب مدام ريكاميه Récameir التي كانت في الأربعين من عمرها، وكان قلبها أسيرًا لدى م. دي شاتوبريان M.de Chateaubriand وبعد أن صاحبها إلى إيطاليا، تحول حبه الرومانسي شيئًا فشيئًا إلى صداقة حانية، ولم يعد إلا واحدًا من المقربين إليها :

أترك هنا الماضي - سيلتهمه العدم
وألتفت إلى المستقبل
إلى الزمان الذي لم يولد بعد
الزمان الذي يجب أن تنتمي إليه[٢].

تلك هي الحكمة التي كتبها بنفسه وهو في الخامسة والعشرين، عازمًا أن يصبح رجلاً آخر.

وسيصبح قريبًا مأخوذًا بالدراسة والعلم، مشدودًا إلى آلاف المسائل الفلسفية واللغوية والأدبية التي كانت تثير فضوله النهم. ولكن هذا العرق الشعري الذي لم يكن متوازنًا إلى حد ما، لم تتوافر فيه عناصر كافية لتحقيق عمل غنائي يمتد حتى نهاية حياته.

---

(1)Voyage en Egypte et en Nubie éd.1881 , p. 238-239.

وانظر ما ورد حول لامبرت في الجزء الأول ص ٢٦٥-٢٦٦.

(2) Ma Vingt-cinquème année" heures de Poésie .

«سنواتي الخمس والعشرون» ساعات الشعر

«كان يكمن بداخله شاعر يظهر بغتة، فيقدم أكثر مما نتوقع، يغني للنيل ولطيبة ولمفيس في العصر الذي بدأ فيه فك رموز الحروف الهيروغليفية، يتنهد بقصيدة رثاء في الوقت الذي كان يُظنُّ فيه أن كلَّ ملامح الاكتمال العتيقة قد انقطعت مع الأعراف الأدبية الرومانية»[١]. وكان فوريل Fauriel العالم وأستاذ الآداب المقارنة بجامعة السربون هو الذي وضع حدّاً «لهذا الفوران الشعري دون هدف محدد» وهو الذي وجهه إلى النقد وفقه اللغة. على هَدْي نصائحه، تعلم اللغة السنسكريتية مثل صديقه - شقيق الفيزيائي الشهير فيلجونس فرنل Fulgence Fresnel[٢] الذي تعلم العربية. في أثناء انضمامه إلى الأعضاء المتحمسين لجريدة لوجلوب[٣] شرع في الترحال، في بادئ الأمر، دفعته ميوله إلى بلاد الشمال، ففي عام ١٨٢٧ زار ألمانيا حيث استقبله جوته، ثم زار الدنمارك والسويد والنرويج ليتمكن من جمع الأساطير والأشعار الشعبية من موطنها الأصلي. في برلين تولدت لديه الرغبة في السفر إلى مصر خلال لقائه بشامبليون أمين سر متحف الفنون الجميلة الذي أصبح قريبًا لمدام ريكاميه، ولشارل لنورمان بالمصاهرة[٤]. في عام ١٨٣٠ عين أستاذًا في مدرسة ثانوية في مارسيليا وانشغل بتحليل الملحمة الألمانية نيبلنجن Nibelungen[٥] والملحمة الإغريقية الإلياذة، كان يبحث في تحديد التشابه الذي يوجد بين ملاحم الشمال البدائية وقصائد هوميروس.

---

(1) Sainte — Beuve , Nouveaux Lundis , t. XIII.189.

(٢) فيلجونس فرنل Fulgence Fresnel قنصل في جدة، اقام في القاهرة عام ١٨٤١، وارتبط بصداقة مع د. برون Dr. Perron صديق نرفال. انظر Victor Schoelcher، مرجع سبق ذكره، ص٤٩ .

(٣) جريدة فلسفية أدبية سياسية، استهلها في سبتمبر ١٨٢٤ ب. ديبوا، و ب.لورو P. Dubois et P. Leroux وهي جريدة معارضة في عصر إعادة الملكية في فرنسا وهو العصر الذي تلا إعادة أسرة البوربون للعرش بعد سقوط نابليون وانهيار إمبراطوريته. توقفت الجريدة عن الصدور بعد عام ١٨٣٢ (المترجم) .

(٤) في خطاب إلى مدام لنورمان في ٢٥ مايو ١٨٢٧، كتب ج.ج. امبير يقول: «الا نستطيع ان نذهب معًا إلى هناك لتأسيس مدينتنا في بعض الواحات بالقرب من ممفيس» (خطاب لم ينشر Fonds Lenormant . Paris)

(٥) ملحمة المانية كتبت في النمسا في بداية القرن الثالث عشر وهي تضم تسعًا وثلاثين اغنية في جزاين، وتعود النواة الأولى لهذه الملحمة إلى القرن السادس حيث انتشرت عند الشعوب الجيرمانية، وإذا كانت الإلياذة الشعرية تتكون من فصول وشخصيات فإن Niblungenlied تمثل حالة اكثر ادبية واكثر غنائية وقد طبعت عام ١٧٧٥، ووجدت لها أصداء شعبية في الفترة الرومانسية، وقد استوحى منها فاجنر بعض أعماله الموسيقية (المترجم) .

ومن هنا بدأ أمبير في توسيع مجالات بحثه اللغوي ولم تكن أمامه إلا خطوة واحدة فاصلة وسرعان ما اجتازها. كانت دائمًا تؤرقه مشكلة العلاقة بين شمال أوروبا وجنوبها، وبين أوروبا والشرق، ألم يكن قد كتب من قبل إلى شارل لنورمان Charles lenormant في السادس من نوفمبر عام ١٨٢٨ قائلاً: «في الوقت الذي قضيت فيه طفولتك بين الأقباط ومع اللغة الهيروغليفية، كنت أتقدم دائمًا نحو الشمال وباندفاع هذا التقدم لحقت أخيرًا بك في «شرقك» الذي نصل إليه من جميع الجهات»(١). وليس من الغريب إذن أن يتعلم اللغة الصينية والعربية وأخيرًا اللغة الهيروغليفية. فقد كان يمتلك استعدادًا خاصًا لتعلم اللغات. «لم يكن لديه إلا الرغبة في الدخول مباشرة إلى عالم الآداب الشرقية»(٢). كان الباب مفتوحًا على مصراعيه أمامه من خلال صديقه المستشرق الشهير مول Mohl ففي خلال سبعة عشر عامًا من عام ١٨٣٠إلى عام ١٨٤٧، عاش أمبير بجانبه، فكان يسكن في شقة ملاصقة له، يتواصلان، ويجتمعان حول مصباح، ويتقاسمان سهر الليالي في الاجتهاد والانكباب على العلم، يطرح أمبير عليه نتائج أبحاثه، ويلاحقه بالأسئلة، ويسترشد بكل حب وأخوة بنصائحه. «وفي هذا المعنى قال سانت بيف Saint Beuve إنه لمن الخسارة دون شك أن أمبير لم يثابر وراء هدفه، ولم يتخذ له دربًا يسير عليه، كان عليه أن يتتبع طريقه، ولكنه لم يكن أوجين بيرنوف Eugène Burnouf، كانت مواهبه متعددة متنوعة ومتحركة، وكأنه سفر مُتَنَزِّه مطوِّف»(٣). كنا نراه يطوف بجدية أيضًا بين عوالم الأدب الفرنسي ما دام كان يحل محل فوريل ثم فيلومان Villemain في السربون في الفترة ما بين ١٨٣٢ إلى ١٨٣٣، وكنا نعتقد أنه سيستقر عليه. وسيتأثر بهذا المجال نظرًا لتعيينه أستاذًا في الكوليج دي فرانس عام ١٨٣٣ وإلى إصداره كتابه «تاريخ الأدب في فرنسا قبل القرن الثاني عشر» Histoire Littéraire de la france avant le XII siècle في الفترة ما بين 1839 - 1840، ويعد هذا الكتاب أساسًا أوليًا لعلم ضخم أراد له سانت بيف أن يستكمله، وكان هذا يتطلب منه مثابرة هائلة. في عام ١٨٤١، سافر أمبير إلى

(1) Fonds Lenormant , Paris . خطاب لم ينشر.

(2) Sainte - Beuve , Nouveaux Lundis , t. XIII. p. 200.

(3) Sainte - Beuve , loc. cit., p.200

اليونان وإلى آسيا الصغرى (الأناضول) وعاد عن طريق إيطاليا التي كتب فيها «رحلة مخيفة» Voyage dantesque وفي العام التالي، انتخب عضوًا في أكاديمية الكتابة النقشية،وخلال العمل بها راودته كثير من الشكوك في نظريات شامبليون، وأفصح عن آرائه تلك، فقرر بحث الأمر على أرض الواقع، والذهاب عام ١٨٤٤ إلى هذه الأماكن للتحقق من صحة معطيات عالم المصريات الكبير ولمتابعة بحوثه.

ولنقرأ كلمات سانت بيف: «كانت ملاحظات أمبير مباشرة إلى حد ما، فلم يكن مهيأ للنظر كلية للتعبير بقوة عما يراه أمام عينيه. إنه أديب رحَّالة كان يلزمه بعض اللمسات المستمدة من الكتب، فالذكريات والملاحظات أو الإشارات كانت ضرورية له وكانت تأتي لترتبط بما يراه كي تمتلكه وتضع له حدودًا، وعندما كان يعثر على الملمح الذي يستهويه، كان يبدو سعيدًا. كانت نظرته العامة حقيقية، وكانت ريشته تعبر بدقة عن مظاهر الأمكنة، و تحس بها.. فالذوق لديه يعوض الأحاسيس، ولكن الأمر كان مختلفًا بالنسبة لمصر فلم يكن يعشقها فقط باعتباره هاويًا أو سائحًا، ولكن حبه لها كان مزيجًا من وله العاشق وتطبيقات العالم. إن قراءة قواعد اللغة التي وضعها شامبليون والتي اكتشفها أمبير صدفة ذات يوم كانت أشبه بدعوة إلهية مباغتة لا تقاوم، فأصبح أمبير بين عشية وضحاها مريدًا للعالم الشهير ومنافسًا للبسيوس Lepsius، وانكب على هذه الدراسة الجديدة التي ادعى أنه سيسافر إلى أرض الواقع للمضي قدمًا في اكتشاف الجديد فيها وليس فقط للتحقق مما لديه من معلومات، وعندما انتابته هذه الرغبة المضطرمة، لم يكن أمامه إلا أن يضع نفسه في مجرى الأحداث فحصل بسهولة على منحة من وزير التعليم الرسمي م. فيلمان M.Villemain الذي عين عالمًا رسامًا كمساعد له لمرافقته، وفي غضون شهرين أو ثلاثة أشهر كان الأمر أشبه بحمى وولع جنوني وصراع بين العلم والشعر، وكأنها حالة انتشاء وسكر لكل ملكاته المحتدمة»[1].

وقد أكد أمبير ذلك في مقدمته: فلقد كان الهدف من رحلته السريعة التي امتدت من نوفمبر ١٨٤٤ حتى فبراير ١٨٤٥ «هو تطبيق منهج شامبليون والتوسع في اكتشافاته إن

(1) Sainte – Beuve . loc. cit., p.240-241.

تمكن من ذلك، والذهاب إلى مصر والنوبة لدراسة آثارها الأساسية على ضوء هذه المنارة المضيئة منذ خمسة عشر قرنًا، والتي أعاد إشعالها مرة أخرى من أجل العالم». ولكنه لم يكن إنسانًا يعزل نفسه داخل فكرة أو مسألة بعينها. ففضوله وذكاؤه الوقّاد، ومتطلبات عقله الموسوعي وثقافته العامة ستتأكد في مصر من خلال عناصر أخرى.

«فمصر التي أيقظت كل ذكريات الماضي العظيمة ما زال حاضرها ومستقبلها يثير الاهتمام.. هل هناك بلد آخر في العالم يمتزج بأجزاء من تواريخ البلاد الأخرى ويختلط بها أكثر من مصر ؟ فالتوراة، وهوميروس، والفلسفة والعلوم، واليونان، وروما، والمسيحية، والبدع الدينية، والرهبان، والإسلام، والحروب الصليبية، والثورة الفرنسية، كلها تقريبًا وما وقع من أحداث جسام في العالم تلتقي في الطريق الذي يعبر هذا القطر التاريخي»[1]. أين نجد مدينة كالإسكندرية أرسى قواعدها الإسكندر، ودافع عنها سيزار، واحتلها نابليون[2].

ويعد كتاب جان جاك أمبير في بعض مقاطعه كتاب شاعر كما يعتبر على وجه الخصوص كتاب عالم مصريات مؤرخ. فالمؤلف يدون انطباعاته الشخصية في تلقائية وعفوية، يقص ما رآه وما أحس به، ولكنه في الوقت نفسه يضيف ما تعلمه وما يعرفه. وحسب عبارة ألبير دي بروجلي Albert de Broglie التي تبلغ مدى كبيرًا من الصحة، فإن أمبير يعد من أكثر الأدباء قربًا إلى العلم، ومن أكثر العلماء قربًا إلى الأدب. فهو يكثف بصورة منظمة نتائج أبحاثه المعاصرة، ويجعل منها نقطة انطلاق معلوماته المكتسبة. ووفق الترتيب الزماني فإن رحلته تقع بين رحلتي جيرار دي نرفال التي قام بها عام ١٨٤٣، ورحلة فلوبير إلى مصر عام ١٨٤٩، ومع ذلك فإن رحلته لا تتشابه معهما إطلاقًا، فلم تكن هروبًا إلى حلم أو محاولة للتداوي مثل رحلة نرفال، كما أنها لم تكن تحررًا من الرومانسية مثل رحلة فلوبير، لقد كانت بعثة أثرية، ومهمة دراسية شاقة «فلم يكن أمبير ليتخلى عن هذا العطش الذي لا يروى والذي أنهكه وأجبره على ترك كل شيء من أجل الاستجابة له»[3].

(1) Voyage en Egypte et en Nubie , éd 1881 , p. XVII.

(2) Id., p.22.

(3) Sainte - Beuve , loc. cit., p.241.

لقد ظل دافع الرحلة دافع إنسان رومانسي، فكل معرفة تمثل لديه هدفًا في الحياة، وكل دراسة جديدة تبدو له عالمًا جديدًا. إن ثمة رغبة وتوترًا، نهمًا شديدًا يتقاسمه أمبير مع فاوست في رواية جوته، ولكن جذوة هذه الحمم المنثالة خمدت. فإذا اضطرم الإلهام، وإذا احتدم الاستعداد فإن التنفيذ، في المقابل، يكون صحيحًا منهجياً،ولكنه غالبًا ما يكون غائمًا وباردًا.

فلم تكن موهبته الرقيقة قوية وأصيلة بدرجة تجعلها قادرة على أن تتخلق لغة وإيقاعًا كما هو الحال عند شاتوبريان Chateaubriand، أو ميشيليه Michelet. كان أمبير حكيمًا وحذرًا، أكثر مما ينبغي، مفرطًا في عداوته للتصنع والادعاء، لكي ينحت لنفسه أسلوبًا خاصاً، لم يكن «واحدًا من هذه الطبائع المهيمنة التي نلتقي بها بطريقة طبيعية»[1]. وفي جملة واحدة، لم يكن لدى أمبير ملكة الإبداع، فقد استنفد جل طاقته في البحث ولم يتبق شيء منها للإنجاز. وفي عبارة وردت في كتاب سانت بيف تصف أمبير وصفًا لاذعًا: «عندما أرى أمبير وعلمه الواسع وذكاءه وخياله وحضوره وإشراقه فإنني أفزع من كم الصفات التي لا تخلق فنانًا»[2]، إنها كلمات قاسية ولكنها الحقيقة في كثير من أوجهها، فإذا صار الشاعر بسهولة عالمًا لغوياً فإن الأمر لن يكون مشكلة، لأنه ليس لديه الخامة الأساسية لشاعر كبير. فالرومانسي الرصين سيكتب قصة رحلة تضم كثيرًا من الحكم أكثر من الرومانسية، وكتابه العلمي، على الرغم من طابعه الانفعالي، لا يختلف كثيرًا عن كتابه «مراسلات الشرق» Correspondance d'Orient، الذي كان صاحبه مدينًا لقلم جوزيف ميشو Joseph Michaud الأكاديمي، لزميله الجليل.

إن رحلة أمبير تختلف كثيرا عن رحلتي جيرار نرڤال وفلوبير، فإطارها واضح ومحدد، فلم تكن رحلة خاملة فاترة لبعض المعالم، ولكنها كانت بحثًا منطقياً، وعلى الرغم من أنها لم تشمل كل بلاد الشرق، هذا الشرق الممتد على ساحل البحر الأبيض المتوسط الذي يضم اسطنبول ودمشق والقدس والقاهرة، فإن هدفها كان محددًا: القاهرة الفرعونية التي اكتشفها شامبليون.

---

(1) Sainte – Beuve , loc. cit., p.190.

(2) Id., p.225.

II

هل معنى هذا أنه سيرفض مكانه في مصر المعاصرة[١]، لقد كانت القاهرة أول مدينة يلجأ إليها عندما رسا في بولاق مع الرسام المكلف بمرافقته د. بول ديران Dr. Paul Durand، فالرحلة إلى مصر – على حد قول أمبير – هي جزء من عمل مضن، ونزهة في مركب، إنها مسيرة ممتزجة برؤية الأطلال مع بعض الوقفات في الموسكي وجلسات عند الباشا. ومن الوهلة الأولى، انبهر أمبير وانجذب إلى النشاط والحركة والألوان، وصخب الشوارع وصرخات الباعة وصياح الحمير «فكل العقبات التي يمكن أن يجدها المرء في باريس لا تقارن بما عرفه من عقبات في القاهرة»، وأضاف أمبير قائلاً كان بونابرت أول من تجول في شوارع القاهرة، بسيارة تجرها خيول ستة، وقد صنع بونابرت في حياته أشياء كثيرة أكثر مجداً من هذا، ولكنه بالتأكيد لم يصادف ما هو أكثر صعوبة من ذلك. هذه النظرة الأولى التي سحرته بدت وكأنه يعيد قراءة قصص ألف ليلة وليلة، كل ما حوله كان يدخل السرور على نفسه ويبهجه: النافورات، والمشربيات التي كان يطمح أن يرى من خلالها عيوناً لامعة، ساحرة كعيون الغزلان، الأحياء المتنوعة للمدينة العربية بصائغيها، وبنساجيها، وبإسكافييها، والوجوه الطيبة لحلاق ودرويش وحمال، وبائع يجلس واضعاً ساقاً فوق ساق.

وعلى عكس موقف جيرار دي نرڤال، فقد خالط أمبير وجهاء الاستعمار الفرنسي، كما أثنى على بعضهم من أمثال لينون[٢] دي بلفون Linant de Bellefonds، ولومبير[٣] Lambert وكلوت بك[٤] Clot - Bey، وقدَّم وصفاً لهم في مذكراته، وقد جذبته مقتنياتهم الفرعونية[٥]، وشدت انتباهه، أما ما أثَّر في نفسه على وجه الخصوص فهو مقابلة ابن بلده

---

(١) يرجع الفضل في بعض هذه التفاصيل إلى الآنسات إيزيس وسيرس ويصا واصف اللتين درستا كتاب جان جاك امبير في جامعة القاهرة تحت إشرافي.

(2) Voyage en Egypte et en Nubie p.192- voir t.I, p.199 et 266.

(3) Id., p.208- voir t.I, p. 256-266.

(4) Id., p196- voir t.I, p.286-354.

(٥) هذه المجموعة تقاسمها متحف جرونوبل ومارسيليا وهي موجودة هناك حتى اليوم .

«ليون» سليمان باشا Soliman - Pacha الذي قال عنه: «تذكر قائد الجيش المصري بمزيد من الامتنان والعرفان أنه كان قد تعرَّف إلى والدي في ليون، عندما كانا في شبابهما الغضّ» عندما كان والدك يحضر إلى منزلنا في الطابق الرابع ويتناول طعام العشاء مع أمي العجوز وأنا، كنا نجلسه دائمًا في صدارة المائدة ونحتفي به، أما اليوم فهذا المكان يجب أن يكون لابنه[١].

وعلى غرار الرَّحالة البارزين تلقى أمبير دعوة إلى القلعة من محمد علي الذي بدا عجوزًا قويًا، لا يزال ممتلئًا بالحيوية... ثابتًا على قدميه «وجهه مميز دقيق، ينمُّ على ذكاء شديد»[٢]. وقد حاول أن يكوّن انطباعًا عن شخصيته وعن أعماله. وعلى العموم، فإن تقريره الذي بذل قصارى جهده ليكون غير متحيز، كان حادّاً، وقاسيًا ويناقض موقف مارمون Marmont، وكلوت بك المفعم بالثناء والتفريط. «لقد أسرف محمد علي في القهر كما أنه أفقر البلاد التي انتفع منها: هذا هو في اعتقادي اللوم الشديد الذي نستطيع أن نوجهه له»، وعلى الرغم من ذلك، فإن أمبير حرص على إنصافه في بعض القضايا، فقد اعترف بقيمة مبادراته دون أن يغض الطرف عن ظلم إدارته ومغالاتها. كما أنه أشاد بالتحسينات المهمة التي أدخلها على البلاد. فإذا كان قد أنشأ مستشفيات، فهذا حتى لا يفقد عددًا كبيرًا من الجنود. وإذا كانت مجهوداته لتحسين الزراعة ترجع بالنفع الشخصي عليه، فإن البلاد ستستفيد منها. ومع ذلك، فإنه لم يكن بوسعه أن يرفض محاولات الباشا المشهودة لنشر التعليم داخل دولته حتى إذا كانت هذه المحاولات تبذل بقليل من الفطنة، وحتى أيضًا إذا كان هناك بعض الطلاب لا يتلقون إلا تعليمًا فنيّاً غير متقن ويعدون مبتدئين، وإذا كان ثمة آخرون يتجرعون معارف وعلومًا نظرية ليسوا في حاجة أبدًا إليها. كما أن دروس العلوم تسعى برتابة إلى تكوين صناع وحرفيين. وتظل دروس الآداب واللغات الحية ضيقة الأفق تتحرك في إطار التقاليد المدرسية،والاستخدام الشكلي للصور والمجازات البلاغية السطحية.

---

(1) Voyage en Egypte et en Nubie p.210- voir t.I, p.208-209,257,268,281,353.

(2) Id., p.238.

ذات يوم عندما كان ج.ج. أمبير في زيارة للمدرسة التي يقودها الشيخ رفاعة، طلب من تلميذ «نوبي» شديد السمرة من الأقصر «قراءة فقرة من كتاب ج. ج. روسو J.J. Rouseau حول «نهم الإنسان الشره للتنقيب في أحشاء الأرض بحثًا عن الثروة، بينما توجد كل الخيرات فوق سطح الأرض»[1]، وقد حدث هذا الموقف في فترة حرجة إذ كان محمد علي يرسل فيها بعثات التنقيب إلى سيناء والسودان بحثًا عن مناجم الذهب والزمرد !

«سيدي، هل يمكن أن توضح لي رأيك فيما قرأته الآن ؟ وأمام هذا السؤال أحاطت بالوجه الأسمر الذي ظل يثبت نظراته علي دهشة كبيرة، وحاولت أن أهدئ من روع التلميذ المصري بإعادة السؤال في صيغة جديدة: هل تعتقد أنه من الجرم أن نطلب من أحشاء الأرض أن تخبرنا عن محتوياتها ؟ وران الصمت نفسه، وأخيرًا تحرك الوجه الأسمر وتقلص، وبعد محاولات مجهدة خرجت من الفم الصامت كلمة «استعارة مكنية»، وهكذا يبدو أن قيمة تعبير روسو يكمن في أنه «استعارة مكنية»!![2].

كان هذا التلميذ المصري أكثر سعادة من أستاذ في الكوليج دي فرانس لمجرد اكتشافه أن تعبير روسو به استعارة مكنية. هل كان هناك شيء أفضل من مجرد دراسة الصور البلاغية؟ دون شك، ولكن واقع التعليم كان يشير إلى وجود بعض الصعوبات في الشرق في المحافظة على المسافة نفسها بين شكليات التعليم ومعطياته.

وعلى الرغم من عدم إنكاره للدور الحضاري لمحمد علي، فإن ج. ج. أمبير - ولم يكن في نبوءته على حق - كان يعتقد أن محمد علي ليس بعيد النظر، وأن مستقبل الأسرة سيكون موضع المساومة، فالأبناء - كما بدا له - ليست لديهم مقدرة على متابعة مشاريع الأب، وأن أوروبا عاجلاً أم آجلاً ستتدخل لإنقاذ مصر، وها هي إنجلترا ستأخذ المبادرة لاحتلال مصر..

«فمصر بالنسبة إليها خطوة على طريق الهند، وكان عليها تأكيد رغبتها في الاستيلاء عليها» نبوءة غير متفائلة، ولكن كان نصيبها من عدم التحقيق قليلاً.

---

(1) Voyage en Egypte et en Nubie. p. 258-259 . cf.t.l. p.288.

(٢) في مسودة مخطوطة هذا الفصل الذي وجد في مكتبة المعهد، اضاف امبير: " إنه مشهد يكفي لتعويض المتعة التي يفقدها مسافر لم ير مسرحيات موليير لمدة ستة اشهر، (MS.4444. p. 30).

III

إن مشاكل الماضي لم تحجب في ذهن جان جاك أمبير التساؤلات التي يطرحها الحاضر وشواغل المستقبل، فالهدف الرئيسي من رحلته كما رأينا، هو دراسة الآثار الفرعونية، وهذا - كما نحس - كان اهتمامه قبل كل شيء، كان منجذبًا إلى حب مصر القديمة حتى وهو يعيش في قلب مصر الحديثة، كان يحاول دائمًا أن يتتبع ما يمكن أن يبقي على العادات القديمة، ولكي يعثر على هذا العالم الغابر سيتخذ من أطلاله ومعابده ومقابره مقرًا لدراسته، ويمكن للمرء أن يجد لديه موسوعة ضخمة مجسدة للوجود المصري كله.

لقد أعد أمبير بعناية لرحلته، فقد قرأ كبار الكتاب الإغريق والرومان، وهو يستشهد غالبًا بعبارات هوميروس وديودور دي سيسيل Diodore de Sicile، وهيرودت Hérodote، وسترابون Strabon، والفلاسفة السكندريين، وقد قرأ تقريبًا معظم كتب الرحالة الذي سبقوه أمثال الأب فانسلب Vansleb، ودي مايي De Maillet، وسيكار Sicard، وفولني Volney، وڤيڤان دونان Vivant Denon، وقرأ كذلك لبعض المؤرخين العرب مثل عبد اللطيف[1] Abdellatif، والجبرتي Gabarti، لكنه على نحو خاص اهتمَّ بقراءة علماء المصريات المعاصرين مثل شامبليون، وبلزوني Belzoni، ولترون Letronne، وبريس دافين Priss d' Avennes، و لبسيوس Lepsius، وويلكنسن Wilkinson[2].

---

(١) عبد اللطيف البغدادي (المترجم).

(٢) بدا واضحًا ان امبير استشار ولكينسن Wilkinson اثناء الصياغة النهائية لكتابه في قصر موشي Mouchy بعد عودته، وعلى الرغم من ذلك، فإن امبير كان مطلعًا على كل الأبحاث الخاصة بفقه اللغة الفرنسية. وفي خطاب لم ينشر أرسله امبير من القاهرة إلى مول كتب: «اخبر للسيد لترون Letronne اننا لن ننساه في دندرة وفي طيبة، تحدث عني إلى اصدقائنا لونورمان Lenormant، وبورنوف Burnouf، وسولي Sauley وقل لسولي إنني اهتم بالكتابة الديموطية «هي كتابة بأحرف متصلة استعملها المصريون القدماء بعد الهيروغليفية في حياتهم اليومية» (المترجم)، «وإذا رايت السيد ڤيليمان ابلغه انه على الرغم من ان الرحلة لم تبدأ حقيقة من هنا، فإننا قد عكفنا على العمل والنقل والرسم وتتبع الآثار من قبل...» مكتبة المعهد الفرنسي، مراسلات مول، ٢٩٧٥.

لم تكن الإسكندرية هي مصر التي يبحث عنها، لقد كانت بالنسبة إليه امتدادًا لبلاد الإغريق، وفي المقاطع والفصول التي خصصها لها تظهر بوضوح، ويعاد تأكيد ظهورها دون توقف على أنها مدينة إغريقية تمّ نقلها إلى مصر. فهي إغريقية بفلسفتها، إغريقية بأدبها، إغريقية بأفكارها، بعاداتها، بعلومها.

وقد كتب ج.ج. أمبير وهو يغادر بلاط البطالمة: «هنا كنت في بلاد الإغريق، وسأدخل غدًا مصر حيث سأرى الأهرامات»! ونستطيع أن نتصور أيَّ قدر من الفضول ومن اللهفة والسعادة كان لديه عندما رحل إلى مصر العليا في الأول من يناير عام ١٨٤٥، ولكن بدءًا من هذه اللحظة بدأ اشتباك العلم والطبيعة، وها نحن نرى شاعرية وغنائية ١٨٢٠ تنبثق من جديد في نفس أستاذ الكوليج دي فرانس، وصاحب النظريات وعضو الأكاديمية. وقد ألهمته رحلته النيلية صفحات ساحرة يمكن أن تنسب إلى واحد من كبار الكتاب. «عندما يتوراى النجم في الغرب، تتخضب السماء بلون زعفراني، لون الفجر في ملحمة هوميروس، ويكاد الضوء ينبلج من الشمال ومن الجنوب معًا، وتتشرب قبة السماء الزرقاء بخضرة زنبقيات الشرق، ولا يغلب سواد الليل على أيِّ بقعة، وعندما اقتربنا من النهر تبادر منه إلى أسماعنا ما يشبه صخب البحر أو هدير شلال بعيد، واختلطت معه اهتزازات سعف النخيل تدفعها الرياح. سحب من الطيور المائية تحلق فوق النيل، تتماوج وتتلاحم وتتناثر، رائحات وغاديات كأنهن أمواج في دوامة كبرى في النهر، ويحاكي بياضها بياض الزبد على صفحة الماء وكأنها صخور متحركة تتكسر عليها الأمواج، وفجأة يسقط الليل»(١).

كان أمبير يستمتع وهو يتهادى على سطح النيل الواسع الهادئ وتحت السماء الرحبة الساكنة، تجذب أنظاره الأشياء المتناثرة هنا وهناك: سرب من الجمال يسير على الشاطئ؛ جزء من قرية يلوح أثناء انحناء النهر، دير قبطي في الفضاء الصامت، مجموعة من القوارب تهبط إلى النيل، وكانت أغاني البحارة تقتحم أحلام يقظته. «كنت أخاف من طول تلك الأيام على سطح النيل، أشعر الآن أن التعوُّد كان ينبغي أن يخفف انجذابي قليلاً نحو سحر المكان لكي أكرس للعمل الساعات القليلة المتاحة لي».

(1) Voyage en Egypte et en Nubie, p.290.

كان أمبير يترك نفسه لسحر النيل، ينام على الطريقة الشرقية متكئًا على الوسائد، يدخن النرجيلة، يشرب القهوة التركية، يكتب الأشعار:

«في قاربي تمتد جبهتي نحو النجوم.
أترك أشعاري تنساب مع أنفاس الليل.
أنفاس تتهامس وهي تلاعب الأشرعة.
أترك أشعاري للضفاف التي تمر وللأمواج التي تهرب».

وأحيانًا كان أمبير يصف المشاهد المتنوعة أثناء النهار:

«فوق الرمال المبتلة تمتد جنبًا إلى جنب
الجواميس بشعرها الأسود وأرجلها الثقيلة كأرجل الأفيال.
والنسوة يتهادين ببطء نحو الشاطئ.
يحملن على رؤوسهن الجرار وعلى أكتافهن الأطفال».

وأحيانًا أخرى كان أكثر تأثرًا بظلال أغنيات الطبيعة في المساء:

«عندما يحل الليل ويثور الهواء، نحتمي بالشاطئ.
وتتناثر أغنيات متباعدة للبحارة.
ثم يسكن كل شيء وتشق جدار الصمت صرخة حزينة موحشة
نشحن البنادق، نختبئ، ننام.
وعندما نستيقظ في اليوم التالي نستمع صمت السهول وصوت البجع
الذي يتمطى وهو يستيقظ
ونباح الكلاب في الكبائن البعيدة
وشوشات النهر الكبير الذي ما زال نائمًا»[1].

وأيًا ما كانت طبيعة التعبير عن هذه الانطباعات الشعرية العفوية، فإن ج. ج. أمبير نفسه كان يندهش منها. «منذ زمن طويل لم يحدث لي شيء هكذا، كنت أعتقد أن نضج السنين قد حماني من تهويمات الشباب، كنت أعتقد أنني مطمور تحت شواغل اللغة

(1) Le Nil. Voyage en Egypte et en Nubie, p.350-355 .

الهيروغليفية»[1]، الفضائل الخالدة لنهر النيل، المعجزة الملهمة لمصر والمجددة لشبابها، لكن العالم ابن الخامسة والأربعين يستعيد غنائية شبابه الشعرية، ويتناغم معها، لكي يغني في قصائده للنيل، ولانتظار طيبة، ولملامح طيبة الأولى، ولجزيرة فيلة، وللشلال الثاني، وللنوبة.

«الجبال السوداء المكللة بالحمم المتساقطة من السماء
تخترق كثبانًا من الرمال في لون الذهب».

ومع ذلك، فإنه كلما اخترق شيئًا فشيئًا أعالي مصر، استعاد العلم حقوقه وتمثل لديه بشكل دائم هدف مهمته، ومن هنا فإنه كان سعيدًا عندما توقف في أسيوط، وزار مدافنها التي كانت أكثر إثارة لديه من مدافن بني حسن، وحتى بسبب حالة التدمير التي لحقت بها والتي لم تقف أمامها ملاحظات شامبليون ونستور لوهوت Nestor L' hôte[2]وفي دندرة انتهج نظرية شامبليون حول التأمل في البناء «الرائع» للمعابد والتماثيل التي أشاد بها - ولوا Jollois و ڤيلييه Villiers والتي تبدو الآن «صعبة وغير واضحة» في نظر عيون الباحثين. وقد استفاد منها أيضًا في تلخيص النقاش الدائر حول علوم الفلك. ولكنه خصص لوصف طيبة أكثر أعماله منهجية.

ولكي يقود قارئه في رحلة التيه الضخم الغامض للمعابد والأطلال، اتخذ بعبقرية نقطة انطلاقه من «بعض الآثار الموجودة في باريس مقارنًا إياها بالآثار في طيبة». فنهر السين عندنا يماثل تقريبًا نهر النيل، وفي عبوره من جانب إلى آخر، رتب فوق الشاطئ الأيمن مجموعتين من الآثار، الأقصر في موضع الكونكورد، والكرنك في ناحية ميدان إتوال، وربطهما معًا بطريق الكباش الذي يشبه شارع الشانزليزيه، وعلى الشاطئ الأيسر، توجد ثلاثة معالم: الجورنة التي توازي مكان المدرسة العسكرية في باريس،وتماثيل رمسيس التي توازي حديقة لوكسمبورج، ومدينة «أبو» التى توازي متحف باريس[3]. وحول نقاط الانطلاق الرئيسية الكبرى هذه، نظم لقارئه رحلة أثرية دقيقة بالاستفادة من

---

(1) Voyage en Egypte et en Nubie, p.350 .

(2) Voyage en Egypte et en Nubie, p.358 .

(3) Id.p. 358 .

إرشادات نخبة من علماء المصريات أمثال شامبليون وبريس دافين، وش. لونورمان Ch.Lenormant وويلكنسن ولبسيوس «الذي التقى به في المنطقة وأرهقه بتساؤلاته الكثيرة».

ولن نستطيع الدخول في التفاصيل التي لا تهمُّ علماء المصريات، ومع ذلك فينبغي أن نلفت النظر إلى أهمية ما كتبه أمبير باعتباره كاتبًا محترفًا، فللمرة الأولى يتم تجسيد آراء بريس دافن حول تقدير أصالة النقوش المتصلة بإخناتون وحول أسلوبها الواقعي الذي سيسمى فيما بعد أسلوب تل العمارنة: «وفي كل مكان تظهر فيه شخصية إخناتون الغريبة، يلاحظ أنها تؤدي طقوسًا للشمس مرسومة بطريقة غريبة من خلال يدين مبسوطتين إلى أشعة الشمس. ومما يضيف أهمية إلى هذه النقوش أنها تقدم في مجال الفن طابعًا مختلفًا كلية عن الملامح المشتركة للآثار المصرية. فهذه النقوش تحتوي على قدرٍ أقل من صرامة الخطوط والملامح المتعارف عليها في الآثار المصرية،والتعبير نفسه يكاد يصل أحيانًا إلى مشارف فن الكاريكاتير، فهنالك الأبقار التي رسمت بحرية غير معهودة، مفعمة بالحركة والحياة، نقلها بريس من على حجر في مدخل معبد حورس.. فمن أين أتى العرق المجهول والغريب الذي يعبر الطبقات المنتظمة للتسلسل الزمني للفن المصري؟»(١). ومما لا شك فيه أن ج.ج. امبير التقط بعد بريس دافين الأهمية التاريخية والفنية معًا لظاهرة إخناتون التي جذبت اهتمام أكثر الشراح حداثة، وحول هذه النقطة كما هو الشأن في نقاط أخرى كثيرة، صنفت الظاهرة بين أكثر ألوان الظواهر الفنية ريادة. إن نفاذ نظرة أمبير ووضوح رؤيته يجعلنا نشارك ف. دي سولي F.de Sauley الأسف على أنه لم يتقدم إلى منطقة اكثر عمقًا على الأرض التي فتحها في مجال علوم المصريات(٢).

---

(1) Voyage en Egypte et en Nubie. p374-375 Cf. aussi t.I p. 311 et 367.

استفاد ج.ج. امبير من ملاحظات بريس دافين الشفوية والمدونة كما اعتمد على الفصل الذي كتبه حول مجموعة ابو Abbott وكلوت بك والتي صدر تحت عنوان «الحياة في القاهرة»

La vie au Caire. La Revue des Deux Mondes. du I er mars 1847.

اعتمد على مقال بريس الذي خصصها لنفس المجموعة في مجلة Revue Archéologique du 15 mars 1846

(٢) مقدمة طبعة كالمان Calmann عام ١٨٨١ p. VIII.

هل استطعنا أن نتابع كل خطواته في مصر العليا وفي أرض النوبة؟

في أرمنت، وإسنا وإدفو وجبل سلسلة وفيلة وكلابشة، وأمادا، ودير، وأبو سمبل؟

«في طيبة تتمدد الكباش في الرمال وتنتصب المقابر
مشكلة ممرًا واسعًا من الحجارة
يمتد من الكرنك إلى الأقصر.
مثل المعابد التي تحيط بالشواطئ المنعزلة.
صانعة رواقًا مهيبًا
بمداخل رائعة.
وبتماثيل أبو سمبل الضخمة».

بالتأكيد، فنحن لم نتابعه في كل خطواته، فقد ألحقت به زيارة المعابد في النوبة تعبًا هائلاً ومع ذلك كان يتغنى بها. فكان يلزم نفسه بزيارتها كلها، مدونًا عددًا لا يحصى من الكتابات، في الوقت الذي كان يرسم فيه رفيقه د. ديوران Dr. Durand النقوش البارزة، مراجعًا ومكملاً على الطبيعة ملاحظات شامبليون ونورمان وبريس داڤين ونستور لوهوت، مرتبًا وموضحًا كل شيء حتى يضع بين يدي جمهور القراء النتائج التي توصل إليها كبار المتخصصين السابقين عليه، ولم يكن شيء يمكن أن يوقفه حتى المرض الذي بدأ ينال منه. فقد أصابته الدوسنتاريا، ومع ذلك فقد كان يركب كل يوم حماره، ويحمل معه زجاجه ماء وقليلاً من الأرز، ويتنقل من معبد إلى معبد، ومن مقبرة إلى أخرى. وخلال العودة يتمهل قليلاً في طيبة.

«عندما أمر بين الكباش والمقابر.
وأعبر البهو الواسع بأعمدته الضخمة
التي تشبه العمالقة المنتصبة على مائة قدم
وأحيانًا يرتكز بعضها على البعض الآخر.
عندما أرى هذه الحوائط العملاقة،
تنفتح أمامي صفحات رحبة من هوميروس حيث يمتطي الملك مركبته الحربية.
مطيحًا بأعدائه الذين يتساقطون بالآلاف.
مزهوًا والقوس ممتد في يده، كأنه يطير بعجلة سباق.

حتى يحرز النصر وهو يوجه الضربات المنتصرة من قامته العملاقة.
عابرًا كل الرؤوس وكل النظرات القاتلة.
مرسلاً ابتسامة هنية خالدة!...
أقول لنفسي: «لو أن عيني تاملتا سنين طويلة
وتابعت الروزنامة على حوائط الزمن
وشهدت في السماوات ميلاد الشمس وموتها
لن يتاح لها أن ترى أغرب من هذا !»

مسكين أمبير، كان عليه أن يتسلح بهذا الحماس، وتلك المثابرة حتى ينجز المهمة التي أخذها على عاتقه. لكن هذا أثر تأثيرًا خطيرًا على صحته، فقد غادر طيبة ممددًا على سريره في قارب صغير[1]، وكان رفيقه الدكتور ديوران يتولى العناية به بوازع من الضمير. «وقد أفضى إلي هذا الدكتور الطيب وهو يتمثل وجه معشوقته سيزوستريس، أنه من الصعب في جو مثل جو مصر أن يتعافى المرء من الدوسنتاريا ولكن مواصلة الحياة ذاتها ممكنة بل وأسهل مما نعتقد»[2].

ولم تكن حالته مشجعة،ولم يكن جان جاك من ناحية أخرى مريضًا مطيعًا، ومع أن الراحة التامة كانت مطلوبة عليه، فقد تجرأ مرتين على الأقل على قوانين هذه الراحة أثناء رحلة الهبوط في النيل من جنوب مصر عندما زار «كهوف تل العمارنة المثيرة للفضول» ومقابر بني حسن «وضعت على ظهر حمار وكنت متدرعًا بالأربطة والألزقة الطبية وعبرت السهل المترب الذي يفصل الكهوف عن النهر، ولم يجدوا في بني حسن حمارًا أتجول عليه، وبما أنني كنت في حالة صحية لا تسمح لي بالوقوف لفترة طويلة على قدمي، فقد وضعوني على كرسي وحملني البدو،ويبدو أن ضعف حالتي الواضح قد أثر فيهم»[3]. وتلك بطولة دون شك ولكنها مهلكة، وينقصها التحوط ! وقد ظهرت مضاعفاتها وتفاقمت

---

(١) تماسكت جيدًا، ورأيت كل شيء، ولم احس انني اصبت ولم اتأثر بالإصابة تأثيرًا جادًا إلا بعد ان اكملت مهمتي.
Correspondance et Souvenirs . t. II . p. 136

(2) Correspondance et Souvenirs . t. II . p. 138.

(3) Voyage en Egypte et en Nubie. p.523 .

الأزمات، فلم يعد أمبير قادرًا على أن يأكل بنفسه، وأصابته الحمى والهزال، وأخذت قوته تضعف يومًا بعد آخر.

وبدأت ريح الشمال تعصف بعنف، وتوقف المركب عن الحركة. وفي لحظة بدا المريض وحيدًا غارقًا في موجة من الملل والإحباط. ورحلة العودة التي كان يتغنى بها شعرًا أصبحت مشكلة بالنسبة له. «وحتى تستقيم أموره مع أي افتراض» أضاف مذاقًا جديدًا في شعره:

«نعم يا أصدقائي، فالعودة ستكون هادئة
نعم، فأنا ما زلت راغبًا في الحب والحياة.
لكن السماء التي أحببتها تلهمني
ارثوا لي يا أصدقائي لأنني سأموت بعيدًا عنكم»(١)

الفرضية لم تتحقق، ولكن الرحلة كانت مؤثرة، وعندما وصل إلى مارسيليا بعد كثير من القلق والتحولات، كان قد فقد القدرة على استخدام قدميه، «لقد رأيت شاطئ الوطن ولكن قدمي لم تلمساه أبدًا». ولقد حمل في السيارة التي قادته إلى فندق الشرق حيث كانت المصادفة ترتب له أن يلتقي بعد أيام بأمير الأدب الفرنسي، الذي كان محل إعجابه وغيرته من قبل، أستاذه ومنافسه العظيم شاتوبريان. «جراحي في مصر شفيت ببطء» هكذا كتب في نهاية كتابه. وكان يلزمه في الحقيقة نحو عامين لكي يستعيد توازنه. وفي العام الذي تلا عودته في أغسطس عام ١٨٤٦ سوف نجده في قصر موشي Mouchy في إقليم الواز L' Oise في ضيافة الكونتيسة نوايي Noailles، يتمتع بالرعاية التامة، ويخضع لنظام صحي دقيق. وفي هذا المناخ من الفخامة والضيافة الذي حل عنده محل مقامه في منطقة L'abbaye -au- Bois وبين تنزهاته في الحدائق الواسعة ومقابلاته الاجتماعية، أخذ يراجع، ويصحح مسودات مقالاته حول مصر التي ستظهر في مجلة ريفو دي دو موند.

---

(١) وجد ج.ج.أمبير اسم ش.لونورمان Ch. Lenormant محفورًا على صخرة أبي صير فوق الشلال الثاني فكتب يقول: «يا أصدقائي اعذوروني، بالقرب منكم سوف أنتصر على الأسف الذي يلتهمني نعم، يا أصدقائي اعذوروني، سوف يكون الرجوع هادئًا».

لم تتجمع مقالاته في مجلد إلا بعد موته، وقد تشكل منها كتاب «رحلة إلى مصر والنوبة» الذي سبق أن أشرنا إليه من خلال الحديث عن تاريخ الرحلات الفرنسية، إنه كتاب مليء بالعلم والجاذبية في أسلوب محبب ودقيق حيث نلتقي بالطرائف اللاذعة وبالوصف الشعري الذي يأتي لكي يزين بدقة رحلات التنقيب التاريخية والأثرية. ومع جان جاك أمبير نتلقى المعلومات دون ملل، لكننا لا نستطيع أن نصنفه بسهولة كما كان يحدث لفترة طويلة باعتباره هاويًا أو «عالمًا أكاديميًا»، أو «كاتبًا اجتماعيًا» فلقد كان يؤخذ عليه أنه يشتت مجهوداته على أطروحات شديدة التباين والحقيقة أنه استطاع أن يشارف كثيرًا من الموضوعات بفضولية فكره الموسوعي التي لم يكن يساويها إلا قدرته على الاستيعاب والتمثل. ذكاء شديد الانتشار لكنه ليس سطحيًا؛ لأنه ورث عن أبيه أمانته العلمية وقدرته التطبيقية التي لا تعرف الملل، والتي كانت تدفعه إلى الذهاب إلى عمق المشكلة.

وكان كتابه (رحلة إلى مصر) خير دليل على هذا. كتب ف.دي سولسي F.de Saulcy يقول: «كان أمبير شاهدًا مئات المرات على هذا الجهد الذي يصعب تصوره والذي كانت ثمرته تنسب إلى الأثري الشهير شامبليون اكتشافات جعلت من اسمه اسمًا خالدًا، ولقد لمست هذا بنفسي»[1] لقد عاشت سيرته بقدر ما عاش كتابه، يقرأ حتى اليوم وتستخرج منه الفوائد والمتع. وإذا كان قد أثبت عدة اكتشافات فإنه قد قدم في الوقت نفسه مدخلاً حيًا ومتماسكًا لعلوم المصريات. وكما قال جورج بيرو Georges Perrot: «لقد أدى أمبير خدمة كبيرة لعلوم المصريات وكان لرحلته هدف آخر أكثر من التمتع بالرحلة عدة سنوات ألا وهو كتاباته التي عممت لدى جمهور القراء نتائج اكتشافات شامبليون والتي أعطت الثقة لهؤلاء القراء في المناهج العلمية الحديثة وفي التنقيب والتي لم يطلعوا عليها في كتب الأكاديميين وإنما قرؤوها من خلال كتابات أمبير في مجلة ريفو دي دوموند».

---

(١) مقدمة كتاب Voyage en Egypte et en Nubie، طبعة ١٨٨١، ص IV، V.

أما أنه كان مؤهلاً ليدفع أكثر إلى الأمام الأبحاث المتخصصة فذلك ما تجيب عنه بالإيجاب عدة شواهد مثل خطابه إلى وزير التعليم الرسمي[١] الذي نشر في مجلة «مونيتور» Moniteur العدد ٣٢ مارس ١٨٤٥، ومثل محاضرته الشهيرة بعنوان «محاضرة حول الطبقات الاجتماعية في مصر القديمة Discours sur les castes dans l' ancienne Egypte» والتي ألقاها في أكاديمية الكتابات المنقوشة في الأول من سبتمبر عام ١٨٤٨: «تعتمد مجمل أدلتي على النصوص الهيروغليفية مترجمة وفقًا للقواعد التي وضعها شامبليون للغة المصرية القديمة. أعتقد اعتقادًا عميقًا وراسخًا بصدق قواعده والتي اختبرتها بنفسي من خلال آلاف الكتابات المنقوشة في متاحف أوربا وعلى الآثار المصرية والنوبية»[٢]. وكان يمكن أن يكون - لو أراد - عالم المصريات البارز بعد شامبليون ومقدمًا على ماريت Mariette ودي روجي De Rougé لولا اعتلال صحته. وبدلاً من أن يكتشف مملكة العلوم الجديدة الضخمة والغامضة، فإنه اكتفى - حسب تعبير ف.دي سولسي «بأن يترك الباب مواربًا - بعد أن اقتحمه بشجاعة - أمام أولئك الذي سيأتون من بعده، ويكون لهم حظ أن يغترفوا ملء أكفهم من هذه الكنوز التي يكفي أمبير أنه أطلعهم على حقيقتها وغناها الفائق». لكن من وجهة نظر أخرى يؤسفنا أن نجد هذه الظاهرة ممتدة في مؤلفاته الأخرى في «الكتب الكثيرة التي تحتوي على موهبة وجمال ككل ما كان يتناوله قلمه»[٣].

وفي الحقيقة كما يقول سانت بيف: «فإن الأحداث العامة والوقائع الخاصة لم تتأخر في إرباك طموحات أمبير»[٤]، فهناك ثورة ١٨٤٨، ووفاة مدام ديكاميه وشاتوبريان ١٨٤٩ وتشتت جماعة L'Abbaye - au- Bois وانقلاب عام ١٨٥١، واستقرار الإمبراطورية الثانية

---

(1) Voyage en Egypte et en Nubie, p.559-577 .

(٢) هذه المحاضرة التي القيت في اكاديمية الكتابات المنقوشة نشرت في مجلة Deux Mondes في ١٠ من سبتمبر عام ١٨٤٨ الجزء الثالث والعشرين من ص ٨٣٨ حتى ٨٤٨ في لغة مبسطة، لخص فيها أمبير - على سبيل المثال - آراء هيرودوت وأفلاطون وديودور دي سيسيل التي تم الاعتماد عليها في تصور بناء الطبقات الاجتماعية، وقد عرضها بالتفصيل في محاضرته في الأكاديمية، وكتبها في الفصل العاشر في كتابه عن رحلته إلى مصر والنوبة طبعة ١٨٨١ من ص ٥٤٩ - ٥٥٥، ويحتوي النص الأصلي أيضًا على هوامش عن إحالات إلى نصوص يونانية وهو ما لم يوجد في النص المنشور بمجلة .Deux Mondes

(٣) مقدمة كتاب Voyage en Egypte et en Nubie . - p.VII et VIII.

(4) Sainte-Beuve , loc . cit., P. 242.

التي اعتبرته من كتاب المعارضة، وما أعقبه من منفى اختياري إلى أمريكا (١٨٥١-١٨٥٢)، وامتداد إقامته في إيطاليا حيث شرع في إعداد كتابه «تاريخ الرومان» Histoire Romaine، كل هذا يمكن أن يفسر جزئيًا سر نقص الترابط في مشروع كتاباته. ولكن إذا كان أمبير هو الرجل صاحب الاهتمام بالعلم الواحد (علم المصريات) أو المؤلف صاحب الكتاب الواحد عن تاريخ الأدب العظيم في فرنسا، فإنه لم يظل هاويًا كما كان، بل أكاد أقول ولا واسع الانتشار بالنسبة لقضايا عصره. كان يمكن أن يكون شخصية أخرى غير التي نعرفها كما يقطع سانت بيف «لا يحسب حسابًا لشيء، مرحًا، طليقًا، متقلبًا، مشتتًا أو مضيفًا، مستجيبًا لكل نزعات العبقرية ونفحاتها»[١] لم يكن ليحافظ على إشعاعه، ولو أن طيبة استعادته أو أن باريس امتصته كلية، لم تكن روما لتجذبه «ولم يكن قد مال إلى الهروب من قيود الدراسة الضيقة»، ولو أنه كان لديه قدر أكبر من الانضباط لكان أقل تفكيرًا وأقل بحثًا وأقل حيوية. هل من الوجهة الإنسانية، كنا نتمنى ذلك له؟..

V

ليس من المتوقع على الإطلاق أن نعطي نفس القدر من الاهتمام لانطباعات زافيه مارميه حول مصر لأنها ليست إلا مجرد انطباعات لا تحتل أكثر من مائة صفحة في نهاية كتابه «من الراين إلى مصر» Du Rhin au Nil[٢]، والعنوان الفرعي للكتاب يحمل دلالة خاصة، فهو يحتوي على إشارات إلى أماكن كثيرة: تيرول، المجر، وديان الدانوب، سوريا، فلسطين، مصر.

وعلى نحو ما صنع جيرار دي نرڤال، فإن زافيه مارميه كتب كتابه، ومسار رحلته اعتمادًا على ذكرياته في أوروبا الوسطى والشرق، وهو لم يهتم كما فعل جيرار دي نرڤال إلا بمصر السفلى. لقد كان من كبار الرحالة: «أم أحلم أن أرى وأن أرى، وأنا ما زلت

(1) Sainte-Beuve , loc , cit., P. 263-264.

(٢) كتب فكتور هوجو كتابًا عام ١٨٤٢ عنوانه «الراين» Le Rhin، كما كتب م-دي كوم كتابًا عام ١٨٥٤ بعنوان النيل Le Nil .

شاباً العالم بأماكنه المختلفة، أن أرى في الشمال وفي الجنوب، في الأجواء المختلفة، إنه الحلم الذي أتغنى به، يلهبني ويشعلني» وقد كان لديه كما يقول حنين إلى المكان. وقبل عشر سنوات، كان قد قام برحلة إلى بحار الشمال، استمرت أكثر من ثمانية عشر شهرًا، وعلى غرار ج. ج. أمبير استفاد من هذه الرحلة وتعلم اللغات الإسكندنافية، وعند عودته نشر عدة كتب تباعًا: آداب من آيسلندا (١٨٣٧) Des Lettres d' Islande، وتاريخ آيسلندا (١٨٣٨) Histoire de l' Islande، تاريخ الأدب في الدنمارك والسويد (١٨٣٩) Histoire de la litt-rature en Danemark et Suède. وجذب كتابه المهم آداب الشمال (١٨٤٠) Lettres du Nord انتباه جمهور عريض إليه. «وبينما كان ج.ج. أمبير لا يعرف إلا شواطئ الشمال ولم يخط فيها خطوة واحدة ثابتة»[1]، فإنه يمكن الاعتقاد بأن زافيه مارميه كان سيستقر فيها إلى الأبد، وسيتخصص في دراسة آدابها، والواقع أنه أكمل بعد عدة سنوات رحلاته إلى فنلندا وبولندا وروسيا، ولكنه فجأة تحول برحلته إلى الشرق. إنها رحلة حج إلى أماكن مقدسة يقوم بها صاحب عقيدة في حاجة إلى الراحة والمصالحة مع النفس.

كان زافيه مارميه قد تزوج عام ١٨٤٣ من شابة يتيمة من منطقة فرنش كونتيه، وعرف في هذه الحياة الجديدة إحساسًا خالصًا بالسعادة وبالحنان الفياض، وبعد عشرة أشهر من زواجه اختطف الموت زوجته وطفله الرضيع، وانحنى مارميه تحت وقع الصدمة. وتكبد مشاق رحلات الحج في العام التالي إلى قبور القديسين، وكأنه حاج قادم من عصور الإيمان، يحمل عصا الحجيج ويلبس مسوحه، وكانت رحلته من قبر إلى آخر تحمل له الراحة والسكينة.

وفضلاً عن ذلك، فإن بلاد الجنوب بعد بلاد الشمال، شدت فضوله وجذبته بطريقة غامضة «بعد أن رأيت أقصى ما يمكن رؤيته في شواطئ بلاد الشمال وجبالها الشامخة المهيبة، وددت أن أرى الأماكن التي تشرق عليها الشمس، حيث تتألق قصور السلاطين على ضفاف الأمواج الزرقاء، وتمتد النخيل، ويظلل سعفها العالي الخيام العربية، حيث

(1) Sainte-Beuve . loc . cit.. p. 221.

تلقي الطبيعة الرائعة بأثوابها على سهول الأرض وأطلال الماضي.. إنه حلم شعري ذلك الذي قادني نحو شواطئ البسفور، طموح جاء في إطار الإعجاب بتركيا، شعور ديني في حرم القدس المهيب وصور الأزمنة العتيقة على قمة الأهرامات»[1]، ولا نستطيع ونحن نقرأ زافيه مارميه أن نرفع عن أذهاننا ورود صورة السابان في النرويج في قصيدة الحنين القصيرة لهنري هان Henri Heine، وهو يحلم بالنخيل الضائع في عمق الصحراء القرمزية.

إنه لم يكن – كما كان يقول – إلا رحالة، وطالما ردد ذلك على محدثيه معلنًا أن ذلك هو مجده الذي لا يبحث عن شيء سواه، ولكي يكون رحالة بحق كان لديه كل ما يتطلبه ذلك، وفي المقدمة الصحة الجيدة، والجلد، وعزيمة متسلقي الجبال، كان مرحًا، ألوفًا، بسيطًا، طيعًا متوافقًا مع كل الظروف لا يشكو أبدًا، لا من الزمان ولا من الظروف المناخية، ولا من أماكن الإقامة، لا يعرف الكلل، ويحب المشي، ويجيد ركوب الخيل، يكره السكك الحديدية، ويعشق المراكب الشراعية، وكان يمتلك من شروط الترحال قوة الملاحظة، كان يحدد هدفه، ويبذل جهده، ويعرف كيف يتأمل. وكان يبدو أنه لا يهتم كثيرًا بالتاريخ، ويأتي الاهتمام بالماضي عنده في مرحلة تالية للاهتمام بالحاضر «لم أكن للأسف عالم لغة ولا عالم آثار، ولم أكن أبحث عن أي شيء أستخرجه من باطن الأرض، ولم يكن لدي أي نص أثري ينبغي أن أفسره»[2]. لكنه مع ذلك، كان رحالة أديبًا، بل رحالة عالمًا، ولا ننسى أنه كان يعمل في مكتبة سانت جنيڤياف في قسم الأرشيف، ولكنه كان بدرجة أو بأخرى من المهتمين بالببليوجرافيا، فلأول مرة نجد في كتاب عن رحلة إلى الشرق قائمة ببليوجرافية مستقلة، ولا يدهشنا إذًا أن يذكر خلال مذكراته أسماء علماء مثل مايية Maillet، وساڤاري Savary وڤولني Volney، وأن يقرأ الأعمال الحديثة لمارمون، وكلوت بك[3]. كانت قراءاته تغذي تأملاته وأفكاره، كما أنه لم يكن منفصلاً عن النظر إلى الماضي الذي يشعر بعظمته. «إن الذي يكسب الرحلات إلى الشرق قدرًا من التميز يفوق الرحلات إلى بلاد الشمال هو سحر ذكريات الأزمنة القديمة التي تلقي بأشعتها على بؤس عقم الأزمنة الحديثة».

(1) Du Rhin au Nil, éd. Arthus Bertrand, 1846, p. 11.

(2) Id., p. 11.

(3) Cf. t. 1, p. 56, 80, 91, 279 et 286.

وفضلاً عن ذلك فإن هذا الرحالة كان ذا نزعة ملكية، كاثوليكياً، وطنياً، مقربًا من طبقة النبلاء وأصحاب الدماء الزرقاء، على حد تعبيرنا اليوم فهو رجل يميني، يكره الثورة والفوضى، يعلن احتقاره المطلق للأتراك، يشيد بالتدخل الفرنسي في سوريا، يستغرق في تأمل أسطورة شجرة الجميز التي جلب منها دوق مونبونسي Montpensier فرعًا من أجل ملكة فرنسا الورعة[1]. وقد كانت النزعة البروتستانتية الإنجليزية تثير لديه مشاعر الكراهية حيثما التقى بها، ولا يكاد يستطيع أن يخفي ذلك، ولا يدهشنا هذا الأمر إذا تأملنا الجو الدبلوماسي الذي كان يسود هذه الفترة سنة ١٨٤٠، والآراء السائدة في فرنسا في ما يتصل بقضية برتشار Pritchard.

ويجب أن نرى كيف يدافع مارميه بحدة وبعنف عن جيش بونابرت أمام سائح بريطاني كان يطلق على الجيش أنه عصابة من السارقين المتوحشة. «هذه العصابة من السارقين - كما كتب مارميه - ألقت في طريقه كل الأفكار الخاصة بتحسين أوضاع المجتمع، وهي الأفكار التي ساعدت على ازدهار مصر واتساعها، منذ ربع قرن. فالجيش الفرنسي كان يمثل لمصر - في إطار الأشياء الخالدة - ما يمثله النيل ورخاؤه السنوي لها. فقد ألقى الجيش في مصر بذور العلم الخصبة، وهي عنصر أساسي من عناصر الحضارة»[2].

والقارئ لكتاب مارميه يجد فصاحة في أسلوبه، كما يجد أيضًا موهبة وملكة شعرية تسيطر عليه، وحتى بعد القراءة في شاعرية نرفال، فالمتعة تظل مصاحبة لكتابه في وصفه لحدائق شبرا بأكشاكها الخشبية وأعمدتها وفسقياتها وأحواضها المرمرية التي تعكس مياهها تلألؤ النجوم، «في زورق ذهبي تتنزه شابات شركسيات، ينحسر الحجاب عن جانب من وجوههن، يتطاير شعرهن مع أنفاس النسائم، تتحرك مجاديفهن في وقع منتظم»[3]. وتبدو هذه الحدائق كأنها مشهد من حدائق قرميدية، وهي تدعونا إلى التفكير في قصائد الشاعر الإيطالي أريوسط Arioste وفي ألف ليلة وليلة.

---

(1) Du Rhin au Nil , p. 447

زار دوق مونبونسي، وهو ابن لويس فيليب، مصر في الفترة التي ذهب فيها إبراهيم باشا ابن محمد علي إلى فرنسا بصحبة سليمان باشا.

Cf. Antoine de Latour ,Voyage de S. A. R. le du c de Montpensier à Tunis , en Egypte , en Turquie , et en Grèce , Paris , 1847.

(2) Id., p. 488.

(3) Id., p. 445.

وحتى بعد تأملات ج.ج. أمبير ووصفه لليل فوق صفحة النيل، فإن وصف مارميه يستحق أن يقتبس: «كنت أرى الرّيس يجلس في الصدارة، ينحني البحارة على مجاديفهم، يمتزج سحر سذاجة موسيقاهم مع غنائهم الشاق، كل شيء هادئ من حولنا ولا شيء آخر يخالط غناءهم غير وقع مجاديفهم المنتظم، وزفرات المياه، وهمسات نبات الخيزران، كان النهر يتهادى أمامنا مزفزفًا بأشعة القمر، تتوارى شواطئه في ظلمة دامسة، كنا لا نستطيع أن نميز إلا أمواج النيل المضيئة والنجوم المتلألئة فوق صفحتى المياه والسماء، ومن آنٍ لآخر نلمح بعض أشجار النخيل بجذوعها المرتفعة وقممها المستديرة ترتسم مثل دعائم معبد وقبته، يقبع وحيدًا في الفضاء الصامت»[١].

إن ما يميز أسلوب زافيه مارميه هو سهولته التي لا مثيل لها، فلا شيء متصنع أو متكلف، تتدفق كلماته دون توقف، فهو لا يريد أن يضع نفسه في الصدارة ولا أن يعطي لنفسه وصفًا خاصًا، فهو المثال النقيض لشاتوبريان. ولكم نندهش من أن كتاباته في أناقتها البسيطة تفتقر إلى عنصر المفاجأة وإلى الحوادث الدرامية «ماذا أستطيع أن أفعل، فأنا أقول ما أراه، وأتحقق منه ولا شيء آخر» فهو لا يضيف شيئًا أبدًا إلى الكلمات أو إلى الأشياء، فأسلوبه – في سيرته الذاتية الحديثة – يلائم موضوعه، منساب، كلاسيكي، كما أن كتاباته دقيقة رشيقة «إنه لا يعد نثرًا فنيًا، ولكنه أسلوب رحالة» يكيف نفسه في أي مكان يوجد فيه، يركز انطباعاته في ثوبها الحي المتجدد، قليل العناية بالأناقة المفرطة».[٢]

لقد برع مارميه في كتابة ملاحظاته اليومية بأسلوب بسيط يتسم بخفة الظل والحيوية، ويعبر عن حسه الظريف وذوقه الخاص في الحياة اليومية، كان يتأمل بدقة تفوق جان جاك أمبير، ولكن قصر نظره وطريقته الأدبية يضايقانه قليلاً، قد ... يطيل الحديث بمجاملة إلى القصاصين والملاحين، في المحلات التجارية والحمامات العمومية، كما أنه لم يكن يتحرج من الترجمان ويقوم بشراء احتياجاته بنفسه[٣]. وعلى غرار جيرار دي نرڤال، كان مارميه يرتاد صالون القراءة عند مدام بون أوم M.Bonhomme التي لم تترك لديه أي

(1) Du Rhin au Nil , p. 479.

(2) Camille Aymonier ,Xavier Marmier , p. 112

(٣) الرحالة الذي يكونون في حاجة إلى دليل ووسيط بينهم وبين المجتمع يفقدون - على حد قوله - كمًا هائلاً من الملاحظات المهمة ومتعًا صغيرة غير منتهية لا يعوضها أي رضا مادي آخر.

انطباع وقد التقى ببعض البكوات الفرنسيين عندها كانت متاهات المدينة العربية تجذبه أكثر من الأحياء الإفرنجية، وتصفح الجرائد اليومية يمثل لديه متعة متجددة، وهو يمتطي ظهر حماره الصغير الأبيض: «إننا لا نتصور عندما تطالعنا كلمة حمار - هذا البائس المسكين من ذوات الأربع في أوروبا، تهينه التهكمات والسخريات، يستعبد في القيام بالأعمال الخشنة، ملطخ بغبار الطحين، يدور به الطحان، ويشد وثاقه بغلظة، إلى محراث فلاح أو عربة بستاني، وفي هذا الجو الحزين، فإنه لا يتوقع حتى الرحمة التي هي بالطبع من حقه المشروع، ولا يجد على طريقه إلا سخرية الأطفال ثمنًا لصبره، كما أننا لا نتصور هذا الحمار المناضل الذي يساء تربيته ويترك في خلاء وادي مونمرونسي Montomorency جائعًا محتقرًا. ومن منا لم ير حمار الشرق لم يعرف واحدًا من أجمل الحيوانات وأفضلها خلقًا، ففي الشرق تجد الحمار يتمتع بالحيوية وبالخفة، رشيقًا ومدللاً، يحرص على رفع رأسه عاليًا، وأن تكون أذنه مستقيمة مثل كائن ذكي لديه إحساس بقيمته، يعالج بعناية فائقة، حليق الشعر ممشطًا يشبه قطعة من القطيفة، تلمع سنابكه السوداء مثل الأبنوس، يكتسي بسرج مزين بالودع وحاشية من الحرير وبردعة مطاطية رخوة تماثل مقعدًا وثيرًا مغطى بالجوخ، أو بجلد الماعز، وأحيانًا مشغولاً بتطريز مذهب»(١).

«إن ملك الشارع الهادئ هذا خلع اليوم عن عرشه وحلّت محله تدريجيًا السيارات وعربات الحناطير. فهو رمز حقبة اندثرت وتوارت حيث كان الرحالة أو القناصلة الأجانب لا يأنفون من الجلوس فوق ظهور الحمير للذهاب إلى جلسات الباشا، وحيث طباخ محمد علي الشهير السيد كولمب Coulomb الفرنسي القادم من مارسيليا يعلو ظهر حماره مجتازًا ميدان الأزبكية في طريقه إلى فندق الشرق الذي يلتقي فيه الراحلون القادمون من أرجاء الدنيا». «لقد كان مشهدًا فريدًا ما يحدث في ساحة هذا الفندق عندما يقترب موعد السفر أو موعد الوصول على السفن البخارية بين القاهرة والسويس والإسكندرية. كان الفناء يمتلئ بالخيول والجمال وبالأمتعة من كل الأنواع. يحتل مائدة الضيافة - التي يمتد طرفاها بعيدًا - صفان من الأفراد الذي يأتون من أربع اتجاهات من العالم، فهذا يأتي من

(1) Du Rhin au Nil , p. 404.

كان هذا الحمار في القاهرة موضوع لوحة أعدها الرسام جيروم Gerome والرسم يطابق الوصف الذي جاء في كتاب زافيه مارميه.

خط اليمين من سواحل الكونغو، وذاك يأتي من البحر الأدرياتيكي، فعلى اليسار نجد جارك يتحدث عن اكتشافاته في بغداد، وعلى يمينك ينبهر جارك بآثار طيبة، إنه خليط هائل من السرد العلمي والملاحظات التجارية والمغامرات الروائية وثورات الحماس، وصرخات الوصف ومزيج متداخل من لهجات الشمال والجنوب، الشرق والغرب»(١). كان فندق الشرق يحتل ركنًا من أركان ميدان الأزبكية حيث نجد اليوم ميدان الخازندار، وقد كان هذا الفندق هو أول فندق فرنسي في ذلك الوقت نزل به عند وصولهما فلوبير ومكسيم دي كوم قبل أن يذهبا إلى فندق النيل. وقد كان هذا الفندق يحافظ على ملامح الفنادق القديمة كفنادق دمشق التي كانت تميز تلك الحقبة، فكان ممتلئًا بالأرائك والستائر والسجاجيد والنباتات الخضراء والحواجز الخشبية واللوحات والأواني النحاسية، وقد حدد الوصف التصويري لزافيه مارميه شكل ملامح السياحة الأولى في مصر. كما أن قلمه قد وصف آخر صورة فرنسية رسمت لمحمد علي، ونحن على علم بأن الإخفاقات الدبلوماسية سنة ١٨٤١، ومعارضة قوى الأنجلو ساكسون قد تركت والي مصر سريع الاحتداد، محبطًا، ففي نهاية حياته أظلم عقله ووقع فريسة للوساوس، ولكنه كان في أفضل إمكاناته عندما زاره زافيه مارميه بصحبة م. بارو M.Barrot شقيق أوديلون بارو Odelon Barrot وقنصل فرنسا الجديد في القاهرة، «كان متدثرًا في قفطان واسع من الفرو، يجلس في نصف استرخاء في ركن من أريكته، ويمسك في يده غليونه التركي، وفق سلوكه التقليدي، وبينما كان الخادم يروح للوالي بسعفة نخل، قص الوالي على زائريه كيف ساعده تاجر فرنسي عندما كان شاباً يافعًا، وكيف احتفظ بهذه الذكرى طيلة حياته ممتناً للجميل، وحينما كان الترجمان يترجم هذه القصة تعلقت عينا الوالي البراقتان تحت حاجبيه الكثيفين بزافيه مارميه، ومثل كل سابقيه، حمل مارميه في ذاكرته «الأثر الذي لا يمحى لهذا الوجه المفعم بالحيوية والذكاء، وتوقد هذه العين الفاحصة، وترنيمات لغته اللبقة والنشطة في آن واحد»(٢).

---

(1) Du Rhin au Nil . p. 424

يميز الرحالة فندق الشرق من اللافتة الإعلانية التي صممتها ريشة ماشيرو Machereau، فهي مزينة بميدالية جانبية تمثل من اليمين الكرنك وبواباته، ومن اليسار الأهرام وأبو الهول، وهو عنصر زخرفي استخدمه سليمان باشا في تزيين منزله، Cf .t.1 . p. 268.

(٢) كان اسم التاجر الفرنسي م. ليون . M. Lyons Du Rhin au Nil . p. 440-441

لم يتيسر للكونتيسة دي جاسباران De Gasparin مقابلة محمد علي، الذي كان ذهنه مشوشًا، ضعيفًا خائر القوى ولم يكن يعقد أي جلسات أو يقابل أحدًا، فلم تتمكن الكونتيسة من لقائه في زيارتها إلى مصر في فبراير ١٨٤٨. كانت الكونتيسة أديبة حسنة الطوية، موسيقية، مثالية، تضع حماسها للمذهب الكلفيني الجنيفي (من جنيف) في خدمة الإنجيل والأخلاق. وعلى غرار فيكتور شويلشر Vitor Schoelcher، حاربت العبودية، وهي تنطلق دائمًا من «وجهة نظر مسيحية»[١] ويتضح ذلك جليًا في كتابها عن المشرق وكذلك في كتابها عن الزواج. تزوجت الكونتيسة من الكونت أجينور دي جاسباران Agénor de Gesparin وهو سياسي فرنسي وعضو في مجلس نواب جزيرة كورس، وهو أيضًا صاحب كتاب «الفوائد العامة للمذهب البروتستانتي الفرنسي Intérêts généreux du Protestantisme francais» الذي صدر عام ١٨٤٣، وإثر هزيمته سنة ١٨٤٦ في الانتخابات التشريعية، اعتلت صحته فصحبته زوجته في رحلة استرخاء إلى الشرق. وحسبنا قولاً إن مذكرات الكونتيسة في مصر كانت - على حد قول جوته - أشبه «باعترافات نفس جميلة» وتفيض بخواطر مؤثرة. وعلى الشاطئ الذي كان يرسو عليه زورقها الصغير كان يحتفل بانتظام بالطقوس الدينية الخاصة بيوم «الأحد» بخشوع وورع. فلم تترك يوم الأول من يناير عام ١٨٤٨ يمر دون أن تحاسب نفسها وتراجع ضميرها وتقدم فعلاً خيرًا. فلم يحدث لها أبدًا أن نزلت بلدًا دون أن توزع على أبناء البلد كتبًا موجزة عن الرحمة أو الأناجيل. كانت الكونتيسة محبة للبشر، وطنية، تؤمن بالمذهب الكلڤيني، تحارب العبودية، وتعدد الزوجات، والبغاء وكانت تحارب أيضًا إنجلترا والكنيسة الرومانية، لم تركن إلى مجرد رحلة سياحية إلى سحر مصر، فكانت شواغلها الدينية والاجتماعية وذكرياتها في سويسرا تجتاحها دائمًا في رحلتها. كما أن كثرة رحلاتها الأثرية قد جعلتها تعجب بمعابد النوبة ومصر العليا[٢]. وهذا لا يعني أنها لم يكن لديها

---

(١) الطبعة الأولى من كتابها رحلة إلى المشرق Voyage au Levant، صدرت دون اسم المؤلفة سنة ١٨٤٨، وكانت تشير إلى مؤلف كتاب: «زواج من وجهة نظر مسيحية، Mariage au Point de vue chrétien

(2) Journal d' un Voyage au Levant, éd . 1848 , vol . II, p.235.

حس بهيبة الآثار وجمال الأشياء، فذات ليل على ضفاف النيل كشفت صورة طيبة[١]، وذكرياتها وتدويناتها الموسيقية[٢] وإعجابها بأعمال فيليسيان دافيد Félicien David[٣] المصرية، عن روح رقيقة حساسة وعن ذوق مرهف للشعر. تتخذ نبرات كتابها نغمة شابة مرحة، وتسير على خطى نشيطة مقررة ثابتة، ولكن كم من مرة لم تنثن تحت وطأة الشفقة الدالة على المباهاة وأمام مشاهد عدم الإيمان والخلود والبؤس؟ كم من مرة لم تتوقف لتطلق العنان للاستطراد والابتعاد عن الموضع أو لذرف الدموع وإراقتها؟

بعد وفاة محمد علي في ١٢ من أغسطس سنة ١٨٤٩ بثلاثة أيام وصل إلى الإسكندرية ضابط قديم من سلاح الفرسان يدعى الكونت دي بارديو De Pardieu لم يكن لديه الموهبة القصصية ل ج.ج. أمبير وزافيه مارميه والكونتيسة دي جاسباران، ومع ذلك فهو يستحق أن يكون في زمرة هؤلاء الرحالة.

ومثل كثير من الرحالة، فإنه لم يقض سوى شهرين في مصر خلال رحلة ذهاب وإياب في بلاد الشرق، ولكنه سائح نشط كثير الحركة، ماهر في تدبر أمره، له خبرة واسعة تماثل خبرة ج.ج. أمبير، وقد أضاف إلى رحلته إلى مصر العليا رحلة إلى سيناء، فهو عقل صاف محدد، عملي، يعرف كيف ينظم أيامه، وكيف يقاوم مضايقات الترجمانات ومزايداتهم، ومساومات أصحاب المحلات التجارية، يرفض البقشيش غير الضروري ويتمسك بحرفية الاتفاق، فلم يكن هو الذي يمكن أن يسرق كما سرقت من قبل الكونتيسة دي جاسباران واعترفت بذلك.

كان يهتم بالتفاصيل الدقيقة غير الضرورية للرحلة وبالمعلومات المتاحة الخاصة بوسائل التنقل وطريقة الحياة والنفقات المطلوبة والاحتياطات والعناية التي تتخذ والخاصة بالصحة. كان جاداً ومنظمًا ووثائقيّاً، قرأ شاتوبريان و شامبليون، وميشو Michaud

(1) Id .. p. 26 et 142.

(2) Id. . p. 72, 105, 155, 193, 198.

(3) Journal d' un Voyage au Levant, éd . 1848 . vol . II, p.26,101,102.

وبوجولا Poujoulat ومارمون[(١)]. وإذا لم يكن يعد مؤرخًا أو عالم آثار وإذا كان غالبًا ما يتفق مع آراء الآخرين وأحكامهم فإنه لم يؤخذ عليه على الأقل أنه غافل عما يدور حوله. يعد وصفه الطوبغرافي لآثار الكرنك والأقصر ووادي الملوك الذي ضمنه كتابه خير دليل لهذه الحقبة، فهو عمل أمين، يتسم بالدقة الشديدة، والإخلاص المطلق، كتبه رجل أمين.

ولكن الكونت دي بارديو لم يكن لديه حس ناقد، كان محافظًا مثل الكونيسة دي جاسباران، كاثوليكيًا مثل زافيه مارميه، تثير سخطه «الريبة التاريخية» التي تعارض أصالة شجرة السيدة العذراء يشمئز من ثورة ١٨٤٨، ويشعر بكثير من التسامح نحو مصر في عهد محمد علي.

وكان وصول الكونت قد تزامن مع شكاوى الفنيين الفرنسيين وموجل بك Mougel - Bey الذي كان قلقًا لرؤيته توقف أعمال البناء في السد الذي كان مشرفًا عليها عباس باشا، وكانت هناك أيضًا شكاوى ڤاران بك Varin- Bey الذي كان يخشى نفس هذا المصير لمدرسة الفرسان في الجيزة، كما تزامن وجوده في مصر مع رحيل كلوت بك فاقدًا لحظوته ومكانته مع بدء عهد نظام حكم جديد، وقد جعلته كل هذه الأحداث لا يستشعر خيرًا للمُلْك الذي بدأ. ولكنه يجاهر دون تحفظ بإعجابه بأعمال محمد علي، كما أنه يكن احترامًا بالغًا لمعاونيه الفرنسيين ذوي الكفاءة المجيدين اللطفاء، وتتعارض مجاملته وتقديره للبكوات الفرنسيين مع الأحكام اللاذعة التي سيطلقها قريبًا فلوبير ومكسيم دي كوم[(٢)].

ولم يكن بارديو شاعرًا أو حتى كاتبًا، فرؤية أبي الهول التي انتزعت من فلوبير صيحات الحماس لم تلهمه إلا سطرين جافين تقريبًا، كما أن ابتسامته الغامضة لم تفتنه بأي درجة. فالمشهد الطبيعي لا يعني بالنسبة له حالة نفسية ولكنها مشهد طبيعي وهذا

---

(1) Cf .t . I p. 169, 224, 247, 279.

(2) Excursion en Orient , 1851 . p. 37 et sui , 155 et suiv sur.- Mougel ? Bey , Colt- Bey , Varin-Bey . Voir .t . I. p. 354 , 354, 356, 358.

يكفي، ولكنه في مقابل ذلك يصف بطريقة مفعمة بالحيوية مشاهد الزحام والشوارع، واستقبال الأعياد بالملابس المزركشة والاحتفالات التي نظمت للاحتفاء بختان ابن الخديوي عباس. ولكن ملاحظاته كانت دائمًا تتخذ أسلوبًا تقريرياً، كما أن كتاباته يشوبها بعض الأخطاء الإملائية. وخلاصة القول، فإن بارديو هو محرر أخبار مخلص، رجل من الطبقة الراقية، لطيف المعشر، يعرف جيدًا كيف يشاهد، ولكنه لا يعكف بوجه خاص على تحديد رؤيته في قالب ذاتي أو مبتكر. لقد كان يبرع أحيانًا في أن يجد - بأدب شديد - في وقاره الأرستقراطي والاجتماعي طرقًا راقية، لقول أشياء بظرف وحذر، لا يستطيع أن يطلق عليها أسماءها من فرط حسن سلوكه، كما أن رقص العوالم بقنا لا يثير لديه أي تأثر، ولكن يدفعه لأن يقول إن دومينيك Dominque الترجمان الإيطالي الذي يصاحبه لم يكن يشاركه هذا الإحساس، «عندما كنا ندخن أثناء عودتنا إلى الشاطئ، طلب دومينيك أن يذهب للبحث عن منديل كان قد نسيه - كما قال - عند العوالم. ويبدو أنه وجد صعوبة في العثور عليه، لأنه لم يعد إلا في اليوم التالي صباحًا عند مطلع النهار»(١).

كان دومينيك رجلاً مرحًا أمتع فلوبير بصحبته، وكان من المؤسف أنهما لم يلتقيا مرة ثانية، ولكن الكونت دي بارديو كان قد غادر مصر منذ شهر عندما وصل إليها فلوبير في نوفمبر ١٨٤٩.

****

(1) Excursion en Orient . p. 90.

الفصل الثالث

فلوبير ومكسيم دي كوم

(1850 -1849)

اعتبر فلوبير لزمن طويل رائد المذهب الواقعي ويبدو غريبًا من الوهلة الأولى أن يصنف بعد جيرار دي نرڤال ضمن الرحالة الرومانسيين.

ولكن النقاد قد عدلوا شيئًا فشيئًا عن آرائهم منذ ظهور كتاب فلوبير «مراسلات» Correspondance، وإبداعات الشباب Oeuvres de Jeunesse والطبعة الأولى من غواية سان أنطوان Tentation de Saint Antoine، من الملاحظ أن فلوبير لم يكن ليصبح رسام حياة الريف الهادئ، وكاتب رواية مدام بوفاري Madame Bovary دون إحساسه برعشات الانفعال ودون جهد. إننا لم نعد نثير سخط أحد اليوم إذا أكدنا أنه لم يكن كاتبًا واقعيًا خالصًا، ولكن رومانسيًا جامحًا صاخبًا يستطيع بمشقة ترويض نفسه وإخضاعها للنظام.

وربما لم يكن معروفًا أن رحلته إلى الشرق قد قامت بدور في هذا التطور من الرومانسية إلى الواقعية، مما سيجعلنا نقتنص الفرصة سريعًا لدراسة أيام إقامة فلوبير في مصر، وذلك ليس فقط لعلاقة موضوعنا بالرحالة الفرنسيين في مصر، ولكن أيضًا لعلاقته بفلوبير نفسه، كما أنه سيتيح الفرصة لإبراز الأهمية التي حظي بها في حياته الأدبية والعملية، وعندما يكون الأمر متعلقًا بكاتب من العظماء الأوائل مثل شاتوبريان وجيراردي نرڤال وفلوبير، فإنه من المسموح به تمامًا ألا يعامل باعتباره سائحًا عاديًا، وألا يقتصر على أن يطلب منه فقط ما أضافه من جديد أو ما صححه من معلوماتنا حول هذا البلد، ولكن أن نبحث لديه عمّا أصبح هو عليه وعمّا اكتسبته حياته وإنتاجه من رحلته.

I

لنلقِ في البداية نظرة حول السنوات الأولى لهذا الشاب النورماندي الرومانسي. ولد فلوبير في مدينة روان عام ١٨٢١، وتلقى تعليمًا برجوازياً ضاق به ضيقًا شديدًا، ولنتخيله في المدرسة الابتدائية في قاعة الدراسة التي ألهمته فيما بعد شخصية شارل بوفاري Charles Bovary وقلنسوته. جسده الرياضي ينحني بصعوبة ويثقل فوق المنضدة السوداء المصنوعة من خشب الزان، يستمع بصعوبة، ولا يتعلم الإملاء وعلامات الترقيم، ولكنه يكتب المسرحيات، ويقرأ مؤلفات فكتور هوجو، كان تلميذًا مستواه الدراسي دون المتوسط، لا يحب سوى التاريخ، لماذا؟ لأنه يسمح له بالفرار من عالم الواقع. تجذب العصور الوسطى انتباهه، وتلاحقه في شبابه صورة نيرون ونموذجه الفاسد المترف، وتظهر في التصميمات الأولية لكتابه رقص الأموات La Danse des morts، وفي مقالة حول «روما والقياصرة» Rome et Les Césars الذي كتبه وهو في الثامنة عشرة من عمره. كان كل ما يحتاج إليه شاب رومانسي من الريف لإزالة برجوازية حكم الملك لويس فيليب هو رسم عالم يمتزج فيه خليط من النزعة اللاأخلاقية والشيطانية والولع بالتصوير والألوان، والشرور واللون الأرجواني، كتب في نهاية حياته يقول «أجهل ما هي أحلام التلاميذ الصغار، ولكن أحلامنا كانت رائعة مفرطة ممتدة امتداد الرومانسية الأخير وهي تصل إلينا محدثة جيشاناً وفورة في عقولنا، ولكن الحياة الريفية كبحت جماحها».

كان فلوبير رومانسياً من خلال مشاعره وأفكاره وصوره، كانت أفكاره حزينة، وكان متشائمًا قبل أن يخبر الحياة، تتأرجح أفكاره بين عدة متناقضات كبيرة، وبسيطة في آن، المتقابلات التي يزخر بها عالم فكتور هوجو من ناحية: الخير والشر، الجمال والقبح، المسيح والشيطان، وهي العناصر التي ظهرت في أعمال فلوبير (رقص مع الأموات)، ومن ناحية أخرى الإلحاد الساخر الذي يعلنه والتهكم البيروني الذي لا يخفيه.

كانت أعماله الأولى تضم بين دفتيها كل الصور التي تتطابق مع ذوق العصر، جلبها من ألمانيا جيرار دي نرفال، وتيوفيل جوتييه: عناصر الفانتازيا العتيقة المخيفة لقصص

هوفمان، أشكال القبور المختلفة وأروقة الأديرة، مشاهد الجبّانات واستدعائها في الروايات. وإلى جانب هذا الشمال الحزين البارد، فتح فلوبير - في المقابل - الباب فجأة على الشرق: «لم أكن لأحلم برؤية مدينة للموتى المحنطين تعوي فيها الثعالب وتعشش تحت مومياوات الملوك، ولا برؤية الليل عندما يحل وتفترش الجمال الأرض بجانب صهاريج المياه»[1]، وكان يثير في أعماله صورة الصحراء الصهباء البنفسجية «الجياد تتقافز نحو الأفق المشرب بحمرة الشمس» إنها حقاً اعترافاته و«شرقياته». وبمجرد أن بدأ فلوبير محاولاته الأدبية بأسلوب يتسم بأنه لا طابع شخصياً له، وبمجرد أن تناول موضوعًا نصف درامي ونصف ملحمي مثل «Smarh السر القديم»، عالج الموضوع باقتدار شديد مظهرًا الضعف البشري ومأساته.

كان أبطاله ينتمون إلى شريحة فاوست لجوته وأسفيروس لإدجار كينيه، يعبرون عن يأسهم الشديد الشامل لكل شيء، يأس علمي (كل المعارف محدودة)، ويأس تاريخي (الحضارة الفاسدة)، ويأس عاطفي (كل رغبة هي وهم) ويأس فلسفي (الحياة عبث والشر في كل مكان، والشيء الهزلي هو الانتصار الوحيد، وليس هناك سوى حقيقة واحدة هي العدم).

هكذا كان فلوبير في سن التاسعة عشرة لا يؤمن بالحضارة مثل روسو، ولا يعتقد في العقل، ولا في العناية الإلهية مثل بيرون وألفريد دي ڤيني.

وقع هذا الشاب الريفي فريسة المرض الرومانسي، مرض العصر، في الوقت الذي تعافى منه جيله، فالأفكار تسير ببطء في طريقها من العاصمة إلى الريف، ثمة بون واسع بين باريس وروان. كيف إذن سيتحرر فلوبير من ذلك؟.

في البداية تمثلت المرحلة الأولى في بلوغ قمة المرض عندما قلبت أزمة الصرع التي أصابته سنة ١٨٤٣ أفكاره رأسًا على عقب، فتخلى عن دراسة الحقوق التي لم يكن يعجب بها، ولكنه تخلى أيضا سرّاً عن حياته العادية، كما أنه ازدراها، وبدا له أن هذا المرض الغامض الدفين يعتبر سقوطًا. ومن هنا جاءت رغبته في العزلة من ناحية أخرى. تزايدت

(1) Lettre à Ernest chevalier . 19 mars 1842 .

رغبته التشاؤمية وقويت. ولكنه في الوقت نفسه ودع الأحلام الرومانسية، والنواح على الشرور الوهمية! واستحوذ عليه تأمل شديد للأمور وانغرس في نفسه اعتقاد بضرورة التخلي عن كل هذا.

وتزامنت المرحلة الثانية من تحرره مع الظهور المفاجئ للألم والحداد والموت في حياته، فقد توفي والده الطبيب فلوبير وتوفيت أخته العزيزة كارولين في العام نفسه الذي تزوجت فيه عام ١٨٤٦. ووجد تشاؤمه قوتًا جديدًا للتغذية، ولكنه تطور وأخذ صورة مذهب تفكيري مفاده: الحياة سيئة ووحده الفن القادر على أن يكون السلوى. وتحددت نظرية فلوبير الجمالية في مواجهة ضراوة الوجود، وعداوة الأشياء: يجب إقامة حاجز من الفن المهيمن، ومن أجل ذلك لا بد أن ننظر إلى العالم مثل جوته، وأن نضع جانبًا كل الموروثات الأدبية، وأن ننجذب إلى التأمل والمشاهدة، إلى الخروج من ذاتنا، إلى ملاحظة أنفسنا، وانعكاساتها داخل الأشياء. وكانت الرحلة هي المدرسة الأفضل لتحقق كل ذلك. وهنا ظهر مكسيم دي كوم في فترة من حياة فلوبير. وهو شاب طموح، غني، يعتمد على نفسه، يتمتع بعقل صلب، ماهر في تدبر أموره، لا يكل ولا يتعب، ولديه حيوية ونشاط. انجذب إلى فلوبير عام ١٨٤٧ في طريقه إلى بريطانيا ودفعه إلى مشاركته في الكتابة عن العلاقات التصويرية، وجعل الكتاب بعنوان: «من خلال الحقول والشواطئ الرملية» Par les champs et par les grèves ولكن مع صدور كتاب «غواية سان أنطوان» عام ١٨٤٩، استيقظت رومانسية فلوبير. يقول مكسيم في هذا الصدد: «إنه حمل في وجدانه الغنائية لدرجة أنه فقد الإحساس بالأرض من تحته»!، ويشاركه لويس بولي Louis Bouilhet الرأي نفسه فيرى أن هذا الكتاب لا قيمة له، وأنه يجب أن يلقى به إلى النار، ولا يتحدث عنه أبدًا.! وإزاء هذا المعبر غير المتوقع وعودة المرض الذي لم يتعاف منه، لم يكن هناك إلا دواء واحد، إنه دائمًا الدواء نفسه: تجديد الهواء وتغيير المكان، هجر أحلام الغنوصية(*)، إحلال العزلة الواقعية محل العزلة الخيالية، وهكذا كانت المرحلة الثالثة من تحرر فلوبير التي ميزتها رحلته إلى الشرق عام ١٨٤٩.

(*) مزج الفلسفة بالدين (المترجم).

ومن الوهلة الأولى، يبدو ذلك علاجًا خطرًا، ألا يمكن أن يذهب إلى هناك، وتشمله نزعة تذوق لكل ما هو غريب أو أجنبي، أو يسكره الحماس؟ لا، إنما سيشمل من الأدب الذي كان يشكل انطلاقًا لرؤيته التي ستصبح فيما بعد رؤية علمية، يحددها ويسيطر عليها. فهو يلاحظ ما حوله ويتأمله، وستبحث هذه الملاحظات عن استجلاء الطبائع الثابتة للشعب وللبلاد على اختلاف ألوانها وأصولها. وبدلاً من أن يتشتت ذهن فلوبير بين المشاهد العابرة والصور الخارجية الجذابة، فإن الرحلة قد ركزت أفكاره على بعض الأنماط البشرية، ووجهتها نحو علم النفس. وانطلاقًا من هذا المعنى، وفي إطار تقصي الواقع، أعد فلوبير المنهج الكلاسيكي الذي استخدمه في كتابة روايته مدام بوڤاري.

II

وعلى عكس رفيقه مكسيم دي كوم وسابقه جيرار دي نرڤال، لم ينشر فلوبير شيئًا عن مصر، وحتى يمكن تتبع مسار رحلته ومعرفة انطباعاته، فإنه يجب العودة إلى الوثائق التي لم تنشر ولم توجه إلى جمهور القراء. وما هو متاح تحت أعيننا إذًا ليس نسقًا أدبيّاً مثل كتاب نرڤال ولا عملاً محكمًا مؤلفًا ومدروسًا كما هو الشأن في كتاب «النيل» Le Nil لمكسيم دي كوم[1]، وإنما هو مجموعة من الملاحظات مدونة في دفتر صغير[2]، وخطابات

(1) M.Du Camp . Le Nil . Egypte et Nubie . Avec carte . Paris . 1854 .

(٢) كان لدى فلوبير النية للكتابة عن رحلته «في شكل فقرات وفصول صغيرة أولا بأول» ولكنه تخلى عن مشروعه نظرًا لعدم توافر الراحة وفقدان الوقت وخاصة في أعقاب موجة الحر والخماسين التي لم يتحملها. الجزء الوحيد الذي كتبه يعود إلى السادس من فبراير ١٨٥٠، وكان بعنوان «على زورق صغير».

كان مكسيم دي كوم دؤوبًا، محافظًا على كتابة يومياته بانتظام تسيطر عليه وهو يخطها روح المكتشف، وقد شكلت هذه اليوميات عمله الأدبي، وإذا تصفحنا هذه الأوراق غير المنشورة سريعًا والموجودة في مكتبة المعهد، نلاحظ أن هذه الملاحظات حول الرحلة (الشرق، ملاحظات حول مصر، رقم ٣٧٢١) تتسم بالحيوية والدقة والصدق، وتزخر بالتفصيلات المطابقة للواقع والقابلة للعودة إليها فيما بعد، كما أنها لا تستجيب - على صراحتها وفظاظتها في الأسلوب - إلى ملاحظات فلوبير (ومثال على ذلك زيارة مستشفى القصر العيني، التي أفرد لها فصلاً كاملاً كمجاملة كوتشوك هانم)

وقد أضاف مكسيم دي كوم - إلى جانب هذه الذكريات الشخصية - ملاحظاته أثناء قراءته لأعمال أخرى وبعض الملاحظات الخاصة بعلم الآثار ووصف الأجناس والعروق البشرية التي كان قد جمعها من قبل أثناء رحلته وبعدها أيضًا (مناظرات مع خليل بك حول الإسلام، وفقرات من مسودات كتبها الكولونيل ماري (بكير بك) حول حرب الوهابيين، مقاطع من كتابات شامبليون، نستور لاهوت، بريس دافن، سلفستر دي ساسي، ميشو، بوجولا ....) وهي دراسة مدهشة تطبيقية متسقة، لا تترك شيئًا غير متوقع، ويظهر فيها اهتمام شديد بالتصنيف، وبالمنهج من كاتب ما زال شابًا، كما يلحق بها فهرسان مرتبان ترتيبًا أبجديًا يحيلان إلى ملاحظاته، وينم كل ذلك على نية حقيقية لاكتساب أعلى خبرة ممكنة من هذه التجربة.

مرسلة إلى بعض الأصدقاء وإلى بعض أقاربه كتبها بعفوية وببساطة وبحقيقة واقعية تتسم بالفجاجة الشديدة أحيانًا، ولكنها ممتعة وموجَزة يعبر فيها - بلا تصنع وبلا مواربة - عن ردود الفعل الاندفاعية للرحالة، وظهر فلوبير في هذه الملاحظات كما كان وهو في الثامنة عشرة من عمره بموهبته وبنضارته وبشاعريته، وبمغالاته المرضية وبفجاجة شاب مغرور، وبملاحظاته المتشددة، وبذوقه الغريب وبمزاجه الثقيل. الأمر الذي يعطي القارئ انطباعًا بأنه أمام إنسان يحاول أن يفتت الصعوبات، أن ينتفض ويثور ليدرأ هاجس مرضه الغامض، ولينسى تهديداته المتقطعة التي تنتابه من آن لآخر، وليحاول أن يعيش داخل الأشياء وأن يخرج من ذاته، أليس من الغريب ومن المؤثر أن نرى بعد زيارة جيرار دي نرڤال بست سنوات، مريضًا آخر يجيء إلى مصر يلتمس فيها الإلهاء والصحة، ونستطيع أن نستخلص من مذاكراته الخاصة وكذلك مراسلاته[١] ملامح من رحلته، كما يمكننا أيضًا الاعتماد على بعض الفصول التي نشرها مكسيم دي كوم[٢]. وإليه يعود الفضل - بعيدًا عن مشكلات السيكولوجية النفسية - في تقديرنا البالغ للقيمة وللفائدة التي يتمتع بها إنجازهما العلمي - هو وفلوبير - في تاريخ معرفتنا بمصر. وفضلاً عن ذلك، فإن مقابلة انطباعاتهما ستكون دقيقة وحرجة، وقد قامت الرحلة بدور كبير في إضعاف صداقتهما، فلم يكن من الضروري أن تلاحقها، وليس عجيبًا إذن أن يسيء فلوبير إلى مكسيم في مراسلاته، إذا كان فلوبير موضع سخرية مكسيم[٣]، في كتاب ذكريات أدبية Souvernirs Littéraires، وإذا كان اسمه لم يظهر ولو مرة واحدة في كتابه «النيل» الذي يضم جملة ترزح تحت ثقل الحقد «الصداقة التي يشوبها بعض الغدر»[٤].

---

(١) ساعتمد على نص الرحلة الذي نشر جزءًا منه مونفوت Montfort في مجلة ليمارج Les Marges في عدد (يوليو - ديسمبر ١٩١٠)، ثم نشره كاملاً رينيه دي شارم René Des charmes في الطبعة المئوية: رحلة إلى الشرق، ١٩٢٥، وكذلك الجزء الأول من " مراسلات " الطبعة نفسها عام ١٩٢٢.

(2) Souvenirs Littéraires Hachette . 1882 . vol I . chap . XIII et XIV . p. 443 -494 .

(٣) في كل مرة يذكر مكسيم دي كوم فلوبير في كتابه، فإنه يذكره كما لو كان طفلاً، مليئًا بالسذاجة والجهل والضعف Maynail . La Jeunesse de Flaubert . p. 180 E ، لقد كان لديه لعبة جميلة، ومن يستطيع ان يكذبه فيما يقول، فقد مات فلوبير قبل عام من نشر كتاب مكسيم «ذكريات ادبية» في مطبوعات مجلة ريفودي دوموند.

(4) Le Nil . p. 301

وكان الرحيل مؤلمًا، فقد كان فلوبير يعشق أمه التي كان يعاملها بمحبة شديدة ويطلق عليها «عجوزه المسكينة» كان يتخيلها جالسة وحيدة بعد الوداع متشنجة وباكية[١] استسلمت الأم للفراق على أمل أن تحسن الرحلة إلى بلاد الشمس من صحة ابنها، وكانت تعلم أن ابنها إذا كان أخرق ولا يحسن التصرف في شئون الحياة العملية، فإن رفيقه ذكي، ماهر، مخلص، بارع في تنظيم كل شيء، والرحلة عنده تماثل وظيفة أدبية، كما أنها لم تجرؤ أن تلومه على انتزاع ابنها منها، وكان صديق العائلة د. كلوكي Cloquet يلمح إلى أن تغيير المناظر وتنوع الهواء والحياة والمناخ سيكون ملائمًا لصحته. «كتب فلوبير إلى إرنست شيڤالييه Ernest Chevalier في السادس من مايو عام ١٨٤٩ يقول، إنه يريد أن يقوم برحلة إلى كل أرجاء الشرق: ستستغرق رحلتي ما بين خمسة عشر شهرًا إلى ثمانية عشر شهرًا، سنصعد النيل حتى طيبة، بعدها سنسافر إلى فلسطين، ثم إلى سوريا وبغداد والبصرة وبلاد فارس حتى البحر الكاريبي وبلاد القوقاز وجورجيا وآسيا الصغرى، وذلك من خلال السواحل، وإذا كان هناك وقت ونقود، سيمكننا الذهاب إلى القسطنطينية واليونان»[٢].

كانت هذه هي الخطة الأولية للرحلة التي استغرقت بالفعل عشرين شهرًا من أكتوبر ١٨٤٩ حتى يونيو ١٨٥١. ولكن هذا لا يعني أن فلوبير كان يتنبأ بمدة الرحلة، وعلى حسب ظن مكسيم دي كوم، فإن والدة فلوبير كانت تكتب له، تتوسل إليه الإسراع في العودة، وهكذا فإنهما لم يتمكنا من زيارة بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس وجورجيا[٣].

كان مكسيم رجلا عمليًا، ولبقًا واسع الحيلة، استطاع أن يحصل لنفسه ولفلوبير على مهمة رسمية: «فأرسلته وزارة التعليم الرسمي[٤] مندوبًا عنها، كما طلبت وزارة الزراعة والاقتصاد من صديقه فلوبير أن يرسل إليها المعلومات التي يراها مهمة لتبليغها

(١) كان مكسيم دي كوم يتيمًا، لم يفهم تردد فلوبير في مغادرة أمه.

(2) Corresp. vol. I. p. 246.

(٣) سمع حديث بينهما (فلوبير ومكسيم دي كوم) مفاده أنهما إذا رأيا مصر وشعرا بالتعب، فإنهما سيعودان مرة أخرى، وفي خطاب إلى ل. بويلي L.Bouilhet، كتب فلوبير موضحًا: «أنا آسف لعدم ذهابي إلى بلاد فارس. إنها النقود ! النقود ! لم يعد لدينا وقت أو نقود»، إنه التفسير الأكثر واقعية.

(٤) وجدت عدة وثائق في أوراق مكسيم دي كوم بمكتبة المعهد، MS رقم ٣٧٢٠، وهي كما يأتي: =

للغرفة التجارية»(1). وكانت هذه المهمات بدون مقابل بالطبع، ولكنها كانت تساعدهما في الاستفادة من توصيات رجال السلك الدبلوماسي ورعايتهم، كما كانت تضمن لهما إكرامًا واستقبالاً لائقًا. وقد نشر م. إميل هنريو M. Emile Henriot - بنية السخرية والضحك - الخطاب الذي أرسلته إدارة التجارة الخارجية في أكتوبر ١٨٤٩ إلى فلوبير، ولخص فيها الملاحظات الواردة بالخطاب، وقد صاغ موظف كبير في الوزارة التعليمات الوزارية في أسلوب يشبه أسلوب بوفار Bouvard، وبيكوشي Pécuchet(2) وقيل إن جمرك بولاق قد ألغي، وأصبح السماح لمصر بالاستيراد الحر للصمغ ونبات السنا مسألة مهمة: «وسيكون من الملائم البحث إلى أي درجة تستحق هذه الإدعاءات التصديق. كما أنه سيكون من المناسب أيضًا الذهاب إلى السويس ولفحص بعناية النظام الذي يطبق بخاصة على القوارب، وكذلك نظام تحصيل الضرائب الذي يطلق عليه هناك اسم حقوق الملاحة....إلخ». وقد انتهت هذه الوثائق بوعد مغر لكاتب شاب لم يكن قد فعل شيئًا من قبل ليثبت ذاته: «فالمعطيات الجديدة التي سيضيفها فلوبير يمكن أن تجد مكانها بما يعود بالنفع على الاقتصاد في المطبوعات المقبلة للوزارة» وأمام هذه المهمة بابتسامة عريضة وبضربة منه على فخذه دليل على السعادة، رحب فلوبير بهذه الثقة، ولكن هذا لم يمنعه أبدًا من أن يخضع لبطاقة رائعة كتب عليها «جوستاف فلوبير، مكلف من قبل وزارة الزراعة والتجارة

= أ - خطاب من وزارة التعليم الرسمي في ٢٠ من أكتوبر سنة ١٨٤٩، تكلفه بالقيام بمهمة علمية مجانية، بهدف اكتشاف الآثار القديمة، وتسجيل العادات والتقاليد وتدوين الحروف المنقوشة، وما تم رصده من تماثيل ودراسة تاريخ هذه الآثار.

ب - تعليمات أكاديمية الكتابات المنقوشة والآداب التي وقعها جوما رو رينو ودي ساسي، وليون دي لابورد، والخاصة بالقيام بالأبحاث في فيلة وإسطنبول، وهي تعد بنتائج ناجحة في مسابقة الرسم الفوتوغرافي، هذا الشكل الرائع لإعادة التمثيل، وهو نوع من الإبداع غير مألوف في تلك الفترة، (٧ من سبتمبر ١٨٤٩).

ج - جوازا سفر دبلوماسيان منحتهما وزارة الخارجية إلى مكسيم دي كوم وجوستاف فلوبير، للقيام بمهمة خاصة بوزارتي التعليم الرسمي والاقتصاد، وقع على جوازي السفر دي توكفيل De Toqueville في ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٤٨، وكان مكسيم دي كوم يرغب دون شك أن يضيف بسذاجة إلى اسمه فيما بعد صفة «عضو في جوقة الشرف».

د- الملاحظات التي دونها مكسيم في تقرير من أجل الوزارة ولكنها - على حد تصريح مكسيم نفسه -لم ترسل أبداً.

(1) Maxime Du Camp . Souvenirs Littéraires . vol.I . p.437.

(2) Em. Henriot . Courrier littéraire du Temps et Figures et Portraits . vol III . pp. 247-252

أشار كتالوج المسودات -تحت رقم ١٦ - إلى خطاب وزير الزراعة المؤرخ في ٢٧ من أكتوبر سنة ١٨٤٩ إلى نقطتين من التعليمات الوزارية وإلى استفتاء أعده فلوبير لمهمته وإلى كتيبات متعلقة بالرحلة .

بمهمة في بلاد الشرق»[١]. إنها حقاً لطرفة لطيفة، فيها قدر كبير من المبالغة يمنعها أن تكون كلها حقيقية. فنصفها فقط هو ما يمكن تصديقه. فقد كتب فلوبير في ٤ من يونيو عام ١٨٥٠ إلى لويس بويلي، يقول: «سأفضي إليك باعتراف صادق، إنني لا أهتم بهذه المهمة، فهل تراني يمكن أن أستعلم في كل بلد أنزل بها عن المحاصيل والإنتاج والاستهلاك ؟ كم معدل إنتاج الزيت ؟ كم معدل استهلاك البطاطس؟ آه... بصراحة لا أستطيع، هل يمكن هذا، أجبني»[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد سافر كل من فلوبير ودي كوم في نهاية أكتوبر وبصحبتهما خادم يدعى ساسوتي Sassetti كان مكسيم قد اختاره ليرافقهما في الرحلة، وهو «شخص رائع، من جزيرة كورس، كان يعمل جندياً وسبق أن زار مصر من قبل»، وقبل أن يرحلوا إلى مصر، ذهبوا إلى مرسيليا لزيارة الطبيب كلوت بك[٣] الذي عاد إلى فرنسا بعد موت محمد علي في أغسطس ١٨٤٩. وبعد رحلة صاخبة إلى الإسكندرية في ١٥ من نوفمبر عام ١٨٤٩، وكان عباس باشا قد اعتلى عرش مصر لتوه.

وفي خطاب إلى والدته، كتب فلوبير «عندما كنا على بعد ساعتين من الشاطئ في ١٧ من نوفمبر، صعدت مع قائد الدفة إلى مقدمة السفينة، فلمحت سراي عباس باشا وكأنها قبة سوداء فوق زرقة البحر. لمحت من خلالها الشرق يتلألأ في نور هائل من الفضة يذوب فوق البحر، وأول ما طالعنا عندما اتضحت معالم الشاطئ، كان رؤية جملين يقودهما جمّال، وعلى امتداد الرصيف كان هناك الأعراب المهرة بسيمائهم المسالمة، يصطادون بالسنارة. أما لحظة نزولنا من السفينة، فقد كانت صاخبة، زنوج، وزنجيات، جمال وعمامات، ضربات من العصا يوجهها الإداريون لتابعيهم تتجه ذات اليمين، وذات اليسار، أصوات متباينة تمزق حدتها الآذان، لقد أتخمت بهذه الألوان تمامًا، كحمار امتلأ بالشوفان.إن العصا تقوم هنا بدور كبير، فمن يرتدي ملابس نظيفة يضرب من يرتدي

(١) إحدى هذه البطاقات ما زالت موجودة بحوزة م. موريس لينون دي بلفون M. M.Maurice Linant de Bellefonds
(2) Corresp . vol. I . p. 327 .

(٣) حول دور كلوت بك انظر الجزء الأول من الكتاب ص ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٥٤، ٣٥٥، كان كلوت بك قد عاد إلى مصر مرة أخرى أثناء حكم سعيد باشا، ليعيد تنظيم مدرسة الطب، التي كان قد أنشأها من قبل، ثم انهارت في عصر عباس باشا، انظر: الفصل الثاني من القسم الثالث من الكتاب.

ملابس متسخة، وعندما أقول ملابس، فإنها تعني سروالاً، إذ نرى عددًا لا بأس به من السادة يهيمون في الشوارع ولا يرتدون سوى قميص، وبأيديهم عصي طويلة، أما نساء الطبقة الدنيا، فكن يسدلن على وجوههن البراقع، المحلاة بالزخارف، وكانت تهتز وتسترسل كما لو كانت على جباه الخيول، فإذا لم نكن نرى وجوههن، فإننا نرى - في المقابل نحورهن - ويبدو أن الحياء يغير من مكانه تبعًا لكل بلد»[١].

وبعد عدة أيام، استقبل أرتين بك Artin وزير الخارجية كلاً من فلوبير ومكسيم، «وكانا يرتديان زيهما الرسمي الأسود، وسترة بيضاء»[٢]، وأعطاهما خطابًا يسهل مهمتهما طوال الرحلة، ثم تناولا الغداء مع سليمان باشا، وفي المساء ذهبا إلى دار الأوبرا. وفي رشيد رحب بهما الحاكم بحفاوة شديدة، وبدا هناك في التقاط الصور الفوتغرافية (وكان ذلك حدثًا جديدًا بالنسبة لهما، وأصبح مكسيم دي كوم مولعًا بالتصوير فيما بعد). وكان الجنود يفسحون لهما الطريق أثناء تجوالهما، ويبعدون المارة عنهما[٣]، كم كانت السلطات المصرية تدلل هذين الشابين البرجوازيين!! حتى أن مكسيم كان يحس بارتباك ممزوج بالزهو، ولكنه تغلب على ذلك. يالتناقض بين حالهما وحال نرڤال المسكين الذي كان يعيش في وحدة قاسية! لدرجة أن خادمهما ساسوتي لم يصدق عينيه من فرط هذه الحفاوة التي كانوا ينعمون بها، وكان يردد دائمًا «هذا هو العدل، أستطيع أن أقول إنه لأول مرة في حياتي أحظى بعشرة عبيد يخدمونني، فضلاً عن آخر يدفع الذباب بعيدًا»[٤].

كانت القاهرة هي بوابة الشرق على حد قول فلوبير في خطاب إلى أمه، وقد أقام فلوبير في فندق الشرق في ٢٦ من نوفمبر.. وفي الأول من ديسمبر، كتب إلى لويس بويلي يقول: «في هذه الساعة يتلألأ القمر ويرسل نوره على المآذن، كل شيء يغرق في صمت مهيب، يمزقه من حين إلى آخر نباح الكلاب خلال ضوء الليل الشاحب، أرى أمام نافذتي كتلة سوداء من أشجار الحديقة، أجلس الآن إلى طاولة مربعة مفروش أسفلها سجادة

(1) Corresp., vol.I , p.262.
(2) Id., p.264
(3) Corresp., vol.I , p.264.
(4) Id., vol. I, p.296

خضراء، وعلى ضوء الشمعتين، وأمام المحبرة الصغيرة، أسمع خلف الحائط الشاب مكسيم يقوم بتحميض صوره الفوتوغرافية، وفي أعلى ينام ساسوتي والترجمان جوزيف بريشتي الذي يعد من أكثر الترجمانات فسوقًا، أما سيدتي، فهي ترتدي قميصًا نوبيًا واسعًا من القطن الأبيض، مزينًا بأهداب وبطراز يضفي عليه طولاً، أما سيدي فهو حليق الرأس تمامًا، سوى بعض الخصلات في أسفل رأسه، يرتدي طربوشًا أحمر... نحن نعيش في مكان ذي طابع شرقي[1]، وهكذا فقد كوّن فلوبير جل انطباعاته عن الشرق في رسالته الأولى التي أرسلها من مصر إلى صديقه الأديب، فحدد بدقة رائعة السمات الأساسية لتجربته الجديدة، لهذا الانبساط والزهو لفضول النفس الإنسانية وتطلعاتها، وهو فضول نهم إلى سبر أغوار النفس أكثر من الاكتفاء برصد ملامحها الخارجية، منجذب إلى دراسة العادات أكثر من دراسة الآثار أو التاريخ، وهذا هو النهج الذي سيهيمن على رحلته إلى الشرق»[2]. وفي عبارة واحدة، مجمل ما أشعر به حتى الآن: قليل من الدهشة تجاه الطبيعة، المناظر الريفية، مثل السماء والصحارى (عدا السراب) وكثير من التعجب إزاء المدن والبشر. كان هوجو يقول: «كنت أقرب إلى الله مني إلى الإنسانية» وذلك يرجع إلى أنني كنت أكثر تفكيرًا وحلمًا وخيالاً في عالم الآفاق الممتدة والخضرة والرمال والأشجار من التأمل في رؤى المنازل والشوارع والملابس والأدوات. كان إحساسي أمام الطبيعة أنني وجدت أكثر مما كنت أبحث عنه طويلاً، أما بالنسبة لبقية الأشياء فقد وجدت ما كنت أتوقعه. ولكن ثمة عنصر هائل لم أكن أتوقع وجوده: إنها الغرابة... فكل مشهد لعبد بليد ولبائع جواري خبيث ولتاجر غشاش تراه في مصر حيًا حقيقيًا جذابًا»[3]. إنها سخرية بلوت، Plaute وموليير Moliére الخالدة تهوِّم على أرجاء المكان.

لن نتوقف كثيرًا عند هذا المشهد الرئيسي، فهذا الشرق حلم كل الرمانسيين هو الذي سيشفي فلوبير من رومانسيته الخاصة. فيستيقظ الكاتب الواقعي في نفسه وتثير اهتمامه وتعجبه المشاهد الشعبية، المشاجرات، الضرب بالعصا، الصياح، الملامح

(1) Id., vol I, p.296

(٢) «لقد اصبحت كاتبًا مهتمًا بشدة بعلم الأخلاق... يا لها من لوحة إنسانية متعددة الألوان... مثل تعدد الألوان في طوق الحمامة».

(3) Corresp., vol.I , p.270.

الساخرة المبالغة للشوارع، الجمل، «هذا الحيوان الغريب الذي يحجل مثل ديك رومي، ويهز عنقه مثل بجعة، ويعيد إطلاق الصياحات متعبًا منهكًا». لقد اتسمت الصفحات الأولى من يومياته في القاهرة بطابع مميز له خاصيته، جمّع فيها فلوبير الأعراف والتقاليد، والمزاج الأكثر بذاءة، والقصص الأكثر فحشًا للمهرجين والعاهرات[1]. وقد خلت هذه الصفحات من أي وهم أو سراب أو ملمح رومانسي، كما أنه عاش هذه التجربة بكل أصالتها وفظاظتها وخشونتها الواقعية، وعبرت عنها كلمات اللغة الشعبية الفجة الماجنة، وبعد عدة أيام من وصوله، غادر فلوبير فندق الشرق، إلى فندق النيل الأقل تكلفة، ولكنه مريح أيضًا، يتولى إدراته بوفاريه Bouvaret، وهو ممثل قديم من الريف الفرنسي، ويقع الفندق في شارع صغير متفرع من شارع الموسكي[2]، وقد استمتع فيه كاتب المستقبل لأكثر الروايات شهرة، مدام بوفاري بتحليل صور جافرني Gavarni المنقوشة على الجدران الحجرية، ولوحات مجلة شاريفاري Charivari التي تغطي سجاجيد ردهات الدور الأول من الفندق: «عندما يأتي شيوخ سيناء للتفاوض مع المسافرين، فإن ملابسهم البدوية الصحراوية التي تكاد تلامس الجدران، تتناقض مع كل ما هو رفيع المستوى، أرسلته الحضارة إلى مصر، مثل العادات الباريسية (في سلوك رواد الفندق)، واللوحات الشهيرة (المعلقة على جدرانه) لفتيات البغاء، لطلاب الحي اللاتيني، لبرجوازية دوميه Daumier الذين يظلون صامتين أمام العبد الذي سيفرغ فضلات نزلاء الحجرات»[3]. وفي ظل هذا المناخ لنا أن نتصور بيسر طبيعة الحوارات التي كانت تدار حول مائدة الطعام في فندق الشرق حيث كان يوجد مؤلف الأغاني أرستيد دي لاتور Aristide de La tour[4]،

---

(1) Voyage en Orient, éd du centenaire p.29-32.

(٢) يقع هذا الفندق على مقربة من تقاطع شارع الموسكي والخليج، وقد ضم كتاب لويز بروبسي Louise Preusser والكونتيسة أولجا دي إلونبرج Olga d' Eulen burg : Nach Aegypten and den heiligen Land المطبوع عام ١٨٨١ رسمًا لواجهة فندق النيل، كما أن صور صالون الفندق وشرفاته وغرفة الطعام توضح الأثاث الفاخر للفندق الذي يمتزج فيه الذوق الأوربي والشرقي في آن، كما تتباين فيه ألوان المفروشات وتتنوع المشربيات والأبواب... (مجموعة كمال بك غالب).

(٣) يوميات ٤ ديسمبر ١٨٤٩، .Voyage en Orient, éd du centenaire p. 29-30.

(٤) حول شخصية اريستيد دي لاتور،انظر . .M.Du. Camp Souvenirs Littéraires , vol.I , p.497

والطبيب روبل Ruppel وموريس Mouriez وبارون جوتبرج Gotberg(١). وأغلب الظن أن فلوبير قد استمد من هذه الجلسات قصصه ورواياته الجرئية الخادشة للحياء. «لدينا حرية تامة في اختيار لغتنا التي كانت تحمل كثيرًا من الوقاحة في بعض الأحيان، حتى أن رئيس الخدم وجد أننا نغالي في بعض الأحايين»(٢).

كل ذلك يعطينا فكرة عن طبيعة وجبات فندق النيل، لأن السيد بوڤاريه الممثل السابق لم يكن يحب أن يكون متقشفًا بهذه القسوة.

ولم يمنع هذا المناخ التي كان يحيط بفلوبير في الفندق، أن يترك العنان لجمال البلاد السامي ولسمائها لتأسره وتستولي على وجدانه، ويتغنى به نثرًا دقيقًا جميلاً، في خطاباته العائلية(٣).

وفي السابع من ديسمبر توجه الرحالتان إلى الجيزة والأهرامات، وقد قص كل منهما بدوره في مرات متعددة هذا اللقاء الذي لا ينسى مع أبي الهول، فكتب مكسيم في كتابه «النيل» نصاً فريدًا أظهر فيه براعته في التعبير، أما فلوبير فذكر ببساطة شديدة ملابسات اللقاء في خطاباته وفي يومياته. إليكم الفقرة المثيرة المختصرة التي كتبها فلوبير: «في الساعة الثالثة والنصف بلغنا الصحراء حيث تنتصب الأهرامات الثلاثة. وما أن وصلنا حتى تركت اللجام، فانطلق حصاني يعدو، يخوض المستنقعات ويجتازها. وبعد دقيقتين، انضم إلي مكسيم، وكان سباقًا ضاريًا، تدافعت صرخاتي، ولم أستطع كبح جماحها، غمرتنا زوبعة ثم ارتقينا الطريق إلى أبي الهول. ومنذ بلوغنا الصحراء، كان البدو الذي يرافقوننا يتبعوننا وهم يصرخون من شدة ركضنا، وكلما اقتربنا من أبي الهول كان يزداد كبرًا، ويخرج من الأرض مثل الكلب ينهض رويدًا رويدًا. كل شيء من حولنا

---

(١) روبل : Ruppel رحالة ألماني ومؤلف كتاب Reisen in Nubien rnd in dem petraischen . Arabien (1826)

وموريز: مؤرخ عصر محمد علي، انظر: الجزء الأول من الكتاب، ص ٢٨٠، ص ٢٩٥.

جوتبرج: مؤلف كتاب: Des Catractes du Nil et Spécia lement de celles de Hanwek et de Kaybar . Paris 1867

شلالات النيل، وخاصة شلالات هانوك وكيبر، باريس ١٨٦٧

(2) Corresp., vol.I , p. 285.

(٣) انظر: خطابه المؤرخ في ٤ ديسمبر ١٨٤٩، . Corresp., vol.I , p.257-278.

يكتسي بلون رمادي.. الرمال والأهرامات، وأبو الهول، ويغرق في خضم وردي رحب، السماء شديدة الزرقة والعقبان تطير محلقة في بطء حول قمة الأهرامات. توقفنا أمام أبي الهول، وكان ينظر إلينا بطريقة مرعبة. شحب وجه مكسيم، وخفت أن أصاب بالدوار، وحاولت السيطرة على انفعالاتي عدنا أدراجنا مسرعين منفعلين، مندفعين، وسط الصخور، ثم تجولنا حول سفح الأهرامات سيرًا على الأقدام، ولم تكن الحقائب قد وصلت إلينا، وعندما أسدل الليل ستائره أقمنا بالخيام»[1]. آه ! لم نعد نتحدث عن عدم التأثر والسكينة، والموضوعية ! يااللانفعال ! يااللشاعرية ! كم سيكون من الصعب عليه قمع انفعالاته ! أي سلم صعب يجب عليه أن يرتقيه لينتقل من الرومانسية التي تجلت في عمله الأول «غواية سان أنطوان» (١٨٤٩) إلى الواقعية الخالصة البسيطة في مدام بوفاري (١٨٥٧) ! مهما يكن الأمر، فهو الآن في الطريق، وفي الشرق، وفي مصر تحديدًا، ستحقق المرحلة التحررية، وسيتجرد من هذا الرجل المسن، وسيسيطر على حساسيته وحماسه وسوراته.

لنر الآن كيف يستطيع أن يكوّن رؤيته ويحللها في أكثر اللحظات إثارة. وفي اليوم التالي، صعد الشابان هرم خوفو؛ ليتمكنا من تأمل شروق الشمس من أعلى. لنفتح دفتر يوميات فلوبير: «كانت الشمس تشرق قبالتي، ويسبح وادي النيل كأنه بحر أبيض هائج في لجة من الضباب، وتتبدى الصحارى بتلالها الرملية محيطًا بنفسجيًا داكنًا متحجرة أمواجه. وخلف هذه السمات العربية تواصل الشمس صعودها إلى السماء، ويتمزق الضباب إلى رقع كبيرة من نسيج شفيف، وتتهادى المروج التي تشقها قنوات المياه بساطًا أخضر مزدانًا بالشرائط. كان ثمة ثلاثة ألوان تغمر هذا الوجود: خضرة الأرض الرحبة، وحمرة ذهبية في السماء، ولون قرمزي شاحب في الخلف وعن اليمين، تمتد من خلاله في نتوءات صهباء خلابة منارات القاهرة، وزوارق عابرة، بعيدًا وباقات من النخيل»[2].

---

(1) Voyage en Orient.p.33.

على حد قول مكسيم دي كوم، إن فلوبير لم يزل سجين مهنة الأدب، فقد كتب هذه الجملة في أول رواية لكتابه «غواية سان أنطوان»، من الجانب الممتد إلى ليبيا، رأيت أبا الهول يركض هاربًا، كان يعدو مثل ابن آوى.

(2) Voyage en Orient.p.34.

ولنلاحظ جيدًا أن فلوبير قد حلل هذا المشهد تحليلاً واضحًا جليّاً في وقت رؤيته، وأنه دون هذه الألوان ودرجاتها في دفتره الصغير تلقائيّاً دون البحث في أدبيات اللغة عن تعبير مناسب، وذلك في لحظة كان هو نفسه فريسة ترتجف أمام هذا المشهد العظيم. كتب في ١٥ ديسمبر إلى أخيه يقول: «أما بالنسبة لهذا المنظر الذي اكتشفناه من أعلى، فإنني أتحدى أيّاً من كان: ديزالور Desalleurs أو مدام بييول M. Bailleul أو شاتوبريان أن يكون لديهم فكرة عنه، كنا نشد معاطفنا ونحتمي بها من البرد الذي يخترقها ويسكتنا عن الحديث، هذا كل ما يمكن قوله»(١).

وفي الأيام التالية زار الصديقان سقارة وممفيس، كما زارا القبور والأماكن المحنطة فيها طيور إبيس، حيث صفت المومياوات «مثل قطع من خبز السكر رصت عند بقال، تكتسي هاماتها برؤوس صغيرة». ولكن فلوبير لم يبد شغفًا بهذه الاكتشافات الأثرية الأولى التي أقدم عليها دي كوم الطموح النهم لمعرفتها. وبصدد هذا الأمر، يزعم دي كوم في كتابه «ذكريات أدبية» أنه اكتشف ربوة جبّانة عجول أبيس قبل عام من اكتشاف مارييت Mariette لها. عندما تسلقنا المنحدر الذي انهالت رماله تحت سنابك حصاني، لاحظت أن شكل هذا التل غير طبيعي وأنه صناعي، فقمته ممتدة وتتجه ناحية اليمين. فقلت لفلوبير: «هل تريد أن تكون مجموعة من الآلهة المصرية؟ فلنمكث هنا، ولنحفر الأرض، فما نراه ليس تضاريس الأرض، ولكنها جثوة تغطي قصرًا أو معبدًا، ربما نجد فيها مصباح علاء الدين أو عصا موسى»، فأجاب فلوبير قائلاً: «لديك رصيد فكاهي لا يكل ولا يمل»! ولم يمض عام حتى بلغت اكتشافات مارييت مكانًا قريبًا من هذا التل، ولم يلبث أن اكتشف الجبّانة(٢).

وفي حقيقة الأمر، فإن فلوبير ومكسيم لن يتفقا أبدًا بعد الآن، فقد كان مكسيم منجذبًا إلى التاريخ وعلم الآثار، فنظم بدقة مسار رحلته، وكان على صلة بالفارس أميدي

(1) Corresp., vol.I , p.281.

(٢) انظر: .Souvenirs Littéraires , vol.I , p.475، لم يتمكن كل من ج. بارتيليمي سان هيلار من الذهاب إلى منطقة سقارة عندما زار مصر عام ١٨٥٥ وبعد أوجين بواتو الذي زار مصر ١٨٥٧ أول رحالة فرنسي وصف جبانة ثيران ابيس في كتابه: «شتاء في مصر». Un hiver en Egypte 3e éd Tours , 1876.

جوبير Amédeé Jaubert المستشرق الذي صاحب حملة نابليون، كما اطلع على اكتشافات بلزوني ولسيوس وشامبليون، وويلكنسن، وبريس دافين، ودرس مع لويس دي كورمنن Louis de Cormenin كتاب سانت كروا Sainte croix المراجعة النقدية لمؤرخي الاسكندر L'Examen critique des historiens d' Alexandre الذي استقى منه شاتوبريان مادة كتابه الحادي عشر من مجموعة الشهداء Martyrs، وقرأ مكسيم أيضًا مؤلفات الرحالة السابقين أمثال كورنيلوبرن Corneille le Brun، وأوليفيه Olivier ودابر Dapper، وفولني Volney، كما قرأ كتاب مراسلات الشرق Correspondance d' Orient لميشو وبوجولا، وطالع على وجه الخصوص مؤلفات شامبليون الذي سيتابع رحلته على هدي نهجه ووفق كتابه «خطابات محررة من مصر والنوبة Lettres écrites d' Egypte et de Nubie»[1]. كان مكسيم دي كوم مجداً في عمله، جاء إلى مصر ليعود إلى بلاده حاملاً مؤلفًا عن هذه البلاد، جاء ليصنع لنفسه مكانة واسمًا، وكيف السبيل إلى ذلك؟ هو لا يعرف بعد، ولكنه يترصد دائمًا الاكتشافات، الأحداث، الصدف التي يمكن أن تلقي الضوء عليه وتبرزه. كما أنه يهتم بشغف بكل ما يتعلق بالماضي، بعلميات التنقيب والاكتشافات، بالمعابد والأساطير العربية وبالتاريخ.

«ولدت رحالاً، نشطًا ونحيفًا،
قدمي خشنة محدبة كالبدوي
شعري مجعد كشعر زنجي
عيناي قويتان لا تؤثر فيهما أشعة الشمس.
.... أحب الشرق، والنور.
والنسور المشوبة باللون الأبيض المحلقة في السماء

---

(١) تم العثور في الأوراق التي لم تنشر لمكسيم دي كوم (مكتبة المعهد HS رقم ٣٧٢٠) على ملف يضم بعض الملاحظات التي دونها ما بين عامي ١٨٤٨ - ١٨٤٩ حول مصر والنوبة، وأرمينيا وإيران والبلاد التي كان يود زيارتها. وقد نقل فقرات طويلة لكتاب أمثال:

ستـرابون Strabon ، بلوتارك Plutarque، بلين Pline، ديودور دي سيسيل Diodore de Sicile، عبد اللطيف Abdellatif، هربلو Herbelo، انفيل Anville، فولني Volney، أوليفييه Olivier، نيبور Niebuhr، بلدي Baldi، شاتوبريان، شامبليون، بريس دافين، ريتر، ميشو وبوجولا، سلفستر دي ساسي، نستور لاهوت، وقد ذكرهم في دراسة له تحت عنوان: «رحلة إلى مناجم الزمرد» Voyage aux mines d' émeraude نشرت في ريفو دي دو موند عام ١٨٤١.

أحب أن أرى ذرى الأكمة التي تعج بالزواحف
القاعات الممتلئة بالأعمدة
التي كان يمشي فيها منذ أزمان بعيدة رمسيس وقمبيز.
.... أبحث عن أوطان سحيقة
حيث تنساب أيامي في أزمان خوالي
أتتبع سيرزوستريس في كل غزواته
أرى الرهبان في أعيادهم
تنتشر زهور اللوتس تحت أقدامهم المزدانة بالذهب»[١]

ولكي يقتفي أثر هذه الحياة السابقة، كان مكسيم في حركة دائمة، يعمل بجد، ينقب ويحفر، ويرسم ويصور، ويشكل نماذج، ويقارن ويكتب. أما فلوبير فكان - على النقيض منه تمامًا - مريضًا، ذا مزاج متقلب، معتل الحس، مما أثقل من آلامه الجسدية. كلنا يعرف أنه كان يجد صعوبة في أن ينطلق، كما أن نشاط رفيقه وحماسه كان يبدو له جهدًا كبيرًا بلا جدوى، ووفق رواية دي كوم كان فلوبير هادئًا، منغلقًا على نفسه[٢]، لا يملك أي طموح آني. فالإعداد المتأني لعمل يفكر فيه، والإبداع الفني يعدان بالنسبة إليه أكثر أهمية من النجاح الاجتماعي أو الأدبي. ولنفكر مليّاً كيف أن أول رواية له «مدام بوفاري» لن تصدر إلا عام ١٨٥٧ أي بعد سبعة أعوام من رحلته، وقد أخفى في طيات أدراج مكتبه في مدينة روان كل إبداعات فترة شبابه التي نعرفها الآن. فليس هو الشخصية التي تخط كتابًا لدى عودته مباشرة. فاعتلال الجسد لم يتح له إلا الاقتصار على الاستيعاب والتأمل، فما كان عليه إلا أن يفتح عينيه وأذنيه، على الرغم من أن هذا العالم الواسع، الذي وجد نفسه في مواجهته بدا له مختلفًا في ذلك الوقت، فإنه كان يذوب متعة لمجرد رؤية لون من ألوان الأفق. فماذا سيجلب له الماضي، إذا كان الحاضر يبسط أمام ناظريه فتنه الخلابة المشرقة! كان فلوبير يكاد يعادي دي كوم في النزعة الحسية والثقافية، تستحوذ على عقله ومشاعره الملامح الرئيسية ودرجات الألوان الساخنة لمشهد طبيعي، رسم لرأس جميل

---

(١) تقمص الآلهة، أغاني حديثة (١٨٥٥).

(2) Souvenirs Littéraires , vol.I , p.480.

جدير بالتصوير، نحت لجسد متناسق، روائح منبعثة من محلات العطارة، عطر يفوح من مجمرة الطيب، وإذا كان قد أقبل على القيام بجولة حول أحد الأهرامات؛ فذلك لأنه يود رؤية احتفال على الطريقة العربية، عرض للسحر رقص العوالم والدراويش. البحث الوحيد الذي قام به هو رصد تفاصيل عالم الغانيات بكل جمالياته وأسراره الدقيقة.

وبعد رحلة قصيرة لمدة أسبوع إلى سقارة وممفيس، اتجه فلوبير إلى القاهرة يحدوه السرور والنشوى. وبعد عودتهما مباشرة نجح مكسيم في الاتفاق مع من يدعي خليل أفندي لإعطائهما دروسًا في الحضارة العربية والإسلام، بواقع أربع ساعات في اليوم في مقابل ثلاثة فرنكات للساعة: «كنا ندون ملاحظاته التي يمليها علينا»[١]. ولكن فلوبير لم يكن تلميذًا نشطًا[٢]. وإذا كان في بعض الأحيان ينجذب إلى «رجال الدين الذين يمثلون كل الأديان» فذلك لأن «الإنسان يحتاج من وقت لآخر إلى السكينة والهدوء النفسي». والواقع أن ثمة ما كان يثير اهتمام فلوبير أكثر من انشغاله بدروس خليل أفندي، فقد برع في رسم حلقات رسم طائفة من الرجال المخنثين الذين وصفهم أيضًا جيرار دي نرفال من قبل، فحبه للدقة واهتمامه بالتفاصيل التشكيلية المكونة لألوان اللوحة جعله يبدع في وصفه لتطور حركات «اثنين منها غريبي الأطوار، قبيحين بوضوح، ولكن فيهما فتنة تتبدى في نظرتهما وتدرجات معانيها أو في أنوثة حركاتهما، وهما يرقصان بتكسر وتميع، عيونهما مكحلة، ويرتديان ملابس النساء»[٣].

---

(1) Id., p.472-743 ..

كانت أوراق مكسيم دي كوم الموجودة بمكتبة المعهد تحت رقم ٣٧٢١، تحتوي على أسئلة دونها مكسيم نفسه ليطرحها على خليل افندي، كما كانت بها ملخصاته للمحاضرات حول الأخلاق الإسلامية، وكانت عبارة عن ستين صفحة كتبت على وجهيها.

(٢) لم يستبعد فلوبير الملاحظات التي كان يدونها في محاضرات خليل أفندي، فعرف كل أسماء الأكلات العربية، وكل أسماء العطور في القاهرة، فكان يعتقد وفق ما جاء في خطاب إلى والدته «أن معرفة الأشياء تجعلني نافعًا في اي مكان». كما نجد انه وضع هذه الملاحظات تحت عنوان: الحياة الإسلامية، محاضرات خليل أفندي، القاهرة، يناير ١٨٥٠، وأخلاقيات الشرق وعاداته (أوراق خاصة بفلوبير تحتل رقم ١٦١، ١٦٢، من كتالوج فرانكلين جروت Franklin - grout فندق دروات Drouat، ١٩ نوفمبر ١٩٣١.

(3) Cf. Corresp., vol.I , p.283-284 Voyage en Orient, 29 décember1849., M.Du. Camp: Le Nil, p.34.cf. Aussi plus haut, p. 28-29.

كانت هذه العروض التي تمثل أنماطًا من الحياة الإسلامية، أو الأوربية تحتل مكانًا كبيرًا في ملاحظات فلوبير التي يدونها، وتجذب انتباهه على مدى شهري ديسمبر ويناير اللذين قضاهما في القاهرة: مستشفى القصر العيني الذي أنشأه كلوت بك، القاعات المخصصة لماليك عباس باشا،[١] «قداس منتصف الليل باللغة اللاتينية، أسقف يقف تحت مظلة القربان المقدس، شموع، أعمدة، مزدانة بنسيج أحمر مشجر[٢]، حفل تنكري في شارع لبيوت الغواني، محل للعطور، نزل لمجاذيب الأزبكية[٣]، زيارة إلى أسقف قبطي» شيخ ذو لحية بيضاء، يرتدي معطفًا مبطنًا بالفرو، يجلس القرفصاء على أريكة، عاري القدمين. يتحدث إليه ويطرح عليه بعض التساؤلات التي تثير ذكرياته أثناء كتابته «غواية سان أنطوان»[٤]، قنوات بحر يوسف، تلاحقه مشاهد «الكلاب الضارب لونها إلى البياض التي تتخذ هيئة الذئاب ولها أذن مدببة»، الغانيات اللائي يختلطن اختلاطًا فاحشًا بالدواب أمام ناظريه[٥] كلها صور تتلاحق، يرسمها قلمه الرصاص في خطراته، وتضمها سلسلة من المتناقضات، يدونها في يومياته، ويخطها في مراسلاته. وبدلا من أن يعالج مشهد العودة العظيم من مكة، بصورة ملحمية على طريقة جيرار دي نرفال، عبر فلوبير عن هذا المشهد بموضوعية ساخرة، مبرزًا ما فقده هذا المشهد من سمات أساسية أولية، فاكتسى بطابع أوروبي: «عزفت موسيقى البولكا، وكان مايسترو الفرقة الموسيقية سمينًا له بطن كبير، يرتدي بذلة رودنجوت وحذاءً طويلاً لركوب الخيل، أما نوبار بك، فهو شاب أرمني له ملامح شباب الحي اللاتيني، وينحشر الضيوف الباشوات الأتراك في زيهم الأوربي ويبعث مرآهم على الضحك.... ويرتدي الضباط الأتراك المساكين أغطية الساق الجلدية التي تمتد تحت القدم، يا لها من أحذية»![٦].

---

(1) Voyage en Orient.p.41.

(2) Id., p.42.

(3) Id., p.43.

(4) Id., p.44.

(5) Id., p.47.

(6) Voyage en Orient.p.48-49. et Cf. M.Du. Camp. Le Nil. p.58-59.

كتب فلوبير إلى والدته خطابًا في ٣ فبراير ١٨٥٠، يصف لها فيه طقوس احتفالات عيد الدَّهسة، وهي تسمية غير دقيقة، أشار إليها جيرار دي نرفال إشارة سريعة في كتاباته. والدهسة عيد ديني لإحياء ذكرى «معجزة أحد الأولياء المسلمين الذي دخل القاهرة قديمًا، يمتطي حصانًا ويسير به فوق أوعية من الزجاج دون أن تتكسر» أما الشيخ الذي يجدد هذا الطقس ويستعيده فهو يعبر الآن فوق أجساد ممددة على الأرض «رأيت هناك بعض الدراويش يمسكون بأسياخ من الحديد تمر في أفواههم وصدورهم. تطلق الجموع المشجعة المحتشدة صيحات الحماس، ويعلو صوت منفر لموسيقى صاخبة تصيب المرء بالجنون عند سماعها. عندما ظهر الشيخ يمتطي الحصان، كان الرجال الأقوياء قد انطرحوا أرضًا وتمددوا في خط مستقيم مثل أسماك الرنجة، وتكدسوا بجانب بعضهم حتى لا تبقى هناك فجوات بين الأجساد، ثم مشى رجل فوق هذه الأجساد المتراصة، يتفقد مدى التصاقها وتماسكها، وهبت عاصفة من ضربات العصي انهمرت من الخصيان تضرب ذات اليمين وذات اليسار على غير هدى تفرق الجموع المحتشدة، كنا نسمع دوي العصي المصنوعة من سعف النخيل وهو يهبط على الطرابيش مثل صوت المقرعة على الطبول التي سدت ثقوبها، أو على كرات من الصوف. يتقدم الشيخ فوق حصانه الذي يمسك به سائسان، ويمسك بالشيخ نفسه رجلان آخران، ويبدو أنه في حاجة إلى معونتهما، وبدأت يداه ترتجفان، وانتابته نوبة من العصبية، وفي نهاية تجواله، كان تقريبًا مغشيًا عليه. وعبر حصانه بخطوات وئيدة على أجساد أكثر من مائتي رجل ممدد على بطنه على الأرض»[١].

وهكذا مضى شهران من شتاء القاهرة، توالت فيهما الأيام حافلة بالعروض والمشاهد المختلفة. حرص فلوبير أثناء تلك الفترة على لقاء البكوات الفرنسيين الذين فقدوا حظوتهم منذ تولي عباس باشا مقاليد الحكم، وكان معروفًا عنه أنه عدو للإصلاح وللأوربيين[٢]، وأحب فلوبير سليمان باشا الذي كان يعامله «وكأنه طفل صغير»[٣]، يلتمس

(١) انظر: .Corresp., vol.I , p.298، وانظر ايضًا ما سبق ذكره في الجزء الخاص بجيرار دي نرفال، وانظر كتاب، ليالي القاهرة، Les Nuits du Caire، ص ٣٥١، وانظر: مكسيم دي كوم، النيل، ص ٩٣، ٩٤، وانظر: كتاب «لوحات أدبية، Tableaux à la Plume لجوتيه، ص ٢٢١، وهو الكتاب الذي عرض فيه بيدا

(٢) انظر: ..M.Du. Camp: Souvenirs Littéraires , vol.I , p.450, Corresp., vol.I , p.292.et Le Nil, p.150-151

(٣) انظر ..Corresp., vol.I , p.292. cf. t.I, p. 204.253.261.323 وانظر ايضا ما سبق ذكره عن سليمان باشا في الفصل الخاص بجان جاك امبير.

لديه المحبة والود، وكان قد استقبله مرات متعددة في قصره بمصر القديمة، بالقرب من النيل، كان شيخًا طيبًا رائعًا، صريحًا مثل حد السيف وغليظًا مثل سُبَّة[١]. عشق فلوبير طريقته في التعبير، وحكاياته، ونكاته التي كان – وفق تعبير مكسيم – يضفي عليها نكهة بمزاحه الثقيل[٢].

واستقبل لينون دي بلفون فلوبير ومكسيم، وأكرم وفادتهما، وقال عنه فلوبير إنه: «من أكثر الرجال الذين التقينا بهم تهذيبًا»[٣]، وعرض عليهما بلفون لوحاته وخطته التي وضعها لحفر قناة من خليج السويس قبل أن يقدم المشروع فردينان دي ليسبس. ومن خلال لينون، تعرفا إلى سان سيمونيون شارلز لومبير بعد عام من عودته إلى فرنسا Saint- Simonien Charles Lambert الذي سيصبح بعد عام من عودته إلى فرنسا موضع سر مكسيم دي كوم وموجه وعيه[٤]، كما سيهدي إليه مكسيم عام ١٨٥٥ كتابه «أغنيات حديثة» وهو عبارة عن شروح شعرية لحوارتهما الفلسفية، ويكشف الكتاب عن تأثير الأب أنفوتان Enfantin في مسكيم وعن امتنانه الكبير للسيدة دلسار Delessert:

«لقد ساندتماني بجهودكما المظفرة
أنت يا لمبرت عقلي، وأنت يا بورسيا قلبي»

وفي مواجهة آراء المفكر سان سيمونيون ذي النظرة التأملية الجميلة الذي كانت تطور أفكاره عن الفن المخلص، وهو يقلب بين أصابعه حبات مسبحة من العقيق، كان فلوبير يدافع بشغف عن فكرة الفن غير الملتزم، أي الفن للفن، دون التقيد بأهداف اجتماعية أو أفكار ميتافيزيقية، وكان سلوك مكسيم دي كوم الذي يميل إلى فكر لمبرت

(١) Voyage en Orient.p.51.، في الخامس من فبراير ١٨٥٠، تناول فلوبير غداءه مع سليمان باشا بصحبة ماشيرو Machereau، انظر ايضا .Corresp., vol.I , p.292.
(2) Cf. M.Du. Camp . Souvenirs Littéraire . vol.I . p.452.
(3) Corresp.. vol.I . p.273.
(٤) تضم مكتبة أرسنال في جناح سان سيمونيون، كل المراسلات التي تمت بين لمبرت، ودي كوم، فضلاً عن ثلاث بطاقات من فلوبير إلى لمبرت، انظر: Souvenirs Littéraires . vol.I . p.469-471.، وانظر ايضًا بونفون، دي كوم، جماعة سان سيمونيون، مجلة التاريخ الأدبي لفرنسا Histore littéraire de la France Revue d' عدد أكتوبر - ديسمبر ١٩١٠.

يشي بانشقاق بينه وبين فلوبير يهدد صداقتهما، وإلى جانب هذه الشخصيات المرموقة التي التقيا بها، تعرف فلوبير ومكسيم دي كوم إلى بعض رجالات المجتمع الفرنسي في القاهرة، منهم اللامعون، ومنهم أصحاب الاهتمامات الضحلة، وقد أسهمت هذه الشخصيات في خلق موضوعات ثرية، يستقي منها فلوبير روائي المستقبل الواقعي مادته الأدبية. وقد اقتصر فقط على ذكرهم في يومياته المقتضبة دون أن يكتب أية تعليقات، أما مكسيم دي كوم فقد عبر عن انطباعاته عن الأشخاص الذين التقى بهم في كتاباته، وعلينا أن نعترف أنه قد قدم تحليلاً ممتعًا للشخصيات التي التقى بها[١].

وها هي إحدى هذه الشخصيات الكولونيل ماري Mari رفيق قديم لسليمان باشا في الجيش، وهو من جزيرة كورس قام بدور بارز أكثر منه سامٍ في الجيش الفرنسي، فقد كان طبالاً، وكانوا يطلقون عليه تابان بك[٢]، بدلاً من بكير بك على سبيل المزاح الثقيل، كان يعمل ضابطًا في شرطة الأجانب وهو الذي أتاح الفرصة لفلوبير ومكسيم دي كوم لحضور حفل القائد الأعلى بمناسبة عودة قافلة الحج من مكة. يقول عنه مكسيم دي كوم «كان يعيش في بيت كبير في منطقة الأزبكية، وكان يقيم صالونًا في بيته، تختلط فيه الضيافة الإسلامية ببساطة ترحيبه بالجنود الوافدين» كان متزوجًا من كرواتية، طويلة القوام، شديدة الجمال، تبدو عملاقة بجانبه، «رجل قصير، وجهه ممتلئ وجسده نحيل»، كنا نسمع ترحيبًا يتجاوز واجباتها باعتبارها زوجة لبكير بك، وكانت هي وزوجها لا

---

(١) يتمتع مكسيم دي كوم بميزة فريدة الا وهي كيفية رسم صورة لشخصية من الشخصيات، فيجيء وصفه حيًا مدعمًا بالتفاصيل زاخرًا بها، كما يبرع في تتبع كل الجزئيات التصويرية والسمات التعبيرية، وإذا كان م. مينيل M.Maynial يجد في كتابه «شباب فلوبير» La Jeunesse de Flaubert، ص ٢٠١، ان مكسيم عرض اطروحته المنهجية حول مصر بطريقة فيها عمومية كبيرة، ذلك لأنه قارن يوميات فلوبير بكتاب مكسيم ذكريات أدبية، وهو الكتاب الذي تأخر نشره وظهر عام ١٨٨٢، ولم يقارنه بكتابه «النيل» الذي ضم ذكريات حديثة مليئة بالتفاصيل الواقعية المدهشة، وظهر عام ١٨٥٤، ولكن مينيل لم يعجب به كما لم يعجب ايضًا بكتاب «ذكريات أدبية» على الرغم من أنه أكثر ترتيبًا ونظامًا من كتاب «النيل». وقد قدم مكسيم دي كوم عرضًا وافيًا للشخصيات، واحب ان أضيف ان بعض ملامح هذه الشخصيات قاسية وكاريكاتورية (على سبيل المثال) بريس دافن، الجزء الأول، ص ٣٠١ - ٣٠٢.

(٢) Tapin تابان تعني بالفرنسية طبالاً.

يجيدان بدرجة عالية الصالونات ولغتها، قدم يومًا بكير بك إلى زوجته زوجين وصلا حديثًا إلى مصر قائلا: «هذا السيد فلان... وزوجته في رحلته»، ضحكنا، فاستدرك قائلاً بنفس الطريقة: «أردت أن أقول رفيقته»[١].

وفي صالون السيد بكير بك، كان لوبير بك Lubbert- Bey أحد مديري أوبرا باريس السابقين، ومدير مدرسة الفنون الجميلة في عهد محمد علي[٢]، يروي سجل معلوماته الحافل عن التاريخ الشائك حول فترة التمزق الكبرى التى صاحبت إعادة الملكية «وحينما كان يفصل هذه الأحداث، بلغة قاصة تجود فيها عليه قريحته، كان وجهه النضر ينتعش، ويشبه ذواقة يستطيب فطر الكمأة»[٣]. ولكن أكثر الشخصيات لطفًا من الجالية الفرنسية التي شغف بها فلوبير ووجدها ثرية، تدعي شماس Chamas الذي كان حكيم باشي[٤]، أي طبيب أول، اختاره كلوت بك سريعًا عندما كان ينظم أمور الخدمات الصحية، وهو، وفق قول مكسيم، «غير قادر على تمييز كسر من زكوم» ما الذي يميزه إذن لينال إعجاب فلوبير؟ حماقته وجهله بلا شك، ولكن هناك أيضًا، ادعاءاته الأدبية، وفي خطاب إلى لويس بويلي في ٤ يونيو ١٨٥٠، كتب فلوبير عن شماس يقول: «هو شاعر له مذاق شعر

---

(١) انظر M.Du. Camp. Souvenirs Littéraires , vol.I . p.454، عرف دي كوم عن بكير بك طاقته في النشاط والملاحظة. فاستعان بملاحظاته الخاصة بعدن وبالجزيرة العربية، وهي تتطابق مع ملاحظات الرحالة الإنجليزي وليام بالجراف، William Palgrave في كتابه «عام من الرحلة في الجزيرة العربية» Une année de voyage dans l' Arabe centrale 1862 -1863. وقد وجدت في أوراق مكسيم في مكتبة المعهد الملاحظات نفسها المدونة في مسودات بكير بك في ديسمبر ١٨٤٩. ومن جانبه، لخص فلوبير هذه المعلومات، والملاحظات (no 160 du Catalogue de la vente Franklin - grout . Hôtel Drouot , 19 novembre 1931 وعندما يكتب دي كوم كتابه «مذكرات منتحر» Memoires d' un suicide، فإنه سيجعل لبطله جون - مارك Jean- Marc خادمًا يدعى بكير - اجا Békir - Aga والاسم بالطبع هو اسم تابان بك، فيما يخص هذا الموضوع، انظر: جويمار Guemard، قصة بكير بك Histoire de Békir - Bey، مجلة تاريخ المستعمرات Revue d' histoire des colonies، ١٩٣٠، العدد ٧٣، ص ٥٧-٦٦ .

(2) Cf. t. I, p. 253, 358.

(٣) الكمأة، جنس فطور درنية من الزقيات وفصيلة الكمئيات، تنبت وتتكاثر تحت الأرض فتنفضها، تجني وتؤكل مطبوخة، وتكون في حجم البندقة أو في حجم البرتقالة على حسب الأنواع (المترجم).

(٤) ذكرت شخصية شماس بدون حفاوة، في كتاب «المعاصرة في مصر» La Contemporaine en Egypte عام: ١٨٣١، الجزء الأول، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.

مـارمـونتل Marmontel وخـفـة شـعـر ديسـي Ducis، وهو كـائـن مـتـعـاظم من فـرط خيـلائـه». عندما ومضت الشرارة الأولى لثورة ١٨٤٨ ألم يهنئ لامارتين Lamartine في قصيدة غنائية انتهت بهذا البيت:

«لتحيا دائمًا الحكومة المؤقتة»(١)

فلم يقتصر نشاطه على كتابة المسرحيات، ولكن ما كان أسوأ من ذلك، هو قراءته لها على مسامع الآخرين، وكلما كانت الأشعار رديئة، ازداد احتفاء فلوبير بها، وازداد شماس غرورًا. فعندما ألقى شماس مسرحيته التي بعنوان «عبد الله» يمدح فيها بفخر تناغم عمله الذي لا مثيل له، طلب منه فلوبير استعادتها مرات متعددة، وكان يضرب الأرض بقدميه، ويلوح بيديه من فرط سعادته الشديدة.

«إن وصف الإله هنا، يجعل الإله ينصرف»

ولم يكن شماس يتردد في اقتباس المسرحيات من الكتاب الآخرين، وحينما يتعرف مكسيم دي كوم على المسرحية التي كانت لفولتير Voltaire رد شماس، بابتسامة مشبعة بخيلاء فائق قائلاً: «نعم، هذا حقيقي، ولكن هذه الأشعار تنقل أفكاري تمامًا، وأعتقد أنه يحق لي امتلاكها؛ لأنه ليس عندي أفضل مما قيل»(٢).

استكمل فلوبير ومكسيم خبرتهما في القاهرة بزيارة القصر فالتقيا بعباس باشا خليفة محمد علي، خلال جلسة فردية قدم فيها قنصل فرنسا العام الجديد م. لومون M. Lemoine أوراق اعتماده.. كان الباشا «رجلاً سمينًا، له بطن ممتلئ، شاحب اللون، حركاته تتسم بالرعونة، ساقاه مقوستان، وعيناه كابيتان»(٣)، يتقوض في ركن على أريكته، «تنفلت أحيانًا من هذه الكتلة اللحمية ضحكة متقطعة لا تبسط أسارير الوجه المنتفخ، ولا تقلل من جهامته»(٤).

---

(1) Corresp., vol.I , p.332-333.

(2) Souvenirs Littéraire , vol.I , p.485 - 467.

(3) Id., p.450 - 451 et Le Nil, p.150 - 151.

(4) Id., p.450 - 451.

كان قصر القلعة يزدان بأشكال المحارة والصدف، باللمسات البربرية، ويتميز بالطابع المعماري التركي الذي كان محببًا في تلك الفترة، تتدرج زخارفه وألوانه، ويضم القصر مشاهد طبيعية مألوفة، ونافورات شيدت وفقًا للطابع الكلاسيكي المغربي، وساعات ببندول، «فخامته حزينة»، وأرائكه كبيرة تكتسي بالسندس الملون، «والمماليك البائسون الذي يعملون به يشبهون خدمًا مؤجرين»(١). كل هذه الملامح لم تعلق بذهن فلوبير، ولم تترك أي أثر لصورتها. فقد كتب فلوبير في ١٥ يناير إلى د. كلوكيه Dr. Cloquet يقول له: «لا أكتمك سرًا، عباس باشا رجل غبي، تقريبًا مختل، غير قادر على فهم أي شيء أو فعل أي شيء يفسد الأفعال التي قام بها محمد علي، ولا يحرص على ما تبقى منها، أما العبودية التي تسود في هذه البلاد، سواء أكانت في صورة خسة أو جبن، فهي تثير القلب اشمئزازًا، وتجد أوربيين يتعاملون مع هذا النظام باعتبارهم شرقيين أكثر من أهل المشرق أنفسهم»(٢).

إن الشرق الذي قدم نفسه إلى فلوبير أبعد ما يكون عن تصوراته الشاعرية العظيمة في فترة المراهقة، في البداية، استمتع به، وباختلاط ألوانه وبفوضى جماهيره، وبهرجه ومرجه وبضجيجه، وبفوضاه، وبالتفسيرات الخاطئة لبعض تصوراته «يمكننا رؤية كل هؤلاء معًا، القس اليوناني بلحيته الطويلة يسير في الطريق فوق بغلته، والقبطي بعمامة سوداء، والفارسي بعباءة من الفرو، وبدوي الصحراء بوجه بلون القهوة، يمشي بصعوبة تحيط به أغطيته البيضاء»(٣). ولكننا نلتقي أيضًا على أعتاب عرش متداع بأوربيين مريبين أو غريبي الأطوار أمثال بكير بك، ولوبير بك، وشماس، وآخرين فاسدين وخارجين على القانون(٤)، ومنذ ذلك الحين، نستطيع أن نتفهم بسهولة أن فلوبير أعد تصوراته منذ إقامته في القاهرة لكي تكون نواة لرواية واقعية بعنوان هريل بك Harel Bey، وهي الرواية التي

(1) Cf. Voyage en Orient.p.51.

وانظر: ايضا وصف شارل ديديه للقصر عام ١٨٥٣، Les nuits du Caire (1860) , p. 23

(2) Corresp., vol.I , p.292.

(3) Id., p.290.

(٤) يضم كتاب شارل ديديه «ليالي القاهرة (١٨٦٠) Les niuts du Caire، فصلاً مريعًا عن الأوربيين، ص ٥١-٥١، وانظر ايضا: الباب الثالث من الكتاب، الفصل الثاني.

لن يكتبها أبدًا، وكانت عبارة عن لوحة رحبة عن الأخلاق، ودراسة لهذا الشرق الحديث، الذي انبسط فجأة تحت عينيه، ولعلها تناظر رواية «دماء الأعراق» Sang des races التي قدمها محبه وتلميذه لويس برتران Bertrand Louis على المسرح الجزائري وعرض فيها موضوع التقاء شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط، وكان فلوبير - دون شك - سيطرح في هذه الرواية موضوع انصهار العناصر الأجنبية والمحلية في بوتقة هذه البلاد، واختلاطها بشغف المغامرين القادمين من أركان العالم الأربعة(١). وانطلاقًا من هذه الرؤية، وتحقيقًا لهذا الهدف طلب فيما بعد من صديقه ديبلون Duplan الذي كان موجودًا في مصر أن يمده ببعض المعلومات(٢)، وهكذا فإن نمو الأفكار يزداد فلم يعد الأمر مجرد حلم بالشرق، ورضا بالخيالات الرومانسية، كما أن الهدف لم يعد رسمًا لهذا الشرق أو أن يكون فلوبير راصدًا لمناظره الطبيعية والأطر الجمالية حولها. كان يجب أن يتم تجاوز صدارة المسرح، ومواجهة الكواليس، اختراق كل ما وراء هذه الواجهة المتلألئة المزخرفة، إماطة القناع عن الرغبات والأفكار، باختصار، كان يجب التشبث بالواقع في أعماق النفوس، وأن يكون الكاتب محللاً نفسياً، ها هي المهمة التي ستفرض نفسها من الآن على كاتب المستقبل، ففي الوقت الذي كان يستعد فيه لصعود النيل، كان يتأهب لكتابة «مدام بوفاري»، وإذا صدقنا مكسيم دي كوم، فإن فلوبير وجد اسم بطلته النورماندية في وادي حلفا بجانب الشلال الثاني في النوبة الصهباء الذهبية(٣).

ولكن رفيق رحلته لا يرى أبعد من ذلك أيضًا، فقد استأجر زورقًا صغيرًا يعمل على متنه اثنا عشر رجلاً، زوده بالقهوة والبسكويت والدخان والمؤن والمعاول والفئوس والأدوات الخاصة بالتصوير، ورفع بفخر في مقدمة الزورق العلم الثلاثي الألوان وبعد أن ارتادا مصر الحديثة، انتظرت مصر الفرعونية الأثريين اللذين كانا في أطوار التشكيل الأولي.

(١) انظر: رينيه ديشارم و ر. ديمنيل " Rene Descharmes et R. Dumesnil حول فلوبير " Autour de Flaubert، الجزء الثاني، ص ٩٨، وانظر أيضا لو جورنال دي جونكور Le Journal des Goncourt، الجزء الثاني، ص ٢٣.

(2) Corresp., vol.III, p.491.517.

(3) M. Du Camp. Souvenirs Littéraires. vol.I. p.481.

كان م. مينيل في شك من هذه المعلومة ومع ذلك فإن من الممكن أن يكون اسم بوفاري مثل بوفار Bouvard، قد استوحاه فلوبير من اسم صاحب الفندق في القاهرة بوفاري Bluvaret.

III

في السادس من فبراير عام ١٨٥٠، بعد أن تناولا عشاءهما عند سليمان باشا، أقلع فلوبير ومكسيم دي كوم مصحوبين بنغمات الناي وإيقاع الطبول، وقد وصف مكسيم هذا الإقلاع بأنه آمن وسعيد، كما أنه مريح، وباعث على الشعور بالانتصار، ولكن فلوبير كان أقل حماسة: «ينام في الزورق تنهشه البراغيث في بداية الرحلة»[1]، وبعد يومين من رحلتهما النهرية، هبت عواصف الخماسين: «الرمال تصر تحت الأسنان» تملأ العيون، والغبار يغطي الوجوه ويخفي ملامحها، والمراكب تدور مثل الدوامات، وقد وصف فلوبير الشمس آنذاك بأنها «قرص من الرصاص»[2]، أما مكسيم فقد رسم صورة للشمس أكثر دقة وإشراقًا وأكثر ملحمية: «تشبه الشمس عندما تختفي أشعتها درعًا من الفضة الكومدة»[3] وعلى غرار شاتوبريان الذي أنشد أشعارًا حول ثورة المحيط الأطلنطي وهياجه، تلا مكسيم أشعار فيكتور هوجو، وهو يواجه عواصف الخماسين:

«كنا نسمع أسماك السالمون القاتلة وهي تجأر»[4].

وفي الواقع، إننا نتعرض في هذه الجزئية لقضية الاختلاف بين الرحالتين. فالاختلاف لا يوجد فقط بين ملاحظات أولية ومؤلفات حررت فيما بعد، ولكنه يوجد أيضًا بين عقليتين، بين حساسيتين، بين طريقين. فدي كوم ليس إلا معنيّاً بالأدب أما فلوبير فهو كاتب.

وعندما انتهت العواصف، استأنف فلوبير الحياة التي تروقه، كان يقرأ ويحلم، ويتأمل. لم يبدد مكسيم لحظة من وقته، كان يعمل ويصطاد حيوانات أو أسماكًا خلال فترات توقف الزورق في الموانئ، كما كان يهتم اهتمامًا شديدًا بالتقاط الصور الفوتوغرافية. في خطاب إلى لويس بويلي، كتب فلوبير يقول: «في الأيام الأولى كنت قد

(1) Le Nil. p.89. Voyage en Orient.p.51.

(2) Corresp., vol.1 , p.305.

(3) Le Nil. p.93.

(٤) مجموعة أشعار " شرقيات " (Des orientales) نار السماء Le feu du ciel، " وانظر: Le Nil. p.92.

شرعت في الكتابة قليلاً، ولكن - حمدًا لله - عرفت سريعًا أن ذلك يعد حماقة، وأدركت أن من الأفضل أن يترك الإنسان نفسه لتكون عينًا ترصد الأشياء على سجيتها»(١). وهذا بالضبط ما قاله جوته باللغة الإيطالية حين تخلص من رومانسيته! كان المكان لوحة فنية جميلة معطياتها: صمت يسود المكان لا يقطعه إلا خرير المياه المنسابة، باقات من أشجار النخل، صخور وردية اللون، «لوحات ذهبية مثل أرائك من حرير، سماء ضاربة إلى الزرقة مشربة بألوان متباينة»(٢). هل يمكن أن يحتاج المرء إلى أكثر من ذلك؟ ولكن مكسيم يتمتع بشخصية منهجية. ففي أثناء رحلته إلى بني سويف عرج على مدينة الفيوم، وقد ذكر فلوبير في مذاكراته أنهما زارا مدينة الفيوم في الرابع عشر من فبراير «رحلنا إلى مدينة الفيوم فوق ظهور حمير بشعة مزودة ببرادع أكثر بشاعة... مررنا بمقابر مهدمة تشبه قاع الأفران، ورأينا أسمالاً بالية وعظامًا بيضاء كأنها قطعة لحم شقت نصفين»(٣). ولا يبدو أنه قد شعر بالندم لقيامه بهذه الرحلة القصيرة، وعندما وصل إلى المدينة، أقام لدى شخص مسيحي من دمشق، كان يسكن عنده أيضًا قس قبطي، وكان يثرثر معهما في موضوعات تتصل بسان أنطوان Saint Antoine وسان أتناز Saint Athanase، وهم يتناولون الحلوى ويحتسون الكئوس.

وبعد أن قضى ليلته الأولى «يحك جسمه ويستمع إلى نباح الكلاب»(٤)، ذهب إلى بحيرة قارون وتمتع برؤى الجبال الساحرة وهي تتوسط بلد منبسط «كما تسلى بحياة القرية العربية: بأبقارها، وبخرافها، وبأغنامها، وبأطفالها، وهم منفرجو الساقين فوق ظهور حمير محملة بالحشائش، وبترابها الثائر تحت أرجل الحيوانات»(٥). كتب فلوبير إلى لويس بويلي يقول: «عند خروجنا في رحلات قصيرة كان الليل يداهمنا، فتجد نفسك نائمًا داخل منازل من الطين الجاف، لها أسقف من نبات قصب السكر تتيح تأمل النجوم، وعند عودتك، تجد الشيخ الذي تنزل عليه ضيفًا قد ذبح خرافًا، ويأتي شيوخ القرية وكبارها

(1) Corresp., vol.I , p.305.
(2) Voyage en Orient,p.53.
(3) Id., p.53.
(4) Id., p.54.
(5) Id., p.55.

لزيارتك، ويقبلون يديك واحد وراء الآخر، فتشعر باعتزاز، وكأنك سلطان عظيم، ثم نجلس إلى الطاولة، أي نفترش الأرض، ونلتف حول طبق كبير للجميع، تغرس فيه الأيدي، تقطع ما فيه وتمضغه ونتجشأ، هذه هي آداب البلاد، ويجب أن نتجشأ بعد الوجبات، وأعتقد أنني لم أقم بذلك على أكمل وجه»(١).

ولكن ساعة الرحيل قد حانت، وأبحر الرحالة في النيل وصعدا مباشرة حتى الشلالات، وقبل وصولهما إلى المنيا، لحا قبابًا بيضاء لدير قبطي غريب جاثم فوق جرف جبل الطير شديد الانحدار، ويطلق على هذه الصومعة «دير البكرة»(٢)، وقد استلهم من بنائها ڤيڤان دينون Vivant Denon رسمين تصويريين تخطيطيين. وكعادة الرهبان عندما يرون زورقًا صغيرًا يرفع علمًا أوربيًا، فإنهم ينزلون إلى النهر عبر حبل متدلي على الجدار الصخري، ويلقون بأنفسهم إلى الماء لاستجداء السائحين صدقة، وفي نفس الخطاب السابق الذي كتبه فلوبير إلى لويس بويلي، يثير هذه المشهد التراثي(٣)، بروح ساخرة: «لقد انقضوا علينا، كانوا أقوياء، صلبة أعوادهم، عرايا، تسلقوا الصخور الحادة وهم ينزلون إلى الماء، سبحوا بكل قواهم التي لا تكل وهم يصرخون بقدر ما استطاعوا «خواجة مسيحي»؛ ولأن هذه المنطقة تمتلئ بالكهوف، فإن صدى أصواتهم كان يدوي كضوضاء

(1) Corresp., vol.I . p.306.

(٢) انشئ دير البكرة في القرن السادس عشر، وقد اقام الفلاحون الأقباط في حرم هذا الدير بعد اختفاء الرهبان منه، ويعد إدوارد دي مونتيلي Edouard de Montulé اول رحالة زار الدير وتفقده من الداخل عام ١٨١٩. ووجد داخل حرم الدير قرية كبيرة يحكمها قس شيخ (انظر: دي مونتيلي، رحلة إلى أمريكا وإيطاليا وجزيرة سيشل والقاهرة " خلال ١٨١٦، ١٨١٧، ١٨١٨، ١٨١٩ "E.DE Montulé . Voyage en Amérique, en Italie, en Sicile en Egypte Pendant les، années 1816, 1817, 1818, 1819. paris,1821 ،Delannoy، in-8 الجزء الثالث، ص ٢٨٩، ويبقي ان نشير إلى ان الراهب القبطي الذي قفز في نهر النيل ليتسول صدقة لم يكن إلا مجرد فلاح قبطي، ولمزيد من المعلومات التفصيلية حول هذه الصوامع القبطية التي وصفها سيكارد Sicard انظر: المسودات، Bortier p. 69، و Bortier p. 74، ارشيف الرهبان الجيزويت، مدينة شانتيني.

(٣) انظر: الجزء الأول من الكتاب، قبل عدة أعوام من ذلك الوقت، تكرر هذا المشهد مع إم جيسكي M. Gisquet، وقد وصف القديس الشحاذ قائلاً: «كانت له عينان سودوان، ووجه مستدير ممتلئ، وجسد مكتنز، وقوام هرقلي، لم يستنفد الصوم والصلاة كل طاقته. تبرهن بعض القروش القليلة على مشاركتنا له في إحساس ديني واحد، وبعد أن وضع هذه القطع النقدية في فمه، طلب منا الرجل المقدس زجاجة، (L' Egypte, Les Turcs et Les Arabes , 1848, vol.II, p. 183 وحول جيسكي، انظر: الجزء الأول من الكتاب.

مدفع: خواجة... خواجة. كانت النسور والعقبان تحلق فوق رؤوسنا، والمركب ينساب فوق صفحة الماء بشراعين ممتدين. وكان أحد البحارة (المثير للضحك يقف على سطح المركب) يرقص رقصًا خليعًا ؛ ليبعد الرهبان المسيحيين، فيظهر لهم عجيزته بينما هم يتشبثون بحافة الزورق. أما البحارة الآخرون فكانوا يصرخون فيهم ويسبونهم بكلمات فيها اسم الله ومحمد، وبعضهم كان يضربهم بالعصا والبعض الآخر يضربهم بالحبال[1]، وكان جوزيف[2] يضربهم بأدوات المطبخ. كان المشهد عبارة عن فقرة موسيقية من الأكليروس تشترك فيها جميع آلات الجوقة. ومن الصياح، ومن الضحكات. وعندما منحناهم بعض النقود، وضعوها في أفواههم،وعادوا أدراجهم سالكين الطريق نفسه الذي أتوا منه»[3].

تابعنا الإبحار بشكل منتظم، وفي الأول من مارس شاهد فلوبير التماسيح للمرة الأولى: «كانت تقبع في زوايا من الجزر مثل جذوع أشجار مجنحة في المياه». ومر الزورق في الرابع من مارس أمام طيبة. «كانت الشمس تغرب عن مدينة حابي، تكتسي الجبال بلون أزرق غامق، يتدرج من الأزرق النيلي في أعلاها إلى الرمادي الأسود من أسفل مع وجود تباين طولي في الألوان مشرب بحمرة النبيذ، يظهر شقوق العقيق. وتبدو أشجار النخيل سوداء مثل الحبر، والسماء حمراء، وصفحة النيل تشبه بحيرة من الفولاذ المنصهر» كانت لحظة مثيرة للانفعال، وكان فلوبير ينتظر أن يتمكن من التمهل قليلاً في طريق العودة أمام هذه الأطلال العظيمة «لمدينة المائة باب» ليدون أحاسيسه الجياشة العميقة أمام هذا المشهد المقدس. «وبينما كنت أستمتع بهذه الأشياء حين كنت أشاهد طيات الأمواج وهي تتكسر وراء المركب، ويداعبها الهواء، اجتاحني من أعماقي شعور طاغ من السعادة المتفردة التي كانت تعانق هذا المشهد، وشكرت ربي في دخيلة نفسي أنه جعلني أنعم وأستمتع بهذه الدرجة، كنت أحس أنني محظوظ لمجرد التفكير أنني لا أفكر في شيء، كانت النشوة تغمر كياني».

---

(١) (ويهددونهم كما كان جارجونتيا Gargantua يعامل قديمًا الباريسيين الموجودين في ابراج النوتردام)، M.Du.Camp. Le Nil, p.106).

(٢) بريشتي، الترجمان.

(3) Corresp., vol.1 , p.306.

كم يبدو لنا عظيمًا وإنسانًا نبيلاً مفعمًا بالحيوية! إنه ليس قاسي القلب كما يلمح مكسيم دي كوم بذلك أحيانًا، ولكنه لا يبسط مشاعره وأحاسيسه، ولا يعبر عنها بوضوح، إنما يجعلها لنفسه، فهو يتمتع بموهبة نادرة في الازدواجية في تلك اللحظة تحديدًا «كنت أشاهد طيات الأمواج وهي تتكسر وراء المركب ويداعبها الهواء». كان فلوبير حاضرًا كيانًا ووجدانًا، تغمره أصدق لحظات البهجة المختلطة بفيض من الشاعرية التي لا يستطيع التعبير عنها، ولكنه في الوقت نفسه قادر على تحليلها تحليلاً دقيقًا وآنيًا.

وهو الإنسان نفسه بكل جوارحه الذي سنلتقي به في إسنا التي يجب التزود منها بالخبز لمواصلة الرحلة إلى النوبة، عند كوتشوك هانم، العالمة ذائعة الصيت. وقد أصبح هذا الفصل من الرحلة معروفًا إذ قص فلوبير تفصيلاته في مذكراته[١]، وفي رسالة إلى لويس بويلي[٢]، كما رواه مكسيم دي كوم، في كتابه النيل[٣].

وتعد كوتشوك هانم إحدى الشخصيات المألوفة لدى السائحين والمسافرين، وقد تحدث عنها بريس دافين، وأ. كوم E. Combes وم. جيسكي M.Gisquet[٤]، كما ذكرها شارل ديديه، بعد ذلك الوقت بعدة سنوات[٥]، وهو يميزها عن صافيا زوجيرا Safia Zougairah، إحدى الغانيات التي كان يتم الخلط بينها وبين كوتشوك هانم، وكانت تظهر بمصاحبة الوصيفة بمبه Bembeh، في النص الأصلي لفلوبير. وكانت كوتشوك هانم التي كان يطلق عليها صوفيا العظيمة، في بداية الأمر، عشيقة «عباس باشا» الذي كان حاكمًا للقاهرة في ذلك الوقت، وقد روى قصتها م. أوريون M. Auriant[٦]، وقد

---

(1) Voyage en Orient.p. 60 .

نقح م.ديشارم M.Descharmes هذا النص، وقام أ. مونفور E. Montfort، بنشر هذا الجزء كاملاً في مجلة ليمارج Les Marges، عدد يوليو - ديسمبر ١٩١٠.

(2) Corresp.. vol.I . p.307-309

تقرا كوتشوك وليس روتشوك.

(3) M.Du.Camp. Le Nil. p 118 - 166.

(4) Cf. t.I. p. 276 - 296 - 323.

(5) CH. Didier. Les Nuits du Caire . p. 329. Cf. 3 e Partie . chap.II.

(٦) آوريون، قصة صوفيا الشهيرة بكوتشوك هانم، عالمة إسنا، Histoire de Sofia . dite Koutchouk Hanem . almée de Esneh، ليمارج، ١٥ يونيه ١٩٢٦

هجرها وجلدها ونفاها بعد أن خانته[1]، وقضت بعض الوقت في ضيافة سليمان باشا كما يروي شارل أدمون Charles Edmond، في روايته «زيفيرن كازفان في مصر Zéphyrin Cazazvan en Egypte»[2].

وقد لحق شارل إدمون بالعديد من العوالم المنفيات في إسنا منذ تولي عباس باشا الحكم، واللائي تحدث عنهن جيرار دي نرڤال، وجان جاك أمبير.

وكانت كوتشوك هانم تقيم سهرات موسيقية للزوار الأوروبيين الذي كانوا يجزلون العطاء، وقد أصيب مكسيم دي كوم وفلوبير ببعض الإحباط نظرًا لضعف مستواها في الرقص، ومستوى صاحبتها وهن يؤدين رقصة النحلة، ولكن هذا لا يقلل من إعجابهما بجمالها الفتان الصامد أمام الزمان. والصورة التي يرسمها لها مسكيم تجنح إلى المثالية، أما فلوبير، فأسلوبه في وصفها غير مجامل، تشوبه القسوة أحيانًا، يتسم بصراحته الواضحة ودقته.

«وحينما وصلنا إلى منزلها، كانت في انتظارنا، يتبعها خروف، تعلو فروته بقع من الحناء الصفراء، تغطي فمه كمامة سوداء، وكان يسير خلفها كأنه كلب، كانت قد انتهت لتوها من الاستحمام، وعلى رأسها طربوش كبير، يتدلى طرفه على كتفيها العريضين، وتعلوه قطعة ذهبية مثبتة في قطعة معدنية خضراء، تغطي أعلى رأسها، وقد جعلت شعرها في جدائل دقيقة عقصتها خلف رأسها، أما بقية جسدها السفلي فقد اختفى في سروال وردي واسع، وظل أعلى جسدها عاريًا إلا من غلالة شفافة بنفسجية اللون. وقفت كوتشوك هانم أعلى السلم، ووراءها الشمس، فبدت كأنها وسط السماء الزرقاء التي تحيط بها من كل جانب، كانت امرأة مستطيلة الوجه، ذات ذقن دقيق، ممتلئة الصدر، كثيرة اللحم، أنفها كبير تباعدت فتحتاه، عيناها واسعتان وركبتاها رائعتان، إذا ما رقصت تظهر طبقات اللحم حول بطنها بوضوح. وبعد ظهورها بدأت تعطر أيدينا بماء الورد، تفوح من نهديها رائحة زيت التربنتين المسكرة، ويزين نحرها عقد ذهبي من ثلاثة أدوار»[3].

(1) Cf. 3 e Partie . chap.II.

(2) Id.

(3) Corresp., vol.I . p.308.

هذه هي الصورة التي رسمها فلوبير لصديقه لوس بويلي[1]، وقد وردت في مذكراته في مواضع كثيرة، كما جاءت مفصلة دقيقة، ولم يستطع تعبيره عن قناعته الفنية والحسية

---

(١) من هذا الخطاب المؤرخ في ١٣ مارس، ١٨٥٠، اقتبس لويس بويلي القصيدة التالية، الإكليل والطوق، والتي عبر فلوبير عن إعجابه بها في رسالة إلى لويز كوليه Louise Colet عام ١٨٥٣.

كوتشوك هانم

«النيل رحب وهادئ، كمرآة من الصلب
التماسيح الرمادية تغوص بالقرب من شواطئ الجزر،
وفي قلب خضم السماء الزرقاء، تبزغ نخلة أحياناً
لتبسط ظلال أوراقها الثابتة.

••••

تتهادى الصقور البيضاء في الأجواء،
وفي قيظ الظهيرة يكاد الدخان يتصاعد في الفضاء من الرمال
والجاموس المكتنز، وسط الأدغال الخضراء
ينام كامشاً جلده من لسعات الذباب المتوحش.

••••

إنها ساعة القيظ والهدوء الخانق
لا نسمع على امتداد الحقول صدى لصرخة، ولا نحس بنسمة في السماء
ماذا تفعلين الآن في منزلك بإسنا
أيتها السمراء كوتشوك هانم، وأنت على مقربة من النهر ؟

••••

الخروف الذي يقتفي أثرك بفروته المحناة
يلهو على الحصيرة، ويتحرش بكلبك الرشيق.
والخادمة السوداء تجلس القرفصاء بجانبك
تعقد ذراعيها اللامعتين اللتين ترك الطاعون عليها وشمه

••••

ينام عازف الربابة ملء جفونه وراء آلته
في فراشك المصنوع من النخيل ترقدين الآن
أو تقفين بشموخ فوق سلم بيتك
بطربوشك الكبير وسروالك الوردي

••••

يتلألأ الزمرد على جبهتك بأشعة خضراء
ويستدير نهداك تحت الغلالة الشفافة
وشعرك الذي عفرته رياح الصحراء.
تفوح منه رائحة العسل ونبات الترينتين.

••••=

إقصاء شبح ملاحظاته القاسية، «كانت لها ثنية أعلى الجانب الأيمن من فكها بدأت تتآكل»(١).

نام مكسيم على أريكتها(٢)، في حين أمضى فلوبير الليلة معها، «تداعب أصابعه عقدها»، «مفكرًا في جوديت وأولوفيرن، وهما نائمتان معا»(٣). وفي الصباح عاد الشابان أدراجهما إلى مركبهما الذي أبحر مع نسمات الصباح تجاه النوبة.

= ولكن ثمة ظلا غامضًا يطفئ بريق عينيك
انت تحسين به، فأعماقك حزينة حزن الأرملة.
تميلين راسك لتنصتي... لتنصي.
إلى الصوت البعيد للزوارق العابرة في النهر.

ويحتوي ديوان " الإكليل والطوق " على قصيدة اخرى مستوحاة من مصر، وهي بعنوان «شكوى مومياء»، ولكن لا صلة لها بتجربة فلوبير.

(١) نقلا عن أ. مينيال (جوستاف فلوبير ولويس بويلي، مجلة مركور دي فرانس، اول نوفمبر ١٩١٢، ص ٧٤ - ٨٥، لم يستوح بويلي فقط القصيدة من الخطاب المؤرخ في ١٣ مارس ١٨٥٠، وإنما ايضا من مخطوطات المذكرات المؤرخ في ٦ مارس التي نقلت إلى القارئ كاملة بحذافيرها في مطبوعات مجلة «لي مارج»، قد قام كل من مينيال وماير بإعداد دراسة مقارنة بين القصيدة ونص فلوبير (فلوبير وبويلي، ريفو يونيفرسيتال، ديسمبر ١٩٢١، ص ٣٦٤ - ٣٧٠) فلم يكن فلوبير يخفي أسرارًا عن صديقه بقدر اكبر من عدم تفهم مكسيم لهذه الإحباطات.

وعلى حد قول أ. مينيال إن «فلوبير قد زار الشرق بصحبة مكسيم، ولكنه تأمله وفهمه في صحبة بويلي، وبعد عودته إلى فرنسا لم يمض وقت طويل حتى تنامى إلى لويز كوليه قصته مع كوتشوك هانم، مما اثار غيرتها، وبعد أن زارت مصر بعد خمسة عشر عامًا ظلت تشعر بمرارة الأسى في قلبها حيال هذه المغامرة. وحاول فلوبير تهدئتها، ولكن محاولاته كانت هباء: «كوتشوك هانم !! اطمئني وامحي من مخيلتك هذه الأفكار الشرقية، وتأكدي انها لم تحرك ساكنًا في، لا على المستوى المعنوي او الجسدي. فقد وجدت أمامها اثنين من الخواجات أجزلا لها العطاء، هذا كل ما في الأمر اما قصيدة بوليي فهي جميلة، ولكنها لم تزد عن كونها مجرد قصيدة. فالمرأة الشرقية ليست إلا آلة، لا فرق لديها بين رجل وآخر...». Corresp.,1853. vol.II , p.182 ولكن هذا التحليل لم يمنع ذكرى تلك الفينوس السمراء من أن تشغل بال فلوبير لفترة طويلة. فبعد وصوله إلى القسطنطينية بعد ستة اشهر في ١٨٥٠، ظل يفكر في مغامرته في إسنا «لماذا أشعر برغبة وحنين ان أعود إلى مصر، وان اصعد إلى اعالي النيل، وان أرى كوتشوك هانم ؟ لا فرق !، لقد قضيت ليلة نادرًا ما تتكرر في حياتنا مرة اخرى» (رسالة إلى لويس بويلي، Corresp., vol.I , p.15).

(٢) على عكس ما رواه، لم يستطع مكسيم مقاومة سحر كوتشوك هانم، وجاذبيتها، وقد حصل منها على دفعة أولى، إذا صح تعبيري، وكتب فلوبير بنفسه في مسودة مذكراته «طلب مكسيم ان يلهو معها أولاً، ثم نزل، وحان دوري» (٦ مارس ١٨٥٠).

(3) Voyage en Orient,p.64.

كتب فلوبير إلى والدته في التاسع من مارس ١٨٥٠، يقول، «ودخلنا إلى النوبة، كانت الطبيعة بربرية سمراء، تمتد الصخور على جانبي النهر الذي أخذ مجراه يضيق، ترتفع أشجار النخيل العملاقة لتصل إلى خمسين قدمًا على الأقل، تتلألأ جبال من الرمال بلون ذهبي، تحت أشعة الشمس»(١). عبرت المراكب الشلال الأول بمساعدة خمسين نوبيّاً، وبالاستعانة بالحبال القوية، ودنت لبرهة من معابد حمادة والدير، والتقت بعد ذلك في طريقها بمركبين لتجارة العبيد، محملين بالإماء من دارفور أو الحبشة، ووصف فلوبير المشهد لوالدته في خطاب في ٢٤ مارس ١٨٥٠ قائلاً: «تكدست الإماء في المراكب كما تتكدس عربات العلف في بلادنا، وكن يرتدين أحجبة وسراويل صغيرة من الجلد، وقد اشترينا منها. أعني اشترينا من السراويل وليس من النساء، وكانت ملبدة بدهون كشحوم الضأن مما لوث أريكتنا، وجلس بعضهن فوق الصخور يطحن الدقيق، كان شعرهن ينسدل فوق أكتافهن، وكأنه أعراف خيول تأكل الكلأ من الأرض، كان الأطفال يبكون وأمهاتهم يقمن بإرضاعهم، وكان هناك أخريات يقمن بالطهي، وأخريات يمشطن شعور قريناتهن بأسنان القنافذ، لقد كان مشهدًا حزينًا وفريدًا»(٢). وأخيرًا وصل الرحالتان إلى وادي حلفا، المحطة الأخيرة في رحلتهما البحرية في ٢٢ مارس ١٨٥٠، وهناك سيريان الشلال الثاني، ثم سيتم إنزال الصواري، ليستكملا هبوطهما للنيل في مراكب صغيرة بمجاديف(٣).

ومنذ هذه اللحظة بدأت البعثة الأثرية أعمالها، وسارت خطة العودة بانتظام خطوة خطوة، وأخذت المركب تشق طريقها بهدوء بين صفي المجاديف، وكانت «أبو سمبل» هي المحطة الأولى لزيارة معبدين تحت الأرض لرمسيس الثاني، أفاق فلوبير من استغراقه في خمول تأملي على وكزة من مكسيم، وأخذ المعول والمجرفة ليزيل الرمال عن أحد أركان

---

(1) Corresp., vol.I , p.302.

(٢) Corresp., vol.I , p.213، لمزيد من الوصف التفصيلي، انظر كتاب «النيل» لمكسيم دي كوم، ص ١٣١، لقد كان مشهداً متكررًا، إذ ذكر معظم المسافرين في السنوات السابقة ممن زاروا النوبة رؤيتهم لمواكب العبيد، خلال رحلتهم، في النيل، وهناك وصف رائع في رحلة فوربن Forbin، لهذا المشهد، انظر: الجزء الأول، من الكتاب.

(٣) رأيا في وادي حلفا الشيخ الذي لم يدفع الضرائب المطلوبة منه، راقداً على ظهره، ومقيداً داخل المركب، وقد استوحى جيروم Gérome من هذا المشهد، لوحته الشهيرة «السجين»، صالون عام ١٨٦٣. M.Du.Camp, Le Nil, p. 146-148.

واجهة المعبد الكبير، وعن ذقن أحد التماثيل الضخمة الأربعة لرواق المعبد. ولنر ما دونه في مذكراته عن هذا العمل «أعمال حفر وإزالة، أف ! قطع لقزم أسود مجعد الشعر، قبيح (أتلف التراب عينيه) يحمل فوق رأسه قدرًا مليئًا باللبن»[1]. وهذه التماثيل الحاملة الطفولية النحيفة تسترعي انتباهه بحيويتها أكثر من التماثيل الضخمة المنحوتة من صخر الجبل، وبعد هذه الملاحظة التي دونها نراه يكتب ملاحظة أخرى: «إن المعابد المصرية تضايقني كثيرًا» (تجدر الإشارة إلى أن فلوبير لم يزر سوى معابد إسنا وحمادة والدير). هل سيكون الحال كما في كنائس إقليم بريطانيا وشلالات البيرينيه؟ إنها الضرورة !، إذ يجب عمل ما يجب عمله، كما يجب أن يكون المرء طيعًا وفق الظروف (مهما يكن قدر الضيق للتحول)، شاباً كما يجب أن يكون الشاب، مسافرًا كما يجب أن يكون المسافر، فنانًا كما يجب أن يكون الفنان، ابنًا كما يجب أن يكون الابن، مواطنًا كما يجب أن يكون المواطن[2].

وها هو حجر كبير في حديقة مكسيم، هذا الشاب المجتهد الجاد الذي يقوم «بما يجب القيام به»، لا يستخدم ألفاظًا نابية، وينفذ بدقة وجهد وعناء البرنامج الذي وضعه مسبقًا، فلا يترك معبدًا حتى يقوم باكتشافه جيدًا، وكان فلوبير يدرك كل ذلك، وكان هذا الأمر يرعبه. ولكنه لم يبح بضجره إلا في كراسته الصغيرة، التي يدون بها مذكراته وملاحظاته، وتحمّل البلاء، فهو لا يريد أن يوجه له لومًا بسبب إفساد العمل، ولا أن يجازف بنتائج البعثة. وعلى مدار أسبوعين، سيتحمل وسيبذل قصارى جهده، ويقوم بنشاط كبير في المعابد الإغريقية الرومانية في النوبة، وكان حريًا به أن يحتفظ بهذا الجهد لأطلال الزمن الجميل لمعابد الدولة الثامنة عشرة. وقد وصف فلوبير آثار تلك الحقبة التي تقوضت فيها الدولة وصفًا دقيقًا ومنهجيًا لكل بهو ولكل عمود: سيبوا، محرقة، دكا، كيرشيش، كلابشة[3]، ديبود، وكانت رائحة العمل الشاق المرهق تفوح منه، وفي فيلة يلتقي فلوبير بندمائه في فندق النيل بالقاهرة، بول موريز Paul Mouriez، ود.فيلمان Dr.Villemin[4]،

---

(1) Voyage en Orient.p. 79.

(2) Id.

(٣) في بيت الوالي، بالقرب من كلابشة، انهك فلوبير التعب، فكتب: «انظر وصف شامبليون في «رسائل عن النوبة» Lettres sur la Nubie .

(٤) التقى بـ د. فيلمان في الاسكندرية (Corresp.. vol.I . p.263)، وبول موزييز هوالذي كتب تاريخ محمد علي في خمسة أجزاء، وصدر في باريس من عام ١٨٥٥إلى ١٨٨٥، انظر: ما سبق، وانظر: الجزء الأول من الكتاب في XXVI، ٢٨٠، ٢٩٥.

ويقوم – على حد قوله – بتناول غذاء صحي جداً معهم في الخيمة(١)، ويبدو أن ذلك كان من شأنه أن يعيد إليه الحماسة والحيوية. لكن هذا لم يحدث، فقد أمضى ثلاثة أيام في فيلة، ضجر فيها من المكان: «يا إلهي، ما هذا الملل الدائم الذي يلازمني ويتبعني في رحلتي! لقد حولته معي إلى مسكني ! إن التصاق السأم بحياتي لأشد التصاقًا بي من ثوب ديجانير بظهر هرقل! إنه يقرض حياتي ببطء، هذا كل ما في الأمر»(٢).

في رحلة العودة، توقفا في كوم إمبو، وجبل سلسلة، وإدفو، وكان معبد حورس، بمثابة مكان عام لقضاء الحاجة لأهل القرية، وقد كان تراجع فلوبير أسرع من مكسيم، نحو أعلى البوابات العملاقة التي يستطيع منها على الأقل رؤية الساحات التي غصت بالفلاحين، ما دام لم يستطع رؤية أسفل أعمدة المعبد المخبأة بالأنقاض. إنه نفس المشهد يتكرر في كل مكان، هكذا كان يكتب فلوبير (بشيء من الحنين، كما لو كانت المجهودات الشاقة التي يقوم بها علماء المصريات تقربه من الموت)، وحيث تزداد مظاهر التعلق بالحياة(٣)، فها هي امرأة تسقي حمارًا في جرة عسل مجوفة، وهاتان عنزتان تتناطحان، وتلك أم تحمل طفلها فوق كتفها وتطعمه. وهنا حيث يعطيه الفن انطباعًا مباشرًا عن الواقع بعيدًا عن التجسيدات الدينية، يجد فلوبير نفسه في حالة إعادة تمثل وإعجاب يستفيق فلوبير، وفي مقابر الكاب ويتأمل ما حوله، وفي مقابر الكاب، يتأمل فلوبير ويصف في سعادة اللوحات الجدارية التي تروي مشاهد الرعي، وقطعان الماعز والخنازير، وأعمال الحرث والبذر والحصاد، وتجهيز لحم الأوز المحفوظ والسمك المجفف: «ليس هناك ما يضاهي هذه اللوحات التي تخرج عن الخطوط الصارمة القاسية للفن المصري القديم»(٤). وفي كل مكان تتكرر نفس الملاحظة، إن الحياة في تجددها الخالد. وواقعيتها الأصيلة بألوانها المختلفة، هي وحدها التي يمكن أن تستأثر بإعجاب هذا الواقعي.

---

(1) Voyage en Orient.p.89.

(2) Id., p.90.

(3) Voyage en Orient, p. 93 — Le Nil, p. 193.

(4) Id., p. 94 , Le Nil . p. 195-200.

وها هو مساء الثلاثين من أبريل، موعد الوصول إلى الأقصر، في ليلة تزخر بالنجوم. وفي اليوم الثاني سوف تبدأ زيارة الآثار التي اجتاحتها وملأتها البيوت. وتعشش الدجاج، والحمام في أوراق اللوتس أعلى الأعمدة، والكلاب تجري فوق الجدران وهي تنبح. والمسلة المنتصبة الآن في وسط باريس، كانت هنا بجوار البوابة اليمنى، ولا بد أنها تشعر بالملل الآن، وهي فوق قاعدتها في ميدان الكونكورد، وتفتقد النيل، ما الذي يدور في رأسها وهي ترى السيارات الحديثة، بدلاً من العربات الحربية القديمة، التي كانت تمر من أمام قاعدتها؟ وبالطبع هذه الملاحظات لم تكن لتفوت رفيقه. فمكسيم بدوره، لم يكن الرجل الذي تفلت من يديه أية فكرة تثار، أو أية صورة يراها ونجده يكتب عن هذه المسلة في كتابه النيل قائلاً: مسلة من الجرانيت الوردي تقف وحيدة تحنّ تحت الشمس القاسية إلى أخيها الغائب[1]. ويا لها من طرافة أدبية ! فحين عاد مسكيم سنة ١٨٥١، إلى باريس، يبدو أنه تحدث مع صديقه تيوفيل جوتييه عن رحلته، بل قرأ عليه ما كتبه، والذي طوره فيما بعد في صوره رسائل إلى كاتب ديوان «الخزفيات وأحجار الكاميه» Emaux et Camées، وأهداها إليه [2]. فلا نعجب حين نعلم أن تأملات فلوبير الحزينة حول المسلة هي التي ألهمت، القصيدة الشهيرة «حنين مسلة» أفكارها:

إني أشعر بالضجر في هذا الميدان.
أنا المسلة الناقصة
القريبة من أخي الوردي اللون
الذي لم أعد بجواره !
والعربات الذهبية المرصعة
للفراعنة العظماء القدماء
تمر بجوار كتلتي
التي صدمتها عربة
كانت تقل آخر الملوك[3]

(1) Le Nil. p. 209.

(٢) كتب مكسيم دي كوم أكثر من مرة إلى جوتييه خلال رحلته، كما تشير إلى ذلك الرسالة المسلية التي أرسلها إبريم في النوبة في ٣١ مارس ١٨٥٠ Souvenirs Littéraires . vol.1 . p.483-485

(٣) الخزفيات وأحجار الكاميه (1852) Emaux et Camées، إشارة إلى رحيل لويس فيليب Louis - Philippe إلى المنفى عام ١٨٤٨.

ولكن معبد الكرنك خاصة هو الذي ترك انطباعًا قويًا لدى فلوبير: «لقد بدا إلي وكأنه مسكن عمالقة، يقدم فيه الطعام على أطباق من ذهب، ويتكون من أجساد رجال كاملين في أسياخ مثل الطيور... وكنا نرى أمامنا على الحائط ملكات مزينات الرؤوس، يحطن خصور الملوك بأذرعهن». استبعد فلوبير فكرة الحياة القاسية وغير الإنسانية للفراعنة القدامى، سواء في كتاباته أو أثناء حديثه اليومي مع صديقه. ولكن مكسيم دي كوم التقط هذه الفكرة وطورها ونسقها بمهارة في صفحة جميلة وقعت بالطبع تحت نظر تيوفيل جوتييه قبل أن يكتب هذا الفصل من «رواية المومياء»: «كان طول الرجال الساكنين في هذه القصور يبلغ مائة ذراع[١]، كانوا يمشون ببطء وسط صفوف الأعمدة، يجرون ذيول ثيابهم البيضاء الواسعة على البلاط المرسوم، وجباههم المغطاة بالذهب لا تنظر أبدًا إلى الأرض، وكانوا صامتين لا يتحدثون إلا بالإشارات. على موائدهم الرخامية، كانوا يأكلون طيورًا غير معروفة ووحوشًا تم اصطيادها من أعماق المحيط الهندي... وكانوا يخرجون وأمامهم أسود مستأنسة... وأثناء الحرب كانوا يركبون حيوانات أسطورية. وكانوا يعيشون ألف عام، ولا يضحكون أبدًا». تخف سرعة الإيقاع الغامض مشكلة النغمة الأساسية التي ستبنى عليها أحداث[٢].

هذا الرؤية التي اتسعت بلا حدود في نظر فلوبير ومكسيم دي كوم وجوتييه، جعلتنا نتوقع الاستشراق الملحمي في رواية «سالومبو».

في أوقات الانتظار كان المسافران يعبران الأطلال والمقابر على الضفتين. ولم تثر تماثيل ممنون أي حماس لدى فلوبير، فقال: «إنهما كبيران جداً، وليس لهما أي إبهار، ما أشد اختلافهما عن أبي الهول». وقد استمر المسافران في تنفيذ نفس التصميمات والرسومات، «يا له من عمل أحمق! ويا لها من وسيلة يتضاءل معها الهدف. وقضاء وقت الفراغ في الشمس أكثر متعة من هذه الأعمال التي لا أحبها»[٣]. ولحسن الحظ كان

(١) . M. Du. Camp. Le Nil, p.231، مكسيم يستلهم هنا ايضا شامبليون الذي كان قد كتب: « كانوا رجالاً يبلغ طول الواحد منهم مائة قدم، والخيال الذي يحلق في أوروبا فوق أروقتنا توقف ووقع عاجزًا تحت ١٤٠ عموداً في صالة الأعمدة في معبد الكرنك» Letters d'Egypte et de Nubie ٢٠نوفمبر ١٨٢٨، راجع الجزء الأول: ص ٢٢٣، وما يليه.

(٢) رواية المومياء، على سبيل المثال الفصل السادس والعاشر.

(3) Voyage en Orient.p. 104.

البرنامج الذي أعده مكسيم يتضمن أوقات استجمام ولهو - بعد هذه الأيام المملة في المركب - ويتضمن رحلة على الخيل. فجاؤوا لفلوبير بحصان إنجليزي، ولبس حذاءه الكبير وسرواله القماش الواسع على الطريقة الهندية، وانطلق باتجاه وادي الملوك في ١٠ مايو. ما أبشع رؤية هذا المجرى المظلم، فالأحجار كانت تتدحرج تحت سنابك الحصان. وكان الركاب يحرق قدمه، وقد قال فلوبير إنه مشهد «غير آدمي»، ولكنه كان أيضًا واحدًا من هذه «العجائب» التي تذكرها خيال مؤلف «سالومبو». مكث فلوبير فيها ثلاثة أيام وبحث في أعماق المقابر عن «الثعابين متعددة الرؤوس التي تسير على أقدام آدمية، وعن القردة التي تجر المراكب، وعن الملوك الجالسين على عروشهم بوجوه خضراء وأشكال غريبة»[1]. توقف أيضًا في طريق العودة عند مقابر الشيخ عبد الجورنة الارستقراطية[2]، حيث شعر باحتقار مثير أمام مشاهد الولائم والجنائز. فلم تكن، كما كان يعتقد، «دعابات فرعونية» ومواكب الراقصات والعازفين لا تنتمي إلى الحياة الصاخبة. لكن لا يجب أن نحط من قدر هذه الصور الهادئة ونضعها في مستوى اللوحات الهابطة مثل «البسمة» والحياة الباريسية!. ولكن فلوبير الذي كان مشغولاً دائمًا بالتفاصيل، كان مخطئًا عندما كان يرى في هذه اللوحات «مشاهد جانبية لخنزير ساحر، وعيون رائعة لأشخاص برجوازيين ثملين»[3].

بعد مكوثهما ١٥ يومًا في طيبة[4]، أبحر المسافران مرة ثانية إلى قنا في مايو، ومنها سينطلقان إلى البحر الأحمر، ويعبران الصحراء الشرقية حتى القصير، أربعة أيام على ظهور الجمال في درجة حرارة قاسية (٤٥ درجة). وثارت رياح الخماسين وزوابعها السوداء والحمراء «مثل دخان الحريق» ومن وقت لآخر، كانت قوافل الحجاج تظهر على الطريق المظلم مثل الأشباح وسط السحاب. وكان الطريق مفروشًا بهياكل الإبل التي أكلتها

(١) خطاب إلى والدته في ١٦ مايو ١٨٥٠، Corresp., vol.I, p.321.

(٢) وهي بلا شك مقابر نخت، سينفر ومينا...إلخ.

(3) Corresp., vol.I, p.329, Voyage en Orient,.p.108.

(٤) خلال هذه المدة، جمع م. دي كوم الملاحظات واللوحات والتصميمات والصور الفوتوغرافية. لم يكن فلوبير السأمان يتحرك من شدة تعبه إلا أمام الانطباعات الموحية والتفاصيل المثيرة، والألوان والطابع الفردي والخاص، التي لا علاقة لها بالتاريخ أو علم الأثريات.

الفئران والصقور، ولكن فلوبير أكد أن رؤية البحر الأحمر كانت مكافأة له. فقد سبح فيه بتلذذ. «تقلبت في الأمواج كما لو كنت أتقلب على ألف نهد سائل يجتاز جسدي كله»(١). كان فلوبير يجلس وحده على الشاطئ لعدة ساعات ينظر للأمواج. «كان قاع الماء متعدد الألوان بسبب كل هذه القواقع والأصداف والمرجان...إلخ، كان ملونًا أكثر من مرعى مغطى بزهرات الربيع. أما بالنسبة للون سطح البحر، فكان يتحول إلى كل الألوان الممكنة، التي كانت تمر به، وتتلألأ عليه تتحول من لون إلى آخر، تذوب معًا، تتحول من اللون البني الداكن إلى الأرجواني، ومن اللون الوردي إلى السماوي والأخضر الفاتح»(٢). ثم ما أكثر أنواع البشر! زنوج من سنار، وتجار من الجزيرة العربية «تتار من بخارى، يرتدون قبعات من الفرو» يصنعون الحساء في ظل مركبة جانحة، مصنوعة من الخشب الأحمر الهندي.

كانت العودة «ميلودرامية» وشبه مأساوية: أولاً أصيب الترجمان بريشتي بالحمى، ومكسيم أصيب بعسر هضم جعله سيئ المزاج، وأخيرًا فلوبير فعل كل شيء لإغاظته.

ووفقًا لما ذكر في «ذكريات أدبية» تعثر أحد الجمال التي كانت تحمل المؤن، ليلة الرحيل، في فجوة حفرتها الفئران، وعند وقوعه هشم ثلاثة قرب كانت تحتوي على زاد الرحلة من الماء(٣).

---

(1) Corresp., vol.I , p.329 .

(2) Id., p. 332..

(٣) عن ا. مينيال (La Jeunesse de Flaubert, p.) من المحتمل ان يكون مكسيم دي كوم قد الف حكاية القرب التي تحطمت في صحراء القصير، فقد قال لي فلوبير في مذاكرته إن المياه كانت قد فسدت في القرب، وأنهم وجدوا بئرا في ثاني يوم من السير في الصحراء.

وقد كتب في يوم السبت ٢٥ مايو في بئر السيب «إنني أشرب المياه الجوفية من البئر بجرعات كبيرة، وهي أفضل من المياه التي كانت معنا في القرب، وهم إذاً لم يظلوا ٧٠ ساعة بدون مياه، من الخميس ٢٣ مايو إلى الأحد ٢٦، كما أراد أن يقنعنا مكسيم.

ومن ناحية أخرى عند اطلاعي على أوراق مكسيم دي كوم غير المنشورة والمحفوظة في مكتبة المعهد، قادني حب الاستطلاع إلى قراءة المذكرات التي كتبها مكسيم دي كوم في الفترة ما بين الثالث والعشرين والسابع والعشرين من مايو، ولم يحدث أن ذكر الحادثة المزعجة، وعذاب العطش الطويل، ولكننا نجد فقط الإشارات التالية: «٢٣ مايو: رياح عنيفة استمرت طوال الليل.... ٢٥ مايو: أثناء نومنا، خطف ابن آوى جزءًا من تموينننا كان معرضًا للتهوية..... ٢٦ مايو كنا نأكل بطيخا ونلقي بقشره...».

نستنتج إذن أن رواية مكسيم لا يمكن الاعتماد عليها إلى حد ما، ولكنه بالرغم من ذلك، لم يتم اختلاق هذه الرواية كلية. فقد قال فلوبير في خطاب إلى ل. بويلي «تمنيت ان اشرب كأسًا من البيرة وهو ما يفسر حكاية اشتياقه لتناول مثلجات الليمون في خيال رفيق رحلته، وهي عبارة عن انتقال خيالي طبيعي جداً وغير ضار، ولا يجب أن نقسو على مكسيم إذا كان قد أعطى لنفسه حريات من هذا النوع تجاه الحقيقة. فالأسلوب الخاص الذي استعمله هنا لا يعد خطيرًا، ولكنها الخطة العامة التي تبناها في «ذكريات أدبية» تجاه فلوبير.

وكما أوضح م. ا. مينيال: كان مسكيم يحاول إقناعنا أن فلوبير لم ير مصر، وأن رحلته فسدت بسبب ندمه على مغادرة فرنسا، ونزعاته الحنينية لكرواسيه، وتفكيره الملح في السيدة بوفاري، وتهكماته ومزاحه.

عادت رياح الخماسين تهب، والرؤية الوحيدة التي كانت في الأفق هي سبعون ساعة دون مياه! لم يكن أحد يتكلم، وفق ما رواه مكسيم دي كوم: فجأة عند عبورنا في طريق ضيق - حار للغاية - مكون من صخور جرانيت وردية مغطاة بكتابات، قال لي فلوبير: «هل تتذكر مثلجات الليمون التي كنا نأكلها لدى تورتوني؟» فهززت رأسي بالإيجاب.

فواصل قائلاً: «مثلجات الليمون هي شيء راق، اعترف بأنك ستفرح بأكل واحدة». فأجبت: «نعم» بحدة. وبعد خمس دقائق استطرد «آه! مثلجات الليمون! وحول الكوب يوجد بخار يشبه الثلج الأبيض».

قلت: ماذا لو غيّرنا الموضوع ؟. فأجاب: «من الأفضل، ولكن مثلجات الليمون تستحق الاحتفال، نملأ بها الملعقة، فتكون كالقبة الصغيرة، ونطبق عليها برقة بين اللسان والحلق، فتذوب ببطء، ببرودة، وبانتعاش، وبلذة، تبلل الحلقوم وتلامس اللوزتين وتنزل في البلعوم الذي يتلذذ بها ثم تسقط في المعدة التي تضحك بشدة من فرط سعادتها، بيني وبينك كل ما ينقصنا في هذه الصحراء الحارقة هو مثلجات الليمون».

كنت أعرف فلوبير، وكنت أعرف «أن لا شيء يستطيع أن يوقف ثرثرته السخيفة، ولم أجب، أملاً أن يسكته صمتي، ولكنه عاد من جديد أكثر وأكثر، وأمام هدوئي أخذ يصرخ: مثلجات الليمون! مثلجات الليمون»[1].

فهو عطشان، ومريض، ومحموم، وفمه جاف، وشفاهه لزجة، ويحتمل سنام الجمل الذي يؤلمه، وهنا جن جنون مكسيم. فقال لفلوبير وهو يلوح بذراعه بحركة عنيفة أدهشته هو نفسه: «اصمت وإلا حذار...» ثم توقف، وظل على بعد ٢٠٠ خطوة من القافلة، ولم يوجه كلمة إلى فلوبير لمدة يومين.

كان هذا هو الخلاف الوحيد في الرحلة، ربما، ولكن ثمة تباعد تدريجي أخذ ينمو بينهما وهو أخطر من المناقشات العابرة. كان مكسيم يستنكر تجاهل فلوبير المتزايد لعلم الأثريات وخموله الحالم، وعدم اكتراثه بالمستقبل، واحتقاره لعبارات النجاح والمستقبل

(1) Souvenirs Littéraires, vol.1, p.492- 493.

المهني، وقد كتب فلوبير فيما بعد إليه «باعتبار طبيعتك واضحة ومحددة، غالبًا ما كنت تتمرد أمام الغموض الذي لا حدود له»(١).

أما بالنسبة لفلوبير، فغالبًا ما كان يغتاظ دون أن يتكلم أمام هذا الرفيق النحيف والرشيق(٢) والفضولي والنشيط دائما. وعند النزول إلى وادي النيل، وافق دون حماس على الوصول حتى دندرة، وعدل عن الذهاب حتى أبيدوس دون أن يشعر بالندم،وزارها مكسيم وحده. «لا تهمني أبيدوس، فقد أضنتني الحمى بعد سفري إلى القصير، وبصراحة بدأت أشعر بالملل من المعابد»(٣). فظل على القارب الشراعي، وكان ينام طوال اليوم.

كان ينام أو يجتر الأفكار.. كان قلقًا، ماذا يفعل الآن؟ هل كان محقاً في قيامه بهذه الرحلة ؟ وماذا يستفيد من هذه الرحلة لنفسه؟ ليس المقصود هو نشر كتاب أو مطبوعات، أو الحصول على نجاح. فقد كتب إلى لوي بويلي في ٤ يونيو يقول: «ظللت أعيش في عزلة مثل الدب، وكان مكسيم دي كوم يتمرد ضد هذه الأفكار وقد كانت لديه أفكار مناقضة تمامًا لأفكاري مشروعات كثيرة، نشطة ويريد أن يلقي بنفسه في أنشطة شيطانية»(٤). ولكن ماذا أصبح ذكاؤه، وقوة إبداعه وقريحته وموهبته ؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي كان يطرحه على نفسه، وكان يطرحه بقلق. كان دي كوم يقول: «كان في طبيعة جوستاف فلوبير شيء يشبه استحالة الشعور بالسعادة، والسبب في ذلك هو احتياجه الدائم للرجوع للوراء، للمقارنة والتحليل». في نورماندي، كان يحتاج إلى الشرق، وفي الشرق كان تفكيره يرجع دائمًا إلى هناك، إلى «نهر أكثر عذوبة» حيث يرى «منزلاً أبيض نوافذه مغلقة». ولكن من جهة أخرى، كان هذا القلق عديم الفائدة، فرحلته إلى مصر لم تكن دون جدوى: فمن جهة، دعمت الرحلة ولينت نزعته الواقعية، ورواية «مدام بوفاري» شاهد على ذلك، ومن جهة أخرى، سترتفع ذكريات هذه الرحلة فيما بعد كسحابة من مسحوق الذهب وستقع على «سالومبو».

---

(1) Corresp., vol.I , p.407. (خطاب بتاريخ ١٢ أكتوبر، ١٨٥١)

(٢) كان العرب يسمون فلوبير " أبو شنب " ومكسيم " الرجل شديد النحافة " Corresp., vol.I , p.327.

(3) Voyage en Orient, p 123.

(4) Corresp., vol.I , p.327.

ثم ما الفائدة في الخوض على هدى مواهب مكسيم دي كوم في كل كهوف ومدافن مصر الوسطى، في أسيوط وفي المعبد؟ وقد قاد مسكيم فلوبير إلى مغارة سامون المشهورة والتي يطلق عليها مغارة التماسيح، حيث، حاول أحد مرشدي أوزيب دوسال قتله منذ عشرة أعوام[١]. وكان مكسيم ينقض على كل حواف النهر ومعه بندقية الصيد أو آلته الفوتوغرافية، ويبدو أن اهتماماته العلمية جعلته لا يهتم بالجمال الأصلي. متى سيجد الوقت ليحب؟ كان لا يهتم إلا بتحقيق أهدافه، وهذا ما كان يلومه فلوبير عليه. ما جدوى كل هذه الإثارة؟ وهذا الولع الفوتوغرافي الذي كان لا يترك له أي وقت للراحة. لا يوجد ما هو أمتع من الصورة الساخرة غير المطبوعة المؤلفة من نثر موزون والتي تحمل عنوان: أغنية الغانية[٢] وقد تم نشر المخطوطة الأصلية وسخر فلوبير من مكسيم في إطار معارضة الأغاني العربية التي تسمى «موال» والتي عرفت في فرنسا عن طريق ترجمات جوزيف يعقوب[٣]، وقد نشر شارل ديديه مقطوعات عديدة منها في روايته «ليالي القاهرة» (١٨٦٠)، وصور صديقه وإحدى الراقصات تلاحقه بأغنية مأساوية رثائية وصاخبة.

«من أنت يا من تمشى على الرمال مثل السايس دون أن تخشى من أن تحترق قدماك البيضاوان، عيناك رقيقتان ولك فخذان يحتويهما جرابان مصنوعان من القماش الأصفر» الله! الله! ما أجمله يا أخواتي!. وجهه مصقول مثل نصل قديم من دمشق، ذراعاه رشيقتان حتى إنه يستطيع أن يلبس أساوري.

✡✡✡✡

---

(١) زار م. جيسكي هذه المغارة ايضا، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ٢٠٢ - ٢٠٥، وزار هاف سكولشر، المرجع السابق، ص ٣٣٩ - ٣٤٣، انظر: الجزء الأول، ص ٢٩٢ - ٢٩٥ - ٢٩٦.

(٢) منذ نشر مخطوطة فلوبير بعد وفاته، تم اعتبار «أغنية الغانية» كتقليد للمواويل التي ترجمها جوزيف يعقوب، كانت وجهة نظر أوريان (الذي جمع مقالاته في جزء بعنوان كوتشوك هانم، راقصة فلوبير، ميركور دو فرانس، ١٩٤٣ Koutchouck Hanem . L'almée de Flaubert, Mercure de France . 1943 .، تستند إلى علاقة تماثلية. من المؤكد لدينا أن فلوبير الذي كتب هذه القطعة خلال رحلته إلى مصر قد استوحاها مباشرة من المطربين والعوالم الذين كان يعرفهم عن قرب. وقد ترجم نص المغنى الذي كان يصاحب رقصة حسن البلبيسي) Oeuvres Complétes de Flaubert, Voyages . t. II. Société des Belles- Lettres . Paris . 1928. p. 65 .

(3) Mélanges de literature Orientale et francaise . Paris . 1835 .

ماذا جئت تفعل في بلد النبي؟ لا تبدو تاجرًا ولا جنديًا، تحتاج للذهبية لتذهب لأي مكان؟ ولا بد أنك تحتاج للجمال ما أكثر بكاء من تحبك في بلادك؟ لو كنت مكانها هل كنت ستتركني؟.

الخيمة مغلقة والفلاحون يحيطون بها، وعلى الباب يقف ترجمان لحيته رمادية مثل الحارس في اسطنبول[1]. كما تخرج الرصاصة من البندقية، وكما يخرج السهم من القوس، وكما يطير العقاب ومثل الكراهية بعد الإهانة، وثبت وأنت تحمل بذراعك اليسرى شيئًا مريعًا في غطاء أسود، لماذا تنظر لهذه العلبة الصفراء التي يحملها الملاحون على أعناقهم وهم يلهثون؟[2]. يالبحارتك المهرة، أذرعهم قوية، يهتفون باسمك تحت لهيب الشمس وهم يجدفون طوال النهار، أيها النبي.

☆☆☆☆

ولكني أخاف عندما ألمح طيفك من بعيد يتوارى خلف المشربية، يغطي رأسك خمارٌ أسود. ويبدو لي أنك تكادين تعزلين رأسك هناك داخل هذا الغطاء. ثم تنتصبين كأنك نخلة، وتدفعين شيئًا بإصبعك على الزجاج....

☆☆☆☆

قالت ساحرة من منطقة كلابشة للشلال إنَّ كل السموات تتشابه بالنسبة لقلبك، وإنَّ الحب – دون شك – يقتفي أثرك في كلِّ مكان مثل طائر السنونو الذي يتلاحق الصيف. لا تذهب من هنا، لا تذهب من هنا، كن مؤمنًا ! إنَّ أطرافًا يتفصد منها دمٌ أقل مما ستفصد من قلبك إذا ذهب من هنا.

وأخيرًا تنتهي الرحلة، وفي أسيوط يلتقي فلوبير مع صهر لينون دي بلفون، الدكتور كيني، ويتحدث معي بسرور، وقد أبدى الدكتور كيني «أسفه لعدم مقدرته على إقامة سهرة حمراء لهم»، ولكنه «أكرم وفادتهما»، وهو الإكرام الذي سرعان ما سيتناساه مكسيم الجاحد[3]. وبلغت السفينة شاطئ بني سويف وزار الرحالتان القبور التى تقع أقصى

(١) جوزيف بريشتي

(٢) كانت آلة التصوير في هذا الوقت كبيرة الحجم وثقيلة.

(٣) هـ. روي " H.Roy الحياة البطولية والرومانسية " للدكتور كيني La vie héroique et roman tique du Dr Cuny، نانسي Nancy، ١٩٣٠، ص ,١٩٨٣ رسم مكسيم دي كوم ظلال صورته بصعوبة ومنحه قصيدة رثاء في كتابه «ذكريات أدبية، الجزء الثاني، ص ١٥٠.

المنطقة الشمالية التى أشاد بها فلوبير في مشاهد الصيد. ولكن الحركة فترت، وحلَّ التعب، وتباطأت حركة الإبحار بسبب الرياح المضادة وخلال خمسة عشر يومًا لم تستطع السفينة قطع أكثر من ستين فرسخًا. وظهرت بينهما حالة غريبة من الاسترخاء فلم يعد لديهما شيء يفعلانه، ولا مقابر يزورانها ولا برديات ينسخونها! لديهما كتب، ولكنهما لا يقرأان فيها وكانا يتسليان كأنهما أطفال كبار، يهرجان، يقلدان العجائز والشيوخ، يتحدثان دون توقف عن آفاتهما وآلامهما، يتحاوران «بصوت مضطرب، ووجوه بلهاء» حول الأحداث المعاصرة «بأفكار متصلبة»(١). يخلقان شخصيات ضبابية، ينعشانها بإيماءتهما وقريحتهما. مكسيم يمثل دور «الأب إيتيان»، ويدعى فلوبير «قرافون» quarafon كانت كوميديا حقيقية يمثلانها بأنفسهما.

«إننا نتجول داخل أنفسنا، ويساعد كل منا الآخر ونحن نثرثر... وأحيانًا تحدث بينهما منازعات حادة حيث يستغل الأب إيتيان ميزة كبر سنة، ويعلن قرافون أنه سيمسك بزمام الأمر الأسبوع القادم». وها هو تحوّل لم يشر إليه في قصيدته: تحولات الآلهة Avatars(٢).

عشت زمنًا طويلاً في أعالي النوبة،
أبيع مسحوق الذهب للتجار العرب،
وأعشق أمون رع، وبتاح وسويك وابنوبس

كم نجد أنفسنا بعيدين عن هذه الإثارات العظيمة! الفراعنة الشامخون الصامتون، المتوجون بالذهب، المحملون على المحفات، الذين تتقدمهم أسود مستأنسة، وها نحن يتشتت انتباهنا من خلال شخصية شيخين من نورماندي، من أبناء عمومة شارل بوفاري، أرسلا في بعثة استطلاعية(٣).

---

(1) Corresp., vol.II , p.334-335.

خطاب من فلوبير إلى والدته في ٢٤ يونيو ١٨٥٠.

(٢) انظر ما سبق ذكره عن هذا الموضوع في الفصل الثالث.

(3) M.Du Camp, Souvenirs Littéraire , vol.I , p.

«روايته القادمة كانت تشغل تفكيره، فكان يقول لي «أنا مولعٌ بها، وأمام المشاهد الطبيعية الأفريقية كان يحلم بالمشاهد الطبيعية النورماندية».

في ٢٥ يونيو ١٨٥٠، رست السفينة على ساحل بولاق وكانت هذه هي نهاية الرحلة إلى مصر. فكان القسم الأول من البرنامج الذي أعده مكسيم دي كوم قد تحقق، وكان ينبغي طيّ الصفحة، فبعد عشرة أيام سوف يرحل رحالتانا من الإسكندرية إلى فلسطين، ومع أن فلوبير كان في الظاهر أقل استفادة من رحلته الأخيرة عن الرحلة التي قضى فيها ثمانية أشهر مع صديقه، فإنه احتفظ في أعماقه منها بكثير من الأسرار الثرية. كتب مكسيم دي كوم يقول إنها لتعد ظاهرة فريدة أن انطباعات هذه الرحلة التى بدت هينة الشأن بالنسبة لفلوبير قد عادت إليه في صور دقيقة أثناء كتابته رواية سالومبو. وبنفس الطريقة كان يفعل بلزاك (أثناء كتابته): لم يكن ينظر إلى الأشياء ولكن كان يستعيد كل التفصيلات[1].

IV

قبل الانتهاء من هذه الدراسة، يبقى سؤال يجب طرحه: ماذا استفاد فلوبير ومكسيم دي كوم من رحلتهما؟

في ما يتعلق بمكسيم دي كوم الإجابة بسيطة، فقد عاد إلى فرنسا وحقيبته مكتظة بالملحوظات والصور الفوتوغرافية التي نجح في استخدامها دون تأخير. انتهت رحلته في يوليو ١٨٥١، وفي عام ١٨٥٢، تولى مع أرسان أوساي وتيوفيل جوتييه رئاسة «مجلة باريس». وفي العام التالي قام بنشر ألبوم رائع يحمل عنوان: «مصر والنوبة وفلسطين وسوريا»، مكون من (١٥٠) لوحة فوتوغرافية يصاحبها نص توضيحي ويتصدره مقدمة، «كان كتابًا استهلاليًا اجتمعت فيه للمرة الأولى فنون التصوير والطباعة»[2]. فضلاً عن ذلك، تكمن خصوصية هذه الطباعة الفاخرة في الصور «الكليشيه»[3]، والتي يحتمل أن تكون أولى الصور المأخوذة في مصر، ويجب الاعتراف أنها كانت ناجحة جداً.(كان ج. ج. أمبير ما يزال يصطحب معه رسامًا في رحلته عام ١٨٤٥). أما بالنسبة للتمهيد، فقد كتب

---

(1) M.Du Camp. Souvenirs Littéraire . vol.I , p. 480.

(٢) M.Du Camp. Histoire et Critique. م. دي كوم، تاريخ ونقد، باريس، ١٨٧٧، ص ١.

(٣) هذه الصور محفوظة في مكتبة المعهد (موروثات م.دي كوم، أشياء، رقم ٧٧ - ٨٠).

فلوبير متذمرًا أنه لم يكن يتضمن ثلاث صفحات لمكسيم دي كوم، «فالكتاب كله مأخوذ عن شامبليون فيجاك، (جزء بعنوان العالم المصور)، وعن لبسيوس... وقد أعطى ذلك إحساسًا بأن الكتاب متكلف وغير جيد الصنع»[1]. ولم يكد هذا العام (١٨٥٣) ينقضي، حتى بدأ مكسيم دي كوم رواية رحلته في «مجلة باريس».

لم يتحدث أبدًا عن رفيقه، فقد زعم أنه كان بمفرده برفقة خادمه والترجمان فقط. وقد كتب فلوبير إلى لويز كوليه في ٧ أكتوبر قائلاً: إن (كتاب «النيل» المماثل لكتاب الراين) سيئ بطريقة مثيرة للدهشة. أنا لا أتحدث عن الأسلوب الذي يعد تافهًا للغاية، ولكن موضوع الكتاب ووقائعه، لا يوجد بها شيء يستحق التقدير، فهو يغفل عن ذكر أكثر التفاصيل التي رآها مثالية وتميزًا في الطبيعة، أنت يا من ما قرأت ملحوظاتي ستدهشين لذلك. يا له من انهيار سريع ؟ أوصيك خاصة بقراءة الفقرة المتعلقة بالأهرامات حيث يظهر بين السطور أصداء هائلة لأفكار السيد برسيني Persigny[٢].

يعد هذا النقد ظالمًا إلى حد ما، فبالتأكيد مكسيم شخص ينتهز الفرص، يرغب في الحصول على وسام لدى عودته بنتائج مهمته، ويعرف كيف يتصرف ومن يمدح في الوقت المناسب. فقد قدم نفسه لنابليون الثالث، وحام حول مورني ودي برسيني، وعرف كيف يعرض ألبومه الفاخر في الصالونات. ولكن رأي فلوبير الذي لم يتناول بالتقييم سوى ما قدمه مكسيم في عدد شهر أكتوبر من «مجلة باريس» لا يعد نقدًا كاملاً إلى حد ما، فكتاب النيل لمكسيم دي كوم ليس سطحيًا[٣].

فالألوان والخشونة والتلقائية التي في الكتاب ليست بالقدر الذي تمناه رفيقه. كما أن السرد سليم ومتوازن ومنساب ومتقن، يتسم بالوضوح والأناقة والاعتدال، ربما يخلو من حيوية، ولكنه أسلوب ماهر. وما يمكن أن يؤخذ عليه أنه ممل في بعض الأحيان، ومليء

---

(1) Corresp., vol.II , p.57-80.

(٢) Corresp., vol.II , p137، برسيني كان وزيرا للداخلية عام ١٨٥٢، ووفقا لنظريته، تم بناء الأهرامات لتكون بمثابة حاجز يعيق رمال الصحراء " J.J. Ampére , op.cit.,p.162.

(٣) وهذا هو راي تيوفيل الذي كان على دراية بذلك (" L'Orient ,vol. II, p.259) وصف مكسيم دي كوم هذه الآثار الرائعة بألوان فنان ودقة عالم.. ويعد كتاب النيل من أكثر كتب الرحلات التي نشرت منذ زمن طويل إثارة وإفادة وأفضلها كتابة ".

بالوصف الأثري، والطوبوغرافي للمعابد، ويستعرض معرفة حديثة العهد وغير متحفظة، يتوقف أحيانًا عند استطرادات تاريخية من خلال سرد بعض العادات والأساطير العربية، وغالبًا ما كانت النصوص المعرفية تتداخل مع النصوص ذات الأسلوب البارع التي تتراوح بين انطباعات رحلته والمشاهد المتقنة الصنع.

و كثيرًا ما كانت تتشابه هذه الانطباعات والمشاهد لدى الرفيقين، فالصفحة الموجودة في كتاب النيل والتي تتحدث عن الخماسين في صحراء القصير تبدو مأخوذة من مفكرة فلوبير، كل منهما كان يكتب مذكراته، ولكن هل كانا يتبادلانها لاستيفائها؟ محتمل، بل ومرجح، فمكسيم كان دائمًا مشغولاً بالطبع والتصوير، وبالتأكيد لم يكن لديه وقت فراغ مثل صديقه، فاستعان بمذكراته. أما الآخر الذي لم يكن لديه أي هدف أدبي فكان يتركها له دون تردد. وفي جميع الأحوال، فإنهما كانا يتحدثان على المركب عن انطباعاتهما، وهذا يمكن أن يفسر التشابه الغريب لبعض أفكارهما، رغم اختلاف الملاحظات الخارجية والأسلوب، فأفضل الصفحات لدى مكسيم هي أفضلها لدى فلوبير، وذكر مكسيم للفراعنة في معبد الكرنك يذكرنا برواية فلوبير «سالومبو».

في هذا الموضوع، يجدر إجراء دراسة مقارنة لمذكرات أحدهما والنص الذي نشره الآخر. وفي هذا الصدد يمكننا الاستناد إلى مسودة مذكرات مكسيم دي كوم(1)، وهي قريبة جدًا من مذكرات فلوبير عبر متابعة تحولات النص الأصلي، ودراسة كتاب مكسيم «النيل» وتوضيح ما زاد، وما نقص عن المذكرات الأصلية، وما يتضمنه من معلومات أكاديمية مدروسة. وفي النهاية يمكن دراسة كيفية إكمال كتاب فلوبير بكتاب مكسيم دي كوم، وما مدى إسهام كل منهما، إسهامًا واعيًا، أو غير مقصود، ما مدى إسهام المفكر والفنان، العالم والرسام، العامل والحالم في تحديد الانطباعات. فقد كان مكسيم يوجه الرحلة وينظم خط السير، ويضع البرنامج ولكنه غالبًا ما كان يتلقى الدفعة الأولى من صديقه، وكذلك الصورة المرسومة الوجيزة التي أجاد استخدامها فيما بعد .

(١) من المعروف أن بعض أوراق مكسيم دي كوم المحفوظة في مكتبة المعهد ليست متاحة للقراء بسبب الأحكام والأقاويل التي تتضمنها والمتعلقة بالحياة الخاصة لمعاصريه وزملائه الباريسيين، ولكن الملاحظات المكتوبة الخاصة بالرحلة إلى مصر لا تدخل ضمن هذا النوع من الأوراق، واظن انه يمكن أن تكون متاحة دون عوائق.

أما بالنسبة لفلوبير، فيبدو من الوهلة الأولى أنه لم يستفد من رحلته إلى الشرق كما نتخيل. في البداية، كان ينوي تأليف قصة أنوبيس، وتكون بطلتها «المرأة التي أرادت أن يعشقها إله»[1]، أليس هو موضوع رواية «سالومبو»؟ ولكنه كما ذكرنا من قبل في حديثنا عن هاريل بك، ألهمت مصر فلوبير موضوعًا آخر كبيرًا لازمه سنوات طويلة.

ففي جريدة «مذكرات» الأخوين جونكور Jounal des Goncourt الصادرة بتاريخ ٢٩ مارس، ١٨٦٢، أي بعد اثني عشر عامًا من رحلة فلوبير إلى الشرق، نقرأ: «فلوبير يجلس القرفصاء على الطريقة التركية على أريكته، يتحدث عن مشروعاته وطموحاته وأحلامه، الخاصة بالروايات. ويبوح لنا برغبته الكبيرة، الرغبة التي لم يعدل عنها أبدًا، في تأليف كتاب عن الشرق الحديث، الشرق ذي الرداء الأسود. وأخذ يسرد بنشاط كافة التناقضات التي نسجتها موهبته في الكتاب، مشاهد تحدث في باريس وأخرى في القسطنطينية، مشاهد تحدث على النيل وأخرى تدل على النفاق الأوروبي، ومشاهد فظة وسرية من هناك: إغراق وقطع رأس بسبب شكوك أو شائعات سيئة، هذا العمل سيشبه إلى حد ما، وفقًا لمقارنته، المراكب التي تحمل على مقدمتها رجلاً تركيًا يرتدي زيًا مميزًا وفي مؤخرتها على الجسر تحمل حريم هذا الرجل التركي، والخدم وكل شراسة عادات الشرق القديم. ويستمتع فلوبير بلوحات كافة الأشخاص الذين يقدمون صورًا سيئة سواء بين الأوروبيين أو اليونانيين، أو الإيطاليين، أو اليهود، ويضعهم كإطار حول البطل، ويتناول التناقضات المثيرة التي يقدمها هنا وهناك، الشرقي الذي يسعى نحو التقدم، والأوروبي الذي يعود لحالة الهمجية، مثل ذلك الكيميائي الفرنسي الذي لم يحتفظ بعادات وتقاليد وطنه عندما أقام على حدود ليبيا»[2]. قبل وفاته، كان فلوبير يردد دائمًا في مراسلاته: «لو كنت أصغر سنًا، ولو كنت أمتلك المال، لعدت إلى الشرق لدراسة الشرق الحديث، الشرق الذي يمتلك قناة السويس، إن تأليف كتاب كبير كهذا من أحلامي القديمة . كنت أود أن أكتب عن إنسان متحضر يعود للهمجية وإنسان همجي يتحضر. كنت أود أن أوضح هذا التناقض بين عالمين ينتهي بهما الحال إلى الاختلاط، ولكن فات الأوان».

---

(1) Corresp., vol.II , p.10.

(2) Journal des Goncourt , 1 er Serie , vol .II , p.23 .

المقصود هنا هو إيم بي، راجع الجزء الأول، ص ٣٥٣، ٣٥٤.

إن الندم لن يكفي أبدًا على عدم اكتمال هذا المشروع، فقد كان سيصبح تتويجًا لعمل كبير، فدقة الملاحظة كانت ستطبق في إطار ديكور شرقي نادر، وواقعية رواية «السيدة بوفاري» كانت ستصبح أكثر اعتدالاً ومحدودية عندما تحاط بشعرية «سالومبو». وبلا شك كان فلوبير سيسعى للتوفيق بين الميول المتناقضة لعبقريته في تآلف أخير. ولكن أعمال فلوبير تحمل دائمًا في ذاتها طابع رحلته إلى مصر، وإذا كان هذا التأثير غير ملموس في بعض الأحيان، فالاستفادة التي حصل عليها من هذه الرحلة لا يمكن تجاهلها. فقد كانت أكثر من مجرد عمل شائع وعام، فهي وحي خاص لا حدود له؛ لذلك لم يتحدد هذا التأثير بسهولة. وعلى الرغم من ذلك، فهو موجود. لقد جاء فلوبير إلى مصر دون أية خلفية أدبية، ودون أية أفكار مسبقة مثل مكسيم دي كوم، ولكن عيناه تشربت بمتعة كل ما رأته. فقد ترك نفسه ليغرق في العالم الشرقي وتأثر به كلياً دون أن يقصد أخذ ما يمكن أن يفيده منه قبل الأوان، وبصورة تعسفية.

لم يكن ثمة اتصال نفعي في الوسط الذي كان يحيط به، ولكنه الاستيعاب البطيء المتروي. لذلك،، جاء فلوبير من مصر بتجربة ورؤية عمل عليها حتى وفاته دون أن يعلم.

لنفحص النسخة الأخيرة من «غواية القديس أنطوان» و«سالومبو» و«هيروديا»! ما أكثر التفاصيلات الآتية من الشرق، المتدافعة في مخيلة الشخص المتفرد من كرواسيه والتي لم تكن ممكنة دون السفر إلى النوبة.

و حتى وإن بدا مبدعًا، فالخيال غالبًا ما يكون صورة من صور الذاكرة. إنه إحساس قديم يعود، صوت منسي يتكرر صداه، علامة موسيقية غريبة ومألوفة في نفس الوقت تتكرر ويعاد غناؤها. ألا تعرفون ثياب سالومبو هذه؟ إنها نفس الثياب التي ترتديها كليوباترا – إيزيس على واجهة معبد في النوبة[1].

وهل كان فلوبير قادرًا على كتابة هذا الوصف في «سالومبو» لو لم يكن قد شاهد مرات عديدة الانهيارات العنيفة في أيام الخماسين التي تهب فجأة على مصر فتغطيها

(1) M.Du Camp. Souvenirs litteraires . Vol.II p. 370 .

الرمال وترزح تحت وطأة نسيم الجنوب الحارق؟: «فقدت الشمس أشعتها فجأة، فبدا الخليج والبحر ساكنين مثل الرصاص السائل، وجرت سحابة غبار أسود عمودياً مثيرة زوبعة، فمال النخيل واختنقت السماء، وسمعنا صوت أحجار تقع على أكفال الحيوانات، والإفرنجي كان واقفًا، شفتاه ملتصقتان بثقوب خيمته، يتذمر من شدة التعب والحزن....»[١].

لنترك الحديث هنا للوي برتران، وهو محلل رائع لأعمال فلوبير، ولا يمكن أن ننكر كفاءته في الموضوعات المتعلقة بإفريقيا والشام، وقد كتب: «عندما نعرف قليلاً عن الشرق الحديث، نلاحظ سريعًا أن فلوبير، في قصصه التي تتحدث عن الزمن القديم، كان متأثرًا في بعض المشاهد والوصف بمشاهد الأطلال القديمة، أو بالتشابه المحتمل بين حياة الشرقيين الحديثة، وحياة أجدادهم. وهكذا، نرى في سالومبو: البحيرة المقدسة التي وضعها فلوبير في حدائق أميلكار ليست على الأرجح إلا ذكرى بحيرة الكرنك المقدسة. وكذلك الأروقة والحجرات الصغيرة لمعبد تانيت والرسوم الحائطية التي تزينها بصور الحيوانات والآلهة، كما يمكن أن نخمن من خطابات فلوبير أنه استوحى كل هذه الأفكار من مقابر طيبة وخاصة مقابر وادي الملوك... ولكن نستشعر في وصفه للملابس والزينات والأشياء المألوفة على وجه الخصوص آثار مصر القديمة، فثياب النساء السوداء ومآزر العبيد الزرقاء وحلقات المرجان مثل تلك التي كانت تضعها تاناش مربية سالومبو في أنفها، ما تزال موجودة حتى اليوم في أسوان ووادي حلفا، وكذلك العقود المصنوعة من الزجاج المتدلية من أعناق الخيول والحمير، والتعاويذ والحقائب الجلدية الملونة ومواقد الفخار وورق النخيل الذي كان يستخدم لإشعال النار، وأخيرًا العطور التي كان يغمر بها سالومبو نفسه، والتي كان يصنعها عبيد أميلكار تحت إشراف سيد الروائح العطرة، والتي أخذ وصفتها من القاهرة[٢].

(1) Salambo . p. 104.

(2) L. Bertrand . Gustave Flaubert . 1912, chap. III, p. 57

وفي ما يتعلق بالعطور، راجع أعلى ص ٩٣، حاشية رقم (١).

أنا أعلم أن فلوبير قام برحلة قصيرة إلى الجزائر بعد رحلته إلى ضفاف النيل بثماني سنوات، ولكنها لم تكن إلا رحلة مراقبة، لا تهدف إلا إلى جمع الحقائق، وعندما وصل إلى تونس وجد نفسه سريعًا بين معارفه. وقد قال لوي برتران في هذا الصدد: «رحلة فلوبير إلى مصر كانت بالتأكيد الحدث الرئيسي لوجوده، فقد وجدت فيها عبقريته صورتها النهائية وتحددت فيها ميوله، وهكذا نضجت فكرة «سالومبو»، وتغير موضوع «غواية القديس أنطوان» التي كتبها منذ زمن طويل. إذا كان الأمر كذلك، علينا إذن أن نقلب المنظور التقليدي الذي نرى من خلاله أعمال فلوبير، ويجب أن نضع «السيدة بوفاري والتربية العاطفية» في مستوى ثان: فهما ليسا إلا نقدًا لاذعًا للبرجوازية ويجب أن يظلا على هامش عمل فلوبير الحقيقي. «فسالومبو» و«الغواية»، و«هيروديا» هي التعبير الصافي عما كان يريد أن يكتب. ولكن الموضوع الحقيقي، الموضوع المثالي الذي حلق على كل أعماله هو الشرق باعتباره مصدر كل حياة وكل جمال»[1].

إنني لن أجرؤ على هذه المبالغة، ولا على أن أقلب عمدًا كل رؤية لأعمال فلوبير، إن «السيدة بوفاري» و«سالومبو» يمثلان قمتين متساويتين نقف من خلالهما على مملكتين مختلفتين، ولكنهما جذبتا الفنان والكاتب بنفس القدر. ما يمكن أن نؤكده دون أن نخشى المعارضة هو أن جزءًا كبيرًا من هذا العمل نتيجة للرحلة إلى الشرق. و«السيدة بوفاري» مدينة لهذه الرحلة بمنهج الملاحظة النفسية، ولولاه لم يكن سيتطور أبدًا في إطار الوسط المتكلف الذي عاش فيه أيام الشباب والتيار الرومانسي الأخير.

فبعد سفره إلى مصر بثلاث سنوات، وأثناء استغراق فلوبير في كتابة «السيدة بوفاري» كانت صورة إفريقيا النوبية والسودانية لا تزال تلازمه، وتفرض نفسها عند الحديث عن الحياة البرجوازية والمقاطعة النورماندية. وكان فلوبير يكتب إلى لويز كوليه قائلاً: «لماذا تشغلني دائمًا بالجملة التي قالها رابليه؟: «أفريقيا تأتي دائما بالجديد». إنني أجدها مليئة بالنعام والزراف وفرس النهر والزنوج ومسحوق الذهب». وهذا الطابع الإفريقي هو الذي سيميز رواية «سالومبو».

---

(١) فلوبير وافريقيا، مجلة باريس، إبريل ١٩٠٠، ص ٦١٩.

والرواية القرطاجية تدين لمصر بهذه الصبغة الخاصة، وهذا الإطار الخارجي يختلف اختلافًا شديدًا عن الإطار التركي، أو الآسيوي. ويبدو أن أجداد أميلكار قد جاءا من طيبة، ومن أسوان وليس من صور أو من صيدا. فالشرق لدى فلوبير ليس الشرق نفسه لدى بيرون أو لوني.

وقد كتب فلوبير: «أفضل الشرق البدوي، والصحراء، وأعماق أفريقيا القرمزية، والتمساح والجمل والزرافة».

وهذا الشرق يختلف عن شرق الأخوين جونكور العاشقين للتحف والذوق الياباني. فعندما وصف مكتب كرواسيه، والتعاويذ المصرية التي يغطيها الصدأ، وسهام النوبة والأطباق النحاسية والقلائد الزجاجية من القاهرة، «انزعجا قليلاً من هذا الديكور الداخلي...، وكانا يقولان إنه ممتلئ بشرق كبير حيث توجد خلفية همجية في طبيعة الفنان..».

وبمعنى آخر، فإن النزعة الغرابية لدى فلوبير أفريقية أكثر منها آسيوية وتفضيله للشرق البدوي والصحراء، يرجع إلى رحلته إلى مصر حيث مكث أطول من أي مكان آخر. فقد حصل فلوبير على استفادة مزدوجة من رحلته على ضفاف النيل: من ناحية حصل على حرية جمالية، وتخلص من الأسلوب والتصنع الرومانسي، وتوجه نحو الواقعية والتعمق النفسي وخاصة في تكوين الرؤية، ومن ناحية أخرى اكتسب وحيًا دائمًا عميقًا ومسهبًا. وهذه الألوان اللامعة والمسحوق الذهبي المماثل لرمال أسوان وهذا النور الإفريقي الذي سيغلف سالومبو، هذا كله يمثل الحصاد المتعدد الذي سيخرج به فلوبير من إقامته على شاطئ النيل.

حصد مكسيم دي كوم من رحلته وسام الشرف. وقد كتب عنه فلوبير يقول: «كل شيء اختلط في رأسه: النساء والصلبان والفن والأحذية، كل ذلك دار في نفس المستوى، حسبي أن يكون ذلك بمثابة دافع له، هذا هو المهم».

وقد روى أعماله وعرض صوره الفوتوغرافية في صالونات برجوازية الإمبراطورية الثانية، وكان يتجمل أمام سيدات ضاحية سانت أو نوريه وشارع سان جيرمان، وانتزع من بروسبر مريميه عنوة عشيقته الفاتنة السيدة ديلسار [١]. وبينما انعزل فلوبير في مذهب الفن للفن، كان مكسيم دي كوم يحتفل بالقاطرة والبخار باعتباره مصلحًا اجتماعياً وأحد أتباع سان سيمونيون البارزين، وتنبأ بالأدب الاجتماعي المصلح للإنسانية، أي باختصار كان يلعب دور مدير المجلة، ويحاول أن يكون مرشدًا للوعي[٢].

وقد سلك الصديقان كل منهما طريقًا مختلفًا، وكانت مصر بالنسبة لهما ملتقى القدر.

****

(١) قدمت السيدة ديلسار مع مكسيم دي كوم إلى فلوبير الملامح الأساسية لأبطال «التربية العاطفية»: فالأولى هي السيدة دومبروز، والثاني هو فريديريك مورو.

(٢) لم يتم انتخابه في الأكاديمية إلا بعد وقت طويل جداً، وبالتأكيد لم تغفر له الأكاديمية كل النقد الذي وجهه لها في مقدمة كتابه: «الأغاني الحديثة»، وقد ذكره به الفيلسوف إيميل كارو بطريقة ساخرة، وهو الذي كان مكلفاً باستقباله، وأكد على الوجود المستمر للذكريات المصرية في مجمل أعماله، فقد شغلت مصر فكره لمدة طويلة، وقال له: «في أشعارك وقصصك، تعطي لنا في كل لحظة رؤية باهرة أحياناً وحزينة أحياناً أخرى».

الباب الثاني

مصر ملهمة
تيوفيل جوتييه

الفصل الأول

مصر القديمة من ليالي كليوباترا (١٨٣٨) حتى رواية المومياء (١٨٥٧)

I

بعد متابعتنا لجيرار دي نرفال Gérard de NERVAL وفلوبير Flaubert ومكسيم دي كوم Maxime du CAMP فى مصر، كان من الطبيعي أن يأتي إليها من بعدهم صديقهم تيوفيل جوتييه . Téophile GAUTIER هذا الكاتب الذي كان يقول عن نفسه «رجل يشعر بوجود العالم الخارجي»، هذا الشاعر الذي جاء إلى عالم الشعر من خلال مرسم فنان تشكيلي أو إن كان من الأفضل أن نقول عنه الفنان التشكيلي الذي تاه لحسن الحظ في دروب الأدب وهذا الهارب من الرومانسية الذي أصبح صاحب نظرية الفن للفن ورائد تيار البارناس لم يكن يستطيع إلا أن يتأثر بثراء الشرق وبريق ضوئه وتألق أزيائه وألوانه.

تيوفيل جوتييه الذي كان مولعًا وعاشقًا لكل ما هو غريب كان قد ولد ليلعب على ضفاف البوسفور وضفاف النيل. ولكنه تحت وطأة مسئوليته الثقيلة كصحفي اضطر إلى أن يشهد قدوم أصدقائه إلى مصر الواحد تلو الأخر دون أن يستطيع مصاحبتهم. النقد المسرحي والنقد الفني اللذان كانا وسيلته لكسب الرزق أجبراه على البقاء في باريس. لم تتح له الفرصة لمعرفة مصر إلا في عام ١٨٦٩ اى قبل وفاته بثلاثة أعوام: فقد جاء إلى مصر مدعوّاً مع ناشرين آخرين لحضور احتفالات افتتاح قناة السويس بصفته مراسلاً للجريدة الرسمية Journal official

لكن نظرته كانت قد تكونت منذ زمن بعيد فلم يكن محتاجًا للقدوم إلى مصر حتى يعيش فيها. فقد كان خياله يطيل البقاء بها كثيراً خلال مشوار عمله الطويل مستعيناً في

ذلك بمزاجه وقراءته. فقد كتب إلى جيرار دي نرڤال Gérard de Nerval [1] في ٢٥ يوليو ١٨٤٣ يقول له «إننا لا ننتمي دائمًا إلى البلد الذي ولدنا فيه ولذلك فنحن نبحث في كل مكان عن وطننا الحقيقي. ...إن لامارتين Lamartine ودي فيني De Vigny يعتبران إنجليزيين من العصر الحديث، هوجو Hugo يعتبر أسبانيّاً، فلندر من زمن شارل كنت، دي كوم تركي آسيوى، أما ماريلا Marilhat فهو عربي ودي لاكروا مغربي... أنت ألماني وأنا تركي ولكنى لست من القسطنطينية بل من مصر. يبدو لي أني عشت في الشرق وعندما أرتدي القفطان والطربوش خلال المهرجان أشعر أني ارتدي ملابسي الحقيقية. كنت دائما مندهشاً لماذا لا أتحدث العربية بطلاقة، من المؤكد أنى نسيتها. عندما كنت في أسبانيا كنت اهتم بكل ما يخص بقايا المسلمين Les Mores اهتماماً كبيراً كما لو كنت من أبناء المسلمين وكنت أنحاز لجانبهم ضد المسيحيين»[٢].

وكان جوتييه يقترب من الشرق الذي يسيطر على أحلامه قدر المستطاع من خلال أسفاره إلى أسبانيا (١٨٤٠)، إلى القسطنطينية (١٨٥٢) ومن خلال معتقداته وميله للأمور الخفية المتصلة بالسحر والتنجيم الذي كان يتقاسمه مع جيرار دي نرڤال وأيضًا من خلال أحلام اليقظة والتحف التى كان يقتنيها. كما كان يقترب من الشرق من خلال استقباله وترحيبه بالأساتذة المستشرقين ومن خلال مناقشاته مع الفنانين التشكيليين مثل ماريللا والكتاب الرحالة مثل جيرار وفلوبير ومكسيم دي كوم وأخيرًا من خلال أعماله المستلهمة أحيانًا من مصر القديمة أو مصر العربية: ليلة من ليالي كليوباترا (١٨٣٨)، قدم المومياء (١٨٤٠)، الليلة الثانية بعد الألف (١٨٤٢)، الجنية (١٤٤٣)، السلام (١٨٥٠)، حنين المسلات (١٨٥١)، رواية المومياء (١٨٥٧)..الخ.

(1) Feuilleton de La Presse. Cf. plus haut. p.7 note 3

(2)Théâtre, éd. Charpentier, p. 294

اكد برجرا Bergerat دون إثبات ان جوتييه كان لديه دم شرقي في عروقه وبالنسبة لدي كوم كانت بشرة جوتييه غير اللامعة دليل على أن لديه إرثا بعيد من المور.

فالبحث عن مصر وصورتها التي رسمها لها تيوفيل جوتييه وقام بتغذيتها بقراءاته ورؤياه وأحلامه يجب بالأحرى أن يكون داخل تلك الأعمال وليس داخل عمله «الشرق» L'Orient الذى تم نشره بعد وفاته حيث قام الناشر داخل هذا العمل بإعادة طبع نص رحلته التي قام بها مؤخرًا إلى السويس وبعض من مقالاته عن «النيل» لمكسيم دي كوم و«الفيوم وسيناء» للفنان التشكيلي رينوار. ....الخ.

هذه الصورة تعكس قدراته العميقة على التطور : فهي عبارة عن مرآة نرى فيها جوتييه نفسه وهو يتغير تدريجياً. وخلال العشرين عامًا التي تفصل بين «ليالي كليوباترا » ورواية «المومياء» يتضح أمامنا هذا التطور، وهو مماثل لما حدث لفلوبير، حيث يقوده من الرومانسية إلى البارناسية. وقد كان من السهل علينا أن نلتفت إلى هذا التطور من خلال بقية أعماله ويكفى أن نعتبر «ليلة من ليالي كليوباترا » نقطة البداية و«رواية المومياء» هي نقطة النهاية حتى نستطيع تحديد مدى وهذا التطور وحجمه.

ولكن من خلال تلك التحولات التي حدثت بداخله (وهذا ما يعطيه طابعاً متميزاً) فقد بقى رساماً. ولأنه رسام فقد اتجه إلى الرومانسية وأيضًا لأنه رسام هرب منها. لماذا سارع هذا الشاب بعصاه الحربية وشعره الكثيف المتطاير وقميصه الأحمر للاشتراك في معركة هرناني Henani؟ ذلك لأنه مثل صديقه جيرار، كان يكره التفسيرات الهشة لبقايا الكلاسيكيين وأوهامهم الباهتة. وكان يحب التفاصيل الرائعة والصور التي تنطق بالحياة والألوان الزاهية الموجودة في الشعر الحديث. لكن بما أنه كان رساماً فقد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك متخطياً بدوره بلاغة الرومانسيين البراقة والتي كانت في أغلب الأحيان خادعة، وراح يرسم ويصور أشخاصًا ومناظر طبيعية، كما قام بالحفر والنقش على أحجار العقيق واحتفظ بالألوان، ولكنه سجن تلك الألوان داخل إطار واضح من الطلاء الخزفي.

إن رؤيته أدخلته إلى عالم الرومانسية، وما قام بتنفيذه أخرجه من هذا العالم. وهكذا ابتعد جوتييه تدريجيّاً عن الأسلوب الغنائي والأدب الشخصي وخضع للمحسوس والموضوعية. وليس هناك ما يظهر هذا التطور أكثر من أعماله المستلهمة من مصر. ويجب

القول إن ما ساعده على ذلك هو أسلوبه ووضوح ذهنه وفضوله الذي لا يكل وتطبيقه العقلي. كان الأدباء الرومانسيون يسخرون في ندواتهم من الشعور المستعارة ويلقون أشعار فيللون Villon وينظمون الحفلات التنكرية التي غالباً ما كانت مكشوفة وبعيدة عن التنكر ولكن كل هذا لم يمنعهم من أن يكونوا جادين : إلى جانب هذه الولائم الصاخبة حيث كانوا يأكلون المكرونة التي كان يعدها الطباخ Graziano بعد إضافة النبيذ إليها، كانت هناك ليالٍ تتسم بالعمل الجاد. كانوا يثرثرون ويحلمون ولكنهم أيضًا كانوا يقرأون ويتناقشون. في وسط هذه الحياة البوهيمية تأكدت عند جوتييه - بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى- القدرة النادرة على السيطرة على الأفكار. فهذا الشاعر يخفي بداخله عقلاً رشيداً. وهو ليس بالشخص الذي يمكن أن ينتهي به الحال في غياهب الجنون مثل جيرار دي نرڤال. فهذا الرومانسي الصاخب هو بالفعل محترف فن. إن جوتييه الهاوي للفن والمولع به كان عاملاً نشطاً(١). فيبدو أنه يقرأ قراءات متقطعة في مواضيع مختلفة وتقوم ذاكرته بتنظيم وإيضاح كل ما يقرأ. وقال عنه مكسيم دي كوم الذي كان عالماً في المجال المنهجي: «كان من اكثر العقول المنهجية التي قابلتها، حيث كانت لديه القدرة على ترتيب كل شيء بصورة طبيعية وتوازن فطري يتناقض مع مجون الكلمة». تلك الموهبة الرئيسية لدى جوتييه هي التي تفسر مدى العلم والمعرفة في رواياته التاريخية والأثرية ومدى الرسوخ والصلابة في نقده ومدى الثراء في كتاباته الخاصة بالرحلات. هذا الثوري كان يخفي بداخله موسوعة. فلنفتح معاً هذه الموسوعة ولنر معاً بابًا أو فقرة : مصر.

على الرغم من انجذابه للعالم الإسلامي فإن أول ما شد انتباهه وسيطر على اهتمامه لفترة طويلة هي مصر القديمة وليست مصر الإسلامية.

كانت مراجع جوتييه عن مصر القديمة محل دراسات متعددة قام بها الكسندر موريه Alexandre Moret(٢) والآنسة هـ. س لون Miss H.C. Lunn(٣) والسيد

(١) كان جوتييه يقدر إنتاجه الأدبي والصحفي بثلاثمائة عمل: «وهذا ما كان يجعل الجميع يصفونني بالكسل ويتساءلون عما يمكن ان يشغلني»، Portraits Contemporains, éd. Charpentier. P.13.

(2) A. MORET, Note sur une source du Roman de la momie (Revue d?Histoire littéraire de la France, juillet-septembre 1899, p.362-366).

(3) H.C.LUNN.How Théophile Gautier made use of his sources in ?Le Roman de la momie? (French Quarterly, octobre 1919, p. 176-177).

ألجرنون كولمان M. Algernon Coleman [١] ولكن كل هذه الدراسات كانت جزئية على حد معرفتي لم تكن هناك دراسة كاملة. ما أحب أن أوضحه هنا هو إلى أي مدى كانت مصر القديمة ملهمة تيوفيل جوتييه وما هي المصادر التي استخدمها وما هي القيمة التاريخية والأثرية لأعماله بدءاً من » ليلة من ليالي كليوباترا » (١٨٣٨)[٢] ووصولاً إلى روايته الجادة والموضوعية » رواية المومياء» (١٨٥٧).

II - ليلة من ليالي كليوباترا (١٨٣٨)

ظهرت شخصية كليوباترا مرات متعددة في الأدب الفرنسي. ففي الوقت الذي اهتم فيه كازيمير دي لافيني Casimir Delavigne ولوبران Lebrun وبونسارد Ponsard بمعالجة المواضيع الرومانسية في إطار كلاسيكي، قام ألكسندر سوميه Alexandre Soumet عام ١٨٢٤ بتقديم مأساة «كليوباترا». من جهة أخرى فإن رواية مارك أنطونيو وملكة الإسكندرية الصغيرة تنتمي إلى التقاليد اليونانية الرومانية أكثر مما تنتمي إلى العصور المصرية القديمة وقد كانت الرواية تأخذ الشكل والأسلوب الكلاسيكي. ولكن كما قال بلين Pline يجب التأكيد على أن ما حاول تيوفيل جوتييه استخلاصه ليست المغامرة المأساوية للقائد الذي تغلبت عليه نزوته، بل هي الدوافع الثانوية الرومانسية على الأخص للعبد الواقع في حب ملكته مثل Ruy Blas أو الأميرة الشهوانية التي لا تقاوم مثل لوكرس بورجيا Lucrèce Borgia، رجينا ميريتريكس Regina Méretrix . إن الموضوع الذي اختاره جوتييه موجود بالكامل في السطور التي كتبها أوريليوس فيكتور Aurelius Victor..[٣] إن جوتييه قد وجد صدى قصته في إحدى قصص التاريخ الروماني في مرحلة التجديد وقد لجأ الى بلوتارك Plutarque لنسج حكايته وإعطائها الألوان والزي القديم.

---

(1) ALGERNON COLEMAN. Some sources of the ?Roman de la momie? (Modern Philology, mai 1922, p. 337-360).

(٢) أنا لا أشير هنا إلى القصة القصيرة التي لا معنى لها ولا قيمة: المسماة « وجبة في صحراء مصر» والتي نشرت عام ١٨٣١ في لوجاسترونوم الا على سبيل التذكرة.

(3) Aurelius Victor, De Viris Illustr 86 (ed. Teubner, p.74)

من السهل إثبات ضعف مادته العلمية في علم المصريات. فمما لا شك فيه أن خطابات من مصر والنوبة التي كتبها شامبليون Champollion كانت تحت يده كما أنه تصفح بعض لوحات كتاب وصف مصر. إن اسم بطل روايته ميمون وكذلك أسماء الشخصيات الثانوية مثل ماندوشوبش وبرهيببهور هي أسماء استوحاها جوتييه من كتابات شامبليون حيث وجدها هذا الأخير في معبد مدينة هابو بطيبة(١). غير أننا نجد في بداية الرواية أن كليوباترا تعود من محراب هيرمونتيس حيث يقول جوتييه مستخدماً نفس كلمات شامبليون، إنهم كانوا يعبدون الثلاثي المكون من ماندو والإلهة ريثو وابنهما هارفريه(٢). إضافة إلى ذلك فإن جوتييه اقتبس من عالم المصريات الكبير ألفاظًا مثل نهاسي Nahasi للإشارة إلى أهل النوبة Namou للإشارة إلى الآسيويين(٣). أما بالنسبة للزي المصري لكيلوباترا فقد استلهمه جوتييه من كتاب آثار مصر والنوبة : فهو الزي النموذجي للملكة في عصر أسرات طيبة في الدولة الحديثة مثلما نراه سواء في مقبرة سيتي الأول أو في معبد رمسيس الثاني(٤). ولكن عند هذا الحد يتوقف اهتمام تيوفيل جوتييه بالدقة. فعلم المصريات عنده يتصف بعدم الدقة كما يتصف بالتحرر والابتكار. فنجده يخلط بين القارب المقدس لكليوباترا والمركب المقدس لآمون بل ويعطي هذا الأخير الشكل والمرتبة الدينية المقدسة التي يحملها الكهنة للمركب المقدس أثناء الشعائر والطقوس الدينية في الأعياد(٥). ما كاد جوتييه يضع فوق رأس بطلته الشعر المستعار المرتفع الذي يشبه شكل البرج وهو الخاص بالاحتفالات والمنحوت على بعض النقوش حتى يجعلها تستلقي على الفراش للراحة واضعة رقبتها بضيق على مسند الرأس ذي الشكل الهلالي دون أن يأخذ في اعتباره أن الملكة لا يمكن أن تستخدم نفس الشعر ونفس التسريحة للمعبد والليل(٦). خطأ مماثل آخر عندما يقوم بإلباس العبد الزي المصنوع من جلد الفهد وهو الزي الخاص بالكهنة(٧).

---

(1) GAUTIER, Nouvelles, ed. Charpentier, p.335 et 341, et CHAMPOLLION .Lettres écrites d'Egypte et de Nubie, ed. 1868, p.293.

(2) Nouvelles, p.326, et CHOMPOLLION, id, p. 169.

(3) Nouvelles, p.347, et CHOMPOLLION, id, p. 205-206

(4) Monuments de l?Egypte et de la Nubie, Album III, pl. CCXXX et CCXXXI.

(5)Nouvelles, p.321.

(٦) المرجع السابق ٣٢٦ .

(٧) المرجع السابق ٣٢٧ .

إلى جانب هذه الأخطاء الصغيرة نجد أيضًا أخطاء تاريخية ونفسية أكثر أهمية. الوصول المفاجئ لمارك أنطونيو في نهاية القصة ما هو إلا ابتكار خالص: فالقائد الروماني الوحيد الذي سار نحو عالية نهر النيل في عصر كيلوباترا لم يكن مارك أنطونيو بل كان قيصر الذي أقام مع الملكة في مصر العليا ورزق منها فيما بعد بابن هو قيصرون الذي تم تخليد مولده على نقيشات معبد هيرمونتيس Hermontis . أما عن طبع كليوباترا فهو قليلاً ما يتطابق مع ما يرويه لنا التاريخ. فهي حتى وإن كانت لا تقرأ الهيروغليفية فإنها كانت تعرف لغة أهل البلد المستخدمة في الحديث. وطبقاً لبلوتارك فإن هذه السيدة البارعة في اللغات كانت تعرف اليونانية والسريانية والعبرية ولن تنحصر أبدًا في الشخصية اليونانية التي قدمها لنا جوتييه والتي كانت مملوءة بنفور لا مثيل له تجاه مصر الفرعونية[1]. فكانت قصورها في مصر العليا مثل قصور من سبقوها عبارة عن مبانٍ منخفضة من الطوب اللبني مزينة ومكسية بالخزف والرسومات. وليس هناك أعجب من قاعة الولائم ذات الأفيال البرونزية والأبعاد البابلية والأروقة المبنية من الجرانيت والطوابق المركبة التي لم تكن زينتها تحمل أي طابع مصري وتترك لدى الإنسان شعورًا مركبًا بالطابع الشرقي المتوحش والطابع اليوناني الآسيوي وطابع روما في عصر الانحطاط[2].

وليس هناك ما هو أكثر تقريباً من استحضار ذلك الفناء ذي الطابع البطلمي في قصر من قصور طيبة[3]. إن جوتييه لم يهتم بالتدقيق فلم يهتم إلا بالشكل العام، أما

(١) المرجع السابق ص ٣٢٩ .

(٢) وكان هذا حقيقياً أيضا بالنسبة لحمامات كليوباترا بأسماكها الخرافية وأعمدتها التي كانت تتخذ شكل تمثال امرأة. فكانت ذات طابع لا يمت بأي صلة للطابع الفرعوني. كما أنه لم يكن من الممكن تخيل وجود مثل هذه الحمامات ذات المياه المعدنية الحارة في مصر العليا. فحمامات كليوباترا كانت موجودة في الإسكندرية ونحن هنا في مقر الإقامة الصيفي للملكة على بعد فراسخ قليلة شمال هيرمونتيس اي في الأقصر.

(٣) رغم ان راي فاجيه Faguet في جوتييه كان يتسم بالقسوة بصفة عامة إلا اننا لا نستطيع ان نؤيده في ان الفضل يعود لتيوفيل جوتييه في انه استطاع من خلال قصصه أن يعيد رسم الحياة المصرية القديمة بدقة. فإن فاجيه يثني بالفعل على مهارة جوتييه فى إعادة رسم المجتمع بشكل جذاب أو بالأحرى إعادة رسم الأبنية التي اختفت الأهرام والأعمدة والبيوت الرومانية وقصور العصر الوسيط التي يقدمها لنا تحت اسم قصص مثل «ليلة من ليالى كليوباترا» و«آريا مارسيليا» وهي أعمال يغيب فيها العنصر البشري أو لا يوجد فيها الإنسان إلا كعنصر ثانوي مكمل للشكل المعماري أو مساند لاستكمال مشاهد الحياة اليومية بما فيها من أزياء الرجال والنساء. لكن استحضاراً قوياً ورؤية واضحة لكل احجار الزمن الماضي تجعلنا نشعر فعلاً أننا نتنزه تحت شرفات كليوباترا أو في شوارع بومبي Pompéi . القرن التاسع عشر، الطبعة رقم ٢٥، ١٩٠٢، ص ٣١٢ .

الطابع التاريخي والطابع المحلي فلم يشدا انتباهه قط. ورغم ادعاءاتهم النظرية فقد كان هذا هو الاتجاه الفعلي لغالبية الرومانسيين ومع ذلك هل كان جوتييه متفقاً مع الآثار؟ إن المهمة لم تكن سهلة ؟ إن شامبليون قد أحيا مصر القديمة ولكنه مات قبل أن يستطيع استغلال اكتشافاته. حتى عام ١٨٣٨ لم يكن قد ظهر إلا الجزء الأول من كتابه « آثار مصر والنوبة» الذي نشر بعد وفاته ولم يكن تلاميذه قد نشروا أعمالهم التكميلية بعد. فلم يكن جمهور المثقفين قد عرف بعد بريس دافين Prisse d'avennes ولا لبسيوس Lepsius ولا روزلليني Rosellini وقد اكتفى هذا الجمهور برحلة ڤيڤان دونان Vivant Denon وكتاب وصف مصر الخاص بحملة بونابرت Bonaparte. وهذا يدل على أن جوتييه قد لجأ بكل بساطة إلى بلوتارك القديم لاستلهام بعض العادات وبعض العناصر التي ازدانت بها قصته.

فقد زوده المؤرخ اليوناني باسم الوصيفة شارميون[١]، بوصف الإضاءة في قاعة الولائم[٢]، بالسموم التي كانت تجربها كليوباترا على عبيدها أو على المحكوم عليهم[٣]. أما وجبة الطعام، فإن لم أكن مخطئًا فهو نموذج للوليمة الرومانية طبقاً لما عرفناه من خلال قصيدة لوكان Lucain الغنائية المسماة لافارزال La pharsale أو من خلال رواية ساتيريكون التي كتبها بيترون Pétrone. إلا أن هذه الوليمة تصاحبها بعض نغمات آلة الهارب ذات الواحد والعشرين وترًا[٤] الخاصة بمدينة طيبة وبعض الحركات المتناغمة لرقصة أيونية[٥] وبعض الحركات المسلية التي يقوم بها مهرجون يونانيون[٦].

رغم كل هذه البصمات لم تنجح قصة «ليلة من ليالي كيلوباترا» في أن تحيط بالجو اليوناني الروماني. فكل شيء فى هذه القصة رومانسي : المواقف والتحليل والأسلوب.

---

(1) Nouvelles, p. 325, et PLUTARQUE, Vies des hommes illustres, trad. Amyot, ed. 1615, t.II, p. 705 et 726.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥٧ وبلوتارك، المرجع السابق ص ٦٧٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٦٠ وبلوتارك، المرجع السابق ص ٧١٦ .

(٤) المرجع السابق، ص٣٥٨ .

(٥) المرجع السابق، ص ٣٥٩ .

(٦) المرجع السابق، ص٣٦٠ .

ونقرأ بها هذه الكلمات: إنه لموقف غريب أن يحب المرء ملكة، كما لو كان يحب نجمًا في السماء. إن الرسالة ذات الأجنحة التي أطلقها سهم ميمون بجوار فراش كليوباترا هي من المؤكد أكثر اختصاراً من رسالة روي بلاس إلى ملكة أسبانيا ولكنها تعبر عن نفس الشيء ولو كان الفلاح المصري لديه الفصاحة لكان قد كتب من داخل خلوته المظلمة على ضفاف النيل مثلما كتب أخوه خادم قصر الاسكوريال:

«سيدتي تحت قدميك، في الظل، يقف رجل
يحبك، تائهاً في الليل الذي يغلفه،
يعانى، فهو عبارة عن دودة أرض تقع في حب نجم»[1].

وعندما تجيبه كليوباترا بهذه الكلمات : «كنت تحت العجلات ولكني سأرفعك إلى أعلى فجأة أني آخذك من العدم واصنع منك ما يعادل إلهًا ثم أغرقك مرة أخرى في العدم».

ألا نظن أننا نستمع إلى دون سالوست Don Salluste العنيد؟

«لقد صنعت منك سيداً وهو دور غريب،
ولكن لا تنسَ أنك خادمي..... »[2]

إن ما تم بين كليوباترا وميمون هو إبرام عهد رومانسي من الدرجة الأولى: الحياة مقابل ليلة حب[3] الهوى هو كل شيء ويبرر كل شيء ويدفع ثمن كل شيء والمرء لا يستطيع شراءه إلا بثمن غال. بالإضافة إلى ذلك فإن هذا الوضع غني بالمتناقضات الدرامية: فالسعادة والموت وكذلك العظمة والعدم يتجاوران ويتصادمان في سلسة متوالية ذات رنين خاص واتفاقات مؤلمة. وليس هناك ما يظهر كل هذا إلا مقطعًا من الفصل الأخير، الذي قام جوتييه باختصاره والذي كان بشكله البدائي يكشف تقليده لفكتور هوجو Victor Hugo. فيقول جوتييه في هذا المقطع «أما عن ميمون، فكان وجهه يضطرم ويضيء مثل رجل في نشوته أو في رؤياه يقول لنفسه مثل أبطال المسرحيات الحديثة :

---

(١) Ruy Blas. Acte II. Sc. II.

(٢) المرجع السابق، الفصل الثالث، المشهد الخامس

(٣) كان تيوفيل جوتييه قد كتب سابقاً في قصة «البرتوس» (١٨٣٢) «.....وقد ابيع روحي حتى احصل عليك بالكامل لي وحدي لمدة يوم واحد» وأصبحت هذه هي صيغة التصريح الرومانسي.

إذًا فأنا أسير حيًّا داخل حلمي المملوء بالنجوم[١].

ماذا نقول عن التحليل؟ إن كليوباترا ضحية نداء العصر فهي تشعر بالملل في رونق ملكها لأن ليس لها مغامرات. هي غير راضية بكونها ظل الإله وتملك كل شيء، الملل والكآبة السوداء الشديدة ينصبان ظلاً بينها وبين شمس مصر[٢].

كانت الأسرار التي باحت بها إلى شارميون ذات طابع رومانسي شديد. والمقطع الخاص بالموت والرعب من المقبرة والعدم[٣] يذكر بعدة مقاطع من قصائد الشعر الأولى لجوتييه ويذكر أيضًا بقصة البرتوس أو كوميديا الموت. من ناحيته ميمون هو نموذج الفتى الأول التافه الذي لا معنى له والحزين والجميل كلاهما متضادان في بعض المتناقضات البسيطة مثل تحليلهما النفسي.

أما عن الأسلوب ففيه كل سمات الأسلوب الرومانسي: الفخامة والألوان والوفرة. رائع في وصفه للطبيعة، فمثلاً عندما يذكر جوتييه سحر الإبحار في النيل أو روعة غروب الشمس على ضفافه[٤]، نجد أنه ليس لديه الدقة الملموسة والبساطة الجمالية للتغيرات الفنية، كما أنه يكتفي بتشبيهات عامة وغير واضحة في المواضع التي تكون فيها الرؤية الاثرية غير واضحة. فمثلاً يتحدث الكاتب عن الوجوه الغريبة ذات الأشكال الخيالية[٥] في نفس المكان الذي يذكر فيه لاحقاً حضوراً أكثر دقة. وفى كل لحظة نجده يدخل في النص إما بشكل ساخر[٦] وإما بلهجة رسمية[٧] أو حتى بلهجة التفخيم[٨]. وهو لا يحرم نفسه

(١) لنسخة البدالية للنص الذي نشر مسلسلاً في جريدة La presse في (٢٩-٣٠نوفمبر، ١-٢-٤-٦ ديسمبر ١٨٣٨) انظر سبولبرش دي لوفنجول Spoelberch de Vovengoul، تاريخ اعمال تيوفيل جوتييه. بيت الشعر الوارد هنا مأخوذ من مسرحية روي بلاس، الفصل الثالث - المشهد الرابع.

(٢) Nouvelles, p. 328 - 332.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٣٠ .

(٤) المرجع السابق، ص ٣٢٤ و ٣٣٣ .

(٥) قصص، ص٣٢٤

(٦) المرجع السابق، ص ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٧) المرجع السابق، ص ,٣٣٨

(٨) المرجع السابق، ص ٣٥٣ -٣٥٤ .

في أي موضع متعة التعليق أو الانحراف عن النص كما يريد دون محاولة إخفاء ذلك بل ويؤكد عدة مرات على براعة أسلوبه الأدبي[١]. كل هذا القدر من الحرية يقوم جوتييه بإقصائه شيئاً فشيئاً من أعماله متبعاً بذلك نظاماً صارماً وقسوة موضوعية حتى إننا لا نجد ذلك التحرر نهائيّاً فى قصة رواية المومياء.

إذًا فهو أمامه طريق طويل عليه أن يقطعه قبل أن يصل إلى معبد الفن للفن، إلى عبادة اللا شخصية البارناسية. إن التقنية التي يتبعها مترددة وغير ثابتة مثلها في ذلك مثل مادته العلمية. وعبثاً يحاول خداعنا. فعندما استأنف مسلسله الدرامي في جريدة La presse وبعد نشر «ليلة من ليالي كليوباترا » في العاشر من ديسمبر عام ١٨٣٨، ألم تكن لديه الجرأة أن يكتب هذه الكلمات: » نحن نعود من مصر وهى بعيدة جداً وقديمة جداً على مدى ثمانية أيام لم نهتم إلا بالهيروغليفية، بالمسلات، بالأعمدة، بأبو الهول وأنوبيس، بالجعارين وأشياء فرعونية أخرى مبتعدين بذلك تماماً عن المسرح الهزلي (الفودفيل) أو الميلودراما. كان علينا إذًا أن نخترق سبع أو ثماني طبقات من العروض، أو أن ننفذ إلى مدينة الموتى الدرامية الأكثر عمقاً وسواداً من رامسيوم ببان الملوك. أعتذر عن بقية الطابع والألوان المحلية التي لم تتح لنا الفرصة بعد لتنظيفها «[٢]. ليس هناك ما يدعو للاعتذار. فهذا الرامسيوم الموجود في «ببان الملوك» والذي يجمع في مكان واحد معبداً ومدينة موتى يكفينا حتى نقف على المادة العلمية لدى جوتييه. فهو حتى لم يكلف نفسه النظر إلى خريطة طيبة. فالمعبد ومدينة الموتى فى الحقيقة يبعدان عن بعضهما عدة كيلومترات ويفصلهما الشاطئ الصخري لوادي الملوك. إن جوتييه شاب فصيح ورومانسي معجب بنفسه لكنه لم يصل بعد إلى مرتبة عالم مصريات.

---

(١) فمثلاً يقول: " نضيف أن ....." كما يستخدم عبارات أخرى مماثلة.

(٢) وقد ظل وجه كليوباترا يتابع جوتييه فيما بعد. ونحن نعرف أنه كان يعشق تقديم الألغاز وأثناء إقامته في جنيف وقد لعب إحدى هذه الألغاز مع ماركيزه جادالكازا وكارلوتا كريزي وكانت كلمة حل اللغز هى كليوباترا. «ابحثوا جيداً فإن تلك الملكة التي كانت تشرب اللؤلؤ في الذهب....».

انظر أ. برجرات، تيوفيل جوتييه، ص ٨٩ .

III - قدم المومياء (١٨٣٨-١٨٤٠)

إن الحكاية المسماة «قدم المومياء» ترجع الى نفس العصر. فقد تم نشرها للمرة الأولى بعد قصة «ليلة من ليالي كليوباترا» بعامين، في سبتمبر ١٨٤٠[١] ولكن يبدو أنها كتبت عام ١٨٣٨ بما أن الكاتب يقول إنه في السابعة والعشرين من العمر[٢]. إذًا لا يمكن أن ننتظر تقدماً لدى جوتييه في مجال علم المصريات. ويبدو أن جوتييه بحث عن أصل حكايته في كتاب فيفون دونان «رحلة إلى مصر العليا والسفلى». فقد اكتشف هذا الأخير في قاع إحدى المقابر «بوادي الملوك » قدم مومياء صغيرة هي في الحقيقة عمل رائع تتشرف به الطبيعة كما يتشرف الفن بأعماله.

كانت بلا شك قدم سيدة شابة، أميرة، مخلوقة رائعة، لم يغير الحذاء شكل قدمها الذي كان متقناً: «لقد بدا لي أن الطبيعة قد أنعمت علي بفضلها وأنني أصبحت محباً لهذا الشي المختلس من سلالة الفراعنة»[٣] لم يكتف فيفون دونون فقط بأخذ القدم الصغيرة معه إلى فرنسا بل انه قدم في مجموعة لوحاته رسماً دقيقاً لتلك القدم بل وأضاف في تعليقاته على اللوحات وصفاً دقيقاً : «إن الإبهام المرفوع والإصبع الأولى الممددة والإصبع الصغيرة المتجهة إلى الأعلى والانحناءة الأنيقة لعنق القدم وأسلوب حفظها البكر واستقامة أظافرها، كل ذلك يدل على أن من كانت لها هذه القدم هي إنسانة راقية لم ترهق قدمها أبدًا بالسير لمسافات طويلة ولم تهنها داخل أي حذاء»[٤]. لم يكن من الصعب استنتاج أن أغلب تلك التفاصيل الدقيقة التي ذكرها دونان قد استخدمت في حكاية جوتييه حيث نقرأ: «كانت الأصابع الرقيقة الرشيقة تنتهي بأظافر رائعة، صافية وشفافة مثل أحجار العقيق. كان الإبهام الذي ينفصل قليلاً عن باقي الأصابع يأخذ شكلاً مميزاً على الطريقة القديمة

---

(1) Musée des Familles, septembre 1840

(٢) ولد جوتييه عام ١٨١١ . «انا الفرنسي وأبلغ من العمر ٢٧ عاماً » (روايات وحكايات ، دار النشر شاربنتييه Charpentier، ص ٤١٣).

(3) Voyage dans la Basse et la Haute Egypte.ed. 1829. vol. II, p. 37. Cf. t. I, p. 171 et 141.

(٤) المرجع السابق، الجزء الثاني ص ٣٧ تعليق على اللوحات G (رقم ٦).

مما يعطيه حرية ويعطي القدم رشاقة قدم العصفور. كان أخمص القدم الذي لا تكاد تظهر فيه بعض التجاعيد غير المرئية يدل على أن هذا القدم لم يطأ الأرض أبدًا ولم يتصل إلا بأرق سجاجيد ماء النيل وأكثر الأبسطة المصنوعة من جلود الفهود نعومة(١).

لكن جوتييه لم يكن يشعر - إذا أمكنني القول - أنه واقف على أرض صلبة عندما تعلق الأمر بإعادة الحياة إلى ثاقلة الورق وتلك الأميرة من العصر البعيد التي كانت تملكها فيما قبل. فلم يتقدم كثيراً في هذا الطريق الذي شعر انه مليء بالمكائد. بل إنه بقي بإرادته فى إطار غير واضح. فجاء وصفه للمقبرة سريعًا وتقريبياً. فكان وصفه للمقبرة مثل وصفه لمدفن تاهوزر Tahoser الموجود تحت الأرض في «رواية المومياء» عبارة عن تضارب غير مفيد: ومع ذلك فإن هذا لم يمنعه من وضع أساطير من الجرانيت وتحديد موقع وادي الملوك بين جدران جبل من الجرانيت الوردي(٢).

وجاء إحصاؤه للفراعنة منطوياً على أخطاء تاريخية فنقرأ: «خوفو، خفرع، بسامتيك، سيزوستريس، أمنحتب».(٣) هذه القفزات بين الأسرات تدل على أن جوتييه لم يهتم بالتسلسل التاريخي للأحداث الذي قام به شامبليون. وكذلك فإن «لحية الملك سيكسوثروس» Xixothros(٤) لم تمت للفراعنة بصله: فهذا الملحق «الذي دار سبع مرات حول مائدة الجرانيت التي كان جوتييه يتكئ عليها حالماً، ناعساً» مقتبس من الأسطورة الألمانية لفريدريك باربروسه النائم في كهف كيفهاوزر.(٥)

أما عن اسم البطلة، الأميرة هيرمونتيس(٦) فما هو إلا تذكرة لرواية «ليلة من ليالي كليوباترا» ولو لم يكن جوتييه قد وجد هذا الاسم في كتابات شامبليون حيث يشير هذا

---

(1) Romans et Contes, p. 401.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١٠-٤١١.

(٣) المرجع السابق ٤١٢ .

(٤) المرجع السابق ٤١٢

(٥) كان جوتييه يطلق على تلك الأسطورة قصيدة هنري هاين Henri Heine .

(٦) في خطاب أرسله مكسيم دي كوم من ابريم في منطقة النوبة إلى تيوفيل جوتييه كتب يقول لهذا الأخير: «خلال خمسة عشر يوماً آمل ان اكون قد وصلت إلى طيبة، وهناك سوف ابحث عن القدم الثانية للأميرة هيرمونتيس وإذا وجدته سوف ارسله إليك». (ذكريات ادبية، الجزء الأول ص ٤٨٥ وانظر قبل ذلك ص ١١٥، ملحوظة رقم ٣)

الأخير إلى المعبد المخصص للثلاثي المقدس ماندو والإله ريثو وابنهما هارفريه لكنا اتهمنا جوتييه بارتكاب خطأ فظ . فتسمية ابنة ملك، بمسمى جغرافي هو على أي حال دليل على عدم المبالاة وليس دليلاً على الإبداع الخيالي. وليس هناك ما يمكن أن يضلل فقه اللغة أكثر من هذه الجملة الغريبة التي تليق بأن تكتب وسط مجموعة من الحماقات في أحد كتب التاريخ القديم : «حوار غريب جداً باللغة القبطية القديمة كما كانت تستخدم منذ ثلاثين قرنًا داخل المقابر الملكية الفرعونية المحفورة داخل الجبل فى بلاد سير... ».[1] أيها الصمت الأبدي في مقابر طيبة ماذا حل بك هنا؟

IV - حنين المسلات إلى الوطن ١٨٥١

جاء ديوان «الخزفيات وأحجار الكاميه» Les Emaux et Camées 1852 بعد (أسبانيا) ليكون الخط الفاصل في تطور فن جوتييه وانتقاله من عصر الرومانسية إلى البارناسية. الفكرة الأساسية لقصيدة «حنين المسلات إلى الوطن» التي نظمها جوتييه بلا شك في عام ١٨٥١، بعد عودة فلوبير ومكسيم دي كوم مباشرةً من مصر كانت فكرة لا تزال تنتمي للرومانسية : «هي نفس فكرة القصيدة الشهيرة سهنسوشت Sehnsucht للشاعر الألماني هنري هاين Henri Heine وتعبر بطريقة مماثلة وهي القصيدة التي يحب تيوفيل جوتييه أن يذكرها دائمًا :

فوق قمة جبل مغطى بالثلج في النرويج
تقف شجرة صنوبر حزينة ووحيدة
تحلم بنخلة رائعة
هناك في الشرق القرمزي البعيد
تمل تحت سماء ملتهبة
واقفة فوق صخرة أحرقتها الشمس» [٢]

---

(1) Romans et Contes, p. 407.

(٢) وقد كتب جوتييه ان «هناك نوابغ مثل النخل وشجر الصنوبر الذي يتحدث عنه هنري هاين فى إحدى أغانيه ومن جانبه شجر الصنوبر يرتعش تحت صقيع النرويج ويحلم بسماء زرقاء وشمس حارقة. «ما يحدث للأشجار يمكن ان يحدث للبشر» بحث عن ماريلا مأخوذ عن صور معاصرة، ص ٢٤٢ .

نفس الطموح الرومانسي، نفس الرغبة في الهروب والاغتراب. من جهة أخرى فإن تطور الأحداث يأخذ عدة سمات من قصة «ليلة من ليالي كليوباترا» والتماثل بين بعض مصطلحات النثر وأبيات الشعر يثبت صلة القرابة بين العملين وهو الحيوية والتشبث بذكر القديم. ولكن من ناحية أخرى فإن القالب الجمالي والمتشدد والإيقاع الصافي والنقد والرؤية الواضحة ذات الألوان المحددة تثبت التحول الذي طرأ على الشكل الجمالي لدى جوتييه منذ رحلته إلى أسبانيا وديوانه «أسبانيا».

حنين المسلات إلى الوطـن

(١) مسلة باريس

في وسط هذا الميدان أشعر بالملل
مسلة غير متجانسة مع المكان
الثلج ونقيطات ماء الضباب المتجمد والرذاذ والمطر
يثلج جبيني المصاب بالصدأ

وجسدي العجوز الذي أصابه الاحمرار
تحت سعير السماء المشتعلة
أخذ يذبل من شدة الحنين
تحت هذه السماء التي لا تصفو أبدًا

أمام التماثيل الضخمة المقطبة
وأبواب القصور الضخمة
بجوار مسلتي ذات اللون الوردي
التي لم أعد واقفاً بجوارها

مغرقاً في سماء صافية لا تتغير

قمتي الهرمية ذات اللون القرمزي
وكان خيالي على الرمال
يحدد خطوات الشمس

أنا من استطعت بقامتي العظيمة
تحدي الزمن وانهزم ذات يوم
امامي رمسيس كقشة عشب
صرت أداة تسلية في باريس

أنا الحارس الجرانيتي
الذي يحرس كل ما هو ضخم
اقف الآن بين معبد قديم مزيف[1]
ومجلس النواب

على مقصلة لويس السادس عشر
الغوا قامتي الأحادية الحجر
ووضعوا سري الذي يزن
خمسة آلاف عام من النسيان

العصافير الدورية تدنس رأسي
الذي يتساقط عنده
ابو منجل الوردي والصقر
ذو الريش الأبيض والمخالب الذهبية

السين الذي تصب فيه بالوعات الشوارع

---

(١) كنيسة المادلين.

هذا النهر القذر المكون من عدة جداول
يلوث قدمي التي كان نهر النيل
أبو الأنهار يقبلها أثناء فيضانه

النيل العملاق ذو اللحية البيضاء
المغطى باللوتس ونباتات الأسل
يصب من جرته المائلة
التماسيح وكأنها أسماك نهرية

العربات الحربية المرصعة بالنجوم المتلألئة
التي كان يملكها فراعنة الماضي
تلامس كتلتي التي اصطدمت بها
عربة الجياد التي جرفت معها آخر الملوك[١]

قديماً أمام حجر العتيق
كان الكهنة مرتدين الباروكة الملكية[٢]
يمرون حاملين أشياءهم المقدسة
ذات الشعارات الذهبية المغطاة بالرسومات

لكن اليوم، أنا عمود دنيوي
مستقر بين نافورتين
أشهد مرور العاهرة

---

(١) ينوه جوتييه هنا إلى عام ١٨٤٨ مما يثبت أن القصيدة نظمت بعد الثورة، أى بلا شك عام ١٨٥١ .

(٢) هذا خطأ من جوتييه لأن الباروكة الملكية كانت خاصة بالملوك وليس برجال الكهنوت (انظر ص ١٥٢- ١٥٣) .

تتدحرج في عربتها المقفلة

أرى من يناير إلى ديسمبر
طواف البرجوازيين
ممثلي الشعب ذاهبين إلى المجلس
والنبلاء متجهين إلى الغابات(١)

يا لها من هياكل قبيحة بعد مائه عام
سيصبح عليها هذا الشعب الملحد المجنون
الذي يرقد موتاه دون أكفان
بداخل صناديق مغلقة بالمسامير

ولا يملك حتى مقابر تحت الأرض
بعيدة عن أيدي الفساد
ولا عنابر تكون على مر القرون
مرقداً للأجيال

أيتها الأرض المقدسة
أرض الهيروغليفية والآثار الكهنوتية
حيث تغرس تماثيل أبي الهول
مخالبها على زوايا القواعد

حيث تدق تحت القدم القباء
حيث يرقد الصقر على بيضه
إنني أبكيك يا مصري القديمة
بدموع من الجرانيت

(١) المقصود هنا هم الرجال المتأنقون الذي يعملون في وزارة الخارجية مثل بروميل Brumel الانجليزى الذي لقب بملك الأناقة.

(٢) مسلة الأقصر

أسهر الليل، فأنا الحارس الوحيد
لهذا القصر الكبير الخرب
في تلك الوحدة الأبدية
المواجهة لمساحات شاسعة

في الأفق الذي لا يحده شيء
تحت الشمس المغيمة
تبسط الصحراء العميقة الصامتة
اللانهائية كفنها ذا اللون الأصفر

فوق تلك الأرض العارية
تنبسط السماء شديدة الصفاء
وكأنها صحراء أخرى لازوردية
لا تطفو بها أبدًا سحابة واحدة

النيل بمياهه الساكنة
المغطاة بطبقة رصاصية
يلمع وقد تجعد بسبب فرس النهر
تحت كامد يقع منتصباً
والتماسيح الكاسرة
على رمال الجزر الصغيرة المشتعلة
شبة ناضجة داخل ضروعها
تنتحب وقد أغمي عليها
أبو منجل، ساكن على رجله النحيلة
ومنقاره في حوصلته

يبحث في اللوحات الحجرية المنقوشة
عن خرطوش الملك توت

الضبع يضحك وابن أوى يموء
والصقر الذي يتضور جوعًا
يقوقئ راسماً دوائر في الهواء
كالفصلة السوداء في سماء صافية

لكن ضوضاء الوحدة
يغطيها صوت تثاؤب
تماثيل أبي الهول التي تعبت
بسبب وضعها الثابت

نتيجة لانعكاسات الرمل البيضاء
والشمس الساطعة دائمًا
ليس هناك ملل يقارن
بملل كآبة الشرق المضيئة

أنت من جعلتني اطلب العفو
من ملوك لا يهتمون واقع مهزوماً على أعتابهم
فتسحقينني بوزنك الثقيل

هنا الريح لا تمسح أبدًا
دمعة العين الجافة للسماوات
ويتكئ الزمن المتعب على جدران القصور الساكنة
ليس هناك من حادث
يمكن أن يزعزع وجه الخلود

فمصر، في هذا العالم المتغير
تتربع على عرش السكون

عندما يتملكني الملل
اتخذ رفقاء وصديقات
من الفلاحين والمومياوات
المعاصرين للملك رمسيس

انظر إلى عمود يميل،
إلى تمثال قديم ضخم فقد ملامحه
وإلى القوارب ذات الأشرعة البيضاء
التي تصعد وتهبط مجرى النيل

كم اتمنى كمثيلتي
أن أنتقل إلى باريس الكبيرة
فيتم نصبي في أحد الميادين
حيث أتسلى إلى جوارها
فهناك ترى أمام نقوشها
جمعًا من الأحياء يتوقفون
وكتاباتها الهيراطيقية
تثير أفكارهم الحالمة

النافورات المجاورة لها
تقذف على غبار جرانيتها
ضبابًا متخذاً الوان قوس قزح
هي متوردة وتستعيد شبابها

مثلي تظهر عليها

عروق أسوان البردية

لكني أظل في مكاني القديم

هي حية وأنا ميتة

ما هو مصدر هاتين القصيدتين؟ دون شك أن حنين المسلات إلى الوطن يتماثل مع الحنين إلى الوطن بصفة عامة لدى البشر والأشياء الرومانسية. فهو يتماثل مع حنين كليوباترا التي كانت مولعة بسماء ملبدة بالغيوم ومتلهفة إلى هوى أو مغامرة تأتي لتحطم الرتابة المفعم بها قدرها. وهو يتماثل أيضًا مع حنين شجرة الأرز في النرويج والنخلة في مصر اللتين تتبادلان حوارات تملأها الرغبة والحرارة. ولكن إذا كانت هذه الفكرة قد امتزجت برمز المسلات، فإن جوتييه يدين بذلك لفلوبير Flaubert عن طريق مكسيم دي كوم Maxime du Camp مثلما رأينا في ما قبل [1] فمكسيم دي كوم يقول لنا فعلاً: «إن جوتييه قد قام بنظم كل قصائد ديوانه «الخزفيات وأحجار الكاميه» تقريباً، في هذا الوقت ١٨٤٩ »[2] ولكن كلمة تقريباً هنا تعطينا تفسيرًا لتكوّن وتطوّر هذه اللوحة المصرية المزدوجة الجميلة عن طرق تعليق هامشي في كتاب «رحلة إلى الشرق» ١٨٥٠: حنين المسلات إلى الوطن هي عبارة عن صدى أحاديث جوتييه ومكسيم دي كوم. واذا كانت كآبة ملكة الإسكندرية الصغيرة[3] قد جاءت لتعكر صفو أثر رمسيس الثاني المزهو بنفسه حتى أصابت قلبه الحجري فإن ذلك كان على إثر مزحة من فلوبير.

---

(١) الباب الأول، الفصل الثالث، ص ١١٠

(2) Souvenirs Littéraires. ed. 1882. vol. I. p. 418

(٣) انظر «ليلة من ليالي كليوباترا»، «حزن تماثيل أبو الهول التي لا تستطيع الانفصال عن قاعدتها الجرانيتية منذ عشرين قرنًا». (قصص، ص ٣٢٣).

حنين المسلات إلى الوطن «حيث تغرس تماثيل أبي الهول مخالبها على زوايا القواعد ..» (مسلة باريس، ١)

«إن المجاديف تجد صعوبة في اختراق الطبقة القاتمة لتلك المياه الجامدة في مكانها..» قصص، ص ٣٢٣)

«النيل بمياهه الساكنة المغطاة بطبقة رصاصية ..» (مسلة الأقصر،٢)

« التماسيح المغمى عليها من فرط الحرارة بضحكتها المختنقة تستغرق في أعشاب النهر....» (قصص، ص ٣٢٣).

«تماسيح القاهرة ... تنتحب وقد اغمي عليها ». (مسلة الأقصر،٢).

«مصر هذه تدمرني وتسحقني ... لم تنزل حتى الآن دمعة واحدة من حدقة هذه السماء البرونزية المشتعلة على تلك الأرض الحزينة" (قصص، ص ٣٢٨).

«كآبة الشرق المضيئة «انت من جعلتني اطلب العفو من ملوك لا يهتمون واقع مهزوماً على اعتابهم فتسحقيننى بوزنك الثقيل هنا الريح لا يمسح أبدا دمعة العين الجافة للسماوات..»

V - رواية المومياء (١٨٥٧)

لقد عاد مكسيم دي كوم من مصر مولعاً بعلم الآثار والتاريخ وهو غالباً لم يكن يجهل مكونات «رواية المومياء». يجب أن نضيف أيضًا إن مصر القديمة كانت مطابقة لذوق العصر. كان ذلك بسبب تأكيد المجلات والجرائد على ازدهار الدراسات في علم المصريات خاصة بعد اكتشاف شامبليون ورحلته.

فمعرض الكرنك الذي أقيم في المكتبة الوطنية في باريس عام ١٨٤٤ وأطلق عليه اسم «غرفة الملوك»، ومقالات جان جاك أمبير Jean Jacques Ampères في مجلة العالمين La revue des deux mondes (1846 -1847)، واستكمال لوترون Le tronne ولونورمون Lenormant ونستور لوت Nestor l'hôte وتلاميذ شامبليون الأجانب لأعمال هذا الأخير (١٨٣٥-١٨٤٥)، وظهور أعمال كبيرة لكتاب مثل ويلكنسن Wilkinson وروز لليني Rositlini ولبسيوس Lepsius وأعمال التنقيب المثيرة التي قام بها ماريت Marelte في سقارة، كل ذلك خلق الجو المناسب لكتابة رواية تاريخية تأخذ مصر القديمة إطاراً لها.

فلنفحص إذًا الأصل والمصادر والقيمة الأثرية والتاريخية والأدبية لرواية المومياء. يبدو أن تيوفيل جوتييه في نوفمبر ١٨٥٢ لدى عودته من القسطنطينية وبعد ظهور ديوانه «الخزفيات وأحجار الكاميه»، كانت قد واتته فكرة كتابة رواية فرعونية وتوراتيه في نفس الوقت. كانت فكرته هي ربط مغامرة سفر الخروج بالبلاط الملكي في طيبة. فى إحدى حولياته المسرحية التي كتبها عند عرض «موسى في مصر» Mosé in Egitto لروسيني Rossini [1] نجد فعلاً أن المقطع التالي الذي يعبر عن رغبة جوتييه. «بالطبع إذا كانت هناك مادة أكثر شاعريه وعظمة فهي تلك المادة. تحرير شعب مظلوم يترك أرض الاستعباد

(1) Cf. AD. BOSCHOT, Théophile Gautier, ou la tristesse d?un ancient Jeune-France (Revue Universelle, 1er mars 1929, p. 522.)

إلى الأرض الموعودة تحت قيادة نبي ملهم من الله، يا له من موضوع يمكن دراسته ؟ وتكون مصر الغامضة هي موقع الأحداث بكل ما بها من معمار وممراتها التي تحدها تماثيل أبي الهول المتربعة وطرقها المملوءة بالمسلات وتماثيلها المقدسة الهائلة ذات رؤوس الحيوانات ومعابدها التي تمتلئ بلوحات ذات نقوش هيروغليفية وأعمدة ضخمة كالأبراج وأحجارها التذكارية المبرقشه ومقابرها الملكية التي تغوص في جبال الجرانيت الوردي والمدافن الموجودة تحت الأرض حيث يرقد في طبقاتها أعداد هائلة من الجثث المحنطة وطواف كهنتها الذي لا يتوقف مرتدين باروكاتهم الملكية وحاملين على أكتافهم أدواتهم المقدسة، كل تلك المظاهر الجنائزية الكهنوتية التي تدهش وتربك العقل من خلال القرون المنقضية.».

في هذه الحلقة المرتجلة نلاحظ أيضًا صدى قصائد حنين المسلات إلى الوطن التي كانت قد صدرت حديثاً في هذا الوقت مع صدور أول مجموعة من ديوان الخزفيات وأحجار الكاميه:

«قديماً امام حجر العتيق

كان الكهنة مرتدين الباروكة الملكية

يمرون حاملين اشياءهم المقدسة

ذات الشعارات الذهبية المغطاة بالرسومات..»(١)

إنه حقّاً استحضار يستحق المناقشة ويعود بنا إلى الوراء، إلى علم المصريات المشوش الذي ورد في رواية «ليلة من ليالي كليوباترا» حيث كان الكهنة يستحوذون على الباروكة الملكية وجبال طيبة والجرانيت الوردي ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يكشفون لنا

---

(١) مسلة باريس، I

نوعًا آخر من الحنين إلى الوطن، إنه حنين ذلك الشاعر الذي استهوته دائمًا مصر القديمة وجذبته وينتهي الحال بهذا الديكور المسرحي الكبير أن يتحدد تماماً، بل أيضا يجتاح كل شيء. وتأتي بعد ذلك الأحداث التوراتية في المكانة الثانية وتتوارى شخصية النبي الملهم خلف شخصية الفرعون ولا يظهر ثانيًا إلا في نهاية القصة عندما يكون جوتييه قد حدد موضعه فعلاً. إن هذا الموضوع قد زودته به إحدى خطابات شامبليون. فقد كتب هذا الأخير فى أحد خطاباته ما نصه :

«لقد ميزت على الباب الرئيسي لإحدى مقابر وادي الملوك أساطير ملكة تدعى تاوزرThaoser؛ ورغم أن طلاء النقوش الغائرة قد تمت تغطيتها من الداخل إلا أن الزمن قد كشف عن لوحات تمثل هذه الملكة وهى تقدم القرابين إلى الآلهة وتتلقى من تلك الآلهة نفس الوعود والضمانات التي يتلقاها الملوك أنفسهم، وكانت موجودة على نقوش مقابرهم، وكانت تلك الملكة تحتل نفس مكانه الملوك الفراعنة. لذك فقد كان واضحًا أنني داخل سرداب من سراديب الموتى تم حفره خصيصاً لتلقي جسد ملكة ويجب أن أضيف إنها ملكة تمسك بمقاليد الحكم بين يديها. »(١)

من المحتمل أن يكون تيوفيل جوتييه قد حصل على هذه الصفحة من «رسائل من مصر والنوبة» عن طريق صديقه إرنست فيدو Ernest Feydeau، والد الكاتب المسرحي الساخر Georges Feydeau وهو مؤلف رواية فانيFanny .

إنه أحد هؤلاء الكتاب متعددي الموضوعات ويتميز بالحيوية وحسن التصرف. كان يصغر جوتييه بعشر سنوات وقد بدأ أول أعماله الأدبية عام ١٨٤٥ بديوان شعر صغير يتغنى فيه بفرنسا والفرنسيات، بباريس والباريسيات أطلق عليه اسم وطنيات. كان ذلك في ذات الوقت الذي نشر فيه جوتييه ديوانه الشعري: أسبانيا، بعد ذلك بعامين تزوج من فتاة

(1) Lettres écrites d?Egypte et de Nubie, éd. 1868, p. 210.

هي ابنة رجل الاقتصاد بلانكي Blanqui واتجه إلى الاقتصاد السياسي وسلك طريق الأعمال والبورصة. لكن ذلك لم يمنعه من تحضير مؤلف علمي كبير ورواية عن العادات المعاصرة. صدرت رواية فاني عام ١٨٥٨ في اليوم التالي لصدور رواية مدام بوفاري Madame Bovary وديوان أزهار الشر Les fleurs du Mal. وقد صدرت رواية فاني في ثلاثين طبعة دون انقطاع وأثارت صخباً كبيراً بسبب جرأة وحرية لوحاتها. أما عن المؤلف العلمي الذي كان عنوانه : تاريخ العادات المأتمية والجنائزية عند الشعوب القديمة، فقد ظلت إصداراته تتتابع من ١٨٥٦ حتى عام ١٨٦١ ولم يكتمل أبداً. الجزء الوحيد من الكتاب والذي اكتمل حتى نهايته هو الجزء المخصص للمصريين والأشوريين والهندوس. وكان هذا الجزء عبارة عن مجلد كبير من حجم قطع الربع قام بريس دافين Prisse d'Avennes بتنفيذ لغالبية رسوماته فشكل بذلك مرجع تيوفيل جوتييه في علم المصريات.

قام تيوفيل جوتييه بكتابة تقرير عن هذا الكتاب تم نشره في جريدة المونيتور يونيفرسال Moniteur Universel عام ١٨٥٦ ، وقد أكد في هذا التقرير على فائدة وتفرد هذه الدراسة التي تمت «ليس وفقاً للكتب (فالمصريون لم يتركوا إلا بعض البرديات التي تم حل رموزها تقريبياً) ولكن وفقاً للآثار وحدها وآلاف الرسومات التي تمت دراستها بعناية ودقة ومضاهاة بعضها بالبعض الآخر كما خضعت لدراسات نقدية شديدة الدقة».(١)

إذاً فإن إرنست فيدو كوّن لنفسه مجموعة من اللوحات المحفورة بالإضافة إلى مكتبة أثرية رائعة حتى يتسنى له تأليف كتابه. نحن نعلم أنه كان يملك ليس فقط أعمال الكتاب القدامى مثل هيرودوت Hérodote وديودور دي سيسيل Deodore de Sicile بل إنه كان يملك أيضًا أعمال الكتاب الجدد مثل كتاب وصف مصر وكتاب رحلة الى مصر السفلى

(1) L'Orient, ed. Charpentier, vol. II, p. 270.

والعليا لفيفون دي نون، ومصر القديمة الذي كتبه شامبليون - فيجاك Figeac - Champollion ضمن سلسلة فيرمان ديدو Didot - Firmin التي أطلق عليها اسم لونيفير بيتورسك L'Univers Pittoresque. وكان لدى إرنست فيدو أيضًا كتاب «رحلات إلى أثيوبيا» الذي كتبه هوسكينز Hoskins وكتاب «عادات وتقاليد المصريين القدماء» الذي كتبه Wilkinson وكتاب G.Belzoni بعنوان أ«بحاث ودراسات في مصر والنوبة». هذا بالإضافة إلى أعمال شامبليون وروزليني ولبسيوس وبريس دافين عن «آثار مصر والنوبة» «والفهرس المدروس لآثار مصر المكتشفة» والذي أعده باسالاكوا Passalacqua وكتاب «النيل» لمكسيم دي كوم ومجموعة صوره. كما أن فيدو كانت لديه ترجمة التوراة التي أعدها كاهين Cahen وغير ذلك.

بهذا الإحصاء نكون قد رتبنا مصادر تيوفيل جوتييه. فلم يكن على هذا الأخير إلا أن يغترف من مكتبة إرنست فيدو. وقد كتب بيرجيرات Bergerat عن فيدو يقول: «هو الذي اقترح على صديقة فكرة رواية المومياء (دون شك كان ذلك بتعليقه على الجزء الخاص من رسالة شامبليون الذي أوردناه في ما سبق) وسهل له تنفيذها عن طريق أبحاثه العلمية في مجال علم المصريات»[1] .

زد على ذلك أن جوتييه أهدى «رواية المومياء» إلى إرنست فيدو كما أنه لم يتوقف عن التغني بالأفضال العظيمة لصديقه عليه. فلا يمكن لجوتييه أن يكون قاطعاً أكثر من ذلك فقد كتب في إهدائه يقول: «أهدي إليك هذا الكتاب الذي هو حق لك. إنك قد جعلتني أعتقد أنني عالم وأن معرفتي بمصر القديمة هي معرفة كافية تسمح لي بوصفها وذلك بأن فتحت أمامي أبواب علمك ومكتبتك. فقد تنزهت داخل المعابد والقصور والمقابر ومدن الأحياء والأموات متبعاً خطاك. لقد كشفت أمامي غموض إيزيس وأحييت حضارة ضخمة كانت قد اختفت. القصة ملك لك والرواية لي. لم أحتج سوى أسلوبي في تجميع الأحجار الكريمة التي أحضرتها لي كما يتم ذلك بالنسبة لعناصر الفسيفساء».

(1) E. BERGERAT, Théophile Gautier, p. 4

إضافة إلى ذلك، أكد فيدو في مذكراته الخاصة على أهمية العون الذي قدمه إلى جوتييه. بعد أن روى فيدو كيف تم التعارف بينه وبين جوتييه وكان ذلك على أثر نشر مقال جوتييه في جريدة المونيتور عن العادات الجنائزية فكتب فيدو يقول : « لقد تحدثنا عن مصر... كانت فكرة إعداد كتاب عن هذا البلد غير المعروف بصورة واضحة قد نبتت فعلاً في ذهن جوتييه. .. وقد طلب مني أن أوجهه في مهمته التي أنتوي تنفيذها... وبذلك ولدت «رواية المومياء» من خلال تلك المحادثة الأولى بيننا . كنا نتقابل تقريبًا كل يوم. .. كنا نتصفح معاً صناديق الرسومات التي كنت قد جمعتها منذ وقت طويل لإعداد كتابي عن الآثار. كنت أشرح له ما كان غامضاً عليه من ألغاز مصر القديمة. هكذا كانت الرواية يتم إعدادها فى ذهن كاتبها عن طريق الحوار الذي كان يدور بيننا...الترجمة التي قام بها م.دي روجيه M.de Rougé لبعض الأجزاء من مخطوطات هيروغليفية والقراءة المتأنية لترجمة التوراة التي قام بها كاهين وعلى الأخص. . البديهة التي كان يتمتع بها جوتييه، كل ذلك ساعده على إنجاز مهمته. لقد استطاع أن يعرف مصر القديمة إلى الحد الذي جعل أدوارنا تتبدل في بعض الأحيان»[1]

لكن هذا لا يعني أن المسألة اقتصرت على الحوارات وتبادل الأفكار. كان تيوفيل جوتييه يحتاج إلى أن يرى مراراً وتكراراً. وحين جاء وقت الكتابة كان جوتييه ينكب على اللوحات التي اقترضها من فيدو بعيونه المصابة بقصر النظر، بل كان ينقل تلك اللوحات إلى بيته حتى يتسنى له دراستها بحرية. وقد كانت المراجع التي استند إليها جوتييه في إعداد روايته هي في المقام الأول مراجع تمثل مجموعة من الصور واللوحات. مما لا شك فيه أنه استعان في بعض الأحيان بكتاب فيدو، ولكن هذا النص بما فيه من ادعاءات مختلفة كان أقل إيحاءً من صورة فردية. كان لا يكترث بتلك التعميمات، ما كان يريده هي التفاصيل المحسوسة، الدقيقة، الألوان الحية، الرسم الواضح. كان رأيه أنه ليس هناك أثمن من لوحة محفورة.

(1) E. FEYDEAU, Théophile Gautier. Souvenirs intimes, Paris, 1874, p. 87-94.

كانت جوديث جوتييه Judith Gautier الصبية في ذلك الوقت شاهداً على عمله وقد تركت لنا بعد ذلك في طوق الأيام ذكريات جميلة عن هذه الأيام التي تميزت بالعناء والانفعال. «عند وصولي إلى المنزل كنت أجد غرفة الصالون مزدحمة باللوحات الكبيرة الموضوعة على حوامل. كانت تلك الحوامل تسد شباكين من الشبابيك الموجودة وكانت تتكدس فوقها مجلدات مصورة ضخمة كان أبي يحتاجها لدراساته المصرية. ورغم صعوبة العمل والأبحاث الأثرية الدقيقة التي كانت تتطلبها كل صفحة، فإن رواية المومياء كانت تنشر في شكل حلقات مسلسلة أولاً بأول[١].

بالطبع لم يكن أبي متقدماً بما يكفي وكان عليه الإسراع حتى لا يسبقه المشرفون على الطباعة. كان البحث في تلك المجلدات الضخمة ذات اللوحات المتحركة[٢] يجعله يمضي وقتاً نفيساً ويفقده صبره، إذ ان اللوحات يمكن أن تتداخل مع بعضها فيضطر أن يقوم من مكانه في كل لحظة فيتصفح ويبحث ثم يعود مرة أخرى إلى مكانه خاصة أن تلك الكتب لم تكن ملكه. كان قد اقترضها من إرنست فيدو وكان يخشى أن يتلفها. ذات يوم كان نافد الصبر أكثر من المعتاد وطلب مني الحضور وسألني إن كنت أستطيع أن أقدم له خدمة وهي أن أظل هادئة لعدة ساعات حتى أساعده في عمله. بالطبع أحسست بالإطراء أن أكلف بمثل هذه المهمة عالية المستوى، فتعهدت دون تردد أن أبقى هادئة.

وثقة منه في وعدي له، أجلسني فوق المائدة وكانت مهمتي أن أمده باللوحات كلما احتاج إليها ثم آخذها مرة أخرى منه وأعيدها إلى مكانها. أما المكان الذي كان يعمل فيه فقد كان في منتهى البساطة : كتاب كبير يستند إلى كتاب أصغر وهذا ما كان يشكل مكتباً له. بخطه المنتظم الرقيق كان يقوم بتغطية أوراق الكتابة بسطور مستقيمة. بينما كان يكتب، كنت أنظر إلى تلك الصور الغريبة التي كان البشر فيها لهم رؤوس حيوانات

(1) Moniteur universel, 11, 12, 13, 14, 18, 19, 20, 26, 27, 28, 30 mars; 2, 3, 8, 15, 17, 23, 24, 29, 30 avril et 6 mai 1857.

(٢) كان هذا حال المؤلفات الكبيرة لشامبليون ، روزيلليني، بريس دافين وغيرهم.

ويضعون فوق رؤوسهم باروكات غريبة ذات قرون ويجلسون في أوضاع متفردة. كنت منبهرة بظهور هذا العالم الغامض المغطى بالألوان البراقة والذي كان مصحوباً بنقوش هيروغليفية كانت في حد ذاتها صوراً أخرى إلى الحد الذي جعلني أبقى هادئة تماماً وظللت أقوم بتلك المهمة عدة أيام على التوالي»[(١)].

كان من المعروف أن جوتييه يفتقر إلى الخيال وقد عاتبه النقاد على ذلك بمنتهى القوة. فقد كتب عنه فاجيه Faguet يقول: «إنه يفتقر إلى الخيال كما يفتقر إلى الإحساس، إنه لا يبدع شيئاً » ومن جانبه أبدى م.لونسون M.Lanson رأيه قائلاً «إن نفسه قصير وابتكاره فقير ». بالتأكيد أنه لا يعرف تأليف القصص واختلاق المغامرات. إن رواية المومياء ليست برواية. إنها ليست رواية مغامرات ولا رواية نفسية.

لكن تيوفيل جوتيية لديه مع ذلك نوع خاص من الخيال: فلديه القدرة على جعل الحياة تتدفق حول المستند، على إحياء اللوحة المحفورة وإعادة تشكيل الجو العام. إن لديه القدرة على استحضار ما لا يمكن رؤيته وإحياء الصورة التي يصفها النص أو الرسم. فهو يستطيع إحياء الماضي بمناخه البعيد الذي كانت تدور فيه الأحداث ويعيش فيه الأشخاص. وقد باح جوتييه بذلك لبرجرات قائلاً: «إن العلم في حد ذاته ممل وكي يحقق قبولاً يجب إلباسه رداءً مزينًا بالحلي الثمينة وغير المألوفة وتقديمه بكل إمكانياته : هكذا يمكن تقبله. لقد قدمت مصر في رواية المومياء بشكل مسل دون أن أتخلى عن أدق التفاصيل التاريخية والطبوغرافية والأثرية. ذلك هو نفس ما قام به فلوبير Flaubert في «سالومبو».[(٢)]

ليس هناك أصدق مما قاله جوتييه فقد قدم لنا مجموعة من المشاهد التي تصف حياة المصريين تعتبر بالفعل نقلاً مثالياً للفن. وبما أننا بعيدون عن الإسهاب الأدبي والمقاربات الرومانسية للمرحلة الأولى فإن مشاهد الحياة في طيبة ليست سوى نقل حرفي لمقاطع مأخوذة من الكتب الأثرية لفيدو، باسالاكوا وويلكنسن أو هي لوحات مرسومة

(1) Le Collier des Jours, vol. I, chap. LVIII, p. 243

(2) E. BERGERAT, Théophile Gautier, Septième entretien, p. 139

بالريشة – طبقاً لتعبير جوتييه نفسه – تنقل بمنتهى الدقة النقوش الغائرة والرسومات الجدارية التي قام بتقليدها شامبليون وبلزوني وبريس دافين وغيرهم في لوحاتهم. فالكاتب يستمد إلهامه تارة من نص وتارة من رسم وتارة من الاثنين معاً. وحين لا يكون هناك تطابق تام بين الاثنين فإن جوتييه يأخذ جانب الرسم. إن رواية المومياء رواية رائعة، بل أيضًا هي رواية تصويرية لا تجعلنا ننسى أبدًا أن تيوفيل جوتييه كان رساماً قبل أن يصبح كاتباً. لكن – بالرغم من كل ما قيل عنه – كان جوتييه يملك خيالاً جامحاً يأخذه في ما وراء الوثيقة. وهو إذًا كان ذا موضوعية شديدة الصرامة والدقة ويكاد ينقل حرفيّاً كل تفاصيل لوحاته، فقد كان أيضًا يعرف كيف يغرق تلك اللوحات في الضوء ويغلفها بجو عام فيصبح العمل من صنع شاعر أو مبدع. ليس هناك من استطاع نقل صورة وادي الملوك أحسن من تيوفيل جوتييه الذي لم يطأه بقدمه.

«كانت ترتفع على الجانبين كتل ضخمة من الصخور الجيرية تأخذ شكل المنحدرات المائلة. وكانت تلك الكتل خشنة، مبقعة، مفتتة، مشققة، وقابلة للتحول إلى جزئيات صغيرة والتحلل تماماً تحت الشمس القاسية. كانت هذه الصخور تشبه عظام الموتى المتكلسة فوق المحاطب وشقوقها العميقة تشبه الأفواه المفغورة لأشخاص يتثاءبون من الملل الأبدي ويتوسلون من خلال آلاف التصدعات إلى نقطة ماء لا تسقط أبدًا. كانت جدران تلك الصخور تشق قممها غير المنتظمة ذات اللون الأبيض المائل إلى الرمادي وخلفها السماء ذات اللون الأزرق النيلي الذي يميل إلى السواد تبدو كأنها الفتحات التي ترمى منها السهام في قلعة كبيرة متهدمة....صمت تام يخيم على هذا الخراب فما من رعشة حياة تعكر صفو هذا الصمت ولا خفقان جناح ولا طنين حشرة ولا فرار أي من الحيوانات الزاحفة الصغيرة أو الكبيرة. حتى أشد الحشرات صداقة للوحدة الشديدة مثل حشرة الزيز لا تضرب بجناحيها في هذا المكان وكانت أرض المكان عبارة عن غبار طليق لامع يشبه الحجر الرملي المفتت...»(١)

(1) Roman de la Momie, ed Charpentier, p. 14 -17.

كان جوتييه لا يعرف وادي الملوك إلا من خلال الرسالتين ١٣، ١٤ من رسائل شامبليون واللتين ذكرهما فيدو (المرجع السابق ص ١٧٨ وما بعدها). ومن خلال النيل لمكسيم دي كوم ، ص ٢٥٠ .

حتى يمكنه الانتقال كما فعل ونقل قارئه إلى هذا المشهد الطبيعي المتآكل، كان يجب أن يمتلك في وقت واحد الخيال والقدرة على مزج الألوان، يجب أن يكون حالمًا وشاعرًا معاً. فإذا كان جوتييه قد تمسك في وصفه لتفاصيل مشاهد المقابر والمنازل والقصور والحصاد باتباع ألبومات الرسم ولم يتخطها، فذلك يعتبر إطراء لحسه التاريخي ولا يمكن إلا أن يزيد من القيمة الأثرية للمشاهد التي استحضرها.

✡✡✡✡

خوفاً من أن أقدم هنا تطوراً قاسياً، يبدو لي أن إجراء دراسة منهجية وإجمالية لمصادر الرواية سوف يعود بالفائدة. فنحن نريد أن نلتمس له العذر في جفافه. فلنفحص أولاً التمهيد.

فلنغص مع لورد إيفانداال الشاب الوسيم والعالم رامفيوس في داخل الممرات المظلمة لمقبرة تاهوزر. نحن نعبر أولاً رواقًا منحوتًا في الصخر [١]. إن وصف هذا الرواق هو عبارة عن نقل حرفي لإحدى لوحات كتاب إرنست فيدو وهي مدخل مقبرة رمسيس الثالث الذي رسمه بريس دافين [٢]. «أعلى الباب المنخفض ذي الركائز المدعمة بألواح مزينة بالنقوش الهيروغليفية كانت هناك لوحة زخرفية ذات برواز شعاري. كان يظهر بها قرص ذو لون أصفر وفي وسطه يوجد جعران وإلى جواره الإله الذي له رأس كبش. خارج القرص يمكن رؤية إيزيس ونفتيس اللتين تمثلان البداية والنهاية. كانت الاثنتان في وضع الركوع، الساق الأولى مطوية تحت الفخذ والثانية بارتفاع الكوع طبقًا للوضع المتبع عند المصريين. كانت الأيدي ممدودة إلى الأمام ويبدو عليها تعبير من الد ـة الغامضة. الجسد تضمه تنورة ضيقة يلفها حزام تتدلى أطرافه» [٣].

---

(1) Roman de la Momie, ed. Charpentier, p. 19 - 20.

(2) E. FEYDEAU, Histoire des usages funèbres, 1856, vol. I, p. 179.

بعد ذلك بعشر صفحات وجد تيوفيل جوتييه في نفس نص فيدو إرشادات عن ألوان هذه اللوحة الزخرفية: «هو عبارة عن قرص أصفر اللون في وسطه الشمس ذات رأس كبش وهذا يعني غروب الشمس...الخ».

(3) Roman de la Momie, p. 19 - 20.

هذا هو المدخل وقد وصفه بمنتهى الدقة وفقاً لأحد الرسومات. بعد ذلك ندخل من خلال مجموعة من الأبواب والممرات إلى أعماق المقبرة. هنا يتبع تيوفيل جوتييه بمنتهى الإخلاص المتاهات الموجودة في مقبرة سيتي الأول التي اكتشفها ووصفها بلزوني [1]. الممر الأول الذي ينحدر انحداراً خفيفاً، السلم الذي يؤدى إلى الباب الذي يحرسه حيوان ابن آوى[2]، الممر الثاني المزين بإفريز ذي جعران، البئر شديدة العمق التي يجب الدوران حولها[3]، والقاعة الأولى ذات الأعمدة الأربعة المربعة [4]، القاعة الثانية ذات سقف أكثر ارتفاعاً ويدعمها عمودان يستندان إلى جدار دون مخرج[5]، الباب الخفي الذي يجب العودة إلى الخلف في اتجاهه[6]. السلم الثاني ذو الدرجات المرتفعة الهاوية[7]، الممر الثالث المنحدر[8] درجات السلم القليلة المؤدية إلى البهو الكبير المدعم بستة أعمدة، القاعة الجنائزية المرتفعة أو القاعه الذهبية [9] ذات القبة والجوانب المغطاة بأشكال ونقوش هيروغليفية، كل ذلك منقول بدقة شديدة من لوحات كتاب فيدو الذي يوضح لنا فيها تطور المقابر من خلال عدة مقاطع متعاقبة.

لكن لوحات فيدو كانت بدون ألوان وكي يستطيع جوتييه توزيع الألوان بدقة لجأ إلى ألبوم بلزوني الأصلي حيث كانت النقوش الغائرة ورسومات مقبرة سيتي الأول مصورة برسم ذي ألوان مائية. إن جوتييه رسام جيد وعالم آثار مدقق ولا يخترع ألوانه. عندما يصف » القاعة الصغيرة المربعة ذات السقف الأزرق المنخفض الذي يرتكز على أربعة أعمدة ضخمة مزخرفة بوجوه ذات بشرة حمراء ترتدي التنورات البيضاء [10] فهو ينقل

---

(1) Id., p. 23.

كان فيدو قد روى مغامرة بلزوني (المرجع السابق، ص ١٨٠-١٨١)

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤ ، كتب بلزوني ثعلب وليس ابن اوي

(٣) المرجع السابق، ص٢٥ .

(٤) المرجع السابق، ص ٢٩

(٥) المرجع السابق، ص ٣٠

(٦) المرجع السابق، ص ٣٢

(٧) المرجع السابق، ص ٣٣

(٨) المرجع السابق، ص ٣٤

(٩) المرجع السابق، ص ٣٩-٤٠ .

(١٠) المرجع السابق، ص ٢٩

بكل دقة صور بلزوني الملونة[١] لكن القاعة الذهبية بمقبرة سيتي الأول قد نهبت، كان التابوت الحجري مفتوحًا وفارغًا وهكذا يجد جوتييه نفسه في حيرة من أمره فهو يحتاج إلى غرفة دفن سليمة ولم تمس. لا بأس! ففي كتاب فيدو صورة لبريس دافين أرسلتها العناية الإلهية: إنها حجرة الدفن في مقبرة المدير منتوحتب التي اكتشفها جي باسالاكوا[٢] ها هو التابوت الحجري وعلى جانبية تمثال لسيدتين، - ترتدي الأولى تنورة بيضاء بسيطة ضيقة ومعلقة بحمالتين متقاطعتين، أما الثانية فقد كانت ملابسها أكثر ثراءً كانت ترتدي زيّاً يشبه الفستان الضيق المزين بقشور متعاقبة حمراء وخضراء[٣] عند أقدامهما توجد جرار وأطباق وحلية تأخذ شكل جمجمة ثور ومركبتان صغيرتان رمزيتان.

لكن صورة بريس دافين كانت باللون الأسود. كيف لجوتييه أن يتأكد من درجات الألوان ؟ فكان عليه أن يلجأ إلى كتاب باسالاكوا[٤]، وها هنا يأتي النص ليكمل الصورة : التنورة البيضاء، القشور الحمراء والخضراء، كل تلك الأشياء زوده بها فهرس الأشياء التي وجدت داخل المقبرة[٥] فهرس شديد الدقة وغني بالتفاصيل غير المنتظرة[٦]. لقد استطاع جوتييه أن يجني منه فائدة كبيرة عند كتابة التمهيد وهذا ما لم يوضحه أبدًا م. ألكسندر موريه M.Alexandre Moret فقد كتب يقول «ليس هناك فائدة من مقارنة الجمل المسطحة المشوشة لباسالاكوا - بالدقة المتأنقة والليونة الميسورة واختيار مثل هذه الصفات الرائعة التي تميز بها أسلوب جوتييه. لقد عرف كيف يختار كل التفاصيل الأثرية الرئيسية حتى يشكل لوحة تستطيع بنقائها أن تشبع رغبة عالم الآثار المتخصص». [٧] حتى أن

(1) Plates illustrative of the researches and operations of G. Belzoni in Egypt and Nubia Murray, 1821).

(٢) أي. فيدو ، المرجع المذكور، ص ٢٢٠ -تم نقل التابوت الحجرى الى متحف برلين . صورة كتاب فيدو التي رسمها دافين والتي كانت تحت ايدي جوتييه هى اكثر دقة وفناً من الرسم الفظ الموجود على واجهه فهرس باسالاكوا .

(3) Roman de la Momie, p. 42

(4) Catalogue raisonné et historique des antiquités découvertes en Egypte, Paris, 1826.

كان باسالاكوا قد عرض مجموعته القيمة في باريس، رقم ٥٢ ممر فيفيان ، آملاً أن تقوم حكومة الملك بشرائها ولهذا السبب كتب هذا الفهرس الجذاب.

(5) Cataloguei, n? 1603 et 1612, p. 125.

(٦) المرجع السابق، رقم ١٦٠٣-١٦٠٩، ص ١٢٤ ورقم ١٦١٣، ص ١٢٦-١٢٧ .

(7) Note sur un source du Roman de la Momie (Revue d'histoire littéraire de la France, 1899, p. 362 - 366.

جوتييه أضاف أربعة من الأوعية المصنوعة من «المرمر الأبيض» والتي كان المصريون القدماء يحتفظون فيها بأحشاء موتاهم. كان غطاء كل وعاء منحوتًا الأول على شكل رأس آدمية والثاني على شكل قرد والثالث ابن آوى والرابع على شكل صقر الباز. ولقد استمد جوتييه تلك الأوصاف من كتاب فيدو[١].

فلنرفع معاً الآن غطاء التابوت الحجري: لقد ظهر الغلاف الكرتوني الرائع للمومياء بقناعه الذهبي و«عيونه الطويلة المحددة بالأسود والمصقولة بالميناء» وطوق الرقبة العريض «المجتزع بسلوك من الذهب». إلى هنا فنحن مضطرون لترك جامع الآثار الإيطالي. لقد قدم أحد اليونانيين المقيمين في طيبة إلى جوتييه إحدى قطعه المنتقاة. فلنتأمل ثراء الزخارف الموجودة على الغلاف الكرتوني: «على الصدر الطائر المقدس الذي له راس كبش، يحمل بين قرونه الخضراء اللون قرص الشمس الغاربة ذات اللون الأحمر يسنده ثعبانان يرتديان على رأسيهما المنتفخين الباروكة الملكية. وتبرز الهيئة الخارجية للطائر بصورة هائلة مملوءة بالمعاني الرمزية. تحت منطقة الصدر، في الأماكن الخالية بين المناطق المخططة توجد ألوان حية تمثل الأشرطة ونرى صقر (فري Phré) وعلى رأسه الكرة يبسط جناحيه وجسده مغطى بالريش المتراكب المتناسق وذيله مبسوط على شكل المروحه ويمسك بين مخالبه رمز الخلود (التو Tau).

كانت الآلهة الجنائزية ذات الوجه الأخضر والفم الذي يشبه فم القرد وابن آوى تقدم في حركة كهنوتية متصلبة الكرباج والمنسأة (وهى عصا ترمز إلى أرباب المراعي) والصولجان وكانت عين أوزيريس تمدد حدقتها الحمراء المحددة بالكحل، وكانت الأفاعي الإلهية تغلظ عنقها حول القرص المقدس، وأشكال رمزية تمد أذرعها المملوءة بالريش والتي تشبه أنصال الغيلة، وإلى البداية والنهاية بشعرها المنثور عليه غبار أزرق وجلدها الذي كان نصفه الأعلى عارياً إلى ما بعد الصدر، وبقية الجسد ملفوفًا داخل تنورة ضيقة كانتا راكعتين على وسائد خضراء وحمراء مزينة بأشكال كبيرة من ثمار شجر البلوط »[٢].

---

(١) فيدو ، المرجع السابق ، ص ٨٠-٨٧ .

(2) Roman de la Momie, p. 48 -49.

لا يمكن لأحد أن يكون أكثر دقة وأكثر صواباً. هذه المومياء التي اكتشفها اللورد إيفاندال طبقاً لإرشادات اليوناني ارجيروبولوس كانت في الواقع مومياء اكتشفها اليوناني تريياندافيلو. وقد قام جوتييه بوصفها بحذافيرها، بكل تفاصيلها وألوانها وزخارفها ورموزها وفقاً للوحة كبيرة من كتاب فيدو[١].

فلنفتح الآن الغلاف الكرتوني ونفك المومياء من قماطها. هذه الشبكة من اللؤلؤ الأزرق وهذه التماثيل الذهبية الصغيرة لآلهة أمنتى الأربعة وهذه المرآة المعدنية الثمينة الموضوعة أسفل الرأس والى جوارها، وهذا الصندوق المزخرف المصنوع من الطين المطلي بالميناء، وتلك الآنية المصنوعة من خشب الصندل وثلاثة من الأوعية المرمرية التي كان قدماء المصريون يضعون فيها أحشاء موتاهم وكانت ملفوفة بشريط [٢]، أين سبق لنا أن رأينا كل ذلك؟ في أحد فصول كتاب فيدو كما رأيناه أيضًا في فصل أخر من فصول الفهرس المدروس لباسالاكوا[٣]. أما عن الشابة الجميلة نفسها التي تم حفظها بإعجاز والتي تظهر في وضع فينوس «عائلة مدسيس» فهي تخرج أنيقة ومجملة كنموذج مجسم نابض بالحياة من التابوت الحجري الذي وجده نفس جامع الآثار. فنحن نتعرف على دبابيسها الذهبية العشرين، على قرطها الكبير على عقدها ذي الثلاثة أدوار، على حزامها، على سوارها ذي الصفين، إن تيوفيل جوتييه لم يختلق حتى وضعها المحتشم الجميل الذي يشبهه باسالاكوا «وضع فينوس عائلة مدسيس» والذي ذكره فيدو من جانبه في كتابه[٤].

هكذا فقد أمكننا أن نجد صفحة بصفحة المراجع الكاملة من الأيقونات والصور والكتب التي استخدمها جوتييه في كتابة التمهيد. مقابر رمسيس الثالث وسيتي الأول

(١) أي فيدو، المرجع المذكور لوحة رسمها دافين، ص ٨٢٠ هذا المدعو تريياندافيلو قد جاء ذكره فى كتاب رحلة الى الشرق للكونتيسة. دي جاسباران، الجزء الثاني، ص ٢٦٨

(2) Roman de la Momie, p. 51.

(3) Cataloguei, p. 159 ? 160 et p. 176 -177. FEYDEAU, op. cit., p.83.

(٤) المرجع السابق، ص ١٥٩- ١٦٠ فيدو، المرجع السابق ص ٨١-٨٢، م. الجرنون كولمان يضع وجهاً لوجه المقاطع المميزة لفيدو وباسالاكوا و تيوفيل جوتييه ويبرز التشابهات الشديدة بينهم (مقوله مذكورة ص ٣٤٨-٣٥٢) .

ومنتوحتب التي وصفت في أعمال فيدو وبلزوني وباسالاكوا قد أمدت جوتييه بالعناصر الزخرفية الكاملة للمقبرة والتابوت الحجري والمومياء. ليس هناك ما يثير الدهشة إذا شعرنا أننا ننساق معه ومع أبطاله إلى هذا الاستكشاف المثير للزمن.

«فوق هذا التراب الرمادي الناعم الذي يغطي الأرض كانت ترتسم بوضوح شكل قدم أدمية ببصمات إبهام القدم والأصابع الأربعة وعظم الكعب. إنها قدم آخر كاهن أو آخر صديق انسحب من هذه الأرض منذ ألف وخمسمائة عام قبل الميلاد بعد إقامة المراسم المأتمية للأموات»[1]. بالكاد نستطيع أن نحبس صرخة ذهول مع لورد إيفاندال! لكن حتى هذا ليس من وحي خيال المؤلف: فهذه الصرخة قد أطلقها فعلاً ماربيت Mariette (وكان جوتييه قد قرأ ذلك في الصحف) عام ١٨٥١ عند دخوله إلى السيرابيوم في سقارة حين لمح على رمال المقبرة الكبيرة آثار آخر الأحياء الذي سبقه إلى هذا المكان.

فلنفحص الآن الرواية نفسها. إن مصادر قصة بوري وتاهوزر متناثرة في كتاب «آثار مصر والنوبة» الذي نشره شامبليون ومن تبعوه (١٨٣٥-١٨٤٥) وكتاب «الآثار المصرية» لبريس دافين (١٨٤٧) وكتاب «عادات وتقاليد المصريين القدماء» لجي. جي ويلكنسن[٢]. وأخيرًا نص سفر الخروج في التوراة.

إن الفصول الثمانية الأولى ما هي إلا مجموعة من اللوحات المتتابعة. إنها عبارة عن وصف وافر ودقيق يعرض لنا المظاهر الأساسية للحياة في طيبة : منزل تاهوزر ابنة كبير الكهنة (الفصل الأول)، اجتياز النيل ومنظر كامل لطيبة (الفصل الثاني)، عودة الفرعون منتصراً (الفصل الثالث)، قصر الفرعون (الفصل الرابع)، بيت بوري (الفصل الخامس) مسكن القائد أحمس (الفصل السابع)، الحصاد عند بوري (الفصل الثامن). ومن وصف إلى وصف حتى نصل إلى منتصف الكتاب دون أن يكون هناك أي حدث أو دون أن تبدأ الأحداث الفعلية للرواية. الفرعون يقع في غرام تاهوزر التي بدورها تقع في غرام بوري اليهودي. هذا كل ما نعرفه.

---

(1) Roman de la Momie, p. 35.

(٢) كان هناك أكثر من طبعة لهذا الكتاب : ١٨٣٧، ١٨٥٤، ١٨٧٤ . المراجع المذكورة هنا تعود إلى الطبعة الأولى ذات الأجزاء الثلاثة ، طبعة ١٨٣٧ . وقد اطلع جوتييه أيضًا على طبعة ١٨٥٤ .

لذا نجد أن المؤلف يسرع في الفصول الستة التالية في نشر حبكة قصته الضعيفة إلى حد كبير ويحاول ربطها بهرب اليهود. وهنا يعود المؤلف مرة أخرى إلى التقليد المتبع وهو أن المصدر التوراتي يأتي ليكون مكملاً لمصدر الأيقونات والصور. ولكن النص ضئيل وأقل إلهامًا له من الصور وأقل ثراءً من حيث التفاصيل المثيرة. نتيجة لذلك تدور روايته في مجال ضيق وتتوه مع فرعون في أمواج البحر.

هل هو فتور، هل هو نقص في المراجع، هل هو عجز في القدرة على الإبداع ؟ لقد تملكنا شعور بأن جوتييه بدلاً من أن يوسع النص بنهاية درامية عظيمة قد تجنب الخوض فى آلام مصر وعبور البحر الأحمر. قصة سفر الخروج التي بدت له عام ١٨٥٢ كموضوع أساسي للرواية بل كانت الموضوع الرئيسي، بالكاد تم تلخيصها إلى بضعة خطوط عامة وسريعة. إجمالاً فإن الجزء الأكثر صلابة في رواية المومياء هو النزهة التاريخية عبر مدينة طيبة على ضفتي النيل.

إن الحبكة الروائية ليس لها وجود لتسمح لنا بالمرور من ضفة النيل إلى الضفة الأخرى. الاحتفال بعودة فرعون يقام على الضفة اليسرى للنيل ويقوم الموكب الحربي بمصاحبة الملك حتى قصره في مدينة هابو. لكن هذا الأخير عندما يصله نبأ اختفاء تاهوزر المفاجئ يترك مسكنه العائلي ويترك نساءه وعبيده ويذهب إلى (قصر الشمال) على الجانب الأيمن والمقصود به هنا معبد الكرنك حيث يظل حبيساً مع وحدته الزاجرة. ويرجع ذلك إلى أن تيوفيل جوتييه يتخذ الأبنية الدينية الكبيرة بالكرنك والأقصر والجورنة ومدينة هابو كقصور ومساكن مدنية وملكية وهو بذلك يظل وفيّاً لتفسير شامبليون في كتابه «رسائل من مصر والنوبة».

أيضًا، ليس من المعقول أن يتم تعيين يهودي من هؤلاء الأجانب الذين ينتمون إلى سلالة الأسرى المأجورين في منصب المسئول الإداري للخاصة الملكية. لكن جوتييه يريد استخدام ما وجده من صور عن الحياة الزرعية في أعمال شامبليون وويلكنسن. وحتى يستطيع ربط قصة الحب وقصة سفر الخروج لم يكن أمامه إلا أن يجعل بطل روايته بوري أحد اليهود المعاصرين لموسى. إذًا فالرواية سيئة البناء والأحداث سطحية ذات خيوط

وهمية، والوصف الطبوغرافي يمتد ويتطفل في لين على حساب التطور الدرامي. أما بالنسبة لنا، فنحن لا نهتم إلا بإيضاح القيمة الأثرية للرواية وتتبع مصادرها وبذلك فقد أصبحت مهمتنا سهلة.

وصف حياة تاهوزر في بيتها الجميل ذي الرواق المفتوح المرتكز على أعمدة صغيرة على شكل زهرة اللوتس(١)، في الفناء حيث يتلألأ حوض مربع محاط بحافة من الجرانيت مزينة بأوراق منحوتة على شكل قلب اللوتس(٢)، كل ذلك يكاد يكون مأخوذاً بالكامل من كتاب ويلكنسن(٣) أما مشهد العازفات(٤) بزيهن وهيئتهن وآلاتهن فهو مطابق تماماً لإحدى لوحات بريس دافين » و«جبة الموت»، الموجودة في كتاب فيدو(٥). نفس الشيء بالنسبة للراقصات اللاتي يغطين رؤوسهن(٦) فهذا المشهد مأخوذ في الوقت نفسه من لوحة لفيدو ورسم لويلكنسن(٧). أما المركبة التي تستخدمها تاهوزر لعبور النيل(٨) فموجودة بأدق تفاصيلها في أحدى صور ويلكنسن(٩). نفس الشيء بالنسبة للعربة التي تجرها العجول وتستخدمها في الذهاب إلى مكان العمل(١٠).

اللوحة الكبيرة لعودة فرعون منتصراً تعتمد في مصدرها على وصف لفيدو(١١)، ولكنها أيضًا تعتمد على تداخل بين مشهدين في طيبة، المشهد الأول مقدس والثاني دنيوي: إن المشهد الأول هو مشهد انبثاق الإله مين Min كما هو معروف من خلال نقوش

---

(1) Roman de la Momie, p. 68.

إن تسريحة تاهوزر مأخوذة جزئياً من وصف يماثله عند شامبليون في كتاب رسائل عن المتحف المصري في تورينو (١٨٢٤)، ص ٢١ وجزئيا من رسومات كتاب آثار مصر والنوبة.

(2) Roman de la Momie, p. 70.

(٣) ويلكنسن، المرجع المذكور، طبعة ١٨٣٧، الجزء الثاني، لوحات ص ١١٩- ١٠٢-٩٩ و ١٢٩.

(4) Roman de la Momie, p. 75 -78.

(٥) اي. فيدو، المرجع المذكور، الصف الثاني، مجموعة اليمين، على اللوحة المضافة إلى صفحة ٩٨

(6) Roman de la Momie, p. 79 - 80.

(٧) اي. فيدو، المرجع المذكور، لوحة ص ١٣٣، الجزء العلوي و و يلكنسن، المرجع المذكور، الجزء الثاني ص ٣٢٩

(8) Roman de la Momie, p. 92 - 93.

(٩) ويلكنسن، المرجع المذكور، الجزء الثالث، ص٢١٠

(10) Id. An Ethiopian princess traveling in a plaustrum, ed. 1854 et 1878, vol. I, p. 235.

(١١) المرجع المذكور، ص ١٥٠-١٥٣.

معبد مدينة هابو، أما المشهد الثاني فهوانتصار سيتي الأول وعودته منتصراً إلى بلاده كما هو منحوت على الجدران الخارجية لبهو الأعمدة في معبد الكرنك. في المشهد الأول نرى الفرعون جالساً على قبة العرش وفي المشهد الثاني نراه واقفاً على عربته الحربية.

عاقدًا العزم على ألا يحرم نفسه من أي عنصر من عناصر الزخرفة، فقد صور جوتييه فرعون روايته محمولاً بواسطة اثني عشر ضابطاً من حاشيته[1] كما هو الحال في مشهد مدينة هابو ولكنه أيضًا تلذذ بوصف العربات الحربية وخص بها أمراء العائلة الملكية[2] كما هو الحال في مشهد الكرنك. الموكبان الديني والدنيوي قام برسمهما شامبليون وبريس دافين وهوسكينز وويلكنسن والنماذج متعددة. بالإضافة إلى ذلك فإن ويلكنسن كان قد وصف في فصوله عن الحرب الأبواق وعازفي المزاهر وضاربي الطبول والأسرى الهمج وحاملي البيارق والمشاة والحلفاء[3]. أما مروضو الوحوش الذين يقودون أمامهم الفهود والنمور والنعام والزراف فقد هربوا من النقوش الجدارية لمقبرة رخ. ميري (Rekh.Mêre) بمقابر مدينة شيخ عبد الجورنة الأرستقراطية ليشتركوا في العرض على لوحتين تمت إضافتهما إلى كتاب عالم الآثار الانجليزي[4]. أما عن أسد فرعون الذي عادةً ما يصور واقفاً بجوار العرش فإننا نجده هنا نائماً على النقالة مثل الكلب في وضع خضوع وليس له أي دور سوى تعزيز الإحساس العام بالطاعة. لقد تفنن جوتييه في التقليل من شأن كل شيء وسحق كل شيء أمام عظمة الملك التي تفوق البشر.

كم هو نبيل ومعتز بنفسه هذا الملك الذي تسبقه الكهنة ويستديرون فيمدون نحوه مباخرهم التي تتصاعد منها الأبخرة. نراه جالساً في هدوء على كرسي العرش الذي تأخذ قوائمه شكل أيدي الأسد وأرجله، ويقف على جانبيه اثنان من حاملي المراوح يحركون مراوحهم نصف المستديرة المصنوعة من الريش كما نراه في أحد البومات شامبليون

(1) Roman de la Momie, p. 110.

(2) Roman de la Momie, p. 114.

(٣) الجزء الأول ص ٢٨٧ . ويلكنسن ، المرجع المذكور، حسب الترتيب الآتي : الجزء الثاني ص ٢٦٠ ، الجزء الأول ص ٣٣٤،

(٤) ويلكنسن ، المرجع المذكور ، الجزء الأول ص ٤٠٦ ، لوحة ٢ أ و ٢ ب . تتشابه مع كتاب هوسكينز رحلات إلى إثيوبيا ، ١٨٣٥، ص ٣٢٧- ٣٣٥ الذي استعان به أيضا فيدو ، المرجع المذكور ، ص ١٥٠-١٥٤ .

المخصصة لمدينة هابو.[1] لقد أعطاه جوتييه رأس رمسيس الثاني الرائع كما يبدو في أحد الرسومات الملونة التي نفذها أحد الرسامين الشبان التابعين لمجموعة شامبليون في أبو سنبل عام ١٨٢٨ . إننا نشعر بأنه تأثر بهذه الصور وألهمته الكثير إلى الحد الذي جعله ينقلها بمنتهى الإخلاص.

«كان الفرعون يرتدي على رأسه خوذة تأخذ شكل تاج السلطة الدينية ذات فتحتين على الجوانب تأخذان شكل دوران الأذن ثم تنخفض من الخلف لتحمي منطقة الرقبة من الخلف. كانت الخوذة ذات لون أزرق ويتلألأ عليها بذور تشبه مقلة عين الطائر وتشكل ثلاثة دوائر سوداء، بيضاء وحمراء. وكانت حافة الخوذة مزينة بشريط من اللون الأرجواني والأصفر والمنطقة الأمامية تظهر عليها الأفعى الرمز تلوي حلقاتها الذهبية وتمد عنقها إلى الأمام فوق الجبين الملكي. وتنسدل من كل جانب من جانبي الخوذة لحية مضلعة ذات لون أرجواني تطفوان على الكتفين فتكملان أناقة وفخامة التسريحة. ويلتف حول صدر الفرعون طوق رقبة مكون من سبعة صفوف من الميناء والأحجار الكريمة واللآلئ الذهبية تلقي بألوانها الفاقعة إلى الشمس. أما عن ملابسه فقد كان يرتدي بالجزء الأعلى من جسمه شيئًا يشبه الصديري ذا مربعات وردية وسوداء. وكانت أطراف الصديري تمتد على شكل شرائط تلف عدة مرات حول النصف الأعلى من الجسم فتضغط عليه. أما الأكمام فكان طولها يقف عند عضلة ذات الرأسين ويحدها خطوط عرضية من الذهب بالإضافة إلى اللون الأحمر والأزرق، فكانت تسمح برؤية الأذرع المستديرة القوية.... أما وجهه الناعم الأمرد ذو القسمات الكبيرة النقية وشحوبه الذي يشبه الموت وشفاهه المحددة وعيونه الواسعة التي يزيد من حجمها الكبير الخطوط السوداء التي تحدها ذات الجفون التي لا تطرف إلا جزئياً كجفون الصقر المقدس، بالإضافة إلى سكونه كان كل ذلك يعطي إحساسًا بالرعب والهول» [2].

(1) CHAMPOLLION. Monuments de l'Egypte et de la Nubie. vol. III. pl. CCIX (Médinet Abou).

(2) Roman de la Momie. p. 111- 113.

لوحة رقم ٣ (ابسامبول) انظر الرسم .، وانظر صورة رمسيس الثاني في البوم شامبليون، آثار .... ، الجزء الأول

فلندخل معه إلى قصره على الضفة اليسرى. الشرفات التي يحملها الأسرى[١] تؤكد لنا أننا في مدينة هابو، وما إن ندخل إلى الحرملك حتى يمكننا التعرف من خلال وصف الجدران على النقوش الغائرة التي قام بريس دافين برسمهما والتي تصور أحلى مشاهد الحياة الخاصة للملك». كنا نرى الفرعون جالساً على عرشه يلعب بكل وقار الشطرنج مع إحدى نسائه التي كانت تقف أمامه عارية ورأسها ملفوف بشريط عريض تزدهر منه باقات زهور اللوتس. في لوحة أخرى نرى الفرعون دون أن يفقد شيئًا من جموده الملكي والكهنوتي يمد يده ويلمس ذقن فتاة شابة ترتدي عقداً وسواراً وتقدم له باقة زهور ليشمها» [٢] في هذا الجناح الملكي نرى المقعد الخشبي الصغير المصنوع من خشب الأرز والذي يوضع عليها كأس من البرونز[٣] وها هي الطاولة المستديرة المصنوعة من الرخام ويحمل قرصها أحد الأسرى[٤]، وها هو كرسي العرش ذو الأرجل المتشابكة التي تحيط بأربعة تماثيل لسجناء من الهمج وقد ربطت أيديهم خلف ظهورهم ويحملون على رؤوسهم الوسادة ذات المربعات الذهبية الحمراء والسوداء، وها هي أغلب الأشياء المرسومة في كتاب ويلكنسن[٥].

بدأت وجبة الطعام. الإثيوبيون يحملون أندر أنواع الأكل والنبيذ يصب في قوارير كبيرة من الطين مرتبة في أقفاص القش التي وصفها العالم الإنجليزي[٦]، وتظهر عازفات الموسيقى يرتدين السترات الشفافة. «كانت الأولى تعزف على القيثارة والثانية على المندور وهي آلة تشبه العود والثالثة على الناي المزدوج...الخ، أما الرابعة فكانت تعزف على ربابة

---

(1) Roman de la Momie, p. 122.

(2) PRISSE D'AVENNES, Histoire de l'art égyptien, et WILKINSON, op. cit., vol. II, p.420.

(3) Roman de la Momie, p. 126, et WILKINSON, op. cit., vol.II, p. 216

(4) Roman de la Momie, p. 126, et WILKINSON, op. cit., vol.I, p. 202

(5) Roman de la Momie, p. 127, et WILKINSON, op. cit., vol.II, p. 196

هذا هو المقعد الذي نقلته بعثة شامبليون من الرسومات الموجودة بمقبرة رمسيس الثالث ، آثار ... الجزء الثالث ، لوحة ٢٥٨ . «ملعقة العطر المصنوعة من خشب أشجار التين المصري على شكل شابة عارية وجسمها ممدد فى وضع السباحة (رواية المومياء) ص ٧٢ و قد قام فيدو بوصفها (المرجع المذكور ص ٢١٣) وقد تم «وضعها في متحف اللوفر، وجوتييه قد يكون رآها بنفسه لو كان يريد ذلك.

(6) Roman de la Momie, p. 132, et WILKINSON, op. cit., vol.II, p. 217

ذات خمسة أحبال تحتضنها أفقيّاً إلى صدرها وكانت الخامسة تدق على طبلة مربعة مصنوعة من جلد الحمار الوحشي» [1]. أين رأينا هؤلاء من قبل بنفس الأوضاع ونفس الآلات؟ في إحدى لوحات مجلد فيدو ويمكننا أن نسجل نفس الاستنتاج بالنسبة لمشهد الراقصات.[2]

مثلما حدث بالنسبة لاسم الكاهن الكبير بتامونوف[3]، فإن اسم المسئول الإداري الشاب بوري قد زودتنا به إحدى لوحات بريس دافين. وبالفعل فإننا نجد في كتاب آثار مصرية إعادة لوصف مقبرة بوري «الإداري المسئول عن الدخل الملكي في عهد منفتاح الأول»[4]. لكن ويلكنسن هو الذي جاء إلى جوتييه بكل العناصر التي تصف المنزل والحديقة: «واجهة البيت بأعمدتها النحيلة الطويلة ذات الإفريز المزخرف على شكل سعف النخل، برواقة ذي الفتحات المستنيرة التي تشبه تلك الموجودة في منزل تاهوزر، بشبابيكه ذات الأبواب المزدوجة، ببابه الذي يعلوه شكل غريب لمتوازي أضلاع بداخله قلب مغروس فيه صليب[5] وإذا ابتعدنا قليلاً نجد كرمة مقسمة بأعمدة صغيرة مزخرفة بعناقيد العنب[6]وحوضين مملوءين بورد النيل ويلتف حول السور ممر مزروع على التوالي بنخيل الدوم وأشجار التين المصري[7] حيث ينتشر أكثر من بستاني[8].

إذا دخلنا مع تاهوزر إلى منزل بوري فهناك نجد المقاعد المصنوعة من البوص ذات المساند المائلة المدعمة بركيزتين ونجد أيضًا المائدة المستطيلة ذات القوائم الثلاث المحاطة

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٥- ١٣٦

(٢) أي. فيدو ، المرجع المذكور ، اللوحة المضافة الى صفحة ١٣٥

(3) Roman de la Momie, p. 82, et E. FEYDEAU, op. cit., p.187

مقبرة بتامونوف كانت مجاورة لقبرة منتوحتب التي اكتشفها باسالاكوا في الاساسيف قرب الدير البحري وقد قام جوتييه بوصفها .

(4) Monuments égyptiens, pl. XXX.

(5) Roman de la Momie, p. 141-142, et WILKINSON, op. cit., vol.II, p. 119 et 123

(6 (Id. p. 143, et WILKINSON, op. cit., vol.II, p. 148.

(7) Id, p. 143-144, et WILKINSON, op. cit., vol.II, p. 143

(8) Id. p. 146, et WILKINSON, op. cit., vol.II, p. 137

بالزخارف والتي رأيناها من قبل في الفصل الذي خصصه ويلكينسن للأثاث[١]. يمكننا أن نستنتج نفس الشيء إذا ما تحدثنا عن الأسلحة ومجموعاتها المعلقة في منزل الضابط أحمس: كالقميص الجلدي المزدان بصفائح البرونز حيث نقرأ خرطوش الفرعون منحوتاً عليه، الخنجر البرونزي ذو اليد المصنوعة من حجر اليشب الكريم ومفرغة بحيث تسمح بمرور الأصابع، وبلطة المعارك ذات الشفرة المصنوعة من الصوان والخطاف ذو النصل المعقوف». كل ذلك ورد في كتاب ويلكنسن وكتاب الآثار المصرية لبريس دافين.[٢]

الجزء الأخير الذي يختص بالوصف في رواية المومياء يتحدث عن مشاهد الحصاد عند المصريين القدماء والمعروفة من خلال الرسومات التي طلب شامبليون تنفيذها في بني حسن والتي أكملها فيما بعد بريس دافين من خلال ما نقله من مقابر طيبة. إن ويلكنسن قد استخدم الاثنين معاً رسومات شامبليون وبريس دافين، إذًا ليس من المهم معرفة المصدر الذي استمد منه جوتييه مجموعات الحاصدين والجامعين.

إن لوحاته تميزت بالدقة النموذجية : لقد احتفظت لوحاته بنفس الأسلوب الزخرفي الذي يذكرنا دومًا بالمشاهد الريفية التى يمكن أن نراها حتى اليوم فى مقابر سقارة وبني حسن وشيخ عبد الجورنة. وليس هناك ما يدل على ذلك أكثر من الفصل الذي يتحدث فيه عن عودة القطعان[٣]. ليس هناك ما يميز بشدة أصالته أكثر من أغنية الجاموس أثناء درس القمح. لقد أخذت من إحدى الرسائل المصرية لشامبليون.[٤]

لن نتتبع ذهاب وإياب الأشخاص خلال الفصول الآتية[٥]. فلنترك بوري يتسلل هارباً عند راحيل اليهودية التي تسكن في الحي الشعبي مع صانعي طوب البناء، فلنترك

(1) Id. p. 152, et WILKINSON, op. cit., vol.II, p. 192 et 203

(2)Id. p. 171; PRISSE D'AVENNES, Monuments égyptiens, pl. XLVI; WILKINSON, op. cit., vol.I, p. 320 et 332.

(3) Roman de la Momie, p. 184; PRISSE D'AVENNES, Monuments égyptiens, pl. XLI; WILKINSON, op. cit., vol.II, p. 446, 447 et 448.

(4) CHAMPOLLION, Lettres écrites d'Egypte et de Nubie, 12e lettre (ed. 1868).

(٥) الفصول رقم ٩ -١٠- ١١ -١٢ .

الفرعون يجول بخطوات كبيرة واقعاً فريسة لنفاد الصبر والعصبية داخل «قصر الشمال» الذي ليس سوى بهو الأعمدة بالكرنك[1]، فلنترك تاهوزر تقفز سابحة في النيل حتى تتعقب بوري ثم تنهار مبللة، محمومة وشبه ميتة عند عتبة غريمتها راحيل، فلنترك ثامار العجوز تسرع إلى القصر وتشي بتاهوزر فيطير الفرعون ليختطفها ويعود بها إلى منزله. لن نطلب من الملك المقابلة إلا عند عودته إلى الكرنك.

سوف نتوقف قليلاً عند قاعة العرش بزخارفها. كانت على الجدران ألواح غريبة لم يتم وصفها هذه المرة وفقاً لأحد الرسومات بل تم ذلك من خلال نص. فيقول جوتييه واصفاً تلك اللوحات «كانت تقدم ما يشبه العرض العرقي. كنا نرى على هذه الألواح تصويراً لشعوب من أجزاء العالم الأربعة بهيئاتهم الخاصة وملابسهم المميزة. كان على رأس القائمة الرجل الأول من جنس في غاية الجودة وكان يطلق عليه الروتنروم يقوده الإله حورس راعي الشعوب، كان هذا هو المصري يمشي بمظهره الرقيق وأنفه الأقنى إلى حد ما وباروكته ذات الضفائر وبشرته الحمراء الداكنة التي تلفها التنورة البيضاء. يأتي من بعده الزنجي أو النهاسي ببشرته السوداء وشفاهه المنتفخة ووجنتيه البارزتين وشعره المجعد. يأتي بعد ذلك الآسيوي أو النامو ذو البشرة المائلة إلى الصفرة مع أنف أقنى تماماً ولحية سوداء كثيفة تأخذ شكل القرن. وكان يرتدي تنورة مبرقشة مزينة بالخصل المتدلية. وأخيرًا يأتي الأوروبي أو التامهو وهو أكثرهم همجية ويختلف عنهم جميعاً ببشرته البيضاء وعيونه الزرقاء ولحيته وشعره الأحمر. يضع على أكتافه جلد جاموس غير مجهز ويضع الوشم على ذراعيه وساقيه». هنا ينقل جوتييه بمنتهى البساطة النقوش الموجودة في قاع مقبرة سيتي الأول بين سراديب وادي الملوك المظلمة إلى ضوء النهار لتصبح نقوشاً في أحد القصور. وها هو وصف شامبليون: » داخل مقبرة أوزيري الأول. . لقد طلبت رسم مجموعة الشعوب المصورة في أحد النقوش الغائرة ببهو الأعمدة الأول... لقد أردنا تقديم شعوب مصر والبلاد الأجنبية طبقاً لما تقوله الأسطورة. ولدينا هنا أمام أعيننا صورة لمختلف أجناس البشر التي كان يعرفها المصريون.

---

(١) «كان يطوف ببهو الأعمدة ويتوه داخل الغابة الجرانيتية المكونة من مائة واثنين وستين عموداً عالياً وقوياً كالأبراج» (ص٢٠٤)

«الرجال الذين يقودهم راعي الشعوب حورس كان يصل عددهم إلى اثني عشر ولكنهم كانوا ينتمون إلى أربع عائلات مختلفة. الثلاثة الأوائل منهم (وهم الأقرب إلى الإله) كانوا ذوي لون داكن وقامة متناسقة ومظهرها رقيق وأنف أقنى إلى حد ما وباروكات طويلة ذات ضفائر، يلبسون زيّاً أبيض وتطلق عليهم الأسطورة اسم روتنروم وهي تعني جنس أكثر الرجال رقيّاً في الجودة ويُقصد بهم المصريون.

«أما الثلاثة الذين يأتون بعد ذلك فيمثلون مظهرًا مختلفًا: بشرة ذات لون مائل إلى الصفرة أو بشرة تأخذ اللون الأسمر، أنف أقنى تماماً، لحيه سوداء كثيفة تأخذ شكل القرن يرتدون زيّاً قصيرًا ذا ألوان متعددة ويطلق عليهم اسم الناهو.

«ليس هناك أي شك بالنسبة إلى جنس الثلاثة الذين يأتون بعد ذلك إنهم الزنوج ويطلق عليهم اسم عام وهو النهاسي.

«وأخيرا فالثلاثة الأواخر وبشرتهم ذات اللون الذي نطلق عليه نحن اللون الأبيض الوردي أو البشرة البيضاء مع الفرق الدقيق في اللون. أما الأنف فهو مستقيم أو قليل التقوس والعيون زرقاء واللحية شقراء أو حمراء ولهم قامة طويلة وممشوقة ويلبسون جلد الجاموس الذي لا يزال يحتفظ بوبره. وهم من الهمج الموشومين في عدة أماكن في أجسامهم ويطلق عليهم التامهو».(١)

ويضيف شامبليون «إن هؤلاء يمثلون سكان العالم بأركانه الأربعة طبقًا للنظام المصري القديم » وهم سكان مصر والآسيويون وسكان أفريقيا الأصليين وهم الزنوج وأخيرًا الأوروبيون. هذه صورة إجمالية وعرقية لا يستطيع رسام مثل جوتييه أن يتغاضى عنها.

إذا جازفنا الآن بالدخول إلى جناح الملكة تاهوزر نجد أنيتين من الذهب على قاعدتين منحوتتين بفخامة وقد رأيناهما في ما قبل تقريباً في فهرس وقد رسمهما بريس دافين

(1) CHAMPOLLION, Lettres écrites d'Egypte et de Nubie, 13? lettre (ed. 1868, p. 205-206).

وويلكنسن: الآنية الأولى محددة عند القاعدة ومحمولة على رأسين من رؤوس الخيل[1]، أما الثانية فلها غطاء على شكل رأس تيفون ضخم[2]. وإلى جوار تلك الأواني توجد باطيتان (وهي أوانٍ مستخدمة في مزج الخمر) وهما أيضًا من الأواني المعروفة. الأولى يحملها أشخاص يرتدون التاج الأسقفي والذي تميزه حواف عريضة[3]. أما الثانية فهي ذات أسلوب أكثر نقاءً وتأخذ مقابضها الرشيقة شكل حيوان ابن آوى واقفاً ويضع قوائمه على حافة الآنية وكأنه يريد أن يشرب.[4]

لن نمكث كثيراً عند الفصول الأخيرة من الرواية. فنحن هنا نترك علم المصريات ونبدأ في تفسير الكتاب المقدس. لقد فسر جوتييه وهوّل في سرد نص التوراة القصير في كتاب سفر الخروج دون أن يستطيع على أية حال أن يستخلص العناصر التي يمكن لأي كاتب يتمتع بقدر أكبر من الخيال أن يصل إليها بسهولة. إن موسى الأقرن البالغ من العمر مائة عام بلحيته الكبيرة وتجاعيده العميقة ورقبته القوية المملوءة بالثنايا وأكتافه ذات العضلات ويديه كثيرة العقد وعروقه البارزة الذي أوقفه جوتييه أمام فرعون كان لديه عظمة بطل مايكل أنجلو الجبارة[5]. إنه شخصية مهذبة. أما عن المعجزات التي قام بها هارون فنحن نعرفها من خلال التاريخ المقدس. فبعد أن حول هذا الأخير عصاه إلى ثعبان[6]، تدخل موسى بنفسه لإطلاق جروح مصر: تحولت مياه النيل إلى دم[7]، ثم اجتياح الضفادع[8] وأمطار الجراد[9] والصقيع المميت[10] والموت المفاجئ لكل المواليد[11]:

(1) Roman de la Momie, p. 207, et WILKINSON, op. cit., vol.II, p. 347.

(2) Id., p. 267, et WILKINSON, op. cit., vol.II, p. 348

(3) Id., p. 268, et WILKINSON, op. cit., vol.II, p. 347

(4) Id., p. 268, et WILKINSON, op. cit.

(5) Roman de la Momie, p. 270, 271, 272.

(6) Id., p. 275, et Exode, chap. VII, 10,11.

(7) Id., p. 284, et Exode, chap. VII, 20,21 et 22 (1re plaie).

(8) Id., p. 287, et Exode, chap. VIII, 6, 7 et suiv. (2e plaie).

(9) Id., p. 292, et Exode, chap. X, 13 et 14 (8e plaie).

(10) Id., p. 293, et Exode, chap. IX, 23,24 et suivants (7e plaie).

(11) Id., p. 294, et Exode, chap. XII, 29,30 (10e plaie).

فكل شيء يحدث فى الرواية كما هو في التوراة، كل ما هنالك أن ترتيب بعض المعجزات قد اختلف. إن عناصر النهاية قد اقتبست كلها من فصل واحد من فصول سفر الخروج : رحيل الفرعون ومعه ستمائة عربة حربية[1]، وتتبعه لليهود ومقابلته للفارين على شاطئ البحر الأحمر في المكان الذي يطلق عليه «بي - ها - هيرو»[2] يأس واعتراض الشعب اليهودي[3]، المعجزة الأخيرة لموسى، الريح الشديدة[4]، تراجع مياه البحر[5] مرور القبائل، اضطراب الجيش المصري وتفكك العربات الحربية التي انفصلت عنها عجلاتها لحظة عودة مياه البحر إلى مكانها[6]، كل ذلك يتوالى بسرعة لاهثة تحت ريشة راوٍ لم يعد دوره هو تدعيم صور رائعة.

VI

هل من الضروري بعد هذه القائمة أن نبحث طويلاً في القيمة التاريخية والأدبية لرواية المومياء؟.

إن الأحداث تقع في مصر الدولة الحديثة تحت حكم الأسرة الثامنة عشرة أو الأسرة التاسعة عشر أي حوالي ألف وخمسمائة عام قبل الميلاد وهى بالتحديد الفترة التي أجهد فيدو نفسه ليتحدث عنها في كتابة تاريخ العادات المأتمية. وقد كتب جوتييه يقول: «السيد إرنست فيدو يأخذنا في نزهه إلى مدينة رمسيس، يجعلنا نستعرض كل الآثار والمعابد والقصور ومنازل المواطنين والحدائق والميناء والأساطيل الصغيرة. إنه يرسم ويلون ثياب السكان ويدخل إلى الحرملك ويرينا عازفات الموسيقى الجائلات والراقصات وشعوب العبيد الذين كانوا يقومون بالبناء لحساب المصريين والجنود الذين يتدربون في ساحات

(1) Id., p. 299, et Exode, chap. XIV. 7.

(2) Roman de la Momie, p. 301, et Exode, chap. XIV, 9.

(3) Id., p. 302, et Exode, chap. XIV, 11.

(4) Id., p. 302, et Exode, chap. XIV, 21.

(5) Id., p. 299, et Exode, chap. XIV,22.

(6) Id., p. 303, et Exode, chap. XIV, 25.

التدريب وطقوس أمون المقدسة والقبائل الأجنبية التي تطلب ملجأ وقمحاً والقوافل التي تجيء منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام بالجزية، إلخ»[١]، لقد نجح تيوفيل جوتييه باعتماده قبل كل شيء على كتاب فيدو نجح في أن يعطينا صورة صائبة جداً للحياة في طيبة في عهد الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. ولكنه تحاشى أن يزيد في التفاصيل كما تحاشى أن يحصر نفسه داخل حدود ضيقة. فهو لا يذكر اسم فرعون روايته: هل هو أحد الملوك المعروفين باسم تحتمس أم أمنحتب أم هو أحد ملوك الرعامسة؟[٢]

نحن لا نعرف وهذا يعتبر حرصاً من جانبه ما دام أنه حتى نصف قرن مضى لم يكن من المتاح تحديد خروج الاسرائيليين وعبور البحر الأحمر داخل إطار تاريخ الدولة الحديثة. إن الجزء الخاص بعلم المصريات في روايته، هو بالفعل أهم وأقوى من الجزء التوراتي. إذا كانت هناك بعض الأخطاء في التفاصيل فهي أخطاء يتقاسمها مع أخطاء كل كتاب هذا الوقت ولا يمكننا أن نأخذ عليه أنه أخطأ بالنسبة لما قاله شامبليون[٣]. إن علم الأثريات عنده مؤكد وكيف لا يكون كذلك إذا كان مرشدوه مثل ويلكنسن وبريس دافين؟ ولكن إذا كان ويلكنسن يعيد تشكيل الماضي بسطوره ومقاساته وأحجامه فإن بريس دافين يحييه ويرد له الحياة والألوان وكان جوتييه يفضله من بين الاثنين وقد كتب يقول: «إن الفن المصري لم يفسر أبدًا بهذا الجمال[٤] ». ولا ننسى أن بريس دافين هو الشخص الرئيسي الذي تعاون مع فيدو وأمده بنص ورسم مقبرة بتامونوف ورسم أغلبية لوحات كتابه وأقرضه مذكراته وكانت بعنوان مذكرات من مصر التي نشرت في المجلة المعاصرة[٥]. عرف جوتييه بعض الأشياء وبعض الآثار عن طريق ويلكينسن وعن طريق دافين في الوقت نفسه: كان الأول هو غالباً مصدر وصفه لكن الثاني هو الذي

---

(1) L'Orient. vol. II. p.271

(٢) هو بلا شك احد ملوك الرعامسة بما ان قصر مدينة هابو لم يكن موجوداً في عصر الملوك الذين يحملون اسم تحتمس واسم امنحتب ولم يتم بناؤه إلا في عهد رمسيس الثالث.

(٣) قصر الشمال (الكرنك) وقصر الجنوب (الأقصر) وهكذا فهو يخلط القصور بمعابد طيبة الكبيرة : وقصر الضفة اليسرى (مدينة هابو) .

(4) L'Orient. vol. II. p.279

(٥) عام ١٨٥٤ ، عن بريس دافين ، انظر ايضا الجزء الأول ، ص ٢٩٧ - ٣١٩ و ٣٢٦-٣٢٧ .

كان يسمح له باستكمال هذا الوصف بفضل ألوانه وتفسيره الفني ورقة وثراء الرسومات التي قام بتنفيذها.

الوجود الدائم للصورة ومقارنة النص بالرسم كانا يحققان لكل ما يأتي ذكره في رواية المومياء قدرًا كبيرًا من وحدة الأسلوب. إذا كان يوجد خطأ هنا أو هناك فذلك يفسره استبداد الحيرة التي لا يمكن السيطرة عليها قرب النهاية بقراءة المراجع التاريخية. كيف نفسر إذًا البذخ الوهمي للكوخ الذي كانت تسكنه راحيل؟ كيف يمكن لهذا الكوخ المبني من الطين المجفف أن يخفي في داخله أواني ذهبية وفضية وصناديق مملوءة بالمجوهرات وباقات من الزهور النادرة؟ ما نعرفه عن الشعب اليهودي وعن أسره يمنعننا من تصديق هذه التخيلات. هل هذه كانت عادات قبيلة انتهى بها الحال إلى العبودية وكانت تقوم بتصنيع الطوب اللبن والقوالب لبناء قصور الفرعون تحت إمرة المسئولين عن الشئون الملكية ؟ كان جوتييه دائمًا ما يلام على نقص الخيال ولكن هذه المرة بالذات فقد كان لديه من الخيال أكثر مما ينبغي.

التحليل التفصيلي للمزايا الأدبية لهذا الكتاب تكثر وتفيض عن الإطار الذي خططت له هذه الدراسة. لكن وضع الوصف الذي قام به جوتييه في مرتبة أعلى من باقي روايته لا يعتبر إهانة له. إن شخصياته ليس لديها أي شيء يميزها بل إنهم يشبهون ممثلي الأوبرا الصامتين. بقدر ما كانت ملابسهم ثرية ومحددة، كانت شخصياتهم فقيرة وغير واضحة. فهم لا يزالون أبطالاً رومانسيين وحركاتهم المتفق عليها تخالف هذه المشاهد المسرحية العظيمة والمتوحشة، البدائية والرقيقة.

فالأحداث ليست بها أي حيوية وتتباطأ من البداية وتمتد وتطول على مدى فصول كاملة. علاوة على ذلك فإن بعض الإعادة في المواقف والمشاهد يؤكد من جزء إلى أخر على فقر الإبداع الذي يتسم به هذا النص.[١] كما أن التكوين تأثر بالسرعة التي تمت بها كتابة

---

(١) على سبيل المثال فلننظر الى التشابه الموجود بين الفصلين الأول والثاني (الوصيفة نوفريه والراقصات يحاولن دون جدوى تسلية تاهوزر التي تلاحقها صورة بوري) . ونهاية الفصل الرابع (البلاط الملكي بالكامل يحاول تسلية الفرعون الذي تلاحقه صورة تاهوزر) نجد نفس الشيء في نهاية الفصل الثاني تاهوزر تشحب حين تلمح بوري أمام منزلها) وفي نهاية الفصل الثالث (ذراع فرعون ترتعش حين يلمح (تاهوزر وهو جالس على عرشه وهي تدخل إلى قصره) .

هذه الرواية والتي نقلتها لنا شهادة جوديث جوتييه. أما الوصل الموجود بين الأحداث الفرعونية والأحداث التوراتية فهو يتسم بشيء من الرعونة. فنحن نرى أمام أعيننا عرضاً للصور أكثر منه تطوراً للأحداث الدرامية وكل هذه المشاهد المتجاورة لا تصنع تأليفاً. ولكن الأسلوب رائع وبراق واللغة تبسط كل مصادر مفرداتها المتنوعة والمحسوسة بشكل رائع، تلك المفردات التي لا تخشى المصطلحات الفنية وتبرع في وصف الصورة العامة أن تغلف هذا الماضي البعيد فى شرائط قرمزية وذهبية.

إن رواية المومياء قد تم نشرها عام ١٨٥٧ على شكل حلقات ثم نشرت على هيئة كتاب عام ١٨٥٨ وأول من وقع أسيرًا لهذا الكاتب كانت ابنته. لقد انبهرت جوديث جوتييه بأبحاث أبيها حتى من قبل أن يتسنى لها قراءة قصة تاهوزر. من كثرة ما ناولت أباها لوحات بريس دافين وغيره من علماء الآثار كانت قد تزودت هي الأخرى بالمستندات وباتت لا تحلم إلا بالمومياوات. فكانت أمها تسألها :

– لماذا لا تلعبين بالدمية التي أعطيتها لك؟

– لأنها ماتت

– هل كسرتها؟

– لا لم تنكسر

– وعلبة الشغل، ماذا حل بها؟ لقد وجدت كل ما كان بداخلها ملقى على الأرض.

– لقد تحولت علبة الشغل إلى تابوت.

لقد كانت أمي على وشك الغضب ولكن أبي الذي كان مهتماً جداً تدخل قائلاً: إن المتوفاة موجودة داخل تابوتها ويبقى الآن أن نعرف مكان المقبرة. فأحسست بالارتباك واتسم مظهري بالغموض الشديد. لن أفشي سري.

قالت ماريان إنها تعتقد أن المخبأ قد يكون في أحد أحواض الزهور الموجودة في الشرفة والذي وجدته مقلوباً. ذهب أبي بنفسه لمباشرة عملية نبش القبر واكتشف العلبة

بعد فترة وجيزة وعاد بها إلى الغرفة. لقد كانت مغلقة بشرائط من الورق اللاصق ومغطاة برسوم صبيانية تشبه قليلاً الهيروغليفية.

فقال أبي: إذا كانت كل طقوس الدفن متبعة فسوف أحميك ولن تتعرضي للتوبيخ. وفتح العلبة ووضع نظارته أحادية الزجاج.

ظهرت دميتي وقد كانت مغلفة بعناية بالشرائط وكان الوجه موضوعاً بدقة في قناع من الورق الذهبي المأخوذ من أحد أصابع سكر التفاح وكان يحوط بها كل أنواع الأشياء الصغيرة التي فهم أبي مغزاها جيدًا. لم يتم التغاضي عن أي من التفاصيل حتى أنني قمت بسرقة بعض السنابل من إحدى القبعات لوضعها بجوار المتوفاة. بعد ذلك سمحوا لي بقراءة رواية المومياء مكافأة لي على مساهمتي في إنجازها. وقرأتها بانتباه فاق ما كانوا يعتقدون». (١)

إن تأثير رواية المومياء لا يمكن التغاضي عنه وجدير بالملاحظة أن فلوبير أخذ يكتب سالمبو بعد نشر رواية المومياء مباشرة. وقد ذهب أرنس هوساي بطل رواية سالومبو إلى حد قول أن جوتييه هو من عرض عليه الفكرة والإطار. على أي حال فبعض مشاهد الرواية القرطاجية قد تم استلهامها من الرواية الفرعونية.(٢)

إن ذكرى تاهوزر عادت لتعرض نفسها مرة أخرى على جوتييه بعد مرور عشر سنوات خلال زيارته لمتحف علم الجنس البشري الذي أقيم في الجناح المصري للمعرض الدولي عام ١٨٦٧، كان قد تم استلام عدة صناديق تحتوي على مومياوات وكانوا يستعدون لفك إحداها في حضور عدد من الأطباء والعلماء والفنانين ورجال الأدب. فكتب جوتييه يقول: لقد أثير فضولنا إلى أقصى درجة. من يشرفوننا بقراءة ما نكتب سوف يعرفون السبب.

---

(1) Le Collier des Jours. p. 262

(٢) انظر الجرنون كوملان، رواية المومياء و سالمبو (الفرنسية ربع السنوية، سبتمبر١٩٢٢، ص ١٨٣-١٨٦

فالمشهد الذي سوف يتم أمامنا في الحقيقة قد تخيلناه ووصفناه من قبل في رواية المومياء(١). دقة التمهيد قد تم تأكيدها بصورة جلية. لقد كانت المومياء أيضًا لسيدة ولكن السيدة نسكونس ابنة حورس ورونا لم يحتفظ بالنموذج الشاب والأناقة الرائعة لتاهوزر.

كانت عينها المطلية بالميناء ذات ثبات مخيف وكان طرف الأنف منخفضًا «لإخفاء فتحة المشرط التي تم من خلالها تفريغ الجمجمة من المخ »، وكانت هناك ورقة ذهبية تغلق الفم. «كان الجذع يظهر بشرته المائلة إلى الحمرة وعند تعرضه للهواء يبدو عليه شكل زهرة زرقاء تشبه عفن اللوحات تُظهر على الجنب فتحة المشرط التي تم من خلالها تفريغ الأحشاء وتخرج منها نشارة خشب عطري مختلط بمادة الراتنج اللزجة على شكل حبيبات تشبه الصمغ كما يخرج الصوت من الدمية المفتقة. كان الذراعان الهزيلان ممددين والأيدي العظمية ذات الأظافر الذهبية تتصنع في حياء حركة فينوس عائلة مدسيس»(٢).

كم يتناقض هذا الوصف الواقعي مع الوصف الوارد في الرواية؟إن مومياء السيدة نسكونس تظهر بمظهر مومياء تاهوزر ولكنها لا تتمتع أبدًا بنفس درجة الحفظ الخارق الذي أشار إليه باسالاكوا ولذلك فإن زائر المعرض الدولي عام ١٨٦٩ لا يشعر نحوها بأي ميل أو بالحنين الوطني الذي شعر به الروائي في عام ١٨٥٦ تجاه أختها من طيبة. وكان جوتييه يقول للأخوين جونكور Goncourt: «هناك معنيان لحب الأشياء الغريبة: الأول يمنحنا حب الأشياء الغريبة عبر المكان مثل حب الذوق الأمريكي أو السيدات ذات اللون الأصفر أو الأخضر... إلخ. أما المعنى الآخر وهو الذوق الأكثر سموًا الميل إلى الأشياء الغريبة عبر الزمان، فمثلاً قد يطمح فلوبير في ممارسة الفسق في قرطاج، قد يميل إلى امرأة قرطاجية، أما أنا فليس هناك ما يثيرني مثلما تثيرني مومياء». عندما يفضي تيوفيل الطيب بأسراره فإنه يتفاخر. إن مومياء السيدة نسكونس قد تركته الآن باردأ والحب الذي شعر به تجاه تاهوزر، إذا صدقناه فعلاً، لم يكن أبدًا بالقوة التي تسمح له أن يهتدي إلى

(1) L'Orient, ed. Charpentier, p.279

(2) L'Orient, ed. Charpentier, p.107-108.

روحها ويرد إلى الجميلة المتوفاة وعيها. فهو لم يحاول تجديد الجو العام والنفسي لهذا الزمن البعيد. فهو يجهل تقريباً كل شيء عن الدين، عن القانون، عن الحكومة، وعن عادات الحياة والفكر في المجتمع الفرعوني.

هذا هو ما يفصل بينه وبين فلوبير. إن سالمبو هى حقاً رواية اجتماعية تبحث في المجتمع القرطاجي وقد اهتم مؤلفها أن يوضح داخل إطار تاريخي نموذجي مختلف أنواع البشر الأفارقة.

أما رواية المومياء فليس بها من شيء مصري سوى الملابس والديكور. أما النفوس فقد ظلت رومانسية. لقد أحب جوتييه الماضي للماضي دون أن يشغل باله كثيرًا بالبشرية الراقدة بداخله فلم يهتم بإنعاشها. لا يوجد أي شك في أن هناك فرقًا بين عمله الأول المستلهم من مصر: «ليلة من ليالي كليوباترا» و«رواية المومياء» ويجب أن نعترف له بالتقدم الذي حققه.

لقد وضح لنا المجهود الكبير الذي قام به نحو الموضوعية واهتمامه المتزايد بالدقة التاريخية ومثابرته في دراسة المستندات الأثرية الخاصة بهذا الوقت ورسوخ أسلوبه الذي أصبح أكثر رزانة وأكثر واقعية دون أن يفقد بريقه. ولكن خياله الماهر في إحياء المستندات وإنعاش اللوحات المنقوشة وتلوين السماء والجبل والنهر كان في أغلب الأحيان عاجزًا عن الولوج إلى أعماق النفس. رغم مجهوده العظيم فقد ظل جزء من التاريخ مغلقاً أمامه.

هذا الضعف لن يكون له وجود حين يقتحم عالم الأساطير. إن رومانسيته القديمة سوف تتوافق أكثر مع أوهام الحكاية الشرقية ومصر العربية.

****

الفصل الثاني

مصر العربية في الحكايات ورقصات الباليه

I

الليلة الثانية بعد الألف هو أول عمل يكتبه جوتييه ويكون ذا إلهام عربي . وهو معاصر لقصته قدم المومياء التي كتبها عام ١٨٤٠ بالرغم من أن الليلة الثانية بعد الألف قد نشرت عام ١٨٥٧ في كتابه روايات وحكايات، إلا إنها كتبت عام ١٨٤٢ فهذا ما يقوله لنا الكاتب خلال سرده إذا أخذنا بما يقوله لنا في تمهيده الرائع عندما كان يصف زي زائرتين غريبتين جاءتا ودقتا على بابه فأضاف قائلاً: «قفطان برتقالي اللون مقصب بالزهور الفضية وطربوش قرمزي محلى بشرابة طويلة من الحرير كانا يكملان هذه الزينة الغريبة بالنسبة لمن يريد أن يقوم بزيارة أحد في باريس عام ١٨٤٢، هذا العام الحزين»[1].

فلنتخيل جوتييه في الشكل الذي أراده لنفسه، منتظراً الإلهام مسترخياً أمام مدفأته يؤرجح نعله المغربي على أطراف قدمه ويركز نظره على لوحة تمثل منظراً شاملاً للقاهرة رسمها «الأربعة الذين لا يفترقون» وهم الرسامون فوشير Feuchères وسيشان Séchan وديترليه Dieterle وديسبليشان Despléchins، وهذا ما يدل على ثراء وأهمية مسكنه كشاعر. كم هو لطيف أن يغوص المرء في نعاس خفيف يشبه ماء البحر الذي ترك كثيرًا من الحالمين الشرقيين عقولهم للتلاشي بداخله، تلك العقول التي اهتزت من قبل بفعل الحشيش والأفيون![2].

(1) Romans et Contes, p.321. .

(٢) المرجع السابق ص ٣١٨

لقد استسلم لتلك الغفوة الشهوانية حين سمع فجأة جرس الباب . انفتح الباب وها هو يظهر أمامه خادمه الزنجي برأسه الذي يشبه الصوف أدولفو - فرانشسكو - برجيالا - عبد الله بن محمد وهو حبشي المولد، كان مسلماً في ما قبل ثم تحول إلى المسيحية(١).

ظهر عبد الله ليعلن عن وصول سيدتين شابتين ترتديان زيّاً تركيّاً من سترة من القطيفة وقميص من القماش الشفاف المقلم وسروال واسع منتفخ ينتهي بساقين ضيقتين على الطريقة الألبانية وخفوف مغربية منقوشة ومخيطة بخيوط ذهبية.

إنهما بلا شك اثنتان من عوالم القاهرة، من معارف صديقه دوزا Dauzats. ولكن جوتييه لم يكن على صواب، فالسيدة التي كانت أمامه مصحوبة بأختها الصالحة دينارزاد كانت هي السلطانة شهرزاد بنفسها.

بعد أن نفذت جميع حيلها وأصبحت مهددة من السلطان شهريار بقطع رأسها جاءت تطلب منه فكرة حكاية جديدة لليوم التالي «إن جالان Galland الغبي قد خدع العالم كله عندما أكد أن السلطان شعر بالرضا بعد ألف ليلة وليلة فعفا عني. ذلك ليس حقيقيّاً . لقد أصبح أكثر تعطشاً للحكايات من أي وقت مضى!»(٢) فمال عليها جوتييه وبدأ بطيب خاطر هاو يملي عليها الليلة الثانية بعد الألف .

بالطبع ليس هناك ضرورة أن نقول إن هذا العمل قد تمت صياغته وكتابته بنفس الطريقة وبنفس أسلوب ألف ليلة وليالٍ أخرى(٣).

---

(١) كان تيوفيل لا يستطيع التخلص من هذا الزنجي الذي يعرف عدة لغات ، السكير ، الكسول ، القذر وفي رسالله الى أوجين دو نويي كان يتوسل إليه أن يجد لعبد الله عملاً في الجزائر «إنه لا يريد أن يترك البيت ويعود إليه دائماً . سوف أكون راضياً جداً إذا انتقل إلى جزء آخر من العالم» (إي . برجيرات ، تيوفيل جوتييه ، ص ٢٨٥) .

(2) Romans et Contes, p. 324.

كان أنطوان جالان قد ترجم ألف ليلة وليلة من ١٧٠٤ إلى ١٧٠٨ ، انظر الجزء الأول ص ٣٩ .

(٣) هذا التأويل يجب أن يؤخذ بمعناه الواسع . فقد كان هناك أكثر من طريقة وأسلوب لهذه المجموعة التاريخية من الأساطير التي كان يضاف إليها باستمرار ويتم تعديلها من القرن العاشر حتى القرن الرابع عشر وقد أضيف إلى عناصرها الفارسية والهندية البدائية نصوص من أرض ما بين النهرين وسوريا ومصر .

يحلم الشاب محمود بن أحمد أن يصبح عشيقاً لإحدى الحوريات، ذات يوم، عندما كان ذاهباً إلى سوق القاهرة، قابل بالقرب من جامع السلطان حسن[١] محفة فاخرة تطايرت ستائرها للحظات بفعل الهواء . واستطاع خلال تلك اللحظات أن يلمح بداخلها سيدة شديدة الجمال فمن الطبيعي أنه قد وقع في حبها . بعد ذلك بقليل قابل تلك السيدة بمحض المصادفة في دكان بدر الدين تاجر العطور . لم تكن هذه السيدة سوى الأميرة عائشة ابنة الخليفة . وذات ليلة عندما كان جالساً بشرفته في هدوء ينظم قصيدة شعر في محبوبته جاءت الجارية ليلى تجري نحوه وقد ظهر عليها الرعب وكان يتبعها حراس الباشا وقد حكم عليها بالموت لتفضيلها حب المحظية نورمهال . فيأويها ويحميها . بعد مرور يومين يلاقي عائشة مرة أخرى عند بدر الدين وقد تأثرت الأميرة بحبه وحددت له موعداً في اليوم التالي . حين ذاك قدم إليه عبد أسود أبكم واصطحبه إلى منطقة مدافن مصرية قديمة حيث وجد محبوبته «دون حجاب، متألقة وقد فاقت في جمالها حوريات السماء الرابعة» لكن حين كان مستغرقاً في قراءة أشعاره لم يلحظ التغيير الذي حدث إلى جواره : فقد أخذ جسد عائشة المظهر المضيء لجسد الساحرات و«على أكتافها المرتعشة بدأت ترتسم بشكل غير واضح أجنحة تشبه أجنحة الفراشات». شاعرة باستياء من ألا يكون قد عرفها وخوفاً من ألا تجد أمامها سوى شاعر مأخوذ بتكوينها الخرافي فقد انسحبت في عظمة من شعر بالإذلال. وهكذا لم يسمع محمود بن أحمد عنها ثانية . ولكن كان ألمه يضنيه وحاولت الجارية ليلى التي أنقذها أن تسري عنه وتعزيه بموسيقاها وأغانيها لكن دون جدوى. ومع ذلك فقد تأثر بالمجهود الذي تقوم به وحنوها الواضح عليه، فقام بوضع قبلة على جبينها .

وذات يوم، حين كان ينظر إليها بانتباه، اكتشف تشابهاً غريبًا بينها وبين عائشة. في تلك اللحظة أضيء وجه ليلى وتكونت الأجنحة على اكتافها. الحورية ! الحورية ! «أنا لست الأميرة عائشة ولا ليلى الجارية . اسمي الحقيقي هو بدر البدور...[٢] لقد أردت أن أختبرك

(١) إن طوبوغرافية جوتييه هنا قد استلهمها من إحدى لوحات ماريلا التي تمثل جامع السلطان حسن وكذلك جزء من السوق الذي كان بجواره قديماً ولم يعد موجوداً اليوم .

(٢) بدر البدور اسم يعني القمر عند كمال تمامه .

.. وفاء وتفاني الجارية جعلك تفضلها على السلطانة: إنني كنت أنتظرك هنا... سوف أكون ليلى بالنسبة للجميع وأكون حورية لك وحدك!»[١] .

إن جوتييه في هذه الحكاية الساحرة يضع نفسه فوراً على أرض الخيال، وقد برع في أن يجعل كل زهور الشعر والحلم الشرقي تتفتح فيها . فقد استطاع أن يجعل أغصان رومانسيته المعطرة تتشابك مع فن الأرابيسك الموجود في الأسطورة الإسلامية الفارسية . لقد استطاع أن يستغل قدراته بمهارة للوصول إلى هدفه . فهو لا ينزوي خلف الفكرة كما هو الحال في رواية المومياء بل إنه منح نفسه من وقت لآخر متعة إطلاق ملحوظة ساخرة كما كان يحدث في ليلة من ليالي كليوباترا. هكذا كان يسخر بسرور من كسله المزعوم ! «أما وقد اتخذت قراراً قاطعاً بألا أفعل شيئاً منذ الصباح، فكنت لا أريد أن يزعجني أحد في هذه المهمة الجادة»[٢] . أحياناً يتذمر من القارئ: «إن سلطانك شهريار أيتها المسكينة شهرزاد يشبه جمهورنا كثيراً ؛ إذا توقفنا يوماً عن تسليته فهو لا يقطع رأسنا ولكنه ينسانا وهذا ليس أقل قسوة»[٣]. وأحياناً أخرى يتظاهر بأنه ليس لديه أي ثقة في موهبته «أعتقد أن شهريار لن يسعد بهذه الحكاية وسوف ينتهي به الحال في نهاية الأمر إلى قطع رأس السلطانة المسكينة»[٤].

كيف يمكننا حينئذٍ أن نطلب من جوتييه إعادة بناء تاريخ العالم العربي ؟ فنحن في مملكة الوهم والأسطورة ومدينة القاهرة هنا ليست عاصمة الفاطميين أو الأيوبيين أو المماليك، بل هي مدينة الرؤية والخرافة التي جعلها المؤلف مسرحاً لأحداث قصته على طريقة ألف ليلة وليلة حيث تتداخل ذكرى الفن العربي مع الشعر الفارسي .

الحورية أو الساحرة ليس بها أي شيء مصري . فالكلمة من أصل فارسي وتعني الجنية وهي تطلق على فئة معينة من الساحرات . فتقول بدر البدور : «أنا جنية من الطراز

---

(1) Romans et Contes, p. 350

(2) Romans et Contes, p. 317

(٣) المرجع السابق، ص ٣٢٤ .

(٤) المرجع السابق، ص ٣٢٤ .

الأول كما ترون ذلك من خلال ما لدي من عقيق أحمر ومن خلال أجنحتي»[١]. وقد أصبحت الجنيات مطابقة لذوق العصر من خلال الرومانسية من خلال «الشرقيات» لفيكتور هوجو Victor Hugo وتلك القصيدة لتوماس مور Thomas Moore بعنوان لالا روك التي كانت مصدر إلهام فيليسيان دافيد Felicien David. إن الشاب المصري الذي وقع في غرام عائشة أهدى إليها أشعارًا يبدو أنها تنتمي إلى التقاليد الفارسية أكثر مما تنتمي إلى التقاليد العربية بالرغم من إنه يسكن «في ميدان الأزبكية» الذي نتفق على عدم وجوده بعد في هذا العصر[٢] فإن أشعاره، إذا صدقنا تخاريفه، تستحق «أن تعلق على أبواب المساجد وتكتب بحروف من ذهب إلى جوار أشهر أعمال الفردوسي والسعدي وابن عمر»[٣] وهذا ما كتبه حرفياً. ما يوجد هنا لبس مسلياً وغريبًا، كيف يمكن لأشعار أكبر الشعراء الغنائيين الفارسيين أن تعلق على مداخل المساجد في القاهرة؟ على الأرجح أن جوتييه كتب في موقع سابق من قصته عن بطله وقال : «لقد قام بتسميع معلقات أشهر الشعراء المعلقة على أبواب المساجد». ولكنه هنا وقع في خطأ اشتهر بشدة في الشرق وهو أن المعلقات هي من أشهر قصائد الشعر الجاهلي . وعندما قام حماد الراوية بإعطاء هذه القصائد اسم المعلقات بعد كتابتها بوقت طويل كان يقصد التأكيد على المكانه العالية التي احتلها هؤلاء الشعراء في حركة البرناسيه العربية «مثل النجفة المعلقة في وسط القاعة» وبالأحرى «مثل العقد المعلق في الرقبة»[٤] وهذا هو أصل التقليد الأسطوري الذي قال إن هذه القصائد التي كتبت بماء الذهب قد تم تعليقها على الكعبة في مكة. قام جوتييه بأخذ هذا التقليد وعممه بالنسبة للتقاليد العربية في مصر دون أن يشك في أن هذه المعلقات التي كتبت قبل الإسلام لا يمكن أبداً أن تكون في القاهرة في زمن ألف ليلة وليلة.

وفي موقع آخر يقدم لنا بطله كمناصر للشعر الفارسي الصميم لأنه كان يقول إن محمود بن أحمد كان ينظم الغزل «حيث كانت تتسابق زهور الزنبق الإيرانية وزهور

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٥١

(٢) تم بناء ميدان الأزبكية مكان بحيرة قديمة مسماة على اسم الأمير ازبك ١٤٦٨ - ١٤٩٦ قائد عام السلطان قايتباي وقد تم بناؤه بعد كتابة الف ليلة وليلة التي يرجع تاريخ آخر ما كتب فيها إلى القرن السادس عشر .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٦ . بلا شك كان يقصد عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغنائي في عصر الأمويين

(4) Cf. Clément HUART, Histoire de la literature arabe.

الجوليستان وجميع نجوم المجموعات الإلهية للدخول إلى أبياته»(١). ولكن جوتييه ارتكب خطأ مسلياً عندما جعل بطله يكتب «على ورقة جميلة من أوراق البردي بحروف كبيرة(*) جميلة بالحبر الأحمر»(٢) فلم يعد البردي مستخدماً في مصر في ذلك الوقت بما أن الآيات القرآنية والنصوص الدنيوية كانت مكتوبة فعلاً على الورق .

من ناحية أخرى، نحن نعلم أن اللغة العربية ليس بها حروف كبيرة وأنه فقط في عهد الملك فؤاد الأول وبمبادرة منه تم تنظيم مسابقات للخطاطين والفنانين بهدف تصميم أحرف كبيرة للغة العربية .

هل هذا يعني أن جوتييه لم يبذل مجهوداً لإعطاء قصته الطابع المصري؟(٣) إن قصته لا ينقصها المشربيات والقلل المصنوعة من الفخار والقادمة من الأقصر أو من قنا(٤). الزي الفارسي الذي كانت ترتديه شهرزاد كان مستلهماً من الرسومات التي أتى بها دوزا Dauzats وماريلا من القاهرة : هو نفس الزي الذي كانت ترتديه سيدة من حرم الأمراء، ونجد أن أزياء القصة قد تأثرت بالأزياء المطابقة لذوق العصر التركي التي كانت شائعة في عصر محمد علي . ولكن الكاتب الشجاع تيوفيل يقع في خطأ غريب عندما يصف امرأته الجميلة بأن لها «جفونًا طويلة مصبوغة بالحناء»(٥). في مصر كانت الحناء تستخدم لصبغ الشعر باللون الأحمر، ولصبغ أظافر أصابع اليدين والقدمين، وظل هذا الاستخدام باقياً بين أفراد الشعب حتى يومنا هذا . أما ما كانت تستخدمه الجميلات لصبغ جفونهن باللون الأسود فهو الكحل وليس الحناء . وهناك أيضاً خطأ آخر مسلٍ وقع فيه المؤلف خلال وصفة القصير للحفل الموسيقي العائلي الذي أقامته ليلى لسيدها . فهو يكتب قائلاً : «لقد أخذت الربابة المعلقة على الجدار وكانت مصنوعة من خشب شجر الليمون المضلع

---

(1) Romans et Contes, p. 337-338.

(*) الحروف الكبيرة هي حروف تستخدم في بداية الكلمات في اللغة الفرنسية والإنجليزية وغيرهما .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .

(٣) مع ذلك فإن اسماء الأشخاص ليست بالفعل أسماء مصرية صميمة ، فاسم عبدول ملك هو اسم تركي (بدلاً من عبدالملك) أما اسم عبدول المستخدم بمفرده ما هو إلا خطأ من جوتييه بدلاً من عبده .

(4) Romans et Contes, p. 337

(5) Romans et Contes, p. 324

بالعاج وكانت الذراع مرصعة بالصدف والأبنوس وأخذت تعزف بإتقان نادر الدربكة بالإضافة إلى ألحان عربية أخرى».[١] يبدو أن جوتييه اعتقد أن الدربكة هي لحن شرقي في حين أنها آلة موسيقية شعبية، فهي نوع من الطبول المصنوعة من الفخار أو الخشب مشدود عليها قطعة من الجلد المدبوغ . عند عودة جيرار دي نرڤال وفلوبير من مصر سوف يقصون عليه مشهد احتفالات رمضان وبذلك سوف يختفي هذا اللبس من ذهنه ونجده بالفعل عندما يقوم بكتابة كلمات سيمفونية السيلام وهي السيمفونية الوصفية التي ألفها إرنست ريير Ernest Reyer عام ١٨٥٠ يكتب الجملة الآتية :

«كان صوت الدرابكة يدوي قوياً ...»[٢] . غير أنه لم يعد هناك ما يقال بالنسبة لوصفه للقاهرة تحت ضوء القمر الذي استلهمه كما رأينا من لوحه بانوراميه كانت تزين الحجرة التي يعمل بها .«من هذا الارتفاع كانت القاهرة تمتد أمامه مثل واحدة من تلك الخرائط ذات النقش البارز التي كان الكفار يرسمون عليها مدنهم القوية . كانت الشرفات مزدانة بأصص الزهور ذات الأوراق الكثيفة ومزينه بالسجاجيد، وكان ماء النيل يلمع في الميادين وذلك أنه كان موسم الفيضان . وكانت الحدائق تتدفق منها مجموعات النخيل وأشجار الخروب والتين الهندي، وكانت المنازل التي تشبه الجزر وتفصلها الشوارع الضيقة وقباب المساجد المبنية من القصدير[٣] والمآذن الهزيلة المشكلة بالكامل مثل خشخيشة العاج، وكانت الزوايا المظلمة أو المضيئة للقصور، كل ذلك كان يشكل نظرة سريعة ومرتبة على ما يرام تسر الناظرين . وفي الخلفية كان يختلط لون الرمال الرمادي بلون السماء الأبيض، وتبدو خطوط أهرامات الجيزة الثلاثة غير واضحة وكأنها مرسومة بشعاع يميل إلى اللون الأزرق على طرف الأفق بمثلثاتها الحجرية الضخمة»[٤] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤١ .

(2) Théatre, mystère, comedies et ballets, ed. Charpentier, p. 239

(٣) كانت قباب المساجد في القاهرة في الأغلب مبنية من الحجر والجبس المزخرف بالأرابسك او مقسمة إلى اشكال هندسية غير ان بعض تلك القباب مثل قبة مسجد الإمام الشافعي كانت من الخشب المزين ومغطاة برقائق من الرصاص .

(٤) في رسالته إلى جيرار دي نرڤال «الصحافة ، ٢٥ يوليو ١٨٤٣» استعان جوتييه ببعض عناصر هذا الوصف ، فكتب يقول : «المآذن الهزيلة التي تشبه خشاخيش العاج والقباب المبنية من القصدير والنحاس» ، ولكن الأهرام لسبب غير معلوم كانت تبدو له «تخرق بزواياها الرخامية رمال الصحراء الشاحبه» مسرح ، سريه ، ملهاة وبالية، ص ٢٩٩) وقد كتب فيكتو هوجو سابقاً في الشرقيات في بداية قصيدته مصر : «ثلاثة جبال بناها الإنسان تخرق السماء من بعيد بزاوية مثلثة من الرخام ...» نحن نعرف أن الأهرام تم بناؤها بالحجر الجيري المأخوذ من جبل المقطم وكان بعضها مغطى بالجص .

إن هذه السطور تكفي لإعطاء فكره عن أسلوب جوتييه المتناغم، الملون، الرائع . فهو يعرف كيف يجد الصور الجميلة ونحن نشعر أنها تتوافق مع الطابع الشرقي للنص : «الهواء البارد في الليل وجمال السماء المزركشة أكثر من ثوب الجنية والتي يظهر فيها القمر بوجنتيه الفضيتين وكأنه سلطانة شاحبة من كثرة الحب وتنظر من خلف مشربيتها»[١] .

ليس هناك أروع من حديثة عن الجارية الشابة وهي تخرج من الإناء الكبير الذي اختبأت بداخله حتى تهرب من متابعة رجال الباشا . «بدأت الهاربة ترفع رأسها الجميل عند أطراف الإناء وأخذت تنظر حولها بنظرات الظبي المرتعب ثم أخرجت كتفيها ووقفت فبدت وكأنها قلب رائع الجمال لزهرة من الرخام...»[٢] .

II

يوجد هنا بعض المؤثرات الناجحة التي لم يكن من الممكن إدخالها إلى نص استعراض الباليه الذي كان بعنوان «الجنية» والذي أخذ من القصة في العام التالي. الإيجاز في المشاهد لا يسمح بتوضيح المقارنات أو ازدهار الصور .

تم تقديم «الجنية» وهو باليه رائع من فصلين بموسيقى برجمولر Burgmuller على مسرح الأوبرا في يوم ١٧ يوليو ١٨٤٣، قامت الراقصة الشهيرة كارلوتا جريزي Carlotta Grisi، صديقة تيوفيل جوتييه بدور «الجنية»، أما محمود بن أحمد ذو القد الجميل الذي لم يدم طويلاً فقد قام بدوره م . بوتيبا M. Petipa[٣] وقد تحول اسمه ببسـ' اة إلى أشمت . ديكور الفصل الأول كان عبارة عن قاعة في الحرم . أما الفصل الثاني «فكان المسرح عبارة عن شرفة قصر أشمت المزينة بأواني الزهور كثيفة الأوراق والسجاد الفارسي، إلخ.

---

(1) Romans et Contes, p. 331

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

(3) Théatre, mystère, comedies et ballets, ed. Charpentier, p. 279 .

وكان يظهر في الخلفية منظر على خط مستقيم للقاهرة : العديد من المسطحات المقسمة بشوارع ضيقة كما هو الحال في كل مدن الشرق . تظهر هنا وهناك بعض باقات من أشجار الخروب والنخيل . كما تظهر القباب والأبراج والمآذن . ونرى من بعيد غير واضحة أهرام الجيزة الثلاثة ورمال الصحراء . ويلمح في أحد شبابيك القصر انعكاس ضوء يظهر ضوء القمر بشكل رائع(١) .

إننا نجد هنا الوصف الذي جاء في الليلة الثانية بعد الألف . ولكن إلى جانب العناصر العربية والإيرانية يمكن أن نلمح هنا وهناك في عرض البالية عناصر تركية تدل على عصر محمد علي وتضيف نغمة حديثة خاطئة إلى التناغم الأسطوري الذي تتميز به اللوحة . فلنترك جانباً عوالم القاهرة(٢) ولكن ماذا يمكن أن نقول عن هؤلاء الألبان الذين يطاردون ليلى من شرفة إلى أخرى وعلى الأخص هذا الخادم الذي جهز سلاحه وسدده وقتل على الفور الهاربة المسكينة(٣) .

إن عدد الأشخاص في عرض البالية يفوق العدد الموجود في القصة : فيمر أمامنا على المسرح الآغا روسم والمحظية نورمهال والباشا وحارس السجن وتاجر الرقيق، إلخ، كل ذلك إلى جانب أشمت وجنيته، وتتداخل الخيوط التي تربط كل تلك الشخصيات مثل خطوات الرقص المتلاحقة وتختلط أحداث القصة بإتقان(٤) وقد بدل تيوفيل جوتييه ترتيب الأحداث. في الواقع، أن ملكة الجنيات قد ظهرت لأشمت منذ البداية خلال حالة هذيان ناتجة عن تعاطي الأفيون . فسلمت إليه باقة سحرية غامضة وضعت في منتصفها نجمًا من تاجها، لن يكون عليه إلا أن يقبل تلك الماسة حتى يجعلها تعود إليه كما يريد .

وعندما تلاشت الرؤية وقد أقنعه الآغا روسم الذي يعمل عنده أنه كان ضحية حلم قام أشمت مرة أخرى ينادي على سلطانته المحظية نورمهال . ولكن حينئذٍ ظهرت الجنية

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٨٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٨٧ .

(٤) إن جوتييه تخيل في البداية سيناريو أبسط من ذلك وترك لنا نبذة عنه في رسالته إلى بيرو (المرجع السابق ، ص ٣٠٢ - ٣٠٤).

مرة أخرى، وقد شعرت بالغيظ لإنه يفضل عليها مجرد إنسانه من البشر، فقامت بخطف الباقة السحرية واستطاعت في النهاية أن تفوز بطرد نورمهال التي بيعت مرة أخرى إلى تاجر الرقيق .

في الفصل الثاني أرادت الجنية أن تختبر قلب أشمت، أرادت أن يحبها لنفسها مثلها مثل أي امرأة عادية، دون أي قدرات، دون أجنحة ودون تاج . فاستعارت جسد الجارية ليلى التي هربت من قصر الباشا وقام بقتلها الآغوات والخدم منذ قليل فأعجب أشمت بليلى وتبناها فكان ذلك كافياً لإثارة غيرة نورمهال التي نجحت في طعن حبيبها الخائن دون تدخل ليلى الزائفة التي تبدل اتجاه يدها . أيضاً عندما طلب الباشا، دون أن يعلم بموت الجارية، طلب من أشمت أن يسلمها له رفض هذا الأخير تسليمها . منذ ذلك الحين تم سجنه في برج وتهديده بالموت، وهنا ظهرت له رؤية خداعة ومغرية أضاءت سجنه.

كانت هذه هي الجنية تدعوه لترك الجارية لكن حبه وعرفانه بالجميل لم يتزعزعا وفي اللحظة التي قذف به الجلادون من شباك البرج انفتحت السماء وتلقته واستقبلته إلى جوار الحورية التي استحق دائماً أفضالها في جنة مسلمة «ذات معمار عجيب».

بالطبع اضطر تيوفيل جوتييه إلى التنازل أمام مقتضيات النوع والديكور لقد عقد السيناريو وصعب الحبكة وضاعف عدد اللوحات لكن ليس من الصعب أن نجد في«الجنية» العناصر الأساسية المقدمة في الليلة الثانية بعد الألف . الأسماء لم تتغير والوصف الموجود في القصة يظهر في أغلب الأحيان مرة أخرى في عرض البالية على شكل مبسط ومختصر . أما الفكرة السائدة فهي نفسها من الجهتين ويشرح جوتييه بسهولة رائعة لا تخلو من السخرية في تلك الرسالة التي كتبها لجيرار دي نرڤال وقام بنشرها في ٢٥ يوليو ١٨٤٣، على مدى ثمانية أيام بعد العرض في شكل مسلسل في «الصحافة» ويوجد هنا تعليق ثمين «الأرض التي يرمز إليها أشمت تبسط يديها إلى السماء التي تنظر إليها بحنان من خلال عيون الجنية الزرقاء الصافية اللازوردية» ..... فالمادة تشكو من الجاذبية الأرضية ومن قيودها ومن فساد شكلها وتصبو إلى المثالية، إلى

اللانهـائيـة والأزليـة . أمـا الروح، على العكس من ذلك فـهي بكآبتـهـا المجـردة ترغب في الإحساس والانفعال أو حتى الألم، فقد سئمت من عدم وجود جسد وتعذبها الرغبة في التضحية والهوى .

كانت الجنات دائماً مملة
الألم هائل والمتعة محدودة
ودانتي أليجيري لم يتخيل شيئاً
سوى ملائكة بيضاء طويلة بهالات صفراء .
المسلمون صنعوا من السماء قصورًا كبيرة
لكن على الشخص أن يكون مسلمًا ليقوم بمثل هذا العمل .
إن جنيتنا رغم جمالها شعرت بالملل في العلياء
كم هو تعيس أن تشعر دائمًا بالسعادة
لقد أرادت أن تشعر بمتعنا وحبنا
أرادت أن تصبح إمراة وتتألم مثل البشر
إن الأبدية تدوم ! فماذا نفعل إذا لم نحب ؟
وقعت ليلى في غرام أشمت من يستطيع لومها؟[١] .

إن أشمت والجنية أي المادة والروح، الرغبة والحب يلتقيـان في نشـوة الحب ... إن الأرض هي حلم السماء والسماء هي حلم الأرض، تلك هي الفكرة الرئيسية للقصيدة كما تسير بشكلها الطبيعي[٢] .

كيف تمت كتابة هذه القصة وإلى أي مدى استطاع جوتييه أن يستفيد من معلوماته عن مصر العربية ؟ أولاً لقد فكر جوتييه أن يزود نفسه بالاطلاع على المراجع لدى صديقه جيرار دي نيرفال الذي كان موجوداً بالفعل في القاهرة . لكن المعلومات التي أرسلها له هذا الأخير وصلت إليه في وقت متأخر جداً ولم تكن الأحداث المصورة لتتوافق مع زينة

(١) لقد أراد جوتييه في البداية كتابة «الجنية» على شكل قصيدة ، لكنه عدل عن ذلك بحجة أن أحداً لن يقرأها وهذان المقطعان هما بلا شك ما تبقى . انظر مسرح ، ص ٢٩٤ .

(2) Théatre, mystère, comedies et ballets, ed. Charpentier, p. 296-297

وزخرفة الشرق الذي كان يحلم به . «أنا أشكرك جداً على التفاصيل المحلية التي أرسلتها إلي والتي لم تصلني إلا بعد أن كنت قد اتخذت قراري، ولكن كيف لي أن أضع بين كومبارس الأوبرا هؤلاء الإنجليز الذين يرتدون أحذية من الكاوتش ويضعون على رؤوسهم قبعات من النسيج القطني المضلع وأحجبة خضراء تقيهم من التهاب العيون، وهؤلاء الفرنسيين الغرباء الذين يرتدون ثيابًا رثة مطابقة لذوق عام ١٨١٦، وهؤلاء الأتراك المثيرين للسخرية الذين يرتدون زي محمود كما يرتدون سترات ذات عرى مزخرفة، وطرابيش مغروزة حتى أعينهم ؟ أما زي الفلاحة الذي وصفته بأنه أنيق والذي يتمثل في جلباب مشقوق من الجانبين من الأبط وحتى الكعب . فلم يكن من الممكن أبداً تنفيذه إلا بتعديلات قد تنزع عنه طابعه المميز . مع ذلك، أنا أعتقد أنك سوف تكون سعيداً عند عودتك بديكور الفصل الأول الذي يمثل قاعة داخل حرم أشمت. إنها لا تشبه تلك المقاهي التركية المزينة ببيض النعام والتي يكون دورها في عروض البالية والأوبرا هو إعطاء فكرة عن الفخامة الشرقية. إنه ديكور داخلي حقيقي مدروس وذو دقة متقنة. ها هي الجدران المغطاة بالجص والتلبيسات المربعة اللامعة وتجويفات السقف المزخرفة المصنوعة من خشب الأرز والقباب المشغولة كخلايا النحل والأواني ذات الأجنحة العريضة المليئة بالورود وأعشاب الزينة، وهناك في الظل في أخر القاعة توجد الأريكة الطويلة التي تدعو إلى الراحة والخزانة التي ترص بها أواني الشراب وأباريق القهوة والغليون: إنه فعلاً ديكور قابل للسكن ولن يشعر فيه الإنسان المؤمن بكثير من الغربة»[1] .

دون شك أن جوتييه قد قام بمجهود يستحق الثناء لتحقيق هذا الجو المتناغم الصحيح . وهذه القاعة من قاعات الحرم قد قام جوتييه بتأسيسها إما مستعيناً برسومات الرسامين الذين يعرفهم وإما مستعيناً بمنحوتات باسكال كوست Pascal Coste أو جيرو دي برانجي Girault de Prangey[2] ولكننا اليوم أكثر تشدداً وقد لا نسعد مثل جوتييه

(1) Théatre, mystère, comedies et ballets, ed. Charpentier, p. 298

(٢) لم تكن لوحات بريس دافين قد نشرت بعد في عام ١٨٤٣ .

بديكور هذا المشهد، فالبوابات المزدانة بالبسط (السجاد) تشذ داخل هذا الإطار العربي البدائي الذي كان قد اختاره[١] .

لن نناقش مرة أخرى المنظر البانورامي الجميل للقاهرة الذي كان على خط مستقيم حيث رخام الأهرام وطلاء القباب بالميناء يثير لدينا بعض التحفظات . لقد تم تنفيذ رقصة خطوة النحلة طبقاً للوصف الذي قام به دوزا في كتاب «خمسة عشر يوماً في سيناء»، لألكسندر دوماس Alexandre Dumas[٢] ومن التناقضات العجيبة أن كارلوتا جريزي قدمت تلك الرقصة الشهيرة المليئة بالإيحاءات على مسرح الأوبرا الملكية في الوقت الذي كان ممنوعًا فيه تقديمها في القاهرة[٣] وكان المسافرون يضطرون إلى طلب تلك الرقصة من العوالم المسكينات المنفيات في صعيد مصر بعد أخذ كثير من الاحتياطات ودفع الكثير من البقشيش . أولاً كان يجب تنفيذ الأزياء طبقاً لإرشادات الرسامين، فكتب جوتييه قائلاً: «كنت أذهب إلى ماريلا لأتزود بالألوان المحلية ... فكان يفتح لي علبة بلطف لا ينضب وكان يرسم لي ويسمح لي بنقل رسومات أزيائه التي أحتاج إليها . لقد قام أيضاً بإعارتي قيثارة عربية صغيرة ذات ثلاثة أحبال مصنوعة من ثمرة القرع وذات ذراع طويلة من الأبنوس والعاج وهي تلك القيثارة التي استخدمتها الجنية في مشهد الإغراء الموسيقي»[٤]. لكن الرسامين والشعراء كثيراً ما يكونون غير قادرين على التحكم في المصائر . وقد أضاف جوتييه قائلاً: «صحيح أن يقال أنه فيما عدا الآنسة دلفين ماركيه Delphine Marquet[٥]، ما من راقصة قبلت أن تمتثل لإرشادات ماريلا ولخيبة أملي الكبيرة فضلن جميعاً ارتداء زي سلطانة تركية وهذا ما أوضح لي ابتذال اللون المحلي في الرقص الإيقاعي».

---

(١) في الليلة الثانية بعد الألف كانت الأواني الخزفية البيضاء والزرقاء ذات طابع بربري لكن في بالية الجنية كانت على العكس ، فقد كانت الأواني ذات طابع ياباني وكان ذلك يضفي اللون المحلي حيث كان أثرياء القاهرة كثيراً ما يشترون أوانيهم الخزفية من الصين واليابان . ولتأكيد ذلك يكفي زيارة بيت الشيخ السحيمي في الموسكي (القرن الثامن عشر) .

(2) Théatre. mystère. comedies et ballets. ed. Charpentier. p. 304

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٠١ .

(4) Portraits contemporains. p. 240.

(٥) التي قامت بدور نورمهال .

III

لكن جوتييه لم تثبط عزيمته بل يمكن القول أنه كان راضياً وهذا ما صرح به في رسالة كتبها إلى جيرار دي نرفال . فبعد ذلك بسبع سنوات قام جوتييه بالعمل مع أحد الموسيقيين لتقديم «مشاهد من الشرق» وقد استعار جوتييه أحدى أفكار «الجنية» واستعان بها في كتابة نص موزون ومنظوم أطلق عليه إسم السيلام للسيمفونية الوصفية التي ألفها إرنست ريير عام ١٨٥٠، وهي عبارة عن متتابعة من خمسة لوحات مستلهمة من الفن الأفريقي سميت اللوحة الأولى باسم «القوم» والثانية باسم «رازية والراعية» والثالثة باسم «مؤامرة الجن» والرابعة باسم «لحن المساء» والخامسة باسم «الدهسة». كانت اللوحة الأولى تقدم مشاهد لفرسان ومحاربين ورعاة وكانت مقتبسة من ديكور وعادات شعوب شمالي أفريقيا . أما اللوحتان الثانية والثالثة فكانتا ما بين الجزائري والمصري واللوحة الأخيرة لم تكن إلا مصرية .

كان الصيد في الشرق يتم عن طريق التعاويذ والغناء والرقص والجن الذي يتسلط على البيوت . وقد عبر أدولف لولو Adolphe leleux في لوحة من لوحاته عن واحد من هذه المشاهد المليئة بالتعاويذ والتي شهد جوتييه بعضها في قسطنطينة(١)، وقد أعيد عرض هذه اللوحة في أحد المعارض الحديثة . لكن بالطبع كان جيرار دي نرفال قد حدث جوتييه أكثر من مرة عن الجن والغول والعفاريت .

وكل تلك الأرواح الموجودة في الأساطير العربية والتي كان جوتييه يتابع جلساتها السرية والغامضة في مصر . الصوت الذي تطلقه جوقة الساحرات «يو يو يو يو» هو ذلك الصوت الذي يمكن أن نسمعه حتى الآن في مصر كثيراً في الأعياد الشعبية والجنازات .

أما عن لوحة «لحن المساء» فهي لا تستدعي تعليقاً طويلاً . نلاحظ فقط أن الجملة التقليدية التي يقولها المؤذن تعلو فوق النخيل والمآذن «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» قد

(١) لقد سافر تيوفيل جوتييه إلى الجزائر في عام ١٨٤٥ للمرة الأولى وأكثر ما أثار انتباهه كانت العروض الصاخبة اللامعة مثل رقصة الأيساواس في بليدا ورقصة الجن في قسطنطينة . "التي كانت مليئة بحركات الرعشة والشعور المتطايرة والأذرع الهائمة الجذوع المختلجة والأعناق التي تهذي والكعوب الصغيرة التي تدق على البلاط مثل حوافر الغزلان.
Loin de Paris. Paris. 1865. p. 78)

قام جوتييه بتشويهها بصورة محزنة .. أو يكون عامل المطبعة هو من قام بذلك فنجد «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» أصبحت بقلم جوتييه «لا إله إلا الله أو محمد رسول الله»[١].

أما بالنسبة للوحة «الدهسة» فيبدو أنها أضيفت إلى النص الأصلي للسيلام إثر رسالة تلقاها جوتييه من فلوبير أو من مكسيم دي كوم . وبالفعل تم عرض السيمفونية الوصفية لريير على المسرح الإيطالي يوم ١٧ مارس ١٨٥٠ . غير أن فلوبير ومكسيم دي كوم حضرا في مصر في شهر يناير ١٨٥٠ موعد عودة الحجاج من مكة وحضرا عرض الدهسة . وقد تأثرا كثيراً بهذا العرض و كان ذلك واضحًا في الرسالة التي أرسلها فلوبير إلى والدته يوم الثالث من فبراير والجزء الذي خصصه مكسيم لهذا العرض في كتابه «Le Nil» [٢] وكان هذا الجزء على شكل رساله إلى تيوفيل جوتييه لقد عرف جوتييه من قبل هذا العرض الهمجي الضخم من خلال كتاب «Le voyage en Orient» ومن خلال مناقشات جيرار دي نرفال. ولكن نبأ حضور صاحبيه لهذا العرض قد أيقظ دون شك ذكرياته وحرك خياله حتى وإن كان لم يقرأ ما كتبا من وصف فإن هذا النبأ قد دفعه إلى تناول هذا الموضوع المذهل مرة أخرى وإضافته كنهاية كبيرة للسيمفونية الوصفية لريير[٣] .

IV

هذا هو الإلهام العربي لدى جوتييه، لن نطلب من قصصه القصيرة ورقصات البالية نفس الدقة الأثرية الموجودة في «رواية المومياء Roman dela momie»، إن إسلام جوتييه أقل صدقاً من مصر الفرعونية، إن صورة الشرق لديه تكون أحياناً غير حقيقية واللون المحلي يأخذ ألوان الأحلام الباهتة لكن هذا هو ما يجعل أعماله الصغيرة جذابة وإنسانية. فنشعر أن تلك الأعمال هي محاولات هروب مثل فصول من حياته النفسية. أليست الليلة الثانية بعد الألف La Mille et deuxième nuit تصريحًا من جانبه ؟ لقد كان جوتييه

---

(1) Théatre, mystère, comedies et ballets, p. 240 .

(٢) انظر اعلى ، ص ٩٤ Le Nil, p.63-64

(3) Théatre, mystère, comedies et ballets, p. 243 .

لقد قام بيدا Bida بعرض رسم رائع للدهسة في صالون عام ١٨٦٠ .

يجد حضارتنا الحديثة ذات شكل رديء، متواضعة ومختصرة . وكان خياله ـ لأنه مهما قيل فهو لم يكن سوى خياله ـ يسرع لنجدته ويشكل له حسب طلبه عوالم بعيدة أو مندثرة وينقله إلى ديكور من الإبداع والهوى . كتب جوتييه الليلة الثانية بعد الألف والجنية والسيلام دفعة واحدة وكتبهما بمتعة ولذا فنحن نشعر بأنهما جميعاً إبداعات وقتية. لقد تمسك جوتييه دون شك بإعطاء جو قصصه اللون الشرقي الذي يسبب الإحساس بالاغتراب، وقد كان هذا هو الانطباع العام في مجمله. ولكنه لم يلتزم بالأبحاث المضنية التي فرضها على نفسه لكتابة رواية المومياء وليس هناك ما يدل على هذا التطبيق المنهجي الذي أراد به إعادة تشكيل مصر القديمة. كل ذلك ليس مهمّاً ! فهذا البهاء غير الواضح يعجبه ويستوقفه . فهو يشعر بالفرحة حين يتأمله وهكذا هرب من وجوده كصحفي وعمله الشاق في الأدب الذي يعج بالمهام المضنية والذي يضطر إليه للوفاء بمسئوليات الحياة. تيوفيل أيها المسكين ! إنه لا يستطيع أن يفعل ما يشاء، أن يستقل القطار أو الباخرة للقيام بجولة حول العالم فيتدبر أمره ويقوم بهذه الجولة داخل غرفته! إن حكاياته وقصصه ورقصات الباليه تعد لا شيء، فما هي إلا بضع صفحات أو حتى بضع مقطوعات شعرية قد تبدو قيمتها الأدبية ضئيلة، فهي بالكاد تحتوي على موضوع وغالباً يكون الهيكل أنفس من الحجر المركب عليه . لكنها جميعاً رؤى خفيفة وبراقة، إنها دعوات شجية للرحيل .

****

الفصل الثالث

رحلة إلى مصر عام ١٨٦٩

I

كتب جوتييه إلى مكسيم دي كوم قائلاً في ١٣ ديسمبر ١٨٥١ «إن لدي شعورًا صغيرًا بالغيرة من سعادتكم وأحسدكم على وضعكم.. يجب علي أن أسرق بنك فرنسا أو أقتل بعض البرجوازيين وأنضم إليكم»[1] في الواقع، وقد استطاع في العام التالي أن يقوم برحلة إلى القسطنطينية ومنها كتب يقول: «من سافر سيسافر. العطش إلى الرؤية مثل العطش إلى الماء يهيج بدلاً من أن يهدأ كلما شعرنا بالارتواء. ها أنا في القسطنطينية وأحلم فعلاً بالقاهرة وبمصر»[2].

كان هذا الإحساس بالحنين يتغذى بعناية بذكريات أصدقائه جيراد دي نيرڤال، فلوبير ومكسيم دي كوم ويتغذى أيضاً على كتابات الرحالة المتعددة في عصر النظام الملكي في يوليو والسنوات الأولى للإمبراطورية الثانية. كما كان هذا الإحساس يتغذى أيضاً على أعمال رسامي الشرق. هؤلاء الرسامون الذين كان جوتييه يشير إليهم في كتابه «الفنون في أوروبا» ١٨٥٥ أو في صالوناته السنوية.

كان جوتييه من أكثر النقاد الفنيين الذي ساهموا في انتصار ما كان يسمى بالفن التشكيلي الشرقي على المقاومة الأكاديمية. كذلك كان من أوائل المساندين للرومانسية كما تأكد من تفوق الاستشراق. على أية حال فإن الرومانسية و الاستشراق مرتبطان.

إن الشرق عام ١٨٣٠ بما فيه من مزيج عرقي ومجتمع حيوي وهمجي وتعصب

(1) E. Bengerat, Théophile Gautier, Lettres, P. 291

(2) Canstantinople, P.5 .

ديني، كان يضيف إلى فنانينا رؤية متألقة وواضحة. وكانوا هم سعداء بتلك الرؤية التي ساعدتهم على مواجهة مدافع حركة الكلاسيكية المزيفة. ومما سهل مهمة شخص مثل تيوفيل جوتييه هو تزامن ظهور أعمال الرسامين المستشرقين: فقد دخلوا جميعًا إلى خشبة المسرح في وقت واحد، فمن خلال دي لاكروا Delacroix عرفنا المغرب ومن خلال دي كوم عرفنا تركيا وآسيا الصغرى كما عرفنا مصر من خلال ماريلا. ولا ننسى أيضاً تأثير غزو الجزائر على فن الرسم الفرنسي الذي تبعه فنانون مثل هوارس فرنيه Horace Vernet ودوزا، أما الجيل التالي مثل شاسيريو Chassériaux، فرومونتان Fromentin، بيلي Belly، برشير Berchère وجيروم Gérome فقد استطاعوا التحرر من هذا التأثير. وبذلك استطاعوا استغلال نجاح من سبقوهم بحرية وبأساليب مختلفة[1]. وبذلك يعود إلى جوتييه الفضل في مساندة الفن التشكيلي الشرقي والرومانسية، فقد ساند جوتييه الحركتين بإيمانه بهما وبنقده وبموهبته.

كان جوتييه مترقباً لكل ما يشير إلى الشرق. ليس هناك ما يفوته. تارة رسم دقيق من رسومات بيدا Bida أو كرابليه Crapelet وتارة أخرى تكوين حكائي من رسومات جيروم ولوحة صغيرة مذهبة من لوحات ت. فرير Th. Frere ففي عام ١٨٥٧، عرض بيلي لوحته «فيضان في مصر» وعرض جيروم لوحته «مجندون مصريون جدد يعبرون الصحراء» ولوحته «صلاة في منزل قائد قرنقوطي» كما عرض كرابليه لوحات جواش رائعة مثل «شارع من شوارع القاهرة» و «منزل شرقي من الداخل» كم من رؤية جذابة! في صالون عام ١٨٥٩ تم عرض أربع عشرة لوحة من لوحات فرير رسمت في مصر، بالإضافة إلى «لوحات بيلي» «سد على ضفة النيل» و «مراكب على النيل» ولوحة تورنمين Tournemine «رحيل قافلة» وفي صالون عام ١٨٦٠ تم عرض لوحات برشير Berchère وتماثيل ممنون الضخمة و «سهل طيبة» و «رياح السموم» ولوحة بيدا «الدهسة». من ١٨٦٣ إلى ١٨٦٧ عرضت لوحات جيروم الشهيرة «السجين»، و«بائع الرقيق» و«بائع

(١) عن الفروق بين الاستشراق عام ١٨٣٠ على طريقة دي كوم وماريلا والاستشراق الأكثر تحفظاً، غير الواضح والأحادي اللون على طريقة فرومنتان والاستشراق المتلألئ الرائع لعام ١٨٦٠ على طريقة زيم Ziem وجيروم، انظر:
Jean ALZARD, L 'Orient et la peinture, au xtx siecle, d'E. Delacoix à A. Renoir, plon, 1930.

الملابس» وعام ١٨٦٧ عرضت لوحة برشير «تجمع القوافل» ولوحة بيدا «مذبحة المماليك»(١) في صالون عام ١٨٦٩ خصَّ جوتييه بالتقدير والمديح لوحتي جيروم(٢) لوحة «بائع القاهرة الجائل» واللوحة الشاعرية «رحلة في الحرم» كما ذكر في مديحة أيضاً لوحة بيلي «احتفال ديني في القاهرة» ولوحة برشير «جر السفن بالحبال عند سد قناة المنزلة».

ولكن ذكرى ماريلا على الأخص كانت تلح عليه. كان يجب رؤية الحمية التي عرض بها في معرضه الذي استعاد فيه الماضي عام ١٨٦٠ والكلمات الحماسية التي تحدث بها عن «مدينة الأموات في القاهرة»(٣) وعن تلك السماء الصافية، الدافئة التي تدور بها النسور والقباب السمراء الذهبية التي يشوبها الضوء، والمآذن التي تبرز على خلفية من التلال النحيلة، وعن هذا الشعور بالصمت والحزن وتلك الحرارة بلونها القوي الجاف والحزين التي تستطيع عبقرية ماريلا أن تعبر عنها.

كيف يمكن نسيان هذا الافتتان الذي سببته لوحاته الأولى. إن جوتييه يدين إليه بفضل اكتشاف الشرق. «ميدان الأزبكية بالقاهرة ! ليس هناك أي لوحة استطاعت أن تترك لدي شعورًا أعمق ولا أكثر تأثيراً على المدى الطويل. إنني أخشى أن اتهم بالمبالغة إذا قلت إن هذه اللوحة فجرت عندي الحنين إلى الشرق. لقد أحسست أنني تعرفت للتو على وطني الحقيقي»(٤).. ليس هناك في ذلك أي إفراط، لا ننسى أن جوتييه كان رساماً قبل أن يكون كاتباً وإنه قد احتفظ في مجال الأدب بمزاجه كرسام. لا تأثير أصدقائه فلوبير ومكسيم دي كوم ولا تأثير الغالي جيرار دي نيرفال بل هو تأثير ماريلا الذي نمّى لدى جوتييه هذا الفضول المتعطش إلى الشرق. «إننا نصنع لأنفسنا مدنًا تمنينا أن نراها

---

(١) كان بيلي قد حضر إلى مصر عام ١٨٥٠ ، ١٨٥٥ ، ١٨٥٦ ، ١٨٥٧

Cf . Conrad de mandach Léon Billy Gazetle des Beaux - Arts. janvier - février 1913

وكان كرابليه قد جاء إلى مصر عام ١٨٥١ و ١٨٥٣ - عن برشير إنظر الجزء، الثالث ، الفصل الرابع.

(2) Tableaux à la plune. P. 304 .

(3) Tableau a la plume. P. 190 .

(4) Revue des Deux mondes. ler juillet. 1848. Réimprimé dans l'Art moderne 1856 et dans Portraits Contemporains. p.239

منذ الطفولة، مدنًا عشنا بها في أحلامنا لزمن طويل، إنه تصميم مدهش يصعب محوه.. نحن وقاهرتنا المبنية من المواد المستخدمة في ألف ليلة وليلة نجتمع حول ميدان الأزبكية الخاص بماريلا»(١).

هذا الفضول قد استرعى الانتباه مرة أخرى في المعرض الدولي لعام ١٨٦٧ حيث كانت مصر ممثلة بشكل رائع وقد حضر هذا المعرض الخديوي إسماعيل وطبقاً لما قاله إدموند أبو Edmond About فقد «جاء ببلاده بين يديه» كان يوجد هنا في أحد زوايا معرض مارس في وسط باريس، ثلاثة أجنحة رائعة تمثل العصور الثلاثة الرئيسية لمصر: فكان هناك معبد بطلمي مستوحى في الوقت نفسه من فيله ودندرة أقامه ماريبت marielte بدقة مفرطة، ثم كان هناك سلاملك وهو بيت عربي على غرار قصر الجمالية بالقاهرة، وأخيراً كان هناك خان أو وكالة تم رسمها على غرار وكالات القصير وأسوان. وغير بعيد من هنا، كانت تمتد اللوحة البانورامية لقناة السويس، كان تيوفيل جوتييه أحد رواد هذا المعرض المألوفين. وقد وصفه طوال الفصل الذي أسماه: رؤية عامة وهو الفصل الذي يسبق نص رحلته إلى مصر(٢). لقد كان جوتييه يعرف جيداً منظم المعرض شواكي Choiecki، وهو بولندي متجنس بالجنسية الفرنسية باسم شارل إدموند Charles Edmond، وكان صديقاً لجورج ساند George Sand والإخوة جونكور وكان من الرواد المعتادين في عشاء مانيي Magny الذي كان يستقبل في فيلته بشارع بلفيو كل الشخصيات الأدبية في باريس والذي سوف تسنح لنا فرصة مقابلته فيما بعد. لقد عاش هذا الرجل في القاهرة من قبل في ضيافة سليمان باشا(٣) وقبل أن يقوم بنشر روايته ذات الرموز «زيفيرين كازافان» ١٨٧٩ كان يقوم بنشر انطباعاته وذكرياته خلال الولائم الكثيرة التي كان يقيمها لأصدقائه والتي كان يدعو إليها كتابًا كانوا قد قاموا بزيارة مصر مثل فلوبير ومكسيم دي كوم أو كتابًا كانـوا على وشك زيارتها مثـل شارل بلان Charles Blanc، إدموند أبو وبريفو بارادول Prevost Paradol(٤) وفي نفس هذا العام ١٨٦٧، كان

(1) L'Orient, vol. II, p. 187

(2) L'Orient, vol. II, p. 91-122

انظر بعد ذلك الجزء الثالث، الفصل الرابع.

(٣) انظر بعد ذلك ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٤) عن شارل إدموند، انظر على الأخص:

Z.L. ZALESKI. Attitudes et destinées. Faces er Profils d'écrivains polonais. Paris. 1932, P. 157 -178.

شارل إدموند قد قام بنشر ما يشبه الدليل أو الألبوم الرسمي أطلق عليه اسم: «مصر في المعرض الدولي لعام ١٨٦٧». وقام شارل إدموند في هذا الدليل بإعطاء وصف للأجنحة الثلاثة كما قام أيضاً بكتابة لمحة إحصائية عن مصر الحديثة وملخص لتاريخها بالإضافة إلى تحقيق عن النتائج التي وصل إليها علم الآثار بفضل أعمال الحفر التي كان يقوم بها ماربيت وأعوانه. في هذه المناسبة استطاع سكان باريس ليس فقط الإعجاب بمعبد الدير البحري ومقابر سقارة الجميلة المقدمة في شكل قوالب بل أيضاً استطاعوا رؤية واستحسان مصوغات الملكة آه - حتب وتماثيل رانوفر وراع - حتب وتمثال خفرع المصنوع من حجر الديوريت بالإضافة إلى التمثال الشعبي لشيخ البلد وهي كلها الآن موجودة في المتحف المصري[١].

II

بعدما أثارته نصوص أصدقائه ورسومات المستشرقين والمعرض المصري في عام ١٨٦٧ وكذلك مذكرات شارل إدموند، ولم يكن حنين تيوفيل جوتييه ينتظر سوى فرصة واحدة. وعلى ذلك فنحن نتفهم مسارعته إلى قبول حضور أعياد افتتاح قناة السويس مع وفد من الفنانين والعلماء ورجال الدعاية بصفته ممثلاً للجريدة الرسمية. سوف نتقابل فيما بعد مع زملائه ونخص بالذكر منهم شارل بلان Charles Blanc ولويز كوليه Louise Colet والرسامين نارسيس برشير ويوجين فرومنتان. ولكن مصير جوتييه ومغامرته تدعونا إلى اعتباره منفردًا وأن نفصل بينه وبين كل الباقين الذي جاءوا لحضور هذا العرض والذي يمكن أن نقول أن جوتييه بالكاد قد اشترك فيه.

عند لحظة إبحاره لهذه الرحلة في التاسع من اكتوبر عام ١٨٦٩، هذه الرحلة التي انتظرها كثيراً ووعد نفسه خلالها بكثير من المباهج، كان جوتييه يشعر بشيء من التردد. فنحن نعرف كيف كان جوتييه موسوساً. وكانت تنتابه حالة تشاؤم يومذاك، كان ذلك يوم جمعة وقد قابل في طريقه في أحد شوارع مدينة مارسيليا جنازة يتقدمها التائبون عن الخطايا بزيهم الأبيض ! وما إن وصلت الباخرة «لوموريس» إحدى بواخر الأسطول

(1) CF. Mariette. Lettres et souvenirs personnels. P. 191 - 195.

الإمبراطوري إلى عرض البحر، حتى أراد مسافرنا جوتييه الذهاب لرؤية قمرته. ويكتب قائلاً «لكن عند أولى درجات السلم زلت قدمي ووقعت. ونهضت بصعوبة شاعراً بدوار بسبب السقطة وأحسست أن ذراعي اليسرى كسرت عند المنطقة المجاورة للكتف. وقد تحقق إحساسي: لقد قمت برد ديني إلى القدر الغيور»(١).

وكانت رواية كوليه لما حدث لاذعة و أقل وقاراً وذات أسلوب شائع ولذيذ، وحسب قول جوتييه إنه نهض في البداية دون أن يشعر بجرحه. «وقبل الذهاب إلى النوم دخل إلى إحدى القمرات. وعندما أراد استعمال هذا الجزء من ملابسه الذي لا تحب السيدات الإنجليزيات ذكر اسمه، كان يستحيل عليه تحريك ذراعه». في هذه اللحظة سمعته بنفسها وهو يتأوه وينادي بأسلوب أقل تحشماً من الفتيات الإنجليزيات وهي قد رأت مثل هذا الموقف من قبل ! فجرت نحوه وساعدته على إعادة تزرير ملابسه وساعدته على الوقوف مرة أخرى إلى حين وصول الجراح بروكا Broca الذي ذهبوا لإحضاره.

لكن تيوفيل كان شجاعاً. فما إن تم رد عظم العضد إلى مكانه وتعليقه على الصدر ورغم الأمواج الصاخبة والجو السيئ حتى جلس على سطح الباخرة الذي يلفحه الرذاذ واستقبل الزائرين. كان يحدث أحياناً خلال حديثه أن يضطر رفيقه إلى الإنسحاب بسبب سوء الجو ويظهر مكانه رفيق آخر أكثر قدرة على الاحتمال. وقد أعطتنا لويز كوليه وصفاً له صبيحة يوم الحادث وكان هذا الوصف يشبهه كثيراً. فكتبت تقول «لقد تضاعف صفاء وجهه المعتاد في ذلك اليوم وأضيف إليه شحوب قاسٍ... لقد أدهشنا جميعاً برباطة الجأش التي ظهرت على وجهه. وكان شعره الطويل الممشط بعناية بمساعدة أحد أصدقائه يحيط بجبهته المضيئة. كانت لنظراته المحجوبة لمعان أكثر من الليلة التي مضت وقد بدأ اللحم المتهدل الذي كان منذ وقت قليل يشوه قسمات وجهه بدا مشدوداً بسبب إرادته وشدة معاناته. كان ضوء النهار الذي يتلاعب فوق رأس الشاعر في هذه اللحظة يعيد إليه لمعان جماله الأول»(٢).

(١) في شكوى ساخرة نظمتها لويز كويله من أبيات الشعر كتبت تقول : «متبلد الذهن ومثير للسخرية. هذا الدوار الذي لا يحترم شيئاً- يصيب أبولون ويصرع هرقل- ويتمكن من تيوفل الأوليمب يلوي ويكسر ترقوته» ولكن جوتييه اعترض قائلاً : «لم يكن دوار البحر هو السبب في تلك الحادثة التي وقعت لي إنما السبب هو يوم الجمعة».

Ch. BLANC. Voyage de la Haute-Egypte. 1876, p.30)

(2) Les pays lumineux. 1879 . P. 38 .

على أية حال فقد كان محكوماً عليه بعدم الحركة لفترة طويلة كما كان يجب عليه اتخاذ الكثير من الاحتياطات وكان يبدو أن رحلته قد فشلت. لقد تقبل الوضع دون أن يظهر عليه ما هو عكس ذلك ولكن لم يخل هذا الشعور من خيبة أمل قوية ظلت دفينة بداخلة. فمصر التي درسها كثيراً في الكتب واللوحات، مصر التي كان ينوي اكتشافها في كل الاتجاهات والتي كان ينوي وصفها في إحدى روايات رحلاته الرائعة مثل رحلته إلى أسبانيا وإيطاليا، مصر التي منحته القسطنطينية مادتها، ها هو بسبب حادث غبي يجد نفسه غير قادر إلا على رؤية ركن صغير منها وغير قادر إلا على وصف واحد أو اثنين من مظاهرها. يالسخرية القدر ! فهذا البلد يهرب أمام أكثر الكتاب الذين ألهمهم. وبذلك يجد جوتييه نفسه غير قادر إلا على رؤية ما تكشفه شرفة غرفته في فندق شبرد من هذا البلد. ولكنه مد بصره القصير واستطاع أن يرى جيداً ويسجل ما يراه. وظل يحضر لخمس أو ست مقالات للجريدة الرسمية نشرت في الفترة من فبراير إلى مايو ١٨٧٠ وأعيد طبعها بعد ذلك في كتابه «الشرق».

III

ذلك أنه استطاع التقاط السمات الأساسية للمشهد العام وللبلد. فتجربته قصيرة ومجال رؤيته محدود فهو لن يزور مصر العليا ولن يذهب حتى إلى السويس[١]. لكن لم يستطع أحد التفوق عليه في تقديم الاتصال الأول مع مصر على رصيف ميناء الإسكندرية ومظهر الدلتا وحياة القاهرة النشطة الملونة.

ها هو أولاً مشهد الوصول إلى الإسكندرية إنه مشهد لا يتغير. «ما إن انتهت المجاملات حتى بدأ نقل الطرود ولم يكن ذلك بالأمر البسيط. رغم تسارع الحمالين من كل الألوان لتلقي الأمتعة التي كان يخرجها البحارون من قاع الباخرة، إلا أنه كان هناك تجمهر صاخب تتبادل فيه اللعنات بعدة لغات. كان هناك تلامس بالكوع وتصادم واختناق وكانوا يدفعون بعضهم عند قمة السلم وكان ذلك يعرضهم لخطر السقوط في الماء أو في

(١) يبدو أنه لم يتخط حدود الإسماعيلية.

المركب. أخيراً بدأ شلال الحقائب يخف حتى نضب واستطعنا النزول بمعاونة أحد الزملاء[1]. كان هناك صندوق على السطح الخلفي للسفينة استخدمناه كمقعد وخلال دقائق كنا قد نزلنا على الأرض فوق الشاطئ الرملي. كان الشاطئ بأشعة شمسه الحارقة التي غلفتنا وكأننا داخل المجفف يعج بمجموعة متنوعة من الزنوج والأقباط والفلاحين والسود واليونانيين والمالطيين يسيطر عليهم موظفو الخديوي. وكان هؤلاء الموظفون بأسلوبهم المتميز وطرابيشهم الرسمية التي تسهل التعرف عليهم مكلفين باستقبال المدعوين القادمين من أوروبا ومصاحباتهم بالتبادل إلى فنادقهم. أما المسألة التي كان يصعب حلها وسط ذلك المزيج فقد كانت عدم افتراق الشخص عن أمتعته. كان هناك عشرون ذراعًا من كل الألوان تمتد لحمل أصغر الطرود. فكان ثلاثة رجال في قوة هرقل يتسارعون ويتعاركون بغضب على صندوق لحمل القبعات أو على حقيبة ليل، ومن يستطيع منهم الاستحواذ على أي صندوق يبدأ في العدو باتجاه المدينة دون معرفة وجهة المسافر[2].

استطاع أخيراً جوتييه الوصول إلى فندق إنجلترا L'Angleterre وفي اليوم التالي استقل مع زملائه القطار إلى القاهرة. القطار! إن فلوبير ومكسيم دي كوم لم يعرفا سوى المركب لكن في عام ١٨٦٩ كان خط السكة الحديد موجودًا، بعرباته البيضاء، بمقاعده المريحة المغطاة بالجلد الأخضر، كانت تشبه بالتقريب قطارات اليوم. إن جوتييه هو دون شك أول كاتب فرنسي يقدم لنا لوحة للريف المصري كما تبدو عبر شباك ديوان الدرجة الأولى. من خلال تلك الرؤية السريعة استخلص بشكل مثير للإعجاب السمات الثابتة «هناك ملحوظة تفرض نفسها على عقل المسافر حتى وإن كان غير قوي الملاحظة وهي العلاقة الحميمة بين الفلاح والأرض... فهو يخرج من ذلك الطين الذي يطأه، فهو معجون بداخل الأرض وبالكاد يظهر على سطحها... وعند رؤيته يذهب ويجيء على هذه الأرض المبللة نشعر أنه في بيئته. فهو يشرف على قران الأرض بالماء بزيه الأزرق الذي يشبه زي

---

(١) Illustration مارك ، رئيس جريدة.

(2) L'Orient, vol. II, p. 139-141

الأحبار. يجمع المبدأين اللذين تخرج منهما الحياة عند تدفئتهما بالشمس. ليس هناك أي مكان يكون الاتفاق فيه بين الإنسان والأرض أوضح من ذلك، وليس هناك أي مكان تكون للأرض فيه أهمية أكثر من ذلك. فهي تضفي لونها على كل ذلك: فالبيوت مغطاة بهذا اللون، والفلاحون يقتربون منها بلونهم الأسمر والأشجار التي تتناثر عليها طبقة من التراب والمياه المحملة بالطمي يتماشون جميعاً مع هذه النغمة الأساسية. لقد كنا نقوم بهذه التأملات في الوقت الذي تعبر فيه بسرعة القاطرة هذا الوادي الأسمر ونقول لأنفسنا إن الرسام حين يقوم بتلوينها لن يحتاج على لوحة ألوانه إلا إلى هذا اللون الذي يطلق عليه لون المومياء مع قليل من الأبيض وأزرق الكوبلت للسماء. حتى الحيوانات تلبس هذه الكسوة الجمل الأشقر والحمار الرمادي والجاموس الأزرق الإردوازي والحمام الرمادي والعصافير ذات اللون الضارب إلى الصهبة، كل ذلك يدخل في نفس درجة اللون. وما يثير الدهشة أيضاً هي تلك الحركة التي يعج بها الريف. فهناك جمع غفير من المشاة والمسافرين تزدحم بهم الطرق الممتدة بطول القنوات والتي تعبر المناطق المتكدسة بالسكان. ليس هناك طريق واحد في فرنسا حتى في ضواحي المدن المزدحمة يرتاده هذا الكم من البشر... وليس هناك ما هو أكثر تسلية وأكثر تنوعاً من مشهد هؤلاء الناس الذاهبين إلى أعمالهم ويتناوبون على مربع شباك عربة القطار كما لو كانت لوحة ذات إطار ثابت ويتغير ما بداخله من صور ورسومات مائية باستمرار»(١). إن الرسام هو الذي يتحدث في كل لحظة. فكان يتسلى بوصف المناظر وتحديد ما يحدث حولها في الأفق الجمال والعاملين المرافقين والجاموس يحرسون زوجة الفلاح التي تتهادى راكبة فوق الحمار وتحمل طفلها بين ذارعيها. هذه المجموعة الصغيرة تشبه العائلة المقدسة وتذكر جوتييه بلوحة الهروب إلى مصر التقليدية.

بعد ذلك يجيء النيل «هوبي مو» المذكور في «رواية المومياء» أبو الأنهار الذي لا ينضب، النهر الغامض الذي يبدو قادماً مسرعاً من قاع أفريقيا لإلقاء السلام على صاحب رواية تاهوزر وشاعر المسلات. «فهو يجري بلا عراقيل منبسطاً بلا دفة مثل فيض من

---

(1) L'Orient. vol. II, p. 161-164

ويجب التقريب مع جريدة فرومنتان ، انظر بعد ذلك ، الجزء الثالث ، الفصل الخامس.

الطمي ذي اللون المائل إلى الحمرة ويكاد يأخذ شكل المياه منتفخاً بشكل لا يقاوم ومسرعاً بقوامه السميك. يبدو وكأنه نهر من الطين. تكاد السماء تضفي بانعكاساتها هنا وهناك على بريق أمواجه الصاخبة بعض اللمسات اللازوردية الخفيفة»[1]. هذا هو نيل شهر أكتوبر الذي يمتد على الأرض بقوة في وقت الفيضان. إن جوتييه لا يحتاج إلى تأمله لفترة طويلة حتى يستطيع ذكر قوته المخيفة بإيجاز متقن. وكانت دائماً تلح علينا نفس الفكرة إنه لمن المؤسف أن تكون رحلته مبتورة بهذا الشكل ! إنه يصف جيداً ما يرى حتى أننا نريد أن نرى معه ومن خلاله كل شيء.

ولكن ها هو يصل إلى القاهرة، «هذه القاهرة التي تحدثنا عنها كثيراً مع هذا المسكين جيرار دي نيرڤال وجوستاف فلوبير ومكسيم دي كوم الذين أثاروا وألهبوا فضولنا بكتاباتهم»[٢]. هذه القاهرة التي كان يتخيلها جوتييه مثل إحدى مدن ألف ليلة وليلة الملتفة حول لوحة ماريلا الشهيرة. لقد نزل في فندق شبرد بميدان الأزبكية «لقد أنزلونا داخل أحلامنا!»[٣].

«دون شك أن الحقيقة عام ١٨٦٩ كانت مختلفة. إن هذا الميدان الذي خططه بستاني فرنسي والذي كان قد بدأ يأخذ شكل حديقة مونسو لم يكن يذكرنا إلا قليلاً بالمشهد الفريد في صالون عام ١٨٣٥ بما فيه من شجرتي خروب عملاقتين بفروعهما التي تشبه المجسات والساقية المتوقفة عن العمل في ظلالهما المائلة إلى اللون الأزرق وحاملة المياه العارية وهؤلاء العرب الذين يتحدثون إلى جوار الجمال ومنظر واجهات المشربية بلونها الذهبي التي تتزاحم حول الميدان. لكن جوتييه كان يحاول ربط الميدان بالصور التي عرفها في شبابه، فكان يحاول إيجاد مكان الشجرتين «اللتين وقفتا أمام ماريلا واللتين كبرتا الآن بفعل مرور الزمن»[٤]. وبما أنه كان عليه أن يتفادى الشارع وما فيه من تدافع بسبب ذراعه المعلقة إلى صدره فقد جلس في شرفة فندق شبرد وكان يتطلع منها.

---

(1) L'Orient, vol. II, p. 173

ويقول فرومونتان من جانبه : شيكولاتة مشكلة من الظلال الزرقاء اللون.

(٢) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٨٧.

(٣) المرجع السابق، الجزء الثاني، ص ١٩٠

(4) L'Orient , vol . II, P. 192 .

نظر إلى الحمير. وكانت الحمير في نظره هي ألطف الحيوانات التي يمكن ركوبها. ومثله مثل زافيه مارمية Xavier Marmier والرسام جيروم Gerome ومن بعدهم لوتي Loti كان يشعر تجاه الحمير بشيء من الحنان الروحي. ويعلم الله إنه لو أتيحت له الفرصة لعبر عن هذا الشعور! في تلك الأيام الهادئة التي لم يكن بها عربات تجرها الجياد أو سيارات أجرة كانت الحمير هي الوسيلة الثمينة للتنقل عبر أنحاء المدينة الشاسعة! «يقولون إن عدد الحمير في القاهرة لا يقل عن ثمانين ألف حمار. نحن نقول ânes بمعنى حمار وليس âmes بمعنى نفس... وهي في منتهى الطيبة والحيوية وتتسم بمزاج مرح. ليس لها تلك السحنة الحزينة ولا يبدو عليها الاستسلام والكآبة التي تبدو على الحمير الموجودة في بلادنا بسبب سوء التغذية والضرب والاحتقار... من الجائز أنهم يعرفون من خلال التقاليد أن هوميروس شبّه أجاكس (أحد أبطال حرب طروادة) بالحمار، هذا التشابه الذي لا يعتبر مثيرًا للسخرية إلا في الغرب وهي أيضاً تتذكر أن أحد أجدادها هو الذي حمل على ظهره السيدة مريم العذراء أم عيسى تحت شجرة التين في المطرية»[١].

ونظر إلى عارضي القرود وسحرة الثعابين. في اللحظة التي كانت تنتصب فيها الأفعى وتنفخ رقبتها كانت تنهض ببطء وتنظر حولها بنظرة غاضبة فكانت تذكر كاتب رواية المومياء «بوضعها هذا وانتفاخ صدغيها بالأفعى المقدسة التي تظهر كثيراً على أفاريز المعابد وجدران البوابات الضخمة وقبعات الآلهة والفراعنة. إن رؤية إحدى الزواحف حيّاً يتحرك أمامك بعد أن كان حتى الآن يمثل رمزًا هيروغليفيّاً لذو تأثير متفرد»[٢].

ونظر إلى زوجات الفلاحين اللاتي يذهبن ويجئن «بجلبابهن الأزرق الطويل وهو زيهن الوحيد الذي يلتف حول أجسادهن الرشيقة كثوب فضفاض أثري»[٣]. كان بعضهن

---

(1) Id. vol. II, P. 196 - 197.

(2) L'Orient. vol. II, P. 203.

ونلاحظ هنا التقدم الذي احرزه جوتييه في علم المصريات فهو لم يعد يسند قبعات الآلهة والملوك إلى الكهنة مثلما كان يفعل من قبل (انظر ما قبله ص ١٤٦).

(٣) المرجع السابق، ص ٢١٥.

يمسكن في راحة أيديهن المقلوبة إناءً مستطيلاً على شكل إبريق، وكانت أخريات يحملن على رؤوسهن جرة من الطين أو النحاس الأصفر مثل حاملات قرابين معبد البارثينون اليوناني. وأخيراً كان بعضهن يحملن على أكتافهن طفلاً ويجذبن في أيديهن آخر»[1].

ونظر إلى السيدات العربيات «المغطيات بالحبرة ذات الشكل الكريه المصنوعة من قماش التفتة الأسود» ويحجبن وجوههن باليشمك وهو قطعة من القماش الأبيض الطويل. «كانت السيدة أحياناً ترفع وتهز ذراعيها المحملة بأساور ذهبية وفضية. كانت تلك الحركة تزيح أطراف العباءة فتسمح برؤية السراويل الساتان الصفراء الفضفاضة التي تشبه التنانير وحمالات الصدر الضيقة المصنوعة من القطيفة المزينة والتي تقرب النهدين من العنق وكانت السيدات يرتدينها تحت القمصان الشفافة».

إن ملاحظات جوتييه لا يفوتها شيء. وقد أعطى الفصل الأخير عنواناً متواضعاً يشوبه الحذر «ما نراه من فندق شبرد». ولكن ما نراه هو القاهرة بالكامل: السقايين الذين تنحني ظهورهم بسبب وزن القرب المصنوعة من جلد الكباش، السياس بقاماتهم المشوقة والصديري القطيفة المشغول بالخيوط الذهبية ذي الأكمام الفضفاضة المشقوقة حتى الأكتاف. هؤلاء السياس الذين يعدون أمام عربات بعض الباشوات العظماء التي تكون من الطراز الإنجليزي أو النمساوي وتجرها الخيول، والمجموعة الخليط من الأتراك بطرابيشهم وستراتهم الردنجوت والبدو بمزاجهم العصبي وزيهم الصوف الرمادي اللون والقرناقوطية بتنانيرهم اليونانية وشواربهم المرفوعة وستراتهم الحمراء والخناجر المعلقة في أحزمتهم مثلما نراهم في لوحات جيروم. والنوبيين بعضلاتهم المفتولة وثيابهم الرثة والأحباش بشعرهم المجعد وعماماتهم الزرقاء.

لكن وراء تلك الرؤية التي تعج بالأجناس المختلفة والبشرية الصاخبة تظهر مصر الأبدية بصمتها الريفي الوديع. فعندما يرى الجمل يمر بظهره المحدب وسيقانه المخلعة وأقدامه العريضة المسطحة، «ومنحدرات جسمه النحيلة التي تظهر عليها بعض خصل الصوف الخشنة» ورقبته الطويلة وشفته المتدلية ونظرته المستسلمة، فإن جوتييه لا يستطيع

(١) المرجع السابق ، ص٢١٧

أن يمنع نفسه من التفكير في شباب العالم، في الأزمنة التوراتية، في البطاركة، في يعقوب وخيامه وفي الآبار التي كان يلتقي عندها الشباب والشابات في الحياة البدائية في الصحراء»[1]. وكيف لا يحب أيضاً أبقار السودان «ذات الجلد الفضي والعيون السوداء» و«الجاموس ذا اللون الإردوازي والقرون المقلوبة إلى الخلف»، تلك الحيوانات التي تشكل أعظم الخدم للإنسان والتي تحدث عنها جيروم جيداً في كتابه «الحصاد في مصر» هل هو «الشعر المتوحش والأشكال المنحوتة؟»[2].

هذا هو كل شيء. الإسكندرية وعبور الدلتا، القاهرة والأرض والنهر والفلاح، المناظر الطبيعية الواسعة ذات الألوان البسيطة، والصور الظلية الرشيقة التي قام بوصفها، والشرائط الزراعية المصرية والحركة الرائعة للشارع هذا هو كل شيء، لا شيء عن مصر القديمة ولا شيء عن مصر العربية[3]، بالكاد هناك بضعة سطور عن الأهرامات التي لمحها من خلال البخار اللازوردي من شباك عربة القطار. ليس هناك أي شيء عن المعابد أو المقابر. ولا هناك أي شيء عن المساجد أو الأسبلة. كما لو كان جوتييه قد استسلم قبل البداية وشعر أنه غير قادر على رؤية كل شيء.

لقد قرر ألا يكتب إلا مقدمة رحلته تاركاً لغيره مثل فرومونتان وجيروم عناء استكمال نصه. لقد تراجع عن رحلة مصر العليا، وهكذا صرح لابنته إستل Estelle في ٢٢ أكتوبر بقراراته الحذرة. «إن الزملاء جيروم وتورنمين Tournemine وبرشير Berchère وكاترفاج Quatrefages وبرتلو Berthelot وشنفيير Chenevières وإيسامبير Isambert وكل المجموعة قد أبحروا هذه الليلة على مركب بخاري إلى أعالي النيل. كان بمقدوري إذا لزم الأمر أن أتبعهم ولكن في هذه الحالة كنت سأحرم من الرحلات على ظهر الحمير أو الخيل أو الجمال لزيارة بعض الآثار التي كانت تبعد أحياناً فرسخًا أو فرسخين عن النهر.

(1) L'Orient, vol. II, P. 226 .

(2) Id. vol. II, P. 228 .

(٣) إن تيوفيل جوتييه لم يصف لنا حتى الرقصة التقليدية للعوالم رغم أننا نعرف من خلال صاحبه ش. بلون أنه حضرها مع ف. دوليسبس خلال العشاء الذي أقامه عناني بك المسئول العام عن مصالد السمك في مصر. فقد قدمت بعد العشاء الرقصات المحلية : «وكان جوتييه متكئاً على أريكة وكان يلتهم بعينيه الراقصة التي بدأ في وصفها بنظراته».
Ch. BLANC, Voyage de la Haute-Egypte, 1876, p. 53-54

كان من الأفضل أن أبقى إلى أن يشفى ذراعي تماماً وهذا ما فعلته. فنحن مرتاحون تماماً في فندق شبرد بميدان الأزبكية ولا تنقصنا الزيارات... لقد زرت بولاق وميناء القاهرة على النيل والقصر الذي تم تجهيزه لاستقبال الإمبراطورة التي تصل اليوم[1] كان ذوق ذلك القصر يدعو للمناقشة ولكن فخامته قد تعدت كل الحدود»[2].

كم نفتقد هذه اللوحات عن أعياد القاهرة والإسماعيلية والحفلات التي أقامها الخديوي إسماعيل على شرف الإمبراطورة أوجيني وسفر الوفود إلى مصر العليا !

كم كنا سوف نصبح سعداء أن نعيش مرة أخرى تلك الأيام العظيمة من الصداقة الفرنسية المصرية في صحبة شاهد مثل جوتييه ! كم كان يمكن أن تكون رائعة تلك المساهمات لو قدمها لتاريخ قناة السويس.

****

(١) قصر الجزيرة وهو اليوم ملك للأمير لطف الله ويقع بالقرب من كوبري بولاق.

(2) E.BERGERAT, Th. Gautier, Lettres, p. 312 - 313 .

لقد كانت خيبة أمل تيوفيل جوتييه عميقة. عندما ذهبت لويز كوليه لتوديعه قبل إبحارها إلى مصر العليا ، تأثرت كثيراً «بحزنه العميق لأنه لا يستطيع مصاحبتهم إلى مصر العليا التي استطاع وصفها جيدا».

Les Pays Lumineux, p. 214

الباب الثالث

حفر برزخ السويس

الفصل الأول
فلاسفة وعلماء لغة

ج. بارتيليمي سانت هيلار Barthélemy Saint-Hilaire

وجوبينو Gobineau – (1855) **مارييت** Mariette – **ورينان** Renan – (1864)

I

دخل معهد فرنسا – مرتين – دخولاً أسطورياً أرض مصر. الأول مع بونابرت وزملائه مونج وبارتوليه وفوزيه، والثاني مع دي ليسبس ورفقاء رحلة جوتييه. وكانت أكاديمية العلوم – في المرتين – تساهم بالوفد الأكثر أهمية، كما كان يمثلها في افتتاح قناة السويس مجموعة من علماء الكيمياء مثل بلار، ووتز وبارتيلو، وعالم الفيزيولوجيا مايتي، وعالم الفيزياء جامين وعالم الطبيعة كاترفاج .. الخ.

وفي ما بين هاتين الحملتين السلميتين – حملة ١٧٩٩ وحملة ١٨٦٩ – قدم العلم الفرنسي لمصر دعماً مثمراً مستمراً. كما أثمر هذا الدعم الذي طال لمدة سبعين عاماً عن علم المصريات، وغذى كبرى المشروعات التي أدت في النهاية إلى حفر قناة السويس. ولم يقف الأمر عند عملية اكتشاف مصر الأثرية وإعادة إحيائها فقط بل تعداه إلى الاهتمام بمصر الحديثة وازدهارها. وتعاون كل من علم الأثريات والعلوم المائية من ناحية والعلوم البحتة والعلوم التطبيقية من ناحية أخرى للارتقاء بالبلاد وإنمائها. وتم رفع الركام من حول المعابد وحفر القنوات مما أدى إلى بدء عهد السياحة وازدهار الزراعة ونمو التجارة. وليس هناك أسهل من تحديد هذه المراحل من تاريخ العلم الفرنسي، فهي جادة رائعة بدأ خطاها بونابرت وأنهاها فرديناند دي ليسبس. ولو قطعنا الطريق الذي بدأ مع معركة الأهرامات وانتهى عند الخيمة الخديوية في الإسماعيلية لوجدنا علماء الآثار والمهندسين جنباً إلى جنب، فنرى فيفان دينون Vivant Denon ورسامي معهد مصر جومار

Jomard وجولوا Jollois ودي فيلييه de Villiers وديبوا إيميه Dubois-Aymé ثم شامبليون Champollion وجان جاك أمبير Jean-Jacques Ampère وبريس دافين Prisse d'Avennes ونستور لوت Nestor L'Hôte وشارل لونورمان Charles Lenormant وماريت، أي كل الذين ساهموا بجدارة في اكتشاف مصر الأثرية وفي تقدم علم الأثريات المصرية. ونرى في الجانب الآخر باقة من المهندسين فنرى لوبير Lepère ولينان دي بلفون Linant de Bellefonds والسان سيمونيين Les Saint-Simoniens وشارل لومبير Charles Lambert وموجيل Mougel وبارو Barrault، أي كل الذين مهدوا - سواء بالغزوات أو بالمقايسات أو بالخطط الدوبة - للعمل العظيم الذي وحد البحرين. وشاهدت مصر على أراضيها على التوالي وأحياناً جنباً إلى جنب علماء اللغة والمقاولين والمهندسين الذين كانوا يضعون أنفسهم في خدمة بعضهم البعض. وفي الواقع كان أصحاب فكرة القناة دائماً ما يلجأون إلى المؤرخين وعلماء الآثار، إذا كان الماضي سنداً لهم لتدعيم أمانيهم العريضة؛ وسرعان ما التقطت أكاديمية العلوم هذه الفكرة العظيمة ولم تغفل قط رأي أكاديمية النقوش والآداب الجميلة. ألا نعرف أن هيرودوت Hérodote كان قد رأى - بعد داريوس Darius بخمسين عاماً - قناة مائية مزدهرة تصل البحر الأحمر بنهر النيل وتصله أيضاً ببسطة؟ وألم نجد - قبيل العصر المسيحي - تأكيداً لذلك في كتابات سترابون Strabon؟ ولو تصفحنا أيضاً «مجلة العالمين» Revue des Deux Mondes في عصر حكم يوليو أو في السنوات الأولى للإمبراطورية الثانية، لوجدنا إلى جانب مشروعات ميشيل شوفاليه Michel Chevalier[1]، ج. ج بود[2] J. J. Baude وبولين طالابو[3] Paulin Talabot وإميل بارو Emile Barrault[4]، مقالاً كبيراً لعالم اللغة المرموق لوترون Letronne بعنوان: برزخ السويس، قناة البحرين تحت الحكم اليوناني والروماني والعربي[5]. وعندما

---

(١) عدد اول يناير ١٨٤٤ .

(٢) عدد ١٥ مارس ١٨٥٥ .

(٣) عدد اول مايو ١٨٥٥ .

(٤) عدد أول يناير ١٨٥٦ .

(٥) عدد ١٥ يوليو ١٨٤١ . نشر لوترون ايضاً مقال بعنوان: دراسات تاريخية حول مصر القديمة في عددي أول فبراير واول ابريل ١٨٤٥ .

شكل فرديناند دي ليسبس لجنة المراقبة الدولية المكلفة بالتأكد على الطبيعة من إمكانية حفر البرزخ ضمن مساعدة جومار آخر من تبقى حيّاً من مجموعة معهد مصر والسكرتير الدائم لأكاديمية النقوش والآداب الجميلة. وأخيراً عندما ركب السفينة للإسكندرية في الثامن من نوفمبر ١٨٥٥ صحب معه - كسكرتير خاص - إلى جانب أكبر مهندسي أوروبا بارتيليمي سانت هيلار الحاصل على شهادة جامعية والذي كان يعمل أستاذًا في الكوليج دي فرانس كما أنه عضو في المعهد.

وهكذا نرى أنه بعد أن تمت تسوية مشكلة الشرق أو كادت أن تتم، ظهر أن السمة السياسية للمشكلة المصرية لم تعد هي التي تشغل الرأي الفرنسي، فقد بدأ «رجلان جديدان» يجذبان الانتباه هما فرديناند دي ليسبس وأوجست مارييت. ولم تعد كبرى المجلات وقصص الرحالة تتحدث إلا عن الاكتشاف المبهر لسرابيوم Sérapéum عام ١٨٥١ وحفر برزخ السويس. وقد عكس ما كتبه بارتيليمي سانت هيلار في «رسائل حول مصر» هذين الحدثين ألا وهما الانشغال بالماضي البعيد وانتظار المستقبل القادم.

وكان بارتيليمي يتمتع بعقل راجح يتجلى من خلال ممارسته لعمله وأثناء وقوفه على منصة البرلمان. إذ كان مزوداً - وهو الأمين العام للحكومة المؤقتة عام ١٨٤٨ والوزير القادم للشئون الخارجية للجمهورية الثالثة - بتاريخ مهني حافل وبمستقبل - ربما كان أكثر بهاء - في انتظاره. وكان وهو من جهابذة علماء اللغة وخاصة اليونانية، قد درس اللغة السنسكريتية مع بورنوف Burnouf كما جذبه علم الفلسفة مع فيكتور كوزان Victor Cousin. وقد بدأ ترجمة أعمال أرسطو Aristote ليتابع بها ترجمة أفلاطون Platon التي كان قد قام بها. وعينه كوزان Cousin وهو في الثالثة والثلاثين من عمره أستاذاً للفلسفة اليونانية واللاتينية في كوليج دي فرانس ثم انتقل في العام التالي إلى أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. وفي عام ١٨٤٥ نشر دراسة هامة عن أفلاطون Plotin وعن فلاسفة مدرسة الإسكندرية، ثم جذبته السياسة وكان فيها ليبراليّاً معتدلاً، وأصبح هذا الرجل - الذي كان ضمن صفوف المعارضة أثناء حكم يوليو - معادياً لميشيليه Michelet ولكينيه Quinet ولأنصار جمهورية ١٨٤٨ دون أن يؤيد صراحة

الأمير الرئيس. وبعد الانقلاب الذي وقع في الثاني من ديسمبر أحاطت به ظلال المعاش المبكر إلا أنه استغل هذه المرحلة في تعميق أبحاثه العلمية والأكاديمية. وكانت ثمارها من نصيب مصر عندما صاحب فرديناند دي ليسبس إلى السويس عام ١٨٥٥ مع لجنة المراقبة الدولية.

وقد اهتم وهو عالم الإنسانيات والرجل السياسي، وعالم اللغة والأخلاقيات أيضاً بمصر الفرعونية وبمصر المعاصرة تلك التي يحكمها سعيد الوالي الجديد. وقد خلف سعيد عباس باشا الذي قتله اثنان من مماليكه المقربين، وباعتلائه العرش بدأت حظوة الأوروبيين - الذين كان قد تم استبعادهم بعد موت محمد علي - وظهر بعضهم بالفعل على الساحة وعلى رأسهم فرديناند دي ليسبس. ولسوء الحظ وبسبب تغيبه في صعيد مصر، لم يعثر بارتليمي سانت هيلار قط على مارييت. فبعد عمليات التنقيب التي أجراها في سقارة تم تعيينه محافظاً مساعداً في متحف اللوفر وعاد لتوه إلى فرنسا. إلا أنهما سرعان ما تعارفا في باريس وكان الجامعي هو الذي قدم مارييت إلى فرديناند دي ليسبس.

من إجمالي الرسائل الخمس عشرة التي تكون عمل بارتيليمي سانت هيلار والتي صدرت عام ١٨٥٧، نجد أن ثمانية منها كانت موجهة من مصر إلى سيلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy الذي نشرها في لي ديبا Les Débats في شهري يناير وفبراير ١٨٥٦. ثم نشر ست رسائل أخرى أعدها لدى عودته إلى فرنسا من واقع البيانات التي قام بجمعها وهو في مصر. وألحق بكل ذلك مقدمة رائعة عن برزخ السويس ورسالة أخيرة - ليست الأهم - حول العمارة المصرية. فالأمر يتعلق هنا إذن بباقة مرتبة من الرسائل، بسلسلة من المقالات الصحفية، بدراسات وبأبحاث متتالية وليس هنا تبادل رسائل بالمعنى الدارج. واتسمت ريشة هذا الفيلسوف المهيب (كان قد أتم عامه الخمسين) بالخلو من التلقائية والآراء العفوية وبالتالي بقلة الانطباعية. وهذا الأسلوب يعد أكاديمياً وهو عكس أسلوب فيفان دينو Vivant Denon، كما يذكرنا - بجفائه - بأسلوب جوزيف ميشو مؤرخ الحروب الصليبية. فلا يصف لنا انعكاسات الضوء خلال النهار ولا ما يجعلنا نشاركه جو

اللحظة ولا ما يجعلنا نشعر بأحاسيسه الخاصة، لذا لم يكترث بانطباعه التلقائي وكان يدونه بهدوء ليعيد قراءته وصياغته على مهل بعد أيام يقضيها في القراءة والتأمل. وهذا ما تم بالنسبة لرسالته حول طيبة وفيلة التي كتبها بعد عودته من صعيد مصر قابعاً في خيمته على شاطئ البحيرات المرة عند برزخ السويس. فقد كان لديه الوقت كاملاً لمطالعة كتبه وخرائطه وقراءة الأجزاء الثلاث لويلكنسون Wilkinson وضم رؤيته الخاصة إلى رؤى كتابه المفضلين. وقد كانت رؤيته معبرة ليلة عيد الميلاد في مخيم وادي طوميلاط وهو يمعن التفكير في البحث الأكاديمي الذي قام به كاترمير دي كانسي Quatremère de Quincy وأطلق عليه اسم «حول العمالة المصرية»[١].

وقد خصص بارتيليمي خمس رسائل فقط لتناول العصر الأثري وهو أمر لا مبالغة فيه بالنسبة لأستاذ الفلسفة اليونانية واللاتينية. ومن الطبيعي جداً وهو المؤرخ الذي كتب «مدرسة الإسكندرية» أن يصف لنا لدى نزوله من السفينة عاصمة البطالمة. إلا أن رحلته الخاطفة للصعيد على ظهر مركب بخاري للوالي لم تتح له الفرصة لتسجيل ملاحظات تعتبر الأولى من نوعها. ولم يتوقف في منف وبالتالي «لم يجد الوقت لزيارتها» على الرغم من رغبته في رؤيته «الأعمال الخلابة لماربيت».[٢] أما في دندرة فنشعر بأنه يستعذب إبطاء معدل سير الرحلة ونراه متسامحاً أمام هذه الفنون المتهالكة. ولم يظهر أمام معبد هاتور ما سبق أن أظهره شامبليون[٣] من قسوة. وكان مرشده في ما تبقى من الرحلة كتاب ويلكنسن. وها نحن نشعر بأن علم المصريات قد امتد نطاقه خارج حدود فرنسا لنرى باحثًا مستنيرًا مثل إرنست فيدو Ernest Feydeau ورحالة متعلمًا مثل بارتيليمي سانت هيلار لا يستطيعان من الآن تجاهل ويلكنسن ولبسيوس Lepsius. وفي طيبة كان بلا جدال هو أول من أولى اهتماماً باللوحات الجدارية القبطية – التي اختفت اليوم – والتي

(١) انطوان كريزستوم كاترمير دي كانس (Antoine-Chrysostome Quatremère de Quincy وليس المستشرق اتيان مارك كاترمير (Etienne-Marc Quatremère «حول العمارة المصرية اصولها ومبادلها ومقارنتها بالعمارة اليونانية» - باريس - باروا ١٨٠٤ (انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٦٠ هامش رقم ١).

(٢) رسائل حول مصر ١٨٥٧ ص ٢٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٤ .

كانت موجودة في معبد الأقصر والتي وصفها بأنها ذات قيمة فنية رفيعة».[1] ولكن إذا كان أسلوبه المنهجي في وصف المعابد والقصور والمقابر الموجودة في البر الغربي لا يضف شيئاً يذكر إلى ما سبق أن قام به المتخصصون، إلا أننا يمكننا التوقف واللهو معه أمام النقوش اليونانية الموجودة على تماثيل ممنون. ولم يستطع البروفيسور مترجم أعمال أرسطو مقاومة رغبته في القيام بتمرين أدبي صغير وقدم لنا هذه الأبيات:

«أنا هنا، بالبيلا، سمعت الصوت الخافت
لفامينوس أو ممنون من أسفل هذه الصخرة ...
وأدريان حياه بدوره مرات ثلاثا.
بالبيلا نظمت هذه الأبيات احتفالاً بالصوت
مبرهنة وهي تعيد ما سمعته
عن مدى حب الألهة الدافئ لأدريان»[2]

ولم يكتب بارتيليمي سانت هيلار فصله الرئيسي عن العمارة المصرية إلا بعد عودته من الصعيد وذلك عندما أراد حصر أفكاره وتجميع انطباعاته. وكان أسلوبه تقليدياً وجميلاً مثل ما كتبه وينكلمان Winckelmann، كما كان من الطبيعي أن يعتمد على التحليل الذي تم تقديمه من قبل إلى كاترمير دي كانسي. وقد عمل صادقاً على التوصل لسمات الفن المصري مشيراً إلى تفرده وقوته وخطوطه الثابتة ونظامه المقدس ومتانته وكمال أبعاده وأظهر المهارة الفائقة التي كان يتمتع بها الفنيون. ونشعر بأنه لا يزال محصوراً داخل هذه الأبهة السجينة ونشعر كذلك بميوله إلى السمة المرنة والحرة للجمال اليوناني. «كل شئ متفق عليه في خطوط الفن المصري والحرية لا تجد لها سبيلاً حتى في أضيق الحدود. ولكننا عندما نقضي على الحرية فإننا نقضي على أفضل وأخصب ما عند الإنسان، ومثلما يقول الشاعر فإننا بذلك نكون قد قضينا على أكثر من نصف كيانه. وبالنسبة للفن المصري كانت النتائج وخيمة، فلم يتمكن أبداً من تحقيق الكمال ولم يتقدم قيد أنملة. والاستعارة التي قدمها لنا وينكلمان تمتاز بالدقة المتناهية، فالحشرة التي

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٤.

(٢) زار الإمبراطور اليوناني Adrien طيبة عام ١٣٠ بعد الميلاد. المصدر نفسه ص ٢٨٧-٢٨٨ .

لسعت الشجرة وأفرغتها من رحيقها ليست سوى السلطة - بمختلف أشكالها - التي استطاعت الإمساك بالفن خلال مسيرته وفرضت عليه سياجاً من الموانع المقدسة لا يستطيع اختراقه. ولذلك نرى أن فن النحت لم يتعد مطلقاً مرحلة صنع التماثيل وأن الرسم لم يكن له ألوان قط وأن النقوش التاريخية نفسها لم تتحول أبداً إلى بورتريهات. وأخيراً نرى أن الفن لم يحاول البتة الالتحام مع الطبيعة والتفوق عليها بتقليدها». ولن يتوصل أحد اليوم إلى مثل هذا الحكم المطلق، إلا أن هناك سببين يفسرانه: الأول هو أننا نشعر اكثر بالفن اليوناني لأنه الأقرب من أنفسنا - نحن اللاتينيين - وهو الأكثر تنوعاً ومرونة ويتمتع بخطوط حرة. أما السبب الثاني فهو أننا لم نكن نعرف بعد في الفترة التي وصل فيها بارتيليمي سانت هيلار إلى مصر تماثيل سقارة النابضة بالحياة ولا النقوش الدقيقة لمعبد أبيس ولا الأعمدة المهيبة في تل العمارنة. وكان الفن المصري بالنسبة لتصور الفكر الغربي هو القاعدة المعمدة لمعبد الكرنك أو المقابر الكئيبة في وادي الملوك. إلا أننا نلمس ثمة تغييرًا وأن هناك تقديرًا أفضل للأمور يلوح في الأفق.

ويكفي لتحقيق ذلك اكتشاف واحد فقط مثل ما قام به ماربيت عندما عثر على تمثال كاتب المعبد الجالس القرفصاء في منطقة سقارة، الذي علق عليه بارتيليمي سانت هيلار قائلاً «يا إلهي إن هذا التمثال يختلف كلية عن كل ما نعرفه عن الفن المصري. إنه نحت ودراسة وتقليد للجسد البشري وللطبيعة بنفس الأسلوب الذي عرفه اليونانيون والذي نعرفه نحن من بعدهم»! وهنا يدرك هذا الرحالة شيئاً لم يتوقعه .. إحساساً مفعماً بالإنسانية يطل عليه من الأسرة الخامسة، من هذا البورتريه الذي يناهز عمره الستة آلاف سنة والذي ينم عن فن معبر يتحدث عن نفسه «فن مختلف .. هو الحقيقي .. لأن خطوطه حرة تسير على الدرب الذي يصلنا بالجمال اليوناني وبكمال Phidias»[1]. وجاء رينان Renan بعد عشر سنوات ليعيد ذكر هذا الرأي في رسالته التي بعث بها إلى «مجلة العالمين». وبعد أن صحبه ماربيت لزيارة مقابر تي وبتاح حتب في منطقة سقارة والمدافن المقامة تحت الأرض في بني حسن لم يستطع شيء تغيير اعتقاده وهو اعتقاد عزيز على فكره التحرري ومفاده أنه كانت لمصر حضارة عرقلت مسيرتها الثيوقراطية والاستبداد وديكتاتورية رجال الدين والملوك.

---

(١) «رسائل حول مصر» ص ٣٣٨ و٣٣٩ .

ولكن ليست هناك سوى مصر الأثرية ومجريات الأحداث تلح على ذلك. ويروي لنا جورج بيكو Georges Picot في الملحوظة التي خصصها لبارتيليمي سانت هيلار بعد وفاته قائلاً أن رسائله كانت عن حكاية مصر الأُثرية يرويها لنا رجل عاش بين ربوعها مبهوراً بإحدى أروع الحضارات الحديثة». وعلينا أن لا ننسى أنه في الوقت الذي أتمت فيه لجنة المراقبة الدولية مهمتها وجهت ريفو ديدمبرورج Revue d'Edimbourg المتحدثة باسم اللورد بالمرستون Palmerston النقد إلى مشروع فرديناند دي ليسبس. وأنكرت فائدته وهاجمت توقيته وشككت في إمكانية تحقيقه. وكان يجب الرد على ذلك وتولاه دي ليسبس وكذلك بارتيليمي سانت هيلار وتم تخصيص المقدمة والرسائل الخمس الأخيرة لموضوع برزخ السويس، وتناولت كل شئ: الرواية واستطلاعات الرأي والإحصائيات. وفي أول يناير ١٨٥٦ عادت اللجنة إلى الإسكندرية راضية عن ما قامت به من أبحاث وأعمال. وعلينا أن نقول وبصوت عال حتى تسمعنا كافة الأمم المتحضرة: ليس هناك عائق طبيعي يحول دون اتخاذ تجارة العالم مع آسيا طريقاً أقصر وأسهل وأكثر أمناً»[١].

وفيما عدا ذلك كانت الشركة في أيدي أمينة. وكيف لا ينجز دي ليسبس - وهو مشمول بالرعاية المستنيرة لنائب الملك الجديد - مهمته الكبيرة؟ وقد أعطى بارتيليمي سانت هيلار كل ذي حق حقه، إلى السابقين وإلى اللاحقين، إلى لينان دي بلفون Linant de Bellefonds وموجيل بك Mougel-Bey اللذين كانا المؤسسين الفنيين للمشروع، إلى دي ليسبس الذي كان المحرك والسياسي الحرفي والممول والدبلوماسي، وأخيراً إلى نائب الخديوي الذي قدم له العون بعد الإحباط الذي أصابه من عرقلة محمد علي باشا والسان سيمونيين للمشروع. واستقبل سعيد باشا الوفد وكتب بارتيليمي وهو يشعر بالانبهار قائلاً إنه أمير «يتمتع بحس راق وفكر خلاب وعلاوة على ذلك فهو ذو شخصية طبيعية متفتحة»[٢].

(١) رسائل حول مصر ص ٤٣٧. ظهر كتاب بارتليمي سانت هيلار باللغة الإنجليزية في نفس الفترة. وظل هو نفسه أميناً عاماً لشركة قناة السويس حتى نهاية عام ١٨٥٨ .

(٢) رسائل حول مصر ص ٦٥ .

وبصفة عامة، فإن كتاب رسائل حول مصر» يعتبر ردّ فعلٍ على الرأي المسيء الذي كان قد انتشر في فرنسا عقب أعمال هامون Hamon وشيلدر Schœlder وجيسكيه Gisquet.. إلخ، ويمكننا القول بأن كاتبه من الطراز المحترم للرحالة الرسمي المتأثر بأوزيب دي سال Eusèbe de Salles وبريس دافين. ونسجل له كتابات وتصريحات متفائلة، ولكن ها هي وجهة نظره: «لا أريد أن أكون المدافع الأعمى عن كل الإجراءات التي اتخذتها (الحكومة المصرية) ولكن أمام كافة الصعوبات التي كان علينا القضاء عليها والتي تعاملت معها بكثير من الحكمة والتوفيق، لا أستطيع إلا أن أكن لها الإعجاب والتفهم العميق»(١). ولم يمنعه ذلك عن إبداء رأيه صراحة في ما يتعلق بالعيوب التي واجهتها البلاد. فقد انتقد المستوى المتدني للنساء وتعدد الزوجات وما له من نتائج وتنافر القرى وسوء أحوالها. وعندما كان في الصعيد كانت كل هذه الأمور الأخلاقية تملأ وجدانه ولا تترك له فرصة للاستمتاع وتذوق الجمال الذي يحيط به. وفي أسوان كتب رسالته حول ملكية العائلة» وعلى جزيرة فيلة سجل آراءه حول وضع المرأة المصرية، إلا أنه لم يفقد الأمل في سرعة إعادة بناء البلاد. ويعد إلغاء العبودية إنجازاً كبيرًا، وإذا ما عاد مرة أخرى سيلاحظه فيكتور شيلدر المتشدد. وبعد اعتلائه العرش بقليل قام سعيد باشا - بجرة قلم - بإلغاء هذا النظام الذي دام لأزمنة طويلة.. وكان ذلك بشير حسن.

وعندما تضع مصر نظاماً للملكية الفردية وتقضي على الاحتكار وتعدد الزوجات وتنشأ الدولة المدنية، عندئذٍ ستتحسن العادات بمعدل سريع. إن إعادة بناء الشرق أصعب من الاستيلاء على سباستوبول، كما أن إنقاذه من نفسه أشق من إنقاذه من أعدائه. وعلينا ما استطعنا اليوم جذب الشعوب المتحضرة ورؤوس أموالها وبصفة خاصة المؤسسات التي تتهافت عليها العلوم الأوروبية. إن حفر قناة السويس - بصرف النظر عن أهميته - علاوة على مزاياه الجمة سيجعل من مصر ملتقى تيار حضاري لا ينضب معينه.

---

(١) المصدر السابق حول هامون، شلدر، جيسكيه، الجزء ١ ص ٢٨٩-٢٩٣ .

مما يثير الدهشة أن هذا المشروع الضخم للقناة التي ستصل البحرين لم ينوه عنه الكونت جوبينو الذي وصل إلى السويس في أبريل ١٨٥٥ وهو في طريقه إلى طهران – عن طريق عدن والخليج الفارسي – ليتسلم مهام منصبه الدبلوماسي.

وفي الفصلين الأولين من كتابه «ثلاث سنوات في آسيا» (١٨٥٩) وصف لنا في حوالي أربعين صفحة انطباعاته عن زيارته القصيرة لمصر. فنجد فيها من حين لحين رسومات جميلة عن المقاهي العربية في الإسكندرية بأشجارها القصيرة الوارفة وأغصانها الدانية»،[١] الموجودة في ميدان القنصول ذي الأبنية الصفراء القبيحة وقوافل الجمال والزبائن الجالسين القرفصاء[٢]. كما يصف لنا بانوراما للقاهرة «الواسعة الرحبة المفعمة بالهواء وبالحيوية وبالحرارة وبنسمات الحرية والجمال»[٣]. «القاهرة مدينة المقابرالتي ترتفع قبابها وسط هذه الطبيعة الجافة متضامنة معها لمحاربة قسوة المكان»؛[٤] ويصل بنا «إلى ميدان الأزبكية الذي تملأ أركانه الحمير الصغيرة بيضاء اللون الخبيثة الماكرة» كثيرة الجلبة العنيدة،[٥] ومنه إلى خان الخليلي ذي القباب الحجرية الملونة «النضرة المرتفعة المشبعة بالهواء»، والتجار الذين يتمتعون بلسان فصيح وبحسن الاستقبال وبالأدب الجم؛[٦] لينتهي به المطاف إلى أكواخ السويس واحتفالية «الدهسة» التي سبق أن وصفها كل من نرڤال Nerval وفلوبير Flaubert[٧].

إلا أننا نشعر تماماً أن هذا الرحالة الذي يجيد اللغات الشرقية إجادة تامة يحاول أن يتعدى – بحس العالم والفيلسوف – الشكل الخارجي للأشياء. وعلينا ألا ننسى أنه كان

(١) «ثلاث سنوات في آسيا» -جراسيه - ١٩٢٢ - ص ٨.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢١ .

(٤) المصدر نفسه ص ٢١ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٣ . مدح جوبينو أيضاً طائفة الحمارين ومن بينهم عبد النبي على وجه الخصوص. إلا أن هذه الطائفة الطريفة أصابها تغيير مسل وبالتالي تحول عنها . ،تم إغلاق مدرسة الهندسة،.

(٦) ثلاث سنوات في آسيا ص ٢٧ .

(٧) المصدر نفسه ص ٤٣ و٤٤- انظر ص ٣١ هامش رقم ١ .

قد أتم لتوه كتابه «أراء حول عدم مساواة الأجناس البشرية» Essai sur l'inégalité des races humaines (1855) كما أننا لن تصيبنا الدهشة لانشغاله في المقام الأول بالبحث في خصائص الشعوب وفي تاريخها. ولدى وصوله إلى مصر ترك العنان لفكره العلمي ليحلق فوق مناظر الدلتا الطبيعية. «يا لها من نسمات عليلة ورطبة والنخيل والأشجار تتباعد أغصانها عند غروب الشمس، وتنتشر ظلال الحزن والعظمة في آن واحد ومعها هذه الفكرة التي تثير القلق، فهنا النيل وهنا مصر وهنا التاريخ العظيم الذي يهزنا والذي لا نعرفه»[١]..

وبالنسبة لمصر ليس من الصعب إدراك ما يتمتع به من قدرة على التنبؤ. فهو يحب الجزيرة العربية وبلاد فارس وأسيا أكثر من حبه لأفريقيا - بلاد الأجناس السفلى - كما نجد أنه في منتهى القسوة مع الأقباط «بقايا مصر القديمة أي السيئ الذي تبقى من الأمة التي تلاشت»[٢]..وهكذا نرى أنه في الوقت الذي يقل فيه اهتمام بارتيليمي سانت هيلار - الذي زار القاهرة في نفس العام - بالفن العربي ، يشيد جوبينو بجمال المساجد. وهنا علينا التوقف لأننا في عصر تخفى فيه بسهولة مصر الفرعونية - بفضل عمليات التنقيب الذي يقوم بها لبسيوس وماربيت - وجه مصر الإسلامية عن عيون الرحالة الفرنسيين. «لن نستطيع أن نوفي بحق المساجد إلا إذا رأينا ما قام به الفن الإسلامي من أعمال كاملة متكاملة وجميلة»[٣]..

الزخرفة العربية البهية التي تغطي أبنية آسيا كلها، هم وحدهم، هم ورجال الهند الذين استطاعوا صناعتها من الرخام والأحجار. أما بالنسبة لشعوب أخرى، مثل أهل فارس والآشوريين، فقد اكتفوا بصنعها من الجبس، ويبدو أن هؤلاء المماليك الذين كانوا بالأمس عبيداً، عندما تقلدوا سيوفهم واعتلوا الإمارة لم يألفوا سوى الأفكار المجيدة؛ فكل

(١) المصدر نفسه ص ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨ .

ما شيدوه لم يسبق له مثيل على مستوى الأعمال الإسلامية في بقية أنحاء العالم .. إلا في الهند أيضاً. وكانت روح المنافسة الضارية المشتعلة بينهم تترجم من خلال ملكاتهم الفياضة. وهكذا رأينا أن جامع السلطان حسن المهيب بناه - في وقت خلت البلاد فيه من حاكم - أحد الطامعين في الحكم الذي كان يريد قتال منافسه - سيد القلعة - والذي لم يجد صعوبة في بناء تحفة رائعة على شكل معبد يتخذها قلعة حصينة مثل المبنى الذي يواجهها[1]..

ونحن ندرك إذًا كيف تمهل جوبينو طواعية في فناء جامع الأزهر محاولاً العثور من خلال مدرس صغير ذي أنف مدبب ومعمم الرأس يجلس القرفصاء في الظل أسفل أحد «الأعمدة» على صورة الإسلام المستنير كما كان آنفاً.

كما دأب على التجوال في فناء المدينة وفي حاراتها الضيقة بحثاً عن كيفية «تصنيف» النماذج البشرية التي يلتقي بها، واستخلاص السمات الأساسية لكافة الأجناس التي تعيش وتتلاقى على مصر الأرض العتيقة.. مصر ملتقى القارات. إذ يحيا فيها الأقباط «السلالة الشرعية ذات الوضع الدوني لمصر البيزنطية»[2].. والفلاحون الذين يمتزج نسيجهم - أكثر مما نعتقد - بالعناصر الزنجية والعربية[3].، والبدو الرحالة اللصوص[4]. والأتراك «العسكر المغامرون الذين جاءوا من المناطق البوسنية والألبانية»[5]. غير المحبوبين الذين «تتسم تصرفاتهم - من واقع غرورهم الأرستقراطي لأن أصولهم ترجع إلى الرسول - بصلف محدثي النعمة الذين يزهون بأنفسهم»[6]..

---

(١) ثلاث سنوات في آسيا ص ٢٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٥ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٧ .

(٦) المصدر نفسه ص ٣٨ .

وكان هذا أسلوبه في استعراض الأجناس[١]. «خلال إقامتي في القاهرة اهتممت بكل هذه الوجوه المتنوعة والعلاقات المتباينة التي تجمعها. وقد كنت أجد في ذلك متعة لا حد لها، وبلا شك لو تيسر لي الوقت للتقرب من السكان الأصليين والتغلغل فيما وراء ظواهر الأشياء لزادت استفادتي»[٢]..

ولكنه كان واهماً فـفكره لم يكن هنا، إذ إن مصر لم تكن مأربه فيما وراء المرتفع الصخري للمقطم، كان بصره الثاقب يحلق في آفاق أخرى .. الآفاق المجهولة الغامضة للجزيرة العربية. وما كان يجذبه - شأنه شأن سلفه البعيد جان دي تيفونو Jean de Thévenot- هي هضبة إيران مهد الجنس الآري، ومنه جاءت الإنسانية البدائية بالأجناس السفلى وأقامت الحضارات. وفي السويس - وهو المكان النائي البائس الكريه ذي العشش التي تنتظر وصول القادمين من الهند والذي يخلو من الشجر ومن الموارد ومن يسر العيش والخالي من أي شيء ما يجذب على الإطلاق - يشعر بأنه يقف على عتبة عالم جديد». ويقول «يمكننا اعتبار القاهرة مدخلاً للحياة في آسيا البعيدة. القاهرة شئ آخر .. كل كامل في ذاته. ولكن في السويس ندرك أن الشيء الغريب المثير ليس بعيداً عنا»[٣].. وفي الثاني عشر من أبريل رحل مع زوجته وابنته على ظهر السفينة الإنجليزية فيكتوريا في طريقه إلى الخليج الفارسي دون أن ينتابه أدنى شعور بالأسف لعدم تعرفه على مصر الفرعونية. وكان قد ذهب لتحية أبو الهول وأهرامات الجيزة»[٤]. ماذا نطلب منه أكثر من ذلك؟ بل يمكننا القول بأنه لم يسمع قط عن اسم أوجست مارييت.

III

إن بارتيليمي سانت هيلار هو الذي قدم مارييت، عام ١٨٥٧، إلى فرديناند دي ليسبس الذي كان يتمتع بنفوذ واسع والذي طلب منه مارييت - عالم الآثار - تقديمه إلى الوالي سعيد ومساعدته في إنشاء دار الآثار القومية.

(١) المصدر نفسه ص ٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤٠ .

وقال له ماربيت لقد أمضيت أربع سنوات بين الفلاحين ورأيت خلالها ما لا يصدقه عقل من اختفاء ٧٠٠ مقبرة من منطقتي أبو صير وسقارة». وقدم له في نفس الوقت تقريراً حدد فيه خطته. ولكي يقبل سعيد وهو الذي يتمتع بفكر مستنير، صرف نفقات جديدة كبيرة ربط دي ليسبس بين هذا المشروع والزيارة المرتقبة للأمير نابليون بونابرت ابن الملك جيروم وقريب الامبراطور. ألم يكن من الواجب الاحتفال بقدومه احتفالاً لائقاً ودراسة خط سيره والإعداد الجيد للمواقع الشائقة التي سيزورها والآثار اللائقة التي ستهدى إليه ليضمها إلى مجموعته؟ ولم يكن هناك أكفأ من ماربيت، منقب الآثار المقدام، ليصحبه خلال إقامته، إلا أن الأمير أجل سفره[1] ولكن ماربيت أسرع من باريس (١٨٥٧) ليظل في القاهرة .. وهكذا أنشئت دار الآثار.

ولا نستطيع هنا الحكم على ما قام به ماربيت من دراسة لعلم المصريات، إذ إننا لسنا على دراية تامة بالجانب العلمي من شخصيته[2]، ولن نتوقف إلا عند ماربيت الإنسان والكاتب. ياله من قدر مثير للدهشة ذلك الذي جعل هذا الشاب مدرس الصف الخامس الابتدائي ومدرس الرسم للمرحلة الإعدادية في إحدى مدارس مدينة بولوني مورمير الريفية، كاتب الروايات الرديئة والمهتم بشئون الصحافة المحلية والذي كان أميناً لشركات الصيد والزراعة والهيئة الخاصة بتاريخ هذه المدينة الصغيرة .. ذلك القدر الذي جعله يوماً يفتش في أوراق أحد أقربائه ويدعى نستور لوت ليشعر بذات الولع المتمكن من علماء الآثار المصرية، فيعكف بمفرده على دراسة اللغتين القبطية والهيروغليفية ويذهب إلى باريس لفحص غرفة ملوك الكرنك ويكتب عنها بحثاً يجذب انتباه شارل لونورمان ! كان هذا في الفترة التي كان فيها الإنجليز يستولون على جميع المخطوطات اليدوية التي كانوا يعثرون عليها في أديرة الأقباط في مصر؛ كما أننا لم ننس نجاح تاتام Tattam وكورزون Curson اللذين أثملا قساوسة وادي النطرون واستوليا – رغماً عنهم – على مخطوطات

---

(١) لم يأت الأمير نابليون إلى مصر إلا في ١٨٦٣/١٨٦٤ واهتم بصفة خاصة بحفر قناة السويس. وصحبه الرسام Barry تلميذ جودان واستضافه ماربيت وسافر معه لزيارة الآثار في الصعيد ليقف على ما قام به من عمليات التنقيب هناك.

(٢) انتهز الفرصة لأشكر ش. كونتز لأنه تفضل بقراءة الصفحات التالية وقدم لي الاقتراحات القيمة حول بعض النقاط التي تدخل في صميم اختصاصه.

يدوية أثيوبية وسيرياكية لم نعرف أثمن منها. واقترح شارل لونورمان على مارييت السفر إلى مصر بحثاً عن المخطوطات اليدوية القبطية، وأقرضه - بدلاً من معتق الشراب المسكر - مبلغاً متواضعاً يصل إلى ٦٠٠٠ فرنك، ولكن بطريرك القاهرة توجس خيفة، وعندما التمس مارييت لدى وصوله من السلطات المصرية السماح له بزيارة الأديرة، لم يكن هناك ما ينبئ بسرعة الإجابة. وطالت الإجراءات ونفذ صبر مارييت. والمخطوطات اليدوية القبطية؟ كانت هذه هي الذريعة: أما الهدف الحقيقي فكان منطقة المقابر المتوارية منذ قرون تحت رمال صحراء ليبيا .. كان الهدف الجيزة .. وسقارة. ممفيس كانت في انتظاره. هذا هو الشعور الذي انتابه بغتة والذي ألهمه أيضاً - فيما بعد - إحدى صفحاته الأكثر إثارة. وليس هناك أفضل من ما سبق ليعطينا فكرة عن مارييت الإنسان والكاتب[1].

«ومن أعلى القلعة، كان المنظر العام للقاهرة من أجمل ما يمكن للمرء رؤيته. وقد رأيت ذلك في اليوم التالي لزيارتي للبطريرك أي مساء السابع عشر من أكتوبر ١٨٥٠ . وكان الهدوء خلاباً والمدينة تمتد بأطرافها أمامي يلفها الضباب الكثيف الذي يغطي حتى أسطح المنازل. ويشق هذا الضباب ثلاثمائة مئذنة ترتفع كسواري الأسطول. وتتراءى بعيداً في الجنوب حقول النخيل ذات الجذور الضاربة في أطلال ممفيس.

أما في الغرب فالأهرامات الشامخة وسط الرمال الذهبية القانية، وقت الغروب .. في مشهد مهيب يتملكني ويسيطر علي بشدة .. شدة شبه موجعة.

ولتغفروا لي هذه التفاصيل التي ربما كانت شديدة الخصوصية. ولكنني إذا أصررت فلأن اللحظة الحاسمة قد أزفت. فأمامي الجيزة وأبو صير وسقارة ودهشور وميت رهينة (ممفيس).. حلم حياتي يتجسد أمامي. هنا وفي متناول يدي عالم من المقابر والمسلات والنقوش والتماثيل. هل هناك أكثر من ذلك؟ وفي اليوم التالي استأجرت ثلاثة

---

(١) جزء من سيرابيوم دي ممفيس وهي دراسة نشرها ماسبيرو بعد وفاته عام ١٨٨٣ .

بغال لحمل الأمتعة وحمارين لي، واشتريت خيمة وبعض المؤن وكل مستلزمات السفر في الصحراء. وفي العشرين من أكتوبر - نهاراً - كنت قد شيدت خيمتي أسفل الهرم الأكبر»[١].

ونحن نتعرف هنا على الإنسان المفعم بالحماس والنشاط ذي الإرادة القوية الذي وصفه إدموند آبو في روايته «الفلاح» وصفاً دقيقاً جميلاً «عالم كما لو كان بندكتي، شجاع كأنه زواوي، صبور كحفار على النحاس .. ساذج وطيب كالأطفال ولو أنه سريع الغضب، تعيس شديد التعاسة ومبتهج ابتهاجاً لا مثيل له .. ذو دخل متواضع، فقير يخالط الصفوة، لا يلقى تقديراً من الموظفين ولا من الشعب .. شريف وحساس إلى حد السخرية»[٢]. وبهامته الطويلة وجسمه العريض ولحيته الصهباء التي تحيط بوجهه وعينيه الحمراوين المنتفختين من الالتهابات ويديه الخشنتين وبقفشاته والنكات التي كان دائماً ما يطلقها .. بكل ما سبق كان مختلفاً عن شامبليون الهزيل الرشيق! ولكن كم كان يكمله ! فالأول كان يميل إلى السكون والتأمل والبحث، أي من طراز عالم اللغة الحقيقي القدير. أما الثاني المحب للطعام والشراب فكان كثير الحركة والصخب، مفعمًا بالحيوية وبخفة الروح، يتمتع بملكات ربانية[٣]. وقادر على قلب موقع للأطلال رأساً على عقب وعلى حث فرق العمال معه على الإسراع في العمل، يطلق صيحات الإعجاب أمام المسلة التي تعلو بهامتها من بين الأنقاض: إنه عالم آثار يخفي وراء طبعه الفظ فناناً حقيقيّاً. «وقد كان

---

(١) دراسة مرجعية لماسبيرو- مكتبة المصريات- الجزء ١٨ ص ٧٢ .

(٢) الفلاح «هاشيت» - ص ٢٦٠ .

(٣) يروي إدموند آبو- وهو أحد الظرفاء- الواقعة التالية. «ذات ليلة والنجوم تتلألأ في السماء ذكر لنا ماريت وصفاً لجميع الأمراء الذين صحبهم في رحلاتهم إلى الصعيد. وأعتقد أن ما سرده كان خلاباً بالفعل. إن الطيبة وروح الدعابة التي يتمتع بهما ماريت واللتين تصلان أحياناً إلى منتهاهما قد تركا في نفسي صورة واضحة تماماً لهذه الشخصيات حتى انني يمكنني وصفها بدوري لو أردت. إن الأمير نابليون والكونت دي شامبور وأمير ويلز والكونت دي باري والدوق دي شارتر والدوق دي برابان وهو اليوم ملك بلجيكا قد وقفوا- كل بدوره ودون أن يدروا- أمام رسام موهوب خبير بشئون الرجال». (الفلاح ص ٢٦٦). ويرى آبو أن الأمير الوحيد الذي احتفظ له ماريت بذكرى سيئة هو الأرشيدوك ماكسميليان دي أوتريش الذي أصبح فيما بعد إمبراطور المكسيك والذي تآمر مع الأعراب تحت حماية عباس باشا لسرقة ١٤ صندوقًا من الآثار التي اكتشفت في سقارة وذلك من ماريت أثناء سفره إلى فرنسا وتم إرسالها إليه في المكسيك. (المرجع نفسه ص ٢٦٧).

دائماً ما يعترف لي – على حد قول صديقه وتلميذه الألماني بروغ H. Brügsch في مذكراته – بأن الجزء اللغوي من المهنة لم يكن يستهويه إطلاقاً. وكان يعلل ذلك بحسه الفني الذي لا يستسيغ سوى جمال الشكل. ولم يكن ذلك متوافراً بالقدر المرضي في الآثار المصرية. وكان يشكو من أنه ضل طريقه لأن كل آماله كانت تصبو نحو الجمال وكان يشعر بأنه كان يجب أن يكون أديباً أو شاعراً. إلا أنه وجب عليه التأقلم مع القدر الذي فرضه عليه اكتشاف سيرابيوم والحفاظ على الشهرة التي جاءته بغتة ومواصلة أعماله المستقبلية في هذا الاتجاه». وليس هناك أدنى شك في كون مارييت مخطئاً. فقد كان عالم مصريات كبيرًا وشأنه شأن شامبليون – لو كان قد استمر في محاولاته الشعرية – لكان قد أصبح كاتباً متواضعاً، فالملكة والحس والحيوية لا تنقصه إلا أن أسلوبه لم يكن مضاهياً لإلهامه. فقد اتسمت القصيدة التي ألفها عام ١٨٤١ بمناسبة افتتاح تمثال نابليون الذي أقيم على عمود الجيش الكبير في بولونيا، اتسمت بالتواضع الشديد. كما ذهبت القصص والمسلسلات التاريخية التي كان قد نشرها في بعض الصحف الفرنسية إلى طي النسيان الذي لا يجرؤ إنسان على انتشالها منه. أما سيناريو «عايدة» الذي سنتحدث عنه فيما بعد، فمن الصعب العثور على النسخة الأصلية بعد كل التعديلات التي قام بها كاميل دولوكل Camille Du Locle، فضلاً عن أن هذا السيناريو ليس هو العمل الذي يحقق الخلود لصاحبه.

إلا أن مارييت ينتمي، بفضل عمليات التنقيب الرائعة التي قام بها، إلى لفيف الكتاب الفرنسيين الذين زاروا مصر. وكما أن شامبليون لا يفترق عن أبو سمبل وطيبة وبني حسن، فإن مارييت لا ينفصل عن عظمة سقارة وأبيدوس[1]. فمصره شئ آخر غير مصر التي كنا نعرفها في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وعلاوة على الرسوم المثقبة الخاصة بالطقوس والتقليدية للكرنك، اكتشف فن سقارة، هذا الفن الشعبي المتنوع الذي يجذبنا إليه ارتباك أسلوبه الأثري؛ والذي كان شامبليون قد لاحظ بالفعل تأثيره على الجداريات المرسومة في بني حسن. ويكتشف أبيدوس بنقوشه البارزة الدقيقة الناعمة التي

(١) موري " A. Maury «اكتشافات حديثة لمصر القديمة، ريفودي دوموند عدد ١ سبتمبر ١٨٥٥ .

يتغنى بها الجير الأبيض الذي يماثل المرمر بألحان من السماء. وهو يعلن على الملأ عن أشيائه المفضلة وإذا ما توج فن سيتي الأول فإنه يزدري فن رمسيس الثاني الذي – على حد قوله إدموند أبو – «تشبه خطوطه خطوط الشيطان».(١) وقدم لنا ماربيت باكتشافاته المدهشة مصادر إلهام غير متوقعة للإبداع الأدبي، وتعديلات لآفاق الفن الفرعوني والتطور الإنساني .. ويجب أخذ هذا في الاعتبار ونحن نتفحص آراء رونان وشارل بلان. واستطاع ماربيت كبح جماح نفسه ولم يلتصق طويلاً باكتشافاته الأثرية وتعدى حدود مواقع التنقيب بغية العثور على الجمال الدقيق المتكامل والأعمال الخلابة وذلك عندما استعرض – في مقدمة كتابه «حول تاريخ مصر» – الأزمنة المنصرمة(٢).

«إن بريق مصر لا يومض للحظات فقط – شأن بلاد كثيرة – ليخبو في ليل طويل. فلمصر حظها الفريد في الإبقاء على نفسها طوال سبعين قرناً من الزمان تركت فيه على بعض الحقب آثاراً لا يستهان بها. ففي العصور الفرعونية، كانت مصر في فجر التاريخ هي الأم للأمم قاطبة. وها هو خوفو في زمن لم تكن فيه اليابسة تعرف لها تاريخًا بعد، يبني ما لم يستطع الفن الحديث التوصل إليه. وها هم تحتمس وأمينوفيس ورمسيس كل يسحب وراء عجلته جميع الأجناس البشرية التي كانت معروفة آنذاك. وتحت الحكم اليوناني والروماني، كانت مصر هي المسيطرة بأفكارها مثلما كانت تسيطر آنفاً بسلاحها. وكانت أسس الإسكندرية الفلسفية – إبان إحدى الأزمات الطاحنة – هي التي قادت حركة التاريخ التي تمخض عنها العالم الحديث. وفي العصور الوسطى، كان الفن العربي هو الذي أقام في القاهرة عجائبها الفريدة .. والحروب الصليبية وسانت لويس الأسير في المنصورة. وفي مطلع القرن كان بونابرت وحملته المحفوفة بالمخاطر والباهرة في آن واحد .. والآن هو حكم محمد علي .. هي الحضارة التي ولدت على ضفاف النيل .. هي مصر التي تخطو بخطى واسعة على طريق التقدم .. ومن هنا تجذب إليها نظر العالم أجمع!».

ولتشريف مصر الحديثة ولزيادة صدى احتفالاتها، أخذ ماربيت يسبر أغوار مصر الأثرية ويحيي الماضي ويستعطف عالم الأرواح والأموات .. ليس من خلال إعادة إحياء

(١) الفلاح ص ٢٦٥ .

(٢) حول تاريخ مصر ص ٦ .

أثري مثلما سبق أن قام به بجدارة إبان المعرض العالمي عام ١٨٦٧ ولكن - ومن يصدق؟ - من خلال سيناريو أوبرا ! واستيقظ الأديب السابق وكاتب المسلسلات وهو في الخمسين من عمره ليكتب في ساعات قليلة حكاية عايدة المؤثرة. وفي ٨ يونيه ١٨٦٩ كتب يقول لأخيه تخيل أنني كتبت أوبرا عظيمة يلحنها فردي لتعرض على مسرح القاهرة في شهر فبراير المقبل، وصلت نفقاتها إلى المليون دفعها نائب الملك، أرجوك لا تضحك فالأمر في غاية الجدية».

ولنتخيله في منزله في بولاق وهو يكتب منشرحاً هذا السيناريو الذي سيطبع منه عشر نسخ من ورق فاخر لدى صاحب مطبعة من أصدقائه يدعى ميوريس. ولأول مرة يهجر أبطاله المألوفين شفرين وسيتي الأول ورمسيس الثاني من ذوي التاريخ المسجل في النصوص وعلى الآثار، هؤلاء الفاتحين العظام الذين لا علاقة لهم بالأساطير ولا بتقلبات الإلهام الشعري. وبطلته اليوم هي السمراء عايدة ابنة أموناصرو[1] ملك أثيوبيا التي أصبحت جارية للأميرة أمنريس[2]. وفيما بين هاتين المرأتين نرى الكابتن راداميس الشاب جميل الطلعة الذي يعهد إليه الفرعون بمهمة الدفاع عن طيبة والقضاء على الحشود الأثيوبية التي تزحف إلى العاصمة. ولا يتجاوب هذا الشاب مع مشاعر الأميرة أمنريس لأن قلبه معلق بحب الجارية عايدة. ويخرج في عجالة إلى القتال محفوفاً بترانيم كاهنات بتاح لتحقيق النصر المقدس. ووسط طبول المعركة يعود راداميس منتصراً ويدخل المدينة وسط جنوده مزهواً بنصره في موكب مهيب مثل الفرعون في «قصة المومياء» يحوط به الكهنة والمقاتلون ووراءهم الأسرى ومن بينهم أموناصرو ملك أثيوبيا ووالد محبوبته. ولهذا الانتصار الساحق مكافأة مبهرة تليق به .. ويتفضل الفرعون بتزويج ابنته للقائد المنتصر. إلا أن أموناصرو العجوز لا يعتبر نفسه مهزوماً ويستخدم عايدة كأداة للانتقام؛ فتسعى إلى حبيبها لتنتزع منه سر التحركات العسكرية المقبلة حتى ينتصر والدها وتتحرر هي من

---

(١) اسم ملك من ملوك الحبشة محفور على أسود جبل باركال في المتحف البريطاني (بريس دافين «المجلة الأثرية، ١٥ فبراير ١٨٤٧ ص ١٠).

(٢) أمنريس تشبه أمنريتيس إحدى ملكات الأسرة الخامسة والعشرين في اثيوبيا والذي عرض لها مارييت تمثالاً في المعرض العالمي عام ١٨٦٧ .

قيود الأسر المهينة. ولراداميس الزواج والسعادة. ولكن في اللحظة التي يخضع فيها القائد تظهر الأميرة أمنريس وتسمع كل شيء ويتم القبض على المتهمين ويمثلان أمام محكمة الكهنة ويغلق عليهما حيين في قبرهما. وفي أثناء وضع الحجر الذي يسد القبر وترتيل الترانيم الجنائزية، يغني كل من عايدة وراداميس - مثل تريستان ويوزوت - بنشوة ترنيمة نهاية الحياة وبداية الموت ويبتهجان بالأمل الأعظم في الحب الخالد.

ويختلف هذا التحليل تماماً عما جاء في «قصة المومياء» من سمات تقليدية ولهذا علينا عدم الاعتماد عليه. ولكن كيف يمكننا اليوم الوقوف على ما كتبه حقاً مارييت؟ فهو الذي قدم النسيج الأولي للعمل إلى فردي الذي نقش عليه خطوطه اللحنية، ثم - وبترتيب خاص - تم تكليف كاميل دي لوكل - مدير الأوبرا الكوميدية الذي كان في إيطاليا - بمهمة تطوير المشاهد التي كتبها مارييت. وأخيراً أعطيت النسخة المعدلة - على شكل تصميمات - إلى الروماني الملحن الإيطالي جيسلا نزوني Ghislanzoni التي ساعدت أشعاره فردي في تأليف موسيقاه النهائية. وأصبح هذا الشعر - الذي ترجمه كل من كاميل دي لوكل ونويتر إلى الفرنسية - هو الذي يمثل النسخة المتداولة لعايدة. وها نحن الآن بعيدون كل البعد عن ما خطه مارييت بيده في النسخة الأولية!

وعلى الرغم من التعديلات التي فرضت عليه إلا أنه ظل متمسكاً بهدوئه واجتهد لكي يحقق - عن طريق الخطوط الأصيلة للديكورات والملابس - جزءاً من هذه الحقيقة التاريخية الذي كان قد ابتعد عنها أمام العرف المتكلف للمسرح الغنائي. وكان يحرص تماماً على الاستعداد الدقيق للعرض الأول في باريس والمنتظر في بداية صيف ١٨٧٠[١] ولم يكن هناك أفضل مما قام به شقيقه الأصغر ادوارد مارييت الذي كان قد استدعاه إلى القاهرة لمعاونته.دائماً ما كان يأخذ ما يحتاجه من المسلات ومن النقوش، ليستخدمه في تكوين الطرز. حتى أننا في عام ١٨٦٦ (ونحن نستعد لمعرض ١٨٦٧) كحتنا بالآلات الحادة

(١) كان من المفترض ان تعرض «عايدة» في افتتاح أول موسم للأوبرا المصرية الجديدة التي شيدت في ميدان الأزبكية وذلك بحضور الإمبراطورة أوجيني، إلا أنها لم تكن قد اكتملت بعد وتم عرض «ريجوليتو» في أول نوفمبر ١٨٦٩ احتفالاً بالوفود التي حضرت للمشاركة في افتتاح قناة السويس. وفي اليوم الثالث للعرض نشب حريق في المبنى أدى إلى إغلاقه فترة من الوقت «جريدة النيل، نوفمبر ١٨٦٩».

قمم فيلة لنحصل على عينات من الألوان ليحاكيها أحد معاصري الإسكندرية. وطالما بحث في دفاتره عن الملابس ذات التصميمات الخاصة وعن ثنيات صدرة أحد الأحبار وعن شكل باروكات الشعر وتسريحات أفراد العائلات الملكية ورجال الدين أو عامة الشعب؛ كما بحث عن المقابض وأنصال الخناجر والسيوف وحلي النساء والأعلام والشارات وحتى منشات الذباب .. وعن آلاف التفاصيل الأخرى التي كان يبغي من ورائها تحقيق الأصالة والعودة إلى العصر الأثري في أدق تفاصيله ليحظى بالمصداقية في عيون جمهور المحترفين من مشاهدي المسرح»(١).

وكان على ماريبت سرعة السفر إلى باريس إلا أنه ظل متخوفاً من هذه المرحلة. فقد كان متعباً ويخشى على نفسه مما سيلاقيه من تعب ونصب خلال إقامته هناك. ومن جهة أخرى كانت ابنتاه اللتان تعيشان معه في القاهرة تحثانه على السفر، وكتب إلى أخيه إدوارد الذي كان قد سبقه في ٢١ يونيو ١٨٧٠ يقول: «هذا السفر يبهجني ولا يبهجني في أن واحد. إني أخشى تكرار تجربة المعرض. هنا كنت مسيطرًا على كل شيء ومنظمًا كل شيء وفي الوقت الذي كنت أضحي فيه بكل شيء كان الآخرون يجنون ثمار جهدي. لقد أعطيت للمعرض وقتي وثمرة جهدي وفي الوقت الذي كنت أصرف فيه من حر مالي كان شارل إدمون(٢) يبني بيتاً لدامينوس(٣) ويجني المال. هل سأقع الآن في نفس الفخ؟ وحقيقة أنا لم أضع الأوبرا، وحقيقة أنا لم أكتب سوى الرواية، إلا أن السيناريو لي، أي أنني وضعت الأسس ونظمت كافة المشاهد وأن لب الأوبرا من بنات أفكاري. ثم إنني أنا الذي سأذهب إلى باريس لتنفيذ الديكور وتصميم الملابس ولأضفي على كل شيء الصبغة المحلية التي يجب أن تكون مصرية أثرية. والآن ماذا حدث؟ يحدث أن فردي وقع بالفعل عقداً مع نائب الملك قيمته ١٥٠ ألف فرنك، وأن دي لوك سيقبض أتعابه بصفته الكاتب، وأن صانعي الديكور والملابس سيحصلون على نقودهم، وأن در سيحصل على المبالغ

(١) ماريبت باشا- رسائل وذكريات شخصية لادوارد ماريبت - باريس ١٩٠٤ ص ٨٣ وص ١٩٩ إلى ص ٢٠٢.

(٢) كان شارل إدمون يبني بالفعل فيلا في بلفو بالقرب من باريس (انظر ص ١٩٤).

(٣) رجل يوناني اصبح مساعداً لماريبت في هيئة الآثار وكان قد صحب عام ١٨١٩ المدعوين الفرنسيين لحضور احتفالات افتتاح قناة السويس إلى صعيد مصر.

التي تم إنفاقها . كل ذلك يتم في الوقت الذي لن أستطيع فيه دفع نفقات الفندق الذي أقيم فيه في باريس، لأن نائب الملك يرى ببساطة شديدة أنه يكفيني ويزيد ما تركني أحصل عليه من مرتب(1). أعرف أنه يمكنني الرفض والقول بأن هذه ليست مهنتي. ولكن كيف أرفض رؤياكم جميعاً وأين السبيل، وكلما وقعت أعين ابنتي جوزفين وصوفي عليّ تصرخان في وجهي:أبي متى نسافر؟».

ياله من جهد لا طائل منه ! يصل مارييت إلى باريس في الوقت الذي يظلم فيه الأفق من كل جانب، فقد اندلعت الحرب وتأجلت البروفات. وفي الحقيقة دفنت عايدة البائسة للمرة الثانية! ولم تعرض في باريس وبالإيطالية على المسرح الذي يقع في شارع مونسيني إلا في عام ١٨٧٦ .

وإبان هذه الفترة كان ماريت قد تخلى وللأبد عن فرنسا، وحتى بعد أن تم انتخابه عضواً في المعهد إلا أنه كان ينتمي وللأبد إلى مصر. وكتب يقول إلى أرنست ديجاردان Ernest Desjardins الذي كان يلح عليه للعودة إلى بلاده : «في حياتي كلها فعلت شيئين يعرفهما العالم أجمع، السرابيوم ومتحف بولاق». وعبثاً تم تعيينه مديراً للمكتبة القومية واختياره سناتورًا وأميناً لمتحف اللوفر وأعطى مقعدًا في كوليج دي فرانس.. إلا أنه ظل في مصر.. وفيّاً لهيئة الآثار التي أقامها ولأعماله التنقيبية ولمنشوراته وللتوسع الفرنسي في الشرق الذي كان يجب تدعيمه - بعد هزيمة ١٨٧٠ - بقلب واع يقظ. ولم تكن المهمة يسيرة، فقد كان هدفاً للعديد من المؤامرات والمناورات، كما كانت نعم الخديوي عليه كثيراً ما تفتر. وكثيراً ما نفد صبر ماريت وعلا غضبه إلا أنه أبداً لم يستسلم ولم يفقد همته. ألم يكن عليه أن يحفظ، ليس فقط الآثار لمصر، ولكن أيضاً لفرنسا إنجازاتها؟ وقد وجه إليه اللوم (وبخشونة من جانب بريس دافين)(2) بسبب صبره وما اتصف به من مرونة دبلوماسية إزاء الخديوي(3). ولكن مثلما ذكر بإنصاف أوجين ملشيور دي

---

(١) كان يحصل على مرتب يصل إلى ١٨ ألف فرنك.

(٢) المرجع السابق الجزء الأول ص ٣١٥ وص ٣١٨ .

(٣) كان ماريت دائماً ما يرد على بريس دافين خشونته. وفي كتابه "خط السير في صعيد مصر" طبعة ١٨٨٠ قلل من أهمية اكتشاف غرفة الملوك وحرص على عدم الإشارة إلى اسم بريس ص ١٣-١٤ .

فوجي Eugène Melchior de Voguè علينا عدم إغفال الصعوبات التي كان عليه مواجهتها والعقبات التي كان عليه تخطيها حتى نتمكن من الحكم عليه بعدالة حقيقية. «شئنا أم أبينا كان مارييت يمثل جزءاً من قصر نائب الملك شأنه شأن رئيس اسطبلات الخيل ورئيس العبيد السود المخصيين. كان لهم عالم مصريات كما كان للسلف عالم فلك، كان موظفاً للتباهي به يحتل مكانة سيئة، ليس بالمستهزأ به ولا بالمبجل. وكانت الموضة قد تغيرت إلا أن الفكر لم يتغير، وكان على البك التأقلم مع عادات القصر وتحمل التبعات مثلما كان يستفيد من المغانم.. وكان ينتظر أسابيع وأسابيع حتى يحظى بالدخول، مرتقباً لحظات المنة التي ستمنحه فرصة كشف الردم عن عبيدوس أو التنقيب عن طانيس .. وكان الإيمان يضاهي المشقة وكان إيمان مارييت هو العلم»(١).

وقد عرف العلماء الحقيقيون قدره كما كان هو نفسه عليماً بتضحياته. وبدأت الجامعات البعيدة والأكاديميات في لندن وفي روما وفي باريس تبعث إليه بالمعجبين وبالمريدين، مما كان يخفف عليه من وطأة التجاهل واللامبالاة التي يعاني منهما في مصر. ولم يكن هناك بالنسبة له لا أحسن ولا أجمل مما قاله رينان في ريفو دي موند عام ١٨٦٥: «لقد أسس أكبر هيئة علمية في زماننا»(٢).

IV

في عام ١٨٦٤ وهو ذات العام الذي كان منهمكاً فيه في إزالة الردم عن معبد أبيس، استقبل مارييت في القاهرة الكاتب المشهور الذي كتب «حياة يسوع». وعانى في هذه الفترة بشدة من سوء المزاج الذي كان واضحاً عليه. وفي الواقع، عندما كان يخلي الردم على طول الرواق المؤدي من القاعة المعمدة إلى الغرف غير مكتملة البناء - والتي كان القبط قد حولوها في ما مضى إلى كنيسة - اكتشف حائطًا مغطى تماماً بالتكفيف البيضوي الملكي. ربما لأنه لم يكن لديه الوقت الكافي لفك رموز النقوش أو ربما - بسبب

(١) «رسائل وذكريات، مطابع مارييت، المقدمة وص ١٣٣ .

(٢) حضر عالم اللغة والأثري الشهير دي سوليه L. F. de Sauley (1807-1880) أيضاً إلى مصر تقريباً في نفس الفترة التي حضر فيها رينان إلا أن مذكرات رحلته (١٨٦٣-١٨٦٩) لم تنشر (مكتبة المعهد ٢٢٥٩-٢٢٦٣).

ميوله الفنية – أخذته النقوش البارزة الساحرة للقباب السبعة وللقاعة المعمدة، فلم يدرك في التو الأهمية العظمى لاكتشافه. فقد اكتشف توأم «غرفة الملوك» التي حملها بريس دافين إلى باريس، كما اكتشف ملحق أول جدول تاريخي لأبيس مجزأ ومبتور والذي كانت إنجلترا قد اشترته عندما بيعت مجموعة ميمو؛ أي باختصار، يتعلق الأمر بالمجموعة الرائعة التي ما زلنا مبهورين بها اليوم والتي نطلق عليها ثاني جدول لأبيس. لعبت الصدفة دورها فأتت في هذه الفترة بعالم ألماني شاب يدعى جوهانز دوميخن Johannes Dumichen أدرك أهمية الاكتشاف النفيس، وفي التو واللحظة قارن بينه وبين جدول مانيتون Manéthon ورأى أنها فرصة عمره لاستكمال القوائم المعروفة لسلسلة الأسر الفرعونية، كما أسرع بترجمة التكفيف البيضوي وأرسلها إلى لبسيوس الذي سارع بدوره إلى نشرها دون أن يجد الوقت حتى للإشارة إلى اسم مارييت. وعلينا تخيل مدى الغضب الذي أصاب هذا الأخير، هل اشتكى إلى رينان من أسلوب التعامل على الطريقة الألمانية؟ لا أدري. إلا أن كاتب «جذور المسيحية» أرجع إليه الفضل صراحة في اكتشاف ثاني جدول لأبيس وذلك في مقال كتبه في «ريفو دي دوموند» في أول أبريل ١٨٦٥[١].

عندما وصل رينان إلى مصر كان كتابه «حياة يسوع» قد نشر لتوه وجعل منه – بين عشية وضحاها – من أشهر كتاب أوروبا. وتم بيع ٦٠ ألف نسخة في الصيف السابق على وصوله وتمت ترجمته إلى الألمانية والإنجليزية والإيطالية والإسبانية والروسية والدنماركية والسويدية والهولندية والمجرية والبرتغالية .. الخ. ويرى سانت بوف Saint-Beuve أن هذا النجاح الباهر يفوق نجاح أشهر الأعمال الأدبية. وزادت أصداء النجاح الذي حققه العالم – في عيون العامة – ومعها صدى الجدل الذي تلى ممارسات الاضطهاد الرسمية. ونحن نعرف أنه بعد مرور عام على تعيينه في كوليج دي فرانس (١٨٦٢) ألغيت محاضراته تماماً بعد أن كانت قد توقفت لفترة. وبالنسبة لرجل مثل مارييت كان رينان زميلاً، معلماً ومعلماً مبجلاً وكانت زيارته تشريفاً لمصر، وهذا ما يفسر لنا العناية الشديدة التي أولاها له لدى وصوله.

(١) احاط ماريت حفرياته عام ١٨٦٩ بسياج منيع عندما قام ضيوف الخديوي ومن بينهم لبسيوس ودوميخن بزيارة معبد ابيس. فقد كان يخشى «من عيون العلماء الألمان الفاحصة» ويريد «الاحتفاظ لنفسه فقط بأولوية اكتشافاته». تاجليوني Taglioni «شهران في مصر» باريس - اميو - ١٨٧٠ - ص ١٨٠.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تطأ فيها قدماه أرض الفراعنة. فقد زار رينان مصر عام ١٨٦١ إبان مهمته الناجحة في فينقيا ولكنها كانت زيارة خاطفة واقتصرت على الإسكندرية. وفي عام ١٨٦٤ لم تكن مصر هي الهدف. وقبل الشروع في كتابة «القديس بولس» وهو الجزء الثالث من «جذور المسيحية» أراد رؤية الأماكن التي توقف فيها النبي، وهي دمشق وأنطاكية و Sélucie وأثينا التي كانت تستهويه أكثر من القاهرة، إلا أن نيته كانت تتجه إلى مصر حتى دون إلحاح مارييت عليه.

أبحر رينان في ١٦ نوفمبر إلى الإسكندرية ولكنه لم يمض فيها سوى يوم واحد، فقد كان يكره المدينة الحديثة «لقد وجدتها كما تركتها منذ ثلاثة أعوام، قذرة، متربة، سوقية، لا أخلاق لها وتثير الاشمئزاز». ولم يؤثر حفل الاستقبال البهيج الذي أقامه فرانسوا برافي - رجل الأعمال المرموق الذي كان ملهم شخصية نباب[١] - عليه ليبقى مدة أطول بين «أجمل زهرات العالم»[٢].

كان مارييت ينتظره في القاهرة وصحبه في زيارة الأهرامات وسقارة ومتحف بولاق. وربما ساعده أيضاً ليحظى باستقبال الخديوي إسماعيل، وقد علق على ذلك قائلاً: «إن الخديوي رجل هادئ ذو تربية عالية ونوايا حسنة، ولكن يا له من ثري، رباه!» ولم يأت رينان إلى مصر لدراسة العادات الاجتماعية المعاصرة بل كان سيواصل رحلته إلى الخليل وسوريا عندما نجح مارييت في تغيير خططه «أقنعني مارييت بالبقاء لرؤية مصر بأكملها كما أن الخديوي منحني - بكرم نادر - كافة التسهيلات التي تعطى للشخصيات المتميزة جداً. وكان مارييت مرشدي الذي لم يفارقني». وهكذا تمكن من إنجاز مهمته في صعيد مصر وأبحر في النيل حتى وصل إلى أسوان «في ظل أفضل الظروف... وهكذا رأيت كل شيء واستمتعت به».

---

(١) ألهم برافي ألفونس دوديه شخصية نباب، كما ألهم سليمان باشا شارل أدموند شخصية البطل في «زيفيرين كازافان في مصر». وظهرت الروايتان على التوالي عام ١٨٧٧ و١٨٨٠ ولا تدخلان في إطار هذه الدراسة. وإذا كنا نقم هنا بتحليل أدبي لكتاب شارل أدموند إلا أننا لا نغفل أهميته كمرآة لمجتمع القاهرة في ١٨٥٠ وهي الفترة التي عاصرها الكاتب وسوف نلجأ إليها فيما بعد كمرجع طريف لعادات ذلك الزمان.

(٢) رسالة إلى بارتيلو، ١٦ نوفمبر ١٨٦٤ .

طالت الرحلة لمدة ثلاثة أسابيع وبالطبع لم يندم رينان على هذا التعديل. أندري ما هو «انطباعه الشامل؟» لقد بعث به إلى مارسلين بارتيلو في رسالة كتبها في ١٧ ديسمبر ١٨٦٤ من أمام سقارة على ظهر المركب التي عادت به إلى القاهرة. وقال فيها إن الشيء الذي «لا مثيل له» في هذا البلد الغريب» هو السماء.

«لم أر مثل هذا الجمال لا في سوريا ولا في إيطاليا. فالنسمات العليلة الجافة تهب علينا بوداعة لا مثيل لها سواء في الصباح أو في المساء، حتى الأشياء البسيطة مثل باقة من النخيل أو مسطح من العشب أو مرتفعات صخرية تلوح في الأفق، كل هذه الأشياء تكتسي ثوباً خلاباً لا مثيل له. كما أن بعض المناطق الريفية جميلة بصفة عامة أيضاً إلا أن التفاصيل مخزية، فالأتربة تملأ الأماكن والقذارة تحيط بنا وعدم توافر المياه النظيفة يصدمنا والأشجار الشائكة تنمو في أرض رمادية اللون. أما الشيء الخلاب فهو السماء والأفق والنيل الذي يصل متوسط اتساعه إلى حوالي كيلو متر بل ويزيد أحياناً. وقبل وصولنا إلى أسوان بيوم واحد تغير كل شيء، وضاق الوادي وامتلأ المجرى بالصخور وكسا العشب الأخضر الناعم – شبيه ما نراه في حدائقنا – حافتي النهر، وما نراه في أسوان عند فيلة شيء غريب حقًا، فالنيل ينساب في تيه من صخور الجرانيت تحفه الصحراء التي تتسع لتلامس شاطئيه. وتأتي فيلة هذه العجيبة الصغيرة والأهالي بشكلهم الغريب لتكتمل منظومة الجمال الساحر. لقد انتابني التأثر وأنا أودع – لدى صخرة في فيلة – وادي النوبة الذي لم يبق منه هنا سوى شريط ضيق من الخضرة. ومن المحتمل أنني لن أقترب مطلقاً أقرب من ذلك من الشمس ولن أرى اسطانبول ولا جبل باركال ولا الخرطوم!»[١] .

نلاحظ أنه يجيد إمعان النظر، لكن الوقت متسع أيضاً على ظهر مركبه للاستغراق في الأحلام والتأمل ومتاح كذلك للعمل. أثناء إبحاري على صفحة النيل – كما كتب لاحقاً إلى بولوز – سجلت التأملات الرئيسية التي وردت على ذهني حول الآثار المصرية[٢]. ومما لا شك فيه أنه استمد هذه التأملات من أحاديثه مع مارييت على ظهر المركب، وشكلت

(١) «مراسلات رينان وبارتيلو» ١٧ ديسمبر ١٨٦٤ .

(٢) «مراسلات» الجزء الأول، ص ٢٥٩، ٢ مارس ١٨٦٥ .

أساس الدراسة التي بعث بها إلى ريفو دي دوموند عام ١٨٦٥. وتم نشرها في صورة رسالة موجهة إلى المدير بعنوان «على النيل من أسوان إلى القاهرة» والتاريخ المدون هو «ديسمبر ١٨٦٤». إلا أن رينان في الواقع أجرى تعديلاً عليها وأتمها في أثينا حيث أعاد نقلها لبولوز في مارس ١٨٦٥ .

يتعلق الأمر هنا بنقطة علينا عدم إغفالها. فها هي مصر الأثرية يراها رينان أخيراً - بعد شهرين - حضارة قائمة أو بالأحرى نصف حضارة، تلتقطها عيونه كأفق مظلم من خلال البريق الذي يحيط «بالمعجزة اليونانية» وكمجهود جليل وبدائي ينبثق من قاع التاريخ ليقع على ذاته، غير قادر على الانفتاح في ظل التقدم والتناسق والحرية. وفي الحقيقة فإن مصر واليونان - في نظره - لا تفترقان، فالواحدة تفسر الأخرى وتتوالى كل منهما وراء الأخرى وتصطدمان في فكره، كما توالتا واصطدمتا خلال سير رحلته عام ١٨٦٤ . إن العظمة المهيبة لمعبد الكرنك جعلت هذا الرحالة أكثر تأثراً بالجمال الهادئ للبارتنون، وهيئته - وهو يتنفس الصعداء منتشياً بفرحة خفية - ليتذوق تناسق وتناغم الفن اليوناني. «ومن المحتمل أيضاً - كما أضاف في رسالته إلى بولوز - أن تلهمني اليونان المزيد وسنرى ذلك لاحقاً». هذه الأمنية ذات مغزى، فمصر هي التي تساعد على إبراز اليونان القديمة. إن الإبحار على صفحة النيل يظهر التناقض القائم بين مفهومين - واحد للعالم والثاني للآلهة - كما يهيئ لفيض الامتنان وللإعجاب الذي ستتضح معامله فيما بعد من خلال كتاب «الصلاة على الأكروبوليس».

وبشكل عكسي، نرى مصر تفقد - أمام الآثار العظيمة لأثينا - الكثير من هيبتها وجلالها. وصرح رينان إلى الأميرة جولي بونابرت في ١٦ مارس ١٨٦٥ قائلاً: «لم يعد هدفنا الجمال، والفن رغم عظمته سيظل دائماً متواضعاً»[1]. ويبدو أن ما يهمه هو الفائدة التاريخية والعلمية. وكتب إلى جول مول يقول «إنه العالم صديق جان جاك أمبير وهو يُعتبر ظاهرة للمحفوظات الأثرية لا مثيل له»[2]. سنقول فن بدائي، فن شاب معاصر لطفولة

---

(١) ريفودي دوموند ١٥ يونيه ١٩٢٤ «مراسلات» الجزء الأول ص ٢٦٠ .

(٢) «مراسلات» الجزء الأول ص ٢٥٧، ٣ يناير ١٨٦٥ .

العالم! ويعترض رينان ويقول لا. ونقرأ في خليط الملحوظات المكتوبة في عجالة والمبعثرة على صفحات مفكرته «مصر ليست شابة بل طفولية»[١]. إن هذا الشعور بالإحباط وبالغربة وهذا الإيثار المتزايد للفن اليوناني هما اللذان يفسران جزئيًا بعض آرائه المتشددة التي تظهر من خلال دراساته حول مصر. وبعد حوالي قرن من الزمان على ما قام به من مقارنة بين فن المعمار اليوناني ومثيله المصري، ضم كاترمير دي كانسي إليه بعض الشخصيات مثل بارتيليمي سانت هيلار ورينان. وقد كافح الفن المصري طويلاً حتى يثبت نفسه أمام ما كان مألوفاً من طراز لويس الرابع عشر ومن الطرز التقليدية للقرن الثامن عشر، وقد لمسنا معاناة أعضاء معهد مصر - فيفان دينون ومعاصريه - للتخلص من آرائهم المسبقة عن الفنون الهيلينية.[٢] ولكن حتى بعد نشر «قصة المومياء» و«سالمبو» وشيوع شيء من السمات الغريبة الآسيوية والأفريقية، نجد الفن اليوناني الذي زادت شهرته بخصائصه الأساسية بعد أن تخلص من التكلف والغث الكلاسيكي الذي لا طعم له، نجده ينتصر مع لويس مينار ولوكنت دي ليل وجيريرديا والبرناسيين. وتفاعل رينان تماماً مع هذا النصر، وليس أدل على ذلك من الموقف الذي اتخذه وعبر عنه في رسالته التي بعث بها إلى ريفو دي دوموند حول مصر القديمة.

ففي رأيه أن مصر حضارة خنقها الاستبداد الديني والسياسي، فهي لا تستطيع الوفاء بعهودها الأولية. يجب ألا ننسى أن ماريبت كان قد اكتشف لتوه الأسر القديمة وأعاد إحيائها، كما أن الفن الدنيوي ذا الخطوط الخشنة البسيطة الخالية من التكلف والخطوط العقائدية والتفاخر العسكري، هذا الفن هو الذي يعجب رينان الذي ليس على وفاق مع القياصرة والقساوسة. وكانت مقابر سقارة تجذبه أكثر من الآثار المدفونة في وادي الملوك، فقد كان يميل إلى النقوش الدافئة والزراعية والألعاب والرقص ورحلات الصيد .. وباختصار كان يميل إلى كل معاني الإنسانية التي تفيض بها هذه النقوش. وكتب يقول: «كل ذلك يمثل الواقعية المطلقة لتمثال صغير جميل تمتاز خطوطه بالدقة المتناهية وبشدة التعبير». وكانت الأساطير الهيروغليفية تسهب في شرح الغموض الذي

(١) المخطوط اليدوي لمفكرة الرحلات - المكتبة القومية- رقم ١١٤٨٦ و ١١٤٨٧ .

(٢) المصدر السابق الجزء الأول ص ٧٠ وص ١٣١ و ص ١٥٣ وص ١٥٩ وص ١٦٠ .

يعتلي بعض الصور. فلم يكن هناك أثر لأية حياة عسكرية قبل الأسرة الثانية عشرة، وكان الدين قليلا ولا أثر للطقوس التي ستعتلي فيما بعد مكانة أكبر وتصبح قاسمًا مشتركًا في كافة الزخارف الموجودة على المقابر. ولا توجد صور للآلهة ولا ثمة إشارة وكان أنوبيس هو حارس «البيت الأبدي». أما أوزوريس إله الموت فلا نرى له أثرًا في هذه الحقبة. وهذه المقابر لا تمثل على الإطلاق غرف موت مخصصة للآلهة. فالميت هنا هو السيد وبطريقة أو بأخرى هو رب المكان .. فكل شيء لأجله وكل شيء يصبو نحوه[1].

تنطبق الملاحظة ذاتها على بني حسن، من أمام المقابر المنحدرة أعلى الشاطئ الصخري والمخصصة لنبلاء الأسر الوسطى. ونرى أن المستوى الفني لم يتدن بعد، ونمر من الأسرة الرابعة إلى السابعة دون أن نشعر بخبو الإلهام. «ولم تتغير ذات الفكرة المسيطرة على بناء هذه المقابر، فالميت هو رب المنزل الأبدي الذي يتكون من غرفة فسيحة مبهجة مسكونة تغص بالحياة ولا أثر فيها للتطير ولا للرعب» ياله من تناقض إذا ما قارنا ذلك مع مدينة الأموات الحزينة لوادي الملوك، نتاج أنظمة الحكم الديني المستبد المرتاب!لقد تغيرت تماماً المقابر الموجودة في «ببان الملوك» بالقرب من طيبة والتي يرجع تاريخها تقريباً إلى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد. فلا يتماثل هذان النوعان من المقابر مثلما لا تتماثل مقبرة وثنية بأخرى مسيحية. فالمرحوم لم يعد يقيم في بيته، واجتاحت مقبرة العظماء بيوت الموت؛ وكست صور أوزوريس والنصوص العقائدية الحوائط واكتسبت تفسيرات خيالية، بما أنها كانت متخصصة لليل أبدي ومنحوتة بدقة متناهية كما لو كانت العامة ستقرأها. واكتست الجدران بخرافات مروعة تفوق الخيال. وانتصر الكاهن الذي كان يعتبر المحن المفزعة التي تمر بالخاطر نوعاً من النعيم وكانت له القدرة على التقليل من وطأتها على النفس. يالها من مقبرة مرعبة تلك المدفون فيها سيتي الأول! ها نحن نبعد تماماً عن المعتقد الأول للموت، عن المفهوم البسيط للبعث الخالي من سمة الكهنوتية، دون الحاجة إلى هذه القائمة الطويلة من الأسماء الإلهية التي لا تؤدي إلا إلى التطير المنفر»[2] وغالباً ما يتوافق التطير

(١) «خليط من الروايات والرحلات» ١٨٩٨ ص ٤١-٤٢ .

(٢) «خليط ...» ص ٤٦-٤٧ .

مع الاستبداد، ولم يضيع رينان الفرصة وأخذ يندد بما ينتج عن ذلك من أضرار. كيف للفن – هذا النبت المتعطش للشمس وللحرية – الازدهار في ظل البروتوكولات واللوائح؟ ومن خلال دراسته لاستبداد النظم الفرعونية، ترك البروفسور المستبعد من كوليج دي فرانس العنان لما يحمله من ضغينة تجاه الإمبراطورية الثانية.

ويذكر لنا رينان أن فن النحت المصري قد بلغ – سريعاً – منذ أولى خطواته الكمال المبهر .. فلم تَشُبْهُ شائبة. وها هي «أعجوبة مارييت في سقارة،أن الوجه الباسم لهذين الشخصين الذي يعبر عن الرضا الصافي لهو شيء يعجز عنه الوصف. إنهما أشبه بهولنديين من زمن لويس الرابع عشر. ولا ينتابنا الشك لدى رؤية هذين التمثالين في أن مصر قد شهدت – قبل الفترة التي مرت فيها بالنظم الاستبدادية العظيمة – عصوراً دينية من الحرية. فالفن الرسمي الفخم لكل من تماثيل تحتمس ورمسيس لم يبلغ هذا المستوى من التعبير الذي يتسم بطيبة القلب»[١]. طيبة القلب هذه تدنو دون شك من السوقة إلا أنها تكسب العمل الفني شيئاً من الحس الحي، فهذا الشيخ الذي يقترب منا ممسكاً بعصاه، إنسان يتمتع بصحة جيدة قوي البنية تبدو عليه سمات الرضا والغبطة ويكاد يتفوه بعبارات طيبة. ألا يعلو هذا البورتريه شديد التعبير في تفرده الرائع الحر على الرسوم المثقبة – التي تكررت على آلاف النسخ – في عهود القهر السياسي التي تقضي على الإلهام العفوي لدى الفنان عندما تفرض عليه الشرائع والصيغ الثابتة؟ أين الأمل في التجديد، وفي تقدم أية حضارة يكون فيها الملك كل شيء، يمتص كل شيء ويدهس كل شيء؟ ألا تجدون في أبيات شعر «البنتائور» المحفورة على جدران معبد الأقصر شيئاً من «المدح الرخيص»، ذلك الذي يتصف به «المونيتور»[٢]. كيف يمكننا الوثوق في هذه النقوش الجدارية المتناهية؟ شأنها شأن جميع المونيتورات في العالم، فإن «الروايات الرسمية لا تنم سوى عن حقائق نسبية»[٣]. وعلى رينان التنديد، بأسلوب ربما كان فيه شيء من التبسيط، بهذه السلطة المطلقة التي تنضب الإلهام وتخلق التماثل وتجتاح الحياة.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤ .

(٢) "خليط ..." ص ٢٩ لومنيتور يونيفرسال، ، كانت الجريدة غير الرسمية للحكومة الإمبراطورية.

(٣) المصدر السابق ص ٥٥ .

كانت مصر دوماً من أكبر الدول المحافظة، فلم يبرز في تاريخها ثوري ولا مصلح ولا شاعر كبير ولا فنان عظيم ولا عالم ولا فيلسوف؛ ولا حتى وزير لامع[١]. ولم يستطع إنسان النهوض من بين صفوف الشعب ليضطلع بأي من هذه الأدوار، لأنه كان سرعان ما يصطدم بالجمود وبالخمول العام. فلم يكن هناك سوى الملك، هو الوحيد الذي يحظى بالوجود. ولا نقول إن هذا هو خطأ المحللين والمؤرخين وإن مصر حظيت برجال مرموقين إلا أنه لم يكن هناك من المؤرخين من يسجل لنا حياة هؤلاء الرجال وإنجازاتهم. وهنا نكون قد وصلنا إلى أقصى اتهام يمكن توجيهه إلى هذا البلد البائس. فالنسيان غالباً ما يكون على طريقتها تماماً.. كان لعظماء اليونان شعراء ومؤرخون خالدون لأنهم كانوا ينتمون إلى عالم نبيل فخور بنفسه متميز وأرستقراطي بمعنى الكلمة. فالكل سواء، فقد كان لميلتياد وتميستوكل وسيمون وبريكليس نفس الإلهام الإلهي الذي لأشيكل وهيرودوت وتيوسيديد وفيدياس. وكان سقراط يسعى إلى زينوفون لكي يستمع إليه وإلى أفلاطون ليجعله مثله الأعلى وإلى أرسطو فان ليسخر منه. في اليونان، يصنع كل من الشاعر والمؤرخ الرجل العظيم؛ ولكن الرجل العظيم من جانبه يصنع الشاعر والمؤرخ أيضًا. إلا أن الحال ليس كذلك في مصر. ففي أنحاء هذا الوادي الحزين الذي تخيم عليه ظلال العبودية الأبدية، يظل الإنسان لآلاف السنين يزرع حقله ويحسن تأدية مهام وظيفته ويحمل الأحجار فوق ظهره ويطول به العمر .. دون الوصول إلى المجد[٢].

وهكذا استرق استبداد الكهنة والملوك الفن. ووجدت الواقعية التي تفيض بالحيوية والإنسيابية لفنون سقارة وبني حسن نفسها مخنوقة تحت وقع الأسر الحاكمة في الإمبراطورية الجديدة. وإحقاقاً للحق، هل يستطيع الفن بمفرده الدفاع عن نفسه أو الصمود أو التقدم؟ لا - كما يقول رينان - لأن الفن في حاجة إلى مثل أعلى حتى يعلو على نفسه، وهنا يتجلى بوضوح صارخ الدرس المستفاد من اليونان. «يرى الفنان اليوناني

---

(١) هذا الحكم مغال فيه تماماً. فقد حظيت مصر بالفنانين وبالوزراء وبالأدباء تحت حكم الفراعنة، والمقابر وأوراق البردي خير دليل على ذلك. «حول الأدب في مصر القديمة، بقلم جوتيه في «نبذة عن تاريخ مصر» ١٩٣٢ ص ١١٢و١١٣ وص ١٧٨-١٨٠ و«روايات شعبية من مصر القديمة، بقلم ماسبيرو، الطبعة الرابعة، باريس.

(٢) «خليط .....» ص ٥٧ .

أن الخطوط الواقعية تعمل على إظهار الغاية المثلى. في حين اكتفى الفنان المصري – على العكس – بالمناظر النمطية المقدمة بطراز نمطي؛ وبرضائه عن أعماله لم يتطلع إلى الأفضل، فهو راض على طريقة العامة التي لا يشغلها الرقي إلى العظمة. ونرى أنه لا يلقي بالاً إلى اليأس من عدم تمكنه الوصول إلى الأحسن، ولا يشعر بهذا المجهود المضني الذي لا يترك لحظات راحة للفنان اليوناني القديم ولا للفنان الإيطالي في القرنين الثامن والتاسع. ولا يمكن إضافة أية تحسينات على تماثيل سقارة لأنها تفتقر إلى السمات الفنية، هذا الفن الذي ضل طريقه في متاهة الرداءة لقرون عديدة سيظل يكرر خطوطه إلى ما لا نهاية وينتج أعمالاً متناهية لا قيمة لها ويكسو بالمناظر المصورة الأعمدة التي لا حصر لها، كل ذلك دون إحراز أية تقدم ودون تنافس المدارس المتعددة ودون الوصول إلى الكمال. ولماذا تحقيق هذه الغاية؟ فلا الملك ولا الكاهن الذي يصدر الأوامر يستطيعان التمييز بين ما هو مقبول وما هو رائع. كما أن جزءاً كبيراً من هذه الأعمال لن يحظى مطلقاً بأية تقدير جدي. ولا نجد هنا أية تماثل مع الجمهور اليوناني العظيم ومع المساحات الخلابة لأثينا، حيث كان الفنان يجد كل ما يحتاج إليه من تشجيع وإرشاد ومن إعجاب البعض وسخرية البعض الآخر ومن مناقشة الخصوم ومن الرغبة في الإنجاز .. كان يجد شعباً مفتوناً بحمية الجمال. نعم اليونان اخترعت الفن كما اخترعت العلم. كانوا ينحتون وكانوا يشيدون وكانوا يعرفون الهندسة العملية قبل اليونان بأربعة آلاف عام، إلا أنها هي وحدها التي لديها فيدياس وأرشميدس[1].

هذا هو أسلوب المقال الذي نشر في ريفو دي دوموند للإعلان عن كتاب «الصلاة على الأكروبوليس»، وهو لا يخلو حقاً من الأخطاء وأوجه النقص، وربما يمكننا – مع ماريت – التحفظ على معناه[2]. وكان رينان يجهل – بصفة خاصة – أسلوب تل العمارنة وتمثال أبيدوس الكبير.

(١) «خليط ...» ص ٦٨ - ٧٠ .

(٢) «ماريت كان يناقش نصاً لهيرودوت ورأياً لبوسيوي ومقالاً لرينان كل ذلك من الذاكرة ودون حذلقة» (إدموند آبو- الفلاح ١٨٦٩ ص ٢٦٥).

ترى لو كان على دراية به هل كان سيعدل من تقديره العام للفن المصري؟ ألم يحدث - في الواقع - إبان حكم إخناتون في زمن الأسرة الثامنة عشرة شيء يشبه الانفجار في الصيغ الثوابت، ريح مفاجئ من الحرية أدى إلى خلق الواقعية المعبرة ذات الطابع الفردي التي تمادت أحياناً إلى حد السخرية، ثورة فنية شاملة اندلعت في إطار ثورة سلبية ودينية؟ قبل الاكتشاف الأثري لمقابر تل العمارنة، كان أسلوب إخناتون معروفاً من خلال بعض النقوش في معبد الكرنك التي اكتشفها ورسمها نستور لوت وبريس دافين ومن خلال مسلات تونة الجبل التي تم نسخها في معظم الدفاتر آنذاك[١]، وقد رأينا في ما سبق كيف انبهر جان جاك أمبير بهذا الأسلوب المتميز. ومن المؤسف حقاً أن رينان وهو يبحث عن أصول التوحيد اليهودي في مصر لم يلتفت - كما فعل مارييت - إلى الملك المارق الذي حطم الآلهة وعبد الشمس. وقد بذل جهداً كبيراً ليستخلص من معبد «أبو الهول» في الجيزة، هذا البناء الكبير العاري وبالتالي المجرد الخالي من النقوش ومن المناظر المصورة، نموذجاً للمعبد الذي أهداه إسرائيل إلى الإله الواحد المعنوي[٢]. ولكن ما هي الفائدة التي عادت عليه من مغامرة إخناتون، من محاولة مصر الدرامية للتحرر من تعدد الآلهة؟ فقد أكدت نظريته وبرهنت على تمتعه بنفاذ البصر. في هذا البلد ذي الحكم المستبد الذي لم يكن فيه - على حد قوله - مكان لنبوغ العبقرية الفردية والبطولة والحس الثوري، كان الملك فقط هو الذي يستطيع القيام بالثورة، وعندما حطم سياج الطقوس الذي كان يحاصر الحياة الأخلاقية والدينية ازدهرت النهضة في التو.

أما تماثيل أبيدوس فلم تلفت نظر رينان. أجملها لم يكن قد تم اكتشافه بعد؟ ربما؟ أو حال انشغاله بما يمكن أن يستخلصه العلم من جراء اكتشاف «منضدة الملوك» الثانية - دون الاهتمام بها أو تقديرها - لأنه كان قد خصص فترة دراساته الأولى لتحليل هذه النتائج. ولم يقع شارل بلان الذي وصل إلى أبيدوس بعد ذلك بأربع سنوات في نفس الخطأ، فقد رأى أنه على جدران القاعة المعمدة وعلى القباب السبعة المتلاصقة لمعبد سيتي

(١) المصدر السابق الجزء الأول ص ٣١١ و٣١٢ وص ٢٥٦ و٣٥٧ والجزء الثاني ص ٦٢

(٢) لم يكن معبد ابو الهول معبداً وإنما كان مدخلاً لمعبد الهرم الثاني ويصلهما رواق فخم.

الأول توجد أجمل نقوش مصر الأثرية على الإطلاق. ومن لم يشاهدها لا يمكنه بحال من الأحوال التحدث عن منحوتات الإمبراطورية الأولى. ولا نجد في آثار أثينا ما يفوق هذا الفن، إن مشاهد الولاء والعبادة التي يظهر فيها الفرعون وهو يهدي البخور والأزهار إلى الآلهة العظيمة الجالسة في سكينة أمامه لتنم عن رقي وصفاء وسمو لا مثيل له. وتعطي هذه الأعمال المنحوتة على حجر جيري لين – له لون ونعومة الألبستر – بجمال نماذجها المجسمة وتناغم استداراتها تجسيد انطباع بالتجلي الروحاني والشفافية المثالية للمنحوتات اليونانية العظيمة. وها نحن نبعد تماماً عن الخطوط غير المتقنة والزخرفة المسرحية التي كانت منتشرة في العصر التالي في معابد رمسيس الثاني ! هنا يسمو الفن ليصل إلى مرحلة شبه إلهية، إلا أنه بعد اعتلائه هذه القمة لا سبيل أمامه سوى الانهيار. دون شك كان في استطاعة رينان إدراك ذلك لو لم يكن مأخوذاً تماماً بالتفسير التاريخي «منضدة الملوك»، وما كان قد أنكر على المنحوتات الفرعونية كل هذا السمو وكل هذا الكمال الذي تتمتع به.

وأخيراً نرى أن المقارنة التي قام بها رينان بين الفن الإنساني الحي لسقارة والفن المفزع الغامض لوادي الملوك تشوبها السرعة والسطحية. إذ إن هاتين المدرستين لا يمكن مقارنتهما بدقة ولا يمكننا الجزم بأن الثانية تمثل انهياراً مقارنة بالأولى. فمشاهد الحياة المدنية لسقارة تتشابه مع المقابر الناعمة للأسرة الثامنة عشرة في طيبة سواء كانت متمثلة في الشيخ عبد الجورنة أو في دير المدينة، وتتشابه أيضاً فيما بعد مع النقوش الجميلة السايبتية. وفي كل مكان نجد نفس المناخ البسيط الصافي المبهج دون «استبداد ديني». أن المقابر الملكية في وادي الملوك لهي سراديب دفن تماثل سراديب المصطبة أو مقابر طيبة على وجه الخصوص. وهنا أيضاً نجد النصوص الشعائرية والمناظر التي تصف الحياة الأخرى .. إلخ. وباختصار، نجد الاعتقادات الروحانية والأعباء اليومية، أي وجهتي الحياة المصرية على مر الزمان يتوالى ظهورهما في كل حقبة؛ كما أننا لا نلمس تطوراً واضحاً من مرحلة متميزة بحتة إلى مرحلة دينية بحتة.

إلا أن الخاتمة التي توصل إليها رينان لا يمكن النيل منها. فهو ينصف ماربيت ويعيد على الملأ تكرار ما قد ذكره عنه في رسائله إلى جيل مول[1] وإلى مدام كورنو ابنة الملكة هورتونس المعمودية وحامية علم المصريات[2] ويقول: إنه منقذ الآثار المصرية وقد تدخل في الوقت المناسب؛ لأن الذي دمر هذا الإرث العظيم ليس تماماً النزعة التخريبية لهدم النفائس لدى الفلاحين والرحالة الفرادى، ولا جشع الوسطاء ولا طمع علماء الآثار إنما هو الرغبة البناءة لدى محمد علي ولدى خلفائه الأولين. فقد «تم في ربع قرن من الزمان تدمير قدر من الآثار أكثر مما قام به الفرس واليونانيون والرومان والمسيحيون والمسلمون مجتمعون، فقد التهمت مصانع السكر وتلك التي تعمل بالبخار وعملية بناء القصور أكثر من عشرة معابد»[3].

وباختصار، تشهد الدراسة التي قام بها رينان شهادة مشرفة على ما يتمتع به من نفاذ البصر. فهو عمل ممتاز قام به مؤرخ وعالم لغة، بحث تحليلي موضوعي، تأملات ثرية ذات رؤية غنية بالآراء الثاقبة الإيجابية، دراسة تنم عن مفهوم واسع لفلسفة التاريخ وعن حس راق للفن والجمال. ونجد في ما كتبه والبالغ حجمه أربعين صفحة رحلة لم تستغرق سوى ثلاثة أسابيع ما هو أثرى وأقيم مما جاء في العديد من الأعمال الكبيرة. وعلينا ألا نعتب على رينان لما أعلنه من آراء مبالغ فيها أو جانبها الصواب، فالمعلومات التي جمعها لا يمكن أن تتصف بالكمال شأنها شأن ما يمكننا جمعه اليوم؛ كما أن علينا عدم توجيه

(١) ٣ يناير ١٨٦٥ . «لقد أُصبت بالدهشة أمام أعمال ماربيت. إنها أكبر مؤسسة أثرية في هذا القرن، قد أنجز عمله بشفافية علمية متناهية دون الاهتمام بالحصول على إعجاب الآخرين ولا بالبحث عن مقتنيات للمتاحف. وأنشأ متحف بولاق الفريد دون أن يلحق الخسائر بأي أثر كان. إلا أن ما يؤخذ على ماربيت هو تأخره في النشر». (مراسلات الجزء الأول ص ٢٥٧). وتم تفسير هذا التأخير بخلو مطابع القاهرة من الأحرف الهيروغليفية. ويطلب رينان الحروف من باريس. ومن هنا نرى ميلاد فكرة إنشاء معهد الآثار الفرنسي في القاهرة بناء على تقرير كتبه رينان عام ١٨٨١. وكتب يقول «مدرسة القاهرة تفيد التقدم العلمي وتفيد البلد وستفيد أيضاً الحضارة وتقدم الأخلاق في الشرق». وفي الواقع في بلد يتم فيه تقدير الأشياء بمدى الاستفادة منها والرجال بما يكسبون». علينا التوقف أمام «فكرة الثقافة التي لا يبالي بها أحد». (رينان، تقرير حول معهد القاهرة الأثري) انظر كتيب المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة (١٨٨١-١٩٠٩)، القاهرة - مطبعة المعهد ١٩٠٩.

(٢) ٣ يناير ١٨٦٥ . رسائل باعها نويل شارافي.

(٣) خليط ... ص ٧٠ .

اللوم إليه لما يكنه من مشاعر نحو اليونان، ولكونه مأخوذاً بسحر بسمة أثينا ولتفضيله الخطوط المتناسقة للأكروبوليس على عظمة الأهرامات. وإذا لم يكن على هذا النحو .. لما كان رينان.

وكما كتب من أثينا في ١٦ مارس ١٨٦٥ يقول : «لم أستطع إخبار الأميرة جولي بونابرت أن مصر لا يمكن أن تكون بلدي المفضل. لقد وقعت في هوى الطبيعة الخلابة المتنوعة لشاطئ سوريا، مما حال دون اعتيادي على هذه الطبيعة المملة وعلى هذه الأرض المتربة القذرة وعلى المياه الراكدة الطينية .. وعلى كل فقد أفادتني الرحلات القليلة في تكوين انطباعات عميقة.» [١] .

ويالها من انطباعات تدوم وتغور في أعماق نفسه وتوقظ ما فيها من أحاسيس، ثم نسمعها تحيا من جديد كهمهمة خافتة وكأوتار عميقة تتخلل الترانيم الغنائية للأكروبوليس[٢].

****

---

(١) ريفودي دوموند، ١٥ يونيو ١٩٢٤، ص ٧٣٣ ومراسلات، الجزء الأول ص ٢٦٠.

(٢) قبل مغادرته مصر متجهاً إلى سوريا حيث قبر شقيقته هنريات وذكرياته معها فيها، قام رينان مرة أخرى في ٢٠ ديسمبر ١٨٦٤ «بزيارة خاطفة إلى السويس مستقلاً القطار، وتوقف في الإسماعيلية حيث التقى بفرديناند دي ليسبس الذي سيستقبله في مقر الأكاديمية الفرنسية في ١٨٨٥. وفي التل الكبير راى دمية أحد الأولياء التي وصفها في كتابه «دراسات جديدة للتاريخ الديني» (ص ٣٣٠) قائلاً: «كان هنا منذ عشرين عاماً جالساً على الرمال غارقاً في سبات عميق فاقداً للرؤية وفاقداً للسمع وساقاه اكثر جفافاً من عظام الهيكل العظمي. وكانت الشمس التي التهمت جمجمته قد قضت على كل إدراك فيه وحالته أسوأ من البوص أو من النخل». ولكي يعبر الوادي من الزقازيق إلى الإسماعيلة زوده دي ليسبس بأحد الحراس «كان قاطع طريق سابقًا أُلحق بصفة مؤقتة بقوات حفظ النظام. وعندما كان يفسر لي كيفية التعامل مع بندقية قديمة ترجع إلى القرن السادس عشر وهي من ضمن مجموعة السلاح الخاصة به، أفضى إلي بمشاعره الحميمة جداً والتي تتلخص في شيء واحد الا وهو إعجابه المتناهي بك». (رد على خطاب الاستقبال الذي القاه دي ليسبس، ٢٣ ابريل ١٨٨٥).

الفصل الثاني

رحّالة صغار وحكايات قصيرة

I

إلى جانب العلماء الذي استهواهم علم الآثار، وإلى جانب الخبراء الذين استدعتهم شركة قناة السويس، علينا إيجاد مكان صغير للرحالة الصغار وللحكايات القصيرة.

وفي الفترة بين عام ١٨٥٠ و١٨٧٠، نلتقي على ضفاف النيل بصحفي هو شارل إدموند وبالقاضي أوجين بواتو وبشاعر وناشر وروائي في أن واحد هو شارل ديديه وبنخبة من السائحين هم فليكس تينار وهنري كاماس وأندريه لوفانر وإميل جيميه. كما نلتقي بالممثلة راشيل وبالكونتيسة دي روبيرسار، وأخيراً باثنتين من سيدات الأدب هما أولمب أودوار ولويز كوليه.

كان البولدندي شواكي المعروف باسم شارل إدموند Charles Edmond صديق برودون Proudhon والكسندر هيرزن Alexandre Herzen قد توقف فجأة عن التعاون مع جريدة «صوت الشعب» - بعد وضعه تحت مراقبة الشرطة الباريسية ومنعه من القيام بأية نشاط ثوري - ورحل وهو في الخامسة والعشرين من عمره إلى القاهرة حاملاً معه توصية من الأب أنفونتان إلى شارل لومير وكان ذلك عام ١٨٥٠. وعينه سليمان باشا سكرتيراً له ليعتلي أولى درجات سلمه المهني اللامع الذي أوصله إلى أن يكون موضع حماية الأمير نابليون وموضع عطف نوبار وجعل من هذا الوصولي المثير رئيساً لجريدة «البريس» وأوصله إلى مكتبه «مجلس الشيوخ» وإلى مجلس إدارة جريدة «لوتان»(١).

---

(١) انظر ص ١٩٤. كان نوبار باشا يتناول الغذاء في باريس مع شارل إدموند ومارسلين بارتيلو وادموند دي جونكور في ١٥ اغسطس ١٧٨٠((Journal des goncourt, vol III, p. 338

وترجع الذكريات التي رواها لاحقاً في أروع أعماله وهو كتاب «زفيرين كازافان في مصر» (١٨٧٩ – ١٨٨٠) إلى الفترة التي قضاها في القاهرة (١٨٥٠ – ١٨٥١).

هذا العمل المتواضع الذي انزوى في طي النسيان – شأنه شأن كل ما كتبه هذا الصديق الماهر لعائلة جونكور – لا يهمنا ألبتة إلا في ما يتعلق ببعض البورتريهات الدقيقة لسليمان باشا [١] وللشاعر ماشرو[٢] وللكولونيل فاران[٣]، وبوصف أو اثنين للمشاهد الحية لإحدى الطرق أو للريف. ولكي ينسج النسيج الروائي لقصته، كتب شارل إدموند بأسلوبه مغامرة كوتشوك هانم العالمة التي سبق أن ذكرها فلوبير، إلا أنه حولها إلى قصة خرافية مملة إلى الدرجة التي لم تجذب فيها حتى هواة القصة الهزلية. وعلى أية حال، لم يبدُ على فلوبير أنه قد أعجب كثيراً برواية صديقه، «أشك في إعجابك بها، كما كتب إلى الأميرة ماتيلد عام ١٨٨٠».

إلا أننا نجد – هنا وهناك – بعض المشاهد التي تصف بعض العادات والتي لا يمكن إنكار دقتها وحقيقتها المرة. ونلمس – على سبيل المثال – أنه تمكن – أثناء إبحاره على النيل بمرافقة ماشرو على ظهر ذهبية من كان يحميه – من ملاحظة البؤس الذي يعيش فيه الفلاحون. ووصف لنا بحيوية متدفقة إحدى عمليات تعذيب قام بها أحد الجباة لاثنين من التعساء رفضا الإفصاح عن مكان مخبئهما[٤]. وفي هذا المسلسل الذي نشرته أولاً جريدة «لوتان» عام ١٨٧٩ ، كانت أحداث مصر عام ١٨٥٠ هي التي لا تزال تمر أمام أعيننا، وقد وجب علينا التنويه عن ذلك.

وبعد مرور أربعة أعوام، قام أوجين بواتو المستشار في بلاط أنجيه بدوره برحلة إلى مصر (١٨٥٤). وإذا ما كانت قصته[٥] لا تحظى بقيمة تُذكر، إلا أنها على الأقل تأتي لتؤكد

---

(١) يوسف بيطار باشا.

(2) Gendrel. Cf. T. 1 p. 267-268

(3) Major Istvanyi. Cf. T. 1 p. 358

(4) Zéphyrin Cazavan en Egypte. éd. 1880. p. 389.

(5) E. Poitou. Un hiver en Egypte. Tours. Mame. 1857. 3^{o} éd. 876

ما سبق أن أظهره السلف من تقدير عام لمصر. ألم يكن من المثير رؤية مستشارنا وهو على ظهر الباخرة التي أقلته إلى مصر يتحدث مع كلوت بك الذي استدعاه سعيد باشا بعد أن تم الاستغناء عن خدماته بعد وفاة محمد علي (أغلق عباس باشا مدرسة الطب التي أنشأها). لقد عرفنا بعد قراءة يوميات الكونت لوي دي سانت فيريول[1] Louis de Saint-Ferriol كم شعر الطبيب بالندم لتأليفه كتاب «نظرة عامة على مصر» (١٨٤٠) «Aperçu général sur l'Egypte» وذلك بعد نشره بعامين. والآن وبعد أن استدعاه الوالي حرص على توخي الحذر في ما يصدره من تصريحات، إلا أنه سرعان ما أدرك أوجين بواتو تراجعه عن تفاؤله القديم. وصرح قائلاً «إننا عندما نسمعه يتحدث بشيء من التحفظ عن حكومة مصر الحالية ندرك أنه لا يشارك ألبتة في ما تتوهم فيه أوروبا من عملية إعادة إحياء هذه البلاد، ومن استعداد الأتراك للمشاركة في حضارتنا»[2]. في ما تتوهم فيه أوروبا؟ نحن نعيش في حلم. هل نسي كلوت بك أنه قد ساهم في نشر هذا الوهم أكثر من أي إنسان آخر؟

وفي نفس العام التقينا في مصر برحالة من نوع آخر وهو الشاعر والناشر والروائي شارل ديديه (١٨٠٥ – ١٨٦٤)، ذو الأصول الأجنبية[3] مثل شارل إدموند، فهو سويسري من جنيف عاد ليستقر في باريس بعد أن قام بجولة في البحر المتوسط وتوغل حتى الصحراء العربية والسودان. وكان قد بدأ وهو في العشرين من عمره كتابة ديوان شعر «القارب اليوناني» La barque hélvétienne عام ١٨٢٥ ، ثم رأس جريدة سياسية وأدبية صغيرة «بريد ليمان» . Le Courrier du Léman ووافق بعد ذلك على العمل كمعلم في إيطاليا ثم امتهن الصحافة في باريس، حيث تردد إبان عام ١٨٣٠ على المحافل الرومانسية وارتبط بفيكتور هوجو وشارل نوديه وجورج صاند .. الخ. وفي هذه الفترة

---

(١) انظر الجزء الأول - الملحق ص ٣٥٥ .

(٢) شتاء في مصر ص ١٤ .

(٣) يعتبر المؤرخون الأدباء في باريس - امثال روسيل وجوديه - شارل ديديه كاتباً سويسرياً. هل ظل كذلك ؟ كان من المستحيل علي معرفة ما إذا كان قد تجنس بالجنسية الفرنسية إلا ان ذلك محتمل لأن الحكومة الفرنسية اوفدته في مهمة إلى بولندا عام ١٨٤٨ .

شارك في ريفودي دوموند[1] وكتب أفضل قصصه، ثم انتهى به الأمر - بعد الإحباط الذي أصابه نتيجة نجاحه الضئيل وبعد شعوره بالتعب من الحياة المتحضرة - إلى القيام بسلسلة من الرحلات سافر فيها إلى أسبانيا والمغرب ومصر وسيناء والصحراء العربية.. وفي الفترة من ١٨٥٧ إلى ١٨٦٠، نشر ما كتبه عن اكتشافاته الكبيرة الواحدة تلو الأخرى «خمسون يوماً في الصحراء» Cinquante jours au désert عام ١٨٥٧ و«في ضيافة شريف مكة العظيم» Séjour chez le grand chérif de la Mecque عام ١٨٥٧ و«خمسمائة فرسخ على النيل» Cinq cents lieues sur le Nil عام ١٨٥٨ و«ليالي القاهرة» Les nuits de Caire عام ١٨٦٠ .

سنتحدث هنا عن روايتيه الأخيرتين فقط. يتحدث شارل ديديه عن النيل من حيث انتهى أجسر سلف له. لقد أبحر على النيل في تؤدة وتوقف على مهل، أولاً في الخرطوم حيث التقى باثنين من المنفيين سياسياً من قبل عباس باشا نعرفهما بالفعل، هما الشيخ رفاعة الطهطاوي مدير مدرسة المترجمين المتهم بالحداثة والكولونيل ماري رئيس الشرطة السابق المعروف باسم بكير بك[2]. وثانياً في وادي حلفا وأسوان والأقصر وأسيوط، حيث رأى الطاغية الذي أصبح ملكاً للواحات أيمن بك الذي وصفه[3] لنا سانت فريول. إلا أن كتابه عن القاهرة هو الذي يجب أن نتوقف أمامه قليلاً.

لقى هذا الكتاب إعجاباً من قبل جيرار دي نرفال الذي ربما كان ديديه - المريد السابق للرومانسيين - يفكر فيه وهو يعنونه «ليالي القاهرة»! ألا نجد هنا أصداءً ونوعاً من التأثر؟ وهذا ما يجعلنا نفكر في أن واحد في «نساء من القاهرة» Femmes du Caire و«ليالي رمضان» Nuits de Ramazan. كما سبق أن رأينا، فإن جيرار يعشق الأساطير العربية؛ وكانت تلك التي سمعها عن أصل الأهرامات هي التي تستهويه أكثر من تفسيرات علماء الآثار. يا له من شعور جميل ذلك الذي كان يتملكه وهو قابع مع شارل ديديه في

(١) في أعوام ١٨٣١ و١٨٣٤ و١٨٣٥ و١٨٣٦ و١٨٣٨ و١٨٤٢ و١٨٤٥ .

(٢) «خمسمائة فرسخ على النيل»، ص ٣٧، انظر الجزء الأول والجزء الثاني رفاعة الطهطاوي «حكاية رحلة إلى باريس» ١٨٢٦ - ١٨٣١ المقدمة والمترجمة والهوامش بقلم انور لوقا .

(٣) انظر الجزء الأول ص ٣٥٣ و٣٥٤ (ديديه أطلق عليه اسم أم بك) والجزء الثاني، ص ١٢٨ هامش ٢.

أحد أركان مقهى بالقرب من الأزبكية يصغى لكانديدي الراوي؟ ويقول الكاتب «القاهرة هي موضوع هذا الكتاب، بل هي البطل»[1]. وهذه حقيقة، ولكنها هنا المدينة العربية واحتفالاتها وقوافلها وأغانيها وحكايات الحريم بها، تلك المدينة التي ستختفي معالمها آجلاً أم عاجلاً تحت الغبار الناجم عن الحياة الحديثة. شارل ديديه لا تستهويه مصر التركية ولا «جامع الألبستر» ولا قصر الجوهرة وما به من «ساعات حائط ملونة بشعة الشكل» ومن «لوحات جدارية كريهة»[2]. إن الشيء الذي يجذبه هو الاحتفالات الشعبية وحفلات العرس واحتفالات الختان[3] والاحتفال بعودة الحجاج[4] والدهسة التي وصفها فلوبير[5]. إلخ، كما أنه على وجه الخصوص لا يمل من الإصغاء. هاهم الرواة الذين يرددون أساطير الطوفان[6] وباريس الجميل[7] وأسطورة القديس يوسف الذي شق بحر يوسف وأنشأ واحة الفيوم[8]. وهاهم العنترية الذين يتغنون بمآثر عنتر وقصص عشقه، والإمام العجوز الذي يروي قصة الخليفة عمر وقائده عمرو[9] وقصة السلطان الحاكم[10] وأخيراً الشعراء الذين يرددون المواويل .. هذه الأبيات الشعرية القصيرة التي طالما استهوته فكان يدوّنها ويترجمها[11].

لكن لا تظنوا أن الماضي يحجب عنه الحاضر، فالخرافة لا تخفي عنه الحكاية القصيرة. فقد اعتاد الاستماع – لأحد البشوات الظرفاء – وهو يطلق النكات عن محمد علي[12]، وكان يستمع لإبراهيم عبد العال وهو أحد أبناء ضحايا مذبحة المماليك وهو

---

(1) Les nuits du Caire, preface, VII

(٢) المصدر السابق ص ٢٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٤

(٤) المصدر السابق ص ٣١٩

(٥) المصدر السابق ص ٣٥١ انظر ما سبق ص ٩٨ وص ١٩٤

(٦) المصدر السابق ص ٢٧٨

(٧) المصدر السابق ص ٢٩٧

(٨) المصدر السابق ص ٤٤٦

(٩) المصدر السابق ص ٢٤١

(١٠) المصدر السابق ص ١٢١

(١١) المصدر السابق ص ١٧٩ انظر ما سبق ص ١٢٢ و١٢٣

(١٢) المصدر السابق ص ٣٧٧

يحكي تفاصيل هذه الواقعة[١]، أو حتى للسيدة الفرنسية «ذات الميول السانت سيمونية» التي استدعاها كلوت بك «لتعليم فن التوليد»[٢] وهي تروي له قصة مينور الجارية الشركسية وعشيقها الشاب[٣]. كما أحيط علماً بخفايا القصر وبحياة العوالم. وتم العفو عن كوتشوك هانم عام ١٨٥٣ «واستطاعت العودة إلى العاصمة حيث استأنفت مهنتها»[٤]. وكان على دراية تامة بفضائح الأميرة نازلي ابنة محمد علي وزوجة الدفتردار وبمآسيها والتي تذكرنا فظائعها بقصص سراي اسطانبول في القرن الثامن عشر، حتى أنه وجد فيها قصة ذاتية مريبة للغاية تكاد تشبه تماماً بتفاصيلها المأسوية الاتفاق الذي تم بين كليوباترا وميمون في قصة تيوفيل جوتييه[٥].

يستمتع المرء بقراءة قصة «ليالي القاهرة» لأنها ليست مملة مثل «خمسون يوماً في الصحراء» الذي يُعد كتاباً وصفيّاً بحتاً. فهي ليال تحكي لنا وقائع عديدة متنوعة ونوادر طريفة وأساطير وأغاني وقصائد شعرية وتمتعنا بوصف العادات التي تدخل في النسيج القصصي الحي، مما يضفي على أسلوبها نعومة مرنة رشيقة وثراء وتألقًا يجعل منها كتاباً يجمع بين الفائدة والمتعة. وهي أيضاً وثيقة قيمة - في زمن يسرع فيه كل شيء - لتاريخ الفولكلور العربي وللمجتمع القاهري في منتصف القرن التاسع عشر، وبه فصول للمقتطفات الموسيقية يعلق عليها الكاتب، وتلقي الضوء على الملحمات والشعر الغنائي في مصر العربية. وكان شارل ديديه يقول - محقاً - إننا لا يمكن أن نفهم بلدًا ما، ما لم نتوغل داخل عاداته المتأصلة. وبعد إقامته في إيطاليا نشر «الأغاني الشعبية لريف روما» Les Chants populaires de la campagne de Rome، إلا أن اعتلال صحته وضعف بصره لم يساعداه بلا شك على نشر كتاب مماثل عن مصر. وجاء في يومياته الخاصة أنه بعد عودته إلى باريس شعر بالغربة وبعدم التكيف. وبعد أربعة أعوام من

(١) المصدر السابق ص ٢٥

(2) Suznne Voilquin, l'auteur des Souvenirs d'une fille du peuple, Cf. plus haut, t. I, p. 271

(٣) ليالي القاهرة ص ١٨٧

(٤) «ليالي القاهرة، ص ٣٢٩ - علينا عدم الخلط مع صفية كوتشوك هانم أو صوفيا «الأميرة الصغيرة» التي نفاها عباس باشا إلى إسنا. وفي النص الأصلي يميز فلوبير فيما بين صوفيا (كوتشوك هانم) وصفية الغيرة.

(٥) ليالي القاهرة، ص ٤٠١ و٤٠٦ انظر ما سبق ص ١٤٣.

نشر «ليالي القاهرة»، انقضى أجله[1] بعد ذهاب بصره تماماً وبعد أن أرهقته حياته المتشردة. وإذا كان شعره الرثائي يفتقد ومعه رواياته التاريخية إلى جذوة الخيال، فإن قصص رحلاته التي أجاد وصفها بأسلوب يقظ مفعم بالحياة لجديرة بإخراج اسمه من دائرة النسيان.

إن كتاب «وادي النيل»[2] La Vallée du Nil الذي كتبه المصوران هنري جاما وأندريه لوفيفر (١٨٦٢) يعد فعلاً - كما يدل عليه عنوانه الفرعي - مجموعة «انطباعات» مخصصة لتكملة دفاتر الصور الفوتوجرافية، وهو مرشد رائع شائق ورسمي وذو طابع أدبي. وقد أهداه كاتباه - المشمولان برعاية المستشرق والمكتشف كوينج بك Koenig-Bey إلى سعيد باشا، ولا نستطيع أن نطالبهما بأكثر من بعض المعلومات العملية والرؤى العادية الزخرفية.

تتكشف لنا مجريات الأحداث من خلال كتاب «رسومات مصرية» Croquis Egyptiens لرجل الصناعة والكيميائي إميل جيميه (١٨٦٧) وهو المؤسس المستقبلي للمتحف الذي يحمل اسمه. وربما يكتسب هذا السرد الذي قام به سائح فضولي فنان يكشف لنا فيه عن الشرق الأقصى من الأهمية على المستوى التسجيلي، إذا ما تمكنا - من خلال أحرف الأسماء الأولى ونقاط الاستدراك - من معرفة أسماء ضيوفه والكشف عن هوية معارفه في القاهرة[3]. وقام هو أيضاً، قبل ذهابه لدراسة الديانات والفنون في اليابان والصين بعشر سنوات، بالرحلة النيلية من القاهرة إلى أسوان التي كادت أن تصبح تقليدية.

II

لو تكلمنا الآن عن الرحالة السيدات، فهي أيضاً الرحلة ذاتها التي قامت بها عام ١٨٥٧ الممثلة الشهيرة راشيل، التي ماتت متأثرة بمرض السل الرئوي. وكتبت تقول «لقد ركبت

(١) سجل جون سيلار من جامعة ليلاند ستانفورد (كاليفورنيا) رسالة دكتوراه عن شارل ديديه.

(2) Henry Gammas et André Lefèvre. La Vallée du Nil. Impressions et photographies. Paris. Hachette. 1862

(3) Emile Guimet. Croquis égyptiens. Journal d'un touriste. Paris. Hetzel. 1867

النيل حتى وصلت إلى الشلال الأول ثم عدت إلى طيبة حيث ألحوا عليّ للبقاء لفترة».
وظلت لمدة ستة أسابيع مستلقية على ظهر ذهبيتها تملأ رئتيها «بالحرارة الحانية» على أمل استعادة صحتها ولكن هيهات. فقد كان المرض يتملكها يوماً بعد يوم ويفقدها الاهتمام بما يجري حولها، وتكشف لنا عن يأسها في رسالة تفيض بالحزن كتبتها من الأقصر في ١٠ مارس ١٨٥٧ .

«منذ ثمانية أشهر وهم يحاولون صنع النعش الملائم لي ليقلني إلى العالم الآخر. ولكني أرى أن النجار لا يجيد صنعته، لأنني لم أعد أستطيع الوقوف على قدمي وأتمنى اليوم الذي استلقي فيه نهائيّاً على الوضع الأفقي. إنني لم أمت بعد ولكني لست أفضل حالاً، من الموتى فلم أعد أتمنى شيئاً ولا أحب شيئاً ولا أنتظر شيئاً؛ وبصراحة بدلاً من هذه الحياة الحيوانية التي أحياها معتلة بهذا المرض اللعين، أفضل رؤية نفسي داخل أربعة ألواح من الخشب جيدة الأقفال، أنتظر ومعي النعش نصيبي مما تلاقيه المومياوات التي نعثر عليها اليوم في مصر.

«ربما لن أموت بسبب علتي ولكنني حقاً سأموت من الملل. يالها من وحدة قاتلة تلك التي نسجت خيوطها حولي، فأنا وحيدة مع طبيب بولندي لا يحسن سوى الطب ومع طاهية ومعي روز وصيفتي. وعلى الرغم من ذلك، فعلى امتداد بصري سماء صافية ونسمات عليلة، وهذا النيل المضياف الذي يتهادى عليه قارب المريض كما تهدهد الأم وليدها. ولكن الآثار الشامخة لمصر الأثرية وأطلال المعابد العظيمة والتماثيل العملاقة المنحوتة في أحضان جبال الجرانيت، والكثير من الأعمال الخالدة التي ترك الزمن عليها بصماته والتي ألحقت بها الهزات الأرضية أضراراً جسيمة .. أي كل ما نراه بأعيننا دون اعتبار ما يضيفه خيالنا عليها.. كل ذلك يُجهد الإنسان الضعيف ويتعب النفس البائسة. بعد أن زرت الأهرامات العظيمة محمولة على محفة، وبعد زيارة مقابر الملوك وبعد أن رأيت تمثال ممنون الشهير الذي حظى الإمبراطور أدريان بسماعه يتنهد ثلاث تنهيدات، وبعد أن تأملت بهدوء وبفطنة أطلال الكرنك .. في ضوء القمر – الذي لا نحظى به إلا هنا – ذهبت إلى معسكري إثر شعوري بالإجهاد لقياس النبض ووجدته (٩٦). ومن هذا اليوم هدأ

فضولي وسكن، لأحيا الآن على الطريقة التركية .. هذه هي الأسباب التي تجعلني حزينة محطمة ولا أصلح لشيء»[1].

يجب ألا ننتظر من راشيل أي انطباع آخر عن مصر .. فقد عانت من التعب والإحباط حتى تحولت عن حياتها الدنيوية![*]

أولت الكونتيسة جولييت دي روبرسار اهتماماً أكبر بكتابة مذكراتها[2] التي عزمت على نشرها، ومن أعمالها «رسائل حول أسبانيا» .Lettres sur l'Espagne وكانت تكتب للمحيط الضيق من أقربائها وأصدقائها، وفي عام ١٨٦٧ ألفت كتاباً تثقيفيّاً ومسليًا في آن واحد، عائلي ومحبب إلى النفس عبرت فيه بحس طبيعي عن نوادرها والقيم التي تؤمن بها. وكانت تحتاط من فولني بسبب «إلحاده» كما جاء في «وصف مصر»، وزارت متحف بولاق دون الرجوع إلى مارييت «الذي كان يخشى تماماً من المتطفلين». وتعزي نفسها إزاء ما تلاقيه من متاعب أثناء الرحلة بالرجوع إلى الله. وكانت أرملة سعيد باشا تستقبلها، كما كانت تواظب على زيارة مدام روستي زوجة القنصل السابق دي توسكان. إنها لسيدة عظيمة تتمتع بروح طيبة.

تختلف أولب أودوار ولويز كوليه كلية عن دي روبيرسار، فلسانهما قارص ودائماً ما تميلان إلى الخوض في خلفيات الحدث وخاصة إلى الحكايات الصغيرة. وسوف نتحدث فيما بعد عن ذكريات لويز كوليه، فقد استطاعت العشيقة السابقة لفلوبير التسرب بين ممثلي الصحافة الذين حضروا افتتاح قناة السويس، لنراها بعد ذلك بين صفوف الوفد الفرنسي عام ١٨٦٩ ، إلا أن أولب أودوار في كتاب لها عام ١٨٦٥، وصفت مصر وصفاً شديد القسوة حتى أننا لا يمكن أن نقرأ «الفلاح» دون الرجوع إليه، هذه الرواية التي تحكي عن العادات المصرية والتي كتبها إدموند آبو عام ١٨٦٧. وتناقض الكتابين شديد الوضوح لدرجة أننا نتساءل عما إذا كان الواحد منهما ترياقًا للآخر!

---

(1) La Revue. Paris. 1er mai 1910. p. 49.

(*) توفيت راشيل في كانيه في ٣ يناير ١٨٥٨.

(2) Comtesse J. De Robersart. Orient. Egypte. Journal de voyage. Paris. Palmé. 1867

شـأنها شـأن لويز كـوليه، كـانت اولمب أودوار (١٨٣٠ - ١٨٩٠) سـيدة تهـتم بالأدب وذات أصـول ريفيـة. بعد انفصـالها عن زوجـها الـذي كان يعمل موثقاً في مـارسيليا، بدأت أولى خطواتها بقصـة «كـيف يحب الرجـال» Comment aiment les hommes (1861)؛ وقبل استقرارها في باريس حيث أسست على التوالي صحيفة «لوبابيون» Le Papillon (1865) و«لاروفـو كـوزمـوبوليت» Revue Cosmopolite (1867)، كـانت قـد بـدأت رحلة طويلة لزيارة مصـر وتركيا وروسيا. خـلال خمسة عشر شـهراً قضـتها في الإسكندرية والقـاهرة من عـام ١٨٦٤ إلى عـام ١٨٦٥، جـمـعت هـذه الرحـالة غيـر المسـتـقـرة نفسـيـاً والمتـحمسـة دوماً (والعـالمة الروحـانية أيضـاً) كل اللغط الدائر والثرثرة الخـالية من الصـحة والتي عرضتها لنا بطريقة لطيفة في كتاب «الكشف عن خفايا مصر»[١].

شأنها شأن لويز كوليه، كانت دائمة الشكوى من صحتها ومن عدم الاهتمام بها ومن المخاطر التي تنجو منها. فهي تخـاف كل شيء، المياه والخـماسين والحـيوانات المفترسة .. الخ. كمـا أنها من نوع النسـاء المتعبات، مضطربة وخائفة في آن واحـد، مكتئبة واهمة تربك الكل من حـولها، دائمة التذمر لا ترضـى عن شيء، لتصبح في نـهاية الأمر شـخصـاً غير محتمل بكل المقاييس.

كـان مـعـروفـاً عنهـا أنهـا على عـلاقـة ببعض الخـصـوم السـيـاسـيين والشـخـصـيين للخديوي إسـمـاعيل. وكانت ذات هيئة غريبة الأطوار مما جعلها دوماً موضـع شك. وكمـا ذكرت لنا تمت مـصـادرة بريدها عـدة مـرات (؟) ويضـم الكتـاب جـزءًا للمـعلومـات المبـاشـرة وآخر للمعلومات الملفقة. ومن اليسير أن نجد في كل من فصـول «النيل» و«نظام الحكم» و«السـخـرة» و«الفـلاح» صـدى لأوجـه الانتـقـادات التي ترددت لآلاف المرات والتي سبق أن سـجلناها[٢]، كمـا يمكننا بمقارنة بسيطة للنصـوص، العثـور على مـا اقتبسـتـه من بريس دافين وهامون وشيلدر وجيسكيه وشارل ديديه ... الخ. إلا أن النبـاب أفضـى إليـها ببعض الأسـرار هو والعظيم برافيـه الذي أغـدقت عليـه الأوصـاف المتـملقـة[٣]. كمـا حصـلت من

(1) Les mystères de l'Egypte dévoilés, Paris, Dentu, 1865, 2^{o} 1866

(2) Cf. T. I, 3^{o} partie, chap. Vt. Avocats et adversaires de Méhémet-Ali

(3) Les mystères de l'Egypte dévoilés, 2^{o} éd. 1866, p. 187 et 480. Sur Bravay, cf. plus haut, p. 229

مصطفى فاضل باشا شقيق الوالي وعدوه اللدود على أكثر من معلومة أحسن اختيارها للإساءة إلى العرش وإلى النظام. والدليل على ذلك موقفها من العائلة الخديوية، فهي تميل إلى التسامح في ما يتعلق بسعيد باشا «الطيب الكريم البشوش»[1]، حتى أنها تشعر أحياناً بالشفقة تجاهه عندما تذكر لحظات احتضاره وتخلي الجميع عنه ومراسم دفنه الحزينة والنعش الملكي الذي لم يتبعه سوى شخص واحد أوروبي هو الوفي برافيه[2]. وفي المقابل، نجدها تفتقر إلى العدل إزاء إسماعيل باشا التي كتبت تقول عنه «ها هو يتولى الحكم منذ سنتين، هل فعل شيئاً لتحسين مصير شعبه؟»[3] وهذا لأن لديها خلفه مصطفى فاضل باشا، الأمير الذي تراه فائق الذكاء والثقافة والذي تربطها به صلات وثيقة والذي تأمل في رؤيته يعتلي العرش في المستقبل القريب.

هل نندهش بعد ذلك إذا بادرت بهمة خبيثة بالكتابة عن التاريخ الفاضح لبلاط مصر؟ إذ لم تشبع نهمها مجريات الأحداث فنقبت عما كان يدور في زمن محمد علي من قصص هزيلة وجمعت كل الشائعات السيئة في تلك الفترة. كيف يمكن التمييز بين الحقيقة والخيال؟ ها هو أولاً صهر الباشا الدفتردار الشهير، هذا الوحش القاسي الذي كان يتلذذ بإدخال الرعب على قلوب زائريه من الأوروبيين وهو يستقبلهم متوسطاً بين أسد ونمر[4]. وهو الشخص الذي - إذا صدقنا أولب أودوار - قام خلال حملة سنار برسم خريطة حملته بدماء الرهائن ثم أهداها إلى معهد فرنسا! [5] وهو الذي أصدر أمراً بشق بطن أحد الجنود لأنه سرق وشرب لبناً بما قيمته خمسة قروش «ليتأكد من وجود اللبن في معدته،

(١) المصدر السابق، ص ١٤٩ .

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٦ .

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٢ .

(٤) إن أخبار أحمد بك الدفتردار رواها بريس دافين وهامون في الجزء الخاص «بمصر الحديثة» في مجموعة «العالم الجميل» l'Univers pittoresque التي نشرها ديدرو. وتم نفس الشيء بالنسبة لفضائح الأميرة نازلي كبرى بنات محمد علي وزوجة الدفتردار وشقيقتها الأميرة زهرة زوجة محرم بك وزير الحربية اللتين طالما تم الخلط بينهما.

(٥) في كتابه «جغرافية مصر خلال العصور» (Géographie de l'Egypte à travers les âges الجزء الأول من «تاريخ الأمة المصرية») دي لا رونسير de la Roncière يقول (ص ٣٨١) في ما يتعلق بغزو الدفتردار لكردفان إنه «قام بنفسه برسم خريطة اولية على قطعة طويلة من القماش حدد فيها الطرق التي سارت عليها قواته، هل يكون هذا هو اصل الأسطورة».

وهو أيضاً الذي جعل ضابطه البيطري[1] يدق المسامير في راحة قدمي أحد الجنود الذي كان قد تظلم لعدم امتلاكه حذاء يرتديه». وها هي زوجته الفاضلة نازلي هانم التي «تجدد مآثر مارجريت دي بورجويني، وتغير كل ليلة عشيقاً ومكان إقامتها، وتلقي ضحايا نزواتها في النيل أو تدفنهم في كهوف القلعة»[2]. ونصل إلى عباس باشا الذي نعرفه من خلال فلوبير ومكسيم دي كوم، أليس هو - عندما لم يكن سوى محافظ شاب للقاهرة - الذي أصدر أمراً بجلد عشيقته كوتشكوك هانم خمسمائة جلدة قبل نفيها ؟ وفي كتابات أولمب أودوار - التي ستنهل منها بعد ذلك لويز كوليه[3] - نجده غارقاً في بحور الرذيلة في قصره ببنها يخطط ويحيك المؤامرات والدسائس ضد أسرته الكريهة، إلى الدرجة التي فكر فيها ذات مرة في تلغيم قاعة الاستقبال في القلعة للقضاء على البلاد حتى اغتيل هو نفسه بعد ليلة ماجنة على يد اثنين من حراسه المفضلين[4].

بعد استرسالها في سرد هذه الروايات المأساوية الماجنة، لا تنوي السيدة أودوار التوقف عن اكتشافاتها المثيرة، وها هي تعتزم «الكشف» عن خفايا الحريم بعد خفايا بلاط مصر. وهنا أيضاً لعبت دوراً متقناً. ووفقاً لما ذكرته، كانت هناك أمور وحشية غير مسبوقة. ومهما تكن وسائل القمع التي تلجأ إليها بعض السلطات المصرية لتنفيذ الأحكام، فإننا نرى أن السيدة قد بالغت في وصف هذه الوسائل لتهوّل من أمرها. فنرى هنا زوجاً مخدوعاً يطيح برأس زوجته الخائنة ويرسلها في حقيبة إلى عشيقها[5]، وهناك باشا طاعن في السن يصدر أمراً بخنق طفليْ زنا ولدتهما زوجتاه من غريميه[6]، ثم هذا الشخص المرموق الذي نما إلى علمه أن عشيقته ذهبت خفية ترقص مع بعض الشباب فقتلها وقطعها أجزاءً وأرسلها هدية في صندوق مزين بالورود إلى رفقاء الرقص[7]. من

(١) «الكشف عن خفايا مصر» الطبعة الثانية ص ١١١ وص ١١٧.

(٢) انظر ما سبق «ليالي القاهرة» لشارل ديديه.

(3) Les pays lumineux. Voyage en Orient. Paris. Dentu. 1879. p. 186

(٤) إن الحياة الماجنة لعباس باشا تناولها من قبل العديد من الرحالة الذين لم يحصلوا على وثائق كافية كما تناولتها أيضاً فصول كتاب «مصر الحديثة» الذي سبق الإشارة إليه وذلك بمساعدة هامون وبريس دافين. انظر الجزء الأول ص ٣١٨.

(5) Les mystères de l'Egypte dévoilés. p. 430 et suiv. حدث ذلك في عام ١٨٦٠

(٦) المصدر نفسه ص ٤٣٠ وما يليها.

(٧) المصدر نفسه ص ٤٣٤.

المستحيل أن يتخيل المرء ما هو أفظع من ذلك. إن الفصل الذي كتبته عن الحريم يعد نسيجاً من الأهوال يصعب بالفعل تصديقه، إلا أن أولمب أودوار تتعامل مع هذه الوقائع كأنها حقيقة، وتستعير من جريدة التايمز (١٨٦٤) - لتقنع القراء الذين يشكّون في صدق كلامها - هذه الرواية التي تفوق ما سبقها رعباً وهولاً ومفادها أن سيدة من علية القوم - لكي تنتقم من زوجها الخائن - قدمت له على مائدة الغذاء طبقاً عبارة عن رأس عشيقته مزينًا بأوراق البقدونس[١].

كفانا جرائم وخسة ولننزع القلم من يد هذه المرأة التي ليس لها شاغل سوى اختلاق الأكاذيب المروعة ! فقد أعماها استياؤها من إسماعيل فانكبت على الإساءة إلى البلاد وإلى العادات وعيناها في نفس الوقت على الخديوي. وأدى هذا الوحل الدامي الذي تثيره باستمتاع إلى تلطيخ العرش. لكن علينا توخي الحذر فأوروبا ليست بعيدة. لم تعد المؤرخة العنيدة تشعر بأي ود أو محبة لمواطنيها الذين استقر بهم المقام في القاهرة، فكانت تندد بهؤلاء التجار غير الأمناء الذين يشترون منتجات السيفر من باريس بخمسين ألف فرنك ليبيعوها إلى الخديوي[٢] بخمسمائة ألف، وهؤلاء اللصوص المشبوهين من ذوي الجنسيات المتعددة الذين يتقاتلون ويغتال بعضهم البعض ليلاً في حي الأزبكية[٣]. والأسوأ من ذلك حقاً هو ما يشاع عن السادة القناصل - وهم طغاة صغار يحكمون المستعمرة بمقتضى لوائح ترجع إلى عام ١٧٧٨ - الذين لا يشغل بالهم سوى الاستحواذ على عطايا الوالي ويضحون طواعية برعاياهم في سبيل مطامعهم الشخصية[٤].

وبالفعل، أثار موضوع هؤلاء القناصل سخطاً وارتفع صوت كل من المصريين والأوروبيين بالشكوى، وأعادت الحكومة المصرية فتح ملفات المحاكم القنصلية. ووفقاً لما تذكره، فإن العدالة الأوروبية ليس لها سوى الاسم، فهي تعسفية مشوشة ومتحيزة. وسيمتد نطاق هذا الجدل مع ظهور كتاب «الفلاح» لإدموند آبو.

****

(١) المصدر نفسه الطبعة الثانية ص ٤٤٧ - ٤٥٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧٥.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤٦٣ وما يليها.

الفصل الثالث

الروائي: إدموند آبو Edmond - About

و«الفلاح» Le Fellah (1869)

I

تجمع كتيبات تاريخ الأدب عادة بين بريفو برادول وإدموند آبو في فصل واحد، فعمرهما واحد وتكوينهما واحد وعملهما واحد، فالاثنان تخرجا من نفس المدرسة والاثنان زميلان في دراسة الآداب والاثنان صحفيان لامعان محبان للقتال والاثنان ليبراليان، إلا أن لكل منهما طريقته، فبريفو برادول معاد للإمبراطورية وأبو للكنيسة. بالنسبة لنا، لا ينتهي التماثل بينهما عند هذا الحد بما أنهما الاثنان زارا مصر.

لسوء الحظ لم تترك الرحلة التي قام بها بريفو برادول في بداية ١٨٦٥ أية أثر يُذكر في الأدب. إذ أن لدى وصوله إلى الإسكندرية، وصله نبأ تعيينه خليفة لجان جاك أمبير في الأكاديمية الفرنسية. فتحول فكره – وهو شعور طبيعي لدى ناشر شاب لم يزل في الخامسة والثلاثين من عمره – إلى الخلف، إلى ضفاف نهر السين حيث يعكس الضوء الهادي للربيع الباريسي قبة معهد فرنسا.

هذا لا يعني أنه قد عدل عن رحلته النيلية، فقد قام بها يصحبه فيها أراكل بك شقيق نوبار باشا، الذي سيتعرف عليه أيضاً إدموند آبو، ومعهما جرامون جادورروس ابن أحد جنرالات الإمبراطورية الأولى المحب للحياة والمصاب بداء السل والذي كان يأمل في استعادة صحته هنا، والذي عاد بعد ذلك ليموت في القاهرة[1]. لدى عودته إلى فندق أورينت في ٢٨ فبراير ١٨٦٥، وجد مجموعة من الرسائل من صديقه لودوفيك هاليفي

(1) Cf-E-About-L-fellah-éd-Hachette-P- 156

يطلعه فيها على العرض المغري للأكاديمية. «لقد استلمتها كلها في آن واحد مساء أمس لدى وصولي من صعيد مصر متأخراً عشرة أيام قضيناها في اللعب بالحصى على ضفاف النيل. لقد كنت عازماً على السفر يوم ٩ مارس ولا زلت على موقفي، لأنني أتوق شوقاً للعودة إلى فرنسا. ولكنهم يريدون حجزي حتى يوم ١٩، وأمام إصرارهم الودود لا يسعني إلا الموافقة. وأريد معرفة كيفية التمسك بالأكاديمية الفرنسية».

سرعان ما سيتخذ قراره، ففي يوم ٧ أبريل فاز في الانتخابات على جول جانين. وكان أصغر الخالدين، ووفقاً للكلمات التي وجهها إليه جيزو لدى استقباله فإنه إذا كان «مرشحاً دون علمه فلم يلبث أن أصبح عضوًا بالأكاديمية تقريبًا في نفس اللحظة التي رشح فيها»(١).

إن التي حمل ذهابه إليها تميمة خطه لم يكتب شيئاً عنها فور عودته إلى باريس، لأن القدر كان قد اختاره ليلقي كلمة يحيي فيها سلفه جان جاك أمبير الذي أحبها إلى الدرجة التي قال عنها إنها تستحق من المرء أن يضحي بحياته من أجلها. وكان يقول إنه من بعد امبير فإن أفضل الانجازات سيصبح هباءً، فقد كان معجباً به وكان يغبطه قليلاً خفية.

«ياله من وصف شيق لمصر ذلك الذي كتبه! ياله من مزيج رائع من الذكريات القديمة واللوحات الحديثة. لقد نقل لنا انبهاره بأطلال طيبة الرائعة، كما أشركنا في شعوره بالقلق وبنسيان الزمان الذي ينبع من تدفق مياه النيل التي نشعر برذاذها المنتشر على ضفتيه! وتزداد قيمة ما كتبه عندما نتذكر أنه دائماً ما كان يغفل حقه على نفسه ويغرق في بحر العمل تحت الشمس الحارقة إلى الدرجة التي كاد ألا يعود فيها إلى فرنسا ويظل مدفوناً بين هذه المقابر التي كان على استعداد للتضحية بالنفيس لكشف أسرارها»!(٢)

عندما كان بريفو برادول يلقي هذه الكلمة أمام المجتمع الباريسي بكامل هيئته، لم يكن يدري أنه بعد مرور أربعة أعوام سيلقى حتفه بطلقة مسدس على أرض بعيدة(٣).

(1) Lettre-du-1er-mars-1865-Cf-O-Gérard-Prévost-Paradol-Etud-suivi-d'u-choix-de-letters-Paris-Hachette-1894-2e-éd.-p-285

(2) Discours-de-réception a l'Académie-française 8 mars-1866-Cf-plus-haut-p.63-65

(٣) فور تعيينه سفيراً لفرنسا في الولايات المتحدة قتل في واشنطن بعد أولى انتكاسات حرب ١٨٧٠، أما ابنته - التي تدينت - فقد أصبحت بطريقة مثيرة للفضول رئيسة دير فرنسي في مصر.

II

تم انتخاب زميل الدراسة القديم إدموند آبو بعده بعشرين عامًا، إلا أن الموت لعب لعبته وانتزعه قبل الموعد المحدد لحفل الاستقبال (١٨٨٥). غير أنه ترك لنا شيئاً آخر عن مصر يختلف عن الخطاب الأكاديمي. إن روايته «الفلاح» التي نشرت أولاً في ريفودي دوموند بعنوان «أحمد الفلاح» (فبراير - أبريل ١٨٦٩) تطرح سلسلة من المشاكل التي لا يمكننا تجاهلها.

إن هذه الرواية ليست من أفضل أعماله ولا تعتبر حتى جيدة، وليست على أية حال أكثرها شعبية ولا حققت نجاحاً يماثل ما حققته أعماله السابقة. إلا أنها علاوة على ما تقدمه لنا من دراسة للعادات وللتقاليد في مصر إبان حكم إسماعيل، تعتبر نموذجاً دقيقاً لمزايا وعيوب الكاتب. وكان دوماس الابن يتحدث عنه قائلاً «يا صديقي لطالما وضعت نفسك في المواقف الحرجة إلا أن ما ينقصك دوماً هو كيفية التخلص منها!» لا ينطبق هذا القول على «الفلاح»، بل على العكس نرى فيه إدموند آبو على قدر كبير من المهارة والمرونة ورباطة الجأش التي يتمتع بها لاعبو السيرك. إن هذا الصحفي كثير الصخب المحب لفولتير، هذا المستقل ظاهرياً الذي تمكن من نيل إعجاب الإمبراطورية الثانية حتى قلدته وساماً، نجح أيضاً في نيل رضا إسماعيل، ورسم لنا مصر الحديثة التي كانت في عام ١٨٦٥ محط الأنظار والدراسة رسماً حيّاً ودقيقاً في مجمله، ينم عن ذكاء متمرس وصدق لا يضاهيهما سوى ذهنه المتقد والمهارة الفائقة التي يتعامل بها مع الإيجابيات والسلبيات.

إن شمولية صفاته تثير الدهشة، وعلى حد قول ليون ساي وهو يلقي كلمته بعد أن خلفه في الأكاديمية الفرنسية يوم ١٦ ديسمبر ١٨٨٦ «أنه روائي وخبير زراعة وناقد اقتصادي وعالم وصحفي ورحالة وفنان.. فهو يعرف كل شيء ويرى كل شيء ويسمع كل شيء». إن هذا الخبير في شئون الإنسانية والمحب لليونان، كانت له ميول رجل المال وكان من السهل عليه التحول إلى مزارع. ويضيف ليون ساي «لقد اقتنع تماماً أنه كان عليه ترك مجال الأدب والعمل في التجارة وكان يريد أن يصبح ريتشارد لونوار آخر أو اوبركامف. فقد كان يتمتع بذاكرة دقيقة للغاية وبدقة ملاحظة غير عادية إلى الحد الذي يتمكن فيه،

بعد زيارة أحد المصانع، من الوقوف بعمق على التجهيزات والأساليب والمنافذ؛ أي باختصار، كشف جميع المزايا وجميع نقاط الضعف». وكانت ملكاته هذه خير معين له. ألم يؤلف «قصصاً ثقافية» و«قصصاً اقتصادية»؟ ألم يصف لنا في أعمال أخرى التحولات التي شهدتها بعض المناطق في فرنسا والمضاربات الزراعية في مناطق أخرى؟ إذن لقد كان مزوداً تماماً بما يؤهله لتأليف «الفلاح» الذي نراه في آن واحد رواية ثقافية ورواية اقتصادية ورواية عادات وتقاليد ورواية قضية! أي عناصر عدة تجمعت لتحقق عملاً جيداً.

إذا رغبنا في حل هذه العقد، فإن أفضل طريقة هي الإمساك بالخيوط قبل أن يلهو بها الكاتب الماكر ويجعلها تتشابك. ما هو أصل الرواية وما الذي دعاه إليها؟ فهي تنتمي بالطبع إلى فئة «الأشياء المرئية» وأحداثها حقيقية. أبو جاء إلى مصر، متى ولماذا؟ وتحت أية ظروف؟ فلنسع أولاً إلى إعادة تنظيم رحلته.

يشير البارون فيرمين فان دان بوش الذي توصل إلى وثائق القصر الملكي في القاهرة، في كتابه «عشرون عاماً لمصر»[1] إلى رسالة بعث بها نوبار باشا وزير الخارجية إلى الخديوي إسماعيل يخبره فيها بقرب وصول إدموند أبو الذي أرسلته الحكومة الفرنسية ليكون عيناً لها أي «مخبراً». فالإمبراطورية تولي عناية خاصة ليس فقط بالمشروع العظيم الذي يقوم به دي ليسبس في السويس، لكن أيضاً بالإصلاح القضائي الذي تطالب به مصر القوى العظمى منذ عهد سعيد باشا[2]، بإلغاء القضاء القنصلي وإنشاء المحاكم المختلطة. وحرصاً على الامتيازات التي تتمتع بها، توخت الحذر من مشروع الخديوي وبالتالي كان من الطبيعي أن ترسل مخبراً إلى مصر. إلا أن الأمر غير الطبيعي هو أن تعمل مصر على تقبل هذا المخبر، الذي تفنن إسماعيل - فور علمه بقدومه - في إرضائه وأولاه عناية استثنائية.

---

(1) Vingt-années-d'Egypte-Perrin-1932-p. 142-144

(٢) في عام ١٨٦٠ اقترح سعيد باشا على القوى العظمى - بواسطة وزير خارجية مصر شريف باشا - اتفاقية يحررها كوينج بك بخصوص إنشاء المحاكم المختلطة، وفي عام ١٨٦٨ كوّن وزير خارجية فرنسا لجنة جديدة برئاسة دوفرجيه وأعضاؤها تيسو وساندبروي وفروجيرار واوتري قنصل فرنسا في مصر اتخذت موقفاً معادياً تماماً للمشروع.

وإذا ما صدقنا قول الكاتب، فقد جاء أيضاً ليجري - مثلما فعل فلوبير - بحثاً حول الزراعة في مصر، إلا أنه كان أكثر جدية. وذكر في «الفلاح» قائلاً «تم تكليفي بمهمة ظاهرها قاس إلا أن باطنها يلائم ميولي تماماً إلا وهي دراسة موارد التربة ووسائل استغلالها على أفضل وجه»[1]، وأضاف «لقد استغليت الطقس السيئ وكتبت تقريري عن الزراعة والاقتصاد الاجتماعي الذي كان الهدف الرئيسي لتحركاتي[2].

كان لآبو زميلان في الرحلة هما دي نجاك وكاميل دي لوكل وهما من رجال الأدب وبصفة خاصة المسرح. وقد اشترك مع دي نجاك أكثر من مرة في كتابة مسرحياته؛ أما كاميل دي لوكل الذي سبق أن تعرفنا عليه من بين الذين ساهموا في كتابة أوبرا عايدة، فقد حقق شيئاً من الشهرة بعد أن ألف العديد من الأوبرات وساهم في أعمال فردي وريبار. وإذا صدقنا ما جاء في «الفلاح»، فهو لم يبق طويلاً في مصر مثلما بقي صديقاه، وتركهما في فبراير ١٨٦٨ في الوقت الذي كانا يستعدان فيه للذهاب إلى الإسماعيلية.

كيف السبيل إلى إعادة رسم خط سير إدموند آبو؟ إنها لمهمة يسيرة إذا ما تمكنا من الاطلاع على الرسائل التي كان يرسلها بانتظام من مصر إلى زوجته والتي ما زالت بناته يحتفظن بها. بما أنني لم أحظ بعد بهذا الامتياز، سأكتفي بالمعلومات المنوه عنها في الأجزاء الخاصة بالسيرة الذاتية في الرواية. وقد ذكر هو نفسه أنه ظل سبعين يوماً في مصر[3]؛ مما لا شك أن هذه مبالغة إلا إذا كان قد تأخر طويلاً لدى عودته من أسوان ومن الإسماعيلية في نهاية الرحلة. إذا فحصنا جيداً رواية «الفلاح» وإذا ما أخذنا مصداقيتها في الاعتبار سنتوصل إلى ما يلي.

إدموند آبو غادر مارسليبا في ٢٩ ديسمبر ١٨٦٧ على ظهر إحدى السفن التي كانت تقل المدعوين الملكيين[4]، ووصل إلى الإسكندرية في ٤ يناير ١٨٦٨[5] وظل بها ٤٨ ساعة

(١) الفلاح، الطبعة الشعبية هاشيت ١٩٠٥ ص ٤٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢٩١، كان ذلك موضوع بحث قُدم إلى الخديوي.

(٣) المصدر السابق ص ١٥٣.

(٤) المصدر السابق ص ٣٩.

(٥) المصدر السابق ص ٥٩.

ليصل إلى القاهرة في ٦ يناير. وبعد يومين قضاهما في العاصمة، قام بعدة رحلات في الدلتا ثم عاد إليها في الحادي عشر ليرحل في الثاني عشر متجهاً إلى الصعيد على ظهر السميرية «شبين» التي وضعها الخديوي إسماعيل[١] تحت تصرفه. واستغرقت فترة الإبحار على النيل حتى أسوان، مع المحطات التقليدية، من يوم ١٢ إلى ٢٨ يناير[٢]. أما رحلة العودة فكانت أسرع ووصل الرحالة إلى القاهرة يوم ٨ فبراير، وبما أنه ظل فيها نحو ثمانية أيام[٣]، فقد وصل إلى الإسماعيلية في حوالي منتصف فبراير ليمكث فيها حتى نهاية الشهر.

لقد تعرفنا أيضاً – من الرواية – على الشخصيات المصرية والفرنسية التي قابلها ومنها عرام بك سكرتير الخديوي ونسيب نوبار باشا وراغب باشا رئيس المجلس وراتب باشا القائد العام. وفي الإسماعيلية، استقبله فوازان بك خليفة موجل بك ومدير الأشغال في قناة السويس، ورأى لديه مجموعة أخرى من المهندسين العاملين في الشركة منهم لاروش وبوريل ولافالي[٤]. وصحبه أراكل بك ابن شقيق نوبار باشا في رحلته إلى صعيد مصر وزوده مارييت بالمعلومات اللازمة. إذا كان إسماعيل قد استقبله وإذا كانت قد واتته الفرصة للقاء ثلاثة من أبنائه في الأقصر، إلا أنه لم يشر في روايته إلى شخصين على درجة من الأهمية: الأول هو الفرنسي العظيم الذي كان على وشك الانتهاء من مشروعه وهو فرديناند دي ليسبس والثاني هو الوزير المصري الذي استأنف – بعد شريف باشا بسبع سنوات – مع حكومة الإمبراطورية مباحثات حساسة متعلقة بإصلاح المحاكم القنصلية وهو نوبار باشا؛ إذ إن الاثنين كانا في أوروبا.

لنترك الحديث هنا إلى البارون فيرمين فان دون بوش «عندما تم إخبار إسماعيل من قبل وزيره نوبار باشا الذي كان يجري مفاوضات لمصر في فرنسا، بقرب وصول إدموند

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٥ و٢١٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٩٧، كان في دمياط يوم ٤ مارس.

(٤) ذكر أبو أسماء أخرى منها ذو الفقار باشا ومراد باشا وعلي بك مبارك (ص ١٣٣ و٢٤٤)، ومن بين الفرنسيين القائد هايو معلم الأمراء الملكيين ص٢٦٧ والكيميائي جاستينال والطبيب أوبير روش طبيب الإسماعيلية.

أبو المبعوث غير الرسمي للحكومة الفرنسية إلى مصر، بعث من ينتظره لدى وصوله واستقبله بحفاوة بالغة وأمطره بالنعم ووضع مركباً تحت تصرفه وعين له مرشداً. وزاد الخديوي على ذلك، كما أرى من خلال رسالة كتبت في ١٩ فبراير ١٨٦٩، واشترى كتابه مسبقاً مقابل مبلغ ٢٥ ألف فرنك، يستلم ١٥ ألفاً على الفور والباقي يتم دفعه إليه على أقساط في فرنسا عن طريق نوبار باشا كلما نشرت لارفودي دوموند أجزاء الرواية».

فيما يلي الرسالة – موضع الحديث – التي بعث بها نوبار إلى إسماعيل «لقد اتفقنا مع إدموند أبو على مبلغ ٢٥ ألف فرنك عندما ينشر كتابه: يتم دفع ١٥ ألفًا مقدماً و١٠ آلاف بعد ذلك. لقد استلم بالفعل ١٨ ألفًا، دفعت له أنا شخصيّاً ١٥ ألفًا وثلاثة دفعها له معاليك أثناء إقامته في مصر. يتبقى له إذاً سبعة آلاف. لقد أخبرني بطريقة غير مباشرة عمّا سبق أن اتفقنا عليه، وبما أنه الآن يطبع الرواية وأن هذا المبلغ في نهاية الأمر من حقه، فإنني أرجو من عظمتكم السماح لي بأخذ مبلغ ٧ آلاف فرنك لإرسالها إليه أو أعطيه المبلغ مباشرة. إنه أمر ضروري وأتمنى من عظمتكم اعتباره كذلك»[١].

يستطرد البارون فيرمين فإن دون بوش قائلاً لقد تم حبك المسألة التي أدت إلى «إلى استناد الخديوي لتعزيز مطالبه خلال المفاوضات التي أجرتها مصر مع فرنسا حول التعديلات القضائية في مصر إلى رأي المخبر ذاته الذي بعثت به الحكومة الفرنسية ليكون عيناً لها في مصر»[٢].

تلقي هذه التصريحات ضوءًا جديداً على كيفية تأليف «الفلاح» وبما أننا على علم بها الآن، علينا الاعتراف بالمهارة التي كتب بها أدموند أبو المقدمة الصغيرة التي استهل بها قصته. لقد كتبها بريشة الفنان الذي يعمد إلى الاختيار وإلى التحصيل؛ وكتب إلى الرسام ليون جيروم الذي التقى به في مصر يشرح له أسلوبه في رؤية الأمور، «عندما سافرتم إلى سيناء كنت أتأهب للعودة إلى الإسكندرية حاملاً حقيبة مكتظة بالأوراق كما

(١) رسالة تم نشرها في «لاسيمان اجيبسيان» La Semaine Egyptienne (1929 - 1930) - ص ٢١ وفي جريدة «لوسوار» Le soir في بروكسل في ٢٦ فبراير ١٩٣٠.

(2) Les-dessous-politiques-d'un-roman-sur-l'Egypte-d'après-des-documents-inédits-dans-La- Semaine -Egyptienne 1929-1930, p.21.

تمتلئ حقائبكم بالرسومات. لقد عرفت مصر بالقدر الذي يتيح لي وصفها تماماً مثلما فعلت مع اليونان وروما. إلا «أن كرم الضيافة الذي أحاطني به إسماعيل باشا قد غمرني من كل جانب حتى قيد حركتي قليلاً». لم يعد لي الحق في الحديث عن مصر المعاصرة عن علم وعن معرفة. ولكن يا عزيزي جيروم أسلوبك يبهرني ويبعث في نفسي الطمأنينة، فلا يحظر أي قانون على الكاتب العمل بأسلوب الرسام، أي أن يختار موضوعاً خيالياً بحتاً ويفعمه بتفاصيل متناهية الدقة مستمدة من الواقع مع كونها منتقاه».

III

نرى كيف طبق آبو هذه الطريقة. بعد أن تناولنا الظروف التاريخية والذاتية التي تفسر كيفية تكوين «الفلاح»، حان الوقت لدراسة القصة ذاتها.

سيسهل علينا تحليل الرواية بإيجاز والفصل فيما بين الخيال والواقع وبين الشعر والحقيقة.

تضم حكاية أحمد الفلاح (بما أن هذا كان اسمها الأول) تمهيداً من أربعين صفحة تدور أحداثه في فرنسا، ثم سرداً لرحلة قام بها الكاتب إلى مصر.

يروى لنا آبو أنه ذات شتاء وخلال رحلة صيد في برونوي في قصر أحد أصدقائه، لمح في الحديقة رفيقه الشاب وهو يكسر قطعة من الثلج ليتوضأ بمياهها، فتقدم إليه – وإلينا – مناولاً إيانا بطاقة ورقية «على أحدث طراز» قرأنا عليها (عبارة في غاية الغرابة): «أحمد ابن إبراهيم، فلاح، البعثة المصرية». وخلال العشاء الذي تناولناه في القصر، روى لنا بطلنا حكايته وطفولته على شاطئ النيل والحياة البسيطة التي يحياها الأهالي في بلدته. وتفرق المدعوون وتاهوا وسط زحام الحياة، إلى أن قرأ الكاتب في إحدى الصحف أن رفيقه في رحلة الصيد قد أصيب بجرح خطير في مارسيليا خلال مبارزة طلبها بنفسه رداً على عبارات جارحة قيلت في حق الوالي سعيد باشا.

بعد مرور سبع أو ثماني سنوات، وبعد أن أثارت شجونه الديكورات المصرية في المعرض العالمي عام ١٨٦٧ وبعد أن تم تكليفه بعمل بحث عن الزراعة، رحل إدموند آبو إلى أرض الفراعنة. رحلة ممتعة قضاها مع سيدة إنجليزية رائعة هي ميس جريس ومع عائلة

لونجمان. إلا أنه فور وصوله إلى الإسكندرية تشاجر مع المغامرين الأوروبيين من ساكني المدينة. ويرى فجأة أمامه في حجرته بالفندق أحمد الفلاح. ويروي أحمد - الذي صار ثرياً ومن كبار الملاك - ما حدث له منذ مبارزة مارسيليا. فلدى عودته إلى مصر بعد شفائه، أصبح موضع رعاية وامتنان من قبل الوالي سعيد الذي أنعم عليه بالأراضي والقرى وبمكافأة وصلت إلى خمسين ألف فرنك. إلا أنه للأسف لدى عودته إلى قريته لم يجد إلا بيتاً خاوياً مهجوراً، إذ إنه أثناء فترة غيابه أُخِذ والده بالقوة ليعمل بالسخرة في قناة السويس، ليتوفى متأثراً بالحمى وبالإنهاك الذي أصيب به في موقع الجسر(١).

عرّف آبو صديقه الشاب برفقاء رحلته الكونت نجاك وكميل دي لوكل وعائلة لونجمان وميس جريس، فتأكدت الآراء المسبقة وتصادمت بين الأوروبيين والمصري. غير أن أحمد الفلاح يقع في هوى الإنجليزية الجميلة وينظم لها رحلة إلى القاهرة (عشاء في ربوع القاهرة القديمة وزيارة خان الخليلي والقلعة ومشاهدة رقصة العوالم واحتفالات رمضان) ويذوب في أدب جم إلا أن ذلك كله لا يأتي بثمار. ولا يفقد الأمل وينقل عملياته التكتيكية إلى ساحة أخرى، ويدعو أصدقاءه إلى قريته في المنصورة؛ مما أتاح الفرصة إلى الروائي لسرد كل ما شاهده من تطور في الزراعة في الدلتا ومن فاعلية الوسائل الأوروبية. إلا أن الجمال البريطاني الشامخ يظل صامداً أمام المشاعر الفياضة والتصرفات الموحية، وهنا يدرك آبو أن الرواية لا تتقدم فيقرر التخلي عن الأحداث؛ ويصل مبعوث إلهي من الخديوي - وكأنه حلال العُقد - يضع تحت تصرف الكاتب سفينة وترجمانًا. ويفترق الأصدقاء ويتواعدون على اللقاء في قنا حيث يمتلك أحمد إقطاعية أخرى. ويُقِلّ هذا الأخير الضيف الإنجليزي على ظهر الذهبية التي يمتلكها، في الوقت الذي يصل فيه آبو إلى بولاق مستقلاً قطاراً خاصاً ليرحل منها إلى صعيد مصر. هنا يمزج الروائي رحلته الخاصة بأحداث الرواية ويفقد - بخلاف اللقاء الخاطف في قنا- البطل والبطلة. ويزور الأقصر وإسنا وأسوان بصحبة مرشد عتيد مثل ماربيت ومجموعة من الأمراء الملكيين. ويبحر ثانية على النيل - فاقداً الاهتمام بشخصياته - ويتوقف في سقارة، وتنتابنا الدهشة مثل ما تنتابه تماماً لرؤيتها صدفة خلال سهرة راقصة أقامها فوازان باشا في الإسماعيلية. وتتقبل

(١) نتيجة الضغط الذي مارسته إنجلترا المعادية لحفر القناة، تم إلغاء نظام السخرة بناء على قرار المحكمين الذي أصدره نابليون الثالث في ٦ يوليو ١٨٦٤.

ميس جريس أخيراً مشاعر أحمد الفلاح، إلا أن الأحكام المسبقة البريطانية تجاه الجنس الآخر والدين الآخر تحول بعنف دون سعادتها. وينشب النزاع بين المشاعر والمبادئ، وينتصر العقل على القلب فتقرر الفرار وقلبها ينفطر: قرار لم يلق بالاً إلى خفقات قلب يائس. ويذهب أحمد إلى مقبرة أبيه ويطلب منه العون ثم يقرر إثناءها عن عزمها أو الهلاك دونها. ويسرع إلى الشاطئ ويلقي بنفسه في الماء وراء اليخت الذي يقل الحبيبة ويعوم بجسارة نحوها ويلحق بها وينجح في إقناعها ويعود منتصراً بالمركب.

ها هي الرواية ذات الأحداث المتواضعة، التي تفتقر إلى الحدث والتي لم يكن بها شيء يذكر حتى قفزة الماء الأخيرة.. لا مغامرات ولا تقدم، أحداث تمضي بتراخ تعوقها خطب طويلة سياسية واقتصادية وزراعية. ولا يصبح السرد القصصي شيقاً إلا بعد أن يترك أبو العاشق ويقرر أن يقص علينا ماشاهده في رحلته هو شخصياً إلى صعيد مصر. وتحل وقائع الرحلة محل الأحداث المتراخية، وننسى أحمد الفلاح ونتعرف على ماريبت والأمراء الشباب ونشعر تماماً بأننا قد ربحنا من جراء هذا التغيير. ونرى في ذلك إدانة شديدة للرواية التي عانينا فيها من تعنت ميس جريس المل والذي من الصعب إغفاله. كما أن توافق الحبكة القصصية ووقائع الرحلة يتسم بالضعف، ويعد التدخل الفجائي لترجمان الخديوي[1] والاستعانة بأرواح الموتى في مقبرة الإسماعيلية[2] من الأحداث جلية الاصطناع وكان يمكن إحسان التصرف فيها. والرواية في مجملها ينقصها التوازن (ما القول في قصة تتكون من ٣٢٠ صفحة، فيها ٤٠ ديباجة و١٠٠ خواطر طريق وأكثر من ١٥٠ صفحة تحقيقات زراعية؟) وأحداثها راكدة في ثلثيها الأولين، نتيجة التباين المتناقض بين أحداث شديدة السلبية وبين التشويق الوحيد بها الذي تستمده من الوقائع المتنوعة لرحلة الصعيد.

تتوازى الأحداث مع ضعف متنامٍ على مستوى تحليل الشخصيات. وإذا كانت الرواية تفتقر إلى الحدث فإنها تفتقر أيضاً إلى الطابع المميز. أحمد شخصية تقليدية مبسطة، رجل مثالي على كافة الأصعدة خلق ليلبي احتياجات القياس ولم ينبثق من الحياة. لا تحتوي شخصيته على أية تركيبة، فهو دائم الثبات ومصداقيته قليلة. إنه من

(١) «الفلاح» ص ٢٠٥

(٢) المصدر السابق ص ٣١٤

طراز التلميذ الفالح للبعثة التعليمية المصرية الذي يعود إلى بلده مزوداً بكافة الفضائل وبكافة القدرات راغباً على إحيائها وقادراً على ذلك، المزارع الخبير نموذج الأصالة والوفاء والرقة والمجاملة، بل يجسد أيضاً النجاح الفكري والأخلاقي وهو نموذج مشرف لعطايا الولاة الذين أتاحوا الفرصة لنخبة من المصريين للاحتكاك بالحضارة الغربية. وقبل كل شيء، إنها شخصية تتمتع بسمات فطرية تكاد تكون للعرض فقط. ولهذا يجب ألا تصيبنا الدهشة عندما نراه شخصاً مستبعد الوجود. هذا الفكر المستنير الذي يقرأ أشهر الأعمال الأدبية الفرنسية[١] وعلى دراية بتاريخ[٢] العالم، هذا الفيلسوف الذي يناقش القضايا اللاهوتية والميتافيزيقية مع أصدقائه الإنجليز والذي يقارن بين كالفين ومحمد[٣]، رجل المجتمع الذي يجيد أداء دوره في رحلة صيد أو أثناء مأدبة عشاء والذي يقيّم أفضل راقصي الفالس[٤].. الا يبدو لنا في معظم الأحيان شخصاً حكيماً غير محتمل ولساناً متملقاً وساذجاً أخرق؟ ها هو في غرفة الطعام في قصر برونوي يتشدق بلا كلل بعيوب أوروبا وبالحضارة الفاسدة وبفضائل الفلاح. ويسهب وينسى نفسه أو بالأحرى ينصت إلى نفسه وكأنه بطل مسرحي، ويلقي بصوت جهوري كلماته التي تملأ خمس صفحات[٥] كبيرة، ويهاجم المجتمع الباريسي و«ذوي الكروش المغلق عليهم داخل المراعي الرسمية»[٦]، ويكشف أمام مضيفه الذي أحسن ضيافته عما يشعر به من كره بلا حدود للأجانب على اختلاف جنسياتهم. ويعرض على الإنجليزية[٧] العفيفة مرافقتها وهي تستحم ويشاهد معها عوالم الأرياف وهن يرقصن الرقص الشرقي ثم يعجب بهن بأسلوب فتى الرواية الأول بسذاجته الملائكية وبعفته البريئة. «إنه روح هائمة - كما يقول - تحلق بعيداً عن دنايا الأرض مخافة الدنو منها»... وليس له من الفلاح إلا العفة الصارمة[٨] واحترام تعاليم الإسلام والزهد[٩] وتقاليد العمل والضيافة، ولكنه ليس مصرياً تلقائياً، إنه فلاح... صرف.

(١) المصدر السابق ص ٢٦.
(٢) المصدر السابق ص ١٤٣.
(٣) المصدر السابق ص ١٩٩.
(٤) المصدر السابق ص ٢٩-٣٠.
(٥) المصدر السابق ص ١٦-٢٠.
(٦) المصدر السابق ص ١٦.
(٧) المصدر السابق ص ١٦١.
(٨) المصدر السابق ص ٢ وص ٣١.
(٩) المصدر السابق ص ٢٤.

تعد صديقته ميس جريس نموذجاً للمرأة الإنجليزية. فهي تتمتع بهيئة النبلاء وبالجسم المرن، أما الوجه فيحيطه شعر كستنائي غزير والفم وردي كالزهرة والعينان في زرقة السماء والذقن شامخ وواضح «وجه تذوب ملامحه في تناغم عذب يأخذ اللب»[١]؛ صفاؤها ملائكي ومن المبشرين بالمسيحية[٢] ومبادؤها واضحة، وفي النهاية فإنها شخصية جديرة بالاحترام. وعندما يتحدث أحمد عن نظام الزواج القائم والتبعات العائلية لحياة الحريم، تقاطعه قائلة «لا تميل بنات إنجلترا إلى التفكير في مثل هذه الأمور»[٣]. إلا أن ذلك لم يمنعها من تقبيله على فمه في نهاية اللقاء الذي أخبرته فيه أنها لن تكون له قط[٤]. وتُظهر له خلال الرحلة جفاءً مهيناً لدرجة أنه يصعب تفسير كفاءتها الزراعية ومعلوماتها الهيدرولية[٥]. ولا يتوقف التحليل النفسي لإدموند أبو أمام هذه العجائب، بل الأغرب أن نرى ميس جريس تتحدث عن المضخات الرافعة والدافعة، وأن نباغت شقيقة الفلاح وهي في صالون مغلق تعزف على أوتار البيانو لحناً عالمياً «كما لو أن القطع الموسيقية الفرنسية قد أتى بها زلزال أرضي من باريس إلى مصر»[٦]. بالإضافة إلى الأحداث، نجد أن بناء الشخصيات ليس منطقياً، فهي شخصيات متعثرة ذاتية الحركة؛ ليست بالخيالية تماماً ولا بالواقعية تماماً بل تتأرجح بينهما.. إنها صيغ تسعى إلى إيجاد السبيل.

IV

إذًا أين تكمن الفائدة؟ من ناحية، في رصد العادات وفي إبراز السمات الجمالية للحياة المصرية؛ ومن الأخرى، في الاتجاهات السياسية للرواية وفي المعلومات الاقتصادية والاجتماعية التي تكتظ بها. و«الفلاح» رواية اجتماعية ورواية قضية وذات قيمة تاريخية سيجانبنا الصواب لو أغفلناها.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٨.

(٣) المصدر السابق ص ٩٥.

(٤) المرجع السابق ص ٢٩٤.

(٥) المصدر السابق ص ٢٥١ و٢٥٢.

(٦) المصدر السابق ص ١١٣.

قضى إدموند آبو شهرين في مصر لم يضيع فيهما وقته هباء، فقد أحسن الرؤية والإنصات والرصد والتحليل والوصف. وعلى الرغم من مرور ستين عاماً على رحلته، إلا أن روايته احتفظت بعصريتها وبكونها لوحة حقيقية نابضة للحياة المصرية. وعلينا إذاً دراستها من وجهة نظر مختلفة عن الرؤية الأدبية. ومما لا شك فيه أنها لم تحترم قوانين الأدب، فالأحداث مملة والشخصيات مصطنعة؛ إلا أنها تعد بحثاً وبانوراما. فهي بحث حول العلاقات بين مصر وأوروبا، وبصفة خاصة حول ثلاثة محاور تهم أبو في المقام الأول ألا وهي إصلاح المحاكم القنصلية والمشكلة الزراعية وحفر قناة السويس، وهي بانوراما لمصر في الفترة فيما بين ١٨٥٠ و١٨٦٠ كما أنها دراسة للعادات ولأحوال القاهرة في منتصف القرن التاسع عشر.

تتصدر العلاقات العامة بين مصر وأوروبا الجدل الكبير الدائر بين الكاتب والفلاح. أحمد محامي مصر وأبو أوروبا، وينتهي الاثنان إلى الاتفاق على صيغ التعاون إلا أن مناقشاتهما تحتل أكثر من نصف الرواية. وإذا ما كان جهل أوروبا بأحوال مصر لا يزال قائماً حتى عام ١٨٥٠ فمرجعه واضح، والدليل على ذلك الحوار الذي دار على مأدبة العشاء التي أقامها برونواي.

«والدي لا يحمل ألقاباً – كما ذكر أحمد إلى المحامي الذي كان يجلس بجواره – فهو عامل تراحيل. بيتنا عبارة عن مكعب من الأرض مساحته ثلاثة أمتار لا سقف له وبلا نوافذ، تغطيه كومة من القش ويُغلق بقطعة من الخشب. وأثاثه كان يتكون، منذ أربعة أعوام، من حصيرة وجرّتين وقصعتين..

اعتقد المدعوون أنه يسخر منهم وانطلقت الاعتراضات من كل جانب.

– الأثاث لم يكتمل! لقد نسيت الصوان.

– ما هو طول القش اللازم لتغطية المنزل.

– كيف يدخل الضوء؟

– أين تنامون؟

- كم عدد أفراد الأسرة الذين يعيشون فيه؟

- القفل الخشبي هل هو محكم؟

- إن كانت هذه نشأتك، كيف تمكنت من الوصول إلى حيث أنت اليوم؟[1]

عندما انتقل المدعون إلى الصالون بعد تناول العشاء كان أحمد «قد تعرض لوابل من الأسئلة حول الحريم والعوالم والعادات الحميمة في مصر، إلا أنه تأخر قليلاً عن الحديث عن الفلاحات العفيفات اللاتي يَجْدُدْن في العمل اليومي على ضفاف النيل» جالسات القرفصاء يعجن قطعًا خضراء اللون من فضلات الجمال والحمير والماشية ثم يقرصنها ويجففنها لتستخدم مثل الخشب في إشعال الأفران لطهي الطعام. وبعد الانتهاء من ذلك تكون الأذرع قد اصطبغت باللون الأخضر فيذهبن إلى مياه النيل أو الترعة للاغتسال.

- لعنك الله! قالها شاب مضيفاً أن ما تقوله يقطع شهية رجل فرنسي فرغ لتوه من الطعام!

- يا عزيزي أنتم تريدون التسلي بروايات نساء بلدي، وأنا أقدم ما لدي.

- لكن العوالم؟ العوالم هذه المخلوقات الإلهية، الجميلة مثل النسائم التي.. اللائي.. العوالم؟

وهنا أيضاً كان أحمد يخفي ما لديه من ملكات أدبية وهو يصف راقصة يصل وزنها إلى تسعين كيلو جراماً، نصف مخمورة تغطيها قطرات العرق وطبقة سميكة من الغبار «مثل التي كان الأمريكيون ينقشون عليها قطعًا من الفرنكات كما يضع البناؤون في باريس الدبش في الإسمنت»[2].

إذن لا نستطيع توجيه اللوم إليه لدوام انحيازه أو لكذبه أو لتجميله الواقع بغية حسن الدفاع عن قضيته. وهو يلقي الضوء بعمق على عيوب وفساد بلاده. ونرى أحاديثه الطويلة تفيض بنقد العادات والتقاليد والمؤسسات المصرية، فنرى نقداً لتعدد الزوجات ولحياة الحريم[3] ولتربية المرأة[4] والإفراط الإنساني ولخدم الخيول وللآغوات.. الخ[5].

(١) «الفلاح» ص ١٠ و١١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦ و٢٨.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٤.

(٤) المصدر السابق، ص ١٦١.

(٥) المصدر السابق، ص ١٠٧ و١٠٨.

كما نرى أيضاً نقداً للتنظيم الضريبي وتداعياته وللموظفين الذين يخلّون بمهامهم وللوسطاء[1]. فلم يتردد لحظة في كشف الروتين والقذارة وانعدام الوسائل الصحية بين السكان وأسباب انتشار أمراض العيون والأمراض الأخرى[2] وتطير الفلاحين[3] وعدم تناسق وتسيب الإدارة التي لا تقوم بصيانة المباني وتصليح المساجد وتترك الآثار[4] تتصدع، ونرى أيضاً نقداً لتعصب الدراويش والأولياء ولحلقات الذكر[5]. وهو يجيد أيضاً إبراز التقدم والانحسار التدريجي للفساد وإلغاء العبودية والقضاء على السخرة[6]. ونجده يشعر بالفخر ببلاده وبنهره الفياض بالخير وبتربته الخصبة وبروعة الجو[7] وبسمو ديانته. ويقدم لنا لوحة مجيدة للإسلام وحضارته وعمارته وحرفه، ولا يخفي الاحتقار الذي يكنه المسلم للمسيحي[8]. ويضيف قائلاً «تبّاً لهؤلاء السائحين المثقفين الذي يأتون تباعاً ليحصدوا فضائح الإسكندرية. ما رأيكم إذا ذهبت أنا إلى باريس لأحصد المفاسد؟ بلادنا تنتظر رجلاً ذا عزيمة وفكر، واضحًا يمضي قدمًا إلى هدفه دون التوقف أمام الصغائر ويخبر أوروبا بمدى الاستفادة التي يمكن أن تجنيها من هنا»[9].

أيكون هذا الرجل إدموند آبو؟ هو نفسه لا يشك في ذلك لحظة، كما أن مهمته لها أسبابها.. المال الذي لا يمكن مقاومته. يندد أحمد بأخطاء أوروبا وبانحيازها الجنسي وبميولها المفرطة للألقاب وللطبقات الاجتماعية[10] وبمذهب الارتياب الذي تعتنقه وبولعها بالفنون وبديانتها السطحية وبممارساتها غير الصادقة[11]. ويصدقه الروائي الرحالة

---

(١) المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٢١٢.

(٤) المصدر السابق، ص ٢١٨ و٢١٩.

(٥) المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٦) المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٧) المصدر السابق، ص ٢٠.

(٨) المصدر السابق، ص ٣٣ و٣٤.

(٩) المصدر السابق، ص ٧٠ - يندد آبو بالأقاويل وبالخرافات التي دارت حول المملكة وحول سعيد وعباس والدفتردار والتي علمنا بها من روايات الرحالة الصغار.

(١٠) المصدر السابق، ص ١٧.

(١١) المصدر السابق، ص ٣٢ و٣٣.

القول ويضيف عليه أن صورتها ليست حسنة تماماً في أعين المصريين. ويُلقي آبو الضوء بنفسه - وينتقد بشدة - التصرفات التي حدثت على ظهر السفن القادمة من فرنسا أو داخل أروقة فندق الإسكندرية من قبل المغامرين والنصابين القادمين من لندن وأثينا أو من باريس ومن قبل جميع المكتشفين الأوروبيين لمصر[1]. ويعلن احتجاجه على تحديث القاهرة، «أنه الغريب الثري أو الجشع المزهو بنفسه دوماً كثير الجلبة والعجلة دائم الهياج.. إنها أوروبا التي قلبت الأمور رأساً على عقب حاملة معها العجلة والساعة والحُمى، ومن الغرب أتت الحاجة إلى العربات كما أتت العربات نفسها - وهز اقتصادنا وهو يضاعف ثمن الأشياء أربع مرات عالماً سعيداً أو على الأقل راضياً. لقد زلزلنا ثوابت عتيقة محترمة، وأرغمنا طبيعة هادئة على التصرف بهياج مثلنا، شاءت أم أبت، وإلا ماتت من الجوع لصالح أوروبا»[2]. ولا يقتصر ما يجب أن توفره هذه الأخيرة لمصر على إرسال التجار المحتالين وكبار رجال الصناعة والمنفيين السياسيين وإنما يشمل إرسال المهندسين والفنيين والزراعيين ورؤساء العمال، وبما أنه تم إلغاء نظام السخرة عليها حتى إرسال عمالتها[3]. وعليها ألا تتردد في مد يد العون الحقيقي لمصر، وتبنيها بدلاً من اعتبارها فريسة، ولتبدأ في تنظيم القانون والقضاة واللوائح بها!

وها نحن نصل إلى المحاور الثلاثة الذي جعلها إدموند آبو أساساً لبحثه ألا وهي إصلاح المحاكم القنصلية والإصلاح الزراعي والانتهاء من حفر قناة السويس.

من السهل توقع موقفه إزاء المحور الأول. فمنذ الصفحات الأولى لقصته وهو ينقل لنا المحادثات التي كان يجريها رجال شرطة الإسكندرية على ظهر السفينة القادمة من مرسيليا، لكي يهيئنا لتقبل رأيه النهائي. وكان أحدهم يقول «إني لأتساءل لماذا ترك اليهود مصر إلى أرض موعودة أخرى في أقصى الكوكب. إن أرض النعيم لهي الإسكندرية وإني لا آلف سواها. وما جنيته من مال خلال أزمة القطن لا يصدقه عقل، فقد كان يكفي للمرء التواجد لكسب المئات والألوف، فلا ضرائب إذ إنها على الفلاحين فقط. حتى ثمن السكن

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٥ و٥٢ و٦٣

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٦

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٧

لا وجود له، فإني أشتري بيتاً من مالكه العربي وعندما يحل موعد استحقاقاته أصرف الرجل قائلاً «إنك تصيبني بالضجر يا أسمر هيا اذهب إلى قنصل دولتي». ويا له من بائس، فعندما يذهب يضطر إلى رفع دعوى يدفع أتعابها مقدماً. ويطول الأمر إلى ستة أشهر أو سنة لا أعرف تحديداً. وعشية يوم الفصل في القضية أعطي البيت لرجل بلجيكي الجنسية مقابل مبلغ زهيد يخرجني من هذا المأزق وبذلك تسقط الدعوى وتتغير جهة الاختصاص. ويرفع العربي البائس الدعوى من جديد أمام قنصل بلجيكا ويبدأ نفقات جديدة. إن القناصل - المعينين من قبل حكوماتهم لحماية مواطنيها - لا يستطيعون إدانتهم إلا طبقاً لصيغ محددة. وكان هناك دوماً سبيلٌ للهرب، والبلجيكي يؤجره ليوناني يتنازل عنه لإيطالي يعطيه لألماني. وبوجود سبعة عشر قنصلاً في المدينة ليس هناك أسهل من سرقة العربي.

إن هؤلاء القناصل طغاة صغار. فهم يحكمون كالأسياد في المستعمرات ويمارسون النفوذ وينحازون إلى الأقوياء ويتخلون عن الضعفاء[1]، وإذا ما حدث أن السيد قنصل بروسيا فاته القطار في الإسكندرية، فإن القطار يرجع من مساره ويذهب إليه.

«وتسأل ميس جريس: أليست هناك نهاية للقناصل؟ ربما كانت هناك نهاية، إلا أنه ليس هناك قوانين. فإن القناصل فوق مصر كلها، فلهم ساعات تضبط حتى الشمس»[2]. على طول الرواية يظل أحمد يتحدث في هذا الموضوع الذي كان عام ١٨٦٩ حديث الساعة «بمقتضى بعض الاتفاقيات الدبلوماسية[3]، التي أساء إليها سوء استخدام قانون الأقوى، فإن كل أوروبي يصل إلى مصر يكون فيها سيداً. فهو يأتي بقوانين بلاده لا ليحترمها - وإن كان هذا ضرورياً - وإنما ليستغلها في انتهاك قوانيننا. فهو لا يعترف بالحكومة ولا بالإدارة ولا بالقضاء في مصر، فقط يعترف بقنصل بلاده، وفي حالة التنازع مع أحد مواطني دولته أو حتى مع أحد المصريين فإن قنصل بلاده هو الذي ينظر في الدعوى وليس القضاة المحليون.

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٣.

(٣) الامتيازات الأجنبية.

- لحظة يا عزيزي. إذا كانت قوانينكم ممتازة والقضاة لا غبار عليهم ما كنا تكلفنا هذا العناء الذي أوجع وطنيتكم. عندما يقيم الإنجليزي في فرنسا أو الفرنسي في إنجلترا فهو يقبل دون تردد الخضوع لقوانين ومحاكم البلاد. ولا يعني ذلك أن تقاليد ومؤسسات جيراننا تعادل دائماً ما لدينا.. وإنما لأن الحضارتين متساويتان ولأن الدولتين تضمنان استقلال ونزاهة رجال القانون.

- «إذًا فلنقترض منكم حضارتكم وقوانينكم ولنقترض حتى القضاة. ولتكتتب أوروبا لتعطينا قانوناً يعادل أو يزيد عن قانون نابليون! ولنبحث داخل أروقة هيئاتها القضائية عن نصف دستة من النزهاء لنزرعهم عندنا، وستتبناهم مصر وتوفر لهم حياة كريمة بحيث لا تصل إليهم يد الفساد...»[1].

ويستأنف كل من الفلاح والروائي هذا الحديث بعد ذلك بعدة صفحات ويتعجب الأخير من رؤية أوروبا بهذا الوجه الحسن. «إن لعناتكم لا تزال تنهال على أوروبا وها أنتم تسعون إليها لتحتضنكم كأم! إن مصر العجوز ذات العشرة آلاف سنة تبحث عن وصي، وإلينا نحن عصبة المحتالين.. آفة الإسكندرية.. تصبو أعينكم!

- إذا كان حديثي قد بدى غير منطقيّ فذلك لأنكم لم تنصتوا جيداً أو لم تفهموه جيداً. فإني ألوم أوروبا لأنها ترسل إلينا عشرين من الرعاع مقابل شخص واحد ذي قيمة وتفرض على بلادي النظم الاستثنائية التي تحمي على حدٍ سواء التاجر النزيه وغيره. وأحب أن أضيف أننا لم نقو في هذا الزمان، زمن التقدم العلمي والصناعي والاقتصادي، على الاعتماد على أنفسنا، وبالتالي لا غنى لنا عنكم، وربما كان العكس صحيحاً.. لقد وهبتنا السماء أميراً على قدر من الذكاء ليتخلى طواعية عن أدق سلطاته إلى هيئات قضائية أجنبية. وكيف أجرؤ بعد ذلك على الإجابة بالنفي؟ أستظل مصر مقسمة للأبد بين نظام حكم وراثي وبين القناصل السبعة عشر؟»[2].

---

(١) «الفلاح» ص ١٦٧ - ١٧٠.

(٢) «الفلاح» ص ١٧٩- ١٨٠.

ونصل إلى مربط الفرس، فها هو أبو بنفسه يعرض الاقتراح الرسمي للحكومة المصرية بخصوص إنشاء المحاكم المختلطة! ونرى المحقق الذي أرسلته الإمبراطورية الثانية يؤيد رغبات الخديوي، وينحاز بهدوء إلى العدو. ربما اغتبط نوبار باشا، فقد تم إنجاز المهمة وسيتمكن من استدعاء أبو للإدلاء بشهادته، لصالح المشروع المصري، ذلك الشاهد الذي كان من المفترض أن يقدم إلى وزارة الخارجية الفرنسية من الدلائل ما تستند إليه لرفضه، أدموند أبو وضع نفسه في خدمة مصر دون أن يكف عن خدمة فرنسا. ولنحاول أن نبرأ ساحته إذ أن الغاية كانت طيبة فإنشاء المحاكم المختلطة اللاحق حقق تقدماً ملحوظاً في تاريخ العلاقات المصرية الأوروبية، كما توافقت مصلحة الخديوي مع متطلبات الحضارة[1].

في ما يتعلق بالمحور الثاني وهو التنمية الزراعية فسنتوقف عنده مدة أقل مع أنه يستحوذ على فكر الروائي الذي نراه هنا على ملعبه. فهو ينشغل على هذا الصعيد بأمور يألفها منذ زمن، ولا نجد من هو أفضل منه لوصف قرية نموذجية على طراز «كسبرة»[2] وليحصي الخيل والثيران والحمير والجاموس في الإسطبلات والزرايب وليناقش أمور التزاوج وانتقاء السلالات، ولا من هو أفضل منه للحديث عن أزمة القطن ولا للحكم على المنشآت المائية في منطقة قنا أو على وسائل استغلال السكر في معمل تكرير أرمنت[3]. وليس هو بالذي يخطئ في تحديد نوع من القمح كما لو كان يحمل دوماً في جيبه – مثل أحمد – ورقة مصنوعة من عباد الشمس يكشف بها عن نسبة الحموضة في الخبز[4]. وعن طريق ما يتفوه به بطله، يطالب بزراعة الدلتا[5] وبزراعة أنواع جديدة من الخضروات

(١) على الرغم من أن إسماعيل هو الذي مرر بنفسه مشروعه «من خلال محاكم أوروبا أثناء المعرض العالمي، وعلى الرغم من العون الذي قدمه أبو إلا أن نوبار باشا أخفق في المفاوضات التي أجراها عامي ١٨٦٨ و١٨٦٩ كما أخفق سلفه شريف باشا عام ١٨٦٠. ولم يتم إنشاء المحاكم المختلطة إلا بعد ذلك بسبع سنوات. وفي الواقع كانت المفاوضات مع فرنسا قد تعلقت أثناء احتفالات افتتاح قناة السويس ثم توقفت لمدة أطول نتيجة الحرب الفرنسية الألمانية. وفي عام ١٨٧٦ أخبر عميلنا الدبلوماسي الماركيز دي كازو شريف باشا (الذي عاد ثانية خلفاً لنوبار) موافقة الجمهورية الفرنسية على إجراء الإصلاح القضائي.

(٢) «الفلاح» ص ١٨٣ وما يليها.

(٣) المصدر السابق ص ٢٥١ وص ٢٥٨ وص ٢٧٧-٢٧٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٥) المصدر السابق ص ١٧٥، ص ٢٠٣، ص ٣٠٦.

الأوروبية وباستخدام الوسائل الحديثة في زراعة الأشجار وزراعة البساتين؛ ويدعو مواطنيه إلى تقديم المساعدات العلمية والمالية لإثراء البلاد. ولن أتمادى وأدعي أن كل ما قام به فلاحه يحقق المستقبل المثمر. مما لا شك فيه أن التربة المصرية تفتقر إلى الفوسفات. لكن أيمكننا تعليق الآمال الكبار على المشروع الهائل الذي يقوم به أحمد في قنا؟ «فقد لاحظ أن الصحراء مزروعة برفات العظام إذ إن القوافل لا تحمل الحيوانات النافقة، وأقصى ما تفعله هو دفنها لتتولى الضباع والكواسر البقية، والطريق على هذا الحال من قرون طويلة. وتحمل أحمد عناء استغلال هذا المنجم الموجود في الهواء الطلق والذي كان الجميع ينفرون منه، ومشط الوادي الذي يمتد من قنا إلى القصير وحصد الفوسفات الذي لم يكلفه سوى مصاريف النقل»[1]. وهناك مشروعات أخرى ذات طابع جريء وفعال وربما اتسمت أيضاً بالخيال. لماذا لا نقيم مزارع محار في بحيرة التمساح ونزرع السمك في بحيرة مريوط ونجفف بحيرة المنزلة[2] لزراعة الأرز؟[3] نرى أن إدموند أبو قد أطلق العنان لخياله هنا أكثر مما فعله في روايته، وكيف لا نعترف بأن المستقبل قد حقق جزءًا منه؟

كان من السهل عليه التفاؤل في ما عرضه بالنسبة للمحور الثالث وهو قناة السويس. وتوافقت زيارته لمصر مع قيام فرديناند دي ليسبس بتذليل كافة المعوقات التقنية والمالية والسياسية التي اعترضته، منذ أن منحه الوالي سعيد امتياز المشروع عام ١٨٥٤. وعلى الرغم من اعتراض إنجلترا، فإن «الشركة العالمية لقناة السويس البحرية» تكونت في عام ١٨٥٨. ومنذ بداية عام ١٨٦٢ تم الانتهاء من النصف الأول من قناة المياه العذبة التي تربط بين النيل وبحيرة التمساح. وفي نوفمبر وصلت القناة البحرية البحيرة بالمتوسط. وعندما تم إلغاء نظام السخرة عام ١٨٦٤، لم يصب دي ليسبس بالإحباط واستأنف العمل على الأسس الجديدة، وتعاقد مع ١٥ الف عامل أجنبي من فرنسا والنمسا واليونان

(١) «الفلاح»، ص ٢٥٤.

(٢) في كتابه «دراسة عن مصر المعاصرة، القاهرة ١٨٧٣ Etude sur l'Egypte contemporaine ، انتقد الدكتور كوفيدو وهو مواطن فرنسي يقيم في بورسعيد لوحات إدموند آبو وما تحمله من تفاؤل متملق وقال «في ما يتعلق بالدراسة على مستوى الاقتصاد السياسي ومشروعات التنمية فهي جيدة وجيدة جداً أيضاً ولكن - في بلاد البقشيش - علينا الا نغفل وأن نضع نصب أعيننا تزايد عطايا الكاتب مع تزايد كياسته ومحاباته».

(٣) «الفلاح» ص ٣٠٥ و٣٠٦ - كانت هذه فكرة بريس دافين - انظر الجزء الأول.

والجزائر وسوريا، وتوسع في استخدام الآلات[1] من جرافات وآلات رفع وصنادل، وأقام ورش الصيانة، وعمل جاهداً - على حد قول أناتول فرانس - على تحويل الورش «من عصر الفراعنة إلى العصر الحديث»[2]. وحالياً وفي الوقت الذي رجع فيه إدموند آبو من مصر أعلنت الشركة عن أحدث نجاحاتها وصرحت بانتهاء أعمال الحفر (أبريل ١٨٦٨). وأثناء انعقاد الجمعية العامة في أغسطس ١٨٦٩، أي بعد مرور ثلاثة أشهر على نشر «الفلاح» في ريفو دي دوموند، حدد فرديناند دي ليسبس - وسط تهليل المساهمين - يوم ١٧ نوفمبر موعداً للافتتاح أي موعداً لمجده الشخصي.

كم قاسى وهو يتصدى للبلاهة وللحسد! وحتى نتمكن من التعرف على حجم النجاح الذي حققه ومن تقييم المشوار الذي قطعه خلال السنوات الماضية، يروى لنا أبو الأحاديث التي كانت تدور بين مغامري الإسكندرية الرعاع وهم على ظهر السفينة التي أقلتهم من مارسيليا. «البرزخ، أي برزخ؟ يصيح أحدهم بلهجة ريفية صرفة. دكان مسيو دي ليسبس؟ إنه ليس برزخاً وإنما فخ نصب لرؤوس أموال البلهاء... إنه يأخذكم في نزهة على مركب تسير على جدول صبوا فيه ماء يأتون به من القاهرة خصيصاً واستعانوا بالهويس ليقودها فيه. إنها نفس المياه التي تقلكم في ذهابكم وفي إيابكم، ولإخفاء هذه المناورة زرعوا بين حين وحين عدداً من العواميد الحديد التي تعلوها سعفات خضراء، في محاولة لإقناع المسافرين بأنها نخل، ووصل بهم الأمر إلى أنهم علقوا عليها بلحاً! أتريدون أيضاً رؤية العمال والمعسكرات والقرى؟ ليس عليكم إلا قول: نحن مستعدون. وفي كل مرحلة تلتقون بفرقة من العمال حاملين المجارف وتشاهدون خمسين خيمة وحتى نصف دستة من البيوت التي يتم تركيبها حسب الرغبة. كل هذه الأمور تصاحبكم على طول الطريق...» تزود سير هنري بولوير وهو مواطن إنجليزي تزود بسكين وقطع جزءًا من الشاليه الذي دعاه إليه دي ليسبس لتناول أول عشاء معه، وعلى طول البرزخ كان يتحسس هذا الجزء[3].

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٦ و٣٠٧.

(2) Discours-d-réceptio--l'Académi-française-2-Dec-1869

(٣) «الفلاح»، ص ٥٠ و٥١. سير هنري بولوير سفير إنجلترا في القسطنطينية حضر إلى القاهرة في نهاية ١٨٦٢ لدعم العمل البريطاني وتثبيط همة الحكومة المصرية وإثناء سعيد عن المشروع الكبير. وأفضى الوالي إلى فرديناند دي ليسبس انه ذكر له ان حفر القناة من شأنه تعجيل انطلاقة مصر وبالتالي يفقد الحاكم سيادته على ارضه. ويستطرد سعيد قائلاً بمكر، لن اقع في الفخ».

نشعر بأن أبو يسعد بسرد هذه الأحاديث التافهة وبأن حسه النقدي يبتهج بهذه الغطرسة الجاهلة. ونراه يجنح إلى شيء من المفارقة. ففي نهاية قصته يتولى إنجليزي آخر، هو لونجمان بطل الرواية، الرد مكانه وياله من نبأ صاعق لأعداء دي ليسبس! «لقد مضى الزمن الذي كانت فيه الوطنية الإنجليزية غير المستنيرة تتلذذ بتحقير شركة السويس وما تقوم به من أعمال. إن سلوك سير هنري بولويز، الذي زار موقع العمل وكأنه أبو الهول إذ لم ينبس بكلمة، يبدو لنا اليوم سلوكاً معيباً أكثر منه سلوكاً دبلوماسياً. أرغب في الكتابة إلى جريدة «تايمز»(1) لأقول لها أنه بالنسبة لي فإننا أتممنا أعمال الحفر وأن المسألة لا تتعدى كونها مسألة تمويل وحلها يسير؛ وأنه بالنسبة لهذا المشروع الضخم الذي تحلينا فيه بالصبر وبالشجاعة، كانت النفقات العظمى من نصيب مصر وكان المجد الأعظم من نصيب فرنسا وكانت الفائدة العظمى من نصيب إنجلترا»(2).

بعد كل هذا ألا تزال هناك حاجة إلى القتال ومحاولة إقناع المعارضين؟ ويخيل إلينا أنه إذا كان أبو يطيل المناقشات فلإرضاء ضميره، ويحيلنا إلى الأمر لإخراس الألسن إلى فوازان بك رئيس المهندسين وأفضل ضابط لدى دي ليسبس وبالتالي أعلى سلطة فنية ليتولى تفنيد الاعتراضات الأخيرة ومنها انهيار التبات الرملية وانهيار الرمال داخل المجرى وصعوبة أعمال الجرف في بحيرة المنزلة نتيجة القاع الرخو وانهيار جانبي القناة من جراء التطام المياه وكذلك العديد من المخاطر الخيالية(3). ويكتفي هو بوصف سهرة رائعة حضرها في الإسماعيلية وبوصف عملية تشغيل أحواض جديدة شاهدها في بورسعيد. وهكذا تصبح القناة أول عمل حقيقي يوحد أوروبا ومصر، فهي رمز لفاعلية التعاون بينهما. وأخيراً ينضم أحمد الفلاح إلى العمل الحضاري، وعندما ينحني أمام قبر والده على شاطئ القناة التي مات بسببها، يهمس له والده - ضحية نظام السخرة القاتل - قائلاً في هدوء «إنه لا يندم على موته من أجل تقدم مصر» (4).

---

(1) كانت جريدة «التايمز» قد شنت حملة على هذا المشروع.

(2) «الفلاح» ص ٣٠١.

(3) «الفلاح» ص ٣١٧.

(4) المرجع السابق، ص ٣١٥.

V

انتـهى التـحـقـيق. ولكن مـا رأيكم في هذا التـقـدم؟ هـل هـو واقـعـي؟ هـل يمس الفكر والروح؟ أين تـقف مـصـر في مـسـيـرة التـاريخ؟ مـا الذي حـقـقـتـه للفـصـل بـين الماضي والمستقبل؟ إن إدموند أبـو يدين لنا أيضـاً ببـانوراما لمصر الحديثة أي بلوحـة يرسـم لنا فيها عاداتها.

تضـم رواية «الفـلاح» القليل من الوصـف بالمعنى الدقـيق، إذ لـم يهـتم آبـو بالمناظر الطبيعية التي كانت تلهم الرحالة السابقين صفحات تشبه الشعر، كما غابت القصائد عن هذه الرواية. فلـم تنبض ريشـتـه بالحـياة ولم تنجـح في خلق أي شيء. ولا يمكننـا بـأي حـال عقد مـقـارنة بين التناغـم الفياض والأسلوب الهـادئ الثري لجيرار دي نرفال أو لوتي أو باريس. إن آبو كـاتب من القرن الثـامن عشـر يتمتـع بـريشة شـيقة سـريعة وأسلوبه واضـح، والأشياء تمر إلا أننا لا نشعر بنبضـها. فـهـا هو يصف لنا بيتـاً غريبـاً بمـهـارة ودقـة ويبدأ بالحـوش ثم القـاعـات ثـم الحـديقـة[1]، ولكنه لا يـنجـح في نقل سـحـر المكان ولا في تشـويق القـارئ بالغموض الذي يكتنفه؛ فـالكاتب ينقصـه الحـس المرهف والأحـاسـيس الرومانسية. وبدلاً من أن يوقظ وادي الملوك فـيـه الأحـلام والرؤى، نجـده يتـعـامل مـعـه على أنه سـؤال، ويرى المكان خوراً جفت مياهه «لكن من أين تأتي السيول في هذه المنطقة، ومن ذا الذي لم تقع عليـه الأمطار؟»[2] وبناء على توصـيـة مـارييت، لم يعـد مـن نفس الطريق ولا من حـول شاطئ جرنـة بل تسلق مرتفع الدير البحري «سـالكاً طريقاً مجهولاً حتى من الماعز نفسـها» (يالهـا من مبالغـة صـارخـة). إلا أن المشـهـد العظيم الذي يتراءى للأعين من أعلى، المشـهـد الجليل المهيب لا يلهمه سوى ستة أسطر هزيلة.. فلا شيء يحرك أحاسيسه.

لكن كل الأمور تثير إعجابه وتبهجه. فنجد روايته مفعمة بالرؤى الوثائقية وبمشاهد الطرق والحـيـاة الشـعـبـيـة وبوصف الاحـتـفـالات والمآدب المصـرية وبدراسـة العـادات والشخصيات.. ومن هنا يعد هذا العمل دراسة قيّمة عن مصر في عهد إسماعيل.

(١) المرجع السابق، ص ١١٩ - ١٢١

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧١

ها هو منشد الأزبكية[١] ورواة وشعراء المقاهي[٢] وحلقات الذكر الملة الصاخبة[٣] وضوضاء المجتمعين في إحدى مغارات بر البحر المنتشين من شرب بيرة النوبة البيضاء (البوظة)[٤] إذا ذهبنا إلى صعيد مصر، سنرى الشيخ سليم الولي الجاثم على شاطئ النيل[٥]، وعوالم قنا[٦] والفانتازيا بالقرب من إدفو[٧] والاحتفالات التي يقيمها بدو أسوان[٨] ابتهاجاً بالأمراء الملكيين. إلى جانب مصر التي اختفت أو بدأت تختفي رويداً رويداً، يرسم لنا آبو أيضاً مصر الساكنة التي تحافظ على تماثلها مع ذاتها عبر تقلبات الزمان، متمسكة بسمات شخصيتها وبجنسها.

إن القاهرة – على هذا النحو – مازالت كما هي «ففي كل مكان نرى الأبنية المهدمة التي لم يفكر أحد في رفع ردمها، وللوهلة الأولى يخيل للمرء أن الأطلال تكسو نصف المدينة. وإذا ما صعدنا إلى أعلى ونظرنا من الواقع، فعلى امتداد البصر صفحة من الأسطح المتربة تنبثق المآذن منها. ويشيّد الوالي القصور الفخمة من الحجارة والرخام، ويبني التجار الأثرياء بيوتاً على النمط الأوروبي وتشق الشرطة المحلية الطرق الطويلة المستقيمة، إلا أن الحارات والبيوت المتداعية والأكواخ العشوائية والعادات المنبثقة من هذا الإطار والمتوافقة معه لهي نتاج القرون الطويلة. هنا موطن الإثارة الساحرة أما التقدم فيبدو أنه هو الدخيل»[٩].

وفي سياق مختلف تماماً، نرى آبو يسجل العرف الإداري الذي يصدم المواطن الأوروبي الذي يتعامل لأول مرة مع الوزارات المصرية؛ فالباب على مصراعيه وفنجان القهوة ساخن والعمل شبه جماعي والأحاديث عامة وعادة حسن الضيـ التي لا تعير

---

(١) «الفلاح»، ص ١١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٤) المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٥) المرجع السابق، ص ٢٣٢ الذي وصفه أيضاً شارل بلان وفرومنتان ورسمه كل من جيروم ودارجو في ١٨٦٩.

(٦) المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(٧) المرجع السابق، ص ١٢٥.

(٨) المرجع السابق، ص ١٣٢.

(٩) المرجع السابق، ص ٢٥٦ - نفس الملحوظة.

للوقت التفاتاً والتي لها بلا شك سحرها إلا أنها غالباً لا تتلاءم مع سرعة إنجاز العمل ولا تتماشى مع سرية القرارات. «إن دور الحكومة أماكن عامة يرتادها من يشاء.. فباب الوزراء مفتوح من الصباح إلى المساء، يحرسه الحرس بالطبع إلا أنه مفتوح. والشخص الذي يُمنع من الدخول ليس عليه إلا رفع صوته حتى يسمعه الباشوات، إنها تلك العادات التي نلتقي بها في كتاب ألف ليلة وليلة وتلك الألفة الديمقراطية المطلقة التي يحتاجها أصحاب المعالي الباريسيون»[1].

إلى جانب رصد العادات، يحتوي «الفلاح» على عدد من البورتريهات. وأنجحها هو ما يخص مارييت الذي نعرفه بالفعل، إلا أننا يجب ألا نغفل كبار الشخصيات المصرية الأخرى. قام أحمد بوصف سعيد باشا بأسلوب قاس محبب يشوبه التسامح الطريف. «غارقاً في مقعده الوثير، بدا لي كأنه جارجنتويا. لقد كان أشبه بعملاق طيب القلب محب للحياة، من الظرفاء ومحب للطعام وشريب نهم شأنه شأن الشخصيات التي رسمها كاتبكم رابليه. أما كفه فكان حجمه غنيًا عن الوصف؛ وجه عريض تشوبه الحمرة وتحده لحية شائكة غزيرة، عليه سمات الطيبة والصراحة والكرم والشجاعة، إلا أن كل ذلك مخلوط بالاستخفاف والتهكم. فقد كان يهوى احتقار الرجال دون استثناء لدرجة أنه هو ذاته لم يكن يحترم نفسه[2]... وكانت مناقشاته تتسم بتفكك الأفكار تماماً مثل سلوكه. ففي الوقت الذي أكون فيه منتشياً من مكانتي في قلبه ومن استحواذي على أفكاره، يفاجئني بتورية ذات معنى أو بلفظ بذيء[3]. بالنسبة لإسماعيل باشا، فقد أوجز وصفه وأشاد بتكامل شخصيته. إنه «أمير الفلاحين» الذي يولي عناية خاصة بتقدم الزراعة[4]. وبالكاد أشار إلى الأمراء الشباب الذين التقى بهم في الأقصر، فهم الثلاثة[5] «يذوبون في الأدب وفي العلم ويسبحون في تاريخ مصر، وقد لفت مارييت أنظارهم إلى الآثار الوطنية، وهم

(١) «الفلاح»، ص ٢٨١ - نفس الملحوظة.

(٢) يتبع ذلك مناقشة تمت بين سعيد والفلاح، ذكرها أبو كنص يدعم هذا التصريح ص ٧٣.

(٣) «الفلاح»، ص ٧٣-٧٤.

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٤.

(٥) محمد وحسين وحسن: الأول أصبح محمد توفيق (١٨٥٢-١٨٩٢) وكان الخديوي عام ١٨٧٩، والثاني حسين كامل (١٨٥٣-١٩١٧) السلطان عام ١٩١٤، والثالث الأمير حسن (١٨٥٤-١٩١٤).

مسلمون طيبون لا يميلون إلى التعصب شغوفون بالتدريبات البدنية، وفرسان على أعلى مستوى»[١]. وحول هؤلاء الأمراء وداخل جنبات القصر تلتف أطقم السكرتارية من الأرمن اليقظين المهرة، مثال أراكل بك الذي «يدندن لحن أو فنباخ ويعلق على أحدث الرسوم الكاريكاتيرية لشام ويتحدث عن الإسلام بحرارة شديدة كادت أن تؤدى إلى إعدامه في زمن ايزابيل الكاثوليكية» ويستخدم أصابعه وهو يأكل «داخل قاعة مزينة بالتحف البرونزية واللوحات الحديثة وأمام مكتبة تتوازى فيها كتب برادول وجيزو وماكولي»[٢]. ومما لا شك فيه أن هذا المرشد السياحي الودود الذي حرص على تنظيم رحلة أبو قد ألهمه بطل روايته. وقد زلّ لسان الكاتب بشأنه حين قال «إن ذوقه وأفكاره وميوله تذكرنا في كل لحظة بأحاديث أحمد»[٣]. وعندما يستعير الفلاح – هذه الشخصية شديدة التبسيط – بعض السمات من الواقع، الا يُعد تناقضاً ونحن نكتشف أنه استمد سماته من شخص أرمني؟

أحياناً يدنو البورتريه من الكاريكاتير، وعلينا الا ننسى أن هذا الروائي هجاء أيضاً. ونجد أن بعض فصول الرواية عبارة عن مشاهد كوميدية، ولن أعيد ذكر الأحاديث التي تبادلها المغامرون الأوروبيون المقيمون في الإسكندرية خلال الرحلة البحرية. ولكن فلنتابعه بعد وصوله إلى الإسكندرية وخلال إقامته في الفندق[٤].

«لقد فرغت للتو من كتابة ثلاثة أسطر حتى شرفني رجل مجهول بالزيارة.

– سيدي لم أستطع مقاومة الرغبة....

– حسناً، حسناً، كيف لي مساعدتك؟

– إنني أنا الذي أريد تقديم المساعدة.

– شكراً جزيلاً، إنني غارق في البؤس وسعيد بذلك.

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٣١ – أُطلق أراكل بك على رأسه الرصاص عام ١٨٧٥ حتى لا يقع حياً في يد نيجوس جان إثر الانسحاب الأول من الحبشة.

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٦٣-٦٥.

– لكن أترفضون إسداء خدمة جليلة لمصر؟ إن حكومة عظمته مستهلك كبير للفحم وتدفع خمسين فرنكاً للطن في ميناء الإسكندرية وأنا أعرض توفيره بأربعين فرنكًا ولو ساعدتموني سأعطيكم...

– شكراً يا سيدي ولنقطع الحديث عند هذا الحد فأنا لا أفهم شيئاً في التجارة.

– ولكني ظننت أن دراستكم....

– لا يا سيدي وأنا الآن مشغول بالبريد.. أيها الخادم!

ابتعد الرجل وهو يقول «يا لها من طريقة يستقبل بها مواطنيه...!»

ولم أكن قد رجعت إلى مقعدي حتى فُتح الباب مرة أخرى، وظهر رجل سمين هادئ جداً لم يستطع مقاومة الرغبة... وظن أن كونه رجل أدب...

– فلنتحدث إذاً!

– سيدي، حضرت إلى هذه البلاد لدراسة كيفية عمل الحكومة، وكتبت جزأين هما ثمرة عمل كلفني سنوات عديدة من الأبحاث. جزءان يا سيدي.

– نشرتهما؟

– لم يطبعا بعد، ولكن يجب أن أخبرك بصراحة تامة أن ما توصلت إليه لا يعد إيجابياً بالنسبة لأسرة محمد علي. حتى أنني أخشى من نشرهما خشية إحراج أوروبا أمام نظام لا يزال يتمتع بشيء من الحظوة..

– لقد أخفتني.

– آه يا سيدي وأنا أيضاً خائف.

– لقد كنت على يقين من ذلك لأنك لست شريراً.

– لا إطلاقاً، ولكني شخص أجتهد ودفع سنوات من حياته لكتابة هذا العمل...

– ولا يرضى بإلقاء عمله في النار دون تعويض مناسب..

لقد فهمت غرضي.

- تماماً... لدرجة أنني أشرت إليه بالانصراف.»

يعد هذا مشهداً مسلياً لا يخلو من السخرية، كتبه روائي وضع روايته هو نفسه في خدمة الخديوي مقابل «تعويض مناسب». ولدى رؤية السرعة التي ضلل أبو بها النصاب وطرده، ربما ظن البعض أنه معتاد على مثل هذه المواقف[1].

ومهما يكن، لا يمكننا أن ننكر عليه جرأته الشديدة على المستويين السلبي والإيجابي. فمن خلف المخبر المجد في عمله والذي يكتب تقاريره بعناية يظهر دوماً الرجل الباريسي الساخر الوقح. فهو يجيد التعبير بالصيغ غير المألوفة وغير المتوقعة وبالكلمة الغريبة والعبارات الخليعة. أيرغب في وصف الراهب القبطي لجبل طير؟ «هذا الرجل الرائع الجمال كان يغطي كفه اليسرى فقط. ما الذي يحدث عندما يبحر بالحريم على النيل. وعوالم قنا؟ اللائي يتدللن - كما في الحارات - على كل رجل في المجموعة»[2]. والأحياء الجديدة في الإسماعيلية؟ «هناك المدينة الفرنسية الرسمية المخططة بشكل منتظم المقسمة على شكل مربعات تم توزيعها على موظفي الشركة، مربعات للمتزوجين ومربعات للعزاب وأخرى للعزاب المتزوجين ومربعات للمهووسين....».[3] ومن بين الأحاديث الطنانة عن الزراعة تتجلّى الطرفة بانسياب ماكر.

VI

لا ينوي الروائي التواري - مثلما يحدث في الأعمال التسجيلية الواقعية البحتة - خلف شخصياته. ويتوارى كاتب مثل فلوبير وآخر مثل موباسان يتواريان تماماً في أعمالهما تاركين الساحة لأبطالهما. إلا أن أبو يستمتع بسرد حكايته، ولماذا يتولى الدفاع عن نفسه لتدخله في الأحداث؟ فالصيغة الشخصية للرواية تمنحه مسبقاً كافة الحريات. وهكذا نلتقي به ليس فقط من خلال طرفاته الباريسية وعباراته الجميلة وإنما أيضاً من خلال ميوله وأفكاره.

(١) في صحيفة Le Matin بتاريخ ٣٠ ديسمبر ١٨٨٤ وبخ بول دي كاسايناك إدموند آبو بشدة لانتهازيته ولاعتياده العيش عالة على الآخرين.

(٢) «الفلاح» ص ٢٥٦.

(٣) الفلاح، ص ٣١٦.

يجب ألا نغفل دراسته التقليدية في دار المعلمين فلا يميل الطالب السابق في المدرسة الفرنسية في أثينا كثيراً إلى الفن الفرعوني. وكتب يقول «يمكن لرجل العلم الشغف بالآثار المصرية، أما فيما يتعلق بالفن وأصوله فالأمر مختلف... فكل فنون مصر من عمارة ونحت ورسم تتسم منذ عهد موسى إلى البطالمة بالجمود والجفاء وبالسمات التقليدية البحتة وبالخطوط المتفق عليها والمفروضة التي لا تترك مجالاً للإبداع وللتفرد... ولو جمعنا كل ما تملكه مصر القديمة من آثار لن نستطيع أن نصل إلى عمل واحد يضاهي معبد تيري أو تمثال فينوس ميلو»[1]. وخصص أبو بضعة أسطر بالكاد لفيلة، التي طالما تغنى بها لوتي، ولادفو قديسة مصر العتيقة. ويتظاهر بالأسف لأنه لم يتمكن من زيارة دندرة ولا ينبث بكلمة عن معبد الكرنك الذي زاره مع ماربيت. ولا يستثني من هذا الازدراء العام الذي يشعر به تجاه فن الفراعنة إلا روائع بني حسن. «فهي تعبر بخطوط نابضة جميلة عن هدوء الحياة الريفية الفياضة الحرة السعيدة... كما لو كان الأحياء قد حرصوا - في ديار الأموات - على تجميع كافة صور النعيم التي تمتعوا به في حياتهم الدنيوية. ولا يشير مطلقاً إلى عظمة الملوك ولا إلى استبداد الكهنة ولا إلى محن الحياة الأخرى التي تفيض الآثار بتفاصيلها الدقيقة»[2]. أين قرأنا ذلك؟ من فترة ليست بعيدة، في ريفودي دوموند عدد أول أبريل ١٨٦٥. أبو يعيد لنا هنا سرد مقال رينان. وشأنه شأن سلفه المبجل، لم يشعر لدى زيارته لمقابر وادي الملوك إلا بالغيظ والضيق. «إن استبداد الفراعنة لا تخطئه العين وينتابنا الهلع أمام هذا البذخ وسوء استخدام الأيدي العاملة في بلد كان شعبه يعيش في بيوت من الطين.. وينتابنا الحنق لدى رؤية هؤلاء الرجال الذين قدموا حياتهم الأرضية الحقيقية قرباناً لحلم العالم الآخر ولشبح الخلود الخيالي»[3].

«الحياة الأرضية الحقيقية... شبح الخلود الخيالي...» يا لها من هرطقة متناهية، فرينان نفسه لا يذهب إلى هذا المدى. ونشعر بالتيار المناهض للدين والمتأثر بنزعة فولتير

(١) المصدر السابق، ص ٢٦٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٣ وعبر عن نفس الفكرة في ص ٢٦٥ و٢٩٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٣.

التشككية، ذلك الذي كان يثير حنق لويس فويو. وعلى مستوى النقاش الذي كان يدور حول قيمة الأديان، نراه لا يتردد لحظة في الانحياز إلى المسلم أحمد ضد الكاثوليكيين الفرنسيين. ويقول الفلاح: «بالنسبة لكم الصلاة من شئون النساء شأنها شأن التطريز والحياكة؛ أما أعمال الخير فهي للتفاخر بالنسبة للبعض وللاحتياط من تمرد الفقراء بالنسبة للبعض الآخر. إن التبشير مؤامرة تتسم بالنفاق يقوم بها حزب يعمل على قهر ونهب الأحزاب الأخرى! أما المسلم فمتشبع بدينه حتى النخاع مقارنة بالكاثوليكي الذي لا يتعامل إلا مع القشور»[1] وشأنه شأن الرحالتين المسنين فولني وسونيني[2] ينظر هذا الفلاح المؤيد «لفلسفة التنوير» والمعجب بإله «العقل» والذي كان من الممكن أن يلمع في جماعة مؤلفي الموسوعة بنفس عين الاستياء إلى كافة أنواع التعصب.. فيتهكم على الأولياء وعلى رجال الدين الأقباط وعلى فلاحي دمياط المتطيرين.

وإذا كان مناهضاً لرجال الدين إلا أنه لم يؤيد الجمهورية بعد - سيؤيدها بشدة بعد عامين إثر نكسة ١٨٧٠ - ولكنه أخذ عن الجمهوريين حسهم الوطني المتأجج. وأكثر ما أثار شعوره في فيلة هي لوحة النحات كاستكس الذي خلد فيها أسماء الذين شاركوا في حملة ديسكس. «لقد شوه السائحون الإنجليز هذه اللوحة وكتبوا عليها تعليقات معيبة كما محوا اسم بونابرت. وشاءت الأقدار أن يمر رجل فرنسي شريف على هذا المكان ويزيل ما عليها من تعليقات ويكتب هذه العبارة البسيطة «نحن لا نلوث صفحات التاريخ». وأثمر الدرس وظلت الصفحة نقية وأعاد الأمير نابليون كتابة اسم الجنرال بونابرت منذ أربع أو خمس سنوات»[3]. وبدافع من شعوره بالفخر الوطني، أشاد أبو في الصفحات الأخيرة من روايته بعملية قناة السويس درة العبقرية الفرنسية. إن فكرة بونابرت قد تحققت - بعده بسبعين عاماً - على يد فرديناند دي ليسبس، وليس بالمستبعد أن تكون عظمة الأول قد خبا وميضها وراء مزية الثاني. إلا أن الاثنين قد اصطدما في مصر بمعارضة إنجلترا. ولا يتردد كاتب «الفلاح» في التعبير عن المتعة الماكرة التي يشعر بها على لسان بطله

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٢.

(٢) انظر الجزء الأول.

(٣) «الفلاح»، ص ٢٨٨.

الإنجليزي مستر لونجمان، وهو يدلي بحكمه النهائي الشبيه بالترضية «إن عظمة المشروع ستعلو على العقبات التي بدت للوهلة الأولى منيعة. إن قهر لا مبالاة البعض وتشاؤم البعض الآخر وبخل هؤلاء وسوء نية الآخرين.. هو نصر ترتفع هامة عظمته على قتل مائة ألف في معركة منظمة»[1].

إن هذا النصر سرعان ما ستنتشي له أوروبا. فبعد ظهور «الفلاح» بعدة أشهر، كان ملوك وأمراء وعلماء وكُتاب وفنانو العالم القديم على موعد في الإسماعيلية، تلبية لدعوة مصر الحافظة للجميل للاحتفال بمن كانوا يطلقون عليه اسم «الفرنسي العظيم».

****

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٠٢.

الفصل الرابع

الفرنسيون في السويس

I

«بدأت الحياة تدب في المعسكر والنسمات تعلن عن شروق الشمس، على يميني الشرق بكامل عظمته، وعلى يساري الغرب حالك وملبد بالغيوم. وفجأة يبزغ قوس قزح بألوانه البهية ويغوص بأطرافه شرقًا وغربًا، اعترف بأن قلبي لم يتحمل وأخذ يدق بعنف. وشعرت بأنني في حاجة إلى الحد من جموح خيالي المبتهج مستعينًا بالدلائل التي تتحدث عنها الكتابات الشعرية وباللحظة الحقيقية التي يتحد فيها غرب العالم وشرقه، وباليوم المشهود الذي يُكلل فيه مشروعي بالنجاح»(١).

من ذا الذي يكتب بهذا الأسلوب؟ من هو هذا الشاعر؟ هذا الحالم؟ هذا الخيالي ذو الرؤية الصائبة؟ هذا الرجل الذي يؤمن بدلائل السماء؟ أظن أنكم عرفتموه، فهو الذي كان يطلق عليه أناتول فرانس «أكبر مقاولي العصر»(٢).. فرديناند دي ليسبس. من ذا الذي لا يعرف قصة نجاحه النادرة؟ والصداقة والامتنان الذي كان الأمير سعيد يغدقهما عليه في الوقت الذي كان فيه قنصلاً لفرنسا في مصر وكان يعطيه خفية طبق المكرونة الذي كان محرّمًا عليه أكله(٣)؟ والشعور الجارف الذي حمله إليه ذات يوم خبر وفاة عباس باشا المنشور في إحدى الصحف وارتقاء صديقه الشاب السلطة وذلك أثناء بنائه قرية في أحد الأقاليم الفرنسية؟ والقرار الذي اتخذه في عجالة لاغتنام الفرصة وإقناع الوالي الجديد بمشروعه؟ وعودته الفجائية إلى مصر ووصوله بلباقة إلى المعسكر الذي كان سعيد فيه؟

(١) الرسالة التي بعث بها دي ليسبس إلى مدموزيل ديلامال في ١٥ نوفمبر، ١٨٥٤

(٢) «خطب حفل الاستقبال في الأكاديمية الفرنسية، Discours de receptions à l'Académie française في ٢٥ ديسمبر ١٨٩٦.

(٣) كان سعيد مفرط السمنة وفرض عليه محمد علي اتباع حمية غذائية صارمة.

ويروي لنا أناتول فرانس[١] «كان الخديوي قد نصب خيمته على ربوة وسيجها بسياج بناه الجنود من الأحجار التي تملأ المكان. وفي الخامسة مساء وصل دي ليسبس وقفز بحصانه من فوق السياج الحجري وارتقى الربوة حتى وصل إلى الخيمة الملكية. كان سعيد في هذه اللحظة ذا مزاج هادئ باسم الثغر وعرض عليه الفرنسي مشروعه. وبعد أن استمع إليه قال «مشروعك هو مشروعي.. لقد وافقت عليه وسوف نتولى أثناء الرحلة بحث وسائل تنفيذه». ثم جمع مرافقيه من الباشوات ليصدر لهم أوامره ويشاورهم في الأمر، وبعد أن استمعوا إليه بإنصات تام رفعوا أيديهم إلى رؤوسهم علامة الموافقة. ومما لا شك فيه أنهم لم يدركوا كافة النتائج المترتبة على مثل هذا الفعل، إلا أنهم احترموا رغبة كبيرهم وقدروا ذكاء الفارس الذي قفز بحصانه من أعلى السياج». في ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ وبعد مرور خمسة عشر يومًا على ظهور قوس مَزح، حصل دي ليسبس من الوالي على فرمان الامتياز.

إن هذا الرجل من جنس الأورفيه، إنه شاعر بحق. لقد استجاب كل شيء لدعوته واصطفت الأحجار حوائط وانقسمت رمال الصحراء واهتزت مياه البحار والتقت. إنه لشاعر وليس أديبًا؛ على الرغم من أنه خلال حياته العملية - كما يذكر - ألقى من الأحاديث ما يفوق الكثير من الأدباء، وحرر تقارير تزيد عما حرره دوبان وشقيقاه مجتمعين، إلا إنه لم يتباه يومًا بكونه أديبًا أو خطيبًا. ولكن بعد أن رد جيرار على أناتول فرانس، أقرّت الأكاديمية بأنه واحد من أعضائها إذ إن له فكرًا ساميًا ولسانًا فصيحًا نزيهًا.. «لقد حباه الله ببلاغة يسيرة تلقائية سلسة من النوع الذي - على حد قول بسكال - يسخر من البلاغة ذاتها»[٢]. ألم يمض نصف حياته محاولاً إقناع وإخضاع واستمالة الإنسانية؟

(1) Lettre de F. de Lesseps à Mme Delamalle, 15 nov. 1854

(٢) ليس هناك ما يتصف بالحيوية أكثر من مقالات ومراسلات دي ليسبس التي تم تجميعها تحت عنوان «جذور قناة السويس» Origines du Canal de Suez ونشرتها دار فلاماريون في طبعة شعبية اسمها «كُتّاب مشهورون» Auteurs célèbres انظر «فرديناند دي ليسبس كاتبًا» Ferdinand de Lesseps écrivain في نوفال روفو بقلم ناي N. Ney اول أبريل ١٨٨٥ ص ٤٤٩ و٤٨٩.

أحس رينان، هذا الفاتن، بسحر دي ليسبس الذي كان يجدد إيمانه من خلال المعجزات. كان هذا الرجل الذي أدخل تعديلاً على الطبيعة، يتمتع برونق البطل وببريق الساحر.. ولا حدود لحماسه ولا لقوته ولا لجرأته. وعندما استقبله الحاكم حياه تحية الملوك وأشاد بالخمسة عشر عامًا - من ١٨٥٥ إلى ١٨٦٩ - التي قضاها في معارك يومية، وسرد مغامراته ووقائعها من خلال أبيات من الشعر والعظمة والأساطير. وذكر قائلاً «كانت هذه السنين مثل الحلم الجديد بالذكر في «بريري دور» Prairies d'or لماسودي Massoudi أو في ألف ليلة وليلة. إن هيمنتك على هذا العالم الغريب ذي العظمة والطاقة غير المستغلة كانت فعلاً غير مسبوقة. لقد أثرت دهشة بارتيليمي سانت هيلار فلم يعد يحذو حذوك(١).. وفي الواقع لقد كنت ملكًا....».(٢)

✡✡✡✡

لدينا شاهد على هذا الزمن الأسطوري هو الرسام نارسيس برشير Narcisse Berchère (1819-1891) صديق أوجين فرومنتان. لا أشير هنا فقط إلى لوحاته ورسوماته ولكن أيضًا إلى رسائله الساحرة الخلابة.

شأنه شأن فرومنتان تلميذ ريمون، زار برشير مصر عدة مرات في ١٨٤٩ و١٨٥٦ و١٨٦١ و١٨٦٩ ونحن نعرف مدى الاستفادة التي حظي بها والانطباع الذي تركه معرضه الذي أقامه في صالون عام، ١٨٥٩ وكانت لوحاته عن مصر:

La plaine de Thèbes pendant l?inondation du Nil, Le Simoun, Le Douar dans le désert du Sinaï, Les tombeaux de la vallée des Califes.

---

(١) نعرف أن سانت هيلار امين عام شركة قناة السويس قدم استقالته في اغسطس، ١٨٥٨ كان دي ليسبس يريد البدء في العمل دون انتظار تصديق اسطانبول على الفرمان المصري في الوقت الذي كان يميل فيه سانت هيلار إلى توخي الحذر والتريث واتباع البروتوكول. إلا أن دي ليسبس لم ينتظر وتصافح الصديقان وافترقا. انظر في ما سبق ص ٢٠٧ و٢٠٨ وص ٢١٢ و٢١٣

(٢) خطاب القي في الأكاديمية الفرنسية رداً على دي ليسبس في ٢٣ أبريل ١٨٨٥ .

سببًا في جذب انتباه النقاد[1] إليه الذين بدأوا – يتابعون منذ ذلك الحين بإعجاب متزايد – جهوده المستمرة وإخلاصه ومثابرته[2]. ولهذا الرسام ميول أدبية أخاذة وله كتاب ساحر هو «صحراء السويس: خمسة أشهر عند البرزخ» (١٨٦٣) Le désert de Suez: Cinq mois dans l'isthme جمع فيه الرسائل التي كان يكتبها بصفة مستمرة إلى فرومنتان من نوفمبر ١٨٦١ إلى أبريل ١٨٦٢ .

كان قد عاد إلى مصر هذه المرة في مهمة رسمية ليحمل الرسومات المجسمة للقناة وليحدد مدى تقدم المشروع. وكتب يقول لفرومنتان «إنني في مهمة للوقوف على مدى التقدم الذي تحرزه الأعمال الجارية أسجلها من خلال مجموعة من الرسومات، ولذلك أرغب في تعريفك بهذا المشروع الضخم المسمى قناة السويس»[3]. وها نحن نتابع معه الخطوات الأولى لتنفيذ هذا المشروع العملاق، بداية من دمياط التي شُيدت فيها المخازن الرئيسية وموقع القيادة المتواضع، وحتى بورسعيد مدينة الهناجر والدكاكين الواقعة على شاطئ البحر ذات العشرين شهراً التي تضج بالحياة وبضوضاء الورش. ثم نتقدم من بورسعيد لنصل إلى القنطرة وهو المكان الذي كان يمر فيه الطريق القديم للقوافل القادمة من آسيا والذي يتوقف فيه الآن الجزء الأول من القناة القادم من البحر المتوسط. ويتقدم برشير ليعبر الجسر ويتوقف أمام بحيرة التمساح في قرية متواضعة بها عدة أكواخ خشبية وبيوت صغيرة، كان دي ليسبس قد افتتح فيها كنيسة صغيرة في أول يناير ١٨٦٢ وكان يقضي أيامه في التجوال في أنحاء المنطقة من وادي طليمات إلى التل الكبير الذي كان يرى فيه «مكانًا» جميلاً، «كانت الشمس تغرب في سماء صافية تشوبها

(1) Cf. Alexandre Dumas. L'Art et les artistes au Salon de 1859, p. 170. J. Dumesnil, Le Salon de 1859. p. 63

(٢) حول برشير، انظر مقدمة برنارد بروست في «الكتالوج المصور لأعمال برشير» Catalogue illustré des -uvres de Berchère باريس، ١٨٨٥ من بين أفضل اللوحات التي رسمها برشير عن مصر وعلاوة على ما عرض في صالون ١٨٥٩ علينا الإشارة إلى Le Ralliement des caravanes صالون ١٨٦٧ و Le Rue du Caire و Les Colosses de Memnon (المجموعة السابقة لاميل ميريل المعروضة اليوم في متحف الفن الحديث في القاهرة) و Paysage du Nil المتحف الدائم للمستعمرات في فانسان و Paysages d'Egypte مجموعة محمود بك خليل، القاهرة و Place du Caire مجموعة مارسيل فانسينو، القاهرة). عرض برشير لوحة Gué de la mer Rouge في عام ١٨٦١ علق عليها تيوفيل جوتييه في كتيب الصالون قائلاً: «ستبدو هذه اللوحة لهؤلاء الذين لم يتعدوا فونتانبلو، ذات الوان مجنونة وتشبه المتفجرات، ص ٥٧ فهو يبحث عن الألوان الزاهية وليس عن الخطوط المتناغمة التقليدية لصديقه فرومنتان.

(3) Le Désert de Suez: Paris. Hetzel. 1863. p. 6

بعض السحب الوردية، وتضيء الوادي بأشعتها المائلة، وقطيع الماشية عائد إلى القرية وسط الأتربة التي كانت تثيرها حوافره. وسط الظلام بركة تعكس أنوار السماء على مياهها اللامعة... الخ»[1].

يبدو أن السويس هي التي تجذبه بصفة خاصة، السويس الهدف المرجو من هذا المجهود المضني، السويس التي تصبو إليها كل هذه الطاقات والأمنيات والتي يراها محفوفة بالغموض وبالمجهول والتي تتراءى انعكاسات مآذنها في مياه بحر آخر. ولم تعد الحالة المزرية للحارات تصدمه، بل إن تذوقه لغير المألوف قد وجد ضالته فيها ليعثر على مناظر ومشاهد شبه كاملة لا ينقصها سوى ريشة عاشق من عشاق الشرق. «الحوانيت يضيئها شمع صغير وردي اللون مرصوص بأسلوب جميل وسط البضائع... أتريدون شرباتًا وهو «نوع من عصير الورد البلدي بلحاً، رماناً مفتوحًا، برتقالاً أم تريدون المعجنات والبصل الذي يسبح في الزيت أو قطعة شهية من الكباب؟ هنا نجد المقهى وراء الآخر وهناك موسيقيون وبعيدًا أحد الرواة؛ وها هو المحراب يتراءى لنا من خلال الباب الموارب لأحد المساجد المضيئة. وللضوء انعكاسات لا مثيل لها، فهي خليط من البريق ومن النقاط المظلمة في آن واحد ومن الوميض الذي ينير الملابس والوجوه والدكاكين، انعكاسات رائعة تشق الظلمة وتنساب على الحوائط لتتلاشى في الظلام الدامس الذي يغطي أسطح الحوانيت، في الوقت الذي ترتفع فيه مآذن المساجد العالية التي يعلوها تاج من نار في سماء الليل المتلألئة بالنجوم»[2]. ومما لا شك فيه أن هناك أيضًا تقام الورش وتشيد الدكاكين والمعسكرات وتولد وتنمو مدينة حديثة عادية. إلا أنه لحسن حظ الشرق صاحب المعجزات «ما لم تفقده السويس هو سماؤها التي لا مثيل لها ذات اللمعة الأخاذة وضفاف الجزيرة العربية الشقراء الذهبية مثل السماء وبحرها ذو الزرقة المتناهية الذي تداعب تموجات الذهب والفضة صفحاته وتاج الجبال الرائع الذي يحوطها ومياه خليجها التي تذهب هباءً في الصحراء - كحجر اللازورد المحاط بالذهب - ونسمات البحر التي تداعب ظهورنا، الدافئة المعطرة التي تحملنا إلى جزر البهارات وضفاف الهند وإلى البلاد الاستوائية»[3].

(١) المصدر السابق، ص ٣٣
(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٠
(٣) المصدر السابق، ص ٢٦٨

لسنا في حاجة إلى التوقف هنا، فهذه الأجزاء الصادقة الطبيعية تكفي لإظهار القيمة الأدبية والفائدة التاريخية. عند تصفح مراسلات برشير، نعايش الخطوات الأولى لهذا المشروع العظيم كما أنه يمتعنا بريشته الساحرة بوصفه الحي للمناظر، إذ إنه رسام يجيد الكتابة. فأسلوبه مرن ورؤيته تجمع المصداقية والجمال في آن واحد، ويذكرنا بماريلا ويكمل فرومنتان[1]. إذا لم تكن تمتاز لوحاته بالاتزان وبالخطوط الكلاسيكية التي يتمتع بها هذا الأخير، فإنها تفيض في المقابل بالألوان وبالحيوية. وعلى أية حال لم يحسن أحد إحسانه في نقل سمات مصر وأشعارها الناعمة البسيطة وما تمثله من تناقض مع شمال أفريقيا! في صفحة واحدة رائعة يقارن بين الجزائر المفعمة بالحماس وبعشقها للحرب وبين مصر الوديعة الريفية. هناك بلد البربر والفرسان والرحالة «شعوب تبحث عن المراعي وعن الحرب» وهنا الوادي الهادئ الذي يستمد غذاءه من تناغم النهر والشمس وما يعم عليه ليس هو التناحر بين الأجناس وإنما حب الأرض والاهتمام بالتربة والانشغال بإتقان العمل. ألم تجد كل من هاتين الأفريقيتين المختلفتين تمام الاختلاف شخصهما المناسب؟ من ناحية دي لاكروا رسام العشيرة والوجه والحركة ورسام العصر الأفريقي بأكمله، ومن الأخرى ماريلا رسام الطبيعة الريفية ومصر المطمئنة منشدة المشاعر الأصيلة. «ما الذي يمتد على مرمى البصر؟ طبيعة هادئة نضرة غارقة في مياه صافية ومعابد ترتفع أعمدتها في سماء الليل ومدن خلابة وشوارع تحفها الظلمات والأضواء وأحياناً مجموعات صغيرة من الفقراء يبطئون الخطى في الرمال، إلا أن الأهم هو ما يتركه ذلك من انطباع للروعة وللمشاهد الطبيعية الأصيلة. في عصر كان يبحث فيه جيروم، بحس المؤرخ وعيون الأثري، عما يجري في الحياة اليومية وعن العوالم والتجار والعبيد والحرية والأسلحة والسجاجيد ويتناول كل ذلك بدقة متناهية، نجد من يفضل الحرية والبساطة وهما برشير وفرومنتان - الأول يميل إلى التحليل والثاني إلى التجميع - وهما يعملان - مثل بيلي - على استنباط السحر الذي يفيض من هذا البلد وعلى استخلاص أصالته وحقيقته وعلى التغني بعظمته الأبدية.

(١) ها هي الكلمة التي سلمها فرومنتان في مايو ١٨٧٠ إلى صديقه الفريد أراجو المسئول بوزارة الفنون الجميلة - مشيداً فيها بزميله برشير حتى يحصل له على وسام. «لقد ظل يعرض لوحاته في معارض لمدة خمسة وعشرين عاماً ورحل طويلاً في سبيل العلم؛ وإنتاجه فياض وتقاسم مع بيلي المهمة الشائقة للتعريف بمصر، واجادها تمامًا ونقل لنا التفاصيل الدقيقة ولم يكتف بالنظرة العامة. ونستطيع القول بأنه وهب نفسه لهذه الغاية. ومنذ عدة سنوات تولى مهمة خاصة في البرزخ وأحضر لنا دفتر رسومات قدمه إلى الإمبراطورة. إنه عين فاحصة ورسام موهوب.. عمل دؤوب وفياض، يجب ألا نحكم عليه من لوحة واحدة وإنما من مجمل إنتاجه..».

E. Fromentin, Correspondance et fragments inédits, p. 247

II

كان جيروم وبرشير وفرومنتان من أعضاء الوفد الذي دعاه الخديوي إسماعيل لحضور احتفالات افتتاح قناة السويس، وبعد أن كان العمل المضني من نصيب فرنسا، تصدرت قائمة الشرف. وها هو إمبراطور النمسا ومن ورائه أمير بروسيا ثم أمير وأميرة هولندا ثم أمير هانوفر ثم الأمير عبد القادر ومن ورائهم موكب كبير من أصحاب السمو والألقاب[١]، وعلى رأس هذه الشخصيات العظيمة إمبراطورة الفرنسيين على ظهر يختها المزين بالأعلام – ليجل – لتكون أول من يعبر قناة البحرين، معبرة بذلك لفرديناند دي ليسبس عن امتنان العالم[٢] له وإعجابه به. وتم اختيار ممثلي الدول من علية القوم في بلادهم ليحيطوا بها وبعثت ألمانيا بعالمين من علماء المصريات هما لبسيوس ودوماخن وبالمثّال دراك كما أرسلت النرويج إبسن الشهير وأوفدت كل من سويسرا العالِم نافيل وأسبانيا كاتبها المسرحي أوزوبيو بلاسكو، إلا أن وفدنا كان أكثر الوفود بريقًا.

علاوة على العديد من العلماء ومنهم ستة من أعضاء أكاديمية العلوم هم الكيميائيون بلار وورتز وبارتلو وعالم الطبيعة دي كاترفاج وخبير علم وظائف الأعضاء ماريه والفيزيقي جامين، نجد أعضاء من أكاديمية الطب مثل بروكا وهامي وعلماء اللغة مثل ميلر وفرانسوا لونورمان وبروفسورات مثل فيكتور دورو وشعراء مثل تيوفيل جوتييه ونقادًا في الفن مثل شارل بلان ونجد خاصة رسامين أمثال جيروم وبرشير وتورنمين ولونوار ومثّالين مثل جيوم. وكان يصاحب هذه الشخصيات الرسمية عدد كبير من الصحفيين منهم فلوريان فرعون رئيس تحرير «لا فرانس» ومارك مدير «ايلوستراسيون» وبيير بيشو من «لا روفوبريتانيك» وعدد كبير من مراسلي الصحف دسّوا أنفسهم ضمن الوفد بفضل العلاقات الشخصية[٣].

---

(١) حضر الإمبراطور فرانسوا جوزيف ومعه سفيره في القسطنطينية البارون بروكيش أوستن والكونت جول اندراوس والبارون فردريك دي بوست. وكانت إنجلترا وروسيا ممثلتين عن طريق سفيريهما سير هنري إليوت والجنرال ايجناتيف.

(٢) كان موكب الإمبراطورة كبيرًا وضم الأمير جواشيم مورات وابن أخيه الدوق دي هوسكار وحاجبه الكونت دي كوسيه بريساك وفارسه الأول الكومندان رامبو وياور الإمبراطور الجنرال دواي والضابط المرافق له الكابتن هيب وبنات شقيقته وبعض الوصيفات.

(٣) فلوريان فرعون هو حفيد السوري الذي كان يعمل في خدمة فرنسا واسمه إلياس فرعون وهو المترجم السابق لنابليون أثناء حملته على مصر وفيما بعد عمل قنصلاً للعلاقات الخارجية. كان فلوريان يتحدث العربية وتولى الترجمة خلال الرحلة.
لويس مينار كان قد زار مصر أيضًا في ديسمبر ١٨٦٨ مصاحبًا لابن أحد أصدقائه الباريسيين ويدعى أوجوست دي كليرمون، إلا أنه لم يكن متحمسًا لهذه الرحلة فضيفه لم يكن مهتمًا بما يحدثه به من قصص التاريخ اليوناني والفلسفة السكندرية مما جعل مينار يتركه في مصر ويعود بمفرده إلى باريس حتى دون زيارة اليونان في طريق العودة.
ح. بيير «لويس مينار» رسالة دراسية من السوربون ١٩٣١ «رسائل لم تنشر كتبها لويس مينار» باريس ١٩٣٢ Lettres inédites de Louis Ménard. Paris, 1932 ص ٦٨-٨٢

وجه الخديوي إسماعيل الدعوة إلى حوالي ألف من الشخصيات المرموقة في أوروبا، زار تسعمائة فقط منهم السويس والمائة زاروا منطقة الصعيد، وكان نوبار باشا وزير الخارجية المصري هو الذي حدد لهم برنامج الرحلة، ابتداء من الرحيل من مارسيليا في ٩ أكتوبر ١٨٦٩ على ظهر ثلاث سفن تابعة للإمبراطورية وحتى الوصول إلى القاهرة يوم ١٦ والسفر إلى أسوان في ٢٢ أكتوبر ثم العودة إلى القاهرة في ١٣ نوفمبر وحضور احتفالات القناة سواء في بورسعيد أو الإسماعيلية في الفترة من ١٦ إلى ٢٠ نوفمبر. تكونت لجنة خاصة من ثلاثة من كبار الموظفين هم كولوس بك حاكم الإسكندرية وأمين بك وطونينو بك رئيسا احتفالات الخديوي مهمتها فقط تنظيم إقامة المدعوين والسهر على راحتهم وتوفير الأمن لهم. وقام ماريت بنفسه بطبع كتيب به معلومات عن منطقة الصعيد ووزعه على الصفوة منهم قبل سفرهم إلى الأقصر(١).

لن نتوقف هنا – من بين الروايات التي رواها هؤلاء المدعوون – إلا أمام روايات لويز كوليه وفرومنتان وشارل بلان. نحن نعرف أن جوتييه أصيب بكسر في ذراعه وهو على ظهر السفينة التي أقلته إلى مصر، مما قيد حركته في فندق شبرد في القاهرة ولم يلتفت إليه أحد إلا لاستكمال عدد أفراد الوفد الذي وصل إلى مصر. أما ذكريات لويز كوليه فتكشف لنا عن النواحي المرحة أي خفايا الأحداث وكواليس الاحتفالات، إلا أن علينا التحفظ بعض الشيء على مصداقيتها لأنها تعكس المزاج المنحرف لرحالة حادة الطباع لا ترضى عن شئ ويثيرها كل ما حولها. ولذلك علينا مقارنة ما ترويه بكتاب شارل بلان وبيوميات فرومنتان. فكتاب الأول كله علم وذوق عال، كتاب جيد فعلاً للتاريخ وللفن الفرعوني والفن العربي، أما كتاب الثاني فمفعم بالصدق والحرفية والألوان.. رواية رائعة موجزة وطبيعية؛ عملان لهما قيمة عالية للغاية بعد الثرثرة الفارغة لصاحبة المزاج المنحرف.

✡✡✡✡

(1) Itinéraire des invités aux fêtes d?inauguration du canal de Suez qui séjournent au Caire et font le voyage du Nil, publié par ordre de S. A. Le khedive.

«خط سير المدعوين في احتفالات قناة السويس المقيمين في القاهرة ويقومون برحلة على النيل، نشر بأمر من معالي الخديوي» القاهرة الإسكندرية – مورس اكتوبر ١٨٦٩ (دون اسم الكاتب). ونشر أيضاً في جريدة إيجيبت من ٢٦ اكتوبر إلى ١٩ نوفمبر ١٨٦٩ – الطبعة الثانية باريس فيويج ١٨٦٩ – الطبعة الثالثة باسم «خط سير منطقة الصعيد...» بقلم اوجست ماريت باشا – باريس – ميزونوف ١٨٨٠ – نظم ماريت الرحلة: ٥ أيام في القاهرة و٢٤ يوماً على النيل. في الطبعة الثالثة قام الكاتب بتبديل تسلسل أحداث التسع والعشرين يومًا بتوزيع منهجي وجغرافي، وقبل البدء في وصف آثار الصعيد كتب مقدمة هامة عن (الجغرافيا الطبيعية والمنابع والتاريخ والتسلسل التاريخي واللغة والكتابة والدين ومعلومات عامة). ولم يدع في أي من الطبعتين أنه يحل محل المرشد بل كان يشير على الرحالة بالمرشد جوان ايزامبير.

لنستقبل أولاً على رصيف ميناء الإسكندرية ركاب السفينتين الفرنسيتين، إذ إن فرديناند دي ليسبس شخصيّاً كان في انتظارهم. وبعد أن استراحوا لمدة يوم استقلوا قطارًا خاصًا صباح السادس عشر من أكتوبر ليصلوا إلى القاهرة، ويصفهم تيوفيل جوتييه لدى وصولهم إلى المحطة وصفًا جماعيّاً على طول صفحة ساخرة مسلية. «كان كثير منهم قد تزود لهذه الرحلة القصيرة التي لا تستغرق سوى أربع ساعات في القطار كما لو كانت رحلة نيلية لما وراء الشلالات وكانت درجة الحرارة تقارب مثيلتيها في مارسيليا أو في الجزائر. ناهيك عن تسريحات الشعر شديدة الغرابة العادية جدّاً منها عبارة عن قبعات من التل الأبيض يتدلى منها جزء من الخلف أسفل الرأس يشبه الحلقات المعدنية للعسكر وبها واق أخضر مسدل على الوجه وعلى جانبي الرأس فتحتان للتهوية. ويبدو أن كل ذلك لم يكن كافياً، فنرى غلالة زرقاء تشبه تلك التي يرتديها الرياضيون في السباقات تحيط بالقبعة وعلى استعداد للتدلي لحجب الوجوه عن هؤلاء الملتحين الذين ليسوا في حاجة إلى كل هذه الاحتياطات. لن نتحدث عن القبعات المزينة بالتل الأبيض التي تتدلى منها الشرائط لتحمي الوجنتين والرقبة، فهي بسيطة للغاية، ولكن تزيين الرأس بزينة هندية على الطريقة الإنجليزية يستلزم وصفه وصفًا خاصًا.

لنتخيل أسطوانة من النسيج الأبيض موضوعة على غطاء أعلى طاقية يتهدل منها واق للوجنة وللرقبة. إن هؤلاء السادة الذين تزينوا بهذا الاختراع المريح بدت رؤوسهم وكأنها تحمل شمسية مغروسة في الجماجم. وهناك من ارتدى الكوفية السورية ذات التقليمات الصفراء والحمراء والزرقاء والبنفسجي ولفها حول الوجه بشريط مزركش ذي أطراف منسدلة تتهادى على ظهره. والآخرون – ممن لا تستهويهم السمة المحلية – كانوا يرتدون قبعات من اللبد الطري المثقوبة في أعلاها والتي تشبه منفذ جبل ذي قمتين. وآخرون يرتدون قبعات القش ذات الحواف المبطنة بالتفتاه الأخضر، وهناك من يضع الطربوش الرسمي الأرجواني اللون ذا الشرابة الحرير؛ ولا نرى إلا شخصًا واحدًا فقط، عالم مسن، أكثرهم لطفاً وبشاشة ومن الأجلاء في مجال الكيمياء[1] هو الذي تمسك

(١) بلار (١٨٠٢ - ١٨٧٦) هو معلم بارتيلو وعضو في أكاديمية العلوم وكان عمره آنذاك ٦٧ عاماً.

بالقبعة الأوروبية وباللباس الأسود وبربطة العنق البيضاء وبالحذاء ذي العقدة المتحركة، وصرح قائلاً إنه اعتاد هذا الزيَّ إلى الدرجة التي لو ارتدى غيره لشعر بالعري، وكان أكثرهم تحملاً لمشاق الرحلة.

لاحظنا أيضًا كثرة النظارات الزرقاء وذات العدسات الداكنة للحماية من كسوف الشمس وطرزًا أخرى تتلاءم مع كل الظروف ومن ورائها كلها كان يصعب علينا أحياناً التمتع بنظرات الود. وتنتشر أمراض العيون الخطيرة في مصر وما يروى عنها لا يدعو إلى الاطمئنان. فإذا نام الشخص وترك النافذة مفتوحة ربما يستقيظ وقد فقد إحدى عينيه، كما جاء في كتاب Pierrot-Caïn الذي كتبه أحد الضباط اللامعين في البحرية وقال «حقاً هذا ليس مؤلمًا» محاولاً تخفيف الوطأة بما يتصف به من برود ساخر.

معاطف من الفلانيلة البيضاء بغطاء للرأس أو بدونه زاهية الألوان،أخرى من الكتان، سترات من القطن سمني اللون، صديريات من النانكين أو من الحرير بيضاء اللون ذات زراير مزركشة وأحزمة حمراء من الصوف، سراويل منتفخة أدخلت أطرافها داخل الطوق الجلدي الذي يصل إلى الركبة، حقائب من جلد الماعز، مناظير مقربة تتدلى على الصدور، بنادق الصيد في الأجربة ومعلقة على الأكتاف، معاطف بلا أكمام، أغطية متنافرة الألوان.. عالم غريب من الأدوات التي يخيل للمسافر أن عليه حملها معه كان يضفي الكثير من الغرابة على هذا الجمع الأوروبي كثير الحركة على الرصيف والذي كان يقفز إلى عربات القطار وسط هؤلاء الرجال المعممين وملابسهم التي تشبه ملابس النساء»(١).

بعد تناول الغذاء في محطة طنطا، حمل القطار الخاص المدعوين إلى القاهرة التي وصلوها بعد الظهر ليتفرقوا بعد ذلك في الفنادق كل حسب لقبه وصفته. نزل أعضاء المعهد وبعض الكتّاب ذائعي الصيت في فندق شبرد وآخرون في فندق الشرق، ويبدو أن أقلهم شأناً (ومنهم لويز كوليه) في فندق أوروبا. كان فندق شبرد آنذاك يختلف عما هو عليه الآن، كان بناء صارمًا يشبه الثكنة الإنجليزية أكثر من الخان الشرقي، غارقًا في الظلام والسكينة، خاليًا من أصداء المدينة العربية التي كانت تخبو على بابه. ويمدنا شارل

---

(1) TH. Gautier, L'Orient, vol II, p. 149

بلان بوصف دقيق لهذا «الفندق الفريد» الذي أقام فيه أربعة وأربعون مدعوًا منهم أربع سيدات. «إنه دير واسع ذو سلالم وممرات خافتة الضوء، وغرفه المغلقة تشبه صوامع الرهبان. نرى هنا أن الضوء والحرارة يتماثلان وأن الجو البارد مرادف لليل. وإني لأشعر بسحر خاص وأنا أتجول بين هذه الممرات الطويلة المظلمة الساكنة متخيّلاً نفسي طليقًا في دير. ومن حين لآخر ينبثق شعاع من الشمس ليس سوى باب لراهب يُفتح، وألتقي بشخصٍ يمشي الهوينى على الدرج وذراعه تتدلى ويتكئ على رفيقه.. إنه تيوفيل جوتييه الذي يسير مستندًا إلى صديقه مارك. ويقول بصوته البطيء المنهك بداء الربو «هل رأيت «شؤم» الإبحار يوم الجمعة لقد فتحت باب قمرة كنت أظنها لزميل فوقعت في مستودع الفحم لتنكسر ترقوتي ولأجد نفسي محبوسًا هنا»[١].

يا له من مركز ممتاز للمراقبة استفاد منه جوتييه[٢]. وفي المساء وعلى مأدبة العشاء، تبادل النزلاء الآراء والانطباعات وتعارفت الوفود الأوروبية، فزجاجات الشمبانيا تقرب الشعوب. وكتب تيوفيل جوتييه يقول «إن الذين كانوا ينتظرن تناول المأكولات المحلية لم يجدوا أمامهم سوى المطبخ الفرنسي الشهي الذي شابه شيء من السمة الإنجليزية، وكيف لا والنزلاء جميعهم تقريبًا من البريطانيين. ولم يكن هناك أيضًا طبق عربي ولا قام على خدمتنا عبد داكن اللون يرتدي العمامة البيضاء والثوب الوردي، ولا حتى فطائر الفلفل الشهية التي نجدها في قصة ألف ليلة وليلة. إلا أننا لم نأسف كثيرًا على ذلك لأن الصبغة المحلية تكون أبهج على الطبيعة عنها في الفندق. وجلس الرحالة على الموائد مجموعات، فوجدنا ركن الرسامين وركن العلماء وركن رجال الأدب والمراسلين الصحفيين وركن رجال المجتمع والهواة، دون أن تكون هناك تقسيمة واضحة؛ وكانوا يتبادلون الأماكن من ركن لآخر. وعند موعد تناول القهوة التي طلبها البعض تركية، والبعض الآخر أوروبية، تلاشت الفوارق والحدود مع تبادل الحديث وتدخين السيجار، ووجدنا الأطباء الألمان يتحدثون عن الجمال مع الفنانين الفرنسيين ومتخصصي الرياضيات ينصتون باسمين إلى ثرثرة الصحفيين»[٣].

---

(1) CH. Blanc, Voyage dans la Haute-Egypte, Paris, Renouard, 1876, p. 28195 انظر ما سبق ص

(٢) انظر ما سبق ص ٢٠٠ ٢٠١ يحتفظ الفندق بسجل كتب فيه جوتييه كلمات عبر فيها عن امتنانه لما لاقاه من عناية.

(3) TH. Gautier, L'Orient, vol II, p. 209-210

III

لم تكن لويز كوليه (١٨١٠-١٨٧٦) من ضمن نزلاء شبرد وكانت تدرك ذلك. أين ذهب شبابها وجمالها وصيتها الذائع؟ من الذي يهتم بها اليوم؟ لقد عرفها تيوفيل جوتييه وهي في عصرها الذهبي. إن التي كان يطلق عليها في الماضي «الإلهام» والتي كان يسميها فيكتور هوجو «شقيقتي» وعشيقها فيكتور كوزان «زهرة البانسيه» والتي كانت موضع سر مدام روكاميه والتي جعلت من صالونها - بعد موت جوليت - صالوناً أدبياً عظيماً، والتي كانت صديقة براديه وفيلمان وموسيه وعشيقة فلوبير المتمردة.. لا يشعر بها أحد اليوم في هذه الصحبة الأكاديمية المشغولة بتبادل المجاملات.. تركت لنفسها أو لصحبة الشاب كاميل بولوتان. إلى أين تتجه والريبة تحاصرها من قبل أعيان المجتمع وأصدقاء السلطة؟ فلم ينس البعض تصرفاتها الشاذة والآخر خُطبها المؤيدة للجمهورية، وكانت حياتها المتحررة وآراؤها سبباً في نفور المفكرين عنها. لقد مرت بالفعل ثلاثون عاماً على أولى فضائحها، إلا أن الأقاويل لا تموت. كانت هذه المرأة التي لا تزال دقيقة الملامح ذات الخطوات المسترجلة والأطراف الثقيلة والصوت المبحوح والجدائل الشيباء.. كانت في ما سبق الشقراء المتوجة والشاعرة سريعة الإثارة التي «خانت فيكتور كوزان وسخرت من ألفريد دي موسيه وأهانت جوستاف فلوبير وحاولت قتل ألفونس كار»(١). وهي التي خسرت الدعوى المشهورة التي رفعتها عليها مدام لونورمان ابنة شقيقة مدام ريكاميه ووالدة الشاب فرنسوا لونورمان الموجود حالياً في مصر بصفته ممثل جريدة «لوكورسبندان(٢)» Correspondant كان نجمها قد أفل بالفعل. لقد تحمست «للمبادئ الخالدة» و«للقضايا النبيلة» ضد الإمبراطورية وضد البابا وضد عبودية المرأة وضد فساد القرن، وسرعان ما ازدهر صالونها. إلا أنها بدأت تفقد بريقها بسبب الروايات والأحداث

---

(1) M. Du Camp. Souvenirs littéraires, vol. II, p. 368

شطب الفونس كار هذه الواقعة من كتابه Guêpes ويقال انه أصيب إصابة طفيفة في ظهره واحتفظ بالسكين الذي استخدمته وعلقه على حائط غرفة الطعام وكتب تحته العبارة التالية «هبة من السيدة لويز كوليه»

(٢) ذكرت لويز كوليه أن مدام ريكاميه أعطتها قبل وفاتها لفافة من الرسائل الحميمة لبنجامين كونستان وسمحت لها بنشرها. وبعد ان بدأت جريدة «لابريس» La Presse في نشر هذه الرسائل تدخلت مدام لونورمان زوجة عالم المصريات شارل لونورمان وأوقفت النشر بصفتها وريثة لمدام ريكاميه.

التي كانت تنمو حولها. وأدت معارضتها لنظام الحكم إلى إقصائها عن فرنسا، فذهبت إلى إيطاليا حيث أتعبت الجميع، في تورين أرهقت كافور بنصائحها وفي ميلانو تعلقت بذيل مانزوني وإلى نابولي هرعت وراء جاريبالدي. ثم بدأت المتاعب وانفصلت عن زوجها الموسيقي هيبوليت كوليه، واضطرت إلى الإنفاق على ابنتها وقضت حياتها المتوترة وأسفارها على مواردها. لذا اضطرت إلى الكتابة في الصحف وصغرى المجلات وكتبت في جميع المجالات حتى في موضوعات الموضة، وكانت تتقاضى أجرها أحيانًا بالقطعة(١). واليوم تشترك في جريدة «القرن» Siècle وتتوارى في المجال الغذائي والأدبي خالطة مقالات النقد بالتحقيقات الصحفية، ولم تتلق دعوة لحضور احتفالات السويس لولا تدخل صديق شخصي لها وهو لويس ألوري رئيس صحيفة «ديبا» Débats وأحد مديري شركة القناة.

تعد مقالاتها وذكرياتها، المجمعة في كتاب عام ١٨٧٩ بعنوان «البلاد المضيئة. رحلة إلى الشرق» Les pays lumineux. Voyage en Orient، وثيقة نفسية رائعة. مما لا شك فيه أن العمر ترك بصماته على هذه الشخصية الثائرة وتخلّى العنف السابق عن مكانه للاعتراض النائح. فهي لم تعد «الإلهام المضطرب ذا اللعنات» الذي كان يتكلم عنه باربي دوريفيلي، إلا أنها لا تزال المرأة المتكلفة غير المحتملة التي ترى نفسها محور الكون وتشهدنا معها على نوائب الدهر وتحدثنا عن همومها، وهي – وفقًا لعبارة لويس بوييه – «تفتقد إلى السجية». ولن ننهي حديثنا مع أن كتابها ليس ذا أهمية.

على الرغم من كونه مفعمًا بالثرثرة والغيبة إلا أنه يجعلنا نحيا جو هذه الاحتفالات الأكاديمية البهيجة التي نقلت إلى السويس محظيي المعهد وما يدور من تعليقات في الأحياء الراقية الفرنسية والأحاديث المتداولة في باريس. فالكتاب يضم بورتريهات مسلية وحوارات صيغت بمهارة وتعليقات ممتعة، وربما كان سيكون أكثر متعة لو لم تلجأ الكاتبة إلى تفخيم أسلوبها وهي تسرد أبسط التفاصيل، فترهقنا وتصيبنا بالملل(٢). ووسط العلاقات الرسمية ومراعاة المقامات، يصحبنا الكتاب إلى الأروقة الخلفية لهذه الاحتفالات.

---

(١) «لقد مدحت مصممات الأزياء وصانعات المشدات وصانعات القفافيز واعلنت عن المراهم التي تطري البشرة وعن العطور واشادت بنعومة نيترات البزموت المتخفي في مسحوق الأرز»

Maxime Du Camp. Souvenirs littéraires. vol. II. p. 366

(٢) منذ لحظة وصولها ولويز كوليه تحاول جذب الانتباه. وكتبت صحيفة «النيل» في ١٧ أكتوبر ١٨٦٩ «لقد اصيبت بأزمة حنين شديدة فور أن وطئت قدماها ارض الإسكندرية إلا اننا نأمل في سرعة اعتيادها على جو القاهرة».

لا تخفي لويز كوليه استياءها من أعضاء المعهد، إذ إنها ترى أن الاهتمام كله ينصب عليهم حتى لم يبق للآخرين نصيب، فلهم كبرى الفنادق وأماكن الصدارة في الاحتفالات وأفضل السفن... الخ. وحتى أحسن الحمير. وتحقد على شارل بلان شقيق لويس بلان لأنه استبعدها من حضور اللقاء الذي كان مخصصًا للوفد الفرنسي مما كان عليها التصرف بمفردها لكي تحظى باستقبال الخديوي إسماعيل لها[١]. ووُجهت إليها الدعوة بعد ذلك لحضور الاحتفال الكبير الذي أقيم على شرف الدوق أوست وزوجته في سراي قصر النيل[٢] إلا أنها صدمت مما رأته من «مسخ لقصر التويلوري» حيث المدعوون جميعهم «من أول الوالي إلى أبسط أفندي يتزيّون ببدلة الرودنجوت الأوروبية السوداء اللامعة وعلى خصورهم الأحزمة وذيلها الطويل يتهادى فوق سراويلهم[٣]، ويتثاءبون أثناء سماعهم أشعار موسيه؛ إنه فعلاً احتفال يفتقر إلى السمة المحلية، خالٍ من الإثارة لا طابع له يشبه ما نقرأه في كتاب ألف ليلة وليلة»[٤].

في مساء يوم ٢١ أكتوبر عشية السفر إلى الصعيد تم تخصيص مكان لها على ظهر الباخرة «الجيزة» التي وصفتها بأنها أسوأ قطعة في أسطول الخديوي. وبالقرب منها «البحيرة» باخرة جميلة جديدة تقل أعضاء المعهد وتقطر ذهبية فخمة «ليجل»؛ وها هي «بني سويف» واليخت «فروس» الذي يقل المدعوين الألمان والإسكنديناف، وهو يخت كلّف عباس باشا مليوني فرنك، وأبوابه من خشب الأرو والدرابزين من الفضة وبه صالونات وغرف زينها أفضل الفنانون. يا له من تناقض واضح مع «الجيزة» المركب القديم الذي اشتراه سعيد مستعملاً والخالي تماماً من أي رونق! على ظهر هذا «المعتقل التأديبي» الذي يقطر ذهبية «بلزوني» تم حشر سبعة أشخاص معظمهم من صحفيي المعارضة مثل كاميل بولوتان أو ممن ليسوا ذوي أهمية أمثال بولانجيه وتاربي[٥]. وكتبت تقول «استقبلني رئيس الضيافة على المركب، شخص إيطالي محترم وناداني بالأميرة إلا أنه أدخلني قمرة

---

(1) Les pays lumineux p. 707

(٢) اختفت هذه السراي اليوم ولم يبق منها سوى السور ومدخلها على ميدان الإسماعيلية. واقيم فيها احتفال آخر في ٢٠ نوفمبر على شرف إمبراطور النمسا.

(3) Les pays lumineux p. 123

(٤) المصدر السابق ص ١٢٦-١٥٦

(٥) المصدر السابق، ص ٢٠٠

كريهة لا إنسانية، وعندما أعربت له عن استيائي قال «يا صاحبة السمو نحن كنا في انتظاركم غدًا صباحًا وكان الخادم سيقوم بأعمال النظافة مع إشراقة الصباح. تحلي بالصبر ليلة واحدة وسوف ترين» الجيزة «تتلألأ من النظافة وفي أبهى زينة». وصحبني إلى إحدى تجاويف السفينة التي كانت مزينة سابقاً، وتشع منها القذارة حاليًا؛ وأضاء شمعتين ورديتين وقال وهو يهم بالخروج «صاحبة السمو ترغب في فنجان شاي أو في أي شراب آخر»[١]؟ ولم يستطع الكرم الذي يتحلى به رئيس الخدم تعويضنا عن كم السلبيات التي واجهتنا، من ناموس وفئران وبراغيث ورائحة كريهة... تكاتف الكل لاضطهاد المسافرة سريعة الغضب.. وهكذا لن ندهش عندما تصاب بالاكتئاب والملل.

هل رأت صعيد مصر؟ يبدو لنا أن الإجابة هي النفي. ومما لا شك فيه أن فيضان النيل حال دون تنفيذ برنامج الرحلة الذي أعده ماربيت في طريق الذهاب، من زيارة سقارة ودهشور وميدوم وبني حسن وأبيدوس، ولن تشعر لويز كوليه بالأسف عندما ترى في هذه الرحلة شيئًا من ظلم القدر لها. وشأنها شأن فلوبير فإن علم الآثار «يصيبها بالضجر»[٢] وربما تعلن ذلك لو كانت تتمتع بصراحة عشيقها السابق. وعلى مدى الثلاثمائة صفحة التي يتكون منها كتابها لم تخصص سوى خمس وعشرين للحديث عن الأقصر وأسوان[٣]. وكانت طوال الرحلة متعبة ومعتلة الصحة وتخشى نسيم الصباح وحرارة العصاري، مما أمسكها على ظهر المركب. وفي طيبة لم تؤثر فيها اللهفة والفضول الذي شعر به الأكاديميون. «يستولي أول من ينزل من السفينة على أفضل الحمير، وسمعت أحد العلماء وهو عضو في المعهد يصرخ منحياً جانبًا ألقابه «لي الحق في أفضل مطية». «ولم أتمالك نفسي وقلت ضاحكة اتركوا أفضل الحمير للأكاديميين[٤]!» أما هي فقد اهتمت باحتياطات لا حصر لها، من شمسية فوق رأسها وحجاب سميك على وجهها واكتفت، محمولة على مقعد على الضفة الغربية للنيل، بالنظر من بعيد وبإعجاب إلى تماثيل ممنون

(١) توقف بولانجيه وتاريي في المنيا واستقلا القطار إلى القاهرة بعد ان اصابهما التعب وخشيا من طول السفر.

(٢) لقد زارت مع ذلك في طريق عودتها ابيدوس ولكنها اصيبت بتعب شديد بعد زيارة الأطلال لدرجة أنها لم تستطع السير حتى الباخرة، فلجأ رئيس احتفالات الخديوي طونينو بك إلى حيلة بارعة إذ وضعها في حقيبة وحملها الفلاحون وسط انبهار وفرحة باقي المدعوين (cf. TAGLIONT. op. Cit., p. 185)

(3) Les pays lumineux. p. 298 et suivantes

(٤) المصدر السابق (٣١ اكتوبر ص ٣٠٠)

التي تحوطها المياه.. لتعود منهكة إلى قمرتها الدافئة. وفي إدفو وكوم امبو عانت من ضعف شديد حتى إنها لم تتمكن من مغادرة السفينة وتأملت بحسرة شديدة الباخرة الفاخرة التي تستقلها الإمبراطورة أوجيني وهي تنساب بجلال على مياه النيل «تتبعها سبع سفن كبيرة تحمل المؤن[١]!» واستيقظ فيها وميض من حب البشر الديمقراطي السان سيموني، عبرت عنه بأبيات من الشعر أنشدتها على جزيرة فيلة أمام السوقة المنفّرة، وكلها أمل في تعليم الوطنيين المستبعدين وإنقاذهم وتحريرهم.

لا، لا، ليس صحيحاً أن هذا الجنس باكمله
المحكوم عليه بالدنس
يظلم للأبد ظلم الحيوانات[٢]

كما توقعنا، لاحقتها ذكرى فلوبير أثناء إصابتها بالحمّى ووقعت فريسة للهلوسة. وطوال عشرين عاماً ومغامرة كوتشوك هانم تؤرقها. منذ عشر سنوات أفرغت حقدها وخيبة أملها في قصتها الذاتية «هو» (١٨٥٩)، ومع ذلك من أول ليلة لها في بولاق أثناء انتظارها بفارغ الصبر رحيل السفينة وجدت شبح الماضي منتصبًا بالقرب من فراشها. «إن الصورة الميتة لعزيز أحببته في صبايا الأعمى والمدفونة في قلبي منذ ما يزيد عن عشرين عامًا تحيا فجأة لتتملكني بشدة، وجسمه العملاق يميل نحوي ليتملكني من جديد...»[٣]. وانفجرت هذه المرأة المضطهدة فياضة المشاعر ضد هذا القلب «ذي المعدن القاسي المُحَاصر بين العلم والرذيلة»، «المائل إلى الحب» الذي «حطم بيديه الفظتين ودنس التمثال الرائع القابع في معبد مجهول»[٤]. يا له من ماض قوي! ويستشف من هذا التعنت

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٥

(٢) المصدر السابق، جزيرة فيلة (نوفمبر ١٨٦٩) قصيدة منشورة على آخر صفحة من الجزء:

اشعة الشمس الأرجوانية تفيض على الأفق
وتحت ظلال نخيل جزيرة فيلة
نساء النوبة بقامتهن الصغيرة
وانوفهن المزينة بحلقات ومعهن الماعز
والذباب يغطي صدورهن ووجوههن والحلي
يهدهدن صغارهن

(٣) «البلاد المضيئة»، ص ٢٠٥

(٤) المصدر السابق، ص ٢٠٨

رغبة حادة في الانتقام. «لماذا إذن ظهور هذا الكائن المنسي؟.. بالأمس، من بين الأسباب التي دفعتني إلى القيام بهذه الرحلة إلى صعيد مصر هو أنني توقعت أنني سأجد هناك - مومياء حية - لإحدى العوالم الفاتنات اللاتي كان يذكرهن في يوميات رحلاته واللاتي فطرن قلبي وأشجينه..»[١]. عوالم؟ كُنَّ دائمًا هناك على ضفاف النيل. لقد رأيتهن في كل مكان، في أسيوط[٢] وفي قنا وفي الأقصر، وشاهدت إحدى البدويات وهي ترقص رقصة النحلة التقليدية ورقصة السيف أيضًا. وفي إسنا لم تذكر كوتشوك على الإطلاق، وعلى الرغم من التعب الذي أصابها نزلت من السفينة «لا تقوى على الحركة - كما ذكرت - في ٢ نوفمبر ١٨٦٩ - وبدلاً من الخلود إلى الراحة في قمرتها، زارت المعبد وتجولت في سوق إسنا حيث قضت عليها شدة الحرارة[٣]». هل وصلت حتى حي العوالم مثلما فعل فرومونتان وركاب «البحيرة»؟ احتمال ضعيف. «كنت أول من عاد إلى السفينة وخارت قواي على الجسر». وقيل إن عين الحسود لاحقتها وأثر عليها طيف كوتشوك هانم.

تفتقر لويز كوليه إلى قوة الملاحظة والحس النقدي في آن واحد. فهي تحصد كافة أنواع الثرثرة وتعيد جميع الروايات التي سبق أن ذكرتها أولب أودوارد[٤] كما أن وثائقها الجغرافية سطحية مثل وثائق الكسندر ديماس. لنصل الآن إلى «الجرانيت الأحمر» لسلسلة الجبال العربية[٥]! منذ وصول المسلات إلى باريس وروما ولندن ونيويورك، لم يعد كثير من المسافرين يرون سوى صخور من الجرانيت على شاطئ النيل. ولكن ماذا عن «جبال سوريا» التي شاهدتها مرارًا من بعيد أثناء رحلتها؟ وإذا كان الأمر خداع بصر، كيف يمكن تفسير تكرار ذلك على مدى ثلاث صفحات؟ إن التقرير الذي كتبته عن الغابة المتصحرة مضحك وساذج، وهنا نجد أنها تفوقت على ديماس «بعد سير مضنٍ وصلنا إلى الجذوع المتناثرة للأشجار المتصحرة. منذ عشرين عامًا كانت أشجار النخيل منتصبة

(١) المصدر السابق ص ٢٠٨

(٢) عند التوقف في أسيوط كان الشباب من المدعوين يلهون بدفع العوالم في أحضان العلماء حتى إن عالم المصريات الألماني دوميخن أخذه سحر الراقصات طويلاً ففاته موعد إبحار السفينة ولحق برفقائه في الأقصر (طاجليوني مصدر سبق ذكره ص ٨٥-١١٨ ولويز كوليه مصدر سبق ذكره ص ٢٩٠).

(3) Les pays lumineux, p. 315

(٤) على سبيل المثال رواية وفاة عباس باشا ومكائد الأميرة نازلي ابنة محمد علي (المصدر السابق ص ١٨٦-٢٠٠).

(5) Les pays lumineux, p. 265

تقطع الهواء بأغصانها الخضراء، وكان جمالها يخلب اللب حتى إن الرحالة الإنجليز قطعوها ليحملوا معهم أجزاء منها فلم تظل نخلة واحدة على حالها»[1]. أظننا نحلم، ها نحن نقف بلا حراك أمام هذا الجمال النقي، يا ليت فلوبير كان قد قرأ هذا ! ولا تحتوي مجموعة الحماقات التي كتبها بوفار وبيكوشيه على ما هو أجمل من ذلك. ومن ثم كيف يمكننا تصديق التفسيرات التاريخية التي كتبتها لويز كوليه؟ لقد أجرت التعديلات على كتابها من واقع معلومات منقولة ولم تكلف نفسها مشقة التحقق من المصادر. وتسرد أسماء مع أنها تكاد لا تعرفهم! ولم تنظر حتى إلى عناوين الكتب، وتعتبر سافاري - الرحالة الذي عاش في القرن الثامن عشر - معاصرًا لها وتقول ببساطة «نجد في الرسائل التي نشرها للتو مسيو سافاري...»الخ[2].

الرحمة على رفاتها! فقد كانت شديدة الاهتمام بنفسها وبالإحباطات التي تتلقاها وبالجروح التي تصيب كرامتها وبأحاسيسها وبشعورها الدائم بالاستياء، حتى حجبها كل ذلك عن الاستمتاع بصعيد مصر. كانت تفتقد إلى الحس الفني، وأسلوبها خطابي شديد المغالاة والتشدق، وبالتالي لم تتمكن من تذوق الفن الصارم البسيط لحضارة طيبة. إذا أردنا تأمل آخر اكتشافات مارييت ونحن برفقة متميزة، فلنصعد على ظهر السفينة المجاورة «البحيرة» وهي مركب ملكي لنلتقي برجل قرين لفرومنتان ومنافس له في مجال النقد الفني.. أي شارل بلان (١٨١٣-١٨٨٢).

IV

كان الأخ الأصغر للويس بلان العضو السابق في الحكومة المؤقتة وتم نفيه بعد عام ١٨٤٨ وهو الذي كتب «عشر سنوات» Dix-ans كان يعمل نحاتًا ثم ناشرًا وتولى قسم الصالونات والمعارض في الصحف التي كان يديرها شقيقه. في عام ١٨٤٥ ظهر الجزء الأول من كتابه «تاريخ الرسامين الفرنسيين في القرن التاسع عشر» Histoire des peintres français au XIX siècle وبدا فيه واضحًا ذوقه الأصيل ومعلوماته الوفيرة.

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٣

(٢) المصدر السابق ص ٧٣ انظر Sur Savary الجزء الأول ص ٨٠ و ٩٠

بعد أن عينه شقيقه مديرًا عامًا لهيئة الفنون الجميلة في ١٨٤٨، شرع في نشر عمله الضخم «تاريخ رسامي كافة المدارس» Histoire des peintres de toutes les écoles المكون من (١٤) جزءًا ولم ينته منه إلا في عام ١٨٧٦، وهو عمل جليل يعتبر المحاولة الأولى لتبسيط المسائل الفنية التي كانت محصورة حتى ذلك الحين في دراسات المتخصصين.

اضطلع شارل بلان في مجال الفن بدور مماثل لما قام به جان جاك أمبير في مجال علم المصريات، فقد نجح في إيقاظ تيار من الاهتمام والفضول فيما يتعلق بالمعلومات والجمال لدى المثقفين في فرنسا، بعد أن كان ذلك يُفرض عليهم. ويعود إليه الفضل في جعل قراء «لا ريفو دي دوموند» يتذوقون تاريخ الفنون بسلاسة تماثل ما كانوا يقرأونه فيما سبق عن تاريخ الأدب، وفي جعلهم لاحقًا يناقشون كتاب «سادة الماضي» Maitres d-autrefois لفرومنتان[1] أو يستوعبون «فلسفة الفن» Philosophie de l-art لتان. في عام ١٨٥٧ أصدر شارل بلان لهذا الجمهور مجلة حققت نجاحاً سريعاً وداومت عليه هي «لاجازيت دي بوزار» La Gazette des Beaux-Arts كان من أعلام الأوساط الأدبية وصديقًا لجوتييه، ولفلوبير ولبول دي سانت فيكتور ولإدموند أبو ولإخوان جونجور الذين كان يلتقي بهم دائمًا في بلفو. وفي مآدب العشاء الذي كان يقيمها شارل إدموند. وكان يتميز بربط الأدباء بالرسامين، وقد وجهت إليه الدعوة لحضور احتفالات قناة السويس بهذه الصفة المزدوجة أي بكونه أديبًا وناقدًا فنيًا في آن واحد. وكان في عام ١٨٦٩ شخصية مرموقة للغاية. وإذا لم يكن آنذاك قد التحق بالأكاديمية الفرنسية، إلا أنه كان يتمتع بنصف خلود لكونه عضوًا في أكاديمية الفنون الجميلة. إن ما كان يكتبه من رسائل إلى أصدقائه ومن بينهم المتألق بول دي سانت فيكتور لهو محصلة كتابه «رحلة إلى صعيد مصر» Voyage de la Haute-Egypte وحتى لو لم يظهر هذا العمل إلا في عام ١٨٧٦، إلا أن علينا اعتباره مساهمة فعالة في التعريف بتاريخ الفن المصري.

---

(١) لم يغفر شارل بلان قط لفرومنتان اقتحامه مجال النقد الفني الذي كان يعتبره مجالاً مغلقاً وكان شديد القسوة إزاء كتاب Les Maîtres d'autrefois ورشح نفسه في الأكاديمية الفرنسية في عام ١٨٧٦ ضد فرومنتان وتفوق عليه وحصل على ٢١ صوتاً مقابل ١٢ صوتاً وحتى بعد وفاته لم يبخل عليه قط بالنقد القاسي الظالم. انظر ما يلي ص ٣٥٠

إن هذا الإنسان الذي جعل همه الأول تبسيط الأشياء، تترتب الانطباعات في فكره وتتلخص؛ و«السفر» يصبح «معالجة»، وتخبو السمة التقنية في كتاباته. وتوفر له مساجد القاهرة فرصة إمعان النظر في تطور الفن العربي في مصر مقارنة بالفن المغربي الأسباني[1]، كما خصص أكثر من مائتي صفحة للفن المعماري الفرعوني[2] بالإضافة إلى عديد من رسومات فيرمين ديلانجل الذي استلهم نماذجه من دفاتر بريس دافين.

علينا عدم الشكوى! مع شارل بلان يجذب الفن الإسلامي على ضفتي النيل انتباه النقاد الفرنسيين، فما أرسله كل من باسكال كوست وبريس دافين من نفائس عديدة لم يكن معروفًا إلا من قبل المتخصصين، وما يتميز به هو أنه قدم في كتابه معلومات تخاطب عامة الجمهور. وفي صفحة رائعة قارن بين أعمال المصريين القدماء وأعمال العرب «المصريون يفضلون تكرار نفس النموذج والعرب يفضلون التبادل»[3]. ويقدم لنا تفسيرًا لمصادر زخرفة المسلمين وتطورها، «خلت زخرفة المسطحات من أية رسومات حيوانية مما حد من تدفق التعبير واعتماده اعتمادًا تامًا على أسلوب التلفيق الذي كان من أبرز سمات هذا الفن». وأخيرًا يخيل لي أنه كان أول من اعترف بقيمة بورجوان ومن أشاد بعمله الرائع حول «الفنون العربية» إذ إنه قال «ثبت اليوم أنه – في العمل الرائع لبورجوان أن اللبس الواقع بين المربعات المنحرفة المتناثرة وبين المثلثات المتقاطعة وبين المضلعات المتداخلة وبين الأسطوانات المتقطعة ليس سوى لبس ظاهريّ، فقد ثبت أن هناك طريقة شديدة البساطة تتحكم في هذه الفوضى المحببة وأنه من اليسير الإمساك بخيوط هذه المتاهة الغامضة»[4].

كان علماء المصريات دائمًا ما يحللون سمات الفن القديم الذي كان القارئ الفرنسي على دراية كاملة به ويألفه كما يألف السمات الإنسانية للحضارة الفرعونية، وذلك بفضل أعمال كل من جان جاك أمبير ورينان. وأعادت الملاحظات التي سجلها شارل بلان حول

(1) Voyage de la Haute Egypte. Observations sur les arts égyptien et arabe, p. 63-93

(٢) المصدر السابق ص ١٢٠-٣٢٨ (فصول أطلق عليها الأسماء التالية: دندرة، الأقصر، كرنك، طيبة، دير البحري، الرمسوم، اسنا، ابيدوس، بني حسن، الأهرامات، متحف بولاق).

(٣) المصدر السابق ص ٦١

(٤) المصدر السابق، ص ٦٢

مقابر بني حسن - شأنها شأن بعض المقاطع من «الفلاح» لأدموند آبو - إلى ذاكرة القارئ مقال رينان المنشور في «ريفو دي دوموند»[١]. ومع ذلك نجد في كتاب «رحلة إلى صعيد مصر» صفحة تفوق فيها الكاتب على نفسه ورسم لنا صورة غير مسبوقة عن المعابد المصرية، إذ يصف لنا- وهو أول فرنسي يقوم بذلك (٩ نوفمبر ١٨٦٩) - النقوش البارزة الرائعة في أبيدوس التي كان قد اكتشفها ماريبت للتو[٢].

لم يتمكنوا من زيارة الأطلال في طريق الذهاب نتيجة الفيضان، ولكن في الإياب كانت مياه النيل قد تراجعت منذ عدة أيام، واكتست الأرض «بلون أخضر ناعم زاهٍ» ونبت الزرع، واتجهت القافلة الأكاديمية نحو معبد أوزوريس يحوطها وادٍ بهيج. حال مرض فرومنتان دون انضمامه إليها مما أدى إلى فقداننا للوحة جميلة للريف المصري. إلا أنه ما كان سيجيد التعبير عن جمال تماثيل معبد سيتي الأول «في الصالة المعمدة أمر محافظ جرجا بفرش الحصير والسجاد وتناولنا طعامًا أخويًا، وجلسنا على قواعد الأعمدة المستديرة لنشاهد ونتأمل أعظم المنحوتات التي يمكن أن تراها العين. وكان الفرعون سيتي الأول حاضرًا معنا في معبده، ورأسه الجميل الشامخ الإنساني ينفصل عن الجدار وينظر إلينا بهدوء وإباء وعلى سنه ابتسامة خفيفة. وينساب شعاع من الشمس يرنو بهدوء من خلال الفتحات الدقيقة، ليتهادى على الوجوه ويضفي عليها بريقًا خاصًا وحيوية تكاد تنزعها من على الجدران. وتتقدم باقة من الغيد الحسان بأجسامهن المتناسقة تفيض منهن المحبة والنقاء إلى الدرجة التي لا يجرؤ أحد فيها على الاقتراب منهن، وجمالهن يجذبنا إلا أن وقارهن يبعدنا. كان المشهد مفعمًا بالحياة غير أنها في الواقع لم تكن سوى حجارة منحوتة بإزميل دنا منها الضوء. كانت دقة المنحوتات ورشاقة الرسومات تفيضان بالمشاعر إلى الدرجة التي رأينا في هؤلاء الغيد الحسان - اللاتي يرمزن إلى أقاليم مصر -

(١) المصدر السابق ص ٢٧٥ و٢٧٦ «يخيل إلينا أننا في إحدى قرى «بوس» أو في حقل من حقول العنب في «بورجوني»... الخ» دلت الجمل الاستشهادية التي كتبها كل من شارل بلان وأبو على تأثرها الواضح بدراسة رينان.

(٢) في عام ١٨٦٩ بدأ ماريبت في نشر صور الآثار التي اكتشفها
Abydos. Description des fouilles exécutés sur l?emplacement de cette ville. Paris. Vieweg. 1869-1880

تجسيدًا للفكرة ونبضًا للرمز...[١] وفجأة تنتشر الغيوم ويخبو الضوء ويهدأ الجمال وتعود هذه الوجوه الفاتنة إلى الجدران وتتوارى باستحياء وتختفي اختفاء شبه كامل، إلا أن حجارة المعبد المهجور لا تزال تنبض بما يشبه نبض الحياة، وقلت لنفسي إن المكان الذي ينهل من عبقرية الفن لا وجود للصحراء فيه»[٢].

لا يمكننا الوفاء بحق شارل بلان لأنه كان أول من أدخل فن أبيدوس الرائع إلى الأدب الفرنسي حتى إن مارييت نفسه لم يوفه قدره[٣]، وأعرب مرارًا عن أسفه لغياب هذا العالِم القدير. ويا له من مكسب هذا الذي كان سيناله من تبادل الأحاديث الهادئة معه. غير أن المدير العام لهيئة الآثار كان مأخوذًا بدوامة الاحتفالات، ورافق الإمبراطورة أوجيني وإمبراطور النمسا وكان مكلفًا بإرشاد أصحاب الجلالة خلال زيارتهم لمعابد طيبة والجيزة، إلا أن هذا الشرف قد أنهكه وكان من اليسير علينا - من خلال مراسلاته - اكتشاف أنه كان يفضل، بدلاً من مرافقة ذوي الألقاب، الجلسات الهادئة المثمرة مع العلماء والفنانين مثلما كان يفعل سابقًا مع إرنست رينان.

إلى جانب شارل بلان، كان الوفد الفرنسي يضم شخصين أسعدهما التعرف به بطريقة غير رسمية، وهما المهندس الفرنسي فيلكس تينار Félix Teynard (1817 - 1892) الذي ألف الأطلس المصور الكبير عن آثار مصر والنوبة، وفرانسوا لونورمان François Lenormant (1837 - 1883) معاون أمين مكتبة المعهد وابن رفيق شامبليون وأحد جهابذة ذلك الزمان. وكان لونورمان قد نشر للتو «موجز التاريخ القديم للشرق» Manuel d'histoire ancienne de l'Orient و«أعمال الفن القديم الخالدة» Chefs-d'-uvre de l'art antique (1868) وكان يستفيد من رحلته لاستكمال

(١) أطلق شارل بلان على رسمه اسم «سيتي الأول يتلقى ولاء أقاليم مصر» وقد ذكر هذا التفسير في تعليقه. وفي الواقع فالشخص الجالس على العرش هو أوزوريس وتقف أمامه الإله مات إله الحقيقة والإله رومبات إله السنة. ومن خلفه وعلى نفس الهيئة نجد إيزيس زوجة أوزوريس وامنتات إله الغرب ونفتيس إله الأموات وشقيقة إيزيس. إلا أن هذا الخطأ في التفسير لا يقلل من دقة وجمال تقديره الفني.

(2) Voyage de la Haute-Egypte p. 266.

(٣) في برنامج الرحلة الذي وضعه مارييت وسلم نسخة منه إلى كل مدعو، نجد في ص ٧٠ إلى جانب الوصف الطوبوجرافي ما يلي: «كل ما يوجد في المعبد ويحمل اسم سيتي سيلقى إعجابكم. وعلى العكس ستجدون تماثيل رمسيس متواضعة وربما كانت أحياناً أقل من ذلك».

أبحاثه عن الحيوانات المستأنسة لدى المصريين[١]. لسوء الحظ لم يجد مارييت وقتاً إلا بعد عودة الوفد. كتب في ٦ ديسمبر ١٨٦٩ إلى شقيقه إدوارد يقول «لا أستطيع تكوين جمل كبيرة، لقد وصلت لتوي من صعيد مصر ومن السويس ومن سقارة وبعد صحبة العديد من الإمبراطورات والعديد من الأمراء ومن الوزراء لدرجة أنني لم أعد أعرف أين أنا. لقد فقدت رأسي وساقي أيضًا.. إن الضيوف الأوروبيين انهمروا علينا حتى إنني لم أكد أراهم. إلا أن من بينهم العديد ممن كنت أتمنى لقاءهم في ظروف أفضل»[٢].

لكن كيف السبيل إلى لقائهم في هرج احتفالات الإسماعيلية. فقد كان المنظمون غرقى في خضم هذا الحشد الهائل وفي تيه من الوفود التائهة. في هذه المدينة الخشبية وليدة الأمس، أقام أكثر من ألف من المدعوين الأوروبيين ومئات من كبار الشخصيات المسلمة من جميع أراضي الإسلام حاملين سجادهم وأسلحتهم ولوازم معيشتهم ونساءهم وحاشيتهم وجمالهم وخيولهم وأغنامهم، أي ما يقرب من ثلاثين ألفًا من العرب المقيمين في الخيام أو المعسكرين على شاطئ بحيرة التمساح. رسم لنا شارل بلان وصفًا شائقًا وممتعًا لبابل، حيث تتعايش كافة الأجناس وكافة اللغات وكافة ألوان البشر. «في ضواحي المدينة المؤقتة كنا نرى المطاهي الضخمة، المطاهي الخاصة بالشرهين العمالقة حيث كانت تطهى قطعان الغنم التي كانت تصل صباحًا لتؤكل مساء، طوال ثلاثة أيام على نفقات الوالي. وهنا وهناك المآدب المجهزة لخمسمائة شخص في الهواء الطلق ولكن في الظل، ويقوم على خدمتها طاقم لا يُحصى. ووصلت سفينة من فرنسا تحمل شحنة من النبيذ عالي الجودة واكتست الرمال بالزجاجات الفارغة.

---

(١) ملاحظات تم تقديمها إلى المعهد بمساعدة دكتور هامي وهو أيضًا عضو في الوفد الفرنسي «حول الحيوانات التي استخدمها قدماء المصريين في الصيد وفي الحرب، حول الخيل في زمن الإمبراطورية الجديدة» (وقائع جلسات أكاديمية العلوم ١٨٧٠) - في الأطلس المصور لفليكس تينار انظر المراجع الخاصة بالفصل الثاني ص ٢٥٥ أن هذا الدفتر الفخم الذي طبع منه عدد قليل من النسخ والذي تم إهداء نسخة منه إلى القيصر نيكولاس الأول يتكون من ١٥٠ لوحة مستمدة من الصور التي التقطها الكاتب الذي عزم على «تكملة» كتاب «وصف مصر». زار تينار مصر مرتين، الأولى في عام ١٨٥١ والثانية في ١٨٦٩ ونشر أخبار رحلتيه في الصحيفة. ويعد - هو ومكسيم دي كام - أول مصورين التقطا مجموعة صور متكاملة عن مصر والنوبة.

(٢) «رسائل وذكريات خاصة» Lettres et souvenirs personnels نشرها ادوارد مارييت ص ٤٨ من الممكن أن نظن أن لبسيوس ودوميخان ليسا ممن ذكرهم مارييت في هذا المقام، انظر في ما سبق ص ٢٣٥ .

أما بقية أنحاء المدينة فكانت مشهدًا لا يُنسى، خليط من البشر ما بين أصفر وأسود ونحاسي اللون وقطعان من الجمال والحمير والفرسان والعربات، سوق مثل سوق سانت كلوت من ثلاثين ألف عربي تحت سماء مصر»[1]. إلى جانب المدعوين المتأنقين من أمثال مرتادي بوكي كلوب، نجد العلماء من «رجال الدين القادمين من بلاد فارس»، والأتراك العظماء الذين يتحركون ببطء وأطفال القاهرة أنصاف العرايا، والدراويش الذين يرقصون، والعوالم والشيوخ والفلاحين والبدو، كما نجد أيضًا «المشتبه فيهم وتجار العطور والطرح والمغامرين الذين حضروا في الزحام ليتمتعوا بولائم الخديوي»[2].

أنندهش بعد ذلك من رؤية الوفد الفرنسي الذي تفككت أوصاله وتاه وسط الزحام والذي أثقله فيض الرفاهية وكم الفوضى، والذي كان يفتقد إلى الضروريات والذي أنهكه البذخ المفرط.. أنندهش من رؤيته عائدًا من هذه الاحتفالات بانطباعات متداخلة مشوشة؟ «إنه التيه كما كتب فرومنتان... فالمعهد الذي تقطعت أوصاله يهيم من اليمين إلى اليسار»[3]. فلنسع على الأقل - في هذا الخضم المتلاطم - إلى العثور على عاشق الصحراء والساحل.. الرقيق الذي كتب «دومينيك».

****

(١) «رحلة إلى صعيد مصر» ص ٣٤٩ أراد الخديوي أن يجمع حول الإسماعيلية شرائح من جميع الفئات التي تكوّن مملكته.

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٠

(٣) «كتب فرومنتان يقول: إن كثيرًا من الفرنسيين ظهروا في ١٨ نوفمبر. ظهر البعض بعد أن عانى من عدة كوارث. فقد تقاذفت أمواج البحر بعض السفن لمدة ثلاثة أيام ولم يروا شيئاً من بورسعيد ولا من الإسماعيلية، والبعض لم يجد له ملجأ إلا الشاطئ واضطر إلى المبيت على الرمال والآخرون وصلوا إلى البر على ظهر مراكب صغيرة تاركين وراءهم كل شيء، من أمتعة إلى آخره. ولم يجدوا طعامًا ولا شرابًا ولم تغمض جفونهم، وهناك المرضى والمحبطون والمنهارون...» (يوميات السفر Journal de voyage، لويس جونز ١٨٨١ ص ٣١٦ و٣١٦).

الفصل الخامس

أوجين فرومنتان Eugène Fromentin

I

«طالما حلمت، أنا أيضًا، بهذا البلد الذي تعيشون فيه، لقد تجولت كثيرًا في أنحائه بصحبة الرحالة الذين وصفوه. وها أنا ذا أتذوق سحره – بعد رحلتي[١] الأخيرة – وظللت لمدة ٢٤ ساعة وحيدًا أسرح بخيالي إلى حيث أنت – فلتتشجع يا صديقي، تشجع! وإني على اقتناع مثلك تمامًا – لأنني اقتنعت على الطبيعة وفي بلد يقال إنه يشبه قرى صعيد مصر – إن ماريلا معلم لم يسبق له مثيل؛ إلا أنني أتفق معك على أنه لا يزال أمامنا الكثير من بعده. وأشعر أن ما ينقص الرحالة الرسامين هي هذه الصفة المزدوجة النادرة فيما يبدو، وهي الصبر والصدق إزاء الطبيعة. إن لديكم الوقت لتتحلوا بالصبر ولقد أثبتم بالفعل أنه في إمكانكم التمسك بالصدق أمام نماذج ما تنقلونه»[٢].

هذا هو نص الرسالة التي بعث بها أوجين فرومنتان البالغ من العمر تسعه وعشرين عامًا، في ٢٥ يناير ١٨٤٩، إلى نارسيس برشيل الذي كان قد رحل في التو إلى مصر. إن هذا الكلام الطيب الذي يوجهه إلى زميل الورشة يمكن أن ينطبق عليه، إذ إنه دومًا يتحلى بالصبر ويفيض منه الصدق أمام الطبيعة.

بعد شعوره بالملل من المناظر التقليدية شأنه شأن معلمه ريموند – الذي كان أيضًا معلم برشير – نجده يشيد بالحس التحرري لدى ماريلا[٣]. يا لها من مرات عديدة اتجه فيها فكره، خلال العام الذي قضاه في الساحل، إلى صالون عام ١٨٤٤، فقد كان

(١) رحلته الثانية إلى الجزائر (١٨٤٧-١٨٤٨)

(2) E. FROMENTIN, Correspondance et fragments inédits, publiés par Pierre Blanchan, Plon, 1912, p. 2

(٣) انظر الجزء الأول ص ٢١٤

اكتشافًا بالنسبة له. كيف له أن ينسى لوحات «قرية بالقرب من رشيد» Village près de Rosette و«مـديـنة مـصـرية في لحظة الغـروب» Village d'Egypte au crépuscule و«ذكـريات شـاطئ النيل» Souvenir des bords du Nil؟ والآن ها هو الفنان النزيه الأصيل الذي يكبره بعدة سنوات يتوفاه الأجل وهو في السادسة والثلاثين دون أن يتمكن من استكمال مسيرته وفرض أسلوبه وقوانينه. ويتوه فرومنتان لفترة ما. وخلال فترة تخطيه المؤلمة وحساسيته المفرطة التي نشعر بصداها من خلال مراسلاته، ألم يعثر على معلم ليشاركه القلق الذي يعاني منه؟ على طول رحلتيه السابقتين في الجزائر تكشف الشرق أمامه، وفي هذا الشرق يحاول الهروب ونسيان قلقه وترجمة نشوته والتلاشي والتلاقي في آن واحد، وفيه يهرب وفيه يعبر عن نفسه. ولكن كيف؟ رباه! إن تمكنه من ريشة كتاباته يفوق تمكنه من ريشة رسوماته، كما أنه في نهاية الأمر شاعر أكثر منه رسامًا. أي النهجين العظيمين سيتبع، نهج ديكان أم نهج ديلا كروا؟ هل سيتمكن من الإفلات من تأثيرهما والتخلص من وميض شهرتهما؟ نعم، إن ذكرى ماريلا هذا المعلم الشاب الهادئ المتواضع، ذي التوازن المتعقل والشموخ الراسخ والأسلوب المتناغم، هي التي ستقود خطاه – بعد وفاته – وتدعمه وتشجعه لفترة ما.

في إحدى صفحاته الأكثر تشويقًا من كتابه «سنة في الساحل» Année dans le Sahel (1858)، أجرى مقارنة[١] بين المستشرقين الكبار الثلاثة في هذه الفترة لكن دون ذكر أسمائهم، وهم «رسام التاريخ» (ديلا كروا) و«رسام النوع» (ديكان) و«رسام اللوحات الطبيعية» (ماريلا)، ولا يصعب علينا معرفة اتجاه ميوله. ويقول عن ماريلا «إن أعماله تعتبر ترجمة بديعة ورائعة لرحلة كان بمقدوره هو نفسه كتابتها، لأن لديه الملكة التي تمكنه – عند الكتابة وعند الرسم[٢] – من إبراز نفس دقة الملاحظة ونفس حيوية الأسلوب

---

(1) Une année dans le Sahel, éd. Plon, p. 229-235

(٢) كان ماريلا يتمتع – مثل فرومنتان – بأسلوب طبيعي واضح، جميل ومعبر. وفيما يلي رسالة كتبها من القاهرة في عام ١٨٣١ وهو في العشرين من عمره «(المدينة) تمتد أمامنا كقطع من الدانتلا تزين بنيانًا من الطراز القوطي يقع أسفل جبل وعر يميل إلى البياض تعلوه قلعة ذات أبراج وقباب بيضاء على النمط التركي. من ناحية يرنو البصر إلى الجبل وإلى الصحراء القاحلة البائسة ليصطدم بمدينة القبور وشوارعها وبيوتها وأحيائها وقصورها التي لا يعيش فيها من السكان الأحياء إلا بعض الزواحف والطيور الوحيدة والكواسر الضخمة المنتصبة على المآذن كحرس لساكنيها التعساء. ومن الأخرى نحو النيل، يمتد البصر على طول الحقول الخضراء اللامعة (على الأقل في الموسم الذي كنا فيه) ويلتقي =

والتعبير. إلا أن من بين كافة هذه الأعمال القيّمة، نجد أن ما ظل أكثرها وميضًا وأكثرها روعة وأكثرها رسوخًا في الذاكرة هي لوحات صغيرة دون توقيع ودون ملامح واضحة، مثال «غروب» على شاطئ النيل أو «حجاج» فقراء سائرون في قيظ أرض بلا ماء. ملحوظتان عامتان وانطباع عن مدى تملك القلق الليلي منه والهلع من الوحدة القاتلة.. ربما كان هذا هو أقيم ما تركه لنا لتخليد ذكراه وأعظم ميراث للفن الحديث. إن «رسام الطبيعة» ولد رسامًا للشرق ويقال إنه كان يشبه العرب، أما «رسام النوع» فكان يتذوق بلاد الأتراك و «رسام التاريخ» كان يميل إلى الذوق الإيطالي. ولتكرار ما سبق أن كتبه في رسالته إلى برشير، فإن ماريلا «المصري» هو نموذج «الرسام الرحالة» أي نموذجه الخاص[١].

وازداد ابتعاد فرومنتان عن الرومانسية وأسلوبها المفخم ومغالاتها وتناقضاتها. فهو ينتقل من الأحمر إلى الرمادي ومن أسلوب ديكان وديلا كروا إلى كورو. وخلال إقامته في الجزائر تعلم الإحساس بأحادية لون القرى وبتدرجاته في الأفق[٢]. إن الشرق الخشن البراق لم يعد ملكه.. فقد ولى الوقت الذي كان يستطيع فيه إدموند أبو توجيه اللوم إليه لانقياده وراء زيم Ziem ولإطلاقه «الألعاب النارية» في الصحراء ولاصطفافه بين «ضحايا ديكان»[٣]. ولننظر بالأحرى كيف أشاد تيوفيل جوتييه في صالون ١٨٦٥ بلوحته «صيد

= من حين لآخر ببقايا مياه الفيضان التي تومض وسط هذه الخضرة. والحدائق ذات الأشجار الكثيفة السوداء التي يشق سماءها آلاف من أشجار النخيل بباقات البلح الحمراء والذهبية. ووسط هذا التناقض نجد المدينة المتناسقة تماماً مع هذه الطبيعة الغريبة، عبارة عن تجمع كبير للأبنية ذات السقوف المسطحة التي يشوبها سواد الأدخنة والمغطاة بالأتربة. ومن حين لحين نرى في الأفق مبنى جديداً أبيض اللون لامعًا ينبثق من وسط هذه الأبنية الرمادية ومن هذه الشوارع الضيقة المظلمة التي يرتادها شعب قذر غير أن ملابسه ذات ألوان زاهية. ووسط هذه الأتربة وهذا الدخان الأزرق تشق آلاف المآذن الهواء الطلق، كما تفعل أشجار النخيل وسط الحدائق، مآذن تغطيها الزخرفة العربية وشرفاتها مزينة بقطع من الدانتلا. إنه لمشهد بديع يبعث البهجة في نفوس الرسامين». (جومو «ماريلا» - كليرمون - فيران - 1884 ص ٣٣ و ٤٣ انظر أيضاً تيوفيل جوتييه «بروتريهات معاصرة» Portraits contemporains ص ٢٣٤ وص ٢٦٤ وأيضًا L?Orientالجزء I الص ٣٣٤ ، ٣٣٥.

(١) كان فرومنتان يلجأ كثيراً إلى الحل الوسط بين ماريلا وديكان ليتجنب «الموضوع البحت» و«الطبيعة البحتة» فيحيي الطبيعة بالإنسان ويحيط أعماله بمساحات من الفضاء والسماء.

(٢) كتب شارل بلان «ما كان يفضله في هذه الطبيعة الأفريقية، ليست الأحداث الشائقة ولا القرى ذات الأشجار الكثيفة ولا غابات النخيل ولا عيون الماء النادرة.. وإنما بتفرد ملحوظ كان يهوى الوحدة الميتة والصحراء متناهية الأطراف التي لا ظل فيها والسماء الخالية من السحب».

(٣) صالون ١٨٥٧ «المونيتور يونيفرسال» عدد ٥ سبتمبر ١٨٥٧ .

مـالك الـحزين» Chasse au héron من خـلال الـسـحب البيضـاء وصـفـحـات المياه المتـلألئة بالومـيض والخـيول الأصـيلة وثنايا الأثواب الحـريرية، تنعكس الرؤية الصـافيـة الفـضيـة الشفافة لبوننجتون»[١]. حقاً إنه لمديح ولكن يفيض منه الأسى. فإن جوتييـه الطيب يفضل الشـرق الرومـانسـي وتناثر أنواره الذهبيـة وتصـادم ألوانه وبريقـه وتدرج أضـوائه، وفي صـالونه التـالي الذي أقـيم عـام ١٨٦٦ وأمـام لوحـتي «بركـة الوادي» l-Etang dans les Oasis و«قـبيلـة بدوية تسـيـر نحـو التل» Tribu nomande en marche vers le Telle، أشـار إلى الخـبو التدريجي لسمـات الطبيـعة الأفريقيـة التي غلفـهـا فرومنتان بالضـبـاب الوردي المائـــل إلى الزرقة والتي تكاد تشبه الطبيعة النورماندية الخضـراء[٢]. إنه يبتـعد الآن تمامًا عن ماريلا ولمساته الـواضـحـة وزهو ألوانه؛ ذلك لأنه يميل إلى التناغم وليس إلى تألق الألوان.

على هذا الصـعيد نجد اللوحـات المستمدة من مصـر[٣]. تناسق ودقة وتوازن وعذوبة.. تلك هي الكلمات التي تنسـاب تحت ريشـة الكتـابة عندمـا نسـعى إلى تحـديد سـحـر لـوحـة «قوارب شراعية على النيل» Canges sur le Nil أو لوحـة «ضـفـاف النيل» Bords du Nil المعروضتين اليوم في متحف اللوفر والذي نجح فيهما – على حد قوله – «في نقل الواقع على حـاله»[٤]. ولا يرجع ذلك إلى عدم إحسـاسـه وتأثره بتبـاين الضـوء، لأننا سنقـرأ في دفتره وصفًا خلابًا لغروب متوهج على النهر بالقرب من المنيا[٥]، بل إلى ميله إلى التناغم الهادئ للألوان ودرجاتها وتدرجها بدلاً من تصارعها، وأسلوبه المرن يتضح في استخدام الألوان المعتدلة، فهو ينفر من «الألوان الصـارخة»». ونرى أن بعضًا من لوحاته المصرية

---

(١) «مونيتور يونيفرسال» عدد ٢٢ يوليو ١٨٦٥

(٢) المصدر السابق ١٧ يوليو ١٨٦٥

(٣) «ساقية على ضفاف النيل» Sakieh au bord du Nil و«مدينة على ضفاف النيل» Ville au bord du Nil و«معدية على النيل» Bac sur le Nil (1871) و«النيل» Le Nil (1876) و«ذكريات اسنا» Souvenir d-Esneh (1876). وفي دراسته حول فرومنتان عام ١٨٨١ نشر لويس جونس في ص ٢٩٨ لوحة «ضفاف النيل» Les bords du Nil، وثلاث لوحات عن مصر، في ص ٢٥٧ وص ٣٣٩ «حصاد قصب السكر» Récolte des cannes à sucre و«فلاحان يعملان بالشادوف» Deux Fellahs man-uvrant le chadouf انظر كتالوج «معرض اعمال اوجين فرومنتان في المدرسة الوطنية للفنون الجميلة» مارس ١٨٧٧، باريس ١٨٧٧

(4) Journal de voyage en Haute-Egypte. dans le volume de L. Gonse. Eugène Fromentin. 1991. p. 331

(٥) يوميات رحلة في صعيد مصر، ص ٢٧٢

تأخذنا إلى السيمفونيات الفضية لوكور الخفيفة والخافتة في آن واحد. إن هذا الرومانسي قد تحول إلى كلاسيكي.

من جهة أخرى، ساهمت فترات إقامته المتكررة في الجزائر في مساعدته على فهم طبيعة أفريقيا. فلم يُؤخذ فقط - مثل الرحالة العابر - بسماتها الظاهرية المبهرة والسطحية ولكنه بحكم وجوده الطويل تمكن من سبر غور طباعها الدائمة. إن ما يتمتع به العربي من سمات إنسانية وعامة وخالدة على المستوى الطبيعي أو الرعوي[1] - وليس فقط بريق الأسواق الخلابة - هو الذي استرعى ريشة رسمه وريشة كتابته. وفي هذا السياق توافقت ميوله في رحلته إلى مصر مع أحد مرافقيه الذي لم يكُن يكِنُّ له حبًا كبيرًا. ويكتب شارل بلان في «جازيت دي بوزار» عام ١٨٦٦ قائلاً: «إن علم دراسة خصائص الشعوب قد يكون إيجابيّاً شريطة عدم استغلاله لدرجة إحلال الثوب محل النفس والرث محل الجوخ. واليوم أدت الرحلات التي تفد إلى الشرق إلى خلق تخصص يعفي نوعًا من الفنانين من بذل المجهود المضني، ويجد صداه في الرسومات السهلة التي تعثر على ضالتها بسهولة شديدة»[2]. ويستعد فرومنتان للسفر إلى مصر بعد شفائه من حالة التشكك والوهن التي كان يعاني منها. ويتجلى أسلوبه الجميل في Maîtres d-autrefois أنه على حد تعبيره - ليس «رحالة يرسم» ولكنه «رسام يسافر». فهو يجتهد «لاستخلاص الجمال من غربة الأطوار»، وبما أنه الآن معادٍ للرومانسية فقد أصبح معادياً للسحر الخلاب.

عندما يتعلق الأمر برسوماته (وهي أصدق مرآة له مقارنة بأي فنان آخر)، نستطيع استخلاص أساليبه المتعددة. إلا أن التغيرات التي تصيب الفنان تعكس عدم استقرار شخصية الإنسان. ويقول مكسيم دي كوم: «إن هذا الجسم العليل له صفات مفرطة الحساسية. لقد كان سريع الغضب شديد التأثر يجمع ردود أفعاله ويحرص عليها

(١) انظر «ذات صيف في الصحراء» Un été dans le Sahara الطبعة ٢٤ ص ٥٩ و٦٠ - إنني لا أتذوق إلا الأشياء الدائمة ولا أتوق شوقاً إلا إلى ثوابت الأمور» (سنة في الساحل، ص ١٠٨). سيتمادى هذا الميل إلى آخر مداه متوازياً مع الصراع ضد إغراءات الشرق بكافة أوصافها وحكاياته الطريفة. انظر في هذا الشأن النقاش الكبير الذي دار مع فيندال Vandell في «سنة في الساحل، ص ٢١٣-٢٢٩ .

(2) Gazette des Beaux Arts. 1866 tII, p. 44

لتخصيب أعماله... وحرمته شخصيته المثالية من الشعور دومًا بالرِّضا.. وربما كان لصحته تأثير، فقد كان معتلاً وأحيانًا مريضًا وقلقه الطبيعي في تزايد. وكان يفقد حماسه ولا يعود إلى العمل إلا بمشقة ومثلما نقول، كان في حاجة إلى إعادة التكيف»[١].

وهناك سبب آخر ألا وهو أنه لم يكن لديه الثقة في ريشة رسمه. ويعترف لنا هو نفسه في مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه «ذات صيف في الصحراء» ويقول «وهكذا دعاني عدم نضج فني إلى البحث عن عمل آخر كما أن صعوبة استخدام ريشة الرسم حثتني على محاولة استخدام ريشة الكتابة»[٢]. ولا نرى هنا أي تردد، بل الثقة اللحظية والنجاح الفوري. أيكون إذًا قد أخطأ فيما يتعلق بموهبته؟ أيكون هذا الشاب الذي كان يكتب الشعر في صغرى جرائد لاروشيل، والذي كان يحضر في باريس بعد ذلك دروس ميشليه وكينيه، أيكون قد ضل طريقه وهو يرتاد ورش ريموند وكابا؟ ألا يكون كاتبًا بالسليقة ضل طريقه إلى الرسم؟

لن نذهب بعيدًا إلى هذا الحد. وبالنسبة لتيوفيل جوتييه التلميذ المتواضع في متاهة الرومانسية، يمكننا التأكيد دون تردد بأنه قد ضل طريقه في بادئ الأمر ثم عثر على ضالته في الساحة الأدبية. إلا أن الأمر يختلف مع فرومنتان، ومثلما كتب سانت بوف «فله ملكتان، إنه رسام بلغتين، كما أنه ليس هاوياً بل فنان عتيد قاس ودقيق في الاثنتين». ويتمتع بنظرة الرسام وبذاكرته، ولا يفوقه أحد في حسن النظر ودقته. أما التعبير فيتهادى إليه بملكيته في آن واحد.. يا له من سعيد ذلك الذي له الاختيار!

إذا قلنا إن «جوتييه رسام تحول إلى كاتب وكان مصيبًا»، نستطيع إذًا أن نقول إن «فرومنتان كاتب تحول إلى رسام وجانبه الصواب» ذلك لأن ملكته الفنية تفوق بلا حدود ملكة جوتييه، كما أن أعماله الفنية أغزر وأنجح. وإذا كانت أعماله لم تتجاوز أكثر من أربعة أجزاء[٣]، فإنه قد عرض طوال ثلاثين عامًا وفي كافة الصالونات أعمالاً فنية فائقة

(1) Souvenirs littéraires, vol II, p. 276

(2) Un été dans le Sahara, p. XI

(3) Un été dans le Sahara; Une année dans le Sahel; Dominique, Les maîtres d'autrefois.

الجودة. ذلك لا يمنع من أنه كان وسيظل كاتبًا مرموقًا، وكانت موهبته ككاتب هي التي عاونته على التصدي لضربات الحياة. ولا تمثل لوحاته الآن إلا قيمة تاريخية، فإن ريشته المتناسقة والمتميزة تجعله يحتل – ضمن باقة الرسامين المستشرقين – مكانة فريدة؛ وفي زمن كان فيلكس زيم وتيودور فرير وتورنمين يسعون فيه إلى الأسلوب السهل والجمال الخاطف، رأينا أسلوبه الرصين الدقيق وذوقه ورشاقة ريشته وقيمه النادرة.. مما أضفى عليه مزية متفردة. إلا أن أعماله الأخرى: Centaures, Fauconnier, Curée سرعان ما طواها النسيان إذ إنها لا ترقى إلى «ذات صيف في الصحراء» (١٨٥٦) و«سنة في الساحل» (١٨٥٨).

من خلال هذين الكتابين اللذين نشرهما وهو دون الأربعين، تتضح ملكاته فجأة كعَلَم من أعلام النثر الفرنسي. فلا نجد عبارة سطحية ولا نعتًا أجوف ولا كلمة مبهمة ولا تصنّعًا ولا انفعالاً، بل نجد أسلوبًا غير مسبوق يمتاز بالعبارات الموزونة والصيغ البسيطة والفكر الدقيق. ونراه في بعض الأحيان يتعدى جوتييه نفسه. وكتب جونس يقول عن كتابه «ذات صيف في الصحراء»: «إنه وصف للصيف الأفريقي بشلالات أضوائه وألوانه وبهدوئه المميت وبتعبه الكئيب وخشونته وبأشعاره الغريبة. أما «سنة في الساحل» فهي الجزائر الباسمة الخضراء والسماء المتغيرة الملبدة بالغيوم والأساليب المتنوعة وفُجاءة الضوء وجبالها العالية والآفاق المطموسة الهاربة»[١]. والآن أين مصر؟ وندرك أهمية هذا السؤال.. إن ثلاثية فرومنتان لم تكتمل بعد، فقد كان لديه النية في استكمال لوحتيه عن أفريقيا الشمالية وإضافة الثالثة: الحياة الرعوية على ضفاف النيل.

لهذا السبب تفرغ لكتابة يومياته التي ظلت لنا. ونشعر بالأسف لعدم استكمال هذا العمل، إلا أننا سننتهز هذه الفرصة للتغلغل في خفايا مهنته وفي تقنية أسلوبه ككاتب وفي فنه كرسام. وعلينا تذكر أن نقطة البداية لكتابي «الصحراء» و«الساحل» كانت سلسلة من الرسائل التي كتبها في الأماكن الطبيعية ثم أعاد صياغتها في وقت لاحق وعلى مهل، شأنها شأن أسلوبه في رسم لوحاته. كان يُدوّن مشاعره في عجالة على صفحات دفتره ثم

(١) المصدر السابق ص ١٣٦

يتناساها. ولكنها ليست الحقيقة. إذ إنه كان يتركها تنساب في أعماق الذاكرة وتتصفى وتتلون مع بعضها البعض، ثم يسترجع هذا الطوفان من الذكريات، غالبًا على دفعات[1] حتى يصل إلى النص النهائي. ومن هنا نرى أهمية الملحوظات التي كان يُدوّنها عن رحلته إلى مصر.

عندما يتعلق الأمر بفرومنتان، علينا (مثلما نتحدث عن شاتوبريان ونرڤال وفلوبير وجوتييه) تقييم تجربته المصرية داخل مجمل تطوره؛ وفي إطار سيرته الثقافية، دراسة ردورد أفعاله وطباعها ونتائجها؛ ثم تقدير أعماله في حد ذاتها. لكننا لم ننته بعد، يبقى علينا تقييم هذه الرحلة في إطار تاريخ الفرنسيين في مصر. إلى جانب قيمتها النفسية والأدبية، فلمدوناته قيمة تاريخية فهي رؤية للعين، وتأتي في حينها لتكمل ما ذكره لنا الآخرون عن مصر الخديوية، وتتيح لنا فرصة تكملة لوحات احتفالات السويس المهيبة؛ وسوف نتعامل معها من خلال هذا المفهوم المزدوج.

II

لدى سفره إلى مصر، بناء على الدعوة التي سعى له فيها شارل إدموند، لم يحمل فرومنتان معه لا ريشته ولا ألوانه واكتفى بدفتر. «هناك لن نفعل شيئًا، لن نقرب حتى علب الألوان، نرى أن ما كان يشغله في سفره هذا هو حسه الأدبي وليس الفني. إذ إننا لسنا في حاجة إليها. أحمل معي فقط ألوانًا مائية وبعض الأقلام وشيئًا يساعدني في الكتابة. سأكتب أكثر مما أرسم»[2]. أعلم أن البرنامج الذي وضعه له نوبار باشا لن يتيح له وقتًا للرسم، إلا أنه لم يكن يتصور حتى الصعوبات التي ستواجهه عند الكتابة، ومنها سرعة مراحل الرحلة التي تتحول إلى هرج ومرج والعدد الكبير الصاخب الذي يحول دون التأمل

---

(١) قارن بيير مارتينو بين النص الأصلي لكتاب Une année dans le Sahel الذي ظهر في Artiste عام ١٨٥٧ وذلك الذي نشرته Revue des deux Mondes (1858) ونص الطبعة الأولى (١٨٥٩) الذي نشرته Revue Africaine عام (١٩١٠) ص ٥ انظر أيضاً في نفس المجلة (١٩١٠) ص ٣٤٣ - ص ٣٩٢ الدراسة التي قام بها نفس الكاتب عن أسلوب فرومنتان في الوصف (الاختيار واسترجاع الذكريات وعناصر الوصف وكيفية تكوين اللوحة وكيفية تناول الموضوع وإجراء التعديلات).

(٢) رسالة إلى ش ابوسون في ٦ أكتوبر, ١٨٦٩

Correspondance et fragments inédits. publiés par Pierre Blanchon Plon. 1912. p. 223.

وفوضى القافلة التي تحولت إلى غوغاء واهتزاز الآلات الذي يمنعه من الكتابة على الجسر والحرارة الخانقة وجحافل الذباب التي تهاجمه في صعيد مصر. وكتب إلى زوجته من المنيا في ٢٤ أكتوبر ١٨٦٩[١] يقول: «ذات صباح والباخرة تسير، جلست في الظل وهو ظل نادر يبحث عنه الجميع وبالتالي كان مزدحمًا، دوّنت في عجالة كل ما يحدث وكل ما أراه إلا أنني لم أستطع الرسم بسبب الاهتزاز الذي سبق أن حدثتك عنه ولكني على الأقل حصلت على ما يفيدني في لوحاتي، إنه حقاً غير مكتمل إلا أنه سيفيد ذكرياتي. لو كانت حالتي الصحية تسمح لكنت ألحقت بالأضواء وبالألوان التي اختزنتها هذا المرور الخاطف أمام العجائب والذي أرى أنه لن يكون بلا فائدة». أي فائدة يتحدث عنها؟ هنا نسجل عليه اعترافًا، إذ إن فرومنتان يخزن ذكرياته خفية بهدف تكملة الثلاثية بعد «الصحراء» و«الساحل».

إلا أن الإحباط بدا عليه بعد عدة أيام في الأقصر. وكتب إلى زوجته في ٢٩ أكتوبر[٢] «لا إخالني سأكتب وسأتحدث عن ذلك لاحقًا، وما يثيرني هو أن الجميع ينتظرون مني كتابًا كما لو كنت شرعت فيه بالفعل. إن هذه السلسلة من الرسومات السريعة واللوحات غير المكتملة التي أتممتها في عجالة لن تكوّن بأي حال من الأحوال عملاً. فالعنصر البشري غائب تمامًا، فقد سمعت كل ما يقال ويصيح به الناس في جلبة المدن المصرية دون أن أفهم لا الفكرة ولا المعنى. بلا شك لقد تأخر الوقت جداً وتقدمت بي السن والأحداث تجري بسرعة فائقة»[٣]. حاولت زوجته تخفيف شكوكه ورفع روحه المعنوية، لأنه في الرسالة الأخيرة التي بعث بها إليها من القاهرة في ٢٥ نوفمبر يخبرها فيها بعودته، كرر ذات الحديث. «في ما يتعلق بالكتاب سنتحدث عنه أيضًا»[٤]. وها قد وصلنا إلى نقطة واضحة، فهو يدوّن أفكاره لغاية مزدوجة. وأي الرجلين في ذاته سيستخدم هذه الذكريات؟ الفنان أم الروائي؟ ربما كان الاثنان معًا؛ هو لا يدري... وينتظر.

(1) Correspondance et fragments inédits, p. 230

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٣

(٣) جونس - مصدر سبق ذكره - ص ٣٣١

(4) Correspondance et fragments inédis, p. 237

لن نطلب منه التوقف أمام المعابد أو المقابر، فالآثار يتركها إلى شارل بلان. ومنذ بداية الرحلة إلى صعيد مصر وهو يتخوف من البرنامج الذي وضعه ماربيت. «كل ما يتعلق بالآثار وببقايا التاريخ سنتوقف أمامه ونشاهده ونمعن النظر فيه. ولكن المناظر الطبيعية والعادات والأهالي والموانئ الساحرة ومنعطفات النهر.. كل ذلك ظنوا أنه لا يدخل في إطار الرحلة الاستكشافية التي يمكن أن يهتم بها الجميع. أما نحن الرسامين، فلا تأخذهم بنا رحمة ويجعلوننا نمر كالبرق أمام ما يخلب اللب»[١]. وعلى أية حال فللآخرين حرية التملي بالنظر إلى الماضي! إلا أن هذه الأحجار تصدم مشاعره، ونراه على استعداد للتضحية بمعبد بأكمله من أجل انعكاس صورته على صفحة الماء. ولنتصفّح دفتره.. سطر واحد عن فيلة وسطران عن دندرة وثلاثة عن إسنا وإدفو وصفحة واحدة عن طيبة (ولكنه كان يعاني من الحمى). ولم ينزل إلى أبيدوس لأنه (يخشى من ثماني ساعات أو عشر على ظهر الحمار)[٢]، كما أنه – نتيجة التعب أو اللامبالاة لا أدري – وهو واقف أمام الأهرامات لا يتفوه سوى بكلمة واحدة: «رائعة»[٣].

في المقابل – وهذا يوضح لنا ما يدور في خفايا نفسه – لا يمل من تكرار المقارنة بين مصر الرعوية أو الصحراوية «بالساحل» و«بالصحراء» في الجزائر. إن مدن الصعيد وأضواءها تحيي فيه في كل لحظة تقاربًا وتعارضًا مع شمالي أفريقيا. ها هي مثلاً أسيوط التي يحوطها الطمي وبيوتها ذوات الأعمدة وحوائطها الطينية وشوارعها الضيقة المتربة التي تقطعها الحمير مسرعة، وسط «ضوضاء وغوغاء لا توصف» يصفها بأسلوب شائق جميل، ثم يتوقف ويتأمل ويتساءل «لقد كان لدي فكرة غريبة؛ ليس هذا، إنه شيء آخر تمامًا، أكثر أهمية وأقل عشوائية وسماته الأفريقية أقل وسماته الآسيوية أكثر، إنها من أعمق اللوحات الشرقية»[٤]. وبعيدًا، وهو يتذكر غروب الشمس الذي يتهادى وراء خيالات المدينة «ذات المآذن التي تشق السماء وهي خيالات داكنة على سماء قانية» وكأنها لوحة

(١) المصدر السابق ص ٢٣١

(٢) جونس – مصدر سبق ذكره – ص ٣٠٦

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٩

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٢

خلفية على مسرح الأوبرا.. يشعر بالحنين إلى الطبيعة الأفريقية. «لم تكن هناك روابط فيما بين المشاهد، إذ إن كلاً منها منفصل تمامًا عن الآخر والأمر كله يختلف جذريًا عمّا نشاهده في الصحراء»[1]. وعلى العكس، أيقظت قنا المغلقة برياح الخماسين في نفسه ذكريات مدن الجنوب. «تتمتع قنا بسمات فريدة وهذا ما تخيلته في أسيوط. إن كل ما لم أجده هناك وجدته هنا، سواء كانت المدينة صحراوية أو أفريقية فإنها تذكرني كثيرًا بأغواط.. الشوارع الملتوية الضيقة والمنازل متعددة الطوابق والحوانيت الطويلة ذات الأسقف المغطاة بالجريد، والضباب الكثيف والرائحة الطيبة.. الخ». ولا تزال المقارنة ذاتها تلح عليه. «إن إسنا وقنا والأقصر وكل المدن الصحراوية التي شاهدتها.. كل ذلك ليس سوى «القصور» بشيء من التغيير والتعديل، مضافًا إليه النيل»[2]؛ ويذكره جبل أسوان بجبل الأغواط رمالاً وجرانيتًا[3] حتى إن صحراء الإسماعيلية متعددة الألوان توقظ في نفسه انطباعاته عن أفريقيا «إنها تشبه الصحراء الواقعة بين أغواط وعين مهدي، إلا أنها ذات رمال متساوية»[4].

بفضل تجربته الأفريقية، أصبح فرومنتان مهيئاً تمامًا لفهم مصر. وفي حقبة تفشت فيها النزعة الشرقية السهلة المجملة القائمة على الأفكار المشوشة الغريبة وعلى الإبهار الذي يعمي الأبصار وعلى الأمور المتعارضة والحكايات الصغيرة وتفاصيلها.. سعى إلى إعطائنا صورة صادقة ومتباينة عن البلاد، صورة عميقة ذات قيمة أبدية. لم يعادله كاتب في ما كتبه لنا عن وادي النيل.. في الخريف.. بخطوطه المنفرجة وبتربته المتسعة من جراء الطمي وبأنواره الحانية وبنسائمه الطيبة الرطبة. إن هذا الوادي يؤثر فيه ويثير شجونه لأنه يتوافق تمامًا مع ميوله الفنية ويلمس أوتار أحاسيسه.. إن الشخص الذي وصفناه ليس رسامًا بارعًا في استخدام الألوان فحسب وإنما هو ملحن يؤلف الأنغام؛ إن من يذكر دومًا «الأساتذة القدامى» وأسلوبهم السوي لهو مهيأ تمامًا لتلقي أساليب الجمال المتغيرة والبساطة الدائمة للطبيعة المصرية. من خلال الملاحظات التي دونها أثناء رحلته، كان أكثر

(١) جونس - مصدر سبق ذكره ص ٢٩٠

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٦

(٣) المصدر السابق ص ٢٩٩

(٤) المصدر السابق ص ٣١٠

ما يسترعي الانتباه هو هذا البحث المزدوج والمتناقض في ظاهره، ففرومنتان أسير درجات الألوان المتباينة – كما كان يطلق عليه صديقه أرمان دي مسنيل – لا يكل مطلقًا من العزف على أوتار الألوان العابرة، وتتمهل النزعة الكلاسيكية في استخلاص السمات العامة الدائمة. لم يحسن أحد إحسانه في وصف سحر أمسيات أكتوبر على النيل وفي رسم السمات المتأصلة للريف وللصحراء. مصر في نهاية فصل الصيف.. مصر في كل الفصول.. ها هو ما سجلته ريشة فرومنتان بجدارة.

يكفينا عرض عدة أمثلة، ها هو النيل لدى مغادرتنا القاهرة في ٢٢ أكتوبر. «ضفاف متساوية، حقول من الذرة الخضراء وعلى الأفق هضاب صفراء فاتحة اللون ونتوءات صخرية رمادية ليس لها شكل محدد. جاموس وأبقار بالقرب من الماء. ومن مكان لآخر وعلى حافة النهر، تتناثر القرى الصغيرة ببيوتها الطينية وأشجار النخيل التي لا تتعدى أصابع اليد. أما السماء، فلا مثيل لصفائها وطلاوتها وحنانها؛ والنيل مياهه عكرة أكثر من أي وقت مضى وتماثل الشوكولاتة الفاتحة. وتقوم الذهبية والصندل الذي يتبعنا بحرث هذا الطين السميك»[١]. وها هي اللوحة التي تصف لنا ضفتي النهر بعد بني سويف، من ناحية الشاطئ العربي «ولونه الضارب إلى البنفسجي الذي يتناغم تمامًا مع الأصفر الحارق وزرقة السماء»؛ ومن الناحية الأخرى الشاطئ الليبي المنخفض المائل إلى الاخضرار مع «احتمالية» وجود جبال بعيدة تكاد تختلط بالسماء ويذوب لونها فيها ولا يبقى منها إلا ظلال قممها الحادة المائلة إلى الزرقة. إن هذا «التوافق» يلمس أوتار مشاعر فرومنتان الذي لم يجد فيه هذا الشرق الفظ الحاد الذي رسمه الرسامون العابرون. ويدوّن من أمام المنيا في ٢٤ أكتوبر «على مرمى البصر لوحة فريدة بتناسق ألوانها، من درجات الأخضر إلى الرمادي إلى الحمرة الزرقاء لمياه النهر إلى زرقة السماء الحانية، وملابس الفلاحين السوداء أو البنية»[٢]. وذات الملاحظة يدوّنها من أمام منفلوط في اليوم التالي، «فوقنا السماء البيضاء وتحتنا النيل الساكن الذي تشبه مياهه صفائح القصدير. لا وجود للون النحاسي ولا للذي تشوبه الحمرة.. فقط اللون الأبيض وحمية ساعة الزوال. ويتهادى قارب أسود بيننا وبين القرية يعكس شراعه شعاعًا من الضوء الدافئ، وتنساب أشعة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦٦ علينا تقريب ذلك من وصف تيوفيل جوتييه. انظر ما سبق ص ٢٠٥

(٢) جونس – مصدر سبق ذكره ص ٢٧٤

الشمس من بعيد لتلامس أعلى المنحدرات وزوايا أسقف المنازل وقمم المآذن وشرفاتها المزخرفة الجميلة. وميض من الضوء الساطع الفضي ينير صاري القارب الأسود[1].
وأخيرًا يصف في ٢٧ نوفمبر وهو في الأقصر، ساعات الصباح بدقة متناهية، «النيل يشبه المرآة وردي اللون يميل إلى الزرقة الهادئة.. مياه شديدة النعومة.. ولا نجد سوى شراع أبيض صغير يتهادى ليشق هذه اللوحة الهادئة. وتنساب المياه غزيرة فاتحة اللون صافية شفافة هادئة الصفحة ونقاؤها واضح. لا نرى سوى الصفاء ومياه وفيرة تزيل الخشية من الجفاف. ولا أثر للون الأحمر، فقط تبدو بقعة أو بقعتان من اللون الأسود والبني والأزرق، ومن بعيد لون مائل إلى البياض.. بياض القطن، وتتهادى هذه اللوحة على صفحة النيل الشاحبة؛ والجبال يتأرجح لونها بين الرمادي والوردي وفقًا لضوء النهار.. ها هي مصر قاطبة»[2].

في إمكاننا ذكر النصوص العديدة[3]. نعم.. إنها فعلاً مصر.. قاطبة.. ولكن علينا إضافة الآتي، إنها مصر بنور خريفها وبثوبها الوردي والفضي الذي خلب كورو، والتي يفضلها فرومنتان عام ١٨٦٥ - تلميذه الحالي - عن أي مكان أخر.

مصر قاطبة.. أي مصر عبر العصور. فهي تتجلّى لنا بسماتها الخالدة من خلال الملاحظات السريعة التي يدوِّنها في دفتره. بدلاً من تناول الحدث المثير العابر الذي نلتقي به كثيرًا في كتابي «الصحراء» و«الساحل»، بات فرومنتان يفضل الرؤية الشمولية الفاحصة. وها هي الأسباب التي حافظت على صلاحية ما سجله، إذ إن انطباعات الرحلات سرعان ما تبلى، ولم تَنْجُ كتاباته عن الجزائر من هذه القاعدة. كما أن جزائر الاستعمار حلت محل جزائر الغزو. وكتب بيير مارتينو Pierre Martino أصبحت جزائر أرستقراطية وعسكرية، تجتمع فيها مواكب القادة العرب وضباط فرنسا المنشغلون بهيئاتهم وبملابسهم وعلى بعد الوطنيون الأوباش ولم يعد هناك مستعمرون[4]. اليوم قضت الهجمة المتوسطية على هذه التوليفة الزخرفية وتم استبدال السيارات وعربات النقل، بعربجية لويس برتراند ولم يعد لكتاب «سنة على الساحل» - بخلاف قيمته الأدبية

(١) المصدر السابق ص ٢٨٠
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٢ و ٣٠٣
(٣) انظر ص ٢٦٣ و٢٦٦ و٢٦٧ و٢٧٠ و٢٧٣ و٢٧٤ و٢٧٩ و٢٨٠ و٣٠٣ و٣٠٧.
(4) Le centenaire de Fromentin, Revue africaine, 1921, p. 9

- سوى فائدة تاريخية. إلا أن الأمر يختلف تمامًا بالنسبة لمصر، هذه البلاد التي ليس بها طرق والتي لا يزال النيل هو طريق المواصلات الوحيد بها والتي لم يطرأ على ريفها أي تغيير منذ أربعة آلاف سنة. يبدو أن كتابي «الصحراء» و«الساحل» قد ذهبا في طي النسيان؛ فهما يمثلان - بأحداثهما العرضية المثيرة - مرحلة انقضت واختفت إثر التغيير الكامل الذي شهدته أفريقيا الشمالية. وعلى العكس، لا تلتقط مدونات فرومنتان من مصر سوى سماتها الأصيلة، تلك السمات التي ظلت راسخة، مثال شكل الأهرامات وقمة المقطم. وإذا كانت المدن - مثل الإسكندرية والقاهرة وبورسعيد والسويس - قد تغيرت ملامحها فإن قرى الفلاحين على ضفاف النيل ظلت على حالها، متمسكة ببيوتها الطينية بهديل أبراج الحمام وبالمآذن الجيرية البيضاء وبطرقاتها المؤدية إلى النيل وبحوافه المتهالكة وبحقول القصب وبأنين تروس سواقيها وبرجالها السمر أمام الشادوف.. ونراها تعكس اليوم على صفحة النيل الصورة ذاتها التي كانت تعكسها بالأمس.

أدرك فرومنتان أنه قد لمس سمة أصيلة وراسخة تمس أوتار حسه الكلاسيكي. وكانت هناك كلمة رددتها ريشته دومًا وهي: التعريب، ونرى أن الكاتب يبسط يد العون إلى الرسام ويحدد له مهمته وواجبه في المستقبل. وفي أسوان ولدى خروجه من حوانيت الشوارع المؤدية إلى النيل، دوّن قائلاً: «نشعر بعبق الجوار وبغرائبه.. وبالرائحة. وحان رسم اللوحة المكتوبة وتفاصيل المدن المتاخمة للصحراء. وها هي المحطات الكبرى، قنا وأسيوط وإسنا وأسوان وطيبة، التي سنلخصها كلاً على حدة. مصر قاطبة هنا، بجميع سماتها، التي تشاركها فيها كافة البلاد الأفريقية، أو تلك الخاصة بوادي النيل»[١]. وبعد يومين، في الثامن من نوفمبر وفي طريق العودة وقبل التوقف في جرجا.. يعود إلى الحديث ذاته، «عليّ حسن الوصف وتيسير فهم سمات هذه المدن الساحلية الصغيرة التي نراها أثناء إبحارنا على النيل، من شواطئ وَعِرة وبيوت متلاصقة تحوطها الخضرة، ولونها الموحد القاتم وسكانها المتكدسين المتزاحمين في الطرقات»[٢]. ونرى ذات الاهتمام في العاشر من نوفمبر من أمام أخميم.[٣]

(١) جونس - مصدر سبق صكره ص ٣٠١

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٦

(٣) المصدر السابق ص ٣٠٨

إن ما يستحوذ على فكره هو ذلك الاختلاف القائم بين «أفريقيا الأخرى» وتلك التي يراها أمام عينيه. الاختلاف؟ ماذا أقول! التقارب.. أو بعبارة أدق.. العلاقة. فليس عليَّ إلا أن أخطو بضع خطوات وراء ركام معبد إدفو، من ناحية الصحراء لأجد «الصحراء». «بلاد هزيلة في طريقها إلى الفناء في حين أن مصر متأججة خصبة. وعلينا ملاحظة هذه السمات كلما تراءت وإلقاء الضوء عليها. وما لم يتأثر بفيض النهر.. يظل صحراوياً، وكل ما يصل النهر إليه ويخصبه.. يصير مختلفاً»[1].

هكذا يفكر الشخص الكلاسيكي، وهذا هو أسلوب حديثه. وكتب في نهاية مذكراته «أرغب في وصف الأشياء التي أراها وصفًا بسيطًا واضحًا حقيقيًا، وإثارة الأحاسيس بذكر الأشياء التي حركت مشاعري وبالمرور سريعاً على ما لم يترك لدي أي انطباع.. وبالتالي الالتزام بالدقة»[2]. هذا لا يعني أنه غير قادر على الإمتاع، والدليل على ذلك أنه ليس هناك من يفوقه في عمق الإحساس بالجمال.. عندما يستحق الأمر. فهو يترك الأشياء تأتي إليه ولا يفرض نفسه عليها ولا يستحثها ولا يرتبها مما يسهل عليه كتابة النصوص البارعة؛ وفي اللحظة التي تهتز أوتار أحاسيسه فيها كفنان، تنساب العبارات بعفوية لتترجم ما يختلج في نفسه بأسلوب لا يقارن. ويسهل علينا استخلاص مقتطفات من هذا الدفتر الذي كتبه فرومنتان دون تصنع وتلقائية، جالسًا على مقعد على الجسر. وها هو غروب على النيل يوم ٢٣ أكتوبر وقبل الوصول إلى ألمنيا. «لم تكن السماء – حتى فينوس – إلا ذهبًا ونارًا ومن خلفهما صفاء لا مثيل له، وصفحة النيل تعكس هذا التألق الإلهي بذات الصفاء وربما زادت عليه. ويزداد تألق الوميض الذي لا ينضب وعتمة الليل تزحف إليه وكأنهما يتصارعان في السماء. ها هي الأساطير والمقدسات الآسيوية والرعب الذي يثيره جوف الليل وحب الشمس ملكة العالم، والشجن الذي يوقظه أفولها في النفس، والأمل في رؤيتها تشرق من جديد في أسطورة حورس، والصراع الأبدي المتجدد يوميّاً لأوزوريس ضد تيفون.. كل ذلك يتراءى لنا أمام أعيننا. وانتصر الليل في نهاية الأمر، إلا أن الصراع كان طويلاً. وتحول الذهب وهو يخبو إلى نار ثم مال إلى اللون الأحمر ليصبح

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٨

(٢) المصدر السابق ص ٣٣١ نرى أنه يفكر في القارئ أي في الجمهور.

أرجوانياً داكنًا. وتقلصت الدائرة المتأججة لتنكمش بعد خمس وأربعين دقيقة وتلفها الظلمات ويصبح النهار ذكرى قديمة. أما الليل، الليل الحقيقي فقد كسا حتى الغرب نفسه، وعندما رفعت عيني اكتشفت أن فينوس لم تعد وحيدة، فقد سطعت النجوم.. ونرى قاربًا أو اثنين دون شراع - لأن الهواء كان قد سكن - يضربان المياه بالمجاديف، والطيور تحلق متباطئة على صفحة النيل»[1].

إلى جانب مثل هذه الصفحة المفعمة بالمشاعر، نجد اللوحات المائية الدقيقة التي تصف لنا جرجا وأبراج الحمام التي تلفها الأجنحة البيضاء والبنفسجية[2]، واللوحات الخاصة بزيارة مقابر المماليك[3]. وهناك أيضًا اللوحات الحية الواقعية الخاصة بزيارة قرية الروضة[4] وبورتريه ولي حاو[5] ووصف عوالم قنا[6] ومحاربو إدفو[7]. ونجد معظم هذه اللوحات الصغيرة - ولكن بصورة مكتملة - في رواية «الفلاح» لإدموند آبو وفي كتاب شارل بلان[8]، إلا أن أسلوب فرومنتان به من الإيقاع والحيوية ما يفوق وصفًا يقوم به روائي أو ذكريات أكاديمية يسترجعها ناقد فني.

كتب هذا الأخير يقول «جاء فرومنتان إلى هنا بصفته رسامًا حتى ولو عزم على عدم الإمساك بريشته إلا في مخيلته»[9]. وعلينا ألا نتوقف عند المظاهر، إذ إن هذا الرجل ذا الحجم الصغير والصحة المعتلة الذي يرهقه السفر، شبه المصاب دومًا بالإنفلوانزا والمحموم الذي كان دائم الحنين إلى الوطن.. هذا الرجل كان يرسم ألوانه بالفعل على دفتره ووفقًا لكلمة لويس جونس، كان هذا هو أسلوبه في تدوين «أجمل ما عبر به رسام على الإطلاق»[10].

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٢-٢٧٣

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٦-٣٠٧

(٣) المصدر السابق ص ٣٢٤-٣٢٥

(٤) أمام أونينوبوليس على النيل، المصدر السابق ص ٢٧٦

(٥) بالقرب من نجع حمادي، المصدر السابق ص ٢٨٨ وص ٣٠٤، يجب إجراء المقارنة مع وادي التل الكبير الذي سبق أن وصفه رينان.

(٦) المصدر السابق ص ٢٩٠ وص ٣٠٣

(٧) المصدر السابق ص ٢٩٦ - نفس الملحوظة.

(8) Voyage de la Haute Egypte, p. 117-118, 136, 2466

(٩) المصدر السابق ص ٨

(١٠) جونس - مصدر سبق ذكره ص ٨

ما ينقص كتاباته عن مصر هو «العنصر البشري» كما كان يشعر ويعترف به. ومما لا شك فيه أن تواضعه يثير حنقه وهو يكتب «لقد سمعت كل ما كان يقال في مدن مصر دون أن أعي منه شيئاً[١]»، ونلمس من خلال كتاباته تقديرًا عادلاً دقيقًا للشعب المصري[٢]. إلا أن رحلته القصيرة واعتلال صحته لم يتيحا له فرصة التعمق في الحياة المصرية. وإذا كان قد أجاد الوصف في كتاب «الصحراء» وخاصة «الساحل» فذلك لأن إقامته طالت هناك. ولم يدرك أحد أكثر منه ولم يشعر أحد أكثر منه بحدود التجربة المصرية.

III

لا يحدثنا فرومنتان فقط عن نفسه ولا عن البلاد ولكن أيضًا عن الاحتفالات الفخمة التي أقامتها مصر الخديوية ودعت إليها أوروبا المعاصرة، وتتسم شهادته بالإيجاز والعفوية والصدق. ولا نجد بها أية ترتيبات مُسبقة ولا أساليب بروتوكولية. وهذا الدفتر ليس سوى مفكرة ذات قيمة كتبها مؤرخ احتفالات السويس.

إلا أنه لسوء الحظ لم يكتمل. فقد حال الإعياء والتعب والإصابة بالحمى دون الاهتمام بهذه اليوميات التي يوجد بها نقص واضح في ما يتعلق بالزيارة الأولى له في القاهرة (١٦-٢١ أكتوبر) وبرحلته إلى الأقصر (٣٠-٣١ أكتوبر). وبالنسبة لاحتفالات السويس، لا نجد وصفًا لليوم الأول وهو ١٦ نوفمبر. وفي الواقع توقفت قافلة فرومنتان - بعد عودته من الصعيد - في الإسكندرية بدلاً من بورسعيد حيث كان الافتتاح الرسمي لعبور السفن الأوروبية للقناة. ولم تتوافر الأماكن في قطار العودة، فاضطر ثمانية منهم إلى السير على الأقدام بمحاذاة خط السكة الحديد، وهم شارل بلان والرسامان فرومنتان وبرشير وتورنمين وعالم الفيزياء الميدا والصحفيون لمبير دي لاكروا ودي لالو وفلوريون فرعون.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣١

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٤

كان القطار يعج بالشركس وبالنساء والعجائز والمعاقين والمكفوفين، مكدسًا بالمراتب القطنية والأغطية والأواني، قطار مُثقل لا يستطيع السير قطع المسافة إلى الإسماعيلية في أكثر من اثنتي عشرة ساعة، عن طريق كفر الزيات والزقازيق. وأثناء ذلك وعلى ساحل بورسعيد حيث توحد الصليب والهلال، كانت الترانيم المسيحية وابتهالات المسلمين تصعد إلى سماء مصر. وفي حضور الخديوي وكبار المدعوين، كان مستر باور يتأمل «الطريق العظيم للأمم» ويدوي في أنحاء العالم الأربعة باسم فرديناند دي ليسبس العظيم.

إلا أنه في صباح اليوم التالي تعقدت الجباه في الإسماعيلية وكتب فرومنتان يقول «سرَت أنباء مشئومة تقول إن المركب المصري «لطيف» قد جنح وعاق الملاحة، وبذل ثلاث مائة رجل جهودًا مضنية لسحبه إلى أحد جانبي القناة. وقضى الوالي ونوبار باشا ودي ليسبس ليلتهم في الموقع. ويقال إن الوالي هدد بإعدام بعض الضباط.. هل سيتمكن «ليجل»[١] من السير؟ إذا كانت الإجابة نعم.. ستُفتح القناة؛ وإن كانت لا، هذه هي البَليّة...»[٢].

أخيرًا، في نهاية الظهيرة، نجح فرومنتان ورفاقه في الوصول إلى الشاليه المخصص للوالي. وكان مركزًا مثالياً لرصد الأحداث في ذات الموقع الذي تصب فيه القناة الشمالية في بحيرة التمساح. «جمهور غفير، سلاح المدفعية، وحدات من الرماحين المصريين على أهبة الاستعداد على الساحل؛ في الرابعة تقترب ثلاث سفن مغطاة بالأعلام من قناة السويس وتلقي بالمرساة في البحيرة. مرحى! صلحت القناة الجنوبية للملاحة. في الخامسة والنصف رأينا دخانًا خفيفًا وأعلى أحد الصواري من وراء الحافتين الرمليتين لقناة الشمال. وكان الصاري الكبير للسفينة التي لم تظهر بعد يرفع العلم الإمبراطوري لفرنسا. إنها «ليجل». وتمر أمامنا ببطء وبحذر.. احتياطات تزيد من توتر اللحظة.. وتصل أخيرًا إلى البحيرة. وتطلق المدافع طلقات التحية ويرتفع تصفيق الجمهور الغفير.. إنها حقّاً لحظة بديعة. ووقفت الإمبراطورة أعلى السفينة تلوّح بمنديلها وإلى جانبها مسيو دي

---

(١) يخت الإمبراطورة.

(٢) جونس - مصدر سبق ذكره - ص ٣١٢

ليسبس، ونسيت مصافحته أمام هذا الحشد الهائل الذي غلبته مشاعره والذي أتى من كافة أنحاء أوروبا. لقد انتهت المشكلة.. وتم إنقاذ الشركة»[١].

منذ هذه اللحظة وطوال يومين والأفراح لا تنتهي.. طلقات نارية، صخب، رقص، دراويش، مآدب عشاء، حفلات.. وأيضًا هرج ومرج وأوامر متضاربة وذهاب وإياب وجلبة لا أول لها ولا آخر. أمتعة تُفقد ومجموعات تتفكك أوصالها وأصدقاء يتوهون «جمال وعير وعربات خيل إنجليزية وخيول عربية وخيول إنجليزية وخيالة وفرسان واستعراضات للجنود». ونرى الإمبراطورة في أبسط زينة وهي تنزل من على جمل مزركش ووراءها عربة ملكية يجرها ثمان من الجمال البيضاء؛ وإمبراطور النمسا مرتدياً قبعة زرقاء يمر أمام الخيام.. «وفي المساء يتلألأ المكان وتُطلق الألعاب النارية أمام قصر الوالي. وتنصب الموائد وتمتد في كل مكان ونرى خيامًا تسع موائدها الخمسمائة وأخرى المائتين أو الثلاثمائة، إلا أن مائدة قصر الوالي تظل أحسنها على الإطلاق. طعام من الخيال[٢]، نبيذ فخم، أسماك شهية، طيور، بط.. حوالي ثمانية آلاف شخص يُطعمون في قلب الصحراء. كيف يتم إنجاز هذا العمل وكيف تتم عملية الإمداد والتموين.. لا أحد يفهم. وها نحن نعيش أحداث رواية ألف ليلة وليلة، وسط الرمال والحصير على الرمال والرمال تصل حتى الأسِرّة. خليط خيالي من التبذير والبذخ ومن الفاقة التي لا تخطر على بال»[٣].

هذا هو ما يسترعي انتباه فرومنتان الذي يذكره لاحقًا « هذان العنصران اللذان يكوّنان مصر المخملية.. من فائض وأبهة وتبذير إلى فاقة.. لن يتجليا مطلقًا بمثل هذه الصورة غير المسبوقة. ولم يسبق أن رتب لنا القدر ولا النشوة التي تتملكنا منذ أربعين يومًا مثل هذه المفاجآت. هذه هي النقطة الحقيقية الواجب إدراكها من هذه الرحلة العجيبة التي تشبه الحلم. نحن نعيش في إطار المستحيل إلا أن كل شيء يتحقق. نخطط ويفشل الأمر. ونفترق وننتظر ونقول «من يدري؟ إن شاء الله وأحيانًا نُحسن التصرف بطريقة أو بأخرى»[٤].

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٣

(٢) انظر قائمة الطعام في الملحق الثاني.

(٣) جونس - مصدر سبق ذكره - ص ٣١٣

(٤) المصدر السابق ص ٣١٦

انتهى الأمر بإيمان الرحالة بالقضاء والقدر. وترك الشرق بصماته عليه ولم يعد السأم ولا العصبية يظهران فيما بين سطور مدوناته. فللآخرين الشكوى والضجر! وعلى الرغم من العقبات التي كان من المستحيل تجنبها إلا أنه ما كان ليغيب عن هذه الأحداث[١]. فمع الوفي برشير ولمبير دي لاكروا والمحامي كليري، نجح في الوصول إلى السويس في فلوكة. «عصبة صغيرة على وفاق شديد وأنا منهم – كما كتب إلى زوجته – نجحت في الوصول مباشرة من الإسماعيلية إلى السويس في المساء نفسه على إحدى مراكب الخدمة، كما واتتها الفرصة التي لم يحصل عليها كثيرون، في أن يتم استقبالها على متن سفينة كبيرة من سفن النقل الخاصة بالإمبراطورية»[٢]. في يوم ٢٠ نوفمبر تمكن من حضور ختام ليالي الاحتفالات. دوّت طلقات السفن الحربية الراسية وهتفت البحارة من أعلى السفن وعلت صيحات الحشود على الضفة.. وفي موكب دولي من سبع عشرة باخرة تعلوها الأعلام صحبها من بورسعيد.. وصلت «ليجل» إلى البحر الأحمر.

بعد خمسة أيام، أخبر فرومنتان زوجته عن عودته في الوقت الذي كان فيه برشير يمد فترة إقامته في مصر، كتب يقول «بالنسبة لي لم يعد هناك ما يبقيني إذ إنني لم أبدأ ما يجب عليّ إنهاؤه.. فلا علبة ألوان.. ولا شيء. وبما أنني لم أستخدم قلمي – إلا للكتابة – فليس هناك ما يدعوني للإبقاء عليه. لقد رأيت من مصر ومن القاهرة كل ما يمكنني رؤيته خلال رحلة خاطفة. وأنا على يقين من أنني عرفت كل ما يمكن معرفته من الظاهر؛ وأعتقد أنني استنتجت كثيرًا وتجاوبت بعمق كثيرًا»[٣].

IV

لم يقرر قط تأليف الكتاب الذي كنا ننتظره منه. وكيف يمكنه ذلك؟ فبحلول عام ١٨٧٠، تكالبت عليه الهموم والأشجان والأحزان وأصاب المرض زوجته وأمه وسقطت الحكومة. عندما استأنف العمل أخذ يرسم ويتفلسف، واتجه نحو الرسم واستخلاص

(1) Correspondance et fragments inédits, p. 236

(٢) رسالة إلى زوجته في ٢١ نوفمبر Correspondance et fragments inédits

(3) Correspondance et fragments inédits, p. 236-237

الجمال. «لقد قررت عدم الحديث - كما كتب في ١٨٧٤ - عن كل الرحلات التي قمت بها. سأتحدث عن الأماكن الجديدة كما سبق أن تحدثت عن القديمة. لكن ما الفائدة؟ وما أهمية تغير المناظر إذا لم يتغير أسلوب الرؤية وطريقة الإحساس»(١). لقد خيل إلينا أنه يخشى رتابة الانطباعية الوصفية. هل كان يخشى، وهو القلِق دومًا والحريص على التجديد، من تكرار نفسه؟ لقد رأى أن الوقت قد حان لترك عالم الألوان الزاهر والتصدي علنية لعالم الأفكار والنظريات وعرض مذهبه. ووفقًا لما ذكره لويس جونس، فبعد تحليل الظواهر الخلابة في كتاب «الصحراء» وبعد تحليل الظواهر الأخلاقية في كتاب «دومينيك»، سيأتي تحليل الظواهر الجمالية في كتاب «سادة الماضي»(٢). إن قصص الرحلات تركت الساحة إلى النقد الفني أو بالأحرى لقد طغى النقد الجمالي على الأدب الوصفي.

مع ذلك رأينا أن ذكريات رحلته كانت تطفو دائمًا في مخيلته «مصر.. مصر، كما أسرّ إلى إدموند دي جونجور خلال مأدبة عشاء لدى بريبان في مارس ١٨٧٥، إني أتعذب من فكرة كتابة عدة صفحات عن هذا البلد. أرض وحلة.. سماء زرقاء حانية.. ليس هناك سوى الشرق المشرق.. لا نكاد نرى أشرعة السفن التي تزداد كثافتها كلما بعدت.. الرجال الطيبون من ذوي البشرة السمراء.. يندر تمامًا رؤية اللون الأحمر.. ويا له من لون جميل ذلك الذي يتراءى لنا من ملابس القطن الزرقاء»(٣).

دومًا الملاحظات ذاتها والتواضع والدقة والنزعة التقليدية؛ ويتوقف الحس الجمالي لدى فرومنتان ليتأكد في مصر ويطلب في مصر تأكيد نظرياته. إلى متى سنظل نأسف على عدم إنهائه يومياته! بما أنه لم يتمكن من تأليف روايته الثانية، كان من المتوقع أن يستكمل - بعد كتابيه «الصحراء» و«الساحل» - الرؤية الثالثة للسمات الأفريقية. ووافته المنية بعد ذلك بعام واحد (٢٧ أغسطس ١٨٧٦) فأسقطت ريشة الكتابة من يده. من يدري ربما كان في نيته قبل وفاته استئناف مدوناته ولكنه لم يفعل ليضغط على العملية الانتخابية في الأكاديمية الفرنسية التي فضلت عليه شارل بلان(٤).

---

(1) Préface à la 3r édition d'Un été au Sahara. 1874. p. XXII

(٢) جونس - مصدر سبق ذكره - ص ١٧٤

(3) Correspondance et fragments inédits p. 238-239.

(٤) نشر شارل بلان غداة وفاة فرومنتان مقالاً ظالماً نابياً عنه في le Moniteur universel في ٥ سبتمبر ١٨٧٦ - انظر في ما سبق ص ٣٢٠

أيجب أن نضيف ما كتبه فرومنتان - حتى ولو لم يكتمل - يظل يفوق أعمال غريمه ورفيق طريقه السابق؟ فالرسم غاية في النقاء وغاية في الوضوح، والألوان لا مثيل لزهوها ولا مثيل لدرجاتها.. ولم يبق إلا القليل لتكوين عمل جميل حول انطباعات الرحلة. وتترجم هذه المدوّنات - السريعة التلقائية - أسلوبه الأخّاذ. إلا أن رؤيته كرسام كانت تدفعه دومًا إلى تنقية أفكاره وتضخيمها وتنميتها وإلى إثراء مفرداته؛ وخير دليل هو هذه الصفحات الدقيقة النابضة، الرائعة القوية.. التي نرى فيها مزيجًا من وضوح السمة وحيوية الرسم ومن التناغم الضبابي للرسوم المائية. إن أسلوبه في وصف الألوان غير مسبوق في وضوحه وكثافته وجماله ونغماته.. فها هي مياه النيل أحيانًا «طينية»، «فاتحة مثل الشيكولاتة[١]» وأحيانًا «رمادية مثل القصدير المنصهر[٢]» وأحيانًا «مزيج من الحمرة الداكنة والزرقة» وأحيانًا «فضية مائلة إلى الأخضر[٣]؛ ربما كان الضوء «متنافرًا[٤]» والخضرة «صارخة[٥]» والأزرق «كاذبًا[٦]» والأرض «صماء» و«شاحبة»[٧]... ونراه مالكًا لأدواته تمامًا وهو يصول ويجول بين درجات الألوان.. من الأصفر الكبريتي إلى الباهت، ويتوهج النسيج بين أصابعه من البنفسجي إلى الرمادي المائل إلى الزرقة إلى البنفسجي الفاتح وأخيرًا إلى الوردي. وفي كل لحظة نلتقي بتعبيرات مثل «ينحسر ويتلاشى» التي تترجم حبه للألوان المعتدلة وانشغاله بالتناغم. إن هذه المفكرة تفرض نفسها اليوم على الساحة الأدبية بما تحويه من دقة مبهرة للكلمات ولتنوع ألوانها ولوضوح قيمها. وبعيدًا عن قيمتها كسيرة ذاتية وكمرجع تاريخي، تظل مثالاً لجمال أسلوب الكتابة الفرنسي.. وهذا هو السبب الذي دفعني إلى إخراجها من طي النسيان.

****

(١) جونس - مصدر سبق ذكره ص ٢٦٦
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٧
(٣) المصدر السابق ص ٢٧١
(٤) المصدر السابق ص ٢٧٦
(٥) المصدر السابق ص ٢٩٧
(٦) المصدر السابق ص ٢٨٨
(٧) سأنشر لاحقاً لدى Editions des - uvres representatives (Paris) في مجموعة Ailleurs النص الكامل لكتاب فرومنتان Voyage en Egypte وسأزوده بخريطة ورسومات وملحوظات.

الخاتمة

بفضل رجلين من أمثال تيوفيل جوتييه وفرومنتان يتحد كل من الطاقة والعلم الفرنسيين. في يوم ١٧ نوفمبر ١٨٦٩، في الوقت الذي بدأت فيه سبعون سفينة مزينة بالأعلام أول إبحار لها من الجسر، كانت فرقة الكوميدي فرانسيز تعرض مسرحية غنائية لهنري دي بونييه احتفالاً بافتتاح القناة. ولكن ما هي القصيدة الفرنسية التي تتحدث عن مصر والتي يمكن أن تفوق التلغراف المختصر البليغ الذي أرسله دي ليسبس إلى الإمبراطور نابليون الثالث يخبره فيه بوصول السفينة «ليجل» إلى مرسى السويس؟ وها هي كتب عديدة كانت قد تحدثت عن هذا المشروع وأعلنت عنه قد طواها النسيان بعد وصول هذه البرقية .

لدى وصول هذا النبأ إلى فرنسا التي كانت تنتظره بفارغ الصبر، اهتزت له فخرًا.. لأنه أعاد لها ثقتها. وكيف لا تنتشي وهي التي ساندت – تقريبًا بمفردها – الرجل الذي حباها القدر به والذي تمكن من تعديل طبيعة الأرض وأنجز هذا العمل العملاق الذي يهدف إلى إحلال السلام والتوافق في العالم؟ هذا الإحساس المتناقض بالإيمان وبالنشوة في آن واحد، لن يتمكن أحد من التعبير عنه أكثر من كاتبنا المتطير المولع بالفنون – الذي ألفنا تخميناته وسخريته أكثر من أسلوب عمله والذي خلف دي ليسبس تحت القبة، الأنيق المتطور كاتب «تاييس». «هذا المجرى الجديد الذي فُتح أمام السفن – كما ذكر أناتول فرانس – يصل ٣٠٠ مليون أوروبي بـ ٧٠٠ مليون آسيوي. إن البحر الذي عايشت ضفافه أجمل وأروع ما صنعه الإنسان، البحر الذي تاه فيه البطل أوليس لمدة عشر سنوات، البحر الذي حمل سفن موسى الممتلئة بالكنوز ومراكب الإغريق المنتصرة وسفن الرومان الكئيبة وبواخر الصليبيين وسفينة سانت لويس الشراعية الكبيرة والسفن الشراعية الحربية لأهل البندقية وبيزا وجنوة .. هذا البحر الأبيض المتوسط المهجور الذي زالت أمجاده ومفاخره التاريخية بعد أن اكتشف فاسكو دي جاما طريق رأس الرجاء الصالح..

هذا البحر يشهد الآن فجأة أساطيل السفن البخارية تحمل أثمن بضائع أوروبا وآسيا وتُفتح مداخل ثغوره على مصراعيها ليصل مداها الى محيطات الهند واليابان والصين».[1]

وارتفعت مكانة فرنسا، وأحيت هذه الشركة العظيمة على ضفاف النيل نوعًا من الانتعاش حتى خيل إلينا لفترة أن عصر الصحوة لمحمد علي قد عاد من جديد. وظهرت أولى الصحف الناطقة بالفرنسية في القاهرة والإسكندرية في الفترة ما بين ١٨٦٦ و١٨٧٠[2]. وتوثقت أواصر العلاقات الفكرية بين فرنسا ومصر، وزادت السياحة واندمجت أعمال الكتّاب الفرنسيين في مصر في مجمل أعمال الحضارة الفرنسية في الشرق.

وصل مراد هذا العمل إلى غايته، إذ كان يهدف إلى إعادة إحياء ذكرى الرحالة الذين ساهموا في اكتشاف مصر القديمة وفي وصف نهضة مصر القديمة. تم إنجاز الهدف.. وكان الطريق طويلاً وأحيانًا مملاً، إذ كان علينا التوغل في الماضي البعيد، وما كان أمامنا خيار آخر. إن الكتّاب يتضامنون مع الرحالة، فاكتشاف بلد ما يسبق الأعمال الأدبية التي تتناوله ويهيئ القُرّاء لها. وحتى نتمكن من القيام بدراسة مثمرة لأعمال لرجال مثل: شاتوبريان وجيرار دي نرڤال وجان جاك أمبير وزافيه مارمه وفلوبير ومكسيم دي كوم .. ألم يكن من الضروري التعرف مسبقًا على رحالة العهد الأسبق وعلماء حملة بونابرت؟ وللحكم على القيمة التاريخية «لقصة المومياء»، ألم يكن علينا مواجهة شامبليون وبريس دافين؟

هذه الأسباب هى التي تفسر تعقيدات هذه الدراسة الطويلة ذات السمات المتباينة. طوال القرون الثلاثة للاحتلال التركي لمصر، كان الرحالة الذين صحبناهم من المكتشفين والمبعوثين والأثريين ومن رجال العلم؛ ثم طوال العقود الثلاثة التالية كانوا من رجال الأدب والفنانين. وكان دافع الفريق الأول هو الرغبة في المعرفة: فلم يكن يعنيهم سوى الاكتشاف والإبداع. وكانت أفكارهم تتجه إلى العلم والتقدم، سمة القرن الثامن عشر التي تبلورت من خلال إصدار الموسوعة الفرنسية والأعمال المنهجية الدؤوبة لفولني والدراسة العظيمة التي

---

(1) Discours de réception à l'Académie française, 24 décembre 1896.

(2) L'Egypte, Le Nil, L'isthme de Suez.

والجريدة الأخيرة كانت تصدرها شركة القناة في باريس.

قامت بها حملة بونابرت، وحتى من خلال المغامرة الرسولية للسان سيمونيّين. أما الفريق الثاني فقد شد الرحال غداة ظهور الرومانسية بغية الإحساس وليس المعرفة. وبالنسبة لرجل مثل جيرار دي نرڤال أو فلوبير، لم تكن معرفة مصر هي الهدف وإنما كان التسرية الشخصية. ففي الشرق نجد عالِماً مثل جان جاك أمبير يكتشف في نفسه شاعرًا، وشخصًا قلقًا مثل فرومنتان يرى أسلوبه يفيض بالنزعة التقليدية. وبالتالي كان من الطبيعي أن تتغلب الدراسة النفسية والأدبية - في هذا الجزء الثاني - على اللوحات التاريخية. إلا أننا احترمنا التاريخ سواء كان أدبياً أم لا. وعلى سبيل المثال، عندما تناولنا السلسلة التي تبدأ من فولني حتى فرومنتان لم نغفل أياً من حلقاتها. إن الأحداث الأساسية والرجال والكتب البارزة تجمعت حول نقاط مختلفة، ولكننا استعرضنا كل شيء ووضعناه في مكانه ومحيطه وعصره. وهذا هو الذي حال دون استمراري في الكتابة عن أحداث ما بعد عام ١٨٧٠ . ومثلما سبق أن ذكرت في الديباجة، أصبحت مصر في هذه الفترة فريسة للسياحة الأوروبية، ولم يعد هناك رحالة وإنما رحلات فقط وجماعية في معظم الأحيان. وكيف يتسنى لنا بعد ذلك تصنيف الآراء المتعددة وترتيبها؟ وكيف نتعرف على طريق وهو مكتظ صاخب؟ وعلى الشخص الذي يرغب في مواصلة هذا العمل اللجوء الى وسيلة أخرى ألا وهي الانفراد بما في داخله، من ميول للكاتب الرحالة، وذلك في شرفة فندق شبرد، والانكفاء على ذاته واستخلاص البورتريهات المنفردة الواضحة المعالم من جلبة القوافل ووكالات السفر؛ ومحاولة التوصل من خلالها إلى لويس مينار[1] وأناتول فرانس ولوتي ودي فوجي وباريس وبرتراند .. دون محاولة التقريب في ما بينهم أو بينهم وبين الواقع المعاصر، أي باختصار تبديل البانوراما بسلسلة من النماذج الفردية. وهنا يكسب علم النفس والأدب ما يخسره التاريخ ويعلو الفنان على النموذج، وتصبح مصر كاشفًا فوتوجرافياً وتساهم في التعرف على الإنسان والكاتب.

أنعني بهذا أنه لم يتبق شيء يضاف إلى الفكر الفرنسي؟ لا ! إلا أنه صعُب علينا - تحديدًا بعد انتشار حضارتنا على ضفاف النيل - دراسة جميع الرواد؛ إذ لم تعد

---

(١) على الرغم من ان لويس مينار زار مصر قبل عام ١٨٧٠ (انظر ما سبق صـ٣٠ ملحوظة ٣)، إلا انه ينتمي في الواقع إلى الحقبة التالية. ظهر كتاب Les Réveries d'un païen mystique عام ١٨٧٦. ووفقاً لما كتبه في رسائله إلى امه (٢٤ و٢٩ ديسمبر ١٨٦٨ و٥ يناير ١٨٦٩) فقد زار القاهرة والصعيد على مضض، إلا انه تذكر بعد ذلك ما كان قد شاهده من مناظر الطبيعة المصرية وذكره في عملين من اجمل اعماله La légende de Saint-Hilarien و .Le voile d'Isis وعلى صعيد آخر يضم كتاب Thaïs لأناتول فرانس اكثر من إشارة إلى كتابه Polythéisme hellénique وعلينا ايضًا الإشارة إلى كتاب L'Egypte للويس مينار وذلك في إطار الشعر البرناسي إلى جانب الرؤية السكندرية لأناتول فرانس.

الغابة تتيح الفرصة للتمييز بين أنواع الأشجار المختلفة، كما أن الفرنسيين المقيمين في القاهرة يحجبون الزائرين العابرين؛ وهناك اقتراح لدراسة تأثير العلوم والثقافة الفرنسية على هذه المنطقة. وبعد التدخل العسكري في عام ١٨٨٢، تولت إنجلترا - كما نعلم - إعادة تنظيم البلاد. وكان من الطبيعي أن تهتم بإعداد الكوادر المصرية القادرة على التعامل مع القادة الإنجليز، وتراجعت اللغة الفرنسية في البرامج الرسمية. إلا أن المصريين المتمسكين بنظامنا التعليمي التحقوا بمدارسنا الحرة، ورأى الإخوة أصحاب مدارس الفرير المسيحية، الذين كانوا أربعة عندما وصلوا إلى مصر عام ١٨٤٧، الانتشار السريع لمدارسهم في الإسكندرية والقاهرة. وفتحت مجموعة الجزويت في عام ١٨٧٩ مدرسة العائلة المقدسة، ولن نبالغ إذا قلنا إن أكثر الشخصيات الهامة في مصر اليوم قد تلقت تعليمها في إحدى هذه المدارس. ونأتي إلى آخر من وصل وهي البعثة العلمانية التي وصلت في عام ١٩٠٨ والتي نجحت هي الأخرى واستطاعت عن طريق مدارس الليسيه الرائعة أن تصل بالتعليم الثانوي إلى المقام الأول. وعلى الرغم من البساط الذي تم سحبه من تحت أرجلنا في مجال التعليم الحكومي، إلا أن لغتنا ظلت الأداة الأساسية للعلاقات الثقافية في مصر. وظل قدرُها لحسن الحظ مرتبطًا بإنجازات العلوم الفرنسية في البلاد.

هذه الإنجازات لا نعرفها بالقدر الكافي في بلادنا. فبعد ماربيت تولت فرق العلماء الفرنسيين بمفردها تقريبًا - بتشجيع من ماسبيرو مدير هيئة الآثار - ولمدة عشرين عامًا، من ١٨٨٠ إلى ١٩٠٠، عمليات التنقيب في مصر. وكوّن المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، الذي صدر مرسوم بإنشائه عام ١٨٨١ بناء على تقرير قدمه رينان[1]، كوّن بالفعل أجيالاً من علماء المصريات الذين تشرف جامعتنا بجهودهم وبأعمالهم. ولا تزال مدرسة الحقوق الفرنسية التي تأسست عام ١٨٩١ مزدهرة منذ أربعين عامًا. هل نندهش بعد ذلك إذا ما تنسمنا في هواء مصر نسيم فرنسا وأريج عطورها. فها هي الإنجازات العلمية ومنشورات معهد الآثار والمتحف العربي وهيئة الآثار والشركة الملكية للجغرافيا وغيرها من الأعمال التي تبرهن على صدق التعاون الفرنسي. ويسافر المحاضرون الفرنسيون إلى مصر لأنهم على يقين من وجود الجمهور كما أن لكتابنا فيها مريدين وقراء كثيرين. ويحتل الأدب الفرنسي مكانة متميزة، وتباع أحدث الإصدارات في مكتبات القاهرة والإسكندرية بالقدر الذي تباع فيه في ليون ومارسيليا ويتخاطف القراء أحدث أعداد صحيفة جونكور.

---

(١) انظر ما سبق ص. ٢٤٦ ملحوظة رقم ١

والآن ينتابني الحزن وأنا أقترب من الصفحة الأخيرة لهذا الكتاب، فقد حانت ساعة الوداع. خلال السنوات الثلاثة التي قضيتها في مصر لم أفتقد الرفقاء، فيومياً ومن أعماق الماضي كانوا يطلون عليّ حاملين رسوماتهم وخرائطهم ومذكراتهم. وكم من مرة في أديار الأقباط المنتشرة في الصحراء وفي معابد الصعيد وفي أزقة خان الخليلي وحارات حي الخليفة .. أطل عليّ فيها طيفهم الشارد ! رهبان تابعون لبعثة القاهرة، نبلاء وقناصل، تجار آثار بالقفطان الطويل والعمة الملفوفة، علماء من حملة بونابرت بقبعة الجوخ الكبيرة والبدلة الخضراء، سان سيمونيون من ذوي الشعر الأشعث واللحى بزيهم البنفسجي .. وأنت يا جيرار رأيتك مفزوعًا وغريب الأطوار بسروالك القطني الأزرق والصديري الأحمر المطرز والمعطف الجملي اللون .. لقد رأيتكم جميعًا على حافة أحلامي تمرون أمامي مثلما تمر الأشباح.

لقد تعرضتم لكل شيء، البعض تعرض للعواصف وللقراصنة، والبعض الآخر عانى من الحرب والبدو والحمى، وآخرون واجهوا الطاعون، والكثير عاش في بؤس، والجميع قاسى من الوحدة المميتة في الصحراء ووطأة رياح الجنوب .. تعرضتم لكل شيء حتى تصلوا وتشاهدوا الوجه ذا الأنف المجدوع والابتسامة الغامضة لأبي الهول. وفي معظم الأحيان وفي لحظات التعب، شأنكم شأن فلوبير، رجع بكم الفكر وحنّ إلى ما وراء مياه النيل المتدفقة الغزيرة «بالقرب من نهر عذب هادئ، نرى بيتاً أبيض اللون ذا نوافذ مغلقة». إلا أنكم على الرغم من الشمس الحارقة والعواصف الرملية، تحليتم بالصبر وأنجزتم مهماتكم وجبتم الأطلال ورفعتم مقاييس المعابد ونقلتم الرسومات وحفرتم القنوات. وتوغلتم - على ضوء مصابيح الجيب - في متاهات الممرات المحفورة داخل الجبال، وكدستم الرسومات وسجلتم بريشة الرسم أفول أشعة الغروب على الساحل الوردي الليبي. وبعد العودة إلى وطنكم ذي السماء الملبدة بالغيوم وخلال ليالي الشتاء، وأنتم تسترجعون مدوّناتكم ودفاتركم .. كنتم تسمعون النداء الحار لضوء مصر.

لقد لبيتم هذا النداء وكتبتم ذكرياتكم لصالح العلم أو لتشريف الآداب الفرنسية. أيها المؤرخون الكبار والصغار، لقد تعلمتم الكثير من التاريخ ومن أمور الحياة.. كيف لا أوجه لكم الشكر وكيف لي وداعكم دون الشعور بالحسرة؟

****

المحتوى

الباب الأول: الرحالة الأدباء بعد عصر الرومانسية

الباب الثاني : مصر ملهمة تيوفيل جوتييه

الباب الثالث : حفر برزخ السويس

****